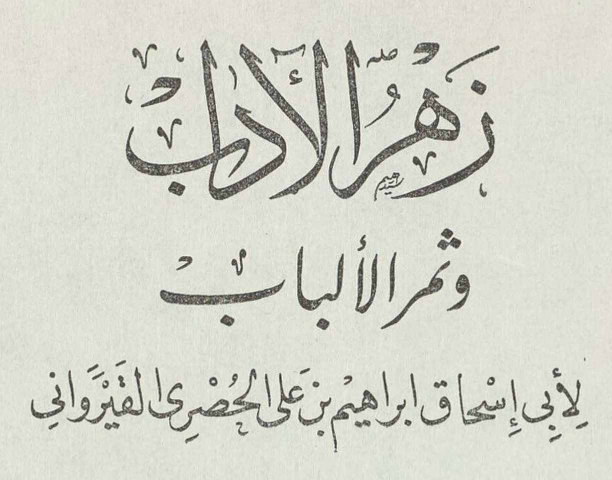


لأبي إسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني

الجزء الأول

عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه
وشرحه ووضع فهارسه
علي محمد البجاوي

الطبعة الأولى
[١٣٧٢ﻫ — ١٩٥٣م]

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

زهر الآداب

وثمر الألباب

لأبي إسحاق إبراهيم بن على الحُصْري القَيْرَواني

الجزء الأول

عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه
وشرحه ووضع فهارسه
على محمد البجاوى

الطبعة الأولى
[١٣٧٢ه — ١٩٥٣م]

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وبيان

كتاب « زهر الآداب » من أمهات كتب الأدب ؛ ويشبه فى طريقته «الأمالى» لأبى على القالى ، و « البيان والتبيين » للجاحظ ؛ فؤلفه يرسل القول إرسالا ، ويُتْبِع الملحة بالطُّرفَة ، والقصيدة بالرسالة ، وينتقل من جدّ إلى فكاهة ؛ ويستدرج قارئه من حديث إلى حديث ؛ ويتخلّل كل ذلك وقفات نقدية تدل على ذوق رفيع وأدب أصيل .

وقد طُبع هذا الكتاب مراتٍ على هامش « العقد الفريد » ؛ ثم طُبع منفصلا بإشراف المرحوم الدكتور زكى مبارك ، وكانت الطبعات الأولى غير مضبوطة ، فضلا عن أنها غير مستقلة . أما الطبعة الأخيرة فكانت مستقلة[1] ، ولكن المشرفَ عليها لم يرجِعْ إلى أصلٍ من أصول الكتاب الخطية ؛ بل إنه لم يرجِعْ إلى دواوين الشعراء ، وكتب الأدب ؛ فكثرت لذلك فيها الأغاليط .

وقد زاد على ذلك أنه ملأ صفحات الكتاب بعنوانات ضخمة ليست من الكتاب ، أخلَّت بنظام عقده ، وبعثرت حبات درّه ، وأضلَّت القارىء ؛ إذ خلطت بين أصول الكتاب وغيرها .

على أن هذه الطبعات كلها كانت ناقصة ؛ وقد أكملنا الكتاب فى هذه الطبعة من النسختين المغربيتين اللتين سنتحدث عنهما فيما بعد . ويكفى أن يعرف القارىء أن الكتاب كان مبتوراً من آخره ، وأن هذا النقص قد بلغ ست صفحات متوالية فى بعض المواضع ، وأربعاً متوالية فى بعضها الآخر . هذا إلى فقرات كاملة ، وعبارات مكمّلة ، وغير ذلك مما يُرَى بين قوسين فى ثنايا الكتاب .

وقد رجعنا فى تحقيق هذه الطبعة إلى أربع نسخ خطية ؛ وجدناها ـ بعد البحث

---

(١) رمزنا إليها بالحرف (ط) .

الطويل ـ بدار الكتب ، وقد كانت هذه النسخ ـ بضبطها وتحقيقها ـ خير معين لنا على إخراج الكتاب على هذه الصورة التي يراها القراء .

وهذا بيان تلك النسخ :

(١) نسخة خطية برقم ٥٤٩٩ أدب ، بدار الكتب ، وقد كتبت بخط النسخ الجميل ، وضبطت بالشكل التام ، وعدد أوراقها ٣٨٠ ورقة ، وعليها تمليك غير واضح . وليس بهذه النسخة ما يدل على تاريخ كتابتها ، وهي تبدأ من أول الكتاب ، وتنتهي بالبيت الآتي :

فأجزي بالكرامة أهل ودي وأجزي بالضغائن أهل ضري[1]

وقد كتبت في آخرها العبارة الآتية :

كمل السفر الأول من زهر الآداب وثمر الألباب على يد الفقير إلى الله تعالى امبر وابن الشجاع بن المحتاج الحصني ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . والحمد لله رب العالمين . ثم العبارة الآتية : طالعه عبد المجيد بك نافع سنة ١٢٧٩ هـ .

وقد رمزنا إليها بالحرف (س)

(٢) نسخة خطية برقم ٥٥٠٠ أدب ، بدار الكتب ، وعدد أوراقها ١٥٩ ورقة ، وخطها مغربي دقيق ، وقد كتبت هذه النسخة في سنة ٦٢٨ هـ . وتكاد تتصل بالأولى[2] ، وتنتهي بانتهاء الكتاب ، وقد كتب على صفحتها الأولى والأخيرة كلمة « وقف » . وقد أفادتنا هذه النسخة كثيراً ، ووجدنا بها زيادات ذات بال .

وقد رمزنا إليها بالحرف (ا) .

(٣) نسخة خطية برقم ٤١٦ أدب تيمور ، بدار الكتب ، وعدد صفحاتها ٩٨ صفحة . وقد كتبت بخط النسخ ، مع ضبط بعض الكلمات . وابتدأت من أول الكتاب ، وانتهت بالعبارة الآتية : وأتى الغاضري يوماً الحسن بن زيد فقال :

---

(١) صفحة ٥٥٩ من هذه الطبعة . (٢) تبدأ في صفحة ٥٦٤ من هذه الطبعة .

جعلت فداك ، إنى عصيت الله ورسوله . قال : بئس ما صنعت . وكيف ذاك ؟ قال : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1] .

وقد رمزنا إليها بالحرف (ت)

(٤) نسخة خطية برقم ٤٦ م ، وأولها : ما يتعلق[2] بالبخلاء واحتجاجهم وحكمهم . وتنتهى بآخر الكتاب ، وهى مخطوطة بقلم مغربى ، وقد كتبت فى سنة ٥٣٤ هـ ، وتتفق مع النسخة المغربية السابقة فيما اشتملت عليه من زيادات .

وهى أقدم النسخ المخطوطة التى عثرنا عليها .

ولم نقتصر فى التحقيق على هذه النسخ الخطيّة ؛ بل إننا رجعنا إلى الطبعة الأميرية لهذا الكتاب[3] ، وإلى معجمات اللغة ، وكتب الأدب ، ودواوين الشعراء ، ورجعنا فى كل بيت إلى ديوان قائله ، وفى كل نص أدبى إلى كلام صاحبه فى الكتب الأدبية المختلفة ، وحرصنا على أن نشرك معنا القارىء فى هذا العمل الأدبى ، فأشرنا فى هامش الكتاب إلى الصفحات التى رجعنا إليها من تلك الكتب والدواوين .

وفى آخر الكتاب فهرس بهذه الكتب التى اعتمدنا عليها فى التحقيق .

وكانت طريقتنا فى المعارضة أن نثبت من الروايات ما نرجّحه ، ثم نثبت فى هامش الكتاب الروايات الأخرى .

وقد حاولنا أن نقيم للكتاب معالم ؛ فوضعنا له عناوين عامة ، ثم عناوين جانبية تفصّل تلك العناوين العامة ، وتساعد القارىء على الفهم والبحث ومتابعة المؤلف .

ولكى نميز هذه العنوانات من عناوين الكتاب الأصلية وضعناها بين قوسين ليعرف كل من يطلع على الكتاب أنها ليست من أصوله .

ثم وضعنا للكتاب فهارس الموضوعات ، وللأعلام ، وللقوافى والشعراء ، وللكتب والمراجع .

---

(١) صفحة ١٦١ من هذه الطبعة .

(٢) صفحة ٨٣٢ من هذه الطبعة .

(٣) وقد رمزنا إليها بالحرف (ق) .

وبما تقدم نستطيع أن نقول : إن هذه أول طبعة أخرجت كاملة للكتاب محقّقة مضبوطة ، مشتملة على الفهارس التى لا يستغنى عنها باحث أو أديب .

وقبل أن نختم هذه الكلمة ينبغى أن نشير إلى ما يأتى :

١ — مؤلف هذا الكتاب هو أبو إسحاق إبراهيم بن على بن تميم المعروف بالحُصْرى القيروانى .

وقد ذكر صاحب وفيات الأعيان أن له ديوان شعر ، وكتاب زهر الآداب وثمر الألباب ، وكتاب المصون فى سر الهوى المكنون .

ثم قال : وكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، ورأس عندهم ، وشرف لديهم ، وسارت تآليفه ، وانثالت عليه الصلات . وبعد أن أورد شيئاً من شعره قال : وقد توفى سنة ٤١٣ ﻫ . وقال ابن بسام: بلغنى أنه توفى سنة ٤٥٣ ﻫ .

٢ — أن لمؤلف هذا الكتاب كتابا آخر ، اسمه « جمع الجواهر فى الملح والنوادر » ، طبع باسم آخر هو « ذيل زهر الآداب » ولناشره تعليل لهذه التسمية لا نقره عليها ؛ لأنه كتاب مستقل للمؤلف .

ونرجو أن يوفقنا الله لإخراجه محققاً فى القريب إن شاء الله .

٣ — أننا أخرجنا هذا الكتاب فى جزأين مع أن المؤلف جمله فى ثلاثة أجزاء ، كما جاء فى كشف الظنون : ١ — ٤٥٨ إذ قال : « زهر الآداب وثمر الألباب فى ثلاثة أجزاء جمع فيه كل غريب ... » لأن التقسيم لا يؤثر فى منهج الكتاب أو الفائدة منه .

٤ — أن هذا الكتاب قد اختصره الإمام أبو الحسن على بن محمد بن على بن برى ، وفى دار الكتب نسخة من هذا المختصر فى مجلد بقلم مغربى جميل مكتوبة عن نسخة بخط المؤلف المختصر ، ورقمها ١٤٠٩٤ أدب ، واسم هذا المختصر : « اقتطاف الزهر واجتناء الثمر » .

٥ — أننا عثرنا ـ بعد إتمام العمل فى هذا الكتاب ـ على جزء منه مخطوط بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، يبدأ من « فقر من كلام المتصوفة[1] » . وعدد أوراقه ١٨٠ ورقة ، وهو منقول من « أيا صوفيا » ، وعلمنا أنه أحدث عهداً من النسختين المغربيتين اللتين رجعنا إليهما .

وبالأمانة العامة عمل دائب لتنظيم المخطوطات والفهارس من شأنه أن يؤخر إمدادنا بهذه النسخة ، ونأمل أن نعود إليها إذا قُدِّر لنا أن نعيد طبع هذا الكتاب .

ونرجو أن نكون قد وفقنا فى إخراج الكتاب على ما يرضى الأدب والأدباء . وأن ينفع الله به بقدر ما بذلنا فيه من جهد .

إنه نعم الموفق والمعين ؟

فبراير سنة ١٩٥٣ م　　　　　　على محمد البجاوى

(١) صفحة ٨١٠ من هذه الطبعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى اختصَّ الإنسانَ بفضيلةِ البيانِ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين[1]، المرسلِ بالنور المبين ، والكتابِ المستبين ، الذى تحـدَّى الخلْقَ أن يَأْتُوا بمثله ، فعجزوا عنه ، وأقرّوا بفَضْلِه ، وعلى آله وسلم تسليما كثيراً .

وبعد ، فهذا كتابٌ اخترتُ فيه قطعةً كافيةً من البلاغات ؛ فى الشعر ، والخبر، والفصول ، والفِقَر ، مما حسُن لفظُه ومعناه، واستُدِلّ بفَحْوَاه على مَغْزَاه[2]، ولم يكن شارداً حُوشِيًّا ، ولا ساقطاً سُوقيًّا ؛ بل كان جميعُ مافيه ؛ من ألفاظه ومعانيه ، كما قال البحترى[3] :

فى نظامٍ من البلاغةِ ما شَـ ـكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ نِظَامُ فَرِيدِ
حُزْنَ مستعملَ الكلامِ اختياراً وتجنّبْنَ ظُلْمَةَ التعقيـدِ
وركبنَ اللفظَ القريب فأدركْـ ـنَ به غايةَ المرادِ البَعِيـدِ

ولم أَذهب فى هـــذا الاختيار إلى مطوّلات الأخبار ، كأحاديث صَعْصَعَة بن صُوحان[4] ، وخالد بن صفوان[5] ، ونظائرها ؛ إذ كانت هذه أجمل لفظا ، وأسهل حفظا .

وهو كتابٌ يتصرَّف الناظرُ فيــه من نثره إلى شعره ، ومطبوعه إلى مصنوعه ، ومحاورته إلى مفاخرته ، ومُنَاقَلَتِه إلى مُسَاجَلَتِه[6] ، وخطابه المبهت[7] إلى جوابه المُسْكِت ، وتشبيهاته المُصيبة إلى اختراعاته الغريبة ؛ وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة، وجِدِّه المعجب إلى هَزْلِه المُطْرِب ، وجَزْلِه الرائع إلى رقيقه البارع .

---

(١) فى ت أنبيائه . (٢) فحوى الـكلام : معناه . ومغزاه : مقصده .

(٣) ديوانه ٢ ــ ١٩٥ . (٤) كان خطيباً بليغاً ، له مع معاوية مواقف .

(٥) من فصحاء العرب المشهورين له أخبار مع عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك .

(٦) المناقلة : أن تحدثه ويحدثك . والمساجلة : المباراة والمفاخرة . (٧) المبهت : المحير .

وقد نزعتُ فيما جمعت عن ترتيب البيوت ، وعن إبعاد الشكل عن شكله ، وإفراد الشيء من مِثْله ؛ فجعلتُ بعضه مُسَلْسَلا ، وتركتُ بعضَه مُرْسَلا ؛ ليحصلَ محرَّرَ[(١)] النَّقْد ، مقدَّرَ السَّرْد ؛ وقد أَخذ بطرَفى التأليف ، واشتمل على حاشِيَتَى التصنيف ؛ وقد يعِزُّ المعنى[(٢)] فأُلْحق الشَّكْلَ بنظائره ، وأعلّق الأول بآخره ، وتبقى منه بقية أفرّقها[(٣)] فى سائره؛ ليسْلَمَ من التطويل المملّ، والتقصير المخلّ ، وتظهر فى التجميع[(٤)] إفادة الاجتماع ؛ وفى التفريق لذاذة الإمتاع[(٥)] ؛ فيكمل منه مايُونِق القلوبَ والأسماع[(٦)] ؛ إذ كان الخروجُ من جدٍّ إلى هزل ، ومن حَزْن إلى سَهْل أَنْفَى للكَلَل ، وأَبعد من الملل ؛ وقد قال إسماعيل بن القاسم [هو أبو العتاهية][(٧)] :

لايصلِحُ النفسَ إذ كانت مدابرةً[(٨)] … إلا التنقّلُ من حالٍ إلى حالِ

وكان السببُ الذى دعانى إلى تأليفه ونَدَبنى إلى تصنيفه ما رأيته من رغبة أبى الفضل العباس بن سليمان ــ أطال الله مُدّته وأدام نعمته ــ فى الأدب ، وإنفاقِ عمره فى الطلب وماله فى الكتب ؛ وأن اجتهادَه فى ذلك حمله على أن ارتحل إلى المشرق بسببها ، وأَغمَض فى طلبها[(٩)] ، باذِلًا فى ذلك مالَه ، مستعذباً فيه تعبَه ، إلى أن أَورد من كلامِ بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائفَ طريفة ، وغرائب غريبة ، وسألنى أَنْ أَجْمَع له من مُخْتارها كتاباً يكْتَفِى به عن جملتها ، وأُضيفَ إلى ذلك من كلام المتقدّمين ما قاربَه وقارنَه ، وشابَهه وماثَله ؛ فسارعتُ إلى مراده ، وأَعَنْتهُ على اجتهاده ، وأَلَّفتُ له هذا الكتاب ، ليستغنىَ به عن جميع كتبِ الآداب ؛ إذ كان موشّحا من بدائع البديع ، ولآلىء الميكالى ، وشهىّ الخوارزمى ، وغرائب الصّاحب ، ونفيس قَابُوس ، وشذور أبى منصور[(١٠)] بكلامٍ يمتزجُ بأجزاء النفس لطافة ، وبالهواء رِقَّة ، وبالماء عذوبة .

---

(١) فى ت : مجرد . (٢) فى ت : يعن . (٣) فى ط : أصرفها .
(٤) فى ت : الجميع . (٥) فى ت : الاستمتاع . (٦) يونق : يعجب .
(٧) من ت . (٨) فى ت: مصرفة . والمدابرة : غير المقبلة . (٩) أغمض فى الأمر : ذهب .
(١٠) كل هؤلاء من أعلام الأدب اختار المؤلف من نظمهم ونثرهم .

وليس لى فى تأليفه من الافتخار أكثرُ من حسْنِ الاختيـار ؛ واختيارُ المرء قطعةٌ من عقله تدلُّ على تخلُّفه أو فَضْلِه ؛ ولا شكّ — إن شاء الله — فى استجادة ما استجدت ، واستحسانِ ما أَوْرَدت ؛ إذ كان معلوما أنه ما انجذبت نفسٌ ، ولا اجتمع حسّ ، ولا مال سِر ، ولا جال فِكْر ، فى أفضـلَ مِن معنى لطيف ظهر فى لفظٍ شريف ؛ فكساه من حسن الموقع قبولا لا يُدفع ، وأبرزه يَخْتَالُ من صفاء السبك [ونقاء السّلك][1] وصحة الدّيباجة ، وكثرة المائية ، فى أجمل حُلة ، وأجل حِلية :

يستنبط الروحَ اللطيف نسيمهُ ... أَرَجًا ويؤكل بالضمير ويُشْرَبُ

وقد رغبتُ فى التجافى عن المشهور فى جميع المذكور ، من الأسلوبِ الذى ذهبتُ إليه ، والنحو الذى عوّلتُ عليـه ؛ لأن أوّل ما يقرع الآذان أَدْعى إلى الاستحسان مما مجَّتْه النفوسُ لطول تكراره ، ولفَظَتْه المقولُ لكثرة استمراره ؛ فوجدت ذلك يتعذَّر ولا يتيسّر ، ويمتنع ولا يتّسع ؛ ويُوجب ترك ماندَر إذا اشتهر؛ وهـذا يوجب فى التصنيف دَخَلا[2] ، ويكسب التأليف خَلَلا ؛ فلم أُعْرِض إلّا عما أَهانه الاستعمال ، وأَذَاله[3] الابتذال ؛ والمعنى إذا استدعى القلوبَ إلى حِفْظِه ما[4] ظهر من مُسْتَحْسَنِ لفظه ؛ من بَارِع عبارة ، وناصع استعارة ، وعذوبة موردِ ، وسهولة مَقْصِد ، وحسن تفصيل ، وإصابة تمثيل ؛ وتطابق أَنْحاء ، وتجانس أَجْزاء ، وتمـكُّن ترتيب ، ولطافة تهذيب ، مع صحَّة طبع ، وجودة إيضاح ، يثقفه تثقيفَ القِداح ، ويصوره أفضلَ تصوير ، ويقدّره أكْمَل تقـدير ؛ فهو مشرق فى جوانب السمع ، لا يُخلقه[5] عوده على المستعيد :

وهو المشيَّع بالمسامع إن مضى ... وهو المضاعف حُسْنُه إن كُرِّرا

---

(١) من ت . (٢) الدخل : العيب . (٣) أذاله : أهانه .
(٤) فى ت : بما ظهر . (٥) أخلقه : ذهب بجدته ورونقه .

وإن كنتُ قد استدركتُ على كثير ممن سبقنى إلى مثل ما جرَيْتُ إليه ، واقتصرت فى هذا الكتاب عليه ، لِمُلَحٍ أوردتُها كنَوَافثِ السحْرِ ؛ وفِقَرٍ نظمتها كالغِنَى بعد الفقر ، من ألفاظ أهلِ العصر ، فى محلول النثر ، ومعقود الشعر ؛ وفيهم من أدركتهُ بعُمْرى ، أو لحقه أَهْلُ دهرى ؛ ولهم من لطائف الابتداع وتوليدات الاختراع أبكارٌ لم تَفْتَرِعْها الأسماع ، يَصْبُو إليها القلبُ والطَّرْف ، ويقطر منها ماء المَلَاحة والظَّرفِ ، وتمتزجُ بأجزاءِ النفس ، وتسترجع نافِرَ الأُنس ، تخلّلَت تضاعيفَه ووشّحت تأليفه ، وطرّزت ديباجه ، ورصَّعت تاجه ، ونظَمت عقوده ، ورقمت بُرودَه ؛ فنوْرها يرفّ ، ونورها يشِفّ ، فى روضٍ من الكلم مُونِق ورَوْنَق من الحكم مشرِق :

صفا ونفى عنه القذَى فكأنهُ إذا ما استشفّته العيون مصعّد[1]

فهو كما قلت :

بديعُ نَثْرٍ رقّ حتَّى غدا يَجْرِى مع الرُّوح كما تجرى
من مُذهب الوَشْىِ على وجههِ ديباجة ليسَتْ مِنَ الشعر[2]
كزهرةِ الدنيا وقد أقبلت ترود[3] فى رَوْنَقِها النَّضْرِ
أو كالنسيم الغض غِبَّ الحَيَا[4] يَخْتَال فى أردية الفَجْرِ

ولعلّ فى كثير مما تركتُ ماهو أجودُ من قليل مما أدركت ؛ إذ كان اقتصاراً من كلٍّ على بَعْض ، ومن فَيْضٍ على بَرْض[5] ؛ ولكنى اجتهدتُ فى اختيار ماوجدتُ ؛ وقد تدخلُ اللفظةُ فى شفاعة اللفظات ، ويمرُّ البيت فى خِلَال[6] الأبيات ، وتعرض الحكايةُ فى عرض الحكايات ، يتمُّ بها المعنى المراد ؛ وليست مما يُسْتَجاد ،

---

(١) فى ط : تصعدا . (٢) وشى مذهب : مطرز بالذهب .
(٣) ترود : تختال ، وفى ت : تروق . (٤) غب : عقب . الحيا : المطر .
(٥) البرض : القليل . (٦) فى ت : خلل .

ويبعث عليها فَرْط الضرورة إليها [فى إصلاح خَلَل][1] ؛ فمهما تره من ذلك فى هذا الاختيار فلا تُعرِضْ عنه بطَرْفِ الإنكار ؛ وما أقلّ ذلك فى جميع المسالك الجارية فى هذا الكتاب ، الموسوم بزَهْرِ الآداب وثمر الألباب ؛ لكنى أردت أَن أُشاركَ من يخرج من ضيق الاغترار إلى فسحة الاعتذار :

ويسىء بالإحسان ظنًّا لا كمن ... يأْتيك وهو بشِعْرِه مَفْتُونُ

والله المؤيد والمسدّد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

[فضل البيان]

الزبرقان وابن الأهتم عند رسول الله

روى عن عبد الله بن عبّاس رضوان الله عليهما ، قال[2] : وَفَد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزِّبْرِقَانُ بن بَدْر وعَمْرو بن الأهتم ؛ فقال الزبرقان : يا رسولَ الله! أنا سيدُ تميم ، والمطاعُ فيهم ، والمجابُ منهم ، آخذُ لهم بحقهم ، وأَمنعهم من الظلم ؛ وهذا يعلم ذلك — يعنى عَمْرا .

فقال عَمْرو : أَجَلْ يا رسولَ الله ؛ إنه مانعٌ لِحَوْزَته[3] ، مُطَاعٌ فى عشيرته ، شديد العَارِضة فيهم[4] .

فقال الزبرقان : أَما إِنه والله قد علم أَكثرَ مما قال ؛ ولكنه حسدنى شَرفى !

فقال عمرو : أما لئن قال ماقال ؛ فوالله ماعلمته إلا ضَيّق العَطَن[5] ، زَمِرَ المروءة[6] ، أَحمق الأب ، لئيم الخال ، حديث الغِنَى .

فرأى الكراهة فى وَجْه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا اختلفَ قولُه ؛ فقال : يارسول الله ؛ رضيتُ فقلتُ أَحسنَ ماعلمت ، وغضبتُ فقلت أَقْبَحَ ماعلمت ، وما كذبت فى الأُولى ، ولقد صَدَقْتُ فى الثانية !

---

(١) ليست فى ت . (٢) البيان والتبيين : ١ — ٣١ ، العقد الفريد : ١ — ١١٧ ، ومجمع الأمثال : ١ — ٥ . (٣) حوزة الرجل : ما يحوزه ويملكه .

(٤) العارضة : قوة الكلام . (٥) ضيق العطن كناية عن البخل .

(٦) زمر المروءة ، أى قليل المروءة . وفى ط : زمن ، وهذا من ت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لسحرا ، وإنّ من الشعر لحِكْمَة . ويروى لَحُكما[1] ؛ والأول أَصح[2] . والذى روى أهل الثَّبَت[3] ، من هذا الحديث أَنَّه قَدِم رجلان من أَهْل المشرق نخطبا ؛ فعجِب الناسُ لبيانهما ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لسِحْرا ، أو إن من بعض البيان لسحرا .

وعَمْرو بن الأهتم هو عَمْرو بن سِنَان بن سُمَىّ [بن سِنَان بن خالد][4] بن مِنْقَر ابن عُبيد بن الحارث[5] ، والحارث هو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . وسُمّى سِنان الأهتم ؛ لأَنّ قيس بن عاصم المِنقرى سيدَ أهلِ الوبر ضربه بقوسه فهتَم فاه . هذا قول أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة[6] . وقال غيره : بل هتم فُوه يوم الكُلَاب الثانى ، وهو يومٌ كان لبنى تميم على أهل اليمن . وكان عمرو يلقب المكحَّل لجماله ، وبنو الأهتم أهلُ بيتِ بلاغةٍ فى الجاهلية والإسلام . وعبد الله ابن عمرو بن الأهتم هو جدّ خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة . وكان يقال : الخطابة فى آلِ عَمْرو ، وكان شعره حُلَلًا منشّرَة عند الملوك تأخذُ منه ما شاءت . وهو[7] القائل :

ذرينى فإن البخلَ يا أمّ مالكٍ[8] ... لصالحِ أَخلاقِ الرجالِ سَرُوقُ
لعمركِ ما ضاقت بلادٌ بأهلها ... ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ

والزبرقان اسمه حُصَين[9] بن بَدْر بن امرئ القيس [بن الحارث][4] بن بهدلة بن عوف ابن كعب بن سعيد[10] . وسمى الزّبرقان لجماله ؛ والزبرقان : القمر [قبل تمامه][11] ،

(١) النهاية لابن الأثير : ١ — ٢٤٦ ، والحكم : العلم والفقه والقضاء بالعدل .
(٢) قال فى النهاية : ويروى لحكمة وهى بمعنى الحكم . (٣) الثبت ، بفتح الباء وتسكن : الحجة العدل الضابط . (٤) ليس فى ت . (٥) فى ت : عبيد الحارث بن مقاعس.
(٦) الشعر والشعراء : ٦١٤ . (٧) عمرو بن الأهتم — الشعر والشعراء ٦١٥ ، والمفضليات : ١٢٣ . (٨) فى المفضليات : ياأم هيثم. (٩) فى ط : حصن (١٠) فى ت : سعد .
(١١) من ت .

وقيل : لأنّه كان يُزَبْرِقُ عمامتَه ، أى يصفّرها فى الحرب . وكانوا يسمّون الكلام الغريب السِّحرَ الحلال، ويقولون : اللفظ الجميل من إحدى النَّفَثات[١] فى العُقَد .

غلام يفحم عمر بن عبدالعزيز

وذكر بعضُ الرُّواة[٢] أنه لما استخلِف عمرُ بنُ عبد العزيز رضى الله عنه قدِم عليه وفودُ أهلِ كل بلد ؛ فتقدم إليه وفدُ أهلِ الحجاز فاشرَأبَّ[٣] منهم غلامٌ للكلام، فقال عمر : يا غلام ؛ ليتكلَّمْ مَنْ هو أَسَنّ منك ! فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ! إنما المرء بأَصْغَرَيْهِ قلبِه ولسانه ، فإذا منَح اللهُ عبدَه لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد أجاد له الاختيار ؛ ولو أَن الأُمور بالسنّ لكان هاهنا مَنْ هو أحقّ بمجلسك منك .

فقال عمر : صدقت ، تكلم فهذا السحر الحلال ! فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهنئة لَا وفد الْمَرْزِئَة[٤] ، ولم تقدمْنا إليك رغبةٌ ولا رهبة ؛ لأنّا قد أمِنّا فى أيامك ما خِفنا ، وأدركنا ما طلبنا !

فسأل عمر عَنْ سِنّ الغلام ، فقيل : عشر سنين .

وقد روى أن محمد بن كعب القرظى كان حاضراً فنظر إلى وَجْه عمر قد تهلّل عند ثَناء الغلام عليه ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ لا يغلبَنَّ جهلُ القوم بك معرفتَك بنفسك ؛ فإنّ قوماً خدعهم الثناء ، وغرّهم الشكر ؛ فزلّت أقدامُهم، فهوَوْا فى النار . أعاذكَ الله أن تكون منهم ، وألحقك بسالِفِ هذه الأمة ؛ فبكى عمر حتى خِيفَ عليه، وقال : اللهم لا تخلنا من واعظ !

وقد رُوى أن عمرَ قال للغلام : عِظْنى ، فقال هذا الكلام ، وفيه زيادة يسيرة ونقص .

أخذقولَ عمر : «هذا السحر الحلال» أبو تمام فقال يعاتب أباسعيد محمد بن يوسف الطائى[٥] :

---

(١) فى ت : النفاثات . (٢) مروج الذهب : ٢ — ١٦٩ . (٣) اشرأب : تطلع .

(٤) المرزئة : طلب العطاء ، أى لسنا وافدين للعطاء . (٥) ديوانه : ٤٠٦ .

إذا ما الحاجـةُ انبعَثَتْ يدَاهَا ... جَعلْتَ المَنْعَ منكَ لهـا عِقَالاَ
فأين قصائدٌ لى فيكَ تَأبى[1] ... وتأنفُ أَنْ أُهَانَ وأَنْ أُذَالا
هى السِّحرُ الحـلالُ لمُجْتَلِيه[2] ... ولم أَرَ قبلها سِحْراً حَلَالا

رسـالة لابن العميد

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب وردَ إليه [فأحمده][3] :

وصـل ما وصلْتنى به ، جعلنى الله فداك ، من كتابك ، بل نعمتك التامة ، ومنّتك العامة ؛ فقرَّتْ عينى بوروده ؛ وشُفِيَتْ نفسى بوفوده ، ونَشَرْتُه فحـكَى نسيمَ الرياض غِبَّ المطر ، وتنفُّسَ الأنوارِ فى السَّحَر ، وتأمَّلْتُ مُفْتَتَحه ، وما اشتمل عليه من لطائف كَلِمك ، وبدائع حِكَمك ؛ فوجـدته قد تحمَّـل من فنون البرّ عنك ، وضروب الفَضْلِ منك جِدًّا وهزلا ، ملأَ عينى ، وعَمَرَ قلبى ، وغلب فِـكْرِى ، وبَهَرَ لُبِّى؛ فبقيتُ لا أَدرى: أسُمُوط دُرّ خَصَصْتَنِى بها، أم عقود جوهر مَنَحْتَنِيها؟ كما لا أدرى أبكراً زَفَفْتَها فيه ، أم روضةً جهزتَها منه ؛ ولا أدرى أخدوداً ضُرِّجت حياءً ضُمّنته ؛ أم نجوما طلعت عِشاءً أودعته ؛ ولا أدرى أَجِدُّك أبلغ وأَلطف ، أم هَزْلك أَرفع وأَظرف ؛ وأنا أُوَكِّلُ بتتبعِ ماانطوى عليه نَفْسًا لا ترى الحظَّ إلا ما اقْتَنَتْهُ منه ، ولاتَعُدُّ الفضل إلاّ فيما أخذَتْه عنه ، وأُمَتِّع بتأمّله عينا لا تقرُّ إلاّ بمثله، مما يَصْدُر عن يَدِك ، ويَرِدُ من عندك ، وأُعْطِيه نظراً لا يملّه ، وطَرْفا لا يطرِف دونه ، وأَجعله مِثالاً أَرْتَسمه وأَحْتَذِيه ، وأمتِّع خُلقى برَوْنَقِه ، وأُغذِّى نفسى ببَهْجَتِه ، وأَمْزِجُ قريحتى برقَّتِه ، وأَشْرَحُ صَدْرِى بقراءته ؛ ولئن كنتُ عن تحصيل ما قلتَه عاجزا ، وفى تعديد ماذكرتَه متخلِّفًا ، لقد عرفت أنه ما سمعتُ به من السِّحْرِ الحلال .

---

(١) فى الديوان : تأتى . (٢) فى ت : من السحر الحلال لمجتنيه . (٣) من ت .

وقال بعض المحدثين يمدح كاتباً :

وإذا جرى قلمٌ له فى مُهْرَقٍ ... عَجْلانَ فى رَفَلانه ووجيفِهِ [(١)]

نظمت مراشفُه قلائدَ نُظِّمَتْ [(٢)] ... بنَفِيسِ جَوْهَرِ لفظه وشريفِهِ

بِدْعاً من السِّحْرِ الحلال تولَّدتْ ... عن ذهن مصقول الذَّكاء مَشُوفه [(٣)]

مَثَلاً لضاربهِ وزادَ مُسَافرٍ ... جُعِلت وتحفةَ [(٤)] قادمٍ لأليفهِ

وعلى ذكر قوله: « وتُحْفَةَ قادم » قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : وصف رجلٌ رجلا فقال : كان والله سَمْحاً [(٥)] سَهْلا ، كأنما بينه وبين القلوب نَسَبٌ ، أو بينه وبين الحياةِ سبَبٌ ، إنما هو عيادة مريض ، وتُحْفَة قادم ، وواسطة عِقْد [(٦)] .

وأخذ بعض بنى العباس رجلا طالبيًّا فهمَّ بعقوبته ، فقال الطالبى : واللهِ لولا أَنْ أُفسد دينى بفساد دنياك لملكت من لسانى أكْثَر مما ملكتَ من سَوْطك ، والله إنَّ كلامى لَفَوْقَ الشعر ، ودون السِّحْر ، وإن أيسره لَيَثْقُبُ الْخَرْدَل [(٧)] ، ويحطّ الجَنْدَل .

حسن الحديث.

وقال على بن العباس يصف حديث امرأة [(٨)] :

وحديثُها السِّحْرُ الحلالُ لو انه ... لم يَجْنِ قتلَ المسلم المتحرِّزِ

إن طال لم يُمْلَلْ وإنْ هى أَوْجَزَتْ ... وَدَّ المحدَّثُ أنَّها لم تُوجِز

شَرَكُ العقول ونزهة ما مِثْلُها ... للمطمئن وعُقْلَة المستوفِز [(٩)]

ألمَّ فى بيته الآخر بقول الطائى [(١٠)] :

كَوَاعِبُ أَتْرَاب لغيداءَ أصبحتْ ... وليس لها فى الحسن شَكْلٌ ولا تِرْبُ [(١١)]

---

(١) المهرق : الصحيفة . رفل : تبختر أو خطر بيده . والوجيف : الاضطراب ، وضرب من سير الإبل . (٢) فى ت : فصلت . (٣) المشوف : المجلو . (٤) الطرفة .
(٥) فى ت : سحا . (٦) فى ت : قلادة . (٧) حب شجر .
(٨) ديوانه : ٤٠٩ ، والمختار من شعر بشار : ٤١ . (٩) فى الديوان : علقة ، واستوفز فى قعدته انتصب فيها غير مطمئن ، وعقلة : قيد . (١٠) ديوانه : ٣٠ .
(١١) الترب : من ولد معك ، أو الشبيه .

لهــا منظرٌ قَيْدُ النواظِرِ لم يزَلْ يرُوحُ ويغدو فى خَفَارَتِه الحُبُّ

وأول من استثار[١] هذا المعنى امرؤ القيس بن حُجر الـكندى فى قوله[٢] :

وقد اغتدِى والطيرُ فى وُكُناتِها بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابدِ هَيْكَلِ[٣]

وقالت عُلَيَّـة بنت المهدى :

اشرب على ذكرِ الغَزَال الْأَغيد الحـلو الدَّلال

اشرب عليــه وقلْ له يا غُلَّ أَلبــاب الرجالِ

وكانت علية لطيفةَ المعنى ، رقيقة الشعرِ ، حسنةَ مجارى الـكلام ، ولها الْحَانٌ حِسَانٌ ، وعَلِقت بغلام اسمه « رشأ » وفيه تقول[٤] :

أضحى الفؤاد بزينبا صبًّا كئيباً مُتْعَبا

فَجَعَلْتُ زَيْنبَ سترةً وكَتَمْتُ أمراً مُعْجبا

[قولها : بزينب تريد برشأ][٥] .

فنُمِىَ الأمر إلى أَخيها الرشيد فأبعده ، وقيـل قَتَله ، وعلقت بعده بغلام اسمه « طل » ، فقال لها الرشيد : والله لئن ذكرتِه لأقتلنّك ! فدخل عليهــا يوماً على حين غَفْلة وهى تقرأ : فإن لم يُصِبْها وابلٌ فما نهى عنـــه أميرُ المؤمنين ، فضحك وقال : ولا كلّ هذا . وهى القائلة[٤] :

يا عاذِلى قد كنتُ قبلَك عاذلًا حتى ابتُليتُ فصرت صبًّا ذاهلا

الحب أَول ما يكون مَجَانةً[٦] فإذا تحـكَّم صار شُغْلا شاغِلا

[أَرْضى فيغضب قَاتلى فتعجّبوا يرْضى القتيلُ ولا يُرضّى القاتلا][٧]

---

(١) فى ت : استشار . (٢) ديوانه : ٣٤ . (٣) الوكنات جمع وكنة : وهى العش ، والمنجرد : الفرس القصير الشعر ، والأوابد : الوحوش لأنها تعمر على الأبد، وقيد الأوابد : يسبقها فـكأنه قيدها ، والهيكل : الضخم . (٤) شاعرات العرب : ٢٣٥ . (٥) من ت .
(٦) فى ت : لجاجة . (٧) ليس فى ت .

وهى القائلة[١] :

وُضع الحبّ على الجوْر فلو أنصف المعشوق فيه لَسَمُجْ
[وقليلُ الحب صرفاً خالصاً لكَ خير من كثير قد مُزِجْ][٢]
ليس يُسْتَحْسَنُ فى نَعْتِ الهوى عاشق يُحْسِنُ تأليف الحُجَجْ

وكأنها ذهبت فى الأول إلى قول العباس بن الأحنف :

وأَحسن أيام الهوى يومُك الذى تُروَّع بالهِجران فيه وبالعَتْبِ
إذا لم يكن فى الحب سُخْطٌ ولا رِضاً فأين حَلاوَاتُ الرسائل والكُتْبِ

وقد زاد النميرى فى هذا فقال :

راحتى فى مقالة العُذَّال وشِفائى فى قِيلِهِمْ بَعْدَ قالِ[٣]
لا يَطيبُ الهوى ولا يَحسُنُ الحبُّ لصبٍّ[٤] إلّا بِخَمْس خِصال
بسماع الأذَى وعَذْل نصيحٍ وعِتابٍ وهِجْرةٍ وتَقالِ[٥]

وقال بعض المحدثين :

لولا اطّرادُ الصيد لم تَكُ لذةٌ فتطارَدِى لى فى الوصال قليلا
هذا الشراب أُخُوالحياةِ وما لَهُ من لذةٍ حتى يُصِيبَ غليلا[٦]

وقال آخر[٧] :

دَعِ الصبَّ يَصْلَى بالأذى[٨] من حبيبهِ فإنّ الأذى ممن تُحِبُّ سُرورُ
غُبارُ قَطِيعِ الشاءِ فى عيْنِ ذئبها إذا ما تلا آثارَهنّ ذَرُورُ[٩]

وأنشد الأصمعى [لجميل بن معمر العذرى][٢]:

لا خَيْرَ فى الحبِّ وقفاً لا تحرِّكهُ عوارضُ اليأسِ أَو يَرْتاحُه الطمعُ

---

(١) الصناعتين ٨٣ ، شاعرات العرب ٢٣٥ . (٢) من ت . (٣) فى ت : وشفائى فى سؤالهم عن حالى . (٤) فى ت : بخلق . (٥) التقالى : التباغض .
(٦) الغليل : الظمأ الشديد . (٧) المختار من شعر بشار : ٥٩ .
(٨) فى ت : بالهوى . (٩) الذرور : ما يذر فى العين .

لو كان لى صَبْرُها أو عندها جَزَعِى ... لـكنتُ أَمْلك ما آتِى وما أَدَعُ
إذا دعا باسْمِها داعٍ لِيحزننى ... كادت له شُعْبة من مُهْجَتى تقعُ
لا أَحمل اللومَ فيهــا والغرام بها ... لا حمَّـلَ اللهُ نفساً فوقَ ما تسعُ

وهذا البيت كقول على بن العباس الرومى (١) :

لا تُـكْثِرَنَّ ملامةَ العشاقِ ... فـكفاهُمُ بالوَجْـدِ والأشواقِ
إن البلاءَ يطاقُ غيرَ مُضاعَفٍ ... فإذا تضاعَفَ كان غيرَ مُطاقِ
لا تُطْفِئَنَّ جوًى بلَوْمٍ إنهُ ... كالريح تُغْرِى النـار بالإحراق

ويشبه بيت عليّة الآخـر بيت أنشد فى هذا (٢) بشعر رُوِى لأبى نواس ، ورواه قوم لعنان جارية الناطفى وهو :

حُـلو العتابِ يهيجُهُ الإدلالُ ... لم يَحْلُ إلا بالعتابِ وصالُ
لم يَهْوَ قطُّ ولم يُسَمَّ بعاشقٍ ... من كان يصرف وجهه التَّعْـذالُ (٣)
وجميعُ أسبابِ الغرام يسيرةٌ ... ما لم يكن غَـدْرٌ ولا استبدالُ
تصف القضيبَ على الـكثيب قناتُها ... ولها من البدر المنير مِثَالُ
ولربَّ لابسـةٍ قِناعَ مَلاحَةٍ ... حسناءَ سار بحسنها الأمثـالُ
كَسَتِ الحَدَاثةُ ظَرْفَها وجمالَها ... نُورًا فماءُ شبابها يَخْتَال
وكأنها والـكأسُ فوق بَنانِها ... شمسٌ يمُدُّ بهـا إليك هِلَالُ
حتى إذا ما استأنست بحديثها ... وتـكلمت بلسانها الجِرْيالُ (٤)
قلنا لها : إن صدَّقت أقوالَها ... أفعالُها وجرى بهنَّ الفَالُ
قولى فليس ترَاكِ عينُ نميمةٍ ... حضر النصيح وغابَتِ العُذَّال
وضميرُ ما اشتملَتْ عليه ضلوعُنا (٥) ... سِرٌّ لدى أبوابه أَقْفَال

---

(١) ديوانه : ٢٥٣ ، المختار من شعر بشار : ٨٩ . (٢) فى ت : فى أول .
(٣) التعذال : اللوم . (٤) الجريال : الخمر . (٥) فى ت : صدورنا .

وقد أخذ أبو الطيب المتنبي معنى « قيد الأوابد » فقال ـ يصف كلباً[١] :

نَيْلُ المُنى وحُكْمُ نَفْسِ المُرْسِلِ ... وعُقْلَةُ الظَّبْيِ وحَتْفُ المتفل[٢]

كأنّه من عِلْمِهِ بالمَقْتَلِ ... عَلَّمَ بُقْرَاطَ فصادَ الأَكْحَلِ[٣]

وقال فى بنى حمدان[٤] :

مُتَصَعْلِكِينَ على كَثَافَةِ مُلْكِهِمْ ... متواضِعِينَ على عَظِيمِ الشَّانِ[٥]

يَتَقَيَّلُونَ ظِلالَ كلِّ مُطَهَّمٍ ... أَجَلِ الظليم وربْقَةِ السِّرْحَانِ[٦]

وقال أعرابى يصف فرساً : إنه لدَرَكُ الطالب ، ومَنْجَى[٧] الهارِب ، وقَيْدُ الرِّهان ، وزين الفِناء .

وقال بعضُ أهل العصر فى وصفِ غلام : وجهُه قَيْدُ الأبصار ، وأَمَدُ الأفكار ، ونهاية الاعتبار .

وقال أبو القاسم إسماعيل بن عباد :

وقد أغتدى للصَّيْدِ غُدوةَ أَصْيَدٍ[٨] ... أُعاجِلُ فيها الوحشَ والوحشُ هُجَّدُ

فعنَّتْ[٩] ظِباءٌ خِفْنَ تحتِيَ مطلق الْ ... يدين به أَيْدى الوحُوش تُقَيَّدُ

فأدركتُها والسيفُ لَمْعَةُ بَارِقٍ ... ولم يُغْنِها إحْضَارها[١٠] حين تجهَدُ

وقد رُعْتُها إذ كانَ شعرىَ رائعاً ... وطَرْفُ مشيبى عن عِذَارِىَ أرمَدُ

وما بلَغَتْ حَـدَّ الثلاثين مُدتى ... وهذا طِراز[١١] الشيب فيه يُمَدَّد[١٢]

---

(١) ديوانه : ٣ ـ ٢٠٦ . (٢) فى الديوان وفى ت : التتفل . وعقلة الظبى : قيده ، والتتفل : ولد الظبى . أما المتقل فهى التى استبان حملها . (٣) بقراط : طبيب ، والأكحل : عرق فى اليد . (٤) ديوانه : ٤ ـ ١٧٩ . (٥) الصعلوك : الفقير . والكثافة : الكثرة.
(٦) يتقيلون : يتبعون . والمطهم : الفرس التام كل شىء فيه على حدة فهو بارع الجمال . والظليم : ذكر النعام . والربقة : ما يكون فى رقبة الشاة . والسرحان : الذئب .
(٧) فى ت نجاء . (٨) الأصيد : من يرفع رأسه كبرا . (٩) عنت : عرضت .
(١٠) الإحضار : نوع من السير . (١١) الطراز : الموضع الذى تنسج فيه الثياب ، وعلم الثوب . (١٢) فى ت : تمدد .

المختار في حسن الحديث

وأبياتُ ابن الرومى من أجود ما قيـل فى حسن الحديث ، وقد توسَّع الشعراء فى هذا الباب ، وكَثُرَ إحسانُهم ، كما كَثُرَ افتنانُهم ، وسأجْرِى شأْوا فى مختار ماقيل فى ذلك ، وأعود إلى ما بدأت به .

قال القُطامى[١] واسمه عُمَيْر بن شُيَيم التغلبى[٢] - وسمى القُطَامى لقوله[٣] :

يَحُطُّهن[٤] جانباً فجانبا ... حطَّ القُطامىّ القَطَا القواربا[٥]

وقال أبو عبيدة : ويقال للصقر قُطامى وقَطَامِى .

وفى الخُدُورِ غمَاماتٌ برَقْنَ لنا ... حتى تَصَيَّدْنَنَا من كلِّ مُصْطادِ

يَقْتُلْننَا بحديثٍ ليس يَعْلَمهُ ... مَنْ يتَّقِينَ ولا مَكْنونه بَادِى

فهنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ به ... مواقعَ الماء من ذى الغُلةِ الصَّادِى

وقال أبو حية النّميرى ، واسمه الهيثم بن الربيع[٦] :

وخـبَّرَكِ الواشون أن لن أُحبَّكم ... بلى وسُتُورِ اللهِ ذاتِ المحـارمِ

وإنـ دماً لو تعلمينَ جنيتِهِ ... على الحىّ ، جانِى مِثْله غيرُ سالمِ

أصدُّ وما الصـــدُّ الذى تعلمينهُ ... عزاءً بكم[٧] إلا ابتـلاع العَلاَقمِ

حياءً وتُقْيا[٨] أَنْ تشيعَ نميمةٌ ... بنا وبكم أفٍّ لأهـلِ النمائمِ

أما إنه لو كان غيرُكِ أرقلَتْ ... إليــه القَنا بالراعِفات اللهاذمِ[٩]

ولـكنه واللهِ ما طَلَّ مُسْلماً ... كَغُرِّ الثنايا واضحاتِ الملاغِمِ[١٠]

---

(١) الشعر والشعراء : ٧٠١ ، والمختار من شعر بشار : ٥٥ . (٢) فى ط : شبيم التغلبى .
(٣) اللآلىء : ١٣١ . (٤) فى اللآلى : يصكهن ، وفى ت : يحطها .
(٥) فى ت : الغواربا . (٦) المختار من شعر بشار : ٣٨ ، الأمالى : ٢ — ٢٨٠ ، اللآلى : ٩٢٥ . (٧) فى ط : بنا . (٨) التقيا : الخوف ، وفى الأمالى ، وفى ت : وبقيا .
(٩) أرقلت : أسرعت ، الراعفات : الرماح يسيل منها الدم يعنى الأسنة . اللهاذم : القاطعات من الأسنة. (١٠) الوضوح : البياض والإشراق ، والملاغم : ما حول الفم ، وفى ط : ما ظل مسلماً لغر الثنايا .

إذا هنَّ ساقَطْنَ الأَحاديثَ للفتى (١) سُقُوط حَصَى المَرْجَان من كَفِّ ناظمِ
رَمَيْن فأَنْفَذْنَ القـلوبَ ولا تَرَى دَماً مائِراً إلا جوًى في الحيازمِ (٢)

وقال أيضاً (٣) :

حديثٌ ـ إذَا لم تَخْشَ عيناً ـ كأنّه إذا ساقَطَتْهُ الشّهْدُ أَو هُو أَطْيَبُ
لو انك تستشفي به بعـد سكْرَةٍ من الموتِ كادتْ سَكْرَةُ الموتِ تَذْهَبُ

إلى هذا ينظر (٤) قول الآخر وإن لم يكن منه :

أَقـول لأَصْحَابى وهم يعذُلوننى ودَمْعُ جُفُونى دَائمُ العَبَراتِ
بذكر مِنًى (٥) نفسى فبلُّوا ، إذادَنَا خروجى من الدنيا ، جُفُوفَ لَهاتى

وقال سديف مولى بنى هاشم يصفُ نساءً (٦) :

وإذا نطقْنَ تَخَالُهنَّ نوَاظِماً دُرًّا يُفَصَّلُ لُؤْلؤاً مكنونا
وإذا ابتسمْنَ فإنهنَّ غمامـةٌ أو أُقحوان الرَّمْل بات معِينا (٧)
وإذا طَرَفْنَ طرفن عن حَدَقِ المَهَا وفَضَلْنَهنّ مَحَاجراً وجُفُونا (٨)
وكأنَّ أَجيادَ الظباءِ تَمُدّها وَخُضُورهنَّ لطافةً ولُدُونا (٩)
وأصحُّ مارأَتِ العيونُ مَحَاجراً (١٠) ولهنّ أمرضُ ما رأَيت عيونا
وكأَنَّهنَّ إذا نَهَضْنَ لحاجةٍ ينهضْنَ بالعقدات من يَبْرِينا (١١)

---

(١) فى ت : كأنه . (٢) المائر : السائل . الحيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر ، وما استدار بالظهر والبطن . وفى ت : فأقصدن القلوب . وفى ط : إلا جرى .

(٣) المختار من شعر بشار : ٣٩ . (٤) فى ط : يتطرق قول .

(٥) فى ت : يذكرنيني . (٦) المختار من شعر بشار ٣٠٦ ، والبيت الخامس فى النويرى ٥ ـ ٦ منسوباً لإسحاق الموصلى . (٧) الأقحوان : زهر أبيض . (٨) المها : الغزلان .

(٩) اللدون : اللين . وفى ت : وخصورهن . (١٠) فى المختار : جوارحا .

(١١) يبرين : موضع .

وقال الطائى [1] :

تُعْطِيكَ مَنْطِقَها فَتَعْلَمُ أنهُ ... لِجَنَى عُذُوبَته يَمُرُّ بِثَغْرِها

وأَظُنُّ حَبْلَ وصالهـا لِمُحِبِّها ... أَوْهَى وأضعفَ قُوَّةً من خَصْرِها

أخذه أبو القاسم بن هانىء ، فقال يمدح جعفر بن على ، إلاَّ أَنه قَلَبَه فقال :

قد طيَّبَ الأفواهَ طِيبُ ثنائِهِ ... من أجل ذا تجدُ الثغورَ عِذَابا

وكأنما ضَرَبَ السماء سُرَادِقاً ... بالزَّاب أورَفَعَ النجوم قِبابا [2]

أرضاً وطِئت الدُّرَّ رَضْرَاضًا بها ... والمسكَ تُرباً والرياض جنَاباً [3]

وقال الطائى [4] :

بسطت إليك [5] بنانةً أُسْرُوعا ... تصف الفِرَاقَ ومُقْلةً ينبُوعا [6]

كادتْ لِعِرْفَانِ النَّوى ألفاظُها ... من رِقَّة الشَّكْوَى تكونُ دُمُوعا

ومن جيِّد هذا المعنى وقديمه قول النابغة الذبيانى [7] :

لو أنها عرَضتْ لأَشْمَطَ رَاهبٍ ... عبدَ [8] الإلهَ صَرُورَةٍ مُتَعبِّدِ [9]

لرنَا لِبَهجتِها [10] وطِيب حَدِيثِها ... ولخالَهُ رشداً وإن لم يَرْشُدِ

نظرت إليك بحاجةٍ لم تَقْضِها ... نَظَرَ السليمِ [11] إلى وجوه العُوَّدِ

ومن مشهور الكلام قول الآخر :

وكنتُ إذا زُرْتُ سُعْدَى بأَرْضِها ... أَرى الأرضَ تُطوَى لِى ويَدْنُو بَعِيدُهَا

مِنَ الخَفِراتِ البِيضِ وَدَّ جَلِيسُها ... إذا ما انقضَتْ أُحدوثةٌ لو تُعِيدُها

---

(١) المختار من شعر بشار : ٣٩ . وفى ت : وقال . (٢) الزاب : بلد .
(٣) الرضراض : صغار الحصى . (٤) ديوانه : ٤٩٨ . (٥) فى الديوان : إلى .
(٦) الأسروع : دود أحمر الرأس تشبه به الأنامل . (٧) ديوانه : ٣٨ .
(٨) فى الديوان : يخشى . (٩) صرورة : لم يتزوج . (١٠) فى الديوان : لرؤيتها وحسن ، وفى ت : لبهجتها وحسن . (١١) السليم : السقيم ، وفى ت : السقيم .

تَحَلَّلُ (١) أَحْقَادِى إذا ما لقِيتُها   وترْمى بلا جُرْمٍ عَلَىَّ حُقُودُها

وقال بَشار (٢) :

وكأن رَجْعَ حَدِيثِها   قِطَعُ الرِّياض كُسِين زَهْرَا
حَوراء إنْ نظرتْ إليـ   ـكَ سَقَتْكَ بالعينَيْن خَمْرَا (٣)
تُنسى الغوِىَّ مَعَادهُ (٤)   وتكون للحكماء ذِكْرا
وكأنها بَرْدُ الشرا   ب صَفَا ووافقَ فيه فطْرا (٥)
وكأنَّ تحتَ لسانها   هَارُوتَ يَنْفُثُ فيه سِحْرا
وتخال ما جَمَعتْ عَليـ   ـهِ ثيابَهَا ذَهَباً وعِطْرا

وسمع بشار قول كُثيِّرِ بن عبد الرحمن (٦) :

ألا إنما لَيْلى عَصا خَيْزُرَانَةٍ   إذا غَمزُوها بالأَكُفِّ تَلِينُ

فقال : قاتل الله أبا صَخْر ! يزعم أنها عصا ويَعْتَذِر بأنها خَيْزُرَانة ، ولو قال : عصا مُخّ أو عصا زُبْد لـكان قد هجنها مع ذكر العصا ، هلاّ قال كما قلت (٧) :

ودَعْجَاء المَحَاجر (٨) من مَعَدٍّ   كأنَّ حَدِيثَها ثَمَرُ الجِنانِ
إذا قامت لحاجتها (٩) تثنَّتْ   كأنَّ عِظَامَهَا من خَيْزُرَانِ

وبعد قول كثيّر : « أَلا إِنما ليلى عصا خيزرانة » :

تمتَّعْ بها ماسا عفتك ولا يَكُنْ   عليك شجًى فِى الصَّدْرِ حين تَبِينُ
وإنْ هى أَعْطَتْك اللّيان فإنّها   لآخرَ من خُلاَّنها سَتَلِينُ
وإن حلفتْ لا يَنْقُضِ النأىُ عهدَهَا   فليس لمخضُوبِ البنانِ يَمِينُ

(١) تحلل : تذهب . (٢) المختار من شعر بشار : ٣٣ ، الأغانى : ٣ — ١٥٠ .
(٣) فى ت : سحرا . (٤) فى ت : معاذه . (٥) فى ط : قطرا .
(٦) المختار من شعر بشار : ٣٤ ، الكامل : ٤٩٧ . (٧) المختار من شعر بشار : ٣٤ .
(٨) فى المختار . وحوراء المدامع . والدعج : سواد العين مع سعتها .
(٩) فى المختار : إذا قامت لمشيتها ، وفى ت : لسبحتها .

وقال البحترى (١) :

ولما التقَيْنا واللِّوَى (٢) موعدٌ لنا تعجَّبَ رائِى الدُّرِّ حُسناً ولاقِطُهْ (٣)

فمن لؤلؤ تجنيه (٤) عند ابتِسَامِها ومِنْ لؤلؤ عند الحديثِ تُساقِطُهْ

وقال المتنبى (٥) :

أمنْعِمَةٌ بالعودةِ الظَّبْيَةُ التى بغَيْرِ وَلِيٍّ كانَ نائلَها الوَسْمِى (٦)

تَرَشَّفْتُ فَاهَا سُحْرَةً فكأنَّنِى تَرَشَّفْتُ حَرَّ الوَجْدِ من باردِ الظَّلْمِ (٧)

فتاةٌ تَساوَى عِقْدُها وكَلامُها ومَبْسِمُها الدُّرِّىُّ فى النثر والنَّظْمِ

فضل الشعر

عاد الحديثُ الأول ، قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى : حدّثنا يوسف بن يعقوب قال : أخبرنى جدّى قراءة عليه عن أبى داود عن محمد بن عبيد الله عن أبى إسحاق عن البراء يرفعُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من الشعر لحُكْما ، وإنّ البيان لَسِحْرا ، قال أبو القاسم : هكذا رَوَيْنَا الخبر ، وراجعت فيه الشيخ فقال : نعم هو : إنَّ من الشعر لحُكْما بضم الحاء وتسكين الكاف ، قال : ووجهُه عندى إذا رُوِى هكذا : إن من الشعر ما يلزم المقول فيه كلزوم الحُكْم للمحكوم عليه ؛ إصابةً للمعنى ، وقصداً للصواب ، وفى هذا يقول أبو تمام (٨) :

ولولا سبيلٌ (٩) سَنَّها الشِّعْرُ ما دَرَى بُغاةُ النَّدَى من أَيْنَ تُؤْتَى المَكارِمُ

يُرَى حكمةً ما فِيه وهو فكاهةٌ ويُرْضَى (١٠) بما يَقْضِى به وهو ظالمُ

انتهى كلام أبى القاسم .

وقد وجدنا فى الشعر أبياتاً يجْرى على رَسْمِها ، ويمضى على حكمها ؛ فقد كان

---

(١) ديوانه : ٣٣١ ، المختار من شعر بشار: ٣٩ . (٢) فى الديوان : والنقا موعد لنا.
(٣) فى ت : ولافظه . (٤) فى الديوان وفى ت : تجلوه ؛ وفى المختار: تبديه .
(٥) ديوانه : ٤ ــ ٤٨ . (٦) الوسمى : المطر الأول والولى : الذى يليه .
(٧) الظلم : ماء الأسنان وبريقها . (٨) ديوانه : ٢٨٦ ــ ٢٨٧ .
(٩) فى الديوان : ولولا خلال . (١٠) فى الديوان وفى ت : ويقضى .

بنوأَنْف الناقة إذا ذكَر أحدٌ عندأحدٍ منهم أنفَ الناقة ـ فضلا عن أن ينسبهم إليه ـ اشتدَّ غضبُهم عليه ؛ فما هو إلا أَن قال الحطيئة يمدحهم[1] :

سِيرى أَمَامَ فإن الأَكثرِينَ حَصًى ... والأَطْيبين إذا ما يُنْسَبُون أَبا

قومٌ إذا عقدوا عَقْداً لجارِهِمُ ... شَدّوا العِنَاجَ وشدّوا فوْقَه الكَرَبا[2]

قوم همُ الأنفُ والأَذْنَابُ غيرهُمُ ... ومن يُسوِّى بأَنْفِ الناقةِ الذَّنبَا

فصار أحدُهم إذا سُئِل عن انتسابه لم يَبْدَأْ إلا بهِ ؛ وأنفُ الناقة هو جعفر بن قريع[3] بن عوف بن كعب[4] بن زيد مناة بن تميم .

وكان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ، ويتشرّفُونَ بهذا الوَسْم ؛ إذ كان عبد الله بن كعب جدّهم إنما سمّى العجلان لتعجيله القِرَى للضِّيفَان : وذلك أَن حيًّا من طيّء نزلوا به ، فبعث إليهم بقِرَاهم عَبْداً له ، وقال له : اعْجَل عليهم ، ففعل العبدُ فأعتقه لعَجلته ، فقال القوم : ما ينبغى أن يُسمى إلّا العَجْلان ؛ فسمى بذلك فكان شرفاً لهم ، حتى قال النجاشى ، واسمه قيس بن عمرو بن مالك بن حزن بن الحارث ابن كعب[5] يهجوهم :

أولئكَ أخوال اللّعين وأسْرةُ الـ ... ـهجين ورَهْطُ الواهِنِ المتـذلّلِ

وما سُمِّىَ العَجْـلَانَ إلا لقولِهِ ... خُذِ القَعْبَ[6] واحْلُبْ أيها العبدواعْجَلِ

فصار الرجل منهم إذا سُئِل عن نسبه قال : كعبى ، ويكنى عن العجلان ، وزعمت الرواة[7] أَنّ بنى العجلان استعْدَوا على النجاشى ـ لما قال هذا الشعر ـ عُمَرَ بن الخطاب

---

(١) العمدة : ١ ـ ٣٥ ، مختارات ابن الشجرى : ٣ ـ ١٨ ، البيان والتبيين ٣ ـ ٢٠٣ .

(٢) اللسان ـ مادة عنج ، والشعر والشعراء : ١ ـ ١٩٢ . والعناج : خيط أو سير يشد فى أسفل الدلو ، ثم يشد فى عروتها ، والكرب : من حبال الدلو . (٣) فى ت : قريح وهو تحريف.

(٤) فى العمدة : بن مالك ، وفى ت : بن كعب بن سعد بن زيد .

(٥) الشعر والشعراء : ٢٩٠ ، البيان والتبيين : ٣ ـ ٢٠٣ .

(٦) العقب : القدح الضخم . (٧) العمدة : ١ ـ ٣٨ ، الشعر والشعراء : ١ ـ ٢٩٠ ، حماسة ابن الشجرى : ١٣١ .

رضى الله عنه ، وقالوا : هَجَانَا ، قال : وما قال فيكم ؟ فأنشدوه قوله :

إذا اللهُ عادَى أهلَ لؤم ورِقَّةٍ فعادَى بنى العَجْلَان رهطَ ابن مقبلِ

فقال : إنَّ الله لا يُعَادى مسلماً ، قالوا : فقد قال :

قُبَيِّلَة[1] لا يَغْدِرون بذِمَّةٍ ولا يَظْلِمُون الناسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

فقال : وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك ! قال : فقد قال :

تَعَافُ الكِلابُ الضارِيَاتُ لحومَهُمْ وتأْكلُ من عوف بن كعب بن نهشلِ[2]

فقال : كفى ضَياعاً مَن تأكل الكلابُ لحمه ! قالوا : فقد قال :

ولا يَرِدُون الماءَ إلّا عشيةً إذا صَدَرَ الوُرَّادُ عَن كلِّ منْهلِ

فقال : ذلك أصفى للماء ، وأقل للزّحام ! قالوا : فقد قال :

وما سمِّىَ العَجْلانَ إلاَّ لقولهِ خُذِ القَعْبَ واحْلِب أَيها العبدُ واعْجَلِ

فقال : سيّد القوم خَادِمُهم ! وكان عمر رضى الله عنه أعلمَ بما فى هذا الشعر ، ولكنه دَرَأَ الحدودَ بالشبهات .

جمرات العرب

وهؤلاء بنو نمير[3] بن عامر بن صَعْصعة من القوم أحدُ جمرات العرب وأشرف بيوت قيس بن عيلان بن مضر . وجمرات العرب ثلاثة : وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم مُتَوافرون فى أنفسهم، لم يُدْخِلوا معهم غيرهم؛ والتجمير فى كلام العرب التجميع ، وهم بنو نمير بن عامر، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبة بن أد . فطفئت جمرتان وهما بنو ضبّة لأنها حالفت الرباب ، وبنو الحارث لأنها حالفت مَذحِج ، وبقيت نمير لم تحالف ؛ فهى على كَثْرَتِها ومنَعَتِها . وكان الرجل منهم إذا قيل له : ممَّنْ أنتَ ؟ قال : نميرى كما ترى ! إدلالاً بنَسَبِه ، وافتخاراً بمنصبه ، حتى قال جرير بن الخطفى لعبيد بن حصين الراعى أحد بنى نمير بن عامر[4] :

---

(١) فى ط : قبيلته . (٢) فى الشعر والشعراء : من كعب وعوف ونهشل .

(٣) العمدة : ١ — ٣٦ ، اللسان — جمر . (٤) ديوانه : ٧٥ ، العمدة : ١ — ٣٦ ، البيان والتبيين : ٣ — ٢٠٣ ، المختار من شعر بشار : ٢٠١ .

فغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ من نُميرٍ   فلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابَا

كعب وكلاب : ابنا ربيعة بن عامر[١] بن صعصعة . فصار الرجل منهم إذا قيل له : ممن أنت ؟ يقول : عامرى ، ويكنى عن نمير .

ومرّت امرأة بقوم من بنى نمير فأَحَدُّوا النظر إليها ، فقال منهم قائل : والله إنها لرشْحَاء[٢] ، فقالت : يا بنى نمير ، والله ما امتثلتم فىَّ واحدة من اثنتين ، لا قول الله عز وجل : ﴿ قل للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارهم ﴾ . ولا قول الشاعر :

* فغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ من نُمير *

وسايَرَ شريك بن عبد الله النميرى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ، فبرزت[٣] بغلة شريك ، فقال له يزيد : غُضّ من لجامها ، فقال : إنها مكتوبة أصلح الله الأمير ، فضحك ، وقال : ما ذهبت حيث أَردت ، وإنما عرّض بقوله : « غُضَّ من لجامها » بقول جرير :

* فغُضَّ الطَّرْف إنك من نمير *

فعرض له شريك بقول ابن دَارَة[٤] :

لا تأْمَنَنَّ فزَارِيًّا خَلَوْتَ بهِ   على قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بأَسْيَارِ[٥]

وبنو فزارة يُرمون بإتْيَانِ الإبلِ ، ولذلك قال الفرزدق ليزيد بن عبد الملك لما ولى عمر بن هبيرة العراق[٦] :

أميرَ المؤمنين لأنْتَ مرْءٌ[٧]   أمينٌ لَسْتَ بالطَّبعِ الحريصِ

أوَلَّيْتَ[٨] العراقَ ورَافِدَيْهِ   فزَارِيًّا أحذَّ يَدِ القَمِيصِ[٩]

---

(١) فى ت : بن عاصم .   (٢) رشحاء : كثيرة العرق .   (٣) سبقت .

(٤) الشعر والشعراء : ٨–٣٦٣، اللسان – مادة كتب.   (٥) كتب الدابة : خزم حياءها.

(٦) ديوانه : ٧٨ ، والشعر والشعراء : ٣٤ ، واللآلئ : ٨٦٢ .

(٧) فى الديوان : وأنت وال شفيق لست بالوالى .   (٨) فى الديوان : أأطعمت .

(٩) أحذ ، مقطوع . يريد أنه قصير اليد عن نيل المعالى .

ولم يكُ قبْلَها راعى مَخَاضٍ ليأمنَهُ على ورِكَىْ قَلُوصِ
تَفَيْهَقَ[١] بالعراق أبو المثنّى وعَلّمَ قومَهُ أكْلَ الخبيصِ[٢]

الرافدان : دجلة والفرات . وقال بعض النميريين يُجيبُ جريراً عن شِعْرِه :

نميرٌ جمرة العرب التى لم تزل فى الحرب تلتهب التهابا
وإنى إذ أسُبُّ بها كليباً فتحت عليهم لِلْخَسْفِ بابا
ولولا أن يقال هَجَا نميراً ولم يَسْمَعْ لشاعرهم جوَابا
رغبنا عن هجاء بنى كليبٍ وكيف يُشَاتِمُ الناسُ الكلابا

فما نفع نميرا ، ولا ضرّ جريرا ، بل كان كما قال الفرزدق[٣] :

ما ضرّ تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَوْتَها أم بُلْت حيث تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

وقال أبو جعفر محمد بن منذر مولى بنى صَبير بن يربوع فى هجائه لثقيف :

وسوف يزيدكم ضَعَةً هِجَائى كما وضع الهجاء بنى نمير

وسمع الراعى منشداً ينشد[٤] :

وعاوٍ عوَى من غير شىء رَمَيْتُهُ بقافيةٍ أَنْفاذُها[٥] تَقْطُرُ الدّما
خَرُوجٍ بأفوَاهِ الرُّوَاةِ كأنها قرَى هُنْدُوَانِىٍّ إذا هزَّ صَمّمَا

فارتاع له ، وقال : لمن هـذا ؟ قيل : لجرير ، قال : لعن الله من يلومنى أن يغلبنى مثل هذا !

أثر الشعر

وقد بنى الشعرُ لقوم بيوتاً شريفة ، وهدم لآخرين أبنية منيفة :

وما هو إلا القول يسْرى فتغتدى له غُرَرٌ فى أوجـهٍ ومواسِم

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى : سمعت أبا عَمْرو بن العلاء ورجـل يقول :

---

(١) فى ط : تفهق . (٢) الخبيص : طعام يعمل من التمر والسمن .
(٣) الشعر والشعراء : ١٨٧ . (٤) ديوان جرير : ٥٤٤ ، المختار من شعر بشار : ٩١ ، الشعر والشعراء : ٤٣٧ . (٥) فى الديوان : بقارعة ، والأنفاذ : جمع نفذ ، وهى الجراح الواسعة النافذة .

إنما الشعر كالمِيسَم . فقال: وكيف يكون ذلك كذلك ؟ والميسم يذهب بذهاب الجلد ، ويدْرُس مع طولِ العهد ، والشعر يَبْقى على[1] الأبناء بعد الآباء ، ما بقيت الأرض والسماء ! وإلى هذا نحا الطائى فى قوله[2] :

وأنى رأيتُ الوَسْمَ[3] فى خُلُقِ الفتى هو الوَسْمُ[3] لا ما كان فى الشَّعْر والجلدِ

وقال عمر رحمة الله عليه : تعلّموا الشعر ، فإن فيه محاسن تُبتغى ، ومساوئُ تُتقى.

وقال أبو تمام[4] :

إنَّ القوافىَ والمساعىَ لم تزَلْ مثلَ النّظام[5] إذا أَصابَ فَرِيدا
هِىَ جوهرٌ نثرٌ فإن أَلَّفتَهُ فى الشعر[6] كان قلائداً وعُقُودا
من أجلِ ذلكَ كانت العربُ الأُلى يدعونَ هذا سُؤْدَدًا مجْدُودا[7]
وتنِدُّ عندهمُ العُلَا إلا إذا[8] جُعِلَتْ لها مرَرُ القصيدِ قيُودا

وقال على بن الرومى :

أرى الشعر يُحيِي الناسَ والمجد بالذى تُبقّيه أَرواحٌ له عطِراتُ
وما المجدُ لولا الشِّعْرُ إلا معاهدٌ[9] وما النـاسُ إلا أَعْظُمٌ نَخِراتُ

[شذور من كلام الرسول]

رجعت إلى ماقطعت ، مما هو أحق وأولى ، وأَجَلّ وأَعْلى ، وهو كلامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : الـكريم النَّجْر[10] ، العظيم القَدْر ، الذى هو النهايةُ فى البيان ، والغايةُ فى البرهان ، المشتمل على جَوَامِع الـكلم ، وبدائع الحِكم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَنَا أَفْصَح العرب بَيْد أَنّى من قريش ، واستَرُضعت فى سعد ابن بكر ! وليس بعضُ كلامه بأَوْلى من بعض بالاختيار ، ولا أَحقّ بالتقديم والإيثار؛ ولـكنى أُورد ماتيسَّر منه فى أَول هذا الـكتاب استفتاحاً ، وتيمّناً بذلك واستنجاحا.

(١) فى ت : مع . (٢) ديوانه : ١٢٩ . (٣) فى الديوان : الوشم .
(٤) ديوانه : ٩٠ . (٥) فى الديوان : مثل الجمان . (٦) فى انديوان : بالشعر صار.
(٧) فى الديوان : محدودا . (٨) فى الديوان : إلا علا . (٩) فى ت : مجاهد .
(١٠) النجر : الأصل .

وهذه شذورٌ من قوله صلى الله عليه وسلم الصريح الفصيح ، العزيز الوَجيز ، المتضمّن بقليل من المبانى كثيرَ المعانى :

قوله للأنصار : إنكم لتقلّون عند الطمع ، وتكثُرون عند الفزَع .

وقوله عليه السلام : المسلمون[1] تتكافأُ دِماؤُهم ، ويَسْعى بذمّتهم أَدْناهم ، وهم يدٌ على مَن سِوَاهم . الناسُ كإبلٍ مائة لا تجدُ فيها راحلة . إياكم وخَضْرَاء الدِّمَنِ . كلُّ الصَّيْدِ فى جوْفِ الفرَا[2] — قاله لأبى سُفْيان صخر بن حرب . الناسُ معادن ، خيارُهم فى الجاهلية خيارُهم فى الإسلام إذا فقهوا . المؤمن للمُؤْمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضا . أَصحابى كالنجوم بأَيِّهم اقتديتُم اهتديتُم . المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبى زور . المرأة كالضّلع إن رُمْتَ قِوامها كَسَرْتَها[3] ، وإن دَاريتها استمتعتَ بها . اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى . مطل الغنىِّ ظُلم . يدُ اللهِ مع الجماعة . الحياء شُعبةٌ من الإيمان . مثلُ أبى بكر كالقطر ، أينما وقعَ نَفَع . لا تجعلونى فى أَعْجَاز كتبكم كقَدح الراكب . أربعةٌ من كنوز الجنة : كتمان الصَّدَقة والمرض والمصيبة والفاقة . جنة الرجل دارُه . الناس نيام فإذا ماتوا انْتَبَهُوا . كفى بالسلامه داءً . إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ، فسَعوهم بأخلاقكم . ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى . كلٌّ مُيسَّرٌ لما خلِقَ له . اليمين حِنثٌ أو مندمة . دَعْ ما يَريبك إلى مالا يريبك . انصُرْ أَخاكَ ظالماً كان أو مظلوماً . احترسوا من الناسِ بسُوءِ الظّنّ . الندمُ تَوْبة . انتظارُ الفرج عبادة . نعم صومعة الرجل بيتُه . المستشير مُعان والمستشار مؤتمن . المرء كثيرٌ بأخيه . إنَّ للقلوب صَدَأً كصدإِ الحديد ، وجلاؤُها الاستغفار . اليوم الرِّهان

---

(١) فى ت : المؤمنون . (٢) الفرا : حمار الوحش ، وهو مثل ، ومعناه أن من نال الأمر العظيم كان جديراً بأن ينسى ما سواه مما ينال الناس .

(٣) القوام : التقويم ، وفى ت : إن قومتها كسرتها .

وغَدًا السِّباق ، والجنــة الغاية . كلُّ مَن فى الدنيا ضيف ، وما فى يديه عاريّة ، والضيف مُرْتَحل ، والعاريّة مؤدَّاة .

ومن جوامع كِلَمه عليه الصلاة والسلام

ما رواه أهلُ الصحيح عن علقمة بن وقّاص الليثى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمــال بالنيّاتِ ، وإنما لــكل امرئ ما نَوَى ، فمن كانت هِجْرَتُه إلى اللهِ ورسوله فهِجْرَتُه إلى اللهِ ورسوله، ومن كانَتْ هِجرتُه إلى دُنْيا يُصِيبها ، أو امرأة يتزوّجها ، فهِجْرَته إلى ما هاجر إليه !

قال أبو القاسم حمزة بن محمد الـكنانى : سمعتُ أهلَ العلم يقولون : هذا الحديث ثلث الإسلام ، والثلث الثانى ما رواه النعمان بن بشير ؛ أنَّ رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : الحلالُ بيِّن ، والحرام بَيِّن ، وبينهما أمورٌ مشتبهات ، فمن تركها كان أَوْفَى لدينه وعِرْضِه ، ومن واقعها كان كالراتع حول الحِمَى ؛ ألا وإنَّ لــكل ملك حِمًى ، ألا وإنّ حمى الله محَارمه .

قال: و[الثلث][1] الثالث ماروا مالك [عن][1] ابن شهاب عن على بن حسين أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : مِن حُسن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يعنيه .

تشجيع النبى على الشعر

وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعرَ وأثابَ عليه ، ونَدَب [2] حسّان ابن ثابت إليه ، وقال : إن الله ليؤيّده برُوحِ القُدُس مانافحَ [3] عن نبيه .

ولماانتهى شعرُ أبى سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب إلى النبى صلى الله عليه وسلم شَقَّ عليه فدعا عبد الله بن رَوَاحة فاستنشده فأَنشَده فقال : أنتَ شاعرٌ كريم . ثم دعا كعبَ بن مالك فاستنشده فأنشده ، فقال . أنت تُحْسِنُ صِفَةَ الحرب ، ثم دعا

(١) من ت . (٢) ندب : دعا . (٣) نافح : دافع .

بحسّان بن ثابت فقال : أَجِبْ عنى ، فأَخْرج لسانه فضرب به أَرْنَبَته [١] ؛ ثم قال : والذى بعثك بالحق ماأُحِبّ أنلى به مِقْوَلًا فى معدّ ؛ ولو أنلسانا فَرَى الشِّعر لفراه [٢]. ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَمَسّ من أبى سفيان ، فقال: وكيف، وبينى وبينه الرَّحِم التى قد علمت ؟ فقال : أَسُلُّك منه كما تُسَلّ الشَّعْرَة من العجين ! فقال : اذهب إلى أبى بكر، وكان أعلمَ الناس بأَنْساب قريش، وسائر العرب ، وعنه أخذ جبير ابن مطعم علم النسب . فمضى حسان إليه فذكر له معايبَه ، فقال حسّان بن ثابت [٣] :

وإنّ سَنَام المَجْدِ من آلِ هاشِمٍ ... بنو بنت [٤] مخزوم ووَالِدُك العَبْدُ
ومَن ولَدَتْ أبناء زُهْرَةَ منهُمْ ... كرامٌ ولم يَقْربْ عجائِزَك المَجْدُ [٥]
ولَسْتَ كَعَبَّاسٍ ولا كابْنِ أُمِّهِ ... ولَكِن لَئيم لا يقوم له زَنْد [٦]
وإنّ امرءًا كانت سُمَيَّةُ أُمَّهُ ... وسَمْراءُ مغموزٌ [٧] إذا بلغَ الجَهْدُ
وأنت زنيمٌ نِيطَ فى آل هاشم ... كما نِيطَ خَلْفَ الراكبِ القدحُ الفَرْدُ [٨]

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال : هذا كلامٌ لم يغب عنه ابنُ أبى قُحافة [٩].
يعنى ببنى بنت مخزوم عبد الله وأبا طالب والزبير بنى عبد المطلب بن هاشم [بن عبد مناف] [١٠] ، أمهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وأخواتهم برة وأميمة والبيضاء وهى [١١] أم حكيم والبيضاء جدّة عثمان بن عفان أم أمه . وقوله : «ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام » يعنى أميمة وصفية أُم الزبير بن العوام أُمهاهالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة .

---

(١) الأرنبة : طرف الأنف . (٢) يفرى الشعر : يحوه . (٣) ديوانه : ١٥٩ .
(٤) فى ط : بيت . (٥) بنو زهرة : حى من قريش أخوال الرسول .
(٦) فى الديوان : * ولكن هجين ليس يورى له زند *
(٧) فى الديوان : مغلوب . (٨) زنيم : دعى ، وفيت : ربيط . ونيط بكسر النون: علق.
(٩) يعنى أبا بكر . (١٠) من ت . (١١) فى ت : وهى وصفية أم الزبير بن العوام أمهما هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة .

وقوله : « ولست كعباس ولا كابنِ أمه » أم العباس نتيلة [١] امرأة بن جعفر ابن واسط [٢] وأخوه لأمه ضرار بن عبد المطلب .

وقوله: «وإن امرأ كانت سمية أمه» سمية أم أبى سفيان، وسمراء أم أبيه ، وليس هذا موضع إطناب فى رفع الأنساب .

وكان عَبـد الأعلى بن عبد الرحمن الأموى عتب على بعض ولد الحارث فقال له مُعَرِّضا بما قال حسان :

إخالُ [٣] بالعمِّ وبالجدِّ مفتخِراً بالقَدَح الفَرْدِ
الْهَجْ بحسَّانٍ وأشعاره فإنها أَدْعَى إلى الْمَجْدِ
لولا سيوفُ الأزد لم تؤمنوا ولم تقيموا سُورَةَ الحمدِ

فتوعَّدُوه فخافهم ، فقال :

بنى هاشم عَفْواً عفا الله عنكمُ وإن كان ثوبى حَشْو ثِنييه مُجْرِمُ
لـكم حَرَمُ الرحمن والبيتُ والصَّفا وجَمْعٌ وما ضمَّ الحطيم وزمزَمُ
فإن قلتمُ بادَهْتَنَا بعظيمةٍ فأحلامكم منها أجلُّ وأعظمُ

وأَسلم أبو سفيان ــ رحمه الله ، وشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم حُنَين ، وكان ممسكا بلجام بَغْلته حين فرَّ الناس وهو أحد الذين ثبتوا ، وهم ــ على ما ذكره أبو محمد عبد الملك [٤] بن هشام ــ أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبوسفيان بن الحارث وابنه الفضل وربيعة بن الحارث وأُسامة بن زيد وأيمن ابن أم أيمن بن عبيد قتل يومئذ ، وبعض الناس يعدّ فيهم قثم بن العباس ، ولا يَعُدُّ أبا سفيان [٥] ، وكان أبو سفيان من أشعر قريش وهو القائل :

لقد عَلِمَتْ قريشٌ غير فخرٍ بأنّا نحن أجْوَدُهُم حِصَانا

---

(١) فى ت نثيلة . (٢) فى ت: من النمر بن قاسط وهو الصواب . (٣) فى ت : أصائلا .
(٤) فى ت : عبد الله وهو خطأ . (٥) فى ط : ابن أبى سفيان .

وأكثرهُمْ دُروعاً سابغاتٍ وأمضاهم إذا طعنوا سِنانا
وأدفعهم عن الضّراء عنهم وأبيَنهم إذا نطقوا لِسانا

ويروى أنّ ابن سيرين قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَفَرِه قد شنق ناقته بزمامها، حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرّحل، إذ قال يا كعب بن مالك، احْدُ بنا! فقال كعب [1]:

قضَيْنَا من تِهامة كلَّ حَقٍّ [2] وخيبرَ ثم أجْمَمْنَا [3] السيوفا
نُخَبِّرُها [4] ولو نطَقَتْ لقالَتْ قواطعهُنَّ دَوْسًا أَو ثَقِيفَا

فقال عليه السلام: والذى نفسى بيده لهى أشدُّ عليهم من رشق النبل!

ويقال. إنّ دوسا أَسلمت فَرَقاً من كلمة كعب هذه، وقالوا: اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان، من قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم!

حديث قتيلة مع النبى

وقتل [5] النبى صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث وكان ممن أُسِرَ يوم بدر وكان شديد العداوة لله ولرسوله، وقتله على بن أبى طالب رضى الله عنه صَبْراً، فعرضت للنبى صلى الله عليه وسلم أخته قُتَيلة بنت الحارث — وفى بعض الروايات أن قُتَيلة أتَتْهُ فأنشدَتْه:

يا راكِباً إنَّ الأُثَيْلَ مظِنةٌ من صُبْحِ غادِيةٍ [6] وأنتَ موفَّقُ
أَبْلِغْ بها مَيْتاً بأَنّ تحيَّةً ما إنْ تَزَالُ بها النَّجائب تعنق [7]
مِنِّى إليه [8] وعَبرةً مسفوحةً جادت بواكِفِها [9] وأُخْرَى تخْنُقُ
هــل يسمعنى النَّضْرُ إن ناديتهُ إن كان [10] يسمع ميِّتٌ لا يَنطِقُ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤ — ١٢٢. (٢) فى السيرة: كل ريب وفى العقد: كل حتف.
(٣) أجممنا: أرحنا. (٤) فى ط: نخبرها. (٥) العمدة: ١ — ٤١، ديوان حسان — المقدمة، البيان والتبيين: ٣ — ٢٠٥، سيرة ابن هشام: ٢ — ٤١٩، شاعرات العرب ١٣٤.
(٦) فى ت: خامسة. (٧) العنق: نوع من السير، وفى السيرة، ت: تخفق.
(٨) فى السيرة: إليك. (٩) الواكف: الجارى. (١٠) فى السيرة: أم كيف يسمع.

ظلّتْ سيوفُ بنى أبيه تَنُوشُه[(١)] ... للهِ أرحامٌ هناك تَشَقّقُ
قَسْراً[(٢)] يقادُ إلى المنيّة مُتْعَباً ... رَسْفَ المقيّدِ وهو عانٍ موثَقُ
أمحمّدٌ ها أنت صِنْوُ[(٣)] كريمةٍ ... فى قومِها والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كانَ ضرّكَ لو مَنَنْتَ وربّما ... منَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ[(٤)]
فالنضرُ أقربُ مَنْ قَتَلْتَ[(٥)] قَرابةً ... وأحقُّهم إنْ كان عِتقٌ يُعْتَقُ
أو كنت قابلَ فِدْيةٍ فَلْيُفْدَيَنْ[(٦)] ... بأعزِّ ما يُغلى به مَنْ يُنْفِقُ

فذُكر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رَقَّ لها ودمعت عيناه ، وقال لأبى بكر: لو كنتُ سمعتُ شِعْرَها ما قتلته !

والنضر هذا هو النضر بن الحارث بن عَلقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار. قال الزبير بن بكار[(٧)] : وسمعت بعض أهل العلم يغمز فى أبيات قتيلة بنت الحارث ويقول : إنّها مصنوعة .

[من كلام أبى بكر]

ودخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ، على النبى عليه السلام وهو مُسجًّى بثَوْبٍ[(٨)] ، فكشف عنه الثوب وقال[(٩)] : بأبى أنْتَ وأمى ! طِبْتَ حَيًّا وميّتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموتِ أحدٍ من الأنبياء من النبوّة ، فعظُمْتَ عن الصفة ، وجَلَلْتَ عن البُكاء ، وخَصصْتَ حتى صرت مَسْلاة ، وعَممْتَ حتى صِرْنا فيك سَواء ، ولولا أنّ موتك كان اختياراً منك لجُدْنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نَهيت عن البُكاء لأنفدنا عليك ماءَ الشئون[(١٠)] ، فأمّا مالا نستطيع نفيَه عنّا فكمَدٌ

---

(١) تنوشه : تتناوله . (٢) فى السيرة صبرا . (٣) صنو : ابن ، معرق : أصيل ، وفى السيرة : يا خير ضنء كريمة . والضنء : النسل . (٤) من : صفح ، والمحنق : للملوء بالغيظ (٥) فى السيرة : من أسرت. (٦) فى السيرة وفى ت : فلينفقن ما ينفق .
(٧) فى ت : بن أبى بكر . (٨) مسجى : مغطى . (٩) سيرة بن هشام : ٤ ـ ٣٣٥ .
(١٠) الشئون : جمع شأن : مجرى الدموع .

وإدْناف[1] يتحالفان ولا يَبْرَحان ، اللهم فأَبْلِغه عنا السلام ؛ اذكرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ماخلَّفتَ من السكينة لم نقم لما خَلَّفتَ من الوحشة ؛ اللهم أَبلِغ نبيَّك عنا واحفظه فينا . ثم خرج .

قوله رضى الله عنه: « لولا أن موتَك كان اختياراً منك » إنَّما يريد قولَ النبى صلى الله عليه وسلم : لم يُقبض نبيٌّ حتى يَرَى مقعده من الجنة ثم يُخيَّر . قالت عائشةُ رضى الله عنها : فسمعتُه وقد شخص بصرُه وهو يقول : فى الرفيق الأعلى ! فعلمت أَنه خُيِّر ، فقلتُ : لا يختارنا إذَن ، وقلت : هو الذى كان يحدثنا ، وهو صحيح .

فى يوم وفاة النبى

وكان أبو بكر لما تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أرضه بالسُّنْح[2] فتواترت إليه الرسلُ ، فأَتى وقد ذُهِل الناس ، فكانوا كالخرس ، وتفرقت أحوالُهم ، واضطربت أمورُهم ، فكذَّب بعضُهم بموته ، وصمت آخرون ؛ فما تكلّموا إلا بعد [التغير][3] ، وخَلَط آخرون فلاثُوا[4] الكلامَ بغير بيَان ، وحق لهم ذلك للرزيّة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى هى بيضة العُقْر[5] ، ويتيمةُ الدهر ، ومدى المصائب ، ومنتهى النوائب ، فكل مصيبةٌ بعدها جَلَلٌ عندها[6] ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: لِتُعَزّ المسلمين فى مصائبهم المصيبةُ بى .

وكان عمر[7] بن الخطاب رضى الله عنه ممن كذّب بموته ، وقال : ما مات ، وليرجعنّه الله ، فليقطعنّ أَيدِى المنافقين وأَرجلهم ، يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموتَ ؛ وإنما واعده ربه ، كما واعَدَ موسى وهو يأتيكم .

وأما عثمان رضى الله عنه فكان ممن أُخْرِس ؛ فجعل لا يكلِّم أحداً ، فيُؤْخَذُ بيده ويُجاء به فينقاد .

---

(١) الإدناف : ثقل المرض . (٢) السنح : موضع قرب المدينة وكان به منزل أبى بكر
(٣) ليست فى ت . (٤) لاثوا : خلطوا . (٥) بيضة العقر : مثل للحادث الذى يندر أن يتكرر ، وهى فى الأصل بيضة الدجاجة التى لا تبيض بعدها . (٦) الجلل هنا : الأمر الحقير .
(٧) سيرة ابن هشام ٤ـ٣٣٤

وأما على رضى الله عنه فلُبِطَ به الأرض (١) فقعد ولم يَبْرَحِ البيت حتى دخل أبو بكر وهو فى ذلك جَلْد العقل والمقالة (٢) ، فأكب عليه ، وكشف عن وَجْهه ومسَحَه ، وقبّل جبينه ، وبكى بكاء شديداً ، وقال الكلام الذى قدّمته . ولما خرج إلى الناس وهم فى شديد غمراتهم ، وعظيم سَكَراتهم ، قام فخطب خطبة جُلُّها الصلاةُ على النبى صلى الله عليه وسلم قال فيها (٣) : أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاشريكَ له ، وأشهدُ أنَّ سَيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهدُ أنَّ الكتابَ كما نزل ، وأن الدينَ كما شرع ، وأَنَّ الحديث كما حدث ، وأنَّ القول كما قال ، وأن الله هو الحقّ المبين . فى كلام طويل ، ثم قال : أيها الناسُ ؛ مَنْ كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبدُ اللهُ فإن اللهَ حىٌّ لا يموت ، وإن الله قد تقدَّم إليكم فى أمرِه ، فلا تدَعُوه جَزَعا ، وإن الله قد اختار لنبيهِ ما عنده على ما عندكم ، وقبضَه إلى ثوابه ، وخلّف فيكم كتابَه ، وسنةَ نبيِّه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر ؛ يَٰأَيها الذين آمنُوا كونوا قوَّامِينَ بالقِسْطِ (٤) ، ولايشغلنَّكم الشيطانُ بموتِ نبيكم ، ويفتننَّكُم عن دِينكم ؛ فعاجلوه بالذى تعجزونه ، ولا تستنظروه (٥) فيلحقَ بكم .

فلما فرغ من خطبته قال : يا عمر ! بلغنى أنك تقول مامات نبىُّ الله ، أَمَا علمت أنه قال فى يوم كذا وكذا ، وفى يوم كذا وكذا : قال الله تبارك وتعالى : إنك ميِّتٌ وإنهم مَيِّتُون . فقال عمر : والله لكأنى لم أسمعْ بها فى كتابِ الله قَبْلُ لِمَا نزل بنا ، أشهد أن الكتابَ كما نزل ، وأن الحديثَ كما حدّث ، وأنّ الله حىٌّ لا يموت ، وإنا لله وإنّا إليه راجعون ! ثم جلس إلى جنب أبى بكر رحمه الله .

قالت عائشة (٦) رضوان الله عليها : لما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم نَجَم النِّفاق (٧) ، وارتدَّت العرب ، وكان المسلمون كالغنم الشارِدَة ، فى الليلة الماطرة ،

---

(١) هكذا فى ط ، ولبط به : صرع وسقط إلى الأرض كما فى النهاية ، وفى ت : وليط .

(٢) جلد : ثابت .　　(٣) سيرة ابن هشام ٤ـ٣٣٥　　(٤) القسط : العدل .

(٥) فى ت : فعاجلوه بالدين تعجزوه ، ولا تستبطئوه .　　(٦) سيرة ابن هشام ٤ـ٣٤٥

(٧) نجم : نشأ .

فحمل أبى مالو حملته الجبال لهاضها [1] فوالله إن اختلفوا فى مُعظمٍ إلاّ ذهب بحظّه ورشده ، وغنائه، وكنتُ إذا نظرتُ إلى عمر علمتُ أنه إنما خُلِقَ للإسلام ، فكان والله أحوذيا نسيج وحده [2] ، قد أَعَدَّ للأمور أقرانها .

وحدث أبو بكر بن دريد عن عبد الأول بن مزيد قال حدثنى [رجل] [3] فى مجلس يزيد بن هارون بالبصرة قال : لما تُوفِّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دُفِن ورجع المهاجرون والأنصار إلى رحالهم [4] ، ورجعت فاطمة إلى بيتها ، فاجتمع إليها نساؤها فقالت [5] :

اغبرّ آفاقُ السماءِ وكُوِّرَتْ ... شمسُ النهار وأظْلَم العصرانِ
فالأرضُ من بعد النبى كئيبةٌ ... أسفاً عليه كثيرةُ الرجفان [6]
فليبكهِ شَرْقُ البلادِ وغَرْبُها ... وليبكه مُضَرٌ وكل يَمَانِى
وليبكه الطُّور المعظَّم جَوُّهُ [7] ... والبيتُ ذو الأسْتَار والأَرْكانِ
ياخاتم الرسل المبارك ضوءُهُ [8] ... صلَّى عليك منزِّلُ الفُرْقان

رجع إلى كلام أبى بكر

وكان أبو بكر رَضِيَ الله عنه إذا أُثْنِى عليه يقول : اللهم أنت أَعْلَمُ بى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، فاجعلنى خيراً مما يَحْسَبُون ، واغفرلى برحمتك مالا يعلمون ، ولا تؤاخِذْنِى بما يقولون .

وقال رحمه الله فى بعض خطبه [9] : إنكم فى مَهَل ، من ورائه أَجل ، فبادروا فى مَهَل آجالكم ، قبل أن تنقطع آمالكم ، فتردكم إلى سوء أعمالكم .

وذكر أبو بكر الملوك فقال : إن الملك إذا مَلَك زَهَّده الله فى ماله ، ورغَّبه فى

---

(١) هاضها : دكها وحطمها . (٢) أحوذى : حاذق قاهر للأمور .
(٣) من ت . (٤) فى ت : منازلهم (٥) شاعرات العرب ١٦٥
(٦) فى الشاعرات: كثيرة الأحزان (٧) فى الشاعرات الطور الأشم وجوه، وفى ت الطود المعظم جوده (٨) فى الشاعرات ، وفى ت ضنؤه (٩) البيان والتبيين : ٢ ــ ٣١

مالِ غيره [١] ، وأشرب قلبه الإشفاق ، فهو يسخط على الكثير، ويَحْسُد على القليل، جَذل الظاهر ، حَزِين الباطن ، حتى إذا وَجَبَتْ نَفْسُه ، ونَضَب عمره ، وضَحا ظلُّه [٢] حاسبه الله فأشدَّ حسابَه وأقلّ عفوه [٣] .

وذكر أنه وصل إلى أبى بكر مالٌ من البحرين ، فساوى فيه بين الناس ، فغضبت الأنصار ، وقالوا له : فضِّلْنا ! فقال أبو بكر : صدقتُم، إن أردتُم أن أفضِّلكم صار ما عَمِلتموه للدُّنْيا ، وإن صَبَرتم كان ذلك لِلهِ عزَّ وجل ! فقالوا : والله ما عملنا إلاّ لله تعالى ، وانصرفوا ؛ فرَقِىَ أبو بكر المنبر ، فحَمِدَ اللهَ وَأَثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا معشر الأنصار ؛ إن شئتُم أن تقولوا إنَّا آوينا كم فى ظِلَالِنا ، وشَاطَرْنا كُم فى أموالنا ، ونصرنا كم بأنفسنا لقلتم ، وإنّ لكم من الفضل مالا يُحْصِيه العدد ، وإن طال به الأَمد ، فنحن وأنتم كما قال طُفيل الغنوى [٤] :

جزى الله عنّا جعفراً حين أُزْلِقَتْ ... بنا نَعْلُنا فى الواطئين فزَلّتِ [٥]
أَبَوْا أن يملُّونا ولو أنّ أمنَّا ... تُلاقِى الذى يَلقَوْنَ منا لملَّتِ
هُمُ أسكنونَا فى ظلالِ بيوتهم ... ظلال بيوتٍ أدفأتْ وأظلّتِ

فِقر من كلامه رضى الله عنه

صنائعُ المعروف تقِى مصارعَ السوء . الموت أهونُ مما بعده ، وأَشدّ مما قبله . ليست مع العزاء مصيبة ، ولا مع الجزع فائدة . ثلاث من كن فيه كنّ عليه : البَغْى ، والنكث ، والمَكر . إنّ الله قرَن وعده بوعيده ، ليكون العبدُ راغباً وراهبا .

رثاء عائشة له

ولما توفى رضى الله عنه وقفت عائشة على قبره فقالت [٦] : نضَّر الله وجْهَكَ

(١) فى العقد ٤ — ٦٠ ورغبه فيما فى يدى غيره . (٢) وجبت نفسه : فاضت روحه ، وضحا ظله : مات . (٣) فى ط : وأقل الأنصار عنه عقوبة .
(٤) المختار من شعر بشار : ١٩٩ . (٥) زلت : سقطت ، وفى ت : أزلفت .
(٦) العقد الفريد : ٢ — ٧ ، نهاية الأرب : ٥ — ١٦٧ .

يا أبَت، وشكر لك صالحَ سَعْيك ، فلقد كنتَ للدنيا مُذِلاًّ بإدْبَارِك عنها ؛ وللآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها ؛ ولئن كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤُك ، وأعظمَ المصائب بعدَه فقدُك ؛ إن كتاب الله ليَعِد بحُسْنِ الصبرِ عنك حُسْنَ العِوَضِ منك ، وأنا أستنجزُ موعودَ الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضيه بالاستغفار لك ، أمالَئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمتَ بأمرِ الدين لما وَهَى شَعْبُه[1] وتفاقَم صَدْعه[2] ورجفت جوانبه[3] ؛ فعليك سلام الله توديعَ غير قاليةٍ لحياتك ، ولا زاريةٍ على القضاء فيك[4] .

وقال أبو بكر لبلال لما قُتل أمية بن خلف وقد كان يسومُه سوء العذاب بمكة فيخرجه إلى الرَّمْضاء[5] فيلقى عليه الصخرة العظيمة ليفارق دين الإسلام فعصمه الله من ذلك :

هَنيئًا زادك الرحمنُ خيراً	فقد أدركت ثارك يابلالُ
فلا نِكْسا وُجِدْتَ ولا جَبَانًا	غداة تَنُوشُكَ الأَسَل الطوالُ[6]
إذا هاب الرجالُ ثبتَّ حتى	تخالِط أَنْتَ ما هابَ الرِّجالُ
على مضض الكُلوم بمشرفيٍّ	جلا أطراف متنيه الصِّقال

[من كلام عمر]

وكتب عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله : أمّا بعد ، فإنه من اتّقَى الله وَقَاه ، ومن توكّل عليه كَفَاه ، ومن شكر له زَادَه ، ومن أقْرَضه جزَاه ؛ فاجْعَلْ التقوى عمادَ قلبك ، وجلاءَ بصرك ؛ فإنه لا عملَ لمن لا نيـّةَ له ، ولا أَجْرَ لمن لا خشيةَ له ، ولا جديدَ لمن لا خَلَق له[7] .

---

(١) وهى شعبه : تفرق شمله . (٢) تفاقم صدعه : اتسع كسره .
(٣) رجفت : اضطربت . (٤) زارية : عائبة . (٥) الرمضاء : هى الحجارة التى اشتد عليها وقع الشمس فحميت . (٦) النكس : الضعيف ، والأسل : الرماح .
(٧) الخلق : القديم البالى .

ودخل عدىّ بن حاتم على عمَر ، فسلّم وعمرُ مشغول ؛ فقال: ياأميرَ المؤمنين ! أنا عدىّ بن حاتم ! فقال : ما أعْرَفَنى بك ! آمنتَ إذ كفروا ، ووفيتَ إذ غدَروا ، وعرفتَ إذ أنكروا ، وأقبلْتَ إذ أدْبَرُوا !

وقال رجل لعمر : مَن السيد ؟ قال : الجواد حين يُسأل، الحليم حين يُسْتَجْهَل ، الكريم المجالسةِ لمن جالَسه ، الحسَن الخُلُقِ لِمَنْ جاوَره .

وقال رَضِيَ الله عنهُ : ما كانتِ الدنيا همَّ رجلٍ قطّ إلا لزم قلبَه أربعُ خصال : فقرٌ لا يُدْرَكُ غناه ، وهمٌّ لا ينقضى مَدَاه ، وشُغْلٌ لا ينفَدُ أُولاه[١] ، وأمل لا يبلغُ مُنْتَهاه .

فصول قصار من كلامه رضى الله عنه

من كتم سره كان الخِيارُ فى يده . أَشقى الوُلَاة من شقِيَتْ به رعِيتُه . أَعقلُ الناس أَعذرُهم للناس . ما الخمر صِرْفا[٢] بأَذْهَب لعقولِ الرجالِ من الطمع . لا يكن حُبُّك كَلَفا ، ولا بُغْضُك تَلَفا . مُرْ ذوى القرابات أن يتزاوَرُوا ، ولا يتجاوَرُوا . قلَّما أَدْبر شىء فأقبل . أَشكو إلى الله ضَعْفَ الأمين ، وخيانةَ القوىّ . تكثَّروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن تُرْزَقون . لو أنّ الشكر والصبر بعيران ما باليت أيّهما أركب . من لا يعرفُ الشرّ كان أَجدر أَن يقع فيه .

وقال معاوية بن أبى سفيان لصعصعة بن صوحان : صِفْ لى عُمَرَ بن الخطاب ؛ فقال : كان عالمًا برعيّته ، عادلًا فى قضيّته ، عارياً من الكِبْر ، قبولًا للعُذْر ، سهل الحِجَاب ، مَصُونَ الباب ، متحرّياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير مُحَابٍ للقريب ، ولا جافٍ للغريب[٣] .

---

(١) فى ط : أوله . (٢) الخمر الصرف : الخالصة .

(٣) فى ت : غير عاب ولا مجاف .

وروى أن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه حجَّ فلما كان بضَجْنان(١) قال : لا إله إلا الله العلىّ العظيم ، المعطى مَنْ شاء ماشاء ، كنت فى هذا الوادى فى مِدْرَعة صوف أَرْعَى إبل الخطّاب ، وكان فظًّا يُتعِبنى إذا عملت ، ويَضربنى إذا قصّرت . وقد أمسيت الليلةَ ليس بينى وبين الله أحد ، ثم تمثل(٢) :

لا شىء مما ترى تَبْقَى بشاشتُهُ ... يبقى الإله ويُودِى(٣) المالُ والولدُ
لم تُغن عن هُرْمُز(٤) يوماً خزائنُهُ ... والخلد قد حاولتْ عادٌ فما خلدُوا
ولا سليمان إذْ تجرى الرياحُ لهُ ... والجنُّ والإنسُ فيما بينها تَرِدُ
أين الملوكُ التى كانت نوافلها ... من كل صَوْبٍ إليها وافِدٌ يَفِدُ
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كَدر(٥) ... لابدَّ من وِرْدِه يوماً كما وَرَدُوا

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم فتح مكة :

ألم تر أن اللهَ أظهرَ دِينَهُ ... على كل دينٍ قبل ذلك حائدِ(٦)
وأمكنه(٧) من أهل مكة بعد ما ... تداعَوْا إلى أمرٍ من الغىِّ فاسدِ
غداةَ أجالَ الخيلَ فى عَرَصاتها ... مسوَّمةً بين الزبير وخالد
فأمسى رسولُ الله قد عَزَّ نَصْرُهُ ... وأمْسَى عِداه مِنْ قتيل وشَارِدِ

يريد الزبير بن العوام حوارِىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالد بن الوليد سيف الله تعالى فى الأرض .

ولما قتله أبو لُؤْلُؤَة غلام المغيرة بن شُعْبة ، قالت عاتِكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوجته ترثيه(٨) :

عَيْنُ جُودِى بِعَبْرَةٍ ونَحِيبِ ... لا تَمَلِّى على الأمين النّجيبِ

---

(١) ضجنان : جبيل بناحية مكة . (٢) العمدة : ١ — ٢٠ . (٣) فى العمدة : ويفنى .
(٤) الهرمز : الكبير من ملوك العجم . (٥) فى ط ، ق : بلا كذب .
(٦) حائد : مائل ، وفى ت : جاحد . (٧) فى ط ، ق : وأسلبه .
(٨) شاعرات العرب : ١٦٨ .

فجّعتْنِى المنونُ بالفارسِ المُعْـ ... لَمِ يوم الهياج والتثويبِ[١]

عِصْمَةُ الناسِ والمُعِينُ على الدّهـ ... ـرِ وغيثُ المحروم والمحروبِ[٢]

قل لأَهْلِ الضراءِ والبؤس موتوا ... قد سقته المَنُونُ كأسَ شَعوب[٣]

وقالت أيضاً ترثيه[٤] :

وفجّعنى فَيْرُوزُ لا درَّ درُّهُ[٥] ... بأبيضَ تالٍ[٦] لِلْكِتابِ مُنِيبِ

رءوف على الأدنى غليظ على العِدَا ... أخِى ثقـة فى النائبات نجيب

متى ما يَقُلْ لايكذب القولَ فِعْلُهُ ... سريع إلى الخيرات غير قَطوبِ

وعاتـكة هذه هى أُخت سعيد بن زيد أحد العشرة الذين شهدَ لهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وكانت تحت عبد الله بن أبى بكر ، فأصابه سَهْمٌ فى غَزْوَة الطائف فمات منه ، فتزوّجها عمر رضى الله عنه فقُتِل عنها ، فتزوجها الزبير بن العوام فقُتِل عنها ؛ فـكان علىٌّ رضى الله عنه يقول : من أحبَّ الشهادة الحاضرة فليتزوّج بعاتِـكة !

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه

مايزَعُ الله بالسلطانِ أكثرُ مما يزَعُ بالقرآن[٧] . سيجعلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يسرا ، وبعد عِىٍّ بيانا ؛ وأنتم إلى إمام فعَّال ، أحوجُ منكم إلى إمام قوَّال ، قاله فى أول خلافته وقد صعد المنبر وأُرْتِجَ عليه .

وكتب إلى على رضى الله عنه وهو مَحْصُور[٨] : أمَّا بعد ، فقد بَلَغ السَّيْلُ الزُّبَى ، وجاوز الحزام الطُّبْيَيْن[٩] ، وطمِع فىَّ من كان لا يَدْفَع عن نفسه ، ولم يُعجزك

---

(١) التثويب : الدعاء . (٢) المحروب : المسلوب . (٣) شعوب : هى المنية .

(٤) شاعرات العرب : ١٦٨ . (٥) لا در دره : لا كثر خيره .

(٦) فى ت : قار . (٧) يزع : يكف . (٨) الكامل : ١١ .

(٩) الزبى : جمع زبية وهى الرابيـة لا يعلوها ماء ، وبلوغ السيل الزبى كناية عن اشتداد الأمر. الطبى : بالضم والكسر: حلمات الضرع ، وبلوغ الحزام الطبيين كناية عن الشدة .

كلئيم ، ولم يَغْلِبْكَ كمُغَلَّب[1] ؛ فأَقبِلْ إلىّ ، معى كنت أو علىّ ، على أىّ أمرَيْك أحببت .

فإن كنتُ مَأْكُولًا فكُنْ أنت آكِلى[2] وإلّا فأَدْرِكْنى ولَمّا أُمَزَّقِ

وهـذا البيت للممزِّقُ العبدى ، وبه سمى الممزّق[3] واسمه شأس ، وإنما تمثل به عثمان رضى الله عنه ؛ وحُذّاق أهل النظر يدفعون هـذا ، ويستشهدون على فساده بأحاديث تناقِضُه ليس هذا موضعها .

قالوا : وكان عثمان رضى الله عنه أتْقَى لِله أن يَسْعى فى أمره علىّ ، وعلىّ أتْقى لله أن يسعى فى أمرِ[4] عثمان ، وهـذا من قوله عليه السلام : أشقَى الناس مَنْ قتله نبى أو قتل نبيًّا .

[ومن كلام عثمان رضى الله عنه وأكرم نزله ، وقد تنكر له الناس : أمرُ هؤلاء القوم رعاع عير . تطأطأت لهم تطأطأ الدلاء وتلددت لهم تلدد المضطر . رأيتهم الحفَ إخوانا ، وأوهمنى الباطل لهم شيطانا . أجررت المرسون رسنه ، وأبلغت الراتع مسماته، فتفرقوا علىّ فرقاً ثلاثاً ، فصامتٌ صمتُه أنفذ من صَوْلِ غيره ، وشاهد أعطانى شاهدَه ومنعنى غائبَه ، ومتهافت فى فتنة زينت فى قلبه ، فأنا منهم بين ألسن لداد، وقلوب شداد ، عذيرى الله منهم ألا ينهى عالم جاهلا ، ولا ينذر حليمٌ سفيهاً ، والله حسبى وحسبُهم يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

سئل الحـكم بن هشام فقال : كان والله خيار الخيرة أمير البررة قتيـل الفجرة ، منصور النصرة ، مخذول الخذلة، مقتول القتلة :

ونظير البيت الذى أنشد قول صخر الجمد :

فإن كنت مأ كولا فـكن أنت آ كلى فإن منايا القوم أ كرم من بعض

---

(١) المغلب : الذى يغلب كثيراً . وهو من الأضداد . اللسان — مادة غلب .

(٢) فى اللسان : فـكن خير آ كل . (٣) اللسان — مادة مزق.

(٤) فى ط ، ق : أمر دم عثمان.

قال المتوكل : أتيت بأسارى فسمعت امرأة منهم تقول :

أمير المؤمنين سما إلينـا ... سمو الليث أخرجه العريف

فإن نسلم فعونُ الله نرجو ... وإن نقتل فقاتلنا شريف][1]

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لا يُعرف لعثمان شعر، وأنشد له بعضهم[2] :

غِنَى النفسِ يُغْنِى النفسَ حتى يكُفَّها ... وإنْ عَضَّها حَتَّى يضرَّ[3] بهـا الفقرُ

وما عُسْرةٌ ـ فاصْبِرْ لها إن تتابعَتْ ـ ... بباقيـةٍ إلاَّ سيتبعها يُسْرُ

وقول عثمان رضى الله عنـه فيما روى : « ولم يغلبك كمغلّب » من قول امرئ القيس[4] :

فإنكَ لم يَعْجَزْ عليك كفاجر[5] ... ضعيف ولم يغلبك مثل مغلَّبِ

وقال أبو تمام وذكر الخمر[6] :

وضَعيفةٌ فإذا أصابَتْ فُرْصةً ... قتَلتْ كذَلك قُدْرَةُ الضُّعَفاءِ

ومن كلام علىّ بن أَبى طالب قولُه رضى الله عنه

لا تَكُنْ ممن يرْجُو الآخرة بغير عمل ، ويؤخّرُ التوبةَ لطولِ الأمَل . ويقولُ فى الدنيا بقول الزاهدين ، ويعملُ فيها بعمل الراغبين ، إنْ أُعْطِىَ منها لم يشبع ؛ وإن مُنِع لم يَقْنَع ، يعجز عن شُكْرِ ما أُوتى ويبتغى الزيادة فيما بَقِى ، يَنْهى ولا يَنْتَهى ، ويأمرُ بما لا يَأْتى ، يحبُّ الصالحين ولا يعملُ أعمالهم ، ويُبْغِض المسيئين وهو منهم ؛ يكره الموتَ لكثرة ذنوبهِ ويقيمُ على ما يكرهُ الموت له ، إن سقم ظَلَّ نادما وإن صحَّ أَمِنَ لَاهِيا ، يُعجَب بنفسه إذا عُوفى ، ويَقْنَطُ إذا ابتلى ، تغلِبُه نفسهُ على ما يظنّ ، ولا يَغلِبُها على ما يستيقن ، ولا يَثِقُ من الرزق بما ضمن له ، ولا يَعْمَل من العمل

---

(١) زيادة من ت . (٢) العمدة : ١ ـ ٢١ ، المختار من شعر بشار : ٢١٣ .

(٣) فى ت : يظن . (٤) ديوانه : ٧٠ ، واللسان ـ مادة غلب .

(٥) فى الديوان : لم يفخر ... كفاخر . (٦) ديوانه : ٣ .

بما فُرِض عليه، إن استغنى بَطِرو فُتن، وإن افتقر قنَط وحَزِن، فهو من الذّنب والنعمة موقَر، يبتغى الزيادة ولا يَشْكر، يتكلَّف من الناس ما لم يُؤْمر، ويضيع من نفسه ماهو أكثر، ويُبالغ إذا سأل، ويقصّر إذا عمل! يخشى الموتَ، ولا يبادِر الفوت، يستكثِر من معصية غيره ما يستقلُّ أكثره من نفسه؛ ويستكثِرُ من طاعته ما يستقلّه[1] من غيره، فهو على الناس طَاعِن، ولنفسه مداهن، اللّغْوُ[2] مع الأغنياء أَحَبُّ إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيرِه لنفسه، ولا يحكمُ عليها لغيره، وهو يُطَاع ويَعْصِى؛ ويستوفِى ولا يُوفى.

وسُئِل رضى الله عنه عن مسألة فدخل مبادراً، ثم خرج فى حذاء ورداء، وهو يتبسّم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك كنت إذا سُئِلْت عن مسألة كنت فيها كالسِّكة المُحْماة[3]! فقال: إنى كنتُ حاقنا ولا رأْىَ لحاقن[4]، ثم أنشأ يقول:

إذا المشكلاتُ تصدَّين لى ... كشفتُ حقائِقَها بالنَّظَرْ
وإن برقت فى مخيل[5] الصوا ... ب عَمْياءُ لا تجتليها الذكر[6]
مقنعةً بأُمور الغيوب ... وضعت عليها صَحِيحَ الفِكَرْ
لساناً كشِقشِقة الأرحبىّ ... أو كالحسام اليمانِى الذَّكَرْ[7]
وقلباً إذا استنطقته العيون[8] ... أمرَّ عليها بواهى[8] الدرر
ولستُ بإمّعة فى الرّجال ... أُسائل عن ذَا وذَا ما الخبرْ[9]
ولكننى ذَرِب[10] الأصغريْنِ ... أبيِّن مع ما مضى ما غبر

وصف ضرار لعلى

وقال معاوية رضى الله عنه لضرار الصدائى: يا ضرار، صِفْ لى عليّا، فقال[11]:

---

(١) فى ت: ما يحقره. (٢) فى ت: اللهو. (٣) السكة: الحديدة.
(٤) الحاقن: هو الذى احتبس بوله. (٥) فى ت: محل.
(٦) فى ت: لا تهتدى بالفكر. (٧) أرحب: بطن من همدان تنسب إليها النجائب الأرحبية. (٨) فى ت: الفنون أبر عليها بواه درر. (٩) الإمعة: الرجل الذى لاخطر له.
(١٠) فى ت: مضرب. وفى ق: مدرب. ذرب الأصغرين: حديد القلب واللسان.
(١١) الأمالى: ٢ — ١٤٧.

أَغْفِني ياأميرَ المؤمنين، قال : لتصفنّه ، فقال : أما إذ أذنت فلا بدَّ من صفته : كان والله بعيدَ المدَى ، شديدَ القُوى، يقولُ فَصْلا ، ويحكمُ عَدْلا ، يتفجرُ العلمُ من جوانبه، وتنطقُ الحِكمةُ من نواحيه، يستوْحِشُ من الدنيا وزَهْرَتِها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزيرَ الدَّمْعَة ، طويلَ الفِكْرة يقلِّبُ كفَّه ، ويخاطب نفسَه ، يُعجِبُه من اللِّبَاس ما قَصُر ، ومن الطعام ما خشُن ، وكان فينا كأحدِنا ، يُجيبُنا إذا سألناه ، ويُنبِئُنا إذا استَنْبَأْنَاه ، ونحن مع تَقْرِيبِه إيَّانَا وقُرْبه منا لا نكادُ نكلِّمه لهيبته ، ولا نَبْتَدِئُهُ لعظمته ، يعظِّمُ أهلَ الدين ، ويحبُّ المساكينَ ، لا يَطْمَعُ القويُّ فى باطلِهِ، ولا يَيْأَسُ الضعيفُ من عدلِه ، وأشهدُ لقد رأَيْتُه فى بعضِ مواقفه وقد أرخَى الليلُ سُدُوله ، وغارت نجُومُه ، وقد مَثَل فى مِحْرَابه ، قابضاً على لحيته، يتَمَلْمَلُ تململَ السليم[1]، ويبكى بُكاءَ الحزين ، ويقول: يادُنْيَا إليكِ عَنّى ! غُرّى غَيْرِى ! ألى تَعَرّضْتِ، أم إلىّ تشوّفت ، هيهات ! قد بَايَنْتُك ثلاثاً لا رَجْعَةَ لِى عليك[2] ؛ فعُمْرُكِ قصير ، وخَطَرُكِ حَقِير، وخَطْبُكِ يسير ؛ آهِ من قِلّةِ الزاد، وبُعْدِ السَّفَرِ ووَحْشَةِ الطريق !

فبكى معاوية حتى أَخْضَلَت دموعُه لحيتَه، وقال: رحِمَ اللهُ أبا الحسن فلقد كان كذلك ، فكيف حُزْنُكَ عليه يا ضِرَار ؟ قال : حُزْنُ من ذُبِحَ وَاحِدُهَا فى حِجْرِها !

وقال علىّ رضوان الله عليه : رَحِمَ اللهُ عبداً سَمِعَ فوعَى ، ودُعِى إلى الرشاد فدَنا ، وأخذ بحُجْزَةِ هادٍ فنجا[3] ، وراقبَ ربَّه ، وخاف ذَنْبَه ، وقدّم خالصاً ، وعَمِل صالحا ، واكتسب مَذْخُوراً ، واجتنب مَحْذُوراً ، ورَمَى غَرَضاً[4] ، وكابر هَوَاه ، وكذّب مُنَاه ، وحذِر أجَلًا ، ودأب عَمَلًا ، وجعل الصبر رغبةَ حياته ، والتُّقَى عُدَّةَ وفاته ، يُظْهِرُ دون ما يَكْتُمُ ، ويكتفى بأقلّ[5] ممـا يعلم ، لزم الطريقةَ الغرّاء ، والمحجَّةَ البيضاء ، واغتنم المهل ، وبادَر الأجَل ، وتزوَّدَ من العمل .

---

(١) السليم : الملدوغ ، سمى بذلك تفاؤلا .
(٢) فى الأمالى : لا رجعة فيها .
(٣) أخذ بحجزة فلان : استظهر به واستعان .
(٤) فى ت : وذم عرضا .
(٥) فى ت : بما قل .

ولما رجع رضى الله عنه من صِفّين فدخل أوائل الكوفة إذا قَبْرٌ، فقال[1] : قَبْرُ مَنْ هَذا ؟ فقيل : خَبّاب بن الأرت ، فوقف عليه وقال : رحم الله خَبّابا ! أسلم رَاغِبا ، وهاجر طَائِعا ، وعاش مُجاهداً ، وابْتُلى فى جسمه أحوالا ، ولن يضيع اللهُ أجْرَ مَنْ أحسن عملا .

ومضى فإذا هو بقبور ، فوقف عليها وقال: السلامُ عليكم أهلَ الديار المُوحِشة، والمحال المُقْفِرة ، أنتم لنا سَلَف ، ونحن لكم تَبَع ، وبكم ـ عما قليل ـ لَاحِقون ؛ اللهم اغْفِرْ لنا ولهم ، وتجاوَزْ عنا وعنهم بعَفْوك ! طُوبَى لمن ذكر المَعَاد ، وعَمِل للحساب ، وقَنِع بالكَفَاف . ثم التفت رضى الله عنه إلى أصحابه فقال : أما إنهم لو تكلَّموا لقالوا : وجدنا خيرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

وذم رجلٌ الدنيا بحَضْرَةِ على رضى الله عنه فقال[2] : دارُ صِدْقٍ لمن صدقها ، ودارُ نَجَاةٍ لمن فهم عنها ، ودارُ غِنًى لمن تزوَّد منها ، مَهْبط وَحْى الله ، ومُصلَّى ملائكته، ومَسْجِد أنبيائه ، ومَتْجَر أوليائه ، رَبِحُوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنَّة ، فمن ذا يذمّها ، وقد آذَنَتْ ببَيْنِها ، ونادت بفِراقها ، وذكرت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ، ترغيباً وترهيباً ؛ فيأيّها الذامّ لها ، المعلّل نفسَه بغرورها ، متى خدعَتْكَ الدنيا ؟ أم بماذا استَدنَتْ إليك[3] ؛ أبِمَصْرَع آبائك فى البِلى ؟ أم بِمَضْجَع أمهاتك فى الثَّرى ؟ كم مرَّضت بكفّيك ، وكم عللت[4] بيديك ، تَطْلُب له الشفاء ، وتستوصف الأطباء ، غَدَاة لا يَنْفَعُه بكاؤك ، ولا يغنى دواؤك .

---

(١) أيام العرب فى الإسلام : ٣٩٦ . (٢) البيان والتبيين : ٢ ـ ١٠٢ .
(٣) فى ط ، ق : استذمت . (٤) فى ت : تعللت .. تطلب له الدواء .

فِقر من كلامه رضى الله عنه

[البشاشة فخ المودة . والصبر قبر المغبون . والغالبُ بالظلم مغلوب . والحجر المغصوب بالدار رهن بخرابها . وما ظفر من ظفرت به الأيام . فسالِمْ تَسْلَمَ][1] . رَأْيُ الشيخ خيرٌ من مَشْهدِ الغلام[2] . الناس أعداء ماجهلوا . بقية عُمر المؤمن لا ثَمَن لها، يدرك بها ما أفات [ويحيى ما أمات][1] .

نقل هذا الكلام بعضُ أهلِ العصر وهو أبو الفتح علىّ بن محمد البستى :

بقيةُ العمرِ عندى مالها ثَمن ... وإن غَدًا وهو محبوبٌ[3] من الثمنِ

يستدرك المرء فيها ما أفات ويحـ ... ـيى ما أمات ويَمْحُو السوءَ بالحسَنِ

الدنيا بالأموال ، والآخرةُ بالأعمال. لا تخافنّ إلا ذنبك ، ولا ترجوَنّ إلا ربك. وجِّهُوا آمالَكم إلى مَنْ تحبه قُلوبكم . الناسُ من خَوْف الذل فى الذل . مَنْ أيقَنَ بالخُلْفِ جاد بالعطية . بقيَّةُ السيفِ أنمَى عَدَدًا وأنْجَبُ ولداً ــ وقد تبينت صِحَّة ما قال فى بنيه وبنى المهلب ــ إنَّ من السكوت ما هو أبْلَغُ من الجواب[4] . الصبرُ مَطِيَّةٌ لا تَكْبُو ، وسَيْفٌ لا يَنْبُو . خَيْرُ المالِ ما أغْنَاك ، وخيرٌ منه ما كَفاك ، وخير إخوانك مَنْ وَاساك ، وخيرٌ منه من كفاك شره .

وقال بعضُ أهل العصر مايشاكِل هذا وهو أبو الحسن محمد بن لنكك البصرى:

عَدِمْنا فى زماننا ... عَنْ حَديثِ المكارمِ

مَنْ كفى الناسَ شرَّهُ ... فهو فى جُودِ حاتمِ

---

(١) زيادة من ت . (٢) مشهد الغلام : ما يشهده ويراه رأى العين .

(٣) فى ت : خير محبوب . (٤) بعده فى ت :

وقال أبو العباس الناشىء :

إنى ليهجرنى الصديق تجنبا ... فأريه أن لهجره أسبابا

وأخاف إن عاتبته أغريته ... فأرى له ترك العتاب عتابا

وإذا دهيت بجاهل متجاهل ... يدع الأمور من المحال صوابا

أوديته منى السكوت تفهما ... كان السكوت عن الجواب جوابا

أبو الطيب[١] :

إنَّا لَفِى زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بِهِ   من أكْثَرِ الناسِ إحْسَانٌ وإجْمَالُ

إذا قدرت على عدوّك فاجْعَلْ العفوَ عنه شكرا للقُدْرَة[٢] عليه . قيمةُ كلِّ امرئ ما يُحْسِن .

ذكر أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ هذه الكلمة فى كتاب البيان فقال : فلو لم نَقِفْ من هذا الكتاب إلاّ على هذه الكلمة لوجدناها شافية ، كافية ، ومُجْزِيَة مُغْنِيَةً ؛ بل لوجدناها فاضلة عن الكِفاية ، غير مقصِّرة عن الغاية ؛ وأَفضلُ الكلامِ ما كان قليلُه يُغْنِيك عن كثيره ، ومعناه ظاهراً فى لَفْظِهِ ، وكأَنَّ الله قد ألْبَسه من ثيابِ الجلالة ، وغشَّاه من نُورِ الحِكمة ، على حَسَب نِيَّةِ صاحبه ، وتَقْوَى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيحَ الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، منزَّها عن الاختلال ، مَصُوناً عن التكلّف صَنَع فى القلوب صنيع الغَيْثِ فى التُّرْبَةِ الكريمة ، ومتى فصِّلَت الكلمةُ على هذه الشريطة ، ونَفَذَت من قائلها على هذه الصِّفة ، أصحبها الله عز وجل من التوفيق ، ومنَحَها من التَّأْييد ، مالا يمتنعُ من تعظيمها به صدورُ الجبابرة ، ولا يذهل[٣] عن فَهْمِها معه عقولُ الجهلة .

ومن دُعَائِه رضى الله عنه فى حروبه

اللهم أَنْتَ أَرْضَى للرضا ، وأَسْخَط للسُّخط ، وأَقدر على أن تغيّر ما كرهت ، وأَعلم بما تقدر ، لا تُغْلَب على باطل ، ولا تعجز عن حَق ، وما أنت بغافل عما يعمل الظالمون .

---

(١) ديوانه : ٣ — ٢٨٧ .   (٢) فى ت : شكر المقدرة .

(٣) فى ت : ولا يذهب .

وقال على رضى الله عنه : [١]

لِمنْ رايةٌ سَوْدَاءُ يَخْفِق ظلُّها إذا قيـل قَدِّمْها حُضَيْنُ تقدَّما

فيوردها فى الصَّفِّ حتى تردها حِياضُ المنايا تقطرُ الموتَ والدَّمَا

جزى الله قوماً قاتلوا فى لقائهم لدى الروعِ قوماً ماأعز وأَكْرَما

وأطيب أَخْباراً وأَفضلَ شِيمةً إذا كان أصواتُ الرجال تَغَمْغُما [٢]

حضين الذى ذكره هو أبو ساسان الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة [٣] الرقاشي وكان صاحبَ رايَتِه يوم صفّين .

ويروى عنه أنه قال بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها :

أرى عِلَلَ الدنيا علىَّ كثيرةً وصاحبها حتى المماتِ عليلُ

لكلِّ اجتماعٍ من خليلين فُرْقةٌ وإنَّ الذى [٤] دُونَ المماتِ قليل

وإنَّ افتقادى فاطماً بعد أحمدٍ [٥] دليـلٌ على ألا يدومَ خَليلُ

ولما قتل عمرو بن عبد ودّ سقط فانكشفَتْ عَوْرَتُه ، فتنحَّى عنه وقال :

آلى ابنُ عبد ـ حين شَدَّ ـ أليّةً وحلفت فاستمعوا من الكذّابِ

ألّا يفرّ ولا يهلل فالتقى أسَدَان يَضْطَرِبان كلَّ ضراب

اليـوم يمنعنى الفرارَ حفيظتى ومُصَمِّمٌ [٦] فى الرَّأْسِ ليس بنَابِ

أعرضت حين رأيتُه متقطِّراً كالجذع بين دَكَادِكٍ ورَوَابى [٧]

وعففتُ عن أثوابه ولو اننى كنت القطّرَ بزَّنِى أثوابى [٨]

نصر الحجَارة من سفاهة رَأْيِهِ ونَصَرْتُ دينَ محمـد بصواب

لا تحسبُنَّ اللهَ خاذلَ دينـهِ ونَبيه يامعشر الأحزاب

فى أبيات غير هذه ، وبعض الرواة يَنْفِيها عن على رضى الله عنه .

---

(١) العمدة : ١ ــ ٢١ . (٢) التغمغم : الصوت عند القتال .

(٣) رعلة فى ت . (٤) فى ت : وكل الذى . (٥) فى ت : واحداً بعد واحد .

(٦) المصمم : السيف لا ينبو . (٧) متقطر : صريع ، والدكادك : جمع دكداك وهو الرمل المتلبد بالأرض . (٨) بز : سلب .

وعمرو هذا هو ابن عبد وُدٍ بن نضر بن مالك بن حسل [١] بن عامر بن لؤى ، وكان قد جَزَع المذاد [٢] ، وهو موضع حفر فيه الخندق يوم الأحزاب ، وفى ذلك يقول الشاعر :

عمرو بن ودّ [٣] كان أولَ فارس ... جَزَع المذاد وكان فارسَ يَلْيَلِ [٤]

ولما صار مع المسلمين فى الْخَندَق دعا البراز وقال :

ولقد بَحِحْتُ من النداء ... ءِ بجمعهم هل من مُبارِزْ

ووقفت إذ نكل الشجاع ... عُ بموْقِفِ البَطَلِ المُنَاجِزْ [٥]

إنى كذلك لم أزَلْ ... متسرِّعاً نحو الهزاهز [٦]

إنَّ السماحةَ والشجا ... عةَ فى الفتى خيرُ الغرائز

فبرز علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : ياعمرو ! إنك عاهدتَ الله لقريش ألاّ يدعوك أحدٌ إلى خلتّين إلاّ أخذت إحداهما ، فقال : أجل ! قال : فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام . قال : لاحاجَةَ لى بذلك . قال : فإنى أدعوك إلى المبارزة. فقال: يا بن أخِى ماأُحِبُّ أنْ أقْتُلَك ! قالَ على : لكنى واللهِ أُحِبُّ أن أقتلك . فحمِى عمرو فاقتحم عن فرسه وعَرْقبَه [٧] ثم أقبل إلى على :

فتجَاوَلاَ كغمامتين تكنّفت ... مَتْنَيْهما رِيحَا صَباً وشَمالِ

فى موقف كادت نفوسُ كُماتِه ... تُبتَزّ قَبْلَ تَوَرُّدِ الآجالِ

وعلت بينهما غبرة سترتْهُما فلم يَرُع المسلمين إلا التكبير ؛ فعلموا أن عليًّا قتله .

ولما قُتِلَ عمرو جاءت أُخته فقالت : مَنْ قتَلَه ؟ فقيل : على بن أبى طالب فقالت: كفءٌ كريم ! ثم انصرفت وهى تقول [٨] :

---

(١) فى ت : حسان . (٢) سيرة ابن هشام : ٣ ــ ٢٩٨ . (٣) فى ابن هشام ومعجم ما استعجم : بن عبد . (٤) فى ط : المزاد ، ويليل : واد ببدر .

(٥) نكل : نكص ، والمناجز : المبادر إلى القتال . (٦) الهزاهز : الشدائد والحروب لأنها تهزهز الرجال . (٧) عرقبه : قطع عرقوبه . (٨) شاعرات العرب : ١٢٦ .

لو كان قاتلَ عمرو غيرُ قاتلهِ ... لكنت أبكى (١) عليه آخرَ الأَبد
لكنَّ قاتلَه من لا يُعابُ بهِ ... وكان يُدْعَى قديماً بَيْضَةَ الْبَلَدِ
من هاشمٍ فى ذُراها وهى صَاعِدةٌ ... إلى السماءِ تُميتُ الناسَ بالحسَدِ
قومٌ أبَى الله إلا أن يكونَ لهم ... مكارمُ الدِّينِ والدُّنيا بلا أمَدِ (٢)
يا أم كلثوم بَكِّيهِ (٣) ولا تدعى ... بكاءَ مُعْولةٍ حَرَّى على وَلَدِ (٤)

أم كلثوم بنت عمرو بن عبد وُدّ . و « بيضة البلد » تُمْدحُ به العربُ وتُذَمّ (٥)، فمن مَدَح به جعله أصلا ، كما أن البيضة أصل الطائر ، ومن ذمّ به أراد أنْ لا أصل له.

قال الراعى يهجو عدىّ بن الرقاع العاملى :

يامن توعَّدنى (٦) جَهْلًا بكثرتهِ ... متى تهددنى بالعزِّ والعددِ
أنت امرؤٌ نال من عِرْضِى وعزتُه ... كعزة العير يرْعَى تلعة الأَسَدِ (٧)
لو كنتَ من أحدٍ يُهْجَى هجوتكمُ ... يا بنَ الرّقاع ولكن لَسْتَ من أحدِ (٨)
تأبى قُضَاعة أن ترضى (٩) لكم نسباً ... وابنا نزار فأَنْتُم بَيْضَةُ البلدِ (١٠)

وقال أبو عبيدة: عاملة بن عدى بن الحارث بن مرة بن أد [بن زياد] (١١) بن يشجب يطعن فى نسبه من قحطان ، ويقال هو عاملة بن معاوية بن قاسط (١٢) بن أهيب ؛ فلذلك قال الراعى هذا . ويقال : إن جندل بن الراعى قالها . وقد قال يحيى بن أبى حفصة الأموى فى عاملة :

---

(١) فى الشاعرات : لقد بكيت . (٢) فى شاعرات العرب : بلا لدد .
(٣) فى ط، ق: ابكيه . (٤) فى ت : على كبد . (٥) قال فى اللسان : إذا مدح بها فهى التى فيها الفرخ لأن الظليم حينئذ يصونها ، وإذا ذم بها فهى التى قد خرج الفرخ منها ورمى بها الظليم، فداسها الناس والإبل . (٦) فى ت : يأيها الموعدى . (٧) وفى ت : وغرته كغرة العير يرعى بلغة الأسد . والعير : الحمار ، وتلعة الأسد : الرابية التى يحميها .
(٨) اللسان — مادة بيض . (٩) فى اللسان : لم تعرف . (١٠) أرادأنه لا نسب له .
(١١) زيادة ليست فى ت . (١٢) فى ت : واسط وفى ق : قاسط بن هنب .

ولسنا نُبَالى نَأْى [١] عاملة التى أجدَّ بها من نحو بُصرى انحدارُها
تدافعها الأحياءُ حتى كأنها ثيابٌ بدا للمشترين عَوَارُها
قذفنا بها لَمَّا نأت قَذْفَ حاذفٍ [٢] بسودِ حصًى خفَّت عليه صِغَارُها

ويشبه قـولُ على رضى الله عنه « وعففت عن أثوابه » قولَ عنترة بن شداد العبسى [٣] :

هلاَّ سألت الخيلَ يابْنَةَ مَالِكٍ إن كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلَمِى
يخبِرْكِ مَنْ شَهِد الوقيعـةَ أننى أغْشَى الوغَى وأعِفّ عند المغنم

وقال حبيب بن أوس الطائى [٤] .

إنّ الأسودَ أسودَ الغابِ هِمَّتُها يومَ الكريهة فى المَسْلُوبِ لا السلَبِ [٥]

* * *

قد علقت بذيل ما أوْردته ، وألحقت بطرف ما جردته ، من كلام سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار الطيبين الطاهرين، قطعـة من كلام الخلفاء الراشدين ، قدمتها أمام كلّ كلام ، لتقدمهم على الخَلْق ، وأخذهم بقصَبِ السَّبْقِ [٦] ، وهم كما قال بعضُ المتكلِّمين ـ يصف قوما من الزهاد الواعظين . جَـلَوْا بكلامهم الأبصار العليلة ، وشحذوا بمواعظهم الأذهانَ الكليلة ، ونَبَّهُوا القلوبَ من رَقْدَتِها ، ونَقَلُوها عن سوء عادَاتِها ، فشَفَوْا من داء القسوة ، وغَبَاوة الغَفْلَةِ، وداووا من العىِّ الفاضح ، ونَهجُوا لنا الطريقَ الواضح . وآثرت أن ألحق بعد ذلك جملةً من سليم كلام سائر الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم أجمعين ، وأدرج فى دَرج كلامهم، وأثناء نثرهم ونظمهم، ماالتفَّ عليه والتفت إليه، وتعلَّق بأغصانه،

---

(١) فى ت : رأى . (٢) فى ت : حاذق . (٣) ديوانه : ١٢٦ .
(٤) ديوانه : ١٠ . (٥) السلب : الغنيمة . (٦) أخذ قصب السبق كناية عن الفوز .

وتشبَّثَ بأَفنَانِه ، كما تقدّم ، وأخرج إلى صفات البلاغات ، وآخُذ بعد ذلك فى نظم عقود الآداب ، ورَقْمِ برود الألباب .

من كل معنًى يكاد الميْتُ يَفْهَمُهُ حُسناً ويَعْبُدُه القِرْطَاسُ والقلمُ

[من كلام الصحابة والتابعين]

من كلام معاوية

قال معاوية [1] بن أبى سفيان رحمه الله : أَفْضَلُ ماأعطى الرجلُ العقلُ والحلمُ ؛ فإذا ذُكِّر ذكر ؛ وإذا أساء استغفر ، وإذا وَعَد أنجز .

وصف معاوية الوليد بن عتبة فقال : إنه لبعيد الغَوْر ، ساكن الفور [2] ، وإن العود من لِحَائه [3] ، والولد من آبائه ، والله إنه لنبات أصل لا يخلف ، ونجل فَحْلٍ لا يقرف .

ومرض معاوية مرضاً شديداً فأرجف به مَصقلة بن هبيرة وساعَده قومٌ على ذلك ، ثم تماثل وهم فى إرجافهم [4] فحمل زياد مَصقلة إلى معاوية وكتب إليه [5] : « إنه يجمَعُ مُرّاقاً من مُرّاق العِراق [6] فيُرْجِفُون بأمير المؤمنين . وقد حملته إليه ليَرَى رأيه فيه » .

فقدم مَصْقَلة وجلس معاويةُ للناس ؛ فلما دخل عليه قال : ادْنُ منى ! فدنا منه فأخذَهُ بيده فجذَب به فسقط مَصْقَلة ؛ فقال معاوية :

أبقى الحوادثُ من خليـ لك مِثْلَ جَنْدَلةِ المَرَاجِمْ

(١) فى ت : عبد الله بن أبى سفيان . (٢) بعد الغور كناية عن أصالة الرأى . الفور : الغضب . وسكون الفور : كناية عن الحلم . (٣) اللحاء : القشر .
(٤) الإرجاف : الخوض فى أخبار الفتن . (٥) الأمالى : ٢ ـ ٣١١ ، اللآلى : ٩٥٩ .
(٦) مراق : جمع مارق ، وهو الخارج على الجماعة .

صُلباً إذا خارَ الرجا ل أَبلَّ ممتنعَ الشكائم (٧)
قد رامنى الأعداء قَبْ لك فامتَنَعْتُ عن المظالم

قال مصقلة : يا أمير المؤمنين ؛ قدأبقى الله منكَ ماهو أعْظمُ من ذلك [بطشا](٢) وحِلماً [راجحا] (٢) وكلأً ومرعًى لأوليائك ، وسمّا ناقعاً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوكَ سيدَ المشركين ، وأصبح الناس مسلمين ؛ وأنت أميرُ المؤمنين . وقام .

فوصله معاويةُ ، وأذن له فى الانصراف إلى الكوفة . فقيل له : كيف تركْتَ معاوية ؟ فقال : زعمتم أنه لما به (٣) ، والله لقد غَمزنى غمزة كاد يَحْطِمُنى ، وجذبنى جَذْبَة كاد يكسر عُضْواً منى !

ودخل الأحنفُ بن قيس على معاوية وافداً لأهلِ البصرة ، ودخل معه النَّمر ابن قُطْبة ، وعلى النمر عباءة قَطَوَانيَّة (٤) ، وعلى الأحنف مِدْرَعَةُ (٥) صوف وشَملة ، فلمامثلا بين يدى معاوية اقتحمَتْهُمَا عينُه؛ فقال النمر : يا أميرَ المؤمنين ! إنَّ العباءة لا تكلِّمك ، وإنما (٦) يكلمك مَنْ فيها ! فأومأَ إليه فجلس ، ثم أقبل على الأحنف فقال : ثم مَهْ ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ؛ أهلُ البصرة عددٌ يسير ، وعَظْمٌ كسير ، مع تتابع من المُحُول (٧) ، واتصالٍ من الذُّحول (٨) فالمُكْثِرُ فيها قد أطرق ، والمُقِلُّ قد أَمْلَق (٩) ، وبلغ منه المَخْنَق (١٠) . فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن ينعشَ الفقيرَ ، ويَجْبُرَ الكسير ، ويسهِّل العسير ، ويَصْفَح عن الذُّحول ، ويُداوِى المُحُول ، ويأمر بالعَطَاء ؛ ليكشف البَلَاء ، ويُزيل اللأْواء (١١) . وإنَّ السيدَ من يعمّ ولا يَخُصّ ،

---

(١) الأبل : الجرىء الغالب فى كل شىء ، وقيل : هو الشديد الخصومة .

(٢) الزيادة من الأمالى . (٣) فى الأمالى أنه كبر وضعف. (٤) نسبة إلى قطوان وهو موضع بالكوفة . (٥) المدرعة : ثوب ولا يكون إلا من صوف . (٦) فى ط : وإن .

(٧) فى ت : النحول . (٨) الذحول : جمع ذحل وهو الثأر . (٩) أملق : افتقر .

(١٠) فى ت : وبلغ منه الضر المحقق . (١١) اللأواء : الشدة .

ومَنْ يدعو الجَفَلى ، ولا يَدْعُو النَّقَرى [١] ، إنْ أُحْسِنَ إليه شكر ، وأن أُسِيء إليه غَفر ، ثم يكون وراء ذلك لرعيته عِمَاداً يرفع عنها المُلِمّاتِ ، ويَكْشِف عنهم المعضلات .

فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بحر ! ثم تلا : (ولتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ القَوْل) .

ومن جميل المحاورات مارواه المدائنى قال : وفَدَ أَهْلُ العِرَاق على معاوية رحمه الله ، ومعهم زيادٌ ، وفيهم الأَحنف فقال زياد : يا أميرَ المؤمنين ؛ أَشْخَصتْ إليك أَقْوَاماً الرغبة ، وأقعدَ عنك آخرين العُذْرُ ، فقد جعل الله تعالى فى سعة فضلك ما يُجْبَرُ به المتخلف ، ويُكَافأُ به الشاخص . فقال معاوية : مرحباً بكم يامعشرَ العرب ، أما والله لئن فرَّقَتْ بينكم الدعوة لقدجمعتكم الرَّحِم ؛ إن الله اختاركم من الناس ليختارَنا منكم ، ثم حفظ عليكم نَسَبَكم بأن تخيَّر لكم بلاداً تُجتازعليها المنازل ، حتى صفَّاكم من الأُمم كما تصفَّى الفضةُ البيضاء من خَبَثِها ؛ فصونوا أَخلاقكم ، ولا تُدَنِّسُوا أنسابَكم وأعراضكم ، فإنّ الحسَنَ منكم أحْسَنُ لقُرْبكم منه ، والقبيح منكم أَقبح لبعدكم عنه .

فقال الأحنف : والله يا أمير المؤمنين ، ما نَعْدَم منكم قائلا جزيلا [٢] ، ورأيا أصيلا ، ووعْداً جميلا ؛ وإنّ أخاك زياداً لمتَّبعٌ آثارَك فينا ، فنستمتع الله بالأمير والمأمور ، فإنكم كما قال زهير ، فإنه ألقى على المدّاحين فصول القول [٣] :

ومايكُ من خَيْرٍ أَتوْهُ فإنَّما تَوَارَثَهُ آباءُ آبائِهم قَبْلُ
وهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلاّ وَشِيجُهُ وتُغْرَسُ إلاّ فى مَنَابِتِها النَّخْلُ [٤]

وهذان البيتان لزهير بن أبى سلمى المزنى فى قصيدة يقول فيها [٥] :

---

(١) الجفلى : الدعوة العامة ، والنقرى : الدعوة الخاصة . (٢) الجزيل : العاقل الأصيل الرأى . وفى ت : نائلا جزيلا . (٣) ديوانه : ١١٥ ، المختار من شعر بشار ٤٤ .

(٤) الخطى : نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين وتنسب إليه الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها ، والوشيج : شجر الرماح . (٥) ديوانه صفحة ١١٣ .

وفِيهِمْ مَقَاماتٌ حِسانٌ وجُوهُها ... وأنْدِيَةٌ يَنْتَابُها القَوْلُ والفِعْلُ
على مُكْثِرِيهم رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وعند المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ والبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُم قومٌ لكَىْ يُدْرِكُوهُمْ ... فلم يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا[1] ولَم يَأْلُوا

قال بعض أهل العلم بالمعانى : أَعْجِبْ بقوله : « ولم يألوا » ، لأنه لما ذكر السَّعْىَ بعدهم ، والتخلُّف عن بلوغ مساعيهم جاز أن يتوهَّمَ السامع أنّ ذلك لتقْصِيرِ الطالبين فى طلبهم ؛ فأخبر أنهم لم يَأْلُوا ، وأنهم كانوا غيرَ مقصّرين ، وأنهم — مع الاجتهاد — فى المتأخرين ؛ ثم لم يرْضَ بأن يجعل مَجْدَهم طارفا فيهم ، ولا جديدا لديهم ، حتى جعله إرْثاً عن الآباء ، يتوارَثُه سائرُ الأبناء ، ثم لم يرْضَ أن يكونَ فى الآباء حتى جعله موروثا عن آبائهم ، وهذا لو تكلَّفه متكلف فى المنثور دون الموزون لما كان له هذا الاقتدار مع هذا الاختصار .

وكانت قريشٌ معجبةً بشعر زهير ، وقالوا[2] النبى صلى الله عليه وسلم . إنّا قد سمعنا كلامَ الخطباء والبلغاء وكلامَ ابن أبى سلمى فما سمعنا مثلَ كلامه من أحد ؛ فجعلوا ابن أبى سلمى نهايةً فى التجويد ، كما ترى .

وذكر أن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه قال : إن من أشعر شعرائكم زهيرا ، كان لا يُعاظِل بين الكلام ولا يتبع حُوشِيَّه ، ولا يمدح الرجلَ إلا بما يكون فى الرجال .

وأخذ معنى قولِ زهير : * سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم * طُرَيح بن إسماعيل الثقفى ، فقال لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على السفاح :

قد طلب الناسُ ما بلغتَ ولَمْ ... يَأْلُوا فما قارَبُوا وقد[3] جهدوا
فهم ملوكٌ ما لم يرَوكَ ، فإنْ ... لاح لهم مِنْكَ بارقٌ خمَدُوا

---

(١) فى ط : أو لم يلموا . (٢) فى ط : وقال للنبى .
(٣) فى ت : ولو . جهدوا : تعبوا .

تعروهُمُ رِعْدةٌ لدَيْكَ كما   قُرقِفَ[1] تحت الدجُنَّة الصَّرِدُ
لاخوفَ ظُلْم ولا قِلَى[2] خُلُقٍ   لكن جلالًا كَسَاكَهُ الصَّمَدُ
ما يُبقك اللهُ للأنام[3] فما   يفقد من العالمين مفتقد

وقال معاوية رحمه الله : المروءةُ احتمالُ الجريرة[4]، وإصلاحُ أمرِ العشيرة ؛ والنبلُ الحلم عند الغضب ، والعفوُ عند المقدرة .

فِقَر من كلامه رضى الله عنه

ما رأيتُ تبذيراً قَطُّ إلاَّ وإلى جَنْبه حقٌّ مُضَيَّع . أنْقَصُ الناسِ عَقْلا مَنْ ظَلَم مَنْ هُو دونَه . أولى الناس بالعَفْوِ أقدرُهم على العقوبة . التسلُّط على المماليك مِنْ لُؤْمِ المقدرة وسوء الملكة .

وقال يحيى بن خالد : ما حَسُنَ أدبُ رجلٍ إلّا ساء أدبُ غِلْمانه .

وقال معاوية : إصلاحُ ما فى يدك أَسْلَم من طلب ما فى أيدى الناس . غَضَبى[5] على مَنْ أَملِك ، وما غضبى على مَنْ لَا أَمْلِك[6] .

* * *

الجمع بين التهنئة والتعزية

ولما تُوُفِّى معاويةُ رحمه الله واستُخْلِف يزيدُ ابنه اجتمع الناسُ على بابه ، ولم يقدروا على الجَمْع بين تهنئة وتعزية حتى أتى عبدُ الله بن همّام السَّلُولى ، فدخل عليه فقال[7] : يا أميرَ المؤمنين ، آجرَكَ اللهُ على الرَّزِيّة ، وبارك لك فى العطيَّة ، وأعانك على الرعيَّة، فلقد رُزِئْتَ عظيما، وأُعْطِيتَ جسيما، فاشْكُرِ اللهَ على ماأُعْطيت، واصبر له على ما رُزِيت ؛ فقد فقدتَ خليفة الله ، ومُنِحْتَ خِلافة الله ؛ ففارقتَ جليلا ، ووُهبتَ جزيلا ؛ إذْ قضى مُعَاوِيةُ نَحْبه فغفر الله ذَنْبَه ؛ ووُلِّيت الرياسة

(١) فى ت : تهتز ، وقرقف : أرعد ، والدجنة : الظلمة وإلباس الغيم وتكاثفه ، والصرد : من وجد البرد سريعا . (٢) القلى : البغض . (٣) فى ت : ما يبعك الله الأنام .
(٤) الجريرة : الجناية ، واحتمال الجريرة كناية عن دفع الدية . (٥) فى ت : ما غضبى.
(٦) فى ت : من أهلك . (٧) البيان والتبيين: ٢ — ٦٧ ، نهاية الأرب : ٥ — ٢١٥.

فأُعطيت السياسة ؛ فأوردك الله مواردَ السرور ، ووفَّقك لصالح الأمور ، وأنشده :

اصبِرْ يَزِيد فقد فارقْتَ ذا ثقةٍ واشكر حِباء الَّذِى بالمُلْكِ أَصْفَاكا[1]
لا رُزْءَ أَصْبَح فى الأقوام نَعْلَمه كما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كعُقْبَاكا
أَصْبَحْتَ والىَ أمرِ الناسِ كلّهم فأَنْتَ تَرْعَاهمُ واللهُ يَرْعَاكا
وفى معاويةَ الباقِى لنا خَلَفٌ إذا نُعيتَ ولا نسمعْ بمَنْعَاكا

يريد أبا ليلى معاوية بن يزيد ، ووُلِّى بعد أبيه شهوراً ، ثم انخلع عن الأمر ، فقال القائل :

* والملك بعد أَبى ليلى لمن غلبا *

وأول مَنْ فَتَح الباب فى الجمع بين تهنئة وتعزية عبد الله بن همام فَولجه النـاس .

من جيدما قيل فى ذلك

ومن جيِّد ما قيل فى ذلك قصيدة أبى تمام الطائى يمدح الواثق ويرثى المعتصم يقول فيها[2] :

إن أَصبحَتْ هضباتُ قدس أزالها قدَرٌ فما زالت هِضابُ شَمامِ[3]
أو يُفْتقد[4] ذوالنونفىالهَيْجَا فقد دَفَعَ الإلهُ لنا عن الصَّمصام
أو كنت منا غاربا غدوا فقد رُحْنَا بأسمى غَارِبٍ وسنام[5]
تلك الرزيّةُ لا رزيَّةَ مثلها والقَسْم ليس كسائرِ الأقسام

وهذا المعنى كثير .

وكان معاوية رحمه الله قد ترك قولَ الشعرِ فى آخر عمره ، فنظر يوماً إلى جاريةٍ فى داره ذات خَلْق رائع ، فدعاها فوجدها بِكراً فافترعها ، وأنشأ يقول :

سئمت غوايتى فأَرَحْتُ حلمى وفىَّ على تحملىَ اعتراضُ
على أنى أُجيب إذا دعتنى ذواتُ الدَّل والحَدَق المِراضُ

---

(١) الحباء : العطاء . أصفاه : آثره . (٢) ديوانه : ٢٧٦ . (٣) شمام: اسم جبل لباهلة.
(٤) فىالديوان : أو تفتقد ذا النون . (٥) رواية الديوان : رحنا بأتمك ذروة وسنام ،
وفى ت : أوجب منا غارب عدواً فقد عدنا بأتمك غارب وسنام .

فِقَر لجماعة الصحابة والتابعين رضى الله عنهم

ابن عباس : الرخصة من الله صدقة ، فلا تردُّوا صدقته . لكل داخلٍ هيبة[١] فابدءوه بالتحية ؛ ولكل طاعم حشمة فابدءوه باليمين .

ابن مسعود رحمه الله : الدنيا كلها همومٌ ، فما كان منها فى سرور فهو ربح .

عمرو بن العاص : مَنْ كثر إخوانه كَثُرَ غُرَماؤه . وقال : أكرموا سفهاءَكم ، فإنهم يكفونكم العارَ والنار .

المغيرة بن شعبة : العيشُ فى بقاءِ[٢] الحِشْمَة . فى كل شىء سَرَف إلا فى المعروف. هذا كقول الحسن بن سهل — وقد أنْفَق فى دخول ابنته بوران على المأمون أموالا عظيمة — فقيل له : لا خيرَ فى السَّرف . قال : لا سَرَف فى الخير . فرد اللَّفْظَ واستوفى المعنى .

معاذ بن جبل : الدَّين هَدْم الدين .

زياد : ارْضَ من أخيك إذا وُلِّىَ ولايةً بعُشْر وُدِّه قبلها .

مصعب بن الزبير : التَّوَاضع من مصايد الشرف .

الأحنف بن قيس : من لم يَصْبِرْ على كلمة سَمِعَ كلمات ! وقيل له : مَن السيد ؟ قال : الذى إذا أَقْبَل هابوه ، وإذا أَدْبَر عابُوه[٣] . وله : سرَّكَ مَنْ ذمَّك . وله : مَنْ تَسَرَّع إلى الناس بما يكرَهون قالوا فيه مالا يَعْلَمون . وله : الكاملُ مَن عُدَّت هفواته .

وقال يزيد بن محمد المهلبى :

ومن ذا الذى تُرْضَى سَجَايَاه كلُّها كفى المرء نُبْلًا أن تُعَدَّ مَعَايبُه

---

(١) فى ت : دهشة . (٢) فى ت : إلقاء . (٣) فى ت : اغتابوه .

الحسن البصرى : ألَا تَسْتَحْيُونَ من طول مالا تستحيون ! ابن آدم راحِلٌ إلى الآخرة كل يوم مرحلة . ما أَنْصَفَك مَنْ كلَّفك إجلالَه ، ومنعك مالَه . بدن لا يشتكى مثل مالٍ لَا يزكى[١] . إن امرأً ليس بينه وبين آدم أب حى لَمُعرِق فى الموتى .

قال الطائى[٢] :

تأمَّل رويداً هل تُعَدّنَّ سالمًا ... إلى آدمٍ أو هل تُعَدُّ ابنَ سالمِ

وقال أبو نواس[٣] :

وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ ... وذو نسبٍ فى الهالكين عريقِ

إذا اُمتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت ... له عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ

وكان المأمون يقول : لو قيل للدنيا : صِفِى نفسك ما عدَت هـذا البيت ؛ وهو مأخوذ من قول مزاحم العقيلى[٤] :

قضين الهوى ثم ارتَمَيْنَ قلوبَنا ... بأَسْهُمِ أعداء وهُنَّ صديقُ

عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما الجَزَعُ مما لا بدَّ منه ؟ وما الطمعُ فيما لا يرجى ؟ لا تَكُنْ ممَّنْ يلعَن إبليس فى العلانية ويُوالِيه فى السرّ .

الشعبى : إنى لأَسْتَحْيِى من الحقّ إذا عرفتُه أَلاَّ أرجعَ إليه .

قطعة من كلامٍ لبنى على بن أبى طالب أهل البيت رضى الله عنهم

[أهل الفضل والإحسان، وتلاوة القرآن، ونبعة الإيمان، وصوام شهر رمضان][٥]

ولهم كلامٌ يعرض فى حَلْى البيَانِ، ويُنْقَش فى فصّ الزمان ، ويُحفَظُ على وَجْهِ الدهر ،

---

(١) فى ط : مثل مالا يزكى . (٢) ديوانه : ٣١٨ .

(٣) ديوانه : ١٩٢ ، الوساطة : ٢٠٠ . (٤) الوساطة : ٢٠٠ ، وهو هناك منسوب إلى جرير وقد روى فى ديوانه : ٣٩٨ : دعون الهوى . وفى ت : نصن .

(٥) زيادة من ت .

ويَفْضَحُ قلائدَ الدُّر ، ويُخْجِل نورَ الشمس والبدر ، ولِمَ لا يطئون ذيولَ البلاغة ، ويجرّون فضولَ البراعة ، وأبوهم الرسولُ ، وأمُّهم البتول[1] ، وكلُّهم قد غُذِّى بدَرِّ الحكم ، ورُبِّىَ فى حِجْر العلم :

ما منهُمُ إلا مُرَبّى بالحِجَى ... أو مُبْشَرٌ بالأَحْوَذِيَّة مُؤْدَمُ[2]

آخر :

نَمَتْهُ العرَانين مِنْ هاشِمٍ ... إلى النسب الأصْرَح الأوْضَحِ[3]
إلى نَبْعَة فَرْعُها فى السماء ... ومَغْرِسُها فى ذُرَى الأَبْطَحِ[4]

وهم كما قال مسلم بن بلال العبدى ـ وقد قيل له : خطب جعفرُ بن سليمان[5] خطبةً لم يُر أَحسن منها ، فلا يُدرى أَوَجْهه أحسن أم خُطْبَته ؟ فقال : أولئك قوم بنور الخلافةِ يُشرِقون ، وبلسان النبوّةِ ينطِقُون ، وفيهم يقول القائل :

لو كانَ يوجَدُ عرْفُ مَجْدٍ قبلَهُمْ ... لوجـدتَه منهم على أَميالِ
إن جئتَهم أبصرتَ بين بيوتهم ... كَرَماً يَقيك مواقفَ التَّسْآلِ
نورُ النبـوّة والمـكارم فيهمُ ... متوقّد فى الشِّيبِ والأطفـال

وسُئِل سعيد بن المسيب : مَنْ أَبلغُ الناسِ ؟ فقال: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. فقال السائل : إنمـا أَعْنى مَنْ دونه . فقال : معاوية وابنُه ، وسعيد وابنُه ، وإنّ ابنَ الزبير لحسَنُ الـكلام، ولَـكِنْ ليس على كلامِه ملح . فقال له رجل : فأَين أنتَ من علىّ وابنه ، وعباس وابنه ؟ فقال : إنما عَنَيت من تقارَبَتْ أشكالُهم ، وتدانَتْ أحوالُهم ، وكانوا كسِهَامِ الجَعْبَةِ[6] ؛ وبنو هاشم أَعلامُ الأنامِ ، وحُـكَّامُ الإسلام .

---

(١) البتول : فاطمة بنت النبى سميت بذلك لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ودينا وحسنا، والمنقطعة عن الدنيا إلى الله تعالى . (٢) الأحوذية : الإسراع فى كل شىء . رجل مؤدم مبشر وهو الذى جمع ليناً وشدة مع المعرفة بالأمور . وفى الصحاح : فلان مؤدم مبشر إذا كان كاملا من الرجال . وفى ت : ومبشر . (٣) العرانين : الأوائل ، وفى ت : العرائس .

(٤) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . (٥) فى ت : جعفر بن على بن عبد الله ابن العباس بن سليمان . (٦) الجعبة : الـكنانة .

فصل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى ذكر قريش وبنى هاشم

قد علم الناسُ كيف كَرَمُ قريش وسخاؤها ، وكيف عقولُها ودهاؤُها ، وكيف رأْيُها وذكاؤها ، وكيف سياسَتُها وتدبيرُها ، وكيف إيجازُها وتحبيرها[1] ، وكيف رجاحةُ أَحلامها إذا خفَّ الحليم، وحِدَّةُ أذهانِها إذا كَلَّ الحديد[2] ، وكيف صَبْرُها عند اللقاء ، وثباتُها فى اللَّأْوَاء ، وكيف وفاؤُها إذا استُحسن الغَدْرُ ، وكيف جودُها إذا حُبّ المال ، وكيف ذِكْرُها لأحاديث غد ، وقلةُ صدودِها عن جهة القَصْدِ ، وكيف إقرارُها بالحق ، وصَبْرُها عليه ، وكيف وصْفُها له ، ودعاؤُها إليه ، وكيف سماحةُ أَخلاقها ، وصَوْنُها لأَعْرَاقِها ، وكيف وصلوا قديمَهم بحديثِهم ، وطريفَهم بتَليدِهم ، وكيف أَشْبَه علانيتهم سرّهم ، وقولهم فِعْلهم . وهل سلامةُ صَدْرِ أحدِهم إلّا على قدر بُعْدِ غَوْرِه؟ وهل غَفْلَتُه إلّا فى وزن صِدْقِ ظنّه ؛ وهل ظنُّه إلّا كيقين غيرِه ؟

وقال عمر : إنك لا تنتفع بعقله حتى تنتفع بظنّه . قال أوس بن حَجَر[3] :

الأَلْمَعِىّ[4] الذى يظنُّ لك[5] الظَّنَّ كأنْ قد رأَى وقَدْ سَمِعَا

وقال آخر[6] :

مَليحٌ نَجيحٌ أَخُو مَازِنٍ[7] فصيحٌ يحدِّثُ بالغائبِ

وقال بلماء بن قيس :

وأَبْغى صَوَابَ الرَّأْىِ أَعْلَمُ أَنَّهُ إذا طَاشَ ظَنُّ المرءِ طَاشَتْ مَقَادِرُهْ

---

(١) فى ط : وتحسيرها . (٢) الحديد : القوى الذهن .

(٣) اللسان ــ مادة لمع . (٤) فى اللسان : نصب الألمعى بفعل متقدم .

(٥) فى ط : بك . (٦) فى اللسان ــ مادة نجح بيت لأوس روايته :

نجيح جواد أخو ما قط نقاب يحدث بالغائب

ورجل نجيح : منجح الحاجات . (٧) وفى ت : أخو ماقط .

بل قد علم الناس كيف جمالُها وقَوامُها ، وكيف نماؤُها وبهاؤُها ، وكيف سَرْوُها ونَجابتها[1] ، وكيف بيانُها وجَهارتها ، وكيف تفكيرُها وبَداهتُها ، فالعَرب كالبَدَن وقريشٌ روحُها ، وقريش روحٌ وبنو هاشم سرُّها ولُبُّها ، وموضعُ غاية الدينِ والدنيا منها ، وبنو هاشمٌ مِلح الأرض وزينةُ الدنيا ، وحلى[2] العـالم ، والسنام الأَضخم ، والـكاهل الأَعْظَم ، ولُبَابُ كلّ جوهر كريم ، وسِرُّ كل عُنْصُرٍ شريف ؛ والطِّينة البيضاء ، والمَغْرسُ المبارك ، والنِّصَاب الوثيق ، ومَعْدِن الفَهْم ، وينبوع العِـلْم ، وثَهْلَان ذُو الهضاب فى الحِلْم ، والسيفُ الحُسام فى العَزْمِ مع الأناة والحَزْم ، والصفح [عن الجرم ، والقصد عند المعرفة، والعفو][3] بعـد المقدرة ، وهُم الأَنْفُ القدَم ، والسَّنام الأَكْرم ، وكالمـاء الذى لا ينجِّسه شىء ، وكالشمس التى لا تَخْفَى بكل مكان ، وكالذّهب لا يُعْرَفُ بالنقصان ، وكالنجم للحَيْرَان ، والبارد للظمآن ، ومنهم الثَّقَـلَان[4] ، والشهيدان ، والأطيبان ، والسِّبْطَان[5] ، وأَسد الله ، وذو الجَنَاحَيْن ، وذو قَرْنَيْها[6] ، وسَيِّدُ الوادى ، وساقِى الحَجِيج[7] ، وحَلِيم البَطْحَاء ، والبَحْر والحبر ، والأَنصار أَنْصارهم، والمهاجرُون من هاجر إليهم أومعهم ، والصِّـدِّيق مَنْ صدقهم ، والفاروق من فرَّق بين الحق والباطل فيهم ، والحوارى حواريّهم ، وذو الشهادتين لأَنه شهِدَ لهم ، ولا خـيرَ إلا لهم أو فيهم أو معهم أو يُضَاف إليهم ، وكيف لا يكونُون كذلك ومنهم رسولُ رب العـالمين ، وإمامُ الأولين والآخرين ، ونجيبُ المرسلين ، وخاتَمُ النبيين ، الذى لم يتم لنبى نُبُوَّةٌ إلا بعد

---

(١) السرو : الشرف .   (٢) فى ط : وحى .   (٣) زيادة من ت .

(٤) إشارة إلى قول النبى فى آخر عمره : إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى .

(٥) يشير إلى قول النبى : الحسن والحسين سبطا رسول الله أى طائفتان وقطعتان منه .

(٦) يشير بذلك إلى قول النبى لعلى بن أبى طالب : إن لك لبيتاً فى الجنه وإنك لذو قرنيها — أى طرفيها أو ذو قرنى الأمة (وارجع إلى اللسان — مادة قرن) .

(٧) الذى كانت له السقاية والرفادة عبد المطلب بن هاشم . الحجيج : جماعة الحجاج .

التصديق به ، والبشارة بمجيئه ، الذى عمّ برسالته ما بين الخافِقَين ، وأظهره الله على الدّين كلّه ولو كره المشركون .

من كلام الحسن

قال الحسن بن على عليهما السلام لحبيب بن مسلمة الفهرى : ربَّ مَسِيرٍ لك فى غيرِ طاعة الله ! قال : أمّا مَسِيرى إلى أبيك فليس من ذلك ! قال : بلى ! [ولكنك أطعت فلانا على دنيا يسيرة، ولعمرى لئن كان قام بك فى دنياك] (١) لقد قعد بكَ فى دينِك ، فلو أنَّكَ إذْ فعلتَ شرًّا قلت خيراً كنت كمن قال الله عزّ وجل : خَلَطُوا عملاصالحا وآخر سيّئا عسى الله أن يتوب عليهم . ولكنك كما قال : ﴿ كلاّ بَلْ رَانَ على قُلُوبهم ما كانوا يَكْسِبُون ﴾ .

وكان الحسن عليه السلام جواداً كريما لا يردُّ سائلاً ولا يَقْطَع نائلا ، وأَعْطَى شاعراً مالا كثيراً فقِيل له : أَتُعْطِى شاعراً يَعْصِى الرَّحْمَن ، [ويطيع الشيطان] (١) ، ويقول البُهْتَانَ ؟ فقال : إنَّ خَيْرَ ما بَذَلْتَ من مالك ما وَقَيْتَ به عِرْضَك ، وإنَّ من ابتغاء الخيرِ اتِّقاءَ الشر .

وقد روى مثلُ ذلك عن الحسين رضى الله عنه ، وقيل : إنّ شاعراً مدحه فأَجْزَل ثوابَه ، فلِيمَ على ذلك فقال : أترانى خِفْتُ أن يقولَ : لست ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ولا ابن على بن أبى طالب ! ولكنى خِفْتُ أن يقول : لست كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كعلىّ رضى الله عنه ؛ فيُصدَّق ويُحْمَل عنه ويبقى مخلداً فى الكتب ، محفوظاً على ألسنة الرُّواة . فقال الشاعر : أنت والله يابْن رسول الله أعرفُ بالمدح والذمِّ منى .

رثاء الحسن

ولما تُوفِّى الحسن أدخله قَبْرَه الحسين ومحمد بن الحنفيّة وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، ثم وقف محمدٌ على قبره وقد اغْرَوْرَقَت عَيْنَاه بالدموع وقال (٢) : رَحِمَكَ اللهُ أبامحمد ! فلئن عَزَّتْ حياتك ، لقد هَدَّتْ وفاتُك ، ولَنِعْمَ الرُّوحُ رُوحٌ تضمّنه

---

(١) الزيادة من ت . (٢) العقد الفريد ٢ — ٧ ، مروج الذهب ٢ — ٥١ .

بدَنك؛ ولنعم الجسدُ جسدٌ تضمَّنه كَفَنُك ، ولنِعْمَ الكَفَنُ كفنٌ تضمَّنَه لَحْدُك، وكيف لا تكونُ كذلك وأنت سليلُ الهُدى ، وخامِسُ أصحابِ الكِساء (١) ، وخَلَفُ أَهْلِ التقى ؛ جدُّك النبيُّ المُصْطَفى ، وأبوك عليٌّ المرتضَى ، وأمُّك فاطمةُ الزَّهراء ، وعمّك جعفر الطَّيار (٢) في جنَّةِ المأْوَى ، وغَذتْكَ أَكُفُّ الحق (٣) ، ورُبِّيتَ فِي حِجْرِ الإسلام ، ورَضَعْتَ ثَدْيَ الإيمان ، فطِبْتَ حيًّا وميتا ؛ فلئن كانت الأَنْفُس غيرَ طيبةٍ لفراقك؛ إنها غيرُ شاكَّةٍ أنَّ قد خِيرَ لَك ، وإنك وأَخاك لسيدا شَبَابِ أهل الجنة ، فعليكَ يا أبا محمد منا السلام .

وقام رجلٌ من ولد أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب على قَبْرِه فقال : إنَّ أقدامَكم قد نقلَتْ ، وإنَّ أعناقَكم قد حَمَلَتْ إلى هذا القبر وَليا من أولياء الله يبشر نبيّ الله بمقدمه ، وتفتَّحُ أبوابُ السماء لروحه ، وتبتهجُ الحورُ العِينُ بلقائه ، ويأْنَسُ به سادةُ أهل الجنة من أُمَّتِه (٤) ، ويوحِش أهلَ الحِجَا والدين فقده ، رحمة الله عليه، وعنده تُحْتَسبُ المصيبةُ به .

ألفاظ لأهل العصر في ذكر المصيبة بأبناء النبوة

قد نُعِيَ سليلٌ من سُلَالة النبوة ، وفَرْعٌ من شجرة الرسالة، وعضوٌ من أعضاء الرسول، وجزءٌ من أجزاء الوصِيِّ والبَتُول . كتبت وليتني ما كتبت وأنا ناعِي الفضل من أقطاره، وداعي المجدِ إلى شَقِّ ثوبِه وصِدَاره ، ومخبر أَنَّ شمسَ الكرم وَاجِبة (٥) والمآثر مودِّعة ، وبقايا النبوّة مرتفعة ، وآمالَ الإمامة منقطعة ، والدينَ منخذِلٌ واجم ، وللتقوى دَمْعَان هامٍ وساجم . كتابي وقد شلَّتْ يمينُ الدَّهر ، وفُقِئت عينُ المجد ،

---

(١) أصحاب الكساء هم : النبي وعلى وفاطمة ، والحسن والحسين .

(٢) هو جعفر بن أبي طالب، وسمى الطيار لقول النبي صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة البارحة فرأيت جعفرا يطير مع الملائكة . (٣) في ت : النهى . (٤) في ت : من أمهاته .

(٥) غاربة .

وقَصُرَ باعُ الفَضْل ، وكُسِفَت شمسُ المساعى ، وخُسِفَ قمر المعالى ، وتجدَّدَ فى بيت الرسالة رُزْءٌ جدَّد المصائب ، واستعاد النَّوائب ؛ كل هذا لفقْدِ من حَطَّ الكرمُ برَبْعِه ، ثم أدرج فى بُرْدِه ، وامتزج المجدُ به ، فدفِنَ بدَفْنه ، إنها لمصيبةٌ عمَّت بَيْتَ الرسالة، وغضَّت طَرْف الإمامة ، وتحيَّفَتْ [1] جانبَ الوَحْى المنزَّل، وذكّرت بموت النبى المرسل . كتبت والدهرُ ينعى مُهْجَتَه ، والمجدُ يَنْدُب بَهْجَتَه ، ومهابط الوَحْىِ والرسالة تحنى ظهورَها أسفا ، ومآقى الإمامةِ والوصية والرسالة [2] تذرى دموعها لهفاً ؛ وذلك أن حادثَ قضاءِ الله استأثر بفَرْعِ النبوة ، وعنصر الدين والمروءة .

[رجع إلى كلام أهل البيت]

ووقع بينَ الحسنِ ومحمد بن الحنفيّة لِحاء ، ومَشَى النـاسُ بينَهما بالنَّمائم ، فـكتب إليه محمدُ بنُ الحنفية : أمَّا بعد فإن أَبى وأَباك علىُّ بنُ أبى طالب ؛ لا تفضُلنى فيه ولا أَفضُلك ، وأُمى امرأةٌ من بنى حَنيفة ، وأُمُّك فاطمةُ الزَّهراء بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فلو مُلِئَت الأرضُ بمثل أُمى لـكانت أمُّك خيراً منها ؛ فإذا قرأتَ كتابى هذا فأَقْدِم حتى تترضَّانى ، فإنك أحقُّ بالفضل منى .

من كلام الحسين

وخطب [3] الحسينُ بنُ على رضوان الله عليهما غداةَ اليوم الذى استُشهِدَ فيه ، فحمدَ الله تعالى وأثنى عليـه ؛ ثم قال : يا عبادَ اللهِ ، اتَّقُوا اللهَ ، وكونوا من الدنيا على حَـذَر ؛ فإنّ الدنيا لو بقِيَتْ على أحد [أو بقى عليها أحد] [4] لـكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء ، وأوْلَى بالرِّضاء ، [وأرْضَى] [4] بالقضاء ؛ غيرَ أنَّ الله تعالى خَلَقَ الدنيا للفناء ، فجديدُها بالٍ ، ونعيمُها مُضْمَحِلٌّ ، وسرورُها مُكْفَهِرّ ، والمنزلُ تَلْعة [5] ،

(١) تحيفت الشيء : تنقصته من حافاته . (٢) فى ت : والخلافة بدل : والوصية والرسالة.

(٣) الطبرى ٦ — ١٨٨ ومروج الذهب ٢ — ٨٦ . (٤) الزيادة من ت ومن الطبرى .

(٥) التلعة : مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض . وفى ت : بلغة .

والدارُ قُلْعَةَ(١) ؛ فتزوّدوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى ، واتَّقوا اللهَ لعلكم تُفْلِحُون .

وكان لمعاوية بنِ أبى سفيان عَيْنٌ بالمدينة يكتبُ إليه بما يكونُ من أمور الناس وقريش ، فكتب إليه : إنَّ الحسين بنَ على أَعْتق جاريةً له وتزوَّجها ؛ فكتب معاويةُ إلى الحسين : مِنْ أَمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علىّ . أمّا بعد ، فإنّه بلغنى أنك تزوجْتَ جاريتَك ، وتركْتَ أَكْفاءَك من قريش ، ممَّنْ تَسْتَنْجِبُه(٢) للولد ، وتمجد به فى الصِّهْر ، فلا لِنفْسك نَظَرْت ، ولا لوَلدِك(٣) انْتَقَيْت .

فكتب إليه الحُسَيْن بن على : أمَّا بعد ، فقد بلغنى كتابُك ، وتَعْيِيرُك إيَّاى بأنى تزوَّجْتُ مولاتى ، وتركتُ أَكْفَائى مِنْ قُرَيش ، فليس فَوْقَ رسولِ الله مُنْتَهًى فى شَرَف ، ولا غايةٌ فى نسب ؛ وإنما كانت مِلْكَ يمينى ، خرجت عن يدى بأمر التمستُ فيه ثوابَ الله تعالى ؛ ثم ارتجعتُها على سنةِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد رفع اللهُ بالإسلام الخسيسةَ ، ووضع عنّا به النقيصةَ ؛ فلا لَوْمَ على امرئٍ مُسْلم إلاّ فى أَمْرِ مأثم ، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية .

فلما قرأ معاويةُ كتابَه نبذه إلى يزيد فقرأَه وقال : لَشدَّ ما فَخَر عليك الحسين ! قال : لا ، ولكنها ألسنةُ بنى هاشم الحِداد التى تَفْلِقُ الصَّخْر ، وتَغْرِفُ من البحر !

والحسين رضى الله عنه هو القائل :

لعَمْرُكَ إِنَّنى لَأُحِبُّ دَارًا ... تحُلُّ بها سُكَيْنَةُ والرَّبابُ
أُحِبُّهما وأبْذُل كلَّ مَالِى ... وليس لِلاَئمٍ عِنْدِى عِتَابُ

سُكينة ابنته ، والرباب أُمّها ، وهى بنت امرئ القيس [بن الجرول](٤) الكلبية .

---

(١) الدنيا دار قلعة : أى انقلاع . (٢) فى ط : تستحسنه . (٣) فى ت : ولا على ولدك أبقيت . (٤) ليست فى ت

وفى سُكينة يقول عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى كذباً عليها[١] :

قالت سُكَيْنَةُ والدموعُ ذَوارِفٌ ... تَجْرِى على الخدَّيْنِ والجِلْبَابِ
ليتَ المُغِيرِىَّ الذى لم أَجْزِهِ ... فيما أطال تَصَيُّدِى وطِلابِى
كانت تردُّ لنا المُنَى أيامنا ... إذ لا نُلَامُ على هوًى وتَصَابِ
خُبِّرْتُ ما قالَتْ فبتُّ كأنما ... يُرْمَى الحشى بنوافذِ النُّشَّابِ
أسُكينَ ما ماءُ الفراتِ وطيبُهُ ... منِّى على ظمأٍ وفَقْدِ شرابِ
بألذَّ منكِ وإن نأيتِ وقلَّما ... ترعى النساءُ أمانةَ الغُيَّابِ
إنْ تَبْذُلِى لى نائلًا أشْفِى بِهِ ... داءَ الفؤادِ فقد أطَلْتِ عذابِى
وعصيتُ فيكِ أقاربى وتقطعَتْ ... بينى وبينهمُ عُرَى الأسبابِ
فتركتِنى لا بالوصالِ مُمَتَّعاً[٢] ... منهم ولا أسْعَفْتِنى بثوابِ
فقعدت كالمُهرِيق فَضْلَةَ مائِهِ ... فى حرِّ هَاجِرةٍ لِلَمْعِ سَرَابِ

وكانت سكينة من أجمل نساء زمانها وأعقلهنّ ، وكان مُصْعب بن الزبير قد جَمَع بينها وبين عائشة بنت طلحة بن عبد الله ؛ فلما قتل مصعب قالت سكينة[٣] :

فإنْ تَقْتُلُوهُ تَقْتُلُوا الْمَاجِدَ الذى ... يَرَى الموتَ إلّا بالسيوفِ حَرَاما
وقَبْلَكَ ما خاضَ الحسينُ منيَّـةً ... إلى القومِ حتى أوْرَدُوه حِمَاما[٤]

وقال على بن الحسين رحمه الله : لو كان النـاسُ يعرفون جُمْلَةَ الحالِ فى فَضْل الاستِبَانة وجُمْلَةَ الحال فى فضـل التبيين لأَعربوا عن كل ما يتلَجْلَجُ فى صدورهم ، ولوجدوا من بَرْدِ اليقين ما يُغْنِيهم عن المنازعة إلى كل حالٍ سوى حالِهم . على أنَّ إدراكَ[٥] ذلك كان لا يعدمهم فى الأيامِ القليلةِ العـدّةِ ، والفِكْرَةِ القصيرةِ المدّة ، ولـكنهم من بين مغمورٍ بالجهل ، ومفتونٍ بالعُجْب ، ومعدولٍ بالهـوى عن باب التثبّت ، ومصروفٍ بسوء العادة عن فَضْلِ التعلم .

---

(١) الأغانى ١ ــ ١٦٢ . (٢) فى ت : ممسكا. (٣) شاعرات العرب : ١٧١
(٤) فى ت : خصاما . (٥) فى ت : درك.

وقال رضى الله عنه : المِرَاء يُفْسِدُ الصداقةَ القديمة ، ويَحُلّ العقدةَ الوَثيقة ، وأَقلّ ما فيه أن تكونَ به المغالبة ، والمغالبةُ من أَمْتن أسباب القطيعة .

ومن دعائه : اللهم ارْزُقْنى خوفَ الوعيد ، وسرورَ رجاءِ الموعود ، حتى لاأَرْجُو إلا ما رَجّيت ، ولا أخاف [إلا][1] ما خَوّفت .

الفرزدق يمدح على ابن الحسين

وحجّ هشام[2] بن عبد الملك ، أو الوليد[3] أخوه ، فطافَ بالبيتِ وأرادَ استلامَ الحَجَر فلم يقدر ، فنُصِب له مِنْبَرٌ فجلس عليه ؛ فبينا هو كذلك إِذْ أَقْبلَ علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى إِزار ورِدَاء ، وكان أحسنَ الناس وَجْهاً ، وأعطرهم رائحة ، وأكثرَهم خشوعاً ، وبين عينيه سَجَّادة ، كأنها رُكْبة عنز[4] ، وطاف بالبيت ، وأتى ليَسْتَلم الحجرَ ، فتنحَّى له الناسُ هيبةً وإجلالا ، فغاظ ذلك هشاما ؛ فقال رجلٌ من أهل الشام : مَن الّذى أكرمه الناسُ هذا الإكرام ، وأعظموه هذا الإعظامَ ؟ فقال هشام : لا أعْرِفه ، لئلا يَعْظُمَ فى صدور أهل الشام ؛ فقال الفرزدق وكان حاضراً[5] :

هذا ابنُ خير عبادِ الله كلّهم ... هذا النقىُّ التقىُّ الطاهرُ العَلَمُ
هذا الذى تَعرِفُ البَطْحَاءُ[6] وطأتَهُ ... والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرَمُ
إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارمِ هذا ينتهى الكرَمُ
يكاد يُمْسِكُه عِرْفانَ راحتِهِ ... رُكْنُ الحطيم إذا ما جاء يستلمُ[7]
فى كفِّهِ خيزران رِيحُهُ عَبِقٌ ... فى كفِّ أروَعَ فى عِرْنِينه شَمَمُ[8]

---

(١) من ت . (٢) الأغانى : ١٤ ـ ٧٥ ، المحاسن والمساوىء : ٢٣١ ، طبع ليبزج .
(٣) فى ت : وأخوه الوليد . (٤) المراد بالسجادة أثر السجود .
(٥) الجزء الرابع من ديوان الحماسة : ١٦٧ . (٦) البطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .
(٧) الحطيم : حجر الكعبة أو جدارها أو ما بين الركنين وزمزم والمقام .
(٨) أروع : ذكى الروع ، بضم الراء ، وهو الفؤاد . والعرنين : الأنف . والشمم : الارتفاع .

يُغضِي حياءً ويُغضَى من مَهابته … فما يُكلَّمُ إلا حين يبتسم

مُشتقّةٌ من رسول الله نَبعتُه … طابت عناصرُه والخِيمُ والشِّيَمُ (١)

يُنمَى إلى ذِرْوة العزّ التي قصُرت … عن نَيلها عَرَبُ الإسلام والعجَمُ (٢)

يَنجابُ نورُ الهدى عن نورِ غُرّته … كالشمس يَنجابُ عن إشراقها القتَمُ (٣)

حمّالُ أثقال أقوام إذا افترحوا … حُلو الشمائل تحلو عنده نَعَمُ

هذا ابنُ فاطمة إن كنتَ جاهِلَه … بجدّه أنبياء الله قد خُتِموا

اللهُ فضّلَه قِدْماً وشرّفَه … جرى بذاك له فى لَوحِهِ القَلَمُ

مَنْ جدُّه دانَ فَضلُ الأنبياء لهُ … وفَضلُ أُمته دانتْ له الأُمَمُ

عمَّ البريةَ بالإحسان فانقشعتْ … عنها الغيابةُ والإملاقُ والظُّلَمُ

كِلْتا يديه غِياثٌ عَمَّ نفعُهُما … تَستوكفان ولا يَعرُوهما العُدُمُ (٤)

سَهْلُ الخليقة لا تُخْشَى بوادِرُهُ … تزينه الاثنتان الحِلْمُ والكرَمُ

لا يُخلِفُ الوَعْدَ ميمونٌ بغرّته … رَحْبُ الفِناء أريبٌ حين يعتزم (٥)

ما قال لا قَطُّ إلا فى تشهُّده … لولا التشهُّد كانت لاءَه نَعَمُ

مِنْ مَعشر حبُّهم دِينٌ وبغضهم … كُفرٌ وقُربُهم مَنْجًى ومُعتَصَمُ

يُستدفَعُ السوءُ والبلوى بحبهمُ … ويستربُّ به الإحسانُ والنِّعَمُ (٦)

مقدَّمٌ بعد ذِكرِ الله ذِكرُهُمُ … فى كل بَدْءٍ ومختومٌ به الكَلِمُ

إن عُدَّ أهلُ التقى كانوا أئمتَهمْ … أو قيلَ مَنْ خيرُ أهل الأرض قيل هُمُ

لا يستطيعُ جوادٌ بُعْدَ غايتهم … ولا يُدانيهم قومٌ وإنْ كرُموا

همُ الغيوثُ إذا ما أزمةٌ أزَمَتْ … والأُسْدُ أُسْدُ الشَّرى والبأسُ محتدِمُ

يأبى لهم أنْ يحلّ الذمُّ ساحتهم … خِيمٌ كريمٌ وأيدٍ بالندى هُضُمُ (٧)

---

(١) الخيم : الأصل . (٢) من هذا البيت إلى آخر القصيدة ليس فى ت .

(٣) القتم والقتام : الغبار . (٤) العدم : الفقر .

(٥) الأريب : وافر العقل . (٦) يسترب : يصلح . (٧) هضم : كثيرة العطاء .

لا ينقصُ العسرُ بَسْطاً من أكفِّهمُ ... سِيّان ذلك إِنْ أَثْرَوْا وإن عدموا
أىّ الخلائق لَيْسَتْ فى رِقَابهم ... لأوليَّة هــذا أو له نِعم
مَنْ يَعْرف اللهَ يَعْرِف أوليَّته ... فالدينُ من بيت هـذا ناله الأُمم
وليس قولك مَنْ هـذا بضائِره ... العُرْبُ تَعْرِف من أنكَرْتَ والعَجَمُ

وقد روى أن الحزين الـكنانى وَفَد على عبد الله بن عبد الملك بن مروان وهو أميرٌ على مصر فأنشده قصيدة منها [1] :

لمّا وقفْتُ عليه فى الجُموع ضُحًى ... وقد تعرَّضت الحُجَّابُ والخـدم
حيّيته بسلامٍ وهو مُرْتَفِق [2] ... وضَجَّةُ القومِ عند الباب تَزْدَحِمُ
فى كفه خيزران ... ... ـ والبيت الذى يليه .

ويقال : إنها لداود بن سلم فى قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وهو الذى يقول فيه الأخطل [3]:

ولقد غدوت على التِّجار بِمِسْمَح ... هَرَّت عَوَاذِلُه هَرِيرَ الأَكْلُب [4]
لَذٍّ يُقَبِّله [5] النعيم كأنما ... مُسِحَتْ تَرَائِبُه بماء مُذْهَبِ
لبّاسِ أرْدِيةِ الملوكِ تَرُوقُهُ ... من كل مُرْتَقَب عُيونُ الرَّبْرَبِ [6]
يَنْظُرْنَ من خَلَلِ السُّتُور إذا بَدَا ... نظرَ الهجانِ إلى الفَنِيقِ المُصْعَبِ [7]

ويقال : بل قالها فى على بن الحسين، اللعين المنقرى [8]، وسمى اللعين ؛ لأن عمر سمعه يُنْشد شعراً والناس يصلون ، فقال : مَنْ هذا اللعين ؟ فعلق به هذا الاسم ولْيَقُلْه مَنْ شاء ، فقد أحسن ما شاد وأجاد وزاد .

---

(١) ارجع إلى الشعراء : ٩ ، والأغانى : ١٤ ــ ٧٤ ، والحماسة : ٤ ــ ١٦٧ .
(٢) مرتفق : متكئ على مرفقه . (٣) الشعراء : ٤٧٠ . (٤) هرت : صاحت .
(٥) فى ط : لذن تقبله . (٦) الربرب : الظباء ، والمراد بها النساء .
(٧) الهجان : البيض ، والمصعب : الجمل لا يركب ، والفنيق : كذلك . وفى ط : الفتيق .
(٨) فى ط : الشنفرى .

استطراد فيما قيل فى الهيبة

وقال ذو الرمة فى بلال ابن أبى بردة بن أبى موسى الأَشْعَرِى[١] :

مِنَ آلِ أبى موسى تَرَى الناسَ حَوْلَهُ كأنهم الكِرْوَان عَايَنَّ بازِيا[٢]

فما يعرفون الضِّحْكَ إلاّ تَبَسُّماً ولا ينبسون[٣] القوْلَ إلاّ تَنَاجيا

وما الفُحْشُ منه يرهبون ولا الخَنَا عليه ولكِنْ هَيْبَةٌ هِىَ مَاهِيَا

فَتى السِّنِّ، كَهْلُ الحِلْمِ، يُسْمَعُ قولُهُ يُوازِنُ أدناهُ الجبالَ الرَّوَاسِيا

للبحترى فى الفتح

ومن أجود ما للمحدَثين فى ذلك قول أبى عبادة البحترى فى الفتح بن خاقان[٤] :

ولما حضرنا سُدَّةَ الإِذْنِ أُخِّرَتْ رجالٌ عن الباب الذى أنَا دَاخِلُهْ

فأفضيتُ من قُرْبٍ إلى ذى مَهَابةٍ أقابِلُ بدر التِّمِّ[٥] حين أقابلُهْ

بَدَا لىَ محمودَ السجيَّةِ شُمِّرت سَرَابيلُهُ عنهُ وطالت حَمَائِلُهْ

كما انتصب الرُّمْحُ الرُّدَيْنِىُّ ثُقِّفَتْ أنابيبُهُ واهتزَّ للطعن[٦] عاملُهْ

وكالبدر وافَتْه لتمٍّ سُعودُه وتمَّ سناه واستهلت منازِلُهْ

فسلَّمتُ فاعتاقَتْ جَنَانِىَ هَيْبَةٌ تُنَازِعنى القولَ الذى أنا قائلُهْ

إلى مُشْرِفٍ فى الجود لو أنَّ حاتماً لدَيْهِ لأضْحَى حاتمٌ وهو عاذِلُهْ

فلما تأمَّلتُ الطَّلاقَةَ وانثَنَى إلىَّ بِبِشْرٍ آنستنى مَخَايلُهْ

دَنَوْتُ فقبَّلتُ النَّدَى من يَدِ امرئٍ جميلٍ محيّاهُ سِبَاطٍ أناملُهْ

صَفَتْ مِثْلَ ماتصفُو المدامُ خِلالُهُ ورقَّتْ كما رقَّ النَّسيمُ شَمائِلُهْ

ووقعت حرب بالجزيرة بين بنى تَغْلِب فتولى الإصلاح بينهم الفتحُ بن خاقان، فقال البحترى فيما تعلّق بعضه بذكر الهيبة[٧] :

---

(١) ديوانه : ٩٣ . وفى ت : واسم أبى موسى عبد الله بن قيس وذكر جلساء بلال .

(٢) فى الديوان : أبصرن ، والبازى : الصقر . (٣) ينبسون : ينطقون .

(٤) ديوانه : ٢ ــ ١٦٣ . (٥) فى الديوان : الأفق .

(٦) فى الديوان : للطعن واهتز . (٧) ديوانه : ٢ ــ ١٦٤ ، يمدح ويذكر حرب ربيعة وعفو المتوكل عنهم .

بنى تَغْلِبٍ أعْزِزْ علىَّ بأَنْ أرى ... دِيارَكُمُ أمْسَتْ وليس لها أهْلُ
خلَتْ دِمْنَةٌ[١] من ساكِنيها وأَوْحشَتْ ... مرابعُ من سنجار يَهْمى بها الوَبْلُ[٢]
إذا ما التَقَوْا يومَ الهِيَاجِ تحاجَزُوا ... وللموتِ فيما بينهم قِسْمَةٌ عَدْلُ
كَفِىٌّ من الأحياء لاقَى كَفِيَّهُ ... ومِثْلٌ من الأقوام راجَعَهُ[٣] مِثْلُ
إذا ما أخٌ جرَّ الرماحَ انتهى[٤] لهُ ... أخٌ لا بليدٌ فى الطِّعان ولا وَغْلُ[٥]
تحوطُهم[٦] البِيضُ الرِّقاقُ ، وضُمَّرٌ ... عِتاقٌ ، وأَنسابٌ[٧] بها يدرك التَّبْلُ[٨]
بطَعْنٍ يكبُّ الدَّارِعين دِرَاكُهُ ... وضَرْبٍ كما تَرْغُو المخزَّمةُ البُزْلُ[٩]
تَجَافَى أميرُ المؤمنين عَنِ التى ... علمتم ، وللجَانِينَ فى مِثْلِها الثُّكل
وكانت يدُ الفتح بن خاقان عندكم ... يدَ الغَيْثِ عند الأرض أجدبها[١٠] المَحْلُ
ولولاهُ طُلَّتْ بالعُقُوق دِمَاؤُكم ... فلا قَوَدٌ يُعْطَى الأذلُّ ولا عَقْلُ[١١]
تلافَيْتَ يا فَتْحُ الأراقمَ بعد ما ... سقاهم بِأَوْحَى سُمِّهِ الأرْقَمُ الصِّلُّ[١٢]
وهَبْتَ لهم بالسِّلْمِ باقى نفوسهمْ ... وقد أشرَفُوا[١٣] أَنْ يستتمَّهم القتلُ
أتاك[١٤] وفودُ الشكْرِ يَثْنُون بالَّذى ... تقدَّم مِنْ نُعماك عندهم قَبْلُ
فلم أرَ يَوْماً كان أكثر سُودداً ... من اليوم ضَمَّتْهم إلى بابك السُّبْلُ

---

(١) فى الديوان : خلت بلد . (٢) سنجار : مدينة فى نواحى الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، والوبل : المطر الشديد ، ويهمى : ينسكب . وفى ت : سيحان .
(٣) فى الديوان : زاحفه ، وفى ت : زاحمه . (٤) فى الديوان ، وفى ت : انبرى له .
(٥) الوغل : الضعيف النذل . (٦) فى الديوان : تخصهم .
(٧) فى الديوان : وأحساب . (٨) البيض الرقاق : السيوف المرهفة ، والضمر العتاق : الخيول الضامرة الكريمة ، والتبل : الثأر . (٩) الدارعون : لابسو الدروع ، ودراكه : تتابعه ، وترغو : تصيح ، والمخزمة : التى وضع فى شدقها الخزام ، والبزل : جمع بازل ، وهو البعير يبلغ تسع سنين . (١٠) فى الديوان : حرقها . (١١) طلت : هدرت ، والعقل : الدية . (١٢) أوحى : أسرع . والأرقم الصل : الحية التى لا تنفع فيها الرقى .
(١٣) فى الديوان : وقد شارفوا . (١٤) فى الديوان : أتوك .

تراءوْك مِنْ أَقصى السِّمَاط فقصَّروا ... خُطاهم، وقد جازُوا السُّتُورَ وهم عُجْلُ
ولمَّا قضَوْا صَدْرَ السلام تهافَتُوا ... على يَدِ بَسَّامٍ سجيَّتُه البَذلُ[1]
إذا شرَعُوا فى خُطْبَةٍ قطعتهمُ ... جلالةُ طَلْقِ الوَجْهِ جانبُه سَهْلُ
إذا نكسوا أبْصَارهُمْ من مَهَابَةٍ ... ومالوا بلَحْظٍ خِلْتَ أنهمُ قُبْلُ[2]
نصبْتَ لهم طَرْفاً حديداً ، ومَنْطِقاً ... سديداً ، ورَأْياً مثل ما انتُضِىَ النَّصْلُ
وسَلَّتْ سخيماتِ الصدور فعالُك الـ ... ـكريم ، وأبْرَا غِلَّها قولُك الفَصْلُ
بك الْتَأَم الشَّعْبُ الذى كان بَيْنَهم ... على حين بُعْدٍ منه واجتمع الشَّمْلُ
فما بَرِحوا حتى تعاطَتْ أَكُفُّهُم ... قِرَاكَ فلا ضِغْنٌ لديهم ولا ذَحْل
وجَرُّوا ذيولَ[3] العصب تَضْفُو ذيولُها ... عطاء كريم[4] ما تكاءده بُخْلُ[5]
وما عمَّهم عمرو بن غنم بِنِسْبَةٍ ... كما عمَّهم بالأمْسِ نائلُكَ الجزل
فمهما رَأَوْا من غبطة فى اصطلاحهم[6] ... فمنك بها النعمى جرَتْ ولكَ الفَضْلُ

عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط .

عاقبة الحرب للبحترى

وللطائيين [أبا تمام والبحترى][7] فى ذلك أشعارٌ كثيرةٌ مختارة ، منها قول البحترى يحذِّر عاقبة الحرب[8] :

أمَا لربيعةَ الفَرَس انتهاء ... عن الزلزال فيها والحُروبِ[9]
وكانوا وقَّعُوا[10] أيامَ سِلْمٍ ... على تلك الضغائن[11] والندوب[12]
إذَا ما الجرْحُ رُمَّ على فسادٍ ... تبيَّنَ فيه تَفْرِيطُ الطبيبِ

---

(١) فى الديوان : رسل . (٢) قبل : جمع أقبل ، وهو الذى ينظر بانحراف كأنما ينظر إلى أنفه . (٣) فى الديوان : برود . (٤) فى الديوان : جواد .
(٥) فى الديوان : البخل . وتكاءده : منعه . (٦) فى الديوان : صلاحهم .
(٧) من ت . (٨) ديوانه : ١ — ٨٤ . (٩) ربيعة الفرس : أبو قبيلة .
(١٠) فى الديوان ، وفى ت : رقعوا . (١١) فى الديوان : القوارح .
(١٢) الندوب : آثار الجروح على الجلد .

رَزِيّةُ هالكٍ جلبَتْ رَزايا ... وخَطْبٌ بات يَكشِفُ عن خطوبِ
يُشقُّ الجَيْبُ ثم يجيءُ أمرٌ ... يُصغِّرُ فيه تشقيقُ الجُيوبِ
وقبرٍ عن أيَامنِ برقعيد[1] ... إذا هي ناحرت[2] أُفقَ الجَنُوبِ
يسحُّ ترابُهُ أبداً عليها ... عِهاداً من مُرَاقِ دَمٍ صَبيبِ
فهل لِا بْنَيْ عَدِيٍّ من رشيدٍ ... يَرُدُّ شريد حلمهما العزيبِ[3]
أخافُ عليهما إمرارَ مَرْعًى ... من الكلاِ الذى عُقباه تُوبى[4]
وأعلمُ أنْ حَربَهُمَا خَبالٌ ... على الدّاعى إليها والمُجيبِ
لعلّ أبا المعمّر يَتّلِيهَا ... ببُعْدِ الهمِّ والصَّدْرِ الرَّحيبِ[5]
فكم من سُؤْدُدٍ قد بات يُعْطِى ... عطيةَ مُكثرٍ فيها مُطيب
أهيم[6] يا بنَ عبدِ الله دعوى ... مشيرٍ[7] بالنصيحة أو مُهيبِ
تناسَ ذنوبَ قومك إنَّ حفظ الذ ... نوب إذا قَدُمْنَ من الذّنوب
فَللسَّهْمُ السديد أحبُّ غِبًّا ... إلى الرامى من السهم المُصيبِ
متى أحرزتَ نَصْرَ بنى عبيدٍ ... إلى إخلاص وُدِّ بنى حبيب
فقد أصبحت أغلبَ[8] تغلبيٍّ ... على أيدى العشيرة والقلوبِ

يناسب قولُه : * إذا ما الجرح رمَّ على فسادِ * قول أبى الطيب المتنبى لعلىّ ابن إبراهيم التنوخى أحد بنى القصيص[9] :

فلا تغرُرْكَ ألسِنَةٌ مَوَالٍ ... تقلِّبهن أفئدةٌ أعادى
وكُنْ كالموت لا يَرْثِى لِباكٍ ... بكى منه ويَرْوى[10] وهو صادِ
فإنَّ الجُرْحَ ينغِر[11] بعد حِينٍ ... إذا كانَ البِنَاءُ على فَسادِ

---

(١) برقعيد : بلدة قرب الموصل . (٢) فى ت : نازحت ، وفى ط : فاخرت .
(٣) فى ط . حملهما الغريب . (٤) فى الديوان : الذى علفاه موب . وتوبى : تهلك ، وفى ت : عقباه موب . (٥) فى الديوان : والبلد الرحيب ، ويتليها : يتبعها . (٦) فى ت : أهنتم . (٧) فى الديوان : مشيد . (٨) فى ت : تغلب . (٩) ديوانه : ٢ — ٣٦٣ .
(١٠) فى الديوان : ليروى . (١١) جرح نغار : يسيل منه الدم .

وفى هذه القصيدة[١] :

كأنَّ الهامَ فى الهَيْجا عُيُونٌ وقد طُبِعَتْ سيُوفُك مِنْ رُقَادِ
وقد صُغْتَ الأسنَّةَ من هُمُومٍ فما يَخْطُرْنَ إلاَّ فِى فُؤَادِ

كأنّ البيت الأول من هذين ينظر إلى قول مسلم بن الوليد من طرف خَفىّ :

ولو أن قَوْماً يَخْلقون مَنِيَّةً من بَأْسِهم كانوا بَنى جبريلا
قومٌ إذا احْمرَّ الهجيرُ من الوَغَى جَعَلُوا الجماجمَ للسيوفِ مَقِيلا

وإنما أخذه [أبو الطيب][٢] من قول منصور النميرى[٣] وذكر سيفاً :

ذَكَرٌ[٤] برَوْنَقِه الدِّماءُ كأنما يَعْلُو الرجالَ بأرجُوانٍ نَاقِعِ[٥]
وترى مَسَاقِطَ شَفْرَتَيْهِ كأنَّها مِلْحٌ تبَدَّدَ من وراءِ الدَّارِعِ
وتراه مُعْتَمًّا إذا جرَّدْتَهُ بدم الرجالِ على الأديم الفاقعِ
وكأنَّ وقعتَهُ[٦] بجُمْجُمَةِ الفَتَى خَدَرُ[٧] المُدَامة أو نُعاسُ الهاجعِ

أردت هـذا البيت ، وقول النميرى : * وتراه مُعْتَمًّا إذا جردته * يُشير إليه قول أبى الطيب ، وذكر سيفاً[٨] :

يَبِسَ النَّجِيعُ[٩] عليهِ فهْوَ مجرَّدٌ مِنْ غِمْدِهِ وكأنما هُوَ مُغْمَدُ
رَيَّانُ لوقَذَفَ الذى أسقَيْتَه لَجَرَى مِنَ المهَجَاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ

وبنو عبيد ، وبنو حبيب ، اللذان ذكرهما البحترى هم بنو عبيد بن الحارث بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب[١٠] ، وحبيب بن الهجرس بن تيم بن سعد بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وفيهم حبيب بن حرقة بن تغلب بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم ، فلا أدرى أيهما أراد !

---

(١) ديوانه : ١ — ٣٦٠ . (٢) من ت . (٣) فى ت : اليمنى .
(٤) سيف قاطع . (٥) فى ط : فاقع . (٦) فى التبيان : ١ — ٣٦٠ : موقعه .
(٧) فى التبيان : سكر ، وفى ت : خدر المنية . (٨) ديوانه ١ — ٣٣٧ .
(٩) النجيع : دم الجوف . (١٠) فى ت : بن تيم بن سعد بن جشم بن بكر الخ .

وقال البحترى [١] :

أسيت لأخوالى ربيعة أن عفت ... مصانعها منها وأقوت ربوعها [٢]
بكرهى أن باتت خلاء ديارها ... ووحشا مغانيها وشتى جميعها
إذا افترقوا من وقعة جمعتهم ... دماء لأخرى ما يطل نجيعها
تذم الفتاة الرود [٣] شيمة بعلها ... إذا بات دون الثأر وهو ضجيعها
حمية شعب جاهلى وعزة ... كلابية [٤] أعيا الرجال خضوعها
وفرسان هيجاء تجيش صدورهم ... بأحقادها حتى تضيق دروعها
تقتل من وتر أعز نفوسها ... عليها بأيد ما تكاد تطيعها
إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرماح تقطع بينها ... شواجر أرحام ملوم قطوعها
فكنت أمين الله مولى حياتها ... ومولاك فتح يوم ذاك شفيعها

ولأبى تمام

وقال أبو تمام الطائى [٥] :

مهلا بنى مالك لا تجلبن إلى ... حى الأراقم دؤلول ابنة الرقم [٦]
لم يألكم مالك صفحا ومغفرة ... لو كان ينفخ قين الحى فى فحم
أخرجتموه بكره من سجيته ... والنار قد تنتضى من ناضر السلم [٧]
أوطأتموه على جمر العقوق ولو ... لم يحرج الليث لم يخرج من الأجم
لولا مناشدة القربى لغادركم ... حصائد المرهفين السيف والقلم
لا تجعلوا البغى ظهرا إنه جمل ... من القطيعة يرعى وادى النقم

---

(١) ديوانه : ٢ — ٣١٧ . (٢) فى الديوان : مصايفها ، وأقوت : خلت .
(٣) الرود : الجميلة . (٤) فى الديوان : كليبية .
(٥) ديوانه : ٢٦٩ . (٦) فى الديوان : دؤلون ، وقال شارحه : الدؤلول والرقم من أسماء الداهية . (٧) السلم : شجر .

وقال أيضاً[1] :

مهلاً بنى عمرو بن غُنمٍ[2] إنكم هدفُ الأَسِنَّة والقَنَا تتحطَّم

ما منكم إلا مردًّى بالحجى أو مُبْشَرٌ بالأحوذيَّةِ مُؤدَمُ

عمرُو بنُ كلثوم بن مالك بن عتَّاب بنِ سعدٍ سهمكم لا يُسهمُ

خُلِقت ربيعةُ من لَدُنْ[3] خُلِقت يدا جُشَم بنِ بكرٍ كفُّها والمِعصمُ

تغزو فتغلب تغلبٌ مثل اسمها وتسيح غنمٌ فى البلاد فتغنمُ

وستذكرون غداً صنائعَ مالكٍ إنْ جَلَّ خطبٌ أو تُدُوفِعَ مغرمُ

مالى رأيتُ ثَراكُمُ يَبِساًله[4] مَالِى أَرَى أطْوَادَكم تتهدَّمُ

ما هذهِ القُرْبَى التى لا تُصطفى[5] ما هذه الرحِمُ التى لا تُرْحَم

حَسَدُ القرابة للقرابة[6] قرحةٌ أعْيَت عَوَائدها[7] وجرح أقدمُ

تلكم قريشٌ لم تكن آباؤها[8] تَهفُو ولا أحْلامها تتقسَّم

حتى إذا بُعِثَ النبيُّ محمدٌ فيهم غَدت شَحْنَاؤهم تتضرَّم

عَزبت عقولهمُ وما مِنْ مَعْشَرٍ إلاَّ وهم منه[9] ألبُّ وأحْزمُ

لما أقام الوحىُ بين ظهورهم ورأوا رسولَ الله أَحْمَد منهمُ

ومن الحزامةِ لو تكون حَزَامةٌ[10] الاَّ تؤخِّرَ مَنْ به تتقدَّمُ

ومالك هو ابن طوق بن مالك[11] بن عتاب بن زفر[12] بن مرة بن شريح

---

(١) ديوانه : ٢٧٣ . (٢) فى الديوان: مهلا بنى غنم بن ثعلب . (٣) فى الديوان : مذ لدن . (٤) فى ط : بيسالة ، وهذا من الديوان و ت . (٥) فى الديوان : لا تتقى .

(٦) فى الديوان : حسد العشيرة للعشيرة . (٧) فى الديوان : تلدت وسائلها .

(٨) فى الديوان : آراؤها ، وفى ت : أقدامها . (٩) فى ط : وهم منهم .

(١٠) فى الديوان : ومن الحزامة أيها النطف . والحزامة : الحزم .

(١١) ليست فى ت . (١٢) فى ت : بن فزارة وفى ق : زافر .

ابن عبدالله بن عمرو بن كلثوم بن مالك [بن عتاب][1] بن سعد بن [زهير بن][1] جشم بن بكر [بن وائل][1] بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وفيه يقول دعبل يهجوه :

النَّاسُ كلُّهُمُ يَغْدُو لحاجتِهِ ... من بين ذى فَرَحٍ منها ومَهْمُومِ

ومالكٌ ظل مشغولا بنسبتهِ ... يَرُمُّ[2] منها بناءً غير مَرْمُومِ

يبنى بيوتا خرابا لا أنيس بها ... ما بين عمرو إلى طوق ابن كلثوم[3]

والتكثير من المعنى المُعْتَرِض يزيح عن ثُغرة الغرض ، لكنى أُجْرِى منه إلى حلبة الإجادة ، وأَقْصِد قصدَ الإفادة ، ثم أعود حيثُ أُرِيد .

لابن الخياط فى الهيبة

وقال ابن الخياط[4] المكى واسمه عبد الله بن سالم فى باب الهيبة فى مالك بن أنس الفقيه رحمة الله عليه وقيل : إن هذا من قول ابن المبارك :

يَأْبَى الجوابَ فما يُرَاجَعُ هَيْبَةً ... والسائلون نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ

أَدَبُ الوقار وعِزُّ سلطانِ التّقى ... فهو المهيب وليس ذَا سُلْطَانِ

* * *

فى معنى قول الفرزدق

وقول الفرزدق : * يكادُ يمسكه عرفان راحته[5] * قد تجاذبه جماعةٌ من الشعراء؛ قال أشجع بن عمرو السلمى لجعفر البرمكى :

حبّذا أنت قادماً ترد الشا ... م فتختال بين أرحُل عيرِكْ[6]

إن أرضاً تسرى إليها لو اسْطَا ... عت لسارت إليك من قبل سيْرِكْ

وإليه أشار أبو تمام الطائى فى قوله[7] :

دِيمةٌ سَمْحَةُ القِيادِ سكوبُ ... مُستغيثٌ بها الثّرَى المكروبُ

لو سعَتْ بقعةٌ لإعظامِ نُعمَى ... لسَعَى نحوها المكانُ الجديبُ

---

(١) من ت ، ق . (٢) يرم : يصلح ، وفى ت : يؤم . (٣) ليس فى ت
(٤) فى ت : الخياط . (٥) صفحة . (٦) فى ط : غيرك ، وفى ق: أرجل غيرك.
(٧) ديوانه: ٥٧ .

وفى هذه القصيدة فى وصف الديمة ومدح محمد بن عبد الملك الزيات :

لَذَّ شُؤبوبُها وطابَ فلو تسـ طيعُ قامت فعانقتها القلوبُ

فهو[1] ماءٌ يجرى وماءٌ يليه وعزال[2] تنشا وأُخرى تصوب[3]

أيُّها الغيثُ حيِّ أهلاً بمغدا ك وعندَ السُّرى وحين تؤُوبُ

لأبى جعفرٍ خلائق تحـ كيهنَّ قد يشبه النجيبَ النَّجيبُ

وأنشدها أبا جعفر بن الزيات ، فقال : يا أبا تمام ؛ والله إنك لتحلِّى شِعْرَك من جواهر لَفْظِك وبَدَائع مَعَانيك مايزيد حُسناً على بهىِّ الجواهر فى أجياد الكواعب؛ وما يُدَّخَرُ لك شىءٌ من جزيل المكافأة إلا يَقْصُر عن شِعْرِك فى الموازنة[4] . وكان بحضرته رجلٌ من الفلاسفة فقال : هذا الفتى يموتُ شاباً! فقيل له : مِنْ أينَ حكَمْتَ عليه بهذا ؟ فقال : رأيتُ فيه من الحِدَّة والذكاء والفِطْنَة مع لطافة الحِسِّ ما علمتُ به أن النفسَ الروحانية تأ كلُ عمره كما يأ كلُ السيف المهنَّد غِمده ! قال الصولى : مات وقد نَيَّف على الثلاثين .

وقال فى أبى دلف العجلى القاسم بن محمد بن عيسى[5] :

تَكَادُ عَطَايَاهُ يُجَنُّ جُنُونُها إِذَا لَمْ يُعَوِّذْهَا بنَغْمَةِ طَالِبِ

تكادُ مَغَانِيه تهشُّ عِراصُها فتركبُ من شَوْقٍ إلى كُلِّ رَاكِبِ

وقال البحترى[6] :

لو أنَّ مشتاقاً تكلَّفَ فوق ما[7] فى وُسْعِه لمشى إليكَ المِنْبَرُ

وقال أبو الطيب المتنبى لبدر بن عمار[8] :

طَرِبَتْ مَرَاكِبُنَا فخِلْنَا أَنَّهَا لولا حَيَاءٌ عَاقَهَا رقَصَتْ بِنَا

لو تَعْقِلُ الشَّجَرُ التى قابَلْتَهَا مَدَّتْ محيِّيَةً إِلَيْكَ الأَغْصُنَا

---

(١) فى الديوان ، وفى ت : فهى . (٢) عزال : جمع عزلاء وأصله مصب الماء من الراوية، والمراد بها السحابة . (٣)تصوب : تنسكب . فى الديوان : تذوب (٤) فى ت،ق : فى الموازاة .
(٥) ديوانه : ٤١ . (٦) ديوانه : ٢١٢. (٧) وفى الديوان : فلو.. غير ما .
(٨) ديوانه : ٣_٢٠٣ .

رَجع ما انقطع

من كلام محمد ابن علي

قال أعرابي لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين رضى الله عنه : هل رأيت الله حين عَبَدْتَه ؟ فقال : لم أَكُنْ لأَعْبد مَنْ لم أَره. قال: فكيف رأيته ؟ قال : لم تره الأَبصارُ بمشاهدة العِيان ، ورَأَتْهُ القلوبُ بحقائق الإيمان ، لا يُدْرَك بالحواسّ ، ولا يُشبَّه بالناس ، معروفٌ بالآيات ، منعوتٌ بالعلاماتِ ، لايجورُ فى القضيّات ، ذلك اللهُ الذى لا إله إلا هو . فقال الأعرابى : الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته .

قال الجاحظ : قال محمد بن على: صلاحُ شأنِ الدنيا بحذافيرها فى كلمتين؛ لأنّ صلاحَ شأن جميع الناس [فى التعايشو] (١) التعاشر وهو مِلء مِكْيال : ثلثاه فِطْنة وثلثه تَغَافل .

قال الجاحظ : لم يجعل لغير الفِطْنَةِ نصيباً من الخير ، ولا حظاً من الصلاح ؛ لأن الإنسان لا يتغافلُ عن شىء إلا وقد عرفه وفَطِن له ، قال الطائى (٢) :

ليس الغبىُّ بسيِّدٍ فى قَوْمِهِ لكنَّ سيدَ قَوْمِهِ المُتَغَابِى

وقال ابن الرومى لأبى محمد بن وهب (٣) بن عبيد الله بن سليمان (٤) :

تظلّ إذا نامت عيونُ ذوى العمى وإن حدّدوا زُرقاً إليك جواحظا

تَغاضى (٥) لهم وَسْنَانَ بل متواسِنا وتوقظهم يقظان بل متياقظا

كلام زيد ابن علي

[وأبو جعفر هذا هو الباقر (٦)] ، وكان أخوه زيد بن على رضى الله عنه ديِّنا شجاعا ناسكا من أَحْسَنِ بنى هاشم عبارة ، وأَجملهم إشارة .

وكانت ملوك بنى أمية تكتُب إلى صاحب العراق أَنِ امنعْ أهلَ الكوفة من حضور زيد بن على ، فإنّ له لسانا أَقْطَع من ظُبَةِ السيف وأَحَدّ من شَبَا الأَسِنة ، وأَبلغ من السحر والكهانَة ؛ ومن كل نفث فى عُقْدَة (٧) .

(١) من ت . (٢) ديوانه : ٢٠ ، المختار من شعر بشار : ١٣٠ .

(٣) فى ت : لأبى محمد بن عبيد الله بن سليمان بن وهب . (٤) ليسا فى الديوان الذى بين أيدينا . (٥) تتغاضى . (٦) من ت . (٧) النفث : النفخ. والنفاثات فى العقد: السواحر.

وقيل لزيد بن على : الصمتُ خيرٌ أم الكلام ؟ فقال : قبّح الله المساكتة ، ما أفسدها للبيان وأجلبها للعِيِّ والحَصَر ! والله للمُمارَاة أسرع فى هَدْمِ[1] الفتى من النار فى يَبَس العرفَج ، ومن السيل إلى الحدور[2] .

وقال له هشام بن عبد الملك : بلغنى أنّك تَرومُ الخلافة وأنت لا تصلُحُ لها لأنك ابنُ أمَة ؟ قال زيد : فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابن أَمة ، وإسحاق بن حُرَّة ؛ فأخرج الله من صُلب إسماعيل خيرَ ولدآدم ! فقال له : قم ! فقال : إذاً والله لا تَرانى إلاّ حيثُ تَكْرَه ! فلما خرج من الدار قال : ما أحبَّ أحدٌ الحياةَ قط إلاّ ذلَّ . فقال له سالم مولى هشام : لا يسمعنَّ هذا الكلام منك أحدٌ . وكان زيد كثيراً ما ينشد :

شرّده الخوفُ وأزْرَى بهِ ... كذاك من يَكْرَهُ حرَّ الجِلَادْ[3]

منخرق الخفَّين يشكو الوجَى[4] ... تنكُبُه أطرافُ مَرْوٍ حِدَادْ[5]

قد كان فى الموت له رَاحَةٌ ... والموتُ حَتْمٌ فى رقاب العباد

وقد رُوِيت هذه الأبيات لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ، وقد رُوِيت لأخيه موسى .

قال عبد الرحمن بن يحيى بن سعيد : حدثنى رجل من بنى هاشم قال : كنا عند محمد ابن على بن الحسين وأخوه زيد جالس فدخل رجلٌ من أهل الكوفة فقال له محمد بن على : إنك لتَرْوِى طرائفَ من نوادر الشعر ، فكيف قال الأنصارى لأخيه ؟ فأنشده[6] :

لَعمْرُك ما إنْ أبو مالكٍ ... بِوَانٍ ولا بضَعيفٍ قُوَاهُ

---

(١) فى ت : من هذا . (٢) كان ينحدر منه . (٣) الجلاد : الحرب .

(٤) الوجى : الحفا أو أشد منه . (٥) المرو : حجارة بيض براقة تورى النار أو أصل الحجارة ، ونكبه : نحاه . (٦) المختار من شعر بشار : ١٨٨ ، الخزانة : ٢ – ١٣٥ ، ونسب الشعر فيه للمتنخل الهذلى .

ولا بألدَّ لهُ نازعٌ ... يُعادِي أخاه إذا ما نَهاهُ
ولكنه غيرُ مِخلافةٍ ... كريم الطبائع حلو ثناهْ[1]
وإن[2] سُدْتَه سدتَ مِطواعةً ... ومهما وكَلْتَ إليه كفاه

فوضع محمد يده على كَتِفِ زيد ، فقال : هذه صِفَتُك يا أخى ؛ وأُعيذُك بالله أَنْ تكون قتيلَ أهل العراق !

وكانت بين جعفر بن الحسن[3] بن الحسين بن على وبين زيد رضوان الله عليهم منازعةٌ فى وصيَّة ، فكانا إذا تنازعا انثالَ الناسَ عليهما ليسمعُوا محاوَرَتَهما ؛ فكان الرجلُ يحفظ على صاحبه اللَّفظة من كلام جعفر ، ويحفظُ الآخرُ اللفظةَ من كلام زيد . فإذا انفصلا وتفرَّق الناس عنهما قال هذا لصاحبه : قال فى موضع كذا وكذا ، وقال الآخر : قال فى موضع كذا وكذا ؛ فيكتبون ما قالا ثم يتعلَّمونه كما يتعلّم الواجب من الفَرْض ، والنادرُ من الشعر ، والسائرُ من المثل ؛ وكانا أعجوبةَ دَهْرِهما وأُحْدُوثَةَ عصرهما .

من كلام عبدالله بن الحسن

ولما قتل زيداً[4] يوسف بن عمر وصلب جُثَّته بالكُناسة وبعثَ برأسه مع شَبَّة ابن عقال ، وكلّف آل أبى طالب البراءة من زيد ، وقام خطباؤهم بذلك ؛ فكان أول مَنْ قام عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على رحمة الله عليه فأَوْجَز فى كلامه ثم جَلَس ، وقام عبدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فأَطْنب ، وكان شاعراً خطيباً لسِناً ناسباً ، فانصرف الناسُ وهم يقولون : ابن الطيار مِنْ أَخْطَبِ الناس ، فقيل لعبد الله بن الحسن فى ذلك ؛ فقال : لو شئت أن أقولَ لقلت ، ولكن لم يكن مقامَ سرور ، وإنما كان مقام مُصيبة !

---

(١) رواية البيت فى المختار من شعر بشار :
ولكنه هين لين ... كعالية الرمح عود نساه

(٢) فى المختار : إذا سدته . (٣) فى ت : جعفر بن الحسين .

(٤) فى ط : ولما قتله يوسف .

وعبدُالله هذا هو أبو محمد وإبراهيم الخارجين على أبي جعفر المنصور، وهو القائلُ لابنهِ محمد أو إبراهيم[١] : أيْ بني ! إني مؤدٍّ حقَّ اللهِ في تأديبك ، فأدِّ إليَّ حقَّ اللهِ في الاستماع مني ؛ أي بنيّ ! كُفَّ الأذى ، وارفُضِ البَذَا[٢] واستَعِنْ على الكلام بطول الفِكْر في المواطن التي تَدْعُوكَ فيها نفسُك إلى الكلام ، فإنّ للقول ساعاتٍ يضرُّ فيها الخَطأُ ، ولا يَنْفَعُ فيها الصَّوَابُ ، واحذَرْ مشورةَ الجاهلِ ، وإنْ كان نَاصِحاً ، كما تَحْذَر مشورةَ العاقِل إذا كان غاشّا ؛ لأنه يُرْدِيكَ بمَشورته ؛ واعلم يا بنيّ أن رَأْيك إذا احتجتَ إليه وجدتَه نائما ، ووجدتَ هواكَ يَقْظَانَ ، فإياكَ أن تستبدّ برَأْيك ؛ فإنه حينئذ هَواكَ ؛ ولا تفعَلْ فِعْلا إلا وأنْتَ على يقين أنَّ عاقبتَه لا تُرْدِيك ، وأن نتيجتَه لا تَجْني عليك .

وهو القائل : إياكَ ومُعَاداة الرجال فإنك لن تعدَم مَكْر حليم ، أو مُعَاداة لئيم .

وكتب إلى صديق له : أُوصيك بتقوى الله تعالى فإنَّ اللهَ تعالى جعل لمن اتقاه المخرج من حيث يَكْرَه ، والرزق من حيث لا يحتسب .

وعبد الله هو القائل :

أُنُسٌ حرائرُ ما هَمَمْن بريبةٍ ... كظباء مكةَ صيدُهنَّ حرامُ
يُحسَبْنَ من لِينِ الحديث دوانيا[٣] ... ويصدّهنَّ عن الخَنَا الإسلامُ[٤]

قال : وهذا كما روى أنَّ عبد الملك بن مروان استقبل عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي فقال له : قد علِمَتْ قريشٌ أنّك أطولُها صَبْوَة ، وأبْعَدُها توْبة ؛ وَيْحَك ! أمَالَكَ في نساء قريش ما يَكْفِيك من نساء بني عبد مناف ؟ ألست[٥] القائل :

نظرتُ إليها بالمحصَّب من مِنًى ... ولى نظرٌ لولا التحرُّجُ[٦] عارمُ

---

(١) البيان والتبيين : ١ — ١٨٠ ، ٢ — ٨٨ . (٢) البذا: السفه والإفحاش في المنطق.
(٣) في ط : زوانيا . (٤) الخنا : الفحش . (٥) الأغاني : ١ — ١٥٧، ديوانه ٤٣ . (٦) في ط : عازم — بالزاى ، والعارم : الشديد

فقلت أصبح[١] أم مصابيح راهبٍ بدت لك خلف السَّجف[٢] أم أَنْتَ حالم
بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ إمَّا لنوفلٍ أَبوها وإمَّا عبدُ شمس وهاشم

فقال : يا أمير المؤمنين ، فإنّ بَعْدَ هذا :

طلبن الهوى حتى إذا ما وجدنَهُ صَدرْنَ وهُنَّ المسلماتُ الكرائمُ[٣]

فاستحيا منه عبدُ الملك وقضى حوائجه ووصله .

وقال آخر فى هذا المعنى :

تَعطَّلن إلاّ مِنْ محاسنِ أَوْجهٍ فهنّ حَوالٍ فى الصفات عَوَاطِلُ[٤]
كواسٍ عوارٍ صامتات نواطقٌ بعفِّ الكلام باخِلَاتٌ بَوَاذل
بَرَزْنَ عَفافاً واحتجَبْنَ تستُّراً وشِيبَ[٥] بحقِّ القولِ منهنَّ بَاطِلُ
فذو الحلم مرتادٌ وذو الجهل طامعٌ وهنَّ عن الفحشاء حِيدٌ نوا كل

وقال العُدَيل بن الفَرْخِ فيما يتطرف طرفا من هذا المعنى :

لعبَ النعيمُ بهن فى أطلاله[٦] حتى لبسن زمانَ عَيْشٍ غافلِ
يأخذن زينتهنّ أحسن ما ترى فإذا عَطِلْنَ فهنَّ غيْرُ عَوَاطلِ
وإذا خَبأْنْ خدودهن[٧] أَرَيْنَنِى حدَق[٨] المها وأخذن نَبْل القاتل
يرميننا لا يستَتِرْنَ بِجُنَّةٍ إلا الصِّبا وعلمن أَيْنَ مقاتلى
يلبسن أَرْدية الشباب لأهلها ويجرّ باطلهنَّ ذَيْل[٩] الباطلِ

---

(١) فى الأغانى والديوان : أشمس أم مصابيح بيعة . (٢) السجف : الستر .
(٣) رواية هذا البيت فى الديوان :
طلبن الصبا حتى إذا ما أصبنه نزعن وهن المسلمات الظوالم
(٤) حوال : جمع حالية ، والعواطل : جمع عاطل ، وهى التى تعطلت من الحلى .
(٥) شيب : مزج . (٦) فى ط : أظلاله . (٧) فى ت : وجوههن .
(٨) المها : واحدها مهاة ، وهى الظبية . (٩) فى ت : حبل .

وتعرَّضَ لعبد الله بن الحسن رَجُلٌ بما يَكْرَهُ فقال فيما أنشده ثعلب :

أظَنّت سَفاها من سَفَاهَة رأيها أن اهْجوَها لما هَجَتْني محاربُ[1]

فلا وأبيها إنني بعشيرتي ونفسىَ عن ذاك المقام لرَاغِبُ

وأنشد هذين البيتين أبو العباس المبرّد لرجل لم يسمّه فى رجلٍ يُعْرَفُ بابن البعير وقبلهما :

يقولون أبناء البَعِير وما لَهمْ سَنامٌ ولا فى ذِرْوَة الجدغَارِبُ

وسايَرَ عبد الله بن الحسن أبا العباس السفاح بظَهْر مدينةِ الأنبار وهو يَنْظُرُ إلى بناءٍ قد بناه أبو العباس ويدور به ، فأنشد عبدُ الله :

ألم تَرَ جوشنا لما تبنَّى بناءً نفعه لبنى بُقَيْله

يؤمِّل أنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ وأمْرُ الله يَحْدُثُ كلَّ لَيْلَه

وكان أبو العباسِ له مُكْرِماً ، ولحقِّه معظِّما ؛ فتبسَّم مغضَباً وقال : لو عَلِمْنَا لاشترطنا حقَّ المُسَايرة ! فقال عبدُ الله : بوادِرُ الخواطر ، وأغفال المسانح ؛ والله ما قلتُها عن رَوِيَّة ، ولا عارضَنى فيها فكر[2] ؛ وأنْتَ أجلُّ من أقال ، وأوْلَى مَنْ صَفَح . قال : صدقت ؛ خُذْ فى غير هذا .

ولما قتل المنصور ابنه محمدا ، وكان عبدُ الله فى السجن بعث برأسه إليه مع الربيع حاجبه ؛ فوُضع بين يديه فقال : رحمك الله أبا القاسم فقد كنتَ من « الَّذِين يُوفُون بَعَهْدِ الله ولا يَنقُضُونَ الميثاقَ ، والَّذين يَصِلُونَ ما أمَرَ اللهُ به أنْ يُوصَل ، ويَخْشَوْنَ ربَّهم ويَخَافُونَ سُوءَ الحساب » ! ثم تمثل :

فتًى كان يَحْميه من الذلِّ سَيْفُه ويكفيه سوءاتِ الأمورِ اجتنابُها

ثم التفتَ إلى الربيع فقال له : قلْ لصاحبكِ قد مضَى من بُؤْسنا مدة ، ومن

---

(١) محارب : اسم قبيلة . (٢) فى ط ، ق: ذكر .

نعيمك مثلُها؛ والموعدُ الله تعالى ! قال الربيع : فما رأيت المنصور قطّ أكثر انكساراً منه حين أبلغته الرسالة .

أخذ العباس بن الأحنف هذا المعنى وقيل عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير فقال :

فإن تلحظى حالى وحالك مرةً ... بنظرة عين عن هوى النفس تُحْجبُ

تَجِدِ كلّ يوم مرّ من بُؤْسِ عيشتى ... يمرّ بيوم من نعيمكِ يُحْسَبُ

من كلام امرأة من بنى هاشم

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله اعترضته امرأةٌ معها صبيان ، فقالت : يا أميرَ المؤمنين، أنا امرأةُ محمد بن عبد الله ؛ وهذان ابْنَاه ، أيتَمهُما سيفُك ، وأَضْرعهما[1] خوفُكَ . فناشدتُك اللهَ يا أمير المؤمنين أن تُصَعِّر لهما خدَّك ، أَوْ ينأى عنهما رِفدك؛ ولتَعْطِفْك عليهما شَوَابِكُ النسب ، وأَوَاصِرُ الرّحِم[2] . فالتفَتَ إلى الربيع ، فقال: اردُدْ عليهما ضِياع أبيهما ، ثم قال : كذا واللهِ أحبُّ أن تكونَ نساء بنى هاشم .

من كلام جعفر بن محمد

وكان أَهلُ المدينة لما ظهر محمد أَجْمَعُوا على حربِ المنصور ، ونصر محمد ؛ فلما ظفِر المنصور أَحضر جعفر بن محمد بن على بن الحسين الصادق ، فقال له : قد رأيتَ إطباقَ أهلِ المدينة على حَرْبِى ، وقد رأيتُ أَن أَبعثَ إليهم من يُعَوِّر عيونهم ، ويُجَمِّر نخلهم[3] . فقال له جعفر: ياأميرَ المؤمنين ؛ إنَّ سليمانَ أُعْطِى فشكر ، وإنّ أيوبَ ابتُلى فصبَرَ ، وإنّ يوسف قدَرَ فغفَر ؛ فاقْتَدِ بأَيِّهم شئت ، وقد جعلك الله من من نَسْلِ الذين يَعْفُونَ ويَصْفَحُون ، ؛ فقال أبو جعفر : إنَّ أحداً لا يُعَلِّمُنا الحِلْمَ ، ولا يعرِّفُنَا العلم ، وإنما قلت هَمَمْت ، ولم ترنى فعلت ؛ وإنكَ لتعلمُ أن قدرتى عليهم تمنعُنى من الإساءةِ إليهم .

وعزَّى جعفرُ بن محمد رجلاً ، فقال : أَعْظِمْ بنعمةٍ فى مصيبة جَلَبَتْ أجرا وأَفْظِعْ بمصيبةٍ فى نعمةٍ أكسبت كُفراً ؛ هذا كقول الطائى[4] :

(١) أذلهما . (٢) أواصر : جمع آصرة ، وهى من الرحم والقرابة .

(٣) جمر النخلة : قطع جمارها . (٤) ديوانه : ٣١٦ .

قد يُنعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإن عظمت ... ويَبْتَلِى اللهُ بعضَ القَوْمِ بالنِّعمِ

وكان جعفرُ بنُ محمد يقولُ: إنّى لأُمْلِقُ أحيانًا فأُتاجر الله بالصدقة فيُرْبِحنى.

وقال جعفر رضى الله عنه: من تخلَّق بالخلقِ الجميل وله خُلقٌ سوء أَصِيل فتخلُّقُه لا محالةَ زائل، وهو إلى خُلُقه الأوَّل آيل، كطلى الذهب على النحاس يَنْسَحِق وتظهر صُفْرَتُه للناس. وهذا كقول العرجى [1]:

يأيها المتحلِّى غيرَ شيمتهِ ... ومن خلائقه الإقصارُ والمَلق
ارجع إلى خلقك المعروف وارْضَ بِهِ ... إنَّ التخلقَ يأتِى دُونه الخُلُقُ

وكان يقول: ما توسَّلَ إلىَّ أحدٌ بوسيلة هى أقرب إلىَّ من يدٍ سبقَتْ منى إليه أُتْبعها أختها لتحسن ربَّها وحِفْظَها [2]؛ لأَنَّ مَنْعَ الأَوَاخر يقطعُ لِسانَ الأوائل.

وقيل لجعفر رحمه الله: إنَّ أَبا جعفر المنصور لا يلبسُ مذ صارت إليه الخلافةُ إلاّ الخشِن، ولا يأكلُ إلا الجَشِب [3]. فقال: ياوَيْحَه! مع ما مُكِّن له من السلطان، وُجبى إليه من الخراج! قالوا: إنما يَفْعَل ذلك بُخْلًا وجمعاً للمال. فقال: الحمد لله الذى حَرَمه من دُنْياه ما ترك له من دينه. انتهى.

قال: ومن دعاء جعفر رضى الله عنه: اللهم إنك بما أنت أهلٌ له من العفو أوْلى بما أنا أهْلٌ له من العقوبة.

من كلام عبد الله ابن معاوية

وكان عبدُ الله [بن معاوية بن عبد الله] [4] بن جعفر عالمًا، ناسِبًا، وكان خطيباً مُفَوَّهاً، وشاعراً مُجيداً، كتب إلى بعض إخوانه: أما بعدُ فقد عاقَنِى الشكُّ فى أَمْرِك عن عزيمة الرَّأْيِ فيك، وذلك أنك ابتدأْتَنِى بلُطْفٍ عن غير خِبْرَة؛ ثم أَعْقَبْتَنِى جفاءً عن غير جريرة؛ فأَطْمَعَنِى أَوَّلُك فى إخائك، وأَيأَسَنِى آخِرُك عن

---

(١) المختار من شعر بشار: ١٨١، الكامل: ١١، الحماسة: ٣٤١، وهى منسوبة فى الكامل والحماسة إلى سالم بن وابصة الأسدى. (٢) رب الشيء: أصلحه.
(٣) الجشب: هو الطعام الغليظ، أو الذى لا أدم فيه. (٤) ليست فى ت.

وفائك ؛ فلا أنا فى غير الرجاء مجمعٌ لك اطّراحاً ، ولا أنا فى غَد [(١)] وانتظاره منك على ثقةٍ ؛ فسبحان من لوشاء كشف بإيضاح الشكّ فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك؛ فاجتَمَعْنَا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

وهو القائل [(٢)] :

رأيت فُضَيلا كان شيئاً مُلفّعاً ... فكشّفه التّمحيص حتى بَدَا ليا [(٣)]

فأنت أخى ما لم تكن لىَ حاجةٌ ... فإن عَرَضَت أيقنتُ أن لا أخاليا

كلانا غنىٌّ عن أَخيه حياتَه ... ونحن إذا متْنَا أشدُّ تغانيا

فلا زادَ ما بينى وبينكَ بعدما ... بلوتك فى الحاجاتِ إلاّ تماديا [(٤)]

فعين الرضا عن كل عَيْبٍ كليلةٌ ... كما أنّ عين السخط تُبدى المساوِيَا

والقائل أيضاً [(٥)] :

لَسْنَا وإنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ [(٦)] ... يوماً على الأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنى كما كانَتْ أوَائِلُنَا ... تَبْنى ونَفْعَلُ مِثْلَ مافعلوا

وهذا كقول عامر بن الطفيل ، قال أبو الحسن على بن سليمان الأخفش : أنشدنى محمد بن الحسن بن الحرون لعامر بن الطفيل [(٧)] :

تقول ابنةُ العَمْرِىِّ مالَك بَعْدَما ... أراكَ صحيحاً كالسَّليم المعذَّبِ [(٨)]

فقلتُ لها هَمِّى الذى تَعْرفينهُ ... من الثّأْرِ فى حَيَّىْ زُبَيْد وأَرْحَبِ [(٩)]

إن أَغْزُ زُبيداً أَغْزُ قوماً أَعِزَّةً ... ومركبهم فى الحىّ خير مركب [(١٠)]

وإنْ أَغْزُ حَيَّىْ خَثْعَم فدماؤُهم ... شِفَاءٌ وخيرُ الثَّأْر للمتأَوِّبِ [(١١)]

---

(١) فى ط،ق : عدم . (٢) الكامل : ١ — ١٢٥ . (٣) ملفعا : مغطى . والتمحيص : الاختبار . وفى ت : ملفقا . (٤) فى ت : تنائيا . (٥) الأمالى : ٣ — ١٣ .

(٦) فى الأمالى : لسنا وإن كرمت أوائلنا . (٧) الشعر والشعراء : ٢٩٥ ، والكامل : ١ — ٩٥ ، ذيل اللآلى: ٥٥ . (٨) السليم : الملدوغ . (٩) زبيد وأرحب : حيان من اليمن.

(١٠) فى الكامل وفى ت : « مركبهم فى الحى خير مركب » .

(١١) المتأوب : الذى يأتيك لطلب ثأره عندك .

فما أدركَ الأَوْتارَ مِثْلُ محقَّقٍ ... بأَجْرَدَ طاوٍ كالعَسيب المُشَذَّبِ[1]
وأَسمَرَ خَطِّىٍّ وأبيضَ بَاتِرٍ ... وزَغْفٍ دِلَاصٍ كالغدير المُثَوَّبِ[2]
وإنى وإن كنت ابنَ سيدِ عامر ... وفى السرِّ منها والصريح المهذَّب
فما سوَّدتنى عامر عن وراثةٍ ... أبَى الله أن أسمو بأُمٍّ ولا أب
ولكننى أحمى حماها ، وأتقى ... أذاها ، وأرمى مَنْ رماها بمَنكب[3]

وقال أيضاً يهنِّىء بعضَ الهاشميين بإملاك[4] : زاد الله فى نعمته ، وبارك لكم فى فوَاضِله وجميل نوافِلِه ؛ ونسألُ اللهَ ـ الذى قسم لكم ما تحبُّون من السرور ـ أن يجنبِّكم ما تكرهون من المحذور ، ويجعل ما أحدثه لكم زينا ، ومتاعاً حسنا ، ورشداً ثابتا ، ويجعل سبيلَ ما أصبحت عليه تماما لصالح ما سَمَوْت إليه ؛ من اجتماع الشَّمْل ، وحُسْن موافقةِ الأهْلِ ؛ ألَّف اللهُ ذلك بالصلاح ، وتمَّمه بالنجاح ، ومَدَّ لك فى ثروة العدد ، وطِيب الولد ، مع الزيادة فى المال ، وحُسْنِ السلامةِ فى الحال ، وقُرة العين ، وصلاح ذات البَيْن .

بين الأسلمى والحسن بن زيد

وهجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلمى المدنى الحسن بن زيد بن الحسين[5] بن على ابن أبى طالب رحمة الله عليه فقال :

له حقٌّ وليس عليه حَقّ ... ومهما قال فالحسَن الجميلُ
وقد كان الرسولُ[6] يَرى حقوقاً ... عليه لغيره وهو الرسولُ

فلما ولى الحسن المدينة أتاه متنكِّراً فى زى الأعراب فقال :

ستأتى مِدحتى الحسنَ بن زَيْدٍ ... وتشهد لى بصِفِّين القبورُ[7]

(١) الأوتار : الأحقاد ، والأجرد : الفرس المتحسر الشعر ، والعسيب : السعفة .
(٢) وخطى . رمح منسوب إلى الخط . والزغف : الدرع الرقيقة النسج . والمثوب : الذى تصفقه الرياح فيذهب ويجىء . والدلاص : اللينة الملساء . (٣) فى ط : من وراها ، وفى الكامل: بمقنب . (٤) الإملاك : الزواج . (٥) فى ط : بن الحسن ، والذى ولى المدينة : هو الحسن ابن زيد بن على بن أبى طالب . (٦) فى ت : النبى . (٧) صفين : موضع كانت فيه الموقعة بين على ومعاوية .

قبورٌ لم تزل مُذْ غاب عنها ... أبو حسن تُعَادِيهـا الدهور
قبـور لو بأحمـد أو علىٍّ ... يلوذُ مجيرُها حُمِىَ الْمُجير
هما أبواكَ مَنْ وَضَعَا فضَعْهُ ... وأنت برَفْعِ مَنْ رَفَعا جديرُ

فقال : من أنت ؟ قال : أنا الأسلمى . قال : ادْنُ حيَّاكَ اللهُ ! وبسط له رداءه وأجلسه عليه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

بين الحسن ابن زيد وداود بن سلم

وكان الحسن بن زيد قد عوَّد داود بن سلم مولى بنى تيم أن يَصِلَه ، فلما مدح داود جعفر بن سليمان بن على ، وكان بينه وبين الحسن بن زيد تباعدٌ أَغضبه ذلك ، وقدم الحسن من حجٍ أو عُمرة فدخل عليه داود بن سلم مهنئّاً ، فقال: أنتَ القائل فى جعفر ابن سليمان بن على :

وكُنَّا حديثاً قبل تأمير جَعْفرٍ ... وكان المنى فى جعفر أن يُؤَمَّرا[١]
حوى المنبرين الطاهرين كليهما ... إذا ما خَطَا عن منبر أَمَّ منبرا
كأنّ بنى حَوّاء صُفُّوا أمامهُ ... فخُيِّرَ فى أنسـابهم فتخيَّرا

فقال داود : نعم ، جعلنى اللهُ فِدَاكَ ، فكنتم خيرة اختياره ! وأنا القائل :

لعمرى لئن عاقبتَ أو جُدْتَ مُنْعِماً ... بعَفْو عن الجانى وإن كان مُعْذِرا[٢]
لأَنت بما قدّمت أوْلى بمـدحهِ ... وأكرم نخراً إن نخرت وعُنصرا
هو الغُرّة الزَّهْراء من فَرْع هاشم ... ويدعو عَلِيًّا ذا المعـالى وجعفرا
وزيد النـدى والسِّبط سبط محمدٍ ... وعمك بالطفّ[٣] الزكىّ المطهَّرا
وما نال منهـا جعفر غير مجلس ... إذا ما نفاه العَزْل عنـه تأخرا[٤]
بحقـكمُ نالوا ذُراها وأصبحوا ... يرون به عزًّا عليـكم ومظهرا[٥]

(١) يؤمر : يولى الإمارة . (٢) معذر : قدم العذر .
(٣) فى ط و ت : باللطف . (٤) العزل : الضعف .
(٥) فى ت : ومفخرا .

فعاد له الحسنُ بنُ زيد إلى ما كان عليه ، ولم يَزَلْ يَصِلهُ وَيُحْسِنُ إليه إلى أن مات.

وقوله : « وإن كان معذراً » لأنَّ جعفراً أعطاه على أبياته الثلاثة ألف دينار[1] .

بين ابن هرمة والحسن ابن على

ولما ولى الحسن بن زيد المدينة دخل عليه إبراهيمُ بن على بن هرمة ، فقال له الحسن : يا إبراهيم ؛ لستُ كمن بَاعَ لك دِينَه رجاءَ مَدْحِك ، أو خَوْفَ ذمِّك ؛ فقد رزقنى اللهُ تعالى بولادة نبيّه صلى الله عليه وسلم المَمَادِح ، وجنّبَنى القَابِح ، وإنَّ من حقّه علىّ ألاَّ أُغْضِى على تقصيرٍ فى حقٍّ وَجَب ؛ وأنا أُقسم لئن أُتيتُ بكَ سكرانَ لأضربنَّك حدًّا للخمر ، وحدًّا للسكر ؛ ولأزيدنَّ لموضع حُرْمَتك بى ؛ فليَكُن تَرْكُكَ لها للهِ عزَّ وجل تُعَنْ عليه ، ولا تدَعْها للناس فتُوكَل إليهم .

فنهض ابن هرمة وهو يقول[2] :

نهانى ابنُ الرسولِ عن المُدامِ ... وأدَّبنى بآدابِ الكرامِ

وقال لىَ اصطبر عنها ودَعْها ... لخوفِ الله لا خوف الأَنامِ

وكيف تَصَبُّرى عنها وحُبى ... لها حُبٌّ تَمَكَّنَ فى عظامى

أرى طيفَ الخيال علىَّ خُبثاً ... وطيب العيشِ فى خبث الحرَامِ

وكان إبراهيم منهوماً فى الخمر ، وجَلَده خَيْثَم[3] بن عِرَاك صاحبُ شُرْطة المدينة لرباح بن عبد الله الحارثى فى وِلاية أبى العباس .

ولما وفد على أبى جعفر المنصور ومدحه استحسن شعره ووصله ، وقال له : سَلْ حاجتك . قال : تكتبُ لى إلى عامل المدينة ألاَّ يَحُدّنى إذا أُتِىَ بى سَكْرَان . فقال أبو جعفر : هذا حدٌّ من حدود اللهِ تعالى لا يجوزُ أن أُعطِّله . قال : فاحْتَلْ لى يا أميرَ المؤمنين ! فكتب إلى عامل المدينة : « من أتاكَ بابْنِ هرمة سكران فاجْلِده مائة ، واجلد ابن هرمة ثمانين » .

---

(١) فى ط : على أبياته ثلاثة ألف دينار !

(٢) المختار من شعر بشار : ١٠٥ ، العقد الفريد : ٣ — ٣٩٩ .

(٣) فى ت : عثيم .

فكان الشُّرَط يمرُّون به مطروحاً فى سِكَكِ المدينة ، فيقولون : مَنْ يشترى مائة بثمانين !!

من كلام موسى بن عبد الله

وقال موسى بن عبد الله[١] بن على بن أبى طالب :

إذا أنا لم أَقبل من الدهر كلَّ ما ... تكرَّهْتُ منه طال عَتْبى على الدَّهرِ

إلى اللهِ كلُّ الأمر فى الخلق كلهم ... وليس إلى المخلوق شىءٌ من الأمر

تعودت مَسَّ الضرّ حتى أَلِفْتُهُ ... وأَسلمنى طولُ[٢] البلاءِ إلى الصبرِ

ووسَّع صدرى للأذى الأنسُ بالأَذى ... وإن كنت أحياناً يضيقُ به صدرى

وصيَّرنى يَأْسِى من الناس راجياً ... لسُرْعَةِ لطف الله من حيثُ لاأدرى

وموسى بن عبد الله هو القائل :

تولَّت بهجةُ الدنيا ... فكل جديدها خَلَقُ[٣]

وخان الناسُ كلُّهمُ ... فما أدرى بمَنْ أَثِقُ

رأيت معالمَ الخيرا ... تِ سُدَّت دونها الطرُق

فلا حسَبٌ ولا نَسَبٌ ... ولا دِينٌ ولا خُلُق

فلست مصدق الأقوا ... م فى شىء وإن صدقوا

وكان المنصورُ حبَسَه لخروجه عليه مع أَخَوَيْهِ ، ثم ضربه أَلْفَ سَوْطٍ فما نطقَ بِحَرْفٍ واحد ؛ فقال الربيع : عذرت هؤلاء الفسّاق فى صَبْرِهم ؛ فما بَالُ هذا الفتى الذى نشأ فى النعمة والدَّعة ؟ فقال :

إِنِّى من القومِ الذين يَزِيدُهم ... جَلَداً وصَبْراً قسوةُ السلطانِ

وولدت هند بنت أبى عبيدة بن عبد الله بن زَمعة موسى ، ولها ستُّونَ سنة ، ولا يعلم امرأةٌ ولدت بنت ستين سنة إلا قرشيّة .

---

(١) فى ت : بن الحسن بن الحسين بن على .
(٢) فى ت : حسن العزاء .
(٣) الخلق : البالى .

من كلام علي بن محمد

اجتاز علي بن محمد العلوي بالجسر بحِدْثان[1] قَتْلِ عمر بن يحيى بن عبد الله بن الحسين، وقاتلُه الحسينُ بن إسماعيل هناك قد جرَّد رجلا للقتل، فلما رأت أمُّ الرجل عليا سألَتْه أن يشفع فيه فمال عليٌّ إلى الحسين[2] فأنشده:

قتلت أبرَّ من ركِبَ المطايا ... وجئتُك أَسْتَلِينُك بالكلامِ
وعزَّ عليَّ أن أَلقاكَ إلا ... وفيما بيننا حَدُّ الحُسَامِ
ولكنَّ الجناحَ إذا أُصِيبت ... قَوَادِمُه يُرف على الإكَام[3]

فقال له: وما حاجَتُكَ؟ قال: العفوُ عن ابنِ هذه المرأة! فتركه.

من كلام العباس بن الحسين

وسُئِل العباسُ بن الحسين[4] عن رجلٍ. فقال لجليسه: أطرب من الإبل على الحُدَاء، ومن الثَمِل على الغِنَاء.

وذكر العباس رجلا فقال: ما الحِمام على الأَحْرَار، وطول السقم فى الأَسْفَار، وعِظَم الدين على الإقتار، بأشدَّ من لقائه.

وقال العباسُ بن الحسين[4] للمأمون: يا أمير المؤمنين؛ إن لسانى يَنْطَلِق بمدْحِكَ غائبا، وقد أحببتُ أن يتَزَيَّدَ عندك حاضرا، أفتأذنُ لى يا أمير المؤمنين فى الكلام؟ فقال له: قل؛ فوالله إنك لتقولُ فتُحْسِن، وتحضر فتزيّن، وتغيب فتُؤْتَمَن. فقال: ما بعدَ هذا كلام ياأميرَ المؤمنين! أفتأذن بالسكوت؟ قال: إذا شئت.

وذكر رجلا بليغا فقال: ما شَبَّهْتُ كلامَه إلا بثعبان ينهالُ بين رِمَال، وماء يتغلغل بين جِبَال.

وسمِعَ المنتجع بن نبهان كلامَ العباس بن الحسين فقال: هذا كلامٌ يدلّ سائِره على غابِرِه وأوله على آخره.

---

(١) حدثان الأمر: أوله وابتداؤه. (٢) فى ت: إلى الحسن.
(٣) الإكام: جمع أكمة، وهى التل، وفى ت: يكب على الإكام.
(٤) فى ت: الحسن.

وسأل المأمونُ العباسَ بن الحسين عن رجل ، فقال : رأيتُ له حِلْماً وأَناة ، ولم أسمع لَحْناً ولا إحالة[1] ؛ يحدِّثك الحديثَ على مَطَاوِيه ، ويُنْشِدُك الشعرَ على مَدارجه .

وكان المأمون يقولُ : من أراد أن يسمعَ لَهْوًا بلاحَرَج فليسمعْ كلاَمَ العباسِ .

والعباس بن الحسين من أَشْعَرِ الهاشميين ؛ وهو يُعَدّ فى طبقة إبراهيم بن المهدى ، وهو القائل :

أتاح لك الهوى بِيضٌ حسانٌ ... سَبَيْنَك بالعيون وبالشعورِ[2]

نظرت إلى النحور فكدت تقضِى ... وأَوْلى لو نظرت إلى الخصورِ

وهو القائل أيضاً[3] :

صادَتْك من بعض القصور[4] ... بِيضٌ نواعمُ[3] فى الخدورِ

حُورٌ تحور إلى صِبا ... ك بأعيُنٍ منهنّ حُورِ

وكأنما بثغورهـ ... ـنّ جَنَى الرُّضاب[5] من الخمور

يصففن تُفّاح الخدو ... دِ بماء رُمّانِ الصّدور

وهو العباسُ بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأم عبيد الله جدّة بنت عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب عم محمد بن على أبى الخلفاء[6] .

وكان الرشيدُ والمأمونُ يقرِّبانِ العباسَ غايةَ التقريب ؛ لِنَسَبِه وأدبه ؛ قال أبودلف : دخلتُ على الرشيد وهو فى طارمة[7] على طنفسة ومعه عليها شيخٌ جميلُ النظر ؛ فقال لى الرشيد : يا قاسم ؛ ماخَبَرُ أرْضك ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين ، خَرَابٌ

---

(١) الإحالة : التكلم بالمحال . (٢) فى ت : وبالثغور . (٣) المختار من شعر بشار : ٢٤١ ، الأغانى٤ ــ ١٦٦ . (٤) فى المختار : من عين ... أوانس .

(٥) فى ت : جنى للرضاب على . وفى المختار : وكأنما برضابهن جنى الرحيق .

(٦) فى ت : عم الخلفاء . (٧) الطارمة : بيت من خشب كالقبة .

يَبَاب ، أَخْرَبَهَا الأَكراد والأعراب. فقال قائل: هذا آفةُ الجبل، وهو أفسده . فقلت أَنا أُصْلحه . قال الرشيد : وكيف ذلك ؟ قلت : أفسَدتَه وأنت علىَّ وأُصْلِحه وأنتَ معى ! فقال الشيخُ (١): إن هِمّته لترمِى به من وراء سنِّه مَرْمًى بعيداً ؛ فسألت عن الشيخ فقيل : العباس بن الحسين . وكان أبو دلف ذلك الوقت صغيرَ السنّ .

من كلام موسى بن جعفر

ولقى موسى بن جعفر رضى الله عنه محمد بن الرشيد الأمين بالمدينة وموسى على بَغْلَة ، فقال للفضل بن الربيع : عاتِبْ هذا . فقال له الفضلُ : كيف لقيت أمير المؤمنين على هذه الدابة التى إن طَلَبْتَ عليها لم تَسْبِق ، وإن طُلبت عليها تُلحق ، فقال : لست أحتاجُ أنْ أطلب ، ولا إلى أن أُطلب ؛ ولكنها دابَّةٌ تنحطّ عن خُيلاء الخيلِ ، وترتفع عن ذِلة العَيْر (٢) ، وخيرُ الأمورِ أوسطُها .

على بن موسى

أُصِيب على بن موسى بمصيبة ، فصار إليه الحسنُ بن سهل ، فقال : إنا لم نَأْتِكَ معزِّين ؛ بل جئناكَ مُقْتَدِين؛ فالحمدُ لله الذى جعل حياتكم للناس رَحْمَة ، ومصائبكم لهم قدوة .

وكان علىّ بن موسى الرضا رحمه الله قد ولاَّه المأمون عَهْدَه ، وعقد له الخلافةَ بعده ، ونزع السّواد عن بنى العباس ، وأمرهم بلباس الخضرة ، ومات على بن موسى فى حياةِ المأمون بطُوس ، فشقّ [المأمونُ] (٣) قبر الرشيد ودُفِن فيه تبرّكا به ، وكان الرشيد قد مات بطوس فدفن هناك ؛ ولذلك قال دعبل بن على الخزاعى :

من شعر دعبل فى آل البيت

اربَعْ بطوس على قَبْرِ الزكىِّ بها (٤)	إن كنت تربع من دِين على وَطَرِ (٥)
ما ينفع الرِّجس من قُرْب الزكى ولا	على الزكىّ بقرب الرجْسِ من ضَرَرِ
هيهات كلّ امرئ رَهْنٌ بما كسبت	له يداه فخُذْ من ذاك أو فذَرِ
قبران فى طُوس خَيْرُ الناس كلهم	وقبر شرّهم هــذا من العِبَرِ

(١) فى ط، ق : فقال الرشيد . (٢) العير : الحمار . (٣) زيادة من ت .
(٤) فى ت : له . (٥) تربع : تقيم ، والوطر : الحاجة .

وكان دعبل مداحاً لأهلِ البيت ، كثير التعصُّب لهم ، والغلوَّ فيهم .

وله المرثية المشهورة وهى من جيد شعره وأولها [١] :

مَدارِس آياتٍ عَفَتْ من تِلاوةٍ ۞ وَمَنْزِلُ وَحْىٍ مُقفرُ العَرَصَاتِ [٢]

لآلِ رسولِ الله بالخَيف من مِنًى ۞ وبالبيتِ والتَّعْرِيفِ والجَمَرَاتِ

دِيَارُ علىٍّ والحسينِ وجَعْفَرٍ ۞ وحمزة والسَّجَّاد ذِى الثَّفِنَات [٣]

قِفا نَسْأَلِ الدَّارَ التى خفَّ أهلُها ۞ متى عَهْدُها بالصَّوْمِ والصلَوَاتِ

وأينَ الأُلى شَطَّتْ بهم غُرْبَة النَّوَى ۞ أفانينَ فى الآفاق مُفْتَرِقات

أُحِبُّ قَصِىَّ الدارِ من أجل حُبِّهم ۞ وأهْجُرُ فيهم أُسْرَتِى وثِقَاتِى

وهى طويلة [٤] .

بين المأمون وبين دعبل

ولما دخل المأمونُ بغداد أحْضَر دِعبلا بعد أن أعْطَاه الأَمان ، وكان قد هجاه وهجَا أباه ، فقال : يادعبل ؛ من الحضيض الأَوهد ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، قد عفوت عمن هو أشدُّ جُرْماً منى ! أراد المأمون قول دعبل يهجوه [٥] :

إنِّى من القوم الذين سيوفُهم [٦] ۞ قتلَتْ أخاكَ وشرفتك بمقعَدِ

شادُوا بذكرك بعدطولِ خُمُولِه ۞ واستنقذوك منالحَضِيض الأَوْهَد

يفتخِرُ عليه بقَتْلِ طاهر بن الحسين بن مصعب ذى اليمينين أخاه محمداً ، وطاهر مولى لخزاعة ، فاستنشده هذه القصيدة الثانية فاستعفاه ، فقال : لا بأسَ عليك ، وقد رويتُها ، وإنما أحببت أن أسمعَها منك . فأنشدها دعبل ؛ فلما انتهى إلى قوله :

ألَم تر أنى مذ ثلاثين حِجَّةً ۞ أروح وأغْدُو دائمَ الحسَرَاتِ

---

(١) معجم الأدباء : ١١ — ١٠٣ . (٢) العرصة : وسط الدار .

(٣) فى ط : والنفثات. والثفنة من البعير : مالاصق الأرض منه إذا استناخ .

(٤) تجدها فى معجم الأدباء : ١١ — ١٠٣ . (٥) معجم الأدباء : ١١ — ١٠٠ .

(٦) فى ت : الذين هم قتلوا أخاك وشرفوك .

أرى فَيئهم فى غـيرهم مُتقسَّماً   وأيديهمُ من فيئهم صفِرات[١]
إذا وُتِروا مدّوا إلى أهل وِتْرهم   أكُفًّا عن الأوتار مُنْقبضاتِ
وآلُ رسول الله نُحْفٌ جسومهم   وآل زياد غُلَّظُ القَصَرَاتِ[٢]
بناتُ زيادٍ فى القصورِ مَصُونةٌ   وبنت[٣] رسول الله فى الفَلَوَاتِ

بكى المأمون وجدَّد له الأمان وأَحْسَن له الصِّلة :

ومن شعر سليمان بن قتيبة

والشيء يستدعى ماقرَع بابه ، وجذبَ أَهْدَابه[٤] ، قال سليمان بن قتيبة :

مررت[٥] على أبيات آل محمـدٍ   فلم أرَها عَهْدِى[٦] بهـا يوم حُلّتِ
فلا يبعـد الله الديارَ وأهلَها   وإن أصبحَتْ من أهلها قد تخلّتِ
وكانوا رجاءً ثم عادوا رَزِيّةً   ألا عظُمَت تلك الرزايا وجلّتِ
وإن قتيـل الطَّفِّ من آلِ هاشم   أذلَّ رقابَ المسلمين فَذَلّتِ[٧]

ويشبه قوله : « وكانوا رجاء ثم عادوا رزية » قولَ امرأةٍ من العرب مرَّت بالجسر بجثَّة جعفر بن يحيى البرمكى مَصْلُوبا ؛ فقالت : لئن أصبحت نهايةً فى البلاء لقد كنت غايةً فى الرجاء .

ألفاظ لأهل العصر فى أوصاف الأشراف

لها فى هذا الموضع مَوْقع

فلان من شرَفِ العنصر الـكريم ، ومعدن الشرف الصميم . أَصلٌ راسخ ، وفرع شَامِخ ، ومَجْدٌ بَاذِخ ، وحَسَبٌ شَادخ[٨] .

---

(١) صفرات: خاليات . (٢) فى معجم الأدباء : حفل القصرات . والقصرات : جمع قصرة: أصل العنق . (٣) فى الأدباء ، ت : وآل رسول . (٤) فى ت : هداله ، والهدال : ما تهدل من الأغصان . (٥) فى ت : صدرت (٦) فى ت : كعهدها .
(٧) قتيل الطف : الحسين . (٨) شادخ : من قولهم غلام شادخ : شاب . وفى ط: شاذخ.

فلان كريمُ الطرَفين ، شريف الجانبَين ، قد ركَّبَ الله دَوْحَتَه فى قرارةِ المَجْدِ ، وغرس نَبْعَتَه فى محلّ الفضـل ، أَصْلٌ شريف ، وعِرْق كريم ، ومَغْرِس عظيم ، ومَغْرِز صميم . المجد لسانُ أَوصافه ، والشرفُ نَسَبُ أَسلافِه . نسبٌ فَخم ، وشرفٌ ضخم. يستوفى شرفَ الأرومة[1] بكرم الأبوّةوالأمومة ، وشرف الخؤولة والعمومة. ما أَتَتْه المحاسِنُ عن كَلالَة[2] ، ولا ظَفِر بالهدى عن ضلالة ، بل تناول المجدَ كابراً عن كابر ، وأَخذ الفَخْرَ عن أسِرّة ومنابر :

شرفٌ تَنقَّل كابراً عن كابر   كالرمح أُنبوبا على أُنبوبِ

استقى عِرْقُه من مَنْبع النبـوة ، ورضعت شجَرَتُه من ثَدْىِ الرسالة ، وتهدَّلَت أغصانُه عن نَبْعَةِ الإمامة ، وتبحبحَتْ أطْرافُه فى عَرْصَةِ الشَّرَفِ والسيادة ، وتفقَّأَت بيضته عن سُلالةِ الطّهارة ، قد جَذَبَ القرآنُ بضَبْعِه[3] وشقَّ الوَحْىُ عن بصره وسَمْعِه ، مختار من أكْرَمِ المناسب ، منتَخَبٌ من أشْرَفِ العناصر ، مُرْتَضَى من أعْلَى المحاتد[4] ، مُؤْثَر من أعظم العشائر ، قد وَرِث الشرفَ جامعاً عن جَامعٍ ، وشهد له نداءُ الصوامع . هو من مُضَر فى سُوَيداء قَلْبِها ، ومن هاشم فى سَـوَاد طَرْفِها ، ومن الرسالة فى مهبط وَحْيِها ، ومن الإمامةِ فى موقف عزِّها . ينزع إلى المحامِدِ بنفس وعرق ، ويَحِنُّ إلى المـكارم بوراثة وخلق ؛ يتناسب أَصْلُه وفَرْعُه ، ويتناصف نَجْرُه[5] وطَبْعُه، وهو الطيبُ أصْلُه وفَرْعُه ، الزّاكى بذره وزَرْعُه . يجمع إلى عزّ النّصاب مَزِيّةَ الآداب ، لا غَرْو أن يجرىَ الجوادُ على عِرْقِه ، وتلوح مخايلُ الليثِ فى شِبْله ، ويكون النجيبُ فَرْعاً مشيداً لأَصْله . له مع نباهة شَرَفِه نَزاهةُ سَلَفِه ، ومع كرم أرومته وحَزْمه[6] مزيةُ أدبه وعلمه . لن تخلف ثمرة غَرْس ارْتيدَ

---

(١) الأرومة : الأصل .   (٢) الـكلالة : الإعياء ، أو ما خلا الولد ، والولد .

(٣) الضبع : وسط العضد بلحمه يكون للإنسان وغيره ، والمراد جذبه .

(٤) جمع محتد : الأصل .   (٥) فى ط : بحره .

(٦) فى ت : وجرمه .

لها من المنابت أزْكاها ، ومن المغارس أطْيبها وأغذاها وأنماها ؛ قد جمع شرفَ الأخلاق ، إلى [شرفِ الأعراق ، وكرم الآداب إلى](١) كرم الأنساب ؛ له فى المجد أولٌ وآخِر ، وفى الكرم تليدٌ وطَارِف ، وفى الفضل حديثٌ وقديمٌ ؛ لا غَرْوَ أنْ يغمر فضلُه ، وهو نَجْلُ الصِّيد الأكارم ، أو يغزر علمه وهو فَيْضُ البحور الخضارم. دَوْحةٌ رسب عِرْقُها ، وسَمَق فَرْعها(٢) ، وطاب عُودُها ، واعتـدل عمودُها ، وتفيَّأَتْ ظِلالُها ، وتهدَّلَتْ ثمارُها ، وتفرَّعَتْ أغصانُها ، وبرد مَقِيلُها . مَجْدٌ يلحظ الجوْزَاء من عَالٍ ، ويطول النجم كلَّ مطال . شَرَفٌ تضع له الأفلاكُ خدودَها وجِباهَها ، وتَلْثَم(٣) النجومُ أرضَه بأفواهِها وشِفَاهِها . نسبُ المجدِ به عَرِيق ، ورَوْضُ الشرفِ به أنِيق ، ولسانُ الثناء بفَضْله نَطوق ؛ فَلَكُ المجدِ عليـه يَدُور ، ويدُ العُلَا إليه تُشير ، محلّه شاهق ، ومَجْدُه بَاسِق .

---

(١) من ت ، ق . (٢) سمق : ارتفع . (٣) تقبل .

[بدء الكتاب]

حمد الله

قد تمَّ ما استفتحت به التأليف ، وجعلته مقدمة التصنيف ، مع ما اقترن به وانضافَ إليه ، والتفَّ به ، وانْعَطَفَ (١) عليه ، ورأيتُ أنْ أَبتدئ مقدّمات البلاغات بغُرَر التحاميد وأَوْصافها ، وما يتعلَّق بأَثنائها وأَطْرافها .

وقدقال سهل بن هارون فىأول كتابٍ عمله(٢) : يجب على كلّ مبتدئ مقالةً أن يبتدىءَ بحَمْدِ الله قبل استفتاحها ، كما بُدِيء بالنعمة قبل استحقاقها .

ولأهل العصر : أَوْلَى ما فَغَر به الناطقُ فمه (٣) وافتتح به كَلِمه حمدُ اللهِ جلَّ ثناؤه ، وتقدَّست أَسماؤُه . حَمْدُ الله خيرُ ما ابْتُدِئ به القول وخُتم ، وافْتُتِحَ به الخطابُ وتُمِّم .

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله : إنَّ الله جلَّ ثناؤه لا يمثَّل بنظير ، ولا يُغْلَب بظهير (٤) ، جلَّ عن موقع تحصيل أدوات البشر ، ولطُفَ عن ألحاظ خطرات الفِكَر ، لا يُحْمَدُ إلا بتوفيقٍ منه يَقْتَضِى حمداً ، فمتى تُحْصَى نعماؤه ، وتُكَافأ آلاؤه (٥) ؟ عَجزَ أقْصَى الشكرِ عن أدَاءِ نعمته ، وتضاءل ما خلق فى سَعَةِ قُدْرَتِه ؛ قَدَر فقَدَّر ، وحَكَم فأحكم ؛ وجعل الدِّين جامعا لشَمْلِ عباده ، والشرائع مَنَاراً على سبيل طاعته ؛ يَتْبَعُها أهل اليقين به ، ويَحِيدُ عنها أهلُ الشك فيه .

أخذ أبوالعباس قوله: « ولايحمد إلا بتوفيق منه يقتضى حمداً » من قول محمود ابن الحسن(٦) الوراق :

---

(١) فى ت : وعطف . (٢) فى ت : علمه . (٣) فغر : فتح .

(٤) الظهير : المعين . (٥) فى ت : وتكفى بلاؤه ، وفى ق : ويكافأ بلاؤه .

(٦) فى ط ، ق : بن الحسين .

إذا كان شُكْرِى نعمة الله نِعْمَةً ... علىَّ له فى مِثْلها يَجِبُ الشُّكْرُ
فكيف بلوغُ الشُّكْرِ إلاّ بفضلهِ ... وإن طالت الأيام واتَّصَلَ العمرُ
إذا عمّ [1] بالسراء عَم سرورُها ... وإن مَسَّ بالضراء أعْقَبَها الأَجْرُ
فما منهما إلا له فيه نِعْمَةٌ ... تَضِيقُ بها الأَوهامُ والبَرُّ والْبَحْرُ

وإنما أخذه محمود من قول أبى العتاهية [2] :

أحمد الله فهْوَ ألهمنى الحمـ ... ـدَ على الحمد [3] والمزيدُ لَدَيْهِ
كم زمانٍ بكيتُ فيه فلمَّا ... صِرْتُ فى غيره بكيتُ عليهِ [4]

وقد اضطربت الراويةُ فى هذين البيتين وقائلهما ، وهذا البيت الثانى كثير ، قال إبراهيم بن العباس [5] :

كذاك أيّامُنا لا شكَّ نَنْدُبها ... إذا تقضَّت ونحنُ اليَوْمَ نَشْكُوهَا

آخر :

وما مرّ يوم أرتجى فيه راحةً ... فأَفْقِدُهُ إلاّ بكيتُ على أمسِ

ومحمود هو القائل أيضا :

تَعْصِى الإلهَ وأنْتَ تُظْهِرُ حبَّهُ ... هذا محالٌ فى القياسِ بديعُ
لو كان حبُّك صادقا لأَطَعْتَهُ ... إنَّ المحب لمن أحَبَّ مُطِيعُ

وكان كثيراً ما ينقلُ أخبارَ الماضين ، وحِكَم المتقدِّمين ، فيحلّى بها نظامَه ، ويُزَيِّنُ بها كلامَه ، وهو القائل [6] :

إنى وَهَبْتُ لظالمى ظُلْمِى ... وشكرتُ ذَاكَ له على عِلْمِى
ورأيته أسْدَى إلىَّ يداً ... لَمَّا أبان بجَهْلِهِ حِلْمى

---

(١) فى ت : إذا مس . (٢) ديوانه : ٢٨٨ . (٣) فى الديوان : على المن .
(٤) رواية الديوان :
كم زمان بكيت منه قديما ... ثم لما مضى بكيت عليه
(٥) الطرائف : ١٥٢ . (٦) هذه الأبيات ساقطة فى ت .

رَجَعَتْ إساءته عليه وَلِي ... فَضْلٌ فعادَ مُضاعَفَ الجُرْم (١)
فكأنما الإحْسَانُ كانَ لهُ ... وأنا المسيء إليه فى الزَّعم
مازال يَظْلِمُنِى وأرحمُهُ ... حتى رَثَيْتُ له من الظلم

وهو القائل :

أرانى إذا ما ازددتُ مالاً وثَرْوَةً ... وخَيْرًا إلى خَيْرٍ تزيدتُ فى الشرِّ
فكيف بشُكْرِ الله إنْ كنت (٢) إنما ... أقومُ مقامَ الشُّكْرِ للهِ بالكُفْرِ
بأىِّ اعْتِذَارٍ أوْ بأيَّةِ حُجَّةٍ ... يقولُ الذى يدرى من الأمر ماأَدْرِى
إذا كان وجهُ الْعُذْرِ ليس بِبَيِّنٍ ... فإن اطِّرَاحِ العُذْرِ خيرٌ من العُذْرِ

[البيان والبلاغة]

البيان عند ابن المعتز

ولابن المعتز : البيان ترجمان القلوب، وصَيْقَل العقول ، ومُجَلِّى الشبهة، وموجب الحجَّة ، والحاكمُ عند اختصام الظنون ، والمفرِّقُ بين الشَّكّ واليقين ، وهو من سلطان الرُّسُل الذى انْقَاد به المستصعَب ، واستقام الأَصْيَد (٣) ، وبُهت الكافر ، وأسلم المتمنع ، حتى أَشِبَ الحـقُّ بأَنصاره (٤)، وخَلَا (٥) رَبْعُ الباطلِ من عُمَّارِه ؛ وخيرُ البيان ما كان مصرِّحاً عن المعنى ؛ ليُسْرِعَ إلى الفهم تلقّيه (٦)، وموجَزاً يخفّ على اللفظ تعاطيه .

فضل القرآن

وفَضْل القرآن على سائر الكلام معروف غيرُ مجهول ، وظاهرٌ غيرُ خفىّ ؛ يشهدُ لذلك عَجْزُ المتعاطِين ، وَوَهن (٧) المتكلّفين ، وتحيّرُ الكذَّابين ، وهو المبلِّغ الذى لا يُمَل، والجديدالذى لايَخْلُق (٨)، والحق الصادع، والنورُ الساطع، والماحِى لظُلَمَ الضلال ،

---

(١) الجرم : الذنب. (٢) فى ت: إن كان إنما . (٣) الأصيد : من يرفع رأسه كبرا.
(٤) أشب الشجر : التف ، والمراد قوى . (٥) فى ط : وخلى .
(٦) فى ت : تلقينه . (٧) فى ط : ورهن . (٨) لا يخلق: لا يبلى .

ولسانُ الصِّدق النافِى[١] للـكذب ، ونذيرٌ قدَّمَتْه الرحمةُ قبل الهلاك ، ونَاعِى الدنيا المنقولة ، وبَشِيرُ الآخرةِ المخلَّدَة ، ومِفْتَاح الخير ، ودليل الجنة . إنْ أَوْجز كان كافيا، وإنْ أَكثر كان مُذَكِّرًا ، وإن أَوْمَأَ كان مُقْنِعاً ، وإن أَطال كان مُفْهِماً ، وإن أمر فناصِحاً ، وإن حكم فعادِلا ، وإن أَخبر[٢] فصادقا ، وإنْ بيَّن فشافيا، سَهْلٌ على الفهم، صَعْبٌ على المتعاطى ، قريبُ المأْخَذ ، بعيدُ المرام ، سِرَاجٌ تستضِىءُ به القلوب ، حُلْوٌ إذا تذوَّقته العقول ، بَحْرُ العلوم ، وديوانُ الحِكَمِ ، وجَوْهَرُ الـكلِم ، ونُزْهَةُ المتوسِّمِين، ورَوْحُ قلوب المؤمنين، نزل به الرُّوحُ الأمِينُ على محمد خاتم النبيين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، فخصَمَ[٣] الباطل ، وصَدَع بالحق ، و تألَّف من النُّفرة ، وأنقذَ[٤] من الهلـكة ، فوصل الله لَه النصر ، وأضرع به خَدَّ الـكفر .

قال على بن عيسى الرمانى : البلاغةُ ما حُطَّ[٥] التـكلُّفُ عنه ، وبُنى على التبيين ، وكانت الفائدةُ أغْلب عليه من القافية ، بأَنْ جمع مع ذلك سهولةَ المخرج ، مع قُرْب المتناوَل ؛ وعذوبةَ اللفظ ، مع رشاقةِ المعنى ؛ وأن يكون حُسْنُ الابتداء كحُسْن الانتهاء، وحُسن الوَصْل ، كحُسْنِ القَطْع ، فى المعنى والسمع . وكانت كلُّ كلمة قد وقعَتْ فى حقِّها ، وإلى جَنْب أُخْتِها ، حتى لا يقالَ : لو كان كذا فى موضع كذا لـكان أَولى ! وحتى لا يكونَ فيه لفظٌ مختلف، ولا معنى مُستَـكرَه ؛ ثم أُلبِس بَهْجة الحـكمة ، ونورَ المعرفة ، وشرفَ المعنى ، وجَزالةَ اللفظ ، وكانت حلاوتُه فى الصدر وجلالَتُه فى النفس تفتِّقُ الفهم ، وتنثر دقائقَ الحـكم ، وكان ظاهرَ النفع ، شريف القَصْد ، معتدلَ الوَزْنِ ، جميل المذهب ، كريمَ المطلب ، فصيحاً فى معناه ، بَيِّناً فى فَحْوَاه ؛ وكلُّ هذه الشروط قد حواها القرآن ، ولذلك عَجَزَ عن مُعارَضَتِهِ جميع الأنام .

---

(١) فى ت : لسان الصدق الباقى المبين للـكذب . (٢) فى ت : أجد .
(٣) غلب . (٤) فى ت : وانتاش . (٥) فى ت : ما سقط .

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر القرآن

القرآن حَبْلُ اللهِ الممدود ، وعَهْدُه المعهود ، وظلّه العميم ، وصِراطُه المستقيم ، وحُجَّته الكبرى ، ومحجته[1] الوُسْطَى ، وهو الواضح سبيلُه ، الراشدُ دليلُه ، الذى من استضاء بمصابيحه أبصرَ ونجَا ، ومَنْ أعرض عنه ضَلَّ وهَوَى ؛ فضائل القرآن لا تُسْتَقْصَى فى ألفِ قَرْن ، حجةُ الله وعَهْدُه ، ووعيدُه ووعده ، به يعلمُ الجاهلُ ، ويعملُ العامِلُ ، ويتنبَّه الساهى ويتذكَّر اللّاهى ، بَشِيرُ الثواب ، ونَذِيرُ العقابِ ، وشفاء الصدور ، وجَلاء الأُمورِ ؛ من فضائله أنه يُقْرَأُ دائما ، ويُكْتَبُ ، ويملى ، ولاَ يملّ . ما أهْون الدنيا على مَنْ جعل القرآن [إمامه ، وتصوَّر الموتَ أمامه ، طوبى لمن جعل القرآن][2] مصباحَ قَلْبِه ، ومفتاح لُبِّه . من حق القرآن حِفْظُ ترتيبه ، وحُسْنُ ترتيله .

قال بعض الحكماء : الحكمة مُوقِظَةٌ للقلوب من سِنَة الغَفْلة ، ومُنْقِذَةٌ للبصائر من سَكْرَةِ الحَيْرَة ، ومُحْيِيَةٌ لها من مَوْتِ الجهالة ، ومُسْتَخْرِجَةٌ لها من ضيقِ الضَّلاَلَة ؛ والعلمُ دواءٌ للقلوب العليلة ، ومِشْحَذٌ[3] للأذهان الكليلة ، ونورٌ فى الظلمة ، وأُنْسٌ فى الوَحْشَةِ ، وصاحبٌ فى الوَحْدَة ، وسَمِيرٌ فى الخَلْوَةِ ، ووصْلَةٌ فى المجلس ، ومادَّةٌ للعقل ، وتَلْقِيحٌ للفهم ، ونَافٍ للعِيِّ المُزْرِى بأَهْلِ الأَحْسَابِ ، المقصِّرِ بذوى الألباب ؛ أَنطق الله سبحانه أهلَه بالبيان الذى جعله صفةً لكلامه فى تنزيله ، وأَيَّدَ به رُسُلَه إيضاحاً للمشكلات ، وفَصْلاً بين الشبهات ؛ شَرَّفَ به الوضيعَ ، وأعزَّ به الذليلَ ، وسوَّد به المسوَّد ، من تحلَّى بغيره فهو معطَّل[4] ، ومن تعطَّل منه فهو مغفّل[5] ، لا تُبْلِيه الأيام ، ولا تَخْتَرِمُه[6] الدهور ، يتجدَّدُ على الابتذال ، ويزكو[7] على الإنفاق ؛ للهِ على مامنَّ به على عبادِه الحمدُ والشُّكْرُ .

(١) المحجة : الطريق . (٢) ساقط من ت . (٣) فى ت : وشحذ .
(٤) فى ت : عطل (٥) فى ت : غفل . (٦) من اخترمته المنية : أخذته ، واختطفته .
(٧) ينمو .

[أقوال فى البلاغة]

البلاغة عند عمرو بن عبيد

قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلَّغك الجنّة ، وعَدَلَ بكَ عن النار ، وبصَّركَ مَوَاقع رُشْدِكَ ، وعواقبَ غَيّك[١] . قال السائل : ليس هذا أُريد . قال : من لم يُحْسِنْ أَنْ يسكُتَ لم يُحْسِنْ أن يَسْتَمِع ، ومن لم يُحْسِن الاستماعَ لم يُحْسِن القولَ . قال : ليس هذا أُريد . قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : إنَّا معشرَ الأنبياء فينا بَكْءٌ[٢] ؛ أى قِلّةُ كلام ؛ وكانوا يكرهون أَنْ يزيدَ منطقُ الرجل على عَقْله . قال السائل : ليس هذا أُريد . قال : كانوا يخافون من فِتْنَةِ القولِ ومن سقَطَاتِ الكلام مالا[٣] يخافون من فِتْنَةِ السكوت ، وسقَطَاتِ الصَّمْت . قال : ليس هذا أُريد . قال عمرو : يا هذا ؛ فكأنك تريدُ تخيّر[٤] اللفظ فى حسن الإفهام . قال: نعم . قال : إنَّك إن أردتَ تقريرَ حُجَّةِ الله عزَّ وجل فى عقول المكلّفين ، وتخفيف المؤونة عن المستمعين ، وتَزْيين تلك المعانى فى قلوب المُريدين ، بالألفاظ المستحسنة[٥] فى الآذانِ ، المقبولةِ فى الأذهان ، رغبةً فى سُرْعَةِ إجابتهم ، ونَفْىِ الشواغلِ عن قلوبهم ، بالموعِظَة الحسنة على الكتاب والسنة ـ كنت قد أُوتيت الحكمةَ وفَصْلَ الخطابِ ، واستوجَبْت من الله جزيلَ الثواب . فقيل لعبد الكريم بن روح الغِفارى : مَنْ هذا الَّذى صبر له عَمْرٌو هذا الصبر ؟ قال : سألتُ عن ذلك أبا حفص الشمرى ، فقال : ومن يَجْتَرِئُ عليه هذه الجرأةَ إلاَّ حفص بن سالم ؟[٦]

وعمرو بن عبيد بن باب هو رئيسُ المعتزلة فى وَقْته ، وهو أَوَّلُ من تكلَّم على المخلوق ، واعتزلَ مجلسَ الحسن البصرى ، وهو أول المعتزلة[٧] .

ودخل عمرو بن عبيد على أَبى جعفر المنصور فقال[٨] : عِظْنِى . فقال : يا أميرَ

---

(١) فى ط ، ق : عملك . (٢) أصل البكء قلة اللبن . (٣) فى ت : كما يخافون .
(٤) فى ط ، ق : تخمير . (٥) فى ط : الحسنة . (٦) عيون الأخبار : ٢ ـ ٢٠٧ .
(٧) فى ت : وبه سميت المعتزلة . (٨) عيون الأخبار : ٢ ـ ٣٣٧ .

المؤمنين ؛ إنَّ اللهَ أعطاكَ الدنيا بأَسْرِها، فاشْتَرِ نفسَك منه ببعضها ؛ ياأميرَالمؤمنين ؛ إنّ هذا الأمرَ لو كان باقياً لأَحَدٍ قبلَك ما وصل إليك، أَلم ترَ كيف فعلَ ربُّك بعادٍ إرمَ ذات العماد ! قال : فبكى المنصور حتى بَلَّ ثوبه . ثم قال : حاجتَك يا أبا عثمان ! وكان المنصور لَمَّا دخل عليه طَرح عليه طَيْلساناً . فقال : يُرْفَعُ هذا الطيلسان عنى! فرُفع . فقال له أبو جعفر : لا تَدَعْ إتياننا ! قال : نعم ، لا يضمُّنى وإياك بلدٌ إلّا دخلتُ إليك ، ولا بَدَتْ لى حاجة إلاّ سألتُك ، ولكن لا تُعْطِنِى حتى أَسأَلك ، ولا تَدْعُنى حتى آتيك ، قال : إذاً لا تأتينا أبداً !

وقد رُوى مثل هذا لابن السماك مع الرشيد ، وقوله : لو كان هـذا الأمر باقياً لأَحدٍ قبلَك ماوصل إليك؛ كقول ابن الرومى :

لعمرُكَ ما الدُّنيـا بدارِ إقامةٍ إذا زال عن عَيْنِ البصيرِ غِطاؤها
وكيف بقاءُ النـاسِ فيها وإنما يُنال بأَسْـبابِ الفَنَاءِ بقاؤها

ووعظ شبيب بن شَيْبَة المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله لم يجعل فوقك أحداً ، فلا تَجْعَلْ فوق شكره شكراً .

ودخل عمرو بن عبيد علىالمنصور وعنده المهدى فقال له : هذا ابنُ أَخيك المهدى، ولىُّ عهد المسلمين ، فقال : سمَّيْتَه اسماً لم يستحقّ حمله ، ويفضى إليكَ الأمر وأنت عنه مشغول[1] .

وكان عمرو بن عبيـد يقول : اللهم أَغْنِنى بالافتقارِ إليك ، ولا تُفْقِرْنى بالاستغناء عنك .

وقال له المنصور : يا أبا عثمان ؛ أَعِنِّى بأَصْحابك . قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أَظْهِرِ الحقَّ يَتْبَعك أهلُه .

وقال عمر الشمرى : كان عمرو بن عبيـد لا يكادُ يتكلَّم ، وإنْ تـكلَّم لم يَكَدْ

---

(١) فى ت : لم يستحقه عمله ، وتقضى إليه بالأمر وأنت عنه مشغول .

يُطيل ؛ وكان يقول : لا خيرَ فى المتكلّم إذا كان كلامُه لمن يَشْهدهُ دون قائله ، وإذا طال الكلامُ عرضَتْ للمتكلم أسبابُ التكلُّف ، ولا خيرَ فى شىء يأْتيك به التكلُّف .

البلاغة عند أهل الهند

قال معمر[1] بن الأشعث[2] قلت لبهلة الهندى أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباءَ الهند : ما البلاغةُ عند أهلِ الهند ؟ قال بهلة : عندنا فى ذلك صحيفةٌ مكتوبة، ولكننى لا أُحسِن ترجمتَها ، ولم أُعالِجْ هذه الصناعة ، فأَثِقَ من نفسى بالقيام بخصائصها ، ولطيفِ معانيها . قال ابنُ الأشعث[2] : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة[3] فإذا فيها: أولُ البلاغة اجتماعُ آلة البلاغة ، وذلك أن يكونَ الخطيب رابطَ الجأش ، ساكنَ الجوارحِ ، قليل اللَّحْظِ ، متخيّر اللفظ ، لا يكلّم سيدَ الأمّة بكلام الأمة ، ولا الملوكَ بكلام السُّوقة ، ويكون فى قُوَاهُ فَضْلُ التصرف فى كل طبقة ، ولا يدقّق المعانى كلَّ التدقيق، ولا يُنَقِّحُ الألفاظ كلَّ التنقيح، ولا يصفِّيها[4] كل التصفية ، ولا يهذّبها[4] غايةَ التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادفَ حكيما أو فيلسوفا عليما ، ومن[5] قد تعوّد حذْفَ فضول الكلام ، وإسقاطَ مشتركات الألفاظ ؛ وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة التصفُّح[6] والاعتراض ، ووجه التطرُّف والاستطراف .

البلاغة عند المقفع

قال إسحاق بن حسان بن قوهى: لم يفسر أحد البلاغة تفسيرَ عبدالله بن المقفع[7] إذ قال : البلاغةُ اسمٌ لمعانٍ تَجْرِى فى وجوهٍ كثيرة ، فمنها ما يكونُ فى الاستماع ، ومنها ما يكونُ فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكونُ فى الحديث ،

---

(١) البيان والتبيين : ١ — ٥١ ، الصناعتين : ١٩ ، عيون الأخبار : ٢ — ١٧٣ .

(٢) وفى ت، ق : أبو الأشعث . (٣) فى ط : فتلقيت تلك الصحيفة المترجمة .

(٤) فى الصناعتين : ويصفيها ، ويهذبها . وفى ت : ولا يصفيها ويهذبها .

(٥) فى ت : ومن تعود صرف فضول الكلام .

(٦) فى الصناعتين : التفصح . (٧) الصناعتين : ١٤ ، والبيان : ١ — ٦٤ .

ومنها ما يكونُ فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكونُ جوابا ، ومنها ما يكون سَجْعاً ، ومنها ما يكون خُطَباً ، ومنها ما يكون رسائلَ ؛ فغايةُ هذه الأبواب الوحىُ فيها والإشارةُ إلى المعنى ؛ والإيجازُ هو البلاغة، فأما الخطب فيما بين السِّماطين[1] وفى إصلاح ذات البين، فالإكثارُ فى غير خَطَل[2]، والإطالةُ فى غير إملال ، ولكن ليكن فى صَدْرِ كلامِك دليلٌ على حاجتك ، كما أَنَّ خيرَ أَبياتِ الشعر البيتُ الذى إذا سمعتَ صَدْرَه عرفتَ قافيته ؛ كأنه يقول فرِّق بين صدر خطبة النكاح ، وخطبة العيد ، وخطبة الصلح ، وخطبة التَّوَاهُب ، حتى يكونَ لكل فنّ من ذلك صَدْرٌ يدل على عَجُزه ؛ فإنه لا خيرَ فى كلامٍ لا يدلُّ على معناك ولا يشيرُ إلى مَغْزَاك ، وإلى العمود الذى إليه قَصَدْت ، والغرض الذى إليه نَزَعْت .

فقيل له : فإن ملَّ المستمعُ الإطالة التى ذكرت أنها أحقُّ بذلك الموضع ؟ قال : إذا أعطيت كلَّ مقامٍ حقَّه ، وقمتَ بالذى يجب من سياسة الكلام ، وأرضيتَ من يعرف حقوقَ ذلك ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوّ ؛ فإنهما لا يرْضَيَان بشىء ؛ فأماالجاهِلُ فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شىءٌ لا يُنَال .

[الإطالة والإيجاز]

وقد مدحوا الإطالةَ فى مكانها كما مدحوا الإيجازَ فى مكانه . قال أبو داود [ابن جرير][3] فى خطباء إياد[4] :

يَرْمون بالخطب الطوال وتارةً وحْىَ المَلاحظِ خِيفَةَ الرقباءِ

قال أبو وَجْزة[5] السعدى يصف كلام رجل :

يَكْفِى قليلُ كلامِه وكثيرُهُ ثَبتٌ إذا طَالَ النِّضالُ مُصِيبُ

---

(١) السماطان : الصفان . (٢) الخطل : الفساد ، وفى ت : إفلال .

(٣) ليست فى ت . (٤) الصناعتين : ٥٨ . (٥) فى ط ، ق : وجرة .

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ولم يسمّ قائلَه وهو مولّد ولم ينقصه توليده من حظّ القديم شيئاً (١) :

طَبيبٌ بداء فُنُونِ الكلا م لم يَعْيَ يوماً ولم يَهْذِرِ (٢)
فإنْ هو أطْنَبَ فى خُطْبَةٍ قَضَى للمُطِيل على المُنْزِرِ (٣)
وإن هو أَوْجَزَ فى خُطْبَةٍ قَضَى للمُقِلِّ على المُكْثِرِ

وقال آخر يصف خطيباً :

فإذا تكلَّم خِلْتَهُ متكلّماً بجميع عِدَّةِ أَلْسُنِ الخطباءِ
فكأن آدم كان علّمه الّذى قد كان عُلِّمَهُ مِنَ الأسماءِ

وكان أبو داود (٤) يقول : تلخيص (٥) المعانى رِفق ، والاستعانة بالغريب عَجْزٌ ، والتشدق فى الإعراب نَقْصٌ (٦) ؛ والنظرُ فى عيون الناس عِىّ ، ومسُّ اللحية هُلك (٧) ، والخروجُ عما بُنِى عليه الكلام إسهاب .

وقال بعضهم يهجو رجلا بالعىّ :

مَلِىءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسعلةٍ ومَسْحَةِ عُثْنُونٍ وفَتْلِ الأصابعِ (٨)

البليغ عند العتابى

ووصف العتابى رجلا بليغاً فقال (٩) : كان يُظْهِر ماغَمض من الحجّة ، ويصوّر الباطلَ فى صورةِ الحق ، ويُفْهِمُك الحاجةَ من غيرِ إعادة ولا استعانة . قيل له : وما الاسْتِعانة ؟ قال. يقول عند مقاطع كلامه ياهناة ، واسْمَع ، وفَهِمت ! وما أشبهَ ذلك . وهذا من أمَارَاتِ الْعَجْزِ ، ودلائل الحصَرَ ! وإنما ينقطعُ عليه كلامه فيحاولُ وصْلَه بهذا ، فيكون أشدَّ لِانقِطاعه .

(١) العمدة : ١ — ٢١٤ . (٢) فى ت : ولم يعذر . (٣) المنزر : المقال .
(٤) الصناعتين : ٣ ، وفى ت : أبو دلف . (٥) فى ط : تخليص ، وهذا من س .
(٦) فى الصناعتين : والتشادق من غير أهله . (٧) فى الصناعتين : هلل . وهو الخوف والإحجام . وفى ت : نوك . (٨) البهر : تتابع النفس وانقطاعه من الإعياء . والعثنون: اللحية. وفى ق: مكى بنهد (٩) البيان : ١ : ٦٢ .

وكان أبو داود يقول : رَأْسُ الخَطَابة الطَّبْع ، وعمودُها الدُّربة وجَناحَاها رِوَايةُ الكلام ، وحَلْيُها الإعراب ، وبهاؤُهَا تخيُّرُ اللفظ ؛ والمحبةُ مقرونةٌ بقلة الاستِكْراه .

[البيان عند الجاحظ]

المعانى

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(١) : قال بعض جهابذة الألفاظ ، ونُقّاد المعانى : المعانى القائمةُ فى صدور الناس ، المختلجة فى نفوسهم ، والمتصوَّرة فى أذهانهم المتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورةٌ خفيَّة، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة، وموجودة فى معنى(٢) معدومة ، لا يعرفُ الإنسانُ ضميرَ صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أمره ، وعلى مالا يبلغه من حاجاتِ نفسه إلاّ بغيره ، وإنما يحيي تلك المعانى ذِكْرهم لها (٣) ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها .

وهذه الخصالُ هى التى تقرّبها من الفهم ، وتجلّيها للعقل ، وتجعل الخفىّ منها ظاهرا، والغائب شاهدا ، والبعيد قريبا . وهى التى تلخّص(٤) الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مُقَيَّدا ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفا ، والوحشىّ مألوفا ، [والغفل موسوما ، والموسوم معلوما] (٥) ؛ وعلى قَدْرِ وضوحِ الدلالة ، وصواب الإشارة، وحُسْنِ الاختصار ، ودقة المدْخَلِ ، يكون ظهورُ المعنى . وكلما كانت الدلالَةُ أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أَبْيَنَ وأنور، كانت أنفع وأنجع فى البيان . والدلالةُ الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله يَمْدَحه ، ويَدْعُو إليه ، ويحثُّ عليه ؛ بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم .

---

(١) البيان والتبيين : ١ — ٤٢ . (٢) فى ت : ومحجوبة فى القلب معدومة ، وفى ت : ومحجوبة مكنونة فى القلب . (٣) فى ت : تحيى تلك المعانى بذكرهم .
(٤) فى ت : تخلص (٥) الزيادة من البيان .

البيان

والبيان اسمٌ لكل شىء كشف لك عن قِناع المعنى ، وهَتَك لكَ الحُجُبَ دون الضمير ، حتى يُفضى السامعُ إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائلُ والسامع إنما هو الفهم والإفهام ؛ فبأىّ شىء بلغتَ الإفهام وأوضحتَ عن المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع .

المعانى والألفاظ

ثم اعْلَمْ حَفِظَك اللهُ أنَّ حُكْمَ المعانى خلافُ حكم الألفاظ؛ لِأَنَّ المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدّة إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى محصورة [(١)] معدودة ، ومحصَّلة محدودَة .

الدلالات على المعانى خمسة

وجميعُ أَصْنَافِ الدلالات على المعانى من لفظٍ أو غيره خمسةُ أشياء لا تنقص ولا تزيد : أوّلها اللَّفظ، ثم الإشارة ، ثم العَقْد، ثم الخطّ ، ثم الحال التى تسمى نُصبة. والنِّصْبَة هى الحالُ الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تَقْصُرُ عن تلك الدلالات .

ولكل واحدةٍ من هذه الدلائل الخمسة صورةٌ بائنةٌ من صورةِ صاحبتها ، وحِلْيَةٌ مخالفةٌ لِحِلْيَةِ أختها ؛ وهى التى تكشف لك عن أَعْيَان المعانى فى الجملة ، وعن حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها وأَقْدَارِها ، وعن خاصّها وعامِّها ، وعن طبقاتها فى السّارّ والضار ، وعما يكون منها لَغْواً بهرجا [(٢)] ، وساقطا مطَّرحا .

المعانى غير مقصورة ولا محصورة

وفى نحو قول أبى عثمان « إنّ المعانى غير مقصورةٍ ولا محصورة » يقول أبو تمام الطائى لأبى دلف القاسم بن عيسى العجلى [(٣)] :

ولو كان يفنى الشعرُ أَفْنَتْه ما قَرَتْ [(٤)] ... حِيَاضُك منه فى العصورِ الذَّوَاهِبِ

ولكنه فيضُ [(٥)] العقولِ إذا انجلَتْ ... سحائبُ منه أعْقِبَتْ بسَحَائبِ

---

(١) فى البيان ، وفى ت : مقصورة . (٢) بهرج : ردىء . (٣) ديوانه : ٤٣ .
(٤) قرت : جمعت . (٥) فى الديوان ، وفى ت : صوب .

كما أشار إلى قول أَوْس بن حَجر الأَسدى :

أقول بما صَبّت علىّ غمامتى وجهدىَ فى حبل العشيرة أحطِبُ[١]

* * *

في اللسان عشر خصال

وقال بعضُ البلغاء : فى اللسان عشرُ خصالٍ محمودة ، أداةٌ يظهر بها البيان ، وشاهدٌ يخبر عن الضمير ، وحاكمٌ يفصل الخطاب ، وواعظ يَنْهَى عن القبيح ، وناطق يردُّ الجواب، وشافع تُدْرَكُ به الحاجة ، وواصفٌ تعرف به الأشياء ، ومعرب يشكَر به الإحسان[٢] ، ومُعِزّ تذهب به الأَحْزان، وحامِدٌ يُذْهِبُ الضغينةَ ، ومونق يلهى الأسماع .

وقال أبو العباس بن المعتز : لحظةُ القلب أسرعُ خطرةً من لحظة العين ، وأبعدُ مجالا ، وهى الغائصة فى أعماق أوْدِيةِ الفكر ، والمتأمّلة لوجوه العواقب ، والجامعةُ بين ماغاب وحضر ، والميزانُ الشاهدُ على ما نَفَع وضَرّ ، والقلب كالمُمْلِى للكلام على اللسان إذا نطق ، واليد إذا كتبت ؛ والعاقل يكسو المعانى وشْىَ الكلام فى قلبه، ثم يُبْدِيها بألفاظ كواسٍ فى أحسن زينة ، والجاهل يستعجلُ بإظهار المعانى قبل العناية بتزيين مَعارضها ، واستكمال محاسنها .

البيان عند جعفر بن يحيي

وقيل لجعفر بن يحيى البرمكى : ماالبيان[٣] ؟ قال: أن يكونَ الاسمُ يحيط بمعناك، ويَكْشِف عن مَغْزاك، ويخرجه من الشركة . ولايُسْتَعان عليه بالفكر ، ويكون سليما من التكلُّف ، بعيداً من الصَّنعة ، بَرِيئاً من التعقيد ، غَنِيًّا عن التأويل[٤] .

وذكر سهل بن هارون ، وقيل ثمامة[٥] بن أشرس جعفر بن يحيى فقال : قد جَمَع فى كلامه وبلاغته الهَذَّ والتمهل[٦] والجزالة والحلاوةَ ، وكان يُفهم إفهاما

(١) يحطب فى حبل العشيرة أى يستعين بها كما يستعين الحاطب بالحبل .

(٢) فى ت : ومعرب بشكر الله عز وجل والإخوان ، وفى س : ومعرب يشكر به الإخوان ومعز .

(٣) الصناعتين : ٤٢ .

(٤) فى الصناعتين : التأمل .

(٥) الصناعتين : ٢٣ ، ٤٣ . عيون الأخبار : ٢ ـ ١٧٣ .

(٦) الهذ : السرعة .

يُغنيه عن الإعادة للكلام . ولو كان يَسْتغنى مستغنٍ عن الإشارة بمنطقه لاستغنى عنها جعفر. كما استغنى عن الإعادة فإنه لا يتحبَّسُ ولا يتوقَّفُ فى منطِقه ولا يتلَجْلَجُ، ولا يتسعّل ، ولا يترقّب لفظا قد استدعاه من بُعْد ، ولا يلتمس معنًى [١] قد عصاه بعد طلبه له .

* * *

بم فاق بشار أهل عصره؟

وقيل لبشَّار بن بُرْد : بِمَ فُقْتَ أهل عمرك ، وسبقتَ أَهْلَ عصرك ، فى حسن معانى الشعر ، وتهذيب ألفاظه ؟ فقال : لأنى لم أقبل كلَّ ما تُورِدُهُ علىَّ قريحتى ، ويُنَاجينى به طَبْعِى ، ويبعثه فكرى ، ونظرت إلى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق،ولطائف التشبيهات ، فسرت[٢] إليها بفهمٍ جيد ، وغريزة قوية ، فأحكمت سَبْرَها ، وانتقيت [٣] حُرّها ، وكشفتُ عن حقائقها ، واحترزتُ من متكلَّفها ، ولا والله ما ملك قِيادى قطّ الإعجاب بشيء مما آتِى به .

وكان بشارُ بن برد خطيباً ، شاعراً ، راجزاً ، سجّاعاً ، صاحب منثور ومزدوج . ويلقب بالمرعّث لقوله :

مَنْ لِظَبْيٍ مُرعّثٍ ساحر الطرف والنظَرْ[٤]
قال لى لن تنالنى قلت أو يغلب القَدَرْ

وليس هذا موضع استقصاء ذكره، واختيار شعره . وسأستقبل ذلك إن شاءالله.

[وصية أبى تمام للبحترى]

وقال الوليد بن عبيد البحترى[٥] : كُنْتُ فى حَدَاثتى أَرُوم الشِّعْرَ ، وكنتُ أرْجع فيه إلى طَبْعٍ[٦] ، ولم أكُنْ أقِف على تَسْهِيل مَأْخَذِه ، ووجوه اقتضابه[٧] ،

(١) فى ت : كلاما (٢) فى ت : فصرت . (٣) فى ت : وابتغيت .
(٤) مرعث : يلبس الرعث وهو القرط . (٥) العمدة : ٢ ــ ١٠٩ .
(٦) فى ط : إلى طبعى . (٧) فى العمدة : اقتضائه .

حتى قصدتُ أبا تمام وانقطعت فيه إليه، واتَّكلْتُ فى تعريفه عليه ؛ فكان أول ماقال لى:
يا أبا عبادة ؛ تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليلُ الهموم ، صِفْرٌ من الغموم ، واعلم أن العادةَ جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسانُ لتأْليفِ شىء أو حِفْظِه فى وَقْتِ السَّحَر ؛ وذلك أن النَّفْسَ قَدْ أخذَتْ حظَّها من الراحة ، وقِسْطَها من النوم ، وإن أردتَ التشبيب فاجعل اللفظ رشيقاً ، والمعنى رقيقاً ، وأَكْثِر فيه من بيان الصبابة ، وتوجُّع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولَوْعَة الفراق ، فإذا أخذت فى مديح سيّد ذى أيادٍ فأَشْهِر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبِنْ معالمه ، وشرف مقامه[1] ، ونضِّد المعانى [2] ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تَشين شِعْرَك بالألفاظ الرديئة[3] ، ولتكن كأنك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجساد . وإذا عارضك الضجر فأَرِحْ نفسَك ، ولا تعمل شعرك إلّا وأنْتَ فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقولِ الشعر الذَّريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملةُ الحال أنْ تعتبر شعرَك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

قال : فأعملت نفسى فيما قال فوقفت على السياسة[4] .

* * *

صفة البليغ

وقالوا : البليغ من يَحُوك الكلام على حسب الأمانى ، ويخيط الألفاظ على قدُود المعانِى .

فضل الليل

ولذكر الطائى الليل[5] ذكر بعض أهل العصر وهو أبو على محمد بن الحسن بن المظفَّر الحاتمى الليل فقال: فيه تَجُمُّ الأذهان، وتنقطع الأشغال ، ويصح النظر، وتؤلّف الحكمة ، وتدرّ الخواطر ، ويتّسع مجال القلب . والليل أَضْوأُ فى مذاهب الفكر ،

---

(١) فى ت : مقاومه . (٢) فى العمدة ، ت : وتقاض المعانى .
(٣) فى العمدة : الزرية ، وفى ت : الردية . (٤) فى ت : على سياسة قول الشعر .
(٥) لعله يشير إلى قول البحترى : وقت السحر، فى كلامه السابق .

وأَخْفى لعمل البر ، وأَعون على صَدَقة السرّ ، وأصح لتلاوة[١] الذكر ؛ ومدبرو الأمور يختارون الليلَ على النهار ، فيما لم تصف[٢] فيه الأناة لرياضة التدبيرِ وسياسة التقدير ، فى دَفْع الملمّ ، وإمضاء المهمّ ، وإنشاء الكتب ، وتصحيح المعانى ، وتقويم المبانى ، وإظهار الحُجَج ، وإيضاح المَنْهج ، وإصابة نَظْمِ الكلام ، وتقريبه من الأفهام .

وقال بعض رؤساء الكتّاب : ليس الكتابُ[٣] فى كل وقتٍ على غير نسخة لم تحرّر بصواب ؛ لأنه ليس أحدٌ أولى بالأناة وبالروّية من كاتب يَعْرِض عقله ، وينشرُ بلاغته ؛ فينبغى له أن يعمل النسخ[٤] ويرويها ، ويقبل عَفْوَ القريحة ولا يستكرهها ، ويعمل على أن جميعَ الناس أعداء له ، عارفون بكتابه منتقدون عليه ، متفرغون إليه .

لابتداء الكلام فتنة

وقال آخر : إنّ لابتداء الكلام فتنةً تروق ، وجِدةً تعجب ، فإذا سكنت القريحة ، وعدل التأمّل ، وصَفَت النفْس ، فليعد النظر ، وليكن فَرَحُه بإحسانه ، مساوياً لغمّه بإساءته ؛ فقد قالت الخوارج لعبد الله بن وهب الراسبي : نبايعك الساعة فقد رأينا ذلك . فقال : دَعُوا الرأى حتى يبلغ أَناته ، فإنه لا خيرَ فى الرأى الفَطير ، والكلام القضيب[٥] .

الأناة

وقال معاوية بن أبى سفيان رحمه الله لعبد الله بن جعفر : ماعندك فى كذا وكذا؟ فقال : أريد أن أَصْقل عقلى بنَوْمَة القائلة[٦] ، ثم أروح فأقول بعد ما عندى[٧] ، قال الشاعر :

إن الحديث تغر القومَ جَلْوَتهُ[٨] ... حتى يغيّره[٩] بالوَزْنِ مضمارُ

---

(١) فى ظ : وتلاوة ، وهذا من ت ، س .   (٢) فى ت ، س : تضق فيه الأناة عن الرياضة والتدبير .   (٣) الكتابة ، وفى ت : الكتب .   (٤) فى ت : ما ينسخ .

(٥) الرأى الفطير : الذى لم ينضج .   (٦) القائلة : نصف النهار .

(٧) فى ت : فأقول بعد بما .   (٨) فى س : خلوته .

(٩) فى ت : حتى يعيره .

فعند ذلك تستكفى بلاغتهُ ... أو يستمرُّ به عِیٌّ وإكْثَارُ

وقالوا : كل مُجْرٍ بالخَلَاء يُسَرّ[١] . وقال أبو الطيب المتنبي[٢] :

وإذا ما خَلَا الجَبَانُ بأَرْضٍ ... طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَه والنِّزَالَا

***

وكان قلم ابن المقفع يَقِفُ كثيراً فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الكلام يَزْدَحِمُ فى صدرى ، فيقف قلمى ليتخيّر .

الكتاب والخطاب

وقالوا : الكِتَاب يُتصفَّح أكثر مما يتصفَّح الخطاب ؛ لأنّ الكاتب متخيِّر ، والمخاطب مضطرّ ، ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أَأَسْرَعْتَ فيه أم أبطأت ؛ وإنما ينظر أَأخطأتَ أم أَصبتَ ؛ فإبطاؤك غيرُ قادح فى إصابتك ، كما إن إسراعَك غير مُغَطٍّ على غَلَطِك .

النسخ

ووصف بعض الكتّاب النسخ فقال : ينبغى أَن يصحَبها الفكر إلى استقرارها ، ثم تُستبرأ[٣] بإعادة النظر فيها بعد اختيارها ، ويوسَّع بين سُطُورِها ، ثم تحرّر على ثقةٍ بصحتها ، وتُتأمل بعد التحرير حَرْفاً حرفاً إلى آخرها .

فقد كتب المأمون مُصْحفاً اجتمع عليه ؛ فكان أوله : بسم الله الرحيم ، فأغفلوا الرحمن ؛ لأنّ العينَ لا تَعتبرُ ذلك ؛ ثقة أنه لا يُغْلَط فيه ، حتى فَطِنَ المأمون له .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات للحسن بنِ وهب : حرِّر هذه النسخة وبكِّر بها ، فتصبَّح الحسن[٤] ، فقال له : لم تصبّحت ؟ قال : حتى تصفحت ![٥]

وقال أحمد بن إسماعيل بَطَاحَة : كان بعض العلماء الأغبياء ينظر فى نسخِه بعد نفوذ كُتُبه ، فقال بعض الكتاب :

---

(١) يريد أن الذى يجرى فرسه بالخلاء يسر بظفره حيث لا مناضل ، وهو مثل فى التهكم .
(٢) ديوانه : ٣ ـ ١٤٣ . (٣) تستبرأ : المراد يتبين حالها .
(٤) التصبح : النوم بالغداة ، والمراد تأخر . (٥) فى ت : قال : ما تصبحت .

مُسْتَلَبُ اللُّبِ غَـوِىٌّ(١) الشبابْ عذَّبه الهَجْر أشـد العذاب
يؤمل الصــبر وأنّى لَهُ به وقد مُـكِّن منه التصابْ
كناظرٍ فى نسخةٍ يبتغى إصلاحَها(٢) بعد نفوذِ الـكتاب

أوصاف بليغة فى البلاغات على ألسنةِ أقوام من أهل الصناعات

قال بعضُ من ولَّد عقائل هذا المنثور ، وألَّف فواصل هذه الشذور : تجمَّع قوم من أهل الصناعات فوصفوا بلاغاتهم ، من طريق صناعاتهم :

فقال الجوهرى : أَحسنُ الـكلام نِظاماً ما ثقبته يَدُ الفكرة ، ونظمته الفِطْنة ، ووُصِلِ جَوْهَرُ معانيه فى سُموط(٣) أَلْفَاظه ، فاحتملته نُحورُ الرواة .

وقال العطار : أَطيبُ الـكلامِ ما عُجِنَ عَنْبَرَ ألفاظه بمِسْك مَعَانيه ، ففاح نسيمُ نَشَقِه(٤) ، وسطعت رائحة عَبَقِه ، فتعلقت(٥) به الرُّوَاة ، وتعطَّرت به السَّراة .

وقال الصائغ : خيرُ الـكلام ما أَحْمَيْتَه بكِير الفِكر ، وسبَكْتَه بمشَاعِل النَّظر ، وخلَّصته من خَبَث الإطناب ، فبرز بروزَ الإبريز ، فى معنى وَجيز .

وقال الصيرفى : خيرُ الـكلام ما نَقَدَتْهُ يدُ البصيرة ، وجَلته عينُ الرويَّة ، ووزنْتَه بمِعْيَار الفصاحة ، فلا نظر يُزَيّفه ، ولا سماعَ يُبَهْرِجُه .

وقال الحداد : أحسن الـكلام ما نصبت عليه مِنْفَخة القريحة(٦) ، وأشعلْتَ عليه نارَ البصيرة ، ثم أخرجتَه من فحم(٧) الإفحام ، ورقَّقته بفطِّيس(٨) الإفهام .

وقال النجار : خيرُ الـكلام ما أحكمتَ نَجْرَ معناه بقَدُوم التقـدير ، ونَشَرْتَه بمنشار التدبير ، فصار باباً لبيت البيان ، وعارِضة لسَقْفِ اللسان .

---

(١) فى س : معى ، وفىق : مغى الثبات. (٢) فى ت : صلاحها . (٣) السمط : خيط النظم ، وجمعه سموط . (٤) نشقه : شمه . (٥) فى ت : فتغلفت . (٦) فى ت : الروية .
(٧) فى ت : محم الأفهام . (٨) الفطيس : المطرقة العظيمة .

وقال النجاد : أحسنُ الكلام ما لطُفت رَفَارِف ألفاظه ، وحسُنت مَطَارِح معانيه ، فتنزهت فى زَرَابِىِّ محاسنه عيونُ الناظرين ، وأصاخت لنمارِقِ بَهْجَته آذان السامعين .

وقال المائح : أبْيَنُ الكلام ماعلقت وَذَمُ ألفاظه ببكرة[١] معانيه، ثم أرسلته فى قَلِيب الفطن فمتحت به سقاء يكشِفُ الشبهات ، واستنبطت به معنى يروى من ظمأ المشكلات.

وقال الخياط : البلاغة قميص ؛ فجُرُبّانه البيان ، وجَيْبُه المعرفة ، وكُمَّاه الوجازة، ودَخَارِيصه الإفهام[٢] ، ودُرُوزُه الحلاوة[٣] ، ولابس جَسَدُه[٤] اللفظ ، و روحه المعنى .

وقال الصبّاغ : أحسنُ الكلام مالم تنْضَ بهجة إيجازه[٥] ، ولم تكشف صبغة إعجازه ، قد صَقَلَتْه يَدُ الرويّة من كُمُود[٦] الإشكال ، فَرَاعَ كواعِبَ الآداب ، وألّف عَذَارى الألْبَاب .

وقال الحائك : أحسنُ الكلامِ ما اتّصلت لُحمة ألفاظه بسَدَى معانيه فخرج مفوّفا مُنيرا ، وموشّى محبّرًا .

وقال البزاز : أحسن الكلام ما صدقَ رقم ألْفَاظه ، وحسن نَشْرُ معانيه ، فلم يستَعْجِمْ عنك نَشر[٧] ، ولم يستبهم عليك طَىّ[٨] .

وقال الرائض: خيرُ الكلام ما لم يخرج عن حَدِّ التَّخْليع، إلى منزلة التَّقْرِيب[٩] إلا بعد الرياضة ، وكان كالمُهْرِ الذى أطمع أوّلُ رياضته فى تمام ثقافته .

---

(١) فى ت : بكرب ، والوذم : السيور بين آذان الدلو .

(٢) الجربان للقميص : جيبه . والدخريص معرب أصله فارسى وهو عند العرب : البنيقة ، واللبنة والسبجة (لسان — دخرص) . والدخاريص : ما يوصل به البدن ليوسعه .

(٣) الدرز : زئبر الثوب وماؤه وجمعه دروز . (٤) فى ت ، و س : ولابسه جسد اللفظ وروح المعنى . (٥) لم تنض : لم تمح . (٦) الكمدة : تغير اللون وذهاب صفائه .

(٧) فى ت : نشره . (٨) فى ت : حله . (٩) التقريب : ضرب من العدو ، وتخلع فى مشيته: هز منكبيه ويديه ، وتخلع : تفكك فى مشيته .

وقال الحمّال : البليغُ من أخذ بخِطام كلامه ، فأناخه فى مَبْرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عِقَالا ، والإيجاز له مجَالا ، فلم يَندّ عن الآذان ، ولم يشذّ عن الأذهان .

وقال المخنّث : خيرُ الكلام ما تكسَّرت أطرافُه ، وتثنّت أعطافه ، وكان لفظه حُلَّة ، ومعناه حلْية .

وقال الخمار : أبلغُ الكلام ماطبَخَتْه مَرَاجِلُ العلم ، وصفَّاه[1] رَاوُوق الفَهْم ، وضمَّتْه دِنَان الحكمة ، فتمشّت فى المفاصل عُذُوبَتُه ، وفى الأفكار رِقّته ، وفى العقول حِدّته .

وقال الفقاعى[2] : خيرُ الكلام ما رَوَّحَتْ[3] ألفاظه غَبَاوة الشكّ ، ورفعت رِقَّته فظاظةَ الجهل ، فطاب حِساءُ فطنته ، وعذُب مَصّ جُرعه .

وقال الطبيب : خيرُ الكلام ما إذا باشر [دواءُ][4] بيانه سقم الشّبهة استطلقت طبيعةُ الغباوة ؛ فشُفِى من سوء التفهم[5] ، وأورث صحة التوهّم[6] .

وقال الكحّال : كما أن الرّمد قَذَى الأبصارِ ، فكذا الشبهة قَذَى البصائر ، فاكْحَل عَيْنَ اللُّكنة بميل[7] البلاغة ، واجْلُ رَمَص الغَفْلة بِمِرْوَدِ اليقظة . ثم قال: أجمعوا كلهم على أن أبلغ الكلام ما إذا أشرقت شَمْسُه ، انكشف[8] لَبْسه ، وإذا صدقت أنواؤه اخضرت أحماؤه[9] .

فِقر فى وصف البلاغة لغير واحد

قال أعرابى[10] : البلاغةُ التقرب من البعيد ، والتباعد من الكُلْفَة ، والدلالةُ بقليل على كثير .

---

(١) فى ت : وكان صفاؤه . (٢) فى ط الفقاع . (٣) فى ط : ما أزاحت.
(٤) ليست فى ت . (٥) فى ت : التوهم . (٦) فى ت : التلوم .
(٧) الميل : المكحال . (٨) فى ت ، س : كشف .
(٩) الأحماء : جمع حمى، وهو المكان يحميه الرجل ويمنعه . (١٠) الصناعتين : ٤٧ .

قال عبد الحميد بن يحيى : البلاغةُ تقريرُ المعنى فى الأفهام من أَقْرَب وجوه الكلام .

ابن المعتز : البلاغةُ البلوغ إلى المعنى ولم يطل سَفَر الكلام .

سهل بن هارون : البيان ترجمان العقول ، ورَوْض القلوب ، وقال[1] : العقل رائدُ الروح ، والعلم رائدُ العقل ، والبيان تَرجمان العلم .

إبراهيم بن الإمام : يكفى من البلاغة ألا يُؤْتَى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتَى الناطق من سوء فهم السامِع .

العتابى : البلاغة مدّ الكلام بمعانيه إذا قَصر ، وحُسن التأليف إذا طال .

أعرابى[2] : البلاغة إيجاز فى غير عَجْز ، وإطناب فى غير خَطَل .

[وكتب إبراهيم بن المهدى إلى كاتب له ورآه يتبع وحشى الكلام : إياك وتتبع الوحشى طمعاً فى نَيْلِ البلاغة ؛ فإن ذلك العىّ الأكبر ، وعليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل .

وقال الصولى : ووصف يحيى بن خالد رَجُلًا فقال : أخذ بزمام الكلام ، فقاده أسهل مقاد ، وساقه أجمل مساق؛ فاسترجع به القلوب النافرة ، واستصرف به الأبصار الطامحة .

وسمع أعرابى كلامَ الحسن البصرى رحمه الله ، فقال : والله إنه لفصيح إذا نطق، نصيح إذا وعظ .

قال الجاحظ : ينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى الكلام ، عذب ينابيع اللسان ؛ إذا حاور سدّد سهم الصواب إلى غرض المعنى ، لا يكلم الخاصة بكلام العامة، ولا العامة بكلام الخاصة .

وقال أبو العباس المبرد : قال الحسن بن سهل لسالم الحرارى : ما المنزلة التى إذا

---

(١) البيان : ١ ـ ٤٣ . (٢) البيان : ١ ـ ٥٤ .

نزل بها الكاتب كان كاتباً فى قوله وفعله واستحقاقه ؟ قال : أن يكون مطبوعاً على المعرفة مُحْتَنِكا بالتجربة ، عارفاً بحلال الكتاب وحرامه ، وبالدهور فى تصرفها وأحكامها ، وبالملوك فى سِيَرها وأيامها ، وأجناس الخط ، وبادية الأقلام ، مع تشاكل اللفظ وقرب المأخذ . قال الحسن : فليس فى الدنيا إذاً كاتب][1] .

وقيل لليونانى[2] : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

وقيل للرّومى[3] : ما البلاغة ؟ قال: حسنُ الاقتضاب عند البداهة[4] ، والغزارة يوم الإطالة .

وقيل للهندى : ما البلاغة ؟[5] قال : وضوح الدلالة ؛ وانتهاز الفرصة ، وحُسْن الإشارة .

وقيل للفارسى[6] : ما البَلَاغَة ؟ قال : مَعْرِفَة الفَصْل من الوصل .

وقال على بن عيسى الرمانى : البلاغةُ إيصال المعنى إلى القَلْبِ فى أحسن صورةٍ من اللفظ .

ومن كلام أهل العصر فى صفة البلاغة والبلغاء

[قال على بن عيسى الرمانى][7] : أبلغ الكلام ما حَسُن إيجازه ، وقلّ مجازه، وكثر إِعجازه ، وتناسبت صدورُه وأعجازه .

أبلغُ الكلام ما يُؤْنس مُسْمِعه ، ويُؤْيِس مضيّعه[8] .

البليغ من يجتنى من الألفاظ أنوارَها ، ومن المعانى ثمارها .

ليست البلاغةُ أن يُطال عنان القلم أو سِنَانه ، أو يُبْسَط رِهان القول ومَيْدَانه ، بل هى أنْ يبلغ أَمَد المراد بألفاظ أَعْيَان ، ومعان أَفْراد ، من حيث لاتزيدُ على الحاجة، ولا إخلال يُفْضِى إلى الفاقة .

---

(١) زيادة من ت . (٢) البيان : ١ — ٤٩ . (٣) الصناعتين : ٣٩ .
(٤) فى ت : على البداهة . (٥) الصناعتين : ٤٩ . (٦) الصناعتين : ٤٩ .
(٧) من ت . (٨) فى ت : مصنعه .

البلاغة ميدانٌ لا يقطع إلا بسوابق الأذهان ، ولا يُسْلَك إلا ببصائر البيان .

فلان يعبث بالكلام، ويقوده بألين زمام، حتى كأنّ الألفاظ تتحاسدُ في التسابق إلى خواطره ، والمعانى تتغايرُ في الانثيال على أنامله . هذا كقول أبى تمام الطائى(١) :

تغاير الشعرُ فيه إذ سهرتُ (٢) لَهُ حتى ظننتُ قوافيه ستقتتلُ

فلان مشرفى المشرق ، وصيرفىّ المنطق . البيانُ أصغر صفاته ، والبلاغةُ عفوُ خطراته ، كأنما أوحى بالتوفيق إلى صَدْره ، وحسن الصواب بين طَبْعه وفكره .

فلان يحزّ مَفَاصِل الكلام، ويسبق فيها إلى دَرك المرام، كأنما جمع الكلام حولَه حتى انتقى منه وانتخب ، وتناول منه ما طَلَب ، وترك بعد ذلك أذْنابا لا رءوسا ، وأَجْسادا لا نفوساً .

فلان يَرْضَى بعَفْو الطَّبْع ، ويقنع بما خفّ على السمع ، ويُوجز فلا يخلّ ، ويُطْنب فلا يُمِلّ . لله فلان أخذ بأزمّة القول يقودُها كيف أراد ، ويَجْذِبُها (٣) أنّى شاء ، فلا تعصيه بين الصّعب والذلول، ولا تسلمه عند الحزونة والسّهول، كلامُه يشتدّ مرّة حتى تقول الصّخْر الأملس ، ويلين تارةً حتى تقولَ الماء أو أسْلَس ، يقول فيَصُول ، ويُجيب فيُصيب ، ويَكْتبُ فيطبّقُ المَفْصل أو يُنَسّق الدرّ المفصّلَ ، ويردُ مشارِعَ الكلام وهى صَافِيَة لم تطرق ، وجَامّة لم ترَنّقْ(٤) ، خاطِرُهُ البَرْقُ(٥) أو أسْرَع لمعا ، والسّيفُ أو أحدُّ قَطْعا ، والماء أو أسْلَس جَرْيا ، والفلك أو أقْوَم هَدْيا ؛ هو ممن يسهّل الكلام على لفظه ، وتتزاحَمُ المعانى على طَبْعه ، فيتناول المَرْمَى البعيدَ بقريب(٦) سَعْيه ، ويستنبطُ المشرع العميق بيسيرِ جَرْيه ، لسانه يَفلِقُ الصُّخُور ، ويغيض البحور ، ويُسْمِع الصُّم ، ويستنزل العُصْمَ (٧) ، خطيبٌ

---

(١) ديوانه : ٢٢٧ . (٢) فى ت : رقيت . (٣) فى ت : ويجريها .
(٤) لم ترنق : لم تكدر . (٥) فى ت : البراق . (٦) فى ط : بقليل .
(٧) العصم : جمع أعصم وهو من الوعول والظباء : ما فى ذراعيه أو فى إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

لا تناله حبْسة ، ولا ترتهنه لُكْنَة ، ولا تتمشّى فى خطابه رتة [١] ، ولا تتحيَّف بيانه عُجْمَة ، ولا تعترض لسانه عقْدة .

فلان رقيق الأسلة ، عذب العذبة [٢] لووُضِع لسانُه على الشعر حلقه ، أَوْ على الصَّخْر فَلَقَه ، أو على [الجمر أحرقه ، أو على] [٣] الصَّفَا خرقة؛ قد أحسن السّفارة ، واستوفى العبارة ، وأدَّى الألفاظ ، واستغرق الأغراض ، وأصاب شوا كِلَ المراد ، وطبَّق مَفاصِلَ السّداد، وبسط لسانَ الخطاب، ومدَّ أَطناب الإطناب ، وطلب الأَمدَ فى الإسهاب، قالَ حتى قال الكلامُ لوأُعفيت ! وكتَبَ حتى قالت الأقلامُ قد أحفيت، قد اتَّسع له مَشْرَعُ الإطناب ، وانفرجَ له مَسْلَكُ الإسهاب ، أرسل لسانَه فى مَيْدَانِه وأرخى له من عنانه [٤] ، قال وأطال ، وجَالَ فى بَسْطِ الكلام كلَّ مجال ، إذا اسْحَنْفَرَ [٥] فى الكلام طَفَح آذِيُّه ، وسَال أَتِيُّه [٦] ، وانثال عليه الكلام كانثيَال الغمام ، واستجاب له الخطاب كصوب الرَّباب [٧] . ألفاظٌ كغمزات الأَلْحاظ ، ومَعَانٍ كأنها فكُّ عَانٍ [٨] ! ألفاظ كما نوَّرت الأَشجار ، ومَعَانٍ كما تنفَّست الأَسْحَار ألفاظ قد استعارت حلاوةَ العِتَابِ بين الأَحباب ، واستلانَتْ كتشكِّى العُشَّاق [٩] يوم الفراق . كلامٌ قريب شَاسِع ومُطمِع مَانِع ، كالشمس تَقْرب ضياءً ، وتبعد علاءً ؛ أو كالماء ، يَرْخُص موجوداً ، ويغلو مفقوداً . كلامٌ لا تمجُّه الآذان ، ولا تُبليه الأزمان، كالبُشْرَى مسموعة [١٠] ، أوأزاهير الرياض مجموعة ، ومعان كأَنْفَاس الرياح ، تَعْبَق بالريحان والراح .

كلام سَهْل متسلسل ، كالمدام بماء الغمام ، يقرب إذنه على الأَفهام .

---

(١) الرتة : العجمة ، وفى ط ، س : رثة (٢) العذبة : أصلها طرف كل شىء ، والمراد طرف اللسان . (٣) من ت ، والصفا : الحجر . (٤) ساقط من ط .
(٥) اسحنفر : مضى مسرعا . (٦) الآذى : الموج ، والأتى : السيل .
(٧) الرباب : السحاب . (٨) عان : أسير . (٩) فى ت ، س : واستغاثت بتشكى .
(١٠) فى ت : محمودة .

كلام كبرد الشراب، على الأكباد الحِرَار، وبُرْد الشباب فى خلع العِذار .

كلام كثيرُ العيونِ، سَلِسُ المتون، رقيقُ الحواشى، سَهْل النواحى .

كلامٌ هو السِّحْرُ الحلالُ والماء الزُّلال، والبُرُود والحِبَر، والأمثال والعِبَر، والنعيم الحاضر، والشباب النَّاضِر .

نظرت منه إلى صورةِ الظَّرف بَحْتاً، وصورة البلاغة سَبْكا ونحتاً . ألفاظ هى خدَع الدهر، وعُقَد السحر .

كلامٌ يسرّ المحزون ويُسهِّل الحُزون [1]، ويعطل الدرّ المخزون . كلامٌ بعيد من الكُلَف، نقى من الكَلَف [2] .

كلام كاتنفس السحر عن نسيمه، وتبسم الدرّ عن نظيمه . ألفاظ تأنَّقَ الخاطر فى تَذْهيبها، ومعانٍ عُنِى الفهمُ بتهذيبها . ألفاظ حسبتها من رِقَّتها منسوخة فى صحيفة الصَّبا، وظننتها من سلاستها مكتوبةً فى نَحْر الهوى .

كلامٌ كالبُشْرَى بالولد الكريم، قُرِعَ به سَمْعُ الشيخ العقيم .

كلام قرُب حتى أَطْمع، وبَعُد حتى امتنعَ، وقَرُب حتى صار قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى، ثم [سما و] [3] علا حتى صار بالمنزل الأَعْلى . رقيق المزاج، حُلْو السّماع، نقىّ السَّبْك، مقبول اللفْظ . قرأت لفظاً جليًّا، حَوى معنًى خفيًّا، وكلاماً قريبا، رَمَى غرضاً بعيداً . لو أنَّ كلاماً أُذِيبَ به صَخْر، أو أُطْفِئ به جَمْر، أو عُوفِى به مريض، أو جُبِر به مَهِيض [4] لكان كلامُه الذى يقودُ سامعيه إلى السجود، ويجرى فى القلوب كجَرْيِ الماء فى العود . أَلفاظُه أنوار، ومعانيه ثِمار. كلامُه أُنْسُ المقيم الحاضر، وزادُ الراحلِ المسافر. كلامُه يُصْغِي إليه المقبور، وينتفِضُ له العُصفور.

---

(١) الحزون : جمع حزن، بفتح الحاء وهو ما غلظ من الأرض . (٢) الكلف : نمش فى الوجه . (٣) زيادة من ت . (٤) مهيض : مكسور .

كلامٌ يقضى حقَّ البيان ، ويملك رِقّ الحُسْنِ والإحسان ، كلامٌ منه يجتنى الدُّر ، وبه يُعقَدُ السِّحْر ، وعنده يُعْتِب الدّهر (١) ، وله يَنْشَرِحُ الصدر .

ومن ألفاظهم فى وصف النظم والنثر والشعر والشعراء

نَثْر كنثر الورد، نَظْمٌ كنظم العِقد. نثر كالسِّحر أو أَدَقّ ، ونظمٌ كالماء أو أَرَقّ. رسالة كالرَّوْضَة الأنيقة ، وقصيدة كالمخدَّرة الرشيقة . رسالة تَقْطُر ظَرْفا ، وقصيدة تمزجُ بماء الرَّاح لطفاً . نثره سِحْرُ البيان ، ونَظْمه قِطَعُ الجمان (٢) . نَثْرٌ كما تفتّحَ الزهَر ، ونظم كما تنفَّس السَّحَر . نَثْرٌ ترقُّ نواحيه وحَوَاشِيه ، ونَظْمٌ تروقُ ألفاظه ومعانيه . نَثْرٌ كالحديقة تفتَّحت أَحْدَاق وَرْدِها ، ونظم كالخَرِيدة توَرَّدَتْ أسرارُ خَدِّهَا . رسالة تَضْحَك عن غُرَر وزَهَر ، وقصيدة تنطوى على حِبَر ودُرَر . لم تَرْضَ فى بِرِّك بأخوات النَّثْرَة (٣) من نَثْرك ، حتى وصلتها ببنات الشِّعرى من شِعْرك . كلام كما هبَّ نَسيمُ السحر ، على صفحات الزَّهر ، ولذَّ طعمُ الكَرَى بعد بَرْحِ السَّهر (٤) . وشِعْرٌ فى نفسه شاعر ، تُوسَم به المواسم والمشاعر . كلام أنسَى حلاوة الأولاد بحلاوته ، وطلاوةَ الربيع بطلاوته، وشِعْرٌ من حلَقِ الشباب مسروق، ومن طِينَة الوِصال مَخْلُوق . قصيدةٌ فى فنِّها فَرِيدة ، هى عروسٌ كُسْوَتُها القوافى ، وحِلْيَتُهَا المعانى . شِعْرٌ يترقْرَقُ فيه ماء الطبع ، ويرتفع له حجابُ القَلْب والسمع . شعر لا مزية الإعجازِ أَخْطَأَتْه ، ولا فضيلة الإيجازِ تخطَّته . شعرٌ رَوَيْته لما رأَيْته ، وحفِظْتُه لما لحظته . أبياتٌ لو جُعلت خِلعاً (٥) على الزمان لتحلّى بها مُكَاثِرا ، وتجلَّى فيها مُفَاخِراً . شِعْرٌ رَاقَنِى حتى شاقنى ، فإنه مع قُرْبِ لفظه بعيدُ المرام ، مستمرّ النظام ، قوىّ الأَسْر ، صافِى البَحْر. نظمٌ قد ألِبس من البداوة فَصَاحتها ،

---

(١) يعتب : يرضى . (٢) فى ت : الجنان . (٣) النثرة : كوكبان بينهما قدر شبر .
(٤) برح السهر : شدته . (٥) فى ت : حلية .

وغُشِّيَ من الحضارة سَجَاحتها (١) ؛ فإن شئت قلت عبيد و لَبيد ، وإن شئتَ حَبيب والوليد . قصيدتُه رَوْضَة تجتنَى بالأفكار ، ونَقْـلٌ (٢) يُتَنَاوَل بالأسماع والأبصار، ونَقْلُ العلم والأدب أَلَذُّ من نَقْل المأْكَل والمشرب ، وفاكِهةُ الـكلام أطيبُ من فاكهة الطعام . نظمٌ كنظم الجُمَان ، وروضٌ كالجِنَان وأمنِ الفؤاد وطيبِ الرُّقاد . قصيدةٌ لم أَرَ غيرها بِكْراً ، استوفتْ أقسامَ الحُنْكة، واستكملتْ أَحْكامَ الدُّرْبَة ؛ فعليها رونَقُ الشباب ، ولها قُوَّةُ المُذْكِيَات الصِّلاب (٣)، روحُ الشعر وتاجُ الدهر، ومقدمة عساكر السحر. كل بيت شعر خيرٌ من بيت تِبْر . شعر يُحكم له بالإعجاز والتَّبْريز ويشبَّه فى صفاء سَبْـكه بالذّهب الإبريز . شعرٌ تَأْتَلِف القلوب على دُرَرِه ائتلافا ، وتصير الآذان له أصدافا . لله دَرُّه ما أَحْلى شعره ! وأنقى دُرَّه ، وأعْلَى قدْره ، وأعجبَ أمْره ! قد أخذ برِقَاب القوافى ، ومَلك رِقّ المعانى، فَضْله بُرْهَان حق ، وشعره لِسَان صدق . فلان يُغرب بما يَجْلِب ، ويُبْدِعُ فيما يصنع ، حَسَنُ السبك ، مُحْكَم الرَّصْف ، بديع الوَصْفِ ، مرغوب فى شِعْرِه ، مُتَنَافس فى سحره. هو ضارِب فى قِدَاحِ الشعر بأَعْلَى السهام ، آخِذٌ فى عيون الفضل بأَوْفَى الأقسام ، شِعاره أشعارُه ، ودأبه آدابه ، هو ممن يَبْتَدِهُ فيبتدع ، طبعه يُمْلى عليه مالا يُمَلُّ الاستِماعُ إليه. قَرِيحة غير قَرِيحة، وطَبْعٌ غير طَبِع (٤)، وخِيم (٥) غير وَخِيم، لبيد عنده (٦) بَليد، وعَبيد لديه من العبَيد ، والفرزدقُ عنده أقل من فرزدقة خَمير (٧) ، وجرير يُقَاد إليه بجَرير (٨) قد نسجَ حُلَلًا لا يُبْلِى جِدَّتَها الجديدان، ولا تَزداد إلا حُسْناً على تَردُّدِ الأزْمَان . نَظْمُه قد نظم (٩) حاشيتى البَرِّ والبَحْر ، وأَدركَ ناحيتى الشَّرْقِ

---

(١) من سجح الخد : سهل ولان وطال فى اعتدال. (٢) النقل : ما يتنقل به على الشراب.
(٣) المذكيات والمذاكى من الخيل : التى أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .
(٤) الطبع : السجية . وهو طبع طمع : دنىء الخلق لئيمه دنس لا يستحي من سوأة .
(٥) الخيم : الطبع . (٦) فى ت : غير . (٧) الفرزدقة : القطعة من العجين.
(٨) الجرير : الحبل . (٩) فى ت : كنظم .

والغرب . أشعارٌ قد وردَتِ المياه ، وركِبَت الأفواه ، وسارت فى البلاد ولم تَسِرْ بِزَاد ، وطارَتْ فى الآفاقِ ولم تَمْشِ على ساق . شعرُه أسْيَرُ من الأمثال ، وأسْرَى من الخيال ، سار مسيرَ الرياح ، وطار بغير جَناح . أشعارُه سارت مَسِيرَ الشمس ، وهبَّتْ هبوبَ الريح ، وطبّقت تُخُومَ الأرض ، وانتظمت الشرقَ إلى الغرب . قد كادت الأيامُ تنشدها ، والليالى تَحْفَظها ، والجنّ تدرسها ، والطير تتغنَّى بها . أبياتٌ أسْفَر عنها طَبع المَجْدِ ، فعلمت كيف يتكسّر الزَّهر على صفحاتِ الحدائق ، وكيف يغرس الدرّ فى رياض المَهارق[١] . شِعْرٌ قد أَحْسَن خِدْمَته بكمال فِكْره ، ووقف كيف شاء عند عَالِى أَمْره . شعرٌ يُعلَّق فى كَعْبَةِ المجد ، ويتوّج به مَفْرِق الدهر جاءت القصيدة ومعها عِزّة المُلك ، وعليها رُواء الصدق ، وفيها سِيماء العلم ، وعندها لِسانُ المجد ، ولها صِيَال الحقّ ، لا غروَ إذا فاضَ بَحْرُ العلم على لسانِ الشِّعْرِ أن ينتج مالاعين وقعَتْ على مثله ولا أذن سمِعَتْ بشبهه . شعر يكتب فى غُرّة الدهر ، ويشرح[٢] فى جَبْهَة الشمس [والبدر][٣] .

وهذه جملة من فصول أهل العصر تليق بهذا الموضع

كتاب لابن العميد

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى محمد خلاد[٤] الرامهرمزى القاضى « وصل كتابُكَ الذى وصلت جَناحَه بفنون صِلَاتك وتفقّدك ، وضروبِ بِرِّك وتمهُّدك ؛ فارتَحْتُ لكلِّ ما أَوْلَيْت ، وابتهَجْتُ بجميع ما أَهْدَيت ، وأَضَفْت إحسانَك فى كلِّ فصل إلى نظائره التى وكات بها ذِكرى ، ووقفت عليها شُكْرى ، وتأمّلت النظم فملكنى العجب به ، وبَهَرَنِى التعجُّب مِنه ، وقد رمت أن أجْرى على العادة فى تشبيهه بمستَحْسَنٍ من زهر جَنِىّ ، وحُلَلٍ وحُلِىّ ، وشذور الفرائد ، فى نُحُور الخرائد .

وبالمذارى غَدَوْنَ فى الحلل البيـ ... ض وقد رُحنَ فى الخطوط السُّودِ

---

(١) المهارق : جمع مهرق ، الصحيفة البيضاء يكتب فيها ، فارسى معرب .

(٢) فى ت : ويشدخ جبهة . (٣) من ت . (٤) فى ت : أبى خلاد .

فلم أره لشىء عِدْلا[١] ، ولا أرْضى ما عددته له مثلا ؛ والله يزيدك من فضله ولا يخلّيك من إحسانه ، ويلهمك مِنْ برِّ إخوانِك ما تتمّم به صنيعَك لديهم ، ويُرَبُّ معه إحسانُك إليهم .

كتاب للصاحب

وكتب أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب إلى أبى سعيد الشبيبى[٢] :

« قد رأى شيخُ الدولتين كيف الْكَلَف بسادَتِى من أهل ميكال أيّدهم الله بين ودّ أُضْمِره على البُعْد ، وإيثارٍ أُظهره على تراخى المَزار ، وتقريظٍ يمليه علىَّ المَلَوان[٣] ، ومَدْحٍ أنْطِقُ فيه بلسان الزَّمَان ، حتى إن ذِكْرَهم إذا جَرَى على لسانى اهتزَّتْ له نَفْسِى ، وفَضْلَهم إذا جرى على سَمْعِى انفرج له صَدْرِى ، فتلك عصبةُ خيرٍ فَضْلُهَا باهِر ، وشرفُها على شرف النماء زاهِر ، وشجرةٌ طيبة أصلُها ثابت وفرْعُها فى السماء [ناظر][٤] ، والله يتمِّمُ أعدادها ، ولا يعدمنى وِدَادها ، وإذا كان إكبارى لهم هذا الإكبار فكلّ منتسب إلى جنبهم أثيرٌ لدىَّ ، كثير فى يدىَّ . وطرأ علىَّ فلانٌ منتسباً إلى جملتهم ، وحبذا الجملة ، ومُعتزِياً إلى خدمتهم ، ونِعْمَت الخدمة ، ففررناه عن طَبْعٍ سَمْحٍ[٥] ، ولَفْظٍ عَذْب ، وصلةِ نثرٍ بنظم ؛ فإن شاء قال : أنا الوليد ، وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ؛ ولم أعظِم بمن خرَّجته تلك النعمة ونتجته تلك السُّدّة أنْ يأخذَ من كلِّ حسنة بعُرْوة ، ويقدح فى كل نارٍ بجَذْوَة ؛ وآنسنا بالمقام مُدّة ، أكّدتها شوافِع عِدّة ، إلى أن تذكّر مَعاهدَ رَأى فيها الدَّهْرَ طَلْقا ، والزمان غُلَاما ، والفضلَ رهنا ، والإفضال لِزاما ؛ فحنّ حنينَ الرِّكاب ، ورَكبَ عَزِيم الإياب[٦] .

كتاب للميكالى

فصل [من كتاب][٧] كتبه الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى إلى

---

(١) العدل ــ بفتح العين وكسرها : المثل والنظير . (٢) فى ت : الشعبى .

(٣) الملوان : الليل والنهار . (٤) من ت .

(٥) فررناه : اختبرناه ، والفر فى الأصل : اختبار أسنان الدابة ليعرف ماسنها .

(٦) العزيم : العدو الشديد ، وفى ت : وعزم عزيم الإياب ، وفى س : غريم الإياب .

(٧) من ت .

أبي القاسم الداوودي[١] جوابا عن كتاب له ورد عليه . وأبو الفضل رئيس نيسابور[٢] وأعمالها في وقتنا هذا ، وسيمرُّ من كلامه ونثره ونظامه ما يغني عن التنويه ، ويَكْفِي عن التنبيه ، ويجلُّ عن التشبيه ، ويكون كما قال أبو الحسن الأخفش على بن سليمان : « استهدى إبراهيم بن المدبِّر[٣] أبا العباس محمد بن يزيد جليساً يَجْمَعُ إلى تأديب ولده الإمتاعَ بإينَاسِه ؛ فندَبني لذلك ، وكتب إليه معى : قد أنفذت إليك — أعزَّك الله — فلانا ، وجملة أمره أنه كما قال الشاعر :

إذا زُرت الملوك فإن حسبي شفيعاً عنـدهم أن يَخبرُونى

ولهأيضاً

وفصل لأبي الفضل : وقفتُ على ما أتحفني به الشيخ : من نَظْمِه الرائق البديع ، وخَطِّه المُزْرِى بزهر الربيع ، مُوشَّحاً بغُرَرِ ألفاظه ، التي لو أُعِيرت حِلْيتَها لعطَّلت قلائد النّحور ، وأبكارِ معانيه التي لو قُسِّمت حَلَاوتها لأَعْذَبَتْ مَوَارِدَ البحور ، فسرّحت طرْفى منها في رياضٍ جادَتْها سحائبُ العلوم والحِكَم ، وهبَّ عليها نسيمُ الفضل والكَرَم ، وابتسمَتْ عنها ثغورُ المعالى والهِمَم ، ولم أدرِ — وقد حيَّرتْنى أصنافُها ، وبهرتنى ثغورُها[٤] وأوصافها . حتى كسَتْنى اهتزازاً وإعجاباً ، وأنشأت بيني وبين التماسك ستْراً وحجاباً ، ولم أَدرِ أدهَتْنى[٥] لها نَشْوةُ راح ، أم ازْدَهَتْنى نغمة[٦] ارتياح ، وانتظم عندى منها عِقد ثَناء وقَريض ، أم قَرَع سَمْعِى منها غناء مَعْبد وغَرِيض ، وكيفما كان فقد حَوَى رتبة الإعجاز والإبداع ، وأصبح نُزْهَةَ القلوب

---

(١) فى ت : الروادى . (٢) فى ت : كان أمير نيسابور قبـل إنشائى لهذا التأليف ، وإحكامى لهذا التصنيف ، إلا أن يكون اخترمه المقدار ولم تأتنا بموته الأخبار لبعد المحلة ونأى الدار ، وكان ابتداء إخراجى لهذا الكتاب من القوة إلى الفعل ، وإظهاره من العدم إلى الوجود فى شهر الله المعظم سنة خمس وأربعمائة . وأبو الفضل الإصابة والإجابة وبيت المملكة والسيادة .

وله الفضل قدم وقدم ، وفى جده يقول أبو بكر بن دريد القصيدة المشهورة :

إن ابن ميكال الأمير انتاشنى من بعد ما قد كنت كالشىء اللقا

(٣) فى ت : إبراهيم بن المهدى . (٤) فى ت : نعوتها .

(٥) هكذا فى ت ، ق . وفى ط : أدهمتنى . (٦) فى ت : نخوة .

والأَسماع ، فما من جارِحةٍ إلاَّ وهى تودُّ لو كانت أذنا فتلتَقِط دررَه وجواهره ، أو عينا تَجْتلى مطالعَه ومناظره ، أو لسانا يَدْرُس محاسِنَه ومفاخره .

كتابه إلى الثعالبى

وله فصل من كتاب إلى أبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى :
« وصل كتابُ مولاى وسيدى ، أبدَع الكتب هَوَادىَ وأعجازا[1] ، وأبرعها بلاغةً وإعجازا ، فحسِبْت ألفاظَه دَرَّ السحاب ، أو أصفى قطراً ودِيمة ، ومعانيه دُرّ السِّخاب[2] ، بل أوفى قَدْرًا وقيمة . وتأملت الأبياتَ فوجدتها فائقةَ النَّظْمِ والرَّصْفِ ، عبِقَة النسيم والعَرْف ، فائزة بقِدَاح الحُسْن والظَّرْف ، مالكة لِزِمام القَلْبِ والطَّرْف[3] ؛ ولا غَرْوَ أن يصدر مثلُها عن ذلك الخاطر ، وهو هَدَف الفِقَر والنوادر ، وصَدَف الدرر والجواهر ، والله يمتِّعُه بما منحه من هذه الغُرَر والأوضاح ، كما أطلق فيه ألسنة الثناء والامتداح .

***

الثعالبى وبعض مؤلفاته

وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا [على طريق التخمين لا على حقيقة اليقين][4] وهو فريدُ دهره ، وقريعُ عصره ، ونسيجُ وحدِه ، وله مصنفات فى العلم والأدب ، تشهدُ له بأعلى الرتب ، وقد فرَّقْت ما اخترته منها فى هذا الكتاب ، مع ما تعلّق بشاكلته من الخطاب ؛ منها من كتاب سماه «سحر البلاغة» قال فى صدر هذا الكتاب :
« أخرجتُ بعضه من غُرَر نجوم الأرض ، ونُكَت أعيان الفضل ، من بُلَغاء العصر ، فى النثر ، وحلّت بعضه من نظم أمراء الشعر[5] ، الذين أوردت مُلَح أشعارهم فى كتابى المترجم بيتيمة الدهر ، فلفقْت[6] جميع ذلك وحرّرته[7] ، وسقته ونسَّقته ، وأنفقت عليه ما رُزِقته ، وعملته بكدّ الناظر ، وجهد الخاطر ، وتعَبِ اليمين ، وعرق الجبين ،

---

(١) أصل الهادى : العنق والجمع الهوادى ، والمراد الأوائل . والأعجاز ، جمع عجز : مؤخر الشىء . (٢) السخاب : قلادة من قرنفل ، ومحلب بلا جوهر (هامش ق) .
(٣) الطرف العيش . (٤) من ت . (٥) فى ق : أمراء الشعراء .
(٦) فى ط : فلففت . (٧) فى ت : وجردته .

وتعمّدْتُ فيه لَذَّةَ الجِدّة ، ورَوْنَق الحداثة ، وحلاوة الطَّراوة ، ولم أشُبْهُ بشيء من كلام غـير أهل العصر ، إلا فى قلائل وقلائد من ألفاظِ الجاحظ وابن المعتز ، تخلّلَت أثناءَه ، وتوشّحت[1] تضاعيفه ، ولم أُخْل كلماتِه — التى هى وسائط الآداب ، وصياقل الألباب ، وما تستَمْتِعُه[2] أنفسُ الأدباء ، وتلذّ أعين الـكتاب — من لفظ صحيح[3] ، أو معنًى صريح ، أو تجنيس أنيس ، أو تشبيهٍ بلا شبيهٍ ، أو تمثيل بلا مَثِيل ولا عَديل ، أو استعارةٍ مُخْتَارة أو طِباق ، ذى رَوْنق باق ؛ فمن رَافَقَ هذا الـكتاب قَرُبَ تناوُلُه من الـكتّاب ، إذا وشّوا ديباجةَ كلامهم بما يقتبسونه من نُوره ، وسماحة قيادِه لأفراد الشعراء إذا رصّعوا عقودَ نظامِهم بما يلتقطونه من شذُوره ، فأمّا المخاطبات والمحاورات ، فإنها تتبرّج[4] بغرّة من غُرره ، وتتوّج بدرة من دُرَرِه .

وقد ذكر جملةَ مَنْ أخرج معظم كتابه من نثرهم ونظمهم ، وهم الصابيان ، والخالديّان ، وبديع الزمان ، وأبو نصر[5] بن المرزبان [وعلى بن عبد العزيز القاضى ، وأبو محمد القاضى ، وأبو القاسم الزعفرانى ، وأبو فراس الحمدانى][6] ، وابن أبى العلاء[7] الأصبهانى ، وأبو الطيب المتنبي ؛ وأبو الفتح البستى ، وأبو الفضل الميـكالى ، وشمس المعالى ؛ والصاحب بن عباد ، وجماعة يكثر بهم التعداد ، قد ذكرهم فى كتابه ، فكل ما مرّ أو يمر من ذكر ألفاظ أهل العصر فمن كتابه نَقَلْتُ ، وعليه عوّلت .

وفى أبى منصور يقول أبو الفتح على بن محمد البستى[8] :

قلبي رهينٌ بنيسابورَ عنـد أخ ... ما مثلُهُ حين تُسْتقرَى البلادُ أخُ
له صحائف أخْلَاقٍ مهذبةٍ ... من[9] الحِجَا والعُلَا والظرف تُنْتسخُ

---

(١) فى ت : وتوسطت . (٢) فى ت : وما تشتهى . (٣) فى ت : فصيح .
(٤) فى ت : تبرج . (٥) فى ت : وأبو نصر المرزبان .
(٦) زيادة من ت . (٧) فى ت : وأبو العلاء الأصبهانى
(٨) يتيمة الدهر ٤ — ٢٩٩ (٩) فى ت : منها الحجا .

وأما الذين ذكر أسماءهم فى كتابه فسأظهر من سرائر شعرهم الرصين ، وأجلو من جواهر نثرهم الثمين ما أخذ من البلاغة باليمين .

* * *

بعض رسائل الميكالى

فصل لأبى الفضل: وصل كتابُ الشيخ المبشر من خبر سلامته التى هى غُرَّة الزمان البهيم [١] ، وعذر الدهر المليم [٢] ، بما أشرقت له آفاقُ الفضْلِ والكرم ، وتمّت به [٣] نفائِسُ الآلاء والنعم ، فسرَّحْتُ طَرْفى من محاسن ألفاظه ، فى أنوار تَرُوق أزَاهِرُها ، وقلائِدَ تروعُ دُرَرُها وجواهرها ، ومَبَارّ يسترقُّ الرّقابَ باطنُها وظاهرها .

رسالة منه إلى أبى سعيد

وله إلى أبى سعيد بن خلف الهمدانى :

وصل كتابُكَ متحملا من أخبار سلامته [٤] وآثارِ نعمِ اللهِ بساحته [٤] ، ما أدّى روحَ البرِّ ونسيمه ، وجمع فنونَ الفضل وتقاسيمه ، ومجدِّداً عندى من عمر [٥] مواصلته ، ومعسول كلامه ومحاوَرته ما ترك غُصْن المِقَة [٦] غضًّا تروق أوْراقه ، ووَجْهَ الثقة طَلْقًا يتهلّلُ إشراقه ، فكم جنيت عنه من ثمر مَسَرة كانت عوائقُ الأيام تجاذِبُنيه ، وحويت به من عِلْق مَضَنَّة [٧] قلما يجود الدهر بمثله لبنيه .

رسالة منه إلى بعض الحكام

وله فصل إلى بعض الحكام بجوين :

« وصل كتابُ الحاكم وقد وشَّحه بمحاسن فِقَره ، ونتائج فِكَره ، من لفظ شهىٍّ أعطته القلوبُ فَضْلَ المقادَة ، ومعنى سنىٍّ جاده صوبُ الإصابة والإجادة ، وبِرٍّ هنىٍّ اتَّفَقَتْ على الاعترافِ بفضله ألسنةُ الثناء والشهادة ، فسرَّحتُ طَرْفى فيما حواه

---

(١) البهيم : الأسود . (٢) المليم : الذى يأتى بما يلام عليه . (٣) فى ت : وطمت به تفايض ، وفى س : نقائص الآلاء . (٤) فى ت : كتابه . وفى ط : سلامتك .. بساحتك . (٥) فى ت : من عهد . (٦) المقة : الحب . (٧) وهذا علق مضنة : نفيس يضن به .

من بدائع وطُرَف، قدجمعت فى الحسن والإحسان بين واسطة وطرَف ، حتى لم تبقَ فى البلاغـة يتيمة إلا نظمتها ، ولا فى الظَّرف غنيمةٌ إلا اقتسمتها ، ولا فى البر نقيصة إلاجبرتها وتممتها .

رسالةمنه إلى أبيه

وله إلى الأمير السيد أبيه يهنئه بالقدوم :

كتبت وأنا بمنزلة من ارتدَّ إليه شبابُه بعد المشيب ، وارتدى برداء مِنَ العمر قَشيب ، والحمد لله رب العالمين ، وصل كتابُ مولاى مبشِّرًا من خبر عَوْده إلى مقرّ عزّه وشَرَفه ، محروسا فى حفظ اللهِ وكَنَفه ، بما لم تزل الآمال تتنسَّم روائحه ، وتترقّب غادىَ صُنْع الله فيه ورائحَه ، واثقةً بأنّ عادةَ الله الكريمة عنـده تُسايِره وتُرافقه ، وتلزم جنابه فلا تُفارِقه ، حتى تخرجَه من غَمْرة الغَماء [١] خروجَ السيف من [٢] الغِمْد ، والبدر بعد السِّرار [٣] إلى الانجلاء ، فعددْتُ يوم وُرودِه عِيداً أعاد عهد السُّرور جَدِيداً ، وردّ طَرْفَ الحسود كليلا وقد كان حَدِيدا ، ولم أُشَبِّهْه فى إهداء الرَّوح والشفاء ، وتلافى الرُّوح بعـد أنْ أشْفَى على المـكروه كل الإشفاء [٤] إلاّ بقميص يوسف حين تلقّاه يعقوبُ عليه السلام من البشير، وألقاه على وجهه فنظر بعَيْنِ البصير ، فكم أوسعتُه لَثْماً واستلاما ، والتقطت منه بَرْداً وسلاما ، حتى لم تبق غُلَّة فى الصدر إلا بَرَدْتُها ، ولا غُمّة فى النفس إلا طَرَدْتها ، ولا شريعة من الأنس إلا وَرَدْتها .

فصل من رسالة له

وله فصل من رسالة :

وكان فرطُ التعجب مَرَّةً وعِظَمُ الإعجاب تارةً يقفُ بى عند أول فصل من فصوله، ويثبّطنى عن استيفاء غُرَره وحُجُوله، ويُوهمنى أنَّ المحاسنَ ما حوته قلائدُه ، ونظمته

---

(١) الغماء : الداهية . (٢) فى ت : خروج السيف من يد الجلاء .

(٣) السرار من الشهر: آخر ليلة منه . (٤) أشفى على المـكروه : أشرف عليه .

فرائدُه ؛ فليس فى قوس إحسان وراءها مِنْزَع (١) ، ولا لاقتراح جَنَان فوقها مُتطلَّع (٢) ، حتى إذا جاوزته إلى لفقه (٣) وتَزْيينه ، وأجلْتُ فكرى فى نُكتِه وعُيونه ، رأيتُ مايُحَيِّر الطَّرْف، ويُعْجِز الوَصْفَ ، ويَعْلُو على الأَول مَحَلاًّ ومكاناً ، ويفوقه حسناً وإحساناً ، فرتَعْتُ كيف شئتُ فى رياضِه وحدائقه ، واقتبست نورَ الحِكَم من مطالعه ومَشَارقه ، وسلّمت لمعانيه وألفاظه فضيلَةَ السَّبق والبَرَاعَةِ ، وتلقَّيتها بواجبها من النَّشْر والإذاعة ؛ فإنها جمعت إلى حُسْنِ الإيجاز درجةَ الإعجاز ، وإلى فضيلة الإبداع جلالةَ الموقع فى القلوب والأسماع .

وفصل من رسالة له

وله من فصل :

« وصل كتابُ الشيخ فنشر عندى من حُلل إفضاله وإكرامه ، ومحاسن خطابه وكلامه ، مالمأشبِّهه إلا بأنْوَار النّجُود (٤)، وحبر البرود (٥) ، وقلائد العُقُود .

ذكر الثعالبى للميكالى

وذكر أبومنصور الثعالبى الأمير أباالفضل فى كتاب الْفَقَهْ (٦) فقال فى بعض فصوله: مَنْ أراد أن يسمعَ سِرَّ النظم ، وسِحْرَ الشعر ، ورُقْيَةَ الدهر ؛ ويرى صَوْب العَقْل، وذَوْب الظَّرف ، ونتيجة الفَضْل فليستنشد ما أسْفَرَ (٧) عنه طبعُ مَجْدِه ، وأثمرَه عالى فكره ، من مُلَحٍ تمتزجُ بالنفوس لنفاستها ؛ وتُشْرَبُ بالقلوب لسلاستها :

قوافٍ إذا ما رَوَاها المشو ... ق هزَّت له الغانيات القُدُودا

كسَوْنَ عبيداً ثيابَ العَبيد ... وأضحى لَبيد (٨) لديها بَليدا

وايمُ الله ما مرّ يومٌ أسعفنى فيه الزمانُ بمواجهة وَجْهه ، وأسْعَدَنى بالاقتباس من نوره والاغتراف من بَحْرِه ، فشاهدت ثِمَارَ المجدِ والسؤود تَنْتَثِرُ من شمائله ؛

---

(١) منزع ، على وزن منبر، السهم الذى ينتزع به ، ويقولون : لم يبق فى قوس الصبر منزع، يريدون أن الصبر نفدت أسبابه . (٢) فى ت: ولا اقتراح إنسان فوقها مطلع .

(٣) فى ت، س: لفقه وقرينه . (٤) أنوار : أزهار ، والنجود: جمع نجد : المرتفع من الأرض . (٥) الحبر : الوشى . (٦) فى ط : فقه اللغة ، وفى ق : للغة ! وهذا من ت ، س . (٧) فى ت : ما استفرغه . (٨) يشير إلى عبيد بن الأبرص، ولبيد الشاعر الجاهلى .

ورأيت فضائلَ الدَّهرِ عيالاً على فضائله، وقرأتُ نسخة الفَضْلِ والكرم من ألحاظه، وانْتَهَبْتُ فضائل الفوائد من ألفاظه، إلاَّ تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرُّومى [١] :

لولا عجائبُ صُنْعِ اللهِ [٢] ما ثبتت تلك الفضائلُ فى لَحْمٍ ولا عَصَبِ

وقول الطائى [٣] :

فلو صوَّرْتَ نفسَك لم تَزِدْهَا على ما فيك من كَرَمِ الطِّبَاعِ

وقول كُشاجم :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عَيْبٍ يُوَقيه من العَيْنِ

وربّعت بقول أبى الطيب [٤] :

فإنْ تَفُقِ الأَنَامَ وأَنْتَ مِنْهُمْ فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

ثم استعرت فيه بيانَ أبى إسحق الصابى حيث يقول للصاحب « ورّثه الله أعمارها كما بلّغه فى البلاغة أَنوارها » ـ شعر [٥] :

اللهُ حسبى فيك من كل ما تعوّد العبد على المولى [٦]

فلا تزل تَرْفُلُ فى نعمةٍ أَنْتَ بها من غَيْرِك الْأَوْلَى

فصل للثعالبي فيه

وقال فى فصل منه : « وما أنسَ لا أنسَ أيامى عنده بفيروزاباد إحدى قُرَاه برستاق جُوين ، سقاها الله ما يحكى أَخْلاقَ صاحبها من سَيْل القَطْرِ ، فإنها كانت ـ بطَلْعَته البَدْرِية ، وعِشرَته العِطْرِيّة ، وآدابه العلوية ، وألفاظه اللُّؤلؤية ، مع جلائل نِعَمِه المذكورة ، ودقائق كرمه المشكورة ، وفوائد مجالسه المعمورة ، ومحاسنِ أقواله وأَفعاله التى يَعْيَا بها الواصفون ـ أنموذجات من الجنة ، التى وُعِد [٧] المتقون ، وإذا

(١) ديوانه : ٢١٤ . (٢) فى الديوان : لطف الله ما نبتت ، وقال شارحه : إن للبيت رواية أخرى هى رواية هذا الكتاب . (٣) ديوانه : ١٩٥ . (٤) ديوانه : ٣ ـ ٢٠ .
(٥) ساقط من ت . (٦) فى ط : تعوذ ، وفى ت : يعوذ العبد به المولى .
(٧) فى ت : وعد بها .

تذكرتها فى تلك المَرابع التى هى مَراتِع النَّوَاظر ، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر ، والبساتين التى إذا أخذَتْ بدائعَ زخارفها ، ونشرت طرائفَ مطارفها ، طُوِى لهـا الديباج الخُسْرُوَانى[١] ، ونُفِى معها الوَشْى الصّنعانى ، فلم تُشبَّه إلا بشِيَمِهِ ، وآثار قلمه ، وأزهارِ كلمه ، تذكرت سِحراً وَسِيما ، وخيراً عميما ، وارتياحاً مُقيما ، وروحا ورَيْحانا ونعيما .

وكثيراً ما أَحْكِى للإخوان أنى استغرقتُ أربعة أشهر بحضرته ، وتوفّرت على خِدْمَته ، ولازَمْتُ فى أكثر أوقاتى عَالِى مَجْلسه ، وتعطّرت [عنـد ركوبه][٢] بغُبار مَوْكِبه ؛ فبالله يميناً كنتُ غنيّا عنها لو خفت حنثاً فيها[٣] إنى ما أنـكرت طَرَفا من أخلاقه ؛ ولم أشاهد إلا مَجْداً وشرفاً منْ أحواله ، وما رأيتُه اغْتَابَ غائباً ، أو سبَّ حاضِرًا ، أو حَرَم سائلا ، أو خيَّب آملا ، أو أَطاع سلطانَ الغَضَبِ فى الحضَر ، أو تَسَلَّى[٤] بنار الضَّجَر فى السَّفَر ، أو بطش بَطْشَ المتجبِّر ؛ ولا وجدت المآثِرَ إلا ما يتعاطاه ، والمآثِمَ إلا ما يتخطَّاه .

وقال فى فصل منه يصفه : « وأما فنونُ الأدب فهو ابن بَجْدتها[٥] ، وأَخُو جملتها ، وأبو عُذْرتها[٦] ، ومَالِك أَزِمَّتها ، وكأنما يُوحَى إليه فى الاستئثار بمحاسنها، والتفرُّد ببدائعها ، ولله هو إذا غرس الدُّرَّ فى [أرض][٧] القراطيس ، وطرَّزَ بالظلام رِدَاءالنهار ، وألقت بِحَارُ خواطره جواهر البلاغة على أنامله ، فهنالك الحُسْنُ برُمَّته ، والحُسْنَى[٨] بكلّيته .

ذكر المطوعى للمكيالى

وذكر عمر بن على المطوعى فى كتابٍ ألّفه فى شعر أبى الفضل ومنثوره والشعراء فقال : رأيتُ أهل هذه الصناعة قدتشعّبوا على طُرُق ، وانقسموا[٩] على ثلاث فِرق،

(١) الخسروانى : نوع من الثياب . (٢) من ت . (٣) هكذا فى ت ، وفى ط : إثمها ، وفى ق : حسامها . (٤) فى ت ، ق : تصلى . (٥) ابن بجدتها : هو الخبير بها .
(٦) هكذا فى ت ، ق ، وفى ط : أبو عذرها . (٧) زيادة من ت .
(٨) فى ق : والحسنى . (٩) فى ت : وتقسموا .

فمنهم من اكتسى كلامُه شرفَ الاكتساب دون شرف الانتساب ، كالمكتسبين من الشّعراء بالمدائح ، المترشّحين بها لأَخْذِ الجوائز والمنائح[١] ، وهم الأكثرون من أهل هذه الصناعة ؛ ومنهم من شَرُفَت بناتُ فكره عند أهل العقول ، وجلبت لديهم فضائل القَبُول[٢] ، لِشَرَفِ قائلها لا لِكَثْرَة عقائلها ، وكرم واشيها لا لِرِقَّة حواشيها ، كالعدد الكثير ، والجمّ الغفير ، من الخلفاء والأمراء والجِلّة والوزراء . ومنهم من أخذ بحبل الجَوْدَة من طَرَفَيْهِ ، وجمع رداءَ الحُسْنِ من حاشيَتَيْه ، كامرئ القيس ابن حُجْر الكندى فى المتقدّمين ، وهو أميرُ الشعراء غير مُنازَع ، وسيدُهم غير مجاذَب ولا مدافَع ، وعبد الله بن المعتز بالله أمير المؤمنين فى المولّدين ، وهو أشعر أبناء الخلافة الهاشمية وأَبْرَع أنشاء الدولةِ العباسية ؛ ومَنْ جلَّ كلامه فى التشبيه، عن أن يُمثَّل بنظير أو شبيه ، وغَلَت[٣] أشعاره فى الأوصاف عن أن تتعاطاها ألسنةُ الوُصّاف ؛ والأمير أبى فراس بن حمدان فارس البلاغة ، ورَجل الفصاحة ، ومن حكمت له شعراءُ العصر قاطبةً بالسيادة ، واعترفت لكلامه بالإحسان والإجادة ، حتى قال أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب : بُدِئَ الشعرُ بملك وخُتِم بملك ، يعنى امرأ القيس وأبا فراس ؛ وهذه الطائفة أشهرُ الثلاثة تقدّماً ، وأثبتها فى مواطن الفَخْر ومواطئ الشرف قَدَما ، وأسبق الشعراء فى مَيْدَان البلاغة ، وأرجَحهُم فى ميدان[٤] البَرَاعة ؛ فإنّ الكلامَ الصادرَ عن الأَعيان والصدور أقرُّ للعيون وأشفى للصدور ، فشرف القلائد بمن قلّدها ، كما أن شرف العقائل بمن ولّدَها :

وخَيْرُ الشِّعْرِ أكْرَمُه[٥] رِجالًا وشَرُّ الشِّعْرِ مَا قَالَ الْعَبِيدُ

وإذا اتفق من اجتمعت فيه هذه الشرائط ، وانتظمت عنده هاتيك المحاسن كان خليقاً بأن تُخلَّد فى صحائف القلوب أشعارُه ، وتُدوَّن فى ضمائر النفوس آثارُه ،

---

(١) العطايا . (٢) فى ت، س : وحليت لديهم . (٣) فى ت : وعلت.
(٤) هكذا فى ت ، ق . وفى ط : ميزان . (٥) فى ت : أشرفه .

وتكتب على الأحداق والعيون أخباره ، وجديراً[١] بأن يختص بسرعة المجال في المجالس ، وخفّة المدار في المدارس ، كالأمير الجليل السيد مولانا :

أبي الفضل مَنْ نال السماءَ بفضلِهِ ... ومن وعدَته نفسه بمزيدِ
تودّ عقودُ الدرّ لو كنَّ لفظَهُ ... فينظمها من تَوْأمٍ وفريدِ

وهذه مقطعات لأهل العصر في وصف البلاغة

قال أبو الفتح البُسْتي[٢] :

مدحْتُك فالتامت قَلائدُ لم يفُزْ ... بأمثالها الصِّيدُ الكِرَامُ الأعاظمُ
لأنك بحرٌ والمعانِي لآلِئٌ ... وفكرِيَ غوّاصٌ وشعرِيَ[٣] ناظمُ

وقال أيضاً[٤] :

ما إن سمعت بنوّارٍ له ثمرٌ ... في الوقت يُمْتِع سَمْعَ المرءِ والبَصَرا
حتى أتاني كتابٌ منك مبتسِمٌ ... عن كل لفظٍ ومعنى يشبه الدُّررا
فكان لفظك في لألائه زهراً ... وكان معناه في أثنائه ثمرا
تسابقَا فأصابَا القَصْدَ في طَلَقٍ ... للهِ من ثمرٍ قد سابقَ الزَّهَرَا

وقال أيضاً[٥] :

لمّا أتاني كتاب منك مبتسمٌ ... عن كلّ بِرٍّ ولفظ[٦] غَيْرِ محدودِ
حكَتْ معانيه في أثناء أسطرِهِ ... آثارك البيض في أحوالَى السُّودِ

كأنه ألمّ بقول الطائي[٧] :

يرى أقبحَ الأشياءِ أوْبَةَ آملٍ ... كَسَتْها[٨] يَدُ المأمولِ حُلَّةَ خائبِ
وأحسن من نَوْرٍ تُفَتِّحهُ الصَّبا ... بياضُ العطَايا في سَوَادِ المَطَالِب

---

(١) أى وكان جديرا . (٢) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩٧ . (٣) في اليتيمة : وقولى .
(٤) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩١ . (٥) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩١ .
(٦) في اليتيمة، و ت: وفضل. (٧) ديوانه : ٤٢ . (٨) في ت : كسته .

وقال أبو الفتح البستى فى أبى نصر أحمد بن على الميكالى[١] :

جمع الله فى الأمير أبى نصـ ـرٍ خِصالًا تَعْلُو بها الأقدارُ
راحةً بَرّة[٢] وصدراً فَضاءً وذكاءً تبـــدو له الأسرار
خَطُّهُ روضةٌ وألفاظُه الأز هار يَضْحكن والمعانى ثِمارُ

وقال عمر بن على المطوعى يَمْدَحُ أبا الفضل الميكالى من قصيدة :

والى الأمير ابن الأمير المعتلى بكمال سُـؤدده على الأمراءِ
وطِئت بىَ الوَجْناءُ وَجْنَةَ مَهْمَهٍ متقاذفِ الأَكْنَافِ والأَرْجَاء[٣]
كيما ألاحظَ منـه فى أفق العُـلَا فَلَـكاً يُدِيرِ كواكبَ العَلْيَاءِ
كالْبَدْرِ غير دَوَامِه مُتَـكامِلًا كالْبَحْر غـير عذوبةٍ وصفاءِ
بالفضلِ يُكنَى وهو فيه كامنٌ[٤] كالرِّى يَكْمُنُ فى زُلال المـــاءِ
يا من إذا خَطَّ الـكتابَ يمينهُ أهْدَى إلينا الوشْىَ من صَنْعَاءِ
لم تجر كفُّك فى البياض مُوقِّعاً إلّا تجلَّتْ عن يَدٍ بيضـــاءِ
قَرْمٌ يَدَاه وقَلْبُه ما منهما فى النظم والإعطاء إلا الطائى[٥]

وقال فيه أيضا :

كلامُ الأميرِ النَّدْب[٦] فى ثنْى نَظْمِهِ يَنُوبُ عن الماءِ الزلال لمن يَظْمَا
فنَرْوَى متى نَرْوِى بَدَائِعَ نَظْمه ونَظْمَا إذا لم نَرْوِ يوماً له نَظْما[٧]

وكتب إليه أيضاً :

أقول وقد جادت جُفونى بأَدْمُعٍ كأَنى قد استَمْلَيْتهنَّ من السُّحْبِ

---

(١) اليتيمة : ٤ — ٢٩٨ . (٢) فى ت : ثرة ، وهذا من س .

(٣) الوجناء : الناقة الصلبة . المهمه : القفر . متقاذف الأكناف : متباعد الأطراف .

(٤) فى ت : كامل . (٥) القرم : السيد . الطائى الـكريم : حاتم ، والطائى الشاعر : أبو تمام . (٦) الندب : الخفيف فى الحاجة الظريف النجيب .

(٧) نظما : الأولى هى نظمأ ، والثانية : النظم .

وقد عَنَقَتْ بى للنزاع نَوَازِعٌ كَتَبْنَ مُعَاناةَ العناءِ على قلبى
إلى سيِّدٍ أوفى على الشَّمْسِ قدرُهُ وزادت معاليه ضياءً على الشُّهب
أبى الفضل من راحت فواضلُ كفِّه وراحَتُه تُربى (١) على عَددِ الترب
سقى اللهُ أرضاً حلّ فيها سحائبا كنائله الفيّاض أو لفظه العـذْبِ
سحائب يَحْدُوها نسيمٌ كخُلْقِهِ ويقدمها برْقٌ كصارمه العَضْبِ (٢)
ولا زال أَفْلَاكُ السعود مُطيفةً بحضرته تنتابها وهو (٣) كالقُطْبِ

وقال أبو منصور الثعالبي للأمير أبى الفضل (٤) :

لك فى الفضائل (٥) معجزات جمّة أبداً لغيرك فى الورَى لم تُجْمَعِ
بَحران بحرٌ فى البلاغة شابَهُ شِعْر الوليد وحُسْن لفظِ الأصمعى
كالنَّور أو كالسِّحر أو كالدُّرِّ أو كالوَشْىِ فى برْد عليـه مُوشَّع (٦)
شكرا فكم من فقْرَةٍ لك كالغِنَى وافى الكريمَ بُعَيْدَ فقْرٍ مُدْقع
وإذا تفتّق نَوْرُ شِعرك ناضراً فالحسنُ بين مُرَصَّع ومصَرَّع
أرْجلْتَ فُرْسانَ الكلام ورُضْتَ أفـ راسَ البديع وأنت أمْجَد مُبدِع (٧)
ونقشت فى فصِّ الزمان بدائعاً تزْرِى بآثارِ الربيع المُمْرِعِ (٨)

[وقال فى وصف فرس أهداه إليه ممدوحه] (٩) :

يا مُهْدِىَ (١٠) الطِّرْف الجوادِ كأنما قد أنعلوه بالرياح الأربع
لا شىءَ أسرعُ منـه إلّا خاطرى فى شكر نائلك اللطيف الموْقع
ولو أنّنى أنصفت فى إكرامه لجلال مُهْدِيه الكريم الأروَع (١١)

(١) تربى : تزيد . (٢) الصارم العضب : السيف القاطع . (٣) فى س : وهى .
(٤) يتيمة الدهر : ٤—٢٢٧ ، والمقدمة : ٣٥٥ . (٥) فى اليتيمة ، س : فى المحاسن.
(٦) توشيع الثوب : أعلامه . (٧) فى اليتيمة : وأنت أفرس مبدع .
(٨) الممرع : المملوء بالكلأ . (٩) الزيادة من اليتيمة . (١٠) فى اليتيمة : يا واهب.
(١١) الأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته ، وفى اليتيمة: الكريم الألمعى.

أنظمتهُ[1] حَبَّ القلوب لحُبّه ... وجعلت مربطه سَوادَ المَدْمَعِ
وخلعت ثم قطعت غير مضيّقٍ[2] ... بُرْد الشبابِ لجُلّه والبُرقع

وكتب إليه فى جواب كتاب ورد عليه :

أَنسيمُ الرياض حَوْلَ الغدير ... مازَجَتْه رَيَّا[3] الحبيب الأثيرِ
أم وُرُود البشير بالنّجْح من فـ ... ـكّ أَسيرٍ أو يُسْر أمرٍ عسيرِ
فى مُلاء من الشباب جديدٍ ... تحت أَيك من التَّصابى نضير
أم كتاب الأمير سيدنا الفرْ ... د فيا حبذا كتاب الأميرِ
وثمار الصدور[4] ما أجتنيه ... من سُطورٍ فيها شفاء الصدورِ
نمّقَتْها أناملٌ تَفْتقُ الأنْـ ... وارَ والزهر فى رياض السطورِ
كالمُنى قد جُمِعْنَ فى انْعِم الغُـ[5] ... ـرّ مع الأمن من صروفِ الدهور
يا أبا الفضل وابنــه وأخاهُ ... جلَّ بَارِيك من لطيف خبيرِ[6]
شِيَمٌ يرْتَضِعْنَ دَرَّ المعالى ... ويُعبّرْن عن نسيم العبيـرِ
وسجايا كأنهنَّ لدى النشـ ... ـرِ رُضابُ الحَيا بأَرْى مَشُور[7]
ومُحيّا لدى الملوك محيّا ... صادق البشر مُخْجِل للبـدورِ

فأجابه أبو الفضل بأبيات يقول فيها فى صفة أبياته :

وهَدِيٍّ زُفّتْ إلى السّمْع بِكْرٍ ... تَتَهَادَى فى حِلْيَةٍ وشذُورِ[8]
عجب النـاس أنْ بدَتْ مِنْ سَوَادٍ ... فى بياضٍ كالمِسْك فى الكافورِ
نُظِمت فى بلاغةٍ ومعـانٍ[9] ... مثـل نظم العقود فَوْقَ النحورِ
كم تذكّرت عنـدها من عُهُودٍ ... للتلاقى فى ظلّ عَيْشٍ نَضِيـرِ

---

(١) فى اليتيمة : أفضمته . (٢) فى اليتيمة : غير مضيع . (٣) فى ت : ري .
(٤) فى ت : السرور ، وفى س : السطور . (٥) فى س : العز . (٦) فى س : قدير .
(٧) الأرى : العسل المصفى . (٨) الهدى : العروس ، والشذور : قطع الذهب أو خرز يفصل بها النظم ، أو هو اللؤلؤ الصغار . (٩) فى ط : من معان ، وهذه من ت ، س .

فذممتُ الزمانَ إذْ ضَنَّ عنا ... باجتماعٍ يضمّ شمْلَ السرورِ(١)
ولئن رَاعَنَا الزمانُ ببيْنٍ ... ألْبَس الإنس ذِلَّة المهجورِ
فعسى اللهُ أنْ يُعيدَ اجتماعاً ... فى أمانٍ من حادثاتِ الدُّهورِ
إنه قادرٌ على ردِّ ما فا ... ت وتيْسير كلِّ أمْرٍ عَسِيرِ

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى فى الوزير المهلبى(٢) :

قل للوزير أَبى محمد الّذى ... قد أعجزت كلَّ الورَى أوصافُهُ
لك فى المجالس مَنْطِقٌ يَشْفِى الجَوَى ... ويَسُوغُ فى أُذُنِ الأديب سُلافُهُ
وكأنَّ لفظَك جَوْهرٌ متنخَّلٌ(٣) ... وكأنما آذانُنا أَصْدافُهُ

* * *

كلمة عن المهلبى

والمهلبى هذا هو أبو محمد الحسن بن هارون(٤) بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد ابن حاتم بن قبيصة بن المهلب ، وزر لأحمد بن بويه الديلمى ، وكانت وزارته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، وكان أبو محمد من سَرَوات النـاس وأدبائهم وأجوادهم وأعِفّائهم ؛ وفيه يقول أبو إسحاق الصابى(٥) :

نِعَمِ اللهِ كالوحوش فما تأ ... لَفُ إلا الأخايرَ(٦) النُّساكا
نفَّرَتْها آثامُ قوم وصيّرْ(٧) ... ن لها البرّ والتُّقَى أشْرَاكا

وكان قبلَ اتّصاله بالسلطان سائحاً فى البلاد ، على طريق الفقْرِ والتصوّف ، قال أبو على الصوفى : كنت معه فى بعض أوقاته أُماشِيه فى إحدى طرقاته فضَجِر لضيقِ الحال فقال :

ألَا موتٌ يُبَاعُ فأشتريهِ ... فهذا العيشُ مالا(٨) خيْرَ فيهِ

---

(١) ليس هذا البيت فى ت . (٢) يتيمة الدهر : ٢ — ٢٤٨ .
(٣) فى اليتيمة : لؤلؤ بدل جوهر، ومتنخل : مختار . (٤) فى ت : بن محمد بن هارون.
(٥) اليتيمة : ٢ — ٢٧٥ . (٦) الأخيار . (٧) فى ت : فصيرت .
(٨) فى ت : لاما .

ألا رَحِمَ المهيمن نفس حرٍّ　　تصدَّقَ بالوفاةِ على أخيـهِ

ثم تصرَّف بما يُرْضِيه الدهر ، وبلغ المهلبى مَبْلغه . قال أبو على : دخلت البصرة فاجتزت بسُرَّ مَنْ رأى ، وإذا أنا بها شطيات وحَرَّاقات(١) وَزَبارب(٢) وطَيَّارات فى عُدَّةٍ وعُدَد فسألتُ لِمَنْ هذا ؟ فقيل : للوزير المهلبى ، ونعتوا لِى صَاحبى ؛ فوصلتُ إليه حتى رأيته ، فـكتبتُ إليه رقعة وتوصّلت حتى دخلتُ فسلّمت، وجلستُ حتى خلا مجلسه، فدفعتُ إليه الرقعةَ وفيها :

ألَا قُلْ للوزير بلا احْتِشَامٍ　　مقال مُذَكِّرٍ ما قد نَسِيـهِ

أتذكر إذ تقولُ لضيقِ عيشٍ(٣)　　ألَا مَوْتٌ يُبَاعُ فأَشْتَرِيهِ

فنظر إلىَّ وقال: نعم ، ثم نهض وأنْهَضَنى معه إلى مجلس الأُنس ، وجعل يُذاكرنى ما مَضَى ، ويَذْكُرُ لى كيف ترقّت حاله ، وقُدِّم الطعام فطَعِمْنَا ، وأَقبل ثلاثةٌ من الغلمان على رأس أحدهم ثَلاثُ بِدَرٍ(٤) ، ومع الآخر تخوتٌ وثِياب ، ومع الآخر طِيبٌ وبخور ، وأقبلت بَغْلَة رائعة بسَرْجٍ ثقيل ؛ فقال : يا أَبَا علىّ ؛ تفضَّلْ بقبول هذا ، ولا تتخلَّف عن حاجةٍ تَعرِضُ لك . فشكرته وانصرفت ، فلما همَمْتُ بالخروج من الباب استردّنى وأنشدنى بديها :

رقّ الزمانُ لفاقتى　　ورَثَى لطول تحرُّقى

وأنالنى ما أرْتجى(٥)　　وأجارَ ممّا أتَّقى

فلأغفرنَّ له الـكثيـ　　ـرَ من الذنوب السُّبَّقِ

إلّا جنايَتَـه التى　　فعلَ المشيب بمَفْرَقى

***

(١) الحراقات : سفن بالبصرة وفيها مرامى نيران يرمى بها العدو . والطيارات : فرس طيار: حديد الفؤاد ماض كأنه يطير .　(٢) هكذا فى ط ، ق . وفى ت : وزنارات . وفى هامش س: أنواع من السفن .　(٣) فى ت ، س : لضيق حال .

(٤) البدر: جمع بدرة، وهى كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم.　(٥) فى س: ماأشتهى.

العقول

قال بعض العلماء : العقول لها صُوَرٌ مثل صورِ الأجسام ، فإذا أَنْتَ لم تسلُكْ بها سبيلَ الأدب حارَتْ وضلَّت ، وإن بعثْتَها فى أَوْدِيتها كلّت وملّت ، فاسلُكْ بعقلك شِعَاب المعانى والفهم ، واستبقه بالجِمَام [١] للعلم ، وارْتَد لعقلك أَفْضلَ طبقاتِ الأدب ، وتَوَقَّ عليه آفةَ العَطَب ؛ فإنَّ العقلَ شاهدُك على الفَضْل ، وحارسُك من الجهل .

واعْلَمْ أنَّ مغارِسَ العقول كمغارس الأشجار ، فإذا طابت بِقَاعُ الأرض للشجر زكا [٢] ثَمرُها ، وإذا كَرُمَت النفوسُ للعقول طاب خَيْرُها ، فاغْمُرْ نفسَك بالكرم تَسْلَمْ من الآفةِ والسقم .

واعلَمْ أَنَّ العقلَ [الحسن] [٣] فى النفسِ اللئيمة بمنزلة الشجرةِ الكريمة فى الأرض الذميمة ينتفع بثمرها عَلَى خُبْثِ المَغْرِس ؛ فاجْتَنِ ثمرَ العقول وإن أتاك من لِئَام الأنفس . [وقال النبي عليه السلام : رب حامل فقه إلى من هو أوعى له . وقيل: رب حامل فقه غير فقيه . ورب رمية من غير رام] [٣] .

الحكمة ضالة المؤمن

وقيل : الحِكْمَةُ ضالَّةُ المؤمن ، أينما وجدها أَخذها . وسمع الشعبى الحجاج بن يوسف وهو على المنبر يقول : أمّا بعد ، فإنّ الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناءَ لما كُتِب عليه البقاء ، ولا بَقَاء لما كُتِبَ عليه الفناء ، فلا يغرّنكم شاهدُ الدنيا عن غائبِ الآخرة ، وأَقْصِرُوا من الأمل ، لِقِصَرِ الأجل . فقال : كلامُ حكمة خرج من قلبٍ خراب ! وأخرج ألواحَه فكتب . وقد روى ذلك عن سفيان الثورى .

وقد سُمع إبراهيم بن هشام وهو يَخْطُب على المنبر ويقول : إن يوماً أشاب الصغير ، وأَسْكَر الكبير ، ليومٌ شرُّه مُسْتَطِير !

---

(١) الجمام : الراحة . (٢) زكا : نما . (٣) من ت .

[وصف الكتب]

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ[1]: الكتاب وعاءٌ مُلِئَ عِلْما، وظَرْف حُشِى ظَرْفا، وبُسْتَان يحمل فى رُدْن[2]، ورَوْضَة تقلب فى حِجر، ينطق عن الموتى، ويُتَرْجِم كلامَ الأحياء.

وقال: من صنَّف كتابا فقد استهدف[3]؛ فإن أَحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استقذف[4].

وقال: لا أعلم جاراً أبرّ، ولاخليطاً أنْصَف، ولا رفيقا أطوع، ولا مُعَلِّما أخضع، ولا صاحبا أظْهَر كفاية، وأقلَّ جناية، ولا أقلَّ إملالا وإبراما، ولا أقلّ خلافا وإجراما، ولا أقلّ غِيبةً، ولا أبعد من عَضِيهة[2] ولا أكثر أعجوبة وتصرّفا، ولا أقل صَلَفا وتكلّفا، ولا أبعد من مِرَاء، ولا أترك لِشَغَب، ولا أزهد فى جِدال، ولا أكفّ عن قتال، من كتاب. ولا أعلم قرينا أحْسَن مُواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحْضر معونة، ولا أقلّ مئونة، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أجمع أمْراً؛ ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مُجْتَنًى، ولا أسرع إدْرَاكا فى كل أَوَانٍ، ولا أوجد فى غير إبّان، من كتاب. ولا أعلم نِتَاجاً فى حداثة سنِّه، وقُرْبِ ميلاده؛ ورِخَص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع من التدابير الحسنة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمودِ الأخبارِ عن القرون الماضية، والبلاد المُتَرَاخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يَجْمَع الكتابُ.

وصف المأمون للكتاب

ودخل الرشيد على المأمونِ وهو يَنْظُر فى كتابٍ، فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب يَشْحَذ الفِكْرَة ويُحْسِنُ العِشْرة. فقال: الحمدُ لله الذى رزَقَنِى من يرى بعَيْن قلبه أكثرَ مما يرى بعين جسمه.

وصف الكتب لبعض الأدباء

وقيل لبعض العلماء: ما بَلغَ من سرورك بأدبك وكُتُبك؟ فقال: هى إن خَلَوْت لذّتى، وإن اهتممتُ سَلْوَتى، وإن قلتَ: إنَّ زَهْرَ البستان، ونَوْر الجِنان، يَجْلُوَان

---

(١) النويرى: ٧ — ١٧. (٢) الردن: الكم. (٣) استهدف: صير نفسه هدفا.
(٤) استقذف: عرض نفسه للقذف. (٥) العضيهة: الإفك والبهتان.

الأبصار ، ويُمتِعان بحسنهما الألحاظ ، فإنّ بستانَ الكتب يَجلُو العقل ، ويشحَذُ الذِّهْن ، ويُحْيِي القلب ، ويقوِّي القريحة ، ويُعِينُ الطبيعةَ ، ويَبْعَثُ نتائج العقول، ويستثير دفائِنَ القلوب ، ويُمتِعُ في الخَلْوَةِ ، ويُؤْنِسُ في الوَحْشَة ، ويُضحِكُ بنوادره ، ويَسُرُّ بغرائبه ، ويفيد ولا يَستفيد ، ويُعطِي ولا يأخذ ، وتَصِلُ لذّته إلى القلب ، من غير سآمة تُدرِكُك ، ولا مشقةٍ تعرض لك .

للمتنبي

وقال أبو الطيب المتنبي (١) :

وللسِّرِّ مِنِّى مَوْضِعٌ لا يَنالُهُ	نديمٌ ولا يُفْضِى إليه شَرَابُ
وللخَوْدِ منى ساعةٌ ثم بَيْنَنَا	فَلَاةٌ إلى غَيْرِ اللقاء تُجَابُ (٢)
وما العِشْقُ إلاّ غِرَّةٌ وطَمَاعَةٌ	يُعَرِّض قَلْبٌ نفسَه فيُصَابُ
وغَيْرُ فؤادِى للغَوَانِى رَمِيَّةٌ	وغَيْرُ بَنَانِى للرِّخَاخِ رِكَابُ (٣)
تركْنا لأطرافِ القَنَا كلَّ لَذَّةٍ (٤)	فليس لنا إلاَّ بهنَّ لِعاب (٥)
نُصَرِّفُه للطَّعْنِ فَوْقَ سَوَابِحٍ (٦)	قد انقَصَفَتْ فيهنَّ مِنْهُ كِعَابُ
أَعَزُّ مكانٍ في الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ	وخَيْرُ جَلِيسٍ في الزَّمَانِ كِتَابُ

فِقر في الكتب

إنفاق الفِضَّة على كُتب الآداب يُخلفك عليه ذهب الألباب. إنّ هذه الآداب شَوَارد ، فاجعلُوا الكتبَ لها أزِمَّة . كتاب الرجل عُنوان عقله ، ولسانُ فضله . ابن المعتز - مَن قرأ سَطْراً من كتاب قد خطّ عليه فقد خان كاتِبَه؛ لأنّ الخطَّ يحرز ما تحته. بزرجمهر - الكتبُ أَصْدَاف الحِكَم ، تنشقُّ عن جواهر الكلم . بعض الكتاب -

(١) ديوانه : ١-١٩٢ ، المختار من شعر بشار: ١٥٤ . (٢) الخود : الجارية الناعمة . والفلاة : الأرض المنقطعة البعيدة عن الماء . تجاب : تقطع . (٣) الرخاخ : من أدوات الشطرنج . (٤) في الديوان : كل شهوة . (٥) اللعاب : الملاعبة .
(٦) في الديوان : حواذر .

إعجام الخطّ يمنع من استعجامه ، وشَكْله يؤمن من إشكاله . كأن هذا الكاتب نحا إلى قول أبى تمام [(١)] :

ترى الحادثَ المستعجِم الخطب معجَماً لديه ومشكولاً إذا كان مُشْكِلاَ [(٢)]

ما كُتب قرَّ ، وما حُفِظ فرَّ . الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة .

وقال ابن المعتز يصف كتابا [(٣)] :

وذى نكَت [(٤)] موشَّى نمّقَته [(٥)] وحاكَتْه الأنامل أىَّ حَوْكِ

بشكل يرْفَع الإشكالَ عنهُ كأنّ سطورَه أغْصانُ شَوْكِ

جملة من ألفاظ أهل العصر

فى صفة الكتب وتهاديها ، وما يتعلق بأسمائها ومعانيها

حضرة مولاى تَجِلُّ عن أنْ يُهْدَى إليها غيرُ الكتب، التى لا يترفّع عنها كبير، ولا يَمْتَنِعُ منها خطير ، وقد فكّرت فيما أنفذت [(٦)] به مقيما للرَّسْم فى جملة الخدَم، وحافِظا للاسم فى غمارِ الحَشم ، فلم أجِدْ إلا الرِّقَّ الذى سبق ملْكُه له والمال الذى مَنَحه وخوَّله ، فعدَلْتُ إلى الأدبِ الذى تَنْفُقُ سوقُهُ [(٧)] بباب سيدنا ولا تَكْسد [(٨)] ، وتهبّ ريحُهُ بجانبه ولا ترْكُد. وأنفذت كتابى هذا راجياً أن أشرف بقبوله، ويوقّع إلىَّ بحصوله ؛ ولمَّا وجب على ذوى الاختصاص لسيدنا إهداء ما جرت العادةُ بتسابق الأولياء إلى الاجتهاد [(٩)] فى إهدائه ، وجب العدول فى إقامة رسم الخدمة إلى اتباع

---

(١) ديوانه : ٢٥٣ . (٢) فى الديوان : وإن . المشكول : المعلم بالشكل ، والمشكل: المشتبه . (٣) ديوانه : ٢-١٢٦ ، ورواية البيتين فى الديوان :

ودونك موشى نمته ...

بشكل يأخذ الحرف المحلى

(٤) هكذا فى س ، ط ، وفى ق : وذونكت ، وفى ت : ودونك .

(٥) فى س ، ت : نمنمته (٦) فى ت : فيما أتقرب به

(٧) نفقت السوق : قامت (٨) فى ط : تكد ، وفى ت : ولا ينسد ، وهذه رواية س

(٩) فى ت ، س: الاحتشاد .

ما صدر عنه من الرخصة فيما تسهل كلفته ، وتجلّ عند ذوى الألباب قيمتُه ، وتحلو ثمرتُه ؛ وهو علمٌ يُقْتَنَى ، وأدبٌ يُجْتَنَى . قال أبو الحسن بن طباطبا العلوى :

لا تُنْكِرَنْ إهداءنَا لك منطقا ... منك استفدنا حُسْنَه ونظامهُ

فاللهُ عزَّ وجلّ يشكرُ فِعْلَ مَنْ ... يتلو عليه وَحْيَه وكلامهُ

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم مهْرَجان هدية قيمتُها ألف ألف درهم ، وكتب :

على العبد حقٌّ فهو لابدَّ فاعله ... وإن عظُم المَوْلَى وجَلَّتْ فضائلُه

ألَمْ ترنا نُهْدِى إلى الله مالَهُ ... وإن كان عنه ذَا غنًى وهو قَابِلُه

وقال أبو الفتح البستى (١) :

لا تُنْكِرَنَّ إذا أهديت نحوك مِن ... علومك الغرّ أو آدابك النُّتَفَا

فقيِّم البَاغِ (٢) قد يُهدِى لمالكِهِ ... برسم خدمته من بَاغِه التُّحَفَا

الإهداء إلى الموالى للصابى

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى عضد الدولة فى هذا المعنى : العبيد تُلاطِف ولا تُكَاثِر الموالِى فى هَدَاياها، والموالى تَقْبَل الميسور منها قبولا هو محسوبٌ فى عطاياها . ولما كان — أدام الله تعالى عزّه — مبرِّزًا على ملوك الأرض فى الخطر الذى قَصَّروا عنه شديداً ، والسَّعْى (٣) الذى وقفوا منه بعيداً ، والآداب التى عَجزوا عن استعلامها فَضْلًا عن عِلْمها ، والأدوات التى نَكِلُوا (٤) عن استفهامها فضلا عن فَهْمها ، وجب أن يُعْدَل عن اختياراتهم فيما تحظَى به الجسومُ البهيمية ، إلى اختيارِه فيما تحظَى به النفوسُ العليّة ، وعما يَنْفُق فى سوقهم العامية ، إلى ما يَنْفُق فى سوقه الخاصية ، إفراداً لرُتْبَتِه العليا،

(١) يتيمة الدهر : ٤ — ٣٠٧ (٢) الباغ : الطيب .
(٣) فى ط : والمدى ، وهذه من ت ، س . (٤) نكل : نكص وجبن .

وغايته القصوى ، وتميزاً له عمن لا يَجْرِى معه فى هذا المضمار ، ولا يتعلّقُ منه بالغُبَار؛ وقد حملت إلى الخزانة ـ عمرها الله ـ شيئاً من الدفاتر وآلة النجوم ، فإنْ رأَى مولانا أن يتطوّل على عَبْدِه بالإذن فى عَرْضِ ذلك عليه مشرفا له وزائدا فى إحسانِه إليه فعل إنْ شاءَ الله تعالى .

للمتنبي

وأَهْدى أبو الطيب المتنبي إلى أبى الفضل بن العميد فى يوم نوروز قصيدة مدحه فيها يقول فى آخرها [(١)] :

كَثُرَ الفِكْرُ كيفَ نُهْدِى كما تهـــدى [(٢)] إلى ربِّها الرئيسِ عِبَادَهْ
والّذى عندَنا من المالِ والْخَيْـــلِ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وقِيَادُهْ
فبعثنا [(٣)] بأَرْبَعين مِهَار كُلُّ مُهْرٍ مَيْدَانُه إنْشَادُهْ
فارْتَبِطْهَا فإنَّ قَلْباً نَمَاهَا [(٤)] مَرْبَطٌ تَسْبِقُ الجيادَ جِيَادُهْ

وفى هذه الكلمة يقولُ وقد احتفل فيها ، واجتهد فى تجويد ألفاظها ومعانيها ، فتعقّب عليه أبو الفضل فى مواضع وقف عليها فقال [(٥)] :

هل لعُذْرِى إلى الهُمَام أَبِى الفَضْـــلِ قَبُولٌ سَوَادُ عَيْنِى مِدَادُهْ
أَنَا من شدَّةِ الحياءِ عَلِيلٌ مَكْرُمَاتُ المُعِلّهِ [(٦)] عُوّادُهْ
ما كَفَانِى تَقْصِيرُ ما قُلْتُ فِيهِ عَنْ عُلاهُ حتى ثَنَاه انْتِقَادُهْ
ما تَعَوَّدْتُ أن أَرَى كأَبِى الفَضْـــلِ وهَذا الّذى أَتَاهُ اعْتِيَادُهْ [(٧)]
غَمَرَتْنِى فوائدٌ شاءَ منها [(٨)] أَن يكونَ الكلامُ ممّا أفادَهْ
ما سَمِعْنَا بمن أحَبَّ المطايا فاشتهى أن يكونَ مِنْها فؤادُهْ

وقد كان مدحه بقصيدته التى أولها [(٩)] :

بادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أم لم تَصْبِرَا وبُكَاكَ إن لم يَجْرِ دَمْعُكَ أوْجَرَى

---

(١) ديوانه : ٢ ـ ٥٦ . (٢) فى الديوان : كما أهدت . (٣) فى الديوان : قد بعثنا .
(٤) نماها : صنعها . (٥) ديوانه : ٢ ـ ٥٣ . (٦) المعله : المعل له .
(٧) فى ت : وهذا الذى أنا اعتاده . (٨) فى الديوان ، س : فيها .
(٩) ديوانه : ٢ ـ ١٦٠ .

وفيها معان مخترعة ، وأبيات مبتدعة ، يقول فيها (١) :

مَن مُبلِغ الأعْرَابِ أنّى بعدَها ... جالَسْتُ رَسْطَالِيسَ والإسْكَنْدَرَا (٢)

ومَلِلتُ نَحْرَ عِشَارِها فأضَافَنِي ... مَنْ يَنحَرُ البدرَ النُّضَارَ لمن قَرَى (٣)

وسمِعْتُ بطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... متملِّكًا متَبَدِّيًا متحَضراً

ورأيت (٤) كلَّ الفاضِلِينَ كأنَّما ... رَدَّ الإلهُ نفوسَهم والأعْصُرَا

نُسِقُوا لنا نَسقَ الحسابِ مقدَّماً ... وأَتَى فذلكَ إذْ أتيتَ مُؤَخَّرَا

وفيها يقول (٥) :

فدعاكَ حُسَّدُكَ الرئيسَ وأَمْسَكُوا ... ودَعَاكَ خالقُك الرئيسَ الأَكْبَرَا

خَلَفَت صِفَاتُك فى العيونِ كلامَهُ ... كالخَطِّ يَملأُ مِسْمَعَىْ مَنْ أبْصَرَا

أخذه من قول الطائى يصف قصائده (٦) :

بِقُربٍ (٧) يراها مَنْ يَرَاها بسمعهِ ... ويَدْنُو إليها ذوالحِجَا وهوشَاسِعُ

[فقر فى وصف الكتب]

كتابٌ كتب لى أماناً من الدّهر، وهنّانى أيام العمر . كتاب أوجب من الاعتداد فوق الأعداد ، وأودع بياض الوداد سواد الفؤاد . كتابٌ النظر فيه نعيمٌ مقيم ، والظفَرُ به فَتْح عظيم . كتابٌ ارتحت لِعيَانه (٨)، واهتززت لِعُنْوانِه . كتابٌ هو من الكتبِ الميَامِين، التى تأْتِى من قِبل اليمين. كتاب عددته من حُجول العُمْر وغُرَرِه (٩)، واعتدَدْتُه من فُرَصِ العيش وغرَرِه . كتابٌ هو أنفَس طالع ، وأكْرَم متطلَّع ، وأحْسَن واقع ، وأجلّ متوقع . كتاب لو قُرِئ على الحجارة لانفَجرت ، أو على الكواكب لانتَثَرت . كتابٌ كِدت أُبْليه طَيًّا ونَشرًا ، وقبّلته أَلْفا ، ويدَ حامله

---

(١) ديوانه : ٢ ــ ١٧٠ . (٢) رسطاليس : حكيم رومى ، وأصله أرسطاطاليس .

(٣) البدر : جمع بدرة وهى الكيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم .

(٤) فى الديوان : ولقيت . (٥) ديوانه : ٢ ــ ١٦٨ . (٦) ديوانه : ٤٨٠ .

(٧) فى الديوان و ت : بغر ، ويريد بها قصائده الغراء . (٨) لمشاهدته .

(٩) جمع غرة ، وفى ت : من حجول الدهر وغرره .

عشراً . كتابٌ نسيت لحسنه الرَّوْضَ والزَّهر ؛ وغفرتُ للزمان ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر . كتاب أَمْلَتْه هِزَّة المَجْدِ على بنانك، ونَطَقَ به لسانُ الفَضْل عن لسانك. أنا أَلْتَقِط من كلِّ حَرْف تُدِيرُه (١) أناملُك تُحْفة ، وآخُذُ من كلِّ سَطْرٍ تتجشَّم تخطيطه نُزْهة . إذا قرأت من خطِّك حَرْفا وجدتُ على قلبي خِفّا (٢) ، وإذا تأمّلت من كلامك لَفْظا ازددت من أُنْسِي حَظّا . كتاب كتبَ لى أماناً من الزمان ، وتوقيعٌ وقع منِّى مَوْقِع الماء من العطشان . كتاب هو تَعِلَّة المسافر (٣) وأُنْسَةُ المستوحش ، وزبدة الوصال ، وعُقْلة المستَوْفِز (٤) . كتاب هو رُقية القلب السليم (٥) ، وغرّة العيش البهيم (٦) . كتاب هو سَمَر بلا سَهَر ، وصَفْوٌ بلا كَدَر . كتاب تمتّعت منه بالنعيم الأبيض ، والعيش الأخضر ، واستلمته اسْتِلَام الحجر الأسود ، ووكلت طرفى من سُطُوره بوَشْىٍ مهلّل ، وتَاج مُكَلَّل ، وأَوْدَعْت سَمْعِى من محاسنه ما أَنْسَانى سماعَ الأغانى من مطربات الغوانى . نشأت سَحَابة من لفظك غَيْمُها نِعْمةٌ سابغَة (٧) ، وغَيْثُها حِكْمَةٌ بالغة ، سقَتْ رَوْضَةَ القلب ، وقَدْ جهدتها (٨) يَدُ الجَدْبِ ؛ فاهتزَّتْ ورَبَتْ ، وا كتست ما ا كتَسَبَت . كتابٌ حسبته ساقطاً إلىّ من السماء ، اهتزازاً لمَطْلَعه ، وابتهاجاً بحُسْنِ مَوْقِعِه ، تناولتُه كما يُتناول الكتابُ المرقومُ ، وفضَضْتُهُ كما يُفَضُّ الرحِيقُ (٩) المختوم . كتابٌ كالمشترى شَرُف به المسير ، وقَميص يوسفَ جاء به البشير . كتابٌ هو من الحسن رَوْضَة حَزْن (١٠) ، بل جَنَّة عَدْن ، وفى شَرْحِ النفس وبَسْطِ الأُنس بَرْدُ الأكباد والقلوب وقميص يوسف فى أجفان (١١) يعقوب .

---

(١) فى ت : تدبره . (٢) الخف : الارتياح . (٣) تعلة المسافر : مايتعلل ويتلهى به المسافر . (٤) استوفز فى قعدته : انتصب فيها غير مطمئن ، أو استقل على ركبتيه ولما يستو قائما وقد تهيأ للوثوب . (٥) السليم: الملدوغ . (٦) البهيم : المظلم .
(٧) فى ت : عينها نعمة متتابعة . (٨) فى ق ، ت : جهد بها . (٩) الرحيق : الخمر .
(١٠) الحزن : المرتفع . (١١) فى ت : إذ وافى .

قد أهديت إلىّ محاسنَ الدنيا مجموعةً فى ورقه، ومباهج الحلى والحُلَل محصورة فى طِبقه . كتابٌ ألصقته بالقَلْبِ والكبد ، وشممته شمَّ الولد (١) . وردَ منكَ المِسْكُ ذكيا ، والزَّهر جَنِيّا ، والماء مريّا (٢)، والعيش هنيًّا ، والسحر بابليّا . كتاب مَطلَعه مطلع أهِلَّة الأعياد ، وموقعه مَوْقع نَيْلِ المراد . كتاب وجدته قصيرَ العمر ، كليالى الوِصال بعد الهَجْر، لم أبدأ به حتى استكمل ، وقارَب الآخِر منه الأوّل .

كتاب منتقض الأطراف ، منقطع الأكتاف ، أبْتَر الجوارح ، مُضْطَرِب الجوانح . كتابٌ كأنه توقيع متحَرِّز ، أو تَعْرِيض مُتَبرِّز (٣)، كاد يلتقى طَرَفاه، ويتقارب مُفتَتحه ومُنْتَهاه . كتاب التقَتْ طرَفاه صِغَرا ، واجتمعت حاشيتاه قِصرا . ما أظننى ابتدَأْتُه حتى ختَمْتُه ، ولا استفتحْتُه حتى أتممته (٤) ، ولا لمحته حتى استوفَيْتُه ، ولا نشرتَه حتى طويته ، وأَحْسبنى لو لم أجوِّد ضبطه (٥) ولم أُلْزِم يَدِى حِفْظَه ، لطار حتى يختلطَ بالجوّ فلا أَرى منه إلا هباءً منثورا ، وهواءً منشوراً . كتاب حسبته يطيرُ من يدى لخفّته، ويلطف عن حِسّى لقلّته، وعجبت كيف لم تحمِلْه الرّياح قبل وصوله إلىّ ، وكيف لم يختلط بالهواء عند حصوله لدىَّ . كتاب قصَّ الاقتصارُ أَجنحته ، فلم يدعْ له قوادمَ ولا خَوَافِى (٦)، وأخذ الاختصار جثته (٧) ، فلم يبق أَلْفاظاً ولا معانى . طلعَ كتابُك كإيماء بطَرْف ، أو وَحْىٍ بكفّ .

وقال أبو العباس عبدالله بن المعتز : استعرت من على بن يحيى المنجم جُزْءاً فيه أخبار معبد بخط حماد بن إسحاق الموصلى ، وكان وعدنى به ، فبعث إلىّ بستّ ورقات لِطَاف ، فرددتها وكتبت إليه : « إن كنتَ أردتَ بقولك جُزْءًا الجزء الذى لا يتجزّأ فقد

---

(١) فى ت : الوالد للولد . (٢) المرى : المرىء الهنىء .

(٣) برز الرجل : فاق أصحابه فضلا أو شجاعة ، وفى ت ، س : تعريض متحرز ، وتوقيع متبرز . (٤) فى ت : استتممته . (٥) فى ت : لفظه .

(٦) القوادم : ريشات فى مقدم الجناح . والخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت .

(٧) فى ت : جدته .

أصبت ، وإن كنت أردتَ جُزْءًا فيه فائدةٌ للقارئ ، ومُتْعَةٌ للسامع ، فقد أحلْتَ (١) ؛ وقد ردَدْتُه عليك بعد أن طار اللَّحْظ عَلَيْهِ طَيرة .

فأجابنى : إذا كان السِّفر عِنْدَكَ منْجاة فما أصْنع ؟

[المحادثة والمجالسة]

وقال أبو العباس : دخل رجلٌ على الحسن بنِ سهل بعد أن تأَخَّر عنه أياما ، فقال: ما يَنْقَضِى يومٌ من عُمْرِى لا أراك فيه إلا علمت أنه مبتورُ القَدرِ ، منحوس الحظّ ، مَغْبُون الأيام .

فقال الحسن: هـذا ؛ لِأَنّك توصل إلى بحضورك سُروراً لا أجِدُه عند غيرك ، وأتَنَسَّم من أرواح عِشْرَتك ماتجدُ الحواسُّ به بُغْيَتَها ، وتستوفى منه لذَّتها ، فنفسُك تألف منى مثل ما آلفه منك .

وكان يقال : محادثة الرِّجال تَلْقِيح الألباب .

وقال ابن الرومى (٢) :

ولقد سَئِمْتُ مَآرِبى فـكأَنَّ أطيبَهَا خَبِيثُ
إلاَّ الحديثَ فإنّهُ مِثْلُ اسْمِهِ أبداً حَدِيثُ

قال مخارق : لقينى أبُو إسحاق إسماعيل بن القاسم قبل نسكه ، فقال : أنا والله صَبٌّ بك ، ولُوع (٣) إليك ، مغمورُ القلب بشكرك واللسانِ بذِكْرك ، متشوِّف إلى رُؤيتك (٤) ومفاوضتك ، وقدطالتِ الأيامُ على ماأعد به نَفْسِى من الاجتماع معك ، ومن قضاء الوَطَرِ منك؛ فما عندك ؟ أنا الفِدَاء لك ، أتزورنى أم أزورك ؟

قلت: جعلنى الله فِدَاك ، ما يكونُ عند مَنْ هو منك بهذا الموضع وفى هذا المحلّ إلا

(١) أحال : أتى بالمحال . (٢) ديوانه : ٢ ــ ١٦ ، المختار من شعر بشار : ١٤٥ ، النويرى : ٢ ــ ٧٠ . (٣) فى ت : هلوع . (٤) فى ت : متشوف إلى قربك ، وفى س : متشوق .

الانقيادُ إلى أمرك ، والسمعُ والطاعةُ لك ، ولولا أن أسىء الأدبَ فى أمرٍ بدأْتَ فيه بالفضل لقلت: إن كثيرَ ما ابتدأتَ به من القول يقل فيما عندى من الشوقِ إليك ، والشَّغَف بك دون ماحرَّك هذا القولُ منى، فوجبت لك به المنَّة علىّ، وأنا بين يديك؛ فَاثْنِ عِنَانى إلى ما أرَدْت ، وقدْنِى كيف شئت ، تجدنى كما قال القائل :

ما تَشْتَهِيهِ فإنّى اليوم فاعلُهُ والقلبُ صَبٌّ فما جَشَّمتَه جشِما

وذكر سهل بن هارون رجلا ، فقال : لم أرَ أحسن منه فَهْماً لجليل ، ولا تفهماً لدقيق ـ أشار إليه أبو تمام فقال [1] :

وكنت أعزّ عزًّا من قنوع تعرَّضَه صَفوح من مَلول [2]

فصرت أَذلّ من معنًى دقيقٍ به فَقْرٌ إلى ذِهنٍ [3] جليلِ

وقال سعيد بن مسلم للمأمون : لو لم أَشْكُرِ الله تعالى إلّا على حُسْنِ ما أَبْلانِى من أَمير المؤمنين من قَصْدِه إلىَّ بحديثه ، وإشارته إلىّ بطَرْفِه لقد كان فى ذلك أعظمُ الرِّفْعة ، وأرفعُ ما توجبه الحرمة . فقال[4] : يفعل أميرُ المؤمنين ذلك ؛ لأن أمير المؤمنين يَجِدُ عندك من حُسْنِ الإفهام إذا حَدّثت وحسن الفهم إذاحُدّثت مالايجدُه عند أحَدٍ ممن مضى ، ولايظنُّ أنه يجده عندأحدٍ ممن بَقِى ، فإنك لتَسْتَقْصِى حديثى ، وتقفُ عند مقاطع كلامى ، وتُخْبِرُ بما كنت أغفلته منه .

وقال المتوكل لأبى العيناء : ما تحسنُ ؟ قال : أفهَم وأُفهِم .

وقال بعض الحكماء لتلميذه ، وقد ضَرب الموسيقى : أفهمت ؟ قال: نعم . قال: بل لم تفهم ؛ لأَنى لا أَرى عليك سرورَ الفهم ! وقد قيل : من نظر إلى الربيع وأنواره ، والروض وأصْبَاغه ولم يبتهج كان عديمَ حِسّ أو سقيم نَفْس .

---

(١) ديوانه : ٥٠٣ . (٢) فى الديوان : تعوضه صفوح عن جهول .

(٣) فى الديوان : إلى فهم جليل . (٤) أى المأمون ـ هامش س .

شجى الصوت

ومرّ أبو تمام بابَر شهر [١] من أَرْض فارس فسمِعَ جارية تغنّى بالفارسية فشَاقه شجىّ الصوت فقال [٢] :

ومُسْمِعَةٍ تروقُ السَّمْعَ حسناً [٣] ... ولم تُصْمِمْهُ لا يصمم صَدَاها

لوت [٤] أوتارها فشجَتْ وشاقت [٥] ... فَلَوْ يَسْطِيعُ حاسدُها فدَاهَا

ولم أَفْهَم معانيهاَ ولكن ... وَرَت كبدى فلم أَجْهَل شَداها [٦]

فكنت [٧] كأنّنِي أَعمى معنًّى ... يُحِبُّ الغانياتِ ولا يَرَاهَا

عشق الآذان

قال أبو الفضل أَحمد بن أبىطاهر : قلت لأبى تمام : أَأَخذت هذا المعنى من أحد ؟ قال : نعم ، أخذتُه من قول بشار بن برد :

ياقومِ أذنى لبعض الحىِّ عاشقةٌ ... والأذن تَعْشق قبلَ العينِ أحيانا

قالوا بِمَنْ لاترى تَهْذِى؟ فقلت لهم ... الأذن كالْعَيْن تُوفِى القلبَ مَا كانَا

وقال بشار أيضا فى هذا المعنى :

قالت عَقِيل بن كعب إذ تعلَّقَها ... قَلْبِي فأَضْحَى به من حُبّها أثرُ

أَنَّى ولم ترها ! تَهْذِى ! فقلت لهم ... إنّ الفؤادَ يرَى مالا يَرَى البصرُ

وقال :

يزهِّدنى فى حُبِّ عَبْدَةَ معشرٌ ... قلوبُهُم فيها مخالِفَةٌ قلبى

فقلت دَعُوا قلبي وماأختارَ وارْتَضَى ... فبالقَلْبِ لابالعين يُبْصِرذواللُّبِّ [٨]

وماتُبصِرُ العينان فىموضع الهوى ... ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

---

(١) فى ت ، س : بأبرسهر . (٢) ديوانه : ٤٦٧ .

(٣) فى الديوان : ومسمعة يحار السمع فيها . وفى س : تفوق .

(٤) فى ت: مرت . (٥) فى الديوان : مرت أوتارها نشفت وشاقت .

(٦) فى الديوان ، ت ، س : فلم أجهل شجاها . (٧) فى الديوان : فبت ...

(٨) فى ت ، س : ذو الحب .

وقد قال أبو يعقوب الخريمي في هذا المعنى ، وكان قد عوِر ثم عَمِيَ ، وقيل إنها للخليل بن أحمد :

قالت أَنهزأ بي غَدَاة لقيتها ... يا للرِّجَالِ لصَبْوة العميانِ
فأَجبتها : نفسِي فداؤك إنما ... أُذْني وعيني في الهـوى سِيَّانِ

وقريب من هذا قول الحـكم بن قنبر [١] وإن لم يكن منه : [٢]

إن كنتَ لستَ معي فالذكر منك معي ... يَرْعاك قلبي وإن غُيِّبْتَ عن بَصَرِي
العينُ تُبْصِرُ من تَهْوَى وتفقدهُ ... وناظرُ القلب لا يَخْلُو من النظر

وقال آخر [٣] :

أَمَا والَّذِي لوشاءَ لم يَخْلُقِ الهَوَى [٤] ... لئِن غِبْتَ عن عَيْـنِي فما غِبْتَ عن قلبي
تُرِينيك عَيْنُ الوهم [٥] حتى كأنني ... أُنَاجِيك من قُرْبٍ وإن لم تكن قُرْبِي [٦]

وقال أبو عثمان سعيد بن الحسن الناجم [٧] :

لئن كانَ عن عينيَّ أحمـدُ غائبا ... فما هو عن عَيْنِ الضمير بغائبِ
له صورةٌ في القلب لم يُقْصِها النوى ... ولم تتخَطَّفْها أَكفُّ النوائب
إذا ساءني منه شحوط [٨] مَزاره ... وضاقت بقلبي في نَوَاهُ [٩] مَذَاهبي
عطفتُ على شخصٍ له غيرِ نازحٍ ... مَحَلَّتُه [١٠] بين الحَشَا والتَّرائبِ

---

(١) في ت : قتيبة . (٢) المختار من شعر بشار : ٥٠ .
(٣) عيون الأخبار : ٤ ــ ٨٦ ، المختار من شعر بشار : ٥٠ . وهما لأبي العتاهية .
(٤) في عيون الأخبار : النوى . (٥) في س : عين الذكر .
(٦) في عيون الأخبار :
يوهمنيك الشـوق حتى كأنني ... أناجيك عن قرب وما أنت في قربي
(٧) المختار من شعر بشار: ٥٣ ، معجم الأدباء : ٤ ــ ٢٣١ . (٨) الشحوط : البعد . وفي ت ، س : نزوح زيارة . (٩) في ت ، س : عليّ في نواه .
(١٠) المحلة : المنزل .

طرفة

وذكر أبو عبيدة كَيْسَان مُسْتَمْلِيه فى بعض الأمر فقال : مافَهِم ، ولو فهم لوَهِم[١]. وكان كيسان يوصف بالبَلادة والغَفْلة .

قال الجاحظ : كان يكْتُبُ غيرما يَسْمَع ، ويستفتى[٢] غير ما يَكْتب ، ويَقْرأ غير ما يَسْتَفتى ، ويُمْلِى غَيْرَ ما يقرأ ، أمليت عليه يوما :

عجبت لمعشرٍ عدلوا بمعتمرٍ أَبا عمرِ

فكتب أبا بشر ، وقرأ أبا حفص ، واستَفْتَى أبا زَيْد .

أدب الحديث والسماع

قال أبو عباد : للمحدِّثِ على جليسه السامع لحديثه أنْ يجمع له بَالَه ، ويُصغِى إلى حديثه ، ويَكْتُم عليه سِرَّه ، ويَبْسُط له عُذْره . وقال : ينبغى للمحدّث إذا أنكر عينَ السامع أن يستَفْهمه عن مَعْنَى حديثه ، فإن وجدَه قد أَخلص له الاستماع أتمّ له الحديث ، وإن كان لاهياً عنه حرمه حُسْنَ الإقبال عليه ، ونَفْعَ المؤانسة له ، وعرّفه بسوء الاستماع والتقصير فى حقّ المحدث .

وقال : نَشَاطُ المحدّث على قَدْر فهم المستمع .

وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : حدِّث الناس ما حَدَّجُوك[٣] بأسماعهم ، ولحظوك بأبصارهم ، فإذا رأيت منهم فُتُورا[٤] فأمسك .

وقال أبو الفتح البستى[٥] :

إذا أحْسَسْت فى لَفْظى فتوراً وحفظى والبلاغة والبيانِ
فلا تَرْتَبْ بفَهْمِى إنَّ رَقْصِى[٦] على مقدار إيقاعِ الزَّمَانِ

وقال عامر بن عبد قيس : الكلمةُ إذا خرجَتْ من القلب وقعت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تُجاوِز الآذان .

---

(١) وهم : غلط . (٢) فى ط ، س ، ق : ويستقى ، وهذا عن ت .
(٣) التحديج: التحديق. وفى ط ، ق : جدحوك . (٤) فى ت ، س : فترة .
(٥) المختار من شعر بشار : ٢١٥ ، ولابن المعتز فى ديوانه : ٣٢٦ .
(٦) فى ت : حفظى .

وقال الحسن ـ وقد سمع متكلِّما يَعِظُ فلم تَقَعْ مَوْعِظَته من قَلْبِه ولم يرقّ لها : يا هذا ؛ إن بقلبك لشرًّا أو بقلبي !

إعادة الحديث

وقال محمد بن صبيح المعروف بابن السماك لجاريته : كيف ترين ما أَعِظُ الناس به؟ قالت : هو حَسَن ، إلا أنك تكرّره ، قال : إنما أُكرِّره ليفهمه مَنْ لم يكن فَهِمه . قالت : إلى أن يفهمه البطىء يَثْقُل على سَمْع الذكى .

واستعيد ابن عباس حديثاً فقال : لولا أنى أخافُ أن أَغُضّ من بهائه ، وأُرِيق من مائه ، وأُخْلِق من جِدَّة رُوَائِه ، لأَعدته .

وقال أبو تمام الطائى يصف قصائده[1] :

مُنَزَّهة عن السَّرَق المؤدّى[2] مكرَّمة عَنِ المعنَى المُعَادِ

أخذه البحترى فقال[3] :

لا يعمل اللّفظُ[4] المكرْ رَر فيه واللفظُ[5] المردَّدْ

والإطالةُ مَمْلُولة كما يُمَلُّ التكرير .

مقطعات الحديث والسمر

وقد قال الحسن بن سهل: الآدابُ عشرة ؛ فثلاثةٌ شهرجانية ، وثلاثة أَنُوشروانية، وثلاثة عَرَبِيَّة ، وواحدة أَرْبَتْ عليهن . فأما الشهرجانية فضربُ العُود ، ولعب الشطْرَنج ، ولعب الصَّوَالج . وأما الأنوشروانية فالطّب ، والهندسة ، والفروسية . وأما العربية فالشِّعْر ، والنَّسب ، وأَيام النـاس . وأما الواحدة التى أرْبَتْ عليهنّ : فقطعات الحديث ، والسّمر ، وما يتلقَّاه الناسُ بينهم فى المجالس .

وكان يُقال : خُذ من العلوم نُتَفها ، ومن الآداب طُرَفها . وكان يقال : مقطَّعَات الأدب قُراضَاتُ الذهب .

---

(١) ديوانه : ٨١ . (٢) رواية الديوان : المورى .
(٣) ديوانه : ١ ـ ١٤٣ . (٤) فى الديوان : القول المكرر .
(٥) فى الديوان : والرأى .

وحضر بشارُ بن بُرْد مجلسا فقال: لا تجعلوا مَجْلِسَنا غِناءً كلّه ، ولا شعراً كله، ولا سَمراً كله ، ولكن انتهبوه انْتِهَابا .

وقال الحسن رحمه الله : حادِثُوا هذه القلوب فإنها سريعةُ الدّثور ، واقْدَعُوا هذه الأنفسَ فإنها طلعة[١] ؛ وإنكم إلاّ تَقْدَعُوها[٢] تَنْزِعْ بكم إلى شرِّ غاية .

وقال ازدشير بن بابك : إن للأذهان كلالا ، وللقلوب مَلالا[٣] ، ففرّقوا بين الحكمتين يكن ذلك استجماما .

ويروى فى حكمة آل داود : لا ينبغى للعاقل أنْ يُخْلِيَ نفسه من أربع : عُدّة لِمعَادِه ، وصلاحٌ لِمعَاشه ، وفِكْرٌ يقفُ به على ما يُصْلِحُه من فساده ، ولذة فى غير محرّم يستعينُ بها على الحالات الثلاث . وما أحسن ما قال أبو الفتح بن كشاجم :

عَجَبِى ممّن تَنَاهَتْ حالُهُ ... وكفاه اللهُ ذِلاّتِ الطلَبْ
كيف لا يَقْسِم شَطْرَىْ عمره ... بين حالَيْن نعيم وأَدَبْ
ساعة يُمتِع فيها نَفْسَهُ ... من غذاء وشرابٍ منتخَب
ودُنُوٍّ من دُمًى هُنَّ لَهُ ... حين يشتاقُ إلى اللّعب لعَب
فإذا ما نالَ مِنْ ذَا حَظَّه ... فحديثٌ ونشيد وكُتب
مرة جِدٌّ وأخرى راحة ... فإذا ما غَسَقَ[٤] الليلُ انْتَصَبْ
فقضى الدنيا نَهاراً حقّها ... وقضى لِله ليلًا ما وَجَبْ
تلك أَقسامٌ متى يَعْمَلْ بها ... دَهْرَهُ يَسعد ويَرشد ويُصِبْ

تقسيم الأيام عند كسرى

وقال أبو العباس محمد بن يزيد : قسّمَ كسرى أيامه فقال : يَصْلُح يوْمُ الريح للنوم ، ويوم الغَيْم للصيد، ويومُ المَطَر للشرب واللّهو ، ويوم الشمس لقضاء الحوائج .

قال الحسن بن خَالَوَيْه : ما كان أَعْرَفهم بسياسة دُنْيَاهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهُمْ عن الآخرة هم غافلون ، ولكن نبيّنا صلى الله عليه وسلم قَدْ جزَّأَ نهاره

---

(١) طلعة : تكثر التطلع إلى الشىء . قدعه كمنعه : كفه كأقدعه . (٢) فى ت : تنزعوها ، وفى ق ، س : إلا تطيعوها . (٣) فى ت : مللا . (٤) غسق : أظلم.

جزأ النبي نهاره

ثلاثة أجزاء: جُزْءٌ لله، وجزءٌ لأهله، وجزءٌ لنفسه، ثم جُزْءٌ جزأه بينه وبَيْنَ الناس؛ فكان يستعين بالخاصَّة على العامة، وكان يقول: أبْلِغُونِي حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغي؛ فإنه من أبلغَ [ذا سلطان] (١) حاجةَ مَنْ لايستطيع إبلاغَها آمنه اللهُ تعالى يَوْمَ الفزَعِ الأكبر.

[رجع إلى الإطالة والإيجاز]

رأى شبيب ابن شيبة

وقال شبيب بن شيبة: إن ابتُلِيتَ بمقام لابد لك فيه من الإطالة فقدِّم إحكام البلوغ في طلب السلامة من الخَطَلِ قبل التقدّم من إحكام البلوغ في شَرَفِ التَّجْوِيد؛ ثم إياك أنْ تعدل بالسلامة شَيْئاً، فقليلٌ كافٍ خَيْرٌ لك من كثير غير شاف.

رأى جعفر ابن يحي

وكان جعفر بن يحيى يقول لكُتّابه (٢): إن استَطَعْتُم أن يكون كلامُكم كلُّه مثل التوقيع فافعلوا.

رأى ثمامة

وقال ثمامة بن أشرس:

لم أرَ قط أنطَقَ من جعفر بن يحيى بن خالد، وكان صاحبَ إيجاز.

غيرهم

وكان أبو وائلة إياس بن معاوية على تقدُّمه في البلاغة، وفَضْلِ عقله وعلمه بالإكثار مَعِيبا، وإلى التطويل مَنْسوبا، وقال له عبد الله بن شبرمة: أنا وأنْتَ لا نتفّق، أنْتَ لا تشتهي أن تسكت، وأنا لاأشتهي أن أسْمَع. وقيل له (٢): مافيك عيبٌ إلا كَثْرة كلامك، قال: أفتسمعون صواباً أم خطأ؟ قالوا: بل صوابا. قال فالزيادةُ في الخير خيرٌ.

رأى الجاحظ في التطويل

قال الجاحظ: وليس كما قال، بل للكلامِ غايةٌ، ولنشاط السامعين نِهاية، وما فَضَل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والكَلال فذلك هو الفِضَالُ (٣) والهَذَر والخَطَل والإسهاب الذي سمِعْتُ الخطباءَ يَعِيبونه.

(١) من ت. (٢) البيان: ١ — ٦٣. (٣) البيان: ١ — ٥٥. (٤) في ت: الفاضل.

وذكر الأصمعى(١) أن ابن هُبيرة لما أراد إياساً على القضاء قال: إنى والله لا أصْلُح له . قال: وكيف ذلك؟ قال : لأنى دَميم، ولأنى حَدِيد، ولأنى عَيِيّ . قال ابنُ هبيرة : أما الحِدّة فإن السَّوْط يقوِّمك . وأما العِيّ فقد عبَّرْتَ عما تريد ؛ وأما الدَّمامة فإنى لا أريد أن أحَاسِن بك . ولم يصفه أحدٌ بالعيّ وإنما كان يُعَابُ بالإكثار ، ولكنه أراد المدافعة عن نَفْسه .

بعض الملح

والحديث ذو شجون :

قال أبو العيناء: ذُكِرْتُ لبعض القِيَان فعشقتنى على السماع، فلما رأتْنى استقبحتنى، فقلت :

وشاطرةٍ(٢) لما رَأتْنى تنكَّرَتْ … وقالت : قبيحٌ أحْوَلٌ مالَه جِسمُ

فإن تُنْكرى منى احْوِلالاً فإننى … أديب أريب لا عَيِيٌّ ولا فَدْمُ(٣)

[فاتصل بها الشعر ،](٤) فكتبَتْ إلىّ : إنا لم نرد أن نُولِّيك ديوانَ الزّمام !

وكان عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كتب إلى عدى بن أرطاة(٥) : إنّ قِبَلك رَجُلَيْن من مُزينة — يعنى بكر بن عبد الله(٦)، وإياس بن معاوية ؛ فوَلِّ أحدَهما قضاءَ البَصْرَة ؛ فأحضرهما . فقال بكر: واللهِ ما أحْسنُ القضاء ؛ فإن كنتُ صادقاً فما تَحِلُّ تَوْلِيَتِى ، وإن كنتُ كاذباً فذلكَ أوْجَبُ لِتَرْكِى . فقال إياس : إنكم وَقَفْتُمُوه على شَفِيرِ جهنَّم ، فافْتَدَى منها بيَمِينٍ يكفرها ، ويستَغْفِرُ الله تعالى منها . فقال له عدىّ : أما إذا اهتديت لها فأنْتَ أحقُّ بها ، فولّاه .

ودخل إيَاس(٥) الشام وهو غلامٌ صغير ، فقدّم خَصْماً له إلى بعض القضاة ، وكان الخَصْمُ شَيْخاً ، فصالَ عليه إياس بالكلام ، فقال له القاضى : خَفِّض عليك ، فإنه

---

(١) البيان : ١ — ٥٥ . (٢) فى ت : وناظرة .

(٣) الفدم : العى عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم . (٤) من ت .

(٥) البيان ١ — ٥٦ (٦) فى ت : بن عبيد الله .

شَيْخٌ كبير ، قال : الحقُّ أكْبَر منه . قال : اسكت ! قال : فمَنْ يَنْطِقُ بحُجَّتِى ؟ قال : ما أراكَ تقولُ حقّا ، قال : لا إله إلا الله ! فدخل القاضى على عبد الملك فأَخبره؛ فقال : اقْضِ حاجتَه الساعة وأخْرِجه من الشام لا يُفْسِد أهْلَها !

***

الضجر من التطويل

وقال أحمد بن الطيب السَّرْخَسِى تلميذ يعقوب[1] بن إسحاق الكندى : كنتُ يوماً عنـد العباسِ بن خالد ، وكان ممن حبَّب الله إليه أن يتحدَّث ، فأَخذ يحدّثنى ، ويتنقلُ من حديثٍ إلى حديث ، وكنا فى صَحْنٍ له ، فلما بلغتنا الشمس انتقلنا إلى موضع آخر ، حتى صار الظلُّ فيئا . فلما أكْثَر وأضْجَر ، وملَّت حُسْنَ الأدبِ فى حُسْنِ الاستماع ، وذكرت قول الأوزاعى : إن حسنَ الاستماع قوةٌ للمحدث ، قلت له : إذا كنتُ وأنا أسمعُ قد عَيِيتُ مما لا كُلْفَةَ علىَّ فيه ، فكيف أراكَ وأنْتَ المتكلم ؟ فقال : إنَّ الـكلام يحلِّلُ الفضولَ اللَّزجة الغليظة التى تعرض فى اللَّهواتِ ، وأصْلِ اللسان ومنابت الأسنان ، فوثَبْتُ وقلت : لا أرانِى معك اليوم إلا « إيَارِج الفَيْقَرا »[2]؛ فأنت تَتَغَرْغَرُ بى ![3] فاجْتَهد فى أنْ أجْلِسَ فلم أفعـل .

قال أحمد بن الطيب : كنا مرَّةً عند بعض إخواننا[4] فتكلَّم وأعْجَبه من نفسه البيان ، ومِنَّا حسنُ الاستماع ، حتى أفْرَطَ ، فعرض لبعض مَنْ حَضَر مَلَلٌ ، فقال: إذا بارك الله فى الشىء لم يَفْنَ ؛ وقد جعل الله تعالى فى حديث أخينا البركة !

ولعبد الله بن سالم الخياط فى رجل كثيرِ الْكلام :

لى صاحبٌ فى حديثه البركه ... يزيدُ عند السكونِ والحَرَكَهْ

لو قال لَا فى قليـلِ أحْرُفِها ... لردَّها بالحروفِ مُشْتَبِكه

ومن طرائف التطويل ما أنشأه البديع ، وسيمرّ من كلامه ما هو آنَق من زَهْر الربيع .

---

(١) فى ت : أبى يعقوب . (٢) الإيارجة : معجون مسهل ، وجمعه إيارج ، معرب إياره وتفسيره الدواء الإلهى . والفيقرا : الداهيـة . (٣) الغرغرة : ترديد الماء فى الحلق كالتغرغر. (٤) فى ت : بعض إخوانه فتكلم ذلك الأخ .

[الملح]

قال الأصمعى : بالعلم وصَلْنا وبالمُلَح نِلْنا . وقال الأصمعى أيضاً : أنشدت محمد ابن عمران قاضى المدينة ، وكان أعْقَلَ مَنْ رَأيْتُه :

يأيها السائلُ عن مَنْزِلى نزلت فى الخانِ على نَفْسِى
يغدو علىَّ الخُبْزُ من خابزٍ لا يقبل الرَّهن ولا يُنْسِى (١)
آكُلُ مِن كِيْسِى ومن كِسْرَتى (٢) حتى لقد أوجعنى ضِرْسِى

فقال : اكتب لى هـذه الأبيات . فقلت : أصلحك الله ، هذا لا يُشْبِهُ مثلَك ، وإنما يَرْوِى مثل هذا الأحداثُ . فقال : اكتُبْها فالأشرافُ تُعْجِبُهم المُلَح .

وقد قال أبو الدّرداء رحمه الله تعالى : إنى لأستَجِمُّ (٣) نَفسِى ببعض الباطل ، ليكونَ أقْوَى لها على الحقِّ .

[وقال ابن مسعود رحمه الله : القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فاطلبوا لها طرائف الحكمة] (٤) .

وقال ابن الماجشون : لقد كنَّا بالمدينة وإن الرجلَ ليحدّثنى بالحديث من الفِقْه فيُمْليه علىّ ، ويذكر الخبَر من المُلَح فأستعيدُه فلا يفعل ، ويقول : لا أُعطيك مُلَحِى ، وأهَبُك ظَرْفى وأدبى .

وقال ابن الماجِشُون : إنى لأَسْمَع بالكلمة المَليحة ومالى إلّا قميصٌ واحد ؛ فأدْفَعه إلى صاحبها ، وأستَكْسِى اللهَ عزّ وجلّ .

ملح الغاضرى

وقال الزبير بن بكار : رؤى الغاضرىّ يُنَازِعُ أشعب الطمع عند بعض الوُلَاة ، ويقول : أَصْلَح اللهُ الأمير ! إنّ هـذا يدخلُ علىّ فى صناعتى ، ويطلبُ مشاركتى فى بِضاعتى ، وهيْأتُه هيئةُ قاضٍ ، والأمير يضحك . وكانا جميعاً فرسَىْ رِهان ورضيعَىْ

---

(١) ينسى : ينسئ ، أى يؤخر . (٢) الكسرة : القطعة من الشىء المكسور .
(٣) عبارة اللسان فى هذا المعنى : إنى لأستجم قلبي بشىء من اللهو لأقوى به على الحق .
(٤) من ت .

لبانٍ فى بيانهما ؛ إلّا أنّ الغاضرى [كان][١] لا يتخلّق بالطّمع تخلّق أشعب .

وأتى الغاضرىّ يوماً الحسنَ بن زيد فقال : جُعلتُ فداك ؛ إنى عصيت اللهَ ورسوله . قال : بئس ما صنَعْتَ ! وكيف ذلك ؟ قال : لأنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يُفلِحُ قومٌ ولَّوْا أمرَهم امرأة ، وأنا أطعتُ امرأتى ، فاشتريتُ غلاماً فهرب . قال الحسن : فاختر واحدةً من ثلاث : إن شئتَ فثَمنُ الغلام ، قال : بأبى أنتَ ! قِفْ عند هذه ولا تتجاوَزْها ! قال : أعرِضُ عليك الخصلتين . قال : لا ، حَسْبى هذه .

من ملح أشعب

وقد رُوِى نحوُ هذا عن أشعب أنه قال له بعضُ إخوانه : لو صرتَ إلىّ العشيّة تتفرج ؟ قال : أخاف أنْ يجىء ثقيل . قلت : ليس معنا ثالث . فمضى معى ، فلمّا صلينا[٢] الظهر ودعوتُ بالطعام ، فإذا بداقٍّ يدقُّ البابَ ، قال : ترى أنْ قد صِرْنا إلى ما نكره ، قلت له : إنه صديق ، وفيه عشرُ خصال إن كرِهْتَ واحدةً منهن لم آذَنْ له . قال : هات . قلت : أولها أنه لا يأكل ولا يَشرب . فقال : التسعُ لك ! قل له يدخل !

ورأى سفيان الثَّوْرى الغاضرى وهو يُضْحِكُ الناس ؛ فقال : ياشيخُ أوَ ماعلمْتَ أن لله يوماً يخْسرُ فيه المُبْطِلون ؟ فوجَم[٣] الغاضرى ، وما زَال ذاك يُعْرَفُ فيه حتى لَقِىَ الله عزّ وجلّ .

وأشعب الطَّمِع هو أشعب[٤] بن جبير مولى عبد الله بن الزبير ، وكان أحْلَى الناسِ . قال الزبير بن أبى بكر : كان أهلُ المدينة يقولون : تغيّرَ كلُّ شىء إلا مُلَح أشعب ، وخُبْز أبى الغيث ، ومِشية برّة ؛ وكان أبو الغيث يعالج الخُبْز بالمدينة ،

---

(١) ساقطة من س . (٢) فى ط : وصلنا . (٣) وجم : سكت على غيظ .

(٤) ارجع إلى ترجمة له فى نهاية الأرب : ٤ — ٢٦ .

وبرّة بنت سعيد بن الأسود كانت مِنْ أجْمَلِ النساء وأحسنِهن مِشْيَة ، وأشعب يضربُ به المثلُ في الطَّمع ، وكان[1] أشْعَبُ قد نشأ في حِجْر عائشة بنت عثمان رحمها الله مع أبي الزناد . قال أشعب : فلم يزَلْ يعلو وأنْحَطّ حتى بلغْنَا الغايةَ .

وقال أشعب : أسلمتني أُمي إلى بَزّاز فسألتني بعد سنة أين بلغْتَ ؟ فقلت : في نصف العمل . قالت : وكيف ؟ قلت : تعلمت النَّشْر وبقي الطَّيّ ، قالت : أنتَ[2] لا تفلح .

وسألتْه صديقةٌ له خاتما ، فقالت : أذْكُرُكَ به . قال : اذْكُرِي أنك سألتِني ومَنَعْتُك ! وقيل له : كم كان أصحَابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر ؟ قال : ثلثمائة وثلاثة عشر درهما ! ثم تنسَّك[3] في آخر عمره ، وغَزَا ومات على خَيْرٍ ، رحمه الله تعالى .

وقيل لأشعب : أرأيتَ أطمع منك ؟ قال : نعم كلبة آل فلان ، رأتْ رجلين يَمْضُغَان عِلْكا[4] ، فتبعَتْهُمَا فَرْسخين تظنُّ أنهما يأكلان شيئاً .

وأهدى رجلٌ من ولد عامر بن لؤى إلى إسماعيل الأعرج فالوذجة وأشْعَبُ حاضر ، فقال : كُلْ يا أشعب . فأكل منها ؛ فقال : كيف ترَاها ؟ فقال : عليه الطلاق إن لم تكن عُمِلَت قبل أنْ يُوحِي ربُّك إلى النَّحْل ! أي ليس فيها حَلَاوة .

بديهة أبي نواس

وروى أبو هفان قال : دخل أبو نواس الحسن بن هانىء على يحيي بن خالد فقال له : أنشدني بعض ما قُلْتَ ، فأنشده :

إني أنا الرجلُ الحكيمُ بطبعِه ... ويزِيد في علمي حِكايَةُ مَنْ حَكَا
أتتبَّع الظرفاء أكتبُ عنهمُ ... كيما أحدِّث مَنْ أُحِبُّ فيضْحَكا

---

(١) نهاية الأرب : ٤ — ٢٦ . (٢) في ط : إذن . (٣) في س : نسك .
(٤) العلك : ما يمضغ .

فقال له يحيي [بن خالد][1] : إن [أول][1] زَنْدك ليُورى بأوّلِ قَدْحةٍ[2] ،
فقال ارتجالا فى معنى قول يحيي :

أما وزَنْدُ أَبى علىّ إنه | زَنْدٌ إذا اسْتَوْرَيْتَ سهل قدْحَكا
إنّ الإلهَ لِعِلْمِهِ بعبادهِ | قد صَاغَ جَدَّكَ للسماح ومَنْحَكا
تأْبَى الصنائعَ هِمَّتى وقَرِيحتى | من أَهْلها وتَعَافُ إلاَّ مَدْحَكا[3]

ظرف أبى نواس

ووصف أبوعبد الله الجماز أبا نواس فقال : كان أظْرَفَ النَّاسِ منطقاً ، وأغْزَرهم أدبا ، وأقْدَرَهم على الكلام ، وأسْرَعهم جوابا ، وأكثرهم حياءً ، وكان أبيضَ اللَّوْنِ جميل الوَجْهِ ، مليح النغمة والإشارة ، ملتفَّ الأَعْضاء ، بَيْنَ الطَّوِيلِ والقصير ، مَسْنُونَ الوَجْه[4] ، قَائِم الأنف ، حَسَن العينين والمضْحَك ، حُلْوَ الصُّورَة ، لَطِيفَ الكَفّ والأطراف ؛ وكان فصيحَ اللسان ، جَيِّدَ البيان ، عَذْبَ الألفاظ ، حُلْوَ الشمائل ، كثيرَ النوادر ، وأَعْلَمَ الناس كيف تكلّمت العرب ، رَاويةً للأشعار ، علاّمة بالأَخبار ، كأن كلاَمه شعرٌ موزون[5] .

وأقبل أبو شَرَاعة العبسى ، والجَمّازُ فى حديثه ، وكان أقبح الناسِ وجها ، وكانت يدُ أبى شراعة كأنها كَرَبة[6] نَخْلٍ ؛ فقال الجماز : فلو كانت أطرافه على أبى شراعة لتمَّ حُسْنُه ؛ فغَضِب أبو شراعة وانصرفَ يَشْتمه .

الجماز

والجماز[7] هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر ، وكانوا يزعمون أنّهُم من حِمْيَر ، نالَهُمْ سِبَاء فى خِلَافَةِ أبى بكر رضى الله عنه وهم مَوَالِيه، وسَلْم الخاسر عمّه ، وكان الجماز من أحْلَى الناسِ حكاية ، وأكثرِهم نادرة .

---

(١) من س . (٢) فى س: قدحته . (٣) رواية س : تأبى من الأوصاف إلا مدحكا .
(٤) رجل مسنون الوجه : مملسه حسنه سهله ، أو فى وجهه وأنفه طول .
(٥) فى س : كان كلامه شعرا موزونا . (٦) كرب النخل : أصول السعف الغلاظ العراض التى تيبس فتصير مثل الكتف واحدتها كربة . (٧) اللآلى ـ ذيل ٢٤ .

قال بعضُ جلساءِ المتوكّل : كنا نُكْثِر عند المتوكل ذكر الجماز حتى اشتاقه ، فكتبَ في حَمْلِه إليه ، فلما دخل أُفْحِم . فقال له المتوكل : تكلّمْ فإنّي أُريدُ أن أسْتَبْرِئَكَ ، فقال : بحَيْضَةٍ أو بحَيْضَتَين يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال له الفتح : قد كلّمتُ أميرَ المؤمنين يُوَلّيكَ على القرود والكلاب! قال: أفلستَ سامِعاً مطيعاً ؟ فضحك المتوكل وأمَر له بعَشْرَةِ آلاف درهم. وكان لايُدْخِلُ بيته أكثر من ثلاثةٍ لضيقِه[1] ؛ فدعا ثلاثةً فجاءه ستّة ، وقرَعوا الباب ، ووقفوا على رِجل رِجل فَعدَّ أرجُلَهم من خَلْفِ الباب ؛ فلما حصلوا عنده[2]، قال : اخرجُوا عني ، فإنما دعوتُ ناساً ولم أدعُ كَرَاكِيَّ[3] .

خلط الجد بالفكاهة

وقال الطائي في عمرو[4] بن طوق التغلبي[5] :

الجِدُّ[6] شيمَتُه وفيه فكَاهةٌ	سجحٌ[7] ولا جِدّ لمن لم يَلْعَبِ
شرِسٌ ويتبع ذاك لِينُ خَلِيقةٍ	لاخيرَ في الصّهباء مالم تقطَبِ[8]

وقال في الحسن بن وَهْبٍ[9] :

لِلّهِ أيامٌ خَطَبْنا لِينَها	في ظلّهِ بالخندريس السَّلْسَلِ[10]
بمدامةٍ نَغَمُ السماع خفيرُها	لا خيرَ في المعلولِ غيرَ معلّلِ
يغشى عليها[11] وهو يَجْلُو مُقْلتَيْ	بازٍ ويغفلُ وهو غيرُ مُغفّلِ
لا طائشٌ تَهْفُو خلائقُه ولا	خَشِنُ الوَقَارِ كأنّه في محفلِ
فَكِهٌ يجمّ الجدّ[12] أحياناً وقد	ينضي ويهزلُ عَيْشُ مَنْ لم يهزِلِ

---

(١) في س : ممن يضيفه . (٢) في س : فلما جعلوا في بيته .

(٣) الكراكي مفرده كركي : طائر . (٤) في س : عمر بن طوق الثعلبي .

(٥) ديوانه : ١٣ . (٦) في الديوان : المجد . (٧) في الديوان : سمح .

(٨) قطب الشراب : مزجه . (٩) ديوانه : ٢٣٤ . (١٠) الخندريس : الخمر .

(١١) في الديوان : يعشو إليها . (١٢) في ق ، س : يجد الجم .

وقال فيه[1] :

ولقـد رأيتك والـكلامُ لآلئٌ ... تُومٌ فبِكْرٌ فى النِّظَامِ وثيِّب[2]

وكأن قُسًّا فى عُـكاظٍ يَخْطبُ ... وابن المقفّع فى اليتيمةِ يُسْهِبُ

وكأنّ لَيْلَى الأخيلية تندُبُ ... وكثيِّر عزةَ يومَ بَيْنٍ يَنْسِب

يَكْسُو الوقار ويستخفّ موقرا ... طَوْرًا فيُبْكِى سامِعيه ويُطْرِبُ

وقال أبو الفتح البستى[3] :

أفِد طَبْعَكَ المـكدود بالهمِّ راحةً ... بِرَاحٍ وعَلِّلْهُ[4] بشىء مِنَ المَزْحِ

ولـكِنْ إذا أعطيْتَه المَزْحَ فلْيَكُنْ ... بمقدار ما تُعْطِى الطعامَ من المِلْحِ

المزاح

وما زال الأشراف يَمْزَحُون ، ويسمحون بمـا لَا يَقْدَحُ فى أديانهم ، ولا يغضّ من مُرُوءاتِهم .

وقال النبى صلى الله عليـه وسلم : بعثت بالحنيفية السَّمْحَة . وقال : إنِّى لأَمْزَح ولا أَقُول إلاَّ حقًّا .

رواية الشعر

وقيل لسعيد بن المسيّب : إنَّ قوماً من أَهل العراق لا يَرَوْن إِنشادَ الشعر . فقال: لقد نَسَـكُوا نِسْـكا[5] أعْجَمِيًّا .

وقيل لابن سيرين : إنّ قوماً يزعمون أن إنشادَ الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد :

لقد أصبحَتْ عِرسُ[6] الفرزدق نَاشزاً ... ولو رضيت رَشح اسْتِه لاستقرَّتِ

وقام يُصَلِّى ! وقيل : بل أنشد :

أُنْبِئْتُ أنَّ عجوزاً جئتُ أَخْطبها ... عُرقوبُها مِثْلُ شهرِ الصَّوم فى الطُّولِ

---

(١) ديوانه : ٣٩ ، وفيه اختلاف فى ترتيب الأبيات وأجزائها .

(٢) التومة : اللؤلؤة ، والقرط فيه حبة كبيرة ، وجمعه توم وتوم .

(٣) نهاية الأرب : ٤ : ٧٤ . (٤) فى س : وروحه . (٥) الفعل كنصر وكرم والنسك : العبادة . (٦) العرس : امرأة الرجل .

[من النسيب]

وقيل لأبى السائب المخزومى : أترى أحداً لا يَشْتَهِى النسيب ؟ فقال : أما ممن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

وروى مصعب بن عبد الله الزبيرى عن عروة بن عبيد الله بن عروة الزبيرى قال : كان عُرْوَة بن أُذَينة نازلًا فى دارِ أَبى بالعقيق فسمعته يُنْشِدُ لنفسه :

لعروة بن أذينة

إِنَّ التى زَعَمَتْ فؤادَكَ مَلَّها ... خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها

فيكَ الذى[1] زَعَمَتْ بها وكِلَاكُمَا ... أبْدَى لِصَاحِبِه الصَّبَابَةَ كُلَّها

ولعمرُها لو كان حبُّك فَوْقَهَا ... يوماً وقد ضَحِيَتْ إذَنْ لأظَلَّها[2]

فإذا وجَدْت لها وَسَاوِس سَلْوَةٍ ... شفع الضميرُ إلى الفؤاد فسَلَّها

بيضاء باكَرَها النَّعيمُ فصاغَها ... بلَبَاقةٍ فأَدَقَّها وأَجَلَّها

لَمَّا عَرَضْتُ مُسلّما ، لىَ حاجةٌ ... أخْشَى صُعُوبتها وأرجُو ذُلَّها

منعَتْ تَحِيَّتَها فَقُلْتُ لصاحبى ... ما كانَ أكْثَرَها لنَا وأقلَّها

فدَنَا وقال لعلَّها مَعْذورةٌ ... فى بعْضِ رِقْبَتِها فقلت لَعَلَّها

قال : فأتانى أبو السائب المخزومى فقلتُ له بَعْدَ التَّرْحيب به : أَلَكَ حاجة ؟ فقال : نعم أبياتٌ لعُروة بلغنى أنك سمعتَه يُنْشِدُها . فأنشدته الأبيات ، فلما بلغت قوله : * فدنا وقال لعلها معذورة ... ... * البيت طرب ، وقال : هذا والله الدائمُ الصَّبابة، الصادق العَهْد ، لا الذى يقول :

إِن كان أهلُكِ يمنعونك رَغْبَةً ... عنى فأَهْلى بى أَضَنُّ وأَرْغَبُ

لقد عَدا هـذا الأعرابى طَوْرَه ، وإِنى لأَرجو أن يغفر [الله][3] لصاحب هذه الأبيات لحُسْنِ الظنّ بها ، وطَلَبِ العُذْرِ لها ؛ قال : فعرضت عليـه الطعام فقال : لا والله ما كنتُ لأَخْلط بهذه الأبيات طعاماً حتى الليل ، وانصرف .

---

(١) فى ط : التى . (٢) ضحيت : أصابتها الشمس . (٣) من س .

وكان أبو السائب غَزِيرَ الأدب ، كثيرِ الطَّرَب ، وله فُكاهاتٌ مذكورة ، وأخبارٌ مشهورة ، وكان جَدّه يكنى أَبا السائب أيضاً، وكان خليطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا ذكره قال: نِعْمَ الخليط كان أبو السائب! لا يُشارِى ولا يمارى(١) .

أبو السائب

واسمُ أبى السائب عبدُ الله ، وكان أشرافُ أهلِ المدينة يستظرفونه ويقدّمونه لشَرَفِ منصبه ، وحلاوة ظَرْفه .

وكان عروة بن أذينة على زُهْدِه ، ووَرَعه ، وكَثْرةِ علمه وفَهْمه ، رقيقَ الغزل كثيره ، وهو القائل(٢) :

ومن شعر عروة

إذا وجَدْتُ أُوارَ الحب فى كَبِدى ... أقبلْتُ نحوَ سِقاءِ القومِ أبْتَرِدُ
هَبْنِى(٣) بَرَدْتُ ـ ببرد الماء ـ ظَاهِرَهُ ... فَمَنْ لِنـارٍ على الأحْشَاء تَتَّقِدُ

وقد رُوِى هذانِ البيتان لغيره .

ومرّت به سكينةُ بنتُ الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فقالت له : أنتَ الذى تزعم أنّك غيرُ عاشق ، وأنت تقول:

قالتْ وأبثثْتُهَا سِرِّى(٤) فَبُحْتُ به ... قد كنتَ عندى تحبُّ السِّتْرَ فاسْتَتِرِ
ألسْتَ تُبْصِر مَنْ حَوْلى؟ فقلتُ لها ... غَطَّى هواكِ وما ألْقَى على بَصَرى

والله ما خرج هذا من قَلْبٍ سليم قَطّ .

وروى الزّبير عن رجل لم يسمّه قال : قال لى أبو السائب : أنشدنى لِلْأَحْوَص فأنشدْتُه(٥) :

أبو السائب ينشد للأحوص

قالت وقلت تحرَّجِى وَصِلِى ... حَبْلَ امرئٍ بوصالِكم صَبِّ

(١) يشاريه : يجادله ، وأصله يشارره فقلبت الراء . وماراه : جادله .
(٢) الشعراء : ٥٦١ . (٣) فى الشعراء : هذا بردت ...
(٤) فى الشعراء : وجدى . (٥) الأغانى: ٤ ـ ٢٦٤ ، اللآلى: ١٨٩، الأمالى ١ـ٤٦ .

صاحب[1] إذَنْ بَعْلِي؟ فقلت لها : الغدرُ شيءٌ ليس من ضَرْبِي
شيئان[2] لا أدْنُو لوَصْلِهِما عِرْس الخليل وجَارَةُ الجنبِ[3]
أمّا الخليـلُ فلستُ فاجعَهُ والجــارُ أوصانى به رَبِّي
عُوجا[4] كذا نَذْكُرْ لغانيـةٍ بعضَ الحديثِ مَطيَّـكم صَحْبِي
ونَقُلْ لهــا فيمَ الصّدُودُ ولم نُذْنِبْ بل انْتِ بدَأْتِ بالذّنْبِ
إن تُقْبِلِي نُقْبِل ونُنْزِلـكم منّا بِدارِ السَّهْلِ والرُّحْبِ
أو تَهْجُرِى[5] تَـكْدُرْ معيشتُنَا وتُصَدِّعى مُتَـلَائِم الشَّعْبِ

فقال : هذا واللهِ المحبُّ حقا[6] لا الذى يَقُول :

وكنت إذا حبيبٌ رَامَ هَجْرِى وجدت وَرَاىَ مُنفَسحاً عريضاً

ثم قال : اذْهَب ، فلا صَحِبك الله ، ولا وسَّع عليك !

رقة أهل الحجـاز

وخرج أبو حازم يوماً يَرْمِى الجمار ، فإذا هو بامرأة حاسِر[7] قد فتَنَتِ الناسَ بحُسْنِ وجهها ، وألهتْهم بجمالها ، فقال لها : ياهذه ، إنك بمَشْعَر حرام[8]، وقد فتنت الناس وشغلْتِهم عن مَناسِكِهم ، فاتقى الله واستَترى ؛ فإنّ الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز : ﴿ ولْيَضْرِبْنَ بخُمرِهنّ على جُيُوبهن ﴾ ؛ فقالت : إنى من اللاتى قيل فيهن :

أماطَتْ كِساء الخزّ عن حُرِّ وَجْهِها[9] وأرْخَتْ على المتنين بُرْدًا مهلهلا
من اللّائى لم يحججْن يَبْغِين حِسبةً ولـكن ليَقْتلنَ البرىءَ المُغَفّلا

الشعر للحارث بن خالد المخزومى . فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا نَدْعُ اللهَ لهذه الصورة الحسنة ألاّ يعذبها الله تعالى بالنار ! فجعل أبو حازم يَدْعُو وأصحابه يؤمّنون ،

---

(١) فى الأغانى : واصل ، وفى ط : صاحت . (٢) فى الأغانى : ثنتان .
(٣) جار الجنب : اللازق بك إلى جنبك . (٤) فى الأغانى : عوجوا، وعوجا : قفا .
(٥) فى الأغانى : أو تدبرى . (٦) فى س : عينا . (٧) امرأة حاسر : ليس على وجهها قناع . (٨) المشعر الحرام ، وتـكسر ميمه : بالمزدلفة .
(٩) حر الوجه : ما بدا منه ، وخيار كل شىء .

فبلغ ذلك الشعبي فقال : ما أَرَقّكم يأهلَ الحجاز وأَظرفكم ! أما والله لو كان من قُرى العراق لقال : اعزبي عليك لَعْنَةَ الله !

أبو حازم

وكان أبو حازم من فضلاء التابعين ، وله مقامات جميلة من[1] الملوك ، وكلامٌ محفوظ يدلُّ على فضله وعقله ؛ وهو القائل : كل عملٍ تَكْرَهُ من أجله الموت فاتركه ، ولا يضرك متى متّ . وكان يقول : ما أحببت أن يكون معك غدا فقدّمه اليوم . وكان يقول : إنما بيني وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ، وأنا وإياهم من غد على وَجل ؛ وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ؟ وقال أبو العتاهية[2] :

حتى متى نحنُ فى الأَيام نحسَبُها ... وإنما نحْنُ فيها بين يومَيْنِ
يومٌ تولّى ويومٌ نحن نأمله ... لعلّه أَجلَب اليومين للحَيْنِ[3]

من نسيب الفقهاء

وروى الزبير بن أبى بكر قال : قدمت امرأة من هُذَيل المدينة ، وكانت جميلةً ومعها ابن لها صغير ، وهى أَيِّم[4] ، فخطبَها الناس وأكثروا ، فقال فيها عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[5] :

أحِبك حبًّا لا يحبّك مثلَهُ ... قَريبٌ ولا فى العالمينَ بعيدُ
أحبّك حبًّا لو علمت ببعضهِ ... لَجُدْتِ ولم يصعُبْ عليك شديد
وحبك يا أم العلاء مُتَيِّمى[6] ... شهيدى أبو بكر فذاك شهيدُ
ويعلم وَجْدِى القاسم بن محمدٍ ... وعروةُ ما أَلْقَى بكم وسعيدُ
ويعلم ما أُخفِى سليمانُ كلّه[7] ... وخارجةٌ يبدى لنا[8] ويعيدُ
متى تسألى عما أقول فتخبَرى ... فللحبُّ عندى طارفٌ وتليدُ

---

(١) فى س : مع . (٢) ديوانه : ٢٧٢ . (٣) فى الديوان : لعله أجلب الأيام . والحين : الهلاك . (٤) أيم : من لا زوج لها . (٥) الأغانى : ٩ — ١٤٨ . (٦) فى الأغانى : يا أم الصبي مدلهى . (٧) فى الأغانى : علمه . (٨) فى ط ، ق : بنا.

فقال له سعيد بن المسيِّب : قد أَمِنْتَ أن تسأَلنا ، ولو سأَلتَنا ما شهدنا لك بزُور .
وكان عبيد الله أحد الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم علمُ المدينة ، وقد ذكرهم عبيد الله فى هـذه الأبيات ؛ وهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى . والقاسم بن [محمد بن] [١] أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب بن حزن ، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى .

وقيل لعبيدالله : أتقول الشعر على شرفك؟ فقال : لابد للمصدور أن يَنْفُث ؛ وعبيد الله هو القائل [٢] :

شَقَقتِ القلب ثم ذَرَرْتِ [٣] فيـه ... هَوَاكِ فَلِيم والتأم الفُطُورُ [٤]
تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَة [٥] فى فُؤَادِى ... فبَادِيه مع الخافى يَسيرُ
تَغَلْغَلَ حيث لم يبلُغ شرابٌ ... ولا حُزْن ولم يبلغ سرور

أخذه سَلم بن عمرو الخاسر فقال :

سقتنى بعينَيْها الهوى وسقَيْتُها ... فدَبَّ دَبيبَ الخَمْرِ فى كل مَفْصِلِ

وقال أبو نواس [٦] :

أَحِبُّ اللومَ فيهـا ليس إلاَّ ... لترداد اسمها فيها [٧] أَلاَمُ [٨]
ويَدْخُل حبُّها فى كل قَلْبٍ ... مَدَاخِلَ لا تغلغلها المُدَام

ومنه قول المتنبى [٩] :

وللسرِّ منّى مَوْضِعٌ لا يَنَالُهُ ... نَديمٌ ولا يُفْضِى إليه شَرابُ

وقال بعض المحدَثين :

لبعض المحدثين

مازلت تغوينى وتطلب خُلّتى [١٠] ... حتى حللت بحيثُ حَلَّ شرابى

(١) ساقط من ط . (٢) الأمالى : ٣ ــ ٢١٧ ، المختار من شعر بشار : ١٥٤ ، التبيان : ١ ــ ١٩٢ ، الأغانى : ٩ ــ ١٥١ . (٣) فى س ، ق : دررت .
(٤) الفطر : الشق ، وجمعه فطور . وفى الأغانى : صدعت القلب.
(٥) فى س ، ق : غنمة . (٦) ديوانه : ٣٩٢ . (٧) فى س ، ق : فيما .
(٨) فى الديوان : لذكرهمو اسمها فيما ألام . (٩) ديوانه : ١ ــ ١٩٢ .
(١٠) الخلة : الخليلة ، والصداقة المختصة لا خلل فيها تكون فى عفاف وفى غيره .

ثم انصرفت بغير جُرْم كان لى ... ما هكذا الأَحْبَابُ للأَحْبَابِ

من نسيب أبى نواس

أخذ أبو نواس قوله : «أحب اللوم فيها» ... البيت من قول [أبى محمد](١) بن أبى أمية :

وحدَّثنى عن مَجْلِسٍ كُنْتَ زينَهُ ... رسولٌ أمينٌ والنساءُ شهودُ

فقلت له رُدَّ الحديث الذى مضى ... وذِكْرُكِ من بيْنِ الحديث أُريدُ

أناشدُهُ بالله إلاّ أَعَدْتَهُ ... كأنى بطىءُ الفهم عنه بَعِيدُ

وقول أبى نواس فى البيت الأول كقوله (٢) :

إذا غاديتنى بصبوح لَوْمٍ (٣) ... فممزوجاً بتَسْمِيَةِ الحبيبِ

فإنى لا أعدّ اللَّوْمَ فيها (٤) ... عليك إذا فعلت من الذنوب

ولا أَنَا إن عمدت (٥) أرى جَنَانا ... وإن ضنت بمبخوس النصيب (٦)

مقنعة بثَوْبِ الحسن ترعى ... بغير تكلُّف ثمر القُلوبِ

من شعر أبى نواس فى جنان

وفى جَنان هذه يقول أبو نواس :

ياذا الذى عن جَنان ظَلَّ يُخْبِرُنا ... بالله قُلْ وأعد ياطيِّب الخبرِ

قالوا اشتكتك وقالت ماابتليتُ بهِ ... أراه من حيث ما أقبلتُ فى أثَرِى

ويرفع الطَّرْفَ نحوى إنْ مررت بهِ ... حتى ليخجلنى من شِدةِ النظر

وإن وقفت له كيما يُكَلّمنى ... فى الموضع الخِلو لم ينطق من الحصَر (٧)

مازال يفعل بى هـذا ويُدْمِنُهُ ... حتى لقد صار من همِّى ومن وَطَرِى (٨)

وفى جنان أيضا يقول أبو نواس وكان بها صبًّا ولها محبًّا (٩) :

جنان تسبّنى (١٠) ذكَرَتْ بخير ... وتزعم أَننى رجلٌ خبيث

---

(١) من ق ، س . (٢) ديوانه : ٣٦١ . (٣) فى الديوان ، وس : عذل فشوبيه

(٤) فى الديوان : العذل فيه . (٥) فى الديوان : عمرت.

(٦) فى الديوان : وإن بخلت بمحبوس النصيب، وفى ق : بمحسوس .

(٧) الحصر : العى فى المنطق . (٨) أدمن الشىء : أدامه ، الوطر : الحاجة ، أو حاجة لك فيها هم وعناية . (٩) ديوانه : ٣٦٩ . (١٠) فى س : تسوءنى .

وأن مودّتى كَذِبٌ ومَيْنٌ ... وأنى للذى تطوى (١) بثوث (٢)
وليس كذا ولا ردٌّ عليها ... ولكنّ الملول هو النّكوثُ (٣)
ولى قلبٌ يُنَازِعنى إليها ... وشوقٌ بين أضلاعى حَثِيث (٤)
رَأَتْ كَلَفِى بها وقديمَ وَجْدِى ... فملّتنى كذا كان الحديث (٥)

[وكانت جنان مولاة لبعض الثقفيين] (٦) .

وفى معنى قول ابن أبى أمية يقول العباس بن الأحنف (٧) :

وحدّثتنى يا سعد عنها فزدتنى ... جنوناً فزِدْنِى من حديثك ياسَعْدُ

طرف أهل المدينة

وأهل المدينة أكثر الناس ظَرْفاً ، وأكثرهم طِيبا ، وأحلاهم مزاحا ، وأشدهم اهتزازاً للسماع ، وحسن أدب عند الاستماع . وقال عبد الله بن جعفر (٨) : إن لى عند السماع هِزّة لو سُئلت عندها لأَعْطَيْتُ ، ولو قاتلت لأَبْلَيت .

وروى أبو العيناء قال : قال الأصمعى : مررت بدار الزبير بالبَصْرَة فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبَا ريحانة جالسٌ بالباب عليه شَمْلَة (٩) تَسْتُرُهُ ، فسلّمتُ عليه ، وجلستُ إليه ؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعَتْ علينا سويداء تحمل قِرْبة ، فلما نظر إليها لم يتمالَكْ أن قام إليها ، فقال لها : بالله غَنّى صوتاً . فقالت : إن موالىَ أَعْجَلونى ، فقال : لا بدّ من ذلك ، قالت : أما والقِرْبَة على كتفى فلا . قال : فأنا أَحْمِلها فأخذ القربة منها فاندفعت تُغَنِّى :

فُؤَادِى أسيرٌ لا يفكّ ومُهْجَتى ... تفيضُ وأحْزَانِى عليك تَطُولُ
ولى مُقْلَةٌ قَرْحَى لطول اشتياقها ... إليك وأجْفَانى عليك هُمُولُ

(١) فى الديوان : أهوى . (٢) بث الخبر : نشره . (٣) نكث العهد : نقضه .
(٤) الحثيث : السريع . (٥) ليس هذا البيت فى ديوانه الذى بأيدينا .
(٦) ساقط من س . (٧) ديوانه : ٥٨ . (٨) فى س : بن هفوان .
(٩) كساء يشتمل به .

فديتك ، أعدائى كثيرٌ وشُقّتى بعيدٌ وأشياعى لَدَيْك قليل

فَطِرب وصرخ صَرْخَةً وضرب بالقِرْبة إلى الأرض فشقّها؛ فقامت الجارية تبكى، وقالت : ما هذا بِجَزائى منك ؛ أسْعَفْتُكَ بحاجتك فعرّضْتَنى لما أكره من موالىّ . قال : لاتغتمى فإنّ المصيبة علىّ حصلت ، ونزع الشَّملة ووضع يَدًا من خلف ويدا من قُدّام ، وباع الشَّمْلة وابتاع لهاقِرْبَةً جديدة ، وقعد بتلك الحال ؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فعرف حاله فقال : يا أبا ريحانة ! أحسبك من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فما رَبحت تجارتهم وَمَا كَانُوا مهتدين ﴾ . قال : لا يَابْنَ رسُولِ الله ، ولكنى من الذين قال [1] الله تعالى فيهم : ﴿ فبشّر عبادى الذين يستمعون القَوْلَ فيتبعون أحسنه ﴾ ؛ فضحك وأمر له بألفِ درهم .

ومرّ بالأوقص المخزومى ، وهو قاضى المدينة، سكرانُ [وهو] [2] يتغنّى بليل ، فأشرف عليه وقال : يا هذا ، شَرِبت حَرَاما ، وأيقَظْتَ نياما ، وغنّيت خطأ ؛ خذه عنى ، وأصلح له الغناء .

طرب الفقهاء للنسيب

وسمع سعيد بن المسيب منشداً ينشد [3] :

فلم ترَ عينى مثل سِرْبٍ [4] رأيتهُ خرجن من التنعيم مُعْتَمِراتِ
مررْنَ بِفخ [5] ثم رُحنَ عَشيّةً يلبين للرّحْمن مؤتجراتِ
ولما رأتْ ركْبَ النميرى أعرضَتْ وكنَّ مِن انْ يلْقَيْنَه حَذِرات
دعت نسوة شُمَّ العرانين بُزَّلاً [6] نواعم لا شُعْثاً ولا غبرات
فأبرزن لما قمن يحجبنَ دونها حِجَاباً من القَسِّىّ [7] والحبراتِ

(١) فى س : الذين يقول لهم . (٢) ساقطة من س .
(٣) المختار من شعر بشار : ١١٦ ، النويرى : ٤ـ٢٧٢ ، والأغانى ٥ ـ ٧ ، ٦ ـ ٢٤، والأمالى : ٢ ـ ٢٤ . (٤) أصل معنى السرب : القطيع من البقر والظباء ، والمراد به هنا جماعة من النساء . (٥) فخ: موضع بمكة دفن فيه ابن عمر، وفى س : بفجر . (٦) فى س: بدنا أوانس.
(٧) فى ط ، ق ، س : القيسى ، والقس : موضع بين العريش والفرماء من أرض مصر منه الثياب القسية ـ وقد يكسر .

تَضَوَّع طيباً بَطْنُ نَعْمان إذ مشَتْ ... به زينبٌ فى نسوةٍ عَطرات [١]
يُخَبِّئن أطرافَ البنَان من التُّقَى ... ويَخْرُجْن شَطر الليل مُعْتَجِرات [٢]

فقال سعيد : هذا والله مما يلذّ استماعه ، ثم قال :

وليست كأُخْرَى وسَّعَتْ جيب دِرْعها ... وأبدت بَنانَ الكَفّ للجَمرَاتِ
وغالَتْ بِبَان المسك وَحْفاً [٣] مُرَجّلا ... على مِثْلِ بَدْرٍ لَاحَ فى الظُّلُمَاتِ
وقامت تَرَاءَى بين جَمْع فأَفْتَنَتْ ... برؤيتها مَنْ راحَ مِن عَرَفاتِ

الحجاج يطرب للنسيب

قال: فكانوا يرون [٤] أنّ الشعرَ الثانى له ، والأول لمحمد بن عبد الله [٥] بن نمير الثقفى يقوله فى زينب بنت يوسف أخت الحجاج ؛ [وطلبه الحجاج] [٦] حتى ظَفِر به فقال : أنت القائل ما قلت ؟ قال : وهل قلت أصلح الله الأمير إلّا :

يخبّئن أطرافَ البَنان من التقى ... ويخرجن شطْر الليل مُعْتَجِراتِ

قال له : كم كُنْتُم إذ تقول : * ولما رأت رَكْبَ النّميرى أعْرَضت * قال: والله ما كنت إلا أنا وصاحب لى على حمارٍ هَزِيل ! فضحك وعَفا عنه ، وهو القائل :

أهَاجَتْكَ الظَّعَائِنُ يوم بَانُوا ... بذِى الزِّىّ الجميلِ من الأثاثِ
ظَعَائِن [٧] أسْلَكَتْ فى بطْنِ قوٍّ ... تحثّ إذا رنت [٨] أى احْتِثاث
كأنَّ على الهوادج يَوْمَ بانوا ... نِعَاجاً تَرْتَعِى بَقل البِراث [٩]
يهيِّجك الحمام إذا تغنّى ... كما سجع النَّوَادِب بالمَرَاثِى

---

(١) فى المختار والأمالى : خفرات . (٢) الاعتجار : لبسة للمرأة .
(٣) الوحف: الشعر الكثير الأسود الحسن، وفى الأمالى: وعالت فتات. (٤) فى س : يروون الشعر (٥) فى س : لعبد الله بن محمد . (٦) ساقطة من ط .
(٧) الظعائن : جمع ظعينة ، وهى المرأة فى الهودج . (٨) فى س : ونت ...
(٩) البرث : الأرض السهلة ، والجمع براث .

[من أدب ابن المعتز]

من نثره

وقال ابن المعتز : وعْدُ الدنيا إلى خَلَف ، وبقاؤها إلى تَلَف ، وبعْدَ عطائها المنع، وبعد أمانها الفَجْع(١)، طوّاحه طرّاحة ، آسِيَة جرّاحة ، كم راقد فى ظلّها قد أيقظته، وواثق بها قد خانَته ، حتى يلفظَ نفسَه ، ويودّع دُنياه ، ويسكن رَمْسَه ، وينقطع عن أمله ، ويشرف على عمله ، وقد رَجَح الموتُ بحياته(٢) ، ونقضَ قُوَى حركاته ، وطَمَس البِلَى جمالَ بهْجته ، وقطع نظامَ صُورته ، وصار كخطٍّ من رَماد تحت صفائح أنْضاد(٣)؛ وقد أسلمه الأحباب، وافترش التُّراب ، فى بيت نَجرَتْه المَعاوِل ، وفرشتْ فيه الجَنادل ؛ ما زال مضطرباً فى أمَلِه ، حتى استقرّ فى أجَله ، ومحت الأيامُ ذِكْرَه ، واعتادتِ الألْحَاظُ فَقْدَه(٤) .

من شعره

وكتب وهو ممتقل إلى أستاذه أبى العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب(٥) يتشوّقه(٦):

ما وَجْدُ صادٍ بالحبال مُوثَقِ ... بماءِ مُزْنٍ باردٍ مُصَفَّقِ(٧)
بالرِّيح لم يَكْدُرْ ولم يُرَنَّقِ ... جادت به أخلافُ دَجْنٍ مُطبِق(٨)
بصخرةٍ إنْ تَرَ شمْسًا تَبْرُقِ ... مادَ(٩) عليها كالزُّجاج الأزرقِ(١٠)
صَريحُ غيثٍ خالصٍ لم يُمْذَقِ(١١) ... إلّا كوَجْدِى بك لكنْ أتقى
يا فاتحاً لكل بابٍ(١٢) مُغْلَقِ ... وصَيْرَفِيًّا ناقداً للمنطِقِ(١٣)

(١) الفجع : أن يوجع الإنسان بشىء يكرم عليه فيعدمه . (٢) رجح : مال .
(٣) النضد : ما نضد ، والجمع الأنضاد . (٤) فى ط ، ق : فقره .
(٥) فى المختار : أحمد بن يحي ثعلبا كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتاً فكتب إليه .
(٦) ديوانه : ١٢٤ ، المختار من شعر بشار : ٥٤ . (٧) التصفيق : التقليب ، وتحويل الشراب من إناء إلى إناء ممزوجا ليصفو . وفى المختار : كماء مزن .
(٨) الأخلاف : الأثداء يفيض منها اللبن ، والدجن المطبق هو السحاب المتراكم .
(٩) فى ت : فهو علينا . (١٠) هذا البيت والذى قبله ليسا فى الديوان المطبوع بأيدينا ، وفى المختار : فهو عليها كالزجاج الأزرق . (١١) لم يمذق : لم يخلط .
(١٢) فى الديوان : علم . (١٣) فى المختار : عالما بالمنطق .

إنْ قال هـذا بَهْرَجٌ لم ينفُقِ ... إنَّا على البِعاد والتفرُّقِ
لنلتقي[١] بالذكر إن لم نلتقِ

فأجابه : أخذتَ أطال الله بقاءك أولَ هذه الأبيات ممـا أمليته عليك من قول جميل[٢] :

وما صادياتٌ حُمْنَ يوماً وليلةً ... على الماء يخشين[٣] العِصِىَّ حوانى
كواعبُ[٤] لم يصدُرْن عنه لِوِجْهَةٍ ... ولا هنَّ من بَرْدِ الحِياض دَوانى
يَرَيْنَ حَبابَ المـاء والموتُ دونهُ ... فهنَّ لأصواتِ السُّقاةِ رَوانى
بأكثرَ منى غُـلةً وَصَبابةً ... إليكِ ولـكنَّ العدوَّ عرانى[٥]

وأخذتَ آخرها من قول رُؤْبَة بن العجاج[٦] :

إنِّى وإنْ لَمْ تَرَنى فإنَّنى ... أخوك والرَّاعِى إذا[٧] اسْتَرْعَيْتَنى
أَراكَ بالوُدّ وإنْ لم تَرَنِى

قال : فاستخفَّنى[٨] فى ذلك ونسب إلىّ سوءَ الادب .

ابن المعتز

وكان أبو العباس عبد الله بن المعتز فى المنصب العالى من الشعر والنثر ، وفى النهاية فى إشراق ديباجَةِ البيان، والغاية من رقَّةِ حاشية اللسان . وكان كما قال ابن المرزبان: إذا انصرف من بديع الشعر إلى رقيقِ النَّثْر أتى بحلال السحر ، وليس بعد ذى الرُّمة أكثرُ افتنانا وأكبرُ تصرّفا وإحسانا فى التشبيه منه . وإنما فرقتُ جُمْلة ما اخترتُ من شعره ونَثْره فى جملة هذا الـكتاب ؛ لئلّا أخرج عما تقدّم به الشرط فى البسط ، وآتى ههنا ببعض ما أختاره له . قال :

بعض المختار له

وفِتيَانٍ سَرَوْا والليلُ داجٍ ... وضوءُ الصبح متَّهمُ الطّلوعِ
كأن بُزاتِهم أمراءُ جيشٍ ... على أكتافهم صدأُ الدروعِ

(١) فى الديوان : نلتقى . (٢) ديوانه : ٦٢ ، المختار من شعر بشار : ٥٤ .
(٣) فى المختار : يحيين العصى حرانى ، وفى ق : يغشين . (٤) فى المختار : لواغب لا يصدرن
(٥) فى المختار : عدانى . (٦) المختار من شعر بشار : ٥٤ . (٧) فى المختار : الذى
(٨) فى س : فاستجفنى .

من شعره أيضا

وقال أيضاً(١) :

في ليلةٍ أكل المحاقُ هلالَها حتى تبدَّى مثلَ وقف العاجِ(٢)
والصبحُ يتلو المشترى فكأنَّهُ عُرْيان يَمْشِي في الدُّجا بسِرَاجِ

وقال أيضا يصف فرسا(٣) :

ولقد غدوت على طِمِرٍّ سابحٍ(٤) عقدتْ سناَبكه عَجاجَةَ قَسْطَلِ
متلثِّم لجُم الحديد يَلُوكُها لوكَ الفتاة مساوِكاً من إسْحِلِ(٥)
ومُحجَّل غير اليمين كأنَّه متبختر(٦) يَمْشِي بكمٍّ مُسْبَلِ

وقال(٧) :

قد أغتَدِي بقَارِحٍ مُسَوَّمٍ يَعْبُوبِ(٨)
ينفي الحَصَى بحافرٍ كالقَدَح المكبوب
قد(٩) ضحكت غُرَّتهُ في موضع التَّقطيبِ

وقال أيضاً :

ولقد وطئتُ الغيثَ يحملُني طِرْفٌ كلَوْنِ الصبح حين وَفَدْ(١٠)
جمَّاع أَطْرَاف الصُّوار(١١) فما الْـ أُخرى عليه إذا جَرَى بأشَدْ
يمشي فيعرض في العِنان كما صدف المعشَّق ذو الدّلالِ وصَدْ
فكأنه موجٌ يذوب إذا أطلقتهُ فإذا حبست جمَدْ

---

(١) ديوانه : ٢ — ٧٤ . (٢) الوقف : السوار .
(٣) ديوانه : ٢ — ١٢٦ . (٤) في الديوان : قارح رفعت حوافره غمامة ...
(٥) الإسحل بالكسر : شجر يستاك به . (٦) في س : متجشم .
(٧) ديوانه : ٢ — ٩٦ . (٨) اليعبوب : الفرس السريع الطويل ، أو الجواد السهل في عدوه . (٩) في الديوان : وضحكت . (١٠) في س : وقد .
(١١) الصوار : القطيع من البقر .

وقال أيضاً يصف سيفاً[١] :

وَلِي صارمٌ فيه المنايا كَوَامِنٌ ... فما يُنتضى إلاَّ لسَفْكِ دِماءِ

ترى فَوْقَ متْنَيْه الفِرْنَدَ كأنهُ ... بقيــةُ غَيْمٍ رَقّ دُونَ سَماءِ

وقال يَصِفُ ناراً[٢] :

مشهَّرةٌ لا يحجب النخلُ ضوءَها ... كأنّ سيوفا بين عيـدانها تُجْلى

يفرّج أَغصان الوقود اضطرامُها ... كما شقّت الشقراء[٣] عن متنها جلا[٤]

* * *

من كلام أهل العصر فى النار

وقال بعض أهل العصر وهو السَّرى الموصلّى[٥] :

يوم رذاذ مُمَسَّك الحجُبِ ... يَضْحَكُ فيه السرورُ من كَثَبِ

ومجلسٍ أُسبلت ستائرُهُ ... على شموسِ البهاء والحسبِ

وقد جرت خيلُ راحنا خَبَبًا ... فى حَلْبها[٦] أو هممن بالخببِ

والتهبت نارنا فمنظَرُها ... يُغْنِيك عن كل منظرٍ عجب

إذا ارتمت بالشرار فاطَّردت ... على ذُرَاها مطارد اللَّهَب

رأيت ياقوتةً مشبــكةً ... تطيرُ عنهــا قُراضَةُ الذهب

فانهض إلى المجلس الذى ابتسمت ... فيـــه رياضُ الجمالِ والأدبِ

وقال بعض أهل العصر وهو أبو الفرج الببغا :

فحماً قدّم الغلام فأَهْدَى ... فى كوانينه حياةَ النُّفُوسِ

كانَ كالآبنوس غَيْر محلًّى ... فغدا وهو مُذْهب الآبنوسِ

لقى النـارَ فى ثيابِ حِدَادٍ ... فــكسته مُصَبَّغاتِ عَرُوسِ

---

(١) ديوانه : ٢ ــ ١٠٥ . (٢) ديوانه : ٢ ــ ١٢٧ .

(٣) الشقراء : اسم فرس ، وارجع إلى القاموس ــ مادة شقر .

(٤) رواية البيت فى ديوانه : تفرج أغصان الوقود إذا التقت ... إذا شقت الشقراء عرفتها حلا

(٥) يتيمة الدهر : ٢ ــ ١٥٩ . (٦) فى اليتيمة : فى جريها .

وقال أبو الفضل الميكالى :

كأن الشَّرارَ على نارِنا ... وقد راقَ مَنْظَرُها كلّ عَيْن

سُحَالَةُ تِبْرٍ إذا ماعلا[1] ... فإمّا هَوَى فَفُتات اللُّجيْن

* * *

رجع إلى ابن المعتز

وقال ابن المعتز يصف سحابةً[2] :

ومُوقرةٍ بثِقل الماء جاءتْ ... تَهادى فوق أعناقِ الرياحِ

فباتت[3] ليلها سَحًّا ووَبْلًا ... وهطلا مثل أفواه الجِرَاحِ

كأن سماءها لــمّا تجلّتْ ... خِلالَ نجومها عند الصباحِ

رياضُ بَنَفْسَج خَضِلٍ[4] ثراهُ ... تفتّح بينه نَوْرُ[5] الأقاحِ

وقال :

ولُجةٍ للمنايا خُضْتُ غمرتها ... بصارم ذكرٍ صَمْصامَةٍ خَذِمِ[6]

وقارحٍ صبغ الخِيلانُ دُهْمَتَهُ ... بشُهْبةٍ كاختلاط الصّبْحِ بالظُّلَم

وقال[7] :

وليلٍ ككُحْل العين خُضْتُ ظلامَه ... بأزرقَ لمَّاعٍ وأبيضَ صارمِ

ومَضْبورةِ الأعضادِ[8] حَرْفٍ كأنها[9] ... تصافح رَضْراض الحصى بمَناسِمِ[10]

وقال يصف حيّة :

نَعتُّ رقطاءَ لا يُحيى لرُقْيتها ... لو قدَّها السَّيف لم يعلق به بَلَلُ

تلقى إذا انسلخت فى الأرض جلدتها ... كأنها كُمّ دِرعٍ قدَّهُ بَطَلُ

---

(١) فى س : ما بدا . (٢) ديوانه : ٢ — ١١٠ . (٣) فى الديوان : فجاءت

(٤) فى الديوان ، س : نداه ، وخضل : ندى . (٥) فى الديوان : ورد .

(٦) خذم : قاطع . (٧) ديوانه : ٢ — ١٢٨ . (٨) فى الديوان : وطيارة بالرحل .

(٩) فى س : كأنما . (١٠) فى الديوان : بجماجم .

وقال أيضاً[١] :

وأسأرَ[٢] منى الدهرُ عَضْباً مُهَنَّدًا   يفُلُّ شَباً حَظّى[٣] وقلباً مشيَّعا
ورأياً كمرآة الصَّنَاع أرى بهِ   سرائرَ غَيْبِ الدهر من حيث ماسعى[٤]

* * *

بعض النقد

أخذه من قول المنصور لابنه المهدى : لا تُبْرِمنّ أمراً حتى تفكّر فيه ، فإن فِكْرة العاقل مرآته ، تريه قبحه وحسنه .

ولما دُفِنَ المنصور وقف الربيعُ على قبره فقال : رَحِمَك اللهُ يا أَمير المؤمنين ، وغفر لكَ ؛ فقد كان لك حِمًى من العقل لا يطيرُ به الجهل ؛ وكنت ترى باطنَ الأمر بمرآةٍ من الرأى ، كما ترى ظاهره . ثم التفت إلى يحيى بن محمد أخى المنصور فقال: هذا كما قال أبو دَهْبل[٥] الجمحى :

عُقِم النساء فما يَلِدْن شَبيهه   إنّ النساءَ بمثله عُقْمُ

وبعده :

متهلّلٌ بنَعَمْ بِلَا متباعدٌ   سِيَّان منه الوفْرُ والعدمُ
نَزْر الكلامِ من الحياء تخالهُ   ضَمِناً[٦] وليس بجسمه سقمُ

أخذ البيت الأَخير من قول ليلى الأخيلية[٧] :

لا تقرَبَنَّ الدهرَ آل مُطرِّفٍ   إنْ ظالمًا يوماً وإنْ مظْلُوما
قومٌ رِباطُ الخيلِ حَوْلَ بُيُوتهم   وأسنةٌ زرقٌ[٨] يُخلْنَ نُجُوما
وممزَّق[٩] عنهُ القميص تَخَالهُ   وسطَ البيوت من الحياءِ سقيما
حتى إذا رُفِع اللواءُ رأيتهُ   يوم الهياج على الخميس زعيما[١٠]

(١) ديوانه : ١ــ ٤٠ . (٢) فى الديوان : وغادر . (٣) فى الديوان : خصمى .
(٤) هذا البيت ليس فى الديوان . (٥) فى ط ، ق : دعبل .
(٦) ضمن: مريض. (٧) قالت هذه الأبيات فى مدح آل مطرف ــ شاعرات العرب: ١٥١
(٨) فى ط : وأسنة زرقا . (٩) فى الشاعرات ، س : ومخرق .
(١٠) اللواء : الراية ، والخميس : الجيش ، والزعيم : الرئيس .

وقال :

يُشَبَّهون ملوكا فى تجلّتهم وطول أَنْصِبَة[١] الأَعْنَاق واللِّمَم

إذا بَدا المسك يَجْرِى فى مفارقهم راحُوا كأنهم مَرْضى من الكرم

وقال أبو على الحاتمى : وما أحسن أبياتا أنشدها أبو عمر[٢] المطرز غلام ثعلب يعترض فى أثنائها هذا المعنى :

تخالُهُم للحلم صُمًّا عن الخنَا وخُرْساً عن الفَحْشَاء عند التَّهَاتُرِ

ومَرْضَى إذا لاقوا حيـاءً وعِفّةً وعند الحروب كالليوث الخَوَادرِ

لهم عزٌّ إنصافٍ وذلُّ تواضع بهم ولهم ذَلَّتْ رِقابُ العشائر

كأنَّ بهم وَصْماً يخافون عارهُ وليس بهم[٣] إلاَّ اتقاءُ المَعَايِرِ

وأنشد :

أحْـلام عادٍ لا يخَافُ جَليسهُم ـوإنْ[٤] نطَق العَوْراء ـ عَيْبَ[٥] لسانِ

إذا حُـدّثوا لم يُخْشَ سوءُ استماعهم وإن حَدَّثوا أدَّوْا بحُسْن بيان

***

رجع إلى قول ابن المعتز

وقال ابن المعتز[٦] :

وعاقد زُنّارٍ[٧] على غُصُن الآس دقيق المَعَانِى مُخْطَفِ[٨] الخصر ميَّاس

سقانى عُقاراً صَبَّ فيها مِزَاجها[٩] فأَضْحَكَ عن ثغرِ الحباب فَمَ الكاس

وقال[١٠] :

يا ليـلةً نَسِىَ[١١] الزمانُ بها أَحْدَاثه ، كُونِى بلا فَجْرِ

(١) الأنصبة : جمع نصاب وهو الأصل ، وفى ق : منصبة . (٢) فى ط : أبو عمرو .
(٣) فى س : لهم . (٤) فى س : إذا . (٥) فى س ، ق : عذب .
(٦) ديوانه : ٢ ـ ٤٩ . (٧) أصل الزنار : ما على وسط النصارى والمجوس .
(٨) فى الديوان : رقيق ، ومخطف الخصر : ضامره . (٩) مزاج الشراب : مايمزج به .
(١٠) ديوانه : ٢ ـ ١٢١ . (١١) فى س : ينسى .

فاح المساء[١] ببدرها وَوَشَتْ فيها الصَّبا بمواقع القَطْرِ
ثم انقضت والقَلْبُ يَتْبَعُها فى حيث ماسقطتْ مِنَ الدَّهْرِ

وقال[٢] :

يا رُبَّ إخوانٍ صحبتهمُ لا يملكون لِسَلْوَةٍ قَلْبَا
لو تستطيع قلوبُهم نفرَتْ أجسامهم[٣] فتعانقت حُبّا

هذا كقول ابن الرومى[٤] :

أعانقه[٥] والنفسُ بَعْدُ مَشُوقةٌ إليه وهل بَعْدَ العِناق تَدانى
وألثم فاه كى تَزُولَ حَرَارَتى فيشتدّ ما ألقى من الهَيَمان
ولم يكُ مِقْدارُ الذى بى مِنَ الْهَوى[٦] ليرويَهُ ما تَرشُفُ الشَّفَتان[٧]
كأنّ فؤادى ليس يشفى غليلَهُ سوى أن يُرَى الروحان[٨] يمتزجانِ

ومن نثره

ومن منثوره: لا يزالُ الإخْوَانُ يسافرون فى المودَّة ، حتى يبلغوا الشُّقة ، فإذا بلغوها أَلقَوْا عَصَا التَّسيار ، واطمأنّت بهم الدار ، وأقبلت وفودُ النصائح ، وأمنت خَبايَا الضمائر ، فحلُّوا عُقَد التحفّظ ، ونزعوا ملابسَ التَّخَلُّق .

وله : سار فلان فى جيوشٍ عليهم أَرْدِيَة السيوف ، وأَقْمِصَةُ[٩] الحديد ، وكأنّ رِماحَهم قرونُ الوُعُولِ، وكأنّ دُروعَهم[١٠] زَبَدُ السيولِ ، على خيل تَأْكُل الأرضَ بحوافرها ، وتمدّ بالنَّقْعِ سُرادقها ، قد نُشرت فى وجوهها غُرَر كأنها صحائف الرّق ، وأمسكها تحجيلٌ كأنه أسورة اللّجين ، وقُرِّطت عُذُراً كأنها الشَّنف ، تتلقّف الأعداء أوائله ولَم تَنْهَضْ أواخره ، قد صُبَّ عليهم وقارُ الصبر ، وهبَّت معهم ريح النَّصر .

(١) فى الديوان : راح الزمان . (٢) ديوانه: ١–١٠٥ . (٣) فى الديوان : فقدت أجسادها وتعانقت . (٤) ديوانه : ٢٧ . (٥) فى الديوان : أعانقها . (٦) فى س : الجوى .
(٧) فى الديوان : وما كان مقدار الذى بى من الجوى ليشفيه ما تلثم ... وفى ق ، س : ما قد ترشف الشفتان . (٨) فى الديوان : الروحين . (٩) فى س : قمصان .
(١٠) فى س : أدراعهم .

وله فى عليل : آذنَ اللهُ فى شفائك ، وَتَلَقَّى داءَكَ بدوائك ، ومسحَ بيدِ العافيةِ عليك ، ووجَّه وَفْدَ السلامة إليك ، وجعل عِلَّتك ماحيةً لذنوبك ، مضاعِفَةً لثوابك .

وكتب إلى عبيد الله بن سليمان بن وَهب فى يوم عيد : أَخَّرَتْنى العِلَّةُ عن الوزير أعزَّه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لِيَنُوبَ عنى ، ويَعْمُر ما أَخْلَتْه العوائِقُ منى ، وأنا أسألُ اللهَ تعالى أن يجعلَ هذا العيدَ أَعْظَمَ الأَعيادِ السالفةِ بركةً على الوزير ، ودونَ الأعيادِ المستقبَلة فيما يُحِبُّ ويُحَبُّ له ، ويَقْبل ما توسّل به إلى مَرْضَاته ، ويضاعفُ الإحسانَ إليه ، على الإحسان منه ، ويمتّعه بصحبةِ النعمة ، ولباسِ العافية ، ولا يُريه فى مسرَّةٍ نقصاً ، ولا يقطع عنه مَزِيدا ، ويجعلنى من كل سوءٍ فِدَاه ، ويصرف عيون الغير عنه ، وعن حظّى منه.

وله إلى بعض الرؤساء : لاتَشِنْ حُسْنَ الظّفَر بقُبحِ الانتقامِ ، وتجاوز عن كل مُذْنِب لم يَسْلُكْ من الأقدار [(١)] طريقا حتى اتّخذ من رجاء عَفْوِكَ رفيقا .

وله اعتذار إلى القاسم بن عبيد الله : ترفّع عن ظُلْمِى إن كنتُ بريئاً ، وتفضَّل بالعفو إن كنتُ مسيئاً، فوالله إنى لأَطْلُبُ عَفْوَ ذَنْبٍ لم أَجْنِه ، وأَلْتَمِس الإقالةَ مما لا أعرفه ؛ لتزدَاد تطوّلا وأزداد تذَلّلا ؛ وأنا أُعِيذُ حالى عندكَ بكرمك من واشٍ يكيدها ، وأحْرُسها بوفائك من باغٍ يحاوِلُ إفسادها ، وأسأل الله تعالى أنْ يجعلَ حظِّى منك بقدر وُدِّى لك ؛ ومحلّى من رجائك بحيث أسْتَحقُّ منك .

وله إليه : لوكان فى الصمتِ مَوضعٌ يَسَعُ حالى لخففْت عن سَمْعِ الوزيرِ ونَظَرِه، ولم أشغل وَجْهاً من فِكْره ؛ وما زالت الشكوى تُعْرِبُ عن لسانِ البَلْوَى ، ومن اختلّت حالته كان فى الصَّمْتِ هَلَكَتُه ، وقد كان الصبرُ ينصرُنِى على سَتْرِ أمْرِى حتى خذلنى .

---

(١) فى ط : الأعذار .

وهذا كقول أحمد بن إسماعيل : فصاحةُ الشكوى على قَدْرِ البلوى ، إلا أن يكونَ بالشاكى انقباضٌ ، وبالمشكوِّ إليه إعْرَاض .

[وصف الماء وما يتصل به]

وقد أحسن أبو العباس بن المعتز فى صفة الماء فى أرجوزته التى أنشدتها آنفاً .
وقد قال فى قصيدة له وذكر إبلا [١] :

فتبدَّى لهن بالنَّجف المد ... بر ماءٌ صافى الجمام عَرِىٌّ [٢]
يتمشّى على حصى يسلب [٣] الما ... ء قَذَاه فمَتْنُه مَجْلِىٌّ [٤]
وإذا داخلته دُرَّةُ [٥] شَمْسٍ ... خِلْته كُسِّرت عليه الحلىّ

وقال [٦] :

لا مثل منزلة الدُّوَيرة منزلٌ ... يادارُ جادكِ وَابِلٌ وسقاكِ
بُؤساً لدَهْرٍ غيرتك صروفهُ ... لم يَمحُ من قلبى الهوى ومحاكِ
لم يَحْلُ للعينين بعدك منظرٌ [٧] ... ذُمَّ المنازل كلّهنَّ سِوَاكِ
أىّ المعاهد منك أَنْدُبُ طِيبَهُ ... مُمْساكِ بالآصال [٨] أم مَغْدَاكِ
أم بَرْدُ ظلّك ذى الغصون وذى الجنى [٩] ... أم أَرضك الميثاء أم رَيّاكِ [١٠]
وكأنما سطعت [١١] مجامرُ عنبرٍ ... أو فُتَّ فأْرُ المسكِ فوق ثراكِ
وكأنما حَصْبَاءُ أرضك جَوْهَرٌ ... وكأنَّ ماءَ الوَرْدِ دَمْعُ نداكِ

---

(١) ديوانه : ١ — ٦١ . (٢) فى الديوان : فتبدى لهن بالنجف المقفى .
(٣) فى ق : يسكب . (٤) فى الديوان : يتمشى على حصى سلب الريح .
(٥) فى الديوان : ضاحكته ، وفى س : غرة. (٦) ديوانه : ٢ — ٨٨ ، المختار من شعر بشار : ٢٦٤ ، ديوان المعانى : ٢ — ١٠ . (٧) فى المختار : منزل .
(٨) فى الديوان والمختار ، س : ذا الآصال . (٩) فى الديوان : الحيا ، وفى المختار: وذى الندى . (١٠) فى الديوان : أم مرباك ، والميثاء : اللينة .
(١١) فى الديوان : سقطت .

[وكأنما أيدى الربيع ضُحَيَّةً نشرتْ ثيابَ الوَشْى فوق رُباك][1]
وكأنّ دِرْعاً مُفرغا من فِضَّةٍ ماءُ الغدير جرَتْ عليه صَبَاكِ

وعشقت عاتكة المرية ابنَ عمٍّ لها فراودها عن نفسها فقالت[2] :

فما طَعْمُ ماءٍ أىّ ماء تَقولُهُ تحدَّر عن غُرٍّ طوالِ الذوائبِ
بمنعرَج من بَطْنِ وَادٍ تقابلتْ عليه رياحُ الصيفِ من كل جانبِ
نَفَتْ جرْيَةُ الماء القَذَى عن متونه فما إن به عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَاربِ
بأطيبَ ممن يقصِر الطّرْف دونَهُ تُقَى الله واستحياءُ بَعْضِ العواقبِ

وأنشد الأصمعى قال : أنشدنى أبو عمرو بن العلاء لجابر بن الأرق[3] وقال : هو أحْسَنُ ما قيلَ فى معناه :

أيا وَيْحَ نَفْسِى كلما الْتَحتُ[4] لوحةً على شَرْبَةٍ من ماء أحْوَاضِ مَأْربِ
بقايا نِطَافٍ[5] أوْدَعَ الغيم صَفْوها مصقَّلة الأرْجاء زُرْق المَشَارِبِ
ترقرق دَمْعُ المزن فيهنّ والْتَوتْ عليهن أنفَاسُ الرياح الغرائب

وأنشد إسحاق بن إبراهيم للأُبَيْرِد اليربوعى ورويت لمضرِّس بن رِبعى الأَسدى[6] :

فألقتْ عَصَا التَّسْيَارِ عنها وخَيَّمت بأرْجاءِ عَذْبِ الماءِ زُرْقٍ[7] مَحافِرُهْ
أزال القَذَى عن مائه وَافِدُ الصَّبا يروحُ عليه ناسماً ويُباكِره

واول من أتى بهذا زهير بن أبى سلمى فى قوله[8] :

فلمَّا وردْنَ الماءَ زُرقا جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِىَّ الحاضرِ المتخَيِّمِ[9]

(١) من س ، ق . (٢) شاعرات العرب : ٢٠١ . (٣) فى س : رالاق .
(٤) التاح : عطش . (٥) النطفة : الماء الصافى، وجمعه نطاف .
(٦) فى شرح ديوان زهير: منسوب إلى الأول صفحة ١٤ .
(٧) فى شرح ديوان زهير : بيض ، وفى س : زرق الماء عذب . (٨) ديوانه : ١٣ .
(٩) الجمام : ما اجتمع من الماء . وضعن عصى : أقمن . المتخيم: المقيم .

وقال ابن الرومى :

وماءٌ جَلَتْ عن حُرِّ صفحته الْقَذَى ... من الريح مِعْطَارُ الأَصائِلِ والبُكَرْ

به عَبَق مِمَّا تَسَحَّبَ فوقَهُ ... نسيمُ الصبا يَجْرِى على النَّوْرِ والزَّهَرْ

[وصف الدور والقصور]

بركة الجعفرى للبحترى

ويتعلق بهذا الباب قولُ البحترى يصف بركة الجعفرى وهو قصر ابتناه المتوكل فى سُرَّ من رأى (١) :

يامَنْ رَأى البِركَةَ الحسناءَ ورونقها (٢) ... والآنسات إِذَا لَاحَتْ (٣) مَغَانيها

مابالُ دجلة كالغَيْرَى تُنَافِسُها ... فى الحُسْنِ طَوْراً وأَطْوَارا تُبَاهيها !

إذا عَلَتْهَا الصَّبا أبْدَت لها حُبُكا ... من الجواشِنِ (٤) مَصْقولاً حَوَاشيها

فحاجبُ الشمسِ أحيانا يُغَازِلُها (٥) ... ورَيِّقُ الغيث أحياناً يُبَاكِيها

إذا النجومُ تراءَتْ فى جوانبها ... ليلًا حسِبْتَ سماءً رُكِّبَتْ فيها

كأنما الفِضَّةُ البيضاءُ سائلةً ... من السَّبائك تَجْرى فى مَجَارِيهَا

تنصبُّ فيها وفودُ الماء مُعْجَلةً ... كالخيلِ خارجةً من حَبْلِ مُجْرِيها

كأنَّ جنَّ سليمان الذين وَلُوا ... إبداعَهَا فأَدَقُّوا فى مَعَانيها

فلو تمرُّ بها بِلْقيسُ معرضةً (٦) ... قالت : هى الصَّرْحُ تمثيلًا وتشبيها

[لا يبلغ السمكُ المقصور غايتها ... لِبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها] (٧)

يَعُمْنَ فيها بأَوْسَاطٍ مُجَنَّحةٍ ... كالطَّيْر تنشر (٨) فى جوٍّ خَوَافِيها

---

(١) النويرى : ١ — ٢٨٥ ، المختار من شعر بشار : ٣١٩ ، ديوانه : ٢ — ٣١٩ .

(٢) فى الديوان : الحسناء رؤيتها . (٣) فى النويرى : التى لاحت .

(٤) الحبك من الماء : الجعد المتكسر ، والجوشن : الصدر ، والدرع .

(٥) فى الديوان : يضاحكها . (٦) فى الديوان والنويرى : عن عرض .

(٧) من ق ، س . (٨) فى الديوان : تنقض .

دور المتوكل لعلى بن الجهم

ولم يُنفِقْ أحدٌ من خلفاء بنى العباس فى البناء ما أنْفقَه المتوكل ؛ وذلك أنه أنفق فى أبنيته ثلثمائة ألف ألف . وفى أبنيته يقول على بن الجهم[1] :

وما زِلتُ أَسْمَع أنَّ الملو … كَ تَبْنى على قَدْرِ أَخْطَارِها
وأعلمُ أنَّ عقولَ الرجا … لِ يُقضَى عليها بآثارها
صُحونٌ تسافر فيها العُيون … فتَحْسِر[2] من بُعْد أقْطَارِها
وقُبَّةُ مُلْكٍ كأنَّ النجو … م تُفضى إليها[3] بأسْرَارها
إذا أُوقِدَت نَارُها بالعراق … أضاءَ الحِجازَ سَنَا نَارِها
لها شُرُفات كأنّ الربيع … كساها الرّياض بأنْوَارِها
فهنّ كمصطحباتٍ خَرَجْنَ … لِفصْح[4] النّصارى وإفطارها
نظمن القِسِيَّ كنظم الحلى … بعُونِ النساء وأبْكارِها
فمن بين عاقصةٍ شعْرَها … ومُصلحة عَقْد زُنَّارها[5]

للبحترى

وللبحترى فيها شعرٌ كثير منه[6] :

أرى المتوكليّة قد تعالَتْ … مصانعها[7] وأكملت التماما
قصور كالكواكب لامِعَاتٌ … يكدن يُضِئن للسارِى الظّلاما
وروض[8] مثل بُرْدِ الوَشْى فيه … جنى الحَوْذان ينشر والخُزَامى[9]
غرائب من فنون النَّور[10] فيها … جَنَى الزهر الفُرادى والتّؤاما
يضاحك نورها[11] طوراً وطوراً … عليه الغيم[12] ينسجمُ انسجاما

(١) ديوان على بن الجهم : ٢٨ ، الأغانى : ١٠ — ٢٣٣ .
(٢) حسر البصر : كلّ وانقطع من طول مدى ، وفى س : عن بعد. (٣) فى ق : إليه .
(٤) فصح النصارى : عيدهم . (٥) الزنار : ما على وسط النصارى والمجوس .
(٦) ديوانه : ٢—٢٢٥ . (٧) فى الديوان : محاسنها . (٨) فى الديوان : وبر .
(٩) الحوذان والخزامى : من النباتات . (١٠) فى الديوان : النبت .
(١١) فى الديوان : تضاحكها الضحى . (١٢) فى الديوان ، س : عليها الغيث .

ولو لم يستهلّ لها غمامٌ بريّقه لكنت لها غماما[١]

وقال أيضاً[٢] :

قد تمّ حُسْن الجعفرىّ ولم يكن ليتمّ إلاّ للخليفة جعفرِ
ملكٌ تبوّأ خيرَ دارٍ أُنشئت [فى خير مبدى[٣] للأنام ومحضرِ][٤]
[فى رأس مشرفة حصاها لؤلؤ][٤] وترابُها مِسْكٌ يُشابُ بعَنْبرِ
مخضرّة والغيثُ ليس بساكبٍ ومضيئة والليلُ ليس بمُقْمِرِ
رفعت بمُنْخرق الرياح وجاورت ظِلَّ الغمام الصيِّب المستعبر[٥]

وبعده :

ورفعت بُنْيانا كأن زُهاءَهُ[٦] أعلامُ رَضْوَى أو شواهق ضَيْبر[٧]
عالٍ على لَحْظِ العيونِ كأنما ينظرنَ منه إلى بياضِ المشترى
ملأت جوانبُه الفضاءَ وعانقتْ شُرفاته قِطَعَ السحابِ المُمْطِر
وتسيل[٨] دجلة تَحْتَه ففِناؤُهُ من لُجة فُرِشت[٩] ورَوْض أَخْضر
شجر تُلاعِبه الرياحُ فتنثنى أعطافُه فى سائحٍ متفجِّرِ

الصنوبرى يصف موضعا

أخذ أبو بكر الصنوبرى قولَ البحترى فى صفة البركة فقال يصف موضعا[١٠] :

سقى حلباً سافكٌ دَمعهُ بَطِئُ الرُّقُوءِ[١١] إذا ماسَفَكْ
مَيادينَه بُسطهنّ[١٢] الرياض وساحاتُه[١٣] بينهن البِرَكْ

---

(١) ريق الشباب : أوله وأصله . (٢) ديوانه : ١ ــ ٢١٣ . (٣) فى ق : بدو .
(٤) من س ، ق . (٥) رواية هذا البيت فى الديوان :
ظهرت لمخترق الشمال وجاورت ظلل الغمام الصائب المستغزر
(٦) فى الديوان : مناره . (٧) فى ط ، ق : مثبر ، وفى الديوان : صبير ، وفى س : مسبر ، وصنبر ، وأرجح ما أثبت عن معجم مااستعجم : ٨٨٤ . (٨) فى الديوان : وتسير .
(٩) فى الديوان ، س : من لجة غمر . (١٠) المختار من شعر بشار : ٢٦٤ .
(١١) رقأ الدمع : جف وسكن . (١٢) فى المختار : ميادينها وسطهن .
(١٣) فى المختار : وساحاتها وسطهن .

ترى الريح تَنْسِج من مائِهِ[(١)] ... دُرُوعاً مضاعَفةً أو شَبَكْ
كأن الزجاجَ عليهـا أذيبَ ... وماء اللُّجَيْنِ بها قد سُبِكْ
هى الجوُّ من رِقَّة غير أنَّ ... مكانَ الطيورِ يَطِيرُ السَّمَكْ
وقد نُظِمَ الزهر نظام النجوم ... فمفترق النَّظم أو مشتبك
كما درَّج الماءَ مَرُّ الصَّبا ... ودبَّجَ وجهَ السماءِ الحُبُكْ
يُبَاهِين أعـلام قُمص القِيان ... ونَقْشَ عَصاَئِبها والتِّـكَكْ[(٢)]

وأخذ قوله : * إِذا النُّجوم تراءَتْ فى جَوَانبها * فقال :

ولـما تعالى البدرُ وامتدَّ ضوءُهُ ... بدجلة فى تشرين فى الطّولِ والعَرْضِ
وقد قابل المـاء المفضض نورهُ ... وبعضُ نجوم الليل يَقْفُو سَنَا بَعْضِ
توهَّم ذُو العين البصيرة أنهُ ... يرى باطنَ الأفلاكِ مِنْ ظَاهِرِ الأرضِ

ولأهلِ العصر فى هـذا النَّحوِ كلامٌ كثير : قال الأمير أبو الفضل الميكالى ، يصف بركة وقع عليها شعاع الشمس فألقته على مَهْو[(٣)] مطلّ عليها يقول :

أما ترى البركة الغراء قد لبسَتْ ... نوراً من الشمس فى حافاتها سطَعَا
والمَهْو من فوقها يُلْهِيك منظرُهُ ... كأنهُ ملكٌ فى دَسْته ارتفعَا[(٤)]
والمــاء من تحته ألقى الشعاع على ... أعلى سماواته فارتَجَّ مُلْتَمِعا
كأنه السيفُ مصقولًا تُقَلِّبُه ... كفُّ الـكمىِّ إلى ضَرْبِ الـكمىّ سَعَى

الإيادى يصف دار البحر

وقال على بن محمد الإيادى يمدح المعزّ ويصف دار البحر بالمنصورية :

ولـما استطال المَجْدُ واستولت البُنى ... على النَّجْم واشتدّ الرواق المروّقُ[(٥)]
بنى قبـةً للملك فى وَسْطِ جَنَّةٍ ... لها منظرٌ يُزهى به الطَّرْف مُونِقُ
بمشوقة الساحات أمَّا عِراصُها ... فخضرٌ وأمّا طيرها فهى نُطَّقُ

---

(١) فى المختار ، س : من مائها . (٢) القمص . جمع قميص ، والتكة : رباط السراويل ، وجمعها تـكك . (٣) فى ط : بهو ، وهذا من ق ، س . والمهو : الحصى الأبيض .
(٤) فى ط : والمهو ، والدست : صدرالبيت . (٥) بيت مروق: له رواق.

تحفّ بقَصْرٍ ذى قُصُورٍ كأنما … ترى البحر فى أرجائه وهو مُتْأَق(١)

له بركةٌ للماء مِلْء فضائه … تَخُبُّ بقصريها العيون وتعنق(٢)

لها جَدْولٌ ينْصَبُّ فيها كأنهُ … حُسَامٌ جَلَاه القَيْن بالأَرْضِ مُلْصَقُ

لها مَجْلِسٌ قد قام فى وَسْط مائِها … كما قام فى فَيْض الفراتِ الخَوَرْنَق(٣)

كأنَّ صفاءَ الماءِ فيها وحُسْنَهُ … زُجاجٌ صَفَتْ أرجاؤه فهو أزرقُ

إذا بثّ فيها الليلُ أشْخاصَ نَجْمِهِ … رأيتَ وجوهَ الزنج(٤) بالنارِ تُحْرَقُ

وإن صافَحَتْها الشمسُ لاحَتْ كأنها … فِرندٌ على تاج المُعِزِّ ورَوْنَقُ

كأن شُرافات المَقَاصر حولها … عَذارى عليهنّ المُلَاءُ المُمَنْطَق

يذوب الجفاء الجَمْد عن وَجْهِ مائها … كما ذاب آلُ الصَّحْصَحانِ(٥) المُرَقْرَق

النهشلى يصف موضعا

وقال عبد الكريم بن إبراهيم :

يا ربَّ فتيان صِدْقٍ رُحْتُ بينهمُ … والشمس كالدَّنِف المشوقِ(٦) فى الأُفُقِ

مَرْضَى أصائِلُها حسْرَى شمائِلُها … تروّح الغُصُن المَطْور فى الوَرَقِ

مُعَاطِيا شمسَ إبريقٍ إذا مُزِجَتْ … تقلَّدَتْ عِقْدَ مرجان من النَّزَقِ

عن ماحِلٍ طافحٍ بالماء مُعْتَلج … كأنما(٧) نَفْسُه صِيغَتْ من الحدَقِ

تَضُمُّهُ الرِّيحُ أَحيانا وتَفْرِقُهُ … فالماء ما بَيْنَ محبوس ومُنْطَلِقِ

مِنْ أَخضر ناضرٍ والطَّلُّ يلحقهُ … وأبيض تحت قبطىِّ الضُّحَى يَقَقِ

تهزُّهُ الريحُ أحياناً فيمنحُها … للزَّجْر خَفْقَ فؤادِ العاشقِ القَلِقِ

كأنَّ حافاتِه نُطّقن من زبدٍ … مَنَاطقاً رُصِّعَتْ مِنْ لؤلؤ نَسَقِ

---

(١) أتأقته : ملأته . (٢) العنق والخبب : من أنواع السير ، والفعل من الأول أعنق : سارع وأسرع . (٣) الخورنق : اسم قصر . (٤) فى س : الماء .

(٥) هكذا فى كل الأصول، والآل : السراب . والصحصحان : موضع بين حلب وتدمر .

(٦) الدنف : المريض ، وفى س : كالدنف المشغوف . (٧) فى س : كأن نفسه .

كأن قُبَّتَه من سُنْدُسٍ نمطٍ[1] حسناء مجلوَّة اللبَّاتِ والعُنقِ
إذا تبلَّج فَجْرٌ فوق زُرْقَتِهِ حسبته فرساً دهْماء فى بَلَقِ
أو لا زَوَرْدًا جَرَى فى مَتْنِه ذَهَبٌ فلاح فى شارقٍ من مائِه شرِقِ
عشية كملت حُسناً وساعدَها ليلٌ يُمَدِّدُ أطنابا على الأُفُقِ
تجلى بغُرَّةِ وَضَّاح الجَبين له ماشئتَ من كَرَمٍ وافٍ ومن خُلُقِ

ألفاظ لأهل العصر فى وصف الماء وما يتصل به

ماء كالزُّجاج الأزرق . غديرٌ كعين الشمس . مَوَارِد كالمَبارِد ، وماء كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمْعة ، يسبح فى الرَّضْرَاض سَبْحَ النَّضْنَاض[2]، ماء أزرق كعَيْنِ السِّنَّور ، صاف كقضيب البلّور . ماء إذا مسَّتْه يَدُ النسيم حكى سَلَاسِلَ الفضة . ماء إذا صافحته رَاحةُ الريح لبسَ الدِّرْع كالمسيح . كأَنَّ الغَديرَ بتراب الماء رِدَاءٌ مُصَنْدَل . بركة كأنها مرآةُ السماء . برِكَة مَفْرُوزَةٌ[3] بالخضرة ، كأنَّها مرْآة مجلوّة ، على ديباجة خضراء . برْكةُ ماءٍ كأنها مِرْآةُ الصَّنَاع[4] . غدير رقرقت فيه دموع السحائب ، وتواترَتْ عليه أنفاسُ الرياح الغرائب . ماء زُرق جِمامُه ، طامية أَرْجَاؤه ، يَبُوحُ بأَسْرَاره صَفَاؤه ، وتلوحُ فى قراره حَصْبَاؤُه . ماء كأنما يفقده مَنْ يَشْهَدُه ، يتَسَلْسَل كالزَّرافين[5] ، ويرضع أَوْلَاد الرَّيَاحين . انحلَّ عقد السماء ، ووَهَى عقد الأَنْواء . انحلّ سلكُ القطر عن دُرِّ البَحْر . أَسْعَد السحاب جفونَ العُشَّاق[6] ، وأَكُفَّ الأجواد ، وانحلّ خَيْطُ السماء وانقطع شِرْيَانُ الغَمَامِ ، سحابة يتجلَّى عليها ماء البحر ، وتفضُّ علينا عقودَ الدّر . سحابٌ

(١) فى س : فى سندس نمط . (٢) حية نضناض : لا تستقر فى مكان ، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها ، أو التى أخرجت لسانها تنضنضه أى تحركه . (٣) ثوب مفروز : له تطاريف.
(٤) الصناع : المرأة الماهرة فيما تصنع . (٥) الزرافين : الحلق .
(٦) أسعد : من الإسعاد وهو المشاركة فى البكاء .

حكى المحبَّ فى انسكاب دموعِه ، والتهاب النارِ بين ضُلُوعِه . سحابة تحدو من الغيوم جِمالًا ، وتمدُّ من الأمطار حِبالا . سحابة ترسلُ الأَمطارَ أمواجاً ، والأمواجَ أفواجاً . تحلّلت عقـد السماء بالدِّيمةِ الهَطْلاء . غيث أَجشّ (١) يروى الهضاب والآكام (٢) ، ويُحيي النبات والسوام . غيثٌ كغزارة فَضْلِك ، وسلامة طبعك ، وسلامة عقدك ، وصفاء وُدِّك . وَبْل كالنبل . سحابة يَضْحَكُ من بُـكَائها الرَّوْض ، وتَخْضرّ من سَوَادِها الأَرْض . سحابة لا تجفُّ جفونُها ، ولا يَخِفّ أنينها . دِيمة روّت أديمَ الثرى ، ونبهت عيونَ النَّوْرِ من الْـكَرى . سحابةٌ ركبت أعْنَاق الرياح ، وسحّت كأفْوَاه الجِراح . مطر كأَفْوَاه القِرَب ، ووَحل إلى الرّكب ؛ أنْدِيَة مَنَّ الله معها على البيوت بالثُّبُوت ، وعلى السقوف بالوُقُوف . أقْبَل السَّيْلُ يَنْحَدِرُ انحدارا ، ويحمل أحجاراً وأشجارا ، كأن به جِنة ، أو فى أحشائه أجِنّة .

وبعض ما مرّ من هذه الألفاظ محلول نظام ما تقدّم إنشاده .

ولهم فى مقدمات المطر

لبست السماءُ جلبابها ، وسحبت السَّحَائِبُ أذيالها . قد احتجبت الشمسُ فى سُرَادِق الغَيْم ، ولبس الجوُّ مُطْرَفه (٣) الأَدْكَن . باحت الريحُ بأَسْرَارِ النَّدَى ، وضربت خَيْمَة الغمام ، ورشّ جيش النسيم ، وابتلّ جناحُ الهواء ، واغرورقت مُقْلَة السماء ، وبشر النسيم بالنّدَى ، واستمدّت الأرضُ للقطر . هبّتْ شمائِلُ الجَنَائِب ، لتأليف شَمْل السَّحَائب . تألفت أشتات الغيوم ، وأسبلت الستور على النجوم .

وفى الرعد والبرق

قام خطيبُ الرَّعْدِ ، ونبض عِرْقُ البَرْقِ . سحابة ارتجزت رَوَاعدها ، وأذهبت ببروقها مطاردها . نُطقَ لسانُ الرَّعدْ ، وخفق قَلْبُ البرق ، فالرَّعْدُ ذُو صخَب

(١) الأجش : الغليظ الصوت من الإنسان ومن الخيل ومن الرعد وغيره .

(٢) الآكام : جمع أكمة وهى التل . (٣) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .

والبَرْقُ ذو لهَب. ابتسم البَرْقُ عن قهقهة الرعد. زأرت أُسْد الرّعد، ولمعت سيوفُ البَرْقِ. رعدت [سيوفُ][١] الغمائم، وبَرَقَتْ، وانحلّت عَزَالِي [٢] السَّماء فطبقت. هدَرت رَوَاعدها، وقربت أباعِدها، وصدقت مَوَاعدها. كأنّ البرق قَلْبُ مَشُوق، بين التهابٍ وخُفُوق.

ويتصل بهذه الأنحاء

ما حكاه عمر بن على المطوعى قال: رأى الأميرُ السيد أبو الفضل عبيد الله بن أحمد — أدام الله عزه — أيام مقامه بجُوَيْن [٣] أن يطالِع قرية من قرى ضِياعه تدعى نَجَاب [٤] على سبيل التنزّه والتفرّج [٥]، فكنتُ فى جملةٍ من استصْحَبَه إليها من أصحابه، واتّفق أنّا وصلنا والسماء مُصْحِيَة، والجوُّ صاف لم يطرّز ثوبه بعلَمَ الغَمَام، والأفق فيروزج لم يَعْبَق به كافورُ السحاب؛ فوقع الاختيار على ظلّ شجرةٍ باسقةِ الفروع، متَّسِقَة الأَوْرَاق والغصون، قد سترت ما حوالَيهَا من الأَرْض طولا وعَرْضاً، فنزلنا تحتها مستظلّين بِسَمَاوَةِ [٦] أفْنَانِها، مستَتِرِينَ من وَهَج الشمس بِستارة أغصانها، وأخذْنَا نتجاذبُ أذْيَالَ المُذَاكرة، ونَتَسالب أهْدَابَ المُنَاشَدَةِ والمحاورة؛ فماشعرنا بالسّماء إلا وقد أرْعَدَتْ وأبرقت وأظلمَتْ بعدماأشرقت، ثم جادَتْ بِمطَرٍ كأفْوَاهِ القِرَب فأَجَادَتْ، وحَكَتْ أَنَامِلَ الأَجْوَادِ ومدامِع العُشّاقِ، بل أَوْفَتْ عليها وزادت، حتى كاد غيثُها يعودُ عَيْثا [٧]، وهمّ وَبْلُها أن يستحيلَ وَيْلاً؛ فصبرنا على أذاها، وقُلنَا: سَحَابَة صَيْفٍ عما قليلٍ تَقَشَّع، فإذا نحنُ بها قد أمطرتنا

---

(١) من س. (٢) العزالى: مصاب الماء. (٣) جوين: كورة بخراسان.
(٤) الضبط من س. (٥) فى س: التفرح. (٦) السماوة: السماء، والسقف.
(٧) العيث: الإفساد.

بَرَداً كالثُّغُورِ، لكنها من ثغور العَذاب ، لا من الثغور العِذاب، فأيقنَّا بالبَلاء وسلَّمنا لأسباب القضاء ؛ فما مرت الإساعةُ من النهار ، حتى سمعنا خَرِيرَ الأنهار ؛ ورأينا السَّيْلَ قد بلغ الزُّبَى، والماءَ قد غمَرَ القِيعان والرُّبَى[1]؛ فبادرنا إلى حِصْن القرية لائذين من السَّيْلِ بأفنيتها ، وعائذين من القطر بأبنيتها ، وأثوابنا قد صَنْدَل كافوريَّها ماء الوَبْل ، وغلَّف طِرازيَّها طينُ الوَحْل ، ونحن نحمدُ اللهَ تَعالى على سلامة الأبدان ، وإن فقدنا بياضَ الأكمام والأردان، ونشكره على سلامةِ الأنفس والأرواح ، شُكرَ التاجر على بقاءِ رأسِ المال إذا فُجِع بالأرباح ؛ فبِتنا[2] تلك الليلة فى سماء تَكِفُ ولا تَكُفُّ[3] ، وتبكى علينا إلى الصباح بأدمع هَوَام ، وأربعة سِجَام ؛ فلما سُلَّ سيفُ الصبح من غِمد الظلام ، وصُرِفَ بِوَالى الصحو عَامِلُ الغَمام ، رأينا صوابَ الرأى أن نُوسِعَ الإقامة بها رفضاً ، ونتخذ الارتحالَ عنها فَرْضاً ؛ فما زِلْنَا نطوى الصحارى أرضاً فأرضاً ، إلى أن وافينا المستقر ركضاً ؛ فلما نَفَضْنَا غُبَارَ ذلك المسير ، الذى جمعنا فى رِبْقَة الأسير ، وأفضَيْنَا إلى ساحةِ التيسير ، بعد ما أُصِبْنَا بالأمر العسير ، وتذاكَرْنَا ما لقينا من التعب والمشقّة ، فى قطع ذلك الطريق وَطَىّ تلك الشُّقة ، أخذ الأمير السيد أطال الله بقاءه القلم فعلق هــــذه الأبيات ارتجالا :

دَهَتْنَا السماءُ غَدَاةَ السَّحَاب ... بغيثٍ على أفْقِه مُسْبِلِ
فجَاءَ بِرَعْدٍ له رَنَّةٌ ... كَرَنَّةِ ثَكْلَى ولم تَثْكَلِ
وثَنَّى بوَبْلٍ عَدَا طَوْرَهُ ... فعاد وَبَالاً على المُمْحِلِ[4]
وأشرف أصْحَابُنَا مِنْ أذَاهُ ... على خَطَرٍ هائلٍ مُعْضِلِ

---

(١) الزبية : الرابية لا يعلوها ماء . والقاع : السهل المطمئن من الأرض ، والربى ، جمع ربوة : المرتفع من الأرض . (٢) فى س : فى تلك . (٣) تكف : تسيل ، وتكف : تمتنع.
(٤) فى س : المعجل .

فمِنْ لائذٍ بفناء الجدار وآوٍ إلى نَفَقٍ مُهْمَلِ
ومن مستجير يُنادى: الغريقَ هناك، ومن صارخٍ مُعْوِلِ
وجادَتْ علينا سماءُ السقوف بِدَمْعٍ من الوَجْدِ لم يَهمل
كأنّ حَراماً لها أن تَرَى يَبيساً من الأرض لم يُبْلَل
وأقبلَ سيْلٌ له رَوْعةٌ فأدْبرَ كُلٌّ عن المُقْبلِ
يُقلِّعُ ما شاءَ من دَوْحَةٍ وما يلقَ من صخرَةٍ يحمل
كأنَّ بأَحْشَائِه إذ بَدا أَجِنَّةَ حُبْلَى ولم تحبل[1]
فمِنْ عامرٍ ردَّهُ غامراً[2] ومن معْلَمٍ عادَ كالمَجْهَل
كَفانا بليَّتَه ربُّنا فقد وجب الشكْرُ للمُفْضِلِ
فقل للسماء ارعُدى وابْرُقى فإنّا رجعنا إلى المنزلِ

أخذ المطوعى قوله : « فلما سلَّ سيف الصبح من غمد الظلام » من قول أبى الفتح البستى :

رُبَّ ليلٍ أغمد الأنوار إلّا نورَ ثَغْرٍ أو مدام أَو ندام
قد نعمنا بدَياجيه إلى أن سُلّ سيفُ الصبحِ من غِمْد الظلام

[وقال بعض أهل العصر ، وهو أبو العباس الناشئ][3] :

خليليّ هل للمُزنِ مُقْلةُ عاشقٍ أم النار فى أحشائِها وهى لا تَدْرى
أشارتْ إلى أرض العراقِ فأصبحتْ وكاللؤلؤ المنثورِ أدْمُعها تجْرِى
سحاب حكَتْ ثَكْلَى أُصيبَتْ بواحدٍ فعاجَتْ له نحوَ الرياضِ على قبْرِ
تَسَرْبل وشْياً من حُزونٍ تطرَّزَتْ مَطارِفُها طرزاً من البَرْق كالتِّبرِ
فوَشْىٌ بلا رقمٍ ورقمٌ بلا يَدٍ ودمْعٌ بلاِ عَيْن وضِحكٌ بلا ثَغْرِ

---

(١) فى س : تحمل . (٢) غامر : خراب . (٣) ساقط من ط .

وقال آخر :

أرقْتُ لبرْقٍ شديد الوَميض ... ترَامَى غواربه بالشُّهب

كأنَّ تألّقه في السماء ... سطورٌ كُتِبْنَ بماء الذهب

وقال ابن المعتز[١] :

كأن الرَّباب الجون دون سَحابه[٢] ... خليع من الفِتْيان يسحبُ مِئْزَرا

إذا لحقته خيفة من رعوده[٣] ... تلفَّتَ واستلَّ الحُسام المُذَكَّرا

وقد قال حسان بن ثابت :

كأن الرَّباب دُوَيْن السَّحاب ... نَعامٌ تعلّق بالأرجـــل

وقال ابن المعتز[٤] :

باكية يضحكُ فيهـــا برْقُها ... موصلة[٥] بالأرض مُرْخاةُ الطُّنُبْ

رأيت فيهـا برقها منـذ بدا ... كمثل طرفِ العين أو قلبٍ يَجب[٦]

جرت بها ريحُ الصَّبا حتى بدا ... منها لى البرق كأمْثالِ الشُّهب

تحسبه طوراً إذا ما انصدعَتْ ... أحشاؤُها عنه شُجاعاً يضطرب[٧]

وتارةً تحسبـه[٨] كأنَّهُ ... أبلق مالَ جَلُّه حين وَثَب[٩]

وتارةً تحسبـه[١٠] كأنَّهُ ... سلاسل مَفصولة[١١] من الذهب[١٢]

---

(١) ديوانه : ١ – ٣٢ . (٢) الرباب : السحاب . والجون : الأسود والأبيض ، وفى ق : سحامه . والسحام : السواد ، وفى س : سحابة. (٣) فى الديوان : روعة من ورائه .

(٤) ديوانه : ١ – ١٢. (٥) فى الديوان : موصولة . (٦) فى الديوان : لما وثب. ويجب : يضطرب ، وفى س: مذ بدت . (٧) رواية البيت فى الديوان :

إذا تعرى البرق فيهـا خلته ... بطن شجاع فى كثيب يضطرب

(٨) فى الديوان : تبصره . (٩) البلق : سواد وبياض ، وارتفاع التحجيل إلى الفخذين . والجل : ما تلبسه الدابة لتصان به . (١٠) فى الديوان : تخاله إذا بدا .

(١١) فى الديوان ، س : مصقولة . (١٢) رواية هذا البيت فى س :

حتى إذا مارفع الآل الضحى ... حسبته سلاسلا من الذهب

وقال الطائى[١] :

يا سهمُ[٢] للبَرْقِ الذى استطارا صار على رغم الدُّجى نَهارا
آضَ لنا ماء وكان نارا[٣]

وينشد أصحاب المعانى :

نارٌ تجدد للعينين نضرتها والنار تلفح عيدانا فتحترق

وقال ابنُ المعتز يَمدح الشُّرْب فى الصَّحْوِ ويذمّه فى المطر :

أنا لا أشتهى سماءً كبطن الْ عَيْرِ والشرب تحتها فى خرابِ
بين سَقْفٍ قد صار مُنخلَ ماء وجدارٍ ملقًى وتلِّ ترابِ
وبيوت يوقِّع الوَكْف فيهـ نَّ وإِيقاعُهُ بغَيْرِ صوابِ
إنما أشتهى الصَّبوحَ على وَجْـ هِ سماء مَصقولة الجِلْبَابِ
ونَسيم منَ الصَّبـا يتمشّى فوق روْض نَدٍ جديدِ الشَّبابِ
وكأنّ الشمس المضيئة دِينا رٌ جَلَتْه حدائدُ الضّراب
فى غداة وكأسها مثلُ شمسٍ طَلَعَتْ فى مُلاءَة من شَرَابِ
أو عروس قد ضُمِّخت بخَلوقٍ فهى صفراء فى قميص حَباب
وغناء لا عُذْر للعودِ فيهِ بتَنَدِّى الأَوْتَارِ والمضراب
وبراة البساط من وَضَرِ الطِّيـ ن ومَسْحِ الأقدام فى كلِّ بَابِ
ونشاط الغلمان إن عرضَتْ حا جاتنا فى مجيئهم والذّهَابِ
وجفاف الريحان والنَّرجس الغـ ضّ بأَيدى الخلان والأصحَابِ
لا تندّى أنوفُهم كلما حَيَّوْا بضغث ندى أُنُوف الـكلاب
ذاك يومٌ أراه غنما وحظًّا من عَطاء المُهَيْمِنِ الوَهَّابِ

---

(١) ديوانه : ٤١٨ .   (٢) فى ق : بأسهم البرق ، وفى س : ياسهم البرق .
(٣) آض : رجع وصار .

وقال الصنوبرى :

أَنيس ظباءٍ بوحش الظبا ... وصبغ حَياً مثل صبغ الحيا
ويوم تــكلّله الشمس من ... صَفاء الهوى وصفاء الهوا
بشَمْسِ الدِّنان وشمسِ القِيانِ ... وشمسِ الجنَانِ وشمسِ السَّما

وشبيه بالأبيات التى كتبها ثَعْلب إلى أَبى العباس بن المعتز لجميل[١] قول الآخر :

وما وَجْـد مِلْوَاح من الهيم خُلِّيت ... عن الوِرد حتى جَوفها يتصَلْصَلُ[٢]
تَحُوم وتَغْشاها المصىُّ وحَوْلها ... أقاطيع أَنْعَامٍ تعلُّ وتَنْهلُ
بأَكثر مِنّى لوعةً وصبابةً ... إلى الوِرْد إلّا أنَّنى أتجمَّـلُ

وقال أبو حيّة النميرى :

كفى حَزَناً أنّى أَرَى الماءَ معْرَضا ... لعينى ولَـكِنْ لا سبيلَ إلى الوِرْدِ
وما كنت أَخْشَى أن تـكون منيتى ... بكفّ أعزّ النـاسِ كلهم عِنْدى

[وصف أخ لابن المقفع]

قال ابنُ المقفَّـع : كان لى أَخٌ أعظم الناس فى عينى ، وكان رَأس ماعظَّمه فى عينى صِغَر الدنيا فى عينه ، وكان خارجاً من سلطان بَطْنِه ، فلا يشتهى مالا يجد ، ولا يُكْثِر إذا وجد ، وكان خارجاً من سُلْطانِ فَرْجه ، فلا تدعوه إليـه مؤنة[٣] ، ولا يستخف له رأيا ولا بدنا . وكان لا يتأثر عند نِعْمَةٍ ، ولا يستكينُ عند مصيبة . وكان خارجاً من سُلْطانِ لسانه ، فلا يتكَلَّمُ بما لا يعلم ، ولا يُمارِى فيما علم ، وكان خارجاً من سُلْطانِ الجهالة ، فلا يتقدَّم أبدا إلا على ثقة بمنفعة[٤] ، وكان أكثر دَهره صامتا ، فإذا قالَ بَزَّ القائلين[٥] ، وكان ضعيفا مستَضْعَفا ، فإذا جدَّ الجدّ فهو اللَّيْثُ

---

(١) هكذا بكل الأصول . (٢) الملواح : العطشان . والهيم جمع هيماء : وهى التى تهيم فى الأرض . ويتصلصل : يصوت . (٣) فى س : فلا يدعو إليه مؤنة . (٤) فى ط : بنفسه . (٥) بز : غلب ، بالذال والزاى .

عاديا . وكان لا يدخل فى دَعْوَى ، ولا يُشارِكُ فى مِرَاء ، ولا يُدْلى بحُجَّةٍ حتى يرَى قاضيا فَهِما وشهودا عُدُولا . وكان لا يلومُ أحداً فيما يكونُ العُذْرُ فى مثله حتى يعلمَ ما عُذْرُه .

وكان لا يَشْكُو وجعه إلّا عند مَنْ يرجو عنده البُرْءَ ، ولا يستشيرُ صاحبا إلا أنْ يرجوَ منه النصيحة . وكان لا يتبرّم ولا يتسخَّط ، ولا يتشكّى ولا يتشهّى ، ولا ينتقم من العدوّ ، ولا يَغْفُل عن الولىّ ، ولا يَخُصُّ نفسه بشىء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقُوتِه . فعليك بهذه الأخلاق إنْ أطقتها ، ولَنْ تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

وعلى ذكر قوله : «وإن قال بَزَّ القائلين» . قال ابن كناسة ، واسمه محمدبن عبدالله، ويكنى أبا يحيى ، فى إبراهيم بن أدهم الزاهد :

رأيْتُك لا تَرْضَى بما دونه الرضا	وقد كان يَرْضَى دون ذاكَ ابنُ أدْهما
وكان يَرى الدُّنيَا صغيراً عَظيمُها	وكان لِأمْرِ اللهِ فيها مُعَظِّمَا
وأكثرُ ما تلقَاهُ فى النـاس صامِتا	وإنْ قال بَزَّ القائلين فأفْحَمَا
يُشِيعُ الغِنَى فى الناس إن مسَّهُ الغِنَى	وتلقى به البأساءَ عيسى بن مريما
أَهَانَ الهوى حتى تجنَّبه الهوى	كما اجتنب الجانِى الدم الطالبَ الدَّما

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر التقى والزهد

فلان عَذْب المَشْرب ، عَفّ المَطْلَب ، نَقِىّ الساحة من المآثم ، بَرِىء الذمة من الجرائم ، إذا رضى لم يَقُلْ غيرَ الصدق ، وإذا سخِط لم يتجاوَزْ جانِبَ الحق ، يرجعُ إلى نفسٍ أَمَّارة بالخير ، بعيدةٍ من الشر ، مدلولةٍ على سبيل البِرّ ؛ أعْرَض عن زِبْرِجْ (١) الدنيا وخُدَعِها ، وأقبل على اكتساب نِعَم الآخرة ومُتَعِها. كَفَّ كَفَّه

(١) أصل الزبرج : الزينة من وشى أو جوهر والذهب .

عن زُخْرف الدنيا ونَضْرَتها ، وغَضَّ طَرْفَه عن متاعها وزَهْرتها ؛ وأعرض عنها وقد تعرَّضَت له بزينتها ، وصدَّ عنها وقد تصدَّت له فى حِليتها .

فلانٌ ليس ممن يَقِف فى ظِلّ الطمع ، فيُسِفُّ إلى حَضيض الطبَع [١] ، نَقِىّ الصحيفة، عَلِىٌّ [٢] عن الفضيحة ، عَفّ الإزار ، طاهرٌ من الأَوْزَار ، قد عاد لإصلاح المعاد ، وإعداد الزاد .

* * *

ابن المقفع

وكان ابنُ المقفع من أشراف فارس ، وهو من حكماء زمانه، وله مصنّفات كثيرة، ورسائلُ مختارة ؛ وكان مُحْجِماً عن قول الشعر، وقيل له : لم لا تقولُ الشعر؟ فقال : الذى أرضاه لا يَجيئنى والذى يجىء لا أَرْضاه .

أخذ هذا بعضهم فقال :

أَبَى الشعرُ إلاّ أنْ يَفِىءَ رَدِيُّهُ ... إلىَّ ويَأْبَى منه ما كَانَ مُحْكَما

فياليتنى إِذْ لم أَجِدْ حَوْكَ وَشْيِهِ ... ولم أَكُ من فُرْسانه كنت مُفْحَما

وكان ظريفا [٣] فى دينه ، وذكر أنه مرّ ببيت النار فقال :

يا بيتَ عاتِكَةَ الّذى أَتعزَّلُ ... حَذَرَ العِدا وَبه الفؤادُ مَوَكَّلُ

أصبحت أمنحك الصدودَ وإننى ... قَسَما إليك مع الصدود لَأَمْيَلُ

البيتان للأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبى الأقْلح [٤] الأنصارى أخى بنى عمرو بن عوف. وعاصم بن ثابت حَمِىّ الدَّبْر [٥] قتله بنو لحيان من هُذَيل يوم الرَّجيع فأرادوا أن يَبْعَثُوا برَأْسِه إلى مكة . وكانت سلافة بنتُ سعد نذرت لَتَشْرَبَنَّ فى رأسه الخَمْر، وكان قتلَ بعضَ ولدها من طلحة بن أبى طلحة أحد بنى عبد الدار يوم أُحد ، فلما

---

(١) الطبع : العيب ، وفى ق ، س : حضيض التصنع . (٢) فى ط : علا .
(٣) فى س : ضنينا . (٤) الأفلح بالفاء فى س ، وهـذا عن اللآلى : ٧٣ ، والشعراء : ٤٩٩ . (٥) الدبر : النحل والزنابير .

أرادوا أَخْذَ رأسه حمته الدَّبْر ـ وهى النحل ـ فلم يَجِدُوا إليه سبيلا ، وجعلوا يقولون : إنّ الدّبر لو قد أمسى صِرْنا إلى حَشْوِ استه ، فلما أمسوا بعثَ الله أتيًّا[1] واراه منهم . وعاتكةُ التى ذكر هى عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية .

[ألطف تعريض]

ولما دخلَ أبو جعفر المنصور المدينة قال للربيع : ابْغِنى رجلا عاقلا عالما بالمدينة يَقِفنى على دُورِها ؛ فقد بَعُدَ عَهْدِى بديار قومى ؛ فالْتَمسَ له الربيع فتًى من أعقل الناس وأعلمهم ، فكان لا يبتدِئ بإخْبارٍ حتى يسأله المنصور فيجيبه بأَحْسَن عبارة ، وأجودِ بيان ، وأوفى معنى ، فأُعْجِب المنصور به وأمر له بمالٍ فتأخّر عنه ، ودعته الضرورة إلى استنجازِه ، فاجتاز ببيت عاتكة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص : «يابيت عاتكة الذى أتعزَّل » . . . البيت . ففكر المنصور فى قوله وقال : لم يُخَالف عادته بابتداء الإخبار دون الاسْتِخبار إلا لأمر . وأقبل يردّد القصيدة ويتصفحها[2] بيتا بيتا حتى انتهى إلى قوله فيها :

وأراكَ تَفْعَلُ ما تقولُ وبعضُهُم ... مَذِقُ اللسان يقولُ مالا يَفْعلُ[3]

فقال : يا ربيع ، هل أوصلت إلى الرجلِ ما أمَرْنَا له به ؟ فقال : أخَّرْتُه عنه لعلة ـ ذكرها الربيع ، فقال : عَجِّلْه له مضاعفا . وهذا ألطف تعريض من الرجل، وحُسْنُ فهم من المنصور .

[الحسد والحساد]

لابن المقفع

ومن كلام ابن المقفع : الحاسِدُ لا يزالُ زاريًا على نعمة الله ولا يَجِدُ لها مَزَالا[4]، ومكدِّرا على نفسه ما به من النعمة فلا يَجِدُ لها طَعْما ، ولا يزالُ ساخطا على مَن لا يترضَّاه، ومتسخِّطا

---

(١) الأتى : السيل. (٢) فى ط : وينقضها (٣) مذق اللسان : يمزج الجد بالهزل .
(٤) زاله عن مكانه وأزاله .

لما [لا] (١) ينال ، فهو كَظُوم (٢) هَلُوع جَزُوع ، ظالم أشبه شئ بمظلوم ، محروم الطَّلِبَة (٣) ، منغَّص العيشة ، دائم التسخّط ، لا بما قُسِم له يَقْنَع ، ولا على مالم يُقْسَم له يغلب ، والمحسودُ يتقلّب فى فَضْلِ نعم الله مباشرا للسرور ، مُمْهَلًا فيه إلى مُدّةٍ لا يقدر الناسُ لها على قَطْعٍ ولا انتقاص ، ولو صبر الحاسِدُ على ما به لكان خيراً له ؛ لأنه كلما أراد أنْ يُطفِئ نورَ الله أعْلاه ، ويَأْبَى اللهُ إلاّ أنْ يتمَّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون .

لبعض الشعراء فى الحسد

قال الطائى (٤) :

لولا التَّخَوُّفُ للعوَاقِبِ لم تزَلْ ... لِلْحاسِدِ النُّعْمَى على المحسودِ
وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلةٍ ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاوَرَتْ ... ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

أخذه البحترى فقال (٥) :

ولَنْ تَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ ... إذا أنْتَ لم تُدْلَلْ عليها بحَاسِدِ

ولقد أحسنَ القائل (٦) :

إن يحسدونى فإنى غيرُ لائِمِهِمْ ... قَبْلِى من الناس أهْلُ الفضلِ قد حُسِدُوا
فدام لى ولَهُمْ ما بى وما بِهِمُ ... ومات أكثرُنا غَيْظاً بما يَجِدُ
أنا الذى يَجِدُونى فى صدورِهِمُ ... لا أرْتَقِى (٧) صَدَراً عنها ولا أرِدُ

وقال ابن الرومى لصاعد بن مَخْلَد (٨) :

وضِدٍّ لكم لا زَالَ يَسْفُلُ جَدُّهُ ... ولا برحَتْ أنفاسه تَتَصَعَّدُ
يرَى زِبْرِجَ الدنيا يُزَفُّ إليكم (٩) ... ويُغْضِى عن استحقاقكم فهو يُفْأَدُ (١٠)

(١) زيادة من ق ، س . (٢) فى ق : مكظوم . (٣) الطلبة : ما طلبته .
(٤) ديوانه : ٨٥ ، المختار من شعر بشار : ٦٩ ، النويرى : ٣ — ٩٦ ، ٢٨٨ .
(٥) ديوانه : ١٣٦ ، المختار من شعر بشار : ٧٠ . (٦) المختار من شعر بشار : ٦٧ ، القالى : ٢ — ١٩٨ ، النويرى : ٣ — ٢٨٧ . (٧) فى س، ق : لا أتقى . (٨) المختار من شعر بشار ٧٠ . (٩) فى الديوان ، س : يرف عليكم . (١٠) فأده : أصاب فؤاده .

ولو قاس باستحقاقكم (١) مامُنِحْتُمُ ... لأَطْفَأَ نَاراً في الحَشَا تَتَوقَّدُ (٢)
وآنَقُ من عِقْد العقيلةِ جِيدُها ... وأحسن من سِربالها المتجرِّدُ

وقال معن بن زائدة (٣) :

إني حُسِدت فزادَ الله في حَسَدِي ... لا عاشَ مَنْ عاش يوماً غَيْرَ محسودِ
ما يُحْسَدُ المرء إلاّ مِنْ فضائله ... بالعلم والظَّرْفِ أو بالبَأْسِ والجُودِ

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الحسد

دبَّتْ عقارِبُ الحسَدَة ، وكمنت أفاعِيهم بكلِّ مَرْصَدٍ (٤) . فلان مَعْجُون من طِينَةِ الحسد والمُنَافَسة ، مضروبٌ في قالب الضِّيق والمناقشة . قد وكلَ بي لَحْظاً يَنْتَضِلُ بأَسْهُمِ الحسد . فلان جَسَدُهُ كلُّه حسد ، وعقد كلُّه حِقْد . الحاسدُ أعمَى عن محاسن الصُّبح ، بعين تُدْرِكُ حقائقَ القُبْحِ .

[فضل الملوك والوزراء]

تعريض في حاجة إلى الواثق

كتب محمد بن حماد يُعرِّض في حاجةٍ له ببيتي شعر إلى الواثق يقول :

جذبت دَواعي النفسِ عن طلبِ المُنَى ... وقلت لها كُفِّي عن الطَّلَبِ المُزْرِي
فإنَّ أَمِيرَ المؤمنين بكفِّهِ ... مَدارُ رحًى بالرزق دائبة تَجْرِي

فوقَّع تحتهما : جَذْبُك نفسَك عن امتهانها بالمسألةِ دعاني إلى صَوْنِك بسعة فضلي عليك ، فخُذْ ما طلَبْتَ هنيئاً .

على باب الحسن بن سهل

قال علي بن عبيدة : أتيت الحسن بن سهل بفم الصلح ؛ فأَقَمْتُ ببابه ثلاثةَ أشهر لا أحْظَى منه بطائل ، فكتبت إليه :

مدحت ابنَ سهل ذا الأيادي وما لهُ ... بذاكَ يدٌ عندي ولا قَدَم بَعْدُ

---

(١) في المختار ، س : باستيجابكم . (٢) في المختار ، س : في حشاه توقد .
(٣) المختار من شعر بشار : ٦٦ . (٤) في س ، ق : مرصدة .

وما ذَنْبه ، والناس ـ إلا أقلَّهم ـ عيالٌ له إن كان لم يَكُ لى جَدُّ
سأحمده للنـــاس حتى إذا بَدَا له فىَّ رَأْىٌ عادَ لى ذلك الحمـد

فـكتب إلىَّ : باب السلطان يَحْتاجُ إلى ثلاث خِـلال : عقل وصَبْرٌ ومال ؛ فقلت للواسطة : تؤدّى عنى ؟ قال : نعم . قلت : تقول له : لو كان لى مال لأَغْنانى عن الطلب إليك ، أو صبرٌ لصبرت عن الذُّلِّ ببابك ، أو عَقْل لاستدللت به على النزاهة عن رِفْدك ! فأمر لى بثلاثين أَلْف درهم .

* * *

من كلام على ابن عبيدة فى الشوق

وقال على بن عبيـدة الريحانى يوما ، وقد رأى جارية يَهْواها : لولا البُقيا على الضمائر لَبُحْنا بما تُجِنّه السرائر ، لـكن نِيرَان الحُبِّ تُتَدَارك بالإخفاء ، ولا تُعاجَل بالإبداء ؛ فإن دوامَها مع إغلاق أبواب الـكِتمان ، وزوالَها فى فَتْح مصارِع الإعلان.
وقد قال محمد بن يزيد الأموى :

لا وحبِّيك لا أُصا فِح بالدَّمع مدمعا
من بكى حبَّه اسْتَرَا ح وإن كان مُوجَعا

ومن كلام علىّ بن عبيدة : اجعَل أُنْسك آخرَ ما تَبْذُل من وُدِّك ، وصُن[1] الاسترسال منك ، حتى تجدَ له مستحقّا ؛ فإن الأُنس لِباسُ العِرض ، وتُحْفَة الثِّقة، وحِبَاء الأَكفاء ، وشِعار الخاصّة ، فلا تُخلق جِدَّته إلا لمن يعرف قَدْرَ ما بذلتَ له منك .

وقال : لولا حركاتٌ من الابتهاج أَجد حِسَّها عند رؤيتك فى نفسى لا أَعْرِفُ لها مُثيراً من مظانّها إلّا مُؤَانَستك لى ، أبقَيْت عليك من العناء ، وخفّفت عنك مؤونة اللقاء ؛ لـكنى أَجد من الزيادة بك عنـدى أَكْثر من قَدْرِ راحتك فى تأَخُّرك عنى ، فأَضيق عن احْتِمال الخسران بالوَحدة منك .

(١) فى ط : ومن .

وقال : لِوجلى من طُلوعِ الملالة بكَرّ اللِّقاء أستَخِفُّ التَّجافى مع شدَّةِ الشوقِ ، تُبقى جِدَّةَ الحالِ عند من أُحِبُّ دوامَه لى ؛ وردُّ طَرْفِ الشوق باطنا أيْسر من مُعاناةِ الجفاء مع الودّ ظاهراً .

في الشوق لبعض الشعراء

وقال بعض المحدَثين[1] :

كم استراحَ إلى صبر فلم يُرِحِ ... صَبٌّ إليكم من الأشواق فى تَرَحِ[2]

تركتم قَلْبَه من حُزْنِ فُرْقَتكم ... لو يُرْزَق[3] الوصلَ لم يَقْدر على الفَرَحِ

وقال أعرابى :

ألا قُلْ لدارٍ بيْنَ أكْثِبَةِ الحِمَى ... وذاتِ الغَضَى: جادَتْ عليكِ الهواضبُ[4]

أجِدَّك لا آتيك[5] إلّا تتابعَتْ ... دموعٌ ، أضاعت ما حفظتُ ، سَواكِبُ

دِيارٌ تنسَّمْتُ المُنَى نَحْوَ أرْضِها ... وطاوعَنى فيها الهوَى والحبائبُ

لَيالِىَ لا الهجرانُ مُحْتَكِمٌ بها ... على وَصْلِ مَنْ أهْوَى ولا الظنُّ كاذِب

[فى مجلس الحكم]

تنازع إبراهيم بن[6] المهدى وابن بختيشوع الطبيب بين يدى أحمد بن أبى دواد فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السَّواد ، فأرْبَى عليه إبراهيم وأغْلَظَ له ، فأحفظ ذلك ابن أبى دُواد ، فقال : يا إبراهيم ، إذا نازعتَ فى مجلس الحكم بحضرتنا امرأً فلا أعلمنَّ أنك رفعْتَ عليه صَوْتا ، ولا أشَرْتَ بيد ، وليكن قَصْدُك أمَماً ، وريحُك ساكنة ، وكلامُك معتدِلا ، مع وفاءِ مجالس الخليفة حقوقَها من التَّعْظيم ، والتوقير ، والاستكانة ، والتوجّه إلى الواجب ؛ فإنّ ذلك أشْكَلُ بك ، وأشْمَلُ لمذهبك فى مَحْتدِك ، وعظيم خَطرك ، ولا تعجلنَّ ، فرُبَّ عَجلة تَهَبُ رَيْثا ، والله يعصمك

(١) المختار من شعر بشار : ٢٥٢ .   (٢) فى ط : برح .
(٣) فى المختار : إن يرزق .   (٤) الأكثبة جمع كثيب : وهو التل من الرمل . والغضى : شجر . والهواضب : السحب الماطرة .   (٥) فى س : لا آتاك .
(٦) العقد الفريد : ١ — ٢٧ .

من خَطَلِ (١) القول والعمل ، ويتم نعمتَه عليك كما أتمَّها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم .

فقال إبراهيم : أَصْلَحَك اللهُ تعالى ؛ أَمَرْتَ بسداد ، وحضَضْتَ على رشاد ، ولسْتُ عائداً لما يَثْلِمُ مُرُوءتى عندك ، ويُسْقطنى من عينك ، ويخرجنى من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنا معتذرٌ إليك من هذه البادرة اعتذارَ مُقِرّ بذنبه مُعْتَرِفٍ بجُرْمِه ، ولا يزال الغضبُ يستفزُّنى بمواده ، فيردّنى مثلُك بحلمه ، وتلك عادةُ الله عندك وعندنا منك ؛ وقد جعلت حقّى من هذا العقار لابن بختيشوع ، فليتَ ذلك يكون وافيا بأَرْش (٢) الجناية عليه؛ ولم يتلف مال أَفادَ موعظة؛ وحَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيل .

[مدح أردشير وحكمته]

لما استوثق أَمْرُ أردشير بن بابك وجمع ملوكَ الطوائف ، وتمَّ له مُلْكه ، جمع الناسَ فخطبهم خطبة حضّ فيها على الأُلفة والطاعة، وحذَّرهم المعصيةَ ومفارقة الجماعة وصفّ الناسَ أربعة صفوف؛ فخرُّوا له سجّدا وتكلّم متكلّمهم فقال : لازلت أَيها الملك محبوًّا من الله تعالى بعزّ النصر ، ودَرَكِ الأَمل (٣) ، ودوام العافية ، وتمام النّعمة وحُسْن المزيد ، ولا زلت تتَابَعُ لديك المكرمات ، وتَشْفَع إليك الذّمامات ، حتى تبلغَ الغايةَ التى يُؤْمَنُ زوالُها ، وتصل إلى دار القرار التى أعدّها الله تعالى لنظرائك من أَهْل الزُّلْفَى عنده والمكانة منه ، ولا زال ملكك وسلطانك باقيَيْن بقاءَ الشمس والقمر، زائدَيْن زيادَةَ النجوم والأَنْهَار ، حتى تستوىَ أَقْطَارُ الأَرض كلُّها فى علوّ قَدْرِك عليها ، ونفاذِ أَمْرِك فيها ، فقد أشْرَقَ علينا (٤) من ضياء نورك ما عمّنا عمومَ ضياء الصبح ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتَّصل بأَنْفُسِنا اتصالَ النسيم ؛ فأصبحت قد جمع اللهُ بك الأيدى بعد افتراقها ، وأَلَّف القلوبَ بعد توقُّد نيرانها ، ففضلُك الذى لا يُدْرَكُ بوصف ، ولا يُحَدُّ بنَعْت .

(١) خطل : فساد . (٢) الأرش : الدية .

(٣) الدرك — بالتحريك : اللحاق . (٤) فى س : عليها .

فقال أردشير : طوبَى للممدوح إذا كان للمدح مستَحِقّا ، وللداعى إذا كان للإجابة أهلا .

وقيل لأردشير : أيُّها الملك الرفيع الذى حَلَب العصور ، وجرَّب الدُّهور ، أى الكنوزِ أَعْظَمُ قدراً ؟ قال : العلم الذى خفّ محمله ، فثَقُلَتْ مفارقته ، وكَثُرَتْ مرافقته ، وخَفِى مكانه ، فأَمِنَ من السرق عليه ؛ فهو فى الملأ جَمَال ، وفى الوَحْدة أنيس ، يُرَأّسُ به الخَسيس ، ولا يمكن حاسدَك عليه انتقاله عنك . قيل له : فالمال ؟ قال : ليس كذلك . مَحْمله ثقيل ، والهمُّ به طَويل ؛ إن كنت فى مَلأ شغلك الفِكْرُ فيه ، وإنْ كنتَ فى خَلْوَة أتعبتك حراسَتُه .

أى الكنوز أعظم

[سير الملوك]

قال الجاحظ : حدثنى الفضل بن سهل قال : كانت رسلُ الملوك إذا جاءت بالهدايا يُجْعَلُ اختلافُهم إلىّ ، فتكون المؤامراتُ فيما معهم من ديوانى ، فكنت أسأَلُ رجلا رجلا منهم عن سِيَرِ ملوكهم ، وأخبار عظمائهم ، فسألتُ رسولَ ملك الروم عن سيرة ملكهم ، فقال : بَذَل عُرفه (١) ، وجرَّد سَيْفَه ، فاجتمعت عليه القلوبُ رغبةً ورهبة ، لا يُنظِر جُنْده ، ولا يُحْرِج رعيَّته ؛ سَهْلُ النَّوال ، حَزْن (٢) النكال ، الرجاء والخوفُ معقودان فى يده .

قلت : فكيف حُكْمُه ؟ فقال : يردُّ الظلّم (٣) ، ويرْدَعُ الظالم ، ويُعْطِى كلَّ ذى حق حقّه ؛ فالرعية اثنان : راضٍ ومغتبط .

قلت : فكيف هَيْبَتُهم له ؟ قال : يُتصور فى القلوب ، فتُغْضِى له العيون .

قال : فنظر رسولُ ملك الحبشة إلى إصْغَائى إليه ، وإقبالى عليه ، فسأل الترجمان : ما الذى يقوله الرومىّ ؟ قال : يَذْكُرُ ملكهم ، ويَصِفُ سيرتَه ؛ فتكلّم مع الترجمان بشىء ، فقال لى الترجمان : إنه يقول : إنّ ملكهم ذو أناة عند القُدْرَة ، وذو حلم عند

---

(١) العرف : المعروف . (٢) أصل الحزن ما غلظ من الأرض . (٣) فى ط : المظالم .

الغضب ، وذو سَطْوَةٍ عند المغالبة ، وذو عقوبةٍ عند الاجْتِرام [(١)] ، قد كسا رعيّته جميلَ نِعْمَتِه، وخوّفهم عَسْفَ نِقْمَتِه ؛ فهم يتراءونه رَأْىَ الهلال خيالا ، ويخافونه مخافةَ الموتِ نكالا، وَسِعَهم عَدْلُه ورَدَعَتْهُم سَطْوَته ، فلا تَمْتَهِنه مَزْحَة ، ولا تؤمّنه غَفْلة ؛ إذا أعطى أَوْسَع ، وإذا عاقب أَوْجَع ؛ فالناسُ اثنان : راج وخائف ، فلا الراجى خَائِب الأمل ، ولا الخائف بعيـد الأجل . قلت : فكيف هيبتهُم له ؟ قال : لاترْفَعُ إليه العيونُ أَجْفَانَها، ولا تُتْبِعُه الأبصارُ إنْسَانَها ، كأنّ رعيتَه قَطًا رفرفت عليها صقورٌ صوائد .

فحدّثْتُ المأمون بهذين الحديثين فقال: كم قيمتُهما عندك ؟ قلت : ألفادرهم . قال : يافضل؛ إن قيمتهما عندىأ كْثَرُ من الخلافة ، أما عرفت قول علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه : قيمةُ كلّ امرئ ما يحسن . أفتعرِفُ أحداً من الخطباء البُلغاء يُحْسِنُ أن يصِفَ أحداً من خلفاءِ الله الراشدين المهديين بهـذه الصِّفَة ؟ قلت : لا . قال : فقد أَمَرْتُ لهما بعشرين ألف دينار ، واجعل العُذْر مادة بينى وبينهما فى الجائزة [على المعوز] [(٢)] ؛ فلولاحقوقُ الإسلام وأَهْله لرأَيْتُ إعطاءهما مافى بيتِ مال الخاصة والعامة دونَ ما يستحقّانِه .

وقال الجاحظ : حدّثنى حميد بن عطاء قال : كنتُ عند الفَضْلِ بن سهل ، وعنده رسولُ ملك الخزَرِ ، وهو يحدّثنا عن أُخْتٍ لملـكهم ، قال : أصابتنا سَنَةٌ احتـدم شُوَاظُها علينا بحرِّ المصائب ، وصنوفِ الآفات ؛ ففَزِع الناسُ إلى الملك ، فلم يَدْرِ ما يُجيبُهم به ، فقالت أخته : أيها الملك ؛ إن الخوفَ لله [(٣)] خُلُق لا يَخْلُق جديدُه، وسببٌ لا يمتهن عزيزه ، وهو دالُّ المَلِكِ على استصلاح رَعِيّته ، وزاجرُه عن استفسادها ، وقد فَزِعَتْ إليك رعيّتُك بفضلِ العَجْزِ عن الالتجاءِ إلى مَن لا تَزيده

---

(١) ارتـكاب الذنب . (٢) ساقط من ط .

(٣) فى ط : خوف الله .

الإساءةُ إلى خلقه عِزّا ، ولا يُنْقِصه العودُ بالإحسانِ إليهم مُلْكا ، وما أحدٌ أَوْلى[1] بحفظ الوصية من الموصِّى ، ولا بركوب الدلالة من الدّال ، ولا بحُسْن الرعاية من الرّاعى . ولم تزل فى نعمة لم تغيرها نِقْمَة ، وفى رِضاً لم يكدّره سُخْط ، إلى أن جرَى القَدَر بما عَمِىَ عنه البَصر ، وذهل عنه الحَذَر ، فسلب الموهوب ، والواهب هو السالب ؛ فعُدْ إليه بشُكْرِ النعم ، وعُذْ به من فظيع النِّقَم ، فمتى تَنْسَه يَنْسَك ، ولا تجعلنّ الحياءَ من التذلّل للمعزّ المذِل سترا بينك وبين رعيتك ، فتستحقّ مذمومَ العاقبة ؛ ولكن مُرْهُم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكُنْهِ القُدْرة ، وبتذلّل الألْسُن فى الدعاء بمَحْض الشُّكرِ له ؛ فإن المالك ربما عاقبَ عَبْدَه ليرجعه عن سَيِّئ فِعْلٍ إلى صالح عمل ، أو ليَبْعثه على دائب شُكْرٍ ليحرز به فَضْلَ أجْر .

فأمَرها الملك أن تقومَ فيهم فتنذرهم بهذا الكلام ففعلت ؛ فرجع القومُ وقد علِمَ الله منهم قبولَ الوَعْظ فى الأمر والنهى ؛ فحال عليهم الحَوْل وما منهم مفتقدُ نِعْمةٍ كان سُلِبها ، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصّنع ؛ فاعترف لها الملك بالفَضْل فقلّدها المُلْك ؛ فاجتمعت الرعيةُ لها على الطاعة فى المكروه والمحبوب . قال : وهذا وهُمْ أعداء الله تعالى ، وضرائر[2] نِعمته ، ومستوجبو نِقْمَتِه ، أعاد لهم بالشكر ما أَرادوا ، وأعطاهم بالإقرار له بكُنْه قدرته ما تمنَّوا ، فكيف بمن يَجْمَعُه على الشكر نوران اثنان : قرآن منزل ونبيّ مرسل ، لو صدقت النيّاتُ ، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات ؛ لكنهم أنكروا ما عرفوا ، وجهلوا ما علموا ، فانقلَبَ جدّهم هَزْلا ، وسكوتهم خَبْلا[3] .

---

(١) فى ط : أحق . (٢) الضرتان : الزوجتان ، وكل منهما ضرة للأخرى ، وهن ضرائر .
(٣) الخبل : الفساد فى الأعضاء . أو هو الخبل — بالفتح — الجنون .

قطعة صادرة من أقوال الملوك دالة على فضل كرمهم وبعد هممهم

غَضِب كسرى أنوشروان على بعض مَرَازِبته(١)، فقال : يُحَطُّ عَنْ مرتبته، ولا يُنْقَصُ من صِلَته ؛ فإنّ الملوكَ تؤدِّب بالهجران ، ولا تعاقِب بالحِرْمَانِ .

واصطنع أنوشروان رجلا فقيل له : إنه لا قديمَ له . قال : اصطناعُنا إياه شرّفه .

قال معاوية رضى الله عنه: نحن الزمان من رَفَعْنَاه ارتفع ، ومن وضعناه اتّضع. وكان يقول : إنى لآنَفُ مِنْ أن يكونَ فى الأرض جَهْلٌ لا يسَعُهُ حِلْمِى ، وذَنْبٌ لا يسَعُهُ عَفْوِى ، وحاجة لا يَسَعُها جُودِى .

عبدُ الملك بن مروان ـ أَفْضَلُ الناسِ مَنْ تَوَاضَعَ عن رِفعَـة، وعَفَا عن قُدْرَة ؛ وأَنْصَفَ عن قُوَّة .

زياد ـ استشفعوا لِمَنْ وراءكم ؛ فليس كلُّ أحدٍ يصلُ إلى السلطان ، ولا كلُّ من وصل إليه يَقْدِرُ على كلامه .

المهلب ـ عَجِبتُ لمن يَشْتَرِى المماليكَ بماله ، كيف لايشترِى الأحرارَ بمعروفه ! وقد روى هـذا لابن المبارك . وقال لبنيه : يا بَنِى؛ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم .

قال أبو تمام الطائى يَسْتَهْدِى فَرْوًا وعرّض بقول المهلب(٢) :

فهل أنتَ مهديه بمثل شكيره … من الشُّكْرِ يعلو مُصْعِدًا ويصوِّبُ(٣)

فأنتَ العليمُ الطّب أى وصيةٍ … بها كان أَوْصَى فى الثياب ِ المهلَّبُ

يزيد بن المهلب ـ استَكْثِرُوا من الحمد فإنّ الذمَّ قلَّ من(٤) ينجو منه .

---

(١) المرزبة : رياسة الجيش ، وهو مرزبانهم ، وجمعه مرازبة . (٢) ديوانه ٥٥

(٣) شكير : شعر ، ويعلو ويصوب : يرتفع وينخفض . (٤) فى س : ما .

السفاح ـ ما أقبَح بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤنا خالُون من أثرها .

المأمون ـ إنما تُطْلَبُ الدنيا لتُملك ، فإذا مُلِكت فلتوهب . وقال : إنما يتكثَّر بالذهب والفضة من يَقِلاَّن عنده .

الحسن بن سهل ـ الأطراف مَنَازِل الأَشْرَاف ؛ يتناولون ما يريدون بالقُدْرَة ، ويتناولهم مَنْ يُرِيدهم بالحاجَةِ . وتعرّضَ له رجل فقال له : من أَنت ؟ قال : أَنا الذى أحسنتَ إلىّ يوم كذا وكذا . فقال : مرحبا بمن توسَّل إلينا بنا .

ولما أراد المعتصم أَنْ يشرّف أشناس [1] التركى بعقب فَتْح الخزمية أمر أصحابَ المراتب بالترجّل إليه ، فترجّل إليه الحسنُ بن سهل ، فنظر إليه حاجبُه يَمْشِى ويتعثّر فى مَشْيه فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ إن الملوكَ شرّفتنا وشرفت بنا .

ومن كلام أهل العصر

للأمير شمس المعالى قابوس بن وَشْمَكير ـ من أَقْعَدته نكاية الأيام أقامته إغاثة الكرام ؛ ومن ألبسه الليلُ ثوب ظلماته نزعَه النهار عنه بضِيَائه .

وله ـ ابتناء المناقب باحتمال المتاعب ، وإحرازُ الذِّكر الجميل بالسَّعى فى الخطب الجليل .

الصاحب بن عباد [2] :

وقائلةٍ لِمْ عَرَتْكَ الهمومُ ... وأَمْرُكَ مُمْتَثَلٌ فى الأُمَم ؟
فقلت : ذَرِينى لما اشتكى [3] ... فإنّ الهمومَ بِقدْرِ الهِمَمْ

أبو الطيب المتنبى [4] :

أفاضِلُ الناسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزمَنِ ... يَخْلُو من الهَمِّ أَخْلاهُمْ منَ الْفِطَنِ

---

(١) فى س : استناس . (٢) اليتيمة : ٣ ـ ٢٤٩ .

(٣) فى اليتيمة : فقلت دعينى على غصتى . (٤) ديوانه : ٤ ـ ٢٠٩ .

أبو الفتح البستى :

صاحِبُ السلطانِ لابُدَّ لهُ	من هُمُومٍ تَعتَرِيهِ وغُمَمْ
والّذِى يَرْكَبُ بحْرا سيَرى	قُحَمَ الأَهْوالِ من بَعْدِ قُحَمْ (١)

ومن كلام الملوك الجارى مجرى الأمثال (٢)

اردشير — إذا رغبت الملوكُ عن العَدْلِ رغبت الرعيَّةُ عن الطاعة .

افريدون — الأيام صحائفُ آجالِكم ، فخلِّدُوها أحْسَنَ أعمالِكم .

وقيلَ للاسكندر : ما بالُ تعظيمك لمؤدِّبك (٣) أكثر من تعظيمك لأبيك ؟ قال : لأنّ أبى سببُ حياتى الفانية ومؤدِّبى (٣) سببُ حياتى الباقية .

ودخل محمد بن زياد مؤدّب الواثق على الواثق فأظهر إكرامَه، وأكثر إعظامَه، فقيل له : مَنْ هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا أولُ من فَتق لسانِى بذِكْرِ اللهِ وأَدْنانى من رحمة الله .

وأُشِير على الإسكندر بتَبْييت الفرس (٤) ، فقال : لا أجعل غَلبتى سَرِقة . وقيل له : لو تزوَّجت بنت دارا ؟ فقال : لا تغلبنى امرأة غَلَبت أباها .

أنوشروان — الملك إذا كثر مالُه مما يأخذ من رعيّته كان كمن يعمر سَطْحَ بيته بما يَقْتَلِعه من قواعد بُنْيانه .

ابرويز — أطِعْ مَنْ [فوقك يطعك مَن] (٢) دونك .

السفاح — إن من أدْنَى الناس ووضعائهم من عدَّ البخل حَزْماً ، والعفو ذُلاًّ . وكان يقول : إذا كان الحلم مفسدة كان العفوُ معجزة ، والصبرُ حَسَن إلا على ما أوقع

---

(١) قحم : مصاعب . (٢) هذا العنوان ساقط من ط . (٣) فى س : لمعلمك ... ومعلمى .
(٤) بيت العدو : أوقع بهم ليلا .

بالدّين ، وأوْهَى السلطان ؛ والأناةُ محمودة إلا عنـــد إمكان الفرصة . وقد قال ابن المعتز :

كم فرصةٍ ذَهَبَتْ فعادَتْ غُصّةً تشجى بطُول تَلَهُّفٍ وتَنَدُّمِ

ولما عزم المنصور على الفَتْك بأبى مسلم فزِع من ذلك عيسى بن موسى فكتب إليه :

إذا كنت ذارأىٍ فكن ذا تدبّرٍ فإنّ فسادَ الرَّأى أنْ تتعجَّلَا

فأجابه المنصور :

إذا كنتَ ذَا رَأْيٍ فكن ذَا عزيمةٍ فإنَّ فسادَ الرى أَن تتردَّدَا
ولا تُمْهِلِ الأعداء يوما بغُدْوَةٍ [(١)] وبادِرْهُمُ أن يملكوا مِثْلها غَدَا

وهذا فى موضعه كقول الإمام على كرّم الله وجهه : من فكَّر فى العواقبِ لم يشجُع .

وقال سعد بن ناشب فأفرط [(٢)] :

عليكم بدارى فاهدموها فإنها تُراثُ كريمٍ لا يَخَافُ العواقبا
إذا همَّ ألقى بين عينيه عَزْمَهُ ونـكَّبَ [(٣)] عن ذِكْر العواقب جانبا
ولم يَسْتَشِر فى رَأْيه [(٤)] غيرَ نفسِهِ ولم يرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا
سأغسل عنى العارَ بالسيف جالباً علىَّ قضاءَ الله ما كانَ جَالِبا
ويصغر فى عينى تِلادِى إذا انثنت يمينى بإدْرَاكِ [(٥)] الذى كُنْتُ طَالِبا

وكان سَعْدٌ من مَرَدَةِ العرب وشياطين الإنس، وفيه يقول الشاعر :

وكيف يُفيقُ الدهرَ سعدُ بن ناشب وشَيْطَانُه عند الأَهِلَّةِ يُصرَعُ

---

(١) فى س : بقدرة . (٢) المختار من شعر بشار : ١٠١ ، القالى : ٢ — ١٧٥ ، الشعراء : ٤٣٨ ، اللآلئ : ٧٩٤ . (٣) فى س : وأعرض . (٤) فى س : أمره .
(٥) فى س : لإدراك .

كتب مروان بنُ محمدٍ الجعدى إلى عبد الله بن علىٍّ يسألُه حِفْظَ حرمه فقال له :
الحقّ لنا فى دمك وعلينا فى حرمك .

وقال الرشيد لإسماعيل بن صبيح : إياك والدالّة[1] فإنها تفسد الحرمة ، ومنها أوتى البرامكة .

وقال المأمون: الملوكُ تَحْتَمِلُ كلَّ شىء إلاّ ثلاثا : إفْشَاء السر، والقدح فى الملك ، والتعرض للحُرَم .

المعتصم ـ إذا نُصِر الهوى بَطل الرّأى .

المنتصر ـ لَذّةُ العَفْوِ أَطْيَبُ من لذّة التشفى ؛ وذلك أن لذةَ العَفْو يلحقها حَمْدُ العاقبة ، ولذّةُ التشفى يلحقها ذمُّ الندم .

* * *

قتل المتوكل

والمنتصر يقول عن تجربة ، لأنه قتل أباه المتوكل ، والأَمْرُ فى ذلك أشهر من أن يُذكَرُ ولكنى أُلمِعُ منه باليسير :

كان المتوكِّلُ قد عَقَدَ لولدِه المنتصر والمعتزّ والمؤيّد ولايةَ العهد ، ثم تغيّر على المنتصر دون أَخَوَيْهِ ، وكان يسمّيه المنتظِر ، ويقول له : أنتَ تتمـنّى موتى ، وتنتظر وَقْـتِى ! ويأمرُ الندماء أن يعبثوا به إلى أن أوْغَر صَدْره ، وأَقلَّ صبره ؛ فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاثٍ خلَوْنَ من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكِّلُ يَشْرَبُ مع الفَتْحِ فى قصره المعروف بالجعفرى ، ومعه جماعةٌ من الندماء والمغنّين ، وكان المنتصر معهم ، فلما انصرمت[2] ثلاث ساعات من الليل قال لزرافَة التركى : ألا تسَعُنِى ساعةً حتى أشكو إليك ما يمرُّ بى ؟ قال : بلى ، وجعل يماطله ويطاوله ، وغلَّقَ بُغا[3] الشرابى الأبواب كلها إلا باب الماء ، ومنه دخل الذين قتلوه ، فأوّل مَنْ ضربه باغر التركى ضربةً قطع بها حبل عاتقه ، وتلقّاه الفَتْح بنفسه فأَكَبّ عليه،

---

(١) فى ق : والذلة . (٢) فى س ، ق : انصرف . (٣) فى س : بغاء الشرالى .

فقُتِلا جميعاً ، وبويع المنتصر من ساعته، وكانت مدّة المنتصر فى الخلافة مدة شيرويه ابن كسرى ـ حين قتل أباه ـ ستة أشهر .

رثاء الأسدى للمتوكل

وقال إبراهيم بن أحمد الأسدى يرثى المتوكّل :

هكذا فلتَكُنْ مَنايا الكِرامِ ... بين نايٍ ومِزْهَر[1] ومُدامِ

بين كأسين أرْوَتاه جميعاً ... كأس لذّاته وكأس الحِمامِ

يقِظٌ فى السرور حتى أتاهُ ... ـ قَدَّرَ اللهُ ـ حتفه فى المنامِ

والمنايا مَراتب يتفاضَلْـ ... ـنَ وبالْمُرْهَفَات مَوْتُ الكرام

لم يزر نفسه رسولُ المنايا ... بصنوفِ الأَوْجاع والأسْقَام

هابَه مُعْلِناً فدَبَّ إليهِ ... فى سُتُور الدُّجى بحدِّ الحُسَام

أخذ هذا المعنى عبد الكريم بن إبراهيم التيمى ، فقال يرثى عيسى بن خلف صاحب خراج المغرب ، وكان قد تناول دواءً فمات بسببه :

منايا سدَدْتَ الطُّرق عنها ولم تَدَع ... لهـا مِن ثَنَايَا شاهِقٍ مُتَطلَّعا

فلما رأت سُورَ المهابة دونهـا ... عليك ولما لم تَجِدْ فيك مَطْمَعا

ترقّت بأسبابٍ لِطَافٍ ولم تكد ... تُوَاجه موفور الجَلالة أرْوَعا

فجاءتك فى سِرِّ الدواء خَفِيَّةً ... على حينَ لم تَحْذَرْ لداء تَوَقُّعا

فلم أَرَ مالاً يُتَّقى مثل سَهْمِها ... ولا مثلها لم تَخْشَ كيداً فترجعا

رثاء البحترى للمتوكل

وقد رثاه البحترى ويزيد المهلبى بمرثيتين من أَجْوَدِ ما قيل فى معناهما ، وكانا حاضِرَيْن ليلة قَتْلِه . فاختفى أحدُهما فى طىّ الباب ، والآخر فى قناة الشاذَرْوَان ؛ فمن قصيدة البحترى[2] :

تغيّر حُسْنُ الجَعْفَرِىّ وأُنْسُهُ ... وقُوِّض بادِى الجعفرىِّ وحاضِرُهْ

تحمَّل عنه ساكنوهُ فُجَاءةً ... فآضت[3] سواءً دورُه ومقابرُه

(١) المزهر : العود الذى يضرب به . (٢) ديوانه : ١ ـ ٢١٥ .

(٣) فى الديوان : فعادت . وآضت : رجعت وصارت .

ولم أر مثل[1] القصر إذ ريع سِرْبُهُ ... وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذرُه
وإذ صِيحَ فيه بالرّحيل فهتّكت ... على عَجَلٍ أسْتَارُهُ وستائرُهْ
إذا نحن زُرْناه أجدَّ لنا الأسَى ... وقد كان قبل اليوم يَبْهَجُ زائرُه
فأين عميدُ الناسِ فى كل نَوْبَةٍ ... تنُوب وناهِي الدهر فيهم وآمرُهْ
تخفّى لهُ مُغتالُهُ تحتَ غِرةٍ ... وأولى لمن يَغتالُه لو يُجاهِرُه
صريعٌ تقاضاه السيوف حُشاشةً ... يجودُ بها والموت حُمرٌ أظافِرُه
حرامٌ علىَّ الراح بعدك أو أرى ... دماً بدم يجرى على الأرض مائرُه[2]
وهل يُرْتجَى أن يطلب الدم طالب[3] ... مَدَى الدهر والموتورُ بالدم وَاتِرُه
فلا مُلِّى الباقى تُراثَ الذى مضى ... ولا حمّلت ذاك الدعاءَ مَنابِره

وهى طويلةٌ ، وكان أبو العباس ثعلب يقول فيها : ما قيلت هاشمية أحسن منها ، وقد صرّح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب .

ارتياح المتنبى إلى ذكر المتوكل والفتح

وقد كان البحترى يرتاح فى كثير من شعره إلى ذكره وذكر الفتح بن خاقان ، فمن ذلك قوله لبعض من يمدحه[4] :

تداركنى الإحسانُ منكَ ونالنى[5] ... على فاقةٍ ذاك النَّدى والتطوُّلُ
ودافعتَ عنى حين لا الفتح يُرتجى ... لدَفْعِ الأذى عنى[6] ولا المتوكّلُ

وقال[7] :

مضى جعفرٌ والفَتْحُ بين مُوَسَّدٍ ... وبين قتيل[8] فى الدماء مضرَّجِ
أأطْلُبُ أنْصاراً على الدهر بعدما ... ثوَى منهما فى الترب أوسِي وخزْرَجى

---

(١) فى الديوان : ولم أنس وحش .
(٢) فى ق : ماطره .
(٣) فى الديوان : واتر .. يد الدهر .
(٤) ديوانه : ٢ — ٢٠٣ .
(٥) فى الديوان : ومسنى على حاجة ذاك الجدا .
(٦) فى الديوان: يبتغى لدفع الذى أخشى .
(٧) ديوانه : ١ — ١٠٦ .
(٨) فى الديوان : بين مرمل وبين صبيغ بالدماء .

وقال فى غلام له[1] :

عسى آيسٌ من رَجْعةِ الوصل[2] يوصَلُ ... ودَهرٌ تَوَلَّى بالأحبَّـةِ يُقبلُ

أيا سكناً فات الفِراقَ بنفسـه[3] ... وحالَ التَّعادى دونه والتَّزَيُّـلُ

أتعجبُ لمَّا لم يغل[4] جسمىَ الضّنا ... ولم يخترم نفسى الحِمامُ المعجّـلُ

فقبلك بانَ الفتح منى مودّعاً ... وفارقنى شفْماً له المتوكّل

فما بلغ الدّمع الذى كنت أرتجى ... ولا فعـل الوجدُ الذى خِلت يفعلُ

وما كلّ نيران الجوى تحرقُ الحشا ... وما كلّ أدواءِ الصَّبابة تقتـــل

رثاء المهلبى للمتوكل

وقال أبو خالد يزيد بن محمد المهلبى فى قصيدة أولها[5] :

لا وجد إلا أراه دون ما أجِدُ ... ولا كمن فقدَتْ عَيْناى مفتقَدُ

يقول فيها :

لا يبْعَدَن هالكٌ كانت مَنيَّتُهُ ... كما هوى من عضاهِ الزُّبية الأَسَدُ[6]

جاءت منيّتُهُ والعينُ هادِيةٌ ... هلاَّ أتتـه المنايا والقنَا قُصُدُ[7]

نخرَّ فوق سريرِ الملك مُنْجدِلًا ... لم يحمه مُلْـكه لمّا انقَضَى الأَمَدُ

لا يدفع النـاس ضَيْماً بعد ليلتهم ... إذ لا يُهزُّ إلى الجـانى عليك يَدُ

علتك أسيافُ مَنْ لا دونَه أحدٌ ... وليس فوقك إلا الواحدُ الصَّمَدُ

إذا بكيتُ فإن الدمعَ مُنْهَمِلٌ ... وإن رَثَيْتُ فإنَّ الشعرَ مُطَّرِدُ

إنَّا فَقَدْناك حتى لا اصطبارَ لنا ... ومات قَبْلك أقوامٌ[7] فمـا فقدوا

قد كنتُ أُسْرِفُ فى مالى فتُخْلِفُهُ ... فعلّمَتْنى الليـــالى كيف أقْتَصِدُ

---

(١) ديوانه : ٢ ـ ١٩٨ .   (٢) فى الديوان : من رجعة البين .

(٣) فى الديوان : بأنسه .   (٤) فى الديوان : فلا تعجبن إن لم يغل .

(٥) العقد الفريد ٣ ـ ٢٨٨ ، الـكامل ٢ ـ ٣١١

(٦) العضاهة : أعظم الشجر ، والجمع عضاه ، وفى العقد : من غطاء. والزبية : الرابية لا يعلوها ماء ، وفى س: الربية.   (٧) قصد : متكسرة .   (٨) فى س : أملاك .

وقال فيها يذكر الأتراك ويحضّ على اصطناع العرب :

لما اعتقدتم أُناساً لا حِفاظَ لهم ... ضِعتم وضيعتمُ مَنْ كان يُعتقدُ

ولو جعلتم على الأحرار نِعمتكم ... حمتكم الذادة المنسوبة الحشُدُ

قومٌ همُ الأصلُ والأسماء تجمعكم ... والدِّينُ والمجدُ والأرْحامُ والبلدُ

إنَّ العبيدَ إذا أذللتهم صَلَحوا ... على الهوانِ وإن أكرمتهم فَسَدُوا

* * *

أبو حية يرثى

وقال أبو حيّة النميرى[1] :

رَمَتْهُ فتاةٌ[2] من ربيعة عامرٍ ... نَؤوم الضُّحى فى مَأْتَمٍ أىّ مأتمِ

فقلن لها فى السرِّ نَفْديك لا يَرُح ... صحيحاً وإلّا تَقْتُليه[3] فألممِ

فألْقَتْ قِناعاً دونه الشَّمْسُ واتَّقت ... بأحسن موصولَيْن كفٍّ ومعصمِ

وقالت فلما أفرَغَتْ فى فؤادهِ ... وعَيْنَيْه منها السِّحْرَ قالت له نَمِ[4]

فأصبح لا يَدْرِى أفى طلعة الضحى ... تروَّح أم داجٍ من الليل مُظْلِمِ

أخذ قوله : « فألقت قناعا دونه الشمس » من قول النابغة الذبيانى[5] :

قامت تَراءى بين سَجْفَىْ كِلّةٍ ... كالشمس يوم طلوعها بالأسْعُدِ[6]

سقط النَّصيف[7] ولم تُرِد إسقاطَهُ ... فتناولَتْه واتَّقتْنا باليدِ

وقال أبو حية يرثى سلمة بن عياش :

كأنَّ أبا حفْصٍ فتى البأْس لم يجبْ[8] ... به اللَّيْلَ والبيض القِلاصُ النّجائبُ

إلى الغايةِ القُصْوَى ولم تهد فتيةً ... كراما وتخطوه الخطوبُ النوائبُ

ويُعْمِل عتاقَ العيس حتى كأنها ... إذا وُضِعت عنها الولايا[9] المشاجب

---

(١) الحماسة : ٣ — ٣٠٨ . (٢) فى الحماسة ، س : أناة . (٣) فى س : فاقتليه .

(٤) فى الحماسة : قلن له قم . (٥) ديوانه : ٣٦ . (٦) السجف : الستر الرقيق .

الكلة : غطاء يخاط كالبيت يتوقى به من البعوض . (٧) النصيف : الخمار .

(٨) فى س : لم يخب . (٩) الولايا ، جمع ولية : البرذعة ، وفى ط ، ق : العلايامشاجب .

بعيد مثانى الهمِّ يُمْسِى وما لهُ سوى الله والعضْبِ السُّرَيجِىِّ[1] صاحِبُ
يَرُومُ جسيمات العُلا فينالُها فتى فى جسيمات المكارِمِ راغِبُ
فإنْ يُمس وَحْشاً بابه فلرُبّما تواتَرُ أفواجاً إليه المواكب
يحيّون بسّاما كأن جبينَهُ هِلالٌ بَدا وانجاب عنه السَّحائِبُ
وما غائب مَنْ غاب يُرْجَى إيابهُ ولكنه من ضُمِّن اللَّحْدَ غائِب

وزعم الصولى أن أبا حَيَّة إنما قالها فى محمد بن سليمان بن على بن عبيد الله ابن العباس .

وكان أبو حيّة جَيّد الطبع ، مألوفَ الكلام ، رقيق حواشى الشِّعر .

[الشباب]

وسُئِل الأصمعى عن قيس بن الملوح المجنون ، فقال : لم يكن مجنونا ، وإنما كانت به لُوثة كلوثة أبى حية[2] ، وهو القائل[3] :

رمتنى وسترُ الله بينى وبينها عشيةَ أحجار الكِناس رَميمُ[4]
رميمُ التى قالت لجارات بيتها ضمنت لَكُمْ ألاَّ يزال يَهيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتنى رَمَيْتها ولكنَّ عهدى بالنصال[5] قديم
فيا عجباً من قاتلٍ لى أودّهُ أشاط دمى شخصٌ علىَّ كريم[6]
يرى الناسُ أنى قد سَلَوْتُ، وإننى لمدمن[7] إحْناء الضلوع سَقيم

وأنشدنى[8] إسحاق بن إبراهيم الموصلى فى مثله ولم يسمّ قائله :

هل الأُدْم كالآرام والدهر كالدُّمَى معاودتى أيامهنَّ الصَّوالِحُ
زمانَ سلاحى بينهن شبيبتى لها سائف[9] من حسنهن ورامِحُ

(١) سريج : قين تنسب إليه السيوف السريجية . (٢) اللوثة ، بالضم : مس الجنون .
(٣) الأمالى : ٢ — ٢٨٠ ، الحماسة : ٣ — ٢٦٩ ، وقد اختلف فى نسبة هذه الأبيات.
(٤) رميم : اسم امرأة كما استشهد به عليها فى اللسان — مادة — رمم . والكناس: موضع. معجم ما استعجم : ١١٣٥ . وفى الحماسة : ونحن بأكناف الحجاز رميم .
(٥) فى ط والحماسة: بالنضال . (٦) أشاط : أحرق . (٧) فى ط : لمدنف .
(٨) فى س : وأنشد . (٩) ساف : ضرب بالسيف ، وفى ط : سائق .

فأقسمْنَ لا يسقيننى قَطْرَ مُزْنَةٍ لشَيْبى ولو سالَتْ بهن الأباطِحُ

وقال هارون بن على بن يحيي المنجِّم :

الغانيـــات عهودُهـ نَّ إلى انصرام وانقِضَاب

مَنْ شابَ شِبْنَ له المو دّ ة بالخديعة والـكِذَاب[1]

فانعم بهنَّ وزَنْدُ سِـ نّـ كَ فى الشَّـبيبة غيْرُ خابِى

مادُمْتَ فى وَرَقِ الصِّبَا وَغُصُونِه الخُضْرِ الرِّطابِ

فافْخَرْ بأيّام الصبـا واخلَعْ عِذَارَكَ فى التَّصَابِى

واعْطِ[2] الشبابَ نَصِيبهُ ما دُمْتَ تعـذر بالشَّبَابِ

وقال أشجع بن عمرو السّلمى :

ومالىَ لا أُعْطِى الشبابَ نصيبهُ وغُصْنَاه يهتزَّانِ فى عُودِهِ الرَّطْبِ

رأَيْتُ الليالى يَنْتَهِبْنَ شبيبتى فأَسْرَعْتُ باللذات فى ذَلك النَّهبِ

فإنّ بنات الدَّهْرِ يَخْلِسْنَ لَذَّتى فقد جُزْنَ سَلْمِى وانْتَهَيْنَ إلى حَرْبِى

وقدحوَّلَتْ حالِى الليالى وأَسْرَجت على الرأس أمثالَ الفَتِيلِ من العُطْبِ[3]

وموتُ الفتى خيرٌ له مِنْ حَيَاتِه إذا كان ذا حالَيْنِ يَصْبُو ولا يُصْبِى

وقال آخر :

ما الْعَيش إلا أنْ تُحِبّ وأن يحبّك مَنْ تُحِبّهْ

فِقَر تتصل بهذه الأبيات فى وصف الشباب

أطاع الشبابَ وغِرَّته ، وأَجاب الصبا وشِرَّته . جرَّ إزَار الصِّبَا ، وأَذَال[4] ذيُولَ الْهوى ، وركض فى مَيْدَان التَّصَابِى ، وجَـنَى ثمرات الْمَلَاهى. هو فى اقتبال شَبَابه ، وحَدَاثة أَتْرَابه، ورَيْعَان عمره، وعُنْفُوان أَمْره. هوفى إبَّان شبا بِه واعْتِدَاله،

---

(١) شبن : مزجن ، الـكذاب : الـكذب . (٢) فى س : أعط .

(٣) العطب : القطن. (٤) أذال : أرسل .

وريعان إقباله واقتباله . بعثه على ذلك أشَرُ[1] الصبا ، ولين الغُصْنِ ، وشَرْخ الشبيبة وسكر الحَدَاثة . فتىّ السّن ، رَطيب الغُصْن ، عمره فى إقْبالِه ، ونشاطُه فى استقباله ، وشبابُه فى اقتباله ، وماؤُه بحاله . فلانٌ فى حكم الأطفالِ ، الذين لم يَعَضّوا على نَوَاجِذ الرجال . هو فى عُنْفُوان شبيبةٍ تُخاف سقطاتُها وهَفوَاتُها ، ولا يُؤْمن جَيْحاتُها ونَزَواتُها . هوفى سُكْرَى الشباب والشراب ، وبين نَزوات الشبان ، ونَزَغَات الشيطان . شبابُه أَعْمَى عن الرشد ، أصمُّ عن العَذْل ، قدلبَّى دَاعِيَ هَواه ، وانْغَمس فى لُجَّة صِبَاه . قد هَجَم بسُكْرِ الحداثَةِ على سكرات الحوادث ، يَجْرى إلى الصِّبا جَرْىَ الصَّبَا . فلان غُفْلٌ من سِمَةِ التَّجْرِبة ، جَامِحٌ فى عِذار الغَفْلة ، صَعْبُ الرأس على لِجام العِظَة . هو مِنْ سلطان الصّبا فى النَّوْبَة الأولى ، قد خلع عِذَاره ومِقْوَده ، وأَلْقَى إلى البطالة باعَه ويَدَه . هو بين خُمار[2] الغَدَاة وسكر العَشِى لا يعرف الصَّحو ، ولا يفارق اللهو . فلان لا يفيق ، ولا يذكر التوفيق ، هو بين غرَرِ الشباب ، وغُرر الأحباب .

ويتعلق بهذه الألفاظ ألفاظ لهم فى نجابة الشباب وترشحهم للمعالى

قد جمع نَضارةَ الشباب إلى أُبّهة المشيب ، وهو على حدوث ميلادِه وقُرْب[3] إسناده شيخ قَدْرٍ وَهَيْبَة ، وإن لم يكن شيخَ سنٍّ وشَيْبَة . هو بين شباب مُقْتَبل ، وعقل مكْتَمِل ، قد لبس بُرْدَ شبابه على عَقْل كهل ، ورَأْى جزل ، ومَنْطق فصل . للدهر فيه مَقاصد ، وللأيام فيه مَوَاعد ، أرى له فى فَصل ضمانِ الأيام وَوَدائع الحظوظ والأقسام ، تبَاشِيرَ نُجْح ، ومَخَايِلَ نَصْرٍ وفتحٍ ، قد استكمل قوّة الفَضْلِ ، ولم يتكامَلْ له سِنُّ الكَهْل . مازالت مخايله وَليدا وناشئا ، وشمائله صَغيراً ويافعا ، نوَاطِقَ بالحسن عنه وضَوَامِنَ النُّجْحِ فيه ! قد سما إلى مراتبِ أعْيَان الرجال ، التى لاتُدْرَك

---

(١) الأشر : المرح . (٢) الخمار : صداع الخمر وألمها ، وما خالط من سكرها .

(٣) سند فى الجبل وأسند : صعد .

إلا مع الكمال والاكتهال . حُمِدَتْ عزائمهُ ، قبل أن حُلَّت تمائمه ، وشُهِدَتْ مكرماته ، قبل أن تَدرجّ لِدَاته [1].

وقال البحترى [2] :

لاتنظرنَّ إلى العباس [3] من صغرٍ — فى السِّن وانظر إلى المجد الذى شَادَا
إنَّ النجومَ نجومَ الأفق [4] أصغرها — فى العين أذهبُها فى الجوّ إصْعَادَا

وقال آخر :

رأيت العقلَ لم يكن انتهاباً — ولم يُقْسَم على قَدْرِ السنينا
فلو أنّ السنين تقسّمته — حَوَى الآباءُ أنصبةَ البنينا

وقال الفضل بن جعفر الكاتب :

فإن خلفته السنُّ فالعَقْلُ بالغٌ — به رُتبَةَ الكَهْلِ المؤهَّل للمَجْدِ
فقد كان يحيى أُوتِىَ الحُكْمَ قبله — صَبِيًّا وعيسى كلَّمَ الناسَ فى المهدِ

[أثر الأيام والليالى]

وكان أبو حيّة كثير الرواية عن الفرزدق ، وعُمِّر حتى التقى بابن مناذر فاستنشده شعره ، فأنشده أبو حيّة [5] :

ألَا حىِّ من أجل الحبيب المَغَانيا — لَبِسْنَ البلى مما لَبِسْنَ اللّياليا
إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ — تقاضاه شىءٌ لا يملُّ التَّقاضيا
حَنَتْكَ الليالى بعدما كنت مرةً — سوِىَّ العصا لو كُنَّ يُبْقِينَ باقيا

فقال ابن مناذر : أوَ شعرٌ هذا ؟ فقال أبو حيّة : ما فى شعرى عيب ، غير أنك تسمعه .

---

(١) فى ق : تدرج لذاته. وتدج : تدب فى السير . (٢) ديوانه : ١ — ٢٠٣ .
(٣) فى الديوان : إلى الفياض . (٤) فى الديوان : نجوم الليل .
(٥) الأمالى : ٢ — ١٨٥ ، اللآلئ : ٨٠٢ .

وفى هذه القصيدة يقول أبو حية :

ولما أبَتْ إلا التواءً بِوُدِّها ... وتكديرَها الشِّرب الذى كان صافيا

شربتُ برَنْقٍ[١] مِنْ هَوَاها مكدَّرٍ ... وكيف يعاف الرنْقَ[٢] من كان صَادِيا

وقد قال عَمْرُو بن قَمِيئَة فى معنى قول أبى حية :

كانت قناتى لا تلين لغَامزٍ ... فألاَنَها الإصباحُ والإمْسَاءُ

ودعوت ربى فى السلامة جَاهداً ... لِيُصِحَّنِى فإذا السَّلَامَةُ دَاءُ

وقال النّمر بن تولب[٣] :

يَوَدُّ الفتى طولَ السلامة والبَقا[٤] ... فكيف يرى طولَ السلامة يفعلُ

يعودُ الفتى من بَعْد حُسنٍ وصحةٍ[٥] ... ينوءُ إذا رَامَ القيام ويُحمَلُ

وقد روى فى الحديث الشريف : كفى بالسلامة داءً .

وقد أحسن حُمَيد بن ثور فى قوله[٦] :

أَرَى بَصَرِى قد رَابنى بعد صحةٍ ... وحَسْبُك داءً أن تَصِحَّ وتَسْلَما

ولن يَلْبَثَ العصران يومٌ وليلةٌ ... إذا طلبا أَن يدركا ما تيمّما[٧]

وهـذان البيتان من قصيدة طويلة وهى أجود شعر حُمَيد ومن أَجْوَد ما فيها :

وما هاجَ هذا الشوقَ إلاَّ حمامَةٌ ... دَعَتْ ساقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتَرَنُّما

تَرُوحُ عليه وَالهاً ثم تَغْتَدِى ... مولَّهةً تَبْغِى له الدَّهرَ مَطعَما

تؤمل منه[٨] مُؤْنِسًا لِانفِرادِها ... وتَبْكِى عليه إنْ زَقَا وتَرَنَّما

---

(١) رنق الماء : كدر، وفى ق ، وس : بريق. (٢) فى س ، ق : الريق .

(٣) جمهرة أشعار العرب : ١٩٩ . (٤) فى الجمهرة : والغنى .

(٥) فى الجمهرة : يود الفتى بعد اعتدال وصحة . (٦) الشعراء : ١٠ ، ٣٤٩، اللآلئ : ٥٣٢ ، ٣٨٢. (٧) فى س : يتمما . (٨) فى ط : فيه .

كأنَّ على إشراقه نورَ خمـرةٍ إذا هُوَ مَدَّ الجيدَ منهُ لِيطْعَما
فلمَّا اكْتَسَى الرِّيشَ السُّحامَ[١] ولم تجِدْ لهـا مَعَهُ فى ساحةِ الحىِّ مَجْثَما
تنحَّتْ قريباً فوْقَ غُصنٍ تَذَأَّبَتْ[٢] به الريحُ صِرْفاً أىَّ وجه تيمَّما
فأَهْوَى لها صَقْرٌ مُسِفٌّ فلم يَدَعْ لها وَلَدًا إلا رِماماً وأَعْظُما
فأَوْفَتْ على غُصن ضُحَيًّا ولم تَدَعْ لنائحـــةٍ فى نَوْحِها مُتَلوَّما
عَجِبْتُ لهـا أنّى يكونُ غِناؤُها فصيحاً ولم تَفْغَرْ بِمَنْطِقِها فما
فلم أرَ مِثْلى شاقَهُ صَوْتُ مثلِها ولا عربيًّا شاقَه صَوْتُ أَعْجَما

ومن خبيث الهجاء قولُه فى هذه القصيدة يخاطب رجلين بعثهما :

وقولا إذا جاوزتُما أَرْضَ عامرٍ وجاوزتُما الحيّين نَهْدًا وخَثْعَما[٣]
تريعان مِنْ جَرْم بن[٤] زَبَّان أنهم أَبَوْا أَنْ يريقوا فى الهَزاهِزِ مِحْجَما[٥]

وما هُجِيت جَرْم بأشدّ من هـذا ، يريد أنهم لذلّتهم لم يَتِرُوا أحداً فيطالبهم بِذَحْل .

وقال الأصمعى : قيل لبعض الصالحين : كيف حالُك ؟ قال : كيف حالُ من يفنى ببقائه ، ويَسْقَم بسلامَتِه ، ويُؤْتَى من مَأمنه ، وقال محمود الوراق :

يُحِبُّ الفتى طولَ البقاءِ كأنّهُ على ثقـةٍ أَنَّ البقاءَ بَقَاءُ
إذا ماطوى يوماً طوى اليومُ بعضَه ويَطْوِيهِ إِنْ جَنَّ المساءُ مَساءُ
زيادتُه فى الجسم نقصُ حَيَاتِهِ وأنَّى على نَقْصِ الحيـاةِ نَماءُ
جديدان لا يَبْقَى الجميعُ عليهما ولا لهما بَعْـدَ الجميـع بقــاءُ

---

(١) السحام : السواد . (٢) تذأبت الريح : جاءت فى ضعف من هنا وهنا .
(٣) نهد : قبيلة باليمن . وخثعم : أبو قبيلة من معد . (٤) بطن من قضاعة ، وفى س ، ق : بن ربان . (٥) الهزاهز : تحريك البلايا والحروب بين الناس . والمحجم : ما يحجم به .

وقال المتنبي[١] :

زِيادةُ شَيْبٍ وَهْيَ نقْصُ زِيادَتى ... وقُوَّةُ عِشْقٍ وَهْىَ مِنْ قُوَّتى ضَعْفُ

وبيت محمود الأخير كقول البحتري[٢] :

أناةً أيّها الفَلَكُ المُدارُ ... أنَهْبٌ ماتصرّف أم جُبارُ[٣]

ستَفنى مِثْل ما تُفنِى وتَبْلى ... كما تُبْلِى فيُدرِكُ مِنْكَ ثارُ

تُنابُ النائبات إذا تَناهَتْ ... ويَدْمُر فى تَصَرُّفِه الدَّمارُ

وما أَهْلُ المنازِلِ غَيْر رَكْبٍ ... مطاياهم رَوَاحٌ وابْتِكارُ

ويقول فيها :

لنا فى الدَّهر آمالٌ طوالٌ ... نُرَجِّيها وأَعمارٌ قِصارُ

أما وأبى بنى حارِ بْنِ كعبٍ ... لقد طرد الزمان بهم فساروا

أصاب الدّهرُ دولة آل وَهْبٍ ... ونالَ الليلُ مِنهم والنهارُ

أعارهُمُ رداءَ العزّ حتى ... تقاضاهم فردّوا ما استعاروا

وقد[٤] كانوا وأَوْجُهُهم بدورٌ ... لمبصِرها[٥] وأَيديهم بِحَارُ

أخذ قوله : « ستَفْنَى مثل ما تُفْنِى » أبو القاسم بن هانئ فقال :

تَفْنَى النجومُ الزُّهرُ طالِعةً ... والنَّيِّرانِ الشَّمْسُ والقمرُ

ولئن تبدَّتْ فى مَطالِعِها ... منظومةً فلسوف تَنْتَثِرُ

ولئن سعى الفلك المُدارُ بها ... فلسوف يُسْلِمُها ويَنْفَطِرُ

---

(١) ديوانه : ٢ ـ ٢٨٣ . (٢) ديوانه : ٢ ـ ٤٦ .

(٣) فى الديوان : ماتطرق ، وفى س : ما تطرف ، وجبار : الهدر والباطل ، ومن الحروب: مالا قود فيها . (٤) فى الديوان : وما كانوا فأوجههم .

(٥) فى الديوان : لمختبط .

وقد استقصى على بن العباس الرومى المعنى الأول فقال[1] :

والدَّهرُ يُبْلِى الفَتى من حيثُ يُنْشِئُهُ … حتى تَكَرَّ علَيْه لَيْلةُ القَرَبِ[2]

يَغْذوهُ فى كلِّ آنٍ وَهو يأكُلُه … ويَحْتَسى نُغَباً مِنْهُ على نُغَبِ[3]

يُودى بحالٍ فَحال من شَبيبتهِ … تسرُّبَ الماءِ فى مُسْتَأْنَفِ الكُتَبِ[4]

حَسْبُ امرئٍ مِنْ خَنَى[5] دهرٍ تَطاوُلُهُ … وإنْ أجمَّ فلَمْ يُنْكَبْ ولم يُنَبِ

فى هُدْنَةِ الدَّهْرِ كافٍ من وَقائعهِ … والعُمْرُ أفْدَحُ[6] مِبرَاةً من الوَصَبِ

وقال أيضاً[7] :

يَا بَانِىَ الحِصْنِ أرْساه وشَيَّدَهُ … حِرْزاً لِشِلْوٍ من الأعداءِ مَشْجونِ[8]

انظر إلى الدهر هل فاتتْه بغيتُهُ … فى مطمح النسر أو فى مَسْبَح النُّونِ[9]

ومن تحصَّن مَنْخُوباً[10] على وَجَلٍ … فإنَّما حصنه سِجنٌ لمسجونِ

أَشكو إلى الله جَهْلا قد أَضَرَّ بنا … بل ليس جهلا ولكن عِلْمُ مَفْتونِ

وقال الطائى[11] :

وإن تَبْنِ حيطانٌ عليه فإنما[12] … أولئك عُقَّالاتُهُ لا مَعاقِلُهْ[13]

ودخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حالُه فى التغيّر ، فأُخْبِر أنه مشغول ، فرجع فبعث إليه الرشيد : خُنْتَنى فاتَّهمتنى ، فقال : إذا انقضَت المُدّة كان الحَتْفُ فى الحيلة ، والله ما انصرفتُ إلا تخفيفا . أخذه ابن الرومى فقال ــ وقد قصده

(١) ديوانه : ١ ــ ١٩٥ . (٢) القرب : سير الليل لورد الغد ، وألا يكون بينك وبين الماء إلا ليلة . (٣) فى ط ، س : تعباً منه على تعب . والنغب : جمع نغبة وهى الجرعة.
(٤) فى ط ، س : الكثب . والكتب جمع كتبة: السير تخرز به القربة .
(٥) فى ط ، س : جنى . (٦) فى ط ، س : أقدح . (٧) ديوانه : ٢٥ .
(٨) فى الديوان : مشحون . والمشجون: المشعوب والمكسور . (٩) النون : التمساح .
(١٠) فى الديوان : محبوسا . (١١) ديوانه : ٢٣١ .
(١٢) فى الديوان : وإن يبن حيطانا . (١٣) العقالات : القيود ، والمعاقل : الملاجئ .

بعضُ الأطباء فزعم أن الفَصْد زاد فى علته[1] :

غلط الطبيب علىَّ غلطة موردٍ عجزت مَحالَتُه[2] عن الإصدار

والناسُ يَلْحَوْنَ الطبيب وإنَّما غَلَطُ الطبيبِ إصابةُ المقدارِ[3]

[وصف الثغور]

وقال أبو حيَّة النميرى[4] :

سقتنى بكَأْسِ الحبِّ صِرْفاً مروَّقاً رِقَاق الثَّنَايَا عَذْبة المُتَرَنَّقِ[5]

وخُمصانةٍ تَفْتَرّ عن متنشّقٍ كَنَوْرِ الأقاحى طيّب المتذوَّقِ[6]

إذا امتضغت بعد امتناع من الضّحى أنابيبَ من عود الأَراك المخلَّق[7]

سقَتْ شُعَب[8] المِسْواكِ ماءَ غمامةٍ فَضيضاً[9] بخُرطوم الرَّحيقِ المُرَوَّقِ

وأنشد الثورى[10] :

ترى الدُّر منثوراً إذا ما تكلَّمت وكالدُّر منظوماً إذا لم تَكلَّمِ

تُعبِّد[11] أحرارَ القلوب بِدلّها وتملأُ عَيْنَ الناظر المُتوسِّمِ

والبيت الأول من هذين كقول البحترى[12] :

فمن لؤلؤ تَجْلُوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقِطُه

وقد تقدّم . قال أبو الفرج الرياشى : سمعتُ الأصمعى يقول : أحسن ما قيل فى وصف الثغر قول ذى الرمه[13] :

وتَجْلُو بفرْعٍ من أراكٍ كأنَّه من العَنْبَرِ الهِنْدِىِّ والمِسْكِ يُصْبَحُ

---

(١) ديوانه : ٤٨١ . (٢) المحالة : الحيلة . (٣) فى الديوان : الأقدار .

(٤) المختار من شعر بشار : ٢٣٨ . (٥) رنق الماء : كدره وصفاه ، والترنيق أيضاً : إدامة النظر . (٦) خمصانة : ضامرة البطن . (٧) فى ط : امتناع . المخلق : المدهون بالخلوق ، وهو ضرب من الطيب . (٨) فى المختار : شعث المسواك.

(٩) الفضيض : ما تناثر من الماء . (١٠) المختار من شعر بشار : ٣٧ .

(١١) فى س : تغير . (١٢) ديوانه : ٢ ـ ٣٣١ ، المختار من شعر بشار : ٣٩ ، النويرى : ٢ ـ ٧١ . (١٣) ديوانه : ١ ـ ٢ .

ذُرَى أُقْحُوانٍ وَاجَه الليل وارْتَقَى ... إليـهِ النَّدَى من رامةَ المتروِّحُ

هِجانُ الثَّنايا مُغْرِبٌ[(١)] لو تَبَسَّمَتْ ... لِأَخْرَسَ عنـه كاد بالقولِ يُفْصِحُ

ومن قديم هذا المعنى وجيّده قولُ النابغة الذبيانى فى صفة المتجردة امرأة النعمان ابن المنذر[(٢)] :

تَجْلُو بقادمتى حَمامة أيكةٍ ... بَرَدًا أُسِفّ لِثاتُه بالإثمِدِ

كالأُقْحُوان غداةَ غبِّ سمائِهِ ... جفَّتْ أعاليه وأسْفَلُه نَدِى

زَعَم الهُمامُ بأنَّ فاهَا بَارِدٌ ... عَذْبٌ مُقَبَّلُهُ شهِىُّ المَوْرِدِ

زَعم الهمامُ ولم أَذُقْه أنه ... يشفى[(٣)] بريّا رِيقها العَطِش الصَّدِى

ومن قوله : « ولم أذقه » أخـذ كلّ من أتى بهذا المعنى فغتقه الناس بَعْدَه ، قال المتوكل الليثى :

كأنَّ مُدامةً صهباءَ صِرْفًا ... ترقرَق بَيْنَ راوُوقٍ ودَنِّ

تُعَلُّ بها الثَّنَايَا من سليمى ... فِراسةُ مُقْلَتى وصحيحُ ظَنِّى

وقال بشّار[(٤)] :

يا أَطْيَبَ الناس ريقا غير مُخْتَبرٍ ... إلّا شهادة أطرافِ المساويكِ

قد زُرْتِنا مرةً فى الدهر واحدةً ... ثَنِّى ولا تجعليها بَيضَةَ الدِّيكِ

يا رَحمـةَ الله حُلّى فى منـازلنا ... حَسْبِى برائحة الفردوس من فِيكِ

وقيل لبشار: يا أبا معاذ ، كم بين قولك، وأنشد هذه الأبيات، وبين أن تقول[(٥)] :

إنمـا عظمُ سُلَيمى خُلتى[(٦)] ... قَصَبُ السكر لا عَظْمُ الجَمَلْ

وإذا قُرِّب[(٧)] منها بَصَلٌ ... غلب المِسْكُ على ريح البَصَلْ

فقال : إنما الشاعر المطبوع كالبحر: مرةً يقذِف صدَفه ، ومرةً يقذف جِيَفه[(٨)] .

---

(١) فى الديوان : مغربا ، وفى س : مغرب . (٢) ديوانه : ٣٧ ، المختار من شعر بشار : ٥٥ . (٣) فى ط : يروى . (٤) الصناعتين : ٢٥٠ ، الوساطة : ٢٣١ ، الأمالى ١ـ٢٢٨ . (٥) الصناعتين : ١١٦ . (٦) فى الصناعتين : حبتى . (٧) فى الصناعتين : وإذا أدنيت منها . (٨) فى س : حشفه .

[السواد]

وقد تناول هـذا المعنى أبو الحسن علىّ بن العباس الرومى من أَقْرَب متناوَل ، فقال ـ وكشفه بأَوْضح عبارة فى صفته لجارية أبى الفضل عبد الملك بن صالح السوداء بعد أن استوفى جميعَ صفاتها وكان قد اقْتُرِح عليه وصْفُها(١) :

وصَفْتُ فيها الَّذِى هَوِيت على الـ ... وهم ولم نَخْتَبِرْ ولم نَذُقِ
إلّا بأَخبارك التى رُفِعَتْ ... منك إلينا عن ظبيـة البُرَقِ
حاشا لسَوْداءِ منظرٍ سكَنَتْ ... ذُراكَ إلا عَنْ مَخْبرٍ يَقَقِ(٢)

وهذه الأبياتُ من قصيدةٍ له وصف فيها السواد ، واحتجّ بتفضيله على البياض ، حتى أَغْلَق فيه الباب بعده ، ومنع أن يَقْصِد فيـه أَحدٌ قصده ، إلّا كان(٣) مقصّر السهم عن غَرضِ الإحسان . وقد نبّه على بن عبد الله بن العباس [المسيب على](٤) فضائلها ، وأَجاد التشبيه، وكشف عن وجوه الإبداع ، وضروبِ الاختراع .

وقد مدح الناسُ السوادَ والسُّود فأكثروا . فمن جيد ماقالوا فيه قول أبى حفص الشطرنجى :

أَشبهكِ المِسْكُ وأشبهتِهِ ... قائمةً فى لَوْنِه قاعِدَهْ
لا شكَّ إذ لَوْنكما واحدٌ ... أَنكما من طِينةٍ واحدَهْ

فأخذ ابنُ الرومى هذا المعنى وأضاف إليه أشياء أخر توسعاً واقتداراً ، فقال :

يذكرك المسك والغَوالى والـ ... سُّكُّ(٥) ذوات النسيم والعَبَقِ

وهذه الأشياء وإن كانت ناقصةً عن المسك ، فهى ممدوحةٌ بالطيب، غير مستغنى عن ذكرها فى التشبيهِ ؛ فأما زِيادَتُه على جميع من تعاطى مدح السواد فقوله :

سوداء لم تنتسب إلى بَرَصِ الـ ... شُّقْرِ ولا كُلْفَةٍ ولا بَهَقِ

---

(١) ليست فى ديوانه المطبوع بأيدينا . (٢) يقق ـ بفتح القاف الأولى وكسرها : شديد البياض ناصعه . (٣) فى س : كل . (٤) هكذا فى كل الأصول ، وما بين القوسين ليس فى س.
(٥) السك : نوع من الطيب يركب .

والأبيض الشديد البياض مَعيب ، وقد دلّ عليه قوله :

وبَعْضُ ما فُضِّـلَ السوادُ بهِ　　　والحقّ ذو سُلَّمٍ وذو نَفَقِ

ألّا يعيبَ السَّوادَ خُلْـكَتُهُ　　　وقد يُعابُ البياضُ بالبَهَقِ

قوله : « الحق ذو سُلّم وذو نَفَق » أراد أَنَّ الحقّ يتصرَّفُ فى جهات ، وضَربَ الصعودَ والنزولَ لذلك مثلا ؛ ثم قصد لوَصْفِ هـذه السوداء بالـكمال فى الصفة ؛ ومن عيب السُّودان أن أكفّهم عابسَة[1] متشقّقة ، وأطرافهم ليست بناعمة لينة ، وكذلك لا يزال الفَلْحُ[2] فى شفاههم ، وهى الشقوق المذمومة الموجودة فى أكثر السُّودان فى أوساط الشفاه ، وأيضاً فإن الأسود مهجوّ بخبث العرَق ، فنفى هـذه الصفاتِ المذمومة الموجودة فى أكثر السودان عنها فقال :

لَيْسَتْ من العُبْسِ الأكُفّ ولا الـ　　　فلحِ الشِّفاهِ الخبائثِ العْرَقِ

ثم عاج بخاطره على وصف هذه السوداء بأضداد تلك الصفات المذمومة ، فقال :

فى لِينِ سَمُّورةٍ تخيَّرها الْـ　　　فرَّاءُ أو لِينِ جيِّد الدّلَقِ[3]

ومن بديع مدح السوداء قوله :

أكسبها الحبّ أنها صُبِغَتْ　　　صِبغة حَبِّ القلوب والحَدَقِ

فانصرفت نحوها الضمائرُ والْـ　　　أبصار يَعْشَقْنَ أيّما عَشَقِ

فأخبر أنّ القلوب إنما أحبتها بالمجانسة التى بينها وبين حَبِّ القلوب من السواد ، وكذلك الحدَق .

ومن جَيّد تشبيهات أبى نواس وقد نبَّه نديماً للصبوح فأخبر عن حاله وقال :

فقام والليلُ يَجْلوهُ الصباحُ كما　　　جَلَا التبسُّم عن غُرِ الثَّنيَّاتِ

---

(١) من عبس ــ كفرح : يبس .　　(٢) الفلح : الشق .

(٣) دويبة كالسمور ــ معربة .

ولعلى بن العباس عليه التقدم بقوله :

يَفْتَرُّ ذاكَ السَّوَادُ عن يَقَقٍ من ثَغْرِهَا كاللآلىء النَّسَقِ (١)
كأنها والمزاحُ يُضْحِكُها لَيلٌ تَعَرَّى (٢) دُجاه عَنْ فَلَقِ

وفَضْلُ هذا الكلام على ذاكَ أَنَّ هذا قَدَّمَ لمعناه فى التشبيه مُقَدّمة أَيَّدَتْه، ووطَّأَتْ له الآذان ، وأَصْغَت الأفهام إلى الاستحسان ، وهى قوله :

* يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنْ يَقَقِ *

وفى هذه السوداء يقول ، وقد سأله أَبو الفضل الهاشمى أن يَسْتَغْرِقَ صفات محاسنها الظاهرة والباطنة فقال :

لها حِرٌ يَسْتَعِيرُ وَقْدَتَهُ من قَلْبِ صبٍّ وصَدْرِ ذِى حَنَق
كأنما حَرُّهُ لِخَابِرِهِ ما ألهبتْ فى حَشَاهُ مِنْ حُرَقِ
يَزْدَادُ ضِيقاً على المِراسِ كما تَزْدَادُ ضِيقا أُنْشُوطَةَ الوَهَقِ (٣)

ثم فكَّرَ فيما فكَّر فيه النابغة ، وقد أمره النعمانُ بوَصْفِ المتجرّدة ، فوصف ما يجوزُ ذكره من ظاهر محاسنها ، ثم كَرِه أَنْ يَذْكُرَ من فضائلها مالا يَسُوغُ بمثله أن يَذْكُرَ منها ، فردّ الأَخبار عن تلك الفضائل إلى صاحبها وهو الملك ، فقال (٤) :

زَعَمَ الهُمَامُ بأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ عَذْبٌ إذا قبَّلته قلت ازْدَدِ (٥)

فاحتذى علىّ بنُ العباس هذا ، فقال بعد ما سأله أن يستغرقَ فى وصف فضائلها الظاهرة والباطنة :

خُذْهَا أبا الفَضْل كسوة لك من خَزٍّ الأماديح لا مِنْ الخِرَقِ

(١) النسق من الخرز : المنظم . (٢) فى س : تفرى .
(٣) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، والوهق : الحبل المغار يرمى فيه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ، وفى س : الرهق . (٤) ديوانه : ٣٧ .
(٥) فى الديوان : عذب مقبله شهى المورد .

وصفت فيها التى هويت على الْـ وَهْمِ ولم نَخْتَبِرْ ولم نَذُقِ
إلاَّ بأخبارك التى وَقَعَتْ منكَ إلينا عن ظَبْيَةِ البُرَقِ
حاشا لسوداء مَنْظَرٍ سكَنَتْ ذُرَاكَ إلّا عَنْ مخبر يَقِقِ

وهذا المعنى أومأ إليه النابغة إيماءً خفيّا تذهبُ معرِفتُه عن أَكْثرِ الناس ، ولو آثرَ النابغةُ تَرْكَ الاختصار وهمَّ بكَشْفِ المعنى وإيضاحِه ما زادَ على هذا الكشف الذى كشفه ابن الرومى .

وأصحاب المعانى ينشدون للفرزدق :

وجفن سلاح قد رُزِئت فلم أَنُحْ عليه ولم أَبعَثْ عليه البوَاكِيَا
وفى بَطْنِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لو ان المَنايا أنسَأَتْه لَيالِيا (١)

ومعناه عندهم أنه رثى امرأة توفِّيت حاملا ، فقال على بن العباس وقد وصف هذه المرأة السوداء :

أخلِقْ بها أن تقومَ عن ذَكَرٍ كالسيف يَفْرِى مُضاعف الحلَقِ
إنَّ جفونَ السيوفِ أكْثَرهاَ أسود والحقّ غير مُخْتَلقِ

فهذه زيادةٌ بينة ، وعبارة واضحة ، لم تحتج إلى تفاسير أصحاب المعانى ، وقال مما لم ينشده المتنبي :

غصن من الآبنوس ركّب فى مؤْتَزَرٍ مُعجب ومنتطَق
يهتزّ من ناهديه فى ثمرٍ ومن دواجى (٢) ذُرَاه فى ورَقِ

وهذا معنى قد بلغ قائِلُه من الإجادة ، فوق الإرادة ، وامتثل أبوالفضل الهاشمى ما أشار به ابن الرومى فأولدها فأنجبت .

وفى معنى قول الفرزدق قال الطائى وأحسن وذكر وَلَدَيْن توأمين ماتا لعبد الله ابن طاهر (٣) :

---

(١) أنسأته : أخرته . (٢) فى ط ، ق : دواحى . (٣) ديوانه : ٣٨٠ .

إن تُرْزَ فى طرَفَىْ نهارٍ واحدٍ ‏ ‏ رُزأين هاجا لَوْعةً وبَلابِلا
فالثقلُ ليس مضاعفا لمطيةٍ ‏ ‏ إلا إذا ما كان وَهْماً بازِلا [1]
لهفى على تلك المشاهد [2] منهما ‏ ‏ لو أُمهلتْ حتى تكون شمائلا
لغدا سكونها حِجًى وصباها ‏ ‏ حُكما [3] وتلك الأَريحيّةُ نائلا
إن الهلالَ إذا رأيت نماءَهُ [4] ‏ ‏ أيقنت أن سيكون [5] بدرا كاملا

وعلى ذكر التوأمين ألفاظٌ لأهل العصر فى التهنئة بتوأمين

تيسَّرت مِنْحتَانِ فى وطن ، وانتظمت مَوْهِبتان فى قرَن [6] ، طلع فى أفُق الكمال [7] نَجْماَ سَعْد، وشِهَابا عِزّ ، وكَوْكَبَا مَجْد، فتأهّلت بهما رُبوعُ المحاسن، ووُطِّئت لهما أَكْنافُ المكارم ، واستشرفتْ إليهما صدورُ الأَسرَّةِ والمَنابر. بلغنى خَبَرُ الموهبة المشفوعة بمِثْلها ، والنِّعْمَة المقرونة بِعدْلها [8] فى الفارسَيْنِ المقبلَيْن ، رضيعى العزّ والرفعة ، وقريْنَى المجدِ والمَنَعة ، فشملنى من الاغتباط ما يُوجِبُه ازْدِوَاجُ البُشْرَى ، واقترانُ غَادِيةٍ [9] بأُخْرَى .

والشىءُ يُذْكَر بماقارب ناحيةً من أنحائه ، وجاذبَ حاشيةً من رِدَائِه .

[من التضمين والهجاء]

وقال بعض أهل العصر يهجو رجلا وضمّن قول النابغة [10] :

* كالأقحوان غَدَاةَ غبَّ سَمَائِه *

---

(١) الوهم : الجمل الضخم القوى ، والبازل : المكتمل السن .
(٢) فى الديوان : الشواهد فيها . (٣) فى الديوان : حلما .
(٤) فى الديوان : نموه . (٥) فى الديوان : سيعود . (٦) القرن : الحبل .
(٧) فى س : الملك . (٨) العدل : النظير . (٩) فى س : عارفة .
(١٠) صفحة ٢٢٨ .

وأزاحه عن بابه ؛ فجاء مليحا فى الطبع ، مقبولا فى السمع :

يا سائلى عن جعفر عهدى بهِ   رَطْب العِجَانِ وكفُّه كالجَلْمَدِ[1]
كالأُقْحُوَان غَدَاة غِبّ سمائهِ   جفّت أعاليه وأسْفَله نَدِى

ومن مستحسن ما روى فى هـذا التضمين قول الآخر وضمن بيتاً لمهلهل بن ربيعة .

وسائلةٍ عن الحَسَنِ بن وَهْبٍ   وعمّا فيه من كَرَمٍ وخِيْرِ[2]
فقلت هو المهذب غـيرَ أنى   أراه كثيرَ إرخاء الستورِ
وأكثر ما يغنّيه فَتَاهُ   حُسَيْنٌ حـين يَخْلُو بالسُّرور
فلولا الريحُ أسمعَ من بِحُجْرٍ   صَليلَ البيض تُقْرَعُ بالذُّكورِ[3]

أول كذب العرب

وهذا البيت لمهلهل ممـا يعدّونه من أول كذب العرب ، وكانت قبل ذلك لا تكذبُ فى أشعارها ، وكان بين الموضع الذى كانت فيه هذه الواقعة وهى بالجزيرة وبين حُجْر وهى قَصَبَةٌ باليمامة مسافةٌ بعيدة ، فأخرجَه هذا الشاعر بقوّة مُنَّته ، ونفاذِ فِطْنَته إلى معـنًى آخر مستظرف فى بابه . وهذا المذهبُ أحْسَنُ مذاهب التضمين. ومن مليح ما فى هذا الباب تضمينات الحمدونى فى طيلسان أحمد بن حرب المهلبى ، وسيأتى ما أخْتَارُه من ذلك فى غيرِ هذا الموضع .

[رجع إلى وصف الثغور وما يتصل بها]

وقد جاء فى صفةِ الثغور والأفواه والرّيق شعرٌ كثير . قال جميل :

تمنّيْتُ منها نظرةً وهى وَاقِفٌ   تُرِيك نقيًّا واضِحَ الثغر أشْنَبَا[4]
كأنَّ عَرِيضًا من فَضِيض غمامةٍ   هزيمُ الذّرى تمرى له الريحُ هَيْدَبا[5]

---

(١) العجان: العنق ، وتحت الذقن، والأرداف. (٢) الخير : الكرم والشرف والأصل.
(٣) مهذب الأغانى : ١ ــ ١٩٠ . (٤) الشنب ، محركة : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان . (٥) العريض : السحاب . والفضيض : كل متفرق ، والهزيم : الصوت . والهيدب : السحاب المتدلى .

يُصَفِّقُ بالمسك الذكىِّ رُضابهُ إذا النَّجْمُ من بعد الهدوء تَصَوَّبا[1]

وقال[2] :

وكأن طارقَها على عَلَلِ الـكرى والنجم وهْناً قد بَدَا لِتَغَوُّرِ

يَسْتافُ ريحَ مُدامةٍ معلولةٍ[3] برُضابِ مسكٍ فى ذكىٍّ[4] العنبرِ

وقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى[5] :

يَمُجّ ذَكِىَّ المِسْكِ منهـا مُفلَّجٌ نقىّ الثنايا ذو غروب[6] مُؤشَّرُ

يَرِفّ[7] إذا تَفْتَرُّ عنـه كأنهُ حَصَى بَرَدٍ أو أُقحوان مُنَوَّرُ

وقال الهذلى :

وما صَهْباءُ صافيةٌ لصبٍّ كلون الصِّرف مُنْجابٌ قَذاها

تُشَجُّ بنُطْفَةٍ مِن ماءِ مُزْنٍ أحلّته برَضْراضٍ عُراها[8]

بأطيبَ مشرعاً من طَعْمِ فيها إذا ما طار عن سِنةٍ كَراها

وقال آخر :

وشقَّ عنها قِناع الخزِّ عن بَرَدٍ كالدُّرِّ لا كَسَسٌ فيه ولا ثَعَلُ[9]

كأنه أُقْحوانٌ باتَ يَضرِبُهُ طَلٌّ من الدَّجْنِ سَقَّاطُ النَّدَى هَطِلُ

كأنَّ صِرفاً كميتَ اللَّوْنِ صافيةً شُجَّت بماء سماء شَنَّـه جَبَلُ[10]

فُوها إذا ما قَضَتْ من نومها سِنَةً أو اعتراها سُباتُ النَّوم والـكسلُ

---

(١) تصوب : انحدر . (٢) ديوانه : ٢٩ . (٣) فى الديوان : معجونة ، واستاف : اشتم . (٤) فى الديوان : أو سحيق . (٥) المختار من شعر بشار : ٢٣٧ .

(٦) فى ط : غروب . (٧) فى المختار : يرق . (٨) تشج : تخلط وتمزج . النطفة : الماء الصافى . الرضراض : الحصى أو صغارها .

(٩) الـكسس : قصر الأسنان أو صغرها ، والثعل : السن الزائدة خلف الأسنان ، أو دخول سن تحت أخرى فى اختلاف من المنبت . (١٠) شنه : صبه ، وبرده .

وقال آخر :

هِجانُ اللَّوْنِ واضحة المحيَّا ... قطيع الصَّوتِ آنِسَةٌ كسولُ

تَبسَّمُ عن أَغَرَّ له غُرُوبٌ ... فُرات[1] الرِّيقِ ليس به فُلُولُ

كأنَّ صبيبَ غاديةٍ لصبٍّ ... تُشَجُّ به شآميةٌ شمولُ

على فيها إذا الجَوْزاء عالَتْ ... محلِّقة وأَرْدَفَها رَعِيلُ[2]

وقال ابن المعتز[3] :

يا نديميَّ اشربا[4] واسقِيانا ... قد بَدا الصبحُ لنا واستبانا

واقتلا همِّى[5] بصِرْفٍ عُقارٍ ... واتركا الدَّهْرَ فما شاءَ كانا

إن للمكروه لَذْعةَ شرٍّ ... فإذا دامَ على المَرْءِ هانا[6]

وامزجا كأسى[7] بريقةِ أَلْمَى ... طاب للعطشان وِردًا وحانَا

من فمٍ قد غُرِس الدرُّ فيـهِ ... ناصح الريق إذا الرّيق خانَا

وقال ابن الرومى[8]:

يا رُبَّ ريقٍ بات بَدْرُ الدُّجى ... يمجّـهُ بين ثَناياكا

يُرْوِى ولا ينهاك عن شربِهِ ... والماء يُرْوِيك ويَنْهاكا

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[9] :

وإذا سألْتُك رَشْفَ ريقك قُلْت لى ... أَخْشَى عُقُوبةَ مَالِكِ الأملاكِ

ماذا عليك ؟ جُعلت قبلك فى الثَّرى ... من أَنْ أَكُونَ خَليفةَ المِسْواكِ

أيجوزُ عندك أَن يكون مُتَيَّمٌ ... صَبٌّ بحبِّك دون عُودِ أَراكِ

---

(١) الغرب : كثرة الريق وبلله ، وفرات : عذب . (٢) الرعيل : كل قطعة متقدمة من خيل وجراد ونجوم ، وفى س ، ق : وعيل . (٣) ديوانه : ٢ — ٦٦ .

(٤) فى الديوان : لا تملا حثنا . (٥) فى الديوان : همنا .

(٦) ليس هذا البيت فى ديوانه . (٧) فى الديوان : كأسنا .

(٨) الأمالى ١—٢٢٨ (٩) المختار من شعر بشار : ٢٣٨ .

وهـذا المعنى يجاوزُ الإحصاء ، ويفوتُ الاستقصاء ؛ وكلّه مأخوذ من قول امرئ القيس[1] :

كأنَّ المُدامَ وصَوْبَ الغَمام ... وريحَ الخُزامى ونَشْرَ القُطُرْ[2]
يُعَلُّ به بَرْدُ أَنْيـــابها ... إذا طرَّبَ الطائرُ المُسْتَحِرْ[3]

فجمع ما فرَّقوه ، وأخذه الجعفرى فقصَّر عنه[4] :

كأن المُدامَ وصَوْبَ الغَمامِ ... وريحَ الخُزامى وذَوْب العَسَلْ
يعلُّ به بَرْدُ أَنْيـــابها ... إذا النَّجْمُ وَسْطَ السماءِ اعْتَدَلْ

ويلحق بهذه المعانى من شعرِ أهل العصر قول أبى على محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمى ــ وذكر خمراً :

مِنْ كفِّ ساقٍ أَهْيَفٍ حَرَكاتهُ ... فِتَنٌ تقَنَّعَ بالمَلاحةِ واعتَجَرْ
ناولتــه كأْسِى وكسْرُ جُفونهِ ... يوحى إلىَّ أن ارتقبهم واصْطَبِرْ
فثنى لهـا أقلامَ دُرٍّ رَخْصَـةٍ ... تَهْوى إلى أفراد دُرٍّ ذِى أشَر
فتحدّرت من كأسهِ فى ثَغْرِهِ ... كالشمس تَغْرُبُ فى هِلالٍ من قمر

وأهدى أبو الفتح كشاجم لبعض القيان مِسْواكا وكتب إليها[5] :

قد بعثناه لـكى تَجْـلُو بِهِ ... واضحاً كاللؤلؤ الرَّطْبِ أَغَرّْ
طابَ منـه العَرْفُ حَتَّى خِلتُهُ ... كان من ريقِك يُسْقَى فى الشَّجَرْ[6]
وَأمَا وَاللهِ لو يعْـلمُ مَا ... حَظُّهُ منكِ لأثنى وشَـكَرْ
ليتنى المُهدَى فيَروِى عَطَشى ... بَرْدُ أنيابك فى كلِّ سَحَرْ

---

(١) ديوانه : ٨ ، المختار من شعر بشار: ٢٣٩ . (٢) النشر: الرائحة ، والقطر بالضم: العود الذى يتبخر به . (٣) استحر الطائر : غرد بسحر ــ اللسان مادة سحر والديوان ٨
(٤) المختار من شعر بشار : ٢٣٩، مع اختلاف . (٥) المختار من شعر بشار : ٢٣٨ .
(٦) فى ط ، س ، ق : فى السحر .

[حديث ابن أبى ربيعة والحارث بن خالد]

وكان ذكر[1] بحضرة ابن أبى عتيق شعرُ عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد المخزوميين ، فقال رجلٌ من وَلد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة : صاحِبُنا الحارث أَشعر ، فقال ابنُ أبى عتيق : دَعْ قولَك يا بْنَ أخى ، فلِشِعْرِ ابنِ أبى ربيعة لَوْطةٌ بالقلب[2] ، وعَلَقٌ بالنفسِ ، ودَرْكٌ للحاجة ليس لشِعْرِ الحارث ؛ وما عُصِىَ اللهُ بشعرٍ قطّ أكثر مما عُصِىَ بشعر ابنِ أبى ربيعة ، فخُذْ عنى ما أصِفُ لك : أَشعرُ قريش من رَقّ معناه ، ولَطُف مَدْخَله ، وسَهُل مَخْرجه ، وتعطَّفَتْ حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأَعْرَب عن صاحبه . فقال ـ الذى من ولد خالد بن العاص : صاحبُنا الذى يقول :

إنى وما نَحَرُوا غداةَ مِنًى ... عند الجمار تَئُودها العقْلُ

لو بُدِّلَتْ أَعْلى منـــازلها ... سُفْلًا وأصبح سُفلها يَعْلو

فيكاد يَعْرِفُها الخبيرُ بهـــا ... فيردُّه الإقواءُ والمَحْـلُ

لعرفت مغناها بما احتَمَلَتْ[3] ... منى الضلوعُ لأهلها قَبْـلُ

فقال ابنُ أبى عتيق : يا بنَ أخى ، استُرْ على صاحبك ، ولا تشاهد المحاضر بمثل هــذا ، أما تطَيَّرَ الحارثُ عليها حين قَلَب رَبْعَها فجعل عالِيَه سافلَه ، ما بقى إلا أن يسألَ اللهَ حجارةً من سِجِّيل وعذاباً أليماً . ابن أبى ربيعة كان أحسنَ الناسِ للرَّبع مخاطبةً وأجملَ مصاحبةً إذ يقول[4] :

سائِلَا الرَّبْع بالبُلَىِّ[5] وقولا ... هِجْتَ شوقاً لِىَ الغَداةَ طويلا

---

(١) المختار من شعر بشار : ٢٠٢ ، الأمالى ٢ـ١٥ . (٢) لوطة بالقلب : علوق به .
(٣) فى المختار : لعرفتها بقديم ما احتملت . (٤) ديوانه : ٩٥ ، الأغانى : ١ـ١٠٦ .
(١) البلى : تل قصير أسفل حاذة بينها وبين ذات عرق (ياقوت) ، وفى س ، ق : التلي.

أين أهلٌ[١] حلّوكَ إذ أَنْتَ مسرو ... رٌ[٢] بهم آهِلٌ أراكَ جميــلا
قال : سارُوا وأَمْعنوا واستقلُّوا[٣] ... وبكُرْهِي[٤] لو استطعتُ سَبيلا
سَئِمونا وما سَئِمْنَا مُقاماً ... واستحبّوا دَمَاثةً وسهولا

مزيد يسأل عن معنى قول الحارث

وهاهنا حكاية تَأْخُذُ بطَرَفِ الحديث ، دخل مزيد المدنى على مَوْلًى لبعض أهل المدينة ، وهو جالسٌ على سرير مُمهّد ، ورجلٌ من ولد أبى بكر الصديق ، وآخرُ من ولد عمر رضى الله عنهما جالسان بين يدَيْه على الأرض ؛ فلما رأى المولى مزْيَدا تجهَّمه وقال : يا مزْيد ، ما أَكْثَرَ سؤالك ! وأَشَدّ إلحافك ! جئتَ تسألنى شيئًا ؟ قال : لا والله ، ولكنى أردتُ أن أسألك عن معنى قول الحارث بن خالد[٥] :

إنّى وما نَحَرُوا غداة مِنًى ... عنـد الجمار تَئُودها العقلُ
لو بُدّلَتْ أعْلى منازلها ... سُفْلًا وأصْبَحَ سُفْلها يَعْلُو

فلما رأيتك ورأيتُ هذين بين يديك عرفتُ معنى الذى قال . فقال : اعزُبْ فى غير حِفْظ الله ! وضَحِكَ أهلُ المجلس .

[الأطلال وبكاء الديار]

وأخذ الحارث قوله[٦] :

لعرفت مَغْنَاها بما احتَمَلَتْ ... منى الضلوعُ لأَهْلها قَبْـلُ

من قول امرئ القيس ؛ قال على بن الصباح ورّاق أبى مَحلم قال لى أبو محلم : أتعرفُ لامرئ القيس أَبياتا سينية قالها عند موته فى قُرُوحه والحلة المسمومة ، غير قصيدته التى أولها[٧] : * أَلِمّا على الرَّبع القديم بِعَسْعَسَا[٨] * فقلت : لا أعرف غيرها فقال : أنشدنى جماعة من الرواة :

(١) فى الديوان والأمالى : أين حى . (٢) فى الديوان والمختار : محفوف .
(٣) فى الديوان : قال ساروا بأجمع فاستقلوا . (٤) فى المختار : وبودى .
(٥) الأغانى : ١ ــ ١٠٩ . (٦) أى قول الحارث بن خالد السابق صفحة ٢٣٨ .
(٧) ديوانه: ١٢٨ (٨) عسعس : موضع .

لِمَنْ طَلَلٌ دَرَسَتْ آيَهُ ... وغيَّره سالِفُ الأحْرُسِ (١)
تَنكَّره الْعَيْنُ من حَادثٍ ... ويعرفه شَغَفُ الأنْفُسِ

وقد أخذه طريح بن إسماعيل الثقفى فقال :

تَسْتَخْبِرُ الدِّمنَ القِفار ولم تكنْ ... لتردّ أخْبَارا على مُستخبِرِ
فظللت تحكم بين قَلْبٍ عارفٍ ... مَغْنى أَحِبَّتِهِ وطَرْفٍ مُنْكِرِ

وقال الحسن بن وهبٍ ، إشارة إلى هذا المعنى :

أَبليتَ جِسْمى من بعد جِدَّتِهِ ... فما تكاد العيونُ تُبْصِرُهُ
كأنّه رَسْمُ منزلٍ خلقٍ ... تَعرِفُه العَيْنُ ثم تنكرُهُ

وقال يحيى بن منصور الذهلى :

أَما يَسْتفيقُ القلب إلاّ انبرى لَهُ ... تَذَكُّرُ طَيْفٍ من سعاد ومَرْبعِ
أُخادع عن عرفانه العَيْنَ إنّهُ ... متى تعرف الأطلال عينى تَدْمَعِ

وقال آخر :

هى الدارُ التى تَعْرِ ... فُ لِمْ لاتَعرِفُ (٢) الدَّارَا
ترى منها لأحْبابِكَ ... أَعْلاَماً وآثارا
فيبدى القلبُ عِرفاناً ... وتبدى الْعَيْنُ إنكارا

وقال أبونُوَّاس ، وتعلق أولُ قوله بهذا المعنى ، وأنا أنشد الأبيات كلها لملاحتها ، إذ كان الغرض فى هذا التصرف هو إرادة الإفادة (٣) :

أَلَا لاأَرَى مثلى امترى اليوم (٤) فى رَسْمِ ... تغضّ (٥) به عَيْنِى ويَلْفِظُه وهْمى
أتت صُور (٦) الأشياء بينى وبينه ... فظنّى كَلاَ ظَنّ (٧) وعِلْمى كَلا عِلْمِ

---

(١) الحرس — بسكون الراء — الدهر ، وجمعه أحرس . ورواية البيت فى اللسان :

لمن طلل دائر آيه ... تقادم فى سالف الأحرس

(٢) فى س : أم لاتعرف . (٣) ديوانه : ٣٢٥ . (٤) فى ديوانه : مثل امترائى فى .
(٥) فى س : تغص . (٦) فى الديوان : صورة . (٧) فى الديوان : فجهلى كلا جهل .

فطِبْ بحديثٍ من حبيبٍ مساعدٍ[1] وساقية بين المُرَاهق والحُلُمِ
ضعيفة كَرِّ الطَّرْفِ تحسب أنّها قريبة[2] عَهْدٍ بالإفَاقةِ مِنْ سُقْمِ
يغرِّق[3] مَالِى من طَرِيفٍ وتَالِدٍ تفوّقَ الصهباء من حلب الكرْم
وإنى لآتى الوَصْلَ[4] من حيث يُبْتَغى وتَعْلَم قوسى حِينَ أَنْزِع[5] من أرْمِى

[حديث عن شعر أبى نواس]

ورَوى أبوهفان قال : كان أبُو عبدالله محمد بن زياد الأعرابى يطعن على أبى نواس ويَعِيبُ شِعْرَه ، ويضعّفه ، ويستلينه ؛ فجمعه مع بَعْضِ رُوَاةِ شعر أبى نواس مجلس[6] والشيخُ لا يَعْرِفُه ، فقال له صاحبُ أبى نواس : أتعرفُ — أعزَّكَ الله — أحْسنَ من هذا ؟ وأنشده : « ضعيفة كرّ الطَّرْفِ ... » الأبيات . فقال : لا والله ، فمَنْ هو ؟ قال: للذى يقول[7] :

رسمُ الكرَى بين الجفون مُحيلُ[8] عفَّى عليه بكًا عليك طَوِيلُ
يا ناظراً ما أقْلَعَتْ لحظاتُهُ حتى تشحَّطَ بينهنَّ قَتِيلُ

فطرب الشيخُ ، وقال : وَيْحك ! لمنْ هذا ؟ فوالله ما سمِعْتُ أجْوَد منه لقديم ولا لمحدَث ! فقال : لا أُخْبرك أو تكتبه ؛ فكتبه ، وكتب الأول ، فقال : للذى يقول[9] :

ركبٌ تَسَاقَوْا على الأكوارِ بينهمُ كأْس الكرَى فانْتَشَى المَسْقِيُّ والسَّاقِى
كأنَّ أرْؤُسهم[10] والنَّوْمُ وَاضِعُها على المناكب لم تُخْلَق[11] بأعناق

---

(١) فى الديوان : من نديم موافق . (٢) فى الديوان : حديثة .
(٣) فى الديوان : تفوق ، وتفوق شرابه : شربه شيئا بعد شىء . (٤) فى الديوان : الأمر من حيث يتقى . (٥) نزع فى القوس : مدها . (٦) فى ط ، س : فجلس .
(٧) ديوانه : ٣٨٨ . (٨) فى الديوان : محيل . (٩) ديوانه : ١٢٨ .
(١٠) فى ديوانه : هامهم . (١١) فى ديوانه : لم تدعم ، وفى س : لم تعمد .

سارُوا فلم يقطعوا عَقْدًا لراحِلةٍ حتّى أناخُوا إليكم قَبْلَ إشراقِ[١]

من كل جائلةِ الطَّرْفين[٢] ناجيةٍ مشتاقةٍ حملت أوصال[٣] مُشْتاقِ

فقال : لمن هذا ؟ وكتبه . فقال : للذى تَذُمُّه، وتَعِيب شعره، أبى على الحكمى! قال : اكْتُم علىّ ، فوالله لا أعود لذلك أبداً .

* * *

شىء من النقد

أخذ قوله : « كأنَّ أَرْؤُسَهم والنوم واضعها » أبو العباس بن المعتز فقال يصف شَرْباً :

كأنَّ أباريقَ اللجَيْن لديهمُ ظِباءٌ بأعْلى الرَّقْمتَيْنِ قيامُ

وقد شربوا حتى كأن رُءوسهم من اللّينِ لم يُخْلَقْ لهنَّ عِظَامُ

البيت الأول من هذين من قول علقمة بن عبدة[٤] :

كأنّ إبريقَهم ظَبْيٌ على شَرَفٍ مفدَّم بسَبَا الكتَّان مَلْثُوم[٥]

أراد بسبائب ، فحذف . وقد أحسن مسلم بن الوليد فى قوله :

إبْرِيقُنَا سَلَبَ الغزالةَ جِيدَها وحكى المديرُ بمُقْلَتَيْهِ غزالا

يَسْقيك بالألحاظ كأسَ صَبابةٍ ويُديرها من كفِّه جِرْيَالا[٦]

وأنشد الحارث بن خالد أبياته[٧] : * إنى وما نَحَرُوا غَداةَ مِنًى * . . . . لعبد الله بن عمر ، فلما بلغ إلى قوله :

لعرفتُ مَغْناها بمَا احْتَمَلَتْ مِنّى الضلوعُ لأهْلِها قَبْلُ

---

(١) فى ق : أشواق . (٢) فى ديوانه : النسعين ضامرة ، وفى س : الظفرين.

(٣) فى ديوانه : أنفاس، وفى س : أعباء . (٤) الشعر والشعراء : ١٨٣

(٥) مفدم : مسدود . وسبا الكتان : أراد سبائب فحذف باقى الكلمة ، والسبائب : جمع سبيبة ، وهى الشقة ، وفى المفضليات: مرثوم ، وهو الذى قد رثم أنفه أى كسر .

(٦) الجريال : الخمر أو لونها . (٧) السابقة فى صفحة ٢١٥ .

قال له ابنُ عمر : قل إنْ شاء الله ، قال : إذاً يفسد الشعر يا أبا عبد الرحمن ، فقال : لا خيرَ فى شىء يُفسِدهُ إن شاء الله .

[تشبيب الحارث بن خالد]

وكان الحارثُ بن خالد أَحدَ المجيدين فى التشبيب ، ولم يكن يعتقدُ شيئاً من ذلك، وإنما يقولُه تظرّفاً وتحلّماً ؛ وكان أكثرُ شعره فى عائشة بنت طلحة ، فلما قُتِل عنها مصعب بن الزبير قيل له : لو خطبتَها ! قال : إنى لأَكْرَه أَنْ يتوهَّم الناسُ علىّ أنى كنتُ معتقداً لِمَا أَقُول فيها ، وهو القائل :

يا أمّ عِمرانَ ما زَالَتْ وما بَرِحَتْ ... بنا الصَّبَابَةُ حتى مسَّنَا الشَّفقُ
القلبُ تاقَ إِليكم كىْ يلاقيَكم ... كما يتوقُ إلى مَنْجاتِهِ الغَرِقُ
تُوفيك شيئاً قليلا وهى خائفةٌ ... كما يَمَسُّ بظَاهِرِ الحيَّة الفَرِقُ

أخذ هذا الطائى فحسَّنه فقال(١) :

تَأْبَى على التَّصْرِيدِ(٢) إلا نَائلًا ... إلاَّ يكنْ ماءً قَراحاً يُمْذَقِ
نَزْرًا كما استكرهت عابرنفحةٍ(٣) ... من فَأْرَةِ المِسْكِ التى لم تُفْتَقِ

وحَجّت عائشةُ بنْتُ طلحة ؛ فوجّه إليها يستأذنها فى الزيارة ، فقالت : نحن حَرام ، فأَخِّر ذلك حتى نُحلّ ، فلما أحلَّت أَدْلَجَتْ(٤) ولم يعلم ، فكتب إليها :

ما ضرّكم لو قلتمُ سَدَدًا(٥) ... إنَّ المنيَّةَ عاجلٌ غَدُها
ولها علينا نِعْمةٌ سلَفَتْ ... لسنا على الأيام نَجْحَدُها
لو تمّت أسبابَ نِعْمَتِها ... تمّت بذلك عندنا يَدُها
إنى وإياها كمفتَتِنٍ ... بالنار تحْرِقهُ ويَعْبُدُها

---

(١) ديوانه : ٢١١ . (٢) التصريد : التقليل . (٣) فى الديوان : عائر نفحة .
(٤) أدلج : سار من أول الليل ، وادلج بتشديد الدال : سار من آخره .
(٥) السدد : الاستقامة .

[ابن أبى عتيق]

وابنُ أبى عتيق[1] هذا هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان من أفاضل زَمانِه عِلْماً وعَفَافاً ، وكان أحْلَى الناسِ فكاهةً ، وأظرفهم مِزاحا[2] ، وله أخبارٌ مستظرفة سيمرُّ منها ما يُستحسن إن شاء الله .

روى الزبير بن أبى بكر أنه دخل على عائشة ـ يعنى بنت طلحة ـ رضى الله عنهما، وهى لما بها ؛ فقال : كيف أنتِ جُعلت فداكِ ؟ قالت : فى الموت ، قال : فلا إذاً ، إنما ظننت فى الأمر فُسْحَة ، فضحكت ، وقالت : ما تَدَعُ مَزْحَك بحالٍ !

وفيه يقول عمر بن أبى ربيعة القرشى[3] :

ليت شعرى هل أقولَنْ لركب ... بفلاةٍ هُمُ لديها خُشُوعُ[4]

طالما عرّستمُ فاستقلّوا[5] ... حان من نَجْم الثريّا طُلوعُ

إنَّ هَمّى قد نَفَى النومَ عنّى ... وحَديثٌ للنفس مِنّى يروعُ[6]

قال لى فيها عَتيقٌ مقالًا ... فجرَتْ مما يقولُ الدموعُ

قال لى : ودِّع سليمى ودَعْها ... فأجاب القلب لا أستطيعُ[7]

لا تَلُمْنى فى اشتياقى إليها ... وابْكِ لى مما تجنّ الضُّلُوعُ

[تعريض]

الثريا عند الوليد

قال أبو العباس محمد بن يزيد قوله : « حان من نجم الثريا طلوع » كناية ، وإنما يريد الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أميّة الأصغر ، وكانت موصوفةً بالجمال ،

---

(١) مضى ذكره فى صفحة ٢٣٩ . (٣) فى س ، ق : مزاجا .

(٣) ديوانه : ٤٠ ، الأغانى : ١ ـ ١٢٣ . (٤) فى الديوان : هجوع .

(٥) فى الديوان : فاركبوا بى . (٦) فى الديوان : وحديث النفس قدما ولوع ، وفى ق: منى ولوع . (٧) فى الديوان : أن لا أطيع.

وتزوّجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فنقلها إلى مصر ، وفى ذلك يقول عمر ، وضرب لهما المثل بالنجمين [(١)] :

أيها المنكح الثريَّا سُهَيْلاً ... عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتقيانِ

هى شاميَّةٌ إذا ما استقلّت ... وسهيلٌ إذا استقَلَّ يمانِى

فمات سُهيل عنها ، أو طلَّقها ، فخرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة دمشق تطلب فى دَيْن عليها ، فبينا هى عند أمِّ البنين ابنة عبد العزيز إذ دخل الوليدُ فقال : مَنْ هَذِهِ عندكِ ؟ قالت : الثريا جاءتك تطلُبُ فى دَيْن ارتكبها ، فأقبل الوليد عليها فقال : أَتروِين من شعرِ عُمَرَ بن أبى ربيعة شيئاً ؟ قالت : نعم ، أما إنه رحمه الله كان عفيفاً ، عفيف الشعر ، أروى له قوله [(٢)] :

ما عَلَى الرَّسْمِ بالبُلَيَّيْنِ لو بَيَّـ ... ـنَ رَجْعَ السَّلامِ [(٣)] أَوْلَوْ أَجَابَا

فإلَى قَصْرِ ذِى العُشَيْرة بالصا ... ئف [(٤)] أَمْسَى من الأَنِيسِ يَبَابَا

وبما [(٥)] قد أَرَى [(٦)] به حَىَّ صِدْقٍ ... ظاهرى العيش نعمةً وشَبَابا

وحِسَاناً جَوَارِيا خَفِرَاتٍ ... حافظاتٍ عند الهوى الأَحْسَابَا

لا يُكَثِّرْنَ بالحديث ولا يَتْـ ... ـبَعْنَ يَنْعَقْنَ بالبِهَامِ الظِّرَابَا [(٧)]

فلما خلا الوليـد بأم البنين قال : للهِ دَرّ الثّريا ! أتدرين ما أرادَتْ بإنشادها ما أنشدَتْ من شعر عمر ؟ قالت : لا ، قال : فإنّى لما عرَّضْت لها بعمر عرّضت لى بأن امى أعرابية ؛ وأم الوليد وَلّادة ابنةُ العباس بن جزء بن الحارث بن زُهير العبسى وهى أمُّ سليمان ، ولا تُعلم امرأة ولدت خليفتين فى الإسلام غيرها ، وغير الخـيزران

---

(١) الأغانى : ١ ــ ١٢٢ . (٢) ديوانه : ١١٠ ، والأغانى : ١ ــ ٢٣٧ .

(٣) فى الديوان : التسليم. (٤) فى الديوان : فالصالف ، وفى ط : بالطائف .

(٥) فى ط : ربما ، وهذا عن الديوان والأغانى . (٦) فى ط : ثوى ، وفى ق : أوى .

(٧) فى ط ، ق : ينعقن . والبهام : جمع بهمة وهى الصغير من أولاد الغنم . والظراب : الروابى الصغار .

وهى سبية من خَرْشَنة ، ولدت موسى الهادى وهارون الرشيد ابنى محمد المهدى ، وشاهسفرم (١) بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كِسْرى ابرويز ؛ فإنها ولدت للوليد بن عبد الملك يزيد بن الوليد الناقص وإبراهيم بن الوليد المخلوع ؛ جلس فى الخلافة بَعْد أخيه يزيد مدةً يسيرة ، ثم جاء مروان بن محمد بن مروان آخر ملوك بنى أمية فخلعه وولّى بعده .

عزة عند عبد الملك

وشبيه بقول الثريا فى باب التعريض أنه دخلَتْ عَزَّةُ على عبد الملك بن مروان فقال لها : أَنْتِ عزَّةُ كثير ؟ قالت : أنا أم بكر الضمرية ، قال لها : يا عزَّة ؟ هل تروين من شعر كثيرٍ شيئاً ؟ قالت : ما أعرفه ، ولكن سمعت الرواة ينشدون له :

قَضَى كلُّ ذى دَين فوفّى غريمَهُ ... وعَزَّةُ ممطولٌ معنًّى غَرِيمُها

قال : فترون قوله (٢) :

وقد زعمت أنى تغيَّرت بعدَها ... ومن ذا الّذِى ياعزُّ لا يَتَغَيَّرُ

تغيَّر حالى والخليقة كالذى (٣) ... عَهِدْتِ ولم يُخْبَرْ بسرِّكِ مُخْبَرُ

قالت : ما سمعت هذا ولكن سمعتُهم ينشدون (٤) :

كأنّى أُنَادى صَخْرةً حين أعرضَتْ ... من الصُّمِّ لو تَمْشِى بها العُصْمُ زَلَّتِ

غضوباً (٥) فما تَلْقاكَ إلا بَخِيلةً ... فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّت

[ابن أبى ربيعة وغزله]

قال : وكل ما ذكر ابنُ أبى ربيعة فى شعره من عتيق ، أو أبى عتيق ، فإنما هو ابنُ أبى عتيق ، وكان عمرُ بن عبد الله بن أبى ربيعة ، واسم أبى ربيعة حذيفة بن

---

(١) فى س : وشاهسفريه . (٢) الأغانى : ٩ — ٢٧ .
(٣) فى الأغانى : تغير جسمى والخليقة كالتى . (٤) الأغانى : ٩ — ٢٧ .
(٥) فى الأغانى : صفوحا ، والصفوح : المعرضة .

المغيرة بن عبد الله [بن عمر][1] بن مخزوم ، ويكنى أبا الخطاب ، أمه أم ولد سبيّة من حضرموت ، ويقال من حمير ، ومن ثم أتاه الغزل ؛ لأنه يقال : « عشق يمانى ، ودَلٌّ حجازى » . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

إن قلبي بالتـل تلٍّ عزازٍ ... مع ظَبْى من الظّباء الجوازى[2]

شادن لم يَرَ العراقَ وفيـهِ ... من ظَرْفِ العراق دَلُّ الحجازِ

وقال الطائى وذكر نفسه[3] :

قد ثقَّفَتْ مِنْه الحجازُ وسهَّلَتْ ... منه العراق[4] ورقّقته المشرِقُ

وهجرت الثريا عمر فقال[5] :

قال لى صاحبي ليعلم ما بى ... أتُحبُّ القتول[6] أختَ الرَّبابِ

قلتُ وَجْدى بها كوَجْدِكَ بالما ... ء إذا مافقدت[7] بَرْدَ الشَّرابِ

أزهقتْ[8] أمُّ نوْفَلَ إذ دعتْها ... مُهْجَتى ، ما لقاتلى من متابِ

أبرزوها مثل المهاة تَهادى ... بَيْنَ خمسٍ كواعبٍ أترابِ

وهى مكنونةٌ تحدَّر[9] منهـا ... فى أديم الخدَّيْن ماءُ الشبابِ

ثم قالوا تحبّها ؟ قلت بهراً ... عَدَدَ الرَّمْل والحصَى والتُّرابِ

ولما بلغ ابنُ أبى عتيق قوله :

مَنْ رسولى إلى الثّريّا فإنى ... ضِقْتُ ذرعاً بهجرها والكِتابِ

قال : إياى أراد ، وبى هَتَف ونوَّه ، لا جرم ؛ لا ذُقْتُ طعاما أو أشخص إليها ، وأصلح بينهما ؛ فقال مولى لبنى تميم : فنهض ونهضتُ معه ، ثم خرج إلى السوق إلى

---

(١) من ق ، وفى س : من بنى عمر. (٢) الجوازى: هى الظباء التى تجتزئ بالعشب عن الماء.
(٣) ديوانه : ٥٠٠ . (٤) فى الديوان : منه الشآم ، وسهلت منه العراق .
(٥) الأغانى : ١ ــ ٢٤١ ، ديوانه : ١١٧ . (٦) فى الأغانى : البتول .
(٧) فى الأغانى : إذا ما منعت . (٨) فى ط، ق : أرهقت . (٩) فى الديوان : تحير .

الضمرتين[١] فأتى قوماً من بنى الديل بن بكر يكرون النجائب ، فقال : بكم تكرونني راحلتين إلى مكة ؟ قالوا : بكذا وكذا درهما . فقلت لبعض التجار : استوضعوا شيئاً ، فقال ابن أبي عتيق : ويحك ! إنَّ المكاس ليس من أخلاق الناس[٢]. ثم ركب واحدة وركبت أخرى وأجدّ السير ، فقلت : ارفق بنفسك . فقال : ويحك ! أبادر حبلَ الوصل أن يتقضبا . وما أملح الدنيا إذا تمَّ الوصلُ بين عمر والثريا ! فقدمنا مكة وأتى بابَ الثريا ، فقالت : والله ما كنتَ لنا زوَّارا ، فقال : أجل، ولكن جئتُ برسالة ، يقول لك ابن عمك عمر: ضِقْتُ ذرعاً بهجرها والكتاب . فلامه عمر ، فقال ابن أبي عتيق : إنما رأيتك مبادراً تلتمس رسولا ، فخففت فى حاجتك ، فإنما كان ثوابى أن أشكر .

ووصف ابن أبي عتيق لعمر امرأةً من قومه ، وذكر جمالا رائعاً ، وعقلا فائقاً ، فرآها عمر فشبّب بها ؛ فغضب ابنُ أبي عتيق وقال : تشبّبُ بامرأة من قومى ؟ فقال عمر[٣] :

لا تلُمْنى عتيقُ حسْبي الَّذِى بِى ... إنَّ بِى يا عتيقُ ما قد كفانِى
إن بِى مضمراً[٤] من الحب قد أبـ ... ـلَى عِظامى مكنونُهُ وبرانى
* لا تلُمْنى وأنتَ زيّنْتَها لى *

فقال ابن أبي عتيق :

* أنتَ مِثْلُ الشيطانِ للإنسانِ *

فقال عمر : هكذا وربّ الكعبة قلت .

فقال ابن أبي عتيق : إن شَيْطَانك وربّ القبْر[٥] ربما ألمَّ بِى !

---

(١) فى س : الضمريين . (٢) المكاس : المشاحة .

(٣) ديوانه : ٦٦ ، الأغانى : ١ — ٩٥ . (٤) فى الأغانى والديوان : إن بى داخلا .

(٥) فى الأغانى : من عادة أهل المدينة القسم بالقبر وصاحب القبر — يريدون قبر النبى .

وحجّت رملة بنت عبد الله بن خلف أخت طلحة الطلحات فقال عمر فيها[١] :

أصبح القلبُ فى الحبال[٢] رهينا مُقْصَداً يوم فارَقَ الظاعينا
ولقد قلت يوم مكة سِرًّا قبل وَشْكٍ من بينكم نَوِّلينا[٣]
أنت أهوى العباد قرباً وبعداً لو تُواتين[٤] عاشِقاً محزونا
قاده الحينُ[٥] يوم سرنا إلى الحـ ـجّ جهاراً ولم يخف أنْ يَحينا
فإذا نعجة تراعى نِعاجا ومهاً نجـلَ[٦] النواظر عِينا
فسبتنى بمقلةٍ وبجيدٍ وبوجه يضئُ للناظرينا
قلتُ من أنتمُ فصدَّت وقالتْ أمُبِدٌّ[٧] سؤالك العالمينا
قلت بالله ذى الجلالة لما أن تبلتِ الفؤادَ أن تصدقينا
أىّ من تجمع المواسم أنتم[٨] فأبينى لنا ولا تكذبينا[٩]
فرأت حِرْصِىَ الفتاةُ فقالت أخبريه بعلم ما تكتمينا
نحن من ساكنى العراق وكنّا قبلها[١٠] قاطنين مكةَ حينا
قد صدقناك إذ سألت فمن أنـ ـت عسى أن يجرّ شأنٌ شؤونا
ونرى أننا عرَّفناك بالنعْـ ـت ظنوناً[١١] وما قَتَلْنا[١٢] يقينا
بسوادِ الثَّنِيَّتَيْنِ ونعتٍ قد نراه لناظرٍ مستبينا

***

---

(١) الأغانى : ١ ـ ٢١٤ ، ديوانه : ٦٩ . (٢) فى ديوانه . الجمال .

(٣) فى ط ، ق : يلوينا . (٤) فى الديوان : أنت أهوى البلاد قربا ودلا لو تنيلين .

(٥) فى الديوان : الطرف يوم مر إلى الحين . (٦) فى الديوان : بهج .

(٧) أمبد : أمقسم أنت سؤالك على الناس واحداً واحداً حتى تعمهم .

(٨) فى الديوان : قولى . (٩) فى الديوان : ولا تكتمينا .

(١٠) فى الأغانى: قبله . (١١) فى الأغانى والديوان : بظن.

(١٢) فى ط : قبلنا .

آخر من نبذ مفتاح الكعبة من خزاعة

قولها[١] : « وكنا قبلها قاطنين مكّة حيناً » أرادت إذ كانت مكةُ لخزاعة . وكان آخرَ من نبذ مفتاح الكعبة من خزاعة أبو غُبشان فباعه من قُصَىّ بِزِقِّ خمر؛ فقيل فى المثل : « أخسر صفقةً من أبى غُبشان » . وكان أبو غُبْشان إذ باع المفتاح قُصيًّا مريضاً قد يئس من نفسه ، فلما أبلّ من مرضه لامَه قومه ، وسألوه استرْجاعه ، وذلك الذى هاج الحرب بين خُزَاعة وقريش ، فظفر قُصَىّ واستولى على مكة ، وجمع قريشاً بها . ولذلك سمى مجمعا . قال مطرف الخزاعى :

أبوكم قُصَىٌّ كان يُدْعَى مجمِّعاً ... به جمّع الله القبائلَ من فِهْرِ

وقال الطائى[٢] :

ولما نَضَا ثوبَ الحياةِ وأوْقَعَتْ ... به نائباتُ الدهرِ ما يتوقَّعُ
غدا ليس يَدْرِى كيف يصنعُ مُعْدِمٌ ... ذرى[٣] دَمْعه فى خدِّه كيف يصنعُ
ولم أنسَ سَعْىَ الجودِ خَلْفَ سريرِه ... بأكْسَفِ بالٍ يستقلُّ[٤] ويظلَع
وتكبيرهُ خَمْسًا عليه مَعًا لَنَا ... وإن كان تكبيرَ المصلين أرْبَعُ
وما كنتُ أدرى يَعْلَمُ اللهُ قَبْلَها ... بأنّ النَّدَى فى أهْلِه يتشَيَّعُ
غدَوْا فى زَوايا نعشِه وكأنَّما ... قريشٌ قريشٌ يوم ماتَ مُجمِّعُ

وقال الشاعر فى أمر قصىّ وأبى غُبَشان :

أبو غبشان أظْلَمُ من قصىٍّ ... وأظْلم من بنى فِهرٍ خزاعه
فلا تَلْحوا قُصَيًّا فى شِرَاهُ ... ولوموا شَيْخَكُم إذْ كانَ باعَه

***

وكان عمر أسود الثنيّتين[٥] .

---

(١) أراد قولها السابق الذى حكاه فى البيت الحادى عشر صفحة ٢٤٩ .
(٢) ديوانه : ٣٧٣ . (٣) فى س : مغرم درى .
(٤) فى الديوان : يستقيم . ويستقل ويظلع : ينهض ويسقط ، وفى ق : يطلع .
(٥) الإشارة إلى البيت الأخير فى قصيدة عمر فى الصفحة السابقة .

قال مولى ابن أبي عتيق بلال : أتيتُ الثريّا مسلماً عليها ، فقالت : أنشدني لعمر فأنشدتها * أصْبَحَ القلبُ في الحِبَال رَهِينا * فقالت الثريا : إي والله ، لئن سلِمت له لأردّنّ مِنْ شَأْوه ، ولأثنينّ من عِنَانه ، ولأعرفنّه نفسه ! فمررت فيها حتى انتهيت إلى قوله :

قُلْتُ مَنْ أنتمُ فَصَدّتْ وقالت أمبِدٌّ سُؤَالك العالَمِينا

فقالت : أو قد أجابته بهذا أي وقت ؟ فلما انتهيت إلى قوله * وترى أننا عرفناك بالنَّعت * قالت : جاءت النَّوْكاء[1] بآخِرِ ما عندها في مَوْقِفٍ واحد .

أخو عمر يسأله ترك الشعر

وسأله أخوه الحارث وهو المعروف بالقُبَاع[2] ، وكان من أفاضل أهْلِ دهره أن يترك الشعر ، ورغب إليه في ذلك ووعظه ، فقال : أما ما دمتُ بمكة فلا أقدرُ ، ولكني أخرج إلى اليمن فخرج . فلما سار إلى هناك لم تَدَعْهُ نفسُه وتَرْكَ الشعر فقال[3] :

هيهات من أمة الوَهَّابِ منزلنا إذا نزلْنا بسيفِ[4] البحرِ من عَدَنِ

واحتلّ أهلُك أجياداً[5] وليس لنا إلا التذكّر أو حظٌّ من الحَزَنِ

بل ما نسيت غداةَ الخَيْف[6] موقفها وموقفي وكِلانا ثَمَّ ذُو شجَنِ

وقولها للثريا وهي مطرقة[7] والدمعُ منها على الخدَّين ذُو سنَنِ[8]

بالله قولِي له في غير مَعْتَبة ماذا أردتَ بطُولِ المُكْثِ في اليمن[9]

إن كنت حاولت دُنْيا أو ظفِرْتَ[10] بها فما أخذتَ بترك الحجِّ من ثَمَنِ

فلما بلغ الشعر الحارث قال : قد علمنا أنه لا يَفِي .

---

(١) النوكاء : الحمقاء . (٢) إنما لقب القباع لأن عبد الله بن الزبير كان ولاه البصرة فرأى مكيالا لهم فقال : إن مكيالهم هذا لقباع . وهو الشيء الذى له قعر ، فلقب بالقباع .

(٣) الأغاني : ١ ـ ١١١ ، ديوانه : ٦٤ . (٤) سيف البحر : ساحله .

(٥) أجيادا : موضع بمكة . (٦) في الأغاني : ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها . والخيف : موضع بمنى . (٧) في الأغاني : وهي باكية . (٨) في الديوان : يوم ذى خشب ، وذو سنن : طرائق . (٩) في الديوان : في يمن . (١٠) في الديوان : أو نعمت بها .

إثارة الحنين

وروى سفيان بن عيينة عن ابن جريج قال : لزمنى دَيْن مرَّة فضاقَتْ ساحتى وبلادى بِى ، فتوجَّهت إلى مَعْن بن زائدة باليمن ، فقال : ما أقْدَمك هـذه البلدة ؟ قلت : دَيْنٌ طردنى عن وطنى ، قال : يُقضَى دَيْنُك ، وتُردّ إلى وطنك محبوًّا مَحْبُورًا ، قال : فأقمت عنده ، ثم رأيتُ الناس يرحَلُون إلى الحج ، فحننت إلى مكة وذكرت قول ابن أبى ربيعة ، وذكر الأبيات ... فأتيتُ باب مَعْن فقلت للحاجب : استأذِنْ لى على الأمير ، فلما دخلت عليه قال : إنَّ لك لحادثَ خَبر ! قلت : أَسْتَوْدِعُ الله الأمير وأستحفظه عليه . قال : وما هاج هذا مِنْك ؟ فقلت : رأيت خروجَ الناس إلى الحج وذكرت قولَ عمر ؛ فحننت إلى مكّة . فقال: أَنْتَ وحنينك ، وإن كنتُ بفراقك ضَنينا ، وسيتْبعُك ما تحتاجُ إليه ؛ فسِرْ مصاحَبا . قال : فسِرْتُ إلى رَحْلِى فأتبعنى بمالٍ وثياب ومَطَايا ودوابّ ، وسرت إلى مكّةَ من فوْرى .

عفة عمر ابن أبى ربيعة

وكان عمر على غَزَله وما يذكره فى شعره عفيفا . حدّث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : دخلت مع أبى مكّةَ ، فجاءه عمر فسلّم عليه ، وأنا غلامٌ شابٌ وعلىّ جبّة ، فجعل يَأْخُذُ بخصلة من شَعْرى [1] ، فتمتدّ فى يده ثم يُرْسِلُها فترجع ، فيقول : واشباباه ! فقال لى : يابن أخى ، قد سمعتَ قولى : قُلْتُ لها وقالت لى ؛ وكلُّ مملوك لى حرّ إن كنت قطّ كشفت عن فرج حرَام ! قال : فقمت وفى نَفْسِى من يمينه شىء ؛ فسألتُ عن رقيقه فقيل لى : أما فى هذا الحول فسبعون .

قول عمر فى المساعدة

ويستحسن قول عمر فى المساعدة [2] :

وخِلٍّ كنتُ عينَ النّصح منهُ   إذا نظرَتْ ومستمِعاً مُطيعا
أطاف بِغَيَّةٍ فنُهيت عَنْها   وقلت له أَرى أمراً شنيعا
أَرَدْتُ رشَادَه جهدى فلمّا   أبى وعَصَى أَتَيْنَاها جميعا

---

(١) فى ق ، س : بخصلة منها .   (٢) المختار من شعر بشار ٣٢٨ ، الأغانى ٣-٧٢

وهذا مأخوذ من قول دريد بن الصِّمة الجُشَمى [١] :

أمرتهمُ أمْرِى بمُنْعرَج اللِّوى فلم يستبينوا الرُّشْدَ إلاّ ضُحَا الغَدِ

فقلت لهم ظُنّوا بألفَىْ مُدجَّجٍ سَراتُهم فى الفارسىّ المسرَّدِ

فلما عصونى كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم وأننى غَـيْرُ مُهتَدى

وماأنا[٢] إلا من غَزِيَّة إنْ غوَتْ غَوَيْتُ وإن ترْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

من جيد شعر عمر

ومن جيد شعره [٣] :

يقولون إنى لستُ أصْدُق فى الهَوَى وإنى لا أرعاكِ حين أغِيبُ

فما بال طَرْفِى عفَّ عما تَساقطتْ له أنفسٌ من مَعْشرٍ وقُلُوبُ

عشيةَ لايستنكر[٤] القومُ أن يرَوْا سَفَاهَ حِجًى [٥] ممن يُقال لبيب

ولا فتنةً من ناسكٍ أوْ مَضَتْ لهُ بعَيْنِ الصبا كَسْلَى القيام لَعُوبُ

تروَّحَ يرْجُو أن تُحَطَّ ذُنُوبُه وآبَ وقد زيدَت عليه ذُنُوبُ

وماالنُّسْكُ أسْلانى ولَكِنَّ لِلْهَوَى على العين منّى والفؤادِ رَقِيبُ

ونظر عمرُ بن أبى ربيعة إلى فتى من قريش يكلِّم امرأة فى الطّواف ، فعاب ذلك عليه ، فذكر أنها ابنةُ عمه ، فقال : ذلك أشنَع لأمرك ، قال : إنى خطبتُها إلى عمى ، وإنه زعم أنه لا يزوّجنى حتى أصدقَها أربعمائة دينار ، وأنا غيرُ قادر على ذلك ، وذكر مِنْ حالِه وحبّه لها . فأتى عُمَرُ عمّه ، فكلّمه فى أمرها ، فقال : إنه مُمْلِق ، فزوَّجه وساق عُمَرُ عنه المَهر .

أعتق رقبة لكل بيت

وكان عمر حين أسنّ حَلَف ألاّ يقول بيتا إلا أعتق رقبة ، فانصرف إلى منزله يحدّث نفسَه فجعلت جاريته تكلّمه ولا يجيبُها ؛ فقالت : إن لك لشأنا ، وأراكَ تريدُ أن تقولَ شعرا ، فقال [٦] :

---

(١) الشعر والشعراء : ٧٢٦ . (٢) فى الشعر والشعراء : وهل أنا .

(٣) الأغانى : ١ـ١٥٠ . (٤) فى الأغانى : لا يستنكف .

(٥) فى الأغانى : سفاه امرئ . (٦) الأغانى : ١ـ١٤٥

تقول وليدتي لما رأتني ... طَرِبْتُ وكُنْتَ قد أقصرتُ حِينا
أراكَ اليوم قد أحدَثْتَ أمْراً(١) ... وهاجَ لكَ الهوى داءً دَفِينا
وكنتَ زعمتَ أنك ذُو عَزَاء ... إذا ما شئتَ فارقتَ القَرِينا
لعمرك هل رأيتَ لها سميًّا (٢) ... فشاقَكَ أمْ لقيتَ لها خَدِينا
فقلتُ شكا إلىّ أخٌ مُحِبٌّ ... كبَعْضِ زَمانِنا إذْ تَعْلَمِينا
فقصّ عليَّ ما يَلقَى بهِندٍ ... فذكَّر بَعْضَ ما كنا نَسِينا
وذُو الشوقِ القديم وإن تعزَّى ... مَشُوق حين يَلقَى العاشقينا
فكم من خُلَّةٍ أعرضتُ عنها ... لغير قِلًى وكنتُ بها ضَنِيناَ
أردت بِعادَها فصَدَدْتُ عَنْهَا ... وإن جُنَّ الفؤادُ بها جُنُونا

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم .

نسكه وتركه الشعر

قال عثمان بن إبراهيم : حججت أنا وأصحابٌ لنا ، فلما رجعنا من مكّة مررنا بالمدينة ، فرأينا عمر بن أبى ربيعة ، وقد نَسَك وترَك قول الشعر ، فقال بعضنا لبعض : هل لكم فيه ؟ فملنا إليه ، وسلّمنا عليه وجلَسْنَا وهو ساكتٌ لا يكلّمنا . فقال له بعضنا : أيعجبك قول الفرزدق (٣) :

سَرَتْ لعَيْنِك سَلْمَى بعد مَغْفَاها ... فبِتّ مُسْتَلهِياً(٤) من بعد مَسْرَاهَا
فقلتُ أَهْلًا وَسَهْلًا مَنْ هَدَاكِ لَنَا ... إن كُنتِ تِمْثَالَهَا أو كُنْتِ إيَّاهَا
تأتى الرياح التى من نحو بَلْدتكم ... حتى نقول دَنَتْ منا بَرِيَّاها
وقد تراخت بهم عَنّا نوًى قُذُفٌ ... هيهات مُصبَحها مِنْ بعْدُ مُمساها(٥)
من أجلها(٦) أتمنى أن يُلاقينى ... من نحو بَلْدتها ناعٍ فينْعاهَا

---

(١) فى الأغانى : شوقا . (٢) فى الأغانى : بربك هل أتاك لها رسول .
(٣) الأغانى ١ — ١٧٥ ، وليس هذا الشعر فى ديوانه ، ونسب فى الأغانى إلى جنادة العذرى ، وارجع إلى الأغانى فى هذه النسبة . (٤) فى الأغانى : مستنبها .
(٥) نوى قذف : بعيدة . (٦) فى الأغانى : من حبها .

كَيما أقول افتراقٌ لا اجتماعَ [١] لهُ ... وتُضْمِرُ النفسُ يأساً ثم تَسْلاها

ولو تموتُ لراعتنى وقلتُ لها ... يا بُؤْس للدهر ليتَ الدهرَ أبقاها

فلم يهش لذلك ! فقال الآخر : أيعجبك قول العُذْرى [٢] :

لو حزَّ [٣] بالسيف رأسى فى مَودّتها ... لمرَّ يَهْوِى سَرِيعاً نَحْوَهَا رَاسِى

ولو بَلى تحتَ أَطْبَاق الثَّرَى جَسَدِى ... لـكنت أَبْلَى وما قلبى لـكم نَاسِى

أو يَقْبِضِ اللهُ رُوحى صَارَ ذِكْرُكمو ... رُوحاً أَعيشُ به ما عشتُ فى الناس

لولا نسيمٌ لذكراكم يُرَوِّحنى ... لـكنتُ مُحترقا من [٤] حَرِّ أنْفاسى

فتحرك ثم قال : يا وَيحَه ! أبعد ما يحزّ رأسه يَميل إليها ؟

ثم أنشأ يحدثنا [٥] فقال: أتانى خالد الدليل [٦] فقال : إن هندا وأَتْرَابها بموضع كذا وكذا من الصحراء أيام الربيع . فقلت : كيف الحيلة ؟ فقال: تَتلثم و تَـكْتَفِل [٧] كأنك طالبُ ضالّة ، ففعلت فدُفعت إليهن ، فقلن : يا أعرابى ، ما تطلب ؟ قلت : ضالّة لى ، فقلن : قد كلِلْتَ يا أعرابى ، فلو جلست فأصبت منْ حديثنا وأصبنا من حديثك ، ولعلك تروح إلى وجود ضالّتك ، فنزلت ؛ فلما امتدّ الحديثُ بنا حسرت هِنْدٌ لِثَامى ، وقالت : أتُرَاكَ خدعتنا ؟ نحن والله خَدَعْنَاك ، وبعثنا إليك خالدا ، رأينا خلاءً ومنظراً فأرَدْنَاكَ ، ونظرت فى دِرْعِى [٨] فأعجبنى ما رَأَيْت ، فقلت : يا أبا الخطاب ! قال عمر : فقلت : لبَّيْك ، وفى ذلك أقول [٩] :

عمر مع هند وأترابها

ألم تسأل الأَطلالَ والمُتَرَبَّعا ... بِبطْنِ حُليّات دَوَارِسَ بَلْقَعَا

إلى السَّرْح [١٠] من وادى المُغمَّس بُدِّلت ... معالمُهُ وَبلّاو نَـكْباءَ زَعْزَعَا [١١]

---

(١) فى الأغانى : فراق لا لقاء له . (٢) الأغانى: ١ـ١٧٤ (٣) فى الأغانى: جذ .

(٤) فى س : فى حر . (٥) الأغانى : ١ـ١٧٥ (٦) فى الأغانى:الخريت.

(٧) اكتفل البعير : جعل له كفلا . (٨) درع المرأة : قميصها .

(٩) الأغانى : ١ـ١٧٦ ، ديوانه : ٣٣ (١٠) السرح : موضع ، وفى الديوان : إلى الشرى ، وفى ق : الصرح . (١١) نـكباء زعزع : ريح شديدة .

فيخلُنَ أو يُخبرن بالعلم بعدما ... نَكَأْنَ فؤاداً كان قِدْماً موجعا[(١)]
لهندٍ وأترابٍ لهندٍ إذِ الهوى ... جميعٌ وإذ لم نَخْشَ أن يتصدَّعا
وإذ لا نطيعُ العاذلين[(٢)] ولا نرى ... لواشٍ لدينا يطَّلبُ الهَجْرَ[(٣)] مطمعا
وإذ نحنُ مثل الماء كان مِزاجه ... كما صفَّق الساقى الرحيقَ المُشَعْشَعَا
تَنُوعتن[(٤)] حتى عاودَ القلبَ خَبْلُه ... وحتى تذكَّرت الحبيبَ المودَّعا
فقلت لمُطريهن بالحُسْنِ إنما ... ضَررْتَ فهل تَسْطِيعُ نَفْعاً فتنفعا
وأشريتَ فاستشرى وقد كان قد صَحا ... فؤاد بأمثال المَهَا كان مُولعا
لئن كان ما حدثت حقًّا فما أرى ... كمثل الألى أطريت فى الناس أربعا
فقال فقم فانظر فقلت وكيفَ لى ... أخافُ حديثاً أن يشاع[(٥)] فيَشْنُعا
فقال اكتفل ثم التثم فأْتِ باغيا ... فسلِّم ولا تُكْثِرْ بأَنْ تتورَّعا
فأقبلت أَهْوِى مثل ما قال صاحبى ... لموعده أبغى قلوصا موقَّعا[(٦)]
فلما تواقفنا وسلَّمتُ أقبلت ... وجُوهٌ زهاها الحسن أن تتقنَّعَا
تبالَهْنَ بالعِرْفان لمَّا رأيننى ... وقلنَ امرؤٌ باغٍ أكلَّ وأوضعا[(٧)]
وقرَّبن أسباب الهوى لمتيَّمٍ ... يَقِيس ذِراعا كلما قِسْنَ إصْبَعا
فلما تنازعن الأحاديث قُلْن لى ... أخِفت علينا أن نغرَّ ونخدَعا
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً ... إليك وَبينَّا له الأمرَ أجمعا
فما جئتنا إلاَّ على وفق مَوْعِدٍ ... على ملأٍ منّا خَرَجْنا له معا
رأينا خلاءً من عُيونٍ ومنظراً ... دَمِيثَ[(٨)] الرُّبى سَهْلَ المحلة مُمْرِعا

---

(١) فى الديوان : مفجعا ، ونكأ الجرح : قشره قبل أن يبرأ فندى .
(٢) فى الأغانى : الكاشحين . (٣) فى الأغانى والديوان : الصرم موضعا .
(٤) فى ط ، ق : تنوحين . (٥) فى الديوان : يشيع .
(٦) الموقع : البعير تكثر آثار الدبر عليه . (٧) أكل : أعيا . أوضع : أسرع فى سيره .
(٨) دميث : سهل .

وقلن كريمٌ نال وَصْلَ كرائمٍ   فحقّ له فى اليـوم أن يتمتَّعَا

وقوله : « وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا » يقول : هذه الوجوهُ مُدِلّة بجمالها فلا تختمر ، فتستتر شيئاً عن الناظرين إليها . وقد أشار إلى هذا المعنى الشماخ بن ضرار يصف ناقته [1] :

كأنَّ ذِرَاعَيْهَا ذراع [2] مُدلّةٍ   بُعَيْد الشباب [3] حاولت أَن تعذّرا

من البيض أعطافا إذا اتّصلت دعَتْ   فِراس بن غنم أو لَقِيط بن يَعْمُرا

بها شَرقٌ من زعفران وعَنْبرٍ   أَطارت من الحسن الرِّدَاء المحبَّرا

[ستر الوجه]

قال : وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله لا تَسْتُر وجهها ، فلما دخلت على مُصْعب بن الزبير قال لها فى ذلك ، فقالت : إن الله تعالى وسَمنى بمِيسَم جمال ، فأحببتُ أن يراه الناس ، والله ما بى وَصْمة أسْتَتر لها .

وقال على بن العباس الرومى يصف قينة :

لم يعتصم عودُها بزامرةٍ   ولا انْضَوى وَجْهُها إلى السّترِ

وقد ردّد معنى قوله : « لم يعتصم عودها بزامرة » فقال يصف بَرعة الكبيرة :

غنّتْ فلم تحوج إلى زَامِر   هل تحوج الشمس إلى شَمْعه

كأنما غنّت لشَمْسِ الضحى   فألبستها حُسْنُها خِلْعه

كأنما رَنّةُ مسموعها   رِقّة شَكْوَى سبقَت دَمْعه

تُهْدِى إلى قَلْبك ما يشتهى   كأنَّهَا قد أطْلعت طَلْعه

يجتمع الظَّرْفُ لجلاَّسِها   والحسنُ والإحسانُ فى بُقْعه

طَفِّـل على من حصلت عندهُ   فبعض تطفيل الفتَى رفْعَه [4]

---

(١) ديوانه : ٢٨ . (٢) فى الديوان : ذراعا . (٣) وفى رواية : بعيد السباب.

(٤) التطفيل : غشيان الوليمة من غير دعوة .

ربيع غيثٍ فانْتَجِعْ رَوْضَهُ ... فلن يُعابَ الحرّ بالنجعه (١)

[الصلع]

وكان ابن الرومى لا يزال معتمًّا وكان يغضب إذا سُئل عن ذلك . وسأله بعضُ الرؤساء لِمَ تَعْتَمّ ؟ فقال بديها :

يأيّها السَّائِلِى لِأُخبِرَهُ ... عَنى لِمْ لا أراكَ مُعْتَجِرا
أَستر شيئاً لو كان يمكننى ... تعريفه السَّائِلينَ مَا سُتِرا

وقد بيَّن العلة التى أوجبت اعتمامه فى قوله (٢) :

تعمَّمت إحصَاناً لرأسى بُرْهةً ... من القَرّ يوما والحَرُورِ إِذَا سَفَعْ
فلما دهى طولُ التَّعَمُّمِ لِمّتى ... وأودى (٣) بهابعدالإطالةوالفرَع (٤)
عزمت على لُبْس العمامة حيلةً ... لتستر ما جرَّتْ علىَّ من الصَّلَع
فيالك من جانٍ علىَّ جَنايةً ... جعلت إليه من جنايته الفَزَع
وأعجب شىء كان دائى جعلتهُ ... دَوائى على عَمْد وأعِجبْ بأَنْ نَفعْ

وهذا كقوله، وإن لم يكن فى معناه ، وقد رأيت من ينسبه إلى كشاجم:

طرِبْتُ إلى المرآة فروَّعَتْنِى ... طوالعُ شيبتين ألمتَّا بِى
فأما شَيْبةٌ ففزِعْتُ منها ... إلى المقراض حُبًّا للتَّصَابِى
وأما شَيْبَةٌ فصفَحْتُ عنها ... لتَشْهَد بالبراءةِ من خِضَابِى
فأعِجبْ بالدليلِ على مَشِيبِى ... أقمْتُ به الدليل على شَبَابِى

وهو القائل فى صفة رجل أصلع :

يجذب من نقرته طُرةً (٥) ... إلى مَدى يقصرُ عن ميلهِ

---

(١) أصل النجعة : طلب الكلأ فى موضعه . (٢) ديوانه ٤٥ .
(٣) فى الديوان : فأزرى بها بعد الاصالة . (٤) الفرع : مصدر الأفرع وهو التام الشعر . (٥) الطرة : الناصية .

فوجْهُه يَأْخُذُ من رأسِهِ أخْذَ نهار الصَّيْفِ من لَيْلِه

وقال أعرابى :

قدترَكَ الدَّهْرُ صَفَاتِى صَفْصَفَا فصار رَأْسِى جَبْهَةً إلى القفَا

كأنه قد كان رَبْعاً فَعَفَا

[من كلام الأعراب]

أعرابى يعظ سليمان بن عبد الملك

قال أعرابىٌّ لسليمان بن عبد الملك (١) : إنى أكلِّمك يا أميرَ المؤمنين بكلام فاحتمِله ، فإنَّ وراءَه إن قبلتَه ما تحبُّه ، قال : هاتِهِ يا أعرابى ؛ فنحن نَجُودُ بسعَةِ الاحتمال على مَنْ لا نَأْمن غَيْبته ، ولا نرجُو نصيحته ، وأنت المأمون غيبا ، الناصح جَيْبا (٢) . قال : فإنى سأُطْلِقُ لسانى بما خَرِست عنه الأَلسُن ، تأديةً لحق الله تعالى؛ إنه قدا كتنفك رِجَالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم ، وابتاعوا دُنْيَاكَ بدينهم ، ورضاكَ بسُخْطِ ربهم ، وخافوكَ فى اللهِ ولم يخافوا اللهَ فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، وَسِلْمٌ للدنيا ، فلا تأْمَنْهم على ما ائتمنك اللهُ عليه ؛ فإنهم لم يَأْلُوا الأمانةَ تضييعا ، والأمةَ كسفا وخَسْفا (٣) ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمْتَ ؛ فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك؛ فإنَّ أعظمَ الناسِ عندالله غَبْناً مَنْ باع آخِرَتَه بدُنْيَا غيره.

فقال سليمان : أما أنتَ يا أعرابى فقد سلَلت لسانك وهو سَيْفُكَ ، قال : أجل يا أمير المؤمنين لكَ لا عليك .

أعرابى يصف المطر

وروى العتبى عن أبيه عن مولى لعمرو بن حريث (٤) قال : شخصتُ إلى سليمان ابن عبد الملك فقيل لى : إنك تَرِدُ على أفصحِ العرب ، وسيسألك عن المطر ، فانْظُرْ ما تجيبه . فقلت : ما عندى من الجواب إلاّ ما عنـد العامّة . فقيل لى : ما ذلك

---

(١) عيون الأخبار : ٢ — ٢٣٧ ، العقد الفريد : ١ — ٣٠٧ .

(٢) كناية عن سلامة الطوية . (٣) فى عيون الأخبار : عسفا ، والعسف : الظلم ، والخسف : الذل . (٤) فى س : حارث .

بِمُقْنِع عنده ، فلقيني أعرابي فقلت: هل لك في دِرْهمين ؟ فقال: إنّى والله محتاج إليهما ، حريصٌ عليهما ، فما شأنُك[1]؟ قلت : لو سألك سائل عَنْ هذا المطر بِمَ كنتَ تُجيبه ؟ قال : أو يَعْيَا بهذا أحد ؟ قلت : نعم ، سائِلك ! قال : أَتَعْيَا أن تقول: أصابتنا سماء ، عَمِد[2] لها الثَّرَى ، واتَّصل بها العُرَى ، وقامَتْ منها الغُدُر ، وأتتك في مثل وِجار[3] الضَّبُع . فكتبتُ الكلامَ وأعطيتُه درهمين ؛ فكان هِجِّيراى على الرَّاحلة[4]؛ فإذا نزلت أَقْبَلت عليه وأمثل نفسي كأني واقفٌ بين يديه ، وقد سلَّمت عليه بالخلافة وهو يَسْألني عن المطر !

فلما انتهيتُ إليه سألني فاقتصَصْت الكلامَ فكَسر إِحْدَى عينيه ، وقال : إني لأَسْمع كلاما ما أنت بأبي عُذْرَته[5]. قلت : صدقت ! وحياتك ياأمير المؤمنين ، اشتريتُه بدرهمين ! فاستغرب ضَحِكا ، ثم أَحْسَن صِلَتى .

أعرابي يمدح رجلا

وقال أعرابي يمدح رجلا :

حَلِيمٌ مع التَّقْوَى شُجَاعٌ مع الجَدَا[6] ... نَدِ حِينَ لا يَنْدَى السَّحَابُ سَكُوبُ

ويَجْلُو أمورًا لو تَضَيَّفْنَ غيرَه[7] ... لَمَاتَ خُفاتاً[8] أو لَكادَ يذوبُ

شديد مَنَاطِ الْقَلْبِ في الموقف الذي ... به لقلوبِ العالَمِينَ وَجِيبُ

فَتًى هو مِنْ غَيْرِ التخلّق ماجِدٌ ... ومن غَيْرِ تأديبِ الرِّجالِ أَدِيبُ

* * *

مدح لبعض المحدثين

وقال بعض المحدَثين يَمْدَح :

فَتًى يَجْعَلُ المعروفَ قبل سُؤَالِهِ ... ويَجْعل دون العُذْر فضل التكرمِ

أغرّ متى تَقْصِدْ بِهِ فَضْل حظهِ ... تُصِب ومتى تطلب به الغُنْم تَغْنَمِ

---

(١) في س : سببك . (٢) عمد الثرى : بلله المطر ، فهو عمد ، تقبض وتجعد وندى وتراكب بعضه على بعض (اللسان ــ مادة عمد) . (٣) الوجار : جحر الضبع وغيرها . (٤) كان هجيراه على الراحلة : أي دأبه وشأنه . (٥) ليس بأبي عذرته : ليس صاحبه . (٦) الجدا : العطية . (٧) في س : مثله . (٨) فجأة .

على رأيه ينضمّ منصدع الصّفا ... وينحلُّ من عُقَد العُرى كل مُبْرَمِ
له عَزْمة أغنى من الجيش فى الوَغَى ... وخَطْرَةُ رامٍ كالحُسَام المصمِّمِ

جملة من كلام أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى بديع الزمان

وهذا اسمٌ وافق مُسَمَّاه ، ولفظٌ طابقَ مَعْناه ، وكلام غَضّ المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكادُ الهواء يسرقه لُطْفا ، والهوى يَعْشَقه ظَرْفا ، ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى أغْرَب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صَدْرِه ، واستنخبها من معادِن فِكْرِه ، وأبداها للأبصار والبَصَائر ، وأهداها للأفكارِ والضمائر ، فى معارض أعجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثرُ ما أظْهر تَنْبُو عن قبوله الطباع ، ولا ترفعُ له حجبَها الأسماعُ ، وتوسّع فيها ؛ إذ صرَّف ألفاظَها ومعانيهَا ، فى وجوه مختلفة ، وضروبٍ متصرّفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكُدْيَة ، تذوب ظَرْفا ، وتقطرُ حُسْنا ، لامناسبةَ بين المقامتين لفظاً ولامعنى ، وعطف مُسَاجلتها ، ووقَفَ مناقلتها بين رجلين سمَّى أَحدهما عيسى بن هشام والآخر أَبا الفتح الإسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدّر ، ويتنافثان السِّحر ، فى معانٍ تُضْحِكُ الحزين ، وتحرّك الرصينَ ، يتطلّع منها كلّ طريفة ، ويوقف منها على كلّ لطيفة ، وربما أفرد أَحَدهما بالحكاية ، وخصّ أحدهما بالرواية ؛ وسأذكر منها مالا يخل طولُه بالشرط المعقود ، ولا ينافى حصوله الغرضَ المقصود .

مقامات البديع

كتب إلى أبى نصر أحمد بن على الميكالى (١) :

بعض كتبه : كتاب منه إلى الميكالى

كتابى أعَزَّ الله الأمير ، وبودّى أن أكونه ، فأسعد به دونه ، ولكنّ الحريصَ محروم ، لوبلغ الرزق فاه لولاّه قفاه . فرّق الله بين الأيام تفريقَها بين الكرام ، وألهمها أن تورد (٢) بعقل ، وتُصدر بتمييز ، وما ذلك على الله بعزيز ، وأنا فى مفاتحة الأمير ،

(١) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٤٧ ، رسائل البديع : ١٤٦ . (٢) فى الرسائل : والهمذانى يورد .

بين ثقة تَعِد ، ويد تَرْتعِد ، ولم لا يكونُ ذلك ؟ والبحر وإن لم أره فقد سمعتُ خبرَه ، ومن رأى مِنَ السيف أَثره فقد عاين أكثرَه ، والليث وإن لم ألْقَه [(١)] فلم أجهل خلقه ، وما وراء ذلك من تالدِ أصْلٍ وحَسَب ، وطارفِ فَضْلٍ وأدب ، وبُعْد همة وصِيت ، فعلوم تَشْهَدُ به الدفاتر ، والخبرُ المتواتر ، وتنطق به الأشعارُ ، كما تصدق [(٢)] به الآثارُ ، والعين أقلُّ الحواس إدراكا ، والأذن أكثرها استمساكا ، وإن بعدت الدار فلا ضَيْر ؛ إنّ أَيْسَر البعدين بُعْدُ الدارين ، وخيرَ القربين قُرْبُ القلبين .

كتاب آخر إليه

وكتب إليه فى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة [(٣)] : الأمير الفاضل ، والشيخ الرئيس ، رفيع مناط الهمة ، بعيد منال الحرمة [(٤)] ، فسيح مجال الفضل ، رحيب منخرق [(٥)] الجود ، رطيب [(٦)] مكسر العود .

فلو نظمت الثريا ... والشِّعرَيَيْنِ قَرِيضا
وكاهل الأرض ضرْبا ... وشعب رَضْوَى عَرُوضا
وصُغت للدر ضِدّا [(٧)] ... وللهـــواء نقيضا
بل لو جلوت عليـهِ ... سُود النوائب بِيضَا
أو ادّعيت الثريا ... لأخمصيه حَضِيضا
والبحر عند [(٨)] لهاه ... يوم العطاء مغيضا

لما كنت إلاَّ فى ذمة القصور ، وجانب التقصير ، فكيف وأَنا قاعدُ الحالة فى المدح ، قاصرُ الآلة عن الشَّرْح؟ ولكنى أقول : الثناء مُنجحٌ أنى سلك ، والسخىُّ

---

(١) فى الرسائل : وإذا لم ألقه فهل أجهل خلقه ، وفى س : فلم أجهل إلا خلقه .

(٢) فى الرسائل : كما تختلف . (٣) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٧٣ ، رسائل البديع : ٦٠ . وفى الرسائل إنه كتبها إلى الشيخ أبى جعفر الميكالى . (٤) فى اليتيمة والرسائل : الخدمة .

(٥) فى الرسائل : مخترق. (٦) فى اليتيمة والرسائل : طيب معجم العود ، وفى ق : رطب.

(٧) فى ق : خدّاً . (٨) فى اليتيمة : عبد .

جوده بما ملك ، وإن لم تكن غُرَّةٌ لائحة فلَمْحَةٌ دالة ، وإن لم يكن صَدّاء[1] فماء ، وإن لم يكن خمر فخلّ ، وإن لم يُصِبْها وابل فطلّ ، وبَذْلُ الموجود غايةُ الجود ، وبعض الجهد[2] آخر المجهود ، وماش خير من لاش ، ووجود ماقلّ خيرٌ من عدم ما جلّ . وقليل فى الجيب خير من كثير فى الغَيْب ، وجهد المقلّ خيرٌ من عذر المخل ، وحمار أيْس خير من فرس لَيْس[3] ، وكوخ فى العِيان خيرٌ من قصر فى الوهم . وزيت خير من ليت ، وما كان أجود من لَوْ كان ، وقد قيل : عصفور فى الكفّ أجودُ من كركى فى الجوّ ، ولأن تقطف خَيْرٌ من أن تقف ، ومن لم يجد الجميم[4] رعى الهشيم[5] ، ومن لم يحسن صهيلا نَهق ، ومن لم يجد ماء تيمَّم ؛ والأمير الرئيس أدام الله نعماه لا ينظر فى قوافى صنيعته[6] إلى رَكَاكة ألفاظها ، وبُعْدِ أغراضها ، ولكن إلى كثرة جذرها ، وثقل مهرها ، وقلَّة كفئها ، وإننى منذ فارقت قصبة جرجان ، ووطئت عتبة خراسان ، ما زففتها إلا إليه ، ولا وَقَفْتُها إلا عليه ، هذا على تمرّغى فى أعطاف المحن ، وضرورتى إلى أبناء الزمن ، وإن كان الأمير الرئيس يرفعُ لكلّ لفظٍ حجابَ سمعه ، ويُفسِح لكل شعر فِناء طبعه ، فهاك من النثر ما ترى ، ومن النظم ما يترى[7] :

أدهق[8] الكاس فعَرْف الْ فَجْرِ قد كادَ يلوحُ
فهو للناس صباحٌ ولذى الرأى صبوحُ
والذى يمرح بى فى حَلْبة اللَّهو جموحُ
فاسقنيها والأمانِىُّ لها عَرف يفوحُ
إنّ للأيام أسرارًا بهــا سوف تبُوحُ

(١) فى الرسائل : صدر . (٢) فى الرسائل : الحمية .
(٣) الأيس : القهر ، يريد أن حمار الضرورة خير من الفرس المعدوم .
(٤) فى اليتيمة والرسائل : الحميم . (٥) الجميم : النبت الغزير ، والهشيم : اليابس .
(٦) فى الرسائل : صنيعه . (٧) اليتيمة : ٤ ـ ٢٧٧ ، والعبارة فى الرسائل : فهاك من الشعر ما يقرى ، ومن النظم ما ترى . (٨) فى اليثيمة والرسائل : اذهب .

لا يغرنّك جسمٌ صادقُ الحِس[1] وروح
إنما نحن إلى الآ جال نَغْـدُو ونروح
ويْك هذا العمر تبريـ ـحٌ[2] وهذا الروح ريحُ
بينما أنت صحيح الْـ ـجسم إذ أنتَ طَريحُ
فاسقنيها مثـل ما يلـ ـفظه[3] الدّيك الذّبيح
قبل أن يضرب فى الدّهْـ ـرِ[4] بى القِدح السنيح[5]
إنمـا الدهرُ غَرورٌ[6] ولمن أَصْغَى نصيحُ
ولسان الدهر بالوَعْـ ـظِ لواعيهِ فَصيحُ
نستبيح[7] الدهر والأ يّا م منـــا تَسْتبيح[7]
نحن لاهون وآجا ل المنـايا لا تريح[8]
ياغلام الـكأس فاليأ س من الناس مُريحُ
ضاع ما نحميه من أنـ ـفسنا وهو مبيح[9]
وقنوعا فمقـام الـ ـذّ لّ بالمرء قبيح
أنا يا دهر بأبنـــا ئك شِقٌّ وسَطيح[10]
وبأبكار القـوافى لا على كفـء شحيح
يا بنى ميـكال والجو د لعِـلّاتى مُزِيح
شرفاً إن مجـال الْـ ـفضل فيـكُمْ لفسيحُ
وعلى قدر سنا الْـ ـممدوح يَأْتيكَ المديحُ
فهناك الشرف الأَر فع والطَّرْف الطَّمُوح

---

(١) فى اليتيمة : الحسن . (٢) فى اليتيمة : تفريح . (٣) فى س : ما يلفظها .
(٤) فى ط : فى العمر . (٥) فى الرسائل واليتيمة : السفيح .
(٦) فى اليتيمة والرسائل : عدو . (٧) فى اليتيمة : نستميح .
(٨) فى اليتيمة : المنى لا تستريح . (٩) فى اليتيمة : يبيح ، وفى س : صريح .
(١٠) شق وسطيح : كاهنان .

والنـدى والخُلق الطا هر والخَلْق[١] الصبيـح
مرتقى مجد يحـار الـ طّ رف فيـه ويطيـح
أَىُّ هـذا الـكرم الما ثل والخلق السجيـح
كان هـذا الجود ميتاً عادَه منـك المسيـح

هـذه أطال الله بقاءَ الأمير هدية الوقت ، وعَفْوُ الساعة ، وفَيْضُ البديهة ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليَدِ للفم ، وجمرات الحدّة ، وثمرات المدّة ، ومجاراة الخاطر للناظر ، ومباراة[٢] الطبّع للسَّمْع ، ومجاذبة الجنان للبيان ، والشعر إذا لم تتقدمه روّية ، ولم تنضجه نيّة ، لم يفتح له السمع بابه ، ولم يرفع له القلب حجابه ، وإذا لبس الأمير هذه على علاتها رجوت أن يكون بمدها ماهو أفتن[٣] وأحسن وأرصن ، فرأيه أيده الله فى الوقوف عليها موفقا إن شاء الله .

عتاب البديع للميكالى

وله إليه معاتبة[٤] :

لَئِنْ سَاءَنى أَنْ نِلْتنى بمَسَاءةٍ لقـد سرَّنى أنّى خَطَرْتُ ببالك

الأمير الفاضل الشيخ الرئيس ، أطال اللهُ بقاءه إلى آخر الدعاء ، فى حَالِ[٥] برّه وجفائه مُتَفضِّل ، وفى يومَىْ إبعاده وإدْنَائِه متطوِّل . وهنيئا[٦] له من حِمَانا ما يُحِلّه ، ومن عرانا مايحُله ، ومن أعْرَاضِنا مايستحلُّه ؛ بلغنى أنه ـ أَدامَاللهُ عِزّه ـ استزاد صنيعته[٧] ، وكنت أظنّنى مَجْنِيًّا عليه ، مُسَاءً إليه ، فإذا أنا فى قرارة الذَّنْبِ وبمثابة العتْب ، وليت شعرى أىّ محظور فى العشرة حَضَرْته ، أو مفروض من الخِدْمَة رَفَضْتُه ، أو واجبٍ فى الزيارة أَهْمَلْتُه ؟ وهـــل كنتُ إلا ضيفاً أهداه بَلَدٌ[٨] شاسع ، وأَدَّاه أملٌ واسع ، وحَدَاه فَضْلٌ وإن قلّ ، وهدَاهُ رَأْيٌ وإنْ

(١) فى الرسائل : والوجه . (٢) فى س : مساراة . (٣) فى الرسائل : مابعد أمتن.
(٤) رسائل البديع : ٦٣ . (٥) فى الرسائل : حالى . (٦) فى ق : وهبنا له .
(٧) فى الرسائل : صنيعه ، وفى ق : استزراء صنيعته . (٨) فى الرسائل : منزع شاسع.

ضَلّ ، ثم لم يُلق ِ إلاَّ فى آلِ ميكالَ رَحْلَه ، ولم يَصِلْ إلاَّ بهم حَبْلَه ، ولم يَنْظِم إلاَّ فيهم شِعْرَه ، ولم يَقِفْ إلا عليهم شُكْرَه ؛ ثم ما بَعُدَتْ صحبةٌ إلا دَنَتْ مَهانة ، ولا زادت حُرْمة إلا نقصت صيانة ، ولا تضاعَفَتْ مِنة ، إلاّ تراجعت[1] مَنْزِلة، ولم تزل الضَّعَة[2] بنا حتى صار وابلُ الإعظام قَطْرَة ، وعاد قميصُ القيام صُدْرَة ، وذلك التقربُ ازوِرَارا، وطويل[3] السلام اختصارا ، والاهتزازُ إيماء، والعبارة إشارة ؛ وحين عاتبته آمل إعتابه ، وكاتبته أَنْتَظِر[4] جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجاب بالسكوت ، وأَعْتَب بالقُنُوت ، فاازددت إلاَّ له ولاءً ، وعليه ثناءً ؛ لا جَرَم إنى اليوم أبيضُ وَجْهِ العهد ، واضح محجَّةِ الوُدّ ، طويلُ عِنَان القول، رفيع[5] حِكْمَةِ العُذْر؛ وقد حمَّلت فلاناً من الرسالة ما تجافَى عنه القلم ؛ والأمير الرئيس أطال الله بقاءه يُنْعِمُ بالإصغاء لما يورده موفقاً إنْ شاء الله .

رسالة أخرى إليه

وله إليه فى هذا الباب :

أنا فى[6] خدمة الأمير الرئيس ، أطال الله بقاءه، مترجِّحٌ بين أنْ أَشْرَبها رنقة[7] ولا أُسِيغُها ، وألجلج منها مُضْغة[8] ولا أُجيزها ، وبين أَنْ أَطْوِيهَا على غرِّها ، ولا أرتضع أَخْلاف دَرِّها .

فلاَ نَفْسِى تُطاوِعُنى لِرَفْضٍ ولا هِمَمِى تُوَطِّنُنِى لخَفْضِ

وبقى أن أقرُصَه بأَنامل العتَبْ ، وأَحْشِمَه[9] بأَلحاظ العَذْل ، وأعرفه أنى ما أطْوى مسافةَ مزار إلاّ متجشّما ، ولا أطأُ عَتَبَةَ دار إلا متبرِّما ؛ ولستُ كمن يَبْسُط

---

(١) فى ق : همة إلا تواضعت . (٢) فى الرسائل : الصفة . (٣) فى الرسائل : وذلك .
(٤) فى ق : وحين عاتبته وكاتبته أرجو عتابه وأنتظر جوابه وسألته آمل .
(٥) فى الرسائل : حكم . (٦) رسائل البديع : ٦٥ . (٧) رنقة : كدرة .
(٨) ألجلج : أردد . المضغة : قطعة لحم وغيره . وفى ق ، س : وأتلجلج .
(٩) حشمته : أخجلته ، وأحشمته : أغضبته ، وفى بعض الأصول : وأجمشه ، وأصل الجمش المغازلة .

يدَهُ مُسْتَجْدِيا ، أو ينْقُل قدمَه مُسْتَعْدِيا [١] ؛ فإن كان الأميرُ الرئيس ـ أيّده اللهُ ـ يسرح طَرْفُه منّى فى طامح أو طَامِع ، فلْيُعِد للفِراسةِ نَظرا .

فما الفقْرُ من أرض العشيرة ساَقَنا إليك ولـكنّا بِقُرْباكَ ننجحُ

وأجِدُنى كلما استفزنِى الشوقُ إلى تلك المحاسن ، أطِير إليها بجناحين عَجِلا ، وأرجع بعَرْجاوَيْن خَجِلا ، ولولا أنّ الرضا بذلك ضربٌ من سقوط الهمّة ، وأن العتابَ نوعٌ من أنواع الخدمة ، لصُنْتُ مجلسه عن قَلمِى ، كما أَصُونه عن قدَمِى ، ولِمِلْتُ إلى أرْض الدعاء فهو أنْجَع [٢] ، وإلى جانبِ الثناء فهو أوْسَع [٣] ، وسأفعل لتخفّ مؤنتى ، ولا تثقل وَطْأتِى .

إذا ما عَتَبْت فلم تُعْتِب [٤] وهُنْتُ عليك فلم تَعنَ بى
سلَوْت ولو كان ماء الحياة لعِفْتُ الوُرُودَ ولم أشْرَب

قطعة من مفردات الأبيات لأهل العصر فى معان شتى تجرى مجرى الأمثال

أبو فراس الحمدانى :

إذا كان غيرُ اللهِ للمَرْء عُدَّةً أتتهُ الرَّزَايَا من وُجوهِ المَكَاسِبِ

وله :

عَفَافُك عِىٌّ إنما عِفَّةُ الفَتَى إذا عَفَّ عن لَذَّاتِه وهـو قادِرُ

وقال المتنبى [٥] :

كلُّ حِلْمٍ أَتَى بغَيْرِ اقْتِدار حُجَّـةٌ لاجِئٌ إليها اللِّئامُ

---

(١) فى الرسائل : مستغذيا . (٢) فى الرسائل : أنفع . (٣) فى الرسائل : أوقع .
(٤) أعتبه : أزال عتبه . (٥) ديوانه : ٤ ـ ٩٣ .

وله(١):

وإذا كانتِ النّفُوسُ كِبارًا ... تَعِبتْ فى مُرادِها الأجْسامُ

وله(٢):

وإذا أتتْكَ مَذمّتى من ناقصٍ ... فهى الشَّهادَةُ لى بأنى كامِلُ

وله(٣):

لا يُعْجِبنَّ مَضِيما حُسْنُ بِزّتِه ... وهل تَرُوق دَفِيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ

وله(٤):

من أطاقَ الْتِماسَ شَىءٍ غِلاباً ... واغْتِصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤالا

وله(٥):

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النفوسِ فإنْ تَجِدْ ... ذا عِفَّةٍ فلِعِلّةٍ لا يَظْلِمُ

وله :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبُه ... أنى بمـا أنا بَاكٍ مِنْـه مَحْسُودُ

وله(٦):

ذِكْرُ الْفتى عُمْرُه الثّانِى وحاجَتُه ... ما قَاتَه وفُضُولُ الْعَيْشِ أشغالُ

والمتنبى أَكْثَرُ المحدَثين افتِناناً وإحساناً فى الإغراب بهذا البابِ ؛ والاستقصاء يخرج عن شرط الكتاب .

وقال السرى الموصلى :

خذُوا من العيشِ فالأعمـار فَائِتَةٌ ... والدهرُ مُنْصَرِمٌ والعيشُ مُنْقَرِضُ

وله :

فإنك كلّما استُودِعْتَ سِرًّا ... أَنمُّ مِنَ النَّسيمِ على الرِّياضِ

---

(١) ديوانه : ٣ ــ ٣٤٥ . (٢) ديوانه : ٢ ــ ٢٦٠ . (٣) ديوانه : ٤ــ٢١٣.
(٤) ديوانه : ٣ ــ ١٤٧ . (٥) ديوانه : ٤ ــ ١٢٥ . (٦) ديوانه : ٣ــ٢٨٨.

وقال أبو إسحاق الصابى :

الضبّ والنّون[١] قد يُرْجَى التقاؤهما   وليس يُرْجَى التقاءُ اللبِّ والذّهبِ

وقال ابن نباتة[٢] :

مثلٌ خلَعْتُ على الزمان رِداءَه[٣]   عوَزُ الدّرَاهمِ آفةُ الأَجْوادِ

وله[٤] :

يهوى الثناءَ مبرِّزٌ ومُقَصِّرٌ   حبُّ الثنـاءِ طبيعةُ الإنسانِ

وقال أبو الحسن السّلامى :

تبسّطنا على اللّذّات لمّا   رَأَيْنَا العَفْوَ من ثَمَرِ الذّنوبِ

وقال ابن لنكك البصرى :

وماذا أُرَجِّى من حَياةٍ تَكدَّرتْ   ولو قد صَفَتْ كانَتْ كأَحْلامِ نائمِ

وقال أبو طالب المأمونى :

لى فى ضَمير الدهرِ سرٌّ كامِنٌ   لابدّ أن تستَلّهُ الأقدارُ

وقال أبوالفضل بن العميد :

الرأى يَصْدَأُ كالحُسام لعارِضٍ   يَطْرَا عليـه وصَقْلُه التذكيرُ[٥]

وقال أبو الفتح[٦] :

بطِرْتُم فطِرْتُم والعَصَا زَجْرُ مَنْ عَصَى   وتقويم عَبْـدِ الهُون بالهُونِ رادِعُ

وله :

إذا بلغ المرءُ آمالَهُ   فليس له بعـدها مُقْتَرَحْ

وقال الصاحب إسماعيل بن عباد[٧] :

إن أُمّ الصقر فى الودْ   دِ لَمِقْلاتٌ نزورُ[٨]

---

(١) النون : الحوت ، اليتيمة : ٢ ـ ٢٦٧ .   (٢) يتيمة الدهر : ٢ ـ ٣٦٤ .

(٣) فى اليتيمة : رواءه .   (٤) اليتيمة : ٢ ـ ٣٦٤ .   (٥) المذكر من السيوف : ذو الماء .   (٦) فى س : وقال ابنه أبو الفتح .   (٧) يتيمة الدهر : ٣ ـ ٢٣٩ .

(٨) المقلات : ناقة تضع واحداً ثم لا تحمل . وامرأة لايعيش لها ولد .

وله :

مَن لم يَعُدْنا إذا مَرِضْنَا ... إنْ مات لم نَشْهَد الجنازَه

وله :

حِفْظُ اللسانِ راحةُ الإنسانِ ... فاحْفَظه حِفْظَ الشكر للإحسانِ

وقال إسماعيل الناشى :

وكنتُ أرَى أنَّ التجاربَ عُدَّةٌ ... فخانتْ ثِقاتُ الناسِ حتى التجارب

وقال أبو الفتح البستى :

لا تَرْجُ شيئاً خالصاً نَفْعُهُ ... فالغيثُ لا يَخْلُو من العيثِ[1]

وله :

ولم أر مثل الشكر جُنَّة غارسٍ ... ولا مثل حُسْنِ الصبر جُبَّة[2] لابِسِ

وله[3] :

وطول مُقام[4] الماء فى مستقرِّه ... يغيره ريحاً ولوناً ومَطْعَما

وله[5] :

ما استقامت قَنَاةُ رأيِى إلاَّ ... بعد ما عوَّجَ[6] المَشِيبُ قَنَاتِى

وقال أبو الفضل الميكالى[7] :

هو الشوكُ[8] لا يُعْطِيك وافرَ مَنّةٍ ... يدَ الدَّهر إلا حينَ تَضرِبه[9] جَلْدَا

وله[10] :

ذو الفضـل لا يَسْلَمُ من قَدْح ... وإنْ غَدَا أقْوَم من قِدْحِ

(١) العيث : الإفساد . (٢) فى س : جنة . (٣) اليتيمة : ٤ ـ ٣٠٩ .

(٤) فى اليتيمة : جام الماء . (٥) اليتيمة : ٤ ـ ٣٠٦ .

(٦) فى اليتيمة : بعدما قوس . (٧) اليتيمة : ٤ ـ ٣٤٦ .

(٨) فى اليتيمة : هو السؤل . (٩) فى اليتيمة : إلا حين أبصرته .

(١٠) اليتيمة : ٤ ـ ٣٥٠ .

وقال شمس المعالى :

وفى السماء نجومٌ مالها عددٌ ... وليس يُكسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ

هذا مأخوذ من قول الطائى[١] :

إنّ الرياحَ إذا ما استعصفت[٢] قَصَفَتْ ... عيدانَ نجْدٍ فلم يعبأنَ بالرتَمِ[٣]

بناتُ نعشٍ ونَعْشٌ لا كُسوفَ لهـا ... والشمسُ والبَدْرُ منها[٤] الدهر فى الرَّقمِ

وقال أبو الحسن على بن عبد العزيز القاضى :

الهجر أَرْوَحُ من وَصْلٍ على حَذَرٍ ... والموتُ أَطْيَب من عَيْشٍ على غَرَرِ

وقال أبو بكر الخوارزمى :

لا تغرَّنْك هـذه الأوجه الغرْ ... ر فيَارُبَّ حَيَّـةٍ فى رِياضِ

[بعد تبدل الحال]

أبو العيناء وابن فرخان شاه

قال أبو العيناء : كان عيسى بن فَرْخان شاه يَتِيهُ علىَّ فى ولايته الوَزارَة ، فلما صُرِف رَهِبَنى، فلقينى فسلّم علىّ فأَحْفَى[٥] . فقلت لغلامى: مَنْ هذا ؟ قال: أبوموسى ؛ فدنوتُ منـه وقلت : أعزَّكَ الله ، والله لقد كنتُ أَقْنَع بإيمائك دون بيَانِك ، وبلَحْظِك دون لَفْظِك ، فالحمدُ لله على ما آلَتْ إليه حالُك ، فلئن كانت أَخْطَأَتْ فيك النّعمةُ ، فلقد أصابت فيك النِّقْمَةُ ، ولئن كانت الدنيا أَبْدَتْ مقابِحَها بالإقبال عليك لقـد أظهرَتْ محاسنها بالانصرافِ عنك ، ولِله المِنّة إذ أَغنانا عن الـكَذِبِ عليك ، ونزَّهَنَا عن قول الزُّورِ فيك، فقد والله أَسأْتَ حَمْلَ النّعم ، وماشَـكَرْتَ حق المُنْعِم، فقيل له : يا أبا عبد الله؛ لقد بالغت فى السبّ ، فما كان الذّنب ؟ قال : سألته حاجةً أقلّ من قيمتِه ، فردّنى عنها بأقبحَ من خِلْقَتِه .

---

(١) ديوانه : ٣١٥ . (٢) فى الديوان : أعصفت . (٣) الرتم : نبت ضعيف

(٤) فى الديوان : منه ، والرقم : الداهية . (٥) بالغ فى إكرامه وإظهار السرور والفرح .

ابن الرومى وأبو الصقر

وقال علىّ بنُ العباس الرومى لأبى الصقر إسماعيل بن بلبل لما نكبه الموفق أبو أحمد وألمّ فى بعض قوله بقول أبى العيناء :

لا زالَ يومُك عِبرةً لغدكْ ... وبكت بشجوٍ عين ذى حسَدِك

فلئن نكبْتَ لطالما نُكِبتْ ... بك هِمةٌ لجأتْ إلى سَنَدِك

لو تسجد الأيام ما سجدتْ ... إلّا لِيومٍ فتَّ فى عَضُدك

يا نِعمةً ولتْ غضارَتُها[(١)] ... ما كان أقبحَ حُسْنَها بيدِك

فلقد غدَتْ برْدًا على كبدى ... لما غدتْ حرًّا على كبدِك

ورأيتُ نُعْمَى اللهِ زائدةً ... لما استبانَ النقص فى عددِك

ولقد تمنّت كل صاعقةٍ ... لو أنها صُبّت على كبدك[(٢)]

لمْ يَبْقَ لى مما برَى جسدى ... إلاَّ بقاء الرُّوح فى جسَدِك

وله فيه أهاجٍ كثيرة لما نكب ، منها قوله[(٣)] :

خَفِّض أبا الصَّقر فكم طائرٍ ... خرَّ صريعاً[(٤)] بعْدَ تحليق

زُوّجت نعمى لم تكن كُفْأها ... فصانها اللهُ بتطليق

لا قُدِّست نُعْمَى تسَرْبَلتها ... كم حجةٍ فيها لِزنديق

وكان أبو الصقر لما ولى الوزارة مدحه ابن الرومى بقصيدته النونية التى أولها[(٥)] :

أجْنَيْنَك الورد[(٦)] أغصان وكُثْبان ... فيهن نوعان تُفّاحٌ ورمّانُ

وفوق ذَيْنِك أعنابٌ مُهَدّلةٌ ... سُودٌ لهن من الظلماء ألوانُ

وتحت هاتيك عُنّاب تَلوح به[(٧)] ... أطرافهن قلوب القوم قِنوَان

---

(١) الغضارة : النعمة والسعة . (٢) فى بعض الأصول كتدك ، والكتد : مجتمع الكتفين.

(٣) ديوانه : ١١٠ . (٤) فى الديوان : صريعا . (٥) ديوانه : ٢٠ .

(٦) فى الديوان . أجنت لك . (٧) العناب ثمر ، وفى ق ، س : تلوغ ، ولاغ الشىء : أداره فى فيه ثم لفظه .

غصونُ بانٍ عليها الزهر فَاكِهة ... وما الفواكِهُ مما يَحْمِلُ البانُ
ونرجس بات سَارِى الطَّلّ يَضْرِبهُ ... وأقحوان مُنير اللَّون رَيَّانُ
أَلّفن من كل شيء طَيِّبٍ حَسَنٍ ... فهنّ فاكِهةٌ شتّى ورَيْحانُ
ثمار صِدْقٍ إذا عاينت ظاهِرَها ... لكنها حين تَبْلُو الطَّعْمَ خُطْبَانُ[1]
ولا يَدُمْنَ على عَهْدٍ لمعتقدٍ ... والغانيات[2] كما شُبِّهن بُسْتَانُ
يَميلُ طوراً بحمل ثم يعدمهُ ... ويَكْتَسِى ثم يُلْفَى وهو عُرْيانُ

وهى أكثر من مائتى بيتٍ ، مرَّ له فيها إحسانٌ كثير ، فأنشدها أبا الصقر ، فلما سمع قوله[3] :

قالوا أبو الصقر من شَيْبَان قلت لهم ... كلاّ لعمرى ولكِنْ منه شَيْبانُ

قال : هجانى ، قيل له : إنّ هذا من أحسن المدح ؛ ألاَ تسمع ما بعده :

وكم أبٍ قد عَلَا بابْنٍ ذُرَى شَرَفٍ ... كما عَلَتْ برسول الله عَدْنانُ

قال : أنا بشيبان لا شيبان بى . فقيل له : فقد قال :

ولم أقصِّر بشَيْبَان التى بلَغَتْ ... بها المبالغ أَعراقٌ وأغصانُ
لله شيبان قوم لا يَشُوبُهُمُ ... رَوْع إذا الروع شَابَتْ منه وِلْدَانُ

فقال : لا والله لا أُثيبه على هذا الشّعر ، وقد هجانى .

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولى : كُنتُ يوما عند عبيد الله بن عبدالله بن طاهر ، وقد ذكروا قصيدةَ ابن الرومى هذه النونية فقال : هذه دارُ البطيخ ، فاقرءوا تشبيهاتها[4] تعلَمُوا ذلك ! فضحك جميع من حضر .

---

(١) الخطبان من الحنظل : ما فيه خطوط خضر ، وهى خطبانة ـ بالضم ، وجمعها خضبان .

(٢) فى الديوان : أنى وهن .   (٣) مختارات البارودى : ١ ـ ٢٠٢ .

(٤) فى س ، ق : تشبيها .

وفى هذه القصيدة يقول من المختار فى النسيب (١) :

يارُبَّ حُسّانةٍ منهن قد فعلت سُوءًا وقد يفعل الأَسْوَاءَ إحسانُ
تُشكى (٢) المحب وتُلْفى الدَّهْرَ شاكِيةً كالقَوْس تصمى (٣) الرَّمايا وهى مِرْنان

وهذا كقوله فى قصيدة يَصِفُ فيها قوس البندق (٤) :

لها رَنّة أَوْلَى بها من تصيبهُ وأَجْدَر بالإعوال مَنْ كان مُوجَعا

يقول فيها (٥) :

لا تَلْحَيانى وإيّاها على ضَرَعى وزَهْوِها ، لجَّ مَفْتُون وفتّانُ (٦)
إنى مُلكت فَبِى للرِّقِّ مَسْكَنةٌ ومُلِّكَتْ فلَها بالمُلْك طُغْيان
لى مُذْ نأت (٧) وجنةٌ رَيَّا بعشرِبها (٨) من عَبْرَتى وفمٌ ما عِشْتُ ظمآنُ

وفيها فى مدح بنى شيبان (٩) :

قومٌ سماحتهم غَيْثٌ ونَجْدَتُهم غَوْثٌ وآراؤهم فى الخَطْبِ شُهْبانُ
تَلْقاهُمُ ورِماحُ الخطّ حولهم كالأُسد ألبسها الآجامَ خَفّانُ (١٠)
صَانُوا النفوسَ عن الفَحْشاء وابتذلوا مِنهن فى سُبُل العلياء ما صانوا
المنعمون وما منُّوا على أَحَدٍ يَوْماً بنعْمى ولو منُّوا لما مانوا (١١)

يقول فيها فى أبى الصقر :

يَفْدِيه مَنْ فيه عن مِقْدار فِدْيَته عن المُفاداة تَقْصِيرٌ ونُقْصَانُ
قومٌ كأنهمُ مَوْتى إذا مُدِحوا وما لهم من حَبِيرِ (١٢) الشعر أكفان

---

(١) ديوانه : ٢٢ . (٢) فى الديوان : تصمى المحب . (٣) تصمى : تقتل وتبيد .
(٤) ديوانه : ٣٠٠ . (٥) ديوانه : ٢٣ . (٦) فى الديوان : فكلا الأمرين ديدان.
(٧) فى الديوان : مذ نأوا . (٨) فى ق : بعشرقها .
(٩) مختارات البارودى : ١ ــ ٤٠٢ .
(١٠) خفان : مأسدة قرب الكوفة .
(١١) مان : كذب . (١٢) الحبير : الناعم الجديد .

صاحى الطباع إذا سالت[١] هَواجسُه وإن سألت[٢] يدَيْه فهوَ نَشْوانُ
يُصحيه ذِهنٌ وَيأْبَى صَحْوُهُ كرمٌ مُسْتَحْكِمٌ فهو صاح وهو سكْرانُ
فردٌ جميعٌ يرَاهُ كلُّ ذى بَصَرٍ كأنه النـــاس طُرًّا وهو إنسانُ

وهذا كقول أبى الطيب[٣] :

ولَقيتُ كلَّ الفاضلينَ كأنَّما رَدَّ الإلهُ نفوسهم والأعْصُرَا
نُسِقوا لنا نَسَقَ الحساب مُقـدَّما وأتى فذلكَ إذْ أتيتَ مُؤَخَّرَا

وقد تقدم .

وقال[٤] :

فإنْ يكُ سَيَّارُ بْنُ مكْرمٍ انْقَضَى فإنَّكَ ماءُ الوَرْدِ إن ذهب الوردُ
مَضَى وبَنوهُ وانفرَدْتَ بفضْلِهِمْ وألْفٌ إذا ما جُمِّعَتْ واحِـدٌ فَرْدُ

وقال البحترى[٥] :

ولم أرَ أمْثَالَ الرجالِ تفاوتاً لدى المجد ، حتى عُدَّ ألْفٌ بواحدِ

ومدحه وعاتبه بقصائد كثيرة فما أنجحت ، فمن ذلك قوله فى قصيدة طويلة يمدحه[٦] :

فى وَجْهِه رَوْضَةٌ للحُسنِ مونقَةٌ ماراد[٧] فى مثلها طَرْفٌ ولا سَرَحا
طَلُّ الحياءِ عليها ساقطٌ[٨] أبداً كاللؤلؤ الرَّطْبِ لو رَقْرَقْتَه سَفَحا
أنا الزعيم لمكحولٍ بغرَّتهِ ألاَّ يرى بعدها بُؤْساً ولا تَرَحا
مهما أتى الناس من طَوْلٍ ومن كَرَم فإنمـا دخلوا البابَ الَّذى فَتَحا
يُعْطِى المُزاحَ ويعطى الجدَّ حقَّهما فالموتُ إن جدَّ والمعروفُ إن مَزَحا

---

(١) فى المختارات : إذا ساءلت هاجسه . (٢) فى س : أسالت .
(٣) ديوانه : ٢ ــ ١٧٠ . (٤) ديوانه : ١ ــ ٣٨٠ .
(٥) ديوانه : ١ ــ ١٣٦ . (٦) مختارات البارودى : ١ ــ ٣٣١ .
(٧) راد : ارتاد . (٨) فى المختارات : واقع .

وافى عطاردَ والمرِّيخ مَوْلِدهُ ... فأعْطَياه من الحظَّيْنِ ما اقْتَرَحا
إنْ قال : لا ، قالها للآمريه بها ... ولم يَقُلْها لمن يستَمْنِح المِنَحا
فى كَفِّه قلمٌ ناهيك من قلمٍ ... نُبْلًا وناهيك من كَفٍّ بما اتَّشَحا
يَمْحُو ويُثْبِتُ أرْزاقَ العبادِ به ... فما المقاديرُ إلا ما مَحا ووَحَى[1]
كأنما القلَمُ العلوىّ فى يَدِهِ ... يُجْرِيه فى أى أنحاءِ البلادِ نَحا
لما تبسّم عنك المَجْدُ قلتَ له ... قَهْقِه فلا نَغَلًا تُبْدِى ولا قَلَحا[2]
أُثنى عليك بنُعْماكَ التى عَظُمَتْ ... وقد وجدت بها فى القَوْلِ مُنْفَسحا
أمطر بذاك جَنَانى تكسه[3] زَهرًا ... أنتَ المحيّا بريّاه إذا نَفَحا

أنشدتها على متوالى[4] الاختيار ، وكذلك أجرى فى كثير من الأشعار .

وقال يعاتبه ويستبطئه[5] :

عَقيدَ النَّدَى أطْلِقْ مَدائحِ جَمَّةً ... حَبائسَ حَسْرى[6] قد أبَتْ أن تسرَّحا
وكُنْتَ مَتى تنشد مديحاً[7] ظَلَمْتَهُ ... يُرى لكَ أهْجى[8] مايُرى لك أمدحا
عَذَرْتُك لو كانت سماءٌ تقشَّعتْ ... سَحائبُها أو كان رَوْضٌ تَصَوَّحا
ولكنها سُقْيا حُرِمْتَ رَوِيَّها ... وعارِضُها مُلْقٍ كلاكِلَ[9] جُنَّحا
وأكْلَاءُ مَعْروفٍ حرمت[10] مَرِيعَها ... وقد عاد منها السَّهْلُ والحَزْنُ مَسْرَحا
عَرَضْتُ لأورادى[11] وبَحْرُكَ زاخِرٌ ... فلمَّا أرَدْنَ الوِرْدَ ألْفَيْنَ ضحْضَحا[12]
فلو لم تَرِدْ أزواد[13] غَيْرِى غِمارَهُ ... لقُلْتُ سَرابٌ بالمِتَانِ تَوَضَّحا

---

(١) وحى : أشار ، وكتب . (٢) النغل : الفساد فى الدباغ ، وفى الجرح ، وسوء النية ، والإفساد . والقلح : أصله صفرة الأسنان . (٣) فى المختار : جنابى يكسه .
(٤) فى بعض الأصول: توالى . (٥) ديوانه : ٢ — ٧١ . (٦) فى الديوان : عندى.
(٧) فى الديوان : ينشد مديح . (٨) فى الديوان : يكن لك أهجى كلما كان أمدحا .
(٩) فى الديوان : ملق ، والكلاكل : الصدور . (١٠) فى الديوان : حميت .
(١١) فى الديوان : لأزوادى . (١٢) الضحضح : الماء القليل يكون فى الغدير وغيره، وفى الديوان: صحصحا ، والصحصح: الأرض الجرداء ذات حصى صغار . (١٣) فى الديوان: أوراد.

فيالَكَ بَحْرًا لم أَجِدْ فيه مَشْرَباً ... وإنْ كان غيرى واجداً فيه مَسْبَحا
مَديحى عصا مُوسى وذلكَ أنني ... ضَرَبْتُ به بَحْرَ النَّدَى فتَضَحْضَحا
سأَمْدَحُ بعضَ الباخِلينَ لَعلّهُ ... إذا اطّرَدَ المِقْيَاسُ أنْ يتَسَمَّحا
فياليْتَ شِعْرِى إن ضَرَبْتُ به الصَّفَا ... أيَبْعَثُ لى منهُ جَداوِلَ سُيَّحا
كتِلْكَ الّتى أبْدَتْ ثَرَى الأرض[1] يابساً ... وشَقَّتْ عُيُوناً فى الحِجَارة سُفَّحا
مَلَكْتَ فأَسْجِحْ يا أبَا الصَّقْرِ إنهُ ... إذا مَلَكَ الأحرارَ مِثْلُكَ أسْجَحا

وما ضرع إلى أحد هذه الضراعة، ولا فى طَوْقه هذا الاحتمال؛ وهذه الأبيات الأخيرة إنما ولّد أكثرها من قول أبى تمام الطائى لمحمد بن عبد الملك الزيات[2]:

فلو حاردَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقاحَها[3] ... ولكن حرمتَ الدَّرَّ والضَّرْعُ حافِلُ
أكابِرَنا عَطْفاً علينا فإنّنا ... بنا ظَمأٌ بَرْحٌ وأنْتُم مَناهِلُ

وفيه يقول[4]:

هذا مقامى[5] يا بَنى وائلٍ ... من مستجيرٍ بكُمْ عائذِ
أنْشَبَ فيه الدهرُ أظفارَهُ ... وعَضّه بالنّاب والنّاجِذِ
فأنْصِفُوا منه أخَا حُرْمَةٍ ... لاذَ بكُمْ منه مع اللّائذِ
فما أرى الدهر على جَوْرِهِ[6] ... يَخْرُجُ مِنْ حكمكم النافذِ

وقال أيضاً:

يأيُّها السيد الذى وَهَنَتْ ... أنْصارُ أمْوالهِ ولم يَهُنِ
فأصْبحَتْ فى يَدِ الضَّعيفِ وذى الْ ... قُوَّة والبَاقِلى[7] واللّسِنِ
غيرى على أننى مؤملك الْ ... أقدم سائِلْ بذاك وامْتَحِنِ

---

(١) فى الديوان: ثرى البحر. (٢) ديوانه: ٢٥٩.
(٣) حاردت الإبل: انقطعت ألبانها أو قلت. والشائلة من الإبل: ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها، وجمعه شول. (٤) ديوانه: ٢٥٧.
(٥) فى الديوان: مقام. (٦) فى الديوان: على حكمه.
(٧) باقل: يضرب به المثل فى العى.

مادح عشرين حِجّـة كُمُلا ... محرومُها عنك غَيْرُ مُضْطَغِنِ
فضلك أوْ عَدْلُكَ الذى ائتمن الـ ... ـلّه عليهِ أَجَـلَّ مُؤْتَمَنِ
إن كُنْتُ فى الشعْرِ ناقدًا فَطِنا ... فلْتُعْطِنى حَقّ حِصَّةِ الفَطِنِ
وإنْ أكُنْ فيـه ساقطًا زَمِنًا ... فلْتُعْطِنى حقّ حِصَّةِ الزَّمِنِ
سمْ بىَ ديوانك الذى عدَلَتْ ... جَدْواه بين الصحيح والضَّمِنِ (١)
كَثِّرْ بشَخْصِى مَن استطعتَ من النـ ... ـناس فإن لم أزِنْكَ لم أَشِنِ
ماحقّ من لانَ صَدْرُه لكَ بالْـ ... ـودّ لقاؤُه بجـانبٍ خَشِنِ

وقال أبو العباس الرومى لرجل مدحه فى كلمة :

أبعْدَ لِقاىَ دونك كلّ قَفْرٍ ... يَدِق الشَّخْصُ فيـه أَنْ يُلاقَى
وإعمـالى إليك به المَطَايا ... وقد ضربَ الظَّلامُ له رِواقا
ورَفْضِى النَّومَ إلّا أَنْ ترانى ... أُعانِق واسط الكُورِ اعْتِناقَا
تسوق بنا الحُدَاة فليس تَدْرِى ... أشوقًا كان ذَلك أَمْ سِيَاقا
أُصادف دِرَّةَ المعروف شكْرَى (٢) ... لَدَيك ولا أذوق لهـا ذواقا

يقول فيها :

غَدا يَعْلُو الجيـاد وكانَ يَعْلُو ... ـ إذا ما استفرَه ـ السِّبْتَ الرِّقَاقَا (٣)
أَعِنَّتُها الشُّسُوعُ فإن عَراها ... حَفـاءُ الـكَدِّ أَنْعَلها طِراقا (٤)
فزَوِّج بَعْدَ فَقْرٍ منـه نعمى ... أرانى اللهُ صُبْحَتَهـا الطّلاقَا

[أبو العيناء وطرف من أخباره]

نسب أبى العيناء

قال أبو القاسم علىّ بن حمزة بن شمردل : حـدثنى أبى قال : سأَلتُ أبا العَيْناء

(١) الضمن ، على وزن كتف : المريض . (٢) شكرى : مملوءة .
(٣) استفره : طلب الفاره الفتى من الخيل وهو يستفره الأفراس : يستكرمها ، والسبت — بكسر السين : كل جلد مدبوغ . (٤) الطرق : كل خصيفة يخصف بها النعل .

عن نسبه فقال : أَنَا مُحمدُ بنُ القاسم بن خلّاد بن ياسر بن سليمان ، وأَصْـلُ قومى من بنى حنيفة من أَهْلِ اليمامة ، ولَحِقَهم سِباءٌ فى أيام المنصور ؛ فلمّا صار ياسر فى قَيْدِه أَعْتَقَه ، فولاؤُنا لبنى هَاشم ؛ وكان أبو العيناء ضَرِيرَ البَصَر ؛ ويقال : إنَّ جـدَّه الأكبر لقى عليّ بنَ أبى طالب رضى الله عنه فأَساءَ مُخاطَبَته ؛ فدعا عليـه وعلى ولده بالعَمَى ، فـكلٌّ من عمى منهم صحيحُ النسب !

أبو العيناء والمتوكل

قال الصولى : حدثنى أبو العيناء ، قال : لمـا أُدْخِلْتُ على المتوكِّل فدعوتُ له وكلَّمته استحسنَ كلامى ، وقال لى : بلغنى أنَّ فيكَ شرًّا ! فقلتُ : يا أَميرَ المؤمنين؛ إن يكن الشرُّ ذِكْرَ المحسنِ بإحسانه والمسىء بإساءته فقد زَكّى الله تعـالى وذَمّ ، فقال فى التزكية : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ . وقال فى الذم : ﴿ همَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ للخيرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .

وقال الشاعر[(١)] :

إذا أنا لم أَمْدَحْ[(٢)] على الخير أَهْلَهُ ولم أذمُمِ الجِبْس اللئيمَ المذمّما[(٣)]
ففيمَ عرفتُ الخيرَ والشرَّ باسْمِهِ وشقَّ لىَ اللهُ المسامعَ والفَمَا

وإن كان الشرُّ كفعل العَقْرَبِ التى تَلْسَعُ السَّنِىَّ والدنِىّ بطَبْعٍ لا بتمييز فقد صَانَ اللهُ عبدَكَ عن ذلك !

فقال لى : بلغنى أنك رَافِضىٌّ[(٤)] فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، وكيف أَكونُ رافضيًّا وبلدى البَصْرَة ومَنْشَئِى فى مَسْجِد جَامِعها ، وأُستاذِى الأَصْمَعى ، وليس يَخْلُو القومُ أَن يكونُوا أَرادُوا الدّين أو الدُّنيا ؛ فإن كانوا أَرادوا الدِّينَ فقد أجمع

---

(١) عيون الأخبار : ٣ — ١٧٩ ، واللآلى — ذيل : ٤٥ . (٢) فى عيون الأخبار : أشكر.
(٣) الجبس : هو الدنىء الجبان . (٤) الرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن على ثم قالوا له : تبرأ من الشيخين فأبى وقال : كانا وزيرى جدى ، فتركوه ورفضوه وارفضوا عنه ، والنسبة رافضى .

الناسُ على تقديم من أَخَّرُوا ، وتأخيرِ من قدَّموا ، وإن كانوا أرادوا الدنيا فأَنتَ وآباؤكَ أُمراءُ المؤمنين ، لا دِينَ إلاّ بك ، ولا دُنياَ إلاّ معك .

قال : كيف ترى دَارِى هذه ؟ قال قلت : رأيت الناس بَنَوْا دُورهم فى الدنيا ، وأنت بنيتَ الدنيا فى دارك . فقال لى : ما تقول فى عبيد الله بن يحيى ؟ قلت : نِعْمَ العَبْدُ لله ولك ؛ مُقَسَّمٌ بين طاعته وخدمتك ، يُؤْثِرُ رِضَاكَ على كلِّ فائدةٍ وما عاد بصلاحِ ملكك على كل لذَّةٍ ، قال : فما تَقولُ فى صاحب البريد ميمون بن إبراهيم ؟ وكان قد علم أَنّى واجِدٌ عليه بتقصير وقَعَ منه فى أَمْرِى . فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، يدٌ تَسْرِق واستٌ تضرط ! وهو مثل اليهودىّ سرق نصف جِزْيَته ، فَلَهُ إقدامٌ بما أَدَّى ، وإحجام بما أَبْقَى ، إساءتُه طبيعة ، وإحسانه تكلّف !

قال : قد أَرَدْتُك لمجالستى . قلت : لا أُطيق ذاك ، وما أقولُ ذلك جهلًا بمالى فى هذا المجلس من الشرَفِ ، ولكنى محجوب ، والمحجوبُ تختلِفُ عليه الإشارَة ، ويَخْفَى عليه الإيماء ، ويجوز أن يتكلّم بكلام غَضْبَان ووَجْهُك رَاضٍ ، أو بكلام راضٍ ووَجْهُك غضبان ، ومتى لم أُمَيِّز بين هذين هلكت . قال : صدقت ، ولكن تلزمنا . قلت : لزومَ الفَرْضِ الواجبِ اللازم . فوصَلَنِى بعشرة آلاف درهم .

مجالسه مع المتوكل

ولأبى العيناء مع المتوكّل مجالسُ أدْخل الرُّوَاة بَعْضَهَا فى بَعْضٍ ، وسأُورد مستظرفها إن شاء الله :

قال له المتوكل يوماً : يا أبا العَيْناء ؛ لا تُكْثِرِ الوقيعةَ فى الناس ، قال : إنَّ لى فى بَصَرِى (١) لشُغْلًا عن الوقيعة فيهم. قال : ذلك أشَدُّ لحيفك فى أهلِ العافية !

وقال له يوماً : هل رأيتَ طالبيا حَسنَ الوَجْهِ قطّ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت أحداً قطّ سأل ضريراً عن هذا ؟ قال : لم تكن ضريراً فيما تقدّم ، وإنما سألتك عمّا سلف . قال : نعم ، رأيتُ منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتًى ما رأيت

(١) كان أعمى .

أجْمَل منه . قال المتوكّل : تَجِدُه كانَ مؤاجراً (١) ، وتَجِدُكَ كنت قوّاداً عليه !
فقال أبو العيناء : وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين ، أترانى أدعُ مَوَالِيّ على كَثْرَتِهم ،
وأقُودُ على الغُرَبَاء ؟ قال : اسكت يامَأْبون ؟ قال : مَوْلَى القوم منهم ! قال المتوكل :
أردتُ أن أشْتفى به منهم فاشْتَفَى لهم منّى .

وكان أبو العيناء أَحدّ الناسِ خاطراً ، وأحْضَرَهم نادرة ، وأسْرعَهم جواباً ،
وأبلغهم خطاباً .

والمتوكلُ أوّلُ من أظْهرَ من خلفاء بنى العباس الانهماكَ على شَهْوَته ، وكان
أصحابه يتسخَّفون (٢) ويستخفُّون بحَضْرَتِه وكان يُهَاتِرُ الجلساء ، ويُفَاخِرُ الرؤساء ،
وهو مع ذلك من قلوب الناس مُحَبَّب ، وإليهم مُقَرَّب ؛ إذْ أماتَ ما أحياهُ الواثق
من إظهار الاعتزالِ ، وإقامة سوق الجِدَالِ .

كتابته

قال محمد بن مكرم الكاتب : من زَعم أنّ عبدَ الحميد أكْتَبُ من أبى العيناء
إذا أحسَّ بِكرم ، أوشرع فى طمع ، فقد ظلم . كتب إلى أبى عبيد الله بن سليمان وقد
نكبه وأباه المعتمدُ ، وهما يُطَالَبان بمالٍ يبيعانِ له ما يَمْلِكانِه من عَقَار وأثَاثٍ
وعَبْدٍ وأمَة ، وقد أعطى بخادم أسْوَد لعبيد الله خمسون (٣) دينارا :

قد علمت أصْلَحك اللهُ أن الكريمَ المنكوب أجْرَى (٤) على الأحرار من اللئيم
الموفور ، لأنّ اللئيمَ يزيدُ مع النّعْمةِ لُؤْما ، والكريم لايزيدُ مع المِحْنَةِ إلاّ كرَما ،
هذا مُتّكِلٌ على رازقه ، وهذا يُسِىء الظنّ بخالقه ، وعبدك إلى مِلك «كافور»
فقيرٌ ، وثمنه على مااتّصلَ بى يَسير؛ لأنه بخدمته السلطان يعرّفنى الرؤساء والإخوان؛
ولستُ بواجدٍ ذلك فى غيره من الغلمان ؛ فإنْ سمحت به فتلك عادَتُك ، وإنْ أمرت
بأَخْذِ ثمنه فَمالُكَ مادّتى ، أدام اللهُ دَوْلَتَك، واستقبل بالنعمة نَكْبَتَك. فأَمَرَ لَهُ به .

---

(١) لعله من آجرت المرأة : أباحت نفسها بأجر . (٢) رجل سخيف : نزق خفيف .
(٣) هكذا بكل الأصول . (٤) فى س : أجدى .

وسمع ابن مكرم رجلا يقول : من ذهب بَصَرُه قلّت حيلته . قال : ما أَغْفَلَكَ عن أبي العَيْناء !

وكتب أبو العيناء إلى عبيدالله بن سليمان: أنا ـ أعزّك الله تعالى ـ ووَلَدِي وعيالي زَرْعٌ من زَرعِك ، إن سقيتَه راعَ وزَكا[1] ، وإن جفوْتَه ذَبُل وذَوَى ؛ وقد مسّني مِنْكَ جَفَاءٌ بعد برّ ، وإغفالٌ بعد تعاهُد ، حتى تكلَّمَ عدوّ ، وشَمِت حاسِد ، ولعبت بي ظنونُ رجالٍ كُنْت بهم لاعباً ، ولهم مجرِّساً[2] ، ولله در أبي الأسود في قوله :

لا تُهِنِّي بعد إذ أكْرَمْتَني　　　وشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

فوقّع في رقعته : أنَا أَسعدك الله على الحال التي عَهِدْتَ ، ومَيْلي إليك كما علمت ، وليس من أنْسَأْنَاه أهْمَلْناه ، ولا من أخَّرْنَاه تركْناه ، مع اقتطاع الشغْلِ لنا، واقتسام زماننا . وكان من حقِّكَ علينا أن تذكِّرَنا بنفسك ، وتعلمنا أمْرَك ؛ وقد وقّعت لك برزْقِ شَهْرين ؛ لتريح غلّتك ، وتعرفني مبلغَ استحقاقك ، لِأُطْلِقَ لك باقيَ أرزاقك، إنْ شاء الله ، والسلام .

وكان إذا خرج من داره يقول : اللهم إنّي أَعوذُ بك من الرَّكْبِ والرُّكُب[3] ، والآجرّ والخَشَب ، والزّوَايا والقِرَب .

من خطابه وجوابه

قطعة من خطابه وجوابه :

دخل على أَبي الصقر بعدما تأخَّرَ عنه ، فقال : ما أَخَّرَكَ عنا؟ قال : سُرِق حماري. قال : وكيف سُرِق ؟ قال : لم أكُنْ مع اللص فأُخبرك ! قال : فلِمَ لم تأْتِنا على غَيْرِه ؟ قال : قعد بي عن الشراء قِلَّةُ يَساري ، وكرهتُ ذِلَّةَ المُكارِي ، ومِنّةَ العَوَارِي .

وزحمه رجل بالجسر على حِمَاره فضرب بيديه على أُذُنَي الحمار ، وقال : يا فتى ؛ قُلْ للحمارِ الذى فوْقَك يقول : الطَّريق !

---

(١) راع : أعجب .　　(٢) التجريس بالقوم : التسميع بهم .

(٣) الركب (الأولى) : راكبو الدواب ، والركب (الثانية) : من قولهم طريق ركوب مذلل والجمع ركب .

ودخل على إبراهيم بن المدبر وعنده الفَضْلُ بن اليزيدى وهو يُلْقِى على ابنه مسائل من النَّحو . فقال : فى أىّ باب هـذا ؟ قال : فى باب الفاعل والمفعول به . قال : هذا بابى وباب الوالدة حفظها الله ! فغضب الفَضْلُ وانصرف ؛ وكان البحترىّ حاضراً فكتب بعد ذلك بقصيدته إلى إبراهيم بن المدبّر التى أولها[1] :

ذكّرتنيك روحةٌ للشّمولِ　　　أَوْقَدَتْ لَوْعَتى وهَاجَتْ غَلِيلى

أى شىء ألهاك عن سر من را　　　ءَ وظلٌّ للعيش فيها ظَلِيل[2]

وفيها يقول[3] :

أقتصاراً على أَحاديثِ فَضْلٍ　　　وهو مستكرَهٌ كثيرُ الفضولِ

فعلام اصطفيت مُنْكَسِفَ البا　　　ل[4] مُعادَ المِخْراقِ نَزْرِ القَبول

إن تَزُرْه[5] تَجِدْه أخْلق من شَيْـ　　　ـبِ الغَوانى ومِنْ تَعَفِّى الطُّلولِ

مسرجاً ملجماً[6] ومامتّع[7] الصُّبْـ　　　ـح ادّلاجاً للشَّحْذِ والتَّطْفيلِ[8]

غَـيْرَ أنَّ المعلمين على حَا　　　لٍ قليلو التميز ضَعْفَى العُقُولِ

فإذا ما تَذاكَرَ النَّاسُ معنى　　　مِنْ متين[9] الأشعار والمجهول[10]

قال : هـذا لَنَا ونحن كشفنا　　　غَيْبَه للسّؤال[11] والمسئول

ضرب الأَصمعى فيهم أَم الأَحْـ　　　ـمر أم ألقحوا[12] بأيرِ الخَلِيل

جُلّ ما عنده التردد[13] فى الفا　　　علِ مِنْ وَالِدَيْهِ وَالْمَفْعُولِ

---

(١) ديوانه : ٢ ـ ٢٠٤ . (٢) سر من راء : هى مدينة سر من رأى .

(٣) ديوانه : ٢ ـ ٢٠٤ . (٤) فى الديوان : منكشف الزيف . (٥) فى س : ترده .

(٦) فى الديوان : رائح مغتد . (٧) متع النهار : ارتفع ، ومتع الضحى : بلغ آخر غايته.

(٨) الطفيلى : الذى يأتى الولائم بلا دعوة ، وقد طفل وتطفل . الشحذ : الإلحاح فى السؤال.

(٩) فى س : مبين . (١٠) فى الديوان :

وإذا ما تنازع النـاس معنى　　　من مبين الفرقان أو مجهول

(١١) فى الديوان : ونحن فتقنا عيبه للسئول . (١٢) فى الديوان : أم لقحوا .

(١٣) فى الديوان : التعمق .

وعَزَّى بَعْضَ الأمراء ، فقال : أيُّها الأمير ؛ كان العزاءُ لك لا بك ، والفناءُ لنا لا لك ، وإذا كُنتَ البقيّةَ فالرزيّةُ عطية ، والتعزيةُ تَهْنية .

وسئل أبو العيناء عن مالك بن طوق ، فقال : لو كان فى زَمَنِ بنى إسرائيل ونَزَل ذَبحُ البقرةِ ماذُبحَ غيره ! قيل: فأخوه عمر؟ قال: كَسَرابٍ بِقيعةٍ يَحْسَبُه الظَّمْآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لم يَجِدْهُ شيئا .

وكان موسى بن عبد الملك قد اغتال نجاح بن سلمة فى شرابٍ شَرِبه عنده ، فقال المتوكّلُ بعد ذلك لأَبى العيناء : ما تقول فى نجاح بن سلمة ؟ قال : ما قال الله تعالى : فوكَزَه موسَى فقَضَى عليه ! فاتَّصَل ذلك بموسى ، فلقى الوزير عُبيد الله بن يحيى ابن خاقان ، فقال : أيّها الوزير ، أرَدْتَ قَتْلِى فلم تَجِدْ إلى ذلك سبيلا إلاّ بإدخال أبى العيناء إلى أمير المؤمنين مع عَدَاوتِه لى ؛ فعاتب عبيدُ الله أبَا العيناء فى ذلك ، فقال : والله ما استَعْذَبْتُ الوقيعةَ فيه حتى ذَمَمْتُ سريرته لك ؛ فأَمْسَك عنه .

ثم دخل بَعْدَ ذلك أبو العَيْنَاء على المتوكل فقال : كيف كُنتَ بعد ؟ قال : فى أَحوالٍ مختلفة ، خَيْرُها رُؤْيتك وشرُّها غَيْبَتُك . فقال : قد واللهِ اشْتَقْتُكَ ! قال : إنما يَشْتَاقُ العَبْدُ ، لأنه يتعذّرُ عليه لقاءُ مولاه ، وأما السيّدُ فمتى أَرادَ عَبْدَه دعاه .

وقال له المتوكل : مَنْ أَسْخَى مَنْ رأيت ؟ قال : ابنُ أبى دواد . قال المتوكّل : تأتى إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء ؟ قال : إنّ الصدقَ يا أميرَ المؤمنين ليس فى موضعٍ من المواضع أنْفَق منه فى مجلسك ؛ وإنّ الناس يغلطون فيمن يَنْسبونه إلى الجود ؛ لأَنّ سخاءَ البرامكة منسوبٌ إلى الرشيد ، وسخاءَ الفضل والحسن ابنى سهل منسوبٌ إلى المأمون ، وجودُ ابن أبى دُواد منسوبٌ إلى المعتصم . فإذا نَسب الناسُ الفَتْحَ وعبيد الله ابنى يحيى إلى السخاء فذلك سَخَاؤُك يا أَميرَ المؤمنين . قال : صدقت ؛ فمن أبخَلُ من رأيت ؟ قال : موسى بن عبد الملك . قال : وما رأيتَ من بُخْله ؟ قال : رأيته يحْدم القريب كما يحْدم البعيد ، ويَعْتَذِر من الإحسان كما يعتذِرُ من

الإساءة . فقال له : قدوَقَعْتَ فيه عندى مرتين، وماأحبّ لك ذلك؛ فالْقَهُ واعتذر إليه، ولا يعلم أنّى وجهت بك . قال : يا أمير المؤمنين ، من يستكتمنى بحضرة ألف؟قال : لن تخاف . قال : على الاحتراس من الخوف .

فصار إلى موسى فاعتذر كلٌّ واحد منهما إلى صاحبه ، وافترقا عن صلح ؛ فلقيه بعدذلك بالجعفرى فقال : ياأبا عبدالله ؛ قد اصطلحنا، فمالك لا تأتينا ؟ قال : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفْسًا بالأمس ؟ فقال موسى : ما أرانا إلا كما كُنا .

وقال له المتوكل : إبراهيم بن نوح النصرانى وَاجِدٌ عليك . قال : ولن ترْضَى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتَّبع ملتهم ! قال : إن جماعة من الكتاب يلومونك فقال :

إذا رضِيَتْ عَنّى كِرَامُ عشيرتى فلا زال غَضْبَانًا علىّ لِئَامها

قال المتوكل له : أكان أبوك فى البلاغة مِثْلك ؟ قال : لورأى أمير المؤمنين أبى لرأى عَبْدًا له لايرْضَانى عبداً له .

وقيل لأبى العيناء : إنّ المتوكل قال : لولا أنه ضرير البصر لنَادَمْتُه ، فقال : إن أعْفانى من رُؤْية الأهلّة ، وقراءة نَقْشِ الفصوص ، فأنا أصْلُح للمنادمة .

ولقيه رجلٌ من إخوانه فى السَّحَر ، فجعل يعجب من بُكوره ، فقال : أراك تشاركنى فى الفعل وتُفْرِدُنى بالتعجّب !

ووقف به رجلٌ من العامّة فأحسّ به ، فقال : مَنْ هَذا ؟ قال : رجل من بنى آدم ! قال : مرحباً بك ، أطال الله بقاك ، وبقيت فى الدنيا ، ما ظننتُ هذا النَّسْل إلاّ قد انقطع .

ودخل على عبيدالله بن سليمان فقال : اقْرُبْ منّى يا أبا عبد الله . فقال : أعزّ الله الوزير ، تقريبُ الأولياء ، وحِرْمَان الأعداء . قال . تقريبُك غنم ، وحِرْمانك ظُلْم ؛ وأنا ناظرٌ فى أمرك نظراً يُصْلِحُ مِنْ حالك إن شاء الله .

وقال له يوماً : اعذرنى فإنّى مشغول . فقال له : إذا فرغت من شغلك لم نحتَجْ إليك ، وأنشده :

فـلا تَعْتَذِرْ بالشّغْلِ عنّا فإنّما تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتّصلَ الشُّغْلُ

ثم قال: يا سيّدى قد عذرتك ، فإنه لا يَصْلُحُ لشُكْرِك مَنْ لا يَصْلُحُ لعُذْرِك.

وأقبل إليه يوما فقال : مِنْ أين يا أبا عبدِ الله ؟ قال : من مَطَارِحِ الجَفَاء !

وقال له مرة : نحن فى العطلة مَرْحُومُون ، وفى الوزارة محرومون ، وفى القيامةِ كلُّ نَفْسٍ بما كسبَتْ رَهِينة .

وسار يوماً إلى باب صاعد بن مخلد فقيل : هو مشغولٌ يُصَلِّى ، قال : لكلّ جديدٍ لذَّةٌ ! وكان صاعدٌ نصرانيا قبل الوزارة .

ودخل إلى عبيد الله بن سليمان فشكا إليـه حالَه ، فقال : أليْسَ قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبّر ؟ فقال : كتبتَ إلى رجلٍ قد قصَّرَ من همّتِه طولُ الفقْر ، وذُلُّ الأَسْر ، ومعاناةُ مِحَنِ الدَّهْرِ ، فأخفقته فى طَلِبَتى ! قال : أنْتَ اخْتَرتَه ؟ قال : وما علىّ أعزَّ اللهُ الوزير فى ذلك ؟ قد اختار موسى قومه سَبْعين رجلا ، فما كان منهم رَشيد ، واختار النبىُّ صلى الله عليه وسلم ابنَ أبى سرح كاتباً ، فرجع إلى المشركين مرتدًّا ، واختار علىُّ بن أبى طالب أبا موسى حاكما له فحَكَمَ عليه !

[البحترى يمدح إبراهيم بن المدبر]

وكان إبراهيمُ بن المدبر أَسَرَهُ صاحبُ الزّنج بالبصْرَة وحبَسه ؛ فاحتال حتى نقب السِّجْن وهرَب ، فلذلك ذكر أبو العيناء ذُلَّ الأَسْر ، وكان قد ضُرِبَ فى وجهه ضَرْبةً بَقِى أثرها إلى أنْ مات . ولذلك قال البحترى(١) :

ومُبِينَة شهرَ المُنازِلُ وسْمَها والخيلُ تَكْبُو فى العَجاجِ الْكابى
كانت بوجهك دون عِرْضِك إذ رَأَوْا أنَّ الوُجوهَ تُصانُ بالأحْسابِ

---

(١) ديوانه : ١ ـ ١٥ .

ولئن أُسِرت فما الإسارُ على امرئٍ ... نَصَرَ الإسارَ على الفرارِ بعابِ[1]
نامَ المضلّل عن سُراكَ ولم تَخَفْ ... عَيْنَ الرقيب[2] وقَسْوَةَ البوّابِ
فركبتها هَوْلاً متى تُخْبِرْ بها ... يَقُلِ الجَبانُ أتيت غَيْرَ صَوابِ
ما راعَهُمْ إلا استراقك[3] مُصْلَتاً ... فى مِثْلِ بُرد الأَرْقَمِ المُنْساب[4]
تَحْمِى أُغَيْلِمةً وطائشة الخطى ... تصل التلفّت[5] خَشْيَةَ الطلّاب
قد كان يوم ندى بطَوْلك باهراً[6] ... حتى أَضفْت إليه يَوْمَ ضِراب[7]
ذِكْرٌ من البأس استعذت[8] إلى الذى ... أُعْطِيت فى الأَخلاقِ والآدابِ
ووحيدة أنتَ انفَرَدْتَ بفضلِها[9] ... لولاكَ ما كُتِبت على الكُتّاب

[صاحب الزنج]

قال أبو بكر الصولى : حدثنى محمد بن أبى الأزهر ، وقد ذاكرتُه خبرَ علىّ صاحب الزنج قال: ادّعى أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين ابن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فنظرتُ مولده ومولد محمد بن أحمد الذى ادّعاه فكان بينهما ثلاث سنين . وكان لمحمد بن أحمد ولدٌ اسمه علىّ مات بعد هذا المدّعى اسمَه ونسبَه بزَمانٍ. ثم رجع عن هذا النسب فادّعى أنه على بن محمد بن عبد الرحيم[10] ابن رحيب بن يحيى المقتول بخُراسان ابن زيد بن على .

قال أبو عبيدة محمد بن على بن حمزة : ولم يكن ليحيى وَلَد يقال له رحيب ولا غيره؛ لأنه قُتِل ابن ثمانى عشرة سنة ولا وَلَدَ له .

---

(١) العاب : العيب . (٢) فى الديوان: سنة الرقيب ونشوة.
(٣) فى الديوان : امتشاقك . (٤) المصلت: السيف ، والأرقم : الحية .
(٥) فى ق : التقلب . (٦) فى الديوان : راهنا. (٧) الضراب : الطعان .
(٨) فى الديوان : ذكرت من البأس استعرت ، وفى س : استعدت . (٩) فى الديوان : وفريضة أنت استننت . (١٠) فى س : عبد الرحمن .

قال بشر بن محمد بن السرى بن عبد الرحمن بن رحيب : هو ابن عم أبى اَحَّا[1] على بن محمد بن عبد الرحمن بن رحيب ، ورحيب رجل من العجم من أهل وَرَتِين من ضياع الرىّ ، وهو القائل لبنى العباس :

بنى عمنا إنّا وأنتم أناملٌ　　تضمنها من راحتَيْها عُقُودُها
بنى عمِّنا وَلَّيتم الترك أمْرَنا　　ونحن قديماً أصلُها وعمودُها
فما بالُ عُجْم التُّرْكِ تقسم فَيْئَنَا　　ونحن لديها فى البلادِ شُهُودُها
فأُقْسم لاذُقْت القَراح وإنْ أذُقْ　　فَبُلْغَةُ عَيْشٍ أو يُبَاد عميدُها

وقال أيضاً :

لهف نفسى على قصورٍ ببغدا　　دَ وما قد حَوَتْهُ مِنْ كلِّ عاصِ
وخمورٍ هُناك تُشْرَبُ جَهْرًا　　ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ بابْنِ الفواطِم الزُّهْرِ إنْ لم　　أُقْحِم الخَيْلَ بين تِلْكَ العِراصِ

وله فى هذا المعنى شعرٌ كثير قد ناقضه البغداديون ، وكانت مدَّتُه حين نَجَم[2] إلى أنْ قتل أربع عشرة سنة ، وجملةُ من قتل ألف ألف وخمسمائة ألف .

[رجع إلى حديث أبى العيناء]

وذكر أبو العيناء رجلا فقال : ضَحِكٌ كالبكاء ، وتودّد كالعزاء ، ونوادر كنَدْب الموتى !

وكان يهاتر ابن مكرم كثيراً ، وكتب إليه ابنُ مكرم يوماً : قد ابْتَعْتُ لك غلاماً من بنى ناشر ، ثم من بنى نَاعِط ، ثم من بنى نَهْد . فكتب إليه : فأْتِنا بما تَعِدُنا إن كُنْتَ من الصادقين .

ووُلد لأبى العيناء وَلد[3] فأتى ابنُ مكرم فسلم عليه ، ووضع حجراً بين يديه وانصرف،

---

(١) أى لاصق النسب .　　(٢) نجم : ظهر ونشأ .　　(٣) فى س : مولود .

فأحسّ به فقال : مَنْ وضع هذا ؟ فقيل : ابن مكرم ، قال : لعنه الله! إنما عرّض بقول النبي صلى الله عليه وسلم : الولَدُ للفراش وللعاهر الحجر . وقال لابن مكرم وقد قدم من سفر : مالك لم تُهْدِ إلينا هدية ؟ قال : لم آتِ بشيء وإنما قدمت فى خف . قال : لو قدمت فى خف لخلفْتَ رُوحك !

وأتى إلى باب إبراهيم بن رياح فحُجب فقال : إذا شغل بكأس يمناه ، وبحر يُسْراه ، وانتسب إلى أبٍ لا يعرف أباه ، لا يَحْفِل بحجاب من أتاه .

وقدّم إليه أبو عيسى بن المتوكل سِكْباجة ، فجعل لا تقعُ يده إلا على عظم ؛ فقال : جعلت فِدَاك! هذه قِدر أو قبر .

ودعا ضريراً ليعشيه فلم يَدَعْ شيئاً إلاّ أكله ، فقال : يا هذا ، دعوتك رحمةً فتركتنى رحمة .

ألفاظ لأهل العصر فى صفات الطعام ومقدماته وموائده وآلاته

افرشْ طعامَك اسم الله ، والْحِفْه حمدَ الله . لا يَطِيبُ حضور الخِوان إلّا مع الإخوان. البُخْلُ بالطّعَام من أخلاق الطَّغام (١) . الكريم لا يحْظر تقديمَ ما يَحْضُر ؛ قد قامت خطباء القدور . قدورٌ أبكار ، بخواتم النّار . قدْرٌ طار عَرْفُها ، وطاب غَرْفُها . دَهْمَاء تَهْدِرُ كالفَنيق (٢) ، وتَفُوحُ كالمِسْك الفتيق . مائدة كدَارَة البَدْر ، تباعد بين أنفاس الجلاّس . مائدة مثلُ عروس . مائدة لطيفة ، محفوفةٌ بكل طريفة. مائدة تشتمل على بدائع المأكولات ، وغرائب الطيّبات . مائدةٌ كأنما عملها صُنّاع صنعاء ، تجمع بين أنوار الربيع ، وثِمَارِ الخريف .

وقال الجماز : جاءنا فلان بمائدةٍ كأنّها زَمَنُ البرامكة على العُفَاة !

وذَمَّ آخر رجلا فقال : لا يَحْضُرُ مائدتَه إلا أكرمُ الخَلْق والأمهم — يريد الملائكة والذباب .

---

(١) الطغام : أوغاد الناس .

(٢) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

وقال ابن الحجاج لرجل دعاه وأخَّر الطعام :

قد جُنَّ أصحابُك من جُوعِهِم ... فاقرأ عليهم سورةَ المائِدَه

ولبعض أهل العصر يذم رجلا :

خِوَانٌ لا يُلِمُّ به ضُيوفٌ ... وعِرْضٌ مثل مِنْدِيلِ الخِوَانِ

رغفان كالبدور المنطقة بالنّجوم . حَمَلٌ ذهبيّ الدّثار ، فِضيُّ الشعار . أطْيَبُ ما يكون الحَمَلُ ، إذا حلّت الشمس الحَمَل (١) . جَدْى كأنما نُدِف على جَبينه القزّ. زِيْرباجة هى للمائدة دِيباجة ، تَشْفِى السّقام ، ولونها لونُ السقيم . سِكْبَاجة تفتقُ الشهوة ، واسفيذباجة تغذّى (٢) القوم ، وطَباهِجَة (٣) يتفكّه بها ، وخَبِيص (٤) يختم بخير . طَبَاهِجة من شرط الملوك ، كأعْرَافِ الديوك ، وقليّة كالعود المُطرَّى . مغمومة تفرج غَمَّ الجائع . هريسة نَفيسة، كأنها خيوط قزّ مشتبكة، كأن المُرِّى (٥) عليها عُصارَةُ المسك على سبيكة الفضة . أرزة مَلْبونة ، فى السكر مدفونة . شواء رشراش (٦) ، وفالوذج رَجْرَاج . طَبَاهِجة تغذى، وفالوذجة تعزى ، واسفيذباجة تصفع قفَا الجوع . لا فِرَاشَ للنبيذ ، كالحَمَل الحَنِيذ (٧) . دجاجة سميطة (٨) ، لها من الفضة جسم ، ومن الذهب قشرة . دجاجة دِينارِيّة ثمنا ولونا .

وهـذا محلول من قول على بن العباس الرومى يصف طعاماً أكله عند أبى بكر الباقطانى (٩) :

وسَمِيطة صفراء (١٠) دينارية ... ثمناً ولَوْناً زَفَّها لَك حَزْوَرُ (١١)

---

(١) الحمل : برج فى السماء . (٢) فى ط : تغزو القرم . (٣) الطباهجة : اللحم المشرح . (٤) الخبيص : المعمول من التمر والسمن . (٥) المرى بوزن درى : أدام كالـكامخ (هامش ق ، س) . (٦) الرشراش : السمين من الشواء .

(٧) حنذ الشاة : شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ .

(٨) من سمط الجدى : نتف صوفه بالماء الحار . (٩) ديوانه ٤٧٨ .

(١٠) فى الديوان : وخبيصة بيضاء . (١١) الحزور : الغلام إذا اشتد وقوى وخدم .

عظمت فكادَتْ أن تكونَ أوِزَّةً — وغلت [١] فكاد إهَابُها يتفطّرُ
طفقت تجودُ بِدَوْبِها جَوْذَابَة — فأتى [٢] لباب اللَّوز فيها السكرُ
ظلنا نقشّر جِلْدَها عن لحمها — فكأنّ تبرًا عن لُجَيْن يُقشرُ
وتقدّمتْهَا قبل ذاك ثرائدٌ — مثلُ الرِّياض بمثل [٣] ذاك تصدّرُ
ومرققات كلّهنّ مزخرفٌ — بالبيض منها مُلْبَس ومُدَثَّرُ
وأَتَتْ قطائف بَعْدَ ذاك لطائفٌ — تَرْضَى اللّهاةُ بها ويَرْضى الحَنْجَرُ
ضحك الوجوه من الطبرزد فوقها — دمع العيان مِنَ الدّهان يُعَصَّرُ [٤]

المقامة البغدادية فى وصف الطعام

قال البديع : حدثنى عيسى بن هشام [٥] قال : اشْتَهَيْتُ الأَزَاذَ ، وأنا ببَغْدَاذَ [٦] ، وليس مَعِى عَقْد عَلَى نَقْد [٧] ، فخرجتُ أَنْتَهِزُ محالَّه ، حتى أَحَلَّنِى الكَرْخ [٨] ؛ فإذا أنا بسَوَادِىٍّ يَحْدُو [٩] بالْجَهْدِ حماره ، ويُطَرِّفُ بالعَقْدِ إزاره [١٠] ؛ فقلتُ : ظَفِرْنَا والله بصَيْدٍ ، وحَيَّاكَ اللهُ أبا زَيْد ! مِنْ أيْنَ أقبلتَ ، وأينَ نزلتَ ، ومتى وافيتَ ، فهَلُمَّ إلى البيتِ . فقال السَّوَادِى : لستُ بأبي زَيْد ، وإنما [١١] أنا أبُو عبيد ! فقلتُ : نعم لعَنَ اللهُ الشيطانَ ، وأبْعَدَ النِّسيانَ ، أنْسَانِى طُولُ الْعَهْدِ بِكَ [١٢] ، كَيْفَ أبُوكَ ، أشابٌّ كَعَهْدِى أمْ شَابَ بَعْدِى ؟ قَالَ : قد نَبَتَ الرَّعْى [١٣] على دِمْنَتِه ، وأرْجو أن يُصيِّرَه اللهُ إلى جَنَّتِه [١٤] ، فقُلْتُ : إنّا للهِ [١٥]

---

(١) فى الديوان : وثوت . (٢) فى الديوان : فإذا . (٣) فى الديوان : بمثلهن.
(٤) ليس هذا البيت فى الديوان المطبوع . (٥) المقامات : ٦٦ . (٦) الأزاذ : من أجود أنواع التمر ، وبغداذ : هى بغداد . (٧) ليس معى عقد على نقد : أى ليس معى نقود يعقد عليها الكيس والثوب . (٨) الكرخ : فى الجانب الغربى من بغداد .
(٩) فى المقامات : يسوق . (١٠) السوادى : الرجل من قرى العراق . يطرف بالعقد إزاره : أى يرد أحد طرفيه إلى الآخر . (١١) فى المقامات : ولكنى .
(١٢) فى المقامات: أنسانيك طول العهد واتصال البعد ، فكيف حال أبيك. (١٣) فى المقامات: الربيع . (١٤) الدمنة : آثار الديار ، ولا ينبت الربيع على الدمنة إلا حين يبعد عهدها بالخراب ، يريد أن أباه مات منذ زمن طويل . (١٥) فى المقامات: إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ...

ولا قوةَ إلا بالله ، ومددت يدَ البِدار ، إلى الصِّدَار (١) أريد تمزيقه ، وأُحاول تخريقه؛ فقبض السواديّ على خَصْرى بجُمْعه(٢)؛ وقال : نَشَدْتُكَ بالله لا مزَّقْتَه ، فقلت : فهلم إلى البيت نُصِبْ غداء ، أو إلى السوق نشترى شِوَاءً ؛ والسوقُ أقربُ ، وطعامه أطيب ، فاستفزّته حُمَةُ القَرَم(٣) ، وعطفَتْه عطفة النَّهم(٤) وطَمِع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شوَّاءً يتقاطرُ شِوَاؤُه عَرَقاً ، ويتسايل جُوذَابُه مرقاً (٥) ، فقلت : أبرز (٦) لأبى زيد من هذا الشّواء ، ثم زِن له من تلك الحَلْوَاء ، واختر من تلك الأطباق ، ونضّد عليها أوراقَ الرقاق، وشيئا من ماء السُّمَّاق(٧)؛ ليأْكلَه أبو زيد هنيا . فأنحى الشَّوَّاء بساطُوره ، على زُبْدَة تَنُّورِه ، فجعلها كالكحل سَحْقاً ، وكالطحين دَقّا ، ثم جلس وجلست ، ولا نبَس ولا نبست ، حتى استوفيناه ، وقلت لصاحب الحلواء: زِنْ لأبى زيد من اللُّوزِينج رطلين(٨) ، فإنه أجرى فى الحلوق ، وأسْرَى فى العروق ، وليكن ليليَّ العُمْر، يومىَّ النَّشْر(٩) ، رقيق القِشْر ، كثيف الحَشْو ، لؤلؤىّ الدهن، كوكبى اللون ، يذوب كالصَّمْغ ، قبل المَضْغ ، ليأْكُلَه أبو زيد هنيّا . فوزنه ، ثم قعد وقعدتُ ، وجرَّدَ وجرّدت (١٠) ، واستوفيناه ، ثم قلت . يا أبا زيد ، ما أحوجنا إلى ماء يُشَعْشَع بالثلج ، ليقمَع هذه الصَّارة(١١) ، ويَفْثَأ هذه اللُّقَم الحارة(١٢)؛ اجلسْ أبا زيد حتى آتيك بسقّاء ، يحيينا بشَرْبَة من ماء ، ثم خرجت ، وجلست بحيث

(١) البدار : المسارعة ، والصدار : ثوب يلى البدن . (٢) جمع الكف ، بضم الجيم: قبضته. (٣) استفزته : استهوته . الحمة : إبرة العقرب التى تلسع بها، والمراد الشدة ، والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم . (٤) فى المقامات : اللقم : وهو السرعة فى الأكل .

(٥) الجوذاب: خبز يوضع فى التنور ومعه طائر أولحم، وفى المقامات : جوذاباته .

(٦) فى المقامات : افرز . (٧) السماق : حب أحمر صغير ، وفى المقامات : ورش عليه شيئا من ماء السماق . (٨) اللوزينج : نوع من الحلواء يصنع من نوع من الخبز ويسقى بدهن اللوز ، ويحشى بالنقل . (٩) ليلى العمر : صنع من ليلته ، ويومى النشر : ظهر نهارا.

(١٠) جرد وجردت : يريد أن كلا منهما شمر عن ساعده استعدادا للمائدة .

(١١) الصارة : شدة العطش . (١٢) يفثأ : يسكن .

أراه ولا يرانى ، أنظر ما يُصنع به . فلما أبطأتُ عليه قام السوادىّ إلى حماره ، فاعتلق الشَّوّاء بإزاره . وقال : أين ثمنُ ما أكلتَ ؟ قال : ما أكلتُه إلا ضيفا ! قال الشَّوّاء : هاكَ وآكَ[1] ، متى دعوناك ؟ زِن يا أخا القحبة[2] عشرين ، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادىّ يبكى ويمسح دموعه بأردانه ، ويحُلّ عقدَهُ بأسنانه، ويقول : كم قلتُ لذلك القُرَيْد ، أنا أبو عُبَيْد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! فأنشدت :

اعمَل لرزقك كلَّ آلَهْ لا تَقْعُدَنّ بذُلٍّ[3] حالَهْ
وانهَضْ بكلِّ عزيمةٍ[4] فالمرء يَعْجزُ لا المَحالَه

في وصف القطائف

ومن مليح ما قيل فى القطائف قول علىّ بن يحيى بن أبى منصور المنجم :

قطائفُ قد حُشِيَت باللَّوْز والسكر الماذِىّ حشْوَ الموزِ[5]
يسبح فى آذِىّ[6] دُهْنِ الجَوْز سررت لما وقَعت فى حَوْزى
سرور عَبّاسٍ بقُرْب فَوْزِ[7]

في الحلواء

ومن ألفاظ أهل العصر فى الحلواء : فالوذج بلُبَاب البُرّ ، ولُعابِ النَّحْل ، كأنَّ اللوز فيه كواكب دُرّ ، فى سماء عَقِيق .

ابن الرومى يصف اللوزينج

ولم يقل أحد فى صفة اللوزينج أَحْسن من قول ابن الرومى[8] :

لا يُخطِئَنّى مِنْك لَوْزينَجٌ إذا بدا أعْجَبَ أو عجَّبا
لو شاءَ أن يَذْهبَ فى صَخْرةٍ لسهَّل الطِّيبُ له مَذْهَبا
لم تُغلِق الشَّهْوَةُ أبوابها إلاّ أبَتْ زُلْفَاهُ أنْ يُحْجَبا
يَدور بالنَّفْحَة[9] فى جامِهِ دَوْرًا تَرَى الدُّهْنَ له لَوْلبا

---

(١) فى المقامات : فلكمه لكمة . (٢) فى المقامات : القحة . (٣) فى المقامات : بكل حاله . (٤) فى المقامات : عظيمة . (٥) الماذى : العسل .
(٦) الآذى : الموج (٧) فوز : هى معشوقة العباس بن الأحنف .
(٨) ديوانه ١ — ٣٢٤ . (٩) فى الديوان : بالنفخة .

عاوَنَ فيهِ مَنظَرٌ مَخبَرا ... مُستَحسَنٌ ساعَدَ مُستعذَبا

مُستَكثَفُ الحَشْوِ ولكنّه ... أرقُّ جِلْدًا[١] من نَسيمِ الصَّبا

كأنما قُدَّتْ جَلابيبُهُ ... من نقطة القَطْرِ إذا حُبِّبا[٢]

يُخالُ من رِقّةِ خِرْشائه[٣] ... شارَكَ فى الأجْنِحَة الجُنْدُبا

لو أنّه صُوِّرَ من خُبْزِه ... ثَغرٌ لكان الواضحَ الأشْنَبا[٤]

من كلِّ بيضاءَ يوَدُّ[٥] الفتى ... أن يجعلَ الكفَّ لها مَرْكَبا

مَدْهونةٍ زَرْقاءَ مَدْقوقةٍ[٦] ... صَهْباء[٧] تحكى الأزْرقَ الأشْهَبا

قرّة[٨] عَيْنٍ وفمٍ حُسِّنَتْ ... وطيِّبَت حتى صَبا مَنْ صَبا

ديف[٩] له اللوزُ فما مرّةً ... مَرّتْ على الذائق إلا أَبَى

وانتَقَدَ السُّكَّرَ نُقّادُهُ ... وشاوَرُوا فى نَقْدِه المذهبا

فلا إذا العَيْنُ رَأَتْه[١٠] نَبَتْ ... ولا إذا الضِّرْسُ عَلاه نَبا

لاتُنكِروا[١١] الإدْلالَ من وامِقٍ ... وَجْهٍ تلقاكُمُ المطْلَبا[١٢]

هذه الأبيات يقولها فى قصيدة طويلة يمدح فيها أباالعباس أحمد بن محمد بن عبد الله ابن بشر المرثدى ويهنيه بابن ولده وأولها[١٣] :

أَقْسَمْتُ باللهِ لقَدْ أَنْجَبا ... شمسٌ وبدرٌ وَلَدا كَوْكَبا

قال أبو عثمان سعيد بن محمد الناجم : دخلت على أبى الحسن وهو يعمل هذه

---

(١) فى الديوان : أرق قشرا . (٢) فى الديوان : من أعين القطر الذى قببا .

(٣) الخرشاء : الجلدة الرقيقة . (٤) الأشنب : من الشنب، وهو رقة وبرد وعذوبة فى الأسنان . (٥) فى الديوان : يحب . (٦) فى الديوان : مدفونة .

(٧) فى الديوان : شهباء . (٨) فى الديوان : ملذ عين . (٩) فى الديوان : ذيق. وديف : خلط . (١٠) فى الديوان : رأتها . (١١) فى الديوان : لا تنكر .

(١٢) فى ط : تلق بكم . وفى الديوان : تلقاكم .

(١٣) ديوانه ١ ــ ٣١٤ .

القصيدة ، فقلت : لو تفاءلت فيها لأبى العباس بسبعة من الولد ، لأنّ أبا العباس[(١)] منكوساً سابعٌ ، لجاء المعنى ظريفاً فقال :

وقد تفاءَلْتُ له زاجِراً ... كُنْيَتِه لا زاجِراً ثَعْلَبا

إنّى تأمّلْتُ له كُنْيَـةً ... إذا بدا مَقْلوبُها أَعْجَبا

يَصوغُها العـكْسُ أبا سابعٍ ... لا كَذَّبَ اللهُ ولا خَيَّبا

بل ذاكَ فألٌ ضامِنٌ سَبْعَةً ... مثْلَ الصّقور استشْرَفَتْ مَرْقَبا

يأْتونَ من صُلْبِ فتًى ماجِدٍ ... وذاكَ فألٌ لم يَعُدْ مَعْطَبا

وقد أتانا منهمُ[(٢)] واحِـدٌ ... فلننتظِرْهُمْ[(٣)] سِـتّةً غُيَّبا

فى مُدّةٍ تَغْمُرُها نعمةٌ ... يجعلُها اللهُ له تُرْتُبا[(٤)]

حتى نراهُ جالساً بينهمْ ... أجلَّ من رَضْوَى ومن كَبْكَبا[(٥)]

كالبدرِ وافَى الأرضَ من نُورِهِ ... بيْنَ نجومٍ سبعةٍ فاجْتَبى[(٦)]

ولْيَشْكُرِ النَّاجِمُ عن هذهِ ... فإنّها من بَعضِ ما بوَّبا

سَدَّى والْحَمْتُ أخٌ لم أزَلْ ... أشْكُرُ ما أسْدَى وما سَبَّبا

حب ابن الرومى للسمك

وكان ابنُ الرومى منهوما فى المآكل ، وهى التى قتلتْهُ ، وكان مُعْجَبًا بالسمك، فوعده أبو العباس المرثدى أن يبعثَ إليه كلّ يوم بوظيفة لا تَنْقَطِع ، فبعث إليه يوم سَبْتٍ ثم قطعه ؛ فقال :

ما لِحيتانِنا جَفَتْنَا وأَنَّى ... أَخْلَفَ[(٧)] الزائرونَ منتظِريهِمْ

جاء فى السَّبت زَوْرُهم[(٨)] فأتينا ... من حفاظٍ عليـه ما يَكْفيهِم

وجعلناه يوم عيـــد عظيمٍ ... فـكأنّا اليهودُ أو نحْكِيهِم

---

(١) فى س : العباس . (٢) فى الديوان : أتاه ، وفى ط : أتى منهم له.
(٣) فى الديوان : فلينتظر . (٤) الترتب : الشىء المقيم الثابت .
(٥) كبكب : جبل بعرفات . (٦) فى الديوان : فاحتبى . (٧) فى س : خلف .
(٨) الزور : الضيف .

وأراهم مصممين على الهَجْرِ فلمْ يُسْخِطُون مَنْ يُرْضيهم
قد سبَقْنا وما أَتتنا وكانُوا يوم لا يَسْبِتُون لا تأْتيهم

فاتَّصل ذلك بالناجم، فـكتب إلى ابن الرومى :

أبا حسنٍ أنْتَ مَنْ لا تزَا لُ نحمدُ فى الفضْلِ رُجْحانَهُ
فـكم تُحْسِنُ الظنّ بالمرثدىِّ وقد قلَّلَ اللهُ إحسانَهُ
ألم تدْرِ أنَّ الفتى كالسرابِ إذا وَعدَ الوَعْدَ إخوانَهُ
فبَحْرُ السرابِ يَفُوتُ القلوبَ[(١)] فقلْ فى طِلابك حيتانَهُ

ابن الرومى يصف العنب الرازقى

وخرج ابنُ الرومى إلى بعض المتنزهات وقصدوا كَرْماً رازِقيًّا[(٢)] ، فشربوا هناك عامَّة يومهم ، وكانوا يتهمونه فى شِعْره ، فقالوا : إن كان ما تُنْشِدنا لكَ فقُلْ فى هذا شيئاً ، فقال : لا تَرِيموا حتى أقول فيه وأنشدهم لوقته[(٣)] :

ورازِقىّ مُخْطَفِ الخصُورِ[(٤)] كأنه مَخَازِنُ البلُّورِ
قد ضمِّنت مِسْكاً إلى الشطورِ وفى الأَعالى ماء وردٍ جُورى[(٥)]
بلا فَريد وبلا شُـذُورِ له مَذاقُ العسَـلِ المَشُورِ[(٦)]
وبَرْدُ مَسِّ الخصِر[(٧)] المقْرورِ ونَـكْهة المِسْك مع الـكافورِ
ورقّة الماءِ على الصـدورِ باكَرْته والطَّيْرُ فى الوُكُورِ
بِفتْيَةٍ من وَلَدِ المنصورِ أَملأُ للعَيْنِ من البُدُورِ
حتى أتيْنَا خَيْمَةَ النَّاطور[(٨)] قبل ارتفاعِ الشمسِ للذّرُورِ[(٩)]
فانْحطَّ كالطَّاوِى من الصُّقُور بطاعةِ الرَّاغبِ لا المقْهُورِ

---

(١) فى س : الطلوب . (٢) فى القاموس : هو العنب الملاحى .
(٣) ديوانه ١٩٥ ، وهناك اختلاف كبير بين الرواية هناك وبين الرواية هنا .
(٤) ضامرها . (٥) جور : مدينة ينسب إليها الورد .
(٦) الفريد : الجوهرة النفيسة . المشور : من شار العسل : استخرجه .
(٧) الخصر : البارد . (٨) الناطور : حافظ الـكرم . (٩) ذرت الشمس : طلعت .

والحرُّ عَبْدُ الحلبِ المشطورِ   حتى أتانا بِضُروعٍ حورِ
مملوءةٍ من عَسَلٍ محصورِ   والطَّلُّ مثل اللؤلؤ المنثورِ
ثمَّ جلَسْنا جِلْسَةَ المحبورِ   بين حِفافَىْ جَدْوَلٍ مَسْجورِ(١)
أبيض مثل المُهْرَق المنشورِ   أو مثل متن المُنصل المشهورِ(٢)
يَنْسابُ مثل الحيَّةِ المذعورِ   بَيْنَ سِمَاطَىْ شَجَرٍ مَسْطُورِ
ناهيك للعقود من ظُهورِ   فنِيلَت الأوطارُ فى سُرورِ
وكلُّ ما يُقْضَى مِنَ الأُمورِ   تَعِلَّةٌ من يَوْمِنا المنْظورِ
ومُتْعةٌ من مُتَعِ الغُرورِ

ألفاظ تناسب هذا النحو لأهل العصر فى صفات الفواكه والثمار

كَرْم نُسْلِفه(٣) الماء القَرَاح، ويَقْضِينا أمَّهات الرَّاح. عنقود كالثريَّا، وعِنَبٌ كمخازن البلّور، وضروبِ النُّور، وأوعيةِ السرور. أُمَّهات الرحيق، فى مخازن العَقيق. نَخْلٌ نُسْلِفه الماء، ويقضينا العسل. رُطَب كأنها شُهْدَة بالعقيق مقنَّعة، وبالعِقْيان(٤) مُقَمَّعة. رُمَّان كأنه صُرَر الياقوت الأحمر. سَفرجل يَجْمع طيبا، ومنظرا حسنا عجيبا، كأنه زِئْبر(٥) الخزّ الأغبر، على الديباج الأصفر. تفَّاحٌ نفَّاح، يجمع وَصْفَ العاشق الوَجِل، والمعشوق الخَجِل، له نسيمُ العبير، وطَعْمُ السكر، رسولُ المحب، وشبيه الحبيب. تِين كأنه سُفَر مضمومة على عَسَل. مشمش كأنه الشَّهد فى بَيَادِق الذهب.

[وصف الليل]

قال بعضُ الرواة: أنشدت أعرابيا قول جرير بن عطية بن الخَطَفى(٦):

---

(١) مملوء.   (٢) المنصل: السيف.   (٣) نقرضه.   (٤) بالذهب.
(٥) الزئبر: مايظهر من درز الثوب.   (٦) ديوانه: ٥٩٥.

أَبُدِّلَ الليلُ لا تَسْرِى كواكبُهُ أمْ طالَ حتى حسبتُ النجمَ حَيْرانا

فقال : هذا حسَنٌ فى معناه ، وأعوذ بالله من مثله ؛ ولكنى أنشدك فى ضدّه من قولى ، وأنشدنى :

وليلٍ لم يُقَصِّرْه رُقادٌ وقصَّر طوله وَصْلُ الحبيبِ

نَعِيمُ الحبّ أَوْرَق فيه حتى تناوَلْنَا جَنَاهُ من قريبِ

بمجلس لذّةٍ لم نقوَ فيهِ على شكْوَى ولا عَدِّ الذّنوبِ

بَخِلْنا أنْ نقطّعه بلفْظٍ فتَرْجَمَتِ العيونُ عن القلوبِ

فقلت له : زدنى، فما رأيت أَظرفَ منك شعراً ؛ فقال : أمّا هذا الباب فحسبك ، ولكن أنشدك من غيره :

وكنت إذا علِقْتُ حبالَ قومٍ صحبتُهُمُ وَشِيمَتِىَ الوفاء

فأحسِنُ حين يُحْسِنُ محسنوهم وأَجتنب الإساءَة إن أساءوا

أَشاء سوى مشيئتهم فآتِى مشيئتهم وأترك ما أَشاء

قال الأصمعى : قرأتُ على أبى مُحْرِز خلف بن حيّان الأحمر شعرَ جرير ، فلما بلغت إلى قوله[1] :

ويومٍ كإبْهامِ القَطاةِ محبّبٍ إلىّ صباهُ غالبٌ لِىَ باطِلُهْ

رُزِقْنا به الصّيدَ العزيزَ ولم نكن[2] كمَنْ نَبْلُهُ مَحْرُومةٌ وحَبائِلُهْ

فيالك يومٌ خَيْرُه قبل شرِّهِ تغيّبَ واشيهِ وأَقْصرَ عاذِلُهْ

فقال خلف : وَيْحَه ! فما ينفعه خيرٌ يؤول إلى شرّ ؟ فقلت له : كذا قرأته على أبى عمرو بن العلاء . فقال لى : وكذا قال جرير . وما كان أبو عمرو ليقرئك إلّا ماسمع. قلت : فكيف كان يَجبُ أن يكونَ ؟ قال : الأَجْوَد أن يقولَ : خيرُه دون شرِّه ،

---

(١) ديوانه : ٤٨٠ ، ديوان المعانى : ١ — ٣٥٢ . (٢) فى الديوان : ولم أكن .

فأرْوِه كذلك ، فقد كانت الرواةُ قديما تُصْلِحُ أشعارَ الأوائل ، فقلت : والله لا أَروِيه بعدها إلاَّ كذا .

ومن أجود ماقيل فى قِصَرِ الليل قول إبراهيم بن العباس(١) :

وليـلةٍ من الليـالى الغُرِّ … قابلتُ فيهـا بَدْرَها ببَدْرِى
لم تَكُ غيرَ شفَقٍ وفَجْرٍ … حتى تقَضَّت وهى بِكْرُ الدَّهر

وقال محمد بن أحمد الأصبهانى فيما يتعلق بهذا المعنى وإن كان فى ذكر النهار(٢) :

كيف يُرْجى لمقلتىَّ هدُوّ … ورُقادى لطَرْفِ عَيْنى عَدُوٌّ
بأبى مَنْ نَعِمْت منه بيومٍ … لم يزَلْ للسرورِ فيـه نُمُوٌّ
يوم لهْوٍ قد الْتَقَى طرفاهُ … فـكأنَّ العَشِىّ فيه غُدُوٌّ
إذْ لشَخْصِ الرقيب فيه تَنَاءٍ … ولبَدْرِ السَّماء مِنِّى دُنُوٌّ

وقال ابن المعتز(٣) :

يا رب ليلٍ سَحَرٌ كلّهُ … مفتضَح البَدْرِ عَليل النَّسيمْ
تلتقطُ الأنفاسُ بَرْد النَّدَى … فيـه فتهديه لِحَرِّ الهُمومْ
لا أعرفُ الإصباحَ لما بدا(٤) … فى ضوئه إلا بِسُكْرِ النَّديمْ
لبست فيـه بالتذاذ الهوى … ولذةِ الرَّاح ثيابَ النعيمْ(٥)

***

شىء من النقد

أخـذ قوله : « سحر كله » من قول عبد الملك بن صالح بن علىّ — وقد قال له الرشيد لما دخل منبج : أهَذا منزلك ؟ قال : هو لك ، ولِى بك يا أميرَ المؤمنين ، قال: كيف بناؤه ؟ قال : دون منازل أهْلى، وفوق منازلِ الناس . قال : وكيف ذلك وقَدْرُك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلُق أميرِ المؤمنين أتأسَّى به ، وأَقْفُو أثَره ، وأَحْذُو حَذْوَه ، قال : فكيف طِيبُ منبج ؟ قال: عَذْبَة الماء ، طَيِّبةُ الهواء ، قليلة الأَدْوَاء،

---

(١) ديوانه ١٤٥ ديوان المعانى ١ — ٣٥١ . (٢) ديوانى المعانى : ١ — ٣٥٣ ، ونسبت فيه إلى ابن طباطبا . (٣) ديوانه ٦٤ . (٤) فى ديوانه : فى ضوئه لما بدا .
(٥) هذا البيت ليس فى ديوانه المطبوع بين أيدينا .

قال : فكيف لَيْلُها ؟ قال : سحر كله ؟

وأخذ هذا الطائى فقال [١] :

أيامنا مصقولةٌ أطرافها بك والليالى كلّها أسحارُ [٢]

* * *

ولأهل العصر : قال أبو على محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمى :

يا ربّ ليل سُرور خِلْته قِصَراً كعارضِ البرق فى أفق الدُّجا بَرَقا

قد كَادَ يعثر أُولاَه بآخرهِ وكَادَ يسبق منـه فَجْرُه الشَّفَقا

كأَنَّما طرَفَاه طَرْفٌ اتفق الْ جَفْنَانِ مِنْهُ على الإِطْبَاق وافْتَرَقَا

ألفاظ فى هذا المعنى لأهل العصر

ليلةٌ من حسنات الدهر ، هواؤها صحيح ، ونسيمُها عليل . ليلة كبُرْدِ الشباب ، وبَرْدِ الشراب . ليلة من ليالِى الشباب ، فضِيّة الأَديم ، مِسْكيّة النسيم . ليلة هى لُمْعَةُ العمر ، وغُرَّةُ الدهر . ليلة مِسْكيّة الأديم ، كافوريّة النجوم . ليلة رقد الدّهر عنها ، وطلعت سعودُها ، وغابت عُذّالُها . ليله كالمسك منظرُها ومَخْبَرُها . ليلة هى باكورةُ العُمْر ، وبِكْرُ الدهر . ليلة ظلماتها أَنوار ، وطِوال أوقاتها قِصَار .

[الصلة بالوزراء]

كان سببُ اتصال سعيد بن هُرَيْم لذى الرياستين الفضل ـ وسمى ذا الرياستين ؛ لأنه جمع بين رياسة القلم ورياسة التدبير للمأمون ـ أَنه دخـل عليه يوماً فقال : « الأَجَل آفةُ الأمل ؛ والمعروف ذُخْرُ الأَبد ، والبِرُّ غنيمةُ الحازم ، والتفريط مصيبةُ أَخِى القدرة ، وإنّا لم نَصُنْ وجوهَنا عن سؤالك ، فصُنْ وجهك عن ردِّنا ،

---

(١) ديوانه ١٤٨ . (٢) مصقولة : مجلوة . الأسحار : أوقات الصباح .

وضَعْنَا من إحسانك بحيث وضَعْنَا أنفسنا من تأميلك » .

فأمر أن يُكْتَب كلامُه ، وسماه سعيدا الناطق، ووصله المأمون نخصّ به ، فلحقته فى بعض الأوقات جَفْوَة من الفضل ، فكتب إليه : « ياحافظَ مَنْ يَضع نفسَه عنده ، ويا ذاكِرَ مَنْ نَسِى نصيبه منه ، ليس كتابى إذا كتبتُ استبطاءً ، وما إمسا كى إذا أمسكتُ استغناء ؛ فكتبت مذكِّرا لا مستقصراً (١) فِعْلَك » .

فوصله وأَحْسَن إليه ، وقد روى بعضُ هذا الكلام المنسوب إلى سعيد بن هريم لأبى حفص الكرمانى مع ذِى الرِّياستين .

ويقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمى :

لعَمْرُكَ ماالأَشْرافُ فى كل بَلْدَةٍ ... وإن عَظَّموا لِلفَضْل إلاّ صَنَائِعُ
ترَى عظماءَ الناس لِلفَضْل خُشَّعاً ... إذا ما بدا ، والفَضْلُ لِلّه خاشعُ
تَوَاضَعَ لَمَّا زاده اللهُ رِفعةً ... وكلُّ جليل عنده مُتواضِعُ

وقال إبراهيم بن العباس (٢) :

لفضل بن سَهْلٍ يدٌ ... تقاصرَ عَنْهَا المثلْ
فباطِنُها للنَّدى ... وظَاهِرُهَا للقُبَلْ
وبَسْطَتُها لِلْغِنَى ... وسَطْوَتُها لِلأَجلْ

ابن الرومى وابن المدبر

أخذه ابن الرومى فقال لإبراهيم بن المدبر :

أصبحتُ بين ضراعة وتجمُّل ... والمرءُ بينهما يموتُ هزيلا
فامدد إلىَّ يداً تعوَّدَ بَطْنُها ... بَذْلَ النوالِ وظَهْرُها التقبيلا

وقال يمدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وزاد فى هــذا المعنى تشبيها ظريفا (٣) :

لهـا راحةٌ فيها الحطيم وزَمْزَمُ ... مُقبَّل ظَهْرِ الكف وهَّابُ بَطْنِها

(١) فى بعض الأصول : لا مستصغرا . (٢) ديوانه ١٣٦ . (٣) فى س : طريفا .

فظاهِرُها للناسِ رُكْنٌ مقبّلٌ وباطنُها عَيْنٌ من العُرْف عَيْلمُ[1]

***

ذو الرياستين

وكان ذو الرياستين يَقْبَلُ صوابَ القائلين بما فى قوّته من صفاءِ الغريزة، وجَوْدَة النَّحيزة[2]؛ فهو كما قال أبو الطيب[3]:

ملِكٌ مُنْشِدُ القَرِيضِ لَدَيْه يضعُ الثَّوب[4] فى يدَىْ بزّازِ

وكانت مخايلُ فَضْلِه ودلائلُ عَقْلِه ظهرت ليحيى بن خالد وهو على دِينِ المجوسية، فقال له: أَسْلِم أَجد السبيلَ إلى اصْطِناعِك. قال: فأسلم على يَدِ المأمون، ولم يزل فى جَنَبَتِه[5] إلى أن رقى إلى رُتْبته.

وذكره يحيى عند الرشيد فأَجْمَل الثناء فأمر بإحضاره، فلما رآه أُفْحِمَ؛ فنظر الرشيد إلى يحيى كالمستفهم؛ فقال: ياأميرَ المؤمنين، إنّ من أدلّ دليل على فَرَاهَة[6] المملوك أن تَمْلكَ هَيْبَةُ مولاه لسانه وقلبه. فقال الرشيد: لئن كنت سكتّ لكى تقولَ هذا فقد أحْسَنْت، ولئن كان هذا شيئاً اعتراكَ عند الحَصَر لقد أجدْتَ؛ وزاد فى إكرامه وتقريبه، وجعل لايسأله بعد ذلك عن شىء إلا أجابه بأفْصَحِ لسان، وأجود بيانٍ.

من كلامه

قال سهل بن هارون: ومما حُفِظ من كلام ذى الرياستين مما رأينا تَخْلِيدَه فى الكتب ليُؤْتَمّ به ويُنْتَفَع بمقْول حكمته، قوله: مَن تركَ حقًّا فقد غبن حظًّا، ومَن قضَى حقًّا فقد أحْرَزَ غُنْماً، ومَن أتَى فَضْلًا فقد أوْجَب شكراً، ومن أحْسَنَ توكّلا لم يعدم مِنَ اللهِ صُنْعاً، ومَن تركَ لله شيئاً لم يجدْ لِما تركَ فَقْدًا، ومَنِ التمسَ بمعصية اللهِ حَمْدًا عادَ ذلك على مُلْتَمِسه ذمًّا، ومن طلب بخلاف الحقِّ له دَرَكًا[7] عاد ماأدرك من ذلك له مُوبِقاً؛ وذلك أوْجَب الفَلاح للمحسنين، وجعل سوءَ العاقبة للمسيئين المقصِّرينَ.

---

(١) العيلم: البحر. (٢) النحيزة: الطبيعة. (٣) ديوانه ٢–١٨٣.
(٤) فى الديوان: واضع الثوب. (٥) جانبه. (٦) الفراهة: الحذق. (٧) الدرك: اللحاق.

ووقّع فى رُقْعة ساعٍ : نحن نرى قبولَ السعاية شرًّا منها ؛ لأنَّ السِّعاية دلالةٌ ، والقبول إجازة ، وليس مَنْ دلّ على شىء وأخْبَر به كمن قَبِله وأجازه ؛ فاتّقُوا السَّاعِىَ ؛ فإنّه لو كان فى سعايته صادِقا لكان فى صِدْقِه آثما ؛ إذْ لم يحفظْ الحُرْمة ، ولم يستر العَوْرَة .

***

استطراد فى السعاية

والشىء يقرن مع جِنْسِه : كتب محمد بن على إلى محمد بن يحيى بن خالد ، وكان واليا على أرمينية للرشيد : إنّ قوماً صارُوا إلى سبيل النُّصْحِ فذكروا ضِيَاعا بأرمينية قد عَفَت ودَرَسَتْ ، يرجع منها إلى السلطان مالٌ عظيم ، وإنى وقفتُ عن المطالبةِ حتى أعْرف رأيك .

فكتب إليه : قرأتُ هذه الرقعةَ المذمومة ، وفَهِمْتُها ، وسُوقُ السعاية بحَمْد الله فى أيامنا كَاسِدَة ، وألْسِنَة السُّعاةِ فى أيامنا كَلِيلة خاسئة ؛ فإذا قرَأْتَ كتابى هذا فاحْمِل الناسَ على قانونك ، وخُذْهُم بما فى ديوَانِك ؛ فإنّا لم نولِّك الناحية ، لتتبِّع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأَعْلام الداثرة ، وجنبنى وتجنَّب بيتَ جرير يخاطب الفرزدق (١) :

وكنتَ إذا حللتَ بدارِ قَوْمٍ ... رَحلْتَ بِخزْيَةٍ وتركْتَ عَارَا

وأجْرِ أُمورَك على ما يكسب الدُّعَاء لنا لا علينا ، واعلم أنها مدّةٌ تنتهى ، وأيامٌ تنقضى ، فإمَّا ذِكْرٌ جميلٌ ، وإما خِزْىٌ طَوِيل .

وقال رجلٌ للمهدى : عندى نصيحةٌ يا أمير المؤمنين . فقال : لمَنْ نَصيحتك هذه ؟ لَنا ، أَمْ لِعامَّةِ المسلمين ، أم لنفسك ؟ قال: لك يا أَميرَ المؤمنين ، قال : ليس الساعى بأعظم عورةً ولاأقْبَحَ حالاً ممن قَبِل سِعَايته، ولا تخلو من أن تكونَ حاسِدَ نعمة، فلا نشفى غَيْظَك ، أَوْ عَدُوًّا فلا نعاقب لك عدوَّك ! ثم أقبل على الناس فقال : لا يَنْصَحُ لنا نَاصِحٌ إلا بما فيه لله رضاً ، وللمسلمين صَلاَح ؛ فإنما لنا الأَبدانُ وليس

---

(١) ديوانه ٢٨١ .

لنا القلوبُ ؛ ومن استترَ عنّا لم نكشفه ، ومن بادَانا [1] طلبنا توْبته ، ومن أخطأ أقلْنَا عثْرَته ؛ فإني أرى التأديب بالصّفحِ أبلغَ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكْثر منها مع المُعاجلة ، والقلوب لاتبقى لِوالٍ لا يَنْعَطِف إذا استُعْطِفَ ، ولا يعفو إذا قَدَر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرْحَمُ إذا استُرحم .

***

رجع إلى كلام ذى الرياستين

ووقّع ذو الرياستين إلى تميم بن خزيمة : الأمورُ بتمامها ، والأعمالُ بخَوَاتمها ، والصنائعُ باستدامتها ، وإلى الغاية يَجْرِى الجواد؛ فهنالك كشفَت الْخِبْرَةُ قِناعَ الشّكّ؛ فحمد السابق ، وذمّ الساقط ـ وذو الرياستين هو القائل :

أنضيتِ أحرف «لا» مما لفظت بها ... فحوّلى رَحْلَها عنّا إلى نَعَمِ
أوْ صيِّريها إليها [2] منك منعمةً ... إن كنتِ حاولت فيها خِفة الْكَلِم
قِسْتُمْ علينا فعارَضْنَا قياسَكُمُ ... يا أحْسَن الناسِ من قَرْن إلى قدَم

ولما قتل ذُو الرياستين دخَل المأمونُ على أمّه فقال : لا تَجْزَعِى فإنّى ابْنُك بعد ابنك . فقالت : أفلا أبْكى على ابنٍ أكْسَبنِى ابناً مِثْلك ؟

[وصف الخيل]

ووصف ابن القِرِّيَّة [3] فرساً أهْدَاه الحجاجُ إلى عبد الملك بن مروان فقال : حَسَنُ القَدِّ ، أسِيلُ الخَدِّ ، يسبق الطَّرْفَ ، ويستَغْرِقُ الوَصْفَ .

وأهدى عبد [3] الله بن طاهر إلى المأمون فرساً وكتب إليه : قد بعثتُ إلى أميرِ المؤمنين بفرسٍ يلحق الأرانب فى الصَّعْدَاء ، ويجاوِزُ الظِّبَاءَ فى الاستواء ، ويسبق فى الحَدُور [4] جَرْىَ الماء ، فهو كما قال تأبّط شرا :

---

(١) بادى العداوة : جاهر .
(٢) فى ط : إلينا .
(٣) النويرى ١٠ــ٦٩ .
(٤) الحدور : المكان الذى ينحدر منه .

ويَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيث يَنْتَحِي ... بمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المُتَدَارِكِ[١]

وقال رجل لبعض النخاسين: اشْتَرِ لى فرساً جَيِّدَ القَمِيص، حسَنَ الفُصوص[٢]، وثيق القَصَبِ، نقيَّ العَصَب، يُشيرُ بأُذُنيه، ويَنْدِسُ برِجْليه[٣]، كأنه موجٌ فى لُجَّة، أو سَيْلٌ فى حَدُور.

جمع محمد بن الحسين هَذَيْنِ الكلامين وزاد فقال يصف فرساً[٤]: هو حَسَنُ القميص، جيّد الفصوص، وثيق القَصَب، نقيّ العَصَب، يُبْصِرُ بأذنيه، ويتبوَّع[٥] بيديه؛ ويُدَاخِل برجْلَيه، كأنه موجٌ فى لجَّة، أو سيلٌ فى حَدُور، يناهب المشى قبل أن يُبْعث، ويلحق الأَرانب فى الصعداء، ويجاوِزُ جوارى الظباء فى الاستواء، ويسبق فى الحَدُور جَرْيَ الماء، إنْ عُطِف جارَ، وإن أرسِل طار، وإنْ كلّف السير أمْعَن وسار، وإن حُبس صَفَن[٦]، وإن استوقف قطن[٧]، وإنْ رعَى أبنَ[٨]؛ فهو كما قال تأبّط شرًّا وذكر البيت.

وأول هذه الأبيات[٩]:

وإنى لَمُهْدٍ من ثَنَائى فقَاصِدٌ ... به لابْنِ عمِّ الصِّدْق شَمْسِ بن مالك

أهزُّ به فى نَدْوَةِ الحىِّ عِطْفَهُ ... كما هزَّ عِطْفِى بالهِجَانِ الأَوَارِكِ[١٠]

قَلِيل التَّشَكِّى لِلْمُلِمِّ[١١] يُصيبُهُ ... كثيرُ الهوَى شتَّى النَّوَى والمَسَالِكِ

يظَلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسِى بغَيْرِها ... جَحِيشاً ويَعْرَورِى ظُهورَ المَهَالِكِ[١٢]

(١) منخرق الرياح: مهبها. وفى النويرى: شده المتتابع. (٢) الفص: ملتقى كل عظمين، وجمعه فصوص. (٣) ندس به الأرض: ضربه. (٤) النويرى ١٠–٦٩. (٥) التبوع: إبعاد خطو الفرس فى جريه. (٦) صفن الفرس: قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة. (٧) فى النويرى: فطن. (٨) أبن: ترقب. (٩) القالى ٢–١٣٨، اللآلئ: ٧٦١، الحماسة ١–٩٠. (١٠) الندوة: المجتمع. والهجان: الإبل الكريمة، والأوارك: راعية الأراك. (١١) فى س والقالى: للمهم. (١٢) الموماة: المفازة. جحيش: منفرد. يعرورى: يركب عريا (اللسان — مادة عرا).

ويسبِقُ وفْدَ الرِّيحِ من حيثُ يَنْتَحِى ... بمُنْخَرِق مِنْ شَدِّهِ المُتَدارِكِ
إذا خاطَ عينَيْهِ كرَى النّومِ لم يَزَلْ ... له كالِئٌ من قَلْب شَيْحَان فاتِكِ[(١)]
إذا طلعت أُولى العـدوّ فَنفره ... إلى سَلّةٍ من صارِمِ الغَرْبِ باتِكِ[(٢)]
ويجْعَلُ عَيْنَيْهِ رَبيئةَ قَلْبِهِ ... إلى ضَرْبَةٍ مِنْ حَدِّ أَخْلَقَ صائكِ[(٣)]
إذا هَزَّهُ فى عظمِ قِرْنٍ تَهلّلتْ ... نواجِذُ أَفْوَاهِ المنايا الضَّوَاحِكِ
يرى الوحشةَ الأُنْسَ الأَنيسَ ويَهْتَدِى ... بحيثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النجومِ الشَّوابِكِ

سوابق خيل مصر تهدى إلى معاوية

وأهـدى عمرُو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سَوابِقِ خَيْلِ مِصْر، فعُرِضَتْ عليه، وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثى، فقال له معاوية: كيفَ تَرَى هدايانا يا أَبَا سعيد؟ فإن أخاكَ عَمراً قد أَطْنَبَ فى وَصْفِها. فقال: أَراها يا أَميرَ المؤمنين على ما وصف، وإنها لمُخَيَّلة[(٤)] بكلّ خير؛ إنها لسامِيَةُ العُيون، لَاحِقَةُ البُطون، مُصْغِيَةُ الآذان، قَبَّاء الأسنان[(٥)]، ضِخَام الرُّكبَاتِ؛ مُشْرِفَات الحجبات[(٦)]، رِحاب المَناخِرِ، صِلابُ الحَوافر، وَقْعُها تَحْلِيل، ورَفْعها تَعْلِيل[(٧)]؛ فهذه إن طُلِبت سَبَقت، وإن طَلَبَتْ لَحِقَتْ. قال له معاوية: اصرفها إلى رَحْلك؛ فإنّ بنا عنها غِنَى، وبفتيانك إليها حاجة.

وقال النابغة الجعدى[(٨)]:

وإنّا أناسٌ لا نُعَوِّدُ خَيْلَنَا ... إذا ما التقَيْنَا أن تَحِيدَ وتَنْفِرَا

---

(١) الـكالئ: الحافظ. الشيحان: الحاد فى الأمر الحازم. وفى س: سبحان.

(٢) فى القالى: أولى العدى. والعدى: الجماعة الذين يعدون فى الحرب. وفى س، ق: من صارم الغر فاتك. وهذه رواية القالى، وارجع إلى اللآلئ: ٧٦١–٧٦٢.

(٣) الربيئة: الرقيب. والصائك: اللازق. (٤) خيل فيه الخير: تفرسه، والسحابة المخيلة بتشديد الياء، والمخيلة — بكسر الخاء بعدها ياء ساكنة: التى تحسبها ماطرة.

(٥) قبت الناب: صوتت وقعقعت. (٦) الحجبتان: حرفا الوركين.

(٧) التحليل والتعليل: من حركات الخيل. (٨) جمهرة أشعار العرب ٣٠٦.

وننكر يوم الرَّوْعِ ألوانَ خَيْلِنا من الطعن حتى نَحسب الجَوْنَ أَشْقَرَا (١)
فليس بمعروفٍ (٢) لَنَا أَنْ نرُدَّهَا صِحَاحاً ولا مُسْتَنكَرٌ أن تُعقَّرا

وقال بعض العرب :

ولقد شَهِدْتُ الخيلَ يوم طرادها بسليم أَوْظِفَةِ القَوائِم هَيْكَلِ
فدعَوا : نَزالِ ! فكنت أَوَّل نازلٍ وعَلَامَ أركبه إذا لم أنزلِ

لبعض الأعراب في وصف الخيل

ووصف أعرابي فرسا فقال (٣) : لما أرسلت الخيل جاءوا بشيطانٍ في أَشْطَانٍ ، فأرسلوه ، فلمع لَمْعَ البَرْقِ ، واستهلَّ استهلالَ الوَدْقِ (٤) ، فكان أَقْرَبهم إليه الذى تقع عينه من بُعْدٍ عليه .

وذكر أعرابي رجلا فقال : عنده فرسٌ طويل العِذَارِ ، أَمِينُ العِثَار ؛ فكنت إذا رأيته عليه ظننته بازِيا على مَرْبأ (٥) ، عليه رُمْحٌ طويل يقصِّرُ به الآجال .

وقال بعض المحدثين في هذا التطابق :

لقيناهم بأَرْمَاحٍ طوالٍ تبشِّرُهم بأعمارٍ قِصَارِ

ووصف أعرابي خيلا لبني يربوع فقال : خرجَتْ علينا خيلٌ من مستطير نَقْعٍ ، كأن هواديها أَعْلام ، وآذانَها أقلام ، وفرسانها أُسود آجام .

ولما أنشد العمَّاني الرشيد يصف فرساً :

كأنَّ أُذنيه إذا تَشَوَّفا قادِمةً أو قَلَماً مُحرَّفَا

ولحن، ففهم ذلك أَكْثَرُ من حضر ؛ فقال الرشيد : اجعل مكان « كأن » تَخَال ، فعجبوا لسُرْعَة تهدِّيه .

ولأبي تمام

وللطائيين في هذا النوع أشعارٌ كثيرة منعني من اختيارها كثرةُ اشتهارها ؛ وسأنشد بعض ذلك ، قال أبو تمام (٦) :

---

(١) الجون : الأسود . (٢) في الجمهرة : وما كان معروفا .
(٣) النويري : ١٠ــ٦٨ . (٤) المطر . (٥) ربأ : علا وارتفع .
(٦) ديوانه : ٢١٢

ما مُقْرَبٍ (١) يَخْتَالُ فى أَشْطَانِهِ ... ملآن مِنْ صَلَفٍ به و تَلَهْوُقِ (٢)

بحَوافرٍ حُفرٍ وصُلْبٍ (٣) أَصلتٍ ... وأَشَاعِرٍ شُعْرٍ وخلق أَخْلَقِ

ذو أولقٍ تَحْتَ العجاج وإنَّما ... من صحةٍ إفراطُ ذَاكَ الأَوْلَقِ (٤)

صافِى الأديم كأنما ألبسته ... من سُنْدُسٍ بُرْداً ومن اسْتَبْرَقِ

إمْلِيسةٌ إمليدةٌ (٥) لو عُلِّقت ... فى صهوتيهِ العينُ لم تتعلَّقِ

مُسْوَدُّ شَطْرٍ مثل مااسْوَدَّ الدجى ... مبيضُّ شَطْرٍ كابيضاضِ المُهْرَقِ (٦)

وقال أبو عبادة (٧) : البحترى

وأغرّ فى الزَّمَنِ البهيم مُحَجَّل ... قد رحْتُ منه على أغرَّ مُحَجَّلِ

وَافِى الضلوع يشُدّ عقد حزامهِ ... يومَ اللقاء على مُعِمٍّ مُخْوِلِ

يَهْوِى كما هَوَتِ العُقابُ إذا (٨) رَأَتْ ... صَيْداً ويَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الأَجدل (٩)

متوحّش بدقيقتين (١٠) كأنما ... تُرِيَانِ من وَرَقٍ عليه مُوَصَّل

كالرائع النَّشْوانِ أكْثَرُ مَشْيِهِ ... عرض على السَّنَنِ البعيدِ الأَطْوَلِ

ويظنّ رَيْعَانَ الشباب يَرُوعُهُ ... من نَشْوَةٍ أوجنَّةٍ أو أفكل (١١)

هَزِجَ الصهيلِ كأنَّ فى نَبرَاتهِ ... نغماتِ (١٢) مَعْبَد فى الثَّقيلِ الأوّلِ

تَتَوَهَّمُ الجَوْزاءَ فى أَرْسَاغِهِ ... والبَدْرُ غُرةُ وَجْهِهِ (١٣) المتهلِّلِ

صافِى الأَديمِ كأنَّما عُنِيتْ لَهُ ... بصفاءِ نُقْبَتِه مَدَاوِكُ صَيْقَلِ (١٤)

---

(١) المقربة : الفرس التى تدنى وتقرب وتكرم ولا تترك ، وهو مقرب .

(٢) التلهوق : التحسن . (٣) فى الديوان : وصلب . والأصلت : السيف الم[صلت] والغبار الشديد الارتفاع . (٤) الأولق : الجنون . (٥) أصل الإمليس : الأرض [التى ليس] بها نبات . والإمليد والأملود : الناعم اللين . (٦) المهرق : الصحيفة .

(٧) ديوانه ٢ ـ ٢١٧ ، النويرى ١٠ ـ ٥١ ، ديوان المعانى ٢ ـ ١٢٥ .

(٨) فى الديوان : وقد . (٩) الأجدل : الصقر . (١٠) فى الديوان : متو[جس] برقيقتين . (١١) الإفكل : الرعدة . (١٢) فى الديوان : كأن فى نفحاته نبرا[ت]

(١٣) فى الديوان : فوق جبينه . (١٤) فى الديوان ، ق، : مداوس صيقل .

وكأنما كُسِيَ الخدودَ نَوَاعِماً (١) مهما تلاحظها (٢) بلحظٍ يخجَلِ
وكأنما نفضتْ عليه صِبْغَها صَهْباءُ للبَرَدانِ أو قُطْرُبُّلِ (٣)
مَلَكَ العيون فإن بَدَا أعطَينهُ نَظَرَ المحبِّ إلى الحبيبِ المقبلِ

وقال إسحاق بنُ خلف النهرواني لأبي دُلَف، وكان له فرسٌ أدهم يسميه غرابا:

كم كم تجرِّعه المنون ويسلمُ لو يستطيعُ شَكَا إليكَ لَهُ الفمُ
من كل منبت شعرة من جِلدِهِ خَطٌّ ينمِّقُه الحُسَامُ المِخْذَمُ (٤)
ما تُدْرِكُ الأرواح أَدْنَى جَرْيِهِ حتى يَفُوتَ الريحَ وهو مقدَّمُ
رَجَعَتْه أَطْرافُ الأسِنَّة أشْقَرًا واللون أدْهَم حين ضَرَّجَه الدَّمُ
وكأنما عقد النُّجوم بِطَرْفِهِ وكأنهُ بِعُرَى المَجرَّة مُلْجَمُ

وقال أبو الطيب (٥):

جَفَتْنِي كأنّي لَسْتُ أنْطَقَ قَوْمِها وأطْعَنَهُمْ والشُّهْبُ في صُوَرِ (٦) الدُّهْمِ

وقال أبو الفتح كشاجم:

قد راح تحت الصُّبْحِ ليلٌ مظلم إذ لاح في السَّرْج المحلَّى الأدْهَمُ
ديباجُ أَلْوانِ الجيادِ ولم يكن ليُخصَّ بالديباج إلاّ الأكرمُ
ضَحِكَ اللُّجَيْنُ على سوادِ أديمه وكذا الظلامُ تُنِيرُ فيه الأنجمُ
فكأنه ببنات نَعْش ملببٌ وكأنما هُوَ بالثريَّا مُلجَمُ

قلت: هذا من قول ابن المعتزّ:

أَلاَ فاسقيانى والظلامُ مقوّضٌ ونَجْمُ الدُّجا تحت المغارب يَرْكُضُ

---

(١) في س: تواضعا. (٢) في الديوان: تواصلها بلحظ تخجل.
(٣) قطربل: موضعان أحدهما بالعراق تنسب إليه الخمر — معجم ما استعجم ١٠٨٣.
(٤) المخذم: القاطع. (٥) ديوانه: ٤ — ٥٠.
(٦) في الديوان: صورة.

كأنَّ الثريا فى أواخرِ لَيْلِها تفتّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مفضَّضُ

لأبي الفتح

وقال أبو الفتح [١] :

مَنْ شكّ فى فَضْلِ الكُمَيْتِ فبينهُ فيه وبين يقينهِ المِضْمارُ

فى منظَرٍ مستحسَنٍ محمودةٍ أخْبارُه إذ تُبْتلَى الأخبارُ

ماءٌ تدفَّق طَاعَةً وسَلَاسَةً فإذا استُدِرَّ الحُضْرُ [٢] فيه فنَارُ

وإذا عَطَفْتَ بهِ على ناوَرْدِه [٣] لتُديرَه فكأنّه بِرْكَارُ

وصف الخَلوقَ أَدِيمُه فكأنَّما أَهْدَى الخَلوقَ لجلدِه عطَّارُ [٤]

قصرتْ قِلَادَةُ نَحْرِه وعِذَارِه والرّسغ، وهىَ من العِتَاق [٥] قِصَارُ

وكأنما هاديه جذْعٌ مُشْرِفٌ وكأنما للضبع فيه وِجارُ [٦]

يَرِدُ الضَّحَاضِحَ غير ثانى سُنْبكٍ ويرُودُ طَرْفُك خَلْفَه فتَحارُ [٧]

لو لم تكن للخيلِ نسبةُ خَلْقِه حَاكَتْه من أَشْكَالِها الأَطْيَارُ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز [٨] :

وخَيْلٍ طَواها القَوْدُ [٩] حتى كأنّها أنابيبُ سُمْرٌ من قَنَا الخط ذُبَّلُ

صببنا عليها — ظالمين — سِيَاطنا فطارَتْ بها أيدٍ سِرَاعٌ وأرْجُلُ

قولُهُ: «ظالمين» من أَبْدَعِ حَشْوٍ جرى فى بيت ، وكأنّ ابن المعتز أشار إلى قول أعرابى مولد :

وعَوْدٍ قليلِ الذنب عاوَدْتُ ضربَهُ إذاهاج شَوْقِى من معاهدهاذِكْرُ [١٠]

---

(١) النويرى ١٠—٥٩ . (٢) الحضر : ارتفاع الفرس فى عدوه .

(٣) ناورد : لفظ فارسى بمعنى القتال وجولان الخيل فى الميدان .

(٤) الخلوق : نوع من الطيب . (٥) فى النويرى ، س : العتيق .

(٦) هاديه : صدره، والوجار : جحر الضب . (٧) الضحاضح : الماء اليسير، أوالى الكعبين ، أو أنصاف السوق . السنبك : طرف الحافر . (٨) ديوانه ٤٦ ، النويرى ١٠—٥٩

(٩) القود : نقيض السوق، فهو من أمام وذاك من خلف. (١٠) العود : المسن من الإبل.

فقلتُ له زلفاء[1] — وَيْحَكَ — سَبَبْتَ لك الضَّرْبَ، فاصبر إن عادتك الصَّبْرُ

وقال ابن المعتز :

أراجعتى فِداك بأعْوَجِىّ كقدح النَّبْع فى الرِّيشِ اللُّؤامِ[2]
بأدهمَ كالظَّلامِ أغرَّ يَجْلُو بغُرَّتِهِ دَيَاجِيرَ الظَّلامِ
تَرَى أحْجَاله يصعدنَ فِيهِ صُعودَ البَرْقِ فى جَوِّ الغَمَامِ

وقال أيضاً[3] :

قد أغْتَدِى والصُّبْحُ كالمَشِيبِ فى أفق مِثْل مَدَاكِ[4] الطِّيبِ
بقَارِحٍ مُسَوَّم يَعْبُوبِ ذى أُذن كخُوصَةِ العَسِيب[5]
أو آسةٍ[6] أوْفت على قَضِيبِ يَسْبِق شَأْوَ النظرِ الرَّحِيبِ
أَسْرَعَ من ماء إلى تَصْوِيب ومن رُجوع لَحظة المُرِيبِ[7]

وقال[8] :

رُبَّ رَكْبٍ عرّسوا ثم هَبُّوا نحو إسْرَاجٍ وشدِّ رِحَال
وعدَونا بأعنَّةِ خيل[9] تأكُلُ الأرضَ بأيْدٍ عِجَالِ[10]
زينَتْها غررٌ ضَاحِكَاتٌ كبدورٍ فى وُجُوهٍ[11] ليال

وقال على بن محمد الإيادى :

للايادى

مسح الظلامُ بعُرفه يدَهُ ومَشَى فقبَّل وَجْهَهُ البَدْرُ

---

(١) فى س : ذلفاء . (٢) الأعوجى : أعوج : فرس لبنى هلال تنسب إليه الخيل الأعوجيات ، وريش لؤام : يلائم بعضها بعضا . (٣) ديوانه ٢—٩٧ .

(٤) المداك : الصلاءة . (٥) القارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من الإبل . وفى ديوان المعانى : بقادح . اليعبوب : الفرس السريع . والعسيب : عظم الذنب، وفى س : كخضوة ، وفى ق : كخصوة ، وهذه عن الديوان . (٦) الآسة : الشجرة ، وفى الديوان : أسة .

(٧) تصويب : انحدار . (٨) ديوانه ١٢٦ ، ديوان المعانى ٢ — ١١٣ .

(٩) فى الديوان : بأعنة خال تأخذ الأرض ، وفى ديوان المعانى : وغدونا .

(١٠) فى ديوان المعانى : بأيدى ... (١١) فى ديوان المعانى : فى وجوه الليالى .

للناشئ

وقال الناشئ أبو العباس عبد الله بن محمد :

أَحْوَى عليه مَسَائِحٌ من لِيطَةٍ ... شُهْبٌ تسيلُ على نَوَاشِرِ ساقِهِ (1)
فكأنهُ مُتَلَفِّعٌ قُبْطِيَّةً (2) ... أَثناؤُها مشدودةٌ بِنطَاقِهِ
فَسَوادُه كاللَّيْلِ فى إظْلامِهِ ... وبَيَاضُه كالصُّبْحِ فى إشراقِهِ
صافى الأديم كريمةٌ أنْسابهُ ... أَخْلاقه عَيْنٌ على أعْراقِهِ

للثعالبى

كتب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى إلى الأمير أبى الفضل عبد الله بن أحمد بن ميكال ، وقد زاره الأميرُ فى داره :

لا زال مَجْدُكَ للسِّمَاكِ رَسِيلا ... وعلوّ جدّك بالخلود كَفِيلا
يا غُرَّةَ الزمنِ البهيم إذا غدَا ... أهلُ العُلَا لزمانهم تَحْجِيلَا
يا زائراً مدّت سَحَائبُ طَوْلِهِ ... ظِلاًّ علىَّ مِنَ الجَمَالِ ظليلا
وأتت بصَوْبِ جواهرٍ من لَفْظِهِ ... حتى انتظَمْنَ لمفرقِى إكْليلا
بأبى وغَيْرِ أبى هِلالٌ نُورُهُ ... يستَعْجِلُ التسبيحَ والتهليلا
نَقشت حَوَافِرُ طرْفِهِ فى عَرْصتى ... نَقْشًا مَحَوْتُ رسومَه تَقْبيلا
ولو استطعت فَرَشْتُ مسْقَطَ خَطْوِهِ ... بعيون عِينٍ لا تَرَى التَّكْحِيلَا
ونَثَرْتُ رُوحى بعدما مَلَكَتْ يَدِى ... وخررْتُ بين يَدَىْ هَواهُ قَتيلا

لابن هانىء

وقال أبو القاسم بن هانئ يصف خيل المعز :

له المُقْرَبات الجُرْدُ يُنعِلُها دَماً ... إذافَرَعَتْ هامَ الكُماةِ السَّنَابِكُ (3)
يُرِيقُ عليها اللؤلؤُ الرطبُ ماءَهُ ... ويَسبِكُ فيها ذائبَ التِّبْرِ سابِكُ
صقيلات أَجْسامِ البرُوق كأنما ... أمرّت عليها بالشموس المَداوِكُ

---

(١) الليطة : قشر القصبة ، والقوس والقناة . والمسيحة : الذؤابة والقوس ، وجمعه مسائح .
(٢) القبطية : ثياب تنسب إلى أهل مصر . (٣) المقربة : الفرس التى تدنى وتقرب وتكرم ولا تترك . وأنعل الدابة : ألبسها النعل . وفرعت : علت . والسنابك جمع سنبك : طرف الحافر .

وقال يصف فرساً لجعفر بن على بن حمدون :

تَهلَّلَ مَصْقُولَ النواحى كأنهُ إذا جالَ ماءُ الحُسْنِ فيه، غريقُ
مِنَ البُهْمِ وَرْدُاللون شِيبَ بِكُمْتَةٍ كما شِيبَ بالمسكِ الفَتِيقِ خَلوقُ(١)
فلو مِيزَ منه كلُّ لون بذاته جَرَى سَبَجٌ منه وذابَ عَقِيقُ(٢)

وقال فى قصيدة يمدح بها أبا الفرج الشيبانى :

فتَقَتْ لكم ريحُ الجِلَادِ بعَنْبَرٍ وأمدَّ كُم فَلَقُ الصَّبَاحِ المُسْفِرِ
وجنيتمُ ثمرَ الوقائع يانعاً بالنَّصرِ من ورقِ الحديدِ الأخْضَرِ
أبنى العوالِى السَّمْهَرِيّة والسيو ف المَشْرَفيَّة والعديدِ الأكْثَرِ
مَنْ مِنكم الملكُ المطاعُ كأنَّهُ تحت السَّوابِغِ تُبَّعٌ فى حِمْيَرِ
القائد الخيل العِتاق شوازِباً خُزْرًا إلى لحظ السِّنانِ الأخْزَرِ(٣)
شُعْثَ النَّواصى حَشْرة آذانُها قُبَّ الأياطِلِ داميات الأنْسرِ(٤)
تَنْبُو سنا بكهن عن عَفَرِ الثَّرى فيَطَأْنَ فى خَدِّ العزيز الأصْعَرِ(٥)
فى فتيـة صَدَأُ الحديدِ عَبِيرُهم وخَلوقُهم عَلَقُ النَّجيعِ(٦) الأحمرِ
لا يأكل السِّرْحان شلْو عقيرهم(٧) مما عليـه من القَنا المتكسِّرِ

وقال فى قصيدة يمدح بها إبراهيم بن جعفر بن على :

نَخْرٌ لِطَرْف أعْوَجىّ أنْتَ فى صَهواتِه والحُسْنُ والتَّطهيمُ
يُبْدِى لعزِّك نَخْوَةً فكأنَّهُ مَلِكٌ تَدينُ له الملوكُ عَظيمُ

---

(١) البهم : ما لاشية فيها من الخيل . الورد من الخيل: بين الكميت والأشقر .
(٢) السبج : السواد . (٣) الشازب : الخشن . والضامر : اليابس . الخزر — محركة — كسر العين بصرها خلقة أو ضيقها وصغرها . (٤) القبب : دقة الخصر وضمور البطن. والأياطل : الخصور . النسر : لحمة فى باطن الحافر ، أو ما ارتفع فى باطن الحافر من أعلاه .
(٥) العفر : ظاهر التراب . (٦) النجيع : من الدم ما كان إلى السواد، أو دم الجوف .
(٧) الشلو : العضو .

هادٍ على الخيـلِ العِتاق كأنهُ بين الدُّجُنَّـةِ والصباحِ صَرِيمُ[(١)]

سامى القَذال بِمِسْمَعَيْهِ عيافةٌ تحت الدُّجى ولطَرْفِه تَنْجيمُ

أذُن مُؤَلّلةٌ وقلب أصْمَعٌ[(٢)] وحَشاً أقَبُّ وكَلْكَلٌ ملمومُ

فالطَّوْدُ من صَهَواته مُتَزَلْزِلٌ والجيْشُ من أنْفاسِه مَهْزُومُ

خَرَقَ العيونَ فضَلَّ عنها لونُه وصفاً فقُلْنَا ما عليـه أديم

فكأنما جمدت عليه مُزْنَةٌ وانْجابَ عَنْه عارِضٌ مَرْكوم[(٣)]

وكأنما نُحِرَتْ عليه بَوارِقٌ وكأنما كُسِفَتْ عليـه نُجومُ

وكأنّك ابنُ المنـذر النعمان فو ق سراته وكأنه اليَحْمُومُ[(٤)]

للإيادى أيضاً

وقال على بن محمد الإيادى يصف فرس أبى عبد الله جعفر بن أبى القاسم القائم :

وأقبَّ من لحق[(٥)] الجيادِ كأنهُ قَصْرٌ تباعَدَ رُكْنُه من رُكْنِهِ

لبستْ قوائمهُ عصائبَ فضَّـةٍ وغدَتْ بِسُمْرٍ صفاَ المسيلِ ودُكْنِه

وكأنما انفجرَ الصَّباحُ بوجهِهِ حُسناً أو احْتَبَس الظلامُ بمتْنِهِ

قيد العيونِ إذا بصرْنَ بشَخْصه ورضا القلوب إذا اصطَلَيْنَ بضِغْنِهِ

متَسيْطِر بالراكبينَ كأنَّهُ بازٍ ترُوح به الجَنوب لوَكْنِهِ[(٦)]

يستوقف اللحظات فى خَطَراته بكمال خِلْقَتِهِ ودِقَّة حُسنه

حُلْوُ الصَّهيل تخـال فى لهَوَاتهِ حادٍ يَصُوغُ بدائماً من لحْنه

متجبِّرٌ ينبى بِعِتْقِ نِجاره إشرافُ كاهِله ودِقَّةُ أذْنِهِ[(٧)]

ذو نَخْوَةٍ شمخت بهِ عن نِدِّهِ وشهامةٍ طمحت به عن قِرْنِهِ

وكأنَّه فلكٌ إذا حرّكتَهُ جارٍ على سَهْلِ البلادِ وحَزْنه

---

(١) الصريم : الصبح والليل ضد ، والقطعة منه . (٢) مؤللة : محدودة . والأصمع : القلب الذكى المتيقظ . (٣) مركوم : متراكم . (٤) اليحموم : فرس النعمان .
(٥) لحق : ضمر . (٦) الوكن : عش الطائر ، وفى س ، ق : متسطر .
(٧) عتق النجار : كرم العنصر .

قد راح يحمِلُ جعفرَ بن محمدٍ حَمْلَ النسيم لوابلٍ من مُزْنه

للمتنبي

وما أحسن ماقال أبو الطيب المتنبي[1] :

ويومٍ كلَوْنٍ[2] العاشقينَ كَمَنْتُهُ أُراقِبُ فيه الشَّمسَ أيَّانَ تَغرُبُ

وعَيْنِى إلى أُذْنَىْ أغرَّ كأنهُ مِنَ الليلِ باقٍ بين عينيه كَوْكَبُ

له فضْلَةٌ عن جسمِهِ فى إهَابه تجئُ على صدْرٍ رحيبٍ وتَذهَبُ

شققْتُ به الظَّلْماءَ أُدْنِى عِنَانَهُ فيطغَى وأُرْخيه مِراراً فيلعَبُ

وأصْرَعُ أىَّ الوَحْشِ قفَّيتُهُ بهِ وأنزِلُ عنهُ مِثْلَه حينَ أرْكَبُ

وما الخيلُ إلا كالصَّديقِ قليلةٌ وإنْ كَثُرَتْ فى عَيْنِ مَنْ لا يُجرِّبُ

إذا لم تُشاهِدْ غيرَ حُسن شِياتِهَا وأعْضائِها فالحُسْنُ عنك مُغيَّبُ

المقامة الحمدانية فى وصف الخيل

وينخرط فى سِلْكِ هذا المعنى مقامةٌ من مقامات الإسكندرى فى الكُدْية مما أنشأه بديعُ الزمان وأملاه فى شهور سنة خمس وثمانين وثلثمائة . قال البديع[3] :

حدّثنا عيسى بن هشام قال : حضرنا مجلسَ سيف الدولة يوماً وقد عُرِضَ عليه فرس متى ما تَرَقَّ العين فيه تَسهَّل[4] ، فلحَظَتْهُ الجماعة ؛ فقال سيف الدولة : أيكم أَحسن صفته ، جعلته صِلَتَه ؛ فكلٌّ جَهد جَهْدَه ، وبذل ماعِنْده ؛ فقال أحد خدَمِه: أَصْلَح الله الأمير ؛ رأيت بالأمس رجلا يَطَأُ الفَصاحَة بنَعْلَيْه ، وتقِفُ الأبصارُ عليه ، يسلِّى الناس ، ويشفى الياس[5] ، ولو أَمر الأميرُ بإحضاره ، لفضَلَهم بحِضَاره[6] .

فقال سيفُ الدولة : علىّ به فى هيئته ، فصار الخدمُ فى طلبه ، فجاءوا للوقت به ، ولم يُعْلِموه لأىّ حالٍ دُعِىَ به ، ثمَّ قُرِّب واستُدْنِى ، وهو فى طِمْرَيْنِ[7] قد أكل الدهرُ عليهما وشرب ، وحين حضر السِّماط ، لَثَمَ البساط ، ووقف . فقال سيف

(١) ديوانه : ١–١٧٩ . (٢) فى الديوان : كليل .
(٣) مقامات البديع ١٩٦ . (٤) يريد أن أعلاه وأدناه مستويات فى الحسن .
(٥) فى ط ، ق : ويشفى البأس . (٦) الحضار بكسر الحاء : سرعة البديهة ، أو القوة وجودة السير . (٧) الطمر : الثوب الخلق .

الدولة : بلغَتْنا عنك عارِضة[١] ، فاعْرِضْها فى هـذا الفرس وصِفْه . فقال : أصلح اللهُ الأمير ، كيف به قبْلَ ركوبه ووُثوبه ، وكَشْفِ عيوبه[٢] ؟ فقال : اركبْه ، فركبه وأَجْراه ، ثم قال : أصلح اللهُ الأميرَ ؛ هو طويل الأُذنين ، قليـل الإثنين ، واسع المراث[٣] ، لين الثّلاث ، غَليظ الأكْرُع ، غامض الأربع ، شَديد النَّفْس ، لطيف الخَمْس ، ضيق القَلْتِ[٤] ، رقيق السِّتّ ، حديد السَّمْع ، غليظ السَّبع ، رقيق اللسان ، عريض الثّمان ، شديد الضِّلْع ، قصير التّسع ، واسع السَّحْر ، بعيد العَشْر ، يأخذ بالسّائح[٥] ، ويُطلِق بالرَّامح ، ويَطْلُع بلائح ، ويَضْحَكُ عن قَارح ، يحزّ وَجْهَ الـكديد[٦] ، بمداقّ الحديد ، يُحْضِر كالبَحْرِ إذا ماجَ ، والسيل إذا هاج .

فقال سيفُ الدولة : لك الفرس مُباركاً فيـه . فقال : لازِلت تأخذُ الأنفاس ، وتَمْنحُ الأفراس . ثم انصرف ، وتبعته ، وقلت : لكَ علىَّ ما يليقُ بهـذا الفرس من خِلْعَةٍ إن فسَّرْتَ ماوصفْتَ ، فقال : سَلْ عما أَحببت . فقلت : ما معنى قولك : بَعيدُ العشر ؟ فقال : بَعيد النظر ، والخَطْو ، وأَعالى الجَنْبَيْن[٧] ، وما بين الوَقْبَيْن ، والجاعِرَتَيْن ، وما بين الغُرَابين ، والمنخَريْن ، وما بين الرِّجلين ، وما بين النقبة[٨] والصِّفاق ، وبعيد القامَةِ[٩] فى السباق .

فقلت : لا فُضّ فُوكَ ، فما معنى قولك : قصير التِّسْع ؟ قال : هاكَ : قصير الشّعرة ، قصير الأُطْرَة ، قصير العَسيب ، قَصِير القضيب ، قَصير العَضُدَين ، قصير الرُّسْغَيْن ، قصير النَّسَا ، قصير الظَّهْر ، قصير الوَظيفِ .

فقلت : لله أنت ! فما معنى قولك : عريض الثَّمان ؟ قال : عريض الجَبْهَة ، عريض

---

(١) العارضة : البديهة . (٢) فى المقامات : وكشف عيوبه وغيوبه .
(٣) المراث : مبعر الفرس . (٤) القلت : النقرة فى رأس الورك .
(٥) فى المقامات : بالسابح . (٦) فى المقامات : يخد . (٧) فى المقامات : اللحيين : عظمى الحنك اللذين يكون عليهما الأسنان . (٨) فى المقامات : المنقب .
(٩) فى المقامات : الغاية .

الصَّهْوَة ، عريض الكَتِف ، عريض الجَنْب ، عريض الوَرِك ، عريض العَصَب ، عريض البُلْدَة ، عريض صفْحَة العنق .

فقلت : أحسنت ، فما معنى قولك : غليظ السّبع ؟ قال : غليظ الذراع ، غليظ المحْزم ، غليظ العُكْوَة ، غليظُ الشَّوَى ، غليظ الرُّسْغ ، غليظ الفَخِذَيْن ، غليظ الحبال[1] .

فقلت : لله درُّك ! فما معنى قولك : رقيق الستّ ؟ فقال : رقيق الجَفْن ، رقيق السَّالِفَة ، رقيق الجَحْفَلة ، رقيق الأَدِيم ، رقيق أَعْلَى الأُذنين ، رقيق الغُرْضَيْن .

فقلت : أجدت ، فما معنى قولك : لطيف الخمس ؟ قال : لطيف الزَّوْر ، لطيف النَّسْر ، لطيف الجُبَّة ، لطيف العُجاية ، لطيف الرُّكْبَة .

فقلت: حياك الله ! فما معنى قولك: غامض الأربع؟ قال : غامض أَعالى الكَتِفَيْن، غامض المَرْفِقَيْن ، غامض الحِجاجَيْن ، غامض الشَّظَى .

قلت : فما معنى قولك : لَيّن الثلاث ؟ قال : لَيّن المَرْدَغَتَيْن[2] ، لَيّن العُرْف ، لَيّن العِنان .

قلت : فما معنى قولك : قليل الإثْنَين ؟ قال : قليلُ لَحْم الوجه ، قليل لحم المَتْنَين .

قلت : فمن أين نَبَاتُ هذا العلم ؟ قال: من الثغور الأُمَوية ، وبلاد الإسكندرية .

فقلت له : أنت مع هذا الفضل تعرضُ وجهك لهذا البَذْلِ ! فأنشأ يقول :

ساخِفْ زمانك جِدًّا ... فالدهر[3] جِدُّ سَخِيف

دَعِ الحمِيَّةَ نِسْياً ... وعِشْ بخَيْرٍ وريف

وقُلْ لعبدك هَذا ... يَجِئْ لنا برَغِيف

---

(١) فى المقامات : الحاذ . (٢) المردغة : ما بين العنق والترقوة .

(٣) فى المقامات : إن الزمان سخيف .

سقط عنا تفسيره فى « ليّن الثلاث » ، وأكثرُ هذا التفسير يحتاجُ إلى تفسير ، ولم يُرِدْ بما أَورد إِفْهام العَوامّ ، والبلاغة لمحة دالة ، وبلاغة النثر أخت بلاغة الشعر ؛ وقد قال البحترى[1] :

والشعر لمح تـكفى إِشارتهُ ... وليس بالهَذْر طُوِّلت خُطَبُهْ

تفسيرلغوى

وسأقول فى شرحه بكلام وجيز زيادة فى الإفادة : الوَقْبَان : نُقْرتان فوق العينين . والجاعِرتان[2] من الفرس : موضع الرّقمتين من الحمار ، وهما منتهى ضَرْبه بذنبه إذا حركه . والغرابان : الناتئان من أَعْلى الوركين . وذكر النقبة هنا ، وهو الذى يُعْرف بالمنْقَبِ ، وهو من السّرة حيث ينقب البيطار . والصِّفاق : الخاصرة . وقدقيل: جلد البطن كلّه صفاق ، والذى أراده الخاصرة . وأراد ببُعْد القامة فى السباق امتدادُه إذا جرَى مع الأرض . والأُطْرَة هنا : طرف الأَبْهر ، وهى طَفْطفة[3] غَايظة . والأَبهر : عِرْق يستبطن الظّهر ، فيتَّصل بالقلب ، وقيل هو الأكحل . والعسيب : عظم الذنب . والرّسْغ من الفرس : موضع القيد . والنَّسَا : عرق مستبطن الفخذين ، وقِصَره محمود فى جَرْى الفرس ، ولـكنه لا يسمح بالمشى . والوظيف لـكل ذى أربع : ما فوق الرّسْغ إلى الساق . والصَّهوة : الظهر . والبُلْدة[4] : ما بين عينيه . والعُـكْوَة : مغرز الذَّنَب . والشَّوى : الأطراف . والحبال : حبلا العاتق والظَّهْر . والجَحْفَلة من ذوات الحافر : كالشفة[5] من الإنسان . والغُرْضَان من الفرس : ما انحدر من قَصَبة الأنف من جانبيها . والزور : الصدر . والنَّسْر فى الحافر: لحمة يابسة فى أَسْفَله يشبهها الشعراء بالنَّوى . والجُبَّة : التى فيهـا الحوشب . والحَوْشَب : حشو الحافر . والعُجَاية : عصَب[6] فى قوائم الفرس والبعير مركّب

(١) ديوانه ١ـ٣٨ . (٢) حرفا الورك المشرفان على الفخذين .

(٣) الطفطفة : الخاصرة ، أو أطراف الجنب المتصلة بالأضـلاع ، أو كل لحم مضطرب . أو الرخص من مراق البطن (القاموس) . (٤) فى القاموس : البلد والبلدة : الصدر ، ونقاوة ما بين الحاجبين . (٥) فى س ، ق : وهى الشفة . (٦) فى ق : عظم .

فيه فصوص من عظام كأمثال الكعاب تكون عند الرّسغ . والحِجَاجان : العظمان المُطِيفان بالعين . والشَّظَى : عظم لاصقٌ بالذراع . والمتنان : جانبا الظهر ؛ وسقط عنّا تفسير الثّلاث من نفس المقامة .

[الوعد وإنجازه]

قال الجاحظ : قال أبو القاسم بن معن المسعودى لعيسى بن موسى : أَيُّها الأمير ؛ ما انتفعتُ بك مُنْذُ عرفتُك ، ولا إلى خيرٍ وصلتُ منك منذ صَحِبْتُك ، فقال : ولم ؟ ألم أُ كَلِّمْ لك أميرَ المؤمنين فى كذا وكذا ؟ قال : بلى ! فهل استنجزتَ ما وُعِدْت ، وعاودت ما ابتَدَأْت ؟ فقال : حالَتْ دون ذلك أمورٌ قاطعة ، وأحوالٌ عاذرة . قال : أيُّها الأمير ، فما زِدْتَنِى على أنْ نبَّهْتَ الهمَّ من رَقْدَتِه ، وأثرْتَ الحُزْنَ من رَبْضَتِه ، إنَّ الوعدَ إذا لم يصحَبْه إنجازٌ يحقّقُه كان كلفظٍ لا مَعْنى له ، وجسمٍ لا روحَ فيه .

وكلَّم منصور [(١)] بن زياد يحيى بن خالد فى حاجةٍ لرجلٍ ، فقال : عِدْه قَضَاءَها . قال فقلت : أصلحك الله ، ومايَدْعُوكَ إلى العِدَة مع وجود القدرة ؟ فقال : هذا قولُ من لا يعرفُ موضِعَ الصّنائع من القلوب ، إنَّ الحاجةَ إذا لم يتقدّمها مَوْعِدٌ يُنتظر به نُجْحُها لم تتجاذَب الأنفس سرورها ؛ إنّ الوَعْدَ تطعُّم والإنجاز طَعَام ؛ وليس من فَاجأه طعامٌ كمن وجَدَ رائِحته ، وتمطَّق به ، وتطعَّمه ثم طَعِمه ؛ فدَعِ الحاجَةَ تُخْتَمَر [(٢)] بالوَعْد ؛ ليكونَ بها عند المصطنع حُسْنُ مَوْقع ، ولُطْفُ مَحَلّ .

ووعد المهدى عيسى بن دَأْب جارِيةً ، ثم وهبها له ، فأنشده عبد الله بن مُصْعب الزبيرى معرِّضاً بقول مضرّس الأسدى :

فلا تيأسَنْ مِنْ صالحٍ أَنْ تنالَهُ ... وإن كانَ قِدْماً بين أيْدٍ تُبادِرُه

(١) ديوان المعانى ٢ — ٢٠٤ .
(٢) فى ديوان المعانى : تحتم .

فضحك المهدى ، وقال : ادفعوا إلى عبد الله فلانة ، لجاريةٍ أخرى ؛ فقال عبدالله ابن مصعب :

أَنجز خَيْرُ الناسِ قبل وعْدِه ... أراح من مَطْلٍ وطُولِ كَدّه

فقال ابن دَأْب : ما قلت شيئاً ، هلاّ قلت :

حَلاَوَةُ الفضل بوَعْدٍ يُنْجزُ ... لاخَير فى العُرْفِ كَنَهْبٍ يُنْهز

فقال المهدى :

الوَعْدُ أَحْسنُ ما يكو ... نُ إذا تَقَدَّمَه ضَمَانُ

وقد قال أبو قابوس النصرانى يمدح يحيى بن خالد :

رأيتُ يَحْيَى ، أتمّ اللهُ نِعْمَتَهُ ... عليه ، يَأْتِى الّذى لم يَأْتِهِ أحَدُ

يَنْسَى الّذى كان من معروفه أبداً ... إلى الرجال ولا يَنْسَى الذى يَعِدُ

وقال أبو الطيب المتنبي [(١)] :

قَوْمٌ بُلوغُ الغُلامِ عندَهُمُ ... طَعْنُ نُحُورِ الكُماةِ لَا الْحُلُمُ

كَأَنَّمَا يُولَدُ النَّدَى مَعَهُمْ ... لا صِغَرٌ عاذِرٌ ولا هَرَمُ

إذا تَوَلَّوْا عداوَةً كَشَفوا ... وإنْ تَوَلَّوْا صنيعَةً كَتَمُوا

تظُنُّ من فَقْدِكَ اعْتِدادَهُمُ ... أنَّهُمُ أنْعَموا وما عَلِموا

ودخل أبو علىّ البصير على الفضل بن يحيى فأنشده :

وُصِفَ الصدُّ لمَنْ أَهْوَى فصدْ ... وبدا يَمْزَحُ بالهَجْرِ فَجدّ

مالَهُ يعــدل عَنّى وجْهَهْ ... وهو لا يعدِلُهُ عِنْدى أحَدْ

لا تُرِيدوا غِرّةَ الفَضْـل ومنْ ... يطلب الغِرّة فى خِيسِ الأَسَدْ [(٢)]

ملكٌ نَدْفَعُ ما نَخْشَى بِهِ ... وبه نُصْلِحُ منّا ما فَسَدْ

---

(١) ديوانه : ٤ — ٦٤ .	(٢) خيس الأسد : عرينه .

يُنْجِزُ النـاسُ إذا ما وَعَدُوا　　وإذا ما أُنجِزَ الفضـلُ وَعَدْ

وقال ابن الرومى فى هذا المعنى :

له مواعدُ بالخـيْرَاتِ بادِرَةٌ　　لـكنها تَسْبِقُ الميعادَ بالصّفَدِ[1]

يُعْطِيكَ فى اليوم حقَّ اليوم مبتدئاً　　ولا يضيِّع بَعْدَ اليومِ حقَّ غدِ

[المعرفة بقدر النعمة]

خطب سليمانُ بن عبد الملك فقال : أيهـا الناسُ ، مَنْ لم يعلم أبْوابَ مَدْخَله فى الـكرامة ، وجَهِل طريقَته التى وقَعَتْ به على النِّعمة كان بعرض رُجوعٍ إلى دارِ هَوَان ، وانقلابٍ بفادحِ خُسْرَان .

فقام إليه أبو وائلة السدوسى وهو حاجِبُه فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ كنا كما قال الله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهْرِ لم يكُنْ شيئاً مذكوراً ﴾ ، ثم صِرنا كما قال زُهير[2] :

يَدُ الملِك الجليـلِ تناوَلَتْهُمْ　　بإحسانٍ فليس لهـا مُزيلُ

لأنَّ الخيرَ أَجْمَع فى يَدَيْه　　ورَبِّى بالجزاءِ له كَفِيـلُ

فقال سليمان : هذه والله المعرِفةُ بقَدْرِ النّعمة ، والعلمُ بما يَجب للمنعم .

ورؤى يونس بن المختار فى دار المأمون ، ومرتبَتُه فى أَعْلَى مراتِبِ بنى العباس، قاعدا على الأرض ، فقال الحاجبُ : ارتفِـعْ يا أَبا المعلّى إلى مَرْتَبَتِك . قال: قد رفعنى الله إليها بأميرِ المؤمنين ، وليس لى عملٌ يَفِى بها ، فلِم لا أُكْرِمها عن القعود عنها إلى أن يتهيَّأَ لى الشكر عليها ؟ فبلغ الـكلامُ المأمونَ ؛ فقال : هـذا والله غايةُ الشكرِ ، وبمثله تدرّ النِّعَم .

---

(١) الصفد : العطاء .　　(٢) ليسا فى ديوانه المطبوع بأيدينا .

وقال رجل للمعلّى بن أيوب ـ وقد رَفَعه المعتصمُ إلى مرتَبَة أَهْلِ بيته : ما يزيدُك التقريبُ إلا تباعُدا . فقال : ياهذا ؛ إنى أَصُون تقريبَه إياى بتباعدِى منه ، لئلا تفسد حُرْمَتى عنده بقلَّةِ الشكرِ على نعمتهِ .

ولما استمانَ المنصورُ بالحارث بن حسَّان قال له : يا حارث ؛ إنّى قد مكَّنْتُك من حُسْنِ رَأْيِى فيك ، فاحفَظْهُ بتَرْكِ إغفال مايجبُ عليك . قال : يا أميرَ المؤمنين ، مَنْ أَغْفَل سببَ حُلولِ النعمة ، وَلَهَا عَنِ الحال التى أصارَتْهُ إليها ، استصحبَ اليأْسَ من نَيْلِ مِثْلِها ، وانقطع رجاؤُه من الزيادة فيها . فقال أبو جعفر : مَنْ كانت عنده هذه المعرفةُ دامَت النعمةُ له ، وبقى الإحسانُ إليه .

ولما قال المأمونُ لعبد الله بن طاهر عند قدومه من مصر : ما سرَّنى اللهُ منذ وليتُ الخلافةَ بشىء عَظُم[1] موقعُه عندى ، بعد جميل عافيةِ الله ، هو أَكثر من سرورى بقدومك . فقال عبدُ الله : ائْذَنْ لى يا أميرَ المؤمنين فى تفريق أَموالى من طَارِفٍ وتالد . قال : ولم ؟ قال : شكراً على هذه الكلمة ؛ وإلاَّ قَصَّر بى الحياء عن النظرِ إلى أمير المؤمنين . فقال المأمون لمَنْ حضر من أهل بيته وقوّاده : ما شىء من الخلافة يَفِى لعبد الله ببعض شكره .

وقال أبو نواس[2] :

قد قلتُ للعباس معتذراً	عن[3] ضعف شكريه ومُعْتَرِفا
أَنتَ امرؤٌ جَلَّلْتَنى نِعماً	أَوْهَت قُوى شكرى فقد ضَعُفَا
فإلَيْكَ منى اليوم تَقْدِمةً	تلقاكَ[4] بالتّصريح منكشفا
لا تسدينّ إلىّ عارِفةً	حتى أَقومَ بشكر ما سَلَفَا

عارضه الناشئُ واعترض معناه ، فقال :

إنْ أَنْتَ لم تُحْدِثْ إلىَّ يداً	حتى أقومَ بشُكْرِ ما سَلَفَا

(١) فى ق : عظيم . (٢) ديوانه ٧١ . (٣) فى ديوانه : من .

(٤) فى ديوانه : لاقتك .

لَمْ أَحْظَ مِنكَ بنائلٍ أبداً ورجعت بالحِرْمان مُنْصَرِفا

وقال ابن الرومى(١) :

عاقَنا أنْ نَعودَ أَنَّكَ أَوْلَيْـ تَ أُموراً يَضيقُ عَنْها الجزاءُ
غَمَرَتْنا مِنْكَ الأيادى اللَّواتى ما لِمِعْشارِها لَدَيْنَا كِفاءُ
فَنَهانَا عنك الحياءُ طَويلاً ثُمَّ قد رَدَّنا إِلَيْك الحياءُ
ولَما حقَّ إنْ قَرُبْتَ التَّنائى ولَمَا حقَّ إنْ بَرَزْتَ الجفاءُ
غَيْرَ أَنَّا أَنْضاءُ شُكْرٍ أُريحَتْ وقَديماً أُريحَتِ الأَنْضاءُ(٢)

ألفاظ لأهل العصر فى العجز عن الشكر لتكاثر الإنعام والبر

عندى من بِرِّه ما ملك الاعتذار بأَزِمَّتِه ، وقبض أَلسِنةَ أمراءِ الكلام وأَئِمَّته . عندى له مبارّ أَعجزنى شكرُها ، كما أعوزنى حَصْرُها . شُكْرُه شأْوٌ(٣) بعيدٌ لا تبلغه أشواطى ، ولا أَتَلافَى التفريطَ فى حقِّه بإفراطى . إحسانُه يُعيد العربَ عُجْما ، والفُصحاءَ بُكْما . قد زحمنى من مكارِمه ما يُحْصَرُ عنه المبين ، ويصحبُه العِىُّ وبئس القَرِين(٤) .

وقال أعرابى :

رهنت يَدِى بالعَجْزِ عن شُكْرِ بِرِّهِ وما فَوْقَ شُكْرِى للشكورِ مَزِيدُ
ولو كان شيئاً يستطاعُ استطعتُهُ ولكنَّ مالا يُستَطاعُ شَدِيدُ

وقال يحيى بن أكثم: كنتُ عند المأمونِ ، فأُتى برجل ترعَد فَرَائِصُه ؛ فلما مثل بين يديه قال المأمونُ : كفرت نعمتى ، ولم تشكر معروفى . فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ وأين يقعُ شكرى فى جَنْبِ ما أنعم اللهُ بك علىّ ، فنظر إلىّ المأمون وقال متمثلا(٥) :

---

(١) ديوانه ١ — ٣٨ . (٢) النضو : المهزول من الإبل .
(٣) الشأو : الغاية والأمد . (٤) فى س : البكى وبين القرين، ولعلها البكء. وفى ق: العى وبين القرين. (٥) ذيل اللآلئ : ١٠١ .

ولو كان يَستغنى عن الشكر ماجدٌ … لرفعةِ قَدْرٍ أو علوِّ مَكانِ
لما أمر اللهُ العبادَ بشكرهِ … فقال: اشكروا لِى أيُّها الثقَلانِ

ثم التفت إلى الرجل فقال: هلّا قلت كما قال أصرم بنُ حميد:

ملكت حمدىَ حتى إننى رَجُلٌ … كُلِّى بكل ثناء فيك مشتَغلُ
خوّلت شكرى لما خَوّلت من نِعَمٍ … فحُرُّ شكرى لما خولتنى خَوَل[1]

وقال أبو الفتح البستى:

لئن عجزتْ عن شُكْرِ بِرِّكَ قوّتى … وأقْوَى الوَرَى عن شكرِ بَرِّكَ عاجِزُ
فإنّ ثنائى واعتقادى وطاقتى … لأفلاكِ ما أوليتنيها مَراكِزُ

وقال أبو القاسم الزعفرانى:

لى لسانٌ كأنه لى مُعادِى … ليس يُنْبى عن كُنْهِ مافى فؤادى
حكم الله لى عليه فلو أنـ … ـصف قلبى عرفت قَدْرِ ودادِى

وقال إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية، يمدحُ عُمر بن العلاء[2]:

إنى أَمِنْتُ من الزمان ورَيْبِهِ … لما عَلِقْتُ من الأمير حِبَالا
لو يستطيعُ الناسُ من إجلالهِ … لحذَوْا له حُرَّ الوجوهِ نِعَالا
ما كان هذا الجودُ حتى كنت يا … عمر ولو يوماً تَزُولُ لَزالا
إنَّ المطايَا تشتكيكَ لأنَّها … قطعتْ إليك سَباسِباً ورِمالا
فإذا وَرَدْنَ بنا ورَدْنَ مُخِفَّةً … وإذا صدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثِقالا

وهى قصيدة سهلةُ الطبع، سلسلة النظام، قريبة المتناول.

أبو العتاهية يمدح عمر بن العلاء

وروى أنَّ عمر بن العلاء وصلَه عليها بسبعين ألف درهم فحسدته الشعراء، وقالوا: لنا بباب الأميرِ أعوامٌ نَخْدُم الآمالَ، ما وصلنا إلى بعض هذا! فاتصل ذلك به فأمر بإحضارهم، فقال: بلغنى الذى قلْتم؛ وإنَّ أحدكم يأتى فيمدحنى بالقصيدة يشبِّب فيها

---

(١) الخول: العبيد والإماء. (٢) اللآلئ ٥٥١، القالى ١ — ٢٤٣.

فلا يَصِلُ إلى المدح حتى تذهب لذّةُ حلاوته ، ورائقُ طلاوته ؛ وإنّ أبا العتاهية أتى فشبَّب بأبياتٍ يسيرة ، ثم قال : إنَّ المطايا تشتكيك لأنَّها . . . وأنشد الأبيات .

وكان أبو العتاهية لمّا مدحه بهذا الشعر تأخَّر عنه بِرُّه قليلا فكتب إليه يستبطئه :

أَصابت علينا جودَكَ العينُ يا عُمر ... فنحن لها نَبْغِى التمائمَ والنُّشُرْ(١)

أصابتك عَيْنٌ فى سخائك صُلبةٌ ... ويارُبّ عين صُلْبةٍ تَفْلِقُ الحَجَرْ

سنَرْقيكَ بالأَشعارِ حتى تملَّها ... فإن لم تفقْ منها رَقَيْناكَ بالسُّوَرْ

وقال(٢) :

يابْنَ العلاءِ ويابْنَ القَرْمِ(٣) مرداسِ ... إنى مَدَحْتُكَ فى صَحْبِى وجُلّاسى

أُثْنِى عليك ولِى حالٌ تُكَذِّبُنى ... فيما أَقول فأَسْتَحْيِى مِنَ النّاسِ

حتى إذا قيل : ماأَوْلاكَ من صَفَدٍ ... طَأْطَأْتُ من سُوءِ حالِى عندها رَاسِى

فأمر حاجبه أن يدفع إليه المال . وقال : لا تُدْخِلْه علىّ ، فإنى أَسْتَحْيِى منه .

وذكر بعضُ الرواةِ أَنَّ المهدى خرج متصيّدًا ، فسمِعَ رجلا يتغنَّى من القصيدة التى مرَّت منها الأبيات فى عمر بن العلاء آنفا :

يامَنْ تفرَّدَ بالجمال فما تَرَى ... عينى على أَحدٍ سِوَاهُ جَمَالا

أَكثرت فى قولى عليك من الرُّقَى ... وضرَبْتُ فى شِعْرِى لك الأَمْثالا

فأَبَيْت إلاَّ جَفْوةً وقَطِيعةً ... وأَبيت إلاَّ نَخْوَةً ودَلالاَ

باللهِ قولِى إنْ سألتك واصْدُقى ... أوجدت قَتْلِى فى الكتاب حَلالاَ

أَمْ لاَ ، ففيمَ جَفَوتِنِى وظَلَمْتِنى ... وجعلتنى للعالمين نَكالاَ

كم لائم لو كنت أَسْمَعُ قَولَه ... قد لامنى ونَهَى وعَدَّ وَقَالاَ

---

(١) النشر ، جمع نشرة : رقية يعالج بها المجنون والمريض . (٢) القالى ١ — ٢٤٣ .

(٣) القرم : السيد .

فقال المهدىّ : علىّ به . فجاءه فقال : لِمَنْ هذا الشعر؟ قال: لإسماعيل بن القاسم ـ أبى العتاهية ، قال : لمن يقوله ؟ قال : لعُتْبة جارية المهدى ، قال : كذبت ، لو كانَتْ جاريتى لوهَبْتُها له ، وكانت عُتبة لرَيطة بنت أبى العباس السفاح ، وكان أبو العتاهية قد بلغ من أمرها كل مبلغ ، وكلّ ذلك فيما زعم الرواةُ تصنُّع ، وتخلّق ؛ ليُذْكَر بذلك .

[نسيب أبى العتاهية فى جارية المهدى]

قال يزيد [بن](١) حوراء المغنى: كلّمنى أبو العتاهية أَنْ أُكَلِّمَ له المهدى فى عتبة؛ فقلت: إِنَّ الكلام لا يمكننى ، ولكن قل شعراً أُغنيه إياه ، فقال :

نفسى بشىء من الدنيا مُعَلَّقَةٌ ... اللهُ والقائمُ المهدىُّ يَكْفِيهَا
إِنّى لأَيْأَسُ منها ثم يُطْمِعُنى ... فيها احتقارُكَ للدنيا وما فِيهَا

فعملت فيه لَحْناً وغنَّيْتُه المهدى ؛ فقال : لِمَنْ هذا ؟ فأخبرته خَبَرَ أَبى العتاهية، فقال : ننظرُ فى أَمره ، فأخبرت بذلك أَبا العتاهية ؛ فمكث أَشهراً ، ثم أتانى فقال : هل حدَثَ خبر ؟ فقلت : لا ، فقال: غَنِّه بهذا الشعر :

ليت شَعْرِى ما عندكم ليت شعرى ... إنّما أُخِّرَ الجوابُ لِأَمْرِ
ما جوابٌ أَوْلَى بكلِّ جميلٍ ... من جوابٍ يُرَدّ من بَعْدِ شَهْرِ

قال يزيد : فغنَّيْتُ به المهدى ، فقال : علىَّ بعُتبة ، فأحضرت ، فقال : إنَّ أبا العتاهية كلَّمنِى فيك ، وعندى لكِ وله ما تحبَّانِ ؛ فقالت له : قد علم مولاى أَمير المؤمنين ماأوْجَبه من حقِّ مولاتى، فأُريد أن أَذْكَرَ لها ذلك ؛ قال : فافعلى ؛ فأَعْلَمْتُ أبا العتاهية بما جرى ومضت الأيامُ ؛ فسألنى معاودةَ المهدى ، فقلتُ له : قد عرفْتَ الطريقَ فقل ما شئت حتى أُغنيه ، فقال :

أشربت قَلْبِى مِنْ رَجائك مالَهُ ... عَنَقٌ إليكَ يَخُبُّ بى ورَسِيمُ (٢)

---

(١) من س . (٢) العنق والرسيم : من أنواع السير .

وأمَلْتُ نحو سماءِ صوْبِك نَاظِرِى ... أرْعَى مَخَايِل برْقِها وأَشِيمُ[1]

ولقد تنسَّمْتُ الرياحَ لحاجتى ... وإذا لها من راحَتَيْك نَسِيمُ

ولربما استيأست ثم أقولُ : لا ... إنَّ الذى ضَمِنَ النجاحَ كريمُ

فغنيته بالشعر فقال : علىَّ بعُتبة ، فأَتت ؛ فقال : ما صنعت ؟ قالت : ذكرت ذلك لمولاتى فأَبَتْه وكرِهَتْه ، فليفعَلْ أميرُ المؤمنين ما يريد . فقال : ما كنتُ لأَفعل شيئاً تكرهه ، فأعلمت أبا العتاهية بذلك ، فقال[2] :

قطَّعتُ منك حبائِلَ الآمالِ ... وأَرَحْت من حلٍّ ومن ترحالِ[3]

ما كان أشأمَ إذْ رجاؤك قَادَنِى[4] ... وبناتُ وعدك يَعْتَلِجْنَ ببالِى

ولئن طَمِعْتُ لرُبَّ برقٍ[5] خُلَّبٍ ... مالَتْ بذِى طَمَعٍ ولُمْعَةِ آلِ[6]

وقد نُقِلت هذه الحكاية على غير هذا الوجه ، والله أعلم بالحقّ فى ذلك .

وضرب المهدى أبا العتاهية مائة سوط لقوله :

ألا إنَّ ظَبْيًا للخليفة صادَنِى ... ومالى على ظَبْىِ الخليفة من عَدْوِ

وقال : أَبِى يتمرَّسُ ، وبحرمى يَتَعَرَّضُ ، وبنِسَائى يَعْبَثُ ؟ ونَفَاهُ إلى الكوفة.

وفى ضربه يقول أبو دُهمان :

لولا الَّذِى أحْدَث الخليفةُ للعشا ... ق من ضَرْبِهِمْ إذا عشقوا

لبُحْتُ باسمِ الذى أُحِبّ ولكنّى ... امرؤٌ قد ثنانِىَ الفَرَقُ[7]

وكان أبو العتاهية بالكوفة لما نفى يَذْكُرُ عُتبة ، ويكنّى باسمها، فمن ذلك قوله :

قل لمن لَسْتُ أسمّى ... بأَبِى أنْت وأُمِّى

بأَبِى أنْت لقد أصـ ... ـبَحْت من أكبَرِ همِّى

---

(١) أشيم : أنظر . (٢) ديوانه ١٩٤ .

(٣) رواية هذا الشطر فى الديوان: وحططت عن ظهر المطى رحالى. (٤) فى الديوان : قاتلى.

(٥) فى الديوان : برقة . (٦) البرق الخلب : مالا مطر فيه . والآل : السراب .

(٧) الفرق : الخوف .

ولقد قلت لأَهْلى　　إِذْ أذاب الحبُّ لَحْمِى
وأرادوا لى طبيباً　　فاكتَفُوا منّى بعلمى
من يكن يَجْهَلُ ما أَلْقَى　　فإن الحبَّ سُقْمِى
إنّ رُوحِى لببغدا　　دَ وفى الكوفةِ جِسْمِى

وقوله :

أَمسى ببغدادَ ظَبْىٌ لستُ أَذْكُرهُ　　إلّا بكَيت إذا ما ذِكْرُه خَطَرا
إنَّ المحبَّ إذا شطَّتْ مَنازِلُهُ　　عن الحبيب بكى أوْ حَنَّ أو ذَكَرا
يارَبّ لَيْلٍ طويل بِتُّ أَرْقُبهُ　　حتى أضاءَ عمودُ الصُّبْح فانْفَجَرا
ما كنتُ أحسِب إلّا مُذْ عرفتكُمُ　　أنَّ المضاجعَ مما تُنْبِتُ الإبَرا
والليلُ أطْوَلُ من يومِ الحسابِ على　　عَيْنِ الشَّجِىِّ إذا ما نَوْمُه نَفَرا

ولما قدمت عُتبة ببَغْداد قدِم معها أبو العتاهية وتلطَّف حتى اتّصل بالرشيد فى خلافة أبيه المهدى ؛ وتمكَّن منه ، وبلغ المهدىَّ خبرَه فأحضره ؛ فقال : يا بائس ؛ أنت مستقتل ، وسأله عن حاله ؛ فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

أنتَ المقابلُ والمُدا　　بِر فى المناسب والعَدِيد
بين العمومةِ والخُئُو　　لة والأُبوّة والجدود
فإذا انتمَيْت إلى أبيـ　　ك فأنت فى المَجْدِ المَشيد
وإذا انتمى خالٌ فما　　خالٌ بأَكْرَمَ مِنْ يزَيد

يريد يزيد بن منصور ؛ وكانت أُم المهدى أم موسى بنت منصور الحميرى وأنشده:

عَلِمَ العالَم أَنَّ المنـايا　　سامعاتٌ لك فيمَنْ عَصاكا
فإذا وجَّهتها نحوَ طاغٍ　　رجعَت ترْعُفُ منه قنَاكا
ولو انَّ الريحَ بارَتْكَ يوماً　　فى سماحٍ قصَّرت عَنْ نَداكا

وأنشده :

أَتتْهُ الخِلافةُ مُنْقَادَةً　　إليه تُجرِّرُ أذيالَها

فلم تَكُ تَصْلُحُ إلاَّ لهُ ولم يَكُ يَصْلُحُ إلاَّ لهَا
ولو رامَها أَحـدٌ غيرهُ لزُلزِلَتِ الأرضُ زِلزَالَها
ولو لم تُطِعْه بناتُ القلوبِ لَمَا قَبِل اللهُ أعمـالَها

فقال له المهدى : إن شئت أدَّبناك بضَرْبٍ وجيع ؛ لإقدامك على ما نُهيت عنه ، وأعطيناك ثلاثين ألف درهم جائزةً على مَدْحِك لنا . وإن شئتَ عَفَوْنا عنك فقط .

فقال: بل يُضيف أميرُ المؤمنين إلى كريم عفوه جميلَ معروفه ؛ ومكرُمتان أكثرُ من واحدة ، وأميرُ المؤمنين أولى من شفَع نعمَته وأتمّ كرمه . فأمر له بثلاثين ألف درهم وعَفَا عنه .

ولمـا قدم الرشيدُ الرَّقَّة(١) أظهر أبو العتاهية الزُّهد والتصوف وترك الغَزل ، فأمره الرشيد أن يتغزّل فأَبى فحبسه فغنّى بقوله :

خَليلَيَّ مَالى لا تزالُ مَضَرَّتى تـكونُ على الأقدار حَتْماً من الحَتْم
كفاكَ بحقّ اللهِ ما قد ظلمتَنى فهذا مقامُ المستجيرِ من الظلم
ألا فى سبيل الله جسمى وقُوّتى ألا مُسعِدٌ(٢) حتى أنوحَ على جِسْمِى

فأمر بإحضاره وقال : بالأمس يَنْهاك أميرُ المؤمنين المهدى عن الغزَل ، فتأبَى إلا لَجاجا ومَحْـكا(٣) ؛ واليوم آمرك بالقول فتأْبَى جُرْأة علىّ وإقداما ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئات ، كنتُ أقول الغزلَ ولى شبابٌ وجِدَة ، وبى حَراكٌ(٤) وقُوَّة ، وأنا اليوم شيخٌ ضعيف لا يحسن بمثلى تَصابٍ ؛ فردَّه إلى حبسه فكتب إليه :

أنا اليوم لى ، والحمـدُ لله ، أَشْهرٌ يَرُوح علىَّ الغَمُّ منك ويَبـكرُ
تذكَّرْ ، أمينَ اللهِ ، حقّى وحُرْمَتى وما كنتَ تُوليني ، لعلَّك تَذْكرُ

(١) الرقة : بلد على الفرات ، وآخر غربى بغداد . (٢) معين .
(٣) محك كمنع : لج . (٤) الحراك : الحركة .

ليالىَ تُدنى منك بالقُرب مجلسى ووجهُك من ماء البشاشة يقطُرُ
فمَنْ لىَ بالعين التى كنتَ مرةً إلىَّ بهـا من سالفِ الدَّهْر تنظُرُ

فبعث إليه : لا بأس عليك ؛ فقال :

كأنَّ الخلقَ رُكِّبَ فيـه روحٌ له جَسَدٌ وأنْت عليـه راسُ
أمين الله إنَّ الحبس بأسٌ وقد وقّعتَ : ليس عليك باسُ

فأخرجه .

أخذ البيتَ الأول من هذين علىّ بن جبلة وزاد فيه ، فقال لأبى غانم الطوسى :

دجلَة تَسْقى وأبو غانمٍ يُطْعِمُ مَنْ تَسْقى من النَّاسِ
والخلْقُ جِسمٌ ، وإمامُ الهدى رَأْسٌ ، وأنت العينُ فى الرَّاسِ

* * *

شىء من النقد

وكان عمر بن العلاء ممدَّحا ، وفيه يقول بشار بن برد[١] :

إذا أيقَظَتْكَ حُروبُ العِدَى فَنبِّه لها عُمراً ثمَّ نَمْ
دعانى إلى عُمـرٍ جودُهُ وقولُ العشيرة بَحْر خِضَمْ
ولولا الذى ذكروا لم أكُنْ لأمْدَح ريحانةً قبـل شَمْ
فـتًى لا يَبيت على دِمْنَـةٍ ولا يشرب المـاءَ إلّا بدَمْ

أخذ هذا البيت أبو سعيد المخزومى ، فقال[٢] :

وما يُريدون لولا الجبن[٣] من رَجُل بالليل مشتَمِل بالجَمْرِ مُكْتَحِلِ
لا يشربُ الماءَ إلا من قَلِيبِ دمٍ ولا يبيت له جارٌ على وَجَـلِ[٤]

وقال أبو الطيب[٥] :

تعوَّدَ ألاَّ تَقْضَمَ الحبَّ خيْلُهُ إذا الهامُ لم تَرْفع جُنوبَ العَلائقِ[٦]

---

(١) المختار من شعر بشار ٨٠ ، السمط : ٥٥١ . (٢) اللآلئ : ٥٧٦ ، والأمالى ١ ــ ٢٥٩ مع اختلاف فى الرواية . (٣) فى المختار : الحين ، وفى الأمالى : لولا الحين من أسد . (٤) القليب : البئر . (٥) المختار من شعر بشار ٨١ ، ديوانه : ٢ــ٣٣٠ . (٦) العلائق جمع عليقة : وهى المخلاة ، وجنوبها : نواحيها .

ولا تَرِد الغدران[1] إلاَّ وماؤُهَا ... من الدَّم كالرَّيحَانِ تحتَ الشَّقائقِ

وقال أبو القاسم بن هانئ[2] :

مَنْ لم يرِ الميْدان لم يرَ معركاً ... أشِباً ويوماً بالأسنة أكْهَبَا[3]

وكتائبا ترْدِى غَوارِبُها العِدَى ... وفوارسا تعْدو صَوالجها الظُّبا

لايورِدون الماءَ سُنْبُكَ سابحٍ[4] ... أو يكتَسى بدَمِ الفوارسِ طُحْلُبا

***

رجع إلى عمر بن العلاء وأبى العتاهية

قال : وبلغ عمر بن العلاء أن أبا العتاهية عاتبٌ عليه فى هناتٍ نالها منه فى مجلس، وكان كثيرَ الانقطاع إليه فتخلّف عنه ، فساء ذلك عمر ، فكتب إليه : قد بلغنى الذى كان من تجنُّبك فيما استخفّك به سوءُ الأدب عن عِلْم حقيقـةٍ منى ، فصرت متردّدا من العمى فى يَلامِيع[5] الشبهة ؛ ولو كان معك من علمك داعٍ إلى لقائى لكشفت لك مَوْرِدَ الأمر ومصدره، لترجع إلى الصِّلة ، فتقال أو تأبى إلا الصَّريمة فتَصْرِم[6] ؛ وقد قال الأول :

ومُستعتب أبْدَى على الظنِّ عَتْبَهُ ... وأخرج منه المحفظَاتِ غَليلُ

كشفتُ له عذْرًا فأبْصَر وجههُ ... فعاد إلى الإنصاف وهو ذَليلُ

فأجابه أبو العتاهية : لم أُجُزْ بعَتْبِى الحقيقةَ إلى الشبهة ، ولم أجد سعةً مع عظيم قدرتك إلى حمل اللائمة ، فقصَّر بى الخوفُ من سُخْطِك ، على تَرْكِ معاتبتك ؛ لأنّ المعاتبة لا تجتنى إلّا من المساوِى ، ولو رغبت عن الصلة إلى القطيعة لتقاضيتك ذلك عن طول الصُّحبة وسالف المدّة ، وأنا أقول :

رضيتُ ببعض الذّلّ خَوْفَ جميعِهِ ... وليس لمثلى بالملوك يَدَانِ

---

(١) فى كل الأصول : الغربان إلا وماؤه . (٢) المختار من شعر بشار ٨٠ ، ديوانه ١٧

(٣) الكهبة : الدهمة ، أو غبرة مشربة بسواد ، والمراد الظلمة .

(٤) فى المختار : سنبك حافر ، والسنبك: طرف الحافر . (٥) اليلاميع من السلاح: ما برق . (٦) تصرم : تقطع .

وكنت امرأً أخشى العقابَ وأتّقى ... مَغَبَّةَ ما تَجْنى يَدِى ولِسانِى
فهل من شفيع منك يَضْمَنُ تَوْبَتى ... فإنى امرؤٌ أوفى بكلِّ ضَمانِ

فتراجعا إلى أحسن ما كانا عليه .

وإنما ألم أبو العتاهية فى قوله : إنّ المطايا تشتكيك [١] ... وما يليه ، بقول أَبى الحجناء نُصَيب الأكبر :

فعاجوا فأثْنَوا بالذى أَنْتَ أَهْلُهُ ... ولو سَكَتُوا أَثْنَتْ عليك الحَقَائِبُ

وقال أبو الطيب فى أبى العشائر الحمدانى [٢] :

تُنْشِدُ أثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ ... بِأَلْسُنٍ مَالَهُنَّ أفْوَاهُ
إذا مَرَرْنَا عَلَى الأَصَمِّ بِهَا ... أَغْنَتْهُ عَنْ مِسْمَعَيْهِ عَيْنَاهُ

وهذا المعنى من النُّصْبَةِ [٣] الدالة بذاتها التى ذكرتها عن الجاحظ فى أقسام البيان.

* * *

الشواهد والدلالات والآيات

وقال بَعْضُ الخطباء : أشهد أن فى السموات والأرض آياتٍ ودلالات ، وشواهدَ قائمات ؛ كلٌّ يؤدى عنك الحجَّة ، ويشهد لك بالربوبية .

أبو العتاهية وأبو نواس

ونظير هذا قول أبى العتاهية ، وروى أنه جلس فى دكان ورّاق ، وأخذ كتابا فكتب على ظهره :

فواعجباً كيف يُعْصَى المَلِيـ ... ـكُ أَمْ كيف يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
ولله فى كلّ تحريكةٍ ... وتَسْكِينةٍ فى الوَرَى شَاهِدُ
وفى كلِّ شىءٍ له آيةٌ ... تَدُلُّ على أَنَّه وَاحِدُ

وانصرف ، فاجتاز أبو نواس بالموضع فرأى الأبياتَ ، فقال : لِمَنْ هذا؟ فلوددتُها لى بجميع شِعْرِى ، فقيل : لإسماعيل بن القاسم ، فوقع تحتها :

سبحان مَنْ خَلَق الخَلْـ ... ـقَ من ضعيفٍ مَهِينِ

(١) فى صفحة ٣٢٤ (٢) ديوانه : ٤ــ٢٦٤ . (٣) فى ق ، ط : القضية .

فصَاغه من قَرارٍ إلى قرار مكينِ
يحـول شيئا فشيئا فى الحُجْب دونَ العيون
حتى بدَتْ حركاتٌ مخلوقةٌ مِنْ سُكُون

وقال الفضل بن عيسى الرَّقاشى : سَلِ الأرض مَنْ غَرس أشْجَارِكِ ، وشقَّ أنهارِكِ ، وجَنَى ثمارِكِ ، فإنْ لم تُجِبْك حِوَارا ، أجابَتْك اعتبارا .

وهذا شبيهٌ بقول عدىّ بن زيد ، وقد نزل النعمان بن المنذر تحت سَرْحَة [1] ؛ فقال: أتدرى ماتقول هذه السَّرْحَة أيها الملك ؟ قال : وما تقول ؟ قال تقول :

ربَّ رَكْبٍ قد أناخُوا حَوْلَنَا يشربون الخَمْرَ بالماءِ الزُّلال
ثم أضْحوا لَعِبَ الدَّهْرُ بهم وكذاكَ الدَّهْرُ حالاً بَعْدَ حَال

ويروى « عكَفَ الدَّهْرُ بهم فثوَوْا » . فتكدَّرَ حالُ النُّعْمان وما كان فيه من لذَّةٍ .

ألفاظ لأهل العصر فى الشكر بدلالة الحال

لو سكت الشَّاكرُ لنطَقَت المـآثِرُ . لو صَمتَ المُخَاطِبُ لأثْنَت الحقائِبُ ، واشهدَتْ شواهِدُ حاله على صِدْقِ مَقَالِه . إن جَحَدْتُ ما أوْلانيه ، وكَفَرْتُ ما أعْطانيه نطقتْ آثارُأياديه علىَّ ، ولمعت أعلامُ عَوارِفه [2] لدىَّ .

ولأبى الفضل الميكالى من رسالة : وردَ فلانٌ فتعاطى من شُكْرِه على نعمِه التى ألبسه جمالَهاوأسحَبه أذْيالَها ، مالولم يتحدّثْ به ناشرا ومُثْنيا ، ومعيداًومُبْدِياً، لأَثْنَت به حَالُه ، وشهِدَتْ به رِحَاله ، حتى لقد امتلأت بذكرِه المحافلُ ، وسارت بخبره الرُّكْبان والقوافلُ ، وصارت الألسِنةُ على الشكر والثناء لساناً ، والجماعة على النَّشْرِ والدعاء

---

(١) السرح : شجر عظام ، أو كل شجر لا شوك فيه .
(٢) العوارف : النعم .

أنصاراً وأعوانا ، على أنه وإن بالغَ فى هذا الباب ، وجاوزَ حدَّ الإكثار والإسهاب ، نهايتُه القصورُ دون واجبه ، والسقوطُ عن أدنى درجاته ومَرَاتبه .

ومما يقترن لهم بهـذا المعنى من ذِكْرِ الشكر : قال أبو الفتح البستى [١] : الحرُّ نَحْلُ الشكر ، إن أجْنَاه المرءُ من خيره شكرا أجناه من بِرّه [٢] شهْدًا .

غيره : الشكر ترجمانُ النيّـةِ ، ولسانُ الطَّوِيَّة ، وشاهدُ الإخلاصِ ، وعنـوان الاختصاص . الشكرُ نسيمُ النِّعَمِ ، وهو السببُ إلى الزيادة ، والطريقُ إلى السعادة . الشكرُ قَيْدُ النِّعْمَـة ، ومفتاحُ المزيد ، وثمنُ الجنةِ . مَنْ شكرَ قليلا استحقَّ جزيلا . شُكْرُ الموْلَى ، هو الأوْلَى . الشكر قَيْد النِّعم وشِكالُها ، وعِقالُها ، وهو شبيه بالوحش التى لا تقيم مع الإيحاش ، ولا تَرِيم مع الإيناس . مَوْقِعُ الشكرِ من النعمة مَوْقِعُ القِرَى من الضيفِ ، إنْ وجده لم يَرِم ، وإن فقده لم يُقِم . الشكر غرسٌ إذا أُودِع سَمْع الكريم أثمر الزيادةَ ، وحفظَ العادة . الشكرُ تعرّض للمزيد السائغ ، والنِّعم السَّوابغ . شُكْرُه [٣] شكرُ الأسير لمن أطْلَقه ، والمملوكِ لمن أعْتقَه . أثْنَى عليه ثناءَ الرَّوْضِ المُمْحِل ، على الغَيْثِ المُسْبِل [٤] . أثنى عليه ثناء لسان الزَّهر على راحة المطر . أثنى عليه ثناءالعطشانِ الوارد على الزُّلالِ الباردِ . شكْرُه شكر الأَرض للدِّيم ، وزُهَيْر لهَرِم . بَسط لسانَ الثناءوالدعاء ، وبلغ عنان الشكرِ عَنَان [٥] السماء . شكره شكراً ترتاحُ له المكارم ، وتَهتزّ له المواسِم . لأشكُرَنّه شُكراً تَشيع أنواعُه ، وتَنبَسِطُ أبْواعه [٦] ، ويلَذّ ذكره وسماعُه . شكرٌ ملأَ القلبَ واللسانَ ، كشكر حَسَّان لآل غَسَّان . أطال عِنانَ الشكرِ ، وفسح مجالَه ، ورفعَ أَعمدتَه ، ومدَّ أرْوِقَتَه . شكْرٌ كأنفاسِ الأحبابِ ، أو أنفاس الأسحارِ ، أو أنفاس الرِّياض غِبَّ القِطَار .

---

(١) فى اليتيمة : ٤ـ٢٨٨ : الحر نحل السكر ... شكدا ... ، والشكد : العطاء

(٢) فى اليتيمة : من سكره . (٣) فى بعض الأصول : شكر . (٤) أسبلت السماء : أمطرت . (٥) العنان : السحاب . (٦) الباع : قدر من اليدين كالبوع ـ بفتح الباء وضمها ، وجمعه أبواع .

[من المدح]

رجع ما انقطع :

الفرزدق عندسليمان ابن عبد الملك

كان سببُ قولِ نصيب[١] : * فعاجوا فأثْنوا بالّذى أنْت أهْلُه * أنه كان مع الفرزدق عنـد سليمان بن عبد الملك فقال سليمان بن عبد الملك : يا فرزدق؛ مَنْ أَشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين ، قال : لماذا ؟ قال بقولى[٢] :

وركْبٍ كأنَّ الريحَ تطلبُ عندهم ... لها تِرَةً من جَـذْبِها بالعصائبِ
سرَوْا وسَرَتْ نَـكْباء[٣] وهى تلفّهم ... إلى[٤] شُعَبِ الأكوارِ ذاتِ الحقائبِ
إذا آنسوا ناراً يقولون لَيْتَها ، ... وقد خَصِرَتْ[٥] أيديهم، نارُ غالبِ

يريد أباه ، وهو غالب بن صعصعة بن ناجيـة بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع. فأعرض عنه سليمان كالمغضَب ، لأنه إنما أراد أن يُنْشِدَ مدحاً فيه؛ ففهم نصيب مرادَه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد قلتُ أبياتاً على هذا الروىّ ليست بدونها ، فقال : هَاتِها ؛ فأنشأ نصيب يقول[٦] :

أقولُ لركْبٍ قافلين لَقِيتهم ... قفَا ذات أَوْشَالٍ ومَوْلاك قَارِبُ
فقد[٧] أخبرونى عن سليمان أننى ... لمعروفهِ من آل وَدَّانَ طالبُ
فعاجوا فأَثْنَوْا بالّذى أنتَ أهلهُ ... ولو سكتوا أثنَتْ عليكَ الحقائِبُ
فقالوا تركْناهُ وفى كلِّ لَيْلةٍ ... يطيفُ به من طالبى العُرْفِ راكِبُ
ولو كان فوْقَ الناسِ حىٌّ فعالهُ ... كفعْلِكَ أو للفعلِ[٨] منكَ يقارِبُ
لقُلْنَا له شِبْهٌ ولـكِنْ تعذَّرَتْ ... سِواكَ عن المستشفِعين المطالبُ

---

(١) سبق فى صفحة ٣٣٢ . (٢) ديوانه ٨ ، المختار من شعر بشار ١٠٢ ، القالى : ٣ — ٤٠ . (٣) فى الديوان : سروا يخبطون الليل وهى تسفهم .
(٤) فى الديوان : على شعب الأكوار من كل جانب . (٥) فى الديوان : إذا مارأوا ... وفى س ، ق : وقد خسرت . (٦) المختار من شعر بشار : ١٠٢ ، الأمالى : ٣ — ٤٠ ، السمط : ٢٩١ . (٧) فى المختار : قفوا . (٨) فى س : للفضل .

هو البدرُ والناسُ الكواكبُ حَوْلَهُ وهل تُشْبِه البدرَ المنيرَ الكواكبُ

فقال سليمانُ : أحسنتَ ، والتفتَ إلى الفرزدق فقال : كيف تسمعُ يا أبا فِراس؟ قال : هو أَشعَرُ أهل جِلْدَته ، قال : وأهل جِلْدَتك ؛ فخرج الفرزدق وهو يقول :

وخَـيْرُ الشعر أكْرَمُه رجالًا وشَرُّ الشعرِ ما قَالَ العبيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد : وهذا بابٌ فى المدح حسن متجاوز مُبْتَدع لم يُسْبَق إليه.

سواد الجلد

قول نصيب : « من أهْلِ ودّان » . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : ذكر محمد ابن كناسة والزبيدى[1] أنّ نصيبا من أهل ودّان ، وكان عبْداً لرجل من بنى كنانة هو وأهل بيته ، وزعم أبو هفّان أنه عبدٌ لعبد العزيز بن مروان ، وكان نصيبٌ شديدَ السواد ، وهو القائل :

كُسيتُ ــ ولم أملك ــ سَواداً وتحتَهُ قميصٌ من القُوهىّ[2] بيضٌ بَنائقُهْ

فما ضرَّ أثوابى سَوادِى وإنَّنى لـكالمِسْكِ لا يَسْلُو عن المسك ذائقُهْ

وقال سحيم عبد بنى الحسحاس[3] :

أشعارُ عَبْدِ بنى الحسْحاس قُمْنَ لهُ عند[4] الفَخار مَقامَ الأَصْلِ والوَرِقِ

إن كنتُ عبْداً فنفسى حُرَّةٌ كَرَماً أو أسْوَدَ اللَّوْنِ إنى أبْيَضُ الخُلُقِ

وقال أبو الطيب المتنبى لـكافور الإخشيدى[5] :

إنَّما الجِلْدُ مَلبَسٌ وابيِضاضُ الخلـ ـق[6] خَـيْرٌ من ابْيِضاضِ القَبَاءِ

وقال نصيب لبعض ملوك بنى أميـة : إن لى بنات نَفَضْتُ عليهن من سوادى . فقال : ما أحسن ما تلطّفت لهنّ ! وأمر له بصلة .

وكان أبو تمام حبيب بن أوس لما مدح أبا جعفر محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدته التى أولها[7] :

---

(١) فى س : والزبيرى . (٢) قوهستان : كورة بين نيسابور وهراة ، ومنه ثوب قوهى لما ينسج بها . أو كل ثوب يشبهه ، وهى ثياب بيض . (٣) ديوانه : ٥٥

(٤) فى الديوان : يوم . (٥) ديوانه : ١ــ٣٥ . (٦) فى الديوان : النفس

(٧) ديوانه ٢٥٢

لَهَانَ علينا أَنْ نقولَ وتَفْعلا ... ونذكُرَ بعضَ الفضل منك وتفضلا

وهي من أحسن شعره ، وقَّع له على ظهرها :

رأيتك سَمْحَ البيع سَهْلًا وإنما ... يُغَالَى إذا ماضنَّ بالشيء بائعُهْ[1]

فأما إذا هانت بضائعُ بَيْعِهِ ... فيوشك أَنْ تبقى عليه بَضَائعُهْ

هو الماء إن أَجْمَمته طاب وِرْدُهُ ... ويفسد منه أَنْ تُبَاحَ مشارِعُه

فأجابه بقصيدة طويلة ، واحتجّ عليه واعتذَر إليه في مدحه لغيره ؛ فقال في بعض ذلك[2] :

أَمّا القوافي فقد حصَّنْتُ غرَّتَها ... فما يصابُ دَمٌ منها ولا سَلَبُ

مَنَعْت إلاَّ مِنَ الأكفاء أَيّمها[3] ... وكانَ منكَ عليها العَطْفُ والحدَبُ

ولو عضلْتَ عن الأكفاء أَيِّمَها ... ولم يكنْ لكَ في إظهارها أَرَبُ

كانت بنات نصيبٍ حين ضَنَّ بها ... على المَوالي ولم تحفِلْ بها العَرَبُ

وقد قيل إن أبا تمام أجابه بقوله :

أباجعفر إن كنت أَصبحْتَ شاعرا ... أُسَامِح في بَيْعِي له من أبا يِعُهْ

فقد كنتَ قبلي شاعراً تَاجراً بهِ ... تساهَلُ من عادَت عليك مَنَافعه

فصِرْتَ وزيراً والوزارة مَكْرَعٌ ... يَغَصُّ به بعد اللَّذَاذة كَارِعُه

وكم من وزير قد رأينا مَسلَّطا ... فعاد وقد سُدَّت عليه مَطَالِعُه

ولله قَوْسٌ لا تطيشُ سِهَامُها ... ولله سيفٌ لا تفلُّ مَقَاطِعُه

قال أبوبكر محمد بن يحيى الصولي : ويقال إن هذه الأبيات منحولة لحبيب، وليس مثل أبي جعفر في جلالةِ قَدْره واصطناعه لحبيب يُعَامَل بمثل هذا الجواب ، ولا يَنْتَهي جَهْلُ حبيب أن يقابل مأموله ومن يرْتَجي جليلَ الفائدة منه بهذه الأبيات .

---

(١) في س : مانعه وفي أخبار أبي تمام ١٢٠ : بالبيع . (٢) ديوانه : ٤٩ .

(٣) الأيم : الحرة والقرابة ، والتي لازوج لها . وفي الديوان : ناكحها.

وقد قيل : بل قالها ، ولم ينشدها أحداً ؛ وإنما ظهرت بعد موته .

وكان ابنُ الزيات كما قال شاعراً ، ومدح الحسنَ بن سهل فى وزارته للمأمون ؛ وأعطاه عشرة آلاف درهم فقال :

لم أَمْتَدِحك رجاءَ المالِ أَطْلُبه ... لكن لِتَلبِسَنِى التَّحْجِيلَ والغُرَرَا

ما كان ذلك إلا أَنّنى رَجُلٌ ... لأقرب الوِرْدَ حتى أَعْرِفَ الصَدَرا

غضب ابن الزيات على أبى تمام

قال الصولى : وكان السببُ الذى أَوْجد أبا جعفر على أبى تمام حتى قال : لقد رأيتك سَهْلَ البيع ... الأبيات ، قولَ أبى تمام قصيدته المشهورة فى ابن أبى دُوَاد التى أولها[1] :

سَقَى عهد الحمى سيلُ العِهادِ ... ورُوِّى[2] حاضر منه وبَادِ

نَزَحت به رَكِىَّ الدمعِ لما[3] ... رأيت الدمعَ مِنْ خَيْر العَتَاد

يقول فيها فى مدحه :

هُمُ عظم الأثافِى من نزارٍ ... وأهلُ الهضْبِ منها والنِّجَادِ

معرَّسُ كلِّ مُعْضلةٍ وخَطْبٍ ... ومنبتُ كلِّ مكرمةٍ وآدِ

إذا حدَثُ القبائلِ ساجَلوهم ... فإنهمُ بَنُو المجد[4] التِّلادِ

تُفرِّج عنهم الغمراتِ بِيضٌ ... جِلادٌ تحت قَسْطَلةٍ[5] الجِلاد

وحشو حوادث الأيام منهم ... معاقل مِطْرَدٍ وبنو طِرادِ

لهم جهلُ السباع إذا المنايا ... تمشَّتْ فى الوغى[6] وحُلُوم عادِ

لقد أَنْسَتْ سُلوِّى[7] كلَّ دهرٍ ... محاسنُ أحمدَ بن أبى دُوادِ

متى تَحْلُلْ به تحلُلْ جَنَابا ... رضيماً للسَّوارى والغَوادِى

---

(١) ديوانه : ٧٨ ، أخبار أبى تمام : ١٥٠ . (٢) فى الديوان : سبل ... وروض .

(٣) فى الديوان : إنى . (٤) فى الديوان : بنو الدهر .

(٥) قسطلة : غبار . (٦) فى الديوان : فى القنا .

(٧) فى الديوان : مساوى .

وما اشتبهت سبيلُ[1] المجدِ إلاّ هَداكَ لقِبْلَةِ المعروفِ هادِ
وما سافرتُ فى الآفاق إلّا ومِنْ جَدْواكَ راحِلَتى وزادى
مقيمُ الظنِّ عنـدكَ والأمانِى وإن قَلِقَتْ ركابى فى البلادِ

وهذه النكت التى أحقَدت أبا جعفر ، وأعتبته على أبى تمام ، وفى هـذه القصيدة يقول معتذراً إليه فى الذى قُرِّب به عنده من هجاء مضر[2] :

أتانى عائرُ[3] الأنباء تَسْرِى عقاربُهُ بداهيـةٍ نآدِ[4]
نثاً خبراً[5] كأنَّ القلبَ منهُ[6] يُجَرُّ به على شَوْكِ القَتَادِ
بأنّى نِلْتُ من مُضَرٍ وخَبَّتْ إليكَ شَكِيّتى خَبَبَ الجوادِ
وما رَبْعُ القطيعةِ لى برَبْعٍ ولا نَادى الأذَى مِنّى بِنَادِ
وأين يجوزُ[7] عن قَصْدٍ لسانى وقلبى رائحٌ برِضَاكَ غادِ
ومما كانتِ الحُكَماءُ قالَتْ : لِسَانُ المرءِ من خَدَمِ الفؤادِ
وقِدْماً كنتُ معسولَ القوافى[8] ومأدومَ المعـانى[9] بالسَّـدادِ

وكان ابن أبى دُوَاد غالياً فى التعصُّب لإياد وإلحاقها بنزار ، على مذهب نُسَّاب العدْنانيين . قال : وكلٌّ من بالعراق من إياد دخلوا فى النَّخَع[10]، وإليهم يُنْسَبون ؛ ومن كان بالشام فلمّ على نسبهم فى نزار ، وابن أبى دُوَاد يرمى بالدعوة ؛ والتكثيرُ من أخباره يُخرِجُ إلى ما أخافهُ من تطويلِ التصرُّف ، فى مملول التكلُّفِ .

ابن أبى دواد

وكان ابن أبى دُوَاد عالماً بضروبِ العِلم والأدب ، متصرّفاً فى صناعة الجِدال ،

(١) فى الديوان : طريق . (٢) ديوانه ٧٩ . (٣) فى الديوان : عاثر .
(٤) نآد : شديدة الأذى . (٥) فى ق ، س : ثنا خبر .
(٦) فى الديوان : كأن القلب أمسى . (٧) فى الديوان : يحور .
(٨) فى الديوان : كنت معسول المعانى . (٩) فى الديوان : ومأدوم القوافى .
(١٠) النخع : قبيلة باليمن .

على مذهب أهل الاعتزال ، وكانت المداوةُ بينه وبين ابنِ الزيّات بيّنة ، والنفاسة فى الرياسة بينهما متمكّنة ، وقال له بعض الشعراء :

أَكُلّ أبى دُواد مِن إيادِ ‍ ‍ ‍ ‍ فكلُّ أبى ذؤيبٍ من هُذَيلِ

قال مسلم : ما تاه إلّا وضيع ، ولا فاخر إلا سقيط ، ولا تعصَّب إلّا دَخِيل .
وقال مدنى لرجل : ممن أنت ؟ فقال : من قريش ، والحمد لله ، قال : بأبى أنت ! التحميد هاهنا رِيبة ! واسم أبى دُوَاد دُعْمِىّ[١] ، قال أبواليقظان: وهم من قبيلة يُقالُ لها بنو زهرة إخوة بنى جدّان ، وقد ذكره الطائى فى قوله[٢] :

والغيث من زهْرٍ سحابةُ رأْفةٍ ‍ ‍ ‍ ‍ والركنُ من شيبانَ طَوْدُ حَديدِ

ذكر شيبان ، لأن خالدَ بن يزيدَ الشيبانى شفع له عند ابنِ أبى دُوَاد فيما ينساقُ الحديثُ إليه من مَوْجدَتِه عليه .

قال محمود الوراق : كنتُ جالساً بطرَفِ الجِسْر[٣] مع أصحابٍ لى ؛ فمرّ بنا أبو تمام ، فجلس إلينا ، فقال له رجل منا : يا أبا تمّام ، أىُّ رجلٍ أنتَ لو لم تكن من اليَمَنِ ! قال : ما أُحِبُّ أَنّى بغير الموضع الذى اختاره اللهُ لى . فمَنْ تحِبُّ أَن أَكونَ ؟ قال : من مُضَر . قال : إنما شَرُفَتْ مُضَر بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك ما قِيسوا بملوكنا وأَذْوائنا ، وفينا كذَا ، ومِنَّا كذا — يَفْخَر ؛ وذكر أشياءَ عاب بها مُضَر ، ونُمِى الخبرُ إلى ابن أبى دُوَاد وزيدَ فيه ، فقال: ما أُحِبُّ أنْ يَدْخُلَ علىَّ . فقال يعتذر إليه بقصيدة أولها[٤] :

سَعِدَتْ غُربةُ النَّوَى بسُعَادِ ‍ ‍ ‍ ‍ فى طلوع[٥] الإتْهامِ والإنجادِ

يقول فيها :

بعد أن أصْلَتَ الوُشَاةُ سُيُوفاً ‍ ‍ ‍ ‍ قَطَعَتْ فِىَّ وَهىَ غيرُ حِدادِ

---

(١) دعمى : من إياد — اللسان — دعم. (٢) ديوانه : ٨٤ . (٣) أخبار أبى تمام: ١٤٧ وفيه : بطرف الخير حير سر من رأى . (٤) ديوانه : ٧٥ ، وأخبار أبى تمام : ١٤٨.
(٥) فى أخبار أبى تمام : فهى طوع .

فنَفَى عنكَ زُخْرفَ القولِ سَمْعٌ ... لم يكُنْ فرضه[1] لغيرِ السَّدادِ
ضربَ الحِلْمُ والوَقَارُ عليـهِ ... دونَ عُورِ الـكلامِ بالأَسْدادِ
ملأتك[2] الأَحْسابُ أيَّ حياةٍ ... وحيا أَزْمَةٍ وحيَّـةَ وادِ
عاتقٌ مُعْتَقٌ من الرقّ[3] إلّا ... من مُقاساةِ مَغرمٍ أَوْ نِجادِ
للحمالاتِ والحمـائلِ فيـهِ ... كاحوب الموارِدِ الأعدادِ

فما رَضِيَ عنه حتى تشفّع إليـه بخالد بن يزيد بن مزْيد الشيبانى ، فقال فى قصيدة[4] :

أَسرَى طَريداً للحياءِ مِنَ التى ... زَعَمُوا ، وليس لقوله[5] بطَرِيدِ
كنتَ الربيعَ ، أمامَهُ ووراءَهُ ... قَمرُ القبـائلِ خَالِدُ بن يزيدِ
وغداً تَبيّنُ ما براءَة ساَحَتِى ... لو قد نفضت تَهائِمى ونجودِى
لله درُّك أيُّ[6] بابِ مُلِمَّـةٍ ... لم يُرْمَ فيـهِ إليك بالإقليدِ
لـمَّا أظلّتنى غمامك أَصْبَحَتْ ... تلك الشهودُ علىّ وهْى شُهودى
من بعد ما ظنُّوا بأَنْ سيكونُ لى ... يومٌ بزَعمِهم[7] كيوم عَبيـدِ

يريد عبيد بن الأبرص الأسدى ، وكان النعمان بن المنـــذر لقيه يوم بُؤْسِه فقتله .

فصاحة ابن أبى دواد

وكان ابن أبى دُوَاد كريما فصيحا جَزْلا . قال أبو العيناء : كنا عند ابن أبى دُوَاد ومعنا محمود الورّاق وجماعةٌ من أهل الأدب والعلم ؛ فجاءه رسول إيتاخ فقال : إن الحاجب أبا منصور يقرأُ على القاضى السلام ، ويقول : القاضى يتَعنَّى[8] ويَجِىءُ فى الأوقات ؛ وقد تفاقم الأمرُ بينـه وبين كاتب أمير المؤمنين ، يريد ابن الزيات ،

---

(١) فى الديوان : فرصة . (٢) فى الديوان : مليتك ، وفى س : متعتك .
(٣) فى الديوان : من الهون . (٤) ديوانه : ٨٤ ، وأخبار أبى تمام : ١٥٤ .
(٥) فى الديوان : وليس لرهبة بطريد . (٦) فى الديوان : * نفسى فداؤك أى باب ملمة *
والإقليد : المفتاح . (٧) فى الديوان : يوم ببغيهم كيوم عبيد . (٨) ينصب .

فصار يضرُّنا عند قَصْدِه القاضى ، وما أحِبّ أن يتعنّى إلىّ لهذا السبب ؛ إذ كنت لا أَصِل إلى مكافأته . فقال : أَجيبوه عن رسالته ، فلم نَدْر ما نقـول ، ونظر بعضُنا إلى بعض ، فقال : أَمَا عندكم جواب ! قلنا : القاضى ، أعزّه الله ، أَعلمُ بجوابه منا ، فقال للرسول : اقرَأْ عليه السلام ، وقل له : ما أتيتك متكثِّرا بك من قلّة ، ولا متعزِّزاً بك من ذِلّة ، ولا طالبا منك رُتْبة ، ولا شاكيا إليك كُرْبَة ، ولكنك رجلٌ ساعدَك زمَان ، وحرَّكَك سلطان ، ولا علم يُؤْلف ، ولا أَصل يُعْرَف ؛ فإنْ جِئْتك فبسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك ! فعجِبْنا من جوَابه .

[بعد تغيّر الحال]

ذم الحجاج بعد مدحه

صعد خالدُ بنُ عبد الله القسرى المنبر يومَ جمعة ، فخطب [١] وهو إذْ ذاك أميرٌ على مكة ، فذكر الحجَّاج فأَحْمَد طاعتَه ، وأَثْنى عليه خيراً ، فلما كان فى الجمعة الثانية وردَ عليه كتابُ سليمان بن عبد الملك يأمرُه فيه بِشَتْم الحجّاج وذِكْرِ عيوبِه ، وإظهار البراءة منه ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن إبليس كانَ مَلَكاً من الملائكة ، وكان يُظْهِر من طاعة الله ما كانت الملائكة تَرَى له بذلك فضلا ، وكان الله تعالى قد علم من غِشّه ما خَفِى عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحتَه ابتلاه بالسجود لآدم ؛ فظهر لهم ما كان يُخْفيه عنهم فلعنوه ؛ وإن الحجاجَ كان يُظْهِر من طاعة أمير المؤمنين ما كنَّا نرى له بذلك فضلا ، وكان الله عزّ وجل أَطلع أمير المؤمنين من غلِّه وخُبْثه على ما خَفِى عنا ، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يدى أمير المؤمنين ، فالْعَنُوه ، لعنهُ الله . ثم نزل .

أبو تمام يعتذر من مدح الأفشين

وكان أبو تمام قد مدح الأفشين التركى ، واسمه خيذر [٢] بن كَاوُس ، وكان من أجلّ قُوّاد المعتصم ، وأَبْلَى فى أمر بابك الخرمى بلاءً حمده له ؛ فلما سَخِطَ المعتصمُ عليه لِمَّا نُسِبَ إليه من سوء السيرة ، وقُبْح السريرة ، وأنه يخطب درجة بابك ، ويريد التحصّن بموضع يَخْلَعُ فيه يدَه عن الطاعة ، وأظهر القاضى أحمد بن أبى دواد

---

(١) العقد الفريد : ٢ — ١٥٨ ، ٣ — ١١ . (٢) فى س : خيذر ، وفى ق : حيذر .

عليه أنه على غيرِ الإسلام، قال أبو تمام معتذرا للمعتصم من تقديمه واجتبائه، ولنفسه من مدحه وإطرائه (١) :

ما كان لولا فحشُ غـدرة خيـذرٍ ... ليكونَ فى الإسلامِ عامُ فِجَارِ
هذا الرسول (٢) وكان صفوةَ ربِّهِ ... من خَيْرِ بادٍ فى الأنام وقارِ
قد خصّ من أهل النفاق عصابةً ... وهمُ أشدُّ أذًى من الـكُفَّارِ
واختار من سعدٍ لعينَ (٣) بنى أبى ... سرحٍ لعمر (٤) الله غيرَ خيار
حتى استضاءَ بشعلةِ السُّوَرِ التى ... رفِعت له سترا من الأستارِ (٥)

ثم ذكر فى هذه القصيدة أن قتل الأفشين لبابك لم يكن بصِدْق بصيرة ، ولا لصحة سريرة ، فقال (٦) :

والهاشمون المستقلة ظُعنهم ... عن كربلاءَ بأَثقلِ الأَوزارِ (٧)
فشفاهم المختارُ منهُ ولم يكن ... فى دينهِ المختارُ بالمختارِ

أهل النفاق

أما من ذُكِر من أهل النفاق ، فقد كانوا يظهرون غَيْرَ ما يسرون ، حتى أطلع الله نبيَّه عليه السلام على أخبارهم ، ونَشَر له مَطْوِيّ أسرارهم ، وأما ابنُ أبى سَرْح

ابن أبى سرح

فهو عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح بن الحسام بن الحارث بن حبيب بن خزيمة ابن نصر بن مالك [بن حسْل] (٨) بن عامر بن لؤىّ ، أسلم قبل الفَتْح، واستكتبه النبيُّ عليه السلام فكان يكتبُ موضِعَ « الغفورِ الرحيم » العزيزِ الحكيم ، وأشباه ذلك ؛ فأَطْلَع اللهُ عليه النبيّ عليه السلام ، فهرب إلى مكة مرتدّا ؛ وأُنزل فيه : ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . فأَهْدَر النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح دَمَه ، فهرب من

(١) ديوانه : ١٥٢ ، أخبار أبى تمام : ٩٤ .
(٢) فى الديوان : هذا النبى .   (٣) فى ق : لقيس بنى أبى سرح .
(٤) فى الديوان : لوحى الله .   (٥) فى الديوان : رفعت له سجفا من الأسرار .
(٦) ديوانه : ١٥٢ .   (٧) رواية هذا البيت فى الديوان :
والهاشميون استقلت عيرهم ... من كربلاء بأوثق الأوتار
(٨) من ق ، وفى س : جسل .

مكّة ، فاستأْمن له عثمانُ رضى الله عنه ؛ فأمّنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أَخو عثمان من الرضاعة ، وأَسلم فحَسُنَ إسلامُه ، وولّى مصر سنة أربع وعشرين ، فأقام عليها إلى أَنْ حُصِر عثمان ، ومات بقَيْسارية الشام ، ولم يدخل فى شىء من الفِتَن الحجازية فى ذلك الوقت .

المختار

وأماالمختارُ الذى ذكره فهو المختار بن أبى عُبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف ابن عَقدة بن عروة بن عَوف بن قَسىّ[1] وهو ثقيف ؛ وكانت لأبيه فى الإسلام آثارٌ جميلة ، وأختُ المختار صفية بنت أبى عبيد زوجُ ابن عمر ، والمختار هو كذّاب ثقيف الذى جاء فيه الحديث ، وكان يَزْعُم أنه يُوحَى إليه فى قَتَلَةِ الحسين ، فقتلهم بكل موضع ؛ وقتل عبيد الله بن زياد ، وله أسْجاع يَصْنَعُها ، وألفاظٌ يبتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتُوحَى إليه . وقيل للأحنف بن قيس : إنّ المختارَ يزعم أنه يُوحَى إليه! فقال : صدق ، وتلا : وإن الشياطين ليُوحِى بعضُهم إلى بعض . وأخبارُه كثيرة ليس هذا موضعها .

بعد هزيمة أمية بن خالد

لما هُزم أمية بن خالد بنُ أُسيد لم يَدْرِ الناس كيف يقولون له ، فدخل عبدُ الله ابن الأهتم عليه ، فقال: الحمد لله الذى نظر لنا أيّها الأَمير عليك ، ولم ينظُرْ لك علينا، فقد تعرّضت للشهادة بجهدك ، إلّا أن الله علم حاجةَ أهلِ الإسلام إِليك فأبقاكَ لهم بخذلان مَنْ معك . فصدر الناسُ عن كلامه .

ويتعلق بهذه المقامة فصلٌ فى غرائب التكاتب

إلى عامل عزل

كتب حمدون بن نَهْرَان[2] إلى عاملٍ عُزِل عن عمله : بلغنى أعزّكَ اللهُ انْصِرافك عن عملك ، ورجوعَك إلى منزلك ؛ فسُرِرْت بذلك ، ولم أستَفْظِعْه وأجْزَع له ؛ لعلمى بأَنَّ قدرَك أجلُّ وأعْلى من أنْ يرفعَك عملٌ تتولّاه ، أو يضعَك عَزْلٌ عنه ؛ ووالله لو لم تختَرْ الانصرافَ وتُرِدِ الاعتزالَ لكان فى لُطْفِ تدبيرك ، وثقوبِ رَوِيّتك ،

---

(١) فى القاموس : قسى بن منبه أخو ثقيف .　　(٢) فى ق : نهراق .

وحُسْنِ تأتّيك ، ما تُزيل به السببَ الداعى إلى عَزْلك ، والباعثَ على صَرْفِك ؛ ونحن إلى أن نهنئك بهذه الحال أَوْلى بنا من أن نعزّيك ، إذ أردْتَ الانصرافَ فأُوتيته ، وأحببْتَ الاعتزالَ فأُعْطِيته ، فبارك اللهُ لكَ فى مُنْقَلَبك ، وهنّأكَ النعمَ بدَوامها ، ورزقك الشُّكْرَ الموجبَ لها الزائدَ فيها .

إلى نصرانى أسلم

وكتب ابن مكرم إلى نصرانى أسْلَمَ : أمّا بعد فالحمدُ لله الذى وفّقك لشكره ، وعرّفك هدايته ، وطهّر من الارتيابِ قلبَك ، وما زالت مَخَايِلك ممثّلةً لنا حقيقةَ[1] ماوهب اللهُ فيك ، حتى كأنّك لم تزلْ بالإسلام موسوماً ، وإن كنت على غيره مُقيما ، وكنا مؤمّلين لما صِرْتَ إليه ، مشفِقين مما كنتَ عليه ، حتى إذا كاد إشفاقُنا أن يَسْتَعْلِيَ رجاءنا أتت السعادةُ بما لم تزَلِ الأنفسُ تعدّ منْكَ ؛ فأسأل اللهَ الذى أضاءَ لك سبيلَ رُشْدِك أن يوفّقك لصالح العمل ، وأنْ يُؤْتيك فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً ، ويَقيكَ عذابَ النار .

حسن التأنى

قال بعضُ الكتاب: من الحقّ ما يُسْتَحسن تركُه ، ويستهجَنُ عملُه ، وقد يقع من ذلك فيما يُحِلّه الشرع ، ويكرهه الأدباء[2] ؛ وكثيرٌ ممن يغلبُ على طبعه هذا المعنى يراه سموَّ نَفْسٍ ، وعلوَّ همة ، حتى رأينا من لا يحضر تزويج كريمته ، ويولّى أمرَها غير نفسه ، ورأينا من يُجاوِز ذلك إلى ألّا ينكح مستنكِحا ؛ وزاد به العلوُّ إلى تَرْكِ ما ذِكْره أَوْلَى ؛ وكنا عرفْنا حال إنسان تزوّجَتْ أُمه ؛ فعظُمَ لذلك همُّه ، وانفرد عن أوِدّائه ، وتوارَى عن أَصفِيائه ؛ حياءً من لقائهم ، وكُرْها لتهنئتهم له أو عَزائهم ، واضطرّته الوَحْشَة إلى قَصْدِ من ظنّ به منهم المُسْكَة فى تحامى خطابه فيما اجتنب لأجله خُلّانَه ، وفارق بسببه إخوانَه ، وتخيّل ذلك المقصودُ أنه إنما لجأَ إليه ليسلّيه ؛ فأفاض معه فيما قدّر أنه قصد له من المعنى الذى جمله وحيداً خوف المفاوضة .

ثم مضت الأيامُ واختلف الحال ، ورجع إلى العِشْرَة وأبناء المودّة ؛ فكان عنده

---

(١) فى س : لناجبيك . (٢) فى س : الإباء .

من لم يخاطِبْه أحْظَى ، وفى نفسه أوْفَى ، وعلى قلبه أخفّ ، وفى نفسه أشفّ ، ونَقَم على ذلك الصديق وعَتب ؛ إذْ لكلٍّ من النـاس ، إلّا من طاب مَحْتِده وطالَ سؤدده ، حالٌ من الإلف والرغبة تحسّن المساوى ، ثم حالٌ من المَلَل والزَّهَادة تقبِّحُ المحاسن ؛ واعتذر المتكلِّفُ من التسلية بما لم يلزمه ، ولم يُرِدْه صفيُّه ، فإنه فعل ماأوجبته الأخوَّة ، وحقوق الخلطة ، وأسبابُ العِشرة ، وانبساط المفاوضة : ودبَّتْ عقاربُ الظنون والوشاية ، إلى أن خرجا بالملاحاةِ إلى المُعَادَاة ؛ فلما وقع بعضُ الناس بينهما من معاوَدَة الحسنى ، ومراجعة الأَوْلى ؛ جاهرَ هذا الماقتُ بقَرْعِ سِنِّ الأَسَفِ على تخيّل النهى والوقار من الممقوت ، وظاهر الممقوت بتَقْريع الماقت ، بتزويج أمّه الذى تجشّم من كلامِه فيه فضلًا ، وتكلّف من خطابه عليه ما من حَسْرة[1] خَلَا ؛ فأفضى الأمرُ بينهما إلى الأَوْتَار ، وطلب الثّأر . فإن اضطرّ إلى القول فى هـذا المعنى أحدٌ بأمر قاهرٍ من السلطان ، أو حوادثِ الأزمان ، أو تطارُحِ الإخوان ، فليقل وليكتُبْ ماتّلنا إن لم يَجِدْ منه بدًّا : أنت بفَضْلِ الله عليك وإحسانِ تبصيره إياك من أَهْل الدّين ، وخلوصِ اليقين ، فـكما لا تتّبع الشهوة فى محظور تُبيحه ، فـكذا لا تتّبع الأَنَفَة فى مُباحٍ تحضره ؛ وقد اتّصل بنا ما اختاره اللهُ والقضاء لذات الحقِّ عليك ، المنسوبةِ ، بعد نسبك إليها ، إليك ، ممـا كرهه إباؤكَ الدُّنيوى لك ولها ، [ورَضِيَه الحلالُ الدينى له ولها][2] ، فنحن نعزّيك عن فائت محبوبك ، ونهنّئك فى الخِيرَة فى اختيارِ القَدَرِ لك ، ونسألُ اللهَ أن يجعلَها أبداً معك فيما رضيت وكَرِهْتَ ، وأبَيْتَ وأتَيْتَ .

لمن تزوجت أمه

فهذا ونحوه أصْوَبُ وأسلم ، إن اضطررت إليـه ، وتركُهُ أحْسن وأحزم ، إن ملـكت رأْيَك فيه ؛ والتلطفُ للـكتابة عما يُسْتَهْجَن ولا يستحسن التواجهُ به من أحْسنِ الأشياء وأسدِّها .

---

(١) فى س ، ق : ماحسرة . (٢) ساقط من س .

لابن العميد في هذا الباب

وكتب أبو الفضل بن العميد فى بابه : الحمدُ لله الذى كشف عنا سِتْرَ الحَيْرَة ، وهدانا لستْرِ العَوْرَة ، وجَدَعَ بما شرع من الحلال أنفَ الغَيْرَة ، ومَنَع من عَضْلِ الأمهات ، كما منَع من وَأْدِ البنات ، استِنْزالًا للنفوس الأبيَّة ، عن حميَّةِ الجاهلية ، ثم عرّض للجزيل من الأجر من استسلم لمواقع قضائه ؛ وعوّض جزيلَ الثواب مَنْ صبر على نازلِ بلائه ؛ وهنَّأك الله ، الذى شرح للتقوى صَدْرك ووسَّع فى البَلْوَى صبْرَك ، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضا بقضيّته ، ووفّقك له من قضاء الواجب فى أَحد أبويك ، ومن عظم حقّه عليك ؛ وجعل الله تعالى حدَّه ما تجرَّعْتَه من أنف ، وكظَمْتَه من أَسَف ، معدوداً يعظِّمُ اللهُ عليه أجرك ، ويُجزِلُ به ذُخْرك ؛ وقَرَن بالحاضر من امتِعاضك لفِعْلها المنتظرَ من ارْتِماضِك[1] لدَفْنِها ، وعوّضك من أَسِرَّة فرشها أعوادَ نَعْشِها ؛ وجعل ما يُنْعِمُ به عليك من بعدها من نعمة معرَّى من نِقْمة ، وما يوليك بعد قبْضِها من منحة مبراً من مِحْنَةٍ .

ألفاظ لأهل العصر فى التهانى بالبنات

هنأ الله سيدى وِرْدَ الكريمة عليه ، وثمّر بها أعداد النّسل الطيِّب لديه ؛ وجعلها مُؤْذِنَةً بإخوة برَرَة ، يعمرون أنْدِية الفَضْل ، ويَغْبُرُون[2] بقيّةَ الدَّهْرِ . اتصل بى خَبَرُ المولودة ، كرّم الله غُرّتها وأنبتها نباتاً حسناً ، وما كان من تغيُّرك بعد اتِّضاحِ الخبَر ، وإنكارك ما اختاره اللهُ لك فى سابقِ القَدَر ، وقد علمت أنهنَّ أقربُ من القلوب ، وأنَّ الله تعالى بدأ بهنّ فى الترتيب ، فقال جل من قائل : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ . وما سمّاه هبة فهو بالشكر أوْلَى ، وبحُسْنِ التقبّـل أحْرَى . أهلا وسهلًا بعقيلة النساء ، وأمِّ الأبناء ، وجالبة الأصهار ، وأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخْوَة يتناسقون ، ونُجَباء يتلاحقون .

---

(١) ارتمض من كذا : اشتد عليه وأقلقه ، وارتمض لفلان : حدب عليه .

(٢) غبر : مكث وذهب، ضد .

فلوْ كانَ النِّساءُ كمثلِ هذى (١) لفُضِّلَتِ النِّساءُ على الرِّجَالِ
فما التأنيثُ لاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ ولاَ التذْكيرُ فَخْرٌ للهِلاَلِ

والله يعرفك البركةَ فى مَطْلَعها، والسعادةَ فى موقعها، فادَّرِع اغتباطا، واستأنِفِ نشاطا . الدنيا مؤنّثة ، والرجال يخدمونها . والنارُ مؤنثة ، والذكور يَعْبُدونها والأرض مؤنثة ، ومنها خُلِقت البرية ، وفيها كثرت الذّرية . والسماء مؤنثة ، وقد حُلِّيت بالكواكب، وزُيِّنت بالنجوم الثواقب. والنفسُ مؤنَّثة ، وهى قِوام الأبدان وملاك الحيوان . والحياةُ مؤنّثة ، ولولاها لم تتصرَّف الأجسامُ ، ولا عُرِفَ الأنام والجنّة مؤنّثة ، وبها وُعِدَ المتقون ، وفيها يَنْعم المرسلون ، فهنأك الله ما أوليت وأوْزَعك شُكْرَ ما أُعطيت ، وأطَالَ اللهُ بقاءك ما عُرِفَ النَّسْل والوَلد، وما بقى العَصْرُ والأبد ، إنه فعال لما يشاء .

[مديح النساء]

ضيق نطاقه

والتصرف فى النساء ضيِّقَ النطاق ، شديدُ الخِنَاق، وأكثرُ ما يُمدح به الرجال ذمّ لهن ، ووصْمٌ عليهن ، قال ابن الرومى (٣) :

ما للحِسَان مسيئاتٍ بِنَا ، ولنَا إلى المسيئاتِ طولَ الدَّهْرِ تَحْنَانُ
فإن يَبُحْنَ (٤) بعهدٍ قُلْنَ معذرةً إنّا نسينا وفى النسوان نِسْيَانُ
لا نُلْزَم الذّكْرَ ، إنّا لم نُسَمَّ بِهِ ولا مُنِحْنَاه ، بل للذّكر ذُكْرانُ
فَضْلُ الرجالِ علينا أَنْ شيمتَهم جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذهان
وأنّ منهم وفاءً لا نقومُ لهُ وهل يكون مع النّقصان رُجْحَان

وقال أبو الطيب المتنبى (٥) :

بنفْسى الخيالُ الزّائِرى بعدَهجْعَةٍ وقوْلَته لِى بَعْدَنَا الغُمْضَ تَطْعَمُ

(١) ديوان المتنبى : ٣ — ١٨ . (٢) فى الديوان : كمن فقدنا .
(٣) ديوانه : ٢١ . (٤) فى الديوان ، س : تبعن . (٥) ديوانه : ٣ — ٨٣

سَلَامٌ فلولا البُخْلُ والخَوْفُ عِنْدَهُ ... لَقُلْنَا أَبو حَفْصٍ عَلَيْنَا المُسَلِّمُ

ألا ترى أنّ الجود ، والوفاء بالعهود ، والشجاعة والفطن (١) ، وما جرى فى هذا السَّنَنِ من فضائل الرجال ، لو مُدِح النساء به لكان نَقْصًا عليهن ، وذمًّا لهنّ ؟

من أمثلة الخطأ فى مدحهن

ولمديح النساء أبواب تفرّقت فى الكتاب : أنشد رجلٌ زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور :

أَزُبَيْدةُ بنةَ جَعْفرٍ ... طُوبَى لزائِرِكِ المُثَابِ
تُعْطِينَ من رِجْلَيك ما ... تُعْطِى الأكفُّ من الرِّغابِ

فوثب إليه الخدَمُ يضربونه ، فمنعتهم من ذلك ، وقالت : أراد خيراً وأخطأ ، وهو أحبُّ إلينا ممن أراد شراً فأصاب ، سمع قولهم : شمالك أندى من يمين غيرك ؛ فظن أنه إذا قال هكذا كان أبلغ ، أعْطُوه ما أمَّل ، وعرِّفوه ما جهل .

وقال كثير (٢) :

ولما قضَيْنا من مِنًى كلَّ حاجةٍ ... ومَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هو ماسِحُ
وشُدَّت على حُدْبِ المَطَايا رِحالُنا ... ولا يعلم الغادى الذى هو رائحُ
أخَذْنَا بأَطْرَافِ الأَحاديثِ بيننا ... وسالَتْ بأعْنَاقِ المَطِىِّ الأَبَاطِحُ
نَقَعْنَا قلوباً بالأحاديثِ واشْتَفَتْ ... بذاك صدُورٌ مُنْضجاتٌ قَرَائِحُ
ولم نَخْشَ رَيْبَ الدَّهْرِ فى كلِّ حالةٍ ... ولا رَاعَنا مِنه سَنِيحٌ وبَارِحُ

وقال :

تفرّق أُلّافُ الحجيج على مِنًى ... وشتَّتَهم شَحْطُ النوى مشى أربعِ
فريقان منهم سالِكٌ بطن نَخْلَةٍ ... وآخرُ منهم جازع ظَهْرِ تَضْرُعِ (٣)

(١) الفطنة والحذق . (٢) ذيل اللآلئ : ٧٧ .

(٣) فى كل الأصول : تصرع بالصاد ، وما أثبتناه عن معجم ما استعجم : ٣١٣ ، وفيه : حزم تضرع .

فلم أرَ داراً مثلها دَار غِبْطَةٍ ... وَلَهْوٍ إذا التفَّ الحجيجُ بمجمع
أقلَّ مقيما رَاضِياً بمكانِهِ ... وأكثرَ جاراً ظاعناً لم يودع
فأصبح لا تلقى (١) خباءً عَهِدْتَهُ ... بمَضْربه أوْتَادهُ لم تُنزَّع (٢)
فشاقُوكَ لما وجّهوا كلَّ وجهةٍ ... فبانُوا وخلّوا عن مَنازِل بَلْقع

خطأ كثير في ذلك

ودخل كثيّر على عزّة يوماً ، فقالت : ماينبغى أن نَأْذَنَ لكَ فى الجلوس ، فقال : ولم ذلك ؟ قالت : لأنى رأيت الأحوص أَلْيَنَ جانبا عند الغوانى منك فى شعره ، وأضرعَ خدًّا للنساء ، وأنه الذى يقول :

يأيها اللّائمى فيها لِأَصْرِمَها (٣) ... أكْثَرْتَ لوكانَ يُغْنِى عنكَ إكثار
أكْثِرْ فلسْتَ مُطَاعاً إذوشيتَ بها ... لا القَلْبُ سَالٍ ولا فى حُبّها عارُ

ويعجبنى قولُه (٤) :

أَدُورُ ولَوْلَا أنْ أرى أمَّ جَعْفَرٍ ... بأَبْياتِكُم ما دُرْتُ حَيْثُ أدُورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكنَّ ذاالهوَى ... إذَا لم يُزَرْ لابدَّ أَنْ سَيَزُورُ
لقد منعَتْ معروفَهَا أمُّ جعفرٍ ... وإنى إلى معروفِها لفقيرُ

ويعجبنى قوله :

كم من دنىّ لها قد كنتُ أتبعهُ ... ولو صحَا القَلْبُ عنها كان لى تبعَا
لا أستطيعُ نُزوعاً عن مَحبّتِها ... أو يصنع الحبُّ بى فوق الذىصَنَعا
أَدْعُو إلى هَجْرِها قلبى فيَتْبَعنى ... حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نزَعَا
وزادنى رغبةً فى الحبِّ أن منَعتْ ، ... أشْهَى إلى المرء من دُنياه ما مُنِعَا

وقوله (٥) :

إذاأنت لم تَعشَق ولم تَدْرِ ماالهوى ... فكُنْ حجَراً من يابِس الصَّخْرِ جَلْمَدَا
وما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتَشْتَهِى ... وإِن لام فيه ذو الشّنَانِ وفَنَّدَا

---

(١) فى س : لا يلقى . (٢) فى س ، ق : لم يبرع .
(٣) فى س : لأصرفها . (٤) الأغانى ٩ — ٦٥ . (٥) الأمالى : ١ — ٣٣ ، اللآلى ١٤٣ .

وإنى لأَهْوَاها وأَهْوَى لقاءَها ... كما يشتهى الصَّادِى الشراب المبَرَّدَا

علاقة حبّ لجّ فى سنن الصِّبا ... فأَبْلَى وما يزدادُ إلاّ تجدُّدا

هـذان البيتان أَلحقهما العُتبى وغيرُه بشعر الأحوص ، وأنشدها أبو بكر بن دريد لأَعرابى (١) ، فقال كثير : قد والله أجاد فما استقبحت من قولى ؟ قالت : قولك (٢) :

وكنت إذا ما جئْت أَجْلَلن مَجْلسى ... وأَظْهَرنَ مِنّى هيبة لا تجهُّما (٣)

يحاذِرْن منّى غيرةً قد عرَفْنَها ... قديماً فلا يضحكن إلاّ تبسُّما

تراهنّ إلا أن يخالِسْنَ نظرةً ... بمؤُخرِ عَيْنٍ أو يقلّبن مِعْصَمَا

كواظم لا يَنْطِقْنَ إلا مَحُورَة (٤) ... رَجيعَة قول بعد أن يتفهما

وكنّ إذا ما قُلْنَ شيئاً يسرُّهُ ... أسرّ الرضاَ فى نَفْسِه وتَحرَّمَا (٥)

وقولك (٦) :

وددت وبَيْت اللهِ أنك بَكْرَةٌ ... هِجانٌ وأنى مُصْعَبٌ ثم نَهْرَبُ

كِلَانا به عُرٌّ (٧) فمَنْ يَرَنا يَقلْ ... على حُسْنِها جَرْباءُ تُعْدِى وأجْرَبُ

نكون لذِى مالٍ كثير مغفَّلٍ ... فلا هو يرْعَانَا ولا نَحْنُ نُطْلَبُ

إذا ما ورَدْنا منهلا صاح أهْلُه ... علينا فما ننفكّ نُؤْذَى ونُضْرَبُ

وَيْحك ! لقد أردتَ بى الشقاءَ ، أفما وجدت أمنية أوْطأَ من هـذه ؟ نخرج خَجِلا .

وقد تمنّى بمثل هذه الأُمنية الفرزدق .

وأغرب من هذا قول أبى صَخْر الهذلى (٨) :

---

(١) ارجع إلى اللآلئ ١٤٣ فى نسب هذه الأبيات . (٢) الشعراء ٤٩٤ .

(٣) فى س ، ق : لا تحمما . (٤) المحورة : الجواب . (٥) فى الشعراء : وتجرما : أى ادعى عليه الجرم وإن لم يجرم . (٦) الموشح ١٥٥ . (٧) جرب .

(٨) المختار من شعر بشار ٢٠٤ .

تمنّيت من حُبّى عُلَيّة أننا ... على رَمَثٍ فى البحر ليس لنا وَفْرُ
على دائمٍ لا يعبر الفلكُ مَوْجَهُ ... ومِنْ دوننا الأهوالُ واللُّجَج الخُضْرُ
فنقضىَ همَّ النفسِ فى غير رِقْبةٍ ... ويُغرِق مَنْ نَخْشَى نميمتَه البَحْرُ

* * *

الأمانى والآمال

وقيل : الأمل رفيق مُؤْنِس ؛ إن لم يُبلغك فقد ألْهاكَ .

وقال مسلم بن الوليد (١) :

وأكثرُ أفعالِ الليالى إساءةٌ ... وأكثرُ ما تَلْقَى الأَمانِى كَوَاذِبا

وقال آخر :

مُنًى إنْ تَكُنْ حقا تكن أحْسنَ المُنَى ... وإلاّ فقد عِشْنَا بها زمناً رَغدَا
أمانىّ من لَيْلَى حِسَانٍ كأنما ... سقتنى بها لَيْلَى على ظَمَإٍ بَرْدا

وقال آخر :

رفعْت عن الدنيا المُنَى غير حبّها ... فلا أسأل الدنيا ولا أسْتَزِيدُها

وقيل لأعرابى : ماأمتع لذّات الدنيا ؟ فقال : ممازحةُ المحب ، ومحادثةُ الصديق، وأمانىّ تقطع بها أيامك ، وأنشد :

علِّلِينى بمَوْعِدٍ ... وامطلى ما حييت بِهِ
ودَعِينى أفوزُ مِنْ ... كَ بنَجْوَى تطلُّبه
فعسى يعثر الزَّمَا ... نُ بحظِّى فينْتَبِه

[كثير وعزّة]

وكان كثيّر بن عبد الرحمن بن أبى جُمُعة الخزاعى (٢) ـ ويعرف بعزّة ، على حِدّةِ خاطرِه ، وجَوْدَةِ شعره ـ أحْمقَ الناس .

---

(١) اللآلىء ـ ذيل ٤٨ . (٢) ارجع إلى ما كتب فى صفحتى ٣ ، ٤ من الجزء التاسع من الأغانى عن نسبه .

دخل عليه (١) نفرٌ من قريش وهو عليل يهزءون به ، قال بعضهم : فقلت له : كيف تجدُك ؟ قال : بخير ، هل سمعتُم الناسَ يقولون شيئاً ؟ فقلت : نعم ، سمعتُهم يقولون : إنك الدجال . فقال : والله لئن قلت ذلك إنى لأَجدُ فى عينى اليمين ضَعْفا منذ أيام . وكان رافضيًّا يَدِين بالرَّجْعَة ، ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، والروافض يزعمون أنه دخل فى شِعْب باليمن فى أربعين من أصحابه ، ولا بدَّ من ظهوره ، وفى ذلك يقول (٢) :

أَلاَ إنَّ الأئمةَ(٣) مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلاَةُ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلِيٌّ والثَّلاَثَةُ مِنْ بَنِيهِ ... همُ الأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إيمَانٍ وبِرٍّ ... وَسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاَءُ
وَسِبْطٌ لا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى(٤) ... يَقُودَ الخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللِّوَاءُ
تَغَيَّبَ لا يُرَى عنهم زَماناً ... بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وماءُ

وكان خلفاء بنى أُمية يعلمون ذلك منه ، ويَلْبَسونه (٥) عليه .

دخل يوما(٦) على عبد الملك بن مروان فقال: نشدتك بحقِّ على بن أبى طالب ، هل رأيت أَعْشَق منك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو سألتَنِى بحقّك لأخبرتُك ، نعم ، بينا أنا أَسيرُ فى بعض الفَلَوات إذا أنَا برجل قد نَصَب حبائِلَه فقلت له : ما أَجْلَسك ها هنا ؟ قال : أَهلكنى وأَهلى الجوع ، فنصبت حَبائلى لأُصِيبَ لهم ولنفسى ما يكفينا سحابة يَوْمِنا. قلت : أرأيت إن أقمت معك فأَصَبْنا صيدا ، أَتَجْعَلُ لى منه جزءًا ؟ قال : نعم ، فبينما نحن كذلك إذْ وقعت ظبية ، فخرجْنَا مُبْتدرين ، فأسرع إليها فحلّها وأَطلقها ؛ فقلتُ : ما حملك على هذا ، قال : دخلتنى لها رِقَّةٌ لشبهها بلَيْلَى ، وأنشأ يقول :

---

(١) الأغانى ٩ – ٢٠ . (٢) الأغانى ٩ – ١٤ ، الشعراء ٤٩٨ .
(٣) فى الأصل : اللائمة . (٤) فى الأغانى : لا تراه العين حتى .
(٥) لبس قوما : تملى بهم زمانا . (٦) الشعر والشعراء : ٤٨٩ ، ذيل الأمالى : ٦٣ .

أياشِبه لَيْلَى لا تُراعِى [١] فإنَّنى ... لك اليوم من وَحْشيَّةٍ لَصَدِيقُ
أقول وقد أطلقتُها من وِثاقِها [٢] ... لأَنْتَ ـ لليلى ـ ما حَيِيت طليقُ

وروى الكلبى وابن دَأْب أنه لما حلّها قال [٣] :

اذهبى فى كِلاءَةِ [٤] الرَّحْمَنِ ... أَنْتِ منى فى ذِمَّةٍ وأَمَانِ
لا تخافِى بأَنْ تُهاجِى بسوءٍ ... ما تَغَنَّى الحمَامُ فِى الأغصانِ
ترهبينى والجيدُ منك لِلَيْلَى ... والحشَا والبُغَامُ [٥] والعينانِ

وقال قيس بن الملوّح :

راحوا يَصِيدون الظِّباء وإننى ... لأَرى تَصَيُّدها علىَّ حَرَاما
أَشْبَهْنَ منك محاجراً وسوَالِفاً [٦] ... فأَرى علىَّ لهـا بذاك ذِمَاما
أعْزِزْ علىَّ بأَنْ أرُوع شبيهها ... أو أَنْ يَذُقْنَ على يَدَىَّ حمَاما

ومن جيد شعر كثيّر [٧] :

وكانت لِقَطْعِ الحَبْلِ بينى وبينها ... كناذِرَةٍ نَذْراً فأَوْفَتْ وحَلَّتِ
فقلتُ لها : يا عزُّ كلُّ مُصيبةٍ ... إذا وُطِّنَتْ يَوْماً لها النَّفْسُ ذَلَّتِ
ولم يَلْقَ إنسانٌ من الحبِّ مَيْعَةً ... تعمُّ ولا غَمَّاء إلاّ تَجَلَّتِ
أباحَتْ حِمىً لم يرْعَه الناسُ قبلها ... وحَلَّتْ تِلاعاً لم تكن قَبْلُ حُلَّتِ
هنيئاً مريئاً غَـيْرَ دَاءٍ مُخَامرٍ ... لعزَّةَ من أعْرَاضنا ما استحلَّتِ
أسيئى بِنَا أوْ أَحْسِنى لا ملومة ... لَدَيْنَا ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ
ووالله ما قاربت إلا تباعدتْ ... بِهَجْرٍ ولا استكثرت إلاّ أقلت

---

(١) لا تراعى : لا تفزعى . (٢) الوثاق بفتح الواو وكسرها : ما يشد به .
(٣) الشعر والشعراء : ٤٩٠ . (٤) الكلاءة بالكسر مصدر كلأه : حرسه .
(٥) بغمت الظبيه : صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها .
(٦) السالفة : ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى الترقوة .
(٧) الأغانى : ٩ـ٢٩٢ ، المختار من شعر بشار : ١٧٠ ، الأمالى : ٢ـ١٠٧ .

وما مرَّ من يومٍ علىَّ كيومها ... وإن عظُمت أيام أخرى وجَلَّتِ
فياعجبا للقَلْبِ كيف اعترَافُهُ ... وللنفس لمـا وُطِّنت كيف ذَلَّت
وإنى وتَهيامى بعزَّة بعـد ما ... تخلَّيْتُ مما بَيْنَنا وتَخَلَّتِ
لـكالمرتَجى ظلَّ الغمامة كلَّما ... تبوَّأ منها للمَقِيلِ اضْمَحلَّتِ

وكان كثير قصيرا دميما ، ولذلك قال :

فإنْ أكُ معروقَ العِظَامِ فإننى ... إذا ما وَزنْت القومَ بالقومِ وَازِنُ

ودخل كثير (١) على عبد الملك بن مروان فى أول خلافته فقال : أنْتَ كثيّر ؟ فقال : نعم ، فاقتحمه ، وقال : تَسْمَع بالمُعَيْدِىّ لا أنْ تراه ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، كلُّ إنسان عند محله رَحْبُ الفِناء ، شامِخُ البناء ، عَالِى السّناء ، وأنشد يقول (٢) :

ترى الرجل النحيفَ فتَزْدَرِيهِ ... وفى أثوابه أَسَدٌ هَصُورُ
ويُعْجِبُك الطَّرِيرُ إذا تراهُ ... فيُخْلِفَ ظنَّـك الرجلُ الطريرُ (٣)
بُغاثُ الطير أطولها رِقاباً ... ولم تَطُلِ البُزاة ولا الصّقورُ
خَشَاشُ الطيرِ أكثرُها فِراخاً ... وأمُّ الباز مِقْلاتٌ (٤) نَزُورُ
ضِعافُ الأُسْدِ أكثرُها زئيراً ... وأصْرَمُها اللَّواتِى لا تَزِيرُ
وقد عَظُمَ البعيرُ بغـير لُبٍّ ... فلم يستَغْنِ بالعِظَم البعير
يُنَوَّخُ ثم يُضْرَبُ بالهراوَى ... فلا عُرْفٌ لديه ولا نَـكِيرُ
يُقَوِّدُه الصبىُّ بكلِّ أَرْضٍ ... ويَصْرَعُه على (٥) الجَنْبِ الصغيرُ
فمـا عِظَم الرجال لهم بِزَيْنٍ ... ولـكن زَيْنُهم حَسَبٌ وخِيرُ (٦)

---

(١) الأمالى : ٤٦ واللآلىء : ١٩٠ . (٢) الأمالى : ١ــ٤٧ ، المختار من شعر بشار : ٢٠٩ ، الحماسة ٣ــ١٥٢ ، اللسان ــ مادة طرر ، مع اختلاف فى نسبة الأبيات . (٣) الطرير : ذو المنظر والرواء . (٤) مقلات : لا يكثر فرخها . (٥) فى الأمالى : وينحره على الترب .
(٦) الخير : الـكرم والشرف والأصل ، وفى الأمالى : كرم وخير .

فقال : قاتله الله : ما أَطْولَ لسانَه ، وأمدّ عِنَانه ، وأَوْسع جَنَانه ؛ إنى لأحسبه كما وصف نفسه .

* * *

استطراد في الطول والقصر

وأنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم [1] :

وعاذلةٍ هبَّتْ بليلٍ تَلُومُنى ... ولم يغتمرنى قَبْلَ ذاك عَذُولُ
تقول اتَّئد لا يَدْعُك الناس مُمْلِقاً ... وتُزْرِى بمَنْ يابْنَ الكرام تَعُولُ
فقلت : أَبَتْ نفسٌ علىَّ كريمةٌ ... وطارقُ ليل عند [2] ذاك يَقُولُ
ألم تعلمى يا عَمْرَكِ الله أننى ... كريمٌ على حين الكرامُ قليلُ
وأنىَ لا أخزى إذا قِيل مُملِقٌ ... سَخِىٌّ وأخزَى أنْ يُقَالَ بخيلُ
فلا تَتْبَعِى النفسَ الغويَّةَ وانظُرِى ... إلى عُنْصُرِ الأَحسابِ كيف يَئُولُ
ولا تذهَبَنْ عيناكِ فى كل شَرْمحٍ [3] ... له قَصَبٌ جُوفُ العِظامِ أسِيلُ
عسى أن تمنَّى عِرْسُه أنَّنى لها ... به حين يشتدُّ الزمانُ بديلُ
إذا كنتُ فى القوم الطوال فطُلْتهم ... بعارِفةٍ حتى يُقَال طويلُ
ولا خيرَ فى حُسْنِ الجسوم وطولِها ... إذا لم تَزِنْ حُسْنَ الجسومِ [4] عقولُ
فكائِنْ رأينا من فروعٍ طويلةٍ ... تموتُ إذا لم تُحْيِهِنَّ أصولُ
فإلاّ يَكُنْ جسمى طويلاً فإننى ... له بالفِعَال الصالحاتِ وَصولُ
ولم أرَ كالمعروفِ أمَّا مَذَاقُه ... فحُلوٌ وأمَّا وَجْهُه فجميلُ

وقال ابن الرومى :

ونَصيف [5] من الرجال نحيفٍ ... راجح الوَزْنِ عند وَزْنِ الرجالِ

(١) الأمالى : ١ـ٣٨ ، اللآلئ : ١٥٩ ، وفى الأمالى أحمد بن عبيد.

(٢) فى الأمالى : غير ذاك .
(٣) الشرمح : القوى والطويل .

(٤) فى هامش س : هذا الشعر للفزارى ومثله قول أبى الطيب المتنبى :

وما الحسن فى وجه الفتى شرفا له ... إذا لم يكن فى فعله والخلائق

(٥) النصيف : النصف ، وفى س ، ق : وقصيف ، وهو ما انقصف نصفين .

فى أُناسٍ أُوتوا حُلومَ العَصَافيـ ـرِ فلم تُغْنِهم جُسُومُ البِغَالِ

أخذه من قول حسان بن ثابت ، وقال له بنو الديان الحارثيون : قد كنّا ونحن نطول بأجسامنا على العرب حتى قلت (١) :

دعوا(٢) التَّخَاجُؤَ وامْشُوا مِشْيَةً سُجُحاً إنَّ الرجالَ ذوو قدٍّ (٣) وتَذْكِير

لا بَأْسَ بالقومِ من طُولٍ ومن عِظَمٍ جِسْمُ البغالِ وأحْلامُ العَصَافِيرِ

فتركتنا لا نرى أجسامَنا شيئاً ، والعربُ تمدح الطول ، وتثنى عليه ، وقال عنترة بن شداد (٤) :

بَطَلٌ كأنَّ ثِيَابَه فى سَرْحَةٍ يُحْذَى نعالَ السِّبْت لَيْس بتَوْأمِ

قوله : ليس بتوأم ، يريد ليس ممن زُوحم فى الرَّحمِ فضعف ، كما قال الشعبى ، وقد دخـل على عبد الملك بن مروان ، فجعل ينظرُ إليه ، وكان الشعبى قد وُلد تواماً مع أخيه ، فكان نحيفاً ، فقال : يا أمـــير المؤمنين ، إنى زُوحمت فى الرحم ، وقال :

ولما التقى الصفَّان واختلف القَنَا نِهالاً وأَسبابُ المنايا نِهالها

تبيَّن لِى أن القَماءَةَ ذِلَّةٌ وأنّ أعزاءَ الرجال (٥) طِوالُها

وقال أبو نواس (٦) :

وكنا إذا ماالحائن (٧) الجَدّ غرّهُ سنى بَرْقِ غادٍ(٨) أو ضجيجِ رعادِ

تَرَدَّى له الفضلُ بن يحيى بن خالدٍ بماضى الظُّبَى يَزْهاهُ طولُ نجاد

أمام خميس (٩) أُرجوانٍ كأنهُ قميصٌ مَحُوكٌ من قناً وجِيادِ

---

(١) ديوان حسان : ٢١٤ . (٢) فى الديوان : ذروا . التخاجؤ : التباطؤ فى المشى وقيل: التبختر . والمشية السجح : السهلة . (٣) فى الديوان : ذو عصب ، والعصب : شدة الخلق .

(٤) اللسان ــ مادة سبت . (٥) فى س : وأن أشداء الرجال . (٦) ديوانه : ٧٤ ، الكامل ٢ــ٩١ . (٧) فى الأصول : الخائن . (٨) فى الديوان : غاو .

(٩) فى ق : خمس .

ومن هذا البيت أخذ أبو الطيب المتنبي قوله (١) :

ومَلْمُومَةٌ زَرَدٌ ثَوْبُهَا   ولكِنَّهُ بالقَنَا مُخْمَلُ

* * *

رجع إلى كثير عزة

ودخل كثيّر على عبد العزيز بن مروان وهو عَليل ، وأهلُه يتمنَّوْن أَنْ يتبسم ، فقال : لولا أن سرورَك لا يتمّ بأَن تَسْلَمَ وأَسقم لدعوتُ اللّهَ أن يصرف مابك إلىّ ، ولكني أَسألُ الله أيُّها الأمير العافيةَ لك ولى فى كَنَفِك ؛ فضحك وأمر له بمال ، فخرج وهو يقول :

ونعودُ سيِّدَنا وسيِّدَ غيرنا   ليت التشكّى كانَ بالعُوَّادِ

لو كان تُقْبَلُ فِدْيةٌ لفديتهُ   بالمصْطَفَى من طارِفى وتِلادِى

نقد شعره

قال محمد بن سلام الجمحى (٢) قال أبى : ذاكَرْتُ مروان بن أبى حفصة شِعْرَ جرير والفرزدق وكثيّر ، فذهب إلى تقديم كثيّر ، وجعل يُطرِيه ويقول : هو أمدحهم للخلفاء . فقلت : أمِنْ جودة مدحه للخلفاء قوله لعبد الملك بن مروان :

ترى ابنَ أبى العاصى وقد صُفّ دُونهُ   ثمانون ألفاً قد توافَتْ كُمولها

يقلِّب عينَىْ حيّة بمَفَازَةٍ (٣)   إذا أمكَنَته شِدّةٌ لا يُقِيلها

فقال هذا للخليفة ودونه ثمانون ألفاً ، وجعله يقلّب عينى حية .

وقوله :

وإن أميرَ المؤمنين هو الذى   غزَا كامناتِ الودِّ منى فنالها

زعم أن أمير المؤمنين استعطفَه حتى غَزَا كامناتِ صَدْرِه .

وقوله لعبد العزيز بن مروان (٤) :

---

(١) ديوانه : ٣ - ٧١ . (٢) الموشح : ١٤٣ . (٣) فى الموشح : بمحارة .

(٤) الموشح : ١٤٣ .

وما زَالَتْ رُقاكَ تَسُلّ ضِغْنى   وتخرج من مكامنها ضِبَابِى
ويَرْقينى[1] لكَ الحاوون[2] حتى   أجابَك حَيّة تحت الحجاب

زعم أن عبد العزيز ترضّاه[3] واحتال له ورَقَاه ، حتى أجابه : أكَذَا تُمْدَح الملوك ؟ فأسْكَته .

فصول قِصار

من كان له من نَفْسِه واعظ كان من الله عليه حافظ . العبد حرٌّ إذا قَنِع ، والحرُّ عبدٌ إذا طمع . الأمانى تَخْدَعك ، وعند الحقائق تدَعك . إذا كان الطمعُ هلاكا كان اليأسُ إدراكا . ليس يُعَدُّ حكيما من لم يكن لنفسه خَصِيما . تعزَّ عن الشيء إذا مُنِعْتَه ، بقلة ما يصحبك إذا منحته . تجرَّعْ مَضَضَ الصبر تطفئْ نار الضر . الحكمة حِفْظُ ما كلفت ، وتَرْكُ ما كفيت . الصَّبْرُ عن محارِم الله أيْسر من الصبر على عذاب الله .

شذور لأهل العصر فى معان شتى

قطعة من كلام الأمير قابوس بن وَشْمَكير[4] شمس المعالى فى أثناء رَسَائِله :
بزَنْد الشفيع تُورِى نار النجاح[5] ، ومن كف المفيض يُنْتَظر فوز القِداح . الوسائل أقدام ذوى الحاجات ، والشفاعات مفاتيح الطلبات . العفو عن المجرم من مُوجباب الكرم ، وقبول المعذرة من محاسن الشِّيَم . وبالقوادم والخوافى قوةُ النجاح[6]، وبالأسنة والعَوَالى عمل الرماح . الدنيا دار تغرير وخداع ، وملتقى ساعةٍ

---

(١) فى ق ، س : ويرزقنى .   (٢) فى الموشح : الراقون .
(٣) فى ق ، س : تزكاه .   (٤) اليتيمة : ٤–٥٧ .   (٥) فى اليتيمة : تورى القداح .   (٦) فى اليتيمة : الجناح .

لوداع ، والناس مُتَصرّفون بين كل وِرد وصدَر ، وصائرون خبَراً بعد أثر . غايةُ كل متحرّك إلى سكون ، ونهايةُ كل متكون ألاّ يكون ، وآخر الأحياء فناءٌ ، والجزع على الأموات عناء ، وإذا كان ذلك كذلك فلِمَ التهالك على الهالك . حَشْوُ الدهر أحزان وهموم، وصَفْوُه من غير كدر معدوم . إذا سمح الدهر بالحباء ، فأبْشر بوَشْك الانقضاء، وإذا أعار فاحسبه قد أغار. الدهر طعمان حلو ومرّ ، والأيام ضربان عُسْر ويسر. لكل شيء غاية ومنتهى وانقطاع وإن بلغ المدى . تَرْكُ الجواب داعيةُ الارتياب ، والحاجة إلى الاقتضاء كسوف فى وجه الرجاء . همّ المنتظر للجواب ثقيل ، والمدى فيه وإن كان قصيرا طويل . النجيب إذا جرى لم يشقّ غباره ، وإذا (١) سرى لم تلحق آثاره . ومن أيْنَ للضباب صَوْب (٢) السحاب ، وللغراب هُوِىُّ العقاب ، وهيهات أن تكتسب الأرض لطافة الهواء ، ويصير البدر كالشمس فى الضياء .

***

للثعالبى فى شمس المعالى

وقد ترجم عن شمس المعالى أبو منصور الثعالبى فى كتاب ألّفه له ؛ قال فى أوله : أمّا على أثر حَمْدِ الله الذى هو أوّلُ كتابه ، وآخرُ دعوى ساكنى دَارِ ثوَابِه ، والصلاةِ على خِيرته من بريّتهِ ، وعلى الصَّفْوةِ من ذرّيته ، فإنَّ خيرَ الكلامِ ماشغل بخِدْمَة مَنْ جمع اللهُ له عِزَّةَ الملك إلى بَسْطَةِ العلم ، ونورِ الحكمة إلى نفوذِ الحكم ، وجعله مميَّزاً على ملوكِ العصر ، ومدبِّرِى الأرض ووُلاة الأمر ، بخصائص من العَدْلِ وجلائلَ من الفضل ، ودقائقَ من الكَرمِ المَحْضِ ، لا يدخلُ أيسرُها تحت العادات ، ولا يُدْرَكُ أقلُّها بالعبارات ؛ ومحاسنُ [سِيَر] (٣) الأيام تحرسها أسِنّةُ الأقلام ، وتدرسها ألسنةُ الليالى والأيام ، وهذه صفة تُغْنِى عن تشبيه الموصوف لاختصاصه بمعناها ، واستحقاقه إياها، واستئثاره على جميع الملوك بها ، ولِعِلْم سامعها ببديهة السّماع أنها للأميرِ ، شمسِ المعالى ، خالصةً، وعليه مقصورة، وبه لائقة ، وعن

---

(١) فى اليتيمة : والشهاب إذا سرى . (٢) فى اليتيمة : صوت .

(٣) من س ، ق .

غَيْرِه نَافِرة ؛ إذ هو بمعاينة الآثار ، وشهادة الأخيار ، وإجماع الأولياء ، واتِّفاقِ (١) الأعداء ، كافلُ المجد ، وكافِي الخَلْق ، وواحدُ الدهر ، وغُرَّة الدنيا ، ومفزَع الوَرَى ، وحسَنةُ العـــالم ، ونُـكْتةُ (٢) الفلكِ الدائر ؛ فبلّغه اللهُ أقصى نهايةِ العمر ، كما بلّغه أقصى غايةِ الفـخر ؛ وملـكه أزِمّة الأمر ، كما ملّـكه أعِنَّة الفضل ؛ وأدام حُسْنَ النظرِ للعباد والبلاد ، بإدامة أيامه التى هى أعيادُ الدَّهْرِ ، ومواسم اليُمن والأَمْن ، ومطالع الخير والسَّعْدِ ، وزاد دولته شباباً ونموًّا ، كما زادهُ فى الشرف عُلوًّا ، حتى تكون السعاداتُ وَفْدَ بابه ، والبشائرُ قِرَى سَمْعِهِ ، والمسارّ غِذَاءَ نفسه ، ويترامَى به الإقبالُ إلى حيث لا يبلُغه أمل ، ولا يَقْطَعه (٣) أجل .

* * *

من النقد

نحافى قوله ، وهذه صفة تُغْنى عن الموصوف ؛ إلى قول أبى الطيب يَرْثِى أُختَ سيف الدولة (٤) :

يا أُخْتَ خَيْرِ أخٍ يا بنْتَ خَيْرِ أبٍ ... كِنايةً بهما عن أشْرَفِ النَّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أن تُسْمَى مُؤَنَّثَةً ... ومَنْ دَعاكِ (٥) فقَدْ سمَّاكِ للعَرَبِ

* * *

للميكالى فى شمس المعالى

وفى شمس المعالى يقول الأمير أبو الفضل الميكالى :

لا تعصِيَنْ شَمْسَ العُلَا قابوسا ... فمن عَصَى قابوسَ لَاقَى بوسَا

وللبديع الزمان فيه

وله يقولُ بديعُ الزمان فى قصيدة نظمها فى تضاعيف رسالةٍ موشحة :

إنَّ مَنْ كنت من مُناه بمَرْأًى ... وتعـدّاك سـيِّئ الاقتراح
بَيْنَ بِشْرٍ يَرُدُّ غائضَ جاهى ... وقبولٍ يُعِيـد رِيشَ جنَاحِى

---

(١) فى س : وإضعاف . (٢) النـكتة : النقطة . (٣) فى س ، ق : ولا يضعهما . (٤) ديوانه : ١ـ٨٦ . (٥) فى الديوان : ومن يصفك .

وبساطٍ وردْتُ مَشْرَعة الأُنْ ... س بهِ وادَّرَعْتُ بُرْدَ النجاحِ
فاقضِ أوْطَارًا التقَتْ والمَعَالِي ... فى نظامٍ من النُّهَى وتَصاحِ(١)
ملك دُونَه تقطّع أبصا ... ر الليالى يَوْمًا ندًى وكِفَاحِ
ملك لو يشاء مَدَّ على النَّجْ ... م رواقًا وردَّ وَفْدَ الرِّيَاحِ
تارةً فى خُشونَةِ الدَّهْرِ تَلْقَا ... هُوطوراً فى حُسْنِ ذاتِالوِشَاحِ
ملك كلَّما بَدَا تقفُ الأفـ ... لاك عُجْباً به وفَرْطَ ارْتِيَاحِ
هكذا هكذا تـكونُ المعـالى ... طُرُق الجدِّ غَـيْرُ طرق المزاحِ

وهى طويلةٌ ، كتبتها على طريق الاختيار .

رقعة من البديع إليه

رقعة لبديع الزمان إلى شمس المعالى ، وقد ورد حضرته(٢) :

لم تزَلِ الآمالُ — أطالَ اللهُ بقاء الأمير السيد شمس المعالى وأدام سلطانه — تَمدُّنى هذا اليوم، والأيامُ تمطلُنى بألسنةِ صروفِها، على اختلافِ صنوفِها، بين حُلوٍ استرقَّنى، ومرٍّ استخفَّنى(٣)، وشرٍّ صار إلىّ، وخيرٍ صِرْتُ إليه، وأنا فى خلال هذه الأحوال أَذْرَعُ(٤) الآفاقَ فأَكون طوراً مَشْرِقاً للمشرق الأقصى ، وطوراً مَغْرِباً للمغرب ، ولا مَطْمَحَ إلّا حضرته الرفيعة ، وسُدَّته المَرِيعة(٥)، ولا وسيلةَ إلا المنزع الشّاسع ، والأَمل الواسع ؛ وقد صرت — أطال اللهُ بقاءَ الأمير مولانا — بين أَنيابِ النوائب ، وتجشَّمْت هَوْلَ الموارد ، وركبت أكْتَافَ المـكارِه ، ورضَعْتُ أخْلافَ العوائق ، ومسحت أطْراف المراحل ، حتى حضرت الحَضْرَةَ البهيّة أو كِدْتُ ؛ وبلغت الأُمنية أو زِدْتُ ، وللأمير السيد فى الإصغاء إلى الجد ، والبَسْطِ من عنان الفَضْل ، بتمكين خادِمه من المجلس يَلْقَاه بقَدَمه ، والبساط يَلْثِمُه بفمه ، تفضُّله ، فلهُ الرأْيُ العالى إن شاء الله .

للبديع إلى بعض الرؤساء

وله إلى بعض الرؤساء وقد وعد بحضور مجلسه بالغداة وأمره أنْ يزفَّ إليـه

---

(١) فى ق : ونضاح، وهذه من س . (٢) الرسائل : ٨٤ . (٣) فى س، ق: استحقنى، واستحقه : استوجبه . (٤) فى س ، ق : أربع. (٥) المريع: الخصيب .

ما أنشأه ، فبعث به وكتب إليه[1] :

مَرْحباً بسلام الشيخ سيّدى ومولاى أطال اللهُ بقاه ، ولا كالمَرْحَبِ[2] بطَلْعَتِه؛ وقد وصلت تحيّتُه فشكرتُها ، وعِدَتُه الجميلةُ بالحضورِ غدا فانتظرتُها ؛ ودعوتُ اللهَ أن يَطْوِىَ ساعاتِ النهار ، ويزجّ الشمسَ فى المَغار[3] ، ويُقرِّب مسافةَ الفَلَكِ الدوار، ويرْفع البركةَ من سيره ، ويجهز الحركةَ إلى دوره ؛ ويُسِرّنى بوَفْدِ الظلام وقد نزل، ثم لم يلْبَثْ إلّا ريثما رَحَل ؛ وقد بعثتُ بما طلب سمعاً لأمره وطاعة ، والنسخةُ أسقمُ من أجْفَانِ الغضبانِ ، والشيخ سيدى — أدام اللهُ عزّه — يرْكض قلمه فى إصلاحها، وحبّذا هو فى غدٍ ، وقد طلع كالصبح إذا سطع ، والبرق إذا لمع :

يا مرحباً بغَدٍ ويا أهلاً بِهِ إن كان إلمامُ الأحبَّةِ فى غدِ

للبديع إلى سهل بن محمد

وله إلى[4] أبى الطيب سهل بن محمد يسأله أن يصله بأبى إبراهيم إسماعيل بن أحمد : لو كان للكرم عن جَنابِ الشيخ مُنْصَرَفٌ لانصرَفْت ، أو لِلأمل مُنْحَرَف إلى سواه لانحرَفْت، أو للنُّجْح بابٌ سواه لوَلَجْت ، أو للفضل خاطبٌ غيره لزوّجت ، ولكِنْ أَبَى الله أنْ يعقدَ إلا عليه الخنصر ، أو يتحلّى إلا بفواضله الدهر ، ولا يزال كذا يتَّسِم المجدُ بسيمته ، ويجذب العلاءَ بهمّته ، ويُسْعِدُ الدينَ بنظره ، والدنيا بجاهه ، وغلامُه أنالو استعار الدهر لسانا ، واتّخذ الريح ترجُمَانا ، ليُشِيع إنعامَه حقّ الإشاعة لقَصُرَتْ به يدُ الاستطاعة ، فليس إلا أن يلبس مكارمه ضافيةً سابغة ، ويرد مشارِعَه صافيةً سائغة ، ويحيل الجزاء على يد قصور ، والشكر على لسان قَصير ؛ ثم إنّ حاجاتى، إذا لم يعْرَ من قلائدِ المجدِ نَحرُها ، ولم يَعْطَلْ من حَلْىِ المجدِ صَدْرُها ، كبر مَهْرُها ، وعزَّ كفؤها ، ولم أَجِد لها إلا واحداً أَخْضَر الجلدة فى بيت العرب ، أو ماجداً يملأ الدّلو إلى عقد الكَرَب[5] . وهذه حاجةٌ أنا أزفّها إلى الشيخ الإمام حرس اللهُ

---

(١) رسائل البديع : ٩١ . (٢) فى الرسائل : ولا كالسرور بطلعته .

(٣) المغار والمغارة : الكهف ، وغارت الشمس : غربت . (٤) الرسائل : ٨٤ .

(٥) الكرب : الحبل يشد فى وسط العراقى ليلى الماء .

مُهْجَته ، وأَسُوقها منظومة من الصَّدْرِ إلى العجُز ، كما يساقُ الماءُ إلى الأرض الجُرُز[1] ؛ وأنا من مفتَتَح اليـوم إلى مختَتَمِه ومن قَرْنِ النهار إلى قدمه قاعد كالـكركى ، أو الديك الهِنْدى، فى هذا الأُدْحِىّ[2] ، يمرُّ بى أُولو الحلى والحلل، ويجتاز ذوو الخيل والخَوَل[3] ، ومَا أنا والنَّظر إلى ما لا يَلِينى[4] ، والسؤال عما لا يَعْنِينى ، واليوم ، لما افتضضنا عُذْرَة الصباح ، ملأتُ جفونى من مَنْظَرٍ ما أحوجه إلى عَيْبٍ يَصْرِفُ عَيْنَ كمالِه عن جمالِه ، فقلت لمن حضر : مَنْ هـذا ؟ فأخذوا يحرِّكون الرءوسَ استظرافاً لحالى، ويتغامزُون تعجُّبا من سؤالى، وقالوا : هذا الشيخُ الفاضل أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد ، فقلت : حرس اللهُ مُهْجَته ، وأدام غِبْطته ؛ فـكيف الوصولُ إلى خِدْمَتِه ، وأنَّى مَأْتَى معرفته ؟ قالوا : إن الشيخ الإمام ـ أدام الله تأييده ـ يضربُ فى مودَّتِه بالقِدْحِ المعلَّى ، ويَأْخُذ فى معرفته بالحظِّ الأَعلى ، فإنْ رأى الشيخ ـ أطال الله بقاه ـ أن تُجْعَل عنايتُه حَرْفَ الصلة ، وتفضّله لَامَ المعرِفَة ، فعل ، إن شاء الله .

[طرف من أخبار البرامكة]

يحيي وابناه

قال الرشيدُ ليحيي بن خالد : يا أبت ، إنى أردتُ أن أجعـلَ الخاتم الذى فى يد الفضل إلى جعفر ، وقد احتشمت منه فاكْفِنِيه .

فـكتب إليه يحيي : قد أمر أميرُ المؤمنين ـ أَعْلَى اللهُ أمره ـ أن يحوِّل الخاتم من يمينك إلى شمالك .

فأجاب الفضل : قد سمعتُ ما قاله أمير المؤمنين فى أَخى ، وقد اطّلعت على أمره ، وما انقَلَبَتْ عنى نِعمهٌ صارت إليه ، ولا عَزَبت[5] عنى رتبةٌ طلعَتْ عليه .

فقال جعفر : لله أَخى ! ما أَنْفَسَ نفسه ، وأَبْيَن دلائلِ الفضل عليـه ، وأقوى

---

(١) الجرز ، بضمتين : الأرض لا تنبت شيئا .
(٢) الأدحى : مبيض النعام فى الرمل .
(٣) الخول : العبيد والإماء وغيرهم من الخاشية .
(٤) فى الرسائل : إلى ما يلهينى .
(٥) عزبت : بعدت .

مِنَّة العقل فيه[١] ، وأوسع فى البلاغة ذَرْعه ، وأَرْحب بها جنابه . يُوجب على نفسه ما يجب له[٢] ، ويَحْمِلُ بكرمه فوق طاقته .

بلاغة جعفر ومعرفته

وذُكِر جعفرُ بن يحيى فى مجلس ثمامة بن أشرس فقال : مارأيتُ أحداً من خَلْقِ الله كان أَبْسَط لسانا ، ولا أَلْحَن بحجّة ، ولا أقْدر على كلام، بنَظْمٍ حسنٍ ، وألفاظٍ عذبة ، ومَنْطقٍ فصيح، من جعفر بن يحيى، كان لا يتوقّف ، ولا يتحبَّس ، ولايَصِلُ كلامَه بحشْوٍ من الكلام ، ولا يُعِيدُ لفظا ولا معنى، ولا يَخْرُجُ من فنٍّ إلى غيره ، حتى يبلغ آخرَ مافيه ؛ وكان لايرى شيئاً إلّا حكاه ، ولا يَحْكى شيئاً إلّا كان أكثر منه ، ولا يمُرُّ بذهنه شىء[٣] إلا حفظه ؛ وكان إذا شاء أَضحك الثَّكْلَى ، وأَذْهَل الزاهد، وخشَّن قَلْبَ العابد .

قلت: فكيف كانت معرفته ؟ قال : كان من أَعلم الناس بالخبر الباهر ، والشعرِ النادر ، والمثل السائر ، والفصاحة التامة ، واللسان البسيط .

بلاغة يحيى وجعفر

قال سهل بن هارون ، وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفرا ، فقال : لو كان الكلامُ متصوّرا دُرًّا ، ويلقيه المنطق جَوْهرا ، لكان كلامهما ، والمنتَقى من ألفاظهما . ولقد غَبَرت[٤] معهما ، وأدركْتُ طبقةَ المتكلمين فى أيامهما ، وهم يرَوْن البلاغةَ لم تستكْمَلْ إلا فيهما ، ولم تكُنْ مقصورةً إلا عليهما ، ولا انقادت إلّا لهما . وإنهما لَلُبابُ الكرم ، عِتْقَ منظر ، وجودَةَ مَخْبَر ، وسهولةَ لفظ ، وجزالةَ منطق ، ونزاهةَ نفس ، وكمالَ خصال ؛ حتى لو فاخرتِ الدنيا بقليلِ أيامهما ، والمأثورِ من خصائصهما جميعَ أيامِ مَنْ سواهما من لَدُنْ آدم إلى أن يُنْفَخَ فى الصور ، ويُبْعثَ أهلُ القبور — حاشا أنبياءالله الكرام ، وسَلَفِ عباده الصالحين — لما باهت إلّا بهما ، ولا عوّلت فى الفخر إلا عليهما ، ولقد كانا مع تهذيب أخلاقهما ، ومَعْسُول مذاقهما،

---

(١) المنة : النعمة ، أما المنة — بضم الميم فهى القوة . (٢) فى س : ما يحب .

(٣) فى ق ، س : ولا يمر بذهنه شيئا . (٤) مكثت .

وسنا إِشْراقهما ، وكمالِ خصالِ الخيرِ فيهما ، فى محاسن المأمونِ كالنُّقْطَة فى البحر ، والخَرْدَلة[1] فى القفْرِ .

من توقيعات جعفر وكلامه

ووقّع جعفرُ بن يحيى لرجلٍ اعتذر عنده من ذنب : قد قدُمت طاعَتُك، وظهرت نصيحتُك ، ولا تَغْلِبُ سيئةٌ حسنتين .

ووقع — وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطّه : الخطُّ خَيْطُ الحِكْمة ، يُنْظَمُ فيه منثورُها ، ويفصَّل[2] فيه شذورُها .

واختصم رجلان بحضرته ، فقال لأحدها : أنت خَلِىّ ، وهذا شَجِىّ ؛ فكلامك يَجْرِى على بَرْدِ العافية ، وجوابُه يَجْرى على حَرِّ المصيبة .

جعفر يثيب مروان بن أبى جعفر

ودخل مروان بن أبى حفصة على جعفر بن يحيى فأنشده :

أبوالفضل سَبّاقُ الأَضَامِيمِ[3] جَعْفَرُ	أبَرّ فما تَرْجُو الجِيادُ لَحاقهُ
أشار بما عنه الخلافةُ تَصْدُرُ	وزيرٌ إذا ناب الخلافةَ حادِثٌ

فقال جعفر : أنشدنى مرثيتك فى معن بن زائدة فأَنْشَدَهُ :

مقاماً ما نُرِيدُ به زَوالا	أقَمْنَا باليمامة أو نَسِينا
وقد ذهب النَّوَالُ فلا نَوَالا	وقلنا أيْنَ نذهبُ بعد مَعْنٍ
إلى أن زار حُفْرَتَهُ — عِيالا	وكان النـاسُ كلُّهم لمَعْنٍ

حتى فرغ من القصيدة ، وجعفر يُرْسِل دموعَه على خدّيه ، فقال : هل أثابك على هذه المرثية أحدٌ من أهْلِ بيته وولده ؟ قال : لا ، قال : فلو كان معن حيًّا ، ثم سمعها منك ، كم كان يُثيبك عليها ؟ قال : أربعمائة دينار ، قال : فإنّا كنّا نظنّ أنه لا يَرْضَى لك بذلك ، وقد أمرنا لك عن مَعْن — رحمه الله — بالضّعف مما ظننته ، وزِدْناك مثلَ ذلك ؛ فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تخرج . فقال مروان — يذكر جعفراً وما سمح به عن معن :

---

(١) الخردل : حب شجر . (٢) فى س : ويفصل . (٣) الإضامة : الجماعة .

نَفَحْتَ مكافئاً عن جُودِ مَعْنٍ ... لنـا فيما تَجُودُ به سِجَالا
فعجَّلْتَ المطيـة يابْنَ يحيى ... لناد بهِ ولم تَرِدِ المِطَالا[1]
فـكافأ عن صَدَى مَعْنٍ جَوادٌ ... بأَجْوَدِ راحـةٍ بَذَلَتْ نوالا
بَـنَى لك خالدٌ وأبوكَ يحيى ... بناءً فى المـكارِمِ لَنْ يُنالا
كأنَّ البرمكىّ لـكلِّ مالٍ ... تجودُ به يداه يُفيـد مالا

***

شىء من النقد

أخذ هذا من قول زهير[2] :

تَرَاهُ إذَا ما جئته مُتَهَلِّلاً ... كأنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذى أَنْتَ سائِلُهْ

وهذا البيت لزهير من قصيدة يقول فيها[3] :

وَذِى نِعْمَةٍ تَمَّمْتها وشكرتها ... وخَصْمٍ يكادُ يغلِبُ الحقَّ باطلُهْ
دفعتَ بمعروفٍ من الحقِّ صائبٍ ... إذا ما أضلَّ القائلين مَفَاصِلُه[4]
وذِى خَطَلٍ فى القول يَحْسَبُ أنهُ ... مُصِيبٌ فما يُلْمِمْ به فهو قائلُهْ
عَبَأْتُ له حلما[5] وأ كرمتُ غيرَهُ ... وأعرضتُ عنهُ وهو بادٍ مَقَاتِلُهْ
وأبيضَ فيّاضٍ يَدَاهُ غَمامَةٌ ... على مُعْتَفِيهِ ما تُغِبُّ نَوَافِلُهْ
غَدَوْتُ عليـه غُدْوَةً فرأَيْتُهُ ... قُعُوداً لَدَيْهِ بالصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُفَدِّينَهُ طَوْراً وطَوْراً يَلُمْنَهُ ... وأعْيَا فمـا يَدْرِينَ أينَ مَخاتِلُهْ
فأعْرَضْنَ عنه عن كريم مُرَزَّإٍ[6] ... جَمُوحٍ على[7] الأمرِ الذى هو فاعلُهْ
أَخِى ثِقَةٍ لا يُذْهِبُ الخمرُ مالَهُ ... ولـكنّه قد يُذْهِبُ المالَ نائلُه

قال أبو الفرج قُدامة بن جعفر ، فى معنى أبيات زهير الأولى[8] ؛ لمـا كانت فضائلُ الناسِ من حيث هم ناس، لا من طريقِ ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ،

---

(١) المطال : التسويف . (٢) ديوانه : ١٤٣ . (٣) ديوانه: ١٣٨ .
(٤) فى ق : معاضله . (٥) فى الديوان : حلمى . (٦) فى ق : مدرإ .
(٧) فى ق : عن . (٨) العمدة: ٢-١٢٥ ، نقد الشعر ٣٩

على ما عليه أهلُ الألباب من الاتّفاق فى ذلك ، إنما هى العقلُ والعفةُ والعَدْلُ والشجاعة ، كان القاصد للمَدْح بهذه الأربعة مُصِيبا وبما سواها مخطئاً . وقد قال زهير :

أَخِى ثقةٍ لا يُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ ولكنه قد يُهْلِكُ المالَ نَائِلُه

فوصفه بالعفّة لقلةِ إمعانه فى اللذات ، وأنه لا يُنْفِد فيها ماله ، وبالسخاء لإهلاك ماله فى النوال ، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات ، وذلك هو العدل ، ثم قال :

تراه إذا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلا كأنّك تُعْطِيهِ الذى أنتَ سائِلُهْ

فزاد فى وَصْفِ السخاء بأنه يهشّ ولا يلحقه مضَضٌ ولا تَكَرُّهٌ لِفِعْله .

ثم قال :

فمن مثل[1] حِصْنٍ فى الحروب ومِثْلهُ لإنْكَارِ ضَيْمٍ أو لأمْرٍ يُحَاوِلُهْ

فأتَى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل ؛ فاستوفى ضروبَ المدحِ الأربعة التى هى فضائلُ الإنسان على الحقيقة ، وزاد الوفاءَ ، وإن[2] كان داخلا فى الأربعة ؛ فكثير من الناس لا يعلم وَجْهَ دخوله فيها حيث قال : أخى ثقة ، فوصفه بالوفاء ؛ والوفاء داخلٌ فى هذه الفضائل التى قدّمناها .

وقد يتفنَّنُ الشعراء فيعدّون أنواعَ الفضائل الأربع وأقسامها ، وكلُّ ذلك داخلٌ فى جملتها ؛ مثل أن يذكروا ثقابَةَ المعرفة ، والحياءَ ، والبيانَ ، والسياسة ، والصَّدْعَ بالحجَّة ، والعلم ، والحلم عن سفاهة الجَهَلَةِ ؛ وغير ذلك مما يَجْرى هذا المجرى ، وهو من أقسام العقل .

وكذكرهم القناعة ، وقلّة الشَّرَهِ[3] ، وطهارة الإزار ، وغير ذلك أيضاً من أقسام العفَّة . وكذِكْرِهم الحماية ، والأَخْذَ بالثّأر ، والدفاع ، والنِّكايَة ، والمهابة ، وقَتْلَ

(١) فى ط : فذلك حصن ... (٢) فى العمدة : وزادها ما هو وإن .

(٣) فى العمدة : وقلة الشهوة .

الأقران ، والسير فى المهامه والقفار ؛ وما يشا كلُ ذلك، وهو من أقسام الشجاعة ؛ وكذِكْرهم السماحة ، والتغابن [١] ، والانظلام [٢] ، والتبرع بالنائل ، وإجابة السائل ، وقِرَى الأضياف ؛ وما جانس هذه الأشياء ، وهو من أقسام العدل .

فأمّا تركيب بعضها على بعض فتحدث منها ستة أقسام : يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبرُ على الملمات ، ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعود [٣] . وعن تركيب العقل مع السخاء إنجازُ الوعد ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب العقل مع العفة التنزه والرغبةُ عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع السخاء الإخلاف ، والإتلاف ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع العفّة إنكارُ الفواحش ، والغيرةُ على الحُرَم . ومن السخاء مع العفة الإسعاف بالقوت ، والإيثارُ على النفس ، وما شاكل ذلك . وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع وَسَطٌ بين طرفين مذمومين .

ابن مناذر يمدح البرامكة

وقد قال أبو جعفر محمد بن مناذر لما حجَّ الرشيد مع البرامكة :

أتانا بنو الأملاك مِنْ آلِ برْمَكٍ ... فيا طِيبَ أخْبارٍ ويا حُسْنَ مَنْظَرِ
لهم رِحْلةٌ فى كلِّ عام إلى العِدَا ... وأُخْرَى إلى البيتِ العتيقِ المشهّرِ
فتُظْلِم بغدادٌ ويَجْلو لنا الدُّجاَ ... بمكّةَ ما حَجُّوا ثلاثةُ أقْمُرِ
إذا نزلوا بطحاءَ مكة أشرقَتْ ... بيَحْيَى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فما خُلِقَتْ إلّا لجودٍ أكفُّهم ... وأقدامُهم إلّا لأعْوادِ منْبَرِ
إذا راضَ يحيى الأمر ذَلَّتْ صِعاَبهُ ... وحَسْبُك مِن راعٍ له ومدبِّرِ
ترى الناسَ إجلالًا له وكأنهم ... غَرانِيق ماء تحت بازٍ مُصَرْصِرِ [٤]

---

(١) أصل التغابن : أن يغبن بعضهم بعضا .
(٢) الانظلام : تحمل الظلم .
(٣) فى س ، ق : بالأوعاد .
(٤) الغرانيق ، جمع غرنوق : وهو طائر مائى أسود وقيل أبيض ، والبازى : الصقر . والمصرصر : الصائح صياحا شديدا .

[طرف من التجنيس]

للميكالى قطعة من شعر الأمير أبى الفضـل الميكالى فى طَرف أخذ بطرف من التجنيس مستطرف فى ضروب من الغزل[1] ، قال :

لقـد راعنى بَدْرُ الدُّجاَ بصدوده ... ووَكّلَ أجفانى برَعْىِ كَواكِبه

فيا جزَعى ، مَهْلًا عَساهُ يعودُ لى ... ويا كَبِدى صَبْراً على ما كَواكَ به

وقال :

مواعيدُه فى الفَضْل أحلامُ نائم ... أُشَبِّهها بالقَفْرِ أو بِسَرَابِهِ

فمَنْ لى بوَجْهٍ لوتَحيَّرَ فى الدُّجاَ ... أخُوسَفَرٍ فى ليلِ غَيْمٍ سَرَى بِهِ

وقال :

صِلْ محبًّا أَعياه وَصْفُ هواهُ ... فضَناه يَنُوبُ عن ترجُمانه

كلما راقَهُ سِوَاكَ تصدَّتْ ... مقلتاهُ بدمعِه تَرْجُمانِه[2]

وقال :

ياذا الذى أَرسل من طَرْفِهِ ... علىّ سَيْفاً قدَّنى لو فَرَا

شفاءُ نفسى منك تخميشةٌ ... تَغْرِس فى خدّك نَيْلَوْفَرَا[3]

وقال :

يا مُبْتَلًى بضَناهُ يَرْجُو رحمـةً ... من مالكٍ يشفيه من أَوْصَابِهِ

[أوصاكَ سِحْرُ جفونه بتسهُّد ... وتبلّد ، فقبلت ما أَوْصَى به][4]

اصبر على مضَضِ الهوى فلربّما ... تَحْلُو مرارةُ صبرِه أو صابِهِ

وقال :

كتبت إليه أَستهدى وِصالًا ... فعلَّلنى بوَعْدٍ فى الجواب

---

(١) اليتيمة ٤ـ٣٤٠ .   (٢) فعل مضارع من رجم .   (٣) ضرب من الرياحين .

(٤) من س ، ق .

أَلَا ليت الجوابَ يكون خيراً   فيطفئُ ما أَحاط من الجوَى بى

وقال :

إنْ كنتَ تأْنَسُ بالحبيبِ وقُرْبهِ   فاصْبِر على حُكْمِ الرقيبِ ودارِهِ

إنَّ الرقيبَ إذا صبرت لحكمهِ   بوَّاكَ فى مَثْوَى الحبيبِ ودَارِهِ

وقال :

شكوتُ إليه ما أُلاقِى فقال لى :   رُوَيداً ، ففى حُكْمِ الهوَى أنْتَ مُؤْتلى

فلو كان حقًّا ما ادَّعيت مِنَ الهوَى   لقلّ بما تلقى إذاً أنْ تموتَ لى

وقال :

نوَى لى بعد إكثارِ السؤال   حبيبٌ أنْ يُسامحَ بالنَّوَالِ

فلما رُمْتُ إنجازاً لوعدى   عليه أَبى الوفاءَ بما نوَى لى

وكان القربُ منه شفاءَ نفسى   فقد قَضَتِ النوائبُ بالنَّوَى لى

وقال :

سقياً لدهرٍ مضَى والوصلُ يجمَعُنا   ونحنُ نحكِى عِناقا شَكل تَنْوِينِ

فصِرْتُ إذ عَلِقَتْ كفِّى حَبَائِلَكُم   فسَهْمُ هجرِك تَرْمِى ثم تَنْوِينى

وقال(١) :

صَدَفَ الحبيبُ بوَصْلهِ   فجفَا رُقَادِى إذْ صَدَفْ

ونثرت لؤلؤ أدمُعٍ   أَضْحَى لها جَفْنى صَدَفْ

وقال :

يا مَنْ يقولُ الشعرَ غَيْرَ مهذّبٍ   ويَسُومُنى التعذيبَ فى تهذيبِه

لو أَنّ كلَّ النَّاس فيك مُساعِدى   لعجزت عن تهذيبِ ما تَهْذِى بِهِ

وقال :

أراد أنْ يُخْفى هَوَاه وقَدْ   نَمَّ بما تُخْفِى أَسَارِيرُهُ

---

(١) اليتيمة : ٤ـ٣٤٣ .

وكيفَ يُخفى داءَه مُدنَفٌ   قد ذابَ من فَرْطِ الأسى رِيرُهُ[1]

وقال[2] :

ومهفهف تَهفُو بِلُبْـ   ـبِ المرءِ مِنْه شَمَائِلُ
فالرِّدْفُ دِعْصٌ هائلٌ   والقدُّ غُصنٌ مائلُ
والخدّ نورُ شقائقٍ   تنشقُّ عنـه خمائلُ
والعَرْفُ نَشْرُ[3] حَدائقٍ   تمّت بهنَّ شمَائِلُ
والطَّرْفُ سَيْفٌ مالهُ   إلا العِـذار حَمَائِلُ

للبستى

ولأبى الفتح البستى فى هذا المذهب :

إن لى فى الهوى لِسَانًا كَتُوماً   وجَناناً يخفى حَريقَ جَواهُ
غير أنّى أخافُ دَمْعِى عليهِ   ستراه يُفشِى الذى ستَرَاهُ

ولأبى الفتح البستى فى مذهب هذا البيت الأخير :

نَاظِرَاه فيما جَنَى نَاظِرَاهُ   أَوْدَعانى أَمُتْ بمـا أَوْدَعانى

وله :

خُـذِ العفوَ وأْمر بعُرْفٍ كما   أُمِرت وأَعْرِض عن الجاهلينْ
ولِنْ فى الـكلام لـكلِّ الأنام   فمستَحسَنٌ من ذوى الجاه لِينْ

وله :

إلى حَتْفِى سَعَى قَدَمِى   أَرَى قَدَمى أراقَ دَمِى
فما أنفَكُّ من نَدَمِى   وليس بنافعى نَدَمِى

وله[4] :

إنْ هزَّ أقلامَه يوماً ليُعْمِلَها   أنساكَ كلَّ كمىٍّ هزَّ عامِلَهُ

(١) الرير : ذائب المخ . (٢) اليتيمة ٣–٣٤١ . (٣) فى اليتيمة : مثل حدائق.
(٤) اليتيمة : ٤–٢٩١ .

وإِن أقرّ[1] على رَقٍّ أناملهُ ... أقرَّ بالرِّق كتَّابُ الأنامِ لهُ

وقال لمن استدعاه إلى مودّته :

فديتك قلَّ الصديقُ الصَّدُوق ... وقلّ الخليـلُ الخفىّ[2] الوفى

ولِى راغبٌ فيك إِمَّا وفيت ... فهل راغبٌ أنت فى أنْ تفى

وللأمير أبى الفضل : (وللميكالى)

أهلًا بظَـبْى حواهُ قَصْر ... كجنَّةٍ قد حَوَتْ نَعِيما

طَرَقْته لا أهاب سوءًا ... أبَاحَـنِى حبّـه الحريما

فجاد مَنْ فيـه لى برَاحٍ ... تَنْفِى حريقًا به قديمًا

أفْدِى حريقًا أباح رِيقًا ... لا بَلْ حَرِيمًا أباح رِيمًا

وله[3] :

مَنْ لى بشَمْلِ المُـنَى والأُنْس أجْمَعهُ ... بشادِنٍ حَلَّ فيـه الحسْنُ[4] أجمُعُهُ

ما زال يُعْرِضُ عن وَصْلِى وأَخدعهُ ... فالآن قد لَانَ[5] بعـد الصدِّ أَخْدَعه

وقال :

بأَبِى غَزَالٌ نام عَنْ وَصَبِى[6] به ... ومُراقِ دَمْعِى للنَّوَى وصَبِيبِهِ

يا لَيتـه يرْثِى على وَلَهِى بِهِ ... لغرامِ قَلْبِى فى الهوَى ولَهِيبِهِ

وله فى هذا الباب من غير هذا النمط يصف غلاماً مخمورا خمش وجهه[7] :

هَبْهُ تَغيَّرَ حائلا عن عَهْدِهِ ... ورَمى فؤادى بالصدود فأَزْعَجا

ما بالُ نَرْجسِهِ تحوَّلَ وردةً ... والوردُ فى خدَّيه عاد بَنَفْسَجا

وله فى هذا المعنى :

وريمٍ على السُّـكْرِ خَمّشته ... بقَرْصٍ بعارضِهِ أَثَّرا

(١) فى اليتيمة : أمر . (٢) فى س ، ق : الخفى . (٣) اليتيمة : ٤ـ٣٤٣.
(٤) فى اليتيمة : الأنس أجمعه . (٥) فى اليتيمة : لى لان .
(٦) الوصب : المرض . (٧) اليتيمة : ٤ـ٣٤١ .

فأصبح نَرْجِسُه وردةً ووردةُ خدَّيْهِ نَيْلوْفرا

وقال فى وصف العِذار :

ظَبْىٌ كَسَا رَأْسَ الشباب بِعارضٍ نَمَّ العِـذارُ بحافَتَيْه فَلَاحَا[1]

فكأنما أَهْدَى لعارضِ خـدِّهِ شعرى ظَلاماً واستعاضَ صَبَاحا

وقال فى غلام افتصد[2] :

ومُهفْهفٍ غرس[3] الجما لُ بخدِّه رَوْضاً مَرِيعا[4]

فَصَدَ الطبيبُ ذِراعَهُ فجرى له دَمْعِى ذريعا[5]

وأمسّنى وقعُ الحديـ ـدِ بعِرْقِهِ أَلَماً وَجِيعاً

فأريته من عَبْرَتى ماسال من دَمِهِ نجيعاً[6]

فِقر فى ذكر العلم والعلماء

العلماء ورثةُ الأنبياء . العلماءُ أعلامُ الإسـلام . العلماءُ فى الأرض كالنجوم فى السماء .

ابن المعتز ــ العلماءُ غرباء ، لِـكَثْرَةِ الجهل . وله : العلمُ جمالٌ لا يخفى ، ونَسَب لا يُجفَى . وله : زَلَّةُ العالم كانـكِسَار سفينةٍ تَغْرق ويَغْرق معها خَلْقٌ كثير .

غيره ــ إذا زلّ العالم زَلَّ بزلَّتِه عالَم . غيره : الملوك حُـكّامٌ على النـاس ، والعلماء حكام على الملوك . من لم يحتمل ذلَّ التعلم ساعة ، بقى فى ذلّ الجهل أبداً . ماصِينَ العلمُ بمثل بَذْله لأهله . من كـتم علماً فـكأنه جاهلُه . العلمُ يمنعُ أهله أن يمنعوه أهله .

أبو الفتح كشاجم :

---

(١) لاح : ظهر . (٢) اليتيمة ٤ــ٣٤١ . (٣) فى اليتيمة : أبدى الجمال .
(٤) المريع : الخصيب . (٥) الذريع : الشفيع والسريع . (٦) النجيع : من الدم : ما كان إلى السواد ، أو دم الجوف .

لا تمنع العلم امرءًا والعلمُ يمنعُ جانبَهْ
أما الغبيّ فليس يفـ ـهم لُطْفَهُ وغرائبَهْ
وتكون حاضرةُ الفوا ئد عنـده كالغائبه
وأخو الحصافة مُسْتَحِـ ـقٌ أَنْ ينالَ مَطَالِبه
فبحقِّه أعطيتهُ مِنْ فَضْلِ عِلمك وَاجِبَه

ومن رقَّ وجهُه عند السؤال ، رقّ عِلمُـه عند الرجال . علم بلا عمل ، كشجرة بلا ثمر . كما لا يُنْبِتُ المطرُ الـكثير الصَّخْرَ ، كذلك لا ينفعُ البليدَ كثرة التعلم . من ترفَّـع بعلمه وضَعَه اللهُ بعمله . الجاهلُ صغيرٌ وإن كان كبيراً ، والعالم كبيرٌ وإن كان صغيرا . من أكثر مذاكرةَ العلماء ، لم ينس ماعلم ، واستفاد ما لم يعلم .

ابن المعتز : المتواضعُ فى طلاب العلم أكثرهم عِلما ، كما أن المـكان المنخفِضَ أكثر البقاع ماء . إذا علمت فلا تَذْكُرْ مَن دونك من الجهال ، واذكُرْ مَنْ فوقَك من العلماء . النارُ لا يُنقِصُها ما أُخذَ منها، ولـكن يُنْقِصُها ألاَّ تَجد حطباً ، كذلك الْعلمُ لا يُفْنِيه الاقتباسُ منه ؛ وفَقْدُ الحاملين له سببُ عدمه . مات خَزَنة الأَموال وهم أحياء ، وعاش خُزّانُ العلم وهم أموات . مثَلُ عِلْم لا ينفع كـكنز لا يُنْفَقُ منه. أزهد الناس فى عالم جيرانُه .

وقيل للصلت بن عطاء وكان مقدّماً عند البرامكة : كيف غَلَبت عليهم وعندهم مَنْ هو آدَبُ منك ؟ قال : ليس للقُرَباء ظَرافة الغُرَباء ، وكنت امرءًا بعيدَ الدار ، نائى المَزار ، غريبَ الاسم ، قليلَ الجرم ، كثير الالتِواء ، شحيحاً بالإملاء ؛ فرغَّبهم فىَّ رغبتى عنهم ، وزهَّدنى فيهم رغبتُهم فىَّ .

علم لا يَعْبُرُ معك الوادى ، لا يعمر بك النَّادى . لو سكت مَنْ لا يعلم لسقط الاختلاف . إذا ازدحم الجوابُ خَفِى الصواب . الغلط تحت اللَّغط . خرق الإجماع خرق . المحجوج بكلّ شىء ينطق .

استعارات فقهية تليق بهذا المكان

دخل أبو تمام الطائى على أحمد بن أبى دُوَاد فى مجلس حكمه ، وأنشده أبياتا يستَمْطِرُ نائله ، وينشر فضائله ، فقال : سيأتيك ثوابُها يا أبا تمام ، ثم اشتغل بتوقيعات فى يده ؛ فأَحفظ ذلك أبا تمام ، فقال : احضر أيدك الله فإنك غائب ، واجْتمعْ فإنك مفترق ، ثم أنشده :

إنَّ حَرَاماً قبولُ مِدْحَتِنا وتَرْكُ مانَرْتَجى من الصَّفَدِ (١)
كما الدنانيرُ والدراهمُ فى الصَّرْ ف حرامٌ إلا يَداً بِيَدِ

فأمر بتوفير حِبَائه ، وتعجيل عطائه .

ولما ولى طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان دخل الشعراء يهنئونه ، وفيهم تمام ابن أبى تمام فأنشده :

هُنَّاكَ رَبُّ الناسِ هنّاكا ما من جزيلِ الملك أعطاكا
قرَّتْ بما أُعطِيت ياذَا الحجى والبأسِ والإنعامِ عَيْنَاكا
أشرقتِ الأرضُ بمـا نلتَهُ وأوْرَقَ العودُ بجَدْوَاكا

فاستضعف الجماعةُ شعره ، وقالوا : يا بُعدَ ما بينه وبين أبيه ! فقال طاهر لبعض الشعراء : أَجبه فقال :

حيّاكَ ربُّ الناس حيَّاكا إن الذى أمَّلْتَ أخطاكا
فقلتَ قولا فيـــه مازانهُ ولو رأى مَدْحا لآساكا
فهاكَ إن شئتَ بهـا مدحةً مثل الذى أَعطيتَ أَعْطَاكا

فقال تمام : أعز الله الأمير ، إنّ الشِّعْرَ بالشعر رِباً ، فاجعل بينهما صنجاً من الدراهم (٢) ، حتى يحلّ لِى ولك ! فضحك وقال : إلا يكن معه شعرُ أبيه ، فمعه ظرف أبيه ؛ أعطوه ثلاثة آلاف درهم ! فقال عبد الله بن إسحاق: لو لم يعط إلا لقول أبيه

(١) الصفد : العطاء . (٢) هكذا فى كل الأصول .

فى الأمير أبى العباس رحمه الله ـ يريد عبد الله بن طاهر[1] :

يقولُ فى قَوْمَسٍ[2] صَحْبِى وقد أخذَتْ ... منّا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيَّة القُودِ[3]

أمطلع الشمس تبغى أن تَؤُمَّ بنـا ... فقلتُ : كلاَّ ، ولـكن مطلعَ الجودِ

فقال : ويعطى بهذا ثلاثة آلاف .

[ولاية طاهر خراسان]

وكان سببُ ولاية طاهر خراسان بعد أبيه ما حدَّث به أبو العيناء قال : كنا عند أحمد بن أبى دواد ، فجاء الخبر أنّ الـكتبَ وردت على الواثق من خراسان بوفاة عبدالله ابن طاهر ، وأن الواثق يعزَّى عنه ، وأنه قد ولّى مكانه خراسان إسحاق بن إبراهيم ، وكان عدوًّا له لانخراطِه فى سِلْكِ ابن الزيات ؛ فلبس ثيابَه ومضى ، وقال : لا تبرحوا حتى أعودَ إليكم ؛ فلبث قليلا ، ثم عاد إلينا فحدّثنا أنه دخل على الواثق فعزّاه عن عبد الله وجلس ، قال : فقال لى الواثق : قد وَلّينا إسحاق خراسان ، فمـا عندك ؟ قلت : وفق الله أمير المؤمنين ولا ندمّه . قال : قلْ ماعندك فى هذا . قلت : أمرٌ قد أُمضِى ، فما عسيت أن أقولَ فيه . قال : لتفعلنّ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، خراسانُ منذ ثلاثين سنة فى يد طاهر وابنه ، وكلُّ مَنْ بها صنائعُهم ، وقد خلف عبد الله عشرَ بنين أكثرُهم رجال ، وجميعُ جيش خراسان لهم عبيدٌ أو موال أو صنائع[4] ، وسيقولون : أمَا كان فينا مُصْطَنَع؟ وكان يجب أن يجرّبَنا أميرُ المؤمنين ، فإن وَفَيْنَا بما كان يَفِى به أبونا وجدُّنَا ، وإلّا استبدلَ منا بعد عذرٍ فينا ؛ ويقدم خراسانَ إسحاق وهو رجل غريب فينافسه هؤلاء ، ويتعصّب أهلها لهم ؛ فينتقض ما أُبْرِمَ ، ويفسد ما أُصلِح .

---

(١) أخبار أبى تمام ٢١٢ . (٢) قومس : صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .
(٣) المهرية : إبل تنسب إلى مهرة بن حيدان . القود : جمع أقود أو قوداء : الذلول المنقاد .
(٤) فى س : عبد أو مولى أو صنائعه .

قال : صدقت يا أبا عبد الله ، والرأى ما قلت ؛ اكتبوا بعهد طاهر بن عبد الله على خراسان . فكتبت كتبُ طاهر، وحُرِقت كتب إسحاق، فخرجت الزنج تطيرُ بها، ثم لقينى إسحاق داخلا فقلت : يا أبا الحسن ، لا عدمت عداوةَ رجلٍ أزال عنك ولاية خراسان بكلمة .

* * *

رجع إلى الاستعارات الفقهية

ومدح ابن الرومى أبا العباس بن ثوابة ، فعارضه أخوه أبو الحسن بقصيدة يمدح أخاه بها فقال ابن الرومى[1] :

أَلَيْسَ القَوَافِي بَنَاتِ الْفَتَى ... إذا صورَةُ الحقِّ لم تُمْسَخِ
فلا تَقْبَلَنَّ أَمَادِيحَهُ ... حَرامٌ نِكاحُ بَنَاتِ الْأَخِ

قصيدة أبى تمام فى المعتصم

ولما أنشد أبو تمام قصيدته فى المعتصم : * السيف أصدق أنباء من الكتب * قال له : لقد جلوت عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءها . قال : يا أمير المؤمنين ، والله لو كانت من الحُورِ العِين لكان حُسْنُ إصغائك إليها من أَوْفَى مهورِها .

للميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

أَقول لشَادِنٍ فى الحُسْنِ أضْحَى ... يَصِيدُ بلَحْظِهِ قَلْبَ الكَمِىِّ
ملكت الحسنَ أجمعَ فى قوام ... فأدِّ زكاةَ منظرك البَهِىّ
وذلك أَن تجودَ لمُسْتَهَامٍ ... برِيقٍ من مُقَبَّلِك الشَّهِىّ
فقال : أبو حنيفة لى إمامٌ ... فعندى لا زكاةَ على الصَّبِىِّ

وربما أنشد هذه الأبيات على قافية أخرى فقال :

أقول لشَادنٍ فى الحسن فَرْدٍ ... يصيد بلَحْظِهِ قَلْبَ الجليدِ
ملكتَ الحسن أجمعَ فى قوام ... فلا تَمْنَع وجوباً عن وُجودِ
وذلك أنْ تجودَ لمستهامٍ ... برَشْفِ رُضَابك العذْبِ البَرودِ

---

(١) ديوانه : ٢ـ١١٩ .

فقال : أبو حنيفةَ لِي إمامٌ ... فعنـدى لا زَكاة على الولِيـدِ

وقال :

بنَفسِي غَزالٌ صار للحُسْنِ قبلةً ... يُحَجُّ من البيت العتيق ويُقصَدُ
دعانى الهوَى فيه فلبَّيتُ طائعا ... وأحْرَمْتُ بالإخلاص والسَّعْىُ يَشْهَدُ
فطرفىَ بالتسهيـد والدمع قارنٌ ... وقلبى عليـهِ بالصبابة مُفْرَدُ

وقال أبو الفتح كشاجم : ا ـ كشاجم

فَدَيْتُ زائرةً فى العيد واصِلةً ... والهَجْرُ فى غَفْلَةٍ من ذلك الخبرِ
فلم يزل خدُّها رُكْناً أطوف بهِ ... والخالُ فى خدّها يُغنى عن الحجَرِ

وينضاف إلى هذا النظم قطعة من رسالة طويلة كتبها بديع الزمان إلى أبى نصر ابن المرزبان[1] : للبديـع

كتابى أطال الله بقاء الشيخ وأنا سالم[2] ، والحمد لله رب العالمين ، كيف تقلُّبُ الشيخ فى دِرْعِ العافية ، وأحوالُه بتلك الناحية ؛ فإنى بِبُعْدِه مُنغَّص شِرْعة[3] العيش ، مقصوص أُجنحة الأُنس . ورد كتابهُ المشتملُ من خبر سلامته على ما أرغب[4] إلى الله فى إدامته ، وسكنتُ إليه بعد انزعاجى لتأخُّره ؛ وقد كان رسم أن أعرِّفه سببَ خروجى من جرجان ، ووُقوعى بخُراسان ، وسببَ غضبِ السلطان ؛ وقد كانت القصةُ أنى لمـا وردتُ من ذلك السلطان حضرتَه ، التى هى كَعْبَةُ المحتاج ، لا كعبةُ الحجَّاج ، ومستقَرُّ[5] الـكرم ، لا مَشْعَر الحرم ، وقِبْلَة الصِّلات لا قِبْلَة الصلاة ، ومُنَى الضَّيف ، لا مِنى الخَيْفِ ، وجدت بهـا نُدمَاء من نبَات العام[6] ، اجتمعوا قيضَةَ كلْب[7] على تلفيق خَطْب ، أَزعجنى عن ذلك الفِناء ، وأَشرفَ بى على الفَناء ،

---

(١) رسائل البديع ٩٦ . (٢) فى الرسائل : متألم . (٣) فى الرسائل : شريعة .
(٤) فى الرسائل : ما رغبت . (٥) فى الرسائل : ومشعر الـكرام لامشعر الحرام. والمشعر الحرام: بالمزدلفة . (٦) من نبات العام : يريد أنهم حديثو عهد . (٧) قيضة كلب : القيضة بالـكسر : القطعة الصغيرة من العظم . والمراد تحقيرهم بوصفهم بعظام الـكلب .

لولا ما تَدارَكَ اللهُ بجميل صُنْعه ، وحُسْنِ دَفْعه ؛ ولاأَعلم كيف احتالُوا ، ولا ما الَّذى قالوا ؛ وبالجملة[1] غيَّرُوا رَأْىَ السلطان ، فأشار علىّ إخوانى بمفارقةِ مكانى ، وبقيتُ لا أَعلم أيمنةً أضْرِبُ أم شآمة ، ونَجْدا أَقصد أم تهامة !

ولو كنت فى سَلْمى أَجا[2] وشِعابها لـكان لحجَّاجٍ علىَّ دَلِيـلُ

وقد علم الشيخُ أنَّ ذلك السلطانَ سماءٌ إذا تغيّم لم يُرْجَ صَحْوُه ، وماءٌ إذا تغيّر لم يُشْرَبْ صَفْوُه ، وملك إذا سَخِط لم يُنتظر عَفْوُه ، وليس بين رِضاه والسخط عَوْجَة[3] ، كما ليس بين غَضَبه والسيف فرْجة ، وليس من وراء سُخْطِه مَجاز ، كما ليس بين الحياةِ والموت معه حِجاز ؛ فهو سيِّدٌ يُغْضِبه الجُرْمُ الخَفِىّ ، ولا يُرْضيه العذرُ الجَلىّ ؛ وتـكفيه الجناية وهى إرجاف ، ثم لا تَشْفيه العقوبةُ وهى إجحاف ، حتى إنه ليرى الذنبَ وهو أَضيقُ من ظلِّ الرمح ، ويَعْمَى عن العُذْرِ وهو أبْـيَنُ من عمود الصُّبْح ؛ وهو ذو أُذُنَـيْن يسمعُ بهذِه القولَ وهو بُهتان ، ويحجُبُ عن هذه العذرَ وله برهانٍ ؛ وذو يدَيْن يبسُط إحداها إلى السَّفْكِ والسَّفْحِ ويقبِضُ الأخرى عن العفو والصَّفْح . وذو عينين يفتحُ إحداها إلى الجُرْم ، ويُغمِضُ الأخرى عن الحِلْم ، فمَزْحُه بين القـدِّ والقَطْع ، وجِدُّه بين السيف والنِّطْع[4] ، ومُراده بين الظهور والـكُمونِ ، وأمْرُه بين الـكاف والنون . ثم لايَعْرِفُ مِن العقاب غير ضَرْبِ الرقاب ، ولا يهتدى من التأنيب إلا لإزالة النِّعم ، ولا يعـلم من التأديب غيرَ إراقة الدّم ، ولا يحتملُ الهَنَة[5] على حَجْمِ الذرَّة ، ودِقَّةِ الشعرة ، ولا يحلُم عن الهَفْوَة كوَزْنِ الهَبْوَة ، ولا يُغْضِى عن السَّقْطَة كجرْمِ النُّقْطَة ؛ ثم إنّ النقمَ[6] بين لَفْظِه وقلمه ، والأرضَ تحت يدِه وقدمه ، لايلقاه الولىّ إلا بفمِه ولا العدوّ إلا بدَمِه[7] ؛ والأرواح

---

(١) فى الرسائل : لـكن الجملة أن غيروا السلطان . (٢) أجأ وسلمى : جبلان .
(٣) فى الرسائل : عرجة . (٤) النطع ــ بالـكسر ويفتح : بساط من الأديم .
(٥) الهنة : الشىء اليسير . (٦) فى الرسائل : النعم .
(٧) فى ق : إلا بفمه ، ولا العدو إلا بدمه .

بين حَبْسه وإطلاقه ، كما أنّ الأجسام بين حلّه ووَثاقه[1] ؛ فنظرتُ فإذا أنا بين جُودَين : إما أن أَجودَ ببأسى ، وإمّا أن أجودَ برأسى ؛ وبين رُكُوبَين : إمّا المفازة ، وإمّا الجنازة . وبين طريقين : إمّا الغُرْبة ، وإمّا التربة . وبين فِراقَيْن : إمّا أن أُفارق أرْضِى ، أو أُفارق عرضى . وبين راحلتين : إمّا ظهور الجِمال ، وإمّا أَعْناق الرجال ؛ فاخترتُ السماح بالوَطَن ، على السماح بالبَدَن ؛ وأنشدت :

إذا لم يكُنْ إلّا المنية مَرْكَبٌ   فلا رَأْىَ للمحمول إلا رُكوبُها

ولّد ما ذكر من كعبة [المحتاج لا كعبة][2] الحُجّاج ، من قول أبى تمام :

بيتان حجَّهُما الأَنام فهذهِ   حجُّ الغَنِىِّ وتِلكُمُ لِلمُعْدِمِ

[أبو علىّ البصير وشىء من أدبه]

أدبه

وشتم بعضُ الطالبيين أبَا علىّ الفضلَ بن جعفر البصير ، فقال أبو علىّ : والله مانَعْيا عن جوابك ، ولا نَعْجز عن مَسابّك ؛ ولكنّا نكونُ خيراً لِنَسَبِك منك ، ونحفظ منه ما أَضعْتَ ؛ فاشكُرْ توفيرَنا ما وفَّرْنا منك ، ولا يغُرنَّك بالجهل علينا حِلْمُنا عنك .

وسأل أبو على البصير بعضَ الرؤساء حاجةً ولقيه ؛ فاعتذر إليه من تأخّرها ؛ فقال أبو علىّ : فى شُكْرِ ما تقدّم من إحسانك شاغلٌ من استبطاء ما تأخَّر منه .

من شعره

وأبو علىّ[3] أحد مَنْ جمع له حظُّ البلاغة فى الموزون والمنثور ، وهو القائلُ :

ألمَّت بنا يوْمَ الرحيلِ اختلاسة   فأَضْرَمَ نيرانَ الهوى النَّظَرُ الخَلْسُ

تأبَّت قليلا وهى تُرعَدُ خِيفةً   كما تتأبَّى حين تعتَدِل الشمسُ

نخاطبها صَمْتِى بما أنا مُضْمِرٌ   وأَنبَسْتُ[4] حتى ليس يُسْمَعُ لى حِسٌّ

---

(١) الوثاق — بالفتح ويكسر : ما يشد به .   (٢) ساقط من ط .

(٣) اللآلى : ٢٧٦ .   (٤) النبس : أقل الكلام ، والذى فى اللسان : نبس ، كضرب ، ونبس بالتشديد أيضا .

وولَّت كما ولّى الشباب لِطيّةٍ طوتْ دونها كَشْحاً على يأسها النفسُ

وقال يصف بلاغةَ الفتح بن خاقان وشعره :

سَمِعْنا بأشعار الملوكِ فكلُّها إذا عضَّ مَتْنَيْه الثقافُ (١) تأوَّدا

سوى ما رأينا لِامْرِئِ القيس، إننا نراه متى لم يَشْعُر الفَتْحُ أَوْحَدا

أقام زماناً يَسْمَعُ القولَ صامتاً ونحسبه إزراماً أكْدَى (٢) وأَصْلَدا

[فلما امتطاه راكبا ذلّ صعبُه وسار فأضحى قد أغار وأَنْجَدا] (٣)

والفتح بن خاقان يقول :

وإنى وإياها لكالخَمْرِ والفتى متى يستطِع منها الزيادةَ يَزْدَدِ

إذا ازدَدْتُ منها زاد وَجْدى بقُرْبِها فكيف احتراسِى مِنْ هوًى متجدِّدِ

كتابه إلى عبيد الله بن يحيي

وكتب إلى أبى الحسن عبيد الله بن يحيى : وإن أميرَ المؤمنين لمَّا استخلصك لنفسه ، وائْتَمنك على رعيّته؛ فنطق بلسانك ؛ وأَخذَ وأعطى بيدك ، وأَوْرد وأَصْدَر عن رأيك ، وكان تفويضُه إليك بعد امتحانِه إياك، وتَسْليطه الحقّ على الهوى فيك، وبعد أن مثّل بينك وبين الذين سَمَوْا لمَرْتبتك ، وجرَوْا إلى غايتك ، فأَسقطهم مَضاؤُك، وخَفُّوا فى ميزانك ، ولم يزدك - أكرمك اللهُ - رفعة وتشريفا إلا ازددتَ له هيبةً وتعظيما ؛ ولا تسليطا وتمكينا ، إلا زِدْتَ نفسك عن الدنيا عُزوفاً وتنزيها؛ ولا تقريبا واختصاصا ، إلا ازدَدْتَ بالعامة رأفةً وعليها حَدَبا ، لا يخرجك فَرْطُ النصح له عن النظر لرعيّته ، ولا إيثارُ حقّه عن الأخذ بحقّها عنده ، ولا القيامُ بما هو له عن تضمينِ ماهو عليه ، ولا يشغلك مُعاناة كِبارِ الأمور عن تفقُّد صغارِها، ولا الجدُّ فى صلاح ما يَصْلُحُ منها عن النظر فى عواقبها ؛ تُمْضِى ما كان الرَّشَدُ فى إمضائه ، وتُرْجِئُ ما كان الحَزْمُ فى إرجائه ، وتبذُلُ ما كان الفضلُ فى بَذْله ، وتمنعُ

(١) الثقاف : ما تسوى به الرماح . (٢) يقال حفر فأكدى : صادف الكدية وهى الصفاة العظيمة الشديدة . (٣) ساقط من ط .

ما كانت المصلحةُ فى مَنْعِه ، وتَلِين فى غير تكبُّر ، وتخصّ فى خير مَيل ، وتعمّ فى غير تصنّع ، لا يَشْقَى بك المحقُّ وإن كان عدوّا ، ولا يَسْعَدُ بك المبطلُ وإن كان وليّا ؛ فالسلطان يعتدّ لك من الغَناء والكِفَاية ، والذّبّ والحياطة ، والنُّصح والأمانة ، والعِفّة والنزاهة ، والنصَب [1] فيما أدّى إلى الراحة ، بما يراك معه ، حيث انتهى إحسانُه إليك ، مستوجبا للزيادة. وكافةُ الرعية إلا من غَمِطَ [2] منهم النِّعْمة ، مُثْنُونَ عليك بحُسْنِ السيرة ، ويُمْنِ النقيبة ، ويَعُدُّونَ من مآثرك أنك لم تُدْحِض لأَحدٍ حُجَّة ، ولم تدفع حقّا لشُبْهَة ؛ وهذا يسيرٌ من كثير ، لو قصدنا لتفصيله ، لأَنْفَدْنا الزمانَ قبل تحصيله ، ثم كان قصدنا الوقوف دون الغاية منه .

وله إليه أيضا — وله إلى عبيد الله بن يحيى : يقطعنى عن الأَخذِ بحظِّى من لقائك ، وتعريفك ما أنا عليه من شُكْرِ إنعامك ، وإفرادى إياك بالتأميل دونَ غيرك ، تخلُّفى عن منزلة الخاصّة ، ورغبتى عن الحلول مَحَلَّ العامة ؛ وأنى لستُ معتاداً للخِدْمَةِ ولا الملازمة ، ولاقويًّا على الغَادَاةِ والمُرَاوَحة ؛ فلا يمنعْك ارتفاعُ قَدْرِك ، وعلوُّ أمرك ، وماتعانيه من جلائل الأَحوال الشاغلة ، من أَنْ تتطوّل [3] بتجديد ذِكرى ، والإصغاءِ إلى مَنْ يحضُّك على وَصْلى وبِرِّى ، ويرغّبك فى إسداء حُسْنِ الصنيعةِ عندى .

دعاء بليغ — وله إليه آخر فصل من كتاب : وأنا أسألُ الله الذى رَحِمَ العبادَ بك ، على حين افتقار منهم إليك ، أن يُعِيذهم من فَقْدِك ، ولا يُعيدهم إلى المكاره التى استنقذتَهم منها بيدك .

[الباعث على الرحيل]

ولقى رجلٌ رجلا خارجا من مِصْرَ يريد المَغْرِب فقال : ياأخى ! أَتَتَّبِعُ القَطْرَ، وتَدَعُ مَجْرَى السيول ؟ فقال : أخرجنى من مصر حَقٌّ مُضَاع ، وشُحٌّ مُطَاع ، وإقتار

(١) النصب : التعب .
(٢) غمط النعمة : كضرب وسمع ـ بطرها وحقرها .
(٣) تطول : امتن .

الـكريم ، وحركةُ اللئيم ، وتغيُّر الصديق ، بين السعة والضِّيق ، والهربُ إلى النَّزْرِ بالعز خيرٌ من طلب الوَفْرِ بذُلِّ العَجْزِ .

[الوصايا فى السفر]

بعض الحـكماء لصديق

وأوصى بعضُ الحـكماء صديقا له وقد أرادَ سفرا فقال : إنك تدخُلُ بلداً لا تَعْرِفُه ولا يعرِفُـك أهلُه ؛ فتمسَّكْ بوصيتى تنفق بها فيه : عليك بحُسْنِ الشمائل ، فإنها تدلُّ على الحرية ؛ ونقاءِ الأطراف فإنها تشهد بالملوكية ؛ ونظافة البِزَّة ، فإنها تنبئُ عن النَّشءِ فى النِّعمة ؛ وطيب الرائحة ، فإنها تظهرُ المروءة ، والأدب الجميل ، فإنه يكسب المحبة . وليـكنْ عقلُك دون دِينك ، وقولُك دون فِعْلك ، ولباسُك دون قَدْرِك ، والزَم الحياءَ والأَنفَة ؛ فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة ، وإن أَنِفْتَ عن الغلبة لم يتقدمْكَ نظيرٌ فى مرتبة .

أعرابى يوصى فى السفر

قال الأصمعى : سمعتُ أعرابيا يُوصِى آخرَ أراد سفراً ؛ فقال : آثِر بعملك مَعادَكَ ، ولا تدَع لِشَهْوَتِك رَشادَكَ ، وليـكُنْ عقلُك وزيرَكَ الذى يَدْعُوكَ إلى الهدى ويجنِّبك من الرَّدى ، واحْبِس هواكَ عن الفواحش ، وأطْلِقه فى المـكارم ؛ فإنك تبرّ بذلك سَلَفك ، وتَشِيد به شرفَك .

أعرابيـة توصى ابنها

وأوصت أعرابية ابنَها فى سفر ، فقالت : يابنى؛ إنك تجاورُ الغرباء ، وتَرْحَلُ عن الأصدقاء ، ولعلّك لا تَلْقَى غيرَ الأَعداء ؛ فخالِط الناسَ بجميل البِشْر ، واتَّقِ اللهَ فى العَلَانية والسرّ .

بعض الملوك لحـكيم

وقال بعضُ الملوكِ لحـكيم وقد أراد سفراً : قِفْنى على أشياء من حِكْمتك أعْمَلْ بها فى سفرى . فقال :

اجعل تأنّيك أمام عَجَلَتِك ، وحِلْمَك[1] رسولَ شِدَّتك ، وعفوَكَ مالِكَ قدرتك ،

---

(١) فى س : وحيلتك.

وأنا ضامنٌ لك قلوبَ رعيَّتك ، ما لم تُحْرِجْهم بالشـدةِ عليهم ، أو تُبْطِرْهم بالإحسان إليهم .

أعرابية توصي ولدها

وقال أبان بن تغلب[1] : شهدت أعرابيةً تُوصِي ولداً لها أراد سفرا وهى تقول: أى بنى ! اجلس أَمْنَحْك وصيتى، وبالله توفيقُك، قال أبان: فوقفت مستمعا لكلامها، مستحسنا لوصيّتها ، فإذا هى تقول : أى بنى ! إياك والنميمة ، فإنها تزْرَعُ الضغينة ، وتفرِّق بين المحبّين ، وإياك والتعرض للعيوبِ فتُتَّخذ غَرَضاً ، وخليقٌ ألاَّ يَثْبُتَ الغَرضُ على كَثْرَةِ السهام ؛ وقلَّما اعتوَرَتِ السهامُ غَرَضا إلاّ كَلَمَتْه ، حتى يَهِىَ[2] ما اشتدَّ من قُوَّته ؛ وإياك والجودَ بدينك ، والبخلَ بمالك ؛ وإذا هزَزْتَ فاهزُزْ كريما ، يَلِنْ لِهزَّتك ؛ ولا تَهْزُز اللئيمَ ، فإنه صخرةٌ لا يتفجَّرُ ماؤها ، ومثِّل بنفسك مثالَ ما استحسنتَ من غيرك فاعمل به ، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبه ؛ فإن المرءَ لا يرى عَيْبَ نفسه ؛ ومن كانت مودَّته بشره ، وخالف منه ذلك فِعله ، كان صديقُه منه على مِثْلِ الريح فى تصرّفها .

ثم أمسكت ، فدنوتُ منها ، فقلت لها : بالله يا أعرابية ، إلاّ مازِدْته فى الوصية. قالت : أو قد أعجبك كلامُ العرب يا حَضَرى ؟ قلت : نعم ! قالت : الغَدْرُ أقبح ما تعاملَ به الناسُ بينهم ، ومَنْ جمع الحِلْمَ والسخاءَ فقد أجادَ الحُلّة رَيْطَتَها وسِرْبَالها .

فقر فى مدح السفر

أبو القاسم بن عبـاد الصاحب : الخبر المنقول أنَّ المقبوضَ غريبا شهيد . وفى الحديث : سافروا تَغْنَموا . السفرُ أحدُ أسباب العيش التى بها قِوامه ، وعليها

---

(١) الأمالى ٢ــ٧٩ . (٢) يضعف .

نِظَامه[١] . إنَّ الله لم يجمَعْ منافعَ الدنيا فى الأرض ؛ بل فرَّقها وأحوجَ بعضها إلى بعض . المسافرُ يسمعُ العجائب ، ويَكسبُ التجارِبَ ، ويَجْلِبُ المكاسب . الأسفارُ مما تَزِيدك علما بقدرة الله وحِكْمته ، وتدعوكَ إلى شكر نعمته . ليس بينك وبين بلدٍ نَسَب ؛ نخيرُ البلاد ما حملك . السفرُ يُسْفِر عن أخلاق الرجال . أوحِشْ أَهلَك إذا كان فى إيحاشهم أُنْسُك ، واهْجُرْ وطنَك إذا نبتْ عنه نفسك . ربما أَسفر السفر عن الظَّفَر ، وتعذَّر فى الوطن قضاءُ الوطَر ، وأنشد :

ليس ارتحالُك تَرْتَادُ الغِنَى سفراً ... بل المُقام على خَسْفٍ هو السفرُ

وهذا كقول الطائى[٢] :

وما القَفْرُ بالبِيدِ الفضاءِ[٣] بَلِ الَّتى ... نَبَتْ بى وفيهَا سَاكِنُوهَا هِىَ القَفْرُ

أخذه المتنبى فقال[٤] :

إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا ... أَلاَّ تُفَارِقَهم فَالرَّاحِلونَ هُمُ

نقيض ذلك فى ذم السفر والغربة

فى الحديث : إنَّ المسافرَ وماله لعَلَى ، قلت : إلّا ما وَقَى الله ؛ أى على هلاك . شيئان لا يعرِفُهما إلا من ابتُلِى بهما : السفرُ الشاسع ، والبناء الواسع . السفرُ والسقمُ والقتال ثلاث[٥] متقاربة ، فالسفرُ سفينةُ الأذى ، والسقمُ حَرِيقُ الجسد ، والقتالُ منْبتُ المنايا . إذا كنت فى غير بلدك فلا تَنْسَ نصيبك من الذّل . الغربةُ كُرْبة . النّقلةُ مثلة . الغريب كالغَرْسِ الذى زايل أَرْضَه ، وفَقَد شربه ، فهو ذَاوٍ لا يُثمِر ، وذابلٌ لا ينضر . الغريبُ كالوحْشِ النائِى عن وطنه ، فهو لكل سَبع فَرِيسةٌ ، ولكل رامٍ رَمِيّة ؛ وأنشد :

---

(١) فى الحديث : لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر . إن الله بالمسافر رحيم — هامش س . (٢) التبيان ٣—٣٧٢ . (٣) فى التبيان : القواء .

(٤) ديوانه : ٣—٣٧٢ (٥) فى س : أثلاث .

لَقُربُ الدار فى الإقتار خَيْرٌ ... من العيش الموسَّع فى اغترابِ

وقال أبو الفتح البستى[1] :

لا يعدَم المرءُ شيئاً[2] يستعينُ بهِ ... ومنعة[3] بين أَهْليه وأصحابهْ

ومن نَأى عنهم قلَّتْ مَهَابتهُ ... كالليثِ يحقرُ لمّا غاب[4] عن غابهِ

[بعد العزل والإبعاد والحجب]

كتاب إلى المهدى

كتب أبو عبيد الله إلى المهدى بعد عَزْلِه إياه عن الدواوين : لم يُنْكِر أميرُ المؤمنين حالى فى قُرْبِ المؤانسة وخصوصِ الخلطة وحالِى عنده قَبْلَ ذلك فى قيامى بواجب خِدْمَته ، التى أَدْنَتنى من نِعمته ، فلم أُبدّل ـ أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنين ـ حال التبعيد ، ويقرّب فى محلّ الإقصاء ، وما يعلمُ اللهُ منى فيما قلت إلاَّ ماعلمه أميرُالمؤمنين، فإن رأى أكرمه الله أن يُعَارِض قولى بعلمه بدءًا وعاقبةً فعل إن شاء الله .

فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبُه ، فقال : ظلمنا أبا عبيد الله ، فليردّ إلى حاله ، ويعلم ما تجدّد له من حُسْنِ رأيى[5] فيه .

كتاب إلى المأمون

ولمـا أمر المأمونُ أن يُحْجَب عنه الفضلُ بن الربيع لسببٍ تألَّمَ[6] قلبُه منه كتب إليه :

يا أميرَ المؤمنين ! لم يُنْسِنِى التقريبُ حالى أيامَ التبعيد ، ولا أغفلتنى المُؤَانسةُ عن شكر الابتداء ؛ فعلى أىِّ الحالين أبعد من أمير المؤمنين ، ويَلْحَقنى ذمُّ التقصير فى واجب خدمته ؟ وأميرُ المؤمنين أَعْدَلُ شهودى على الصِّدْق فيما وصَفْت ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين ألّا يكتم شهادتى فَعل إن شاء الله .

بين المنصور وأبى مسلم

وقال أبو جعفر المنصور لأَبى مسلم حين أَزْمَع قَتْلَه : هل كنتَ قبل قيامك

---

(١) اليتيمة : ٤ـ٣٠٨ . (٢) فى اليتيمة : كنا يستكن به .
(٣) فى اليتيمة : ومتعه . (٤) فى اليتيمة : إما غاب . (٥) فى س : رأى .
(٦) فى س : ألم .

بدولتنا جائزَ الأمْرِ على عَبْدين ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين . قال : فلِمَ لَمْ تَعرِضْ حالَىْ عُسْرتك ومَهانتك على أيامنا ، وتعرف لنا مايَعْرِفُ غيرُكَ من إجلالنا وإعظامنا، حتى لا ينازعك الحين عِنَان الطمأنينة ؟ قال : قد كان ذلك يا أميرَ المؤمنين ، ولكنَّ الزمانَ وإساءتَه قَلَبا ما كان من حُسْنِ صنيعتى . قال : فلا مرغوبَ فيك ، ولا مأسوفَ عليك ، وفى الله خَلَفٌ منك ! وأمر بقتله .

جملة من شعر أبى الفتح كشاجم فى الأوصاف

وصف أجزاء من القرآن

قال يصف أجزاء من القرآن :

مَنْ يَتُبْ خشيةَ العقابِ فإنى ... تُبْتُ أُنْسًا بهذه الأجزاءِ

بَعَثَتْنى على القراءة والنُّسْـ ... ـك وما خِلْتُنى مِنَ القُرَّاءِ

حين جاءت تَرُوقنى باعتدالٍ ... من قُدودٍ وصيغَةٍ واستواءِ

سبعة أَشْبَهَت لىَ السبعةَ الأنْـ ... ـجم ذاتَ الأنوار والأضواءِ

كُسيت(١) من أديمها الحالِكِ اللّوْ ... نِ غِشاءً ، أَحْبِبْ به من غِشاءِ

مشبِها صبغة الشَّبابِ ولمَّا ... تِ العَذارى ولِبْسة الخطباءِ

ورأت أنها تُحسنُ بالضـ ... ـدِّ فتاهَتْ بحِلْيــةٍ بيضاءِ

فهى مسودَّةُ الظهور وفيها ... نورُ حقٍّ يَجْلو دُجَى الظَّلْماءِ

مطبقات على صحائفَ كالرَّيْـ ... ـط(٢) نُخيِّرْنَ مِنْ مُسوكِ الظِّبَاءِ

وكأنَّ الخطوطَ فيهــا رياضٌ ... شاكِراتٌ صنيعةَ الأنْوَاءِ

وكأنَّ البياضَ والنُّقطَ السُّو ... دَ عبيرٌ رشَشْتهُ فى مُلاءِ

وكأن العشورَ والذَّهب السا ... طع فيها كواكبٌ فى سماءِ

وهى مشكولةٌ بعدَّةِ أشْكا ... لٍ ومقروءةٌ على أنحــاءِ

(١) فى س : كسبت .

(٢) الريطة : كل ملاءة ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، وجمعه ريط .

فإذا شئتَ كان حمزةُ فيها وإذا شئت كان فيها الكسائى
خُضْرة فى خلال حُمرٍ [1] وصُفْر بين تلك الأضعاف والأثناء
مثل ما أثّر الدّبيبُ من الذّ رّ على جِلْدِ بَضّةٍ عَذْراء
ضُمِّنت مُحْكَم الكتاب كتاب الله ذى المكرُمات والآلاء
فحقيقٌ علىَّ أنْ أتلوَ القر آنَ فيهن مُصْبِحى ومَسائى

وصف تخت

وقال يصفُ التخت الذى يُضْرَب عليه حِساب الهند :

وقلمٍ مِدادُهُ تُرابُ فى صُحُفٍ سُطُورُها حِسابُ
يَكْثُرُ فيها المَحْوُ والإضرابُ من غير أنْ يسوّد الكتابُ
حتى يبينَ الحقُّ والصواب وليس إعجامٌ ولا إعرابُ
فيه ولا شكٌّ ولا ارتيابُ

وصف بركار

وقال يصف بَرْكاراً استهداه :

جُدْ لى ببركارك الذى صنَعَتْ فيه يَدا قَيْنِهِ الأعاجيبا
ملتئم الشُّعبتَيْن معتدلٌ ماشينَ من جانبٍ ولاعِيبا
شخصان فى شكْلٍ واحد قدرا ورُكِّبا بالعقولِ تركيبا
أشبه شيئين فى اشتكالهما بصاحبٍ لا يزالُ مصحوبا
أُوثِقَ مسمارُه وغُيِّب عن نواظر الناقدين تغييبا
فعَيْنُ مَنْ يجتَليه يحسبُهُ فى قالب الإعتدال مَصْبوباً
قد ضَمَّ قُطْرَيْه مُحْكِماً لهما ضَمَّ مُحِبٍّ إليه محبوبا
يزداد حِرْصا عليه مُبصِره ما زاده بالبَنانِ تَقْليبا
ذو مُقْلَةٍ بصّرته مَنسبة لم تألُهُ رِقَّةً وتهذيبا
ينظرُ فيها إلى الصواب فما بها يزالُ الصوابُ مطلوبا
لولاه ماصحَّ خطُّ دائرةٍ ولا وَجَدْنَا الحسابَ محسوبا

(١) فى س ، ق : جهد .

[الحقّ فيـه فإن عَدلت إلى ... سواه كان الحسابُ تقريبا](١)

لَوْ عَيْنُ إقليدسٍ به بَصُرتْ ... خرَّ لهُ بالسجودِ مكبوبا

فابعَثْهُ واجْنُبه(٢) لى بمِسْطَرةٍ ... تُلْفِ الهوَى بالثنـاءِ مَجْنُوبا

وقال يصف بيكاتا(٣) :

وصف بيكات

روحٌ من الماءِ فى جِسْمٍ من الصُّفْرِ ... مولّد(٤) بلطيف الحِسِّ(٥) والنظرِ

مستعبرٌ لم يَغِبْ عن طَرْفِهِ سكنٌ ... ولم يَبِتْ من ذوى ضِغْنٍ على حَذَرِ

له على الظهر أجفان محجّرةٌ ... ومقلةٌ دَمْعُها جارٍ على قَدَرِ

تُنْشَا(٦) له حركاتٌ من أسافلهِ ... كأنها حركاتُ المـاءِ فى الشجرِ

وفى أعاليه حسبانٌ يُفصّـلُه(٧) ... للنـاظرين بلا ذِهْنٍ ولا فِـكرِ

إذا بكى دارَ فى أحشائه فلَكٌ ... جافى(٨) المسير وإن لم يَبْكِ لم يَدُرِ

مُترجمٌ عن مَواقيتٍ يخبِّرُنا ... بها فيوجَدُ فيهـا صادق الخبرِ

تُقْضَى به الخمسُ فى وَقْتِ الوجوبِ وإن ... غَطَّى على الشمس سِتْرُ الغَيْمِ والمَطَرِ

وإنْ سَهِرْتُ لأوقاتٍ تؤرِّقنى ... عرفتُ مقـدارَ ما أَلْقَى من السَّهَرِ

مُحَدِّدٌ(٩) كلَّ ميقات تخيّرَهُ ... ذَوُو التَّخيُّر للأَسفَار والحَضَرِ(١٠)

ومخرجٌ لكَ بالأجزاء أَلْطَفَها ... من النهار ، وقوسُ الليـلِ والسَّحَر

نتيجة العـلمِ والتفـكير صورَتُهُ ... يا حبَّـذا أبْدع الأفـكارِ فى الصورِ

وقال يصفُ اسطرلابا :

وصف اسطرلاب

ومستديرٍ كجِرْمِ البَدْرِ مَسْطوحٍ ... عن كلِّ رافعةِ الأَشكال مَصْفُوحِ

---

(١) ساقط من ط . (٢) أصل جنبه : قاده إلى جنبه . (٣) نهاية الأرب : ١-١٥٥ . وفيه انه يصف طرجهارة ، وقال : هى من الآلات التى تعرف بهاالساعات .

(٤) فى النويرى : مؤلف . (٥) فى س ، ق: الحسن . (٦) فى س ، ق : ينشى .

(٧) فى النويرى : حساب مفصلة . (٨) فى النويرى : خافى .

(٩) فى س ، ق : مجدد . (١٠) فى النويرى : للأسباب والسفر .

صُلْب يُدارُ على قُطْب يثبّتُهُ | تمثالُ طرف بشكر الحذقِ مَكْبُوحِ
ملء البنَان وقد أَوْفَتْ صفائحهُ | على الأقاليم من أقْطَارِها الفِيحِ (١)
تُلفى به السبعةَ الأفلاكَ مُحْدِقَةً | بالمـاء والنارِ والأرْضِين والرِّيحِ
تُنْبيك عن طالع الأبْرَاجِ هيئتهُ | بالشمس طَوْرًا وطَوْرًا بالمصابيح
وإن مضَتْ ساعة أو بعض ثانيـةٍ | عرفْتَ ذاكَ بعلمٍ فيـه مَشرُوحِ
وإنْ تعرّض فى وقتٍ يُقدّرهُ | لكَ التشكُّكُ جَـلاَّهُ بتصحيـحِ
مميز فى قياساتِ الضـلُوع بهِ | بين المشائم منهـا والمَنَاجِيحِ (٢)
له على الظهر عَيْنَا حِكْمةٍ بهما | يَحْوى الضِّياء وتنجيه من اللوح
وفى الدواوين من أشْـكاله حِكَمٌ | تنقّح العقلُ فيهـا أىّ تَنْقيح
لا يستقلُّ لمـا فيـه بمعرفةٍ | إلّا الحصيفُ اللطيفُ الحِسِّ والرُّوحِ
حتى ترى الغيبَ فيه وهو مُنْغَلِقُ الْـ | أبْوابِ عمَّنْ سِوَاهُ جدّ مفتوح
نتيجة الذهنِ والتفكير صوَّرَهُ | ذَوُو العقولِ الصحيحاتِ المَرَاجِيحِ

***

الصابى يهـدى اسطرلابا

وكان أبو شجاع فَنَاخَسْرو عَضُد الدولة قد نـكب أَبا إسحاق الصـابى ، على تقدُّمه فى الـكتابة ، ومكانِه فى البلاغة ، واستَصْفَى أمواله من غير إيقاعٍ به فى نفسه، فأَهدى إليه فى يَوْمِ مهرجان اسطرلابا فى دَور الدرهم ، وكتب إليه :

أَهْدَى إليكَ بنوالحاجاتِ واحتشدوا | فى مهرجانٍ عظيمٍ أَنْتَ تُعْلِيهِ
لـكنّ عبدَكِ إبراهيم حين رأى | سُمُوَّ قَدْرِكَ عن شئ يُسَامِيهِ
لَمْ يَرْضَ بالأرض يُهْدِيها إليك فقد | أَهْدَى لك الفلكَ الأَعْلَى بما فيهِ

***

(١) الفيح : الواسعة ، جمع أفيح أوفيحاء .
(٢) المناجيح : جمع منجح ، أى صار ذا نجح .

[بعض أوصاف النساء]

وقول أبى الفتح[1] : « ملء البنان... ... » البيت نظير قول على بن العباس الرومى يصف قلم امرأة :

يَسَعُ السبعة الأقاليم طُرًّا   وهو فِى أصبعين مِنْ إقليمِ
كضميرِ الفُؤادِ يَلْتَهِمُ الدُّنْـ   ـيَا وتَحْوِيه دفّتا حَيْزومِ [2]

وإنما أخذه ابن الرومى من قول بعض الشعراء يذكر كاتباً :

فى كَفِّه أخْرَس ذُو مَنْطقٍ   بقافهِ واللام والميمِ
شِبْرٌ إذا قِيسَ ولكنهُ   فى فِعْلِهِ مِثْلُ الأقاليم
محذّف الرَّأْسِ ومسودُّهُ   كإبرة الرَّوْقِ مِنَ الرِّيمِ [3]

وهذا البيت الأخير مقلوب من قول عدى بن الرقاع العاملى ، وقد وصف قَرْنَ ريم وشبهه بقلم عليه مداد وذكر ظبية[4] :

تُزْجِى أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

وقَلْبُ المعنى إذا تمكَّن الشاعرُ من إخفائه يَجْرِى فى السَّرقَة[5] .

تشبيه الأوراك

وقد ترى تكثيرَ الشعراءِ من تشبيه أوراكِ النسوان بالرَّملِ والكُثْبَان ، قال الشاعر :

وبيض نَضِيرات الوجوه كأنما   تأزَّرْنَ دُون الأُزْرِ رملاتِ عالِجِ [6]
خِدَالَ الشَّوى لا تحتشى غير خَلْقها   إذا الرُّسْحُ لم يصبرن دون المَنَافِجِ [7]

---

(١) فى القصيدة السابقة صفحة ٣٩١ . (٢) الحيزوم : ما استدار بالظهر والبطن أوضلع الفؤاد. (٣) محذف: من حذفه تحذيفا : هيأه وصنعه . والروق : القرن . والريم :الظبى .
(٤) اللسان ــ مادة زجا . (٥) فى ط : لا يجرى مجرى السرقة .
(٦) موضع به رمل ــ كما فى القاموس . (٧) خدال الشوى : ممتلئة الأطراف مستديرتها ، والرسح : جمع رسحاء ، وهى قليلة لحم العجز والفخذين ، والمنافج : حشايا توضع فوق الأرداف .

يَذَرْنَ مُرُوطَ الخزِّ مَلْأَى كأنها ... قِصَارٌ وإنْ طالَتْ بأَيْدِى النَّوَاسِجِ

وهذا المعنى متداوَل متناقَل فى الجاهلية والإسلام ؛ فأغرب ذو الرمة فى قلبه وأحسن فقال يصف رملا [١] :

ورمل كأَوْرَاكِ العذارى قَطَعْتُهُ ... وقد جَلَّلَتْهُ المُظْلِمَاتُ الحَنَادِسُ

ضمور الكشح ...

وكذلك مدحهم ضُمورَ الكَشْحِ، وجولان الوُشُح، وصُموت القُلْب والخلخال، وامتناع الخِدَام [٢] من المَجَال ؛ قال خالد بن يزيد بن معاوية، وذكر رملة بنت الزبير ابن العوام [٣] :

تَجُول خلاخيلُ النساء ولا أَرَى ... لرملةَ خلخالاً يجولُ ولا قُلْبا [٤]

أُحِبُّ بنى العوَّام طُرًّا لحبِّها ... ومن أجلها أحببتُ أخوالها كَلْبا

وقال النابغة [٥] :

على أنّ حجليها وإن قلت [٦] أوسعا ... صموتان [٧] من ملء وقِلَّة منطقِ

وقال الطائى [٨] :

مَهَا الوحشِ إلاَّ أنّ هاتَا أوَانِسٌ ... قَنَا الخطِّ إلا أنّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

من الهِيف لو أنَّ الخلاخيلَ صُيِّرَتْ ... لها وُشُحاً جالَتْ عليها الخَلَاخِلُ [٩]

وقال ابن أبى زُرْعة الدمشقى [١٠] :

استكتمت [١١] خلخالَها ومشَتْ ... تحتَ الظَّلام به فما نَطقا

حتى إذا ريحُ الصَّبَا نسمَتْ ... ملأَ العبيرُ بسيرها [١٢] الطُّرُقا

---

(١) الكامل : ٢-٧٧ . (٢) الخدمة محركة : الخلخال، وجمعه خدام .

(٣) المختار من شعر بشار ١٥١ . (٤) القلب بالضم : السوار .

(٥) ديوانه ٧٦ . (٦) فى الديوان : وإن هن . (٧) فى الديوان : يموتان .

(٨) ديوانه ٢٥٦ . (٩) الوشح بضمتين : جمع وشاح . (١٠) المختار من شعر بشار : ٩٨ . (١١) فى المختار : فاستمسكت .

(١٢) فى المختار : بسرنا .

الخصر

وقال المتنبى [1] :

وخَصْرٍ تَثْبُتُ الأَبْصارُ فيهِ … كأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا

قلب هذا كله أبو عثمان الناجم فقال يهجو قَيْنة :

مسلولة الكلِّ غيْرَ بطْنٍ … مثقَّلٍ فهى عنكبوتُ

حُجولها الدّهر فى اصْطِخَابٍ … ووُشحها كُظَّمٌ صُمُوتُ

الألحان

وقال أبو عثمان يمدح قَيْنة :

محسنة فى كلِّ أَلْحَانِها … لا كالَّتى تحسن فى النُّدْرَه

ثم قلبه فى هجاء فقال :

عجِبْتُ منها وَيْحَها كيف لا … تُخْطِئُ بالإحْسَان فِى النَّدره

وهذا مأخوذٌ من قول محمد بن مناذر يهجو خالد بن طليق ، وكان قد تقلَّد قضاءَ البصرة :

يا عجباً من خالدٍ كيف لا … يُخْطِئُ فينا مَرّةً بالصوابْ

كان قضاةُ الناسِ فيما مضى … مِنْ رَحْمَةِ الله وهذا عَذَابْ

قلب المعنى

وهذا أيضاً من قلب الهجاء مديحا ، والمديح هجاء ؛ كما قال مسلم بن الوليد يهجو قوما :

قُبحت مَنَاظِرُهم فحين خَبَرْتُهُمْ … حَسُنَتْ مناظرهم بقُبْحِ المخبَرِ

قلبه أبو الطيب المتنبى فقال [2] :

وأَسْتَكْبرُ الأَخْبارَ قَبْلَ لِقَائهِ … فلمَّا الْتَقَيْنَا صَغَّر الخبرَ الخُبْرُ

وقال أبو تمام [3] :

عبأَ [4] الكَمِينَ له فضَلّ [5] لحينهِ … وكمينهُ المخفى عليهِ كَمِينُ

قلبه البحترى فقال [6] :

---

(١) ديوانه ٢ـ٢٩٦ . (٢) ديوانه ٢ـ١٥٥ . (٣) ديوانه:٣٢٧ .

(٤) عبأ : جهز . (٥) فى الديوان : فظل . (٦) ديوانه : ١ـ ٣٢ .

لا ييأس المرء أن ينجيه   ما يحسب الناسُ أنه عَطَبُه

وقال أبو تمام (١) :

وحشيّة تَرْمِى القلوبَ إذا غَدَتْ(٢)   وَسْنَى فما تَصْطادُ غيْرَ الصِّيدِ

قلبه البحترى فقال (٣) :

على أننى أَخْشَى على دارِ أُمِّها   فوارس(٤) يصطادالفوارسَ صِيدُها

وقال أبو تمام (٥) :

يُشْنَأُ الغيثُ وهو جِدُّ حبيبٍ   رُبَّ حَزْمٍ فى بَغْضَةِ الموموقِ

قلبه البحترى فقال (٦) :

يَسُرُّنِى الشىء(٧) قد يسوءكُمُ   نوّهَ يَوْماً بِخَامِلٍ لَقَبُه

قال أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر : المعنى فى المصراع الأول أَبْيَنُ منه فى الثانى ؛ ألا ترى أنه لو قال : إنه ليسوءك الشىء قد يسر ، كان مثلُ ذلك المعنى مستويا ، إلا أنه قلبه لحاجته ؛ قال ابْن الرومى يهجو مغنية (٨) :

قينة ملعونةٌ من أجلها   رفض اللَّهْوَ معاً مَنْ رفضَه

فإذَا غنّت ترى فى حلقها(٩)   كلَّ عِرْقٍ مثل بَيْتِ الأَرَضَه(١٠)

فقلبها ابن المعتز فقال يصف أَرَضة أكلت له كتابا :

تَثْنِى أنابيبَ لها فيها سبل   مثل العروق لا تَرَى فيها خَلَل

وهذا كثير يُكْتَفَى منه باليسير .

من المعانى مالا ينقلب

ومن المعانى مالا ينقلب : أَلَا تَرَى أنك تقول : نام القوم حتى كأنهم موتى ، ولا يحسن أن تقول : ماتوا حتى كأنهم نيام ؛ وقد أُخِذ على أبى نواس قوله يصف داراً وقف بها (١١) :

---

(١) ديوانه : ٨٢ . (٢) فى الديوان : إذا اغتدت . (٣) ديوانه : ١-١٥٤
(٤) فى الديوان : بنى الروع . (٥) ديوانه : ٢١٩ . (٦) ديوانه : ١-٣٢
(٧) فى الديوان : الأمر . (٨) ديوانه: ٧١ . (٩) فى الديوان: فى جيدها.
(١٠) الأرضة : دويبة . (١١) الصناعتين : ٧١.

كأنها إذ خرِستْ جارمٌ بين يدىْ تفنيدهِ مُطْرِقُ

قالو : إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عذلوه فسكت وانقطعت حجّتُه بالدار الخالية التى لا تُجيب .

وأخذوا عليه قوله :

كأن نيراننا فى جَنْبِ حصنهمُ معصفراتٌ على أرْسَانِ قَصَّارِ[1]

وقد تبعه أبو تمام الطائى فقال فى الأفشين لما أحرق[2] :

ما زالَ سرُّ الـكُفْرِ بَيْن ضُلُوعهِ حتى اصْطَلَى سرَّ الزِّنَادِ الوَارِى

نارٌ[3] يساورُ جسمَه من حرِّها لَهَبٌ كما عصفرتَ شِقَّ إزار

طارت له[4] شُعَلٌ يهدِّم لفحُها أركانَهُ هَدْماً بغـيرِ غُبَارِ

فصَّلْنَ منـه كلَّ مجمع مَفْصِلٍ وفعلنَ فاقرةً بكُلِّ فقَارِ[5]

صلّى لها حيًّا وكان وقُودَها مَيْتاً ويدخُلها مع الـكفارِ[6]

وكذاك أَهلُ النارِ فى الدنيا همُ يومَ القيامة جُلُّ أهْلِ النَّارِ

أردت البيت الثانى ، قالوا : وإنمـا تشبه الثيابُ المعصفرة بالنار ؛ فهذا وما أشبهه لايتوازنُ انعكاسه ، وتتضادّ قضاياه ؛ وإنما يصح القلبُ فيما يتحقق تضادّه أو يتقارب.

قطعة من شعر أهل العصر فى ذكر النجوم

قال أبو الفتح البستى[7] :

قد غضّ مِن أَملى أنى أَرى عملى أقْوَى من المشترى فى أوَّل الحَمَلِ

وأننى راحِـلٌ عمّا أُحاوله كأننى أَسْتَدِرُّ الحظَّ من زُحَلِ

---

(١) الرسن: الحبل ، وجمعه أرسان . والقصار : محور الثياب . (٢) ديوانه ١٥٢ .

(٣) فى الديوان . نارا . (٤) فى الديوان : لها . (٥) الفاقرة : الداهية ، والفقار : ما انتضد من عظام الصلب من لدن الـكاهل إلى العجب . (٦) فى الديوان : مع الفجار . (٧) اليتيمة : ٤ـ٢٩٥ .

وقال[1] :

إذا غدا ملكٌ باللَّهْوِ مشتغلا ... فاحكم على ملكه بالوَيْلِ والحرَبِ
ألم[2] تر الشمس فى الميزان هابطةً ... لما غدا برج نجمِ اللَّهْوِ والطَّرَبِ

وقال[1] :

وقد تُدْنِى الملوكُ لدى رِضَاها ... وتبعد حين تحتقدُ احتقادا
كما المرِّيخ فى التثليث يُعْطِى ... وفى التربيع يَسْلبُ ما أفَادا

وقال[1] :

ألا فثقوا بى فإنى كما ... تمدّحت فليمتحن من يُحِبّ
فما كوكبى راجعاً فى الوفاء ... ولا بَرْجُ[3] قلبىَ بالمنقلبْ

وقال[1] :

لئن كسَفُونا بلا علّةٍ ... وفازت قِداحُهُمُ بالظفرْ
فقد يَكْسِفُ المرءَ مَنْ دونه ... كما يَكْسِفُ الشمسَ جِرمُ القمرْ

وقال[1] :

شرف الوَعْد بوغد[4] مثلهِ ... مثل ما فيهِ بزيغٍ وخَلَل
ودليل الصدقِ فيما قُلْتهُ ... شرفُ المرّيخ فى بيت زُحَل

وقال[5] :

قل للذى غرَّته عِزّةُ مُلْكهِ ... حتى أخلَّ بطاعةِ النُّصَحاء
شرفُ الملوكِ بعلمهم وبرأيهم ... وكذاك أوْجُ الشمسِ فى الجوزاء

وقال :

وقد يفسدُ المرء بعد الصلاح ... فساد الأماكن والشرُّ يُعْدِى
كما السّعد يَقبل طبع النحوس ... إذا كان فى موضعٍ غَيْر سَعْدِ

(١) اليتيمة ٤ — ٢٩٥ . (٢) فى اليتيمة : أما ترى . (٣) فى اليتيمة : برج .
(٤) فى اليتيمة ، س : الوعد بوعد . (٥) اليتيمة ٤ — ٢٩٥ ، ٢٩٦

وقال[١] :

ما أُنْسُ ظمآنٍ بماء باردِ ... من بَعْدِ طولِ العهد بالمواردِ
إلا كأُنْسِي بكتابٍ وارد ... من سيدٍ مَحْضِ النِّجار[٢] ماجدِ

* كأنما استملاه من عُطاردِ *

وقال[١] :

يا معشرَ الـكتّاب لا تتعرّضوا ... لرياسةٍ وتصاغَرُوا وتَخَادَمُوا
إنّ الـكواكب كُنَّ فى أشرافها ... إلا عطارد حين صُوِّر آدَمُ

وقال[١] :

دعانى إلى بيتــه سيّدٌ ... له الخُلُق الأَشرفُ الأظرفُ
فلازَمْتُ بيتى ولاطَفْتـهُ ... بعذر هو الأظرف[٣] الأطرفُ
عطاردُ نَجْمِى ولاشكّ أن ... عطاردَ فى بيتـه أشْرَفُ

وقال :

لئن تنقَّلتُ مِنْ دارٍ إلى دارِ ... وصرت بعد ثَوَاءٍ رَهْنَ أسفارِ
فالحرُّ حرٌّ عزيزُ النفس حيث ثَوَى ... والشَّمْسُ فى كل بُرْج ذاتُ أنوار

وقال :

لئن صدّع الدهرُ المشتِّتُ شملَنَا ... وللدهر حكمٌ للجميع صدُوعُ
فلِلنَّجْمِ من بعد الرجوع استقامةٌ ... وللشمس من بعد الغروب طلُوعُ

وقال لمحبوس :

حُبِسْتَ ومن بعد الـكسوفِ تبلّجٌ ... تضىء به الآفاقُ للبدر والشمسِ
فلا تعتقدْ للحبس غمًّا ووَحْشَةً ... فأَول كونِ المرء فى أضْيَق الحَبْسِ

وقال أيضاً[١] :

---

(١) اليتيمة: ٤ـ٢٩٥، ٢٩٦ . (٢) النجار: الأصل.

(٣) فى اليتيمة : هو الألطف .

يا من تولّى المشترِى تدبيرَهُ   حاشاك أن تنقادَ للمرّيخ

وقال[١] :

لا تفزعنْ من كل شيء مُفْزِعٍ   ما كلُّ تدبير البروج بضائرِ

وقال يرثى أبا القاسم الصاحب :

فقدناهُ لما تمَّ واعتمَّ بالعُلاَ   كذاك كسوفُ البدر عند تمامِه

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن درست[٢] لأبى الفضل الميكالى :

إذا ما غاب وَجْهُ البدرِ عنّا   فوجْهُك عندنا البدرُ المقيمُ
فإنْ رجعتْ نجومُ السعدِ يوماً   فوجهك نجمُ سعدٍ مستقيمُ

وقال مسكويه الخالدى :

لا يُعْجِبنَّك حُسْنُ القَصْرِ تنزلُهُ   فضيلة الشمس ليسَتْ فى منازِلها
لو زِيدت الشمسُ فى أبراجها مائةً   ما زاد ذلك شيئاً فى فضائلها

وقال أبو بكر الخوارزمى[٣] :

رأيتك إن أيسرت[٤] خيّمتَ عندنا   لزاماً وإن أعْسَرت زرتَ لماما
فما أنت إلا البدر إن قلّ ضوءه   أغبّ وإن زاد الضياء أقاما

وهذا كقول إبراهيم بن العباس الصولى فى محمد بن عبد الملك الزيات[٥] :

أَسَدٌ ضارٍ إذا ما نَعْتَهُ   وأبٌ برٌّ إذا ما قدرا
يعرف الأبعد إنْ أثرى[٦] ولا   يعرف الأَدْنى إذا ما افتقرا

وقال ابن المعتز[٧] :

---

(١) اليتيمة : ٤ ــ ٢٩٥ ، ٢٩٦ .   (٢) فى س : دوسب .   (٣) اليتيمة : ٤ــ٢٢٤ .   (٤) فى اليتيمة : آن الشرب .   (٥) ديوانه : ١٣٣ ، المختار من شعر بشار : ١٨٩ ، الأدباء : ١ــ٢٦٩ ، اللآلئ : ٦١٦ .   (٦) فى المختار : يعرف الأقصى إذا استغنى.

(٧) ديوانه : ١ــ٢٩ .

إذا ما أراد الحاسدون انهدامهُ بناهُ إلهٌ غالبُ العزِّ قاهرُهْ(١)
وماذا يُريد الحاسدون من امرئ تزينهمُ أخلاقهُ ومآثرُه
إذا ماهو استغنى اهتدى لافتقارهمْ ولا تهتدى يوْماً إليهم (٢) مفاقِرُه
وكانوا (٣) كِرَامٍ كوكبا ببُصاقهِ فرُدَّ عليهم (٤) وَبْلُه ومَوَاطِرُه

وهذا البيت كما قال بعض العرب فى إحدى الروايات (٥) :

رَمانى بأمرٍ كنتُ منه ووَالدى بريًّا ومِنْ جَالِ الطَّوِىِّ رَمَانى

الجُول والجَال : الناحية ، والطوىّ : البئر ؛ يريد رمانى بما عاد عليه ، والرواية المشهورة : ومن أجل الطَّوِىّ ، فعلى هذا تسقط المناسبة بينه وبين قول ابن المعتز .

[الأصمعى وبعض الأعراب]

قال بعضُ الرواة : كنا مع أبى نصر راوية الأصمعى فى رياضٍ من المُذَاكرة نَجْتَنى ثمارَهَا ، ونَجْتَلِى أنْوارَها ، إلى أن أفضنا فى ذكر أبى سعيد عبد الملك بن قَرِيب الأصمعى ؛ فقال : رحم اللهُ الأصمعىّ ؛ إنه لَمَعْدِنُ حِكَم ، وبَحْرُ عِلْمٍ ، غيرَ أنه لم نر قطّ مثل أعرابى وقف بنا فسلّم ، فقال : أيكم الأصمعى ؟ فقال : أنا ذاك . فقال : أتأذنون بالجلوس ؟ فأذِنّا له ، وعجبنا من حُسْن أَدبه مع جفاء أدب الأعراب .

قال : يا أصمعى ، أنتَ الذى يزعمُ هؤلاء النَّفَر أنك أثقبُهم معرفةً بالشعر والعربية ، وحكايات الأعراب ؟ قال الأصمعى : فيهم منْ هو أعلم منى ، ومَنْ هُوَ دونى . قال : أفلا تنشدونى من بعض شعر أهل الحضر حتى أقيسَهُ على شعر أصحابنا ؟ فأنشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :

---

(١) رواية البيت فى الديوان :

إذا ما أراد الحاسدون من امرئ يزينهم أخلاقه ومآثره

(٢) فى الديوان : ولا يهتدى إليه يوما . (٣) فى الديوان : وكنت كرام .

(٤) فى الديوان : عليه . (٥) فى اللسان — مادة جول ، وارجع إلى هذه المادة فى اللسان .

أمسلم أنتَ البحرُ إن جاءَ واردٌ ... وليثٌ إذا ماالحربُ طَارَ عُقَابُها[1]
وأنت كسيفِ الهِنْدُوَانِيّ[2] إنْ غدَتْ ... حوادثُ من حربٍ يعبُّ عُبابها
وماخُلِقتأُكْرُومَةٌ[3] فى امرىءٍ لهُ ... ولا غاية إلاّ إليك مآبُهـا
كأنك ديّانٌ عليها مُوَكّلٌ ... بها ، وعلى كفّيك يَجْرِى حِسابُها
إليك رحلْنَا العِيس[4] إذْ لم نجدلها ... أخا ثقة يُرْجَى لديه ثوابُها

قال : فتبسَّم الأعرابى ، وهزّ رأسه ؛ فظَنَنّا أنّ ذلك لِاستِحْسانه الشعر. ثم قال ياأصمعىّ ؛ هذا شعرٌ مُهَلْهل خلق النَّسج، خطؤُه أكثرُ من صوابه ، يغطى عيوبَه حسنُ الرَّوِىّ ، ورواية المنشد؛ يشبّهون الملك إذا امْتُدِح بالأسد، والأسد أبْخَر شَتيم المَنْظَر[5] ، وربما طارده شِرْذِمَةٌ من إمائِنا ، وتَلاعَب به صِبْيانُنا ! ويشبّهونه بالبحر، والبحرُ صعبٌ على مَنْ رَكبه ، مُرٌّ على من شربه . وبالسيف، وربما خان فى الحقيقة، ونبَا عند الضَّريبة ! ألا أنشدتنى كما قال صبىٌّ من حيّنا !

قال الأصمعى : وماذا قال صاحبكم ؟ فأنشده :

إذا سألت الوَرَى عن كل مكرمةٍ ... لم يُعزَ إكرامُها إلاّ إلى الهوْلِ
فتًى جَوادٌ أَذاب المالَ نَائِلهُ ... فالنّيلُ يشكرُ منه كثْرَةَ النّيْـلِ
الموتُ يكره أَن يلقى منيّتهُ ... فى كرِّهِ عند لفِّ الخيلِ بالخيـلِ
لو زاحمَ الشمسَ أَبقى الشمسَ كاسِفةً ... أو زاحمَ الصُّمَّ ألْجَاها إلى المَيْلِ
أمضَى من النجم إن نابَتْه نَائِبةٌ ... وعنـد أعدائه أجْرَى من السَّيْلِ
لا يستريح إلى الدنيـا وزينتِها ... ولا تراه إليهـا ساحبَ الذَّيْـلِ
يقصِّرُ المجـدُ عنه فى مكارمِهِ ... كما يقصِّر عن أفعاله قولى !

---

(١) طار عقابها : كناية عن اشتدادها . (٢) سيف هندوانى : منسوب إلى رجال الهند . (٣) الأكرومة : فعل الكرم . (٤) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . (٥) شتيم المنظر : كريهه .

قال أبو نصر : فأَبْهَتَنا والله ما سمعنا من قوله . قال : فتأَتّى الأعرابى ، ثم قال للأصمعى : ألَا تنشدنى شعراً ترتاحُ إليه النفس ، ويسكن إليه القلب ؟ فأنشده لابن الرّقاع العاملى :

وناعمةٍ تَجْلو بعود أراكةٍ ... مؤشَّرَة يَسْبى المعانِقَ طِيبُها
كأنَّ بها خمراً بماءِ غمامةٍ ... إذا ارتشفَتْ بعد الرّقاد غُروبُها
أراكَ إلى نَجْدٍ تَحِنُّ وإنّما ... مُنَى كلِّ نفسٍ حيثُ كان حبيبُها

فتبسّم الأعرابى وقال : يا أصمعى ، ماهذا بدون الأول ، ولا فوقه . ألا أنشدتنى كما قلت ؟ قال الأصمعى : وما قلت ؟ جُعلت فداك ! فأنشده :

تَعلَّقْتُها بِكراً وعُلِّقْتُ حبَّها ... فقلبيَ عن كلِّ الورَى فارغٌ بِكْرُ
إذا احتجبَتْ لم يكفكَ البدرُ ضوءَها ... وتكفيك ضوءَ البدر إن حُجِبَ البَدْرُ
وما الصبرُ عنها، إن صبرتَ، وجدتَهُ ... جميلا ، وهل فى مثلها يَحْسُنُ الصَّبْرُ !
[وحسبُك من خمر يفوتُك ريقُها ... ووالله مامن ريقها حَسبك الخمر][1]
ولو أنّ جلد الذَّر لامس جِلْدَها ... لكان لمسِّ[2] الذَّر فى جِلْدِها أثْرُ
ولو لم يَكُنْ للبَدْرِ ضِدًّا جمالُها ... وتفضلهُ فى حُسْنِها لصفا البَدْرُ

قال أبو نصر : قال لنا الأصمعى : اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المُدَى فى رِقاق الأكباد !

قال : وأقام عندنا شهراً ، فجَمَع له الأصمعىُّ خمسمائة دينار ، وكان يتعاهدنا فى الحِين بعد الحِين ، حتى مات الأصمعى وتفرّق أصحابنا !

فِقر من كلام الأعراب فى ضروب مختلفة

أثر كلام الأعراب

قال الجاحظ : ليس فى الأرض كلامٌ هو أمْتَع ، ولا أنفَع ، ولا آنَقُ ،

(١) من س ، ق . (٢) فى ق : للمس .

ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشدّ اتّصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتَق لِلّسان ، ولا أجود تقويما للبيان ، من طُولِ استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء .

قال ابنُ المقفع ـ وقد جرى ذِكْرُ الشعرِ وفضيلته : أى حكمة تكون أبلغ ، أو أحسن ، أو أغرب ، أو أعجب ، من غلام بدوىّ لم ير رِيفا[1] ، ولم يشبع من طعام ؛ يستوحشُ من الكلام ، ويَفزَع من البشر ، ويأْوِى إلى القَفْر واليرابيع والظِّباء ، وقد خالط الغِيْلَان ، وأنِسَ بالجانِ[2] ؛ فإذا قال الشعر وصف مالم يرَه ، ولم يغذَّ به ولم يعرفه ، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها ، ويمدح ويهجو ، ويذمّ ويعاتب ، ويشبّب ويقول ما يُكتبُ عنه ، ويروى له ، ويبقى عليه .

وقال بعض الأعراب :

وإنى لأهدَى بالأوانس كالدُّمى ... وإنى بأطراف القنَا لَلعُوبُ

وإنى على ما كان من عُنْجُهيّتى ... ولُوثَة أعرابيتى لأَدِيب[3]

كأنَّ الأدبَ غريبٌ من الأعراب ، فافتخر بما عنده منه .

فطنة الأعراب

وقال الطائى فى فطنتهم ، يستعطف مالك بن طوق على قومه بنى تغلب[4] :

لا رِقةُ الحضر اللَّطيف غَذَتْهُمُ ... وتباعدوا عن فِطْنَةِ الأَعرابِ

فإذا كشفتهمُ وجدْتَ لديهمُ ... كرَم النفوس وقلةَ الآدابِ

من حديثهم

ووصف أعرابى رجلا فقال : هو أطهرُ من الماء ، وأرقُّ طباعا من الهواء ، وأمضى من السيل ، وأَهدى من النّجم .

ووصف أعرابىّ رجلا فقال : ذاك والله من ينفع سلمه ، ويتواصفُ حِلمه ، ولا يُسْتَمْرَأُ ظُلْمه .

وقال أعرابى : جلستُ إلى قوم من أهل بغداد فما رأيتُ أَرجَح من أحلامهم ، ولا أَطيَشَ من أقلامهم .

---

(١) فى س : ريقا . (٢) فى س : بالجنان . (٣) العنجهية : الكبر . واللوثة : الحمق ومس الجنون . (٤) ديوانه : ٢٠ .

وذكر أعرابى من بنى كلاب رجلا فقال : كان واللهِ الفهمُ منه ذا أُذُنين ، والجواب ذا لِسَانين ؛ ولم أرَ أحداً أرْتقَ لخلل رَأى ، ولا أبعد مسافة روِّية ، ومَرادَ طَرْفٍ منه ؛ إنما كان يرمى بهمّته حيث أشار إليه الكرم ، وما زال يتحسَّى مرارةَ أخلاق الإخْوَان ، ويسقيهم عذوبةَ أخلاقه .

وذكر أعرابىٌّ رجلا فقال : والله لكأنّ القلوبَ والألْسُن رِيضَتْ له ، فما تُعقَد إلّا على وُدِّه ، ولا تنطق إلّا بحمده .

وقال أعرابى: أقبحُ أعمالِ المقتدرين الانتقامُ، وما استُنْبِط الصوابُ بمثل المشاوَرة، ولا اكتُسِبَت البغضاء بمثل الكبر .

قال الأصمعى : وخطبَنا أعرابى بالبادية فقال : أيّها الناس ؛ إن الدنيا دارُ مفرّ ، والآخرة دار مقرّ ؛ فخذوا من مفرِّكم لمقرِّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسرارُكم .

قال المعافر بن نعيم : وقفتُ أنا ومعبد بن طوق العنبرى على مجلس لبنى العنبرى ، وأنا على ناقةٍ وهو على حِمَار ، فقاموا فبدءونى فسلَّموا علىّ ؛ ثم انكفئوا على معبد فقبض يده عنهم ؛ وقال : لا ، ولا كَرَامة ! بدأتم بالصغير قبل الكبير ، وبالمَوْلَى قبل العربى ، وبالمفْحَم (١) قبل الشاعر . فأسكت القومُ ، فانبرى إليه غلام فقال : بدَأْنا بالكاتب قبل الأُمىّ ، وبالمهاجر قبل الأعرابى ، وبراكبِ الراحلة قبل راكب الحمار .

ووصف أعرابى قومَه فقال : ليوثُ حَرْب ، وغُيوث جَدْب ، إنْ قاتلوا أَبْلَوْا ، وإنْ بذلوا أَغْنَوا .

ووصف أعرابى قوماً فقال : إذا اصطفُّوا سفَرَتْ بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فغَر فَمَه الحِمامُ .

---

(١) فى س ، ق : بالمعجم ، وأعجم : لم يفصح .

وسُئل أعرابيٌّ عن صديق له فقال: صَفِرَت(١) عِيَابُ الودّ بيني وبينه بعدامتلائها، واكفهرَّتْ وجوهٌ كانت بمائها .

وقال الأصمعى : وسمعت أعرابيا يقول : إنَّ الآمالَ قطّعت أَعناقَ الرجال ، كالسراب غَرَّ من رآه ، وأخلف من رَجاه ، ومَنْ كان الليلُ والنهار مَطِيَّته أسرعا السير والبلوغ به .

والمرء يفرح بالأيام يقطَعُها ... وكلُّ يوم مضى يُدْنِى من الأَجَلِ

وذكر أعرابىّ مصيبة نالَتْه ، فقال: إنها والله مصيبة جعلت سُودَ الرءوس بِيضا، وبيضَ الوجوه سودا ، وهوّنت المصائب ، وشيَّبَت الذوائب .

وهذا كقول عبد الله بن الزبير الأسدى(٢) :

رَمَى الحِدْثَانُ نِسْوَةَ آل حَرْبٍ ... بِمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا(٣)

فردّ شعورهنّ السُّودَ بِيضاً ... وردَّ وجوههنّ البيضَ سُودا

وإنك لو رأيت بكاءَ هِنْدٍ ... ورملة إذ تَصُكَّانِ الخدُودَا

بَكَيْتَ بُكاءَ مُعْوِلةٍ حَزِين ... أصابَ الدهرُ واحدَها الفقيدا

ونظيرُ هذا التطابق بين السواد والبياض ، وإن لم يكن من هذا المعنى قول ابن الرومى :

يابَيَاضَ المَشيبِ سَوَّدْتَ وَجْهِى ... عند بيضِ الوجوهِ سُودِ القرونِ

فلعمرى لأخفينَّك جهْدِى ... عن عِيانى وعن عِيانِ العيونِ

ولعمرى لأَمنعنَّك أن تَضْ ... حك فى رَأْسِ آسفٍ محزونِ

بسوادٍ فيه ابيضاضٌ لوجهى ... وسوادٍ لوَجْهِكَ المَلْعُونِ

سأل أعرابيان رجلا فحرمهما ، فقال أحدُهما لصاحبه : نزلتَ والله بوادٍ غير

(١) صفرت : خلت . (٢) اللسان ــ مادة سمد . الأمالى ٣ــ١١٥ .
(٣) سمد : قام متحيرا ، والسمود يكون سرورا وحزنا ــ كما فى اللسان .

ممطور ، وأتيتَ رجلا بك غير مسرور ، فلم تدرك ما سألت ، ولا نِلْتَ ما أمّلْت ؛ فارتحِلْ بندم ، أو أقم على عدم .

قال الأصمعى : وسمعتُ أعرابيا يقول : غَفَلنا ولم يَغْفُل الدهرُ عنا ، فلم نتّعظ بغيرنا حتى وُعِظ غيرُنا بنا ، فقد أدركتِ السعادةُ من تنبّه ، وأدركت الشقاوة من غَفَل ، وكفى بالتجربة واعظاً .

وقال أعرابى لرجل : اشكر للمنعم عليك ، وأنْعم على الشاكر لك ، تستَوْجب من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَه .

ومدح أعرابى رجلا فقال : ذلك والله فسيح الأدب ، مستَحْكِم السبب ، من أىِّ أقطاره أتيته تُثْنى عليه بكرم فعال ، وحُسْن مقال .

وذمّ أعرابى رجلا فقال : أفسد آخِرتَه بصلاح دُنْياه ، ففارق ماأَصْلح غيرَ راجعٍ إليه، وقدم على ماأفسد غَيْرَ منتقلٍ عنه ، ولو صدق رجلٌ نفسه ما كَذَبَتْه ، ولو ألقى زمامه أَوْطأه رَاحِلَتَهُ .

وقال أعرابى : خرجت حين انحدرَتْ أَيْدِى النجوم ، وشالَتْ أَرجلها ، فما زلت أَصدع الليلَ حتى انْصَدَع الفجر .

وقال أعرابى (١) :

وقد تعَالَلْت (٢) ذَميل (٣) العَنْسِ ... بالسَّوْطِ فى دَيْمُومة (٤) كالتّرسِ
إذ عَرّج (٥) الليلُ بروجَ الشّمْسِ

ومن مليح الاستعارة فى نحو هذا قولُ الحسن بن وهب : شربت البارِحة على وَجهِ الجوْزَاء ؛ فلما انتبه الفَجْرُ نِمْت ، فما عقلت حتى لَحَفَنى قَميصُ الشّمسِ (٦) .

---

(١) اللسان — مادة علل . (٢) تعاللت الناقة : إذا استخرجت ما عندها من السير.
(٣) الذميل : ضرب من سير الإبل . (٤) الديمومة : الصحراء البعيدة .
(٥) التعريج : أن تحبس مطيتك مقيما على رفقتك أو لحاجة .
(٦) لحفت الرجل : إذا غطيته .

وقال أعرابى لصاحبه فى شىء ذكره : قل إن شاء الله ، فإنها تُرْضِى الربَّ ، وتُسْخِط الشيطان ، وتُذْهِب الحنث ، وتَقْضِى الحاجة .

وروى العتبى عن أبيه قال : سمعت أعرابياً يقول لأخيه فى معاتبة جرَتْ بينهما : أما والله لرب يوم كتَنُّور الطاهى ، رقّاص بالحمامة ، قد رميتُ نفْسى فى أَجيج[1] سَمُومِه ، أحْتَمِل منه ما أكره لما أحبّ .

قالَ أبو العباس محمد بن يزيد : وأحسب العتبى صنع هذا الكلام . وأخذه من قول بَشّار :

ويوم كتَنُّور الإماء سَجَرْنهُ ... وأوْقَدْنَ فيه الجزْلَ حتى تضرَّما[2]

رميتُ بنفسى فى أجيج سَمُومِهِ ... وبالعِيس حتى بَضّ منخرها دَمَا

أخذ هذا المعنى بعضُ أصحاب أبى العباس ثعلب فقال يهجو المبرد :

ويوم كتنُّور الطّهاة سَجَرْتُه ... على أنه منه أحَرُّ وأوقدُ

ظللت به عند المبرّدِ جالساً ... فما زلت فى ألفاظِه أتبرَّدُ

أعرابية ترثى ابنها

قال الأصمعى: حجَّت أعرابيةٌ ومعها ابنٌ لها فأصيبت به ، فلما دُفِن قامت على قبره ، وهى موجعة فقالت : والله يابنىّ لقد غَذَوْتُك رضيعا ، وفقدتُك سريعاً ؛ وكأنه لم يكن بين الحالين مدةٌ ألتذّ بعيشك فيها ، فأصبحتَ بعد النضارة والغَضارة ، ورونق الحياة والتنسّم فى طِيب روائحها، تحت أطباق الثَّرَى جَسداً هامداً، ورُفَاتا[3] سحيقا ، وصعيدا جُرُزا ؛ أى بنى ! لقد سَحَبَتِ الدنيا عليك أذيال الفنا ، وأسكنتْك دارَ البِلَى ، ورمتنى بعدك نَكبةُ الرَّدَى ، أى بنى ! لقد أسفر لى وجهُ الدنيا عن صباح دَاج ظلامُه .

ثم قالت : أى ربّ ومنك العدل ، ومن خَلقِك الجَوْر ، وهَبْتَه لى قُرَّةَ عين ،

---

(١) الأجيج : تلهب النار . (٢) سجر التنور : أحماه . والجزل : الحطب اليابس .
(٣) الرفات : الحطام .

فلم تُمتِّعنى به كثيراً، بل سلبتَنِيه وَشِيكا ؛ ثم أمرتنى بالصبر ، ووعدْتنى عليه الأَجْر، فصدقت وَعْدَكِ، ورضيت قضاءك ، فرحم الله من ترحَّم على من استودَعْتُه الرَّدْم[(1)]، ووسدته الثَّرَى ؛ اللهم ارحم غربته ، وآنِسْ وحْشَته ، واستُرْ عَوْرَته يوم تُكْشَف الهَنَات والسَّوءات .

فلما أرادت الرجوعَ إلى أهلها وقفت على قبره ، فقالت ! أى بنىّ ! إنى قد تزوَّدْت لسفرى، فليت شعرى مازادُك لبُعْدِ طريقك، ويوم مَعَادِك؛ اللهم إنى أسأَلُكَ له الرضا برضائى عنه . ثم قالت : استودَعْتُك مَن استودَعَنِيك فى أَحْشَائى جنيناً ؛ وا ثُكْلَ الوالدات ! ما أمضَّ حرارةَ قلوبهن ، وأَقْلَق مضَاجعهنّ ، وأطولَ ليلهنَّ ، وأقصرَ نهارهن ، وأقل أنسهن ، وأَشدّ وحشتهنّ ، وأَبعدهنّ من السرور ، وأقربهن من الأحزان ! فلم تزلْ تقولُ هذا ونحوه حتى أبكتْ كلَّ مَنْ سمِعها . وحمدت الله عز وجل واسترجعَتْ[(2)] وصلت ركعات عند قبْره وانطلقت .

وأخرى ترثى ابنا لها

وأنشد المفضل الضبى لامرأةٍ من العرب ترثى ابنا لها[(3)] :

يا عمرُو مالِى عنك من صبرٍ	يا عَمْرُو يا أسَفِى على عَمْرِو
لله يا عمرُو وأىُّ فتًى	كفنْتُ يوم وُضِعت فى القبرِ
أحْثُو الترابَ على مَفَارِقِهِ	وعلى غَضارَةِ وجهه النَّضِرِ[(4)]
حين استوى وعلَا الشبابُ بهِ	وبدا مُنِيرَ الوجهِ كالبدرِ
ورجا أقَارِبُه منافعَهُ	ورأوا شمائل سَيِّد غَمْرِ[(5)]
وأهمَّه هَمِّى فساوَرَهُ	وغدَا مع الغادِينَ فى السَّفْرِ
تغدُو به شقراءُ ساميةٌ	مَرَطَى الجراءِ شَديدةُ الأَسْرِ[(6)]

---

(١) ردم الباب والثلمة : سده ، أو أكثر من السد ، والردم : الاسم .

(٢) قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . (٣) شاعرات العرب ١٠٧ .

(٤) المفارق : مواضع فرق الشعر من الرأس . (٥) الغمر : الكريم الواسع الخلق .

(٦) مرطى : ضرب من العدو . والجراء : الجرى . والأسر : شدة الخلق والخلق .

ثبت الجَنَان به ويقدمها ‏ فَلِجٌ يقلبُ مُقْلَتَى صَقْرِ (١)
ربَّيْتُه دَهْراً أُفتِّقُهُ ‏ فى اليُسْر أغذُوه وفى العُسْر
حتى إذا التأميلُ أمكننى ‏ فيه قُبَيْلَ تلاحُقِ الثغر
وجعلتُ من شغفى أُنقِّلهُ ‏ فى الأرض بين تَنَائفٍ غُبْرِ (٢)
أدَع المَزارعَ والحصونَ بهِ ‏ وأُحلُّه فى المَهْمَهِ القفْرِ
ما زلت أُصْعِده وأُحْدِرُهُ ‏ من قُتْرِ مَوْماةٍ إلى قُتْرِ (٣)
هرباً به والمَوْتُ يطلُبه ‏ حيث انْتَوَيْتُ به ولاأدْرى (٤)
حتى دفَعْتُ به لَمصْرَعِه ‏ سوق المعيز تُسَاق للعَتْرِ (٥)
ما كان إلا أن هجمت لهُ ‏ ورمى فأَغْفَى مطلع الفجر
ورمى الكَرَى رأْسى ومال بهِ ‏ رَمْسٌ (٦) يُسَاوِر منه كالسُّكْرِ
إذ راعنى صوتٌ هببت بهِ ‏ وذُعِرتُ منه أيَّما ذُعرِ
وإذا منيَّتُه تُسَاوِرهُ ‏ قد كدَّحت (٧) فى الوَجْه والنَّحْرِ
وإذا له علَق (٨) وحَشْرَجةٌ ‏ ممـا يَجيشُ به من الصَّدْرِ
والموتُ يَقْبِضُه ويَبْسُطهُ ‏ كالثوبِ عنـد الطىِّ والنَّشْرِ
فدَعَا لأَنْصُرَه وكنت لهُ ‏ من قبل ذلك حاضرَ النَّصْر
فعجزتُ عنه وهى زَاهِقةٌ ‏ بين الوريد ومَدْفَعِ السَّحْرِ
فمضى وأَىّ فتى فُجِعْتُ بهِ ‏ جَلَّت مصيبتُه عن القَدْرِ
لو قيل تفديه بذلتُ لهُ ‏ مالى وما جمَّعت من وَفرِ
أو كنت مقتدراً على عُمْرى ‏ آثرته بالشَّطْرِ من عُمْرِى

---

(١) فلج : كثير الظفر والفوز . (٢) التنائف: جمع تنوفة : وهى الصحراء .
(٣) القتر بالضم : الجانب والناحية . (٤) انتويت : قصدت . (٥) العتر: الذبح .
(٦) الرمس : الصوت الخفى . (٧) كدح وجهه : خدشه أو عمل به ما يشينه، مثل كدحه ، أو أفسده . (٨) العلق : الدم عامة ، أو الشديد الحمرة .

قد كنتُ ذا فقْرٍ له فَعدَا ... ورَمَى علىَّ وقد رأى فقْرِى
لو شاء ربى كان متَّعنى ... بِابْنِى وشدّ بأَزْرِه أزْرى
بُنيَّتْ عليك بنىَّ ، أحوج ما ... كنّا إليك ، صفائحُ الصَّخْر
لا يبعدنك الله يا عمرى ... إمَّا مضيت فنحنُ بالإثْر
هذى سبيلُ الناس كلّهم ... لابدّ سالكها على سَفَرِ
أوَلا تراهم فى ديارهمُ ... يتوقَّعون وهم على ذُعْرِ
والموتُ يُورِدُهم مواردَهم ... قَسْرًا فقد ذَلّوا على القَسْرِ

أعرابى يمدح رجلا

وقال أعرابى يمدح رجلا (١) :

يمُدُّ نِجادَ السّيف حتَّى كأنهُ ... بأعلى سنامَىْ فالجٍ (٢) يَتَطوَّحُ
ويُدلجُ فى حاجاتِ مَنْ هو نائمٌ ... ويُورِى كريماتِ الندى (٣) حين يقدحُ
إذا اعتمّ بالبُرْدِ اليمانى حسبتهُ ... هلالاً بدَا فى جانب الأفقِ يَلْمَحُ
يزيدُ على فَضْلِ الرجالِ فضيلةً ... ويَقْصُر عنه مَدْحُ مَنْ يتمدَّحُ

وأنشد ابنُ أبى طاهر لأعرابى :

وقبلِىَ أبْكَى كلَّ مَنْ كان ذاهوًى ... هتوفُ البواكى والديارُ البَلاقِعُ
وهنَّ على الأطلال من كل جانبٍ ... نوَائحُ ما تَخْضَلُّ منها المَدامِعُ
مُزَبْرَجَةُ الأعناقِ نُمْرٌ ظهورُها (٤) ... مخطّمة بالدُّرِّ خُضْرٌ رَوَائع (٥)
تَرَى طُرُزًا بَيْنَ الخوافى كأنها ... حَوَاشِىّ بُرْدٍ زينتها الوَشَائعُ (٦)
ومن قِطَع الياقوتِ صِيغَتْ عُيُونُها ... خواضب بالحِنَاءِ منها الأَصَابِع

---

(١) المختار من شعر بشار ٧٩ . (٢) فى س : سناهى والج ، وفى ق : سناهى داخ ، والفالج : الجمل الضخم ذو السنامين . (٣) فى المختار : كرامات الندى . (٤) مزبرج : مزين . والأنمر : ما فيه نمرة بيضاء وأخرى سوداء — والنمرة : النكتة من أى لون كان .
(٥) أصل خطمه : وضع الخطام على أنفه . وفى س : خصر . (٦) الطراز : علم الثوب . الوشيعة : خشبة يلف عليها ألوان الغزل .

ومن جيد ما قيل فى الحمام قول ابن الرومى[1] :

وَقَفْتُ بِمِطْرَابِ[2] المشيَّاتِ والضُّحَى ... فَظَلْتُ أسُحُّ الدمع منى وأسْجُمُ[3]

حليفـة شَجْوٍ هَاجَ ما بى وما بهـا ... تباريحُ شـوق يشتكيها المتيّم

نَبـاحَ به فُوهَا وأخْفَتْـه عينُها ... وباحَتْ به عَيْنى وكتَّمهُ[4] الفَمُ

ودخل أعرابى على الرشيد فأنشده أرجوزةً مدحه بهـا ، وإسماعيل بن صبيح يكتبُ كتاباً بين يديه ؛ وكان من أَحسنِ الناسِ خطّا ، وأَسرعهم يداً ؛ فقال الرشيد للأعرابى : صف الـكاتب فقال[5] :

وصف كاتب

رقيقُ حَواشى العلم حينَ تبورهُ[6] ... يُرِيكَ الهُوَيْنا والأُمورُ تَطِيرُ

له قلما بؤسَى ونُعْمَى كلاهما ... سحابَتُه فى الحالتَيْنِ دَرُورُ

يُنَاجيك عما فى ضميرك خَطّهُ ... ويَفْتَحُ بابَ النُّجْحِ وهو عسيرُ

فقال الرشيد : قد وجب لكَ يا أعرابى عليه حق ، كما وجب لك علينا . يا غلام ؛ ادفَعْ له دِيَة الحرّ ، فقال إسماعيل : وعلى عبدِكَ دِيَة العَبْد .

وقال أعرابى من بنى عقيل[7] :

حنين

أحِنُّ إلى أرضِ الحجـاز وحاجَتى ... خِيامٌ بنَجْدٍ دونها الطَّرْفُ يقصُرُ

وما نَظَرِى نحو الحجازِ بنافعى ... فتيلاً[8] ولـكنى على ذَاكَ أنْظرُ

أفى كلِّ يوم نَظْرَةٌ ثم عَبرةٌ ... لعينَيْك يجرى ماؤُها يتحدَّرُ

متى يستريح القلب إمَّا مجاورٌ ... حزينٌ وإمَّا نازحٌ يتذَكَّرُ

وقال أعرابى :

خلق

وإنى لأُغْضِى مقلتىَّ على القذَى ... وألْبَسُ ثوبَ الصبرِ أبْيَض أبْلَجا

---

(١) ديوانه ٨٧ . (٢) المطراب : الطروب . (٣) فى الديوان : وهى ترنم . وسجم الدمع: قطر . (٤) فى الديوان: وكاتمه . (٥) ديوان المعانى ٢ــ٧٧ .
(٦) تبوره : تختبره . (٧) المختار من شعر بشار ٢٥٢ . (٨) فى المختار : أجل لا ولـكنى .

وإنّى لأَدْعو اللهَ والأمرُ ضَيّقٌ عليَّ فما ينفكُّ أنْ يتفرَّجَا
وكم من فـتًى ضاقَتْ عليه وجوهُهُ أصاب لها فى دَعْوَةِ اللهِ مخرَجَا

وقال آخر :

ذكرتك ذِكْرى هائمٍ بك تَنْتَهِى إليك أمانيه وإن لم يكُنْ وَصْلُ
وليسَتْ بِذِكْرَى ساعةٍ بعد ساعةٍ ولـكنها موصولةٌ مالَهَا فَصْلُ

وقال آخر :

أريتُك إنْ شطَّتْ بك العامَ نيَّةٌ وعَالَك[١] مُصْطَافُ الحِمَى ومرابِعُهْ
أترعين ما استودعت أم أنت كالذى إذا ما نَأَى هانَتْ عليك ودَائِعُهْ
ألا إن حَسْيًا دونه قُلَّةُ الحِمَى مُـنَى النفسِ لو كانت تُنَالُ شَرَائِعُهْ[٢]

أخذتْ أزدُ العتيك شاعراً من قَيْس بن ثعلبة اسمه المعذَّل[٣] فى دَمٍ فأتَاه البَيْهَس ابن ربيعة فحمله ، وأمره أن يَنْجُوَ بنفسه ، وأَسلم نفسه مكانه ، فقال له المعذل: أُخيِّرك بين أن أمْدَحَك أو أمدح قومَك ؛ فاختار مدحَ قومه فقال[٤] :

جزى اللهُ فِتْيَانَ العَتيك ، وإن نَأَتْ بىَ الدَّارُ عنهم ، خيرَ ما كان جازِيا
هُم خلطونى بالنفوس وأحسنوا الـ صّحابة لما حُمَّ ما كان[٥] آتِيَا
مَتَاعُهم فَوْضَى فَضًا[٦] فى رحالِهِمْ ولا يُحْسِنُون الشرَّ[٧] إلاَّ تبَادِيَا
كأن دنانيراً على قَسَمَاتِهِمْ إذا الموتُ فى الأبطال كان تحاميا[٨]

وذكرت الرواة أنَّ المهلب بن أبى صفرة عرض جُنْدَه بخراسان ، فعرض جيش بكر بن وائل ، فمرّ به المعذّل فقال: هذا المعذل القيسى الذى يقولُ : وأنشد الأبيات،

---

(١) عالنى الشىء : أعوزنى وأعجزنى ، وفى ط : وغالك . (٢) الحسى : سهل فيه ماء ، ويجمع على أحساء ، والشرائع : الموارد . (٣) أزد العتيك : فخذ من الأزد . وقد جاء فى كل الأصول: المعدل ــ بالدال ، وهذا عن الحماسة . (٤) الحماسة ٤ــ٢٧٥ .
(٥) فى الحماسة : ما كنت لاقيا . (٦) فى الحماسة : طعامهم بدل متاعهم . وفوضى فضا: أى مختلط ، يريد أنهم لا يستأثر بعضهم على بعض ، وفى كل الأصول : فوضى قضا ، بالقاف.
(٧) فى الحماسة : السر إلا تناديا . (٨) فى الحماسة : للأبطال كان تحاسيا .

فقالوا : أيها الأمير ؛ احسبه علينا، فانطلق مائةٌ منهم ، فجاءوا بمائة وصيف ووصيفة، فقالوا : أعْطِه هذا وليعذرنا .

قوله : كأنَّ دنانيرا على قسماتهم ... نظيرُ قول أبى العباس الأعمى :

ليت شِعْرِى من أَيْنَ رائحةُ المسـ ... ـكِ وما إِن إخال بالخَيْف إِنْسى

حين غابت بنو أمية عنـهُ ... والبهاليلُ من بنى عبـد شمس

خطباء على المنابر فُرْسَا ... نٌ عليها وَقَالَةٌ غيرُ خُرْسِ

فى حلوم إذا الحلوم استُفِزَّت ... ووجوه مثـل الدنانير مُلْسِ

[طرف من أخبار أبى نواس]

نهى أبى نواس عن الخمر

ولما خلع المأمونُ أخاه محمد بن زبيدة ووجّه بطاهر بن الحسين لمحاربته ، كان يعمل كتبا بعيوبِ أخيه تُقْرَأُ على المنابر بخراسان ؛ فكان مما عابه به أن قال: إنه استخلص رجلا شاعرا ماجِناً كافرا ، يقال له الحسن بن هانئ ، واستخلصه ليَشْرَبَ معه الخمر ، ويرتكبَ المـآثم ، ويَهْتِـك المحارم ، وهو الذى يقول [(١)] :

أَلاَ فاسْقِنى خَمراً وقُل لى هى الخمرُ ... ولا تسقنى سرًّا إذا أمْكَنَ الجَهْرُ

وبُحْ باسمِ مَنْ تهوى ودَعْنِى عن الكُنَى ... فلا خَيْرَ فى اللَّذّاتِ من دونها سِتْرُ

ويذكر أهلَ العراق فيقول : أهل فسوق وخمور ومَاخُور وفجور ؛ ويقوم رَجلٌ بين يديه فيُنْشِد أشعار أبى نواس فى المجون ؛ فاتصل ذلك بابن زبيدة ؛ فنهى الحسنَ عن الخمر ، وحبسه ابنُ أبى الفضل بن الربيع ؛ ثم كلّمه فيه الفضل فأخرجه بعد أن أخذ عليه ألاّ يشربَ خمرا ، ولا يقول فيها شعرا ، فقال [(٢)] :

مامِنْ يدٍ فى الناسِ واحدةٍ ... كيَدٍ أبو العباسِ مَوْلاَها

قام [(٣)] الثقات على مضاجعهم ... وسَرَى إلى نفسى فأحياها

(١) ديوانه ٢٧٣ . (٢) ديوانه ١٠٩ .
(٣) فى الديوان : نام البغاة .

قد كنت خِفتك ثم آمننى [١] من أن أخافك ، خَوْفُكَ اللهَ
فعفوتَ عنى عَفْوَ مقتدرٍ وجَبَتْ لهُ نقمٌ فألغاها [٢]

من قوله فى ترك الشراب

ومن قوله فى تَرْكِ الشراب [٣] :

أيُّهَا الرائحان باللَّوْمِ لُوما لا أذوقُ المُدامَ إلاَّ شَمِيما
نالَنِى بالملام فيها إمامٌ لا أرى لى خلافَهُ مستقيما
فاصْرِفاها إلى سِوَاىَ فإنّى لسْتُ إلاّ على الحديث نديما
جُلُّ [٤] حظى منها إذا هى دارتْ أنْ أراها وأن أشمّ النسيما
فكأنى وما أُزيّن منها قَعَدِىٌّ [٥] يُزَيّن التحكيما
[كَلّ عَنْ حَمْلِه السلاحِ إلى الحر ب فأوصى المُطيق ألاّ يقيما] [٦]

القَعَديّة : فرقة من الخوارج ، يَأمرون بالخروج ولا يخرجون ؛ وزعم المبرد أنه لم يُسْبق إلى هذا المعنى . وقال [٧] :

عَيْن الخليفةِ بى موكَّلةٌ عَقَد الحِذارُ بطَرْفِها طَرْفى
صحّتْ عَلَانيتى له وأرى [٨] دِينَ الضمير له على حَرْفِ
ولئن وعدتك تَرْكَها عِدَةً إنى عليك لخائفٌ خُلْفى
سلبوا قِناعَ الدَّن [٩] عن رَمَقٍ حى الحياة مشارف الحَتْفِ
فتنفّسَتْ فى البيت إذ مُزِجَت كتنفس الرَّيْحانِ فى الأَنْفِ

* * *

(١) فى الديوان : أمننى . (٢) فى الديوان : * حلت له نقم فأ كفاها *
(٣) ديوانه: ٣٢٥ . (٤) فى الديوان : كبر حظى . (٥) القعد : الخوارج، ومن يرى رأيهم قعدى . (٦) من س ، ق . (٧) ديوانه : ٣٠٣ .
(٨) فى الديوان : ورأى . (٩) فى الديوان : قناع الطين .

من النقد

أخذ قوله : « ولئن وعدتك تركها عدة » الحسن بن على بن وكيع فقال :

متى وَعَدْتُك فى تركِ الصِّبا عِدَةً ... فاشْهَدْ على عِدَتِى بالزُّورِ والكَذِب
أمَا تَرَى الليلَ قدولَّت عَساكِرُهُ ... وأقبل الصبحُ فى جيش له لجَبِ [1]
وجدَّ فى أثر الجَوْزَاء يطلُبها ... فى الجوّ رَكْضاً هِلالٌ دائمُ الطلب
كصولجانِ لُجَين فى يدَىْ ملك ... أدناه من كُرَةٍ صيغت من الذهب
فقُمْ بنا نَصْطَبِح صفراءَ صافيةً ... كالنارِ لكنها نارٌ بلا لَهَبِ
عروسُ كَرْمٍ أتت تختالُ فى حُلَلٍ ... صُفْرٍ على رأسها تاجٌ من الحَبَبِ

وقال أبو الفضل الميكالى فى اقتران الهلال بالزهرة [2] :

أمَا ترى الزُّهرةَ قد لاحَتْ لنا ... تحت هلال لونه يَحْكِى اللَّهَبْ
ككُرَةٍ من فضَّة مجلوَّةٍ ... وافَى عليها صَوْلَجانٌ من ذَهَبْ

وعلى قول أبى نواس [3] :

صَحَّتْ عَلَانيَتى له وأرى ... دِينَ الضمير له على حَرْفِ [4]

كتب أبو العباس بن المعتز إلى الطيب القاسم بن محمد النميرى [5] :

يأيها الجافى ويستجفى ... ليس تجنِّيك من الظَّرفِ
إنَّك فى الشوقِ إلينا كمَنْ ... يُؤْمِنُ باللهِ على حَرْفِ
محوتَ آثارَك من ودِّنا ... غير أساطيرك فى الصُّحْف
فإن تحامَلْتَ لنا زَوْرَةً ... يوماً تحاملت على ضَعْف

وحدث أبو عمر الزاهد قال : دَلَكَ بعضُ الزهاد المرائين جَبْهته بثَوْمٍ وعصَبها ، ونام ليُصْبِح بها كأثر السجود ، فانحرفت العِصابة إلى صُدْغه ، فأَخَذَ الأَثر هناك ،

---

(١) جيش لجب : ذو لجب . واللجب : الجلبة والصياح . (٢) اليتيمة : ٤ـ٣٤٤ .
(٣) ديوانه : ٣٠٣ . (٤) فى القرآن الكريم : ومن الناس من يعبد الله على حرف : أى على وجه واحد ، وهو أن يعبده على السراء لا على الضراء ، أو على شك ، أو على غير طمأنينة على أمره . (٥) ليست هذه الأبيات فى ديوانه المطبوع بين أيدينا .

فقال له ابنه : ماهذا يا أبت ؟ فقال : أصبح أبوك ممن يَعْبُدُ الله على حرف !

* * *

من قول أبي نواس في الخمر

وقال أبو نواس فى الباب الأول [١] :

غَنِّنَا بالطلولِ كيف بَلينا ... واسْقِنَا نُعْطِكَ الثناءَ الثَّمِينا

من سُلَافٍ كأنها كلُّ شيءٍ ... يتمنَّى مخيَّرٌ أَنْ يَكُونَا

أَكَلَ الدَّهْرُ [٢] ما تجسَّم منها ... وتبقَّى لبابُها المَكْنُونَا

فإذا ما اجتليتَها فهباءٌ ... يَمْنَعُ الكفَّ ما يُبِيحُ العيونا

ثم شُجَّتْ [٣] فاستضحكت عن لآلٍ ... لو تجمَّعْنَ فى يدٍ لاقتُنِينا

فى كئوس كأنهنَّ نجومٌ ... دائراتٌ بُرُوجُها أَيْدِينا

طالعاتٌ مع السُّقَاةِ علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فينا

لو ترى الشَّرْبَ [٤] حولَها من بعيد ... قلت قوماً من قِرَّةٍ [٥] يصطَلُونَا

وغزالٍ يُدِيرُها ببَنَانٍ ... ناعماتٍ يَزِيدُها الغَمْزُ لِينَا

كلما شِئْتُ عَلَّنِى بِرُضَابٍ ... يَتْرُكُ القلبَ للسرور قرينا [٦]

ذاك عيشٌ لو دَامَ لى غيرَ أَنى ... عِفْتُه مكرَهًا وخِفْتُ الأَمِينا

وقال [٧] :

أَعاذل أَعتبت الإمامَ وأَعتبا ... وأَعْرَبْت عمَّا فى الضمير وأعْرَبا

وقلتُ لساقيها : أجزها فلم أكن [٨] ... ليأبى أميرُ المؤمنين وأَشْرَبا

فجوَّزَها عنى سُلَافاً ترَى لها ... لدى الشَّرَفِ الأعلى شعَاعا مُطنَّبا

إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خِلْتَهُ ... يُقَبِّلُ فى داجٍ من الليل كوكبا

---

(١) ديوانه: ٣٣٩ . (٢) فى الديوان : درس الدهر . (٣) فى الديوان : مرجت . (٤) فى الديوان : الشاربون (٥) القر ـ بالضم : البرد ، والقرة ـ بالكسر : ما أصابك من القر . (٦) فى الديوان : خدينا . (٧) ديوانه: ٢٤٤ . (٨) فى الديوان : فلم يكن .

ترى حيثما كانتْ من البيت مَشْرِقاً ... ومالم تكن فيه من البيت مَغْرِبا
يَدُورُ بها رَطْبُ البنان[1] ترى لهُ ... على مستدار الخدّ صُدغا مُعقْرَبَا
سقاهم ومنَّانِي بعيْنَيْهِ مُنْيَةً ... فكانت إلى قَلْبي ألذّ وأطْيَبا

اغتصابه معانى الشعر

قال الحسين بن الضحاك الخليع : أنشدت أبا نواس قولى :

وشاطرىِّ اللسانِ مختلق التّكْـ ... ـرِيهِ شابَ المُجُونَ بالنُّسْكِ[2]

فلما بلغتُ فيه :

كأنما نُصْبَ كأسِهِ قمرٌ ... يَكْرَعُ فى بَعْضِ أنْجُمِ الفَلَكِ

نعر[3] نعْرَةً منكرةً ، فقلت : مالَك ، فقد رعتنى ؟ قال : هذا المعنى أنا أحقُّ به منك ؛ ولكن سترى لمن يُرْوى ! ثم أنشد بعد أيام[4] :

إذا عبَّ فيها شاربُ القوم خِلْتَهُ ... يُقبِّلُ فى داجٍ من الليل كوكبا

فقلت : هذه مطالبة يا أبا على ! فقال : أتظنّ أنه يُرْوى لك معنى مليح وأنا فى الحياة ؟

وقال ابن الرومى فكان أحسن منهما[5] :

ومهفهف كملتْ محَاسِنُهُ ... حتى تجاوزَ مُنْيَةَ النَّفْسِ
تَصْبُو الكئوس إلى مَرَاشِفِهِ ... وتَضِجُّ فى يده من الحَبْسِ
أبصرْتُها والكأسُ بين فمٍ ... منه وبين أنَامِلٍ خَمْسِ
فكأنَّها وكأن شَارِبَها ... قمرٌ يقبّل عَارِضَ الشمس

وقال أبو الفتح كشاجم :

وسحاب يجرُّ فى الأرض ذَيْلَىْ ... مُطْرَف[6] زرَّهُ على الأرض زرّا

(١) فى الديوان : يدير بها ساق أغن .
(٢) أصل الشاطر : من أعيا أهله خبثا . وكرهه تكريها : صيره كريها . شاب : مزج .
(٣) نعر كمنع وضرب : صاح وصوت بخياشيمه .
(٤) ديوانه ٢٤٤ .
(٥) ديوانه ١٠٧ .
(٦) المطرف : رداء منخز مربع ذو أعلام .

بَرْقُه لَمْحةٌ ولَكِنْ له رَعْـ ـدٌ بطىءٌ يكسو المسامِعَ وَقْرا (١)
كخَلِىٍّ منافقٍ لِلَّذى يهـ ـواهُ يَبْكِى جَهْراً ويَضْحَك سِرّا
قد سقتنى المُدَامَ فيها فتاةٌ سحَرَتْنى وليس تُحْسِنُ سِحْرا
فإذَا ما رأيتُها تشربُ الرّا حَ أَرَتنِى شَمْساً تُقَبِّلُ بَدْرا

[طرف من أخبار بشار]

المهدى وغزل بشار

وإنما احتذى أبو نواس فى هذه الأشعار التى وصف فيها تَرْكَ الشراب وطاعته لأَمْرِ الأمين مثالَ بشّار بن بُرْد ، وصب على قالبه ؛ وذاك أنّ بشاراً لما قال (٢) :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مخبَّأَةٍ قَوْلٌ تغلّظه وإنْ جَرَحَا
عُسْرُ النساءِ إلى مُيَاسَرةٍ والصعبُ يُمْكِنُ بعدماجَمَحَا

بلغ ذلك المهدى فغاظه ؛ وقال : يحرّض النساءَ على الفجور ، ويسهِّل السبيل إليه ! فقال له خالُه يزيد بن منصور الحميرى : ياأميرَ المؤمنين؛ قد فتن النساء بشعره ، وأىّ امرأة لا تَصْبُو إلى مثل قوله (٢) :

عجِبَتْ فَطْمَةُ من نَعْتِى لها هل يُجِيدالنعتَ مكفوفُ النَّظَرْ
بِنْتُ عَشْرٍ وثلاثٍ قسِّمت بين غُصْنٍ وكثيبٍ وقَمَرْ
دُرَّةٌ بَحْرِيَّةٌ مكنونةٌ مازَها (٣) التاجر من بَيْن الدرَرْ
أَذْرَتِ الدمعَ وقالت وَيْلَتِى من وَلوعِ الكفِّ ركّابِ الخَطَرْ
أمّتى بدَّدَ هَذا لُعَبى ووِشَاحِى حلَّه حتى انْتَثَرْ
فدَعِينى معه يا أمّتى علّنا فى خَلْوَةٍ نَقْضِى الوَطَر
أَقْبلَتْ فى خَلْوَة تضربُهَا واعتراها كجُنون مُسْتَعِرْ
بِأَبى واللهِ ما أحسنَهُ دَمْعُ عين غسَّلَ الكُحْلَ قَطِرْ

(١) الوقر : ثقل فى الأذن أو ذهاب السمع كله .
(٢) المختار من شعر بشار ١٠٦ .
(٣) مازه : ميزه وعزله وفرزه .

أيهــا النُّوَّام هبُّوا وَيْحَــكُم　　　وسَلُونى اليومَ ما طَعْمُ السَّهَرْ

فأمره المهدى ألاَّ يتغزل ، فقال أشعاراً فى ذلك ، منها [١] :

يا منظراً حسناً رأيته　　　من وجه جاريةٍ فدَيْتُه
لمتْ [٢] إلىَّ تَسُومنى　　　ثَوْبَ الشباب وقد طويتُه
واللهِ ربِّ محمـدٍ　　　ما إن غَدَرْتُ ولا نَوَيْتُه
أَمْسَكْت عنك وربمـا　　　عَرض البـلاءُ وما ابتغيتُهْ
إنّ الخليفة قد أبى　　　وإذا أَبى شيئاً أَبيتُه
ويَشُوقنى بيتُ الحبيـ　　　ـب إذا غَدَوت [٣] وأين بَيْتُه
قام الخليفةُ دونَهُ　　　فصبَرْتُ عنه وما قَلَيْتُه
ونَهانىَ المَلِكُ الهما　　　م عن النساء فما عصيْتُه
بل قد وفيتُ ولم أُضِـع　　　عَهْداً ولا رأياً رأيتُه

وقال أيضاً [٤] :

والله لولا رِضَا الخليفةِ ما　　　أعطيتُ ضَيْماً علىَّ فى شجَنِ
قد عِشْت بين النَّدْمَان والرَّاح والْ　　　مِزْهر فى ظل مَجْلِسٍ حَسَنِ [٥]
ثم نهانى المهدى فانصرفَتْ　　　نفسىَ صُنْعَ [٦] الموفَّق اللَّقِـنِ

وقال :

أفنيتُ عمرى و تَقَضَّى الشبابْ　　　بين الحميَّا والجَوَارِى العِذَابْ [٧]
فالآن شفَّعتُ [٨] إمام الهُدَى　　　وربما طِبْت لحبٍّ وطَاب
لهوت حتى رَاعَنى دَاعياً　　　صوتُ أمير المؤمنين المُجَابْ

(١) الأغانى : ٣ـ٢١١ ، ٢٣٩ .　　　(٢) لمع بيده : أشار ، وفى الأغانى : بعثت .
(٣) فى الأغانى : إذا ادكرت .　　　(٤) الأغانى : ٣ـ٢٤١ ، المختار : ١٠٥ .
(٥) هكذا بكل الأصول ، وفى الأغانى : قد عشت بين الريحان والراح والمزهر ...
(٦) فى الأغانى : صنيع . واللقن : سريع الفهم .　　　(٧) الحميا من الكأس : سورتها وشدتها ، وفى ق ، س : الجوارى الأوآب .　　　(٨) شفعته : قبلت شفاعته .

لبّيك لبَّيك ! هجرتُ الصِّبا ونَام عُذَّالِى وماتَ العِتَابْ
أَبصرت رُشْدِى وتركت المُنَى وربما ذلَّتْ لهنَّ الرّقَابْ

فى كلمة طويلة يقول فيها :

يا حامد القول ولم يَبلُهُ سبقْتَ بالسَّيْلِ مَسَاك[1] السَّحَابْ
الفعلُ أَوْلَى بثناء الفتى ماجاءه من خَطأٍ أَوْ صَوَاب
دعْ قولَ وَاءٍ وانتظرْ فِعْلَهُ يُثْنِى على اللِّقْحَةِ مافِى الحِلَابْ[2]
إذا غـدا المهدىُّ فى جُنْدهِ ورَاحَ فى آلِ الرسول الغِضَاب
بدَا لك المعروفُ فى وجهِه كالظَّلْم[3] يجْرِى فى الثنايا العِذَابْ

من غزله

ومن شعر بشار فى الغزل[4] :

أيهـا الساقيانِ صُبَّا شَرَابِى واسقيانى من رِيق بيضاءَ رُودِ[5]
إنّ دائى الصَّدى وإنّ شفائى شَرْبَةٌ من رُضَاب ثَغْرٍ بَرُودِ
عندها الصبرُ عن لقائى وعنـدى زفرات يأ كُلْنَ قَلْبَ الجليدِ
ولها مَبْسِمٌ كغُرِّ الأَقاحى وحديثٌ كالوَشْى وَشْىِ البُرُودِ
نزلَتْ فى السّوَاد من حَبّةِ القَلْـ ـب ونالَتْ زيادةَ المستَزِيدِ
ثم قالت : نَلْقَاكَ بعـد لَيالٍ والليالِى يُبْلِينَ كلَّ جديد
لا أُبالى مَنْ ضَنَّ عنى بوَصْلٍ إنْ قَضَى اللهُ منك لى يَوْمَ جُودِ

وقال :

تُلقَى بتسبيحةٍ من حُسن ماخُلِقَت وتستفزّ حشَا الرَّائى بإرْعَادِ
كأنمـا صوِّرَتْ من ماءِ لؤلؤةٍ فـكلُّ جارحةٍ وَجْهٌ بمِرْصَادِ

---

(١) المساك بفتح الميم : الموضع يمسك فيه الماء .
(٢) واء : واعد ، اللقحة : الناقة الحلوب . (٣) الظلم : ماء الأسنان .
(٤) الأغانى : ٣ـ١٨٧ . (٥) الرود : الشابة الحسنة الناعمة .

وقال :

وهبَتْ له على المسواكِ رِيقاً فطابَ له بطيبِ ثنيَّتيك
أقبّله على الذكرى كأنّى أقبِّـل فيـه فاكَ ومقلتيك

وقال :

لا أستطيعُ الهوى وهِجْرتها قلبى ضعيفٌ وقلبها حَجَرُ
كأَنَّ وجْدِى بها وقد حجبت فى الرأس والعين والحَشا سُكُرُ

وأنشد له أبو تمام ، وكان يقول : ما رأيتُ شعراً أغزل منه :

زوِّدينا يا عَبْد قَبْلَ الفراقِ بتلاقٍ وكيف لى بالتَّلاقِ
أنا واللهِ أَشتهى سِحْرَ عينيـ ـك وأَخْشَى مصارِعَ العشاق
أَمَتِى من بنى عقيل بن كَعْب موضع السِّلْكِ فى طُلَا[1] الأعْنَاقِ

وقال :

لقـد عشقَتْ أذنى كلاماً سمعتهُ رَخيما وقَلْبى للمليحةِ أعشقُ
ولو عاينُوها لم يَلومُوا على البُكَا كريماً سقاهُ الخمرَ بدرٌ مُحَلِّقُ[2]
وكيف تناسِى مَنْ كأنّ حديثهُ بأذنى وإن عنيت قُرْطٌ مُعَلَّقٌ

وقال[3] :

وقد كنت فى ذاك الشبابِ الذى مضى أُزَارُ ويَدْعُونى الهوَى فأَزُورُ
فإن فاتنى إلفٌ ظلِلْتُ كأنما يُديرُ حيـاتى فى يديه مُديرُ
ومُرْتجَّة الأَرْدافِ مهضومة الحشاَ تمُورُ[4] بسِحْرٍ عَيْنُهَا وتَدُورُ
إذا نظرت صبَّت عليك صبابةً وكادَتْ قلوبُ العـالمين تَطِيرُ
خلوتُ بها لا يَخْلصُ الماء بيننا إلى الصُّبْح دونى حاجبٌ وسُتُورُ

---

(١) الطلا : أصول الأعناق . (٢) فى س : مخلق . (٣) اللآلئ : ٥١٨ .

(٤) تمور : تموج وتضطرب .

ومن هذا أخذ على بن الجهم قوله[١] :

صِليني[٢] وحَبْل الوصل لم يتشعَّب ... ولا تهجري[٣] أفْدِيك بالأُمّ والأبِ

رَعَى اللهُ دَهْراً ضَمَّنَا بعد فُرْقَةٍ ... وأدْنَى فؤاداً من فؤادٍ مُعَذَّبِ

عناقا وضمًّا والتزاماً كأنما ... يرى جَسدَانا جسم روح مركب

فِبتْنَا وإِنا[٤] لو تُرَاق زَجاجةٌ ... من الخَمْرِ فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

وشعره فى هذا المعنى كثير .

شعره — وروى أنه قال : أنا أَشْعَرُ الناسِ ؛ لأنَّ لى اثنى عشر ألفَ قصيدة ، فلو اختِير من كل قصيدة بيتٌ لاستندر ، ومن ندرت له اثنا عشر ألف بيت فهو أَشعرُ الناس ؛ وقد نثرتُ نَظْمَه فى أضعاف الكتاب استدعاءً لنشاط القارئ وكراهة فى إملاله .

وكان بشارٌ أرقّ المحدَثين ديباجةَ كلام ، وسُمّى أبا المحدثين ؛ لأنه فتّق لهم أكمام المعانى ، ونهَج لهم سبيل البديع ، فاتَّبعوه ؛ وكان ابن الرومى يُقدِّمه ، ويزعمُ أنه أشعرُ من تقدّم وتأخر .

ولاؤه — وهو يتعلق فى شعره بولاء عَقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ويفتخرُ بالمضرية . قال له المهدى : فيمن تَعْتَزِى ؟ قال : أمَّا اللسان فعربىّ ، وأما الأصل فكما قلت فى شعرى . قال : وما قلت ؟ فأنشده[٥] :

ونبِّئت قوماً لهم إِحْنةٌ[٦] ... يقولون مَنْ ذا وكُنْتُ العَلَمْ

ألا أيها السائلى جاهِلًا ... ليَعْرِفنى أنا إِلْفُ[٧] الكَرَمْ

نمَتْ فى المكارمِ بنى عامرٌ ... فُرُوعى وأصلى قُرَيشُ العَجَمْ

وإنى لأُغنى مقام الفتى ... وأُصْبى الفتاةَ فلا تَعْتَصِم

---

(١) ديوان على بن الجهم ٩٥، الأمالى ١ـ٢٣١، النويرى ٢ـ١٠٤ (٢) فى الديوان : ذرينى أمت والشمل ... (٣) فى الديوان : ولاتبعدى . (٤) فى الديوان : فبتناجميعا. (٥) معاهد التنصيص ١ـ٢٨٩ . (٦) فى المعاهد : بهم جنة . (٧) فى المعاهد : أنف الكرم .

البيت الأول من هذه الأبيات ينظرُ إلى قول جميل :

إذا ما رأونى طالعاً من ثنيـةٍ   يقولون مَنْ هذا وقد عرَفونى

وفى هذه القصيدة يقول بشار[١] :

وبيضاء يضـحكُ ماءُ الشبا   ب فى وجهها لكَ إذ تَبْتَسِمْ
روَاء[٢] العذارى إذا زُرْنَها   أطَفْن بحَوْرَاء مِثْلِ الصَّنَمْ
يَرُحْنَ فَيَمْسَحْنَ أركانَها   كما يَمْسَحُ الحجرَ المُسْتَلِمْ
أصفراء ليس الفتى صَخْرَةً   ولـكنه نُصْب هَمٍّ وغَمّْ
صببتِ هواكِ على قلبـهِ   فضاق وأعْلن ما قد كَتَمْ

ويقال : إنه مولى لأم الظباء السدوسية ، ولذلك قال أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزَّال[٣] رئيس المعتزلة لما هجاه بشار[٤] : أما لهذا الأعمى المُلْحِد المُشَنَّف المـكتنى بأبى معاذ مَنْ يَقْتُله ؟ والله لولا أنَّ الغِيلة من سجايَا الغَالِية ، لبعثتُ إليه من يَبْعَجُ بطنه فى جوف منزلِه ، ولا يكون إلا سَدُوسِيّا ، أو عُقَيْلِيّا .

* * *

واصل بن عطاء

وكان واصلُ بنُ عطاء أحد أعاجيب الدنيا ؛ لأنه كان ألثغ فى الراء ، فأسقطها من جميع كلامه وخطبه ؛ إذ كان إمامَ مَذْهَب ، وداعى نِحْلة ، وكان محتاجاً إلى جَوْدَةِ البيَانِ ، وفصاحَةِ اللِّسَانِ . قال الجاحظ[٥] : فانظر كثرةَ ترداد الراء فى هذا الـكلام وكيف أسقطها؟ قال : الأعمى، ولم يقل الضرير ، قال : الملحد ولم يقل الـكافر، وقال : المشنَّف ، ولم يقل المرَعَّث ، وقال : المـكتنى بأبى معاذ ولم يقل بشاراً ولا ابن برد ، وقال : الغالية ، ولم يقل المغيرية ، ولا المنصورية[٦] ، وهم الذين أرد ، وقال :

---

(١) الأغانى ٣ــ١٦٤ .   (٢) فى الأغانى : دوار . قال : وهو صنم ، وفى س: دواو.
(٣) فى س : العزال ــ بالعين .   (٤) ارجع إلى الأغانى فى ذلك ٣ــ١٤٦ .
(٥) الأغانى ٣ ــ ١٤٦ .   (٦) فى الأغانى : وقال : من سجايا الغالية ، ولم يقل الرافضة.

لبعثت ، ولم يقل : لأَرْسلت ، وقال : يبعَج ولم يقل : يبْقر ، وقال : فى جوف منزله، ولم يقل : فى داره ، وأراد بذكر عُقَيْل وسَدُوس ما ذكر من اعتزائه إليهم .

***

دين بشار

وزعم الجاحظ[١] أن بشاراً كان يَدِين بالرَّجعة[٢] ، ويُكَفِّر جميعَ الأُمة ؛ وأنشد له أشعاراً صوّب بها رَأْيَ إبليس فى تقديم النار على الطين ، منها قوله[٣] :

الأرض مُظْلِمَةٌ والنارُ مُشْرِقةٌ ... والنارُ معبودةٌ مُذْ كانتِ النارُ

وقال داود بن رَزِين[٣] : أتينا بشاراً فأَذِنَ لنا والمائدةُ بين يديه ، فلم يَدْعُنَا إلى الطعام ، ثم جلسنا لحضر الظهر والعصر والمغرب فلم يصلّ ، ودعا بطَسْت فَبالَ بحضرتنا ، فقلنا له : أَنت أستاذُنا ، وقد رأينا منكَ أشياءَ أنكرناها . قال : ماهى؟ قلنا : دخلْنَا والطعامُ بين يديك فلم تَدْعُنَا ، قال : إنما أَذِنْتُ لتأْكلوا ، ولو لم نُرِدْ ذلك لم نَأْذن لكم . قلنا له : ودعوت بالطَّست ونحن حضور ، قال : أنا مكفوف ، وأنتم مأمورون بغضّ الأبصار دونى. قلنا : وحضرت الصلاة فلم تصلّ ! قال : الذى يقبلها تفارِيقَ يقبلها جملة ! هذا وهو القائل :

كيف يبكى لَمحْبَس فى طُلولِ ... من سيُفْضِى لحَبْسِ يومٍ طويلِ
إن فى البعثِ والحساب لشغلًا ... عن وقوفٍ برَسْمِ دَارٍ محيلِ

وقال :

ذكرتُ بها عيشًا فقلت لصاحبى ... كأَنْ لم يكُنْ ما كان حينَ يزولُ
وما حاجتى لو ساعد الدهرُ بالمُنَى ... كِمَابَ عليها لؤلؤٌ وشُكُولُ
بدا لىَ أن الدهرَ يَقْدَحُ فى الصَّفَا ... وأَنَّ بَقَائى إن حييت قَليلُ
فعِشْ خائفاً للموتِ أَو غيرَ خائفٍ ... على كل نفسٍ للحِمامِ دَليلُ
خليلك ما قدمت من عملِ التُّقَى ... وليس لأَيَّامِ المَنُون خَليلُ

---

(١) الأغانى ٣ ــ ١٤٥ (٢) الإيمان بالرجوع بعد الموت فى الدنيا .
(٣) الأغانى ٣ ــ ١٨٦ .

سجعه ورجزه

وكان بشَّارٌ حاضرَ الجواب ، سجَّاعا خطيبا، صاحبَ منثور ومُزْدَوَج، ورَجز[١] ورسائل مختارة على كثير من الكلام ، ودخل[٢] على عُقْبة بن مسلم[٣] بن قتيبة ، فأنشده مديحا وعنده عقبة بن رُؤْبة ، فأنشده أرجوزة ، ثم أَقبل على بشار فقال : هذا طِرازٌ لا تحسنه يا أَبا معاذ ! فقال : والله لأَنا أَرجز منك ومن أبيك ! ثم غدا على عقبة من الغَد فأنشده أرجوزته :

يا طَلَلَ الحىّ بذاتِ الصَّمْدِ[٤] ... باللهِ خَبِّرْ كيف كنتَ بعدى

يقول فيها :

صدّت بخدٍّ وجلَتْ عن خَدِّ ... ثم انثَنَتْ كالنَّفَسِ المُرْتَدِّ

وصاحبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ ... حملتُه فى رُقْعَةٍ من جِلْدِى

حتى اغتدى[٥] غيرَ فقيدِ الفَقْدِ ... وما درى ما رَغْبَتى من زُهْدِى

وهذا كقول الآخر :

يودّون لو خَاطُوا عليك جلودَهم ... ولا يَدْفع الموتَ النفوسُ الشحائحُ

وفيها يقول :

الحرّ يُلْحَى[٦] والعصا للِعَبْدِ ... وليس لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الردِّ

اسلَمْ وحُيِّيتَ أَبا المِلَدِّ ... مفتاحَ باب الحَدث المُنْسَدِّ

والبس طِرَازى غيرَ مُسْتَرَدِّ ... لِلّهِ أيامُك فى مَعَدِّ

وهى طويلة[٧] ، فأجزلَ صلته ، فلما سمع ابن رُؤْبة ما فيها من الغريب قال : أنا وأبى وجدّى فتحْنَا الغريبَ للناس ، وإنى لخليق أن أسدّه عليهم . فقال بشار : ارحمهم رحمك الله ! قال : تستخفّ بى ، وأنا شاعر ابن شاعر ؟ قال : إذاً

---

(١) عبارة الجاحظ : وسجع ورسائل (الأغانى ٣ـ١٤٥) . (٢) الأغانى ٣ـ١٧٤ ، وفيه الأرجوزة . (٣) فى الأغانى : بن سلم . (٤) الصمد : موضع فى ديار بنى يربوع . وماء للضباب . (٥) فى الأغانى : حتى مضى . (٦) لحيت فلانا : لمته .

(٧) ارجع إليها فى الأغانى ٣ـ١٧٥ .

أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرِّجْس وطهَّرهم تطهيراً ! فضحك كلّ مَنْ حضر .

بعض طرفه

ودخل[1] على المهدى وعنده خالُه يزيد بن منصور الحميرى فأنشده قصيدة ، فلما أتمَّها قال له يزيد : ما صناعتك ياشيخ ؟ قال: أثْقُبُ اللُّؤْلُؤَ . فقال له المهدى : أتهزَأُ بخَالِى ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، فما يكونُ جَوَابى لمن يَرَى شَيْخاً أعمى يُنْشِدُ شعراً فيسأله عن صِنَاعته ؟

وقال جَوَارى المهدى للمهدى : لو أَذِنْتَ لبشّار يدخـلُ إلينا يؤانسنا ويُنْشِدنا فهو محجوب البَصَرِ ، لا غيرة عليكَ منه . وأمره فدخل إليهن واستظرَفْنَه ، وقلن له: وددنا والله يا أبا معاذ أنك أبونا حتى لا نفارِقك ، قال : ونحن على دينِ كسرى ! فأمر المهدى ألّا يدخل عليهن .

وكأن المتنبى نظر إلى هذا فقال[2] :

يا أخْتَ معتَنِقِ الفوارسِ فى الوَغَى ... لَأَخُوكِ ثَمَّ أرقُّ منْكِ وأرْحَمُ
يَرْنُو إليكِ مع العفافِ وعِنْدَهُ ... أنَّ المجوسَ تُصِيبُ فيما تَحْكُمُ

[كلمات مأثورة]

فى المودة

قال على بن عبيدة الريحانى : المودَّةُ تعَاطُفُ القلوب ، وائتـلافُ الأرواح ، وحَنِين النفوس إلى مَثَابة السرائر ، والاستِرواحُ بالمستكنَّات فى الغرائز ، ووحشة الأشخاص عند تبَايُن اللقاء ، وظاهر السرور بكثرة التَّزوار ، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون اتفاقُ الخصَال .

فى العتاب

وقال: العِتابُ حدائقُ المتحابِّين، وثمارُ الأَوِدّاء، ودليل الظنّ، وحركات الشَّوق، وراحةُ الوَاجد ، ولسان المُشْفِق .

---

(١) الأغانى ٣ـ١٥٩ . (٢) ديوانه ٤ـ١٢٢ .

قال بعض الكتاب: العِتاب عَلامةُ الوَفاء، وحاصّة الجَفاء، وسِلاحُ الأكْفاء.

التجنى

وقال على بن عبيدة: التجنّى رسولُ القطيعة، وداعى القِلَى [1]، وسبب السلوّ، وأوّلُ التجافى، ومنزل التّهاجر.

الصدق

وقال: الصدقُ ربيعُ القلب، وزكاةُ الخَلْقِ، وثمرة المروءة، وشُعَاعُ الضمير، وعن جلالة القدر عبارته، وإلى اعتدالِ وزْن العقل يُنْسَب صاحبه، وشهادتُه قاطعةٌ فى الاختلاف، وإليه ترجع الحكومات.

الكذب

وقال: الكذبُ شِعارُ الخيانة، وتحريفُ العلم، وخواطر الزّور، وتسويلُ أضغاث النفس، واعوجاجُ التركيب، واختلافُ البنية، وعن خمول الذكر مايكون صاحبه.

وعلى بن عبيدة كثيرُ الإغارة عَلَى ما كان غَيْرُه قد استَثَارَه.

فقر فى الكذب لغير واحد

بعض الفلاسفة ـ الكذَّاب والميّتُ سواء؛ لأنّ فضيلة الحىِّ النُّطق، فإذا لم يُوثَق بكلامه فقد بطلت حياته.

الحسن بن سهل ـ الكذّاب لِصّ؛ لأنّ اللصَّ يسرقُ مالك، والكذّاب يسرقُ عقلك، ولا تأمن مَنْ كذب لك أَنْ يَكْذِب عليك، ومن اغتاب غيرَك عندك فلا تَأْمَنْ أن يغتابَك عند غيرك. قال إبراهيم بن العباس فى هذا النحو [2]:

إنى متى أحقِد بحِقْ ... دك لا أضُرُّ به سِوَاكا
ومتى أطعتُك فى أخـ ... ـيك أطعتُ فيك غداً أخاكا
حتّى أُرَى متقسّما ... يَوْمِى لذا وغداً لِذَاكا

حَسْبُ الكاذب بعقله سقما وبقلبه خصما.

---

(١) البغض. (٢) ديوانه ١٦٢.

ابن المعتز ـ علامةُ الكذاب جَوْدُه باليمين لغير مستحلف ، وقال :

وفى اليمين على ما أَنت فاعلهُ ما دلّ أنك فى الميعادِ مُتَّهَمُ

وقال : اجتنِبْ مصاحبةَ الكذّاب ، فإن اضطررت إليه فلا تصدّقه ، ولاتُعْلمه أنك تكذّبه ، فينتقل عن وُدّه ، ولا ينتقل عن طبعه . يعترى حديثُ الكذاب من الاختلاف مالا يعترى الجَبَان من الارتعاد عند الحَرْب . لا تَصِحّ للكذّاب رُؤْيا ؛ لأنه يُخْبر عن نفسه فى اليقظة بما لم يرَ ، فتريه فى النوم مالا يكون . وأنشد:

لا يكذب المرء إلا مِنْ مهانتِهِ أوعادة السوء أو مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ

ولأهل العصر : فلانٌ مُنْغَمِس فى عيبه ، يكذب لذيله على جَيْبِـه ، يقول بَهْتاً[1] وزُوراً بَحْتاً ، قد ملأ قلبه رَيْنا ، وقوله مَيْنا[2] ؛ يدين بالكذب مَذْهبا ، ويستثير الزّور مركباً . أَقاويلُ يتمشّى الزُّورُ فى مناكبِها ، ويَبْرُزُ البهتانُ فى مذاهبِها .

وقال أعرابى لابنه وسمعه يَكْذِب : يابنى ، عجبتُ من الكذّاب المُشِيد بكَذِبه ، وإنما يدلُّ على عَيْبِـه ، ويتعرّضُ للعقاب من رَبّه ؛ فالآثامُ له عادة ، والأَخبارُ عنه متضادّة، إن قال حقا لم يصدَّق ، وإن أراد خيراً لم يوفَّق، فهو الجانى على نفسه بفعاله، والدّالُّ على فضيحته بمَقَالِه . فما صحَّ من صدقه نُسِب إلى غيره ، وما صحّ من كذب غَيْرِه نُسِب إليه ، فهو كما قال الشاعر :

حَسْبُ الكذوب من المها نة بَعْضُ ما يحكى عليهِ

ما إنْ سمعت بكذبةٍ من غَيْرِه نُسِبَتْ إليـهِ

[ثواب الشكر]

كتب الحسن بن سهل إلى المأمون ـ بعد أن زُفّت إليه بوران وتوهّم القوادُ أن هذا التزويجَ قد أَنْسَى الحسَن حالَه قبل ذلك : قد تولّى أميرُ المؤمنين من تَعْظِيم عبده

---

(١) بهته : قال عليه ما لم يفعل .

(٢) الرين : الدنس ، ورانت النفس : خبثت . والمين : الكذب .

فى قبول أَمَتِه شيئاً لا يتّسعُ له الشكرُ عنه إلّا بمعونة أَمِيرِ المؤمنين ، أدام الله عزّه فى إخراج توقيعه بتزيين حَالِى فى العامَّة والخاصة ، بما يراه فيه صواباً إن شاء الله .

فخرج التوقيع : الحسنُ بن سهل زِمامٌ على ما جمع أُمور الخاصة ، وكَنَفَ أسبابَ العامة ، وأحاط بالنفقات ، ونفذ بالولاة ، وإليه الخراجُ والبريدُ واختيارُ القضاة ، جزاءً بمعرفته بالحالِ التى قَرَّبَتْهُ منا ، وإثابةً لشكره إيانا على ما أولينا .

[خطب النكاح]

قال يحيى بن أكثم : أراد المأمون أن يزوّج ابنته من الرضا[1] فقال : يا يحيى ؛ تكلم ، فأجلَلْتُه أن أقولَ: أنكحت ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، أَنت الحاكم الأكبر، والإمام الأعظم، وأَنْتَ أَوْلى بالكلام، فقال: الحمدُ لله الذى تصاغرت الأمورُ بمشيئته، ولا إلهَ إلا هو إقراراً بربوبيَّته ، وصلّى الله على محمد عند ذكره .

أمّا بعد ، فإنّ اللهَ قد جعل النكاح دِينا ، ورَضِيَه حُكْماً ، وأنزله وَحْياً ؛ ليكونَ سببَ المناسبة ؛ ألَا وإنى قد زوّجت ابنة المأمون من علىّ بن موسى ، وأمهرتها أربعمائة درهم ، اقتداءً بسنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاءً إلى ما دَرَج إليه السّلفُ ، والحمد لله ربّ العالمين .

ما كان يستحب من الخاطب والمخطوب إليه

قال الأصمعى : كانوا يستحبّون من الخاطب إلى الرجل حُرمته الإطالَة ؛ لتدلّ على الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإيجاز ، ليدلّ على الإجابة .

وخطب رجل من بنى أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته ، فأطال ؛ فقال عمر : الحمدُ لله ذى الكبرياء ، وصلّى الله على محمد خاتم الأنبياء ؛ أمّا بعد فإن الرغبةَ منك دَعَتْك إلينا ، والرغبة منا فيك أجابَتْ ، وقد زوّجناك على كتابِ الله : إمساكٌ بمعروف ، أو تسريحٌ بإحسان .

---

(١) على بن موسى .

وخطب رجل إلى قوم فأتى بمن يخطُب له ، فاستفتح بحمدِ الله وأطال وصلّى على النبيّ عليه السلام وأَطال ، ثم ذكر البدء وخَلْقَ السموات والأرض ، واقتصّ ذِكْرَ القرون حتى ضَجر مَنْ حضر ، والتفت إلى الخاطب ، فقال : ما اسمُكَ أعزّكَ الله ؟ فقال : والله قد أُنسيت اسمى من طول خطبتك ، وهى طالقٌ إنْ تزوجتُها بهذه الخطبة؛ فضحك القوم ، وعقدوا فى مجلس آخر .

[الكتب والأقلام والخط]

الكتاب والقلم

وقال ابن المعتزّ: الكتاب وَالِجُ الأبواب ، جرىءٌ على الحجّاب، مُفْهِم لا يَفْهَمُ، وناطقٌ لا يتكلّم ، به يشخص المشتاقُ إذا أَقعده الفراق، والقلم مجهِّزٌ لجيوش الكلام، يخدم الإرادة ، ولا يملّ الاستزادة ، ويسكتُ واقفا ، ويَنْطِقُ سائراً ، على أرض بياضها مُظْلِم ، وسوادُها مُضِىء ، وكأنه يقبِّل بِساط سلطان، أو يفتح نُوَّار بُسْتان.

وهذا كقوله فى القاسم بن عبيد الله ، قال الصولى لما عُرض القاسم بن عبيد الله ليخلف أباه ـ قال ابن المعتزّ :

قلمٌ ما أَراهُ أَم فلك يَجْـ	ـرى بما شاءَ قاسِمٌ ويسيرُ
خاشعٌ فى يدَيْه يَلْثِمُ قِرْطا	ساً كما قبَّل البساطَ شكورُ
ولَطِيفُ المعنى جَليلٌ نَحِيفٌ	وكبير الأفعال وهْوَ صَغيرُ
كم منايا وكم عطايا وكم حَتْـ	ـفٍ وعيشٍ تَضُمُّ تلك السُّطورُ
نقشت بالدُّجاَ نهارا فما أَدْ	رى أخطٌّ فيهنَّ أم تَصْوير
هكذا مَنْ أَبوه مِثْلُ عُبَيْد الْـ	ـلَّه ينمى إلى العُلَا ويَصِير
عَظُمَتْ مِنَّةُ الإلهِ عليْهِ	فهناك الوزيرُ وهْوَ الوَزِيرُ

صورة الخط

وقال بعض البلغاء : صورةُ الخطّ فى الأبصار سواد ، وفى البصائر بَيَاض .

وقال أبو الطيب المتنبى (١) :

---

(١) ديوانه ٢ـ١٥٧ .

دَعانِى إليكَ العِلمُ والحِلمُ والحِجَى ... وهذا الكلامُ النَّظْمُ والنّائلُ النّثْرُ
وما قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكادُ بُيوتهُ ... إذا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ مِنْ نورِهَا الحِبْرُ

وقال ابن المعتز فى عبيد الله بن سليمان بن وهب[١] :

عليمٌ بأعْقَاب الأمور كأنهُ ... بمختلسات الظّن يسمعُ أو يرى
إذا أخذ القرطاس خِلْتَ يمينهُ ... يُفتِّح نَوْرًا أو ينظِّم جوهرا[٢]

بين صاحب سيف وصاحب قلم

فاخرَ[٣] صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلم ، فقال صاحب القلم : أنا أقتلُ بلا غَرَر ، وأنت تقتلُ على خَطَر . فقال صاحب السيف: القلمُ خادِمُ السيف ، إن تمَّ مرادُه[٤] ، وإلّا فإلى السيف مَعاده ؛ أما سمعت قول أبى تمام[٥] :

السيفُ أصْدَقُ إنباءً من الكتُبِ ... فى حَدِّه الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ
بِيضُ الصفائحِ لا سُودُ الصَّحائفِ فى ... مُتونِهنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وقال أبو الطيب[٦] :

مَا زِلْتُ أُضْحِكُ إبْلِى كُلَّمَا نظرَتْ ... إلى مَنِ اخْتَضَبَتْ أخْفَافُهَا بدَمِ
أُسيرُهَا بَيْنَ أصنامٍ أُشاهِدُهَا ... ولا أُشاهِدُ فيها عِفّةَ الصَّنَمِ
حتى رجَعْتُ وأقلامِى قوائِلُ لى ... المجدُ للسَّيْف ليْسَ المجدُ لِلقلَمِ
اكْتُبْ بِنَا أبداً بعدَ الكِتَابِ به ... فإنَّما نَحْنُ للأَسيافِ كالخدَمِ

هذا مقلوبٌ من قول على بن العباس النوبختى ، وقد رواه أبو القاسم الزجاجى لابن الرومى ، وإنما وهم لاتّفاق الاسمين[٧] :

إن يَخْدُمِ القلمُ السيفَ الّذى خضعَتْ ... له الرقابُ ودانَتْ خوفَه الأممُ
فالموتُ ـ والموتُ لا شىءٌ يُغالبهُ ... ما زال يَتْبَعُ ما يَجْرِى به القلمُ

---

(١) ديوانه ١١٦ . (٢) فى الديوان : تفتح نورا أو تنظم .
(٣) ديوان المعانى ٢ـ٧٧ . (٤) فى ديوان المعانى : إن بلغ مراده . (٥) ديوانه ٧ .
(٦) ديوانه ٤ـ١٥٩ . (٧) ديوان ابن الرومى ٣٧٢ ، ديوان المعانى ٧٧ .

بذا[١] قَضَى اللهُ للأقلام مُذْ بُرِيت ... أَنّ السيوفَ لها — مُذْ أرهِفت — خَدَمُ

وقال ابن الرومى[٢] :

لَعَمْرُكَ ما السَّيْفُ سَيْف الكَمِىِّ ... بأخْوَفَ مِنْ قَلَمِ الْكاتِبِ

لَهُ شاهدٌ إنْ تأمَّلْتَهُ ... ظَهَرْتَ على سِرِّهِ الْغائِبِ

أداةُ المنِيَّةِ فى جانبيه ... فمِنْ مِثْله رَهْبَةُ الرَّاهِبِ

سِنَانُ المنيةِ فى جانِبٍ ... وحَدٌّ[٣] المنِيَّةِ فى جانِبِ

ألم تَرَ فى صَدْرِهِ كالسِّنَانِ ... وفى الرِّدْفِ كالمُرْهَفِ الْقَاضِبِ[٤]

وقال أبو الفتح البستى :

إذا أقسَم الأبطالُ يوماً بسيفهم ... وعدّوه مما يُكْسِبُ المجدَ والكرمْ

كفى قَلَمُ الكتّاب مَجْدًا ورفعةً ... مدى الدَّهرِ أنّ الله أقْسَم بالقَلَمْ

وقد قيل : صريرُ الأقلام ، أشدّ من صليل الحُسام .

قال الصولى: أنشدنى طلحة بن عبيد الله:

وإذا أمرَّ على المَهَارِق كَفَّهُ ... بأناملٍ يَحْمِلْنَ شَخْتا مُرْهَفا[٥]

متقاصراً مُتَطاوِلا ومفصّلا ... وموصّلا ومشتّتاً ومُؤَلّفا

ترك العُدَاة رَوَاجفاً أحشاؤُهَا ... وقِلَاعَها قَلَعاً[٦] هنالِكَ رُجَّفا

كالحيةِ الرَّقْشَاء إلّا أنه ... يستنزل الأَرْوَى[٧] إليه تلطُّفا

يرمى به قلماً يمجُّ لُعابه ... فيعود سيفا صَارِماً ومثقّفا

وقال محمود بن أحمد الأصبهانى :

---

(١) فى الديوان : كذا . (٢) ديوانه ١ — ١٧٤ ، ديوان المعانى ٧٨ .

(٣) فى الديوان : وسيف . (٤) القاضب : القاطع . (٥) المهرق : الصحيفة البيضاء ، والجمع مهارق . الشخت : الدقيق الضامر لا هزالا . (٦) القلعة — بالتحريك : صخرة تنقلع من الجبل وجمعها قلع بكسر القاف . أو هى قلع بفتحتين وهى السحب .

(٧) الأروية :أنثى الوعول . والكثير أروى .

أخرسُ يُنبيك بإطْراقِهِ ... عن كل ما شئتَ مِنَ الأمرِ
يُذْرِي[1] على قِرْطاسِهِ دَمْعَةً ... يُبْدِي بها السرَّ وما يَدْرِي
كعاشق أخْفَى هواه وقد ... نمَّت عليه عَبْرَةٌ تجْرِي
تُبْصِرُه في كلِّ أحوالِهِ ... عُرْيَانَ يَكْسُو الناسَ أو يُعْرِي
يُرى أسيراً في دوَاةٍ وقد ... أطْلَق أقواماً من الأسْرِ
أخرق لو لم تَبْرِه لم يَكُنْ ... يرْشُقُ أقواماً وما يَبْرِي
كالبَحْرِ إذْ يجرى وكالليل إذْ ... يَغْشَى ، وكالصارم إذْ يَفْرِي

وقال أحمد بن جِرَار[2] :

أَهيفُ ممشوقٌ بتحريكهِ ... يحلّ عقدَ السّرِّ إعلانُ
له لسانٌ مُرْهَفٌ حدُّهُ ... من رِيقَة الكُرْسُف ريَّان[3]
ترى بسيطَ الفِكرِ في نَظْمِهِ ... شَخْصاً له حدٌّ وجُثْمَان
كأنما يَسْحَبُ في إثْرِهِ ... ذَيْلًا من الحِكْمة سَحْبانُ
لولاه ما قام مَنَارُ الهدى ... ولا سَمَا لِلمُلْكِ ديوانُ

ومن أجود ما قيل في صفة القلم قول أبي تمام لمحمد بن عبد الملك[4] الزيات :

أجود ما قيل في وصف القلم

لكَ القلمُ الأعْلَى الّذِى بِشَبَاتِهِ[5] ... تُصابُ من الأمْرِ الكُلَى والمفاصِلُ
له رِيقةٌ طَلٌّ ولكِنَّ وَقْعَهَا ... بآثارِهِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ وَابِلُ
لُعابُ الأفَاعِي القَاتِلاتِ لُعَابُهُ ... وَأرْىُ[6] الجَنَى اشْتَارَتْهُ أيْدٍ عَوَاسِلُ
له[7] الخلوات اللاء لولا نَجِيُّها ... لمـا اختلفت[8] لِلْمُلك تِلْكَ المَحَافل

(1) أذرت العين دمعها : صبته . (2) هكذا في كل الأصول، والضبط من س .
(3) في ط : ريقه، والريق : الرضاب والريقة أخص منه ، الكرسف : القطن .
(4) ديوانه ٢٥٧ ، ديوان المعاني ٧٨ . (5) الشباة : حد كل شيء .
(6) الأرى : العسل . (7) في الديوان : لك . (8) في الديوان ، س : احتفلت .

وقال الأمير تميم بن المعز :

وذى عَجب من طول صَبْرِى على الذى ... أُلَاقِى من الأَرْزَاءِ وهو جليلُ
يقولون: ماتَشْكُو؟ فقلت: متى شكا ... شَبَا السيفِ عَضْبُ الشفرتَيْن صَقيلُ
وإنّ امرأ يشكُو إلى غـير نافع ... ويَسْخُو بما فى نفسهِ لجَهُولُ
عذابىَ أَنْ أشكو إلى الناس أَننى ... عليلٌ ومَنْ أشكو إليـه عَلِيلُ
ويمنعنى الشكوى إلى الله علمُـهُ ... بجُمْلَةِ ما أَلْقاه قَبْلَ أقُول
سأسكتُ صَبْراً واحتساباً فإننى ... أَرى الصَّبرَ سيفاً ليس فيه فُلول

وقال :

يادَهْرُ ما أقساكَ من متلوّن ... فى حالتيك وما أقلّك مُنْصِفاَ
أتروح للنِّكس[1] الجهول مُمَهّدا ... وعلى اللبيب الحرِّ سيفاً مُرْهَفا
وإذا صفوت كَدَرت،شيمةَ باخلٍ، ... وإذا وفيت نقضت أسبابَ الوَفاَ
لا أرتضيك وإن كرمت لأننى ... أدْرِى بأَنك لا تدومُ على الصّفاَ
زمنٌ إذا أعطى استردّ عَطاَءهُ ... وإذا استقام بَدَا له فتحرّفاَ
ما قام خيرُكَ يا زمانُ بشرّهِ ... أوْلَى بنا ما قلَّ منك وما كَفَى

[الصدق فى النصيحة]

وكان أحمدُ بنُ يوسف منصرفاً عن غسَّان بن عباد ، وجرَتْ بينهما هَنَات بحَضْرَةِ المأمون ، فقال يوماً بحضرة خاصَّة أصحابه : أخبرونى عن غسّان بن عباد ؛ فإنى أُريده لأمرٍ جسيم ؛ وكان قد عزَم على تقليده السِّند مكانَ بِشْرِ بن داود ؛ فتكلّم كلُّ فريقٍ بما عنده فى مَدْحِه ؛ فقال أحمد بن يوسف : هو يا أميرَ المؤمنين رجلٌ محاسِنُه أكثرُ من مساويه ، لا يتطرّفُ به أمرٌ إلاّ تقدَّم فيه، ومهما تُخوّف عليه فإنه لن يَأْتِى أمراً يعْتَذر منه ؛ لأَنه قسّم أيامه بين أفعال الفَضْل؛ فجعل لكلّ

---

(١) النكس : المقصر عن غاية الكرم .

خُلُق نَوبة ، إذا نظرتَ في أمْرِه لم تَدْرِ أي حالاته أعجب ؛ أمَا هداه إليه عَقْلُه أمْ ما اكتسبه بأدبه ؟

فقال له المأمون : لقد مدحته على سوءِ رَأْيِك فيه ! قال : لأني في أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كَفَى ثمنا لِمَا أسْدَيْت أني ‌ ‌ نصحْتُك في الصديق وفي عِدَائي [(١)]

وإني حين تَنْدُبُني [(٢)] لأمرٍ ‌ ‌ يكون هَواكَ أغْلَبَ مِنْ هَوائي [(٣)]

قال الصولي : وقد رُوِى هـذا لغير أحمد ، ولعلّ أحمد استعاره ؛ فأَعجب المأمون ذلك منه ، وشكره غسان بن عبّاد له ، وتأكّدت الحالُ بينهما .

أحمد بن يوسف

وكان أحمدُ بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى عِجْل بن لجيم عَالِي الطبقة في البلاغة ، ولم يكن في زمانه أكْتَب منه ، وله شعرٌ جيد مرتفع عن أشعار الكتاب . ووزر للمأمون بعد أحمد بن أبي خالد . وكان أول [(٤)] ما ارتفع به أحمد أن المخلوعَ محمد ابن الرشيد لما قُتِل أمر طاهرُ بنُ الحسين الكتّاب أنْ يكتبوا إلى المأمون ؛ فأطالوا، فقال طاهر : أريد أخْصَر من هذا ؛ فوُصِفَ له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة ، فأحضره لذلك ، فكتب : أمّا بعد فإنْ كان المخلوعُ قسيم أمير المؤمنين في النَّسَب واللُّحْمَة ، فقد فرّق بينهما حكمُ الكتاب في الولاية والحرمة [(٥)] ، بمفارقته عِصمة الدين ، وخروجه عن الأَمْرِ الجامع للمسلمين ، لقول الله عزّ وجل فيما اقتصّ [علينا] [(٦)] من نبأ نوح وابنه : (إنه ليس مِنَ أَهْلِكَ إنه عملٌ غيرُ صالح) ، ولا طاعة لأحدٍ في معصيةِ الله ، ولا قطيعةَ ما كانت القطيعةُ في ذاتِ الله ؛ وكتابي إلى أميرِ المؤمنين وقد أنجز اللهُ له ما كان ينتظرُ من سابق وَعْدِه ، والحمدُ لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقّه ، الكائد له فيمن خَتَر [(٧)] عَهْدَه ، ونقَضَ عَقْدَه ، حتى ردّ به الأُلْفَةَ بعدفُرْقتها،

---

(١) في س : وفي عداي . ‌ ‌ (٢) ندبه إلى الأمر : دعاه . ‌ ‌ (٣) في س: من هواي .
(٤) الأدباء ٥ـ١٦٧ . ‌ ‌ (٥) في الأدباء : والحرمة . ‌ ‌ (٦) من س .
(٧) الختر : الغدر .

وجَمع بهِ الأمةَ بعد شتاتِها ، وأضاء به أعْلام الدين بعد دُرُوسها ؛ وقد بعثتُ إليك بالدنيا وهى رأسُ المخلوع ، وبالآخرة وهى البُرْدَة[1] والقضيب ؛ والحمدُ لله الآخذِ لأمير المؤمنين حقَّه ، الراجع إليه تُراثَ آبائه الراشدين .

من كلامه

وكان أحمد بن أبى خالد كثيراً ما يَصِفُ أحمد للمأمون ويحثُّه عليه ، فأمره المأمونُ بإحضاره ، فلما وقف بين يديه قال : الحمدُ لله يا أميرَ المؤمنين الذى استخصَّك فيما استحفظَكَ من دينه ، وقلَّدَك من خلافته ، بسوابغ نِعَمه ، وفضائل قِسَمه ، وعرَّفَك من تيسير كلِّ عسيرٍ حاوَلْتَ عليه متمرِّد ، حتى ذلَّ لك ما جمله تكملة لما حَبَاك به من مواردِ أمورِه بنُجْح مصادرها ، حَمْدًا نامياً زائدا لا يَنْقَطِعُ أُولاه ، ولا يَنْقَضِى أُخْرَاه ، وأنا أسألُ الله ياأميرَ المؤمنين من إتمام بلائه لديك ، ومِنَنِه عليك ، وكفايَتِه ما ولاَّك واسترعاك ، وتحصين ما حازَ لك ، والتمكين من بلادِ عدوِّك ، ما يمنعُ به بَيْضَةَ[2] الإسلام ، ويُعِزُّ بك أَهْلَه ، ويُبِيح بك حِمَى الشِّرْكِ ويجمعُ لك مُتبايِن الأُلْفَة ، ويُنْجِز بكَ فى أهل العِنَاد والضلالة وَعْدَه ؛ إنه سميع الدعاء ، فعَّال لما يشاء .

من كتابته

فقال المأمون : أحسنتَ ، بُورك عليك ناطقا وساكتا ، ثم قال بعد أَنْ بَلاه واختبره : يا عجباً لأحمد بن يوسف ! كيف استطاع أَن يَكْتُم نَفْسَه !

وكتب إلى المأمون يستَجْدِى لزوّار على بابه[3] : إن دَاعِى نَدَاك ، ومُنادِى جَدْوَاك جَمَعا ببابك الوُفُود ، يرجون نائلَك العَتيد[4] ، فمنهم من يَمُتُّ بحُرْمَة ، ومنهم من يُدْلِى بسالف خِدْمَة ، وقد أَجْحَفَ بهم المقام ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يَنْعَشهم بِسَيْبِه ، ويحقق ظَنَّهم بطَوْلِه[5] ، فعل .

فوقَّعَ المأمونُ فى عرض كتابه :

---

(١) فى س: البرد . (٢) البيضة : حوزة كل شىء . (٣) الأدباء ٥ـ١٦٩

(٤) فى الأدباء : المعهود . (٥) السيب : العطاء . والطول : الفضل .

الخيرُ متَّبَع ، وأموالُ الملوك مَظَانّ لطلاَّبِ الحاجات ؛ فاكتُبْ أسماءَهم ، وبيِّن مرتبةَ كلٍّ واحد منهم ، ليصيرَ إليه على قَدْرِ استحقاقه ؛ ولاتكدّرنَّ معروفنا بالمَطْلِ (١) والحجاب؛ فقد قال الشاعر :

فإنّك لَنْ ترَى طَرْداً لحُرٍّ ... كإلصاقٍ بِهِ طرَفَ الهوَانِ

ولم تُجْلَبْ مودَّةُ ذِى وَفَاءٍ ... بمثل الوُدِّ أو بَذْلِ اللِّسَانِ

قال أحمد بن يوسف : أمرنى المأمون أن أكتبَ فى زيادة قناديل شهر رمضان ؛ فأَعْيَا علىّ ، ولم أَجِدْ مثالا أحْتَذِى عليه ؛ فبتّ مغموماً ، فأتانى آتٍ فى النوم فقال : اكتب : فإنَّ فيها إضاءة للمتهجِّدين ، ونفياً لمكان الرِّيب ، وأُنْسًا للسابلة (٢) ، وتنزيهاً لبيوتِ الله من وَحْشَةِ الظّلم . فأخبرت بذلك المأمون فاستظرفه ، وأمر أن تمضى الكُتُبُ عليه .

وأهدى إلى المأمون فى يوم نوروز طبقَ جِزْعٍ عليه ميل من ذَهب ، فيه اسمه منقوش ، وكتب إليه :

هذا يوم جَرَتْ فيه العادةُ ، بإلطاف العبيد السادة ، وقد بعثتُ إلى أمير المؤمنين طبق جزع فيه ميل .

فلما قرأ المأمون الرقعة قال : أجاءت هديةُ أحمد بن يوسف ؟ قالوا : نعم . قال : هى فى دارى أمْ دارى فيها . فلما رفع المنديل استظرف الهدّية واسترجح مُهْدِيها .

وأهدى إلى إبراهيم بن المهدى هدية وكتب إليه: الثقةُ بك قد سهّلت السبيلَ إليك ، فأَهْدَيْتُ هديةَ من لا يَحْتَشِم إلى من لا يَغْتَنِم .

وكتب إلى بنى سعيد بن سلم : لولا أَنَّ الله عزّ وجل ختم نبوّته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكتبَه بالقرآن ، لنزَّل فيكم نبيَّ نِقْمَة ، وأنزل فيكم قرآنَ غَدْر ؛ وما

---

(١) المطل : التسويف ، وفى س ، ق : ولا تكدون .

(٢) السابلة من الطرق : المسلوكة ، والقوم المختلفة عليها .

عَسيت أن أقولَ فى قومٍ محاسنُهم مساوى السُّفْل، ومساويهم فَضَائحُ الأمم، وألسنتُهم معقولة بالعِىِّ ، وأَيديهم معقودة بالبُخْل ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طَالتْ حياتُهُمُ   ولا تَبِيد مَخازِيهم وإِنْ بَادُوا

وغنَّى مُغَنٍّ بحضرة أحمد بن يوسف ولم يكن مُحْسنا ، فلم يُنْصِتوا له ، وتحدَّثوا مع غِنائه ، فغضب المغنّى ؛ فقال أحمد بن يوسف : أنت عافاك الله تحمِّل الأسماع ثقلا ، والقلوب مَلَالا ، والأَعْيُن قَبَاحة ، والأنف نَتَانة ، ثم تقولُ : اسمعوا منى ، وأنصِتوا إلىّ ! هذا إذا كانت أفهامُنا مُقْفلة ، وآذاننا صَدِئة ، فإما رضيت بالعَفْو منا ، وإلا قمت مذموماً عنا .

ألفاظ لأهل العصر فى ذم المغنين

يترنَّم فيُتْعِبُ ولا يُطْرِب . إذا غنَّى عَنَّى ، وإذا أدَّى آذى . يميت الطَّرَب ، ويحيي الكُرَب . ضَرْبُه يُوجِب ضَرْبَه . من عجائب غِنائه أنه يُورِد الشتاء فى الصيف . ما رؤى قطّ فى دارٍ مرتين . وحضر جحظة مجلساً فيه علىّ بن بسام ، فتفرّق القومُ المخادّ ، فقال جحظة : فمالى لم تعطونى مخدَّة ؟ فقال على بن بسام : غنِّ فالمخادّ كلها إليك تصير ! وفيه يقول ابن بسام :

يا مَنْ هَجَوْنَاه فغَنّانا   أنت ، وبيتِ الله ، أَهجانا

سِيَّان إن غنّى لنا جحظةٌ   أو مرَّ مجنون فزنَّانَا[1]

وكان خالد يُستَبرد ، فبعث بعضُ الظرفاء غلامَه يشترى له خمسة أرطال ثلج ، فأتاه بخالد وقال : يا مولاى ، طلبت خمسة أرطال ، وهذا حِمْل !

وتغنّى بحَضْرَة محموم ؛ فقال : ويحك ! دَعْنا نعرق !

وقال بعض المحدثين فى قريس المغنى :

---

(١) فى ط : فعنانا .

ألا فاسقنى[١] قدحاً وافراً ... يُعِينُ على البَلْغَمِ الهائِجِ
أكلنا قَرِيسا[٢] وغَنّى قريس ... فنحنُ على شرف الفَالِجِ

ولقى أبو العباس المبرد برد الخيار المغنّى فى يوم ثَلْج بالجسر ، فقال : أنت المبرّد وأنا برد الخيار ، واليوم كما ترى ، اعبُرْ بنا لا يهلك الناس بالفالج بسببنا .

وقال ابن عباد الصاحب فى مغنّ يعرف بابن عذاب :

أقول قولا بلا احتشام ... يعقله كلُّ مَنْ يَعِيهِ
ابن عذَاب إذا تغنّى ... فإننى منه فى أبيـهِ

* * *

من شعر أحمد ابن يوسف

ومن شعر أحمد بن يوسف :

ضَميرُ وَجْـدٍ بقَلْب صَبٍّ ... تَرْجَمَ دَمْعِى بهِ فَشَاعَا
فصار دَمْعى لِسانُ وَجْدى ... ضَيّع سرِّى بهِ فَذاعَا
لولا دموعى وفَرْط حُبِّى ... ما كان سِرِّى كذا مُضَاعَا

وقال :

وعاملٍ بالفجورِ يَأْمُر بالْـ ... ـبِرِّ كهادٍ يخوضُ فى الظُّـلَمِ
أو كطبيب قد شفَّه سَقَم ... وهْو يُدَاوِى من ذلك السَّقَمِ
يا واعظَ النـاسِ غير متَّعظٍ ... ثَوْبَكَ طَهِّرْ أوْ لا فلا تَلُمِ

وقال :

إذا ما التقينا والعيونُ نواظرٌ ... فألْسُنُنا حَرْبٌ وأبصارنا سَلْمُ

وقال فى الحزن[٣] :

كثيرُ هموم القلبِ حتى كأنما ... عليه سرورُ العالَمِين حَرَامُ

---

(١) فى س : اسقنى . (٢) سمك قريس : طبخ وعمل فيه صباغ وترك حتى جمد ، والقريس : البرد الشديد ، وأكثف الصقيع . (٣) الأدباء ٥ـ١٨٢ .

إذا قِيلَ ما أَضْناكَ! أَسْبَلَ دَمْعَهُ   فأخبر ما يلقى وليس كلامُ[١]

وقال :

كريمٌ له نفسٌ يلينُ بِلينِها   ليردعَ عَنْ سلطانه سُنَنَ الكِبْرِ
إذا ذكَّرَتْه نفسه عظمَ قَدْرِها   دعاه إلى تسكينها عظم القَدْرِ

من توقيعاته

ووقَّع فى كتابِ رجل يحثُّه على استتمام صنائعه عنده : مستتمُّ الصنيعةِ من عَدَّلَ زَيْغَهَا[٢] ، وأقام أَوَدها ، صيانةً لمعروفه ، ونصرةً لرأيه ؛ فإن أَول المعروف مستخفٌ ، وآخره مستَثْقَل ، يكاد أَول الصنيعة يكون للهوى ، وآخرها للرَّأْى ، ولذلك قيل : رَبُّ الصنيعة أشد من ابتدائها[٣] .

أحمد بن يوسف وأبو العتاهية

وكان أبو العتاهية له صديقٌ قبل ارتفاع حالِه فأَحسّ منه فى حين وزارته تغيّرا ، فكتب إليه :

أمنت إذ استغنيت من سَوْرةِ الفقْرِ   فصرت ترَى الإخوانَ بالنَّظَرِ الشَّزْرِ
أبا جعفر إنَّ الشريفَ يُهينهُ   تَتَايُهه دونَ الأخلّاءِ بالوَفْرِ[٤]
فإنْ تِهتَ يوماً بالذى نِلْتَ من غنى   فإن غنائى بالتجمُّل والصَّبْرِ
ألم تر أن الفقرَ يُرْجَى له الغنى   وأنّ الغِنَى يُخْشَى عليه من الفقر

وروى أبو بكر يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ قال : حجب أحمدُ بن يوسف أبا العتاهية ، ثم عاد فقيل : هو نائم فكتب إليه :

لئن عدتُ بعد اليوم إنى لظالمٌ   سأَصْرِفُ وجهى حيث تُبْغَى المكارِمُ
متى يظفر الغادى إليكَ بحاجةٍ   ونِصْفُك محجوب ونِصْفُك نائمُ

وقال :

يا أبو جعفر أخى وخَليلى   فى عداد الموتى وفى ساكنى الدنـ

---

(١) رواية الأدباء : يبوح بما يخفى وليس كلام .   (٢) فى س : زيفها .
(٣) الرب : التعهد بالإصلاح .   (٤) الوفر : الغنى .

مَيِّتٌ مات وهْو فى ورق العَيْـ　　ـشِ مقيما فى ظِلِّ عَيْشٍ ظليلِ
لم يمت مِيتَةَ الوَفاةِ ولَـكِنْ　　مات عن كلِّ صالحٍ وجَميـلِ

مخاصمة ابن يوسف رجلا بين يدى المأمون

وخاصم أحمدُ بنُ يوسف رجلا بين يدى المأمون وكان صَغَا(٢) المأمون إليـه على أحمد ففطن لذلك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنه يَسْتَمْلِى من عينيك ما يَلْقَانِى به ، ويستَبِينُ بحركته ما تُجِنّه له ، وبلوغُ إرادتك أَحبُّ إلىّ من بلوغ أملى ، ولذةُ إجابتك أَمتَعُ عندى من لذَّةِ ظفرى ؛ وقد تركتُ له ما نازعنى فيـه ، وسلَّمتُ له ماطالبنى به . فاستحسن ذلك المأمون .

ومن كلامه

ومن كلام أحمد بن يوسف : مجالسةُ البُغَضاء تُثيرُ الهمومَ ، وتَجْلِبُ الغموم ، وتُؤلم القَلْبَ ، وتقدح فى النّشاط ، وتَطْوِى الانبساط .

ألفاظ لأهل العصر فى صفات الثقلاء

فلان ثقيـل الطَّلْعةِ ، بَغيضُ التفصيل والجُمْلَةِ ، باردُ السكونِ والحرَكَةِ ؛ قد خرج عن حدِّ الاعتدال ، وذهب مِنْ ذاتِ اليمين إلى ذات الشّمال . يحكى ثقل الحديث المُعَاد ، ويَمْشِى فى القلوب والأكباد ، ولا أَدْرِى كيف لم تحمل الأمانةَ أرضٌ حمَلَتْهُ ؟ وكيف احتاجت إلى الجبال بعد ما أقلَّتْه ؟ كأنّ وجهَه أيامُ المصائب ، وليالى النوائب ، وكأنما قُربه فَقْدُ الحبائب ، وسوء العواقب . وكأنما وصلُه عدمُ الحياة ، وموتُ الفجأة ، وكأنما هَجْره قوة المنّة ، وريحُ الجَنّة . يا عجبى من جِسْمٍ كالخيال ، وروحٍ كالجبال . كأنه ثقل الدَّيْنِ ، على وَجعِ العين . هو ثقيـلُ السكون ، بغيضُ الحرَكَةِ ، كثيرُ الشؤم ، قليلُ البركة . هو بين الجَفْنِ والعينِ قَذَاة ، وبين الأخمص والنَّعْلِ حصاة . ماهو إلا غداةُ الفراق ، وكتابُ الطلاق ، وموتُ الحبيب ، وطلوعُ الرقيب . ما هو إلّا أربعاء لا تَدُورُ فى صفَر ، والـكابوسُ فى وَقْتِ السَّحَر ، وأثقل

---

(١) يقال : صغاه معك ، أى ميله .

من خَراج بلا غلَّة ، ودَوَاء بلا عِلَّة ، وأبْغَض من مثلٍ غيرِ سائر ، وأجْمَع للعيوبِ من بغلة أبى دُلامة ، وحمار طيّار ، وطيلسان ابْنِ حَرْب ، وأير أبى حكيمة ، وأنشد:

مشى فدعا من ثقله الحوتُ ربَّهُ وقال إلهى زِيدَتِ الأرضُ ثانيه

وأنشد:

تحمل منه الأرض أضعافَ ما يحمله الحوتُ من الأرضِ (١)

وأنشد:

مشتَمِل بالبُغْضِ لا تَنْثَنى إليــه لَحْظاً مُقْلَةُ الرَّامِقِ
يظلُّ فى مجلسنا قاعداً أثقَل من وَاشٍ على عاشِقِ

وقال الحمدونى :

سألتك باللهِ إلّا صدقْت وعِلْمِى بأنَّك لا تصدقُ
أتُبْغِضُ نفسَك من ثقلها وإلا فأنت إذاً أحْمَق

وكتب أبو عبد الرحمن العطوى إلى بعض إخوانه :

إذا أنت لم تُرْسِلْ وجئْتُ فلم أصل مَلأْت بعذْرٍ منكَ سَمْعَ لَبيبِ
أتيتك مشتاقاً فلم أرَ حاجباً ولا صاحباً إلا بوجــهِ قطوبِ
كأنى غريمٌ مُقْتَضٍ أو كأننى طلوعُ رَقيبٍ أو نُهوضُ حَبيبِ

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يستثقلُ جليساً اسمه زنباع ، فقال له رجل يوما : ما الزنبعة فى كلام العرب ؟ قال : التثاقُل ، ولذلك سُمِّى جليسُنا زنباعا .

وقد كَثَّر الناس فى الثقلاء ، وأنا أستحسن قول جحظة ، وإن كان غيره قد تقدّمه فى مثله :

يا لفظة النعْى بمَوْتِ الخليــلْ يا وقفة التَّوْديع بين الحمولْ
يا شربةَ اليارج (٢) يا أُجرة الـ مَنْزِل يا وَجْهَ العَذُولِ الثَّقيلْ

---

(١) إشارة إلى الخرافة التى تزعم أن الأرض يحملها حوت . (٢) معجون مسهل.

يا طلعة النَّعْش ويا منزلًا … أقفَر من بعد الأنيس الحُلُولْ

يا نهضة المحبوب عن غَضْبةٍ … يا نعمةً قد آذَنَتْ بالرَّحيلْ

ويا كتاباً جاء من مُخْلِفٍ … للوعد مملوءًا بعذرٍ طويلْ

يا بُكرة الثَّكْلَى إلى حُفْرةٍ … مستودعٍ فيها عزيزُ الثُّكُولْ

يا وثبةَ الحافظِ[1] مستَعْجِلا … بصَرْفِه القينات عند الأصيلْ

ويا طبيباً قد أتى باكراً … على أَخي سقم بماء البقول

يا شوكةً فى قدمٍ رَخْصَةٍ … ليس إلى إخراجها من سبيل

يا عِشْرَةَ المجذوم فى رَحْله … ويا صُعُود السِّعْرِ عند المُعيل[2]

يا رَدَّة الحاجب عن قَسْوَةٍ … ونَكْسَةً من بعد بُرْءِ العليل

***

وجَحْظَة هذا هو[3] أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، وقال أبو الحسن على بن محمد بن مقلة الوزير: سأَلتُ جَحْظَة مَنْ لقَّبه[4] بهذا اللقب؟ فقال ابنُ المعتز: لقينى يوماً، فقال لى: ما حيوان إنْ نَكَّسُوه أتانا آلة للمراكب البحرية[5]، فقلت: عَلَقٌ إذا نُكِّس[6] صارَ قِلْعا، قال: أحسنت يا جحظة؛ فلزمنى هذا اللقب. وكان ناتئ العينين جدًّا، قبيحَ الوجه، ولذلك قال ابن الرومى[7]:

جحظة

نبئت جَحْظَةَ يستعيرُ جُحوظَهُ … مِنْ فِيل شِطرَنْج ومن سرطانِ

يا رحمتى لمُنَادِميه تحمَّلوا … ألمَ العيونِ للذَّةِ الآذانِ

وكان طيِّبَ الغناء، ممتدَّ النفَس، حسنَ المسموع؛ إلا أنه كان ثقيلَ اليدِ فى الضرب؛ وكان حُلْوَ النادرة، كثير الحكاية، صالح الشِّعْرِ؛ ولا تزال تندر له الأبيات الجيدة؛ وهو القائل:

من شعره

جانبت أَطْيَبَ لذَّتِى وشرابى … وهجرت بعدك عامداً أصحابى

(١) الحافظ: الموكل بالشىء. (٢) المعيل: من أعول: كثر عياله.
(٣) ذيل اللآلئ: ٢٥. (٤) الأدباء: ٢-٢٤١. (٥) فى الأدباء: آلة للبحرية. (٦) فى الأدباء: عكس. (٧) وفيات الأعيان ١-٤١.

فإذا كتبتُ لكى أنزّه ناظرى　　فى حُسْنِ لفظك لم تَجُدْ بجَواب
إن كنت تنكر ذِلّتى وتذلّلى　　ونحولَ جسمى وامتدادَ عَذابى
فانظر إلى بَدنِى الذى موّهتَه　　للناظرين بكَثْرةِ الأثواب

وقال (١) :

وإذا جفانى صَاحِبٌ　　لم أستَجِزْ ماعِشْتُ قَطْعَهْ
وتركتُه مِثْلَ القُبُو　　رِ أزورها فى كُلِّ جُمْعَهْ

وقال :

ضاقت علىَّ وجوهُ الرأى فى نَفَر　　يلقون بالجَحْدِ والكُفْرانِ إحسانى
أقلِّب الطرْفَ تصعيداً ومنحدراً　　فما أُقابل إنسانا بإنسانى (٢)

وقال :

لقدمات إخوانىَ الصالحون　　فمالى صديقٌ ومالى عماد
إذا أقبل الصبحُ وَلَّى السرور　　وإن أقبل الليل وَلَّى الرقاد

وقال يهجو رجلا :

لا تعذلونى إن هَجَرْتُ طعامهُ　　خوفا على نفسى مِنَ المأكولِ
فمتى أكلت قتلتهُ من بُخْلِهِ　　ومتى قَتَلْتُ قُتِلت بالمقتولِ

ومن حكاياته ما حدّثنى خالدُ الكاتب (٣) قال : جاءنى يوماً رسولُ إبراهيم بن المهدى فصرت إليه ، فرأيتُ رجلا أَسْوَدَ على فُرُش قد غاص فيها ، فاستجلسنى ، وقال : أنشدنى من شعرك ، فأنشدته :

رأتْ منه عينى منظرَيْنِ كما رأَتْ　　من الشمسِ والبدرِ المنير على الأَرْضِ
عشيّة حيَّانى بوَرْد كأنهُ　　خدودٌ أُضيفت بعضُهن إلى بعضِ

(١) الأدباء ٢ـ٢٦٦ .　　(٢) فى س : إنسانى بإنسان .
(٣) المختار من شعر بشار ١٨٢ .

ونازعني كأسا كأن حبابها دموعي لما صد[1] عن مقلتي غمضي
وراح وفعل الراح في حركاته كفعل نسيم الريح بالغصن الغض

فزحف[2] حتى صار في ثلثي الفراش ، وقال : يا فتى ، شبهوا الخدود بالورد ، وأنت شبهت الورد بالخدود ، زدني فأنشدته :

عاتبت نفسي في هوا ك فلم أجدها تقبل
وأطعت داعيها إليـ ك فلم أطع من يعذل
لا والذي جعل الوجو ه لحسن وجهك تمثل
لا قلت إن الصبر عنـ ك من التصابي أجمل

فزحف[2] حتى انحدر عن الفرش ثم قال لي: زدني، فأنشدته[3]:

عش فحبيك سريعاً قاتلي والضنى إن لم تصلني واصلي
ظفر الحب بقلب دنف[4] فيك والسقم بجسم ناحل
فهما بين اكتئاب وضنى تركاني كالقضيب الذابل
وبكى العاذل لي من رحمة[5] فبكائي لبكاء العاذل

فنعر[6] طرباً وقال: يا يلبق؛ كم معك لنفقتنا؟ قال: ثمانمائة وخمسون ديناراً. قال: اقسمها بيني وبين خالد ، فدفع إلي نصفها .

وأنشد جحظة أو غيره ولم يسم قائله :

لا يبعد الله إخواناً لنا سلفوا أفناهم حدثان الدهر والأبد
نمدهم كل يوم من بقيتنا ولا يؤوب إلينا منهم أحد

---

(١) في المختار : لما فارقت . (٢) في س : فرجف . (٣) المختار من شعر بشار ١٢٨ .
(٤) في المختار: كلف. (٥) في المختار : رقة . (٦) في س ، ق : فتعرى .

[السكاكين]

لأحمد بن يوسف

وكان أحمد بن يوسف جالسا بين يدى المأمون ، فسأل المأمونُ عن السكّين فناوله أحمد السكين ، وقد أمسك بنِصَابِها ، وأشار إليه بالحدّ ، فنظر إليه المأمون نظر مُنْكِر ؛ فقال : لعل أميرَ المؤمنين أنكر علىَّ أَخْذِى النّصَاب ؛ وإشارتى إليه بالحدِّ ! وإنما تفاءلت بذلك أن يكونَ له الحدُّ على أعدائه ؛ فعجب المأمون من سُرْعَةِ فطنته ، ولطيف جوابه .

وقال بعضُ الكتاب : السكين مسنُّ الأقلام يشحذها إذا كلَّت ، ويَصْقُلُها إذا نَبَتْ ، ويُطْلِقُها إذا وقفت ، ويلمّها إذا شَعِثت ، وأَحْسَنُها ماعَرُضَ صَدْرُه ، وأُرْهِفَ حدُّه ، ولم يفصل على القبضة نِصَابُه .

لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم يرثى سكيناً سرقت له :

يا قاتل اللهُ كتّابَ الدواوين	ما يستحلُّونَ من أَخْذِ السكاكينِ
لقد دهانى لطيفٌ منهم خَتِلٌ	فى ذات حدٍّ كحدِّ السيفِ مَسْنُونِ
فأقْفَرَتْ بعد عُمْرانٍ بموقعها	منها دواةُ فتًى بالكُتْبِ مَفْتُون
تبكى على مُدْيَةٍ أودى الزمانُ بها	كانت على جائرِ الأقلام تُعْدِينى
كانت تقدِّمُ أَقلامى وتَنْحِتُها	نحتاً وتُسْخِطها بَرْياً فتُرْضِينى
وأضحك الطرس والقرطاس عن حُلَلٍ	ينوب للعين من نَوْرِ البساتين
فإن قَشَرت بها سوداءَ من صُحُفى	عادت كبعض خدودِ الخُرَّدِ العِين
جزْعُ النصاب لطيفات شَعَائِرُها	محسَّنات بأصناف التَّحاسين
هيفاء مُرْهَفَةٌ بيضاء مُذْهَبةٌ	قال الإله لها سبحانه : كُونى
لكن مِقَطّىَ أمسى شامتاً جذلا	وكان فى ذِلَّةٍ منها وفى هُونِ
فَصِين حتى يُضَاهِى فى صيانته	جَاهِى لصَوْنِه [1] عمَّنْ لا يُدَانِينى

---

(١) فى س : لصونته .

ولستُ عنها بسالٍ ما حَيِيتُ ولا ... بواجدٍ عِوَضاً منها يُسليني
ولو يُردُّ فِداء ما فُجِعتُ بهِ ... منها فديناه بالدنيا وبالدين

ألفاظ لأهل العصر في صفات السكاكين

سكّين كأنَّ القدرَ سائقُها ، أو الأَجَل سابقها ، مُرْهَفَة الصَّدْرِ ، مُخْطَفَة (١) الخَصْر ، يجولُ عليها فِرند العِتْق ، ويموج فيها ماء الجَوْهر ؛ كأنّ المنيةَ تبرق من حدِّها ، والأَجل يَلْمَع من مَتْنِها ، ركّبَتْ في نِصاب آبنوس ، كأنّ الحَدق نفضَتْ عليه صِبْغَها ، وحَبّ القلوب كسَتْه لباسها . أخذ لها حديدها الناصح بحظٍّ من الروم ، وضرب لها نصابها الحالِك بسهمٍ من الزنج ، فكأنها ليلٌ من تحتِ نَهار ، أو مجمر أبدى سَنا نَار ، ذات غِرار ماضٍ ، وذُبَاب قاضٍ . سكين ذات مِنْسَر (٢) بازِيّ ، وجَوْهر هوائي ، ونِصَاب زنجي ، إن أُرضِيت أولت مَتْناً كالدِّهَان (٣) ، وإن أُسْخِطَتْ التَقَتْ بنَاب الأُفْعوان . سكّين أحْسَن من التَّلاَق ، وأقْطَع من الفِرَاق ، تفعل فِعْلَ الأَعْداء ، وتنفعُ نَفْعَ الأصدقاء . هي أمْضَى من القَضَاء ، وأنْفَذُ من القَدَر المُتَاح ، وأقطَعُ من ظُبَةِ السيف الحسام ، وألمع من البَرْقِ في الغَمام . جمعت حُسْنَ المنظر ، وكَرَمَ المَخْبَر ، وتملّكتْ عِنان القلب والبصر ، ولم يُحْوِجْها عِتْقُ الجَوْهَرِ إلى إمْهاء (٤) الحجر .

[السمر والمنادمة]

قال محمد بن أنس للقاسم بن صبيح : مازِلنا في سَمَرٍ نَصِلُ فصولَه (٥) بتشوّقك ، فيُذهِب ذِكْرُك مللَ السامر ، ونَعْسَةَ الساهر . فقال القاسم : مثلُك ذكر صديقه فأطراه ، واعتذر إليه فأرضاه ، ولو كنتم آذنتمُوني كنت أحدكم مسروراً بما به

(١) مخطف : ضامر . (٢) المنسر : المنقار ، وهو كمجلس ومنبر .
(٣) الدهان : الأديم الأحمر الصرف (ارجع إلى اللسان — دهن) . (٤) أمهى الحديدة : أحدها . (٥) في س : يصل في هوله .

سُرِرتم، مُفيضاً فيما فيه أفَضْتُم .

شرط المنادمة

قال بعضُ الظرفاء : شَرْطُ المنادمة قِلّة الخلاف ، والمعاملةُ بالإنصاف والمسامحةُ فى الشراب ، والتغافل عن ردّ الجواب ، وإدمان الرضا ، واطِّرَاح ما مَضَى وإسقاط التحيّات ، واجتناب اقتراح الأَصوات ، وأكل ما حضر ، وإحضار ما تيسّر ، وسترْ العَيْبِ ، وحفظ الغيب .

وقد أحسن أبو عبد الرحمن العطوى فى قوله :

حقوقُ الكاس والنَّدْمَانِ خمسٌ ... فأوّلُها التزيُّن بالوَقَارِ
وثانيهـا مسامَحَةُ النَّدَامَى ... فكَمْ حَمَتِ السماحةُ مِنْ ذِمار [1]
وثالثها ، وإن كنتَ ابنَ خَيْرِ الْ ... بَرِيّة مَحْتِداً ، تَرْكُ الفَخَارِ
ورابعها وللنَّدْمَانِ حقٌ ... سوى حقّ القرابة والجوارِ
إذا حدثته فاكْسُ الحديث الـ ... ـذى حدّثته ثَوْبَ اختصارِ
فما حُثَّ النبيذُ بمثل حسن الْ ... أغانِى والأحاديثِ القِصَارِ
وخامسةٌ يدلُّ بها أخوها ... على كرم الطبيعةِ والنِّجار
حديث الأمس ننساه جميعاً ... فإنّ الذَّنْب فيه للعُقَار
ومن حكَّمت كأْسَك فيه فاحْكُمْ ... له بإقالةٍ عِنْدَ العِثار

وقال حسان بن ثابت [2] :

نولِّيها الملامةَ إنْ ألَمْنَا ... إذا ما كانَ مَغْثٌ [3] أو لِحَاءُ

وشرب اليزيدى عند المأمون فلما أخذَتْ منه الكأس أقبل يعتزّ عليه بتعليمه إياه ، وأساء مُخاطبته ؛ فلما أفاق من سُكْرِه عُرِّف ما جرى ، فلبس أكفانه ، ووقف بين يدى المأمون فأنشده :

أنا المذنبُ الخطَّاء والعفوُ واسعٌ ... ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِفَ العفوُ

---

(١) الذمار : مايلزمك حفظه وحمايته . (٢) ديوانه ٣ . (٣) المغث : الشر والقتال ، وفى ق : مقت .

نَمِلْتُ فأَبْدَتْ منِّيَ الكاسُ بعضَ ما ... كرِهْتُ وما إن يستوى السُّكْرُ والصَّحْوُ
ولا سيما إِنْ كنتُ عنـد خليفةٍ ... وفى مجلسٍ ما إنْ يجوز به اللَّغْوُ
فإن تعفُ عنى ألْفِ خطوى واسعاً ... وإلا يكن عَفْوٌ فقد قَصُر الخَطْوُ

فقال المأمون: لا تثريبَ عليك ، فالنبيذُ بساط يُطْوَى بما عليه .

وشرب كوران المغنى عند الشريف الرضى ، فافتقد رِدَاءَه وزعم أنه سُرِق . فقال له الشريف : ويحك ! مَنْ تتّهم منا ؟ أما علمتَ أنّ النبيذَ بِساط يُطْوَى بما عليه ؟ قال : انشروا هذا البساط حتى آخذَ ردائى واطْوُوه إلى يوم القيامة !

وكان أبو جعفر أحمد بن جَدَار كاتب العباس[1] بن أحمد بن طولون ينقل أخبارَ أبى حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون على الشراب إلى العباس، فصار إليه[2] أبو حفص فقال : يا أبا جعفر ؛ إنما مجلس المُدَام مجلس حُرمة ، وداعيةُ أُنْس ، ومسرح أمانة ، ومَذَادُ هَمّ ، ومَرْتَع لهو ، ومَعْهَد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يُتّهم بشيبه، ولا يُخشَى عَتْبه، وقد اتصل بى ما تُنْهِيه إلى أميرنا أبى الفضل أعز اللهُ أمره ، من أخبار مجالستى ، فلا تفعَـل ، وأنشده :

ولقد قلت للأخلاء يوماً ... قَولَ ساعٍ بالنُّصْحِ لو سمعوهُ
إنمـا مَجْلِسُ المُدَام بِساطٌ ... للمودّات بينهم وَضَعُوهُ
فإذا ما انتهوا إلى ما أرادوا ... من نعيم ولذةٍ رفعوهُ
وهُمُ أَحْرِياءُ ، إنْ كان منهم ... حافظٌ ، ما أتوه أن يمنعوهُ

فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه .

وأنشد أبو حفص :

كم من أخٍ أَوْجَسْتُ منه سجيّةً ... فأَنِسْتُ بعـدَ وِدَادِهِ بفراقِهِ

---

(١) اسمه فى الأدباء : ٧ــ١٨٢ أبو القاسم جعفر محمد بن حذار (بضم الحاء) .
(٢) الوافى بالوفيات : ٥٥ .

لم أحمد الأيام منه خليقةً فتركتُه مستمتعا بخَلاقه

عوّل أبو حفص فى أكثر كلامه على نقل كلام أبى العباس الناشىء فى الشراب والأبيات التى أنشد أولا له .

أبو القاسم الصاحب : قدماً حُمِلَتْ أَوْزَارُ السُّكْرِ ، على ظهور الخمر ، وطوى بساطُ الشراب ، على ما فيه من خطأ أو صواب . متابعة العُقار تمدر فى خَلْعِ العِذار وتُغْنى عن الاعتذار . متابعة الأرطال ، تبطل سورة الأبطال ، وتَدَعُ الشيوخ كالأطفال

كتب إسحاق بن ابراهيم الموصلى إلى بعض الجِلَّة يستدعيه : يَوْمُنا يومٌ ليِّن الحواشى ، وَطِىءُ النواحى ؛ وسماؤنا قد أَقبلت ، ورعدت بالخير وبَرَقَتْ ، وأنت قُطْبُ السرور ، ونظام الأمور . فلا تُفْرِدْنا فنقلّ ، ولا تنفرد عنا فنذلّ .

وكتب بعض أهل العصر وهو السرى الموصلى إلى أخ له يستدعيه إلى مؤانسته

خِلالُكَ ما اختلّ(١) الصديقُ سَحَائِبُ وبِشرك ، ما هبَّتْ رِياحٌ ، مَوَاهِبُ

وأَنت شقيقُ الرُّوحِ تُؤْثِرُ وَصْلَهَا إذا رَاعَها بالهَجْرِ خِلٌّ وصَاحِبُ

ونحن خلالَ القَصْفِ والعَزْفِ نجتَنى ثمارَ مَلَاهٍ كلُّهنَّ أَطَايب

وعندى لك الرّيحان زِينَ بِسَاطهُ بزَهْرٍ كما زانَتْ سماءً كَوَاكِبُ

وحِيَش كما انجرَّتْ ذُيولُ غَلَائلٍ مُصَندلة(٢) تختالُ فيها الكَوَاعِب

وقد أُطْلِقَت فيه الشَّمائِل ، وانثنَتْ مُفَنّدَةً(٣) عن جانبيها الجَنَائِبُ

وحافظة ماءَ الحياةِ لِفِتْيَةٍ حياتهمُ أَن تُستلذَّ المشارِبُ

نُسَرْبِلُها أَخْفَى اللباس ، وإنما يُلَفُّ بهـا أفْوَاهُه والسَّبَائِبُ

على جَسَدٍ مثل الزّبرْجَد لم تزل تشا كلُه فى لونه وتُنَاسِبُ

إذا استُودعت حُرَّ اللُّجَيْنِ سبائكا تَصَوَّبَ فى أحشائها وهو ذَائِبُ

---

(١) اختل الصديق : أعدم وافتقر .

(٢) الصندل : شجر طيب الرائحة .

(٣) فنده : أعجزه وأضعفه .

وفوق رءوس القـوم غَيْمٌ معلَّقٌ ... من النَّدِّ لا يَجْرِى ولا هو ذَاهِب
بوارقُهُ خَمْرُ الـكئوس ورَعْدُهُ ... أناملُ بيضٌ للطبول تُلَاعِب
ولا عائق يَثْـنِى عِنَانك عَنْ هوًى ... رَغَى جانبٌ منه وأَوْمَضَ جَانبُ
فبادِرْ ، فإن اليوم صافٍ من القَذَى ... ويارُبَّ يومٍ بادَرَتْه النَّوائب

وقال ابنُ المعتز :

لا شَىْءَ يُسْلِى همِّى سِوَى قَدَحٍ ... تَدْمَى عليه أَوْدَاج (١) إبْرِيقٍ
فِى غَيْمٍ نَدّ يُزجى (٢) سَحَائبَهُ ... بَرْقُ ابتسامٍ ورَعْدُ تصفيقٍ

وقال الحسن بن محمد الـكاتب يصف طبلا :

يا حبَّـذَا يومنا نَلْهُو بمُلْهِيَةٍ ... تُلْهِى بشىء له رَأْسَانِ فى جَسَدِ
قد شُدَّ هذا إلى هـذا كأنهما ... من شِدَّةِ الشدِّ مقرونَانِ فى صَفَدِ (٣)
نَظَلُّ نلطم خَدَّيْهِ إذا ضَرَبَتْ ... بكلٍّ طاقتها لَطْماً بلا حَرَدِ (٤)
فتسمعُ الصوتَ منه حين تَضْرِبُه ... كأنه خارجٌ من ما ضِغَىْ أَسَدِ

ومن ألفاظهم فى الاستدعاء

نحن فى مَجْلِسٍ قد أبت رَاحُه أن تصفوَ لنا أو تتناولها يُمْنَاك ، وأقسم غِنَاؤُه لطاب أو تَعِيه أُذُنَاك ، فأَمّا خدودُ نارنجه فقد احمرَّتْ خجَلا لإبطائك ، وعيون نرجسه قد حدَّقَتْ تَأْميلًا للقائك ، فبحياتى عليك إلاَّ تعجَّلْت ، وما تمهَّلْت .

نحن بغيبتك كعِقْد قد تغيَّبَتْ وَاسِطَتُهُ ، وشبابٍ قد أَخْلَقَتْ جِدَّتُه؛ وإذ قد غابت شمسُ السماء عنَّا ، فلابد أن تَدْنُوَ شمسُ الأرض منا . أنت من ينظم به شَمْل الطرَب ، وبلقائه يُبْلَغُ كلُّ أرَب، طِرْ إلينا طيران السَّهْمِ ، واطلُعْ علينا طلوعَ

(١) الودج : عرق فى العنق كالوداج . (٢) زجاه : ساقه مثل أزجاه وزجاه .
(٣) الصفد : الوثاق . (٤) الحرد : الغضب .

النَّجم . ثِبْ إلينا وثوبَ الغزال ، واطلُعْ علينا طلوعَ الهلال ، فى غُرّة شوّال . كن إلينا أسرعَ من السهم إلى ممرّه ، والماء إلى مقرِّه . جشم إلينا قدمك ، واخلَعْ علينا كرَمَك ، وإن رأيتَ أن تحضرنا لتتَّصِل الواسِطَة بالعِقْد ، ونَحْصل بقُرْبِك فى جنَّة الخُلْدِ ، وتُسْهِم لنا فى قُرْبِك الذى هو قوتُ النَّفس ، ومادةُ الأُنْس .

ولهم فى استدعاء الشراب

قد تألّف لى شَمْلُ إخوانٍ كاد يفترق لعوَز [1] المشروب ، واعتدنا فضلك المعهود ، ووردْنا بَحْرَكَ المورود ، وأنا ومَنْ ساعنى الدهرُ بزيارته من إخوانى وأوليائك وقوفٌ بحيث يقفُ بنا اختيارُك من النشاط والفتُور ، ويرْتَضِيه لنا إيثارُك من الهمّ والسرور ، والأمرُ فى ذلك إليك [2] ، والاعتمادُ فى جَمْعِ شَمْل المسرَّةِ عليك ؛ فإن رأيتَ أن تَكِلَنى إلى أوْلى الظَّنَّيْن بك فعلت . ألطفُ المِنَنِ مَوْقعا ، وأجَلُّها فى النفوس موضعا ما عمر أوْطَانَ المسرَّةِ ، وطرد عوارض الهم والفِكْرَة ، وجمع شَمْلَ المودةِ والأُلْفَةَ . قد انتظمتُ فى رُفْقَةٍ لى فى سِمْط [3] الثريا ، فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المُدَام عُدْنا كبنات نَعْش ، والسلام . فرأيك فى إرواء غُلَّتنا بما ينقعها ، والطَّوْلِ على جماعتنا بما يجمعها .

ولهم فى الكناية عن الشراب

قد نشط لتناول مايستمدّ البِشر ، ويشرح الصَّدْر . قد استمطر سحابةَ الأنس واستدرّ حلوبة السرور ، وقَدَح زَنْدَ اللهو ، فهو يَمرِى [4] دِماءَ العناقيد ، وينفض عروقَ الدِّنان ، ويَنْظِم عِقْدَ النَّدْمَان [5] .

---

(١) العوز — بالتحريك : الحاجة . (٢) فى س : لأن الأمر .

(٣) السمط — بالكسر : خيط النظم ، وقلادة أطول من المخنقة .

(٤) مرى الشيء : استخرجه . (٥) الندمان : جمع نديم .

كتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبح فى يوم دَجْن [١] لم يمطر: أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس فى يومنا هذا بقُرْبِ المطر وبعده ، كأنه قول كثير [٢] :

وإنى وتهيامِى بعزّةَ بعدما ... تخلّيْتُ مما بيننا وتخلّتِ
لكالمرتَجِى ظِلَّ الغمامةِ كلما ... تبوّأَ منها للمَقِيلِ اضمحلّتِ

وما أصبحَتْ أُمنيتى إلاَّ فى لِقائك ، فليت حجابَ النّأْى هُتِك بينى وبينك ! رُقْعتِى هذه وقد دارت زجاجاتٌ أَوقعَتْ بعقلى ولم تتحَيّفه [٣] ، وبعثت نشاطا حرَّكنى للكتاب؛ فرأيك فى إمطارى سروراً بسارِّ خَبَرِك ؛ إذ حُرِمْت السرور بمطَرِ هذا اليوم ، موفّقا إن شاء الله .

وكتب الحسنُ بن وهب : وصل كتابُ الأمير أيده الله وفمِى طاعِم ، ويدى عامِلة ؛ ولذلك تأخر الجوابُ قليلا ، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته ، وما استوجب ذَنْباً استحقّ به ذَما ؛ لأنه إذا أشمس حكى حُسْنَك وضياءك ، وإن أمطر حكى جودَك وسخاءَك، وإن غام أشبه ظِلَّك وفِناءَك، وسؤالُ الأمير عنى نعمةٌ من نعم الله عزّ وجل أُعَفِّى بها آثارَ الزمان السيء عندى ؛ وأنا كما يُحِبُّ الأمير ، صرف اللهُ الحوادثَ عنه ، وعَنْ حَظِّى منه .

وذمّ رجلٌ رجلافقال : دعواته ولائم ، وأَقْدَاحُه محاجم [٤] ، وكئوسه محابر ، ونوادره بوادر .

وقال أبو الفتح كشاجم : كان عندى بعض المُجّانِ من النبيذيين فسمعنى ، وأنا أَحمدُ اللهَ جلّ ذِكرُه فى وسط الطعام لشىء خطر ببالى من نِعَم الله التى لاتُحْصَى فنهض وقال : أُعْطِى اللهَ عهداً إن عاوَدْت ! وما معنى التحميد هنا ؟ كأنك تُعْلِمُنا

(١) الدجن : إلباس الغيم الأرض . (٢) الشعر والشعراء ٤٩٧ .
(٣) تحيفته : تنقصته من حيفته ، أى نواحيه ، وفى ق،س : تتخيفه .
(٤) المحجم : ما يحجم به .

أنا قد شبعنا . ثم مال إلى الدواة والقرطاس وكتب ارتجالا :

وحَمْدُ الله يَحْسُنُ كلَّ وقتٍ ... ولكنْ ليس فى أُولَى الطعامِ
لأنك تُحْشِمُ [1] الأضيافَ فيهِ ... وتأمرُهم بإسراعِ القيامِ
وتُؤْذِيهم ، وما شبِعُوا بشَبْعٍ [2] ... وذلك ليس من خُلُقِ الكرامِ

وكتب المَريمى إلى بعض إخوانه وقد ترك النبيذ :

إنْ كُنْتَ تُبْتَ عن الصَّهْباءِ تَشْرَبُها ... نُسْكاً فما تُبْتَ عَنْ بِرٍّ وإحسانِ
تُبْ راشداً، واسقِنا منها وإن عَذَلوا ... فيما فعلت ـ فقلْ ما تاب إخوانى

وقال بعض النبيذيين وقد ترك الشرب :

تحامَوْنِي لتَرْكِى شُرْبَ راحٍ ... أقمْتُ مكانَها الماءَ القَراحَا [3]
وما انفردُوا بها دونى لِفَضْلٍ ... إذا ما كنت أكثرَهم مِراحَا [4]
وأرفعهم على وتر وصَنْجٍ ... وأظْرَفهم وأظرفهم مُزاحَا
إذا شقُّوا الجيوبَ شَقَقْت جَيْبى ... وإنْ صاحُوا عَلَوْتُهم صِيَاحا

فِقر للنبيذيين

ماجُمِشَتْ [5] الدنيا بأظْرَفَ من النبيذ . ماللعُقَارِ والوَقَارِ . إنما العيشُ مع الطَّيْش [illegible] الراح ترياق سمِّ الهمّ . النبيذ ستر فانظُرْ مع مَنْ تهتكه . اشرب النبيذ ما استبشعته [illegible] فإذا استطبْتَه فدَعْه . لولا أنّ المخمورَ يعلم قصّته لقدّم وصيَّته . الصاحِى بين السكارى [illegible] كالحىّ بين الموتى ، يضحك من عَقْلِهم ، ويأكُلُ من نُقْلهم [6] . أحمق [illegible] يكونُ السَّكْرَان إذا تعاقل . التبذُّل على النبيذ ظَرْف ، والوقار عليه سُخْف ، حد [illegible] السَّكْران أن تَغْرُبَ الهموم ، ويظهر السرّ المكتوم .

(١) أحشمه : أخجله . (٢) الشبع ـ بسكون الباء وكعنب : ضد الجوع .
(٣) القراح : الماء الخالص . (٤) فى ق ، س : مزاحا .
(٥) فى كل الأصول : جشمت . (٦) ما يتنقل به على الشراب .

وقال الحسن بن وهب لرجل رآه يعبس عند الشرابِ : ما أَنْصَفْتَهَا ، تَضْحَكُ فى وجهك، و تَعْبِس فى وَجْهِها .

وقال الطائى [1] :

إذا ذاقها ، وهى الحياةُ ، رأيتَهُ ... يُعَبِّسُ تعبيسَ المقدَّمِ لِلقَتْلِ

وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال :

وأن أُقَطِّب وَجْهِى حينَ تَبْسِمُ لى ... فعند بَسْطِ المَوالى يحفظ الأدبُ

وترك رجلٌ النبيذَ ؛ فقيل له : لم تركتَه، وهو رسولُ السرورِ إلى القلب؟ قال: لكنه رسولُ بأسٍ يبْعَثُ إلى الجَوْف فيذهب إلى الرأس .

وقيل لبعضهم : ما أصبّك بالخمر ! فقال : إنها تُسْرج [2] فى يَدِى بنورها ، وفى قلبى بسرورها ؛ كأنَّ الناشئ نظر إلى هذا الكلام فقال :

راحٌ إذا علَتِ الأكفَّ كئُوسُها ... فكأنها من دونها فى الرَّاحِ
وكأنما الكاساتُ مما حولها ... من نورِها يَسْبَحْنَ فى ضَحْضَاحِ [3]
لو بُثَّ فى غَسَق الظلام ضِياؤُها ... طلع المساءُ بغُرَّةِ الإصباحِ
نفضَتْ على الأجسام ناصعَ لَوْنِها ... وسرتْ بلذَّتِها إلى الأرواحِ

البيت الأول كقول البحترى [4] :

يُخْفِى الزجاجةَ ضوءُها [5] فكأنها ... فى الكفِّ قائمةٌ بغيرِ إناءِ

وللناشئ فى هذا المعنى :

ومُدامةٍ يَخفَى النهارُ لنُورِها ... وتَذِلُّ أكْنافُ الدُّجا لضيائِها
صُبَّت فأَحْدَقَ نورُها بزُجاجِها ... فكأنها جُعِلتْ إناءَ إنائِها
وتُرَى إذا صُبَّت بدَتْ فى كأسِها ... متقاصرَ الأَرْجاءِ عن أرْجائِها
وتَكادُ إنْ مُزِجَتْ لرقَّةِ لونِها ... تَمْتازُ عند مِزاجِها من مائِها

---

(١) ديوانه : ٤٢٠ . (٢) تضىء — من أسرجت السراج ، وفى س : ماأصباك .
(٣) الضحضاح : الماء اليسير . (٤) ديوانه : ٤ . (٥) فى الديوان : لونها .

صفراء تُضْحِى الشمسُ، إنْ قِيسَتْ بها ... فى ضوئها، كالليْلِ، فى أضوائِها
وإذا تصفَّحْتَ الهواءَ رأيتَه ... كَدِرَ الأَدِيمة[1] عند حُسْنِ صفائِها
تَزْدادُ مِنْ كرمِ الطباعِ بقَدْرِ ما ... تُودِى بِهِ الأَيامُ مِنْ أجْزائِها
لا شىء أعْجَب من توَلُّد بُرْئِها ... من سُقْمِها، ودَوائِها مِنْ دائِها

وقال:

إنْ رُمْتَ وَصْفَ الراحِ فأْتِ بما ... فيها من الأَوْصاف من قُرْبِ
هى ماءُ ياقوتٍ وإن مُزِجَتْ ... فى كأْسِها بالباردِ العَذْبِ
فكأنها وحبابُها ذَهَبٌ ... كلَّلْتَه باللُّؤْلؤ الرَّطْبِ

ولأهل العصر: الدنيا معشوقة رِيقُها الراح. أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومى فى صاعد بن مخلد:

فتًى هاجرَ الدنيا وحرَّم رِيقَها ... وهل رِيقُها إلا الرحيقُ المورَّدُ
ولو طَمِعَتْ فى عَطْفِهِ ووِصالِهِ ... أبَاحَتْه منها مَرْشَفاً لا يُصَرَّدُ[2]

الخمرُ أشبهُ شىء بالدنيا؛ لاجتماع اللذاتِ والمرارة فيها. الخمر مصباحُ السرور ولكنها مفتاح الشرور. لكل شىء سرٌّ، وسرُّ الراحِ السرور. لا يطيبُ المُدام الصافى، إلاّ مع النديم المُصافِى.

ومن ألفاظهم فى صفاتِ مجالس الأنس وآلات اللهو وذكر الخمر

مَجْلِسٌ راحُه ياقوت، ونَوْره وَرد، ونارَنْجُه ذَهَب، ونرجسه دينار ودرهم يحملهما زَبَرْجَد. عندنا أُتْرُج كأنه من خَلْقِك خُلِق، ومن شَمائلِك سُرِق، ونارنج كُكُرَاتٍ من سَفَن[3] ذُهِّبت، أو ثدى أبكار خُلّقت. مجلسٌ أخَذَتْ فيه الأوتار

---

(١) أديم النهار: بياضه. (٢) رشفه: مصه، والتصريد. التقليل.
(٣) السفن، بالفتح: جلد سمك خشن يسفن به الخشب حتى تذهب عنه آثار المبراة.

تتجاوب ، والأقداح تتناوب . أَعْلامُ الأُنْسِ خافقةٌ ، وأَلْسُن الملاهى ناطقة . نحن بين بدور ، وكاساتٍ تَدُور ، وبروقِ رَاح ، وشموس أَقْدَاح . قد نشأت غَمامة النَّدِّ[1] ، على بساط الوَرْدِ . مجلسٌ قد تفتَّحتِ فيه عيونُ النَّرْجِس ، وفاحت مَجامِير الأُتْرُجّ ، وفتقت فَارَات[2] النَّارَنْج ، ونطقت أَلسُنُ العِيدَان ، وقامت خطباء الأَوتار ، وهبَّت رياحُ الأقداح ، وطلَعَتْ كواكبُ النَّدْمَان ، وامتدَّتْ سماء النَّدّ . مجلسٌ مَنْ رآه حسب الجِنَانَ قد اصطفت عيونها ، فجملت فى قدر من الأرض ، وتخيّرت فصوصها ، فنُقِلَتْ إلى مجلس الأُنْسِ واللَّهْوِ . قدفضّ اللهوُ ختامه ؛ ونشر الأُنْس أعلامه . قد هَبَّت للأُنْس ريحٌ بَرْقها الراح ، وسحابها الأقداح ، ورعودها الأَوتار ، ورياضها الأقمار . قد فرغنا للهو والدهرُ عنا فى شغل .

جُلُّ هذا من قولِ بعض أهل العصر :

كم جوًى مثّله رَسْم مَثَل	ودَم قد طُلّ أثناء طَلَلْ
ولآلٍ كلّل الخدّ بها	لعب البين بربّاتِ الكِلَلْ
حبذا عيشُ الليالى باللوى	لو تجافَى الدّهْرُ عنَّا وغَفَلْ
إذ فرَغْنَا فيه للَّهو وقد	باتتِ الأَقْدَارُ عنَّا فى شُغُلْ
وأدَرْنَا ذهباً فى لَهَبٍ	كلما أُخْمِدَ بالماء اشتَعَلْ

قد اقتعَدْنا غاربَ الأُنْسِ ، وجرينا فى مَيْدَانِ اللهو . عمدنا إلى أقْدَاحِ اللهو فأَجلْنَاها ، ولمراكبِ السرور فامتطَيْنَاها . قد امتطينا غواربَ السرور بالأقداح . مُدَامة تُورِد رِيحَ الوَرْدِ ، وتَحْكِى نَارَ إبراهيم فى اللَّون والبَرْدِ ، ولستُ أدرى أشقيق أم عقيق ، أم رحيق أم حريق . راحٌ كأنَّ الديوكَ صبَّتْ أَحداقَها فيها . راح كأنما اشتقّت من الرَّوْح والراحة . قال ابن الرومى[3] :

---

(١) الند : طيب . (٢) فأرة المسك : نافجتها . (٣) ديوانه : ٢ — ١٠٢ .

والله ما نَدْرِى[1] لِأَيَّةِ عِلَّةٍ يَدْعونَهَا فى الرَّاحِ بِاسْمِ الرَّاحِ
أَلِرِيحِهَا أَمْروحِها[2] تحْتَ الحَشَى أَمْ لِارْتِيَاحِ نَدِيمِها المُرْتَاحِ

راحٌ كالنار والنُّورِ والنَّوْرِ ، أَصْفَى من البَلُّور ومن دَمْعِ المهجور . روح نور لها من الكَأْس جِسم ، كأنها شمسٌ فى غِلالَةٍ[3] سَرابٍ . شراب أكادُ أقولُ : هو أَصْفَى من مودَّتى لك ، ومِنْ نعم اللهِ عنـدى فيك ، وأَطْيَبُ من إسعافِ الزمان بلقائك . مُدَامة قد سبك الدهرُ تِبْرَها فصَفَا . كأسٌ كأنها نورٌ ضميرُهُ نارٌ . راح كياقوتة فى دُرَّةٍ أَصْفَى من ماءِ السماء ، ودَمْعِ العاشقة المَرْهاء[4] ، أَحسن من الدنيا المُقْبِلة ، والنعم المكملة . أَحْسن من العافية فى البَدَن ، وأَطْيَب من الحياة فى السرور . أَرقّ من نسيمِ الصَّبا ، وعَهْدِ الصِّبا . أَرقّ من دَمْع محبّ ، وشَكْوَى صَبّ . أَرقّ من دموع العشّاق ، مَرَتْها لَوْعَةُ الفراق . مُزِجَ نَارُ الرَّاح بنُورِ الماء . راحٌ كأنها معصورة من وَجْنَةِ الشمس ، فى كَأْسٍ كأنها مخروطة من فِلْقَة البَدْرِ . كأسُها مِلْءُ اليدِ ، وريحها ملء البَلَد ، تصبُّ على الليل ثَوْبَ النهار ، كأنها فى الكأس معنى دقيق ، فى ذِهْنٍ لطيف . كأنَّ الراح من خَدِّه معصورة ، وملاحة الصورةِ عليها مقصورةٌ . وهـذا من قول الطائى * كأنها من خَدِّهِ تُعْصَرُ *
وقال عبد السلام بن رَغْبان الملقب بديك الجن الشاعر المشهور :

معتّقة مِنْ كَفّ ظَبْيٍ كأنما تَناوَلهـا من خَـدِّه فأَدارَها

تمشَّت الشهباء فى عِظامهم ، وترّقت إلى هَامِهِمْ ، وماسَتْ فى أَعْطافِهم ، ومالَتْ بأَطْرَافهم . سارَتْ فيهم الكئوس ، ونالَتْ منهم سَوْرَةُ الخَنْدَرِيس . شربت عقولَهم ، وملكت قلوبَهم .

---

(١) فى الديوان : تالله ما أدرى . (٢) فى الديوان : ألريحها ولروحها . . . وقال شارحه : ضبطت فى الأصل بضم الراء بمعني ما به الحياة ، ويصح أن تضبط بفتح الراء بمعنى النسيم .
(٣) الغلالة : شعار تحت الثوب . (٤) مرهاء : بيضاء . ومرهت عينها : خات من الكحل .

وقال أبو نواس ، وهو أستاذ الناس فى هذا الشأن[١] :

صِفَةُ الطلولِ بَلاغَةُ الفدم[٢] ... فاجعل صفاتك لابْنَـةِ الـكَرْمِ
تصفُ الطلولَ على السماع بهـا ... أفَذو العِيان كثابتِ العـلْمِ
وإذا وصفت[٣] الشىء متبعا ... لم تَخْلُ من[٤] غَلَطٍ ومن[٤] وَهْمِ

وقال :

الـكأس أهواها وإن رَزَأت ... بُلَغ المعاش ِ وقَلَّلَتْ فَضْلى[٥]
صفراء مجَّـدها مَرَازِبُها ... جلَّت عن النظراء والمِثْـلِ
ذُخِرت لآدَمَ قبـل خلقتهِ ... فتقدمته بخطوة[٦] القَبْـلِ
فاعذر أخاك فإنه رجـــلٌ ... مَرنَتْ مَسامِعُه على العَـذْلِ

وقال[٧] :

فتسليت بشُرْبِ[٨] عُقَارٍ ... نشأَتْ فى حِجْرِ أمِّ الزمان
فتناساها الجديدان حتى ... هى أنصاف شطور الدِّنَان
وافترعنا مُرة[٩] الطَّعْم بها ... نَزَقُ البكر ولين العَوَانِ[١٠]
واحتسينا من رحيق عتيق[١١] ... وشديد كاملٍ[١٢] فى ليان
لم يُحفِها منزلُ القوم[١٣] حتى ... نجمَتْ مثلَ نجومِ السنان
أو كعِرْقِ السام تنشقّ منه[١٤] ... شُعَبٌ مثـل انفراج البنان

---

(١) ديوانه : ٣٢٣ . (٢) الفدم : العي عن الـكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم وفى رواية : القدم . (٣) فى الديوان : وإذا نعت . (٤) فى الديوان : عن .

(٥) رواية هذا البيت فى الديوان :

والراح أهواها وإن رزأت ... بلغ المعاش وقللت فضلى

وبلغ المعاش : مواد الرزق .

(٦) فى الديوان : بخطوة . (٧) ديوانه : ٣٣٨ . (٨) فى الديوان : فتقربت بصرف.

(٩) فى الديوان : مزة الطعم فيها . (١٠) فى س : الغوان .

(١١) فى الديوان : من عقيق رقيق . (١٢) فى الديوان : كامن .

(١٣) فى الديوان : لم يجفها مبزل القوم ، ويجفها : يبلغ جوفها . (١٤) فى الديوان : أو كقرن السام تشتق منه .

وقال[١] :

وخَدِينِ لذَّاتٍ معلّلٍ صاحب ... يَقْتَاتُ منه فكاهةً ومُزَاحا
قال ابْغِنى المصباحَ قلتُ له : اتَّئِدْ ... حسبى وحسبُك ضَوْءُها مصباحا
فسكبت منها فى الزجاجة شربةً ... كانت له حتى الصباح صَبَاحَا

وهذا كقوله[٢] :

وخَمَّار أنختُ[٣] عليه ليلا ... قلائصَ قد تَعِبْنَ[٤] من السِّفار
فترجم[٥] والكَرَى فى مُقْلَتَيهِ ... كمخمورٍ شكا ألم الخُمَارِ
أَبِنْ لى كيف صرت إلى حريمى ... وجَفْنُ الليلِ مكتحلٌ بقَارِ
فقلت له ترفّق بى فإنى ... رأيتُ الصبحَ من خَلَلِ الديارِ
فكان جوابُه أنْ قال كلّا[٦] ... وما صبحٌ سوى ضوءِ العُقَار
وقام إلى الدِّنانِ[٧] فسدَّ فَاها ... فعاد الليلُ مسدولَ[٨] الإزارِ

وقال بعض المحدَثين :

ما زال يَشربُها وتَشْرَبُ عَقْلَهُ ... خبلا وتُؤْذِنُ رُوحه برَوَاحِ
حتى انْثَنَى متوسِّداً بيمينهِ ... سَكَراً وأَسْلَمَ رُوحَه للرَّاحِ

وقال الصنوبرى وذكر شَرْبا[٩] :

نازعتهم كأسا تخالُ نسيمَها ... مِسْكًا تضوَّعَ فى الإناء عَتِيقَا
شقَّتْ قِناعَ الفَجْرِ لما غادرَتْ ... كفُّ النديم قناعَها مَشْقُوقَا
صبغت سوادَ دُجاهُ حمرةُ لونِها ... فكأنه سَبَجٌ[١٠] أُعِيد عقيقا

---

(١) ديوانه : ٢٥٦ . (٢) ديوانه : ٢٧٥ . (٣) فى الديوان : خططت إليه .
(٤) فى الديوان: قد ونين . (٥) فى الديوان : فجمجم . (٦) فى الديوان : قال صبح .
(٧) فى الديوان : إلى العقار . (٨) فى الديوان : مسود الإزار .
(٩) الشرب ، بالفتح : القوم يشربون . (١٠) السبج : خرز أسود .

وقال أبو الشيص :

وكأس كسا الساقِى لنا بعد هَجْعةٍ حَواشِيها ما مجَّ[١] من ريقة العِنَبْ

كأنَّ اطِّرادَ المـــاءِ فى جَنَباتِها تربُّـع ماءِ الدرّ فى سُبُك الذَّهَبْ

سقانِى بها،واللَّيْـلُ قدشابَ رَأْسُهُ، غزالٌ بحنَّاء الزجاجةِ مختَضِبْ

وقال أبو عدى الـكاتب :

وليس لهـا حدٌّ تحيطُ بوَصفِهِ لغاتٌ ، ولا جِسْمٌ يباشرهُ لَمْسُ

ولـكنه كالبرقِ أَوْمَضَ ماضياً فلم يَبْقَ منه غيرُ ما تَذْكُرُ النَّفْسُ

وقال ابن المعتز[٢] :

أَلا فاسْقِنيهَا قد مَشَى الصبح فى الدُّجا عُقَاراً كمثل[٣] النارِ حمراءَ قَرْقَفَا[٤]

فناولنى كأساً أضاءت[٥] بَنَانهُ تَدَفَّقُ ياقوتاً ودُرًّا مُجَوَّفا

ولـما أريناها[٦] المزاج تسعَّرت وخِلْت سناهَا بارقا قد[٧] تـكَشَّفَا

يطوف بها ظَـبْىٌ من الإنس شادِنٌ يقلِّب طَرْفاً فاسقَ اللَّحْظِ مُدْنفا

عليم بأسرار[٨] المحبين حاذقٌ بتسليم عينيـهِ إذا ما تخوَّفا

فظل يُنَاجينى يُقلِّب طَرْفِهِ بأطيب من نَجْوَى الأمانى وأَلْطَفا

وقال[٩] :

أَلا عُجْ على دار السرورِ فسلِّمِ وقل أينَ لذَّاتى وأينَ تـكلُّمى

وقل ما حَلَتْ بالعين بعدك لذةٌ سواكِ وإنْ لم تعلمى ذاك فاعلمى

وصفراءَ من صبغ المِزَاج برأسها، إذا مُزِجت ، إكليلُ دُرٍّ منظَّم

قطعتُ بها عُمْرَ الدُّجى وشربتُها ظلاميّة الأحشاء نوريّة الدَّم

---

(١) فى ق ، س : ما فح . (٢) ديوانه : ٢ ــ ٥٥ . (٣) فى الديوان : كلون .

(٤) القرقف : الخمر يرعد عنها صاحبها . (٥) فى الديوان : أضاء .

(٦) فى الديوان : أذقناها . (٧) فى الديوان : بارقا متكشفا .

(٨) فى الديوان : عليما بألحاظ المحبين . (٩) ديوانه ٢ ــ ٦٣ .

[من رسائل البديع]

رسالة إلى أبى عدنان يعزيه

كتب أبو الفضـل بديع الزمان إلى أبى عدنان بن محمد الضبى يعزّيه عن بعض أقاربه[١] :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أُناسٍ حوادِثَه أناخَ بآخرينـا
فقل للشامتين بنـا أَفِيقوا سيَلْقَى الشامتون كما لقينـا

أَحْسَنُ ما فى الدهرِ عمومُه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يَدْعو الجَفَلَى[٢] إذا ساء ، ويخصُّ بالنعمة إذا شاء ، فليفكّر[٣] الشامت ؛ فإن كان أفلت ، فله أَنْ يَشْمت ، ولينظر الإنسانُ فى الدهر وصُروفِه ، والموتِ وصنوفِه ، من فاتحةِ أَمْرِه إلى خاتمة عُمْرِه ؛ هل يجدُ لنَفْسه أثراً فى نَفَسه ، أم لتدبيره عَوْناً على تَصْويره ، أم لعمله تقديما لأَمله ، أم لِحيَله تأخيراً لأَجَله ؟ كلا ، بل هو العَبْدُ لم يكن شيئاً مذكوراً ؛ خُلِق مَقْهوراً ، ورُزِق مقدوراً ، فهو يَحْيَا جَبْراً ، ويهلك صَبْرا ، وليتأَمّل المرءُ كيف كان قَبْـلا ؛ فإن كان العَدَمُ أَصلا ، والوجودُ فصلا ، فليعلم الموت عَدْلا . فالعاقل من رقّع من جوانب الدهر ما ساءَ بمـا سرّ ، ليذهب ما نَفَع بما ضرّ[٤] ؛ فإنْ أحبّ الاَّ يحزن فلينظر يَمنة هل يرى إلا مِحْنَة ، ثم ليعطف يَسْرَة هل يرى إلّا حَسْرَة ؟ ومثلُ الشيخ الرئيس أطال الله بقاءَه من فَطِنَ لهذه الأَسْرار ، وعَرف هـذه الديار ، فأَعدَّ لنعيمها صَدْرًا لا يملؤه فرحا ، ولبؤسها قَلْباً لا يطيره تَرَحا[٥] ؛ وصحب البريّة برأى من[٦] يعلم أنّ للمتعة حدًّا ، وللعاريّة رَدًّا ، ولقد نُعِى إلىّ أبو قبيصة قدّس الله رُوحه ، وبرَّد ضريحه ، فعُرِضت علىَّ آمالى قُعودا ، وأمانىَّ سوداً ، وبكيت ؛ والسخىُّ جودُه بما يملك ، وضحكت ، وشرُّ الشدائد ما يُضْحِك ، وعضضت الأصبع

---

(١) رسائل البديع : ١٣١ . (٢) الجفلى : الدعوة العامة .
(٣) فى الرسائل : فلينظر . (٤) فى الرسائل : من رفع من حوائل الدهر ما ساء ليذهب ما ضر بما نفع . (٥) فى الرسائل : جزعا .
(٦) فى الرسائل : وصحب الدهر برأى من يعلم .

حتى أَدْمَيْتُه ، وذممت الموتُ حتى تمنَّيته ؛ والموتُ أطال الله بقاءَ الشيخ الرئيس خَطْبٌ قد عظُم حتى هان ، وأمرٌ قد خشُن حتى لَانَ ، ونُكْرٌ قد عَمَّ حتى عادَ عرفا ؛ والدنيا قد تنكّرت حتى صار الموتُ أَخَفَّ خطوبها ، وخَبُثَتْ حتى صار أقلَّ عيوبِها ، ولعل هـذا السهم قد صاب آخر ما فى كِنَانتها ، وأنْـكأ (١) ما فى خزانتها ، ونحنُ معاشر التّبع نتعلمُ الأدبَ من أخلاقه ، والجميلَ من أفعاله ، فلا نحثّه على الجميل وهو الصَّبْر ، ولا نرغِّبه فى الجزيل وهو الأَجر ، فلْيَرَ فيهما رَأْيَه إن شاء الله .

رسالة إلى بعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب كتبه يهنّيـه بمرض أَبى بكر الخوارزمى وكانت بينهما مُقَارَعة ، ومنازعة ، ومنافَرة ، ومهاتَرة ؛ ولهما مجالس مستظرفة قهره البديع فيها وبهره ، وبكّته حتى أَسْـكته ، ليس هـذا موضعها ، لـكنى أَذْكُر بعد هذه الرسالة بعضَ مكاتبات جرَتْ بينهما ، إذ كان ما لهما من الابتداء والجواب آخذاً بوَصلِ الحِـكمة وفَصْلِ الخطاب :

الحرُّ (٢) أَطال الله بقاءكـ ـ لا سيما إذا عرف الدهرَ معرفتى ، ووصف أَحوالَه صفتى ـ إذا نظر علم أنَّ نِعَمَ الدَّهرِ ما دامت معدومة فهى أَمانىّ ، وإن وُجدت فهى عَوَارى ، وأنّ مِحنَ الأيامِ وإن طالت فستنفد ، وإن لم تصب فـكأنْ قَد ، فـكيف يشمت بالمِحْنَة مَنْ لا يأمنُها فى نَفْسِه ، ولا يَعْدَمُها فى جِنْسِه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يَمُتْ فسيموت ؛ وما أَقْبَحَ الشماتة ، بمن أَمِنَ الإماتة ، فـكيف بمَنْ يتوقَّعُها ، بعد كل لحظة ، وعَقِبَ كلِّ لفظة ، والدَّهْرُ غرْثَان (٣) طُعْمه الخِيَار ، وظمآن شِرْبُه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكِلِه ، أم يُسَرُّ العاقلُ بسلاحِ قاتله ؟ وهذا الفاضلُ شفاه الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلا فقدباطَنّاهُ وُدًّا جميلا ، والحرُّ عند الحَمِيَّـةِ لا يصطادُ ، ولـكنه عند الـكرم يَنْقادُ ، وعند الشدائد تَذْهَبُ الأحقاد ،

---

(١) فى الرسائل : ولعل هذا السهم آخر ما فى كنانتها وأربى .

(٢) الرسائل : ١١٦ . (٣) غرثان : جوعان .

فلا تتصور حالتى إلا بصورتها من التوجُّع لعلَّته ، والتحزُّن لمرضته ، وقاهُ اللهُ المكروه ، ووقانى سماعَ المحذور فيه ، بمَنِّه وحَوْله ولُطْفِه وطَوْله .

بينه وبين الخوارزمى

قال البديع فى سياقة أخباره مع أبى بكر الخوارزمى[١] :

أولها أَنا وطئنا خُرَاسانَ ، فما اختَرْنَا إلّا نيسابور داراً ، وإلّا جوار السادة جِوَارا ، لا جرم أنا حطَطْنَا بها الرَّحْلَ ، ومدَدْنَا عليها الطُّنُب[٢] ، وقديما كنا نَسْمَعُ بحديث هـذا الفاضل فنتشوَّقه ، ونخبره على الغَيْبِ فنتعشّقه ، ونقدّر أَنا إذا وطئنا أَرْضَه ، ووردْنا بلدَه ، يخرج لنا فى العِشرة عن القِشْرَة ، وفى المودَّةِ عن الجلدة ، فقد كانت كلمةُ الغُرْبَة جمعتنا ، ولُحْمَةُ الأدب نَظَمَتْنَا ، وقد قال شاعر القوم غير مدافع :

أجارتنا إنّا غريبان هاهُنا   وكلُّ غريبٍ للغريبِ نَسِيبُ

فأَخلف ذلك الظنّ كلَّ الإخلاف، واختلف ذلك التقدير كلَّ الاختلاف ، وكان قد اتفق علينا فى الطريق من العرب اتفاقٌ[٣] ، لم يوجبه استحقاقٌ ، من بزَّة بَزُّوها[٤] ، وفِضَّة فضّوها ، وذهب ذَهَبُوا به ، ووردنا نيسابور براحةٍ ، أَنْقَى من الراحة ، وكِيسٍ أخْلَى من جَوْفِ حمار ، وزِى أوْحش من طلعة المعلم ، بل اطلاعة الرقيب ، فما حَلَلْنَا إلاَّ قصبة جواره ، ولا وَطِئْنَا إلا عتبة دارِه ؛ وهذا بعد رُقْعَةٍ قدَّمْنَاها[٥] ، وأحوالِ أُنْسٍ نظمناها ـ ونسخة الرقعة : إنا بقُرْبِ الأستاذ أطال اللهُ بقاه كما طَرِب النَّشْوَان مالَتْ به الخمرُ ، ومن الارتياح للقائه كماانتفض العُصفُور بَلّلَه القَطْرُ ، ومن الامتزاج بولائه كما التقَت الصَّهْباء والبارد العَذْبُ ، ومن الابتهاج لمزاره[٦] كما اهتزّ تحت البارِح الغُصْن الرَّطْبُ ، فكيف نَشاطُ الأستاذ سيدى

---

(١) الرسائل : ١٨ .   (٢) أصل الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد .

(٣) هكذا فى ط ، والرسائل ، وفى ق : قد أنفق علينا فى الطريق إنفاق .

(٤) فى ق : من بز بزوه .   (٥) فى الرسائل : كتبناها .

(٦) فى الرسائل : لمرآه .

لصديقٍ طرأ إليه ممّا بين قَصَبتى العراق وخُرَاسان ، بل عتبتى نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف :

رثّ الشمائل مُخْلَق الأثْوابِ   بَكَرَتْ عليه مُغيرَةُ الأعْرَابِ

وهو — أيّده الله — ولىُّ إنعامه ، بإنفاذ غُلامه ، إلى مستَقرّى ، لأُفْضِى إليه بما عندى إن شاء الله — فلما أخذتنا عَيْنُه سقانا الدُّرْدِىّ(١) من أوَّلِ دَنّه ، وأجْنَانا سوءَ سوءَ العِشرة من باكورة فنّه ، من طَرْفٍ نَظَر بشَطرِه ، وقيامٍ دَفَع فى صَدْرِه ، وصديقٍ استهان بقَدْرِه ، وضيف استخفّ بأمره ؛ لكنا أقطعناه جانب أخْلاقه ، ووَلّيناه خطَّة نفاقه ؛ فواصلناه إذ جانَب ، وقارَبْناه إذ جاذب ، وشَرِبناه على كُدُورته، ولَبِسناه على خُشُونته ، ورَدَدْنا الأمر فى ذلك إلى زِىّ استغثّه ، ولباس استرثّه ، وكاتبناه نستمِدُّ وِداده ، ونستلِينُ قيادَه ، ونُقِيمُ مُنْآدَه ، بما هذه نسخته :

الأستاذ أبو بكر ، واللهُ يطيل بقاءه ، أزْرَى بضيفه أنْ وجده يَضْرِبُ إليه آباط القلَّة، فى أطمار الغُرْبَة، فأعمل فى رُتْبَتِه أعمالَ المصارفة(٢)، وفى الاهتزاز إليه أصناف المضايقة ، من إيماء بنِصْفِ الطَّرْف، وإشارة بشَطْرِ الكف ، ودَفْعٍ فى صدر القيام عن التمام ، ومَضْغٍ للكلام، وتكلُّفٍ لردِّ السلام ؛ وقد قبلت ترتيبه صَعَراً(٣) ، واحتملته وزرا ، واحتضَنْته نكراً ، وتأبَّطته شرّا ، ولم آلهُ عُذْرا ؛ فإن المرءَ بالمال وثياب الجمال ، ولستُ مع هذه الحال وفى هذه الأسمال ، أتقزّز من صَفّ(٤) النعال ، فلو صدَقْتُه العتَاب ، وناقشته الحساب ، لقلت : إنَّ بوادِينا ثاغية صباح(٥) ، وراغية رَوَاح ، وناسا يجرّون المَطارِف ، ولا يمنعون المعارف :

---

(١) دردى الزيت : ما يبقى أسفله .   (٢) فى ق : فأعمل فى ترتيبه أعمال المصادقة .

(٣) الصعر : ميل فى الوجه ، ويكون تهاونا من كبر ، وربما يكون خلقة .

(٤) فى الرسائل : أتقزز صف النعال ، وفى س ، ق : أتقرر .   (٥) ثغت الشاة : صوتت.

وفيهم مقاماتٌ حِسَانٌ وجوهُهم وأَنْدِيَة يَنْتَابُها القَوْلُ والفِعْلُ

فلو طوّحت بأبى بكر ـ أيّده اللهُ ـ اليهم مطارِحُ[1] الغُرْبَة ، لوجد منزلَ البِشْرِ رحيبا ؛ ومحطَّ الرَّحْلِ قريبا ، ووَجه المضيف خصيبا ؛ فرأى الأستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه وُدّ ، والمرُّ الذى يَتْلُوه شهْد ، موفقاً إن شاء الله .

فأجاب بما نسخته[2] : وصلَتْ رُقْعَةُ سيدى ورئيسى أطال اللهُ بقاه إلى آخر السِّكْبَاج[3] ، وعرَفْت ما تضمّنه من خَشِنِ خطابه ، ومُؤْلِم عِتَابه ، وصرفت ذلك منه إلى الضَّجْرةِ التى لا يخلو منها مَنْ مسَّه عُسر أو نبَا به دَهر ؛ والحمد لله الذى جعلنى موضعَ أُنْسِه ، ومظنَّة مشتكَى مافى نفسه ، أما ما شكاه سيدى ورئيسى مِنْ مصانعتى[4] إياه فى القيام ، فقد وفيته حقّه ـ أيَّده اللهُ ـ سلاما وقياما ، على قَدْرِ ماقدَرْت عليه ، ووصلت إليه ، ولم أَرْفَعْ عليه إلا السيّد أبا البركات أدام الله عزه ، وما كنتُ لأَرفع أحداً على مَنْ أبوه[5] الرسول ، وأمُّه البَتُول[6] ، وشاهداه التوراة والإنجيل ، وناصراه التأويل والتنزيل ، والبشير به جبريل وميكائيل ؛ فأما القومُ الذين صدر عنهم سيدى فكما وصف : حسن عشرة ، وسداد طريقة ، وجمال[7] تفصيل وجملة ، ولقد جاوَرْتُهم فأحمدت المَراد ، ونلت المُراد :

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهلهُ فما عهد نجدٍ عندنا بذميمِ

والله يعلم نيّتى للأحرار كافة ، ولسيدى من بينهم خاصة ؛ فإن أعاننى الدهرُ على ما فى نفسى بلغتُ له مافى النيّة ، وجاوزْتُ به مسافةَ القَدْر والأمنية ، وإن قطع علىّ طريقَ عَزْمى بالمعارضة ، وسوء المناقضة ، صرفتُ عِنَانى عن طريق الاختيار ، بيد الاضطرار .

---

(١) فى س : مطاريح ، وفى الرسائل : طوارح . (٢) الرسائل ٢١ .
(٣) السكباج : قائمة ألوان الطعام ، ودواء . (٤) فى الرسائل : مضايقتى .
(٥) فى الرسائل : من جده . (٦) فاطمة بنت النبى . (٧) فى الرسائل : وكمال .

فما النفسُ إلاّ نطفة بقَرارةٍ إذا لم تكدّر كان صفواً غَدِيرُها[1]

وبعد ، فحبذا عتابُ سيدى إذا استوجَبْنَا عَتبا ، واقترفْنَا ذَنْبا ؛ فأما أن يسلفنا العَرْبَدة [2] فنحن نَصونهُ عن ذلك ، ونَصونُ أنفسنا عن احتماله ، ولستُ أَسومه أن يقول : ﴿ استَغْفِرْ لنا ذنوبَنا إنّا كنّا خاطئين ﴾ ، ولكن أسأله أن يقول : ﴿ لا تَثْريبَ عليكم اليومَ يغفر اللهُ لكم وهو أَرْحَمُ الراحمين ﴾ .

فحين ورَدَ الجواب وعينُ العُذْر رَمِدَة [3] تركناه بعرِّه ، وطوَيْناهُ على غَرّه ، وعمدنا إلى ذِكْرِه فسحَوْناه [4] ، ومن صحيفتنا مَحَوْناه ، وصِرْنا إلى اسمه ؛ فأخذناه ونبذناه ، وتنكّبْنَا خطته ، وتجنّبنا حِطّته [5] ، فلا طرنا إليه ، ولا طرنا به ، ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبّت الأيام ، ودَرَجت الليالى ، وتطاولَتِ المُدَّة ، وتصرَّم الشهرُ ، وصِرْنا لا نُعِيرُ الأسماعَ ذِكْرَه ، ولا نودع الصدورَ حَديثَه ؛ وجعل هذا الفاضل يستزيد ، ويستعيد ، بألفاظ تقطعها الأسماع من لسانه ، وتؤدّيها إلىّ ، وكلمات تحفظها[6] الألسنة من فمه ، وتُعيدها علىّ ؛ فكاتبناه بما هذه نسخته [7] :

أنا أَرِدُ من الأستاذ سيدى ـ أطال الله بقاه ـ شرعة وُدِّه وإن لم تَصْفُ ، وألْبَس خلعة برِّه وإن لم تَضْفُ ، وقصارَاى أن أكيله صاعا عن مدّ ؛ فإنى وإنْ كنتُ فى الأدب دَعِيَّ النَّسب ، ضيق المُضْطَرَب ، سيء المنقلَب ، أمتُّ إلى عشرة أهله بنيقة ، وأنزع إلى خِدْمَة أصْحابه بطريقة ، ولكن بَقِى أن يكون الخليطُ مُنْصِفا فى الوداد ، إذا زرت زَارَ ، وإنْ عُدْتُ عاد ، وسيدى ـ أبقاه الله ـ ناقشنى فى القبول أَولا ، وصارَمَنى فى الإقبال آخرا ؛ فأَما حديثُ الاستقبال وأَمْرُ الإنزال والأنزال [8] ، فنِطَاقُ الطمع ضيّق عنه ، غيرُ متسع لتوقّعه منه ، وبعد فكلفة الفَضْلِ بيِّنة ، وفروض

---

(١) فى الرسائل : معينها . (٢) العربدة : سوء الخلق . (٣) فى الرسائل : رائدة .

(٤) سحاه : جرفه ، والشعر حلقه . (٥) فى الرسائل : خلطته .

(٦) فى الرسائل : تخطفها . (٧) الرسائل ٢٢ . (٨) الأنزال : جمع نزل وهو المنزل ، وما يهيأ للضيف أن ينزل عليه .

الودِّ متعيّنة، وأَرْضُ العشرة ليِّنة، وطرقها هيِّنة ، فلِمَ اختار (١) قعود التَّعالِى مركبا، وصعودَ التغالى مَذْهَبا ؛ وهلاَّ ذاد الطيرَ عن شجر العِشْرَة ، وذاق الحُلْوَ من ثمرها ؛ فقد علم اللهُ أن شوقى إليه قد قدَّ (٢) الفؤادَ بَرْحاً إلى برح ، ونكأه قرحا إلى قرح، ولكنها مِرّة مُرّة ، ونَفْسٌ حرّة ، لم تُقَد إلا بالإعظام ، ولم تُلْق إلا بالجلال والإكرام ، وإذا استعفانى من معاتبته، فأعْفَى نفسه من كُلَف الفَضْلِ يتجشَّمها ، فليس إلاَّ غصص الشوق أَتَجرَّعُها ، وحلل الصَّبْرِ أتدرَّعها ، ولم أعره من نفسى ، وأنا لو أُعِرْتُ جناحَىْ طائر لما طِرْتُ إلاّ إليه ، ولا وقعت إلا عليه :

أحبك يا شَمْسَ النهارِ وبدرَهُ   وإنْ لامنى فيك السها والفَرَاقِدُ
وذاك لأنّ الفضلَ عندك باهرٌ   وليس لِأن العيشَ عندك بَارِدُ

فلما وردت عليه الرُّقعة حشَد تلاميذَه وخدَمه ، وجَشِم (٣) للإيجابِ قدمه ، وطَلَع علينا مع الفجر طلوعُه ، ونظمتنا حاشيتا دار الأمير أبى الطيب ؛ فقلنا : الآن تُشْرِق الحشمةُ وتنورِّ، ونُنْجِدُ فى العشرة ونغوِّر ، وقصدناه شاكرين لما أتاه (٤)، وانتظرنا عادةَ بِرِّه ، وتوقَّعْنَا مادَّةَ فضله ؛ فكان خُلّبا شِمْناه ، وآلاً ورَدْناه (٥)، وصرفنا فى تأخّره وتأخُّرنا عنه إلى ماقاله ابن المعتز :

إنَّا على البعاد والتفرُّقِ   لنَلْتَقِى بالذِّكْرِ إنْ لم نَلْتَقِ

وأنشَدنا قول ابن عصرنا :

أُحبك فى البتول وفى أبيها   ولكنى أُحبّك من بعيدِ

وبقينا نَلْتَقِى خيالا ، ونقنع بالذكر وصالا ، حتى جعلت عواصفه تهُبّ ، وعقاربه تَدبّ .

والمجلس طويلٌ جداً (٦) .

---

(١) فى الرسائل : فلم أختر .   (٢) فى الرسائل : قد كد ، وفى ق : قد قيد .
(٣) جشم الأمر : تكلفه على مشقة ، وفى الرسائل : وجشم الإيجاف قدمه ، وفى س : وحشم.   (٤) فى الرسائل : لما أتاه .   (٥) الخلب : البرق الكاذب ، والآل : السراب .
(٦) اختصره الحصرى ، وهو تام فى الرسائل كما أشرنا .

قلت : إن كنتُ خرجت لطولِ هذا الكلام عن ضبط الشرط ، فلعلى أُسامَح فيه لفضله ، وعدم مثله ، وهو وإن كان فى باب الاتصال ، فهو بتقدير الانفصال ، لقيامِ كلّ رسالةٍ بذاتها ، وانفرادِها بصفاتها .

كتابه إلى رئيس هراة

وكتب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد يصفُ ماجرى بينه وبين الخوارزمى[(١)] : ما أَلُومُ هذا الفاضل على بساط شرٍّ طواه ، وموقد حَرْبٍ احتواه ، ولكنى أَلُومُه على ما نواه ؛ ثم[(٢)] لم يتبع هواه ، ورَامَه ، ثم لم يبلغ آثامه ، وأقولُ : قد ضرب فأَيْنَ الإيجاع ، وأَنْذَر فأين الإيقاع ، وهذه بَوارِقه فأَيْنَ صواعقه ، وذلك وعيدُه فأين عديده ، وتلك بنودُه ، فأين جنودُه ، وأنشد :

* هذى معاهده فأين عهوده *

وما أَهْول رعده ، لو أمطر بمده ! اللهمّ لا كُفْرَان[(٣)] ، ولعن اللهُ الشيطان ، فإنَّه أشفق لغريب أن يُظْهِر عوارَه ، وإن طارَ طَوارَه ، وإنْ كان قصد هذا القَصْدَ فقد أساء إلى نفسه من حيث أَحْسَن إلىّ ، وأَجْحَفَ بفضله من حيث أَبقَى علىّ ، وأَوْهم الناسَ أنه هاب البَحْرَ أن يخوضَه ، والأَسد أنْ يرُوضَه ، وشجَّعنى على لقائه ، بعد ما برَعَنى[(٤)] بإعيائه ، فبينا كنت أُنشد :

* إنَّ جَنْبى على[(٥)] الفراشِ لَنَابِ * إذ أنشدت :

* طاب لَيلِى وطاب فيه شَرَابِى * وبينا أنا أقول : * ما لقلبى كأنه ليس منى * إذْ قلت : * أين مَنْ كان مُوعِداً لى بأَنى[(٦)] * فلو أنَّ[(٧)] هذا الفاضلَ قضى حقَّنا بالزيارة عند قدومِنا أو الاستزارة ، لكان فى الضَّرب أحسن ، وفى طريق المعاشرة

---

(١) الرسائل ٣١٧ . (٢) عبارة الرسائل : ثم لم يبلغ هواه . وأراده ثم لم يور زناده ، ورامه ثم لم يبلغ مرامه . (٣) عبارة الرسائل : ولا كفران فلعله أشفق على غريب . . . والعوار : العيب . (٤) برع صاحبه : غلبه . (٥) فى الرسائل : عن .

(٦) فى الرسائل : أين من كان قائلا أنا أعنى . (٧) هنا اختلاف كثير عما فى الرسائل .

أذهب .إلا ، ولكنه وعد بالمباراة أولا ، وهددنا بالمسائل ثانياً ، وأخلف بالتخلف ثالثا ؛ فأبلغ وجدى إليه ، واعرض شوقى عليه ، وقل له : إن كنت ندمت على النضال فلا تندم على الإفضال ، فإن طويتنا حيث الجهاد ، فانشرنا حيث الوداد ، وإن لم تلقنا فى باب المكاشرة [(١)] ، فأتنا من باب المعاشرة .

كتابه إلى سهل بن محمد

وله إلى الإمام أبى الطيب سهل بن محمد [(٢)] : قد كان الشيخ يعدنى عن هذه الحضرة عدات أشم لها الأنف ، لا ذهابا بتلك الفواضل عنها ، لكن استحالة من هذا الزمان أن يجود بها ؛ فحين أشرفت على الحضرة ماجت إلىّ أمواج الشرف منها ، وخلص إلىّ نسيم الكرم عنها ، وأتحفنى [(٣)] على رسم الإجلال بمركوب شامخ ، ومركب [(٤)] ذهب سابغ ، وجنيب [(٥)] شرف زائد ؛ وسرت بحمد الله محفوفا بأعيان الكتاب [(٦)] ، وعيون الرجال ، حتى شافهت بساط العز ، مستقبلا ملك الشرق أدام الله علوه ، فجذب بضبعىّ [(٧)] عن أرض الخدمة ، إلى جوار ولىّ النعمة ، حرس الله مكانه ، فاهتز اهتزازا فات سمة الإكرام ، وتجاوز اسم الإعظام إلى القيام، فقبلت من يمناه مفتاح الأرزاق ، وفتاح الآفاق ، ولحقت منه بقاب [(٨)] العقاب ، وخاطبنى بمخاطبات نشدت بها ضالة الكرام [(٩)] ، وهلم جرا إلى ما تبعها من جميل الإنزال ، وسنى الأجزال [(١٠)] .

وطرأت [(١١)] من الشيخ العميد على شخص يسعه الخاتم ولا يسعه العالم ، ويهتز عند المكارم كالغصن، ويثبت عند الشدائد كالركن [(١٢)] ، وسلطان يحلم حلم السيف مغمدا، ويغضب مجردا، فهو عندالكرم لين كصفحته، وعندالسياسة خشن كشفرته،

---

(١) كاشره : إذا ضحك فى وجهه وباسطه . (٢) الرسائل : ١٢١ .
(٣) فى الرسائل : وتلقيت. (٤) فى الرسائل : وموكب . (٥) فى الرسائل: وحنين شرف رائد . (٦) فى الرسائل : الكتائب . (٧) أى بعضدى . (٨) فى ط : ثقاب .
(٩) فى ق : الكرم ، وفى الرسائل : الآمال . (١٠) فى الرسائل : الأنزال .
(١١) فى الرسائل : نظرات من الشيخ . (١٢) فى الرسائل : كالنكر .

وملك يَأْبَى الكرمَ نيّة[١] ، والفضلَ سجيّة ، ويفعل الشرّ كُلْفَةً أو خطيّة ، فهو مَسْرُور بآلاته[٢] ، نَفُوع بذاته ، عطارد قَلَمُه ودَوَاتُه ، والمريخ سَيْفُه وقَنَاتُه ؛ عَيْبُه[٣] لا عَيْبَ فيه ، فيصرف عَيْن الكمال عن معاليه .

وصادفت من الشيخ الموفق أيّده الله ملكا يُشاهَدُ عِيَانا ، وجبلا قد سُمِّيَ إنسانا ، وحسنا قد مُلِئَ إحسانا ، وأسدا قد لقِّبَ سلطانا ، وبَحْراً قد أَمسك عِنَانا ، وحطَطْتُ رَحْلِي بفناء الأمير الفاضل أبي جعفر أدام الله عِزَّه ، فوجدت حكمى في ماله أنْفَذَ من حكمه ، وقَسْمِي من غِنَاه أَوْفَرَ من قَسْمه ، واسْمِي في ذاتِ يده مقدَّما على اسْمِه ، ويَدِي إلى خزانته أَسْرَعَ من يَدِه ، وإن قصدت أَنْ أُفْرِدَ لكلٍ مدحا[٤] ، وأعبر الجملة شرحاً ، أطَلْت ، فهلمّ جرّا إلى ما افتتحت الكتاب لأجله .

وردَ للخوارزمى كتاب يتقلّب فيه على جَنْبِ الحردِ ، ويتقلّى على جَمْرِ الضّجَر ، ويتأوّه من خُمار[٥] الخجل ، ويتعثَّرُ في أَذْيالِ الكَلَل ، ويذكر أنَّ الخاصة قد علمت لأَينا كان الفَلْج[٦] . فقلت : است البائن أعلم ، والخوارزمِى أعْرَف ، والأَخبار المتظاهرة [أعدل ، والآثار الظاهرة][٧] أصْدَق ، وحلبة السباق أحْكَم ، وما مضى بيننا أشْهد ، والعَوْدُ إن نشط أحْمد ، ومتى[٨] ، استزاد زِدْنا ، وإن عادت العقرب عُدْنا ، وله عندى إذا ما شاء ، كلُّ مَاسَاء[٩] !

وهى طويلة فيها هَنَات صُنْتُ الكتابَ عنها ، وقد أعاد البديع معنى قوله فى صدر حكايته مع الخوارزمى ، فقال فى رقعة كتبها إلى أبى سعيد الإسماعيلى ، وقد وقفت به الضرورةُ على تلك الصورة من سلب العرب ماله :

---

(١) فى الرسائل : نشية . (٢) فى ط ، ق : ضرورى لأنه . (٣) فى الرسائل : حسب .
(٤) فى الرسائل : أن أقرر ذلك مدحا . (٥) فى س : غمار . (٦) الفلج : الظفر .
(٧) من الرسائل . (٨) فى س : ومن . (٩) فى س : ما شاء ، وفى الرسائل : كل ما ساء وناء .

كتابه إلى الإسماعيلى

كتابى[1]، بل رُقْعتى، أطال الله بقاءَ الشيخ، وقد بكرت علىَّ مُغِيرَةُ الأعراب، كمهلهل، وربيعة بن مُكَدَّم، وعتيبة بن الحارث بن هشام[2]، وأنا أحمد الله إلى الشيخ الفاضل، وأَذمُّ الدهر؛ فما ترك لى من فِضَّةٍ إلّا فَضَّها، ولا ذهبٍ إلا ذَهب به، ولا عِلْق[3] إلّا عَلِقه، ولا عَقَار إلا عَقَرَه، ولا ضَيْعَة إلا أَضاعها، ولا مال إلا مال إليه، ولا سَبَد إلا استبدَّ به، ولا لَبَد[4] إلا لَبَد فيه، ولا بِزَّة إلّا بَزَّها، ولا عارية إلّا ارتجعها، ولا وَدِيعة إلا انتزعها، ولا خِلْعَة إلّا خلعها، وأنا داخل نيسابور ولا حِلْيَة إلا الجلدة، ولا بُرْدَ إلا القِشْرَة، والله ولِىُّ الخلف يعجِّله، والفرج يسهِّله، وهو حَسْبى ونعم الوكيل.

وليس البديع بأبى عذرة هذا الخطاب، وسترى نظير هذا المعنى فى هذا الكتاب.

ومن إنشائه فى مقامات أبى الفتح الإسكندرى

من مقاماته: المقامة الفزارية

قال[5]: حدَّثنى عيسى بن هشام قال: كنتُ فى بعض بلاد بنى فَزارة مرتحلا نَجيبة، وقائدا جَنِيبَة، يَسْبَحانِ سَبْحا، وأنا أهيم[6] بالوطن، فلا الليل يَثْنِينى بوعيده، ولا البُعد يُدْنِينى[7] ببيده، وظَلِلْتُ أَخْبط ورقَ النّهار بعصا التّسْيار، وأخوضُ بَطْنَ الليل بحوافر الخيل، فبينا أنا فى ليلةٍ يضلُّ بها الغَطَاط[8]، ولا يُبْصِر بها الوَطْوَاط، أَسْبَحُ ولا سانح إلا السبع، ولا بارح إلا الضّبع، إذ عنّ لى راكب تامّ الآلات، يطوى منشور الفَلَوات، فأخذنى منه ما يأخذُ الأَعْزَلُ من شاكى السلاح، لكنى تجلّدت فقلت: أرضَك لا أمّ لك! فدونك شَرْطُ الحِداد، وخَرْطُ القَتَاد، وخَصْمٌ ضخم، وحمية أَزْدِيّة، وأنا سِلْم إن شئت، وحَرْبٌ إن أردت،

---

(١) الرسائل ٦٨ . (٢) فى الرسائل: وعتبة بن الحارث بن شهاب .
(٣) العلق: النفيس من كل شىء . (٤) أصل السبد: القليل من الشعر . ويقال: ماله سبد ولا لبد؛ أى لا قليل ولا كثير . (٥) المقامات ٧٤ . (٦) فى المقامات: أهم .
(٧) فى المقامات: يلوينى . (٨) الغطاط: القطا .

فقل : من أنت ؟ قال : سلماً أصبت ، وخيراً أجبت ، قلت : فمن أَنت ؟ قال : نصيح إن شاورت ، فصيح إنْ حاوَرْت ، ودون اسمى لِثام ، لا تُميطه الأَعلام . قلت : فما الطُّعْمة ؟ قال : أَجُوب جُيوبَ البلاد ، حتى أَقع على جَفْنَة جواد ، ولِى فؤاد يَخْدُمه لسان ، وبيانٌ يَرْقُمه بنَان ، وقصارَاىَ كريمٌ ينفض إلىّ حقيبته ، ويخفّف[1] لى جَنيبته ، كابن حُرّة طلع إلىّ بالأمس طُلوع الشمس ، وغرب عنى بغُروبها ، لكنه غاب ولم يَغِبْ تذكارُه ، وودَّع وشيّعَتْنى آثارُه ، ولا ينبئك عَنْها أقربُ منها ، وأوماً إلى ما كان يَلْبسه ، فقلت : شحاذ وربّ الكعبة أَخاذ ، له فى الصَّنْعة نفَاذ ؛ بل هو فيها أستاذ ، ولا بد أن ترْشَح له وتَسِحَّ عليه ، وقلت له : يا فتى ، قد أجليت عبارتك ، فأين شعرُك من كلامك ؟ فقال : وأَين كلامى من شِعْرِى ! ثم استمدّ غريزته ، ورفع عَقيرته بصوت ملأ الوادى ، وأنشأ يقول :

وأَروَعَ أَهداه لِىَ الليل والفلا ... وخَمسٌ تمسّ الأرض لكن كلا ولا
عَرَضْتُ على نارِ المكارمِ عُودَهُ ... فكانَ مُعمًّا فى السوابق[2] مُخْوِلا
وخادَعْتُه عن ماله فخَدَعْتُه ... وساهَلْتُه فى بِرّه فتسهَّلا
ولما تجالَينا وأحمدَ مَنْطِق ... بَلانىَ فى نَظْمِ القريض بما بَلا
فما هَزَّ إلا صارماً حين هزَّنى ... ولم يَلْقَنى إلا إلى السَّبْقِ أَوّلا
فلم أَرَه إلا أغرَّ[3] محجّباً ... وما تحته إلا أَغرّ محجَّلا

فقلت : على رِسْلِك يا فتى ، ولك مما يصحبنى حكمك . فقال : الجنيبة ، قلت : إنَّ ، وما عليها[4] . ثم قبضت بجُمْعى عليه ، وقلت : لا والله الذى أَلهمها لَمسا ، وشقّها من واحدة خَمْسا ، لا تُزايلنا أو نَعْلَمَ عِلْمك ، فحدَر لِثامه عن وَجْهه ، فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فما لبثت أن قلت :

توشّحتَ أَبا الفتح ... بهذا السيفِ مُختالا

---

(١) فى المقامات : ويخفض . (٢) فى المقامات : فى السيادة .

(٣) فى المقامات : محجلا. (٤) فى المقامات : فقال : الحقيبة بما فيها . فقلت : إن وحاملتها .

وما تصنعُ بالسيف إذا لم تَكُ قتّالا
[فصُغْ ما أنت حليت به سيفَك خلْخَالا](١)

[بعض طرف الأدب]

نسب ورحم

وعلى ذكر قوله : « إنَّ وما عليها » قال أبو عبيدة : وفد عبدُ الله بن الزبير الأسدى على عبد الله بن الزبير بن العوام فقال : يا أميرَ المؤمنين، إنّ بينى وبينك رَحِما من قِبَل فلانة الكاهلية ؛ هى أُختنا ، وقد ولدتكم ، وأنا ابنُ فلان ؛ ففلانة عمّتى . فقال ابنُ الزبير : هذا كما ذكرت ، وإن فكّرت فى هذا أصبت ، الناسُ كلهم يرجعون إلى أبٍ واحد ، وأم واحدة .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ نَفَقَتى قد ذَهَبَتْ . قال : ما كنت ضمنت لأهلك أنها تكفيك إلى أنْ ترْجع إليهم . قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن ناقتى قد نَقِبت ودَبِرَتْ(٢) . فقال له : أنْجد بها يَبْرُد خفّها ، وارفعها بسِبْت ، واخْصِفها بهُلْب(٣) ، وسِرْ عليها البَرْدين . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما جئتك مستَحْمِلا ، ولم آتك مستوصفا ، لعن اللهُ ناقةً حملتنى إليك . قال ابنُ الزبير : إنَّ وراكبها ! فخرج وهو يقول :

أَرَى الحاجاتِ عند أبى خُبَيْب(٤) نَكِدْنَ ولا أُمَيَّةَ فى البلادِ
من الأَعياص(٥) أو مِنْ آل حَرْبٍ أغرّ كغُرَّةِ الفرس الجوادِ
ومالى حين أَقْطَع ذات عرقٍ إلى ابنِ الكاهلية من مَفاد
وقلت لصحبتى أَدْنُوا ركابى أفارقُ بَطْنَ مكَّةَ فى سَوَادِ

---

(١) من س، والمقامات . (٢) نقب الخف : تخرق ، والبعير : حفى أو رقت أخفافه ، والدبر : قرحة الدابة . (٣) السبت : كل جلد مدبوغ ، خصف النعل : خرزها ، الهلب : الشعر كله ، أو شعر الخنزير الذى يخرز به . (٤) أبو خبيب : عبد الله بن الزبير .
(٥) الأعياص من قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر .

فبلغ شعره هـذا عبد الله بن الزبير ، فقال : لو علم أنّ لى أُمًّا أَحسن من عمته الـكاهلية لنسبنى إليها ، وكان ابنُ الزبير يكنى أَبا بكر وأَبا خبيب .

رثاء فرس

قال الصولى : أخذ المعتصم من محمد بن عبد الملك الزيات فرساً أَشهب أَحمّ[1] ، كان عنده مَكِينا ، وكان به ضَنينا ، فقال يَرْثيه :

قالوا جزعت فقلتُ إنّ مصيبةً ... جلّت رزيّتُها وضاق المذهبُ

قال أبو بكر : هكذا أَنشدنيه ابنُ المعتز على أن (إنَّ) بمعنى نعم ، وأنشد النحويون :

قالوا : كَبرتَ فقلتُ إن وربمـا ... ذَكَرَ الـكبيرُ شبابَه فتطرّبا

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيله ... عنَّا فودّعنا الأَحمُّ الأَشْهَبُ

دبّ الوُشاةُ فباعدوه ، وربمـا ... بَعُدَ الفتى وهو الحبيبُ الأَقْرَبُ

لله يومَ غدوت فيـه ظاعناً ... وسُلِبْتُ قُرْبَك أىَّ عِلْقٍ[2] أُسْلَبُ

نفسى مقسّمة أقام فَرِيقُها ... ومضى لِطِيَّتِه فريقٌ يُجْنَبُ

الآن إِذْ كَمُلَتْ أداتُك كلُّها ... ودعا العيونَ إليك حُسْنٌ مُعْجِبُ

وغدوت طَنّان اللّجام كأنمـا ... فى كل عُضْوٍ منك صَنْجٌ[3] يُضْرَبُ

وكأنّ سَرْجَك[4] ، إذْ عَلاك ، غمامةٌ ... وكأنمـا تحت الغمامة كَوْكَبُ

أُنْساكَ ؟ لا زَالَتْ إذاً منسيـةً ... نفسى ، ولا بَرِحَتْ بمثلك تنكب

أضْمَرْتُ منك اليأْسَ حين رأيتنى ... وقُوَى حبالى مِنْ حِبالِك تُقْضَبُ

يا صاحبيَّ لمثـل ذَا من أمرِهِ ... صَحِبَ الفتى فى دَهْرِه من يَصْحَبُ

إنْ تُسْعِدا فصنيعةٌ مشكورةٌ ... أو تَخْذُلا فصنيعةٌ لا تَذْهَبُ

عُوجا فقولا مرحبا وتزوّدا ... نظراً ، وقَلّ لمن تُحِبُّ المرحب

(١) لونه بين الـكمتة والدهمة ودون الحوة .
(٢) العلق : النفيس من كل شىء .
(٣) الصنج : شىء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار يضرب بها .
(٤) فى س ، ق : سرحك .

منعَ الرقادَ جوًى تضمَّنَه الحَشَى ... ممـا أُكابده وهَمٌّ مُنْصِب

[المزاح]

قال الحجاج بن يوسف لابن القِرِّيَّـة : مازالت الحـكماء تَـكْرَهُ المُزَاح، وتَنْهَى عنه ، فقال : المُزَاح من أدْنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المُزَاح أوله فرَح ، وآخره ترَح . المزاح نقائضُ السفهاء كالشِّعْرِ نقائض الشعراء . والمزاح يُوغِر صدْرَ الصديق ، وينفِّر الرفيق . والمزاح يُبْدِى السرائر ؛ لأَنه يظهر المَعَايِر[1] . والمزاح يُسْقِطُ المروءة ، ويبدى الخنى . لم يجُرَّ المزح خيراً ، وكثيراً ما جرَّ شرًّا . الغالب بالمزاح وَاتِر ، والمغلوب به ثائر . والمزاح يجلب الشتمَ صغيرُه والحرب كبيرُه ، وليس بعد الحرب إلا عفوٌ بعد قدرة .

فقال الحجاج : حسبك ، الموت خيرٌ من عَفْو معه قدرة .

وذُكِر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال : يُنْشِق أحدُكم أخاه مثل الخَرْدَل، ويُفْرِغُ عليه مثل المِرْجل ، ويَرْميه بمثل الجَنْدل . ثم يقول : إنما كنت أمزح !

أخذ هذا المعنى محمود بن الحسين الوراق فقال :

تَلْقَى الفتى يَلْقَى أَخاهُ وخِدْنَهُ ... فى لَحْنِ مَنْطِقِه بمـا لا يُغفرُ

ويقول : كنت ممازحاً ومُلَاعباً ... هيهات نارُك فى الحشى تَتَسعَّر !

أو ما علمت وكان جهلك غالباً ... أنَّ المُزَاحَ هو السِّبَابُ الأَصغر

فقر فى هذا النحو لأهل العصر وغيرهم

المُزَاحة[2] تَذْهَبُ بالمهابة ، وتُورِثُ الضغينة . الإفراط فى المُزَاح مُجون، والاقتصاد فيه ظَرْف ، والتقصير عنه نَدامة ؛ أوكد أسباب القطيعة المِرَاء والمُزَاح .

ابن المعتز — من كَثُر مُزَاحَه لم يَخْـل من استخفافٍ به أو حِقْدٍ عليه .

---

(١) المعاير : المعايب . (٢) المزاحة : المزاح .

قال أيوب بن القِرِّيَّة : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل الدِّينُ شريعته، والحلم طبيعته ، والرأْيُ الحسنُ سجيَّته؛ إن سُئل أجاب ، وإن نطق أصاب، وإن سَمِعَ العلم وَعَى ، وإن حدّث روى . وأما الأحمق فإنْ تكلّم عَجِل ؛ وإن حدّث وَهِل (١) ، وإن استُنْزِل عن رأيه نزل ، فإن حُمِل على القبيح حَمل . وأمّا الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حدّثته شانَك ، وإن وثقت به لم يرعَك ، وإن استُكْتِم لم يكْتُم ، وإن عُلِّم لم يعلم، وإن حُدِّث لم يفهم ، وإن فُقِّه لم يَفْقَه .

[الطِيرة والزَّجْر]

قال أبو حية النميرى (٢) :

جَرَى يَوْمَ رُحْنَا عامدين (٣) لأَرضنا ... سَنيحٌ فقال القوم : مرَّ سَنيحُ
فهاب رجالٌ منهمُ فتعيفوا (٤) ... فقلت لهم جارى إلىّ ربيحُ
عُقابٌ بأعقابٍ من الدار بعد ما ... نَأَتْ نَأْيةٌ بالظاعنين طَرِيحُ
وقالوا حمامات فحُمَّ لِقاؤها ... وطَلْحٌ فنيلت (٥) والمطىُّ طَليحُ
وقال صحابِى هُدْهُدٌ فوق بانةٍ ... هُدًى وبيانٌ بالنجاح يلوحُ
وقالوا دمٌ دامَتْ مواثيقُ بيننا ... ودام لنا حُلْوُ الصفاء صَريح
لَعيناكِ يومَ البين أسْرَعُ وا كِفاً ... من الفَنَنِ الممطور وهو مَرُوحُ (٦)
ونسوةِ شَحْشَاحٍ غَيُورٍ يَخَفْنَهُ ... أخى ثقةٍ يَلْهُونَ وهو مُشيحُ (٧)
يقلن وما يَدْرِين أنى (٨) سمعتهُ ... وهنَّ بأبواب الخِيام جُنُوحُ
أهذا الذى غنّى بسمراء مَوْهِناً ... أتاحَ له حسنَ الغناء مُتيحُ

(١) وهل : ضعف وفزع . (٢) اللآلىء : ٢٤٣ ، الأمالى : ١ــ ٦٩ .
(٣) فى ق : عامرين . (٤) العائف : المتكهن بالطير أو غيرها . وفى الأمالى : وتقاعسوا
(٥) فى الأمالى : فزيرت . (٦) مروح : أصابته الرياح . (٧) فى ق : يلهين. مشيح : محيل حريص . (٨) فى الأمالى : عنى ، قال هناك : عنى بمعنى أنى بإبدال الهمزة عينا ، وتسمى قيس وتميم هذا الإبدال عنعنة ، وفى س : سمعنه .

إذا ما تغنَّى أَنَّ مِنْ بَعْدِ زَفْرَةٍ   كما أنَّ من حَرِّ السلاح جَرِيحُ

وقائلةٍ يا دَهْم وَيْحَك ! إنهُ   على مابه من غُنّةٍ [1] لمليحُ

فلو أنَّ قولا يجرح الجلد قد بدا   بجلدِىَ من قول الوُشَاة قروح

وهذا من غريب الزجرّ مليح التفاؤل .

قال أبو العباس محمد بن يزيد أنشدنى أعرابىّ فى قصيدة ذى الرمة التى أوّلها [2] :

ألا يَا اسْلَمى يادَارَ مىَّ عَلَى البِلَى   ولا زَالَ مُنْهَلاًّ بجَرْعائِكِ [3] الْقَطْرُ

بيتين لم يروهما الرواة فى ديوانه وهما :

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قَضْبةٍ   من القَضْبِ [4] لم يَنْبُتْ لها وَرَقٌ خُضْرُ

فقلت غرابٌ لاغترابٍ وقَضْبةٌ   لقَضْبِ النوى هذى العيافةُ والزَّجْرُ

وقال آخر

دعا صُرَدٌ [5] يوماً على غُصْنِ بانةٍ   وصاح بذات البين منها غُرَابُها

فقلت أتَصْرِيدٌ [6] وشَحْطٌ وغُرْبَةٌ   فهذا لعمرى نَأْيُهَا واغْتِرابُها

النهى عن الطيرة

وقد أكثرت العرب من ذكر الطِّيَرة ، والزَّجْرِ ، وكانت تقتدى بذلك وتجرى على حكمه ، حتى ورد النَّهْىُ فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا عَدْوَى ولا طِيَرة . وقد قال الأول :

لعمرك ماتَدْرِى الضَّوَارِبُ بالحصى   ولا زَاجِراتُ الطَّيْرِ ما اللهُ صانعُ

---

(١) فى الأمالى : على غنة فى صوته . (٢) ديوانه ٦٤ .

(٣) الجرعة : الرملة الطيبة المنبت ، أوالأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل، أوالكثيب جانب منه رمل وجانب منه حجارة كالأجرع والجرعاء. (٤) القضبة : القضيب : الغصن. والقضب: كل شجرة طالت وبسطت أغصانها . (٥) صرد : طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير .

(٦) التصريد : التقليل، وفى السقى دون الرى .

وقال ضابئ بن الحارث البرجمى :

وماعاجلات الطير تدرى من الفتى نجاحاً ولا عن ريثهن تخيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
ورب أمورٍ لا تضيرك ضيرة وللقلب من مخشاتهن وجيب

وقال الكميت بن زيد الأسدى :

ولا أنا ممن يزجر الطير همه أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشيةً أمر سليم القرن أم مر أعضب[1]

وقال شاعر قديم[2] :

لا يمنعنك من بغا ء الخير تعقاد التمائم
ولا التشاؤم بالعطا س ولا التيامن بالمقاسم
فلقد غدوت وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتم[3]
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خير ولا شر على أحدٍ بدائم
قد خط ذلك فى الزبو ر الأوليات القدائم

ولقد أحسن ابن كناسة فى رثاء ولده يحيى، أنشده أبو العباس ثعلب :

تيممت فيه الفأل حتى رزئته ولم أدرِ أن الفال فيه يفيل[4]
فسميته يحيى ليحيا فلم يكن إلى ردِّ أمرِ الله فيه سبيل

كثير عزة يتطير

وروى المدائنى قال[5] خرج كثير من الحجاز يريد مصر ، فلما قرب منها نزل بمنزل ، فإذا هو بغراب على شجرة بانٍ ينتف ريشه وينعب ؛ فأسرع الرحيل ،

(١) الأعضب : المكسور القرن الداخل ، وقد يكون العضب فى الأذن أيضا .

(٢) اللسان ـ مادة حتم ، عيون الأخبار ١ ـ ١٤٥ ، وقد نسبت هناك إلى المرقش .

(٣) فى ط : وحائم . والحاتم : المشئوم والأسود من كل شىء كما فى اللسان ، وفى عيون الأخبار : الواق : الصرد ، والحاتم : الغراب الأسود ، وكانت العرب تتشاءم بهما .

(٤) يفيل : يخطئ . (٥) عيون الأخبار ١ ـ ١٤٧ .

ومضى لوجهه ؛ فلقيه رجلٌ من بنى نَهْد ، فقال : يا أخا الحجاز ؛ مالى أراكَ كاسِفَ اللون ؟ قال : ما علمت إلا خيراً ، قال : فهل رأيت فى طريقك شيئاً أنْكَرْته ؟ قال : لا والله إلا فى منزلى هذا ، فإنى رأيتُ غراباً يَنْتِف رِيشَه على بانة وَيَنْعِب . قال : أما إنك تطلب حاجةً لا تدركها .

فقدم مصر والناسُ منصرفون من جنازة عزة ، فقال :

رأيتُ غراباً ساقطاً فَوْقَ بانةٍ ... يُنَتِّفُ أعْلى رِيشه ويطايِرُهْ
فقلت : ولو أنى أشاء زجرتُهُ ... بنفسىَ ، للنهدىّ هل أنت زاجره؟
فقال : غراب لاغترابٍ من النوى ... وفى البانِ بَيْنٌ من حبيب تجاوِرهْ
فما أعيفَ النهدِىَّ لا دَرَّ دَرُّهُ ... وأزجرَه للطير ، لا عَزَّ ناصِرُه

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل ، وهو يقول[1] :

أقولُ ونِضْوى واقفٌ عند رأسها ... عليك سلامُ الله والعَيْنُ تَسْفَحُ
فهذا فراقُ الحق لا أن تُزيرنى ... بلادَكِ فتلاءُ الذراعين صَيْدَحُ[2]
وقد كنت أبكى من فراقك حيّة ... وأنتِ لعمرى اليومَ أنأى وأنزَحُ

التطير بالإبل

وقال جرير[3] :

بَانَ الخليطُ برامَتَيْن فوَدَّعُوا ... أوَ كُلَّمَا نعبوا[4] لبَيْنٍ تَجْزَعُ
إن السَّوانح[5] بالضُّحَى هَيَّجْنَنِى ... فى دارِ زَيْنَبَ والحمامُ الوُقَّعُ

وقال عوف الراهب خلاف هذا :

غلط الذين رأيتهم بجهالةٍ ... يَلْحُونَ كلُّهم غراباً يَنْعَق
ما الذنبُ إلّا للأباعر إنها ... مما يشتِّت جميعَهم ويفرّق
إنّ الغرابَ بيُمْنِه تَدْنُو النَّوى ... وتُشَتِّتُ الشملَ الجميعَ الأَيْنُق

---

(١) المعاهد ٢ـ١٤٦ . (٢) صيدح : الفرس الشديد الصوت ، والصياح الصيت.
(٣) ديوانه ٣٤٠ . (٤) فى الديوان : رفعوا . (٥) فى الديوان : الشواحج
وفى س : السواحج .

وقد تبعه فى هذا المذهب أبو الشيص فقال :

ما فرَّق الأحبابَ بَعْـ ـدَ اللهِ إلّا الإبلُ
والناس يَلْحَوْن غُرا بَ البين لَمَّا جهلوا
وما على ظَهْرِ غُرا بِ البَيْنِ تُطوى الرّحل
ولا إذا صاح غُرا بٌ فى الديار احتملوا
وما غرابُ البين إلْـ ـلا ناقةٌ أو جَمَلُ

وما أملح ما قال القائل :

زعموا بأَنَّ مطيهم عَوْنُ النوى والمؤْذِناتُ بفُرْقَةِ الأَحبابِ
وَلَوَ انّها حَتْفِى لما أبْغَضْتُها ولها بهم سببٌ من الأَسبابِ

ابن الرومى وتطيره

وكان على بن العباس الرومى مُفْرِطَ الطِّيَرَة ، شديدَ الغلوّ فيها . قال علىّ بن عبدالله بن المسيب : وكان يحتجُّ لها ، ويقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يُحِبُّ الفأل ، ويَكْرَه الطِّيَرَة ؛ أفتراه كان يتفاءلُ بالشىء ، ولا يتطيَّر من ضدِّه ؟

ويقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ برجل وهو يَرْحَل[1] ناقةً ويقول : يا ملعونة ، فقال : لايَصْحَبُنا ملعون ، وإن عليا رضى الله عنه كان لا يَغْزُو غَزاة[2] والقمرُ فى العقرب ، ويزعم أنّ الطيرة موجودةٌ فى الطباع قائمةٌ فيها ، وأنّ بعضَ الناس هى فى طباعهم أَظهر منها فى بعض ، وأن الأكثرَ فى الناس إذا لقى ما يكرهُه قال : على وَجْهِ من أصبحت اليوم .

فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى إلىّ عدةٌ من جوارى القيان ، وكانت فيهنّ صبيَّةٌ حَوْلَاء ، وعجوزٌ فى إحدى عينيها نكتة ، فتطيَّر من ذلك ، ولم يُظهِرْ لى أمره ، وأقام باقى يومه ؛ فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى

(١) رحل البعير : حط عليه الرحل . (٢) فى س : لا يغزى غزيا .

من بعض السطوح ، وجفاه القاسم بن عبيد الله ، فجعل سبب ذلك المغنيين المغنيتين ، وكتب إلى [1] :

أيها المتحفّى بحُولٍ وعُورٍ ... أين كانت عنك الوجوهُ الحسانُ
قد لعَمْرِى ركبت أمرا مهينا [2] ... ساءنى فيك أيها الخُلْصَانُ [3]
فتحُكَ المهرجان بالحُول والعُو ... رِ أرانا ما أعْقَب المهرجانُ
كان من ذاك فقدُك ابنتَك الحرْ ... رَة مصبوغةً بها الأكفانُ
وتجافى مؤمَّلٍ لى جليلٍ [4] ... لجَّ فيه الجفاءُ والهِجْرانُ
وعزيز علىَّ تقريع خلٍّ ... لا يُدانيه عندىَ الخُلاَّنُ
غير أنى رأيت إذكاره الحز ... م وإشعارهُ شِعاراً يُصانُ
لا تَهاوَنْ بطيرة أيّها النظ ... ار واعْلَمْ بأنها عُنْوان
قف إذا طيرة تلقّتك وانظُرْ ... واستمع ثَمَّ ما يقولُ الزّمانُ
قَلَّما غاب من أمورك عنوا ... ن مبين وللزّمانِ لِسَانُ
لا تكن بالهوى تكذّب بالأخ ... بارِ حتى تهين مالا يُهان [5]
لا يَقُدْكَ الهوى إلى نصرة الأخْ ... بارِ حتى يقدّم البرهان [6]
إن عُقْبى الهوى هُوِىٌّ وعُقْبى ... طول تلك المهوِّنات [7] هَوان
لا تصدق عن النبيين إلاّ ... بحديث يلوحُ فيه البيان
خبَّر الله أنَّ مشأمةً كا ... نت لقومٍ وخبَّر القرآن
أفزُور الحديث تقبل أم ما ... قاله ذُو الجلال والفُرْقَانُ
أترى من يرى البشيرُ بشيرا ... يَمْتَرى فى النذير يا وَسْنَانُ
فدع الهزل والتضاحك بالطـ ... ـيرة والنصح مُثْمِنٌ مجّان

(١) ديوانه : ١٧٢ . (٢) فى الديوان : مهيبا . (٣) الخلصان : الخالص المودة .
(٤) فى الديوان : خليل . (٥) ليس هذا البيت فى ديوانه المطبوع بأيدينا .
(٦) فى الديوان : حتى تهين مالا يهان . (٧) فى الديوان : التهاونات .

وقد فرّق حُذَّاقُ أهل النظر فى المقال ، بين الطيرة والفأل ، فقالوا : الطيرة كانت العرب ترجِعُ إلى ما تمضيها ، وتَجْرِى على تقضِّيها ، وكان الذى يهُمُّ بهم إذا ما رأى ما يتطيَّر منه رجع عنه ؛ وفى ذلك ما يصرف عن الإحالة على المقادير الجارية بيد مُمْضيها ، النازلة على حكم قاضيها . والفَأْل لا يردّ المريد عما يريد إنما يقوى مُنّته ، ويَسُرُّ مهجته ؛ وليس هذا موضع تطويل ، فى إيراد الدليل .

***

عتاب ابن الرومى للقاسم بن عبيد الله

وفى جفاء القاسم بن عبيد الله إياه يقول معاتباً :

ألم ترنى أَقرضتك الودَّ طائعا	ولم تر قبلى مُعسِراً قط أَقْرَضا
لعمرى لقد صوّرت أبيض مُشرِقاً	فلِمْ لا تُرِينى وَجْهَ نُعماك أبيضا
فياويح مولاك استغاث بمشربٍ	فأشرق فاستشفى شفاء فأفرضا(١)
ولولا اعتقادى أنك الخيرُ كلهُ	لأَزْمَعْتُ توديعاً، قضى الله ماقضَى
وإنى وإن دارَتْ علىّ دوائرٌ	لَأُعْرِض عمَّنْ صدَّ عنى وأَعْرَضا
وما زلت عَزَّافا إذا الزاد رابَنى	بخبثٍ وعيّافا إذا الماء عَرْمَضا(٢)

وهذا البيت كقول الآخر :

وإنى لِلْماءِ المخالط للقذَى	إذا كثرت وُرَّاده لعيُوفُ

رثاء ابن الرومى لابنة المسيبى

وفى ابنة المسيبى يقول ابن الرومى(٣) يعزّيه :

أخا ثقتى أعزز علىّ بنكبةٍ(٤)	مَناك بها صَرْفُ القضاءِ المقدَّرُ
أُصِبتَ، وماللمرء(٥) من حُكمِ ربّه	محيدٌ(٦) وأمرُ الله أعْلى وأقهرُ
وقد مات من لا يخلف الدهر مثلَهُ	عليك من الأسلاف والحقُّ يَبْهَرُ
تعزيت عمن أثمرتك حياتهُ	ووَشْك التعزِّى عن ثمارِك أجدرُ

---

(١) أفرض : شرب من الفرضة ، وهى المشرع . (٢) عرمض : خبث وطحلب .
(٣) ديوانه : ١٠٤ . (٤) فى الديوان : بنوبة . (٥) فى الديوان : للعبد عن .
(٦) فى الديوان : محيص .

لأن اختيال الدهر فى ابن وفى ابنةٍ ... يسيرٌ وكرُّ الدهرِ شيخيك أعْسَرُ
تعذَّر أن نعتاض من أمهاتنا ... وآبائنا والنسل لا يتعذّر
فلا تهلِكنْ حُزْناً على ابنة جنةٍ ... مضت(١) وهى عندالله تحيا(٢) وتُحْبَرُ
لعلّ الذى أعطاك ستر حياتها ... كساها من اللَّحْدِ الذى هو أسْتَرُ
فكم من أخى حرية قد رأيتهُ ... بنارِ ذوى الأصهار يكوى ويُصهر
فلا تتهم لله فيها ولايةً ... ولا نظراً فاللهُ للعبد أنظرُ
وأنت وإن أبصرت رشدك مرةً ... فذو النظرِ الأعلى برشدك أبْصَرُ

من تعازيه

ومن مليح تعازيه عن أبيه قوله لعلىّ بن يحيى المنجم :

لا تبعدنَّ كريمة أودعتها ... صِهْرًا من الأصهار لا يخزيكا
إنى لأَرْجُو أنْ يكونَ صداقَها ... من جنة الفردوس ما يرضيكا
لا تيأسنَّ لها فقد زوَّجتها ... كفؤا وضمَّنت الصَّداق مليكا

[موت البنات]

وقال عبيد اللهِ بن عبد الله بن طاهر :

لكل أبى بنت يرجّى بقاؤها ... ثلاثةُ أصهار إذا ذُكر الصّهْرُ
فبيتٌ يغطيها وبَعْلٌ يَصُونُها ... وقبر يُوَارِيها وخيرهما القَبْرُ

وقال عقيل بن علقمة وكان أغير العرب :

إنى وإن سِيق إلىَّ المهرُ ... ألفٌ وعُبدانٌ وذَوْدٌ عشرُ
أحبُّ أصهارى إلىَّ القبرُ

ومنه أخذ عبيد الله . قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد دخل علينا ابن خلف البهرانى فأنشدنا :

لولا أُمَيْمَةُ لم أجزع من العدمِ ... ولم أجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظلمِ

(١) فى الديوان : غدت .   (٢) فى الديوان : تجبى .

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى   أنَّ اليتيمةَ يَجْفُوها ذوو الرَّحِمِ
أُحاذِرُ الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها   فيهتك الستر عن لَحْمٍ على وَضَمِ
تَهوى حياتى وأهوى موتها شفقا   والموتُ أكرمُ نزَّال على الحُرَمِ

وكانت أميمة بنت أخته وكان قد تبنَّاها ، ثم غابت غيبة ، فسألناه عنها فأنشد :

أمست أُميمة مغموراً بهـا الرَّجَمُ   لدى صعيدٍ عليه التُّربُ مُرْتكِمُ[1]
يا شِقَّة[2] النفس إن النفسَ والهةٌ   حرَّى عليك ودَمْع العين مُنْسِجم
قد كنت أخشى عليها أن يؤخرها   عنى الحِمام فيُبْدِى وجهَها العُدُمُ[3]
فالآن نمت فلا همٌّ يُؤَرِّقنى   تَهْدَا العيونُ إذا ما أوْدَت الحُرَمُ
فالآن نمت فلا همٌّ يُؤَرِّقنى   بعد الهدوء ولا وَجْد[4] ولا حُـلُمُ
للموت عندى أيادٍ لست أنـكرها   أحيا سروراً وبى مما أتى ألم

[رجع إلى تطير ابن الرومى]

عاد ذكر ابن الرومى ــ وكان أبو الحسن على بن سليمان الأخفش غلام أبى العباس المبرد فى عصر ابن الرومى شابًّا مترفاً ، ومليحاً مستظرَفاً ، وكان يعبث به ، فيأتيه بسَحَر فيقرع الباب ، فيقال له : مَن ؟ فيقول : قولوا لأبى الحسن مُرة بن حنظلة ، فيتطيّر لقوله ، ويقيم الأيام لا يخرجُ من داره ، وذلك كان سبب هجائه إياه ، فمن أول ما عاتبه به[5] :

قولوا لنحوينا أبى حسن   إن حسامى متى ضربت مَضى
وإنَّ نبلى إذا هممت بأَنْ   أرْمِى نَصَلْتُها بجَمْرِ غَضا
لاتحسبنّ الهجاء يحفل بالرفـ   ـع ولا خفض خافضٍ خَفَضا

(١) الرجم : القبر وحجارة تنصب على القبر . والمرتـكم : المتراكم .
(٢) الشقة : نصف الشىء إذا نشق .   (٣) العدم : فقد المال .   (٤) حزن .
(٥) ديوانه : ١٠٨ .

ولا تَخَلْ عودتى كباديتى   سأسْعَطُ السمّ من أبى الحضَضا
أعرف فى الأشقياء[1] بى رجلا   لا يَنْتَهِى أو يصير لى غَرَضَاَ
يُلِيح[2] لى صَفْحَةَ السلامة والـ   ـلم ويُخْفِى فى قلبـه مَرَضا
أضحى مغيظا علىّ أنْ غضب الـ   ـلّه عليه ، ونِلْتُ منه رضا
وليس تُجْدِى[3] عليه موعظتى   إن قدّر الله حَيْنَهُ وقضى
كأننى بالشقىِّ معتـذرا   إذا القوافى أذَقْنَهُ المَضَضاَ
ينشدنى العهد يوم ذلك والـ   ـعهدُ خضاب إذا له قبضا[4]
لا يأمَنَنَّ السفيـهُ بَادِرَتى   فإننى عارِضٌ لِمَنْ عَرَضا
عندى له السوط إن تلوّم[5] فى الـ   ـسير وعندى اللّجام إن رَكَضا
أسمعت إنْبَاضَتى[6] أبا حسن   والصفحُ لاشكّ نصحُ من محَضَا
وهو معافى من السهاد فلا   يحمل فيمسى فراشه قَضَضاَ[7]
أقسمت بالله لا غفرت لهُ   إنْ واحدٌ من عُروقِهِ نَبضاَ

فاعتذر إليه ، وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد . وكان الأخفش أكثر الناس إخوانا ؛ فقبل عذره ، ومدحه بقصيدته التى يقول فيها[8] :

ذُكِرَ الأخفش القديمُ فقلنا   إن للأخفش الحديثِ لفَضْلاَ
وإذا ماحكمت ـ والرومُ قومى ـ   فى كلام مُعرَّب كنت عَدْلا
أنا بين الخصوم فيـه غريبٌ   لا أرى الزّور للمُحاباة أهْلا
ومتى قلت باطلا لم ألقَّب   فيلسوفا ولم أسمَّ[9] هِرَقْلا

***

(١) فى الديوان : أعرف بالأشقياء . (٢) كل من لمع بشىء وأظهره فقد لاح به ولوّح وألاح ، وفى ق : يبيح . (٣) فى ق : تجرى . (٤) هكذا فى ق ، س ، وفى ط : يوم ذاك وللعهد خضاب أذاله فنضا . (٥) تلوم فى الأمر : تمكث . (٦) أصل الإنباض : أن تمد الوتر ثم ترسله فتسمع له صوتا . (٧) القضض : التراب يعلو الفراش . (٨) ديوانه : ٤٦٥ .
(٩) فى الديوان : أسوّد .

الأخفش

الأخفش القديم هو أبو الخطاب ، وكان أحد أستاذى سيبويه ، وهو من المتقدّمين فى النحو ، ويُعْرَف بالأخفش الكبير ، وكان فى عصر سيبويه أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، وهو الأَخْفش الصغير ، وهو الذى قال : كان سيبويه يَعْرِض ما وَضَع من النحو علىّ ، ويرى أنى أعلمُ منه ، وكان فى وقته ذلك أعلم منى .

ثم عاد على بن سليمان إلى أذاه ، واتصل به أنَّ رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعَن عليها ، فقال قصيدته التى يقولُ فيها[1] :

أعتقتُ عبدىَّ فى القريض معا عبدةَ والفَحْل[2] من بنى عبده
إن أنا لم أَرم[3] بالإساءة مَنْ زَاغَ عن القَصْد أو أَبى سددَه[4]
قلت لمن قال لى عرضت على الْـ أخفش ما قلته فما حَمِدَهْ
قصرت بالشعر حين تعرضه على مبين العمى إذا انتقدهْ
أنشدته مَنْطِقى ليشهدَه فغاب عنه عمًى وما شَهِدَهْ
مابلغت بى الخطوب رتبة مَنْ تَفْهَمُ عنه الكلابُ والقِرَدَه
ولا أنَا المفهم البهائم والـ طير سليمان قاهر المَرَدَه
فإن يقل إننى حفظت[5] فكالـ دفتر جَهْلًا بكل ما اعْتَقَدَه
سأُسمع النـاسَ ذَمَّه أبداً ما سَمِعَ اللهُ حَمْدَ مَنْ حمده

عَبْدة بن الطبيب ، وعلقمة بن عبدة الفحل ، وكانا شاعرين مجيدين ، وقال علقمة ابن عَبْدة لرجل ورأى آخر يعتذرُ إليه وهو معبّس فى وجهه : إذا اعتذر إليك المعتذر فتلقّه بوجهٍ مُشْرِق ، وبِشْر مطلَق ؛ لينبسط المتذلّل ، ويؤمّن المتنصّل .

* * *

(١) ديوانه : ٢٨٩ . (٢) فى ق : العجل ، والفحل هو علقمة .
(٣) فى الديوان : أجز . (٤) فى الديوان : رشده . (٥) فى الديوان : رويت.

ولابن الرومى فى الأخفش إفحاش صُنْتُ الكتابَ عنه . قال [١] علىّ بن إبراهيم كاتب مسروق البلخى : كنت بدارى جالسا فإذا حجارةٌ سقطَتْ بالقرب منى ، فبادرتُ هاربا ، وأمرتُ الغلام بالصعود إلى السَّطْح ، والنظر إلى كل ناحية ؛ من أَين تأتينا الحجارة ، فقال : امرأةٌ من دارِ ابن الرومى الشاعر ! قد تشوّفتْ [٢] ، وقالت: اتقوا الله فينا ، واسقونا جَرَّة من ماء ، وإلاَّ هلَكْنَا ، فقدمات من عندنا عطشا.

فتقدمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذاتِ عَقْل ومعرفة أَنْ تصعدَ إليها وتخاطبَها ، ففعلَتْ وبادرتْ بالجرّة ، وأَتْبَعَتْها شيئا من المأكول ؛ ثم عادت إلىّ فقالت : ذكرتِ المرأةُ أنّ الباب عليها مقفلٌ من ثلاث بسببِ طِيَرةِ ابن الرومى ، وذلك أنه يَلْبَس ثيابَه كلَّ يوم ، ويتعوَّذُ ثم يصيرُ إلى الباب ، والمِفْتَاحُ معه ، فيضَعُ عينَه على ثَقْبٍ فى خشب الباب ، فتقعُ عينُه على جارٍ له كان نازلا بإزائه ؛ وكان أَحْدَب يقعُد كل يومٍ على بابه ، فإذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه ، وقال : لا يفتح أحدٌ البابَ .

فعجبتُ لحديثها ، وبعثتُ بخادمٍ كان لى يعرفه فأمرتُه بأَن يجلسَ بإزائه — وكانت العينُ تَميلُ إليه — وتقدّمت إلى بعض أَعوانى أَن يَدْعوَ الجار الأَحدب ؛ فلما حضر عندى أرسلتُ وراءَ غلامى، لينهض إلى ابن الرومى، ويستَدْعيه الحضور؛ فإنى لجالسٌ ومعى الأَحدب إذْ وافى أبو حذيفة الطَّرَسُوسِىّ ومعه بِرْذَعَة الموسوس صاحبُ المعتضد، ودخل ابنُ الرومى فلما تخطّى عتبة باب الصَّحْن عَثَر فانقطع شِسْعُ [٣] نَعْلِه ، فدخل مذعورا ؛ وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدلّ على تغيُّرِ حالٍ ؛ فدخل وهو لا يَرَى جارَه المتطيّر منه ، فقلت له : يا أبا الحسن ؛ أيكون شىءٌ فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ، ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقنى ما رَأَيت من العَثْرَة ، لأنى فكرت أَنَّ به عاهة ! وهى قطع أُنْثَيَيْه ، قال بِرْذَعَة : وشيخُنا

---

(١) معجم الأدباء : ١٣ — ٢٩٦ . (٢) تشوفت : نظرت وتطاولت .

(٣) الشسع : أحد سيور النعل .

يتطيَّر ؟ قلت : نعم ويُفرط ، قال : ومن هو؟ قلت : على بن العباس[1]. قال الشاعر؟ قلت : نعم . فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهرَ يُؤْذِنُ صَرْفُه ... بتفريقِ ما بينى وبين الحبائبِ
رجعتُ إلى نفسى فوطَّنْتُها على ... ركوبِ جميلِ الصَّبْرِ عند النوائبِ
ومَنْ صَحِبَ الدنيا على جَوْرِ حُكْمِها ... فأيامُه محفوفةٌ بالمصائبِ
فَخُذْ خُلْسَةً من كل يومٍ تعيشُه ... وكُنْ حَذِراً من كامِنَاتِ العواقبِ
ودعْ عنكَ ذِكْرَ الفألِ والزّجْرِ واطَّرِح ... تطيُّرَ جارٍ أو تَفاؤُلَ صَاحِبِ

فبقى ابن الرومى باهتا ينظرُ إليه ، ولم أَدْرِ أنه شَغَل قَلْبَه بحفظ ما أنشده، ثم قام أبو حذيفة وبِرْذَعة معه ، فحلف ابنُ الرومى لا يتطيَّر أبدا من هذا ولا مِنْ غيره ، وأومأ إلى جاره فقلت : وهذا الفكر أيضاً من التطيّر ، فأمسك ، وعجب من جودة الشعر ومعناه ، وحُسن مَأْتاهُ ، فقلت له : ليتنا كَتَبْناه ! قال : اكتبه فقد حفظته ، وأملاه علىّ .

ومن شدة حذره ، وعظيم تطيّره ، قوله لأبى العباس بن ثوابة[2] وقد نَدَبَه إلى الخروج إليه وركوب دجلة[3] :

حَضَضْتُ[4] على حَطْبى لِنارى فَلاتَدَعْ ، ... لكَ الخَيْرُ ، تَحْذِيرى شُرُورَ المَحاطِبِ
ومَنْ يَلْقَ مالاقَيْتُ فى كُلِّ مُجْتَنًى ... من الشَّوْكِ يَزْهَدْ فى الثّمارِ الأطَايبِ
أذاقتْنىَ الأسْفَارُ ما كَرَّهَ الغِنَى ... إلىّ وأَغْرانى برَفْضِ المَطَالِبِ
وَمِنْ نَكْبَةٍ لاقَيْتُها بعد نَكْبَةٍ ... رَهِبْتُ اعتِسَاف[5] الأرْضِ ذَاتِ المَناكِبِ
فَصَبْرِى على الإقْتَارِ أيْسَرُ مَطْلَباً ... على مِنَ التّغْرِيرِ بَعْدَ التّجَارِبِ
لَقِيتُ من البرّ التّبَارِيحَ بَعْدَمَا ... لَقِيتُ مِنَ البَحْرِ ابيضاضَ الذّوائبِ

---

(١) اسم ابن الرومى .   (٢) اسمه أحمد بن ثوابة .   (٣) ديوانه صفحة ٢٦٠ .
(٤) فى س ، ق : حططت.   (٥) الاعتساف: الذهاب فى الطريق على غير هداية .

سُقِيتُ على رَيٍّ (١) به ألفَ مَطرةٍ — شُغِفْتُ لِبُغْضِيها بِحُبِّ المَجادِبِ
ولم أَبْغِها (٢) بل ساقَها لِمَكيدتى — تلاعُبُ (٣) دَهْرٍ جَدَّ بى كالمُلاعِبِ
أَبَى أنْ يُغيثَ الأرضَ حتى إذا رَمَتْ (٤) — بِرَحْلى أتاها بالغُيوثِ السَّواكِبِ
سقَى الأرضَ من أجلى فأضْحَتْ مَزَلَّةً (٥) — تَمايَلَ صاحِيها تَمايُلَ شارِبِ
فمِلْتُ إلى خانٍ مُرِثٍّ بِناؤُهُ — مَميلَ غريقِ الثَّوْبِ لَهْفانَ لاغِبِ
فما زِلْتُ فى جوعٍ وخَوْفٍ وَوَحْشَةٍ — وفى سَهَرٍ يَسْتَغْرِقُ الليلَ واصِبِ
يُؤَرِّقُنى سَقْفٌ كأنى تحتَهُ — من الوَكْفِ تحتَ المُدْجِناتِ (٦) الهَواضِبِ
يَظَلُّ (٧) إذا ما الطِّينُ أثقلَ مَتْنَهُ — تَصِرُّ نَواحيهِ صَريرَ الجنادِبِ
وكم خانِ سَفْرٍ خانَ فانقَضَّ فوقَهمْ — كما انقَضَّ صَقْرُ الدَّجْنِ فَوْقَ الأرانبِ
وما زالَ ضاحِى البَرِّ يَضْرِبُ أهلَهُ — بِسَوْطَىْ عذابٍ جامدٍ بعدَ ذائبِ
فإنْ فاتَهُ قَطْرٌ وثَلْجٌ فإنَّهُ — رَهينٌ بسافٍ تارةً وبحاصبِ
فذاكَ بلاءُ البَرِّ عِندى شاتياً — وكم لِىَ من صَيْفٍ به ذى مَثالِبِ
ألا رُبَّ نارٍ بالفَضاءِ اصْطَلَيْتُها — من الضِّحِّ يُودِى لَفْحُها بالحواجِبِ (٨)
فَدَعْ عنكَ ذِكْرَ البَرِّ إنى رأيتُهُ — لِمَنْ خافَ هَوْلَ البحرِ شَرَّ المَهارِبِ (٩)
وما زالَ يَبْغِينى الحُتوفَ مُوارِباً — يَحُومُ على قَتْلى وغيرَ مُوارِبِ
فطَوْراً يُغادِينى بِلِصٍّ مُصَلَّتٍ — وطوراً يُمَسِّينى بوِرْدِ الشَّوارِبِ
وأمّا بَلاءُ البحرِ عندى فإنهُ — طَوانِى على رَوْعٍ مع الرَّوحِ واقِبِ (١٠)
ولو ثابَ عقلى لم أدَعْ ذِكْرَ بعضِهِ — ولكنَّهُ من هَوْلِه غيرُ ثائبِ
ولِمْ لا ولو أُلْقِيتُ فيه وصخرةً — لَوافَيْتُ منهُ القَعْرَ أوَّلَ راسِبِ

---

(١) فى س : ربى . (٢) فى الديوان : ولم أسقها . (٣) فى الديوان : تحامق .
(٤) فى الديوان : إذا ارتمت . (٥) فى ط : مدلة . (٦) الوكف : أن يقطر الماء من سقف البيت . وفى س : المرجيات . (٧) فى الديوان : تراه .
(٨) الضح ، بالكسر : الشمس . (٩) فى الديوان : المهاوب ، وقال شارحه : هى جمع مهوب : أى المكان الذى يهاب فيه . (١٠) واقب : مستكن .

ولم أتعلَّمْ قَطُّ من ذى سِباحَةٍ سِوَى الغَوْصِ والمَضْعُوفُ[١] غيرُ مُغالِبِ
وأيْسَرُ[٢] إشْفاقِى من الماءِ أنَّنى أمُرُّ به فى الكوزِ مَرَّ المُجانِبِ
وأخْشَى الرَّدَى منهُ على كل شارِبٍ فكيف بأَمْنِيهِ على نَفْسِ[٣] راكِبِ

أَخذه من قول أبى نُوَاس وقد رأى التمساح بمصرَ أخذَ رجلا :

أَضْمَرْتُ للنيلِ هجرانا ومَقْلِيَةً مُذْ[٤] قيلَ لى إنَّما التمساحُ فى النيلِ
فمن رأَى النيل رَأْىَ العين عن كَثَبٍ ! فما أرى النيل إلّا فى البَراقيل[٥]

رجع

أظلُّ إذا هَزَّتهُ ريحٌ ولَألَأَتْ لهُ الشمسُ أمْواجاً طوالَ الغَوارِبِ
كأنّى أرى فيهنّ فُرْسانَ بُهْمَةٍ يليحُون[٦] نحوى بالسيوفِ القَواضِبِ
فإنْ قلتَ لى قد يُرْكَبُ اليَمُّ طامِياً ودِجْلَةُ عندَ اليَمِّ بعضُ المَذانِبِ[٧]
فلا عُذْرَ فيها لامْرِئٍ هابَ مِثْلَها وفى اللُّجَّةِ الخضْراءِ عُذْرٌ لِهائِبِ
لدِجْلَةَ خِبٌّ لَيْس لليَمِّ إنَّها تَراءَى[٨] بِحِلْمٍ تَحْتَهُ جَهْلُ واثِبِ
تَطامَنُ حتَّى تَطْمَئِنَّ قلوبُنا وتَغْضَبُ من مَزْحِ الرِّياحِ اللَّوَاعِبِ
ولِلْيَمِّ إنْذارٌ بِغَوْصِ مُتُونِهِ وما فيه من آذيِّه المُتَراكِبِ[٩]

وهى طويلة ، وفيما مرّ كفاية تنبئُ عنه وتدلّ عليه ، ولو مددت أطناب الاختيار لتَتَبُّع هذا النحو من شعره لخرجتُ عن غَرَضِ الكتاب .

[من مليح العيافة والزجر]

ومن مليح العيافة والزجر ما رواه الصُّولى ، قال : كان لأبى نواس إخْوانٌ

(١) المضعوف . الضعيف . (٢) فى الديوان : فأيسر . (٣) فى الديوان : على كل .
(٤) فى س : إذ . (٥) البندق الذى يرمى . (٦) يليحون : يشيرون .
(٧) المذنب : الجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها . (٨) فى الديوان : ترائى .
(٩) فى الديوان : إعذار بعرض ، والآذى : الموج .

لا يُفارِقُهم ، فاجتمعوا يوماً فى موضع أَخْفَوْه عنه ، ووجَّهوا إليه برسولٍ معه ظهرُ قرطاس أبيض ، لم يكتبوا فيه شيئاً ، نخزَمُوه بزيرٍ (١) ، وختموه بقَار ، وتقدموا إلى رسولهم ليرمِىَ بالكتاب من وراء الباب ؛ فلما رآه استعلم خبَرَهُمْ ، وعلم أنه مِنْ فِعْلِهِم ، فتعرَّفَ موضِعَهم وآثارَهم ، فأتاهم فأنشدهم (٢) :

وجدتُ كتابَكم لمّا أتانى ... يمرُّ بسانِح الطيرِ الجَوَارِى

نظرت إليه مخزوماً بزيرٍ ... على ظَهْرٍ ومختوما بِقَارِ

فقلت الزِّير ملهيةٌ (٣) وَلَهْوٌ ... وخِلْتُ القارَ من دَنِّ العُقار

وخِلْتُ الظَّهْرَ أَهْيَفَ قُرْطَقِيًّا ... يحيل العقلَ منه باحْوِرَارِ (٤)

فَهِمْتُ إليكمُ طَرَبا وشَوْقا ... فما أخطأتُ دارَكُمُ بدار

فكيف ترونى وترون وَجْدِى ... أَلَسْتُ من الفلاسفة الكِبَارِ !

وقال الطائى (٥) :

أتضعضعت (٦) عبراتُ عَيْنِك أَنْ دَعَتْ ... ورْقَاءُ حين تضعضعَ الإظْلَامُ

لا تنشجِنَّ (٧) لها فإنّ بُكَاءها ... ضَحِكٌ وإن بكاءَك استغرامُ

هنَّ الحَمَام وإنْ كَسَرْتَ عِيَافةً ... مِنْ حَائِهِنَّ فإنهنَّ حِمَامُ

***

الجمل الشاعر يأخذ معنى أبى تمام

وروى يَموت ابن المزروع قال : كان أحمدُ بن المدبر إذا مدحه شاعرٌ فلم يَرْضَ شِعْرَه قال لغلامه : امْضِ به إلى المسجد الجامع فلا تفارِقْه حتى يُصلِّى مائةَ ركعة ، ثم خلِّه ؛ فتحاماه الشعراء ، إلا الأفرادَ المجيدين ؛ فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصرى المعروف بالجمل ، فاستأذنه فى النشيد ، فقال : قد عرفت الشَّرْط ؟ قال : نعم . وأنشده (٨) :

---

(١) الزير : الكتان ، والدقيق من الأوتار . (٢) ليست فى ديوانه المطبوع بأيدينا .
(٣) فى س : ملهاة . (٤) القرطق : لبس . (٥) ديوانه : ٢٧٩ ، عيون الأخبار : ١ ــ ١٥٠ . (٦) فى ديوانه : اتحدرت . (٧) فى الديوان : لاتشجهن .
(٨) تحفة المجالس للسيوطى : ٣٥٥ .

أَرَدْنَا فى أَبى حسَن مَديحا ... كما بالمَدْحِ يُنْتجعُ الوُلاَةُ
فقلنا أَكرَمُ الثَّقَلَيْنِ طرًّا ... ومن كفَّاه دجلةُ والفراتُ
فقالوا : يقبل المدحات لكِنْ ... جوائزهُ عليهنّ الصَّلاة
فقلت لهم : وما تُغْنى صَلاَتى ... عيالى ! إنما الشأْنُ الزَّكاةُ
[فأما إذْ أَبَى إلا صَلاَتى ... وعاقتنى الهموم الشاغلاتُ](١)
فيأمر لى بكَسْرِ الصَّادِ منها ... فتصبح لى الصَّلاَةُ هى الصِّلاتُ

فضحك واستظرفه ، وقال : من أين أخذت هـذا ، قال من قول أبى تمام الطائى :

هن الحَمامُ فإن كَسَرْتَ عِيافةً ... مِنْ حَائِهِنَّ فإنهنَّ حِمَام

فأحسن صلته .

* * *

الميكالى وأهل مرو

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى لقوم من أَهل مَرْو انخلعوا عن طاعته :

يا راكبا أَضْحَى يَخُبُّ بعَنْسِهِ ... ليؤمَّ مَرْوَ على الطريق المَهْيَعِ (٢)
أَبْلِـغْ بها قَوْماً أثاروا فِتْنةً ... ظلّتْ لها الأَكبادُ رَهْنَ تقطّعِ
إذ أقدموا ظُلْماً على سُلْطَانهم ... بالغَدْرِ والخَلْعِ الذميم المفظعِ
وبحـلِّ عقْدِ لوائه وإباحةٍ ... لجنَابِه وحَرِيمِـه المتمنّـع
أبلغهمُ أنى اتخـذت لفعلهم ... فَأْلاً ، له فى القوم أَسْوَأُ مَوْقِع
أمَّا اللِّوَاءُ وحلّه فمخبِّرٌ ... عن حَلّ عقدٍ بينهم مُسْتَجْمِـع
والخلعُ يخبر أنْ ستُخْلَعُ عنهم الـ ... أرواحُ بالقَتْلِ الأشدِّ الأَشْنَعِ
والغدرُ ينبئ أنْ تُغَادَرَ فى الوَغَى ... أشلاؤهم لنُسوره والأَضْبُعِ
والفرقتان فشاهدٌ معنـاها ... بتفرُّقٍ لجميعهم وتَصَـدُّعِ

---

(١) من س . (٢) العنس : الناقة الصلبة . وطريق مهيع : بين .

فتسمَّعوا لمقــالتى وتأَهَّبُوا بذميم بَغْيكمُ لشرِّ المَصْرَعِ
فاللهُ ليس بغـافلٍ عن أمرِكم حتى تحـلَّ بكم عقوبةُ مُوجِع

صفة رجل للنظام

قال أبو عثمان الجاحظ : سمعت النظام ، وذكر عبد الوهاب الثَّقفى ، قال : هو أَحْلَى من أَمْنٍ بعد خوف ، وبُرْءٍ بعد سقم ، ومن خصب بعد جَدْب ، وغِـنًى بعد فَقْر ، ومن طاعة المحبوب ، وفرج المـكروب ، ومن الوصال الدائم ، والشباب الناعِم.

[ابن أبى دواد يعفو عن الجاحظ]

وكان الجاحظ مائلا عن ابنِ أبى دُواد إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، فلما نُـكِب محمد بن عبـد الملك أُدْخِل الجاحظُ على ابنِ أبى دُواد مقيّداً ، فقال له أحمد : والله ما أَعْلَمُك إلّا مُتناسِياً للنعمة ، كفوراً للصَّنيعة ، معدّداً للمساوى ، وما فُتّنى باستصلاحى لك ، ولـكن الأَيام لا تُصْلِح منك لفسادِ طويّتك ورداءة دَخِيلتك ، وسوء اختيارِك ، وتَغَالُبِ طباعك .

فقال الجاحظ : خفِّض عليك ، أَصلحك الله ، فوالله لأَنْ يكونَ لك الأمرُ علىّ خيرٌ من أن يكونَ لى عليك ، ولأَنْ أُسِىء[1] وتحسن أحسنُ فى الأُحْدُوثة من أن أُحْسِن فتسىء ؛ ولأَن تعفوَ عنى على حالِ قدرتِك علىّ أَجْمَلُ بك من الانتقام منى . فعفا عنه .

[عتبة وأعرابى]

قال سعد مولى عُتْبَة بن أبى سفيان : خطب عُتْبَة النـاسَ فى الموسم سـنة إحدى وأربعين ، والناسُ إذ ذاك حديثو عَهْدٍ بالفتنة ؛ فقال[2] قد وَلِينا هـذا المقام الذى يُضَاعَفُ فيـه للمحسن الأَجْرُ ، وللمُسِىء الوِزْر ؛ ونحن على سبيل قَصْد ،

(١) فى س : نسىء .
(٢) الأمالى : ١ ـ ٢٣٦ ، العقد الفريد : ٢ ـ ١٥٩ ، البيان والتبيين : ٣ ـ ٢٣٠ .

ولا تمدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا ؛ فإنها تُقْطَع دوننا ، فربَّ مُتَمَنٍّ أمراً حَتْفُه فى أُمنيته ؛ فاقبلوا منا العافية ما قبِلْنَاها منكم ؛ وأنا أسأل الله أن يُعِين كلاًّ على كلّ .

فناداه أعرابىٌّ من ناحية المسجد : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد . قال : يا أخاه ، قال : سمعتُ فقل ، فقال : والله لأَنْ تحسنوا وقد أسَأْنا خيرٌ من أن تُسيئوا وقد أحسنّا ، فإن كان الإحسان منكم فما أوْلاكم بإتمامه ، وإن كان منّا فما أوْلاكم بمكافأتنا عليه ، وأنا رجلٌ من بنى عامر بن صعصعة يمتُّ بالعمومة ، ويختصُّ بالخؤولة ، كَثُرَ عِيَاله ، ووَطِئه زمانُه ، [وبه فقر](١) وفيه أجر ، وعنده شُكْر .

فقال له عتبة : أستغفر الله منك ، وأستعين به عليك ، وقد أمَرْتُ لك بغناك ، فليت إسراعى إليك يقوم بإبطائى عنك !

[الجاحظ يستعطف ابن الزيات]

قال الجاحظ : تشاغلت مع الحسن بن وَهْب أخى سليمان بن وهب بشُرْبِ النبيذ أياماً ، فطلبنى محمدُ بن عبد الملك لمؤانسته ، فأُخْبِر باتصالِ شُغْلى مع الحسن بن وهب ، فتنكَّر لى ، وتلوَّن علىّ ؛ فكتبتُ إليه رقعة نسختها : أعاذكَ الله من سُوءِ الغَضَب ، وعَصَمَك مِن سَرَفِ الهوى ، وصَرَف ما أعارَكَ من القوّة إلى حبِّ الإنصاف ، ورجّح فى قلبك إيثار الأَناة ، فقد خِفْتُ ـ أيَّدكَ الله ـ أن أكون عندكَ من المنسوبين إلى نَزَقِ السفهاء ، ومُجَانَبة سُبُلِ الحكماء . وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت :

وإنَّ امرءًا أمسى وأصبح سَالِماً   من النــاس إلّا ماجَنَى لَسَعِيدُ

وقال الآخر :

ومن دعا النــاس إلى ذَمِّهِ   ذَمُّوهُ بالحقِّ وبالْبَاطِلِ

فإن كنتُ اجترأْتُ عليك ـ أصلحك الله ـ فلم أجترئْ إلّا لأنّ دوامَ تغافلك

---

(١) زيادة من المرجع السابق .

عنى شبيهٌ بالإهمال الذى يُورِثُ الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمنُ مِنَ المـكافأة ، ولذلك قال عُيَينة بن حِصْن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لِى منك أرْهَبنى فأَتْقَانى، وأعْطَانى فأَغنانى ، فإن كنت لا تَهَبُ عقابى ـ أيدك الله ـ الخدْمَة فهبْه لأَياديك عندى ؛ فإنّ النعمةَ تشفع فى النِّقْمة(١) ، وإلّا تفعلْ ذلك لذلك فعُدْ إلى حُسْن العادة ؛ وإلّا فافعَلْ ذلك لحُسْن الأحدوثة ؛ وإلا فأْتَ ما أنْتَ أهلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من استحقاق العقوبة ، فسبحان مَن جعلك تَعْفُو عن المتعمّد ، وتتجافى عن عقابِ المُصِرّ ، حتى إذا صرت إلى مَنْ هَفْوَته ذِكْر ، وذَنْبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكرَ إلّا لك. والإنعامَ إلّا منك ، هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم ـ أيَّدكَ الله ـ أَنَّ شَيْنَ غَضبك علىّ كزَيْنِ صَفْحِك عنى ، وأنّ موت ذِكْرى مع انقطاع سببى منك كحياةِ ذكرِك مع اتصال سببى بك ، واعلم أنّ لكَ فطنة عليم، وغَفْلَة كريم، والسلام.

[أعجب ما فى الإنسان]

قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أَعْجَبُ ما فى الإنسان قَلْبُه ، وله موادّ من الحِـكمة ، وأَضْدَاد من خِلَافها ؛ فإنْ سَنَح له الرجاء أذَلَّه الطمع ، وإن هاجه الطَّمَعُ أهلـكه الحِرْص ، وإن مَلَـكه اليَأْسُ قتله الأسَف ؛ وإن عرض له الغضب اشتدَّ به الغَيْظ ، وإنْ أسْعد بالرضا نَسِى التحفظ ، وإن أتاه الخوفُ شغلَه الحذَر ، وإن اتّسع له الأَمْن استلبته الغِرّة ، وإن أصابته مصيبة فَضَحه الجَزَع ، وإن استفاد مالًا أَطْغاه الغِنَى، وإنْ عضَّتْه فاقةٌ بلغ به البلاء، وإن جَهد به الجوعُ قعد به الضَّعْف، وإن أَفرط فى الشبع كَظَّتْه(٢) البِطْنَة . فـكلُّ تقصيرٍ مُضِرٌّ، وكلّ إفراطٍ له قَاتِل .

* * *

استطراد فى النقد

البيت الذى أنشد الجاحظ لعبد الرحمن بن حسان فى أبيات يقول فيها :

متى ما يرَى الناسُ الغنىَّ وجارُهُ فقيرٌ يقولوا : عاجزٌ وجَلِيدُ(٣)

---

(١) فى س : فى النعمة . (٢) كظه الطعام : ملأه حتى لا يطيق النفس .

(٣) جليد : قوى شديد .

وليس الغِـنَى والفَقْرُ من حيلةِ الفتى ... ولَـكِنْ أَحَاظٍ قُسِّمَتْ وجُدُودُ
وإن امرأ يُمسِي ويُصْبِحُ سالمـا ... من الناسِ إلّا ماجَـنَى لَسَعيد

والبيت الذى أنشده بعده لمحمد بن حازم الباهلى فى أبياتٍ يقول فيها :

إنْ كنتَ لا تَرْهَبُ ذَمِّى لمـا ... تعلم مِنْ صَفْحِى عن الجاهلِ
فاخْشَ سكوتى آذِناً مُنْصِتا ... فيك لمسموعِ خَـنَى القَائلِ
فسامعُ الشرِّ شَرِيكٌ لهُ ... ومُطْعِمُ المأكُولِ كالآكِلِ
مقـالة السوءِ إلى أهلِها ... أسْرَعُ مِنْ منحدرٍ سائلِ
ومَنْ دعا النـاسَ إلى ذَمّهِ ... ذَمُّوه بالحقِّ وبالبـاطلِ
فلاتهِجْ،إن كُنْتَ ذا إرْبَةٍ[1]، ... حَرْبَ أخِى التجربةِ الْغَافِلِ
فإنَّ ذا العقـلِ إذا هِجْتَهُ ... هِجْتَ به ذا خبَـلٍ خَابِلِ
تُبصِرُ به فى عاجلِ شَدّاتهِ ... عليك غِبَّ الضَّرَرِ الآجل

وفى ابن الزيات يقول الجاحظ[2] :

بَدَا حين أَثْرَى لإخوانهِ ... ففلَّلَ منهم[3] شَباةَ العَدَمْ
وأبصر كيف انتقالُ الزمانِ ... فبادَرَ بالعُرْفِ قبـل النَّدَمْ

[الجاحظ فى مرضه]

قال بعضُ البرامكة[4] : كنتُ أتقلّدُ السِّنْدَ ، فاتّصل بى أنى صُرِفْتُ عنها ، وكنتُ كَسَبْتُ ثلاثين ألف دينار ، فخِفْتُ أن يَفْجَأَنى الصارف ، ويُسْعَى إليـه بالمال ، فصُغْتُه عشرة آلاف إهْلِيلَجَة فى كل إهليلَجَة[5] ثلاثةُ مثاقيل ، وجعلتها

---

(١) الإربة : الدهاء والعقل . (٢) المختار من شعر بشار : ١٩٦ .
(٣) فى المختار : عنهم . وفلله : ثلمه . (٤) اللآلئ ١٩٨ .
(٥) الإهليلج : ثمر ، والواحدة بهاء ، ويظهر أنه صاغها على شكل هذا الثمر .

فى رَحْلى ، ولم أبعد أن جاء الصارف؛ فركِبْتُ البحرَ ، وانحدرتُ إلى البصرة ؛ نخُبِّرْتُ أن بها الجاحظ، وأنه عليل ؛ فأحببْت أن أراه قبل وفاته ، فصِرْتُ إليه ، فأفضيتُ إلى بابِ دارٍ لطيف ؛ فقَرَعْتُه فخرجت إلىّ خادمٌ صفراء ، فقالت: مَنْ أنت ؟ فقلت: رجل غريب أحَبّ أن يدخل إلى الشيخ فيُسَرّ بالنظرِ إليه . فأدَّتْ[1] ما قلت ، وكانت المسافةُ قريبةً لصغر الدهليز والحجرة ، فسمعتُه يقول : قولِى له : وما تَصْنَعُ بشِقٍّ مائل ، ولُعابٍ سائل ، ولَوْنٍ حائِل[2]؟ فأخبرتنى . فقلت : لابدّ من الوصول إليه ، فقال : هـذا رجل قد اجتاز بالبَصْرَة ، فسمع بى وبعِلّتى ، فقال : أراه قبل موته ؛ لأَقول : قد رأيت الجاحظ .

فدخلتُ فسلّمت فردّ ردًّا جميلا واستَدْنانى ، وقال : مَنْ تـكون ؟ أعزك الله ! فانتَسَبْتُ له ، فقال : رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد ، الـكرام الأمجاد ، فلقد كانت أيامُهم رَوْضَ الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خَلْق ، فسَقْياً لهم ورعياً ؛ فدعوتُ له ، وقلت : أنا أَسأَلُ الشيخ أن يُنْشِدَنى شيئاً من الشعر أذكره به ، فأنشدنى :

لئن قُدّمَتْ قبلى رِجالٌ فطالما مَشَيْتُ على رِسْلِى فكنت المقدَّما[3]
ولـكنّ هـذا الدهرَ تأتى صروفُه فتُبْرِمُ منقوضاً وتنقضُ مُبْرَما

ثم نهضتُ ، فلما قاربتُ الدهليز صاح بى فقال: يافتى؛ أرأيتَ مفلوجا يَنْفَعُه الإهليلج؟ فقلت : لا ، قال : فأنا ينفعنى الإهليلج الذى معك ، فأنفذْ إلىّ منه . فقلت : السمع والطاعة . وخرجت مُفْرِط التعجب من وقوعه على خَبَرِى ، حتى كأنَّ بعضَ أحبابى كاتَبَه بخَبَرِى حين صُغْته ، فأَنْفَذْتُ إليه مائة إهلِيلَجة .

مقامة من إنشاء البديع تتعلق بذكر الجاحظ

قال : حدثنا عيسى بن هشام قال[4]: جمعتنى مع رُفْقَة وَليمةٌ ، وأَجَبْتُ إليها للحديث

---

(١) فى س : فردت . (٢) حائل : متغير . (٣) على رسلى : على مهلى .
(٤) المقامات : ٧٩ .

المأثور فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دُعِيتُ إلى كُرَاع [1] لأجبْتُ ، ولو أُهْدِيَ إليّ ذراع لقبلت. فأفضى بنا المسيرُ إلى دار قد فُرِش بساطُها ، وبُسِطت أنماطها، ومُدَّ سِمَاطُها ، وقوم قد أخذوا الوقت بين آس مخضود [2] ، ووَرْدٍ منضود ، ودَنّ مَفْصود ، ونَاى وعُود ؛ فصِرْنا إليهم وصاروا إلينا ، ثم عكفنا على خِوَان قد مُلِئَتْ حياضُه ، ونوَّرَت رياضُه ، واصطفت جِفَانُه ، واختلفت ألوانُه ؛ فمن حالك بإزائه ناصِع ، ومن قانٍ فى تلقائه فَاقِعٌ ، ومعنا على الطعام رَجلٌ تُسَافِرُ يَدُه على الخِوَان ، وتَسْفِرُ بين الألوان ، وتأخذُ وجوهَ الرُّغفان ، وتفقَأ عيونَ الجِفَان ، وتَرْعَى أَرْضَ الجيران ؛ يَزْحَم اللُّقْمَةَ باللُّقْمَة ، ويهزِمُ المَضْغَة بالمَضْغَة ، وهو مع ذلك ساكتٌ لا يَنْبِس ، ونحن فى الحديث نَجْرِى معه حتى وقفَ بنا على ذِكْرِ الجاحظ وخَطَابته ، ووَصْف ابن المقفَّع وذَرابتهِ ، ووافق أولُ الحديث آخِرَ الخِوَان ، وزُلنا عن ذَلِك المكان ، فقال الرجلُ : أين أنتم من الحديثِ الذى فيه كنتُم ؟ فأخذْنَا فى وَصْفِ الجاحظ ولَسَنِه ، وحُسْنِ سنَنِه فى الفصاحة ، وسُنَنِه فيما عرفناه ؛ فقال : ياقومُ ؛ لكلِّ عمل رجال، ولكل مقام مَقَالٌ، ولكل دارٍ سُكَّان ، ولكل زمان جاحظ، ولو انتقدتُم لبطَلَ مااعتقدتُمْ. فكلٌّ كشرَ له عن ناب الإنكار، وشَمَّ بأنفِ الإكبار ، وضَحِكْتُ إليه ، لأَجلبَ مالدَيْهِ ، وقلت : أَفِدْنا وزِدْنا . فقال : إنّ الجاحظَ فى أَحدِ شِقّى البلاغة يَقْطِف ؛ وفى الآخر يَقِف، والبليغُ من لم يقصِّر نظمُه عن نَثْرِه، ولم يُزْرِ كلامُه بشعرِه ، فهل تَرْوُونَ للجاحظ شعرا رائعا ؟ قلنا : لا . قال : فهلمّوا إلى كلامه ؛ فهو بعيدُ الإشارات، قريبُ العبارات ، قليلُ الاستعمارات ، منقادٌ لعريان الكلام يستَعْمِله ، نَفُورٌ من مُعْتاصِهِ يُهْمِلُه ، فهل سمعتم له بكلمةٍ غيرِ مسموعة ، أو لفظة غير مصنوعة ؟ فقلت : لا ، فقال: هل تحبّ أن تَسْمَعَ من الكلام ما يخففُ عن مَنْكِبيْك ، ويَنِمُّ على ما فى يَدَيْك ؟ فقلت : إى والله ، قال : فأَطْلِق لى عن

---

(١) الكراع : فى البقر والغنم كالوظيف فى الفرس والبعير ، وهو مستدق الساق .

(٢) الآس : الريحان . ومخضود : اتخذت منه أشكال للزينة فتجمع وتثنى من غير كسر .

خِنْصرِكَ ما يعين على شكرك ، فأنلته ردائى فقال :

لعَمْرُ الذى ألْقَى إلىّ ثيابهُ ... لقد كسبت [1] تلك الثيابُ به مَجْدا
وقد قَمَرَتْهُ راحةُ الجود بِزّةً [2] ... فما ضربتْ قِدْحاً ولا نَصَبَتْ نَرْدَا
أَعِدْ نظراً يامَنْ كَسَانِى ثِيابهُ ... ولا تَدَعِ الأيامَ تَهْدِمُنى هَدّا
وقل للأُلى إنْ أَسْفَرُوا أَسْفَرُوا ضُحًى ... وإن طلعوا فى غُمَّةٍ طَلَعُوا وردَا [3]
صِلُوا رَحِمَ العَلْيَا وبُلُّوا لَهاتَها ... فَخَيْرُ النَّدَى ما سَحَّ وابِلُه نَقْدَا

قال عيسى بن هشام : فارتاحت الجماعةُ إليه ، وانثالت الصِّلاتُ عليه ، وقلت لما توانَسْنَا [4] : من أين مطلع هذا البدر ؟ فقال :

اسكندريةُ دَارِى ... لو قرَّ فيها قَرَارِى
لَـكِنّ ليلى بنَجْدٍ ... وبالحجازِ نَهَارِى

[من كلام الملوك]

أردشير ورعيته

تظلَّمت رعيَّة أردشير بن بابك إليه فى سنة مُجْدِبة لعَجْزِهم عن الخَراجِ ، وسألته أن يخففِّه عنهم ؛ فكتب لهم ما نسخته : من أردشير المزيد بالبهاء ، ابن الملوك العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حفظَةُ البَيْضَة ، والكُتَّاب الذين هم سَاسَةُ المملكة ، وذوى الحرث الذين هم عمرَة البلاد ، أما بَعْدُ ، فإنّا نحمدُ الله تعالى حَمْدَ الصالحين ، وقد وضعنا عن رَعيّتِنا بفَضْلِ رأفتنا إتاوَتنا [5] الموظفة عليهم سنتنا هذه ، ونحن كاتبون مع ذلك نُمليهم [6] بوصيَّة تنفعُ الكُلَّ : لاتستشعروا الحِقْدَ لئلا يَغْلِبَ عليكم العدوّ، ولا تحبُّوا الاحتكار لئلا يشملكم القَحْط ، وكونوا للغرباء مُؤْوِين ، لتؤووا غدا فى المعاد . وتزوَّجُوا فى القرابة فإنه أحْسَنُ للرحم ، وأثْبتُ للنَّسَبِ ، ولا تمدُّوا هـذه

---

(١) فى المقامات : حشيت .
(٢) فى المقامات : فتى قمرته المكرمات رداءه .
(٣) فى المقامات : سعدا .
(٤) فى المقامات : تآنسنا .
(٥) الإتاوة : الخراج .
(٦) فى س : تمليكهم .

الدنيا شيئا فإنها لا تُبقى على أحد ، ولا ترفُضُوها مع ذلك ؛ فإن الآخرة لا تُنالُ إلا بها .

أفضل الاكتساب لبزرجمهر

وقيل لبزرجمهر : أَيُّ الاكتساب أفضل؟ قال: العلمُ والأدب كَنْزَانِ لا يَنْفَدان، وسِرَاجانِ لا يُطفآن ، وحُلَّتان لا تبْلَيَان ؛ مَنْ نالهما أَصاب الرَّشادَ، وعرَفَ طريق المَعَاد ، وعاش رفيعاً بين العِباد .

وقال أنو شروان لبزرجمهر لما ظفر به : الحمد لله الذى أَظْفَرنى بك ، قال له : فكافِئْه بما يحبُّ كما أعطاك ما تحبّ . قال : وبِمَ أُكافِئه يا فاسقُ ؟ قال : بالعفو عمَّنْ أظفرك به اليوم ، كما تحب أَنْ يعفوَ عنك غدا .

ونظيرُ هذا الكلام قد تقدّم لعلىّ رضى الله عنه .

أفضل الملوك لكسرى

وقيل لكسرى : أَيُّ الملوك أَفضل ؟ قال : الذى إذا جاوَرْتَه [1] وجَدْتَه علما ، وإذا خبرته وجدتَه حكيما ، وإذا أغضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استمنح منح جسيما، وإذا وعدَ وفى ، وإن كان الوعد عظيما ، وإذا شُكِى إليه وُجد رحيما .

[من رسائل الميكالى]

من الميكالى إلى الثعالبى

كتب الأمير أبو الفضل الميكالى إلى أبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى [2] : كتابى وأنا أَشكو إليك شَوْقاً لو عالجه الأعرابى لماصَبَا إلى رَمْل عالج ، أو كابده الخَلِىُّ لانْثَنَى على كَبِدٍ ذَات حُرَق ولَوَاعِج ؛ وأَذمُّ زماناً يفرِّقُ فلا يحسن جمعاً ، ويخرق فلا ينوى رَقْعا ، ويُوجِعُ القلب بتفريق شَمْلِ ذوى الوِدَاد ، ثم يبخلُ عليهم [3] بما يَشفِى الصدور والأكْبَاد ؛ قاسِى القلبِ فلا يلينُ لاستعطاف ، جائر الحُكْمِ فلا يميلُ إلى إنصاف ، وكم أسْتَعْدِى على صَرْفِه وأستَنْجِد ، وأتلظّى غيظا عليه ، وأنشد :

(١) فى ط : جاورته . (٢) يتيمة الدهر ٤ – ٣٣١ . (٣) فى ق، س : يبخل عليها.

متى وعسى يَثْنِى الزمانُ عِنَانَه بعَثْرَةِ حالٍ والزَّمَانُ عَثُورُ
فتُدْرَكَ آمالٌ وتُقْضَى مآربٌ وتحدُثُ من بعد الأُمور أُمُور

وكَلاَّ ، فما على الدهر عَتْب ، ولا له على أَهْلِه ذَنْب ؛ وإنما هى أقدار تجْرِى كما شاء مُجْرِيها ، وتَنْفُذ كالسهام إلى مَرَامِيها ؛ فهى تدورُ بالمكروه والمحبوب ، على الحُكْمِ المقدور المكتوب ، لا على شهواتِ النفوس وإرادات القلوب ؛ وإذا أراد أراد اللهُ تعالى أَذِنَ فى تقريب البعيد النازح ، وتَسْهِيلِ الصَّعْبِ الجامح ، فيعود الأُنْسُ بلقاءِ الإخوان كأتمّ مالم يزَلْ معهوداً ، ويجدّد للمذاكرة والمؤانسة رسوماً وعُهوداً ؛ إنه الملبِّى به ، والقادرُ عليه .

من الميكالى إلى أبيه

وله إلى أبيه ، لو مَلَكْتُ عِنَانَ اختيارى ، وأَسْعَفَنى ببعض ما أَقْتَرِحُه القَدَرُ الجارى ، لما غِبْتُ عن حضرته آنسها اللهُ ساعةً من دهرى ، كَلا أُعُدّ ساعاتِ بُعْدِى عنها ، وإخلاى لبابها منأَيَّام عُمْرِى ؛ ولكنت أبداً ماثِلاً بها فى زُمْرَةِ الخَدَمِ والعبيد ، جامعاً بها بين حاشيتى العزِّ المديد ، والشَّرَفِ المتيد ؛ لاسيما فى هذا الوقت وقد أَشْرَقَتِ البلادُ بنور طَلعَتِهِ التى هى فى ظُلْمَة الدهر صَبَاح ، وعزِّ مطالعته التى فيها لصدور ذوى الشنأ شجاً ، ولزَنْدِ الآمال اقتداح ، ومماودة ظلِّه التى أَضْحَتْ الشمسُ مِنْ حسَّاده، والزمانُ من عَدَد ساكنيه وعَتاده ، إلا أنَّ الحريص ــ كما علمه مولانا ــ مُخلًى عن أعذب موارده ، وممنوعٌ بالعوائق عن أكرم مَطالِعه ومَقَاصِدِه .

للميكالى إلى بعض إخوانه

وله يستفتح مكاتبة بعض إخوانه :

أنا وإن لم تتقدَّمْ بينى وبينه المكاتبَةُ ، وعادةُ المساجَلَة والمفاوضة ، من فَرْطِ حِرْصِى على افتتاحِها وتعاطِيها ؛ واعتراض العوائق دون المراد والغَرَضِ فيها ، فإنَّ قلبى بودِّه مَغْمُور ، وضميرى على مُصَافَاته مقصور ، فاعتدادُه لفضائله التى أصبح فيهاأوْحَدِىّ العِنَان، وزاحم فيهامَنْكِب العَنَان[1]، واستأثر فيها بالغُرَر والأَوْضَاح،

(١) العنان بالفتح : السحاب .

ما أوْفَى بها على غُرَّةِ الصباح ، حتى تشاهدَتْ بها ضمائرُ القلوب ، وتهادَتْ أنباءَها ألسِنةُ البعيد والقريب، اعتدادَ من يَجْمعُ بالاعتداد لها بين شهادةِ قلبه ولسانه، ومَنْ ينظم فى إجلالِ قَدْرِها صفقةَ إسرارِه وإعلانه، فهويتنسَّمُ الريحَ إذا هبَّتْ من ناحيته شوقا ونزاعا ، ويَسْتَمْلِى الوارد والصادِرَ خبرَ سلامته انصياعا بالودِّ إليه وانقطاعا .

من كلام الميكالى فى رسائل شتى

شذور من كلامه فى أثناء رسائل شتى : أياديه التى غمرتنى سِجَالُها ، واتَّسع عندى مَجَالُها ، وأعْيَا شكرى عَفْوها وانثيالها ، تناولت فيها المُنَى دانيةَ القطوف ، واجتليت أنوار العيش مأمونة الكسوف ، ليس يكادُ يبرد غليلُ شوقى وحنينى ، أو ترجع نافرةُ أُنسى وسكونى ، أو تَخلُو من الاهتمام والفكرة فيه خواطرى وظنونى ، إلا بالتقاء يدنو أمدُه ، ويَقْرُبُ مَوْعِدُه ، وتعلو على الفراق يَدُه ، فنعاوِد العيشَ طَلْقاً غزيراً ، ونجتنى ثمرَ المُنَى غَضًّا نضيراً ، ونَجْتَلِى وجهَ الزمان مُشْرِقا منيراً . فوائده لها عندى أثرُ الغَمام أو أنفع، ومحلُّ السِّماكِ أو أرفع . حالى فى مفارقة حَضْرَتِه حالُ بناتِ الماء قد نَضب عنها الغَدِير، وبناتِ الأرض أخطأها النَّوْءُ المطيرُ . لهفى على دهر الحداثة إذ غُصْن شبابى غضٌّ وَرِيق، ونُقْلُ شرابى عضٌّ ورِيق . كلامٌ أحلى من رِيق النحل ، وأصْفَى من رَيق الوبل . من تسوّد قبل وقته وآلته فقد تعرَّض لِمَقْتِه وإذالته. نظمُه له:

إن مَنْ يلتمس الصَّدْ ... رَ بلا وَقْتٍ وآلَه
لحقيق أنْ يُلقَّى ... كل مَقْتٍ وإذاله

الشكلُ للكِتاب ، كالحلى للكِعاب . لو كان الشبابُ فِضّة لكان الشيبُ له خبثاً . النعمة عروسٌ مَهْرُها الشكر ، وثوبٌ صوْنُه النَّشر . الخضاب تذكرة الشباب . لاتقاسُ المَهاوى بالمَراقِى ، ولا الأقدام بالتَّراقى[1]، ولا البحورُ بالسواقى. كم أبلانى من عُرْفٍ جزيل لا يُبْلِى الدهرُ جِدّة رِدَائه ، وقضانى من دَيْن تأميل

(١) الترقوة : مقدم الحلق فى أعلى الصدر .

لا يَقْضِى الشكرُ حقَّ نعمائه . الشكر للنعمة نتاج ، والكُفْرَان لها رِتاج ، وكلما زدت النعمةَ شكراً ، زادت طيباً ونَشْرًا .

قطعة من شعره فى تجنيس القوافى

قال فى أبيه :

مبتدعاً فى شمائل المجدِ خِيماً [(١)] ... ما اهتدَيْنَا لأَخْذِه واقتباسِهْ

فهو فظٌّ بالمالِ وقت نداهُ ... وجَوادٌ بالعفو فى وَقْتِ باسِهْ

وقال فيه :

إذا ما جادَ بالأموال ثنَّى ... ولم تُدْرِكْهُ فى الجودِ الندامَهْ

وإن هَجَست خواطرُه بجَمْع ... لرَيْبِ حوادثٍ قال الندى مَه [(٢)]

وقال فيه :

ولما تنازع صَرْفُ الزمان ... فزِعْنَا إلى سيدٍ نَا بِهِ

إذا كشَّرَ الدهرُ عن نابهِ ... كشفْنَا الحوادثَ عَنَّا بِهِ

وقال فيه :

إنْ نابنا خَطْبٌ فآراؤُهُ ... تغنى عن الجيش وتَسْرِيبِهِ

وإن دَجَا ليلٌ بَدَا نورهُ ... للرَّكْبِ نَجْما فهو يَسْرِى بِهِ

وقال يفتخر :

وكم حاسدٍ لى انْبَرَى فانْثَنَى ... لِغصَّةِ نَفْس شَجَاها شَجَاهَا [(٣)]

ومن أينَ يَسْمُو لنَيْلِ العُلا ... وما بَثَّ مالاً ولا رَاشَ[(٤)] جَاهَا

---

(١) الخيم : السجية والطبيعة . (٢) مه : اسم فعل بمعنى اكفف .

(٣) شجاه : حزنه وطربه . والشجا : مااعترض فى الحلق من عظم ونحوه . وفى س : لغصة.

(٤) راش السهم : ألزق عليه الريش . وراش: جمع المال .

ومنها قوله :

وسائلةٍ تُسَائِلُ عن فعالى … وعمّا حازَ فى الدنيا جَمَالى
فقلت إلى المعالى حَنَّ قلبى … وفى سُبُلِ المكارم لجَّ مَالِى
وللعلياء نَهْجٌ مستقيمٌ … فمالى تارِكًا ذَا النَّهج مَالِى
إذا أسرجْتُ فى فَخْرٍ سَمابى … فَعالى والنِّجَارُ(١) فأَلْجَمالى

وقال فى نوع من هذا الجنس :

ومن يَسْرِ فوقَ الأرض يطلبُ غايةً … من المجد يَسْرِى فوق جُمْجُمَةِ النَّسْرِ
ومن يختلفْ فى العالمين نِجارهُ … فإنّا من العلياء نَجْرِى على نَجْرِ(١)
ومن يتّجِرْ فى المال يَكسب ربحه … فبالمال نَشْرِى رابحَ الحَمْدِ والنَّشْرِ(٢)

***

البستى ينحو نحو الميكالى

وعلى نحو هذا الحذو يقول أبو الفتح البستى :

أبا العباس لا تحسب بأنى … لشىء من حُلَى الأَشْعَارِ عار
ولى طَبْع كسَلْسَالِ المجارِى … زُلاَلٌ من ذُرَا(٣) الأَحجارِ جارى
إذا ما أكْبَت الأدوار زَنْداً … فلِى زَنْدٌ على الأَدْوَارِ وَارِى

وقال أبو الفتح البستى أيضاً(٤) :

بسَيْفِ الدولةِ اتَّسقَتْ أُمُورٌ … رأيناها مُبَدَّدَةَ النِّظَامِ
سَما وحمى بنى سامٍ وحَامٍ … فليس كمثله سامٍ وحامِ

[واجب الحاجب]

قال بعضُ الملوكِ لحاجبه : إنك عينى التى أَنْظُرُ بها ، وجنَّتى التى أستنيم إليها ؛ وقد ولَّيتُك بَابِى ، فما تراكَ صانعاً برعيّتى ؟

(١) النجار والنجر : الأصل . (٢) فى ق : النثر (٣) ذرا الشىء : أعاليه .
(٤) يتيمة الدهر ٤ـ٢٩٧ .

قال : أَنظر إليهم بعينك ، وأحملهم على قَدْرِ منازلهم عندك ، وأَضَعْهم لك ، فى إبطائهم عن بابك ولزومهم خِدْمتك ، مواضعَ استحقاقهم ، وأَرَتِّبهم حيث جعلهم ترتيبك ، وأُحْسِنُ إبلاغَك عنهم ، وإبلاغَهم عنك .

قال : قد وَفَيْتَ بما عليك قولا إن وَفَيْتَ به فعلا ؛ والله ولىّ كفايتك ومعونتك .

المهدى والفضل ابن الربيع

قال المهدى للفضل بن الربيع : إنى قد وَلَّيتُك سَتْرَ وجهى وكَشْفَه ، فلا تجعل السِّتر بينى وبين خواصّى سبباً لِضِغْنهم بقُبْح رَدِّك ، وعُبُوسِ وَجْهك ؛ وقدِّم أبناء الدعوة ؛ فإنهم أَوْلَى بالتقديم ، وثَنِّ بالأَولياء ، واجعل للعامة وَقْتاً إذا دخلوا أَعجَلَهُمْ ضِيقُه عن التلبُّث ، وصَرَفَهُم عَنِ التمكُّث .

للحسن بن سهل فى ذلك

وقال الحسنُ بن سهل : إذا كان الملك محتجباً عن الرعيّة ، ولم ينزل الوزير نفسه منزلةً تكون وسائلُ الناس إليه أنفسهم واستحقاقهم دون الشفاعات والحرمات ، حتى يختصَّ الفاضلَ دون المفضول ، ويرتّب الناسَ على أقدارهم وأوزانهم ومعرفتهم ، امتزج التدبير (١) ، واختلَّت الأمور ، ولم يميّز بين الصدور والأَعْجاز ، والنواصِى والأذناب ، وكان الناسُ فوضى ، ووَهَتْ أَسبابُ المُلْك ، وانتقَضَتْ (٢) مَرَائِرُه ، وشاعت سرائره ، وإنّ أَقْرَبَ ما أَرجو به صلاحَ ما أتولاّه استماعى من المتنسّمين بأنفسهم ، المتوسّلين بأفهامهم ، المتوصّلين بكفايتهم ، وابتذالُ نفسى لهم ، وصبرى عليهم ، وتصفُّحى ماتوسَّلوا به وانتحَلوه : من العقول والآداب ، والحماية والكفاية. فمَنْ ثبتت له دَعْواه أَنزلتُه تلك المَنْزِلة ، ولم أَتحيّفه حقّه ، ولا نَقَصْتُه حَظَّه ، ومن قَصَّر عما ادَّعى كانت منزلتُه منزلَةَ المُقَصِّرين ، ولم أُخيِّب أَمَلَه من مقدارِ ما يستحِقّه .

لبعض البلغاء

وقال بعضُ البلغاءِ : إذا أَسْدَل الوالى على نفسه سِتْرَ الحِجَاب ، وَهَى عَمُودُ

---

(١) جواب إذا فى أول الرسالة .   (٢) المريرة : الحبل الشديد الفتل ، والجمع مرائر .

تدبيره ؛ واسترخَت عليه حمائلُ الحَزْمِ ، وازدلفَتْ إليه وفودُ الذمّ ، وتولّى عنه رشد الرَّاجى ، ونال أمورَه خَلَلُ الانتشار ، وآفةُ الإهمال، وتسرَّع إليه العائبون بلواذع ألسنتهم ودَبيب قوارضهم .

حاجب لئيم الطبيعة

وحُجب سعيد بن عبد الملك عن عبيد الله بن سليمان فكتب إليه : سِرْتُ إلى بابك ـ أعزّك اللهُ ـ عندما حدث من أمرك ، فلم يُقْضَ لقاؤك ، وعلمت أنّ ثِقتَك بما عندى قد مَثَّلَتْ لك حالِى من السرور بنعمَةِ اللهِ عندك ، وأَرَتْكَ موضعى من الاعتداد بكل ما خَصَّك ووصَل إليك ، فوكلت العُذْر إلى ذلك . ثم إنَّا نَأْتِيك متيمِّنين بطَلْعَتك ، مشتاقين إلى رؤيتك ، فيحجبنا عنك مُلَاحظ . وهو كما علمت زَنيم (١) الصنيعة ، لَئيم الطبيعة، يحْجُبُ عنك الكِرَام ، ويَأْذَنُ عليك لِلّئام ، كلما نجمَتْ له يدٌ بيضاء أَتبعَها يدا سوداء ؛ فإن رأيت ـ أعزّك الله ـ أن تصرِفَه عن باب مكارمك فعلت ، إن شاء الله .

حاجب نافع

وقال أبو السمط بن أبى حفصة :

فتًى لا يُبالِى المُدْلِجُونَ (٢) بنُورهِ ... إلى بابِه ألاَّ تُضِئَ الكواكبُ
له حاجبٌ فى كلِّ خَيْرٍ يُعينهُ ... وليس له عن طالبِ العُرفِ حاجِبُ

* * *

استطراد فى النقد

أخذ البيت الأول من قول جده مَرْوان بن أبى حفصة الأكبر :

إلى المصطفى المهدىِّ خاضَتْ رِكابُنا ... دُجَى الليل يخبطْنَ السَّريحَ المُخَدَّمَا (٣)
يكون لها نورُ الإمامِ محمدٍ ... دَليلاً به تَسْرِى إذا الليل أَظْلَمَا

وقال إدريس بن أبى حفصة وذكر إبلا :

لها أَمامك نورٌ تَسْتَضِئُ به ... ومِنْ رَجائك فى أَعْنَاقِها حَادى

---

(١) الزنيم : الدعى . وفى س : كز ، وفى ق : كن . (٢) أدلج : سار من أول الليل . (٣) الخدمة : السير الغليظ المحكم مثل الحلقة يشد فى رسغ البعير . قال الأعشى : وطايفن مشيا فى السريح المخدم ـ اللسان : مادة خدم . وفى ط : السريج .

لها أحاديث من ذِكْرَاكَ تَشْغَلُها عن الرُّتُوعِ وتُلْهِيها عن الزَّادِ

وأصله قول عمرو بن شأس الأسدى (١) :

إذا نحنُ أدْلَجْنَا وأنْتَ أمامنا كفى لمطايانا بوَجْهِكَ هَادِيا

أليس يَزِيد العِيسَ خِفَّةَ أذْرُعٍ ، وإنْ كُنَّ حَسْرَى (٢) ، أنْ تَكُونَ أماميا

وقال بعض أهل العصر :

وليل وَصَلْنَا بين قُطْرَيه بالسُّرى وقد جَدَّ شوقٌ مُطْمِعٌ فى وصالكِ

أَرَبَّت علينا من دُجاهُ حَنَادِس (٣) أَعَدْن الطريق النهْجَ وَعْرَ المَسَالِكِ

فناديتُ يا أسماء، باسمك، فانْجَلت وأَسْفَر منها كلُّ أسودَ حَالِكِ

بنا أنت من هادٍ نَجَوْنَا بذكرهِ وقد نَشِبَتْ فينا أَكُفُّ المهالك

منحتك إخلاصى وأَصْفَيْتُكَ الهوى وإن كنت لمَّا تُخْطِرينى بِبالك

وقال القطامى :

ذكرتكم لَيْلًا فنوَّر ذِكْرُكم دُجَى الليل حتى انجاب عَنْه دَياجِرُه (٤)

فوالله ما أَدْرِى أَضَوْءٌ مُسَجَّرٌ (٥) لذِكْرَاكُمُ أم يَسْجُر الليلَ سَاجِرُه

وقال القينى :

وإنى من القومِ الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيِّدٌ قام صَاحِبُه

نجوم سماءٍ كلما انقضَّ كوكبٌ بدَا كَوْكَبٌ تأوِى إليه كواكِبُهْ

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم دُجَى الليل حتى نَظَّم الجَزْعَ ثاقِبُه (٦)

وقال الحطيئة :

نَمْشِى على ضَوْءِ أَحْسَابٍ أَضَأْنَ لنا كما أَضاءت نجومُ اللَّيْلِ للسَّارِى

وقد ردّده فى موضع آخر فقال :

---

(١) اللآلئ ٨٢٦ . (٢) حسرى : متعبات . (٣) أرب : زاد ولزم وأقام . والحنادس : جمع حندس : الظلمة . (٤) الدياجر : الظلمات وفى س : يسحر الليل ساحره . (٥) المسجر : المرسل. (٦) الجزع : الخرز اليمانى .

هم القوم الذين إذا أَلمَّتْ مِنَ الأَيامِ مُظْلِمَةٌ أضاءوا

وكلام القاسم بن حنبل المَدَنى من هذا ، حيث يقول :

من البيض الوجوه بَنى سِنانٍ لَوَ أنَّك تستضىء بهم أَضاءوا
فَلَوْ أَنّ السماءَ دَنَتْ لمَجْدٍ ومَكْرُمَةٍ دَنَتْ لهُم السَّماء
همُ حازُوا من الشَّرَفِ المعلَّى ومن كَرَم العشيرة حَيْثُ شاءوا

وقال بعض المتقدّمين :

إذا أشرقَتْ فى جُنْحِ ليل وجوهُهُم كَفَوْا خَابِطَ الظلماء فَقْدَ المَصَابِحِ
وإنْ نَابَ خَطْبٌ أو أَلمَّتْ مُلِمَّةٌ فكم[(1)] ثَمَّ مِنْ آسى جراحٍ وجارِحِ

وقال أبو بديل الوضاح بن محمد التيمى فى المستعين :

وقائلة والليلُ قد نَشَر الدُّجَى فغطّى بها ما بين سَهْلٍ وقَرْدَدِ[(2)]
أرى بارقاً يَبْدُو ومن الجَوْسَقِ[(3)] الذى بِهِ حلَّ مِيرَاثُ النبىِّ محمدِ
أضاءت لهُ الآفاقُ حتى كأَنما رأَيْنَا بنصف الليلِ نُورَ ضُحَى غدِ
فظلَّ عَذَارَى الحىِّ ينظمن تَحْتَهُ سُلوكا من الجَزْع الَّذى لم يُسَرَّدِ[(4)]
فقلت : هو البَدْرُ الذى تعرفونهُ وإلا يَكُنْ فالنُّورُ من وَجْهِ أحمد

[حث الاشتياق]

وقال عُمَر بن عبد الله بن أبى ربيعة فى معنى قول عَمْرو بن شاس فى حثّ الاشتياق[(5)] :

خليلىَّ ما بالُ المطايا كأنما تَراها على الأَعْقَاب بالقَوْمِ تَنْكُصُ[(6)]
فقد أتْعَبَ الحادِى سُراهُنَّ وانحنى بِهِنَّ ، فما بَالَوا ، عَجولٌ مقلّصُ[(7)]

---

(١) فى س ، ق : بكم . (٢) القردد : ما ارتفع من الأرض .
(٣) الجوسق : القصر . (٤) لم يسرد : لم يثقب . (٥) الأغانى ١–١١٣ .
(٦) تنكص : ترجع وتولى وتحجم . (٧) فى الأغانى : وانتحى بهن فما يألوا .
والمقلص : الجاد فى السير .

وقد قطِّعت أعناقهنَّ صَبَابَةً فأَعْيُنُنَا مما تكلَّفُ تَشْخَصُ (١)
يَزِدْنَ بنا قُرباً فيزدادُ شَوْقُنَا إذا ازدادَ قُرْبُ الدارِ والبُعد يَنْقُصُ

وقال بعض الرجاز وذكر إبلا (٢) :

إنَّ لها لسائقاً خَدَنَّجَا لم يُدْلِجِ الليلةَ فيمَنْ أَدْلَجَا

يريد امرأة يحبها فيحثّه ما يجدُه من الشوق على إجهاد مطاياه بالسوق . كما أنشد إسحق الموصلى :

صبٌّ يحثُّ مطاياهُ بذكْرِكُمُ وليس يَنْسَاكُم إنْ حَلَّ أو سَارَا
لو يستطيعُ طَوَى الأيامَ نحوكُمُ حتى يبيعَ بعُمْرِ القُرْبِ أعمارا
يَرْجُو النَّجاةَ من البلوى بقربكمُ ، والقربُ يُلْهِبُ فى أحشائِه نَارَا

هذا البيت يناسب أبيات ابن أبى ربيعة . يقول : كلما دنا ازدادَ حِرْصاً على اللقاء .

وشخَصَ إسحقُ الموصلى إلى الواثق بسُرَّ من رأى ، وأَهْلُهُ ببغداد فتصيَّد الواثق وهو معه إلى نواحى عُكْبَراء فلما قرب من بغداد قال (٣) :

طربتَ إلى الأُصَيْبِيَةِ الصِّغار وهاجَكَ (٤) منهمُ قُرْبُ المَزَارِ
وكلّ مسافر (٥) يَزْدَاد شوقاً إذَا دَنَتِ الديارُ من الدِّيَارِ

ولحَّنه وغنَّاه الواثق، فاستحسنه وأطربه ، فصرفه إلى بغداد على ماأَحَبَّ ، وكان إسحق قال أولا :

وكلُّ مسافر يَشْتَاقُ يوماً إذا دَنَتِ الديارُ من الديار

فعابوا قوله «يوماً» ، وقالوا : هى لفظة قَلِقة فى هذا الموضع ، لم تحلّ بمركزها ،

---

(١) فى الأغانى : ✽ فأنفسنا مما يلاقين شخص ✽
(٢) اللسان — مادة خدلج ، اللآلىء — ذيل : ٥٣
(٣) الأغانى : ٩—٢٨٥، اللآلىء: ٢٠٩ .
(٤) فى الأغانى : وشاقك .
(٥) فى الأغانى : مفارق .

ولا لها هنا موقع . قال : فضَعُوا مكانها مِثْلَها لا خيراً منها . فما استطاعوا ذلك ، فغيّرها إلى ما أنشدت أولا .

وقال أبو نواس :

أمّا الدِّيارُ فقلما لَبِثُوا بها — بين اشتياق العِيسِ والرّكبانِ
وضعوا سياطَ الشَّوْقِ فوق رِقَابِها — حتى طَلَعْنَ بها على الأَوْطَانِ

وقال مَخلَد بن بكّار الموصلى :

أَقُولُ لِنِضْوٍ أَنْفَدَ السَّيْرُ نَيَّهَا — ولم يُبْقِ منها غَيْرَ عَظْمٍ مجلّدِ (١)
خِدِى (٢) بى ابتلاكِ اللهُ بالشَّوْقِ والهوَى — وشاقَكِ تَحْنانُ الحَمَامِ المُغَرِّدِ
فمرّتْ سريعا خَوْفَ دَعْوَةِ عاشِقٍ — تَشُقُّ بِى المَوْمَاةَ فى كلِّ فَدْفَدِ (٣)
فلما وَنَتْ فى السير ثنّيْتُ دَعْوَتى — فكانت لها سَوْطاً إلى ضَحْوَةِ الْغَدِ

وكان مخلد حلو الطَّبع ، وهو القائلُ يمدحُ رجلا :

يَطْلُعُ النَّجْمُ على صَعدَته — فإذا واجَهَ نحراً أفلا
مَعْشَرٌ إنْ ظَمِئَتْ أَرماحُهُمْ — أَوْرَدُوهنَّ مُجاجَاتِ الطُّلَى (٤)
تَحْسُنُ الألوانُ منهم فى الوَغَى — حين تُستنكر للرُّعْبِ الحُلَى
سُخط عبد الله يُدْنِى الأَجلا — ورِضَاهُ يَتَعدى الأَمَلَا
يُعشِبُ الصَّلْدُ إذا سالمهُ — وإذا حارَب رَوْضاً أَمْحَلَا
[مَلِكٌ لو نُشّرت آلاؤه — وأياديه على الليل انجلى](٥)
حَلَّ بالبَأْسِ ابنُ عَمْرٍو منزلاً — طال حتى قَصُرَتْ فيه العُلَا
حَطَّ رَحْلِى فى ذَرَاه جُودهُ — وتَمشَّى فِى نَدَاهُ الخَيْزَلَى (٦)

---

(١) النضو : المهزول من الإبل . والنى : الشحم . (٢) خدى : أسرعى .

(٣) الفدفد : الفلاة . (٤) الأعناق أو أصولها . أو هى الطلا بالفتح : الدم .

(٥) من س (٦) الخيزلى : مشية فى تثاقل .

[الخط الجيد]

سُئِل بعضُ الكتاب [١] عن الخطِّ متى يستحقُّ أن يوصَفَ بالجودة ؟ فقال : إذا اعتدلَتْ أقسامُه ، وطالت أَلِفُه ولامُه ، واستقامت سطورُه ، وضاهَى صعودَه حُدُورُه ، وتفتَّحَتْ عيونُه ، ولم تشتبه رَاؤه ونونُه ، وأشْرَق قِرْطَاسُه ، وأظلمت أَنْقاسُه [٢] ، ولم تختلف أَجْناسُه ، وأسرع إلى العيون تصوُّرُه ، وإلى العقول تَثَمُّرُه [٣] ، وقدِّرت فصوله ، واندَمَجَتْ وُصُوله ، وتناسب دقيقُه وجَلِيلُه ، وخرج من نَمَطِ الورّاقين ، وبَعُدَ عن تصنُّعِ المحررين ؛ وقام لصاحبه مقام النسبة والحِلْيَة ، كان حينئذ كما قال صاحب هذا الوصف فى صفة خط [٤] :

إذا ما تجلل قِرْطَاسَهُ ... وساوَرَه القلمُ الأَرْقَشُ
تَضمَّنَ مِنْ خَطِّهِ حُلَّةً ... كَنَقْشِ الدنانيرِ ، بَلْ أَنْقَشُ
حروف تُعِيدُ لعين الكليل ... نشاطا ويقرؤها الأَخْفَش

قال أبو هفّان [٥] : سألت ورّاقا عن حاله فقال : عيشى أضيق من مَحْبَرة ، وجسمى أدقّ من مِسْطرة ، وجاهِى أرقُّ من الزجاج ، ووَجْهى عند الناس أشدّ سوادا من الحبر بالزّاج ، وحظّى أخفى من شقّ القلم ، ويدَاى أضْعَف من قَصَبَة ، وطعامى أمرّ من العَفْص ؛ وشَرَابى أحرّ [٦] من الحبر ، وسوءُ الحال ألزمُ لى من الصَّمْغ ! فقلت له : عبَّرْتَ عن بلاء ببلاء !

وقال الحمدونى :

ثِنْتَانِ مِنْ أدوَاتِ العِلْمِ قد ثَنَتا ... عِنَانَ شَأْوى عما رُمْتُ مِنْ هِمَمِى
أمَّا الدَّواةُ فأَدْمَى جرْمُها جَسَدِى ... وقلَّم الحظّ تحريفٌ مِنَ القَلَمِ
وحَبَّرَتْ لِى صُحْفَ الحَرْفِ مَحْبَرَةٌ ... تَذُودُ عَنِّى سَوَامَ المَالِ والنِّعَمِ

---

(١) النويرى: ٧ـ١٤ . (٢) جمع نقس : المداد ، وفى كل الأصول : أنفاسه.
(٣) فى النويرى : ثمره . (٤) ديوان المعانى ٧٦ . (٥) ديوان المعانى ٨٢ .
(٦) فى ديوان المعانى : أسود .

والعِلْمُ يَعْلَمُ أنى حِينَ آخذُهُ   لعصمتى نَافِرٌ خِلْوٌ من العِصَم

الحمدونى

وللحمدونى فى الحرفة أشعار مستظرَفة ، وكان مليحَ الافتنان ، حُلْوَ التصرّف؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم بن حَمْدَويه ، وحمدويه جدّه ، وهو صاحب الزنادقة فى أيام الرشيد ، والحمدونى القائل :

مَنْ كان فى الدنيا له شَارَةٌ   فنَحْنُ من نَظّارةِ الدنيا
نَرْمُقُها مِنْ كَثَبٍ حَسْرَةً   كأننا لَفْظٌ بلا مَعْنَى

وقال :

قد قُلْت إذْ خرجوا لكى يستَمْطِروا   لا تَقْنَطوا واستمطِرُوا بثيابى
لو فى حَزِيرانٍ[1] همَمْت بغَسْلِها   غَطَّى ضياءَ الشمس جوٌّ سَحابِ
فكأنها العباسُ يسْتَسْقِى به   عمرٌ فيرويهم دُعاء مُجَابِ

[حرفة الأدب]

وقال آخر فى المعنى الأول :

لما أجدْتُ حروفَ الخطِّ حرّفنى   عن كل حظٍّ وجاءت حِرْفَةُ الأدبِ
أقْوَتْ منازلُ مالى حين وطّنها   مخيّمًا سَفَطُ الأقلامِ والكُتُبِ

وقال يعقوب الخريمى :

ما ازْدَدْتُ فى أدبى حَرْفًا أُسَرُّ به   إلا تزيّدت حَرْفًا تحتَه شُومُ
كذاك من يدّعى حِذْقًا بصَنْعته   أنَّى توجَّهَ فيها فهْوَ محْرومُ

ولما قتل المقتدر أبا العباس بن المعتز ، وزعم أنه مات حَتْفَ أنفه قال على بن محمد ابن بسام :

---

(١) حزيران : اسم شهر بالرومية .

لله درُّكَ مِنْ مَيتٍ بمَضْيَعَةٍ ... نَاهيكَ فى العلم والآدابِ والحسَبِ
ما فيــه لَوٌّ ولا لَيْتٌ فينقصهُ ... وإنمــا أدركَتْه حِرْفَةُ الأدَبِ

[أرزاق الحمقى والعقلاء]

قال ابن الرومى :

ياليت أهل البيتِ إذْ حُرِموا ... عُصِمُوا من الشهوات والفِتَنِ
لـكنهم حُرِموا وما عُصِموا ... فقلوبهم مَرْضَى من الحَزَنِ
وهُمُ أَطَبُّ على بَلِيّتِهِمْ ... من غيرهم بمَضَاضَةِ[1] الشَّجَنِ

وقال جعفر بن محمد : إن الله وسَّع أرزاقَ الحَمْقَى ليعتبرَ العقــلاء ، ويعلموا أنَّ الدنيا لا يُنَالُ ما فيها بعَقْلٍ ولا حيلة ؛ ألَا إن كسب المال بالحظّ ، وحِفْظَه بالعقل .

قال إبراهيم بن سيّار النظام : الذهبُ لئيم ؛ لأَنَّ الشكلَ يصيرُ إلى شَـكْلِه ، وهو عند اللئام أَكْثَرُ منه عند الـكرام . قال المتنبي ـ وأخذ هذا المعنى[2] :

وشِبْهُ الشيءِ مُنْجَذِبٌ إليْهِ ... وأَشبهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ

النظام

وكان النظام له نظرٌ بوجوهِ التصرف ، وكان السلطان يَصِلُه بالـكثير ، وكان محظوظا ؛ فإذا اجتمع له مالٌ حَبَس لنفسه بُلْغَة وفرَّق الباقيَ فى أَبواب المعروف ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال: مِنْ حقِّ المالِ عليَّ أن أَطلبَه من مَعْدنه ، وأُصِيب به الفُرْصَةَ عند أهله ؛ ومن حقِّى عليــه أنْ يَقِيني السوءَ بنفسه ، ويصونَ عِرْضى بابتذاله ، ولا يفعل ذلك إلا بأن أسمح به ؛ ألا ترى ذا الغنى ؛ ما أدْوَمَ نَصَبه ، وأقلَّ راحته ، وأخسَّ من ماله حَظّه ، وأَشدّ من الأيام حذَره ، وأغْرى الدهرَ بثَلْبِه ونَقْصِه ، ثم هو بين سلطانٍ يرْعاه ، وذوى حقوق يسبُّونه ، وأكفاء يُنافسونه ، وولد يريدون فِرَاقَه ، قد بعث عليه الغِنَى من سلطانه العَنَاء ، ومن أكفائه الحَسد ، ومن أعدائه

---

(١) المضاضة : وجع المصيبة . (٢) ديوانه : ٤ ـ ٧١ .

البَغْى ، ومن ذوى الحقـوق الذمّ ، ومن الولد الملال . وذو البُلغة قَنِـع فدام له السرور ، ورفض الدنيا فسَلِمَ من المحذور ، ورَضِىَ بالـكفاف فتنكَّبَتْه الحقوق .

قال الصولى أنشدنى محمد بن أحمد بن إسحاق :

أدْمَى البُـكا جفنَىّ والمآقِ فظَلْتُ ذَا هَمٍّ وذا احْتِراقِ
ما إن أرى فى الأرض والآفاقِ أدْنَى ولا أشقَى من الورَّاقِ
إذا أتى فى القُمُص الأَخْلاقِ رأيتـه مطيرة العُشَّاقِ[1]
يفرح بالأقلامِ والأوراق كَفَرْحَةِ الجنـدىِّ بالأرْزَاقِ

وقال بعض الوراقين :

إذا كُنْتُ بالليلِ لا أكْتُبُ وطول النهـار أنَا ألعبُ
فطوراً يبطّلنى مَأْكَلٌ وطوراً يبطّلنى مَشْرَبُ
فإنْ دامَ هـذا على ما أرى فبيتِىَ أوّل ما يَخْرب

وقيل لورّاق : ما تَشْتَهِى ؟ فقال : قلماً مَشَّاقا ، وحِبْراً بَرَّاقا ، وجلوداً رِقَاقا . وكل امرىء فأمنيته على ما يُطَارِقُ غريزته ، ويوافِقُ نَحِيزته .

[أطيب اللذات عند الشعراء]

أطيب لذات الدنيا

قال علىّ بن جبـلة العكوك[2] : قال الأصمعى : سُئِل امرؤ القيس : ما أَطيب لذاتِ الدنيا ؟ قال : بيضاء رُعْبوبة[3] ، بالحسن مكبوبة ، بالشّحْم مكروبة[4] ، بالمِسْكِ مَشْبُوبة .

وسُئِل الأعشى عن ذلك ، فقال : صَهْباء صافية ، تمزُجُها ساقية ، من صَوْبِ غادية .

وسئل طرفة عن ذلك ، فقال : مركب وَطىّ ، وثوبٌ بَهِىّ ، ومطعم شهى .

---

(١) القمص جمع قميص ، والأخلاق جمع خلق بفتحتين وهو البالى .
(٢) النويرى : ٢ـ١٤ . (٣) رعبوبة : حسنة حلوة ناعمة .
(٤) مكروبة : ممتلئة .

قال العكوك : فحدَّثتُ بهذا أبا دُلَف فقال :

أطيبُ الطيبات قَتْلُ الأعادِى واختيـالٌ على مُتُونِ الجيادِ
ورَسولٌ يَأْتِى بوَعْد حبيبٍ وحبيبٌ يَأْتِى بلا ميعـادِ

وحدَّثت بذلك حُميدا الطوسى ، فقال[1] :

فلولا ثلاثٌ هنَّ مِنْ لَذَّةِ[2] الفَتَى ، وجدِّك ، لم أحْفِلْ متى قام عُوَّدِى
فمِنهنَّ سَبْقُ العاذلاتِ بشَرْبةٍ كُمَيْتٍ ، متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ
وكَرِّى إذا نادى المُضَافُ مُحنَّباً[3] كَسيدِ الغَضا ذى السَّوْرةِ المتورِّدِ[4]
وتقصيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ، ببَهْكَنَةٍ[5] تحت الخِبَاءِ المعمَّدِ[6]

الشعر لطرفة بن العبد .

وحدثت بذلك يزيد بن عبد الله ، فقال : ما أدْرِى ما قالوا ، ولكنى أقول :

فاقْبَلْ من الدَّهْرِ ما أتاكَ بهِ مَنْ قَرَّ عينا بِعَيْشِه نَفَعَه

فكان أسدَّهم .

والبيت للأَضبط بن قُرَيع[7] أنشده أبو العباس ثعلب . قال : وبلغنى أن هذه الأبيات قيلت قبل الإسلام بدَهْرٍ طويل :

لكل ضيقٍ من الأُمورِ[8] سَعَه والصبحُ والمُسْى[9] لا فلاحَ مَعه
ما بالُ مَنْ سرّه مصابُك لا يملك شيئاً من أمْرِه وَزَعَهْ
أذُود عن حَوْضِهِ ويَدْفَعُنى يا قومِ ، مَن عاذِرى مِنَ الخُدَعَهْ

---

(١) الشعر والشعراء : ١٤٤ ، النويرى : ٢–١٤ ، المعلقات : ٨٣ .

(٢) فى الشعراء : من عيشة . (٣) المضاف : الذى أحيط به . والتحنيب : انحناء وتوتير فى رجل الفرس ، والتحنيب فى الخيل مما يوصف به صاحبه بالشدة ، اللسان – مادة جنب ، حنب ، وفى رواية مجنبا . (٤) فى الشعراء والمعلقات : نبهته ، والمتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

(٥) البهكنة : الجارية الخفيفة الروح الطيبة الرائحة المليحة الحلوة .

(٦) فى ط : الممدد ، والمعمد : ذو العمد . (٧) الأمالى : ١–١٠٧ ، الشعراء : ٣٤٣ ، اللآلئ : ٣٢٦ . (٨) فى الأمالى : لكل هم من الهموم سعة والمسى والصبح ...

(٩) فى ط : والمسا .

حتى إذا ما انجلت عَمايتهُ ... أقبَل يَلْحى وغيُّه فَجَعَهْ
قد يجمعُ المــالَ غيرُ آكلهِ ... ويأكلُ المالَ غيرُ من جَمَعَهْ
ويقطعُ الثوبَ غيرُ لابسهِ ... ويلبس الثوبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهْ
فاقبَلْ من الدَّهْرِ ما أتاك به ... مَنْ قرَّ عينا بعيشه نَفَعَهْ
وصِلْ حبالَ البعيد إنْ وَصَلَ الْ ... حَبْلَ وأقْصِ القريبَ إنْ قطعَه
ولا تُعَادِ الفقيرَ عَلّك أنْ ... تركع يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ

هذا البيت شبيه بمــا رُوى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يستنشدنى قول اليهودى(1) :

ارفع ضعيفَك لا يَحُرْ(2) بك ضعفهُ ... يوما فتدْرِكَه العواقبُ(3) قد نَمَا
يَجْزِيك أو يُثْنِى عليك ، وإنَّ مَنْ ... أثنَى عليك بما فَعَلْتَ كمَنْ جزَى

فأُنشده فيقول : إنى فطِنٌ لها .

الأضبط

وكان الأضبط سيد بنى سعد ، وكانوا يشتمونه ويؤذونه ، فانتقل إلى حىٍّ من العرب فوجدهم يؤذون سادتهم ، فقال : حيثما أوجّه ألق سعدا ! فذهبت مثلا ، قال الطائى(4) :

فلا تحسَبَنْ(5) هنداً لها الغَدْرُ وحدها ... سجيــةُ نفسٍ ، كلُّ غانيةٍ هِنْدُ

[وصف المحابر والأقلام]

بعض الأدباء يصف محبرة

قال بعضُ الكتاب يصف محبرة :

ولقد مضَيْتُ إلى المحدِّث آنفاً ... وإذا بحَضْرَته ظِباءٌ رُتَّعُ
وإذا ظِباءُ الإنسِ تكتُبُ كلما ... يُمْلَى وتحفظُ ما يقولُ وتَسْمَعُ

---

(1) الشعراء : ٣٤١ ، اللآلئ : ٢٠٦ ، الأغانى : ٣-١٢ ، وفيها خلاف فى نسبتهما .
(2) فى ط : لا يجز .   (3) فى الشعراء : فتدركه عواقب ما جنى .
(4) ديوانه ١٢٠ .   (5) فى الديوان : فلا تحسبا .

يتجاذبون الحِبْرَ مِن ملمومةٍ[١] ... بيضاءَ تحمِلُها عَلائِقُ أربعُ
من خالص البَلُّورِ غُيِّرَ لَوْنُها ... فكأنها سَبَجٌ[٢] يَلوحُ ويَلْمع
إِنْ نكَّسوهَا لم تَسِلْ ، ومليكُها ... فيما حوَتْهُ عاجلا ، لا يَطْمَعُ
ومتى أمالوها لِرَشْفِ رُضَابِها ... أدّاه فُوهَا وهى لا تتمنَّعُ
وكأنها قَلْبِى يَضِنُّ بسِرِّهِ ... أبداً ويكتمُ كلَّ ما يُسْتَوْدَعُ
يَمْتَاحُها ماضِى الشَّبَاة مُذَلَّقٌ[٣] ... يجرِى بمَيْدَانِ الطُّرُوس فيُسْرِعُ
رِجْلاهُ رأسٌ عنده لكِنَّهُ ... يلقاه برد حَفَاهُ ساعةَ يقطَعُ
وكأنَّه والحِبْرُ يَخْضِبُ رأسَهُ ... شيخٌ لوَصْلِ خريدةٍ يتصنَّعُ
لِمَ لا أُلاحظه بعَيْنِ جلالةٍ ... وبه إلى اللهِ الصحائفُ تُرْفَعُ

لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

مَحْبَرَة جادَ لِى بها قَمَرٌ ... مستَحْسَنُ الخَلْقِ مُرْتَضَى الخُلُقِ
جوهرة خَصَّنى بجوهرةٍ ... ناطَتْ له المكرماتِ فى عُنُقِ
بيضاء والحِبرُ فى قَرَارَتِها ... أسْوَدُ كالمِسْكِ جِدّ مُنْفَتِق
مثل بياضِ العيون زَيّنهُ ... مُسْوَدُّ ما شابَهُ مِنَ الحَدَق
كأنما حِبْرُها إذا نثَرَتْ ... أقلامُنَا ظِلَّه على الوَرَق
كُحْلٌ مَرَتْهُ[٤] العُيُونُ مِنْ مُقَلٍ ... نُجْلٍ فأَوْفَتْ بِهِ على يَقَقٍ[٥]
خَرساَء لكنَّها تكونُ لنا ... عَوْناً على عِلم أفْصَحِ النُّطُقِ

وقال عبد الله بن أحمد : القلم أمْرَهُ[٦] ، ما لم يَكْتَحِل بإثْمِدِ الدَّوَاة .

وكتب إبراهيم بن العباس كتاباً فأراد مَحْو حرف فلم يجد منديلا ، فمحاه بكُمِّه ،

---

(١) يقال صخرة ملمومة : مستديرة . (٢) السبج : خرز أسود .
(٣) الشباة : حد كل شىء . وذلقه : حدده . وفى ق ، س : ماضى الشباب .
(٤) مرى الشىء : استخرجه . (٥) أبيض يقق : شديد البياض .
(٦) مرهت عينه : خلت من الكحل ، أوفسدت لتركه ، أو ابيضت حماليقها .

فقيل له فى ذلك ، فقال : المالُ فَرْعٌ ، والعلمُ أصل ؛ وإنما بلَغْنا هذه الحال ، واعتقدنا هذه الأموال بهذا القلم والمداد ، ثم قال[1] :

إذا ما الفكرُ أضمرَ[2] حُسْنَ لَفْظٍ   وأدّاه الضميرُ إلى العِيَانِ
ووَشّاه ونَمْنَمَهُ مُسَدٍّ[3]   فصيحٌ بالمَقَالِ وباللِّسان
رأيت حُلَى البيانِ منوّراتٍ[4]   تَضَاحَكُ بينها صُوَرُ المعانى

ألفاظ لأهل العصر فى أوصاف آلات الكتابة والدوِيّ والأقلام

الدواة من أنفع الأدوات ، وهى للكتابة عتاد ، وللخاطر زِناد . غدير لا يرِدُه غيْرُ الأفهام ، ولا يمتح بغير أرْشية الأقلام[5] . دواة أنيقة الصَّنْعَة ، رَشيقة الصبغة ، مسكية الجلد ، كافُورِيّة الحِلْيَة . غدير تفيض ينابيعُ الحِكْمَة من أَقْطَارِه ، وتنشأ سُحُبُ البلاغة مِنْ قَرَاره . دواة تُدَاوِى مَرَض عُفاتك ، وتُدْوِى[6] قُلُوبَ عداتك ، على مَرْفَع يُؤْذِنُ بدوام رِفْعَتِك وارتفاعِ النوائب عَنْ سَاحَتِك ، ومدادٍ كسواد العَيْنِ ، وسُوَيْدَاءِ القلب ، وجناح الغُرَابِ ، ولُعَابِ الليل ، وألوانِ دُهْمِ الخيل . وهذا من قول ابن الرومى :

حبر أَبِى حَفْصٍ لُعابُ الليلِ   كأنه ألوانُ دُهْمِ الخيلِ

قال العاصر : مدادٌ ناسب خافِيَة الغُرَاب ، واستعار لونَه من شَرْخِ الشباب ، وأَقلام جمَّةُ المحاسن ، بعيدة من المَطَاعِن ، تماصى الكاسى[7] ، وتمانِع الغامزَ القَاسِى . أنابيب ناسبت رِماح الخطِّ فى أَجْنَاسِها ، وشاكلت الذهبَ فى ألوانها ، وضاهَت الحديدَ فى لمعانها ؛ كأنها الأميالُ استواءً ، والآجالُ مَضَاءً ، بطيئة الحفَى ، قوية القُوَى ،

---

(١) ديوانه : ١٨٨ ، الأدباء : ١–٢٦٩ .   (٢) فى الديوان : ولد .
(٣) مسد من السدى : خلاف اللحمة .   (٤) فى الديوان : منشرات تجلى .
(٥) الأرشية جمع رشاء ، وهو حبل الدلو .   (٦) أدويته : أمرضته .
(٧) فى س : الكأسى .

لا يُشظِّيها [١] القطُّ ، ولا يتشعَّبُ بها الخطّ . أقلام بحرية موشية اللِّيط [٢] ، رائقة التخطيط . قلمٌ معتدل الكعُوب ، طويل الأنبوب ، باسِقُ الفروع ، رَوِيّ اليَنْبُوع ، هو أَوْلَى باليد من البَنَانِ ، وأَخْفَى للسر من اللِّسان . هو للأَنامل مطيّة ، وعلى الكتابة معونة مَرْضِيّة ، نعم العُدَّة القلم ؛ يقلم أظافر الدَّهر ، ويملك الأَقاليم بالنَّهْى والأمر ، إن أَرَدْتَ كان مسجوناً لا يملّ الإسار ، وإن شئتَ كان جواداً جارياً لا يعرفُ العِثار ، لا ينْبُو إذا نَبَتِ الصِّفَاح [٣] ، ولا يُحْجِمُ إذا أحجمت الرِّمَاح .

قال أبو الفتح كشاجم ، يصف محبرة ومقلمة وأقلاماً وسكيناً :

جِسْمِي من اللَّهْوِ وآلاتِ الطَّرَبْ ... ومن عتادٍ وثَرَاءٍ ونَشَبْ
ومن مُدَامٍ ومَثَانٍ تَصْطَحِبْ ... وهمةٍ طمَّاحَةٍ إلى الرُّتَبْ
مَجَالسٌ مَصُونَة مِنَ الرِّيَبْ ... معمورة من كلِّ عِلْمٍ وأدبْ
تَكَادُ مِنْ حَرِّ الحديثِ تَلْتَهِبْ ... شِعْراً وأخباراً ونحواً يقتضبْ
ولغةً تجمعُ أَلْفَاظَ العربْ ... وفِقَرا كالوَعْدِ فى قَلْبِ المُحِبّ
أو كتأتِّى الرزق مِنْ غَيْرِ طلبْ ... أَجَلْ وحَسْبِي من دُوِيٍّ [٤] تُنْتَخَبْ
محلَّيات بِلُجَيْنٍ وذهَبْ ... محْبَرَة يُزْهَى بِهَا الحِبْرُ [٥] الأَلَبّ
مثقوبة آذانُها وفى الثَّقَبْ ... مثل شُنُوفِ [٦] الخُرَّدِ البِيضِ العرب
تضمَّن قطراً فيه للكُتب عُشُب ... أَسود يجْرِى بمعانٍ كالشُّهُبْ
لا تَنْضُبِ الحكمةُ إلاَّ إنْ نَضَبْ ... نِيطَتْ إلى يُسْرَى يَدَىَّ بِسَبَبْ
كالقرْطِ فى الجِيدِ تدَلَّى فاضْطَرَبْ ... تصحبها ، والأَخَواتُ تُصْطَحَبْ
كأنه يودع نَبْلا من قَصَبْ ... لم يَعْلُها رِيشٌ ولم تَحْمِلْ عَقَبْ [٧]

---

(١) تشظى العود : تطاير شظايا . (٢) الليط : قشر كل شىء .
(٣) يريد السيوف ، وكل شىء عريض ، صفاحة وجمعه صفاح . (٤) جمع دواة .
(٥) الحبر : العالم أو الصالح . (٦) الشنف : القرط الأعلى ، وجمعه شنوف .
(٧) العقب : العصب تعمل منه الأوتار .

لا تَضْحَكُ الأَوْرَاقُ حتى يَنْتَحِبْ ... تَرْمِي بها يمناىَ أَعْرَاضَ الكُتُبْ
رمياً متى أقْصِدْ بهِ السَّمْتَ أُصِبْ ... ومُدْيَة كالعَضْبِ ما مَسَّ القَصَبْ
غَضْبىَ على الأَقْلَامِ من غير سببْ ... تَسْطُو بها فى كلِّ حينٍ وتَثِبْ
وإنما تُرْضِيكَ فى ذاك الغَضَبْ ... فتلك آلاَتى وآلاتِى تُحَبّْ
والظَّرْفُ فِى الآلاتِ مما يُسْتَحَبّْ ... لا سيَّما ما كان مِنْهَا للأَدَبْ

[المأمون وبعض عماله]

تظلّم رجلٌ إلى المأمون من عامل له فقال . يا أمير المؤمنين ، ما ترك لى فِضَّة إلاَّ فَضَّها ، ولا ذهباً إلاّ ذهب به ، ولا غلَّة إلا غَلَّها ، ولا ضَيْعَةً إلاّ أضاعها ، ولا عِلْقاً [1] إلا عَلِقَه ، ولا عَرَضاً إلا عَرض له ، ولا ماشية إلا امْتَشَّها [2] ، ولا جليلا إلا أجْلَاه ، ولا دقيقاً إلا أدقّه . فعجب من فصاحته وقضى حاجَتَه .

قال عمرو بن سعد بن سلم : كانت علىّ نوبة أنوبها فى حرس المأمون ، فكنتُ فى نوبتى ليلةً فخرج متفقّدا مَنْ حَضَر ، فعرفته ولم يعرفنى ، فقال : من أنت ؟ قلت : عَمْرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسْعَدك الله ، ابن سلم ، سلّمك الله. فقال : تَكْلَؤُنا منذ الليلة • قلت : الله يَكْلَؤُك قبلى ، وهو خيْرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال المأمون :

إنّ أخاك الحقّ [3] من يَسْعَى مَعَكْ ... ومَنْ يَضُرُّ نَفْسَه لينْفَعَكْ
ومَنْ إذا صَرْفُ زمان [4] صدَعَكْ ... بدَّد شَمْلَ نَفْسِهِ ليَجْمَعَكْ

وقال على بن العباس الرومى [5] :

خَجِلَتْ خُدودُ الوَرْدِ من تَفْضِيله ... خجلا تَوَرُّدها عليه شاهدُ

---

(١) العلق : النفيس من كل شىء .
(٢) امتش ما فى الضرع : أخذ جميعه .
(٣) فى س ، ق : إن أخا ينحاك .
(٤) فى ط : الزمان .
(٥) ديوانه ٧٦ ، النويرى ١١–٢٣٤ ، اللآلىء ٥٩٣ ، الأمالى ١–٢٦٧ .

لم يخجل الوردُ المورَّدُ لونهُ ... إلّا وناحِلُه الفضيلةَ عانِدُ[١]
للنرجس الفَضْلُ المبين إذا بَدَا ... بين الرياض طريفـه والتَّالدُ[٢]

[الورد والنرجس]

وكان ابنُ الرومى متعصباً للنرجس ، كثير الذمِّ للورد ، وكتب إلى أبى الحسن ابن المسيب[٣] :

أدْرِكْ ثِقَاتك إنهم وَقَعُوا ... فى نَرْجِسٍ معه ابنـةُ العِنَبِ
فهُمُ بحـالٍ لو بَصُرْتَ بها ... سبَّحْتَ من عُجْبٍ ومن عَجَبِ
رَيْحَانُهم ذَهبٌ على دُرَرٍ ... وشرابُهم دُرٌّ على ذهَبِ
فى رَوْضَةٍ شَتْـوِيَّةٍ رَضعت ... دِرَّ[٤] الحيَا حَلَباً على حَلَبِ
واليومُ مَدْجُون فحرَّتُهُ[٥] ... فيـهِ بمُطَّلِـعٍ ومُحتَجِبِ
ظلت تسامرنا[٦] وقد بَعَثَتْ ... ضَوْءًا يُلاحِظُنَا بِلا لَهَبِ

وكان كِسْرى أنو شروان مستهتراً[٧] بالنرجس ، وكان يقول : هو ياقوتٌ أصفر ، بين درّ أبيض ، على زمرّد أخضر . نقله بعض المحدّثين فقال :

وياقوتةٍ صفراء فى رأس دُرَّةٍ ... مركَّبة فى قائمٍ مِن زَبَرْجَدِ
كمثْل بهىّ الدُّرِّ عقد نظامها ... نَثِيرُ فِرِندٍ قد أطاف بعَسْجَدِ
كأنَّ بقايا الطّلِّ فى جَنَبَاتِها ... بقيةُ دَمْعٍ فوق خَدٍّ مورَّدِ

رجع ابن الرومى[٨] :

فَصْلُ القضيةِ أنَّ هذا قَائِدٌ ... زَهَرَ الرَّبيع وأنَّ هذا طاردُ
شتَّانَ بين اثنين هذا مُوعِدٌ ... بتَصَرُّمِ[٩] الدنيا وهذا وَاعِدُ

---

(١) فى س ، ق : إلاوفاضله الفضيلة عاقد . (٢) فى الديوان : لأنه زهر ونور وهو نبت واحد وفى النويرى والأمالى : وإن أبى آب وحاد عن الطريقة حائد .
(٣) ديوانه : ١١٨ . (٤) فى الديوان : درر . (٥) حرة اليوم : شمسه .
(٦) فى الديوان : شمس تسايرنا وقال شارحه : وفى الأصل : تساترنا . (٧) مولعا .
(٨) المرجع السابق . (٩) فى النويرى : بتسلب .

فإذا احتفظتَ به فأَمْتَعُ صاحبٍ ... بحياته لو أنّ حيًّا خالِد
ينهى النديمَ عن القبيح بلحْظِهِ ... وعلى المُدامةِ والسَّماعِ يُساعِدُ
اطلب بعقْلك[1] فى الملاح سَمِيَّهُ ... أبداً ، فإنك لا محالةَ واجِدُ
والوردُ إنْ فتَّشت فردٌ فى اسمهِ ... مافى الملاح له سمىٌّ واحِد
هذى النجوم هى التى ربَّتْهما[2] ... بحَيَا السحابِ كما يُرَبِّى الوالد
فانظرْ إلى الولدين[3] ، مَنْ أدناهما ... شبهاً بوالده فذاك الماجِدُ
أَين الخدود من العيون[4] نفاسةً ... ورياسةً ، لولا القياسُ الفاسدُ

وقد ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم فى هذا المذهب ، وذهبوا إلى تفضيل الوردِ ؛ فما دانَوْه وما استطاعوه .

قال أحمد بن يونس الكاتب رادًّا عليه[5] :

يا مَنْ يُشَبِّه نَرْجساً بنواظرٍ ... دُعْجٍ ، تَنَبَّهْ إنَّ فهمَك راقدُ
إنّ القياسَ لمن يصحُّ قياسهُ ، ... بين العيون وبينه متباعدُ
والوردُ أَصدقُ للخدودِ حكايةً ... فعلامَ تَجْحَدُ فَضْلَه يا جاحِدُ
مَلِكٌ قصيرٌ عمْرُه مُسْتأْهِلٌ ... تخليده ، لو أنّ حيًّا خالِدُ
إنْ قلت إنَّ الوردَ فَرْدٌ فى اسمهِ ... ما فى الملاح له سمىٌّ واحِدُ
فالشمسُ تُفْرَدُ باسمها والمشترى ... والبدر يُشْرَكُ فى اسمه وعُطارِد
أو قلت إنّ كواكبا ربيتها ... بحَيَا السَّحابِ كما يُرَبِّى الوالد[6]
قلنا أحقّهما بطَبْع أبيه فى الْ ... جَدْوَى هوالزّاكى النجيبُ الرّاشدُ
زُهرُ النُّجومِ تَرُوقنا بضيائها ... ولهـا منافعُ جمّةٌ وعوائدُ
وكذلك الوَرْدُ الأَنيقُ يَرُوقنا ... وله فضائلُ جَمَّةٌ وفوائد

---

(١) فى النويرى : إن كنت تطلب . (٢) فى الديوان : ربيتها .
(٣) فى الديوان : فتأمل الاثنين . (٤) فى الديوان والنويرى : أين العيون من الخدود .
(٥) اللآلى : ٥٩٤ . (٦) حيا السحاب : المطر .

وخليفهُ إن غاب ناب بنَفْعِهِ وبنَفْحِه أبدا مقيمٌ راكِدُ
إنْ كُنْتَ تُنْكِرُ ماذكَرْنا بعدما وضَحَتْ عليه دَلائلٌ وشَواهِدُ
فانْظُرْ إلى المُصْفَرِّ لوناً منهما وافطن فما يَصْفَرُّ إلّا الحاسِدُ

نبذ من النظم والنثر فى صفات النَّور والزهر

لعلى بن الجهم

قال على بن الجهم[1] :

لم يضحَكِ الوردُ إلّا حين أعْجَبَه حُسن الرِّياضِ[2] وصوتُ الطائرِ الغَرِدِ
بدا فأبْدَتْ لنا الدُّنيا محاسِنَها وراحَتِ الرَّاحُ فى أثوابها الجُدُدِ
وقابلَتْهُ يَدُ المُشْتاقِ تَسْنُدُهُ إلى الترائب والأَحْشاء والكَبِدِ
كأنَّ فيه شفاءً من صَبابتهِ أو مانِعاً جَفْنَ عينيه مِنَ السُّهُدِ
بَيْنَ النَّديمين والخِلَّيْن مَصْرَعُه وسَيْرُه مِن يَدٍ موصولةٍ بِيَدِ
ما قابلَتْ طَلْعَةَ الرَّيحَانِ طَلعتُه إلا تبيَّنْتَ فيه ذِلَّةَ الحسدِ
قامَتْ بحُجَّته ريحٌ مُعطَّرَةٌ تَشْفى القلوبَ من الأَوْصابِ والكَمَدِ
لا عَذَّبَ اللهُ إلّا من يُعَذِّبه بمُسْمِعٍ[3] باردٍ أو صاحبٍ نَكِدِ

وكان أردشير بن بابك يصفُ الورد ويقول : هو درٌّ أبيض ، وياقوتٌ أحمر ، على كراسى زَبَرْجَد أخْضر ، توسطه شذورٌ من ذَهبٍ أصفر ، له رِقَّةُ الخمر ، ونفحات العِطْر . أخذه محمد بن عبد الله بن طاهر فقال :

كأَنهنَّ يواقيتٌ يُطِيفُ بها زُمرّدٌ وسْطَه شَذْرٌ مِنَ الذَّهب
فاشْرَبْ على مَنْظرٍ مستطْرَفٍ حَسَنٍ من خَمْرةٍ مَزَّةٍ كالجَمْرِ فى اللَّهَبِ[4]

المتوكل والحسين ابن الضحاك

وقال يزيدُ المهلبى: أَحَبَّ المتوكِّل أن ينادمَه الحسين بن الضحاك الخليع البصرى، وأنْ يرَى ما بَقِى من ظَرْفِه وشهوته لما كان عليه ؛ فأَحْضره وقد كَبِر وضَعُفَ، فسقاه

(١) ديوان على بن الجهم ٨٩، حماسة ابن الشجرى ٢٢٥ . (٢) فى الديوان : حسن النبات.
(٣) المسمع : المغنى . (٤) المزة : الخمرة اللذيذة الطعم .

حتى سكر ، وقال لخادمه شفيع : اسْقِه ؛ فسقاه وحياه بوَرْدَة ، وكانت على شفيع أثوابٌ موَرَّدة ، فمدّ الحسين يده إلى دِرْع شفيع، فقال المتوكل : أتخمش غُلَامى[1] بحضرتى ؟ كيف لو خَلَوْتَ به ! ما أحوجك ياحسينُ إلى أدب ! وكان المتوكل غمز شفيعا على العبث به ، فقال الحسين : سيدى ، أريد دواة وقرطاسا ؛ فأمر له بهما فكتب :

وكالوردة البيضاء حَيًّا بأَحْمَرٍ ... من الوَرْدِ يسعى فى قَرَاطِقَ كالوَرْدِ[2]

له عَبَثَاتٌ عند كلِّ تحيَّةٍ ... بِكفّيْه يستَدْعِى الخلِىَّ إلى الوَجْدِ

تمنيتُ أنْ أُسْقى بكفيه شَرْبَةً ... تذكّرنى ما قد نسيتُ من العَهْدِ

سَقَى اللهُ عيشا لم أنَمْ فيه ليلةً ... من الدهر إلاَّ من حبيب على وَعْدِ

ثم دفع الرقعةَ إلى شفيع ، وقال : ادْفَعْها إلى مولاك ؛ فلما قرأها استملحها ، وقال: لو كان شفيع ممن تَجُوز هِبَتُه لوهَبْتُه لك، ولكن بحياتى ياشفيع إلاّ كنتَ ساقيه بقيَّةَ يومه ! وأمر له بمالٍ كثير حُمِل معه لما انصرف .

قال يزيد المهلبى : فصرتُ إلى الحسين بعد انصرافه من عند المتوكل بأيام فقلت : ويحك ! أتدرى ما صنعت ؟ قال : لا أدَعُ عادتى بشىء ، وقد قلت بعدك :

لا رأى عطفة الأحبْ ... بَةِ من لا يصرحُ

أَصْغَرُ الساقِيَيْن أَشْ ... كَلُ عِنْدِى وأمْلَحُ

لو تراه كالظبى يَسْ ... نح طَوْراً ويَبْرَحُ

خِلْتَ غُصْناً على كثيـ ... بٍ بنَوْرٍ يُوَشَّحُ

قال الصولى : وكأن الأول من أبيات الحسين من قول العباس بن الأحنف[3] :

بيضاء فى حُمْرِ الثيابِ كوَرْدَةٍ ... بيضاءَ بين شقائقِ النعمانِ

تهتزُّ فى غَيد[4] الشبابِ إذا مَشَتْ ... مثل اهتزازِ نَوَاعِمِ الأَغْصَانِ

---

(١) فى س ، ق : أتخشن. (٢) القرطق كجندب : لبس .
(٣) ليس فى ديوانه المطبوع بين أيدينا . (٤) غيد كفرح : لانت أعطافه .

قال أبو بكر الصولى : كان عند الخصى[١] الوزير ظبى داجن ربيب[٢] فى داره، فعمد إلى نيلوفر فأَكله ، فاستملح الغزال وأنسه ، وقال : لو عمل فى أُنْس هذا الغزال وفعله بالنيلوفر لاشتمل العمل على معنًى مليح ! فبلغ الخبرُ أباعبد الله إبراهيم بن محمد ابن عرفة نفطويه ، فبادر لئلا يُسبق ، وعمل أبياتا أولها :

جرَتْ ظَبْيَةٌ غنَّاء تَرْعَى برَوْضَةٍ   تَنُوشُ[٣] لدَى أفْنَانِها ورَقاً خُضْرا

فى أبيات غير طائلة ، فاستبرد ما أتى به ، قال الصولى : فقلت :

ونَيلَوفرٍ يحكى لنا المِسْكَ طيبُهُ   تراه على اللذاتِ أفضَـلَ مُسْعِدِ
قد اجتنّ خوفَ الحادثات بجُنَّـةٍ   تروقُ كثوبِ الراهب المتعبِّـدِ
تُرَكَّب كالـكاسَاتِ فى ذَهبيَّـةٍ   على قُضُبٍ مخضرَّةٍ كالزَّبرْجدِ
وأُلْبس ثوباً يفْضُلُ اللَّحْظَ حُسْنُه   كما عبِثَتْ عينٌ بِخَدٍّ مُوَرَّدِ
غذَتْه أهاضيبُ[٤] السماءِ بدَرِّها   تروحُ عليه كلَّ يومٍ وتَغْتدِي
تلبّس للأَنْوَارِ ثَوْب سمائه   ففضَّلَ عنه الحسن فى كلِّ مَشْهَدِ
وفى وسطه منه اصفِرارٌ يَزِينُه   كياقوتةٍ زرقاءَ فى رَأْسِ عَسْجَدِ
أطاف به أَحْوَى المدامِع شَادِنٌ   حَـكى طَرْف منأَهْوى وحُسن المقلّدِ
كما أخذ الظمآنُ بالفم كاسه   ولم يستَعِنْ فى أخذه الـكاسَ باليَدِ

لابن وكيع

وقال أبو محمد الحسن بن على بن وكيع[٥] :

يومٌ أتاك بوَجْهِه المتهلّل   ناهيك من يومٍ أغرَّ مُحجَّلِ
خلع الغمامُ على اخْضِرارِ سمائه   خلعا فبَيْنَ مُمسّكٍ ومُصَنْدَلِ
وكسا الرُّبى حُللا تخالَفَ شكلُها   بمورَّدٍ ومُعَصْفر ومُكحّلِ
وتمايلَتْ فيـه قدودُ غُصُونِه   من شُرْبِ كاساتِ الغيونِ الهُطّلِ

---

(١) فى س : الخصيبى .   (٢) فى س : ربيت .   (٣) تنوش : تتناول .
(٤) الهضبة : المطرة ، وجمعه هضب وهضاب، وجمع الجمع أهاضيب .
(٥) فى ق ، ط : أبو الحسن محمد بن على .

وعَلا على الأشجار قَطْرُ سمائها ... فهدَتْ لعين الناظر المتأملِ
يَحكى قِباب زُمُرّدٍ قد كُلِّلتْ ... بمنظَّمٍ من لؤلؤ ومُفصَّلِ
وأتاك نَوْرُ الباقِلاء كأنما ... يرْنو إليك بعين أكْحَل أقبلِ(١)
الوَرْدُ يُخجلُ كلَّ نورٍ طالع ... وتراه مُنْتقِباً بحُمْرَةٍ مُخجلِ
وحكى بياضُ الطَّلْع فى كافورهِ ... وجْهَ الخريدة فى الخمارِ الصَّنْدَلى
فكأنما الدنيا عَرُوسٌ أقبلَتْ ... فى كل أنواع الملابس تَجْتَلى
فاشرب مُعَصْفَرَةَ القميص سُلافةً ... من صنعة البَرَدانِ أو قطربُّلِ

لأبى الفتح البستى

وقال أبو الفتح البستى(٢) :

يومٌ له فَضْلٌ على الأيَّامِ ... مزجَ السَّحابُ ضياءَه بظلامِ
فالبَرْقُ يخفق مِثْلَ قَلْبٍ هائمٍ ... والْغَيْمُ يَبْكِى مثل طَرْفٍ هَامِ
وكأنَّ وَجْهَ الأرْض خَدٌّ متيَّم ... وُصِلت سجامُ دموعِه(٣) بسِجَامِ
فاطلبْ ليومك أربعاً : هنّ المُنَى ... وبهنّ تَصْفُو لذَّةُ الأيامِ
وَجْه الحبيب ومنظرا مستشرقا ... ومغنِّياً غَرِدًا وكأسَ مُدام

للميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

سَلَّ الربيعُ على الشِّتاءِ صوارماً ... ترَكتْه مجروحاً بلا إغْمادِ
وبكَتْ له عَيْنُ السماء بأدْمُعٍ ... ضَحِكَت لساجِمها رُبَى الأنجادِ
وبدتْ شقائقُها خِلال رِياضِها ... تزْهَى بثوبَىْ حُمْرَةٍ وسَوادِ
فكأنها بِنْتُ الشتاء توجَّعَتْ ... لمُصابه كشقيقةِ الأولادِ
فقنوءُ حُمرَتها خِضابُ نَجيعِه ... وسوادُ كُسْوَتِها لِباسُ حِدادِ

---

(١) القبل : إقبال السواد على البياض ، أو مثل الحول ، أو أحسن منه .

(٢) يتيمة الدهر : ٤ـ٢٩٠ .   (٣) فى اليتيمة : وصلت دموع سحابه .

وقال[١] :

تصوغُ لنا كفُّ الربيعِ حدائقا | كعقد عَقيقٍ بين سِمْطِ لآلِى
وفيهن أنْوَارُ الشقائقِ قد حَكَتْ | خُدودَ عَذارى نُقِّطت بِغَوالى

وقال[٢] :

كأنَّ الشقائقَ إذ أبرزَتْ | غِلالة دادٍ[٣] وثوْباً أحَمّْ
قطاعٌ من الجَمْرِ مشبوبةٌ | فأطرافُها لُمَعٌ مِنْ حَمَمْ

وقال فى حديقة ريحان[٤] :

أعْدَدْت مُحْتَفلا ليوم فَراغى | روضا غَدا إنسانَ عَيْنِ الباغى
روض يَرُوضُ هُمومَ قلبى حُسْنُهُ | فيـه لـكأس الأُنْسِ أىّ مَساغِ
فإذا بدَتْ قُضْبَانُ ريحانٍ بِهِ | حيَّتْ بمثلِ سلاسلِ الأصْداغِ

وقال فى النرجس[٥] :

أهْلًا بنرجس رَوْضٍ | يُزْهَى بحُسْنٍ وطِيبِ
يرْنُو بعَيْـنَىْ[٦] غزالٍ | على قَضيبٍ رَطِيبِ
وفيـه معنى خفىٌّ | يَزِينُـه[٧] للقـلوبِ
تَصْحِيفُه إنْ نسَمْتَ الْ | حُرُوفَ بِرٌّ حَبِيبِ

وقال[٨] :

وماضمَّ شَمْلَ الأُنْسِ يوماً كنَرْجِسٍ | يقومُ بعُذْرِ اللَّهْوِ عن خالِعِ العُذرِ
فأحداقه أحـداق[٩] تِبْرٍ وساقهُ | كقامةِ ساقٍ فى غَلائلهِ الخُضْرِ

---

(١) اليتيمة : ٤ـ٣٤٢ . (٢) اليتيمة : ٤ـ٣٤٣. (٣) فى اليتيمة : لاد ، والدادى : المولع باللهو لا يكاد يبرحه . (٤) اليتيمة : ٤ـ٣٤٢ .
(٥) نهاية الأرب : ١١ـ٢٣٣ ، اليتيمة : ٤ـ٣٤٣ . (٦) فى ط ، س : بعين .
(٧) فى النويرى واليتيمة : فى القلوب . (٨) اليتيمة : ٤ـ٣٤٣ .
(٩) فى اليتيمة : أقداح .

للبحتري

وقال البحتري[1] :

سَقَى الغيثُ أكنافَ اللِّوى[2] من محلّةٍ ... إلى الحِقْف من رَمْل اللوى[3] المتقاودِ
ولا زال مخضرٌّ من الرَّوْضِ يانعٌ ... عليه بمحمرٍّ من النَّور جاسدِ[4]
شقائق يحملن النـدى فـكأنّه ... دموعُ التصابى فى خدودِ الخرائدِ
ومن لؤلؤ فى الأقحُوان[5] منظّمٍ ... ومن نُـكَتٍ مصفرّة كالفرائدِ
كأن جنى الحوذان فى رَوْنَق الضحى ... دنانير تبرٍ[6] من تُؤام وفاردِ
إذا راوحتها مُزْنَةٌ بكرت لها ... شآبيبُ مجتازٍ عليها وقاصدِ
رِباع تردَّتْ بالرياض مجُودَةً ... بكل جديد الماء عَذْب الموارد
كأنَّ يدَ الفتح بن خاقان أقبلت ... تَليها بتلك البارقات الرَّواعِدِ

* * *

شىء من النقد

قال أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتَويه : قال لى البحترى ، وقد اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسَلَكْنا مسلـكا من المذاكرة : أشعرت أنى سبقت الناسَ كلهم إلى قولى :

شقائق يحمِلْنَ النَّدَى فـكأنَّهُ ... دموعُ التَّصابى فى خُدودِ الخرائِدِ
كأن يَدَ الفَتْحِ بن خاقان أقبلَتْ ... تليها بتلك البارقات الرَّواعِدِ

هكذا أنشد . فاستحسن ذلك المبرد استحساناً أسرف فيه ، وقال : ما سمعت مثل هذه الألفاظ الرّطبة ، والعبارة العَذْبة لأحدٍ تقدَّمك ولا تأخَّر عنك . فاعتَرَتْهُ أرْيَحيّةٌ جرّ بها رِداء العُجب ؛ فـكأنه أعجبنى مايُعْجب الناس من مراجعة القول ؛ فقلت : يا أبا عُبادة ، لم تَسْبِق إلى هذا ، بل سبقك سعيد بن حميد الـكاتب إلى البيت الأول بقوله[7] :

(١) ديوانه : ١ـ١٣٦ ، المختار من شعر بشار ٢٤٥ . (٢) فى الديوان : الحمى .
(٣) فى الديوان : إلى الحف من رمل الحمى . (٤) فى ط : حاسد .
(٥) فى الديوان : الأرجوان . (٦) فى الديوان : نثر .
(٧) المختار من شعر بشار : ٢٤٧ .

عَذُبَ الفراقُ لنا قُبَيل وَداعِنا ... ثم اجترعناهُ كسمٍّ نَاقعِ
وكأنما أثرُ الدموع بخدِّها ... طَلٌّ تساقط[1] فوق وَرْدٍ يانعِ

وشركك فيه صديقُنا أبو العباس الناشئ بما أنشدنيه آنفا[2] :

بكَت للفراق وقد راعَنى ... بكاءُ الحبيب لبُعْدِ الديارْ
كأنَّ الدموعَ على خدّها ... بقيةُ طَلٍّ على جُلّنار

وما أساء على بن جريج ، بل أَحسن فى زيادته عليك بقوله[3] :

لو كنتَ يوم الوداع شاهِدَنا ... وهنَّ يُطْفِينَ غُلةَ الوَجْدِ
لم ترَ إلّا دموعَ باكيةٍ ... تَسفَح من مُقْلةٍ على خدِّ
كأنّ تلك الدموع قطرُ ندًى ... يقطُر من نَرْجس على وَرْدِ

وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معاً بقوله[4] :

من كل زاهرةٍ ترقْرَقُ بالندَى ... فكأنها عينٌ إليه[5] تَحدَّرُ
تَبدو ويَحْجُبُها الجميمُ كأنها ... عَذْراءُ تبدو تارةً وتخفرُ[6]
خَلقٌ أطلَّ من الربيع كأنَّهُ ... خُلُقُ الإمامِ وهَدْيه المتنشّرُ
فى الأرض من عَدْلِ الإمام وجُودِهِ ... ومن الربيع الغضّ سَرحٌ يُزهر[7]
يُنسى الربيع وما يروّض جوده[8] ... أبدا على مَرِّ الليالى يُذْكَرُ

قال : فشقَّ ذلك عليه ، وحلّ حَبْوَتَه ونهض ، فكان آخر عهدى بمؤانسته ؛ وغَلُظ ذلك على محمد بن يزيد ، وقدح ذلك فى حالى عنده .

***

(١) فى المختار : سقيط . (٢) المختار من شعر بشار : ٢٤٦ .
(٣) المختار من شعر بشار : ٢٤٥ ، النويرى : ٢ـ٢٤٨ ، العكبرى : ٢ـ٣٠٢ .
(٤) ديوانه : ١٥٧ . (٥) فى الديوان : إليك . (٦) فى س : الجسيم ، والجميم : النبت المغطى الأرض . (٧) فى الديوان : * ومن النبات الغض سرج تزهر * والسرح : كل شجر عال . (٨) فى الديوان : * تنسى الرياض وما يروض فعله *

وللبحترى

وقال البحترى يمدح الهيثم بن عثمان الغنوى[١] :

ألست ترى مدَّ الفُراتِ كأنهُ ... جبال شرَوْرَى[٢] جِئن فى البحرِ عُوَّما
وما ذاك[٣] من عاداته غير أنهُ ... رأى شِيمةً من جارِه فتعلَّما
وقد نبَّه النَّوْرُوزُ فى غَبَشِ[٤] الدُّجا ... أوائل وردٍ كُنَّ بالأمس نُوَّما
يُفتِّحها[٥] بَردُ النَّدَى فكأنهُ ... يَبُثُّ حديثاً بينهنَّ[٦] مُكتَّما
ومن شجرٍ ردَّ الربيعُ لِباسهُ ... عليه كما نشَّرتَ بُردًا[٧] مُنَمْنَما
أحلَّ فأبدى للعيونِ بَشاشةً ... وكان قذًى للعين مُذ[٨] كان مُحرَما
فما يمنع[٩] الراح التى أنت خِلُّها ... وما يَمْنَعُ الأوتار أنْ تترنَّما
وما زلت خِلاًّ للنَّدامى إذا اغْتَدَوْا[١٠] ... وراحُوا بُدوراً يستحِثُّون أنْجُما
تكرَّمْت من قبل الكئوس عليهمُ ... فما اسْطَعن أنْ يحدثن فيك تكرّما

وقال[١١] :

حيَّتْك عنا شمالٌ طافَ طائفُها ... بجنَّةٍ فجرتْ راحاً[١٢] وريْحانا
هبَّتْ سُحَيْرًا فناجَى الغُصْنُ صاحبَهُ ... سِرًّا بها وتداعَى الطَّيْرُ إعلانا
وُرْقٌ تغنَّى على خُضْرٍ مُهدَّلةٍ ... تَسْمُو بها وتَمَسُّ الأرضَ أحيانا
تخالُ طائرَها نَشْوانَ من طَرَبٍ ... والغُصْنَ من هزِّهِ عِطْفَيْهِ نَشْوانا

أرجوزة ابن المعتز

ولابن المعتز فى أرجوزته البستانية التى ذم فيها الصَّبوح صفة جامعة ، إذ قال[١٣] :

أَمَا ترى البُسْتَانَ كيف نوَّرا ... ونَشَّر المنثور بُرْدًا أصفرا
وضَحَّك الوردَ إلى الشقائقِ ... واعتَنَق الورد[١٤] اعتناق الوامقِ

---

(١) ديوانه : ١ــ٢٣٤ . (٢) فى ط ، ق ، س : شدورى .
(٣) فى الديوان : ولم يك . (٤) فى الديوان : غلس . (٥) فى الديوان: يفتقها .
(٦) فى الديوان : كان قبل . (٧) فى الديوان : وشيا .
(٨) فى الديوان : إذ . (٩) فى الديوان : يحبس . (١٠) فى الديوان : انتشوا .
(١١) نسبه فى النويرى لابن الرومى : ١١ــ٢٦٤ ، ١ــ١٠٠ . (١٢) فى النويرى : فى جنة قد حوت روحا . (١٣) ديوانه ١١١ . (١٤) فى الديوان : القطر .

في رَوْضَةٍ كحلية[١] العروسِ وخُـدَّمٍ[٢] كهامةِ الطاوسِ
وياسمين في ذُرَى الأغصان منظم[٣] كقِطَع العِقْيَانِ
والسَّرْوُ مثل قَصَبِ الزَّبَرْجدِ قد استمدّ المـاءَ من تُربٍ ندِ
على رياضٍ وثرًى نَدِيِّ وجدْوَلٍ كالبَرَد الحليِّ
وفَرّج[٤] الخشْخاش جَيْبًا وفَتَق كأنَّه مصاحِفٌ بيضُ الوَرَق
أو مثل[٥] أقداحٍ مِن البَلُّورِ تخالها تجسَّمت مِن نورِ
وبعضُه عُرْيَانُ من أثوابه قد خَجِل اليابس[٦] من أصحابه
تُبْصِرُه عنـــد انتثار الوردِ مثـل الدبابيس بأيْدِي الجُنْدِ
والسَّوْسَنُ الآزار مَنْشور الحُلَل كقُطْنٍ قد مسَّهُ بعضُ بَلَل
نوَّرَ في حاشيتي بُسْتَانِه ودَخَّل الميدان[٧] في ضَمانِه
وقد بدت فيه ثمار الـكنكر[٨] كأنها جَماجِمٌ من عَنْبَرِ
وحلَّق البهارُ بَيْنَ الآسِ جُمْجُمَة كهامَةِ الشَّمَّاسِ
خلال شيح[٩] مثل شيب النَّصَفِ وجوهرٍ مِن زَهَرٍ مُخْتَلِفِ
وجُلّنار كاحْمِرارِ الوردِ[١٠] أو مثل أعْراف ديوك الهندِ
والأقحوان كالثنايا الغُرِّ قد صُقِّلَتْ أنواره[١١] بالقَطْرِ

لـكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم[١٢] :

وَرَوْضٍ عن صَنِيع الغيثِ رَاضٍ كما رَضِيَ الصَّدِيقُ عن الصديقِ
إذا ما القَطْرُ أَسْعَدَهُ صَبُوحًا أتمَّ لهُ الصنيعةَ في الغَبُوقِ

---

(١) في الديوان : كحلة . (٢) في س ، ق ، ط : وحرم .
(٣) في الديوان : منتظما . (٤) في الديوان : وفرش، وفي س : وفرخ .
(٥) في الديوان : صار كأقداح . (٦) في الديوان : الأعين .
(٧) في ديوانه : البستان . (٨) في ديوانه : الـكبر . (٩) في ديوانه : حبال نسج .
(١٠) في ديوانه : مثل جمر الخد . (١١) في ديوانه : نوارها . (١٢) في النويري : ١١ـ٢٦٩ .

يُعِير الرِّيحَ بالنَّفَحَاتِ رِيحاً كأنَّ ثَرَاه مِنْ مِسْكٍ فتيقِ (١)
كأنَّ الطَّلَّ مُنْتَشِرا (٢) عليهِ بقايا الدَّمْعِ فى خدّ مَشُوقِ (٣)
كأنّ غصونَه سُقِيَتْ رَحِيقاً فمالَتْ مِثْلَ (٤) شرّاب الرَّحِيق
كأنَّ شقَائِقَ النعمانِ فيه مُخَصَّرةً شقَائِقُ (٥) مِنْ عَقِيقِ
يُذَكِّرُنِى بَنَفْسَجُه بَقَايَا صنيعِ اللَّطْمِ فى الخدِّ الرَّقيقِ

وقال :

غَيْثٌ أتانا مُؤْذِناً بالخَفْضِ مُتَّصِلَ الوَبْلِ سَرِيعَ الرَّكْضِ
دَنَا نِخلْنَاه دُوَيْنَ الأَرْضِ مُتَّصِلاً بطُولِه والعَرْضِ
إلْفا إلى إلْفٍ بِسِرٍّ يُفْضِى ثم سَما كاللُّؤْلُؤ المُرْفَضِّ
فالأَرْضُ تُجْلَى بالنباتِ الغَضِّ فى حَلْيِها المحمَرِّ والمبْيَضِّ
مِنْ سَوْسَنٍ أحْوَى ووَرْدٍ غَضِّ مِثْل الخدودِ نُقِّشَتْ بالعَضِّ
وأُقْحُوَانٍ كاللُّجَيْنِ المَحْضِ ونَرْجِس ذاكِى النَّسِيمِ بَضّ
مثل العيون رَنَّقَتْ للغَمْضِ ترْنُو فَيَغْشَاها الكَرَى فتُغْضِى

جملة من هذا النوع لأهل العصر

قال أبو فراس الحمدانى (٦) :

لأبى فراس

وجلَّنَّارٍ مُشْرِق عَلَى أعالِى شَجَرِهْ (٧)
كأنّ فى رؤسِه (٨) أحمرِه وأصفرِهْ
قُرَاضَةٌ من ذَهَب فى خِرْقَةٍ مُعَصْفَرَهْ

---

(١) فى النويرى : سحيق . (٢) فى النـويرى : منتثرا . (٣) فى ط ، ق : فى الخد المشوق . (٤) فى النويرى : فماست ميس ... (٥) فى النويرى : محضرة كئوسا .
(٦) النويرى ١١ــ١٠٤ . (٧) فى النويرى : الشجرة .
(٨) فى النويرى : أغصانه .

وقال :

ويوم جَلَا فيه الربيع رِياضَهُ ... بأَنْوَاعِ حَلْىٍ فوقَ أثوابِهِ الخُضْر

كأنَّ ذُيولَ الجلّنار مُطِلَّةً ... فضولُ ذيولِ الغانياتِ من الأُزْرِ

وقال أبو القاسم بن هانىء ، يصف زهرة رُمّان قطفت قبل عَقْدِها :

وبنت أَيْكٍ كالشباب النَّضْرِ ... كأنها بين الغُصُونِ الخُضْرِ

جَنَانُ بازٍ أو جَنَانُ صَقْرٍ ... قد خفقتْه (١) لَقْوَةٌ بوَكْرِ

كأنما سَحَّتْ دَماً مِنْ نَحْرِ ... أو نَبَتَتْ فى تُرْبةٍ من جمرِ

[أو سُقِيَتْ بجَدْوَلٍ من خَمْرٍ] (٢) ... لو كفَّ عنها الدهرَ صَرْفُ الدَّهْرِ

جاءت كمثل النَّهْدِ فوق الصَّدْرِ ... تَفْتَرُّ عن مِثْلِ اللِّثَاتِ الحُمْرِ

فى مثل طَعْمِ الوَصْلِ بعد الهَجْرِ

ولهم فى هذا المعنى

روضة رقّتْ حَوَاشيها ، وتأنّق واشيها . روضة كالعقود المنظّمة ، على البرود المُنَمْنَمَة . روضة قد رَاضتها كفُّ المطر ، ودبَّجتْهَا أيدى الندى . أخرجتِ الأَرْضُ أسرارَها ، وأظهرتْ يدُ الغيثِ آثارها ، وأبدت الرياضُ أزهارها . الرياض كالعرائس فى حَلْيها وزَخَارِفها ، والقيانِ فى وَشْيِها ومَطَارِفها ، باسطة زَرابيّها (٣) وأنماطها ، ناشرةً حِبَرَاتها (٤) ورِيَاطها ، زَاهية بحمْرَائها وصفرائها ، تائهة بعيدانها وغُدْرَانها ، كأنما احتفلت (٥) لوَفْد ، أو هى من حبيب على وَعْد . روضة قد تضوّعتْ بالأَرَج (٦) الطَّيِّبِ أرجاؤها ، وتبرَّجَتْ فى ظُلَلِ الغمام صحراؤها ، وتنافَجَتْ بنوافِجِ (٧) المِسْكِ

(١) اللقوة : العقاب الأنثى أو الخفيفة السريعة ، وفى س : قد خلفته .

(٢) هذه الشطرة ليست فى س .

(٣) الزرابى : النمارق والبسط . (٤) ضرب من برود اليمن .

(٥) فى ق ، س : اختلفت . (٦) الأرج : توهج ريح الطيب .

(٧) النافجة : وعاء المسك .

أنوارُها ، وتعارضت بغرائب النُّطْقِ أطيارُها . بستان رقَّ نورُه النضيد، وراق عودُه النضير . بستان عودُه[1] خضر ، ونوره نَضِر ، ويُنْعه[2] خَضِل ، وماؤه خَصِر . بستانٌ أَرْضُه للبقل والريحان، وسماؤه للنخل والرمان. بستان أنهارُه مفروزة بالأزهار، وأشجارُه مُوقَرَةٌ بالثمار . أشجارٌ كأنَّ الحورَ أعارَتْها قُدُودَها ، وكستْها بُرودَها ، وحلّتها عقودها . الربيعُ شبابُ الزمانِ ، ومقدمة الورد والريحان . زَمَنُ الوردِ مَرْمُوق ، كأنه من الجنَّةِ مسروق . قد ورد كتاب الورد بإقباله إلى أهل الوُد . إذا وردَ الوَرْد ، صدرَ البرد . مرحباً بإشراف الزهر ، فى أطراف الدهر ، وأنشد :

سقى الله وَرْدًا صار خَـدَّ رَبيعنا فقد كان قبل اليـوم ليس له خَدُّ

كأنّ عَيْنَ النرجس عيْن ، وَوَرقه وَرِق[3] . النرجس نُزْهَة الطَّرْف ، وظَرْفُ الظَّرف[4] ، وغذاء الروح . شقائقُ كتيجان العقيق على رءوس الزنوج ، كأنها أَصْداغُ المسك على الوجنَاتِ الموردة . شقائق كالزنوج تجارحت وسالت دماؤُهَا ، وضَعُفَت فسال دَماؤُها . كأن الشقيقَ جامٌ من عقيق أحمر ، مُلِئَتْ قرارَته بمسك أذفَر . الأرض زمرّدة ، والأشجارُ وَشْى، والماء سيوف ، والطيور قِيَان . قد غرّدت خطباء الأطيار على منـابر الأنوار والأزهار . إذا صدح الحَمامُ ، صدع الحَمامُ قَلْبَ المُسْتَهام . انظر إلى طرَبِ الأشجار لغناَء الأطيار . ليس للبلابل[5] كغناء البلابل، وخَمْرِ بابل .

ولهم فيما يتعلق بهذا النحو فى وصف أيام الربيع

يوم سماؤُه فَاخِتيّة[6] ، وأرضه طاوُسيّة . يومٌ جَلَابِيبُ غيومه رواق ، وأَرْدِية نسيمه رِقَاق . يوم مُمَسّكُ السماء ، مُعَصْفَرُ الهواء ، مُعَنْبَر الرَّوْضِ ، مُصَنْدَل الماء .

---

(١) فى س : غصنه . (٢) الينع بالضم من جل الشجر . وبالفتح الأثمار الناضجة .
(٣) العين الذهب ، والورق : الفضة . (٤) فى س : الطرف .
(٥) البلابل : الهموم والوساوس . (٦) الفاختة : طائر .

يوم زُرَّ عليه جَيْبُ الضَّباب ، وانسحب فيه ذَيْلُ السحاب . يوم سماؤه كالخزّ الأَدْكَن ، وأَرْضُه كالديباج الأَخْضَر :

شادنٌ يرْتَعِى القلوب ببغدا ... دَ ولا يَرْتَعِى الكلا بالنِّبَاجِ (١)
أقبلَت والربيعُ يختالُ فى الرَّوْ ... ض وفى المزن ذِى الحيا الثَّجَّاجِ (٢)
ذو سماء كأَدْكَنِ الخزِّ قد غيـ ... مَتْ وأرضٍ كأَخْضَرِ الديباجِ
فتجلى عن كل ما يتمنى ... موعد الكدخَداةِ والهيلاجِ (٣)
فظللنا فى نُزْهَتَين وفى حُسْـ ... نين بين الأَرْمَالِ والأَهْزاجِ
بفَتَاةٍ تسرُّنا فى المَثَانِى ... وعَجُوزٍ تَسُرُّنَا فى الزُّجَاجِ
أَخذَتْ من رءوسِ قومٍ كرامٍ ... ثأرَها عند أَرْجُلِ الأَعْلاج

يوم حَسَنُ الشمائل ، مُمْتِع المخايل ، سَجْسَجُ الهواء ، مُونِقُ الأَرْجاء . يوم تبسَّم عنه الربيعُ ، وتبرَّجَ عنه الروضُ المريع . يوم كأَنَّ سماءَه مؤتم تتباكى ، وأَرْضه عرُوسٌ تتجلَّى . يوم مشهرّ الأَوْصاف ، أَغرّ الأطراف . يوم يُغْفِى فيه النَّوْر وَيَنْتَبِه ، وتُسْفِر فيه الشمس وتَنْتَقِب ، وتَعْتَنِقُ الغصون وتَفْتَرِق ، ويوشى الغيم وينسكب . يوم غاب نَحْسُه وهوَى ، وطلع سَعْدُه واعْتَلَى ، والزمانُ ساقطة جماره (٤) ، مُفْعَمَةٌ أنهاره ، مُونِقَةٌ أشجارُه ، مغرّدة أطيارُه . نحن فى غبِّ سماء ، قد أَقلعت بعد الارْتِوَاء ، وأَقْشعت عند الاستغناء ، فالنَّبتُ خَضِلٌ ممطور ، والنَّقْعُ ساكن محصور . يوم جوُّه طَارونِىّ (٥) ، وأَرْضه طاوسى . يوم دَجْنُه عاكف ، وقَطْرُه وَاكِف . يومٌ مَن أعياد العُمْرِ ، وأَعْيانِ الدَّهْرِ .

---

(١) النباج : موضع . (٢) ثج الماء : سال . (٣) فى كل الأصول : الكذخذاة وهذا من رسائل البديع والضبط من س . (٤) فى س : خماره .
(٥) الطرن : الخز ، والطاروني : نوع منه .

ولهم فى تشبيه محاسن الربيع بمحاسن الإخوان والسادة

غَيْثٌ متشبِّه بكَفِّك ، واعتدالُه مُضاهٍ لخُلقك ، وزَهْرُه مُوازٍ لنَشْرِك ، كأنما استعار حُلَلَه من شيمتك ، وحَلْيَه من سجيَّتك ، واقتبس أنوارَه من محاسن أيامك ، وأَمطارَه من جُودك وإنعامِك . قدم الربيعُ مُنْتَسِباً إلى خلقك ، مُكْتَسِيا محاسِنَه من طَبْعك ، متوشّحا بأَنوار لَفْظِك ، متوضِّحاً بآثار لسانِك ويَدِك . أنا فى بُستان أَذْكَرَنى وَرْدُه المفتّح بخلقك ، وجَدْوَلُه السابح بطَبعك ، وزَهْرُه الجَنِىُّ بقُرْبك . أنا فى بستان كأنَّه من شمائلك سُرِق ، ومن خُلُقك خُلِق ، وقد قابلتنى أشجارٌ تَتَمايل فتذكرنى تَبْرِيحَ الأحباب إذا تداولَتْهم أَيْدِى الشراب ، وأنهار كأنَّها من يدك تَسيل ، ومن راحتيك تَفِيض . أنا على حافةِ حَوْضٍ أزرق كصفاء مودَّتى لك ، ورِقَّة قولى فى عَتْبك .

[فى الصوم]

الصوم فى الربيع

وقال ابن عون الكاتب :

جاءنا الصومُ فى الربيع فهلا اخْ ... تَار رُبْعا من سائرِ الأرباعِ
وكأنَّ الربيعَ فى الصوم عِقْدٌ ... فوق نَحْرٍ غطّاه فَضْلُ قِناعِ

فى يوم الشك

وكتب أبو الفتح كشاجم إلى بعض إخوانه يستدعيه إلى زيارته فى يوم شك :

هو يوم شَكٍّ يا علىُّ وِبشرهُ مُذْ كان يُحذرْ[1]
والجوُّ حُلَّتُه ممسَّكة ومُطْرَفُه[2] مُعَنْبَرْ
والماء فضىُّ القمِيـ ـصِ وطَيْلَسانُ الأرض أخْضر
نَبْتٌ يُصعِّد زَهْرُهُ فى الرَّوْضِ قَطْرَ ندًى تَحَدَّرْ
ولنا فُضَيْلاتٌ تكو نُ ليومنا قوتاً مُقَدَّرْ

---

(١) فى ط : يحزر ، والحزر : التقدير . (٢) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام.

ومُـدامةٌ صفراءُ أَدْ ... رك عُمْرَها كِسْرَى وقَيْصَرْ

فانْشَطْ لنـــا لِنَحثَّ مِنْ ... كاسَاتِنا ما كان أكْبَرْ

أو لَا فإنَّكَ جاهـــلٌ ... إن قلت إنّكَ سوف تُعْذَرْ

كتاب للبديع فى شهر رمضان

وكتب بديع الزمان إلى بعض أهل هَمَذان : كتابى أطال اللهُ بقاكَ عن شهر رمضان ، عرَّفنا اللهُ بركةَ مَقْدَمِه ، ويُمْنَ مُخْتَتَمِه ، وخصَّك بتقصير أيامه ، وإتمامِ صيامِه وقيامِه ؛ فهو ، وإن عَظُمَت بركتُه ، ثقيلٌ حركته ، وإن جلّ قَدْرُه بعيد قَعْره ، [وإن عمّت رأفته طويل مسافته ، وإن حسنت قربته شديد صحبتُه ، وإن كبرت حرمته كثير حشمته ، وإن سرّنا مُبْتداه فلن يسوءنا منتهاه][1] ، فإنْ حَسُن وجْهُه فليس يَقْبُح قَفَاه ، وما أَحْسَنَه فى القَذَال ، وأشْبَه إدبارَه بالإقبال ، جعل اللهُ قدومَه سببَ تَرْحاله ، وبَدْرَه فِداءَ هلاله ، وأمدَّ[2] فَلَكه تحريكا ، بتقضِّى[3] مُدَّته وَشيكا ، وأظْهر هلالَه نحيفا ، ليَزِفَّ إلى اللذاتِ زفيفا[4] ، وعفا اللهُ عن مَزْحٍ يكرهه ، ومُجونٍ يُسْخِطُه .

عوّل البديع فى هذا الـكلام على قول أبى الفضل بن العميد فى رسالة له فى مثل ذلك :

لابن العميد فى مثل ذلك

أسألُ الله أن يُعَرِّفنى بركَتَه ، ويُلقِّينى الخيرَ فى باقى[5] أيامه وخاتمته ؛ وأَرْغبُ إليه فى أن يقربَ على الفَلَك دَوْرَه ، ويقصِّر سَيْرَه ، ويُخفِّف حَرَكته ، ويعجِّل نَهْضَته ، ويُنقِّصَ مسافةَ فلـكه ودَائرته ، ويُزِيل بركةَ الطُّولِ عن ساعاته ؛ ويَرُدَّ علىّ غُرَّةَ شوال ؛ فهى أَسْنَى الغُرَرِ عندى ، وأقرُّها لعَيْنِى ؛ ويُطْلِـعَ بَدْرَه ، ويُرِينى الأَيْدِى متطلّبةً هِلالَه ببِشْر ، ويسمعنى النَّعْىَ لشهر رمضان ، ويعرض علىّ هلاله أَخْفَى من السِّحْرِ ، وأظْلمَ من الـكُفْر ، وأَنْحَف من مَجنونِ بنى عامر ، وأَبْلَى من أَسِير الهَجْرِ ؛

---

(١) من س ، ق . (٢) فى ق : وأمر . (٣) فى س : يقضى .

(٤) زف : أسرع . (٥) فى س : ويلقنى الخير فى أيامه .

وأَستغفرُ الله جلّ وجْهُه مما قُلْتُ إن كَرِهه ، وأَسْتَعْفِيه من توفيق لما يذمُّه ؛ وأسأله صفحاً يُفِيضه ، وعَفْواً يُوسِعه ، إنَّه يعلم خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِى الصدور .

[الأمين]

قال المأمون لطاهر بن الحسين : صِفْ لى أخلاقَ المخلوع(١) . قال : كان واسِعَ الصَّدْرِ ، ضَيِّقَ الأَدَب ، يُبيح من نفسه(٢) ما تَأْنَفُه هِمم الأحرار ، ولا يُصْغِى إلى نصيحة ، ولا يقبل مَشُورة ، يستبدُّ برأيه ، ويُبَصِّر(٣) سوءَ عاقبتِه ؛ فلا يَرْدَعُه ذلك عما يَهُمُّ به . قال : فكيف كانت حروبُه ؟ قال : كان يجمعُ الكتائبَ بالتبذير ، ويفرِّقُها بسوء التدبير . فقال المأمون : لذلك حلّ ماحلّ(٤) به ؛ أَمَا والله لو ذاق لذَّاتِ النصائح ، واختار مَشُورَاتِ الرجال ، وملَكَ نَفْسَه عن شهواتها ، لما ظُفِر به .

ولما عقد الرشيدُ البيعةَ للأَمين وهو أصغرُ من المأمون لأجل أُمّه زُبَيْدة ، وكلام أخيها عيسى بن جعفر ، وقدّمه على المأمون ، جعل يرى فَضْلَ عقله فيندَم على ذلك فقال :

لقد بان وجهُ الرَّأْيِ لى غَيْرَ أَنَّنى	غُلِبْتُ على الأَمْرِ الذى كان أَحْزَما
فكيف يُرَدّ الدر(٥) فى الضَّرْعِ بعدما	تَوَزَّع حتى صار نَهْباً مقَسَّما
أخافُ الْتِوَاءَ الأمرِ بعد استوائهِ	وأنْ يُنقَضَ الحَبْلُ الذى كان أُبْرِما

قال أسد بن يزيد بن مزيد(٦) : بعث إلىَّ الفضلُ بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن الأنبارى ، قال : فأتيتُه وهو فى صَحْنِ داره ، وفى يده رُقْعة قد غضِب لما نظر فيها ، وهو يقول : ينامُ نَوْمَ الظَّرِبَان(٧) ، وينتبهُ انتباهَ الذئب ، هِمَّتُه بَطْنُه ، ولذَّتُه فَرْجُه ،

---

(١) يعنى الأمين . (٢) فى س ، ق : يبيح نفسه . (٣) فى س ، ق : فيبصر .
(٤) فى س ، ق : ما حل محله . (٥) الدر : اللبن . (٦) تاريخ الطبرى ١٠ـ١٥٨
(٧) دويبة كالهرة منتنة .

لايفكِّر فى زوالِ نِعْمَةٍ ، ولا يتروّى فى إمضاءِ رَأْى ولا مَكِيدة ، قد شمَّر له عبدُ الله عن ساقِه ، وفوَّق له أسَدَّ سهامِه ، يرميه على بُعْدِ الدار بالحَتْفِ النافذ[1] والموت القاصد[2] ، قد عبَّى له المنايا على مُتُونِ الخيل ، وناطَ له البلاءَ فى أسِنَّةِ الرماح وشفَارِ السيوف ، ثم تمثّل بشعر البَعيث :

يُقَارِعُ أتراكَ ابن خاقانَ لَيْلهُ	إلى أن يرَى الإصْبَاح لا يتلعثمُ
فيُصبحُ فى طُولِ الطِّراد وجِسْمُهُ	نحيل وأُضحِى فى النعيم أصمِّمُ
فشتان ما بينى وبين ابن خالدٍ	أميّةَ فى الرِّزْقِ الذى الله يقسم[3]

ثم قال : يا أبا الحارث ، أنا وأنت نَجْرِى إلى غايةٍ إنْ قصَّرْنا عنها ذُمِمْنَا ، وإن اجتهدنا فى بلوغها انْقَطَعْنَا ؛ وإنما نحن شُعْبةٌ[4] من أصلٍ ، إن قَوِى قوينا ، وإن ضَعُفَ ضعفنا ؛ إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاءَ الأمة الوَكْفاء[5] ، يشاور النساء ، ويعتمدُ على الرؤيا ، وقدأَمْكَنَ أهلَ اللهو والخَسَارةِ[6] مِنْ سَمْعِه ؛ فهم يمنُّونه الظَّفَر ، ويَعِدُونَه عواقب[7] الأيام ؛ والهلاكُ إليه أسرعُ من السيل إلى قِيعَانِ الرَّمْلِ ؛ وقد خشِيتُ أن نَهْلِكَ بهلاكه ، ونعطَب بعَطَبِه وأنت فارسُ العرب وابنُ فارسها ، وقد فزِع إليك فى[8] لقاءِ طاهر لأمرين : أحدها صِدْقُ طاعتك ، وفَضْل نصيحتك ؛ والثانى يُمْنُ نَقِيبتك ، وشِدَّةُ بأسك ؛ وقد أمرنى أنْ أبسطَ يدك ، غير أنّ الاقتصاد رأسُ النصحية ، ومفتاحُ البركة ؛ فبادِرْ ما تريد ، وعَجِّل النهضة ، فإنى أرجو أنْ يوليك اللهُ شَرَفَ هذا الْفَتح ، ويلم بكَ شَعْثَ الخلافة .

فقلت له : أنا لطاعتك وطاعةِ أمير المؤمنين مُقْدِم ، ولما وَهَنَ عدوَّكما مُؤْثر ؛

---

(١) فى ط : الناقر ، وفى س : النافر . (٢) هكذا فى الطبرى ، وفى ط ، س ، ق : القاصر . (٣) فى الطبرى : قاسم . (٤) فى الطبرى : شعب .

(٥) من الوكف : وهو الإثم والعيب والنقص . وفى الطبرى : الوكعاء ، وهى الحمقاء .

(٦) فى الطبرى : وقد أمكن بمسامعه ما معه من أهل اللهو والجسارة

(٧) فى ق ، س : عقب . (٨) عبارة الطبرى : فزع إليك فى لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران .

غير أنَّ المحارِب لا يفتَتِحُ أمرَه بتقصير ؛ وإنما ملاكُ أمرِه الجنود ، والجنودُ لاتكون بلا مال ، وقد رفع أمير المؤمنين الرغائبَ إلى قوم لم يُجْدُوا عليه ، ومتى سُمت مَنْ أقدرُ به الانتفاع له الرضا[1] بدون ما أَخذه غيرُه ممن لم يكُنْ عنده غناء ولا مَعُونة ، لم ينتظم بذلك التدبير ، وأحتاج لأصحابى رِزْقَ سنة قبْضًا . وحملا[2] إلى ألفِ فرس لحمل من لا أَرْتَضِى فرسه ، وإلى مال أَسْتَظْهِرُ به ، لا أُلَام على وَضْعِه حيث رَأَيْت . فقال : شاوِرْ أمير المؤمنين ؛ فأَدخلنى عليه فلم تَدُرْ بينى وبينه كلمتان حتى أمر بحَبْسِى.

ويروى أن الأمين لما أَعْيَتْه مكايدُ طاهر قال[3] :

بُليت بأَشْجَعِ الثقلين نَفْسًا … تَزُول الراسياتُ وما يَزولُ

له مع كل ذى بدن[4] رقيبٌ … يشاهده ويَعْلَمُ ما يقول

فليس بمغفِلٍ أمراً عَنَاهُ[5] … إذا ما الأَمْرُ ضيَّعَه الجهولُ[6]

في الفضل ابن الربيع

وفى الفضل بن الربيع يقول بعض الشعراء :

كم مِن مقيمٍ ببغدادٍ على طَمَعٍ … لولا رجاءُ أَبى العباس لم يُقِمِ

البدرُ إن نظروا والبحرُ إنْ رَغِبوا … والحِصْن إنْ رهبوا والسيفُ ذُوالنِّقَمِ

وقال عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع : ما مدحنا شاعرٌ بشعر أَحب إلينا من قول أبى نواس[7] :

ساد الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ … إن حُصِّلوا إلا أعز[8] قَرِيعُ

ساد الربيعُ وسادَ فَضْلٌ بعدهُ … وعلَتْ بعبّاس الكريمِ فروعُ

عباس عباسٌ إذا احتدم الوَغَى … والفَضْلُ فَضْلٌ والربيعُ ربيعُ

وقيـل للعتابى : أمدحت أحداً ؟ قال : لا ، وليس لى على ذاك قدرة . فقيل له :

---

(١) هكذا فى كل الأصول (٢) فى الطبرى : وأحمل ألف رجل ممن معى على الخيل .
(٣) الطبرى : ١٠ـ١٨٩ . (٤) فى الطبرى : بدد . (٥) فى الطبرى : عنادا .
(٦) فى الطبرى : الفضول . (٧) ديوانه ٩٧ . (٨) فى الديوان : إلا أغر .
القريع : الذى يغلب فى المقارعة أو هو السيد فى قومه .

فقد مدحتَ الربيع ، فقال : ذلك ليومٍ يستحقّ فيه المدح ، فقلت :

ومعضلةٍ قام الربيع إزاءَها ... ليُعْمِد[1] ركن الدِّين لما تَهدَّمَا
بمكة والمنصور رهن كما أتى ... أخا الوحْى داعى رَبّه فتقدَّمَا
غداةَ عداةُ الدين شاحذةُ المُدى ... إليه وغُولُ الحربِ فاغِرةٌ فَمَا

[بيعة المهدى]

وكان المنصور قد تُوفِّى بمكة وهو حاجٌّ فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، فأخذ الربيع للمهدى البيعةَ على الناس ، وأخذ بتجديدها عن المنصور على أنه حىّ ، وأدخل إليه قوماً فرأَوْه من بعيد وقد جلَّلهُ بثوب ، وأقعد إلى جنبه من يحرِّك يده وكأنه يُومِئُ بها إليهم ، فلم يشكُّوا فى حياته ؛ فما خالف أحد ؛ فشكره المهدى لذلك ، وفى ذلك يقول أبو نواس فى مدحه الفضل بن الربيع[2] :

أبوكَ جلَّى عن مُضَر ... يوم الرواقِ المحتضر
والحربُ تَفْرِى[3] وتَذَر ... لمـا رأى الأمر اقمطَرّْ
قام كريما فانْتَصَرْ ... كهزة العَضْبِ الذَّكَرْ
ما مس من شىء هبَرَ ... وأنت تَقْتَافُ الأثَرْ
من ذى حُجول وغُرَرْ

وقال أيضاً[4] :

آل الربيع فَضَلْتُمُ ... فضلَ الخَميس على العشير[5]
من قاس غيرَكم بكم ... قاس الثِّمَادَ[6] إلى البُحُور
أين القليـلُ بنو القليـ ... ـل من الـكثير بنى الـكثير

---

(١) عمده وأعمده : أقامه بعماد .
(٢) ديوانه ٨٠ .
(٣) فى الديوان : والخوف يفرى ويذر
(٤) ديوانه ٨٤ .
(٥) الخميس : الخمس ، والعشير : العشر .
(٦) الثماد : الماء القليل لا مادة له .

أين النجـومُ التاليا ت من الأهلَّةِ والبدور
قومٌ كَفوا أيام مـ كّـ ـة نازل الخَطْبِ الـكبير
وتدارَكُوا نَصْرَ[1] الخِلا فةِ وهْى شاسعة النَّصِير
لولا مقامُهُم بهـــا هَوَتِ الروامى من ثَبِير

ومن قول أبى نواس : «من قاس غيركم بكم...» البيت ، أخذ أبو الطيب المتنبى[2] :

قواصِدَ كافورٍ توارِكَ غيرِهِ ومَن قَصَد البحرَ استقلَّ السواقِيا
فتًى ما سَرَيْنَا فى ظُهورِ جُدودِنَا إلى عَصرِه إلّا نُرجِّى التَّلاقِيا

[وقت كلام الملوك]

وقال الفضل بن الربيع : من كلَّم الملوكَ فى الحاجات فى غيرِ وَقْتِ الـكلام لم يَظْفَر بحاجته ، وضاع كلامُه ، وما أشبههم فى ذلك إلّا بأوقات الصلوات لا تُقْبَـلُ الصلاةُ إلا فيها ، ومن أراد خطابَ الملوك فى شىء فلْيَرْصُد الوقتَ الذى يصلح فى مثله ذِكْرُ ما أراد ، ويسبّب له شيئاً من الأحاديث يحسن ذِكْرُه بعَقِبه .

وقال المأمون للفضل بن الربيع لما ظَفِر به : يافضلُ ؟ أكان فى حقى عليك ، وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك ، أن تَثْلِبَنى وتَسُبَّنى ، وتُحرِّض على دمى ؟ أتحبُّ أن أفعل بك ما فعلتَه بى ؟

فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ عُذْرى يُحقِدُك إذا كان واضحا جميلا ، فكيف إذاحفَّته العيوب ، وقبَّحَته الذنوب؛ فلا يَضِيقُ عنى من عَفْوِكَ ماوسع غيرى منك، فأنت كما قال الشاعر فيك :

صَفوحٌ عن الأَجرام حتى كأنهُ من العفو لم يَعرِفْ من الناس مُجْرِما
وليس يُبالى أن يكونَ به الأَذَى إذاماالأَذى لم يَغْشَ بالـكُرْهِ مُسْلِمَا

والشعر للحسن بن رجاء بن أبى الضحاك .

---

(١) فى الديوان : جزر . (٢) ديوانه ٤–٢٨٧ .

[بين المنصور والربيع]

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة : دعا المنصور بالربيع فقال : سلنى ما تُرِيد ، فقد سكتَّ حتى نطَقْتَ ، وخففَّت حتى ثقّلت ، وأَقْلَلْتَ حتى أَكْثَرْتَ .

فقال: والله ياأمير المؤمنين ماأَرْهَب بُخْلَكَ ، ولا أَسْتَقْصِر عُمْرك ، ولا أستَصْغِر فَضْلَكَ ، ولا أَغْتَنِم مالك ؛ وإنّ يومى بفضلك علىّ أحسنُ من أمسى ، وغدك فى تأميلى أحْسَنُ من يومى ؛ ولوجاز أن يَشْكُرَكَ مثلى بغير الخِدْمَةِ والمُنَاصحَة لماسَبَقنى لذلك أحد .

قال : صدقت ، عِلْمِى بهذا منك أحلَّك هذا المحلّ ؛ فسلنى ما شِئت ، قال : أسألك أن تقرِّب عبدك الفَضْل ، وتُؤْثِره وتحبّه .

قال : يا ربيع ؛ إنّ الحب ليس بمال يُوهَب ، ولا رُتبَة تُبْذَل ؛ وإنما تؤكّدُه الأَسباب. قال: فاجعل لى طريقا إليه ، بالتفضّل عليه ، قال : صدقت ، وقد وصَلْته بألف ألف درهم ، ولم أصل بها أحداً غير عمومتى ، لتعلم مَالَه عندى ، فيكون منه مايَسْتَدْعِى به محبَّتى ، ثم قال : فكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال: لأنها مفتاحُ كلّ خير ، ومِغْلَاق كلّ شر ، تُستَرَ بها عندك عيوُبه ، وتَصِير حسناتٍ ذنوبه . قال : صدقت وأتيت بما أردت فى بابه .

* * *

شىءٌ من النقد

أخذ قوله : « خففت حتى ثقلت » أبو تمام فقال لمحمد بن عبد الملك الزيات[1] :

على أنّ إفراطَ الحياء استمالنى ... إليكَ ولم أعْدِل بعرضىَ مَعْدِلا

فثقّلتُ بالتخفيف عنك وبعضهُم ... يخففُ فى الحاجات حتى يُثقّلا

(١) ديوانه ٢٥٥ .

[سهل بن هارون يدعو للمأمون]

ودخل سهلُ بنُ هارون على الرشيد وهو يُضَاحِكُ المأمون، فقال: اللهم زِدْهُ من الخيرات، وابْسُطْ له من البركات، حتى يكونَ فى كل يوم من أيامه مُرْبِيا على أمْسِه، مُقَصِّرًا عن غده .

فقال له الرشيد : يا سَهْلُ ، من رَوى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحَه وأوضَحه إذا رام أن يقولَ لم يُعْجِزه القول .

فقال سهل بن هارون: ياأمير المؤمنين ؛ ماظننت أنّ أحداً تقدّمنى إلى هذا المعنى. قال : بل أعشى همدان حيث يقول :

رأيتك أمْسِ خَيْرَ بنى لؤىٍّ وأنْتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنْتَ غداً تزيد [(١)] الخَيْرَ ضِعْفا كذاك تزيد [(١)] سادة عَبْدِ شَمْسِ

[من شعر الفضل بن الربيع]

ومن شعر الفضل بن الربيع ما أنشده الصولى :

إنّى امرؤٌ من هاشمٍ بفِناء مَعْمُور النَّوَاحِى
أهل الهدى وذوى التُّقَى وأولى البَسالة والسَّماحِ
أهل المعالم والمكا رِم فى المَسَاء وفى الصَّبَاحِ
أهل النبوّة والخلا فَة والكمالِ برَغْم لاحِى
يتألّمون من الصُّدُو دِ ويَصْبِرُونَ على الجِرَاحِ

[دابة]

حمل محمد بن عبيد الله بن خاقان أبا العيناء على دَابَّة زَعم أنها غَيْرُ فَارِه [(٢)] ،

---

(١) فى ق ، س : تريد . (٢) فره : حذق ، فهو فاره .

فكتب إليه : أعلم الوزير ، أعزه الله ، أن أبا على محمدا أراد أن يَبَرَّنِى فعقّنى ، وأن يُرْكِبنى فأَرْجَلنى ، أمر لى بدابّة تقفُ للنَّبْرَة (١) ، وتَعْثُر بالبَعْرَة ، كالقضيب اليابس عَجَفا (٢) ؛ وكالعاشق المهجور دَنَفا (٣) ، قد أذْكَرَت الرواة عذرة العذرىّ، والمجنون العامرى ، مساعد أعلاه لأسفله، حُبَاقُه مقرون بسُعَاله ، فلو أمْسَك لترجيت، ولو أفْرد لتعزَّيْت ، ولكنه يَجْمَعُهُما فى الطريق المعمور ، والمَجْلِس المشهور ، كأنه خطيبٌ مُرْشِد ، أو شاعر مُنْشِد ، تَضْحَكُ من فِعْلِه النِّسْوَان ، وتَتَنَاغى من أجله الصِّبيان؛ فمن صائح يَصِيحُ : دَاوِه بالطباشير ، ومن قائل يقول : نوّله الشعير، قد حفِظَ الأشعار ، ورَوَى الأخبار ، ولحق العلماءَ فى الأمْصار ، فلو أُعِينَ بنطق ، لروى بحقٍّ وصدق، عن جابر الجُعْفىّ ، وعامر الشّعبى؛ وإنما أُتيت من كاتبه الأعور، الذى إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أخْبَث وأنزر ؛ فإن رأى الوزير أن يُبَدِّلَنى به، ويُرِيحنى منه بمركوب يُضْحِكنى كما ضحّك منى ، يَمْحُو بحُسْنه وفَرَاهَته ما سطَّره العَيْبُ بقُبْحه ودمامته ! ولست أذكرُ أمْرَ سَرْجِه ولجامه ؛ فإن الوزير أكرمُ من أن يَسْلب ما يهديه ، أو يَنْقُض ما يُمْضيه .

فوجّه عبيد الله إليه بِرْذَونا من براذينه بِسَرْجِه ولجامه ، ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه ، فقال عبيد الله: شكوت دابّة محمد، وقد أخبرنى الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وما هذا ثمنه لا يُشْتَكى .

فقال : أعز الله الوزير ، لولم أكذب مستزيداً لم انصرف مستفيداً ، وإنى وإياه لكما قالت امرأة العزيز : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحقّ أنا رَاوَدْتُه عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ . فضحك عبيدالله ، وقال حجّتك الداحضة بمَلَاحَتك وظَرْفك أبلغُ من حجّة غيرك البالغة .

---

(١) النبرة : صيحة الفزع .

(٢) العجف : ذهاب السمن .

(٣) الدنف : المرض الملازم .

قطعة من رسالة أجاب بها أبو الخطاب الصابى
عن أبى العباس بن سابور إلى الحسين بن صَبِرة (١)
عن رقعة وردت منه فى صفة حَمَل أهْدَاه

وصلت (٢) رُقْعَتك ففَضَضْتُها عن خطٍّ مُشْرق ، ولفظ مُونقٍ ، وعبارة مُصيبة ، ومعانٍ غريبة ، واتساع فى البلاغة يَعجِزُ عنه عبدُ الحميد فى كتابته ، وقُسٌّ وسَحْبَان فى خطابته ؛ وتصرف بين جدٍّ أمْضى من القَدَر ، وهَزْلٍ أرقّ من نسيم السَّحَر ، وتقلُّب فى وجوه الخِطَاب ، الجامع للصَّوَاب ؛ إلا أنّ الفعلَ قصر عن القول ، لأنك ذكرت حَملاً ، جعلته بصفتك جَمَلًا ، فكان المُعَيْدِىّ الذى تسمعُ به ولا أنْ تراه . وحضر فرأيت كَبْشًا مُتَقَادِمَ الميلاد من نِتَاج قَوْمِ عَاد، قد أفْنَته الدّهور، وتَعَاقَبَتْ عليه العصور ، فظننته أَحَد الزَّوْجَين اللذين جعلهما نوحٌ فى سفينته ، وحفِظَ بهما جِنْسَ الغنم لذرِّيته ؛ صَغُر عن الكبر ، ولَطُف عن القدم (٣) ، فبانَتْ دَمامتُه ، وتقاصرت قَامَتُه ، وعاد ناحلا ضئيلا ، باليًا هزيلا ، بادِىَ السَّقَام ، عارى العِظَام ، جامعاً للمعايب ، مشتملا على المثَالِب ، يَعْجَبُ العاقلُ من حلول الحيـاةِ به ، وتأتِّى الحركةِ فيـه ، لأنه عَظْمٌ مجلّد (٤) ، وصوف مُلبّد ، لا تجد فوق عظامه سَلَبا (٥) ، ولا تَلْقَى يدك منه إلا خَشَبا ، لو أُلقِىَ إلى السَّبع لأَباه ، ولو طرح للذئب لعافَه وقَلاه، قد طال للكلأ فَقْدُه ، وبعُدَ بالمَرْعَى عَهْدُه ، لم يرَ القتّ (٦) إلا نائما ، ولا عرف الشعير إلا حالما ، وقد خيّرتنى بين أن أَقْتَنِيه فيكون فيه غِـنَى الدهر ، أو أذبحه فيكون فيه خِصْب الرَّحل (٧) ؛ فمِلْتُ إلى استبقائه لما تعرف من محبّتى فى التوفير ، ورغبتى للتثمير، وَجَمْعى للولد ، وادّخارى لغَد (٨) ، فلم أَجِدْ فيـه مستمتعاً للبقاء ، ولا مَدْفعاً للفناء ؛

---

(١) فى ط : الخير بن ميزة. وفى س : بن ميرة . (٢) نهاية الأرب ١٠ـ١٢٨ .

(٣) فى النويرى : القدر . (٤) عظم مجلد : لم يبق عليه إلا الجلد .

(٥) السلب : ما على الرجل من اللباس . يريد هنا اللحم . (٦) القت : نبات تعلفه الدواب . (٧) فى النويرى : الشهر . (٨) فى ط ، س : للعتد، ويقال : فرس عتد: معد للجرى ، أو شديد تام الخلق .

لأنه ليس بأُنثى فتَحْمِل ، ولا بفتى فيَنْسُل ، ولا بصحيح فيَرْعَى ، ولا بسليم فيَبْقَى ؛ فملتُ إلى الثانى من رأييك ، وعوّلت على الآخر من قَوْلَيك ، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للعيال ، وأقيمه رَطْباً مقام قَديدِ الغَزال ، فأنشدنى وقد أُضرِمت النـار ، وحُدِّت الشِّفار ، وشمَّر الجزّار[1] :

أُعيـذُها نظراتٍ مِنك صادِقَةً   أنْ تحْسِبَ الشَّحْمَ فيمَنْ شَحْمُه وَرَمُ

وقال : ماالفائدة لك فى ذبحى ؟ وأنا لم يَبْقَ منى إلا نَفَس خافِتٌ ، ومُقلةٌ إنسانُها باهت . لَسْتُ بذى لَحْم ، فأَصلح للأَكل ؛ لأنَّ الدهرَ قد أكل لحمى ، ولا جِلدى يصلُح للدّباغ ؛ لأنَّ الأيام قد مزَّقَتْ أديمى ، ولا لى صوف يصلُح للغزل ، لأن الحوادث قد حَصَّت[2] وَبَرى ؛ فإن أردتنى للوَقُود فـكفٌّ بَعْرٍ أبقى من نارى ، ولن تَفِىَ حرارةُ جمرى بريح قُتَارى[3] ، فلم يبق إلّا أن تطلبنى بذَحْل[4] أو بينى وبينك دَم . فوجدته صادقاً فى مقالته ، ناصحاً فى مَشُورته ، ولم أعلم من أى أمْرَيْه أعجب ؛ أمِن مماطَلَتِه للدهر بالبقاء ، أم من صبره على الضُّر واللأْواء ، أم من قدرتك عليه مع إعواز مثله ، أم من تأهيلك[5] الصديق به مع خَسَاسة قَدْره ؟ وياليت شعرى إذ كنتَ ـ وإليك سوق الغنم ، وأمْرك يَنْفُذ فى الضأن والمَعز ، وكلٌّ كبش سمين وَحَمل بطين مجلوبٌ إليك ، مقصورٌ عليك ـ تقول فيه قولا فلا تُرَدّ ، وتريده فلا تُصدّ ، وكانت هديتك هذا الذى كأنه نَاشر[6] من القبور ، أو قائم[7] عند النفخ فى الصور ، فما كنتَ مُهْدِيا لو أنك رجل من عُرْض الـكُتَّاب ، كأبى علىّ وأبى الخطّاب ، ما كنت تهدى إلا كلْبا أجرب ، أو قرداً أحْدَب .

---

(١) ديوان المتنبى ٣ـ٣٦٦ . (٢) حصت : حلقت وأذهبت .
(٣) القتار : الدخان من المطبوخ . (٤) الذحل : الثأر .
(٥) فى النويرى : إتحافك . (٦) فى النويرى : أنشر . (٧) فى النويرى : أقيم .

[الحمدونى وشاة سعيد]

وقال الحمدونى فى شاة سعيد بن أحمد بن خوسنداذ[١] :

أسعيد قد أعطيتنى أُضحيّةً … مكثَتْ زمانا عندكم ما تطعَمُ
نِضْواً تعاقرت الكلابُ بها وقد … شدّوا عليها كى تموت فيولِمُوا
فإذا الملا ضَحِكوا بها قالت لهم … لا تهزءوا بى وارحمونى تُرْحَمُوا
مرّت على عَلَف فقامت لم تَرِم … عنه وغنّت والمدامعُ تُسجم
وقف الهوى بى حيث أنْت فليس لى … متأخَّر عنـــه ولا متقدَّمُ

وقال أيضاً[٢] :

أبا سعيدٍ لنا فى شاَتِك العِبَرُ … جاءت وما إن لها بَوْلٌ ولا بَعَرُ
وكيف تَبْعَرُ شاةٌ عندكم مكَثَتْ … طَعامُها الأبيضانِ الشمسُ والقمَرُ
لو أنَّها أبْصَرَتْ فى نومها عَلَفاً … غَنَّت له ودموعُ العين تنْحَدر
يا مانعى لذَّةَ الدنيا بأجمعها[٣] … إنى ليفتننى[٤] من وَجْهِك النظرُ

وقال أيضاً :

شاةُ سعيدٍ فى أمْرِها عِبَرُ … لـا أتتنا قد مسَّها الضررُ
وهى تغنى من سوء حالتها … حَسْبى بمـا قد لقيت يا عُمَرُ
مرّت بقطف خضر ينشّرها … قومٌ فظنَّتْ بأنها خُضُر
فأقبلَتْ نحوها لتأكلها … حتى إذا ما تبين الخَبَرُ
وأبدلتها الظنونُ من طَمَعٍ … يَأْسا تغنَّت والدَّمْعُ مُنْحَدِرُ
كانوا بعيداً وكنت أمهلهم … حتى إذا ما تقربوا هجروا

وقال[٥] :

---

(١) الفوات ١ــ١٨ . (٢) النويرى ١٠ــ١٣١ ، الفوات ١ــ١٨ .
(٣) فى النويرى : بما رحبت . (٤) فى النويرى والوفيات : ليقنعنى .
(٥) النويرى ١٠ــ١٣٢، الفوات ١ــ١٨ .

لسعيدٍ شُوَيْهَةٌ سلَّها الضُّر والعَجَفْ
قد تغنَّتْ وأبصرت رجلا حاملا عَلَفْ
بأبى مَنْ بكفِّهِ بُرْءُ مابى من الدَّنَفْ
فأتاها مطمِّعًا وأتتْـهُ لتَعْتَلِفْ
فتولَّى فأقبلتْ تتغنَّى من الأسَفْ
ليته لم يكن وَقَفْ عذَّب القلب وانْصَرَفْ

[الحمدونى وطيلسان ابن حرب]

[قال][1] : وإذ قد جرَتْ بعضُ تضمينات الحمدونى فى هـذا الموضع فأنا أذكر هنا قطعةً من شعره فى الطيلسان ، وأَنْعطف فى غير هذا الموضع إليها وأكرّ عليها ؛ وكان أحمد بن حَرْب المهلّبى من المُنْعِمين عليه والمحسنين إليه ، وله فيه مدائح كثيرة ؛ فوهب له طيلسانا أخْضر لم يَرْضَه ، قال أبو العباس المبرّد : فأنشدنا فيـه عشر مقطعات ، فاستَحْلَينا مَذْهَبه فيها ، فجعلها فوق الخمسين؛ فطارت كل مَطار ، وسارت كل مسار ، فمنها[2] :

يا بْنَ حربٍ كَسَوْتَنى طَيْلَسانًا مَلَّ من صُحْبَة الزمان وصَدَّا
فحسبنا نَسْج العناكب قد حَا لَ[3] إلى ضَعف طَيْلَسانك سدَّا
طال تَرْدادُه[4] إلى الرَّفْو حتى لو بَعَثْناه وَحْـدَه لتَهَدَّى

وقال فيه أيضاً :

ياطيلسان ابن حرب قد هممت بأنْ تُودِى بجسمى كما أَوْدَى بك الزَّمَنُ
ما فيك مِنْ ملبس يغنى ولا ثمن قد أَوْهَنَت حيلتى أركانُك الوُهنُ
فلو تَرَانى لدَى الرَّفَّاء مُرْتبطا كأننى فى يَدَيْهِ الدهرَ مُرْتَهن

(١) من س ، ق . (٢) الفوات ١ـ١٧، الوفيات ٣ـ٤٣٧.
(٣) فى س ، ق : حين . (٤) الترداد : الترديد .

أَقولُ حين رآنى الناسُ ألزمهُ ... كأنما لىَ فى حانوته وَطَنُ
مَنْ كان يسأل عنّا أيْنَ منزلُنا ... فالأقحوانَةُ مِنّا منْزِلٌ قَمِنُ

وقال[1] :

قل لابْنِ حَرْبٍ طيلسا ... نُك قومُ نوحٍ منه أَحْدَثْ
أفنَى القرونَ ولم يَزَلْ ... عمَّنْ مضى من قبل يُورَثْ
وإذا العيونُ لحَظْنَهُ ... فكأنه باللَّحْظِ يُحْرَثْ
يُودِى إذا لم أرْفُهُ ... فإذا رَفَوْتُ فليس يَلْبَثْ
كالكلب إن تَحْمِل علَيـ ... ـه الدَّهْرَ أو تَتْرُكْه يَلْهَثْ

وقال :

قل لابن حرب طيلسانُك قد ... أوْهَى قُوَاى بكَثْرةِ الغُرمِ
متبينٌ فيــه لمُبْصِرِه ... آثارُ رَفْوِ أوائلِ الأُمم
وكأنّه الخمرُ التى وصفت ... فى : ياشقيق الرّوح مِن حكَم
فإذا رَمَمْناه فقيل لنا ... قد صَحّ قال له البلى : انْهَدِم
مثل السّقيم بَرَا فراجَعهُ ... نُكْسٌ[2] فأسلَمه إلى سَقَم
أنشدت حين طَغى فأَعْجَزنى ... ومن العناء رِياضةُ الهرم

« الخمر التى وُصِفت » من قول أبى نواس[3] :

يا شقيقَ النفْسِ من حكم ... نِمْت عن لَيْلِى ولم أنمِ
فاسْقِنى البِكْرَ التى اعْتَجَرَتْ[4] ... بِخمَارِ الشَّيْبِ فى الرَّحِمِ
ثُمَّتَ انْصاتَ[5] الشباب لها ... بعد أن[6] جازت مَدَى الهرم
فهى لليوم الذى بُزِلت ... وهى تِلْو[7] الدَّهْر فى القِدَم

---

(١) وفيات الأعيان ٣ــ٤٣٨ . (٢) النكس : عود المرض .
(٣) ديوانه ٣٢٤ . (٤) فى الديوان : اختمرت . (٥) انصات : أجاب، وأقبل.
(٦) فى الديوان : بعد ما جازت . (٧) فى الديوان : ترب الدهر .

عُتِّقَتْ حتى لو اتصلت بلسانٍ ناطقٍ وفمِ
لاحْتَبَت فى القوم ماثلةً ثم قصَّت قِصَّةَ الأُمَمِ
فَرَعَتْها بالمزاج يَدٌ خُلِقَت للكاس(١) والقَلَمِ

وقال الحمدونى :

طَيْلَسانٌ لابن حربٍ جاءنى خِلْعَةً فى يوم نَحْسٍ مستَمِرّْ
فإذا ما صِحْتُ فيه صَيْحَةً تركته كهشيم المحتضر
وإذا ما الريح هبَّتْ نحوهُ طيَّرَتْه كالجرادِ المنتشِرْ
مُهْطِع(٢) الدَّاعى إلى الرّافى إذا ما رآه قال : ذا شيءٌ نُكُر
وإذا رفَّاؤه حاول أن يتلافاه تَعاطى فعقَرْ

وقال :

أيا طيلسانىَ أعْيَيْت طبِّى أَسلٌّ بجسْمِك أم داءُ حبِّ
ويا ريح صَيَّرْتنى أتَّقيك وقد كنتُ لا أتَّقى أن تَهُبِّى
ومستخبر خَبَرَ الطيلسان فقلت له الروح من أمْرِ ربِّى

وقال فيه :

طَيْلَسانٌ لابن حربٍ جاءنى قد قَضَى التمزيقُ منه وَطَرَهْ
أنا من خوفٍ عليه أبداً سامِرىٌّ(٣) ليس يَأْلو حَذَرَه
يا بْنَ حرب خُذْه أو فابْعَثْ بما نشترى عِجْلا بصفرٍ عشرَه
فلعل اللهَ يُحْيِيه لنا إن ضربناه ببَعْض البَقَرَهْ
فهو قد أَدرك نوحا ، فعسى عنده من عِلْم نوحٍ خَبَرَه
أبدا يَقْرَأُ مَن أبصرَهُ أئذا كنّا عِظَاماً نَخِرَهْ

---

(١) فى الديوان : للسيف والقلم، وفرعتها : افتضتها . (٢) المهطع : الساكت المنطلق إلى من هتف به. (٣) السامرى : الذى عبد العجل ، كان عظيما من بنى إسرائيل .

وقال فيه[١] :

يابْنَ حرب أطلْتَ فقْرى[٢] برفْوى طيلسانا قد كنتُ عنه غنيّا

فهو فى الرّفْو آلُ فِرْعَوْن فى العَرْ ض على النـار غُدْوةً وعَشِيَّا

زُرْتُ فيـه معاشراً فازْدَرَوْنى فتغنّيْتُ إذ رأونى زَرِيّا

جِئْتُ فى زِىٍّ سائل كى أراكم وعلى الباب قد وَقَفْتُ مَلِيّا

وقال فيه[١] :

وهبتَ لنا ابنَ حربٍ طَيْلَسانا[٣] يَزيدُ المرءَ ذا الضّعَةِ اتّضَاعَا

يُسلِّمُ صاحبى فيعيـد شتمى لأنّ الروحَ يُكْسِبُه انصداعا[٤]

أُجيل الطّرْفَ فى طَرَفَيْهِ طُولًا وعَرْضا ما أرى إلّا رِقَاعَا

فلست أشكّ أنْ قد كان قِدْماً لنُوحٍ فى سفينتـه شِرَاعا

فقد غنّيْتُ إذ أبصرت منـهُ جوانبـه على بَدَنى[٥] تَدَاعَى

قِفى قَبْلَ التفرّقِ يا ضُبَاعَا ولا يَكُ مَوْقِفٌ مِنكِ الوَدَاعَا[٦]

[المأمون والحسن بن رجاء]

دخـل المأمونُ بعضَ الدواوين فرأى غلاما جميلا على أُذنه قلم ، فقال : من أنت يا غلام ؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين الناشئُ فى دولتك ، المتقلِّبُ فى نعمتك ، المؤمّل لخدمتك ، خادِمك وابنُ خادِمك الحسنُ بن رجاء . فقـال : أحسنت يا غلام ، وبالإحسانِ فى البديهة تفاضَلت العقُول . فأمر أن يرفع عن مرتبة الديوان .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج : قال لى أبو العباس المبرّد : ما رأيتُ فى أصحاب السلطان مثل إسماعيل والحسن ؛ كنت إذا رأيته رأيت رجلا كأنما خُلق

(١) الوفيات : ٣ــ٤٣٧ . (٢) فى الوفيات : وترى . (٣) فى الوفيات : رأينا طيلسانك يابن حرب . (٤) رواية البيت فى الوفيات :

يسلم صاحبى فيقد شبرا به وأقد فى ردى ذراعا

(٥) فى الوفيات : بقاياه على كتفى . (٦) البيت للقطامى ، وضباعة : اسم امرأة .

لذِرْوَة مِنْبَر ، أو صَدْرِ مجلس ، يتكلّم وكأنه يتنفّس ، يُسْهِبُ ويُطْنِب ، ويُعْرِبُ ويُغْرِب ، ولا يعجَب ويعجِب .

أراد القاضى إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد ، والحسن ابن رجاء بن أبى الضحاك .

[المبرد والمتوكل]

وكان أبو العباس يُعَدّ فى البلغاء ، وقال : لما دخلت على المتوكل اختار لى الفَتْحُ ابن خاقان وَقْتَ شُرْبه ، وكان الشراب قد أَخذ منه فسألنى وقال : يابصرى ، أرأيت أحسنَ وجهاً منّى ، فقلت : لا والله ولا أَسْمَح راحة ، ثم تجاسرت فقلت :

جَهَرْتُ بحَلْفَةٍ لا أتَّقيها ... بشكٍّ فى اليمين ولا ارتياب
بأنك أَحسنُ الخلفاء وَجْها ... وأَسْمَحُ راحتين ولا أُحَابى
وأنَّ مُطِيعك الأَعلى مَحَلاًّ ... ومَنْ عاصاك يَهْوِى فى تَبَابِ [1]

فقال : أحسنت وأجملت فى حُسن طبعك وبديهتك ، فقلت : ما ظننتُنى أبلغُ هذا الشرف ، ولا أَنال هـذه الرتبة ، فلا زال أميرُ المؤمنين يسمو بخَدَمه إلى أعْلى المراتب ، ويصرفهم فى المذاهب .

[من أدب المبرد]

وكان ابنُ المعتزّ قد غضِبَ على بعض وكلائه ، فصار إلى أبى العباس المبرّد يسأله أن يكلّمه له ؛ فكتب إليه المبرّد : أَنْتَ والله كما قال مسلم بن الوليد فى جدك الرشيد :

بأَبى وأُمى أَنْتَ ما أنْدَى يدًا ... وأبرّ ميثاقًا وما أَزْ كَا كا
يَغْدُو عدوُّك خائفا فإذا رأَى ... أن قد قدرت على العِقَاب رَجَاكا

وهذا معنى كثير .

---

(١) التباب : الهلاك .

[استطراد فى المدح]

أنشد أحمد بن يحيى ثعلب الأعرابى(١) :

كريم يغضُّ الطَّرْفَ فَضْلَ حَيَائِهِ ويَدْنُو وأَطرافُ الرماحِ دَوَانِى
وكالسيفِ إن لايَنْته لَانَ مَتْنهُ وحَدَّاه إِنْ خاشَنْتَهُ خَشِنَان

وهذا يناسب قول ابن المعتز فى بعض جهاته(٢) :

ويَجْرَحُ أحشائى بعَيْنٍ مريضةٍ كما لانَ مَتْنُ السيفِ والحدُّ قَاطِعُ

وقال الأخطل فى بنى مروان(٣) :

صُمٌّ عن الجَهْلِ ، عن قيل الخنا(٤) أُنُفٌ إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صَبَرُوا
شُمْسُ العداوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهم وأَعْظَمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا

وقال إبراهيم بن علىّ بن هرمة يمدح أبا جعفر المنصور :

كريمٌ له وَجْهَان : وجهٌ لدى الرضا طليقٌ ، ووَجْهٌ فى الكريهة باسِلُ
وليس بمُعْطِى الحقّ من غَيْرِ قُدْرَةٍ وَيعْفُو إذا ما أمْكَنَتْهُ المَقَاتِلُ
له لحظاتٌ من حِفافَىْ سريرهِ إذا كرَّها فيها عِقَابٌ ونَائِلُ
فأمّ(٥) الذى أمّنت آمنــة الرّدى وأمّ الذى حاولت بالثُّكْلِ ثَاكِلُ

وقال الطائى فى أبى سعيد محمد بن يوسف(٦) :

هو السيلُ إن واجَهتَه انقدْتَ طَوْعَهُ وتقتادُهُ من جَانِبَيْهِ فيتبعُ

رجع إلى الحسن بن رجاء

وكان عصابة الجرجانى ، واسمه إسماعيل بن محمد منقطعا إلى الحسن بن رجاء متصلا به ، وهو القائل فيه :

ومحجَّبٍ بالنور ليس بمدرَكٍ إلا بما تَأْتِى به الأَنْبَاءُ

---

(١) اللآلئ — ذيل: ٣٨ . (٢) ديوانه ١ — ٨٨ ، اللآلئ : ٥٢٠ .
(٣) الشعراء ٤٧٠ . (٤) فى الشعراء : حشد على الحق عيافو .
(٥) فى س ، ق : فأما . (٦) ديوانه ١٩٠ .

مَلِكٌ يُحِبُّ اللهَ فهو يُحِبُّهُ ... ويطيعه فتطيعه الأشياءُ
يمشى الهوينا للصلاة يُقيمها ... وإذا مشى للحَرْبِ فالخُيَلاَءُ
لله درّك أيما ابن عزيمةٍ ... يشوى الزمان ومالَهُ إشْوَاءُ

ثم عتب عليه فى بَعْضِ الأمر ، فهجاه هجاءً قبيحا ؛ فهرب إلى عمان ، ثم اعتذر إليه بقصيدته التى أولها :

لا تخضبنّ عَوَالِيَ المُرّانِ ... إلا من العلق[1] النّجِيع الآنِ[2]

وهى أجود شعر قيل فى معناه ، وهى التى يقول فيها :

اقرَ السلام على الأمير وقل له ... إن المنادمةَ الرضاعُ الثّانِى
ما إنْ أَتَى حشمى بأنّك سَاخِطٌ ... حتى استخفّ بموْضِعِى غِلْمَانِى
وغَدت علىّ مطاعمى ومَشَارِبِى ... وملابسى من أَعْوَنِ الأَعْوَان

فكتب إليه الحسن :

أَبلغ أبا إسحاق أَنّ محلّهُ ... منى بحيث الرأسُ والعينانِ
لا تبعدنَّ بك الديارُ لنَزْغةٍ ... ولَتُبْعِدَنَّ نَوازِعَ الشيطانِ
فليفرخِ الرَّوْعُ[3] الذى رُوِّعتَهُ ... إن المحل محلُّ كلِّ أمانِ

[جميل وعمر بن أبى ربيعة]

اجتمع جميل بن معمر العذرى بعُمَرَ بن أبى ربيعة المخزومى ، فأنشده جميل قصيدته التى أولها[4] :

لَقَدْ فَرِحَ الوَاشُونَ أَنْ صَرَمَتْ حَبْلِى ... بُثَيْنَةُ أو أبدَتْ لَنَا جانِبَ البُخْلِ
يَقُولُونَ مَهْلًا يا جميلُ وإنَّنِى ... لأُقْسِمُ مَالِى عن بُثَيْنَةَ مِنْ مَهْلِ

---

(١) العلق : الدم . والنجيع من الدم : ما كان إلى السواد . (٢) فى ط : القانى ، وهذا من ق ، س : وأنى الحميم : انتهى حره فهو آن . (٣) الروع : الفزع .
(٤) ديوانه ٤٨ ، الأغانى ١ – ١١٤ .

خَلِيلَىَّ فِيما عِشْتُما هَلْ رأيتُما   قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِى

نقله أبو العتاهية فقال :

يا مَنْ رأى قبلى قتيلا بكى   من شِدَّةِ الوَجْدِ على القاتلِ

فلما أتمّها قال لعمر : يا أبا الخطاب ، هل قلت فى هذا الروىّ شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم أنشده (١) :

جرى ناصح بالود بينى وبينها   فقرّبنى يوم الحِصَاب (٢) إلى قتلى

فما أنس م الأشياء لا أنْسَ قولَها   ومَوْقِفِها يوما بقارِعة النخل

فلما تواقفْنَا عرفتُ الذى بها   كمثل الذى بى حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ

فسلَّمْتُ واستأنستُ خِيفَةَ أنْ يَرَى   عدوٌّ مكانى أو يرى حاسد (٣) فِعْلِى

وأقبلَ أمثالُ الدُّمى يكتنفْنَها   وكلٌّ يُفدِّى بالمودَّةِ والأَهْلِ

فقالت وأرْخَتْ جانب السِّتْرِ إنما   معى فتكلَّم غَيْرَ ذِى رِقْبَةٍ أهلى

فقلت لها : ما بى لهم من ترقُّبٍ   ولكنّ سرِّى ليس يحمِلُه مِثْلِى

فاستخذى جميل وصاح : هذا والله الذى طلبَت الشعراء فأخطأته ، فتعلَّلُوا بوصف الديار ، ونعت الأطلال .

خليفة ابن أبى ربيعة

ولما مات عمر بن أبى ربيعة نُعى لامرأة من مولّدات مكة وكانت بالشام فبكت وقالت : مَنْ لأَباطح مكة ، ومن يَمْدحُ نساءَها ، ويصفُ محاسنَهن ، ويحكى طاعتَهن ! فقيل لها : قد نشأ فتًى من ولد عثمان بن عفان على طريقته، فقالت: أنشدونى له فأنشدوها (٤) :

وقد أرسلت فى السر لَيْلَى (٥) بأنْ أَقِمْ   ولا تَقْرَبنّا فالتجنّبُ أَجْمَلُ

---

(١) ديوانه : ٢٨٠ ، الأغانى ١–١١٥ ، اللآلئ : ٧٠٩ . (٢) الحصاب : موضع رمى الجمار ، وفى ط : الخضاب ، وفى ق : يوم الخطاب (٣) فى الديوان والأغانى : كاشح.
(٤) هذه الأبيات — ماعدا الأخير — فى ديوان عمر بن أبى ربيعة صفحة ٨٠ ، ورويت فى أمالى الزجاجى للعرجى . (٥) فى ط : ليلا ، وفى أمالى الزجاجى : لقد أرسلت ليلى رسولا بأن أقم .

لعلّ العيونَ الرامقات لِوَصْلنا ... تكذب عنّا أو تنامُ فتغفل

أناسٌ أمنّاهم فبثّوا حَديثنا ... فلما كَتَمْنَا السرَّ (١) عنهم تقوَّلُوا

فما حفظوا العَهْدَ الذى كان بيننا ... ولا حين همُّوا بالقطيعة أَجْمَلُوا

فتسلت وقالت : هذا أجلُّ عوض ، وأفضل خَلَف ، فالحمدُ لله الذى خلف على حرمه وأُمته مثل هذا .

وقال عروة بن أذينة : أنشدت ابن أبى عتيق للعرْجى :

فما ليلةٌ عندى وإنْ قِيل لَيلةٌ ... ولا ليلة الأَضْحَى ولا ليلة الفِطْرِ

بعادلةِ الإثنين عندى وبالحرَى ... يكونُ سواء مثلها ليلةُ القَدْرِ

وماأَنْسَ مِ الْأَشياءِ لاأنس قولها ... لجارتها قُومِى سَلِى لى عن الوِتْرِ

فجاءت تقولُ الناس فى ست عشرةٍ ... ولا تَعْجَلِى عنه فإنك فى أجْرِ

فقال ابن أبى عتيق : هذه أفقه من ابنِ أبى شهاب ؛ أُشهِدكم أنّها حُرَّة من مالى إن أجاز أهلُها ذلك .

العرجى

والعَرْجى هو عبد الله بن عمرَ بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان ينزل بعَرْج الطائف (٢) فنُسب إليه ، وهو القائل :

هل فى ادِّكَارِ الحبيبَ مِنْ حَرَجِ ... أمْ هل لِهمِّ الفؤادِ من فَرَجِ

أمْ كيف أنْسَى مسيرنا حرما ... يَوْم حَلَلْنَا بالنَّخْلِ مِنْ أمج (٣)

يوم يقولُ الرسولُ قد أذنت ... فأْتِ على غير رِقْبةٍ فَلِجِ (٤)

أقبلْتُ أهْوِى إلى رِحالِهمُ ... أُهْدَى إليها بريحها الأَرِجِ

وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم واليا على مكة ، وهو خال

---

(١) فى ديوانه : السير . (٢) قرية جامعة فى واد من نواحى الطائف .

(٣) قرية كثيرة المزارع والنخل ، وأهل أمج : خزاعة — معجم ماالستعجم ١٩٠ .

(٤) من ولج .

هشام بن عبد الملك بلغه أنّ العرجىّ هجاه ، فضربه ضربا مبرحا ، وأقامه على أعين الناس ، فجعل يقول (١) :

سيغضب لى الخليفة بعد ربّى ويسأل أهل مكة (٢) عن مساق

علىّ عباءةٌ برْقاء (٣) ليست من البَلْوَى تجاوزُ نِصْفَ سَاقِ

وتَغْضَب لى بأسرتها (٤) قُصَىٌّ ولاةُ الشعبِ والطُّرق العماق (٥)

فحلف محمد بن هشام ألا يخرجه ما دامت له ولاية ؛ فأقام فى السجن سبع سنين حتى مات ، وهو القائل فى سجنه (٦) :

أضاعونى وأىّ فتًى أضاعوا ليوم كريهة وسِدَادِ ثَغْرِ

وخَلَّوْنِى (٧) ومعترك المنايا وقد شُرِعت أسنّتهم لنَحْرِى

كأنى لم أكن فيهم وَسِيطاً ولم تك نسبتى فى آلِ عَمْرو

أجرَّرُ فى الجَوامع (٨) كلَّ يوم ألاَ لله مَظْلِمَتى وهَصْرى

عسى الملِكُ المجيبُ لمن دعاهُ سيُنْجِينى فيعلم كَيْفَ شُكْرِى

فأَجْزِى بالكرامة أهْلَ وُدِّى وأجْزِى بالضغائن أهْلَ ضُرِّى

جملة من الفصول القصار لابن المعتز

البشر دالٌّ على السخاء كما يدلّ النَّوْر على الثمر . إذا اضطررت إلى الكذّاب فلا تصدّقه ولا تُعْلِمْه أنك تكذِّبُه ، فينتقل عن وُدِّه ، ولا ينتقل عن طَبْعِه . كما أن الشمس لا يَخْفَى ضوءها وإن كانت تحت السحاب ، كذلك الصبىُّ لا تخفى غريزة عَقْلِه وإن كان مغموراً بأَخْلَاقِ الحداثة . كَرَمُ الله عزّ وجل لا يَنْقُضُ حِكْمته ولذلك

---

(١) معاهد التنصيص ٣ـ١٧٨ ، الأغانى ١١ـ٤١١ . (٢) رواية المعاهد :

سينصرنا الخليفة بعد ربى ويغضب حين يخبر ...

(٣) فى المعاهد : بلقاء. (٤) فى المعاهد : بأجمعها. (٥) فى المعاهد: قطين البيت والدمث الرقاق

(٦) الأغانى ١ـ٤١٣ . (٧) فى الأغانى : وصبر عند .

(٨) الأغانى : وصبرى والجوامع : مفردها جامعة وهى الغل .

لا يجعل الإجابة في كل دعوة . كما أن جلاءَ السيف أهوَنُ من صُنْعه ، كذلك استصلاح الصديق أهونُ من اكتساب غيْرِه . إذا استرجع اللهُ مواهبَ الدنيا كانت مواهب الآخرة . لولا ظلمةُ الخطإ ما أشرق نورُ الصواب . الحوادث الممضَّة مُكْسِبةٌ لحظوظ جزيلة ، من صوابٍ مدَّخر ، وتطهيرٍ من ذَنْب ، وتَنْبيهٍ من غَفْلة ، وتعريفٍ بقَدْرِ النعمة ، ومُرُون على مُقَارَعَةِ الدهر .

ومثل هذا الفصل محفوظ عن ذى الرياستين ، قاله بعقب عِلَّةٍ فأغار عليه ابن المعتز .

وكتب إلى أحمد بن محمد جوابا عن كتاب استزاده فيه : قَيِّدْ نِعْمَتى عندك بما كنت استَدْعيتها به ، وذُبَّ عنها أَسْبابَ سوءِ الظن ، وَاسْتَدِمْ ما تُحِبُّ منى بما أُحبُّ منك .

وكتب إليه : واللهِ لاقَابَلَ إحسانك منى كفرٌ ، ولا تَبِعَ إحسانى إليك مَنٌّ ، ولك عندى يدٌ لا أَقبضُها عن نفعك ، وأُخْرَى لا أَبْسطُها إلى ظُلْمِك ، فتجنَّبْ ما يُسْخِطنى ؛ فإنى أَصون وجهك عن ذُلّ الاعتذار .

وكان أحمدُ بن سعيد يؤدّبه فتحمل البلاذرى على قبيحة أم ابن المعتز بقومٍ سألوا أن تأذن له أن يدخلَ إلى ابن المعتز وقتاً من النهار ، فأجابت أو كادَتْ تجيب ، قال ابنُ سعيد : فلما اتصل الخبرُ بى جلستُ فى منزلى غَضْبَانَ لما بلغنى عنها فكتب إلىَّ ابنُ المعتز وله ثلاث عشرة سنة :

أَصبحتَ يابن سعيد خِدْنَ مَكْرُمَةٍ	عنها[1] يقصّر مَنْ يَحْفَى ويَنْتَعِلُ
سَرْبَلتنى حِكْمةً قد هذَّبت شِيَمِى	وأَجَّجَتْ نارَ ذِهْنِى فهى تَشْتَعِلُ
أَكونُ إنْ شِئْتَ قُسًّا فى خَطَابَتِهِ	أو حارثا وهو يوم الحَفْلِ مُرْتَجِلُ
وإنْ أشَأْ فِكْرَ زَيْدٍ فى فرائضه	أو مِثْلَ نعمانَ لما ضَاقَتِ الحِيَلُ

(١) فى ط : عما .

أو الخليل عَرُوضِيّا أخا فِطَنٍ ... أو الكِسَائِىّ نَحْوِيًّا لَهُ عِلَلُ
تَعْلُو بَدَاهةُ ذِهْنِى فى مراكبها ... كَمِثْلِ ما عَرَفَتْ آبائِىَ الأوَلُ
وفى فمى صارِمٌ ما سلّهُ أحدٌ ... من غِمْدِه فدرى ما العيشُ والجَذَلُ
عُقباكَ شُكْرٌ طويل لا نَفَادَ لهُ ... يَبْقَى بجِدَّتِه ما أطَّتِ[1] الإبِلُ

وقسّ الذى ذكر هو قسّ بن ساعدة الإيادى ، وقد سَمِع النبى صلى الله عليه وسلم شِعْرَه ، وعجب منه .

وحارث هو الحارث بن حِلّزة اليشكرى ، وصف ارتحاله يوم فَخْرِه بقصيدته التى أنشدها بحضرة عمرو بن هند التى أولها[2] :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسْماءُ ... رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّوَاءُ

وزيد هو زيد بن ثابت الأنصارى ، وإليه انتهى علم الفرائض . ونعمان هو أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه ابن ثابت ، وسبق أهْلَ العراق فى الفِقْه . والخليل بن أحمد الفُرْهُودى ، ويقال الفَرَاهِيدى ، منسوب إلى حىّ من الأزد اليحمرى . والكسائى على بن حمزة الكوفى .

[لابن العميد إلى بعض إخوانه]

وكتب أبو الفضل محمد بن العميد إلى بعض إخوانه : أنا أشكُو إليك — جعلنى فِدَاكَ — دهراً خؤوناً غَدُوراً ، وزماناً خَدُوعا غروراً ، لا يَمنحُ ما يمنح إلا ريْثَ ما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا رَيْث مايَرْتَجع ، يبدو خَيْرُه لمعا ثم ينقطع ، ويَحْلُو ماؤه جُرعا ثم يَمْتَنِعْ . وكانت منه شِيمَةٌ مألوفة وسجيَّةٌ معروفة أن يشفع ما يُبْرِمُه بقُرْبِ انتقاض ، ويُهْدِى لما يبسطه وَشْكَ انقباض ، وكنا نَلْبَسُه على ما شرط ، وإن خان وقَسَط[3] ؛ ونَرْضَى على الرغم بحكمه ، ونَسْتَنِمّ بقَصْدِه وظلمه ، ونعتدّ

(١) أطت الإبل : أنت تعبا أو حنينا . (٢) المعلقات : ٢٥١ . (٣) قسط : جار وعدل.

من أسباب المسرة ألاّ يجىء محذورُه مصمتا بلا انفِراج ، ولا يأتِى مكروهُه صِرْفا بلا مِزَاج ، ونتعلّل بما نختلسه من غَفَلَاته ، ونسترِقُهُ من ساعاته . وقد استحدث غيرَ ما عرفناه سُنّةً مبتدعة ، وشريعةً متبَّعة ، وأَعدَّ لكل صالحةٍ من الفساد حالا ، وقَرَن بكلّ خَلّة (١) من المكروه خِلالا . وبيان ذلك ـ جعلنى الله فِدَاكَ ـ أنه كان يَقْنَعُ من معارضته الإلفين، بتفريق ذات البَيْن؛ فقد أثنى مَمْنُوًّا(٢) فيك بجميع ما أَوْغَرَه ، وما أطْوِيه من البَلْوَى منك أكْثَرُ مما أَنشُرُه ؛ وأَحسبنى قد ظَلَمْتُ الدهرَ بسوء الثناء عليه، وألزمته جرما لم يكن قدره بما يحيط به ، وقدرته ترْتقِى إليه، ولو أنك أَعَنْتَه وظَاهَرْتَه ، وقصدت صرفه وآزرْته، وبِعْتَنى بيع الخلق وليس فيمن زَادَ ولكن فيمن نقص ، ثم أعرضت عنى إعراضَ غير مراجع ، واطّرحتنى اطراحَ غير مُجَامل؛ فهلاّ وجدت نفسك أهلا للجميل حين لم تَجِدْنى هناك ، وأَنْفَذْتَ من جلّ ما عقدت من غير جريمة، ونكثت ما عهدت من غير جريرة؛ فأَجِبْنِى عن واحدة منهما ؛ ما هذا التغَّالِى بنفسك ، والتّعالى على صديقك ؟ ولِمَ نَبذْتنى نَبْذَ النَّواة ، وطرَحْتَنى طَرْح القَذَاة ؟ ولم تَلْفِظنى من فِيك ، وتمجُّنى من حَلْقك ؟ وأنا الحلال الحُلوُ، والبارد العَذْب ، وكيف لا تُخْطِرنى ببالك خَطْرة ، وتُصَيِّرنى من أشغالك مرة ؛ فترسل سلاما إن لم تتجشّم مُكَاتبة ، وتذكُرنى فيمَنْ تَذْكُر إن لم تكن مخاطبة ؟ وأحسب كتابى سيَرِدُ عليك فتنكره حتى تتثبّت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تتذكّر ؛ فقد صرت عندك ممن مَحَا النسيانُ صورتَه من صدرك، واسمَه من صحيفةِ حِفْظك ، ولعلك أيضاً تتعجَّب من طمعى فيك وقد تولّيت ، واستمالتى لك وقد أبيت ، ولا عجب فقد يتفجّر الصَّخْرُ بالماء الزلال ، ويَلين مَنْ هو أقسى منك قلبا فيعود إلى الوصال ، وآخر ما أقوله أنّ ودّى وقْفٌ عليك ، وحَبْسٌ فى سبيلك ، ومتى عدت إليه وجدته غضًّا طريّا ، فجرِّبْه فى المعاودة فإنّه فى العود أَحْمَد .

---

(١) الخلة : الخصلة . (٢) مناه يمنوه : ابتلاه .

اجتليت هذا الكلام على اختيار الاختصار .

استطراد فى النقد

حلّ قوله « فقد يتفجر الصخْرُ بالماء الزلال» من قول ابن الرومى:

يا شبيه البدر فى الحسـ ـــن وفى بُعْد المَنَالِ
جُد فقد تنفجر الصَّخْـ ـــرة بالمـاء الزُّلالِ

وفى هذه الرسالة فى ذكر فتح وان لم يستبق منه المعنى : وقد خصنا اللهُ تعالى معاشر عبد الأمير عضد الدولة بنعمة يَعْلُو مراتبَ النعم مَوْقِعُها ، ويفوتُ مقدار المواهب موضعها ، فباسْمِهِ ـ أبقاه الله ـ فُتح الفَتْح ، وبشعاره استُنزل النّجْح ، وبيُمْن نَقيبته فُرج الكَرْب ، وبسعادة جدّه كُشِف الخَطْب ، وباهتزازه للدولة وحمايته عاد إليها ماؤها ، وراجعها بهاؤُها ، فعزَّ الملك ونُصِر ، وذلّ العدو وقُهِر ، وحُميت أطرافُ الدولة ، وحُفِظت أكنافُ المِلّةِ ، واستجدّ نظام النعمة ، وسُدِلَتْ ستورُ الصيانة دون الحرمة ، ولو جعل المولى ـ تقدّس اسمه ـ لنعمته إذا تناهت على عبيده جزاءً غَيْرَ الإخلاص فى شكره ، وقَبِل مافى مقابلة المَوْهِبة التى يستجدها عند خَلْقِه غَيْرَ الإغراق فى حَمْده ، لرأيت ألاَّ أقتصر فى قضاء حقه على بعض الملك دون بعض ، ولجعلت فى صَدْرِ ما أبذل عن هذه النعمة الأعزَّيْن : الأهل والولد ، والأنْصَرين : الساعد والعَضُد ، بل العميدين : القلب والكبد ؛ بل النفس كلها ، والمُهْجة بأسرها .

[عتاب]

وقال سعيد بن حميد يعاتِبُ بعض إخوانه :

أَقلِلْ عتابك فالبقاء قليلُ والدَّهرُ يعدِل تارةً ويميلُ
لم أَبْكِ من زمن ذَمَمْتُ صُروفهُ إلاَّ بكَيتُ عليه حين يَزُولُ
ولِكُلّ نائبةٍ ألَمّت مُدّةٌ ولكل حالٍ أَقبلَتْ تَحْوِيلُ
والمنتمون إلى الإخاء جماعةٌ إنْ حَصَّلوا أفناهم التحصيل

ولعل أحداثَ المنيَّـةِ والرَّدَى ... يوماً ستَصْدَعُ بيننا وتَحول
فلئن سَبقْتُ لتبكينّ بحسرةٍ ... وليكثرنّ علىّ منك عَوِيل
ولتُفْجَعَنَّ بمُخْلِصٍ لك وامقٍ (١) ... حَبْلُ الوفاء بحَبْلِهِ موصول
ولئن سبقْتَ ـ ولا سبقت ـ ليمضِيَنْ ... من لا يُشَاكِلُه لدىَّ خليل
وليذهبنَّ بهاءُ كلّ مروءةٍ ... وليُفْقَدن جمالُها المَـأْهول
وأراكَ تـكْلَفُ بالعتاب ووُدُّنا ... صافٍ عليه من الوفاء دليل
ودٌّ بدا لذَوِى الإخاء جمالهُ ... وبدت عليه بَهْجَةٌ وقَبول
ولعل أيّامَ الحياة قليلةٌ ... فعلامَ يكثر عَتْبُنَا ويطُولُ

وقال أيضاً :

لقد ساءنى أنْ ليس لى عنك مَذْهَب ... ولا لك عن سوء الخليقة مَرْغَبُ
أفكر فى ودٍّ تقادم بيننا ... وفى دونه قُرْبَى لمن يتقرَّبُ
وأنت سقيمُ الودِّ رثٌّ حِباله ... وخيرٌ من الودِّ السقيمِ التجنّبُ
تُسِيءُ وتَأْبَى أنْ تعقِّبَ بَعْدَهُ ... بحُسْنَى وتَلْقَانى كأنىَ مُذْنِب
وأَحْذَرُ إنْ جازيت بالسوء والقِلَى ... مقالةَ أقوامٍ هُمُ منك أَنْجَبُ
أَساء اختياراً أو عَرَتْه ملالةٌ ... فماد يُسىءُ الظنَّ أو يتعتَّبُ
نخِـبْتُ من الودِّ الذى كان بيننا ... كما خاب رَاجِى البرق والبَرْقُ خُلَّبُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إلى كم يكونُ الصَّدُّ فى كل ساعةٍ ... ولمْ لا تملَّنَّ القطيعةَ والهَجْرَا
رويدك ! إنّ الدهرَ فيه بقيَّـةٌ ... لتفريقِ ذاتِ البين فانتظر الدَّهْرَا

آخر :

ولقد علمت فلا تكن متجنِّباً ... أنّ الصدُودَ هو الفِرَاقُ الأَوَّلُ

---

(١) الوامق : المحب .

حَسْبُ الأَحِبَّةِ أن يفرِّقَ بينهم صَرْفُ الزمان فما لنا نَسْتَعْجِلُ

آخر :

ذَرِ النفسَ تأخذ وسعها قبل بَيْنِها فمفترق جارَانِ دارهما العمرُ

ويقرب من المعنى قول المتنبي أيضاً (١) :

زَوِّدِينَا من وجهك مادَا مَ فحُسْنُ الوجوهِ حالٌ يَحُولُ
وَصِلِينَا نَصِلْكِ فى هذهِ الدُّنْ يَا فإنَّ المُقامَ فيها قَلِيلُ

[من كلام الأعراب]

وقف أعرابيٌّ يسألُ فعَبِث به فتى ، فقال : ممن أنت ؟ فقال : من بنى عامر بن صعصعة ، فقال : من أيِّهم ؟ فقال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا القدار من المعرفة ، فليس مقامى بمقام مُجادَلة ولا مفاخرة ، وأنا أقولُ : فإن لم أكن من هاماتهم فلستُ من أعجازهم . فقال الفتى : ما رويتَ عن فضيلتك إلاّ النقص فى حسبك .

فامتعض الأعرابى لذلك ؛ فجعل الفتى يَعْتذِر ، ويخلط الهَزْل والدعابة باعتذاره ، وأطَالَ الـكلام ، فقال له الأعرابى : ياهذا ، إنك منذ اليوم آذيتنى بمَزْحِك ، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف عن جَهْلِك بكلامك ما كان السكوت يَسْتُره من أمرك ، وَيْحك ! إنّ الجاهل إن مَزَح أسْخَط ، وإن اعتذر أفرط ، وإن حدّثَ أسقط ، وإن قَدَر تسلّط ، وإنْ عزم على أمرٍ تورَّط ، وإن جلس مجلس الوقار تبسَّط ؛ أعوذُ منك ومن حالٍ اضطرتنى إلى احتمالِ مثلك !

وقال إسحق الموصلى : قال أعرابى لرجل كان يعتمده بالعطية : أسأل الذى رحمنى بك أن يرحمَك بى .

(١) ديوانه ٣ـ١٤٩ .

وسأل أعرابى رجلا فأعطاه فقال : الحمد لله الذى ساقنى إلى الرزق وساقك إلى الأجر .

[من المقامات]

المقامة البلخية

ومن إنشاء البديع من مقامات الإسكندرى [١] :

قال : حدثنا عيسى بن هشام قال : أفضت [٢] بى إلى بَلْخ تجارة البزّ ، فوردتها وأنا بفَرْوَةِ [٣] الشباب ، وبَالِ الفراغ ، وحِلْية الثروة ، ولا يهمُّنى إلا نزهة [٤] فكر أستفيدها ، أو شَريدة من الكلام أصيدها ؛ فما استأذن على سَمْعِى مسافةَ مُقامى أفصحُ من كلامى . ولمَّا حتى التفرقُ بنا قَوْسَه أو كاد ، دخل إلى شابٌّ فى زى مِلْءِ العَيْن ، ولحية تَشوكُ الأَخْدَعَيْنِ ، وطَرْفٍ قد شرب بماء الرَّافدين ، ولَقِيَنى من البِرِّ فى السناء ، بما زِدْتُه من الشكر والثناء ؛ وقال : أظَعْناً تُرِيد ؟ قلت : إى والله ، فقال : أخصَبَ الله رَائِدَكَ ، ولا أضلّ قائِدك ، فمتى عزَمْتَ ؟ فقلت : غداةَ غد ، فقال :

صباحُ اللهِ لا صُبْحُ انطلاقِ وطَيْرُ الوَصْلِ لا طَيْرُ الفِرَاقِ

قال : أين تريد ؟ قلت : الوطن ، قال : بلغتَ الوَطن ، وقضَيْتَ الوَطَر ، فمتى العَوْد ؟ قلت : القابل ، قال : طويت الرَّيْط [٥] ، وثَنَيْتَ الخيط ، فأين أنتَ من الكرم ؟ قلت : بحيث أردت ، قال : إذا رجعك الله من هذه الطريق ، فاستَصْحِب لى عدُوًّا فى بُرْدَةِ صديق من تُجَار الصُّفْر ، يدعو إلى الكُفْر ، ويرقُص على الظُّفْر ، كدَارةِ [٦] العين ، يحطُّ ثِقَلَ الدّين ، وينافِقُ بوَجْهين ! فعلمت أنه يلتمس دينارا ، قلت : لك ذلك نقدا ، ومثله وَعْدا ، فأنشأ يقول :

رَأْيُك مِمّا خَطَبْتُ أعلى لا زلتَ للمَكْرُمَات أهْلا

---

(١) المقامات : ١٨ ، وهى المقامة البلخية . (٢) فى المقامات : نهضت .

(٣) فى المقامات : بعذرة . (٤) فى المقامات : مهرة فكر أستقيدها .

(٥) الريطة : الملاءة ذات لفقين ، أوكل ثوب لين رقيق ، وجمعه ريط . والمراد طويت أيام البعد

(٦) مستدير مثلها .

صَلُبْتَ عُوداً ودمت (١) جُوداً　　وفقت فرعاً وطِبْت أصلا
لا أستطيع (٢) العَطاء حَمْلا　　ولا أطِيق السؤال ثِقْلَا
قصُرْتُ عَنْ مُنْتهاك ظَنّا　　وطُلْتُ عما ظَنَنْتَ فِعْلَا
يا رحمة الله (٣) والمَعالى　　لا لَقِىَ الدَّهْرُ منك ثُكْلَا

قال عيسى بن هشام : فنلْتُه الدينار . وقلت : من أين نبت هذا الفَضْل ؟ قال : نمتنى قريش ، ومُهد لى (٤) الشرفُ فى بَطْحَائِها . فقال : بعض من حضر : أَلَسْت أبا الفتح السكندرى ؟ ألم أرك بالعِراق ، تطوفُ بالأسواق ، مُكْدِيا بالأوراق ؟ فأنشأ يقول :

إنَّ للهِ عبيدا　　أَخذوا العُمْرَ خَلِيطا
فهمُ (٥) يُمْسُون أعرا　　با ويُضْحُون نَبيطا (٦)

من البديع إلى الميكالى

وله إلى أبى نصر الميكالى يشكو إليه خليفته بهَراة (٧) :

كتابى أَطال اللهُ بقاءَ الشيخ الجليل ، والماء إذا طال مُكْثُه ظَهَرَ خُبْثه ، وإذا سكن مَتْنه ، تحرَّكَ نَتْنُه ، كذلك الضيفُ يَسْمُج لقاؤه إذا طال ثَوَاؤه ، ويثقل ظِلّه إذا انتهى مَحَلّه ؛ وقد حلَبْت أَشطر خمسة أَشْهر بهَرَاة وإن لم تكن دار مثلى لولا مُقامهُ ، وما كانت تسعنى لولا ذِمامُه (٨) ، ولى فى بيتى قيس (٩) مَثَلُ صدق ، وإن صدرا مَصْدَر عِشْق :

وأَدْنيتنى حتى إذا ما سبَيْتنى (١٠)　　بقولٍ يُحِلّ العُصْمَ سَهْلَ الأَباطِحِ
تجافَيْتِ عنى حيث لا لِىَ حِيلةٌ　　وخَلَّفْت ما خلَّفْت بين الجوانحِ

---

(١) فى ط : وفقت جوادا، وطبت .　(٢) فى ا : أتستطيع .
(٣) فى المقامات : يا رحمة الدهر ، والرحمة : السناد.　(٤) فى ا : بى .
(٥) فى ا : صحبة .　(٦) النبيط : جماعة من العجم .　(٧) الرسائل : ١٥٥ .
(٨) الذمام : العهد ، وفى الرسائل : إمامه .　(٩) هو قيس بن الملوح الذى يعرف بالمجنون ، وفى الرسائل : ولى فى ثنتين مثل صدق .　(١٠) فى ا : ما استبيتنى .

نعم، قنصتنى[١] نِعَمُ الشيخ الجليل، فلما عَلِق الجناح، وقَلِق البَراح، طرت مطارَ الريح، بل مطار الرّوح، وتركتنى بين قوم ينقض مَسُّهم الطهارة، وتُوهِن أكفُّهم الحجارة، وحُدّثت عن هذا الخليفة، بل الجيفة، أنه قال: قضيت لفلان خمسين حاجةً منذ ورد هذا البلد، وليس يَقْنع، فما أصنع؟ فقلت: يا أحمق؛ إن استطعت أن ترانى محتاجاً، فاستطع أن أراك محتاجاً إليك، أفّ لقولك ولفعلك، ولدهر أَحْوَج إلى مثلك! وأنا أسأل الشيخ الجليل أن يبيِّضَ وجهى بكتاب يُسَوِّد وجهه، ويعرّفه قَدْره، ويملأ رعباً صدره، إلى أن تَبين على صفحات جَنْبه آثارُ ذنبه.

وله إليه[٢] يعاتبه:

كتاب له فى العتاب

قد عرف الشيخ الجليل اتِّسامى بعبوديَّته، ولو عرفت وراءَ العبوديّة مكاناً لبلغته معه، وأرانى كلما قدمت[٣] صُحْبة، رجعت رُتْبة، وكلما طالت خِدْمة، قصُرت حِشمة، ولست ممن يذهب عليه أن للسلطان أَنْ يرفع عَبْداً حبشيا، ويَضَع قُرَشِيّا، ولكن أحب أن أَقف من مكانى على رُتْبةٍ كوكبُها لايغور، ومنزلةٍ لَوْلَبُها لايَدُور؛ فإذا عرفت قَدْرى[٤] وخطه، لم أتخطَّه، ثم إن رأيت محلّى وحدّه، لم أتعدّه، إن قدَّمنى يوماً عليها علمت أن عنايةً قدمتنى، وإن أَخّرنى عنها علمت أنّ جناية أَخرتنى. رُفع علىّ اليوم فلان ولستُ أُنكِر سِنَّه وفَضْلَه، ولا أَجْحد بيته وأصله، ولكن لم تَجْرِ العادة بتقدّمه لا فى الأيام الخالية ولا فى هذه الأيام العالية؛ وشديدٌ على الإنسان ما لم يُعوّد؛ فإن كان حاسدٌ قد همّ أو كاشِح قد نمَّ أو خَطْبٌ قد ألمّ أو أمرٌ قد وقع وتمّ فالشيخُ الجليلُ أَولى من يعرفه ويعرّفنيه، وإلا فما الرأى الذى أَوْجَب اصطناعى ثم ضياعى، والسبب الذى اقتضى بَيْعِى بعد ابتياعى؟

---

(١) فى ا: قبصتنى. (٢) فى الرسائل ٢٠٨: وله إلى الوزير أبى نصر بن أبى بريدة.
(٣) فى الرسائل: فكلما أبعدت صحبة (٤) فى ا: مكانى وخطه.

[المأمون وإبراهيم بن المهدى]

ولما رضى المأمون عن إبراهيم بن المهدى أمر به فأُدْخِل عليه[1] ، فلما وقف بين يديه قال : وَلِىُّ الثأر محكَّم فى القصاص ، ومَنْ تناوَله الاغترار بمـا مُدّ له من أسباب الرجاء أَمِن عادية[2] الدهر من نفسه ، وقد جعلك اللهُ تعالى فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كلَّ ذى ذَنْب دونك ، فإن أخذتَ فبحقِّك ، وإن عفوت فبفضلك . ثم قال :

ذَنْبى إليـك عظيمٌ ... وأَنْتَ أعظم منـهُ
فخُذْ بحقِّـك أوْ لا ... فاصْفَحْ بفَضْلك عنـهُ
إن لم أكن فى فعـالى ... مِنَ الكرام فكُنْهُ

فقال لى : إنى شاورتُ أبا إسحاق والعباس فى قَتْلك فأشارا به ، قال : فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال: قلت لهما : بدأناه[3] بإحسان ، ونحن نَسْتأْمِره[4] فيه ، فإن غيَّر فالله يغيّر مابه ، قال : إما أن يكونا قد نصحا فى عظيم ما جرَتْ عليـه السياسة فقد فعلا وبَلغا ما يبلغك ، وهو[5] الرأْىُ السديد ، ولـكنك أبيت ألاَّ تستجلب[6] النصر إلاَّ من حيث عوَّدك الله . ثم استَعْبَر باكياً ، فقال له المأمون : ما يبكيك ؟ قال : جَذَلا ! إذ كان ذَنْبى إلى مَنْ هذه صفته فى الإنعام ، ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جُرْمى استحلال دمى ، فعِلْمُ أمير المؤمنين وفَضْلُه بلّغانى[7] عفوه ، ولى بعدها شفاعة الإقرار بالذنب ، وحقُّ الأبوة بعد الأب . فقال : يا إبراهيم ، لقد حُبِّب إلىّ العفو حتى خِفْتُ ألاَّ أُوجَر عليـه ، أما لو علم الناسُ مالنا فى العفو من اللذة لتقرّبوا إلينا بالجنايات ، لا تَثْريبَ عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن فى حق نَسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك لبلَّغك ما أَملت حسن تنصّلك ولطف توصلك . ثم أمر بردّ ضياعه وأمواله . فقال :

---

(١) اللآلئ: ٤٧٧ . (٢) فى ط : أمن من دعابة الدهر، وهذه من ا .
(٣) فى ا : بدأت له . (٤) فى ا : نثمره . (٥) فى ا : ما يبلغه ذو الرأى .
(٦) فى ا : أن تستجلب . (٧) فى ا : يبلغانى .

رددت مالى ولم تبْخَل علىّ بهِ ... وقبل رَدِّك مالى قد حَقَنْتَ دمى
وقام علمك بى فاحتجّ عندك لى ... مقام شاهدِ عدل غَيْرِ متّهَمِ
فلو بذلتُ دمى أبغى رضاكَ بهِ ... والمالَ حتى أسلّ النَّعْلَ عن قَدمى
ما كان ذاك سِوَى عاريّة سَلَفَتْ ... لو لم تهبها لـكنت اليـوم لم تُلَم

الطائى يأخذ قول المأمون

أخذ معنى قول المأمون : « لقد حُبِّب إلىّ العفو حتى خفت ألّا أُوجر عليـه » أبو تمام الطائى ، فقال[1] :

لو يعلمُ العافون كم لكَ فى الندى ... من لذة[2] وقريحـةٍ لم تَحْمَدِ

فـكان أبو تمام فى هذا كما قال أبو العباس بن المعتز فى القاسم بن عبيد الله :

إذا ما مدحناه استعنَّا بفِعْله ... فنأخذ معنى قَوْلِنا مِنْ فعالِهِ

وكان تصويبُ إبراهيم لرأى أبى إسحاق المعتصم والعباس بن المأمون أَلطفَ فى طلب الرضا ودَفْع المـكروه واستمالتهما إلى العاطفة عليه من الإزراء عليهما فى رأيهما، وكان إبراهيم يقول : والله ما عفا عنى لرَحمٍ ولا لمحبَّةٍ ، ولـكن قامت له سوقٌ فى العفو كَرِه أن يفسدها [بى][3] .

وكان المأمون شاور ـ فى قتل إبراهيم ـ أحمدَ بن أبى خالد الأحول فقال : إن قتلتَه فلك نظير ، وإن عفوتَ عنه فلا نَظِيرَ لك ؛ فأَخْتار لك[4] العفو .

وقال المأمون لإسحق بن العباس : لا تحسبنى أغفلت أَمْر ابن المهدى وتأييدك له وإيقادَك لِناره .

قال : والله يا أمير المؤمنين لَإجرامُ قريش إلى رسولِ الله صلى الله عليـه وسلم أَعْظمُ من جُرْمى إليك، ولرَحِمى أمسّ بك من أرحامهم ، وقد قال لهم كما قال يوسفُ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام لإخْوَته : لا تَثْريب عليكم اليـومَ يَغْفِرُ اللهُ لـكم

---

(١) ديوانه ١١٣ . (٢) فى الديوان : من فرحة .
(٣) من ا . (٤) فى ا : فاختار العفو .

وهو أَرْحَم الراحمين . وأنْت يا أمير المؤمنين أحَقُّ وارِثٍ لهذه الأمة فى الطَّوْل ، وممتثل لخلال العَفْو والفَضْل .

قال: هيهات! تلك أجرامٌ جاهلية عَفَا عنها الإسلام ، وجُرْمُك جُرْمٌ فى إسلامك، وفى دارِ خلافتك .

قال: يا أمير المؤمنين؛ فوالله للمسلم أحقّ بإقالة العَثْرَة وغُفْرَان الذنب من الكافر. وهذا كتابُ الله بينى وبينك إذ يقول: وسارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ من ربكم وجَنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرْضُ أُعِدَّتْ للمتقين . الذين يُنْفِقُون فى السراء والضَّرَّاء والكاظِمِين الغَيْظ والعافِين عَنِ الناس والله يحب المحسنين . والناس يا أميرَ المؤمنين نسبةٌ دخل فيها المسلم والكافر ، والشريف والمشروف . قال : صدقت ، وَرِيَتْ بك زنادى ؛ ولا بَرِحْت أرى من أهلك أمثالك .

وقال رجل لبعض الملوك وقد وقف بين يديه : أسألك بالذى أَنت بين يديه غَداً أذَلُّ منى بين يديك اليوم ، وهو على عقابك أقْدَرُ منك على عقابى إلا ما[1] نظرتَ فى أمرى نَظَرَ من بُرْئِى أحبُّ إليه من سُقْمِى ، وبراءتى أحبُّ إليه من بليتى .

[بين معاوية وروح بن زنباع]

وأَراد معاوية عقوبة روح بن زنباع[2] فقال : يا أمير المؤمنين أنشدك الله تعالى ألّا تضع[3] منى خَسيسة أنتَ رفعتها ، أو تنقض منى مَرِيرة[4] أنتَ أبرمتها ، أو تشمت بى عدوًّا أنت كبتّه ، وحاسداً بك وَقَمْتَه[5] ؛ وأَسألك بالله إلا أَرْبى حِلْمُك على خطئى وصفحك على جَهلى .

فقال معاوية رضى الله عنه : إذا الله ثنّى عقد شىء تيسّرا .

---

(١) فى ا : إلا نظرت . (٢) الأمالى : ٢ــ٢٥٩، اللآلىء : ٨٨٩ .

(٣) فى ا : أن تضع . (٤) المريرة : الحبل الشديد الفتل .

(٥) وقمه : قهره وأذله .

أشار إلى هذا أبو الطيب[1] المتنبي إذ قال[2] :

أزِل حَسَدَ الحُسَّادِ عنى بكَبْتِهِمْ　　فأنْتَ الذى صيّرْتَهم لِىَ حُسَّدَا
إذا شَدَّ زَنْدِى حُسْنُ رَأْيِكَ فى يَدِى　　ضَرَبْتُ بسَيْفٍ[3] يَقْطَعُ الْهَامَ مُغْمَدَا

[عفو الملوك]

المامون

وعَتَب المأمون على بعض خاصته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن قديم الحرمة وحديث التوبة يَمْحُوَان ما بينهما من الإساءة . قال : صدقت ، وعفا عنه .

احد ملوك فارس

وكان فى ملوك فارس ملك عظيم المملكة ، شديدُ النقمة ، فقرَّبَ له صاحبُ المطبخ طعامَه فنقطت نُقْطَةٌ من الطعام على المائدة ، فزَوى له الملك وَجْهَه ، وعلم صاحبُ المطبخ أنّه قاتله ، فعمد إلى الصَّحْفَة فكفأَها على المائدة ثم ولّى ، فقال له الملك : ما حَمَلك على ما فعلت ، وقد علمتُ أَن سقوطَ النّقطة أخطأَتْ بها يدك ولم يَجْرِ بها تعمُّدك، فما عندك فى الثانية ؟ قال : استحَيْتُ للملك أنْ يُوجِب قتلى ، ويُبيح دَمَ مثلى ، فى سنِّى وحُرْمتى ، وقديم اختصاصى وخِدْمتى ، فى نُقْطة أَخْطَأَتْ بها يَدى ، فأَرَدْتُ أن يَعْظُم ذَنبي ليَحْسُنَ بالملك قَتْلى .

قال : لئن كان اعتذارُك يُنْجيك من القتل ، فليس يُنْجيك من التأديب ؛ اجلدوه مائةَ جَلْدة ، واخلعوا عليه خلع الرِّضَا .

بهرام جور

وخرج بهرام جور متصيدا فعنّ له حمار وَحْشٍ ، فاتبعه حتى صَرعه ، وقد انقطع عن أَصحابه . فنزل عن فرَسه يريدُ ذَبْحه ، وبصُر براعٍ فقال : أَمْسك علىّ فرسى، وتشاغل بذَبح الحمار ، وحانَتْ منه التفاتة ، فنظر إلى الراعى يقطع جَوْهَر عِذار فرسه ، فحوَّل بهرام جور وَجْهه وقال : تأَمُّلُ العيبِ عَيْب، وعقوبةُ من لا يستطيع الدفاع عن نفسه سَفَه ، والعفوُ من أَفعال الملوك ، وسُرْعَةَ العقوبة من أَفعال العامة .

---

(١) فى ا : إلى قول روح أبو الطيب ... فى قوله .　　(٢) ديوانه ١ـ٢٨٩ .
(٣) فى الديوان : ضربت بنصل .

ثم قال : يا غلام ، ما بال شِرْيانك يضطربُ لعلّك آذاكَ تكسيرُنا أرْضك بحوافر خَيْلنا ، فقال : نعم ، وقد عزمتُ على أن أنقلع مائةَ فرسخ ، فقال بهرام : لا تُرَع ، فهذا الموضع وما فيه لك ، وكان الراعى خبيثا ، فقال : إن الملوك إذا قالت قولا تَمَّتْ على قولها . فرجع بهرام إلى عسكره وقال : اتبعنى لأُوثق لك من هـذه الأرض ، فاتَّبَعه ، فلما بَصُر به الوزير قال : أيها الملك السعيد ، إنى لأرى جَوْهر عِذار فرسك مُتَقَلّعا[١] ، فتبسم وقال : أخذه من لا يردّه ، ورآه من لا ينمّ به ، فمَنْ أخذه صاحبُنا ولا نُطالبه به .

* * *

نقل ابن الرومى قول بهرام: « تأمل العيب » كما اتفق موزونا فقال[٢] :

تأمُّلُ الْعَيْبِ عَيْب ... مَافى الذى قُلْتُ[٣] رَيْبُ

وكلُّ خَـيْرٍ وشَرٍّ ... دُونَ العَوَاقِبِ[٤] غَيْبُ

ورب جِلْبَابِ هَمٍّ[٥] ... فيـه مِنَ الصُّنْعِ جَيْبُ

لا تَحْقِرنَّ سُيَيْبًا ... كم قاد خيرا سُيَيب[٦]

أخذ البيت الأخير من قول الطائى[٧] :

رُبَّ قَليـلٍ غداً كثيراً ... كَمْ مَطرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ

وقوله[٨] :

لا تزِيلنْ[٩] صَغِيرَ هَمِّكَ وانظرْ ... كم بذى الأَثْـلِ دوحةً مِنْ قضيبِ

وقد أعاد ابن الرومى قوله :

وكُـلُّ خَـيْرٍ وَشَر ... دُونَ الْعَوَاقِب غَيْبُ

---

(١) قلعه : انتزعه . (٢) ديوانه ١ــ١١٧ . (٣) فى الديوان : وليس فى الحق ريب . (٤) فى الديوان : خلف العواقب . (٥) فى الديوان : يا رب غمة خطب . (٦) بالتصغير ، والسيب : العطاء ، وانظر الديوان ص ١١٨ جزء أول . (٧) المختار من شعر بشار ١٧٢ . (٨) ديوانه ٣٦، المختار من شعر بشار ١٧٢. (٩) فى الديوان : لا تذيلن . ومعناه لا تحقرن .

فى قصيدته التى مدح بها أَحمد بن محمد بن ثوابة حين ساوره ، وقال : لو أتى لبيد لتعجَّب منه ، فاستجزله وقال (١) :

وَلَمَّا دَعَانِى لِلْمَثُوبَةِ سَيِّدٌ ... يَرَى الْمَدْحَ عاراً قَبْلَ بَذْلِ الْمَثَاوِبِ
تَنَازَعَنِى رَغْبٌ (٢) وَرَهْبٌ كِلاَهُمَا ... قَوِىٌّ وَأَعْيَانِى طُلُوع (٣) الْمَعَايِبِ
فَقَدَّمتُ رِجْلًا رَغْبَةً فى رَغِيبَةٍ ... وَأَخَّرْتُ رِجْلًا رَهْبَةً لِلْمَعَاطِبِ
أَخَافُ عَلَى نَفْسِى وَأَرْجُو مَفَازَهَا ... وَأَسْتَارُ غَيْبِ اللهِ دُونَ الْعَوَاقِبِ
أَلاَ مَنْ يُرِينِى غَايَتِى قَبْلَ مَذْهَبِى ... وَمِنْ أَيْنَ وَالْغَايَاتُ بَعْدَ الْمَذَاهِبِ

[اعتذار للبديع]

نسخة رقعة كتبها بديع الزمان إلى أبى على إسمعيل يعتذرُ إليه (٤) : سوءُ الأَدب من سكر الندب ، وسكر الغضب من الكبائر التى تَنالُها المَغْفِرَة ، وتَسَعُها المَعْذِرَة ، وقد جرى بحَضْرةِ الشيخ ما جَرَى ، وقد أَفْنَيْت يدى عضًّا ، وأسنانى رَضًّا ، وإن لم أوف ماجَرَى فالعُذْرُ أَمدّ خطا ، فإنْ كان بساطاً يطوى ، وحديثا لا يُرْوَى فأولى مَن عذَرَ اللاّعب ، وأَحْرَى من غَفَر الصاحب؛ وإن كان ميتا يُنْشَر ، وسببا يُذْكَر ، فليَكن العقابُ ماكان ، إن لم يكن الهجران ، على أنى قد أَخذت قِسْطِى من العقاب واستَفَدْت من ردِّ الجواب ما كفى وأَوْجَعْ القَفَا ؛ فكان من مُوجب أدب الخِدْمَة إبقاءُ الحِشمة لولىّ النعمة ، باحتمال الشَّتْم ، والإغضاء عن الخَصْم ، لكنى أَحْدَقَتْ بى ثلاثة أحوال لا يَسْلَمُ صاحبها : اللعب وسكره ، والخصم وهُجْره ، والإدلال والثقة ، وهى اللواتى حملتنى على ماء الوَجْهِ فهرَقْتُه ، وحجابِ الحشمة نخرَقْتُه ، وقد منعنى الآن فَرْطُ الحياء من وَشْكِ اللقاء ، وعَهْدِى بوجهى وهو أَصْفَقُ من العُدم الذى حملنى على جَهْلِه ، وأَوْقَحُ من الدهر الذى أَحوجنى إلى أهله ؛ لكن النعم إذا توالَتْ على وَجْهٍ رقَّقت قِشْرَته ، وألاَنت بَشَرته ؛ وأنا منتظرٌ من الجواب ما يريش

(١) ديوانه ١ـ٢٥٨ .
(٢) فى الأصل : رعب بالعين المهملة .
(٣) فى الديوان : اطلاع .
(٤) الرسائل : ١١٧ .

جَنَاحِى إلى خِدْمَته ؛ فإنْ رأى أن يكتب فعل إن شاء الله .

رسالته إلى ابن مشكويه

وله رقعة إلى أبى على بن مشكويه أولها (١) :

ويا عزّ إن وَاشٍ وَشَى بِىَ عندكم فلا تُمْهِلِيهِ أَنْ تَقُولِى له مَهْلا

كما لو وَشَى واشٍ بعزَّةَ عندنا لقلنا تزحزح لا قريبا ولا أهلا

بلغنى أطال اللهُ بقاءَ الشيخ أن قِيضَة (٢) كَلْب وافَته بأحاديث لم يُعِرْها الحقُّ نورَه ، ولا الصدقُ ظهورَه ، وأنه ـ أدام الله عزّه ـ أذن لها على مجال أُذنه ، وفسح لها فِناء ظنِّه، ومعاذ الله أن أقولها ، واستجيز معقولها؛ بل قد كان بينى وبين الشيخ عِتَابٌ لا ينزل كَنَفه ولا يجدف ، وحديث لا يتعدّى النفسَ وضميرها ، ولا يعرف الشفة وسَميرها ، وعرْبدة كعَرْبَدَة أَهْل الفضل (٣) ، لا تتجاوزُ الدّلال والإدلال ، ووحشة لا يكشفها عتابُ لَحْظة، كعتاب جَحْظة، فسبحان مَنْ رَبّى هذا الأمرَ حتى صار أمراً ، وتأبّط شرًّا ، وأَوْجَب عُذْراً ، وأوحش حُرًّا . وسبحان مَنْ جعلنى فى حَيِّزِ (٤) العدو أشِيم بَارِقَته ، وأتخوّف صاعِقَته ، وأَنا المُسَاءُ إليه ، والمجنىُّ عليه ، ولـكن من بُلى من الأعداء بمثل ما بُليت ، ورُمى من الحسد بما رُميت ، ووقف من التوحّد والوحدة حيث وقَفْت ، واجتمع عليه من المـكارِهِ ماوصَفْت ، اعتذر مظلوما، وضَحِك مشتوما ، ولو علم الشيخُ عددَ أولاد الجدد ، وأبناء العدد ، بهذا البلد ، ممن ليس له همٌّ إلا فى سعاية أو شكاية أو حكاية أو نكاية ، لضنَّ بِعِشْرَة غريب إذا بدر ، وبعيد إذا حضر، ولصَانَ مجلسه عمن لايَصُونُه عما رقى إليه ، وهَبْنى قد قلت ماحكى ، أليس الشاتم من أسْمع ، والجانِى مَنْ أبلغ ؟ فقد بلغ مِنْ كيد هؤلاء القوم أنهم حين صادفوا من الأستاذ نفسا لا تُستفزّ ، وجبلا لا يهزّ ، وشَوْا إلى خدمه بما أرّثوا نارهم ، وورد علىّ ما قالوه فما لبثت أن قلت :

فإن تَكُ حربٌ بين قومى وقومها فإنى لها فى كلِّ نائبة سِلْمُ

---

(١) الرسائل : ١٠٠ . (٢) القيضة : القطعة من العظم الصغيرة .

(٣) العربدة : سوء الخلق . (٤) فى الرسائل : جنب .

وليعلم الأستاذ أنَّ فى كبد الأعداء منى جَمْرة ، وأنَّ فى أولاد الزنا عندنا كَثْرة ، وقُصاراهم نارٌ يشبُّونَها ، وعقرب يُدَبِّبُونَها ، ومَكِيدة يَطْلُبونها ، ولولا أن العذْرَ إقرار بما قيل ، وأكره أن أستقيل ، لبسطتُ فى الاعتذار شاذرْوانا ، ودخلت فى الاستقالة مَيْدانا ، لكنه أمرٌ لم أضعْ أوّله ، فلم أتَدارَكْ آخره .

وقد أبى الشيخ أبو محمد ـ أيده الله ـ إلا أن يوصل هذا النثر الفاتر بنظم مثله فها كه يلعن بعضه بعضا :

مولاى إنْ عدتُ ولم ترض لى ... أَنْ أشرب البارِدَ لم أَشْرَبِ
امتطِ خدى وانْتَعِل ناظرى ... وصِدْ بكفى حُمةَ العَقْربِ
تالله ما أنْطِقُ عن كاذبٍ ... فيك ولا أبرُقُ عَنْ خُلَّبِ
فالصفوُ بعد الكذب المفترَى ... كالصّحو عقْبَ المَطَرِ الصَّيِّبِ[1]
إن أجْتَنِ الغلطَةَ من سيدى ... فالشوكُ عند الثمر الطيب
أو يفسد الزَّوْر على نَاقد ... فالخمر قد يعصب بالثيّب[2]

ولعل الشيخ أبا محمد ـ أيده الله ـ يقوم من الاعتذار بما قعد عنه القلمُ واللسان؛ فنعم رائد الفضل هو ، والسلام .

فِقر من كلام سهل بن هرون للمأمون

كان المأمون استَثْقَل سَهْلَ بن هرون ، فدخل عليه يوماً ، والناسُ على مَراتبهم، فتكلّم المأمون بكلام ذَهب فيه كلَّ مذهب ؛ فلما فرغ من كلامه أقبل سهلُ بن هرون على الجَمْع فقال : مالكم تسمعون ولا تَعُون ، وتشاهدون ولا تَفْقَهون ، وتفهمون ولا تتعجَّبون ، وتتعجَّبون ولا تُنْصفون ؟ والله إنه ليقولُ ويفعلُ فى اليوم القصير ما فعل بنو مروان فى الدهرِ الطويل ، عَرَبُكم كعجمكم ، وعَجَمُكم كعبيدكم[3] ، ولكن كيف يَعْرِف الدواء من لايشعر بالداء ؟ فرجع المأمونُ فيه إلى الرأى الأول .

---

(١) الصيب : المنصب . (٢) ليس هذا البيت فى ا . (٣) فى ا : كعجمهم .. كعبيدهم .

سهل بن هارون

وكان أبو عمرو سهل بن هرون من أهل مَيْسان[١] نزل البصرة فنُسِب إليها ، وهو القائل:

يأهل مَيْسان السلام عليـ ـكم الطيبون الفرع والجِذْمُ[٢]
أما الوجوهُ ففِضَّةٌ مُزِجَت ذهبا وأيد سَحَّةٌ هُضُمُ[٣]
أتُرِيدُ كَلْبٌ أن أُناسبها قد قلّ من كَلْب بى العِـلْمُ
اجملت بيتا فوق رابيــة فرع النّجوم كأنه نَجْمُ
كَبُيَيْتِ شَعر وسط مجهلة بفنائه الجِعْلانُ والبَهْمُ[٤]

وكان سهل شعوبيا ، والشعوبية فِرْقَةٌ تتعصب على العرب وتنتقصُها ، وكان أبو عبيدة يرمى بذلك .

وسهل ظريفٌ عالم حسَنُ البيـان ، وله كتب ظريفة صنّفها معارضاً للأوائل فى كتبهم بما لا يستَصْوبه منهم[٥] حتى قيل له بزرجمهر الإسلام . وقال يمدح رجلا :

بعض شعره

عدوٌّ تِلادِ المال فيما يَنُوبهُ مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أحْزَما
مذالل نفس قد أَبَتْ غير أنْ تَرَى مَكارِهَ ما تأْتِى من العيش مَغْنَما

وهـذا نظير قوله فى كتاب ثَعْلَة وعُفرة الذى عارض به كليلة ودمنة : اجملوا أَداءَ ما يَجِـبُ عليكم من الحقوق مقدّما قبل الذى تجودون به من تفضُّلـكم ؛ فإن تَقْدِيمَ النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظاهِر على وَهَنِ العقيدة[٦] ، وتقصير الرويّة ، ومُضِرٌّ بالتدبير ، مخلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفع محمدتِه عِوَض من فساد المروءة ولزوم النقيصة . وكتابه هذا مملوء حكما وعلما . وسهل القائل :

تقسَّمنى هَمَّانِ قد كسفا بالى وقد تركا قَلْبى محــلة بَلْبَالِ
هما أَذْرِيَا دَمْعِى ولم تدر عَبْرَتِى رهينة[٧] خِدْرٍ ذات سمط وخَلْخَالِ

---

(١) كورة بين البصرة وواسط . (٢) الجذم : الأصل .
(٣) يد هضوم : تجود بما لديها ، وجمعه هضم مثل كتب . (٤) الجعل : دويبة ، البهم : أولاد الضأن والمعز والبقر. (٥) فى ا : لا يقصر بعنهم (٦) فى ا : العقدة. (٧) فى ا :ربيبة.

ولا قهوة لم يَبْقَ منها على المدى ... سوى أن تحاكى النور فى رأس ذيال
تحلَّل منهـا جِرمها وتماسكت ... لها نَفْسُ معدوم على الزمن الخالى
ولكنما أبكى بعَيْنٍ سخينـــة ... على حدَث تبكى له عَيْنُ أمثالى
فراق خليل لا يقوم به الأسى ... وخَلَّة حرٍّ لا يَقُوم لهـا مالى
فواحسرتى حتى متى القلب مُوجَع ... لفَقْد خليل أو تعَـذُّرِ إفضـال
وما الفَضْلُ إلا أنْ تجـودَ بنائلٍ ... وإلا لقاء الخلّ ذى الخلق العـالى

وهو القائل :

إذا امرؤٌ ضاق عنى لم يَضِق خلقى ... من أنْ يرانى غنيًّا عنه باليَأسِ
لا أطلبُ المال كى أغْـنَى بفضلته ... ما كان مَطْلَبُه فَقْراً إلى الناس

وأنشد له الجاحظ يهجو رجلا :

من كان يَعْمُرُ ما شادَتْ أوائلُه ... فأنتَ تَعْمُر ما شادُوا وما سَمَـكُوا[1]
ما كان فى الحق أن تحوى فعالُهم ... وأنت تَحْـوِى من الميراثِ ما تركوا

من نثره

وقال محمد بن زياد الزيادى: وجَدْتُ[2] على سهل بن هرون فى بعض الأمر فهجوته فـكتب إلىّ : أما بعد فالسلامُ على عهدكَ وداعَ ذى ضَنّ بك ، فى غير مَقْلِيَةٍ[3] لك، ولا سَلْوَة عنك ، بل استسلامٌ للبَلْوَى فى أمرك ، وإقْرَار بالمعجزة فى استعطافك ، إلى أوان فيئتك[4] ، أو يجعل الله لنا دَولة من رجعتك ، والسلام .

وكتب فى أسفل الـكتاب :

إنْ تَعْفُ عن عبدكَ المسىء ففى ... عفوك مأْوًى للفضـل والمِنَنِ
أُتيتُ ما أستحقّ من خَطأ ... فجُدْ بما تستحق[5] من حسنٍ

للحسن البصرى فى يوم فطر

وقال الحسن البصرى رحمه الله فى يوم [فطر][6] وقد رأى الناسَ وهيآتِهم : إنّ اللهَ تباركَ وتعالى جعل رمضان مضماراً لخَلْقِه ، يستَبِقُون فيه بطاعته إلى مَرْضَاته ، فسبَقَ قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابُوا فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويَخْسرُ فيـه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومُسِىء بإساءته .

(١) سمكوا : رفعوا .   (٢) وجد عليه : غضب .   (٣) مقلية : بغض .
(٤) فى ط : بينك .   (٥) فى ا : أستحق .   (٦) من ا .

ونظر إلى قوم منصرفين من صلاة الفِطْر يتدافعون ويتضاحكون ، فقال : الله المستعان ! إن كان هؤلاء قد تقرّر عندهم أنّ صومهم قد تُقُبِّل فما هذا محلُّ الشاكرين، وإن علموا أنه لم يتقبل فما هذا محلُّ الخائبين .

وكان الحسن من الخطباء النّساك الفقهاء الأجواد، ويقال: إنه لم يكن تابعيٌّ أفضل منه. هذا قول أهل العراق جميعا ، وأهلُ الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه ، وكان سعيد أحسن من الحسن وَرَعا ، وأشدّ الناس حَذَرا ، وأقلهم كلاما . وكان الحسن لا يَدع أن يتكلّم بما هَجَس فى نفسه ، وجَاشَ فى صدرِه .

وعلى ذكر الحسن شهر رمضان [نقول][1] :

ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بإقبال شهر رمضان مع ما يتصل بها من الأدعية

ساق اللهُ تعالى إليكَ سعادةَ إهلاله ، وعرّفك بَركة كماله . قسم اللهُ لك من فَضْلِه ، ووفَّقك لفَرْضِه ونَفْلِه . لقّاكَ الله ما ترجوه ، ورقاكَ إلى ما تحبُّه فيما تَتْـلوه. جعل اللهُ ما أظلَّكَ من هذا الصوم مقرونا بأفضَلِ القبـول ، مُؤْذِنا بدرك البُغْيَةِ ونجح المأمول ، ولا أَخْلاَكَ من برٍّ مرفوع ، ودعاء مسموع . قابل الله تعالى بالقبول صيامَك ، وبعظيم المَثُوبة تهجُّدكَ وقيامك . عرَّفك الله من بركاته ما يُرْبِى على عدد الصائمين والقائمين ، ووفَّقك اللهُ تعالى لتحصيل أَجْرِ المتهجّدين . أسأل اللهَ تعالى أن يضاعِفَه بمنه لك ، ويجعله وسيلة بقبوله إلى مَرْضاته عنك . أعاد اللهُ إلى مولاى أمثاله ، وتقبَّـل فيه أعماله ، وأصلح فى الدين والدنيا أحواله ، وبلّغه منها آماله . أَسعده الله بهذا الشهر ، ووفاه فيه أجزل المَثُوبة والأجر ، ووفّر حظَّه من كل ما يرتفع من دُعاءِ الدَّاعِين ، وينزل من ثواب العاملين ، وقبل مساعيه وزَكاها ، ورفع درجاته وأعلاها ، وبلَّغَه من الآمال مُنْتهاها ، وظَفِر بأبعدها وأقصاها .

من نثر الحسن

وقال الحسن : من أخلاق المؤمن قوةٌ فى دين ، وحَزْمٌ فى لين ، وحِرْص على العلم ، وقناعة فى فَقْر[2] ، ورحمة للمَجْهود ، وإعطاء فى حق ، وبرٌّ فى استقامة ، وفِقْهٌ فى يقين ، وكسب فى حلال .

وقال محمد بن سليمان لابن السماك : بلغنى عنك شىء . قال : لا أُباليه ! قال :

---

(١) ليست فى ا (٢) فى ا : فاقة .

ولِمَ؟ قال : لأنه إن كان حقًّا غفرته ، وإن كان باطلا كذبته .

لابن السماك

وقال محمد بن صُبَيح المعروف بابن السماك : خيرُ الإخوان أقلُّهم مصانعة في النصيحة، وخيرُ الأعمال أحلاها عاقبة، وخيرُ الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرف السلطان ما لم يخالطه البَطَر ، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحِرْص أسيرا ، وخيرُ الإخوان من لم يخاصم، وخيرُ الأخلاق أعونها على الورع . وإنما يختبر وُدُّ[1] الرجال عند الفاقة والحاجة.

وصف رجل لبعض البلغاء

ووصف بعضُ البلغاء رجلا فقال : إنه بسيط الكف ، رَحْب الصَّدْرِ ، موطَّأُ الأكناف ، سَهْل الخلق ، كريم الطباع ، غَيْثٌ مُغِيث ، وبَحْرٌ زخور ، ضَحُوك السنّ ، بشير الوَجْهِ ، بادي القبول ، غير عَبُوس ، يستقبلك بطلاقةٍ ، ويحيِّيك[2] ببِشْرٍ ، ويَسْتَدِرُّك بكرم غَيْب ، وجميل سرّ . تبهجك طَلاَقَتُه ، ويرضيك بِشْرُه ، ضَحَّاك على مائدته، عَبْدٌ لضِيفانه، غيرُ ملاحظ لأكيله[3] ، بَطِينٌ[4] من العقل، خَمِيص من الجهل ، راجح الحِلْم، ثاقب الرَّأى ، طيِّب الخلق ، محصّن الضريبة[5] ، مِعْطاء غير سائل ، كاسٍ من كل مَكْرُمة، عارٍ من كلِّ ملامة ، إن سُئِل بذَل ، وإن قال فَعل.

ولكشاجم

قال أبو الفتح كشاجم :

مزاجك لِلْمَثْنَى من العودِ والصِّبا	من الرِّيح والصافِي الرقيقِ من الخَمْرِ
فلو كنت وَرْداً كنت وَرْداً مُضاعَفا	ولو كنت طِيبا كنت من عَنْبَر الشِّحْر[6]
ولو كنت لَحْناً كنتَ تأليف مَعْبَدٍ	ولو كنت عُوداً ما افتقرتَ إلى زَمْرِ

ولأعرابي

وقال أعرابي :

ألا حبَّذا البُرْدُ الذى تَلْبَسِينهُ	وياحبذا مَنْ باعكِ البُرْدَ من تَجْرِ[7]
فلو كنت ماءً كنت ماءَ غمامةٍ	ولو كنت درًّا كنت من دُرَّةٍ بِكْرِ
ولو كنت لَهْوًا كنت تَعْليل ساعةٍ	ولو كنت نَوْمًا كنت إغفاءةَ الفَجْرِ
ولو كنت لَيْلًا كنت قَمْرَاء جُنِّبَتْ	نحُوسَ ليَالِى الشَّهْرِ أو ليلة القَدْرِ

﴿ تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثانى ، وفيه الفهارس العامة للكتاب ﴾

(١) فى ط : ذل . (٢) فى ا : ويحبوك . (٣) الأكيل : الآكل . (٤) فى ا : ريان من العقل . (٥) الضريبة : الطبيعة . (٦) فى ط : البحر . (٧) التجر بالفتح جمع تاجر .

زهر الآداب

وثمر الألباب

لأبي إسحاق ابراهيم بن على الحُصْري القَيْرَواني

الجزء الثاني

عارضه بمخطوطات القاهرة وحقّقه وضبطه
وشرحه ووضع فهارسه
على محمد البجاوي

الطبعة الأولى
[١٣٧٢هـ — ١٩٥٣م]

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه



الجزء الثاني

عارضه بمخطوطات القاهرة وحقّقه وضبطه
وشرحه ووضع فهارسه
على محمد البجاوى

الطبعة الأولى
[١٣٧٢هـ — ١٩٥٣م]

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذ من ألفاظ بلغاء أهل العصر

تجرى فى المدح مجرى الأمثال لحسن استعارتها ، وبراعة تشبيهاتها

فلان مسترضَع ثَدْىَ المجد ، مُفْتَرِشٌ حِجْرَ الفضل . له صَدْرٌ تَضيق به الدَّهْناء ، وتَفْزَع إليه الدَّهْمَاء . له فى كل مكرمة غُرَّة الإصباح [1] ، وفى كل فضيلة قادِمَةُ الجَنَاح . له صورة تستنطق الأَفْوَاهَ بالتسبيح ، ويتَرَقْرَقُ فيها ماء الكرم ، وتقرأُ فيها صحيفةَ حُسْنِ البشر . تحيا القلوب بلقائه ، قبل أن يُميتَ الفقر بعطائه . له خُلُقٌ لو مُزِج به البحرُ لنفى مُلُوحَتَه ، وكفى كدورته . هو غذاء الحياة ، ونسيم العشق ، ومادَّة الفَضْل . آراؤُه سكاكين فى مفاصل الخُطوب . له هِمَّةٌ تعزل السماكَ الأَعْزَل ، وتجرّ ذَيْلَها على المجرة . هو راجحٌ فى موازين العَقْل ، سابقٌ فى ميادين الفَضْلِ ، يَفْتَرِع أبكارَ المكارم ، ويرْفَع مَنارَ المحاسن . ينابيع الجود تتفجَّر من أنامله ، وربيعُ السماء [2] يَضْحَكُ من فوَاضِله . هو بيتُ القصيدة ، وأول الجَرِيدة [3] ، وعَيْن الكتيبة ، وواسطة القِلَادة ، وإنسانُ الحدَقة ، ودُرَّة التاج ، ونقش الفصّ ! وهو مِلح الأرض ، ودِرْع المِلّة ، ولسان الشريعة ، وحِصْنُ الأمة . هو غُرّة الدّهر والزمان ، وناظر الإيمان . له أخلاقٌ خُلِقْنَ من الفَضْل ، وشِيَمٌ تُشَام منها بَوَارِقُ المَجْد . أرِج الزمانُ بفضْلِه ، وعَقِمَ النساء عن الإتيان [4] بمثله . الجميلُ لديه مُعْتَاد ، والفَضْلُ منه مبدوء ومُعَاد ، مالُهُ للعُفَاة مُبَاح ، وفعالُه فى ظلمة الدهر مِصْبَاح ، كأن قلبَه عَيْن ، وكأنَّ جسمه سَمْع ، يرى بأوَّل رَأْيه آخرَ الأمر . جوهرٌ من جواهر

---

(١) فى ا : الأوضاح . (٢) فى ا : السماك . (٣) الجريدة : المراد الصحيفة ، أو هى الخيل لا رجالة فيها . (٤) فى ا : عن مثله .

الشرف لا من جواهر الصَّدَف ، وياقوتة من يواقيت الأحرار لا يواقيت الأحجار. طلعتُه للبشاشة [1] عليها ديباجة خُسْرُوَانية [2]، وفيها للطلاقة روضة رَبيعية . وَجْهٌ كأن بشرته نشر [3] البِشْر ، ومواجهته أمانٌ من الدَّهر . يصل ببشره قبل أنْ يَصِلَ ببرِّه . قد لحظت من وجهه الأنوار ، ومن بَنَانِه النّوار. أنا من كرم عشرته ، وطلاقة أسرَّته ، فى روضةٍ وغدير ، وجنَّةٍ وحرير ، وهو بَحْرٌ من العلم ممدود بسبعة أبحر ، ويومُه من يوم الأدب كعمر سبعة أنسر . العلم حَشْوُ ثيابه ، والأدب مِلْءُ إهَابه . هو شَخْصُ الأدب ماثلا ، ولسانُ العلم قائلا ، شَجَرة فَضْلٍ عودُها أدب ، وأغصانها عِلْم ، وثمرتها عَقْل ، وعروقها سَرْوٌ ، تسقيها سماءُ الحريَّةِ ، وتغذِّيها أرضُ المروءة. هم ملح الأرض إذا فسدت ، وعمارةُ الأرض إذا خَرِبت، ومعرض الأيام إذا احتشدَتْ ؛ وهم جمالُ الأيام، وخواصُّ الأنام، وفرسان الكلام، وفلاسفة الإسلام. فلان غُصْنٌ طَبْعُه نَضير ، ليس له فى مَجْدِه نظير ، قد جمع الحِفْظَ الغزير ، والفَهْمَ الصحيح، والأدب القوىّ القويم ، وما يُؤْنِسُه من الوَحْشَةِ إلا الدفاتر ، ولا يَصْحَبه فى الوَحْدَةِ إلاّ المحابر . فلان يحلُّ دقائقَ الأشكال ، ويُزِيل معترض الإشكال ، له خُلُق كنسيم الأسْحَار ، على صفحات الأنوار، كالماء صَفَاءً ، والمسك ذكاءً . أخلاق قدجمعت المروءةُ أطرافَها، وحرست الحرية أكْنافَها . أخلاق تجمع الأهواءَ المتفرّقة على محبته ، وتؤلّف الآراء المتشتّتة على مودَّتِه . أخلاق أعذبُ من ماء الغَمام ، وأحلى من رِيق النّحل ، وأطيب من زَمان الوَرْد . أخلاق أحسن من الدرّ والعِقْيَان ، فى نحور الحِسَان ، وأذْكى من حركات الروحِ والرَّيحان . فلان يستحطّ القمر [4] بطَرْفِه ، ويستنزل النّجم بلُطْفه [5] . هو حُلْوُ المَذَاق ، سهل المَساغ ، أجمل الناس فى جدّ ، وأحلاهم فى هَزْل ، يتصرَّفُ مع القلوب ، كتصرُّفِ السحاب مع الجنوب، ذو جِد كعُلوّ الجدّ ، وهَزْل كحديقة الوَرْدِ ، له عِشْرَة ماؤها يقطر ، وصَحْوُها من

---

(١) فى ا : طلعة المشاشة عليها . (٢) الخسروانى : نوع من الثياب .

(٣) فى ا : بشر . (٤) فى ا : العصم . (٥) فى ا : بلفظه .

الغَضَارة[1] يعطر . هو رَيْحَانة على القَدَح ، وذريعة إلى الفَرَح . عشرته أَلْطَفُ من نسيم الشمال ، على أديم الزّلال ، وأَلْصَقُ بالقلب ، من علائق الحب . إذا أردت فهو سُبْحَة ناسك ، أَو أحببت فهو تُفَّاحة فاتك ، أو اقترحتَ[2] فهو مدرعة[3] راهب ، أو آثرت فهو تحية[4] شارب . أَخباره زكيّة ، وآثاره ذَكية . أَخباره تأتينا كما وَشَى بالمسك رَيّاه ، ونَمّ على الصباح مُحَيَّاه ، قد انتشر من طيب أخباره ما زاد على المسك الفَتِيق ، وأَوْفَى على الزّهْرِ الأَنِيق . مناقب تَشْدَخ[5] فى جبينها غُرَّة الصباح ، وتتهادى أنباءَها وفودُ الرياح . فلان أخبارُه آثاره ، وعينه قراره ، قد حصل له من حَميد الذكر ، وجميل النَّشْرِ ، مالا تزال الرواةُ تدرسه ، والتواريخ تحرسه . سألت عن أخباره فكأنى حرّكت المسك فتيقا ، أو صبّحت الروض أنيقا . أخباره متضوعة كتضوّع المِسْك الأذفر ، ومُشْرقة إشراقَ الفجر الأَنْور . أَحبَبْتُه[6] بالخبر قبل الأثر ، وبالوصف قبل الكَشْف . هو ممن يثقل ميزانُ ودّه ، ويُحْصف ميثاق عَهْدِه . هو كريم العهد ، صحيح العَقد ، سليم الصَّدْر فى الودّ ، حميد الوِرد فيه والصدَر . هو لإخوانه عُدّة تشدّهم وتقوّيهم ، ونورٌ يسعى بين أيديهم . هو ثابتُ ركن الإخاء ، صافى شِرْب الوَفاء ، حافظٌ على الغيب ما يحفظه على اللقاء . هو ممن لا تدومُ المُداهنة فى عَرصاتِ قَلْبه ، ولا تحوم المُوَاربة على جنبات صدره . هو يَسْرِى إلى كرم العهد ، فى ضياء من الرّشد . عهده نَقْشٌ فى صَخْر ، ووده نَسَبٌ ملآن من فخر . يقبلُ من إخوانه العَفْوَ ، كما يوليهم من إحسانه الصَّفْو . فى وُدّه غِنى للطالب ، وكفاية للرّاغب ، ومَرَادٌ للصَّحْب ، وَزادٌ للركب ، هو فى حَبْلِ الوفاء حاطِب ، وعلى فرض الإخاء مواظب ، النُّجْح معقودٌ فى نواصى آرائه ، واليُمْنُ معتاد فى مذاهب أنحائه . له الرَّأْىُ الثاقب الذى تَخْفَى مَكايده ، وتَظْهَر عوائده ، والتدبيرُ النافذ الذى تَنْجَعُ مَبَاديه ، وتبهج تَوَاليه . رَأْىٌ كالسَّهْم أصاب غِرَّة الهَدَفِ ، ودهاء

(١) الغضارة : النعمة . (٢) فى ا : اقترعت . (٣) فى ط : مدركة .
(٤) فى ط : تحية . (٥) الشدخ : الكسر . (٦) فى ا : أحييتها .

كالبحر فى بُعْد الغَوْر، وقُرْب المغترف ، لايضعُ رَأيه إلا مواضع الأصالة ، ولايصرف تدبيره إلّا على مواقع السداد والإصابة ، يعرفُ من مبادئ الأقوالِ خواتم الأفعال ، ومن صدور الأمور أعجاز مافى الصدور ، رُؤْيته رَأْى صَلِيت ، وبديهته قدر مصيب ، يسافرُ رَأْيه وهو دَانٍ لم يبرح ، ويسير تدبيره وهو ثَاوٍ لم ينزح . له رأىٌ لا يخطىء شَاكِلَةَ الصَّـوَابِ ، [ولا يخشى بادرة العِثَار . فلان يخمّر الرأْىَ ويُحيله ، ويجيد الفكر ويجيله ، حتى يحصل على لب الصواب][1] ، ومحض الرأى . إذا أذكى سراج الفكر أَضاء ظلامَ الأمر . هو قطب صَواب تَدُورُ به الأمور ، ومستنبط صلاح يردُّ إليه التدبير ، يرى العواقبَ فى مرآة عقله ، وبصيرةِ ذكائه وفَضْله ، وله رَأْىٌ يردُّ الخَطْبَ مُصَلّما ، والرمح مقلما ، [آراؤه سكاكين فى مفاصل الخطوب][1] ، كأنه ينظرُ إلى الغيب من وراء سِتْرٍ رقيق ، ويطالعه بعَيْنِ السَّداد والتوفيق . يستنبطُ حقائقَ القلوب ، ويستخرج ودائع الغيوب ، قد سرينا من مشورته فى ضياء ساطع ، ومن رأيه الصائب فى حُكم قَاطع .

نبذ من مفردات الأبيات فى فرائد المدح

أبو نواس :

وكَلْت بالدهر عيناً غَـيْرَ نائمةٍ ... من جُودِ كفيك[2] تَأْسُو كلّما جَرَحا

الطائى :

فلو صوَّرتَ نفسَك لم تَزِدْها ... على ما فيك من كَرَمِ الطبـاعِ

البحترى :

ولو لم يكن فى كفِّه غيرُ نفسهِ ... لجاد بهـا ، فلْيتّقِ اللهَ سائلُه

وله :

ولم أر أمثـالَ الرجالِ تفاوتوا ... لدى المجد[3] حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

---

(١) من ا . (٢) فى ا : كفك . (٣) فى ا : إلى المجد .

كشاجم :

عرف الفاضلون فضلك بالعلـ ـم وقال الجُهّال بالتقليـدِ

المتنبي :

شخص الأنام إلى كمالك فاستَعِذْ من شرِّ أعينهم بعَيْبٍ واحـدِ

وله[1] :

وإنّما رأيت النـاسَ دون محلّهِ تيقّنت أنّ الدهرَ للنـاسِ ناقد

وله أيضاً[2] :

إن خوطبوا أو لُقُوا أو كوتِبوا وُجِدوا في اللفظ والخطِّ والهيجاء فُرْسانا

وله أيضاً[3] :

ذُكِرَ الأنامُ لنا فكان قصيدةً كنتَ البديعَ الفَرْدَ في أبياتِها

أبو العباس الناشئ :

خلِقْت كما أرادَتْك المعـالى فأنْتَ لِمَنْ رجاك كما يُريد

المأموني :

وخلائق كالخمـــر دُونَ فعالهِ حَبَبٌ لهن وما لهنّ خُمارُ[4]

[مع بعض الخلفاء والملوك والحكماء والأمراء]

الموصلي والهادي

وقال إبراهيم الموصلي لموسَى الهادي ، وهو نديمُه وقد غنّاه صوتاً فأعجبه : إنَّ مَنْ كان محلّه من أمـير المؤمنين مَحَلّى في الانبساط وتَقَدُّم النِّدام[5] جرَّأه البَسْطُ على الطلب ، وبعثَتْه المنادمةُ على الرجاء ، وقد نصَب لى أميرُ المؤمنين بقُربى منـه مَشارِعَ الرغبةإليه ، وحثّنى محلّىعنده على الكُرُوع فى المَنْهَلِ بين يديه . فقال : سَلْ

(١) ديوانه : ١ـ٢٧٢ . (٢) ديوانه ٤ ـ ٢٢٧ وروايته :
إن كوتبوا أو لقوا أو حوربوا ... (٣) ديوانه ١ ـ ٢٣٥ .
(٤) الخمار بالضم : ألم الخمر ، وصداعهاوأذاها .
(٥) فى ط : المنادمة ، والندام : الندماء.

شِفَاها، فإنى جاعلٌ فِعْلى عن إجابتك إليه حاضراً . فسأله ماقيمته خمسون ألف درهم؛ فأمر له بمائة ألف درهم .

الإسكندر ودارا

ولما ظَفِر الإسكندرُ بدارا بن دارا قال له : بِمَ اجترأ عليك[1] صاحبُ شُرطتك؟ قال : بتَرْكِى ترهيبه وَقْتَ إساءتِه وتفريطِه ، وإعطائه[2] وَقْتَ الإحسانِ اليسيرِ من فعله نهايةَ رغبته . فقال الإسكندر : نِعْمَ العونُ على استصلاح القلوب الموغَرَةِ الترغيبُ بالأموال ، وأصلح منه عاجلا الترهيبُ وقت الحاجة إليه .

بعض ملوك الفرس مع حكيم

وقال الحسنُ بن سهل: خرج بعضُ ملوكِ الفرس متنزِّهاً ، فلقى بعضَ الحكماء ، فسأله عن أَحزم الملوك ، فقال : من ملك جدُّه هَزْله ، وقهر لبُّه هَوَاه ، وأَعرب لسانه عن ضميره ، ولم يَخْدَعْه رِضاه عن سخطه ، ولا غضبُه عن صدقه . فقال الملك : لا ، بل أَحزمُ الملوكِ من إذا جاع أَكل ، وإذا عطش شرب ، وإذا تعب استراح . فقال الحكيم : أيها الملك ، قد أَجَدْتَ الفِطْنَة . هذا العلم مستفاد أَم غريزى ؟ قال: كان[3] عندنا معلِّم من حكماء الهند ، وكان هذا نقشَ خاتمه . قال : فهل علَّمك غير هذا ؟ قال: ومِنْ أين يوجَدُ مثل هذا عند رجل واحدٍ ؟ ثم قال له الملكُ : علّمنى من حكمتك أيُّها الحكيم . قال : نعم ، احفَظْ عنى ثلاثَ كلمات . قال : ماهنّ ؟ قال : صَقْلُك السيفَ ليس له جوهرٌ من سِنْخِه خَطَأٌ[4] ، وصبّك[5] الحَبَّ فى الأَرضِ السَّبِخَة ترجُو نباته جَهْلٌ ، وحَمْلك المسنّ على الرياضة عناء . قال أبو تمّام الطائى[6] :

والسيفُ مالم يلفَ فيهِ صقيلٌ   مِنْ سِنْخه لم ينتفِعْ بصِقالِ

بعض الحكماء

وقيل لبعض الحكماء : ما الدليل الناصح ؟ قال : غريزة الطبع . قيل : ما القائدُ المشفِق ؟ قال : حسن المنطق . قيل : فما العناء المُعَنِّى ؟ قال : تطبيعك مالا طبعَ له .

أنو شروان

وكان أنو شروان يقول : النـاس ثلاث طبقات ، تسوسهم ثلاث سياسات :

---

(١) فى ا : على .   (٢) فى ا : وإعطائى .   (٣) فى ا : كان لى .

(٤) السنخ: الأصل .   (٥) فى ا : وبثك .   (٦) ديوانه: ٢٦٥ .

[طبقة من خاصة الأحرار تسوسُهم بالعَطْفِ واللّين والإحسان ، و][1] طبقة من خاصة الأشرار تسوسُهم بالغِلْظَة والعُنْف والشدّة ، وطبقة من العامة تسوسهم باللين والشدة ، لئلا تُحْرِجهم الشدَّة ، ولا يُبْطِرَهم اللّين . وقال واصل بن عَطَاء : ألا قاتلَ اللهُ هذه السفلة توادُّ مَنْ حَادَّ اللهَ ونبيّه ، وتحادُّ من وَادَّ اللهَ ونبيَّه ، وتذمّ مَن مدحه الله ، وتمدح من ذمّه الله ؛ على أنه بهم علم الفضل لأهل الطبقة العالية ، وبهم أُعطِيت الأوساط حظًّا من النّيل. وقيل لبعض الملوك ، [وقد بلغ فى القدر مالم يبلغه أحد من ملوكِ زمانه][1] : ما الذى بلغ بكَ هذه المنزلة ؟ قال : عَفْوى عند قدرتى ، ولِينى عند شِدَّتى ، وبَذْلى الإنصاف ولو من نفسى ، وإبقائى فى الحب والبغض مكاناً لموضع الاستبدال .

الإسكندر وأحد الحكماء

وقال الإسكندر لأحد الحكماء ، وأراد سفراً : أَرْشِدْنِى لأَحزم أَمرى . قال : لا تملأنّ قلبك من محبَّةِ الشىء ، ولا يستولينّ عليك بغضه ، واجعلهما قَصْداً ؛ فإنَّ القلبَ كاسْمِه ينزع[2] ويرجع ، واجعل وزيرَكَ التثبت ، وسَمِيرَكَ التيقّظ ، ولا تُقْدِم إلّا بعد المشورة ؛ فإنها نِعْمَ الدليل، فإذا فعلتَ ذلك ملكت قلوب رعيّتِك .

وقيل لبعض الحكماء : ما الحزم ؟ قال : سوء الظن . قيل : فما الصواب ؟ قال : المشورة . قيل : فما الرأْىُ الذى يجمعُ القلوب على المودّة[3] ؟ قال : كفٌّ بذول ، وبشر جميل . قيل : فما الاحتياط ؟ قال : الاقتصاد فى الحبّ والبغض .

بزرجمهر

وسُئل بزرجمهر : ما المروءةُ ؟ قال : تَرْكُ مالا يعنى . قيل : فما الحَزْم ؟ قال : انتهازُ الفُرْصَة . قيل : فما الحلمُ ؟ قال : العفوُ عند المقدرة . قيل : فما الشدة ؟ قال : ملك الغضب . قيل : فما الخُرق ؟ قال : حبّ مُغْرِق ، وبغض مُفْرِط .

معاوية وزياد

قال معاوية رضى الله عنه لزياد حين وَلّاه العراق : يازياد ؛ ليكن حبُّك وبغضك

---

(١) من ا .　　(٢) فى ا : يزع ، ويزع : يكف

(٣) فى ط : فما الرأى الذى يجمع القلوب ؟ قال : المودة . قيل : فما المودة ؟

قصداً ؛ فإن العَثْرة فيهما كامنة ، واجعل للنزوع والرجوع بقيّةً من قلبك ، واحذَرْ صَوْلَة الانهماك ، فإنها تؤدى إلى الهلاك .

ومن كلام بلغاء أهل العصر فى ذكر السلطان

للصاحب أبو القاسم الصاحب : مَرْضَاة السلطان لا تغلو بشىء من الأثمان ، ولا بِبَذْلِ الروحِ والجَنَان . تهيُّب السلطانِ فَرْضٌ وَكِيد ، وحَتْمٌ على مَنْ أَلْقَى السمعَ وهو شهيد .

للصابى أبو إسحاق الصابى : الملكُ أحقُّ باصطفاء رجاله منه باصطفاء أمْواله ؛ لأنه مع اتساع الأمر وجَلالَةِ القَدْر لا يكتَفِى بالوحدة ، ولا يستغنى عن الكَثْرَة ؛ ومثلُه فى ذلك مثلُ المسافرِ فى الطريق البعيد الذى يجب أن تكونَ عنايتُه بفرسِه المَجْنُوبِ كعنايته بفرسِه المركوب .

فصل للصابى : الملك بمن غلط من أتْبَاعِه فاتَّعظ أشدّ انتفاعا منه بمن لم يغلط ولم يتعظ ؛ فالأول كالقارح[1] الذى أدَّبَتْه الغرَّة[2] ، وأصلحَتْه الفَدَامَة[3] ، والثانى كالجذع المُتَهَوِّكِ[4] الذى هو راكب للغِرَّة وراكن إلى السلامة .

وقيل : إن العظم إذا جبر من كَسْره عاد صاحبُه أشدّ بطشاً وأقوى أيداً .

للخوارزمى أبو بكر الخوارزمى : لا صغيرَ مع الولاية والعِمالَة ، كما لا كبيرَ مع العُطلة والبَطَالَة ؛ وإنما الولايةُ أنثى تصغر وتكبر بواليها ، ومطيَّة تحسن وتقبح بمُمْتَطِيها ، والصَّدْر لمن يليه ؛ والدَّست لمن جلس فيه ، والأعمال بالعمّال ، كما أنّ النساء بالرجال .

فصل له : إنّ ولايةَ المرء ثوبُه ؛ فإن قصُر عرِى منه ، وإنْ طَالَ عثَرَ فيه . قليلُ السلطان كثير ، ومُدَارَاتُه حَزْمٌ وتدبير ، ومكاشفته غُرور وتَغْرير .

للبستى أبو الفتح البستى — أجهلُ الناسِ مَنْ كان على السلطان مُدِلّا ، وللإخوان مُذِلّا .

---

(١) القارح : هو الذى بلغ تمام القوة . والجذع : الشاب الحدث ، وفى ا : لأن القارح .

(٢) فى ا : العرة . (٣) فى ط : الندامة . (٤) فى ط : المنهزم .

لابن العميد

أبو الفضل ابن العميد ـ الإبقاء على حشم السلطان وعُمّاله عدلُ الإبقاء على ماله؛ والإشفاقِ [على حاشيته وحشمه مثل الإشفاق] (١) على ديناره ودرهمه .

وله من رسالة طويلة ـ جواب لأبى شجاع عضد الدولة عن كتاب اقتضاه فيه صَدْرَ كتاب ألّفه فيه أبو الحسن الصوفى فى نوع من علوم الهيئة : أنا أقدم الإجابة بحمد الله تعالى جدُّه، على ماوهب لنا معاشرَ عبيدِه وخدمه خاصة ، بل لرعاياه عامّة، بل لأهل الأرض كافة ، من عظيم النعمة بمكانهِ ، وجسيم الموهبة بإنفاق أعمارِنا فى زمانه، حتى شاركْنَاه فى أسباب السعادة التى لم تَزلْ مَذْخُورة عليه، حتى صارت إليه، وساهمناه فى موادّ الفضيلةِ التى لم تزَلْ محفوظةً له ، حتى اتّصلَت به ؛ فإنّ المرءَ أشْبَه شىء بزمانه ، وصفات كل زمانٍ منتَسخة من سجايا سُلْطَانه؛ فإن فَضَلَ شاعَ الفضلُ فى الزمان وأهله ، وتحلَّى الدّهرُ بأفضل حِلْيته ، وتجلّى للعيونِ والقلوبِ بأحسن زينته ، وكسا بَنِيه والناشئين فيه بشرفِ جَوْهَرِه ، وأورثهم نَيْلَ فضله ، وعزَّ العِلم وأهله ، وعرف لمقتبسه قَدْرَه ، وتوجَّهت الأذهانُ نحوه، وتعلَّقت الخواطرُ به،وصرفت الفِكر فيه، ونشدت ضوَالّه، ونظم أَشْتَاته، وجمعت أفْرَاده، ووثِقَتْ نفوسُ الساعين فى استفادته بحُسْنِ عائدته ، فحرصت عليه ، وصرفَتْ نظرَها إليه ، وأيقنت فى بضاعتها بالنَّفاق ، وفى تجارتها بالإرْفَاق (٢) ؛ فصار ذلك إلى نماء العلوم وزيادتهاداعية ، وإلى تكثير قليلها وإيضاح مجهولها سببا وعلّةً ، وإلى انخراط جواهرها المتفرقة فى سلوك التصنيف سبيلا ، وإلى تقييد شواردِها بعُقُل التأليف طريقا . وإن رَذُل السلطان اتُّبِعَت الرذيلةُ اتباعاً ، وذَهبتِ الفضائلُ ضياعاً ، وبطلت الأقدارُ والقيم ، وسلِبَت الأخطارُ والهِمم، وزال العلم والتعلم، ودَرَس الفَهْمُ والتفهّم، وضرَبَ الجهلُ بجرَانِه، ووطىء بمنسمه ، واستَعْلَى الخمولُ على النباهة ، واستولى الباطلُ على الحقّ ، وصار الأدبُ وبالاً على صاحبه ، والعلمُ نَكَالاً على حامله . وبحسب عظيم المحنة بمن هذه

---

(١) من ا . (٢) بالنفع .

صِفَتُه ، والبلوى مَعَ مَنْ هذه صورتُه ، تَعْظُمُ النعمةُ بمُلْكِ سلطانٍ عالم ، كالأمير الجليل عضد الدولة ، أطال اللهُ تعالى بقاءَه ، وأدام قُدْرَته ، الذى أحله اللهُ عزَّ وجل من الفضائل بملتقى طَرفيها ومجتَمَعِ فرقها ، فهى نوادٌّ ممن لاقت حتى تَصيرَ إليه ، وشوارِدُ نوازِعُ حيث حلَّت حتى تقعَ عليه ، تتلفت تلفُّتَ الوامِقِ ، وتتشوَّفُ إليه تشوفَ الصبِّ العاشقِ ، قد ملـكها أنّى توجهت وحشة المضاع وخيرة [(١)] المرتاع .

فإن تَغْشَ قوماً غيره أو تَزُرهُم ... فكالوحش يُدْنِيها من الآنِسِ المَحْلُ

حتى إذا قابلته أسرعت إليه إسراعَ السيل ينصَبُّ فى الحدور ، والطير يَنْقَضُّ إلى الوكور .

للمتنبي

وقال أبو الطيب المتنبى [(٢)] :

أَحَقُّ عافٍ بدَمْعك الهِمَم ... أَحْدَثُ شىء عَهْدًا بها القِدَمُ

وإنما الناسُ بالملوكِ وَما ... تُفْلِح عُرْبٌ مُلُوكها عَجَمُ

لا أدبٌ عندهُمُ ولا حَسَبٌ ... ولا عُهُودٌ لهم ولا ذِمَمُ

بكلّ أرضٍ وطِئْتَها أُمَمٌ ... تُرْعَى بعَبْدٍ كأنّها غَنَمُ

يستَخْشِنُ الخزَّ حين يلمسه [(٣)] ... وكان يُبْرَى بظُفْرِه القلمُ

للزبير بن بكار

وقال الزبير بن بكار: قَدِم ابنُ ميّادة ، واسمه الرماح بن أبرد [(٤)] ، زائراً لعبد الواحد ابن سليمان ، وهو أميرُ المدينة ، فكان عنده ليلةً فى سُمّاره ؛ فقال عبدُ الواحد لأصحابه: إنى لأهم أن أتزوج فابْغُونى أيِّما . قال ابن ميادة : أنا ـ أصلحك الله ـ أدلُّك ، قال: على من يا أبا بشر[(٥)] نَعيل ؟ قال : قدمتُ عليك أيها الأمير ، فلما قدمت ألفيتُ المسجد وإذا أشبه شىء به وبمن فيه الجنة ومَنْ فيها ، فبينا أنا أمشى إذ قادتنى رائحةُ رجلٍ عِطرٍ حتى وقفت عليه ، فلما وقع بصرى عليه استَاهَى [(٦)] حُسْنُه ناظرى ، فما

---

(١) فى ط : وحشية المضاع وجيرة . (٢) ديوانه : ٤ ـ ٥٨ .

(٣) فى الديوان : يلبسه . (٤) الأغانى : ٢ ـ ٣٢٦ ، وارجع إلى نسبه وترجمته فى الأغانى ٢ ـ ١٦٢ . (٥) فى الأغانى : على من يا أبا الشرحبيل ؟

(٦) فى الأغانى : استلهانى حسنه .

أقلعت ناظرى حتى تكلَّم ، فما زال يتكلَّم كأنما يَنْثُرُ دُرًّا ، ويتلو زَبوراً ، ويدرس إنجيلا ، ويقرأ قُرْآناً حتى سكت ، فلولا معرفتى بالأمير ما شككت أنه هو ، ثم خرج من مصلاه إلى داره ، فسألت عنه فأُخبرتُ أنه من الحسن بمكانه ، وأنه للخليفتين [١] ، وأنه قد نالته ولادةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ساطعٌ من غُرَّته ؛ فإن اجتمعتَ أنتَ وهو على ولدٍ ساد العبادَ ، وجابَ ذِكْرُه البلاد .

فلما قضى ابنُ ميَّادة كلامه قال عبد الواحد ومَنْ حضر : ذلك محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان رضى الله تعالى عنه لفاطمة بنتِ الحسين بن على رضى الله عنهم .

وقال ابن ميادة :

لهم سيرةٌ [٢] لم يُعطِها اللهُ غيرَهم ... وكلُّ قضاءِ اللهِ فهو مُقَسَّمُ [٣]

هذا فى تقابل نسبه ، وكمال منصبه ، كقول عويف القوافى فى طلحة بن عبد الله الزهرى :

يُصَمُّ رجالٌ حين يُدْعَوْن للندى ... ويُدْعَى ابنُ عوف [٤] للندى فيجيب
وذاك امرؤ من أىِّ عِطْفَيه يلتفت ... إلى المجد يَحْوِى المجدَ وهو قَريب

وعبد الواحد بن سليمان هذا هو الذى يقول فيه القطامى :

أقولُ للحَرْفِ لما أنْ شكَتْ أصلا ... طولَ السِّفار وأفنَى نيَّها الرَّحل
إن ترجعى من أبى عثمان منجِحَةً ... فقد يَهُونُ على المستنجِح العمل
أهل المدينة لا يحزنك شأنهمُ ... إذا تخطَّأ عبد الواحد الأَجَلُ

ومن قول القطامى: «إن ترجعى من أبى عثمان منجحة» أخذ الآخر قوله :

إذا ما تعنَّى [٥] المرء فى إثر حاجةٍ ... فأنجح لم يثقل عليــه عناؤُهُ

---

(١) فى ا : أنه من الحبيبين للخليفتين . (٢) فى الأغانى : لهم نبوة .

(٣) فى ط : فضل فيهم ، وفى ا : وكل قضاء الله فضل مقسم .

(٤) فى ط : ابن عون . (٥) فى ا : تغنى .

عبدالواحد ابن سليمان

وهو عبدالواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان . قال الكلبي : هو عبد الواحد ابن الحرث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، والأول قول ابن السكيت .

من شعر القطامى

والقصيدة التي منها هذه الأبيات من أجْوَدِ قوله ، وفيها يقول مما يتمثل به[1] :

والعيشُ لا عَيْشَ إلا ما تقرُّ بهِ ... عينٌ ولا حال إلا سوف يَنْتَقِلُ

والناسُ من يَلْقَ خيراً قائلون لهُ ... ما يَشْتَهِي ولأُم المخطىء الهبَلُ[2]

قد يُدْرِكُ المتأنّى بعضَ حاجتِهِ ... وقد يكونُ مع المستعجل الزَّلَلُ

قوله : « والناس مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون له » مأخوذٌ من قول المرقش :

ومن يَلْقَ خيراً يحمد الناسُ أمرَهُ ... ومن يغو لا يعدَمْ على الغيِّ لائما

وقال عمرو بن سعيد للأخطل : أيسرك أنَّ لك بشعرك شعراً ؟ قال: لا، ما يسرُّنى أن لى بقولى مقولا من مَقَاوِيل العرب ، غير أنّ رجلا من قومى قال أبياتاً حسدْتُه عليها ، وايم اللهِ ، إنه لمُغْدِف القناع ، ضيِّق الذراع ، قليل السماع ، قال : ومَنْ هو ؟ قال : القُطامى . قال : وما هذه الأبيات ؟ فأنشد له يَصِفُ إبلا من هذه القصيدة :

يمشين رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذلة ... ولا الصدورُ على الأعجازِ تتَّكِلُ

فهن معترِضات والحَصاَ رمِضٌ ... والرِّيحُ ساكنةٌ والظلُّ معتدلُ

يتبعن سامية العَيْنَيْنِ تحسبها ... مجنونة أو تَرَى مالا تَرَى الإبلُ

[نغم الألفاظ ونغم الألحان]

قال أبو العتاهية لمخارق : أنت بنغم ألفاظك دون نَغَمِ ألحانك ، تُطْرِبُ إذا تكلَّمت ، فكيف إذا ترنّمت ! وقال له يوماً : يا حكيم هذه الأقاليم ؛ اصبُبْ فى هذه الآذان من جيِّدِ تلك الألحان، فأُقْسِمُ لو كانَ الكلامُ طعاما ، لكان غناؤك له إداما.

قال إسحقُ بن إبراهيم الموصلى : دخلتُ على المعتصم يوماً وقد خلَا ، وعنده

---

(١) الشعراء : ٧٠٤ . (٢) الهبل : الثكل .

جاريةٌ تُغنّيه ، وكان معجَباً بها ، فلما جلست قال لى : يا أبا إسحق ، كيف تَراها ؟ فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أراها تقهره بحِذْق ، وتختـله برِفق ، ولا تخرج من حسَن إلاَّ إلى أحسن منه ، وفى حلقها شذورُ نَغَم أَحسنُ من دوام النعم . قال : يا إسحق؛ هن غاياتُ الأمل ، ومُنْسِيات الأجل، والسقم الداخل، والشغْل الشاغل ، وإن صِفَتَك هذه لو سمعها مَنْ لم يرَها لفقد لُبَّه ، وقَضَى نَحْبَه .

وسُئِل إسحق عن المُجِيد من المغنين ، فقال : مَنْ لَطُفَ فى اختلاسه ، وتمكَّن من أنفاسِه ، وتفرَّع[١] فى أجناسه ، يكادُ يعرِفُ ضمائر مُجالِسِيه ، وشهواتِ مُعَاشِرِيه، يَقْرَعُ مسمع كلٍّ واحد منهم بالنحو الذى يُوَافِقُ هواه ، ويُطَابِق معناه .

إسحق الموصلى

وكان إسحقُ بن إبراهيم قد جمع إلى حِذْقِه بصَناعَتِه حُسْنَ التصرف فى العلوم ، وجودةَ الصنعة للشعر . وحدَّث عن نفسه فقال : كنت أيام الرشيد أُبكِّر إلى هشيم ووكيع فأَسمعُ منهما ، ثم أَنصرف إلى عاتـكة بنت شُهَيد[٢] فتُطَارِحُنى صوتين ، ثم أَصِير إلى زلزل الضارب فآخذُ منه طريقين ، ثم أَسير إلى منزلى فأَبعث إلى أبى عبيدة والأصمعى فلا يزَالانِ عندى إلى الظهر ، ثم أَذهبُ إلى الخليفة . ونزل أَبوه بالموصل وليس من أهلها فنُسِب إليها . وهو مولى خزيمة بن خازم[٣] التميمى . وفى ذلك يقول إسحاق[٤] :

إذا مضرُ الحمراء كانت أرومتى[٥] ... وقام بنَصْرِى خَازِمٌ وابنُ[٦] خازمِ
عطَسْتُ بأَنفى شامخاً وتناوَلَتْ ... بنَانِى الثريّا قاعداً غَـيْرَ قائِم

وفيه يقول محمد بن عامر الجرجانى يرثيه :

على الجدَثِ الشرقىِّ عُوجاَ فسلّما ... ببغدادَ لـمـا صدّ عنه عوائده

---

(١) فى ا : وتفرغ . (٢) هكذا فى ا ، وفى ط : بنت شهدة .
(٣) فى ط : خزيمة بن أبى حازم . (٤) ذيل اللآلى ٣٤ ، والأمالى ــ ذيل : ٧٠
(٥) فى الأمالى رواية صدر البيت : إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى .
(٦) فى ط : حازم .

أإسحق لا تبعد وإن كان قَدْ رَمَى ... بكَ الموتُ مرمًى ليس يصدر وارِدُه
متى تأتهِ يوماً تحاولُ مُنفِساً ... من الدين والدنيـا فإنك وَاجِدُه
إذا هزل اخضرَّتْ فروعُ حديثـهِ ... ورقّت حواشِيه وطابَتْ مشاهِدُه
وإنْ جَدَّ كانَ القولُ جدًّا وأقسمت ... مخارجه ألاَّ تلينَ شَـــدائِدُه

ومن جَيّد شعر إسحق قصيدته فى إسحق بن إبراهيم المُصعَبى بعد إيقاعه بالخرَّمية[1] :

تَقَضَّتْ لبانَاتٌ وجَـدَّ رَحيلُ ... ولم يُشْفَ مِنْ أَهْلِ الصفاءِ غليلُ
ومُدَّت أكفٌّ للوداع فصافحَتْ ... وفاضت عيونٌ للفراقِ تَسِيلُ
ولابدّ للأُلاَّف من فَيْضِ عَبْرَةٍ ... إذا ما خليـلٌ بَانَ عنـه خليلُ
فـكم من دمٍ قد طُلَّ يوم تحمّلت ... أوانِسُ لا يُودَى لهن قَتِيـلُ
غداة جعلتُ الصبرَ شيئاً نسيتهُ ... وأعولتُ لو أَجْـدَى علىَّ عَويلُ
ولم أنْسَ منها نظرةً هاجَ لى بهـا ... هوًى منه بادٍ ظاهرٌ ودَخِيـلُ
كما نظرَتْ حوراءُ فى ظلِّ سدرةٍ ... دعاها إلى ظلِّ الـكِناس مَقِيـلُ
فلا وَصْلَ إلاَّ أن تلافاه أَيْنُقٌ ... عِتاق نَمَاها شَدْقَم وجَدِيلُ[2]
إذا قلبت أجفانهـا بتنوفةٍ ... طوى البعدَ منهـا هزةٌ وذَمِيلُ
تفرَّد إسحقٌ بنصح أميرهِ ... فليس له عنـد الإمام عَدِيلُ
يفرج عنه الشكَّ صِدْقُ عَزِيمةٍ ... وَلُبٌّ به يَعْلُو الرجالَ أَصِيـلُ
أغرّ نجيبُ الوالدين كأنهُ ... حسامٌ جلَتْ عنه العيون صقيلُ
بنى مصعب للمَجْدِ فيكم إذا بدتْ ... وجوهكمُ للنـاظرين دَلِيـلُ
كرُمتم فما فيكم جبانٌ لدَى الوغى ... ولا منكمُ عند العطاء بَخيـلُ
غَلبتم على حُسْنِ الثناء فراقـكم ... ثناءٌ بأفواهِ الرجالِ جَمِيـلُ

---

(١) المختار من شعر بشار — ٢٤٩ .

(٢) الشدقم : فحل للنعمان بن المنذر ، والجديل : فحل له أيضا .

إذا استكثر الأعداء ماقلتُ فيكمُ ... فإنّ الذى يستكثرون قليـلُ

وهذا نمط الحذاق الفحول . وقال :

ومدرَجةٍ للريح غَبْرَاء لم يكن ... لِيَجْشَمها زُمَّيْلةٌ غير صارِمِ(١)

يَضِلُّ بها السارِى وإنْ كان هادياً ... وتقطعُ أنفاسَ الرياحِ النَّواسِم

تعسّفت أبرى جَوْزَها بشمِلّةٍ ... بعيـدة ما بين العرى والمَحازِمِ(٢)

كأنَّ شرار المَرْوِ(٣) من نَبْذِها بهِ ... نجومٌ هوَتْ إحدى الليالى العواتِم

إذا ضمّها والسَّفْر ليـلٌ فغيبتْ ... دياجيره عنهم رءوس المعـالمِ

تنادَوْا فصاروا تحتَ أكنافِ رَحْلِها ... ليهديَهم قَدْحُ الحَصَى بالمَناسِمِ

وقال :

ولمـا رأيْنَ البَيْنَ قد جدّ جِدّهُ ... ولم يبقَ إلاَّ أنْ تَبين الركائبُ

دنَوْنَا فسلَّمنا سلاماً مُخالِسًا ... فردَّتْ علينـا أعينٌ وحواجبُ

تَصُدُّ بلا بُغْضٍ ونَخْلس لمحـةً ... إذا غفلت عنا العيونُ الرواقبُ

نُذَاد إذا حُمنا لنشفيَ غلةً ... كما ذِيدَ عن وِرْدِ(٤) الحِياض الغَرائبُ

وما أحسن ما قال أبو العباس الناشئ فى هذا المعنى :

ولما رأين البين زُمَّت رِكابهُ ... وأيقَنَّ منـا بانقطاعِ المطالبِ

طلبن على الركب المجدين عِلّةً ... فعُجْنَ علينا من صدور الركائب

فلما تلاقَيْنا كتبْن بأعْيُنٍ ... لنـا كُتُباً أعْجَمْنَها بالحواجب

فلما قرأناهُنَّ سِرًّا طوَيْنَهَا ... حِذار الأعادى بازْوِرَارِ المناكبِ

وقال إسحق :

ألا مَنْ لقلبٍ لا يزالُ رَمِيّةً ... لِلَمْحَةِ طَرْفٍ أو لِكسرةِ حاجِبِ

وللخُمُرِ اللاتى تساقط لوثُها ... فنور الخطا عن وَارِدَات الذوَائبِ

---

(١) المدرج : مسلك ، والزميلة : الجبان الضعيف . (٢) ليس فى ا ، وفى ط : جورها ، والجوز: وسط الشىء ومعظمه . (٣) المرو : حجارة بيض براقة تورى النار أو أصل الحجارة .

(٤) فى ا : برد .

[استطراد فى ذكر الذوائب]

وعلى ذكر الذوائب قال ابن المعتز(١) :

سقَتْنِيَ فى ليلٍ شبيهٍ بشعرها   شَبِيهة خدَّيْهَا بغيرِ رقيبِ
فأمسيت فى ليلين بالشَّعرِ والدُّجَا   وخَمْرَيْن من راحٍ وخَدِّ حبيب(٢)

وقال بكر بن النطاح(٣) :

بيضاءُ تسحب من قيامٍ شعرَها   وتغيبُ فيه وهو جَثْلٌ أَسْحَمُ(٤)
فكأنها فيه نهارٌ مبصرٌ   وكأنه ليلٌ عليها مظلِمُ

وقال المتنبى(٥) :

نَشَرَتْ(٦) ثلاثَ ذوائبٍ من شَعْرها   فى ليلةٍ فأَرَتْ ليالىَ أربعا
واستقبلَتْ قمرَ السماءِ بوجهِها   فأَرَتْنِيَ القمرَيْنِ فى وقتٍ معا

وقال ابن الرومى(٧) :

وفاحم واردٍ يُقَبِّلُ مَمْ   شاه إذا اختال مُسْبلًا غُدَرَهْ
أقْبلَ كالليلِ فى مفارقهِ   منحَدِرا لا يرام(٨) مُنْحَدَرُه
حتى تناهَى إلى مواطئِه   يَلْثَم من كلِّ مَوْطِئٍ عَفَرَهْ
كأنهُ عاشِقٌ دَنَا شغفاً   حتى قضى مِنْ حبيبه وَطَرَه
يُغْشِي غَوَاشِي قرونهِ قدَماً   بيضاءَ للناظرين مُقْتَدره
مثلِ الثريّا إذا بدَتْ سحَراً   بعد غمَام وحاسِرٍ حَسَرهْ

أخذه بعض أهل العصر وهو محمد بن مطران ، فقال(٩) :

ظِباءٌ أعارتها الظّباَ حُسْنَ مَشْيِها   كما قد أعارَتْهَا العيونَ الجآذِرُ

---

(١) التبيان ٢–٢٦٠ ، الأمالى ١–٢٢٧ . (٢) فى ا ، والأمالى: وشمسين من خمر .
(٣) اللآلئ ٥١٩ ، الأمالى ١–٢٢٧ . (٤) جثل : كثير لين ، وفى الأمالى : وهو وحف .
(٥) ديوانه ٢–٢٦٠ . (٦) فى الديوان ، ا : كشفت . (٧) اللآلئ : ٥١٩ ، الأمالى ١–٢٣١ ، وارجع إلى اللآلئ فى هذه الأبيات . (٨) فى الأمالى : لايذم .
(٩) اللآلئ ٥١٩ ، وفى ط : وهو أبو محمد بن مطرف، وهذا عن ا ، واللآلئ، والأمالى .

فمِنْ حُسْنِ ذاكَ المشى قامت فقبّلت ... مواطئَ من أقدامهنَّ الغدائرُ

وقال مسلم بن الوليد(١) :

أجِدّكِ هل تدرينَ أنْ رُبَّ ليلةٍ ... كأنَّ دُجاها من قرونك يُنْشَرُ

نصَبْت لها حتى تجلّتْ بغرةٍ ... كغُرَّةِ يحيى حين يُذْكر جعْفرُ

[نظم القصيدة]

قال الحاتمى : مثلُ القصيدةِ مثلُ الإنسان فى اتِّصالِ بعضِ أعضائه ببعض ؛ فمتى انفصلَ واحدٌ عن الآخر وَبايَنَهُ فى صحَّةِ التركيب ، غادر الجسم ذا عاهةٍ تتخوَّنُ محاسنَه ، وتُعَفِّى معالِمَه ؛ وقد وجدت حُذّاقَ المتقدّمين وأربابَ الصناعةِ من المحدَثين يحترسون فى مثل هذا الحال احتراساً يجنِّبُهم شوائبَ النقصان ، ويقفُ بهم على محَجَّةِ الإحسان ، حتى يقعَ الاتِّصالُ ، ويُؤْمَن الانفِصال ، وتأْتِى القصيدةُ فى تَناسُبِ صدورها وأَعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة ، والخُطْبَة الموجَزَة ، لا ينفصلُ جزءٌ منها عن جزء . وهذا مذهبٌ اختصّ به المحدَثون لتوقُّدِ خواطرهم ، ولُطْفِ أفكارِهم ، واعتمادهم البديع وأَفانينه فى أشعارهم ، وكأنه مذهبٌ سهَّلوا حَزْنَه ونهجوا رَسْمَه ؛ فأمَّا الفحول الأوائل ومَنْ تَلاهُمْ من المخضرمين والإسلاميين فمذهبُهم المتعالم عَدّ عن كذا إلى كذا ، وقُصارَى كلِّ واحدٍ منهم وَصْفُ ناقتِه بالعِتْق، والنَّجابة والنجاء ، وأنه امتطَاها فادّرع عليها جِلْبابَ الليل ؛ وربما اتَّفق لأحدِهم معنى لطيف يتخلّص به إلى غرضٍ لم يتعمّده إلا أنَّ طبعه السليم ، وصِراطه فى الشعر المستقيم ، نصبا مَنارَه(٢) وأوقدا باليفاع نارَه ؛ فمِنْ أَحسن تخلّص شاعر إلى معتمده قولُ النابغة الذبيانى(٣) :

فكفكفتُ(٤) منّى عَبْرةً فرددْتُها ... على النَّحْرِ منها مستهلٌّ ودامعُ

---

(١) اللآلئ : ٥٢٠ ، الأمالى : ١ — ٢٣١ .

(٢) فى ط : نضى تياره ، وأوقد ..

(٣) ديوانه : ٦٨ ، واللسان — مادة شغف .

(٤) فى ا : فأسبل .

على حين عاتبتُ المشيبَ على الصِّبَا ... وقلتُ ألمَّا أصحُ والشيبُ وَازِعُ[1]

وقد حال همٌّ دونَ ذلكَ شاغِلٌ ... مكان الشُّغافِ تَبْتَغِيه الأصابعُ

وَعيدُ أبي قابوسَ في غير كُنْهِهِ ... أتاني ودوني راكِسٌ فالضَّواجع[2]

وهذا كلام متناسخ تقتضى أوائلُه أواخره ، ولا يتميَّز منه شيء عن شيء :

أتاني، أبيتَ اللعن[3]، أنكَ لُمْتَني ... وتِلك التي تَسْتَكُّ منها المسامِعُ

مقالة أن قد قلتَ سوف أناله ... وذلك من تِلْقَاء مثلك رائع

ولو توصَّل إلى ذلك بعضُ الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى ، وفتحوا أبوابَ البديع ، واجتنوْا ثمرَ الآداب ، وفتحُوا زَهْرَ الكلام لكان معجزا عجبا ، فكيف بجاهلٍ بَدَوِى إنما يغترفُ من قليب قَلْبِه ، ويستمدُّ عفوَ هاجسه .

وقال عليّ بن هرون المنجم عن أبيه : لم يتوصل أحدٌ إلى مدح بمثل قول [ابنِ][4] وهيب :

ما زال يُلثِمُني مراشفهُ ... ويعلّني الإبريقُ والقدَحُ

حتى استردَّ الليل خلعتَهُ ... وبدَا خِلَالَ سوادِه وَضَحُ

وبدَا الصباحُ كأن غُرَّتَهُ ... وَجْهُ الخليفة حينَ يُمتدَح

وقال عليّ بن الجهم :

وليلةٍ كحلتْ بالنّقْس مُقْلَتَها ... ألقت قِنَاعَ الدُّجى فى كلِّ أخدود

قد كاد يُغرِقُنى أمواجُ ظُلْمَتِها ... لولا اقتباسى سَنَا وَجْهِ ابنِ دَاوُدِ

قوله : « كحلَتْ بالنِّقْس مقلتها » مأخوذ من قول أعرابى : « والليل قد صَبَغ الحصَى بمِدَادِ » .

---

(١) وازع : كاف . (٢) راكس : اسم واد . والضواجع : منحنيات الوادى .

(٣) فى ا : وأخبرت خير الناس أنك . (٤) الصناعتين : ٦٣ ، والمعاهد : ٢-٥١ وفى ط : قول وهيب .

وقد أخذ هذا أبو نواس فقال[1] :

أَبِنْ لى كيف صِرْتَ إلى حَرِيمى ... وجَفْنُ الليـلِ مُكْتَحِلٌ بقَارِ

وقد أخذ هذا أبو تمام فقال[2] :

إليك هَتَكْنَا جُنْحَ ليلٍ كأنهُ ... قد اكتحلَتْ منـهُ البلادُ بإثْمِدِ

وقد أخذ لفظَ الأعرابى المتقدم أبو نواس فقال :

قد أغتدى والليـلُ كالمِدَادِ ... والصبحُ يَنْفِيـه عن البلاد

طرد المشيبِ حالكَ السَّوادِ

وإنما نظرَ فى هذا إلى قول الأعرابى[3] :

أقولُ والليلُ قد مالَتْ أواخِرُه ... إلى الغروب : تأمَّل نظرةً حارِ

ألمحة من سَنا بَرْقٍ رأى بصرى ... أم وجه نُعْمٍ بَدا لى أم سَنَا نَارِ

بل وجْهُ نُعْمٍ بَدَا والليلُ مُعْتَكِرٌ ... فلاحَ ما بين حُجَّابٍ وأَسْتَارِ

ومن بديع الخروج قول علىّ بن الجهم وذكر سحابةً :

وسارية تَرْتَادُ[4] أرضاً بجُودِها ... شغَلتُ بها عينا طويلا هجودُها

أتتنا بهـا ريحُ الصَّبا فكأنها ... فتاةٌ ترجِّيها عجوزٌ تقودها[5]

[فما برحت بغدادَ حتى تفجّرت ... بأودية ما تستفيق مُدُودها][6]

فلمـا قضَتْ حقَّ العراق وأهله ... أتاها من الريح الشمال بريدها

فمرت تفوتُ الطيْرَ سَبْقاً كأنها ... جنودُ عبيـد الله وَلَّتْ بُنُودها

يريد انصراف أصحاب عبيدالله بن خاقان عن الجعفرىّ إلى سُرّ من رأى عند قتل المتوكل . وقد أخذ هذا التشبيه معكوسا من قول أبى العتاهية :

ورايات يَحُلُّ النصرُ فيهـا ... تَمُرُّ كأنها قِطَعُ السحابِ

---

(١) ديوانه ٢٠١ . (٢) ديوانه : ١٠٣ .

(٣) اللآلئ ١٣٧ ، والأبيات للنابغة ، كما فى الجمهرة : ٧٩ ، وديوان النابغة ٥١ .

(٤) فى ا : ترتاد . (٥) فى ط : تعودها . (٦) من ا .

وقال ديك الجنّ :

وغرير يقضى بحكمين : فى الرا ح بجور ، وفى الهوى بمحالِ
للنقـا رِدْفُه وللخُوط ما حُـمِّـ ل ليناً ، وجيدُه للغزالِ
فَعَلَتْ مُقْلَتاه بالصَّبِّ ما تفـ ـعل جَدْوَى يدَيْك بالأموالِ

ومن بارع الخروج قول المتنبى[1] :

مرّتْ بِنا بَيْن تِرْبَيْها فقلتُ لها من أين جانَسَ هـذا الشادِنُ العرَبَا
فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يُرَى لَيْثَ الشَّرَى وهو من عِجْلٍ إذا انتسَبا

واشتهار شعره ، يمنعنى من ذكره .

[النسيب فى نظام القصيدة]

قال ابن قتيبة[2] : سمعت بعضَ أهل الأدب يذكر أن مقصِّد القصيدة إنما ابتدأ بوصف الديار والدِّمَنِ والآثار ؛ فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعلَ ذلك سبباً لذِكْر أهله الظاعنين ؛ إذ كانت نازلةُ العمد[3] فى الحلول والظَّعن على خلاف ما عليه نازلة المَدَرِ ؛ لانتقالهم من ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الـكَلَأ ، وتتبُّعهم مساقِطَ الغيث حيثُ كان ؛ ثم وصل ذلك بالنسيب ، فبكى شدَّة الوجد ، وألم الصبابة والشوق ، ليُمِيلَ نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى إصغاءَ الأسماع ؛ لأن النسيب قريبٌ من النفوس، لائط بالقلوب، لما جعل الله تعالى فى تركيب العباد من محبَّةِ الغزل ، وإلْف النساء ، فليس أحدٌ يخلو من أن يكونَ متعلقاً منه بسبب ، وضاربا فيـه بسهم ، حلال أو حرام . فإذا استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له عَقَّب بإيجاب الحقوق ؛ فرحل فى شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسُرَى الليل [وحر الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذِمام التأميل][4] ، وقرّر عنده ما ناله من المكارِه فى المسير ، بدأ فى المديح

(١) ديوانه: ١-١١٢ . (٢) الشعراء : ٢٠ (٣) فى ا : إذ كانت نازلة العمود .
(٤) من ا .

فبعثه على المكافأة ، وفضله على الأشباه ، وصغّر فى قدره الجزيل ، وهزّه لفعل الجميل.
فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً أغلب على الشعر ، ولم يطل فيُمِلّ السامعين ، ولم يقطع وفى النفوس ظمأ إلى المزيد .

[أبو تمام والبحترى]

ويتعلق بهذه القطعة ما حدَّث به الحاتمى عن نفسه ، وإن كانت الحكاية طويلة فهى غيرُ مملولة ؛ لما لبسَتْه من حُلَل الآداب ، وتزينتْ به من حُلى الألباب ، قال : جمعنى ورجلا من مشايخ البصرة ممن يُومَأ إليه فى علم الشعر مجلسُ بعضِ الرؤساء ، وكان خبره قد سبق إلىّ فى عصبيّته للبحترى ، وتفضيله إياه على أبى تمام ، ووجدت صاحبَ المجلس مؤثِراً لاستماع كلامِنا فى هذا المعنى ، فأنشأتُ قولا أنحيْتُ فيه على البحترى إنحاءً أسرفتُ فيه ، واقتدحْتُ زِنادَ الرجل ، فتكلّم وتكلمْتُ ، وخُضْنَا فى أفانين من التفضيل والمماثلة ، غلوتُ فى جميعها غلوّا شهده جميع من حضر المجلس ، وكانوا جلّة الوقت ، وأعيان الفضل ، فاضطر إلى أن قال : ما يُحسن أبو تمام يبتدئ ، ولا يخرج ولا يختم ، ولو لم يكن للبحترى عليه من الفضل إلّا حسن ابتداءاته ، ولطفُ خروجه ، وسرعة انتهائه ، لوجب أن يقَع التسليمُ له ، فكيف بأوابِده التى تزدادُ على التكرار غضارة وجِدة . ثم أقبل علىّ ، فقال : أين يُذهب بك عن ابتدائه [1] :

عارضْنَنا أُصُلًا فقلنا [2] الرَّبربُ ... حتى أضاء الأقحوان الأَشنبُ
واخضرَّ موشىُّ البرودِ وقد بَدَا ... منهن ديباجُ الخدودِ المُذهَبُ

وأنّى لأبى تمام مثل خروجه حيث يقول [3] :

أدارَهُمُ الأولى بدارة جُلجل ... سقاكِ الحَيا رَوْحَاته وبوا كِرُهْ
وجاءكِ يحكى يوسف بن محمد ... فروّتك رَيّاهُ وجَادَكِ ماطِرُه

---

(١) ديوانه ٢ــ١٨٧ . (٢) فى ا : فقلت . (٣) ديوانه ١ــ١٦٢ .

وقد كرر هذا وزاد فيه فقال [1] :

تنصّب البرقُ مختالا فقلت له لوجُدْتَ جودَ بنى يَزْدان[2] لم تَزِد

ومن ذا الذى لَطُف لأن يخرج من وصف روض إلى مدح ، فقال أحسن من قوله :

كأنّ سناها بالعشىّ لصَحْبها تبلُّج عيسى حين يَلفظُ بالوَعْد

وأنّى لأبى تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول [3] :

إليك القوافى نازعاتٍ شواردا يُسيِّر ضَاحِى [4] وَشْيها ويُنَمنَمُ

ومشرقةً فى النظم غُرًّا يزيدُها بهاءً وحسناً أنها لك تُنظمُ [5]

وقوله فى هذا المعنى [6] :

ألست المُوالِى فيك نَظْمَ قصائدٍ هى الأنجم اقتادتْ مع الليل أنجُمَا

ثناء تخال الروض فيه منوّرا ضحًى وتخالُ الوَشْى فيه مُنَمْنَما

ولقد تقدم البحترى الناس كلهم فى قوله [7] :

لو أن مشتاقا تـكلّف فوق ما فى وُسْعِهِ لسعى إليك المنبرُ

قال أبو على: وكنت ساكناً إلى أن استتمّ كلامه ، فـكأنّ الجماعة أعجبهم ذلك، عصبيةً علىّ لاعَلَى أَبى تمام ؛ لأنى كنت كالشَّجَى معترضاً فى لهوَاتِهم ، وأَسرَّ كلّ واحد منهم إلى صاحبه سرًّا يومئ به إلى استيلاء الرجل [8] على ؛ فلما استتم كلامه وبرقت له بارقةُ طمع فى تسليمى له ابتدأت فقلت : لست ممن يُقَعْقَعُ له بالشنان ، ولا يُقْرَع له بالعصا ، لا إله إلا الله ! استنَّت الفصالُ حتى القرعى ! هل هذه المعانى إلا عُونٌ مفترعة ، قد تقدم أبو تمام إلى سَبْك نضارها ، وافتضاض أبـكارها ، وجرى

---

(١) ديوانه ١ــ٧٢ . (٢) هكذا فى الديوان ، وفى ط : يزداد .
(٣) ديوانه ١ــ٦٢ . (٤) فى ط : صافى . (٥) ليس فى ا، وفى الديوان : أنها فيك .
(٦) ديوانه ١ــ٥٩ . (٧) الأدباء ١٨ــ١٦٨ . (٨) فى ط : الوجل .

البحترى على وَتيرته فى انتزاع أمثالها واتباعها ، فأمّا قوله : « عارضْنَنَا أصلا فقلنا الربرب » ، فمن قول أبى جويرَية العبدى :

سلّمن نحوى للوداع بغفلة (١) فكأنما نظرت إلينا الربرب
وقرأن بالحدَقِ المِرَاض تحية كادت تكلّمنا وإن لم تُعرِب

وأما قوله فى صفة الغيث مخاطبا للدار : « وجاءك يحكى يوسف بن محمد » وقوله فى هذا المَعْنَى : « لوجدت جود بنى يزدان لم تزد » فمن قول أبى تمام :

ولنُؤْيِها فى القلب نُؤىٌ شفّهُ وَلَهٌ بطَاعِنِها وبالمتخلّف
وكأنما استسقى لهنّ محمد من سومهن من الحَيا فى زُخْرُفِ

ومن قوله الذى تقدم فيه كلّ أحد لفظاً رشيقا ومعنى رقيقا (٢) :

ديمةٌ سَمْحَةُ القياد سكوبُ مستغيثٌ بها الثَّرَى المكروب
لو سعَتْ بقعةٌ لإعْظَام نُعمى لسعَى نحوها المكانُ الجديبُ

ومن هنا أخذ البحترى : « لسعى إليك المنبر » :

[أيها الغيث حىّ أهلا بمغْدا ك وعند السرى وحين تَئُوبُ
لأبى جعفر خلائق تَحْكيـ هن قد يشبه النجيب النجيبُ
أنت فينا فى ذا الأوان غريبٌ وهو فينا فى كل وقت غريبُ] (٣)

وأما قوله :

كأنّ سناها بالعشى لصحبها تبلج (٤) عيسى حين يلفظ بالوَعْدِ

فإنما نظر فيه إلى قول دعبل بن على :

ومَيْثَاء خضراء زرْبِيَّة بها النَّوْر يلمع فى كل فن (٥)

---

(١) فى ا : مودعين بغفلة . (٢) ديوانه ٥٧ .
(٣) من ا . (٤) فى ا : تبسم .
(٥) الميثاء : الأرض السهلة ، والزربى من النبت : ما اصفر أواحمر وفيه خضرة .

ضحوكا إذا لاعبَتْه الرياح تأوَّد كالشارب المرجَحِنْ
فشبّه صحبي سنا نَوْرِها بديباج كسرى وعصْبِ اليمنْ
فقلت بَعُدتم ولـكننى أشبهه بجناب الحَسَنْ
فتى لا يرى المال إلا العطاءَ ولا الـكنز إلاّ اعتقادَ المِنَنْ

وأما قوله فى صفة الغوانى « يسَيّر ضاحى وَشْيها وينمنم » وقوله فى وصفها : « وتخال الوشى فيه منمنما » فمن قول أبى تمام (١) :

حلّوا بها عُقَد النسيب ونَمْنَمُوا من وَشْيها نثْراً (٢) لها وقَصِيدا

ومن قوله الذى أبدع فيه (٣) :

ووالله لا أنفكّ أُهدِى شوارداً إليكَ تحمّلْنَ الثناءَ المنخَّلاَ
تخالُ به بُرْداً عليك محبَّراً وتحسبه عقداً عليك مفصَّلا
ألذَّ من السلوى وأطيبَ نفحةً من المسك مفتوقاً وأيسرَ مَحْملاَ
أخفَّ على قلبى (٤) وأثقلَ قيمةً وأقصرَ فى قلبِ الجليس وأطْولاَ

وقول البحترى : * هى الأنجم اقتادَتْ مع الليل أنجما * مأخوذ من قول أبى تمام مقصراً عنه كلَّ تقصير عن استيفاء إحسانه حيث يقول (٥) :

أصِخْ تستمع حُرَّ القوافِى فإنها كواكبُ إلاّ أنهنّ سُعُودُ
ولا تمـكّن الإخلاقَ منها فإنما يلذُّ لباسُ البُرْدِ وهْو جديدُ

فهذه خصال صاحبك فيما عددتَه من محاسنه التى هتكت بها ستور عواره ، ونشرْت مطوىّ أسرارِه ، حتى استوضحت الجماعة أنَّ إحسانَه فيها عاريّـة مرتجعة، ووديعة منتزَعة ، فاسمع ما قال أبو تمام فى نحو أبياتِك التى أوجبتِ الفضلَ لصاحبك حين قال مبتدئا (٦) :

---

(١) ديوانه ٨٧ . (٢) فى الديوان : رجزا ، وفى ط : نثرا .
(٣) ديوانه ٢٥٥ . (٤) فى الديوان : على روح، وفى ا : على قلب .
(٥) ديوانه : ٨٦ . (٦) ديوانه : ١٤٤ .

لا أنت أنت ولا الديارُ ديارُ خفَّ الهوَى وتقضَّتْ[1] الأوطارُ
كانت مجاورةُ الطلولِ وأهلها زمناً عِذابَ الوِرْدِ فهى بحارُ

وقوله[2] :

رقَّت حوَاشِى الدهرِ فهى تمرمرُ[3] وغدا الثَّرَى فى حَلْيِه يتكسَّرُ

وقوله[4] :

أرأيتَ أىَّ سوالفٍ وخُدودِ عَنَّتْ لنا بين[5] اللِّوى وزَرودِ

وهل يستطيعُ أحدٌ أن يبتدئَ بمثل ابتدائه[6] :

طللَ الجميعِ لقد عفوت حميدا وكفى على رُزْئى بذاك شهيدَا
دِمَنٌ كانَّ البين أصبح طالبا دمنًا لدى آرامها[7] وحقودا

أو مثل قوله مبتدئاً[8] :

يا دارُ دَرَّ عليك إرهامُ الندى واهتزَّ روضُك للثرى فترأَّدَا[9]
وكسيتِ من خِلع الحيا مستأْسداً أنفاً يغادرُ وحْشَهُ مستأسدَا

أو مثل قوله مبتدئاً[10] :

غدَتْ تستجيرُ الدمعَ خوفَ نوَى غَدِ وعاد قتادا عندها كل مَرْقَدِ
فأَذْرَى لها الإشفاقُ دمعاً مورّدًا من الدم يجرى فوق خدٍّ مورّدِ

ولقد أحسن حين ابتدأ فقال[11] :

نُوارٌ فى صواحبها نَوارُ كما فاجاك سِرْبٌ أو صُوار
تكذّب حاسدٌ فنأَتْ قلوبٌ أطاعَتْ واشياً ونأَتْ دِيارُ

وحيث يقول[12] :

ما فى وقوفك ساعةً مِنْ بَاسِ تَقْضِى ذِمام الأَربُعِ الأَدْرَاسِ

(١) فى الديوان : وتولت . والأوطار : الحاجات . (٢) ديوانه ١٥٦ .
(٣) تمرمر : تمايل . (٤) ديوانه ٨٢ . (٥) فى ا : يوم الثوى فزرود .
(٦) ديوانه ٨٧ . (٧) فى ا : أرآمها . (٨) ديوانه ١٢٥ .
(٩) ترأد : اهتز نعمة ، وفى ط : فتأودا . (١٠) ديوانه ١٠٠ . (١١) ديوانه ١٤٠ .
(١٢) ديوانه ١٧٢ .

فلعلّ عينَكَ أنْ تجودَ[1] بدَمْعِها والدمعُ منه خاذِلٌ ومُواسِى

وحيث يقول [2] :

ما عَهِدْنا كذا نحِيبَ المشُوقِ كيف والدمعُ آيةُ المعشوقِ

وحيث يقول [3] :

دِمَنٌ ألمَّ بها فقال سلامُ كم حلَّ عقدةَ صَبْرِه الإلمامُ

نحرت ركاب الركب حتى يعبُرُوا رجلا وقد عنفوا علىَّ ولامُوا

وحيث يقول [4] :

أما الرسوم فقد أذْكَرْن ما سلفا فلا تكفّن عن شانِيك أوْ يكَفا

لاعذرَ للصب أن يَقْنَى السّلوّ ولا للدمع بعد مضىّ الحىّ أنْ يَقِفا

ومن اقتضاباته البعيدة قوله [5] :

لهانَ علينا أن نَقول و نَفْعلا ونذكر بعضَ الفضلِ منكَ فتُفضِلا

وقوله أيضاً مقتضبا [6] :

الحقُّ أَبْلَجُ والسيوفُ عَوارِى فحَذارِ من أُسد العَرِين حَذَارِ

ومما تقدّم فيه كلّ أحد فى حُسْنِ التخلص إلى المدح قوله[7] :

إساءَةَ الحادثاتِ استنبطى نفَقَا قد أظلّك إحسانُ ابنِ حَسّانِ

وقوله [8] :

إذا العيسُ لاقَتْ بى أَبا دُلَفٍ فقد تَقطَّعَ ما بينى وبين النوائب

وقوله [9] :

لم يجتمع قطّ فى مصر ولا طرف[10] محمد بن أبى مروانَ والنُّوَبُ

---

(١) فى الديوان : أن تعين بمائها . (٢) ديوانه ٢١٥ . (٣) ديوانه ٢٧٩ .

(٤) ديوانه ٢٠٠ . (٥) ديوانه ٢٤٢ . (٦) ديوانه ١٥١ .

(٧) ديوانه ٣٢٤ . (٨) ديوانه ٤١ . (٩) ديوانه ٤٧ .

(١٠) فى ا : ولا بلد .

وقوله المنقطع دونه كلّ قول فى هذا المعنى [١] :

إنّ الذى خلق الخلائق قاتَها أقواتَها لتصرُّف الأَحْرَاسِ

فالأرضُ معروفُ السماء قرًى لها وبنو الرجاء لهم بنو العبّاسِ

القوم ظلّ الله أسكن [٢] دينهُ فيهم وهم جَبَلُ الملوكِ الراسى

وقوله [٣] :

عَامِى وعامُ العيسِ بين وَديقَة مَسْجُورةٍ وتنوفةٍ صيهودِ [٤]

حتى أغادِرَ كلَّ يوم بالفلا للطَّير عِيداً من بناتِ العيد

هيهات منها روضةٌ محمودةٌ حتى تناخَ بأحمدَ المحمودِ

بمعرَّس العرب الذى وَجَدَتْ بهِ أَمْنَ المرُوع ونجدةَ المَنْجُودِ

ومن أبدع ابتدائه قوله [٥] :

سقّى ديارهمُ أَجَشُّ هزيمُ وغدَتْ عليهم نضرةٌ ونعيمُ [٦]

جادَتْ معاهدَهم عِهَادُ سحابةٍ ماعَهْدُها عند الديارِ ذَميمُ

ثم تخلّص إلى المدح فقال وأحسن كلَّ الإحسان :

لا والذى هو عالم أنَّ النَّوَى مُرٌّ [٧] وأن أبا الحسين كريم

مازلتُ عن سَنَنِ الوداد ولا غَدَتْ نفسى على إلفٍ سَوَاكَ تحومُ

ثم عاد إلى المدح فقال :

لمحمد بن الهيثم بن شبابةٍ مجدٌ إلى حيثُ السّماكُ مقيم [٨]

ملك إذا نُسِبَ النَّدَى من ملتقى طرَفَيْه فهْوَ أَخٌ له وحَمِيم

---

(١) ديوانه ١٧٣ . (٢) فى ا : أسكن ظله . (٣) ديوانه ٨٢ .

(٤) الوديقة: شدة الحر، والتنوفة: الصحراء والمسجورة، الموقدة والصيهود : الفلاة لا ينال ماؤها.

(٥) ديوانه ٢٩٩، وفى ا : ومن أبدع الابتداع . (٦) الأجش : الغليظ الصوت ، والهزيم : الرعد الشديد الصوت ، وفى الديوان : أسقى طلولهم . (٧) فى ا : صبر .

(٨) فى ا : بن محمد ... إلى حبب ، وفى الديوان : إلى جنب .

وأبو تمام الذى وصف القوافى بما لم يستطع وصفَها به أحد فقال [١] :

فإنْ أنا لم يحمدكَ عنىَ صاغراً ... عدوُّك فاعلم أننى غيرُ حامِدِ
بسيَّاحَة تنساقُ من غير سائق ... وتنقادُ فى الآفاق من غير قائد
محبّبة [٢] ما إنْ تزالُ ترَى لها ... إلى كل أُفق واحدا [٣] غيْرَ وافدِ
مخلقة [٤] لمَّا تردْ أذنَ سَامع ... فتصدرُ إلا عن يمين وشاهدِ

والذى قال أيضاً فى صفتها [٥] :

جاءتكَ من نَظْمِ اللسان قِلادةٌ ... سِمْطانِ فيها اللؤلؤُ المكنونُ
إنسيّة وحشيةٌ كثرَتْ بها ... حركاتُ أهل الأرض وهى سَكُون
حذيت حذاءَ الحَضْرَميّةِ أُرهفت ... وأجادَها التَّخْصِير والتلْسِينُ
ينبوعها خَضِلٌ وحَلْيُ قريضها ... حَلْيُ الهدى ونسيجها مَوْضُونُ [٦]
أَحْذَاكها صنعُ الضمير يمدُّهُ ... حَسَبٌ [٧] إذا نضَب الكلامُ معينُ
أما المعانى فهى أبكارٌ إذا ... نُصّتْ ولكنّ القوافىَ عُونُ

وقد أبدع فى وصفها فقال [٨] :

لم أبقِ حلية منطقٍ إلاّ وقدْ ... سبقتْ سوابقَها إليكَ جيَادى
أبقينَ فى أَعناقِ جُودِكَ جَوْهَراً ... أَبْقى من الأطواق فى الأجيادِ

هل يستطيع أحدٌ أن ينسب هذا أو شيئا منه إلى السَّرَق والاحتذاء ؟ وهل يستطيع مماثلته بشىء من شعر البحترى ، أو أشعار المحدثين فى عصره ومن قبله ؟ فعيّ عن الجواب قُصوراً ، وأحجم عن المساجلة تقصيرا ، وحكمت الجماعة لى بالقَهْر ، وعليه بالنصر ، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترفَ بتقديم أبى تمام فى صنعة البديع

---

(١) ديوانه : ١١٩ . (٢) فى الديوان : مخيمة . (٣) فى الديوان : وافدا ، وفى ط : وافد . (٤) فى الديوان : ومحلفة ، وفى ا : مخلفة . (٥) ديوانه : ٣٣٠
(٦) موضون : مثنى بعضه فوق بعض . (٧) فى الديوان : جفر ، وهو البئر .
(٨) ديوانه : ١٣٥ .

واختراع المعانى على جميع المحدَثين . وكان يوماً مشهوداً .

[الغناء والجمال]

وقال ثمامة بن أشرس : كنتُ عند المأمون يوماً فاستأذن الغلام لعُمَيْر المأمونى فكرهت ذلك ، ورأى المأمون الكراهية فى وجهى ، فقال : ياثمامة، مابك ؟ فقلت : ياأميرالمؤمنين، إذا غنَّانا عمير ذكرت مواطن الإبل، وكُثْبَان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة انبسط أَملى ، وقوى جَذلى ، وانشرح صَدْرى ، وذكرت الجِنان والوِلدان ، كم بين أَن تغنيك جارية غادة كأنها غصنَ بان، ترنو بمقلة وَسْنَان ؛ كأنما خلقتْ من ياقوتة، أو خرطت من فضّة ، بشعر عكاشة العمّى حيث يقول [1] :

من كفِّ جارية كأن بنانها ... من فضة قد طُرّفَتْ عُنّابا
وكأنّ يمناها إذا ضربت بها ... تُلْقِى على الكفّ الشمال حِسابا

وبين أن يغنيك رجل كثّ[2] اللحية، غليظ الأصابع ، خشن[3] الكف ، بشعر ورقاء بن زهير حيث يقول :

رأيت زهيراً تحت كَلْكَلِ خالد ... فأقبلت أسعى كالعجول أبادره [4]

وكم بين أَنْ يحضرك مَنْ تشتهِى النظَر إليه ، وبين من لا يقفُ طَرْفك عليه ؟ فتبسّم المأمون وقال : الفرق بينهما واضح ، والمنهج فسيح ؛ ياغلام ، لا تأذَنْ له ، وأَحضرَ أطيبَ قَيْنَاته ، فظَلِلْنَا فى أَمْتَعِ يوم .

وعكاشة هذا هو عكاشة بن عبد الصمد البصرى ، نقى الديباجة ، ظريف الشعر، وكان شاعرا مجيداً . وقد أخذ معنى قوله أبو العباس الناشئْ وزاد فيه فقال :

وإذا بصُرت بكفها اليسرى حكت ... يدَ حاسبٍ تُلْقِى عليك صنوفا
فكأنما المِضْرَابُ فى أوتارهِ ... قلمٌ يَجَمْجِمُ فى الكتاب حروفا

---

(١) اللآلئ ٥٢٦ ، الأمالى ١ : ٢٣٠ .   (٢) فى ا : ملتف .
(٣) فى ا : شثن .   (٤) العجول : الثكلى والواله من الأبل والنساء .

ويجسُّه إبهامُها فكأنما في النَّقْر تنفى بهْرَجاً وزُيُوفَا

أخذ هذا البيت من قول أبى شجرة السلمى وذكر ناقته :

تَطيرُ عنها حَصَى الطِّرّانِ من بلدٍ كما تُنُوقِدَ عنـد الجِهْبِذِ الوَرِق

وأصله قول امرئ القيس[1] :

كأنَّ صليلَ المَرْوِحينَ تُشِدُّه صليلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَدْنَ بعَبْقَرا

وقال أبو الفتح كشاجم :

لو لم تحركه أنامِلُها كان الهواءُ يُعيدهُ نطقا

جَسَّتْهُ عالمةً بحالته جَسّ الطبيب لمدنف عِرْقَا

غنّت فخِلْت أظنُّنى طرباً أَسْمُو إلى الأفلاك أو أرْقَى

وحسبت يُمْناها تحرّكه رعدا وخِلْتُ يسارَها بَرْقا

وأنشد الحاتمى لأبى بكر الصولى :

وغناء أرقّ من دَمْعة الصبّ وشكوَى المتيّم المهجورِ

يَشْغَلُ المرءَ منظرٌ ثم[2] نطقٌ فهو يُصْغِى بظاهر وضميرِ

صافحَ السمعَ بالذى يشتهيه وأذاقَ النفوسَ طعمَ السرورِ

ليس بالقائل الضعيف إذا ما راض نغما ولا الشنيع الجهيرِ[3]

وقال أبو نواس :

وأهيف مثل طاقةِ ياسمِينٍ له حَظّان من دُنْيَا ودينِ

يحرِّك حين يشدُو[4] ساكناتٍ فتنبعث الطبائعُ للسكونِ

وهـذا مليح ، يريد حركة الجوانح للغناء ، وسكون الجوارح للاستماع . وقال الحمدونى يصف عوداً :

---

(١) ديوانه : ٩٠ ، اللسان — مادة زيف . (٢) فى ا : عن نظر ونطق .

(٣) فى ط : إذا مارام ... ولا شنيع (٤) فى ا : ينشد .

وناطقٍ بلسانٍ لا ضميرَ لهُ ... كأنه فخِذٌ نِيطتْ إلى قدَمِ
يُبْدِى ضميرَ سِواهُ للقلوب كما ... يبدى ضمير سواه مَنْطِق القلمِ

[صفة القيان]

ومن أَحسنِ ما قيل فى صفة القيان قول ابن الرومى[1] :

وقيانٍ كأنها أمهاتٌ ... عاطفات على بنيها حَوَانِى
مُطْفِلات وما حملْنَ جنيناً ... مرضعات ولَسْنَ ذاتِ لبَانِ
ملقمات أطفالهنّ ثديا ... ناهداتٍ كأحسنِ الرُّمان
مفعمات[2] كأنها حافِلات ... وهىَ صِفْرٌ من دِرَّةِ الأَلبانِ
كل طفل يُدعى بأسماء شتى ... بين عُودٍ ومزهر وكِرَانِ[3]
أمه دَهرَها تترجمُ عنهُ ... وهو بادى الغِنَى عن الترجمَانِ

وقال أبو الفتح كشاجم[4] :

جاءت بعُود كأنّ نَغْمتهُ ... صوتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فتى
محفّف حفّت[5] العيونُ بهِ ... كأنما الزهر حولَهُ نبتا
دارتْ ملاوِيه فيهِ فاختلفتْ ... مثل اختلافِ العيونِ[6] مذ ثبتا
لو حركتْه وراء منهزم ... على بريدٍ[7] لعاج والتفتا

وقال[8] :

يقولون تُبْ والكاس فى كفّ أغيد ... وصوت المثانى والمثالث عَا
فقلت لهم لو كنت أَزمعت[9] توبةً ... وشاهدت هذا فى المنام بَدَا لِى

---

(١) ديوانه ٨٤ . (٢) فى ط : منعمات . (٣) الكران ككتاب : العود أوالصنج
(٤) ديوانه ١٧ . (٥) فى الديوان : محفف خفت النفوس .
(٦) فى الديوان : مثل اختلاف الكفين شبكتا ، وفى ط : اختلاق اليدين .
(٧) فى الديوان : على بريد العجلاء . (٨) ديوانه ١٤١ . (٩) فى الديوان: أضمرت

وقال[1] :

أفدى التى كلف الفؤادُ من اجْلها[2] ... بالعُودِ حتى شفّنى إطرابا
تاهَتْ بجمع صناعتين وأظهرتْ ... كبرا بذاك وأُعْجِبتْ إعجابا
قالت فضلتك بالغنـاء وأنت لا ... تشدو وكنا مثلكم كتّابا
فعُنيت بالأوتار حتى لم أدع ... نغما ولم أُغْفِـل لهنّ حسابا
وألفتهـا فأغار ذاك على يدى ... قلمى[3] وعاتبهـــا عليه عتابا
فجعلت للقرطاس جانِبَ صدرِه ... وجعلتُ جانب عَجْزِه مِضْرابا

وقال[4] :

جاءتْ بعُودٍ كأنّ الحُبَّ أَنْحَلَهُ ... فما يرى فيـه إلا الوهمُ والشبَحُ
فحركَتْه وغنتْ بالثقيـل لنا ... صوتاً به الشوقُ فى الأحشاء يَنْقَدِحُ
بيضاء يحضرُ طيبُ اللهوِ ماحضرَتْ[5] ... فإن نأَتْ عنك غاب اللهوُ والفرَحُ
كل اللباس[6] عليهـا مَعْرِضٌ حَسَنٌ ... وكلُّ ما تتغنى فهو مقـترَح

هذا من قول ابن المعتز :

وغنّت فأغنتْ عن المسمِعيـ ... ـن وارتجَّ بالطرب المجلسُ
محاسِنُها نُزْهَة للعيـونِ ... ومَعرِضها كلّ ما تلبس

وقال أيضاً[7] :

أشْتَهِى فى الغناء بُحة حَلْقٍ ... ناغِم[8] الصوتِ متعب مكدُودِ
كأنين المحبِّ أَضعفه الشَّوْ ... قُ فضاهَى به أَنينَ العُودِ
لا أُحِبَّ الأوتار تعلو كما لا ... أَشتهى الضربَ لازِماً للعَمُود

---

(١) ديوانه ٨ . (٢) فى الديوان : لأجلها . (٣) فى ط والديوان : قلبى .
(٤) ديوانه ٢٨ . (٥) فى الديوان : طيب العيش إن حضرت
(٦) فى الديوان : كل الليالى ... (٧) ديوانه ٣٩ .
(٨) فى الديوان : ناعم .

وأحب المجنبات كحبى[1]   للمبادى موصولة بالنَّشيدِ
كهبوب الصبا توسط حالًا   بين حالين شدة وركودِ

وقال[2] :

آه من بُحةٍ بغير انقطاع   لفتـــاةٍ موصولة الإيقاع
أتعبتْ صوتها[3] وقد يُجتنى من   تعبِ الصوت راحةُ الأسماعِ
فغدَتْ تكثر الشّجَاجَ[4] وحطّت   طبقاتِ الأوتار بعد ارتفاع
كأنين المحبّ خفّض منهُ   صوتَ شكواه شدّةُ الأوجاع

وقال بعض أهل العصر وهو أبو الحسن بن يونس :

غنّت فأخفت صوتها فى عُودِها   فــكأنما الصوتانِ صوتُ العودِ
غَيْدَاء تأمرُ عودَها فيُطِيعها   أبداً ويتبعُها اتبّـاع وَدُود
أندَى من النُّوَّار صُبحاً صوتها   وأرقّ من نَشْر الثَّنا المعهودِ
فــكأنما الصوتان حين تمازَجا   ماء الغمامةِ وابنــةُ العُنقود

وأبو الحسن هــذا هو على بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى صاحب عبد الله بن وهب الفقيه ، وكان لأبى الحسن فى الشعر مذهب حسن ، وطبعٌ صحيح ، وحَوْكٌ مليح ، وكان عالمًا بالنجوم وما يتعلّق بها من علوم الأوائل وهو القائل :

سقَى اللهُ أكنافَ اللّوى كلما سقى   بضَرْبٍ من المُزْنِ الـكَنَهْوَرِ هاملِ[5]
إذا نشرت ريحٌ جُمانَ سحابةٍ   غدَا وهو حَلْىٌ للرياضِ العوَاطِلِ
به وَجْـدُ رَعْد ليس بين جوانح   ووسواسُ وَدْقٍ ليس بين مفـاصل
إذا كان خـدّ البرق يلمس نبتهُ   تلقّاه دُرُّ النَّور فَوْقَ الخمـائلِ

---

(١) فى الديوان : لحبى .   (٢) ديوانه ١٢٣ .   (٣) فى الديوان : حلقها .
(٤) فى الديوان : البحاح. (٥) الـكنهور من السحاب : قطع كالجبال أوالمتراكم منه .

وقال ــ وذكر غلاما :

يجرى النسيمُ على غلائل خَدِّهِ ... وأرقّ منه ما يَمُرُّ عليــهِ
ناولتُه المرآة ينظرُ وَجْهَهُ ... فـكسَتْه فتنة ناظريْه إِلَيْــهِ

وقال ابن المعتز ــ وذكر المرآة :

تُبيِّنني لى كلما رُمْت نظرةً ... وناصحتنى من دون كلِّ صَدِيق
يقابلنى منك الذى لا عدمتهُ ... بلُجَّةِ ماء وهْو غير غَرِيقِ

وقال أبو الفتح كشاجم يصفُ مرآة أهداها :

أخت شمس الصفاء فى الحسن والإشـ ... ـراق غير الإعشاء للأجفان
ذات طوق مشرف من لُجين ... أُجريت فيــه صفرة العِقْيان
فهو كالهالة المحيطة بالبــد ... ر لستٍّ مضين بعــد ثمــانِ
وعلى ظهرها فوارسُ تلهو ... بنُزَاةٍ تَعْــدُو على غِزْلَان
[لك فيهــا إذا تأملت فأل ... حسن مخبر بنيــل الأمانى](١)
لم يكـن قبلها من الماء جرم ... حاصِرٌ نفسَــه بغـيرِ أَوَان
عدّلت عكسها الشعاع فبــدا ... ه إليهــا ورَجْعه سِيّانِ
وهى شمسٌ وإنْ مثالك يوماً ... لاح فيهــا فإنهــا شَمْسَان
أينما قابلتْ مثالَك من أر ... ضٍ ففيها تقابل النَّــيِّران
فالقها منــك بالذى ما رآه ... خائف فانثنى بغــير أَمَان

ومن ألفاظ أهل العصر فى مدح الغناء

غِناؤُه كالغِـنَى بعد الفقر ، وهو جَبْرٌ للـكسر(٢) . [غِناؤُه](٣) يبسط أَسِرَّةَ الوَجْهِ ، ويرفعُ حجابَ الأُذْن ، ويأخذُ بمجامِع القلْب ، ويحرِّك النفوس ، ويرقص

(١) من ا . (٢) فى ا : وهو عذر للسكر . (٣) من ا .

الرءوس . فلان طبيب القلوب والأسماع ، ومحيي مَوَات[1] الخواطِر والطّباع ، يُطْعِم الآذانَ سروراً ، ويقدح فى القلوب نوراً . القلوبُ من غنـائه على خَطر ، فـكيف الجيوب ! السكر على صوتِه شهادة . كل ما يغنّيه مقترَح . لغنائه فى القلْبِ موقع القَطْر فى الجَدْب . نغمة نغمته تطرب ، وضروب ضَرْبه لا تضطرب . وقيل : السماع مُتْعَة الأسماع ، وإدامُ المدام .

[الأقلام]

لبعض الكتاب

أَهـدى بعضُ الـكتّاب إلى أخٍ له أقلاماً وكتب إليه : إنه ـ أطال اللهُ بقاءك ، لما كانت الـكتابةُ قوامَ الخلافة ، وقرينة الرياسة ، وعمودَ المَمْلـكة ، وأعظم الأمور الجليلة قَدْرا ، وأعلاها خَطَرًا ، أحببتُ أن أُتْحِفك من آلاتها بما يخفّ عليك مَحْمله ، وتثقل قيمتُه ، ويكثر نَفْعُه ؛ فبعثتُ إليك أقلاماً من القصب النابت فى الأَعْذَاء[2] ، المغذوّ بماء السماء ، كاللآلئ المـكنونة فى الصَّدَف ، والأنوار المحجوبة بالسّدف ، تَنْبُو عن تأثير الأسنان ، ولا يثنيها غَمْز البَنان ، قد كسَتْها طباعها جوهراً كالوشى المحبّر ، وفرند الديباج المنيّر ، فهى كما قال الـكميت :

وبيضٍ رقاقٍ صِحاح المتـو نِ تسمع للبيض فيها صَرِيرا
مُهنَّدة من عَتـادِ الملوك يكاد سَنَاهنّ يُعشِى البصيرا

وكقدح النبل فى ثقل أَوزانها ، وقُضُب الخيزُران فى اعتـدالها ، ووشيج الخطّ فى اطّرادها ، تمرُّ فى القراطيس كالبَرْقِ اللائح ، وتجرِى فى الصحف كالماء السائح ، أَحسن من العِقْيان ، فى نحورِ القِيَان .

لعبيدالله بن طاهر

وكتب عبيد الله بن طاهر[3] إلى إسحق بن إبراهيم من خراسان إلى بغداد يسأله أن يوجِّهَ إليه بأقلام قصبيّة : أما بعد ، فإنّا على طول الممارسة لهذه الصناعة التى غابَتْ

(١) فى ا : ممات . (٢) العذى : الزرع لايسقيه إلا المطر . وفى ا : الأغذاء .
(٣) صبح الأعشى ٢ ـ ٤٥١ ، والعقد ٤ ـ ١٩٩ ، لعلى بن الأزهر .

على الاسم ، ولزمت لزوم الوَسْم ، فحلّت محل الأنساب ، وجرت مَجْرَى الألقاب ، وجدنا الأقلام القصبيّة أسرعَ فى الكواغد ، وأمرَّ فى الجلود ، كما أن البَحْرية منها أسلس فى القَراطيس ، وألْين فى المعاطف ، وأكلّ عن تمزيقها ، والتملق بما ينبو من شظاياها . ونحن فى بلادٍ قليلة القَصب ، ردىء ما يوجد بها منه ؛ فأحببت أن تتقدّم فى اختيار أقلام قصبيّة ، وتتأنّق فى انتقائها قِبَلك ، وطلبها فى منابتها ، من شُطوط الأنهار ، وأَرجاء الكروم ، وأن تتيمّم باختيارك منها الشديدة المجسّ ، الصّلبة المعضّ ، الغليظة الشحوم ، المكتنزة الجوانب ، الضيّقة الأَجواف ، الرزينة الوَزْن ، فإنها أبقى على الكِتاب ، وأبعد من الحفاء ، وأن تقصدَ بانتقائك منها للرقاق القضبان ، اللطاف المنظر ، المقوّمات الأوَد ، المُلْس العُقد ، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أَمْت ؛ وضُمّ الصافيةَ القشور ، الخفية الأُبَن[1] ، الحسنة الاستدارة ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة مابين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القوام ، تكادُ أسافلها تهتزّ من أعلاها ، لاستواء أُصولها برءوسها ، المستكملة يبسا ، القائمة على سوقها ، قد تشرّبت الماءَ فى لِحائها ، وانتهت فى النُّضْجِ منتهاها ، لم تعجّل عن تمام مصلحتها ، وإبّانِ يُنْعِها ، ولم تؤخّر فى الأيام المخوفة عاهاتها ؛ من خصر الشتاء ، وعَفَنِ الأنداء ، فإذا استجمعتْ عندك أمرْتَ بقطعها ذِراعا ذراعا ، قَطْعاً رفيقاً تتحرّز معه أن تتشعّبَ رءوسها ، أو تنشق أطرافها ، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأَوعية ، وعليها[2] الخيوط الوثيقة ، ووجّهْتَها مع من يحتاط فى حراستها وحفظِها وإيصالها ؛ إذ كان مثلها يُتوانى فيه ، لقلّة خطرِها عند من لا يعرفُ فَضْلَ جوهرها ؛ واكتب معه بعدَّتها وأصنافها وأجناسها وصفاتِها ، على الاستقصاء ، من غير تأخير ولا إبطاء .

لإسحاق بن إبراهيم

فأجابه ووجّه إليه مع الأنابيب : أَتانى كتاب الأمير — أعزّه الله تعالى — بما أمر به وخصه ، من البعث بما شاكل نَعْتَه ، وضاهى صِفَته ، من أجناس الأقلام ،

---

(١) الأبنة : العقدة فى العود ، وفى ط : الأين .　　(٢) فى ا : وعليتها .

فتيممت بُغيته قاصداً لها ، وانتهجتُ معالمَ سُبُلِه آخذا بها ، فأنفذْتُ إليه حزماً أنشئت بلطيف السّقيا ، وحُسْن المهد والبُقْيا ، لم تعجل بإخراجها ، ولا بُودِرتْ قبل إدراكها . فهى مستويةُ الأنابيب معتدلتها ، مثقّفة الكعوب مقوّمتها ؛ لا ترى فيها أَمْتُ زَوَرٍ[1] ، ولا وصم صغر ولا عِوَج ، وقد رجوت أن يجدَها الأمير عند إرادته وحسَب بُغْيَتِه .

لمنصور بن عمار

ومن كلام منصور[2] بن عمّار فى صفة القلم ، ويقال إنه لسليمان بن الوليد الكاتب :

أو ليس من عجائب اللهِ فى خَلْقِه ، وإنعامِه على عباده تعليمه إياهم الكتابَ المفيد للباقين حكم الماضين ، والمخاطب للعيون بسرائر القلوب ، على لغات مختلفة ، بمعان مفترقة معقودة ، وأَحرفٍ مقلوبة ، من ألف وتاء ، وجيم وباء ، متباينات الصور ، مختلفات الجهات ، لقاحها التفكير ، ونتاجها التأليف ، تخرس مفردة ، وتنطِقُ مزدوجة ، بلا أصواتٍ مسموعة ، ولا أَلْسُنٍ محدودة ، ولا حركات ظاهرة ، بل قلم حرّف بارِيه قطّته ، ليعلقَ المدادُ به ، وأرْهَف جانبيه ليردّ ما انتشر عنه إليه ، وشقّ فى رأسه ليحتبس الاستعداد[3] عليه ، ورفع من شعبتيه لتجتمع حواشى تصويره ؛ فهنالك روى القلم فى شِقّه ، وقذف المادة إلى صدره ، فإذا علقتها العيون حكتْها الأَلسن ، فالقلوبُ حينئذ رَاعِية ، والآذان واعِية ، لكلامٍ سَدّاه العَقْل ، وألحمه اللسان ، وأدّته اللهوات ، ولفظته الشّفَاه ، ووعته الأسماع ، على اختلاف أنحاء ، من صفاتٍ وأسماء ؛ فتبارك الله أحْسَنُ الخالقين .

للنجيرمى

جمل من رسالة كتبها بعض أهل العصر ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمى فى القلم إلى أبى عمران بن رياح[4] :

إنه لما كان القلمُ مطيّةَ الفِكْر والبيان ، ومُخْرِجَ الضمير إلى العِيان ، ومستنبطاً ما تُوارِيه ظُلَمُ الجَنَانِ إلى نُورِ البيان ، ومُريح الفطنِ العوازب ، وجالبَ الفِكَرِ

---

(١) الزور — بالتحريك : الميل ، وفى ط : أمت ولاعوج . (٢) فى ط : أبى منصور ، العقد ٢ — ١٩١ . (٣) فى ط : الأمداد ، وفى العقد . المداد .

(٤) فى ط : ابن عبد الله البحترى فى القلم إلى ابن عمران بن رباح ، وهذا من ا .

الغرائب [ولسان الغائب ، وبزالـكاتب ، ومكتّب الـكتائب][1] ، ومفرق الجلائب، وعماد السّلْم ، وزناد الحرب ، ويدَ الحدثَان ، وخليفَة اللسان ، ورأس الأدوات التى خصّ الله بها الإنسان، وشرّفه بها على سائر أصناف الحيوان، ومركباً لآلة تقدّمَتْ كلّ آلة، وحِكْمة سبقَتْ فى الإنسان كلّ حكمة ، وَقوَاماً لهندسة عقلية ، ومصدرا لعَقْلِ العاقل ، وجهل الجاهل. الناقل إلينا حِكَمَ الأولين، وحاملها عنا إلى الآخرين ، الحافظ علينا أَمْرَ الدنيا والدين ، أول شىء خلقه الله بأمره وسَبَّحه ، ومجّده وحمِده وسجدَ له، فكان له فرسان خُلِق لهم وكُنْت عميدَهم، وأقران قُصِر عليهم، وأنت صنديدهم، وميدان كنت زينه، ومضمار كنت عَيْنَه ، وحِلْيَة كنت سابقها ، ومعجزها ، وغاية كنت مَالِـكها ومُحْرِزَها ، ورمت بى الأيام إلى معدنه الذى كلفت به وعنيت بطلبه ، فانفردت منه بقدح فَذّ أَوْحد ، فَرْد فى منبته ، قدساعدت عليه السعود فى فلك البروج حولا كاملا ، مُخْتلف يُؤَلّفه أركانها وطباعها ، ومتباين أنوائها وأنحائها ، وتؤيده بقواها وجواهرها ، حتى غذَته عرقا فى الثرى معرقاً ، وأرضعته ناجماً ، وسقته مكمباً، وأروته مقصباً، وأظمأته مكتهلا ، ولوحته مستحصداً ، وجللته بهاءها ، وألقت عليه عنوانها ، وأودعته أعراقها وأوراقها وأخْلَاقها ، حتى إذا شق بازله ، ورقّت شمائله ، وابتسم من غشائه، ونادى من لحائه ، وتعرى عن[2] خز المصيف ، بانقضاء الخريف، وانـكشف عن لون البيض المـكنون ، والصدف المخزون ، ودر البحار ، وفتات[3] الجمار ، دعا منه نَفَق[4] العَاج بنقبة الديباج ، وقميص الدرر بطراز النساج ، فاجتمعت له زينة الأيدى البشرية ، إلى الأيدى العلوية ، والأنسابِ الأرضية إلى الأنساب السماوية ، فلماقادته السعادة إلىّ، ورأيته نسيجَ وَحْدِه فى الأقلام ، رأيت أولى الناس به نسيجَ وَحْـدِه فى الأنام ، فآثرْتك به مُؤْثراً للصنيعة ؛ عالماً أن زين الجيادِ فرسانها ، وزين السيوف أقرانها ، وزين بزة لابِسها[5] ، وزَيْنَ أَداةٍ ممارسها ،

---

(١) من ا .   (٢) فى ا : وتفرى عنه .   (٣) فى ا : وفتاق .

(٤) فى ط : نرى له نقوة العاج وبيضته ، والنقوة : الخيار .   (٥) فى ا : مصلتها .

فالآن أعطيت القوس باريها ، وزناد المكارم مُوريها ، والصمصامة مصلتها ، والقناة مُعملها ، وحلّة المَجْدِ لَابِسها .

النجيرمى وبديهته

وكان النجيرمى جَيِّدَ الروية والبديهة فى نظمه ونثره ، حلو التصريف ، مليح التأليف ، وكان يوماً عند أبى المسك كافور الإخشيدى فدخل عليه أبو الفضل ابن عياش فقال : أدام الله أيام ِسيدنا الأستاذ ـ بالخَفْض ، فتبسّم كافور إلى أبى إسحاق فقال ارتجالا :

لا غَرْوَ إن لَحن الدّاعِى لسيِّدنا وغُصَّ من هَيْبَةٍ بالريق ِ والبُهُرِ
فمثل سيدنا حالت مهَابتهُ بين البليغ وبين القول بالحصَر
فإن يكن خفَضَ الأيام من دَهش ٍ من شدةِ الخوف لا مِنْ قِلَّة البَصَر
فقد تفاءلت فى هـذا لسيدنا والفأل مأثرة عن سيّد البشر
بأن أيامه خَفْضٌ بلا نَصَبِ وأن دولته صفوٌ بلا كَدَرِ

فأمر له بثلثمائة دينار ولابن عياش بمائتين .

وقال حمدان [١] الدمشقى يصف قلماً :

للإِيْم بعثته وشَقّ لِسَانهِ وله إذا لم تُجْرِه إطراقهُ
كالحيَّـةِ النَّضْنَاضِ إِلاّ أنهُ من حيث يَجْرِى سمه ترْيَاقُه

للعتابى فى الأنابيب والبرى

قال العتابى : سألنى الأصمعى فقال لى : أى الأنابيب أَصْلَحُ للكتابة وعليها أَصبر ؟ فقلت : مانشِفَ بالهجير مَوُّه ، وستره عن تلويحه غشاؤه ، من التِّبرية القشور ، الدرّية الظهور ، الفضية الكسور . قال : فأىّ نوع من البرْى أكتبُ وأَصْوب ؟ قلت : البرّية المستوية القطّ ، عن يمين سنّها [٢] بَرية ، تأمن معها المجّة عند المط [٣] ، الهواء فى مشقّها فتيق ، والريح فى جوفها خَريق ، والمِدَاد فى خرطومها رقيق ، قال : فبقى الأصمعى شاخصاً إلىّ ضاحكا لا يحير مسألة ولا جوابا .

---

(١) فى ط : حماد . . (٢) فى ط : شقها . (٣) فى ط : الخط .

[العتابى وأدبه]

أدبه

والعتابى هو كلثوم بن عمرو بن الحرث التغلبى ، يُكْنَى أبا عمرو ، قال أبو عثمان الجاحظ : كان العتّابىّ ممن اجتمع له الخطابة ، والبيان ، والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة ، وعلى ألفاظه وحَذْوِه يقول فى البديع جميعُ من يتكلّف ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النَّمَرى ، ومسلم بن الوليد الأنصارى ، وأشباههما ، وكان العتّابى يَحْتذى حَذْو بشّار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أجودُ بديعاً من بشار وابن هرمة — والعتابى من ولد عَمْرو بن كلثوم بن مالك بن عَتّاب بن سعد ولذلك قال :

إنى امرُؤٌ هدم الإقتار مأثُرتى ... واجتاح ما أَبْدَتِ(١) الأيامُ من خطرى

أَنَا ابنُ عمرو بن كلثوم يسوّدهُ ... حيّا ربيعةَ والأحياءُ من مضرِ

أرومَةٌ عطّلَتنى من مكارمها ... كالقوسِ عطّلها الرامى من الوترِ

وكان صاحبَ بديهة فى المنظوم والمنثور ، حسن العقل والتمييز . والعربُ تقول : من تمنَّى رجلا حسنَ العَقْلِ ، حسَنَ البيانِ ، حسنَ العِلْم ، تمنَّى شيئاً عسيراً . وقد اجتمع ذلك كلّه للعتابى .

لبسه

وعاتبه يحيى بن خالد على لباسه ، وكان لا يُبالى أى ثوبيه ابتذل ! فقال : أَبعدَ اللهُ رجلا مهمّته أن يكون جمالُه فى لباسه وعِطره . إنما ذلك حظُّ النساء ، وأهل الأَهواء ، حتى يرفعه أكبراه : هِمّته ولبّه ، ويعلو به معظماه لسانُه وقَلْبه .

ودخل على الرشيدَ فقال : تكلّم يا عتّابى ! فقال : الإيناس قبل الإبسَاس ، لا يُمدحُ المرء بأوّل صَوابه ، ولا يُذمّ بأول خَطئه ؛ لأنه بين كلامٍ زوَّرَه أو عىٍّ حَصَره .

وذكر أبو هفّان أنّ الرشيد لقيَه بعد قَتْل جعفر بن يحيى وزوال نِعمته فقال : ما أَحْدَثت بعد يا عتّابى ؟ فأنشده ارتجالا(٢) :

تلومُ على ترْكِ الغِنَى باهليةٌ ... طَوَى الدهرُ عنها كلّ طِرْفٍ(٣) وتَالِدِ

(١) فى ا : ما هدم .   (٢) الأغانى ١٢ـ٨ .   (٣) الحديث من المال ، وفى الأغانى : ذوى الفقر .

رأتْ حولها النسوان يرفلن فى الكُسا ... منظمةً أَجيـادُها[١] بالقلائدِ
أَسَرَّكَ أنى نِلْتُ ما نال جعفرٌ ... من الملك أو ما نالَ يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أَغَصَّنِي ... مغصَّهُما بالمرهفاتِ البوارِدِ[٢]
فإنّ رفيعات المعالِي مشوبةٌ ... بمستودعاتٍ فى بطونِ الأساود

انحرافه عن البرامكة

وكان متحرفاً[٣] عن البرامكة، وفيهم يقول :

إن البرَامِكَ لا تنفكُّ أَنْجِيَة[٤] ... بصفحة الدّين من نجواهُمُ نَدَبُ[٥]
تجرّمَتْ[٦] حججٌ منهم ومُنْصلُهم ... مضرَّج بدم الإسلام مختضِبُ

واجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنزل العتّابى ، فقال : أليس هذا منزلُ كلثوم ابن عَمْرو ؟ قيل : نعم ، فثَنَى رجله ، ودخل إليه ، فألفاه جالسا فى بَيْتِ كُتبه ، فحادَثه وذاكَره ، ثم انصرف. فتحدّث الناسُ فى ذلك ، وقالوا : إن الأمير لم يَقْصِد، وإنما اجتاز به فأَخْطَرَ ذلك الزيارةَ ، فكتب إليه :

يا مَنْ أَفادَتْنِي زِيارَتُه ... بَعْدَ الخمول نباهةَ الذكْرِ
قالوا الزيارةُ خَطْرةٌ خَطَرت ... ومجاز[٧] خَطْرِكَ لَيْس بالخطر
فادْفَعْ مقالَتهم بثالثة ... تستَنْفِد المجهودَ مِنْ شكرى
لا تجعلَنّ الوِتْرَ واحدةً ... إن الثلاث تتمةُ الوتر

فبعثته الأبياتُ إلى أَنْ زَارَ ثلاثاً .

ميله إلى المأمون

وكان يميل إلى المأمون ، فلما خرج المأمون إلى خُراسان شيَّعه حتى وصل معه إلى سندان[٨] كِسرى ، فقال له المأمون : سألتك باللهياعتّابى إلا عملتَ على زيارتنا

---

(١) فى الأغانى : فى الثرى مقلدة أعناقها . (٢) فى الأغانى : بالمشرفات .
(٣) فى ط : منحرفا. (٤) النجى: المتناجون، والجمع الأنجية . (٥) جمع ندبة: أثر الجرح الباقى على الجلد . (٦) تجرمت : انقضت ، وفى ط : تصرمت .
(٧) فى ا : وبحار . (٨) هكذا بالأصول ؛ ولعلهاسنداد (ارجع إلى معجم ما استعجم — سند) .

إنْ صار لنا من هذا الأَمر شئ . فلما ولى المأمون الخلافةَ ، ودخل بغداد سنة أربع ومائتين توصَّل إليه العتّابى ، فلم يمكنه الوصول ، فقال للقاضي يحيى بن أكثم : إن رأيتَ أَن تُعلِم أميرَ المؤمنين بمكانى ! فقال : لَسْتُ بحاجب! قال: قدعلمت، ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل مِعْوان ! فقال : سلكتَ بى غير طريق ! قال : إن الله تعالى ألحقك بجاهٍ ونعمة ، وهما يقيمان عليك بالزيادة إن شكرت ، والتغيير إن كفرت ، وأنا اليوم لك خيرٌ منك لنفسك ؛ أدعوك لما فيه زيادة نعمتك ، وأَنت تَأْبَى ذلك؛ ولكلِّ شئ زكاة ، وزكاةُ الجاهِ بَذْلهُ للمستعين . فدخل يحيى على المأمون فقال: أَجِرْنى من لسان العتَّابى ، فلهَا عنه ، ولم يأذن له ، فلما طال عليه كتب إليه :

ما على ذلك افترقنا بسندا ... ن ولا هكذا عَهدْنا الإخاءَ

لم أكن أحسب الخلافة[1] يزدا ... د بها ذو الصفاء إلاّ صفاء

تضرب الناس بالمثقّفة السُّمـ ... ـرِ على غَدْرِهم وتنسى الوفاءَ

يعرِّض بقتله لأخيه على غَدره ، ونكثه لمِاَ عقد الرشيد . فلما قرأ المأمون الأبيات أمر أن يُدْخَل عليه . فلما سلم قال : يا عتابى ، بلغتنى وفادَتك فسرَّتنى ، وقد كانَتْ بلغَتْنِى وفاتُك[2] فساءَتنى ، وإنى لحرىٌّ بالغم لبُعدِك ، والسرور بقربك! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو قسم هذا الكلام على أهلِ الأرض لوسعهم عَدْلا ، وأَعجزهم شكراً ، وإنّ رضاك لغاية المُنَى ؛ لأنه لادينَ إلا بك ، ولادنيا إلا معك. قال : سَلْنى ، قال: يَدُك بالعطية أَطلق من لسانى بالمسألة ، فأمر له بخمسين ألفا .

من شعره فى جارية يودعها

وقال العتابى وودّع جاريةً له :

ما غَناءُ الحِذَارِ والإشفاقِ ... وشآبيب دمعِك المُهْرَاقِ

ليس يَقْوَى الفؤادُ منك على الصَّـ ... ـدِّ ولا مُقْلتَا طَلِيحِ المآقى[3]

غدرات الأَيَّامِ منتزِعاتٌ ... ماغنِمْنا من طول هذا العِناق

---

(١) فى ا : الخليفة . (٢) فى ا : وفادتك . (٣) من طلح : أعيا وفى ا : الأماق .

إنْ قضى اللهُ أن يكون تلاقٍ ... بعد ما قد ترين كان تلاقِ

هوِّني ماعليك وأقنىْ حَيَاءً ... لستِ تبقين لِي ولستُ بِبَاقِ

أيّنا قدّمَتْ صروفُ المنايا ... فالذى أخِّرتْ سريعُ اللّحاقِ

ويدُ الحادثات رَهْنٌ بمُرّا ... تٍ من العيشِ مُصْبِرَاتِ المذاق

غُرّ مَنْ ظن أن يفوت المنايا ... وعُراها قلائدُ الأعناق

كم صفِيَّيْنِ مُتّعا باتفاقٍ ... ثم صارا لغُرْبَةٍ وافتراقِ

قلت للفرقدين والليلُ مُلْقٍ ... سُودَ أكنافِه على الآفاقِ

ابقيَا ما بقيتما سوف يُرمى ... بين شخصيكما بسَهْمِ الفِراقِ

بينما المرءُ فى غضارةِ عَيْش ... وصلاحٍ من أمرِه واتّفاق

عطفتْ شِدّةُ الزمان فأدّتْـ ... ـه إلى فاقةٍ وضيقِ خِنَاقِ

لا يدومُ البقاءُ للخَلْق لَكِنْ ... نَ دوامَ البقاءِ للخَلاَّق

وقال فى الرشيد : — من شعره فى الرشيد

إمامٌ له كفٌّ تضمّ بَنَانُهَا ... عصا الدّين ممنوعاً من البَرْىِ عودُها

وعينٌ محيطٌ بالبريّة طَرْفُها ... سواءٌ عليها قُربها وبَعِيدُها

وقال فيه :

رعى أمّةَ الإسلام فهو إمامُها ... وأدّى إليها الحقّ فهو أَمِينُها(١)

مقيمٌ بمستَنّ الفَلاحيثُ تَلْتقِى ... طَوارِقُ أبكارِ الخطُوبِ وعُونُها

وكان منصور النمرى سَعَى به إلى الرشيد نخافه ، فهرب إلى بلد الروم ، وله قصائد يعتذِرُ فيها جيدةٌ مختارةٌ ، وهو مشبّهٌ فى حسن الاعتذار بالنابغة الذبيانى ، ومن جيّد اعتذاره قوله للرشيد ، ويقال : بل قالها على لسانِ عيسى بن موسى الهاشمى يخاطب الرشيد : — هربه بعد سعايته واعتذاره — من جيد اعتذاره

(١) فى ط : معينها .

جعلتُ رجاء العفو عذراً وشُبْتُهُ ... بهيبة إمّا غافرٍ أو مُعاتبِ
وكنتُ إذا ما خفت حادث نَبْوَةٍ ... جعلتك حِصْناً من حذَارِ النّوائبِ
فأنْزَل بي هِجرانُك اليأسَ بعدما ... حللتُ بوادٍ منك رَحْبِ المشارب
أظل ومَرْعَاىَ الجديبُ مكانه ... وآوي إلى حافات أكدرَ نَاضِب
ولم يثن عن نفسي الردَى غير أنها ... تنوءُ بباقٍ من رجائك ثائب
هي النفسُ محبوسٌ عليك رجاؤُها ... مقيدة الآمالِ دون المطالبِ
وتحتَ ثياب الصبر مني ابنُ لَوْعةٍ ... يظلُّ ويُمْسِي مستَلين الجوانب
فتى ظفرتْ منه الليالي بَزلَّةٍ ... فأقْلَعْنَ عنه دامياتِ المخالب
حنانيك إني لم أكُنْ بعت عِزَّةً ... بذُلٍّ وأحرزتُ المنى بالمواهبِ
فقد سُمتني الهجران حتى أذَقْتَني ... عقُوبةَ زلاّتي وسوءَ مناقِب
فها أنا مُقْصًى في رِضَاك وقابضٌ ... على حدّ مصقولِ الذبابيْن قاضِبِ
ومنتزِعٌ عما كرِهتَ وجاعلٌ ... هواكَ مثالا بين عينِي وحاجبي

وفي هذه القصيدة مما يختار أهل الصناعة :

وأشْعَثَ مشتاق رمَى في جفونه ... غريب الكرى بين الفِجَاج السباسِبِ
سَحَبْتُ له ذَيلَ السُّرَى وهولابِسٌ ... دُجَى الليل حتى مجّ ضوءَ الكواكب
ومن فوقِ أكوارِ المهارى لبانةٌ ... أُحِل لها أكلُ الذّرَى والغَوَاربِ
وكلٌّ فتى عاداتُه قَصْر شَوْقِه ... وطيٌّ الحشى دونَ الهموم العوازِب
يُسِرّ الهوَى لم يُبْدِه نعت فرقةٍ ... صُراخاً ولم تسمَعْ به أُذْنُ صاحبِ
إذا ادَّرع الليل انجَلى وكأنّه ... بقيةُ هنديٍّ الحسام المضارب
برَكْبٍ ترى كَسْرَ الكرى في جفونهم ... وعَهدَ الليالي في وجوهٍ مَشَاحِبِ

وقال أيضاً :

لو رأتني بذي المَحَارَةِ[1] فَرْدًا ... وذِراعُ ابنة الفَلاةِ وسَادِي

---

(١) في ط : ذرى المجادة .

أُطفِئُ الحزنَ بالدموع إذا ما حُمَةُ الشوقِ أثَّرتْ فى فؤادى
خاشع الطرف قد توشَّحَنى الضر فلانَتْ له قناةُ قِيادى
تِرْب بُؤس أخا هموم كأنّ الْ حُزْنَ والبؤسَ وافيا مِيلَادِى
وكأنى استشعرت ما لفظ النا س من النائِرَاتِ والأَحقادِ
أتصدَّى الرَّدَى وأدَّرِع الليـ ل بهَوْجَاء فوقها أقتَادِى
حَظُّ عينى من الكرى خفقاتٌ بين سَرْحِى[1] ومُنْحَنَى أعْوَادِى
أَوْحَشَ الناسُ جانبيَّ فما آ نَسُ إلاّ بوحدتى وانفرادى
قد رددت[2] الذى به أتقى النا س وأبرزتُ للزمان سَوَادِى
فاستهلَّتْ علىّ تمطرنى الشو ق شآبيب مُزْنةٍ مِرْعَادِ

وقال :

أما راعَ قَلْبَ العامريةِ أننى غدوتُ ومرجوعُ السقامِ قرينى
أُكاتِمُ لَوْعاتِ الهوَى وبينها تخلّل ماءَ الشوق بين جُفُونى
ومطروفة الإنسان فى كل لوعة[3] لهـا نظرةٌ موصولة بحَنين

[آل وهب]

للحسن بن وهب فى البكاء

وقال الحسن بن وهب بن سعيد :

ابْك فمِنْ أحسن ما فى البكا أنّ البكا للوَجْـد تحليلُ
وهْـو إذا أنت تأملتهُ حـزن على الخدّين محلول[4]

وقد أعرق بنو وَهْب فى الكتابة وأنجبوا ، ولهم فى هذا الكتاب ما يشهد لهم بما نُسب إليهم ، وفيهم يقول الطائى[5] :

كل شِعب كنتُم به آل وَهْبٍ فهو شعبى وشِعْبُ كلِّ أَديبِ

---

(١) فى ط : صرحى . (٢) فى ا : سروت ... ... يتقى اليأس .
(٣) فى ا : تلعة . (٤) فى ط : محول . (٥) ديوانه : ٣٨ .

إن قلبى لـكم لـكالـكبد الحرْ رَى وقَلْبى لغيركم كالقُلُوبِ

وفى هى القصيدة يقول فى مدح سليمان بن وهب :

ما عَلَى الوُسجِ الرَّوَاتِك[1] من عيـ ب إذا ما أتتْ أبا أيوبِ
حُوَّلٌ لاَ فِعالُه مرتع الذمـ م ولا عِرضه مناخ[2] العُيُوبِ
واجد بالصديق منْ بُرَحَاء الـشَّـ وقِ وجدانَ غَيْرِه بالحبيب

أخذ سليمان منه معنى هذا البيت الأخير، فقال فى رسالة لبعض إخوانه :

ظرْفُ الصداقة، أرقّ من ظرف العلاقة ، والنفس بالصديق آنس منها بالعشيق .

فقال له أبو تمام : كلامك هذا أَرقّ من شعرى .

شعره

والحسن بن وهب حَسَنُ الشعر والبلاغة ، جيّد اللسان ، حلو البيان ، وكان يحب بنان[3] جارية محمد بن حمّاد ، وله فيها شعر جيد ، ولها يقول :

أقول وقد حاولتُ تقبيلَ كفّها وبى رِعدةٌ أهتزُّ منها وأسكن
ليهنئك أنّى أَشْجَعُ الناسِ كلّهم لدَى الحربِ إلا أننى عنك أَجْبُنُ

وحضرت مجلسه وبين يديه نار فأمرت بإزالتها ، فقال[4] :

بأبى كَرِهت النارَ حتى أُبعِدتْ[5] فعلمت ما معناكِ فى إبعادها
هى ضَرَّةٌ لكِ فى الْتِمَاع ضِيائها وهبوبِ نَفْحَتِهـا لدى إيقادها
وأَرَى صنيعك فى القلوب صنيعَها بسَيَالها وأَراكِها وعَرَادِها[6]
شَرِكَتْكِ فى كلِّ الأمورِ بِفِعْلِها وضِيائها وصَلاحِها وفسادِها

وإلى هذا ينظر قول الأمير تميم بن المعزّ :

ما هجرتُ المُدامَ والوردَ والبدْ رَ بطَوْعٍ لـكن برَغْمٍ وكُرْهِ

---

(١) الوسج : النوق المسرعات والرواتك : متقاربات الخطى فى السير ، وفى ط : الرزح الرقائل من عتب. (٢) فى الديوان : مراح . (٣) فى ا : بنات . (٤) الأمالى ١ـ٢١٧ اللآلى ٥٠٦ .
(٥) فى الأمالى : لما أوقدت . (٦) فى ط ، ا : وعدادها، والسيال : شجر سبط الأغصان .

منعتنى من الثلاثة من لو قتلتنى لم أحكِ والله مَنْ هى
قالت الوردُ والمدامةُ والبد رُ ضيائى ولونُ خدّى ووَجْهِى
قلت بخلاً بكلّ شىء فقالت لا ولكن بخلت بى وبشِبْهِى
قلت يا ليتنى شبيهك قالت إنما يقتل المحبَّ التَّشَهِّى

سليمان بن وهب وعلمه

ولما مات الحسنُ بن وهب وكان موته بالشام عُزّى عنه أَخوه سليمان فجاء أبو العيناء فقال : أنشدنى أبو سعيد الأصمعى :

لعمرى لنِعْمَ المرءُ من آل جعفر بحوران أمْسَى أعلقَتْه الحبائلُ
لقد فقدوا عَزْماً وحزْما وسؤدداً وعلما أصيلا خالفَتْه (١) المجَاهِل
فإن عِشتُ لم أَملل حياتى وإن تمت فما فى حياتى بعد مَوْتِك طائلُ

فقال سليمان : أَحسن اللهُ جزاءك ، ووصل إخاءك ، إن هذا لمن أحسن الشعر ، وقد تمثّل به قتيبة حين بلغه موتُ الحجاج ، ولكنى أقول كما قال كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار (٢) :

أَخِى ما أَخى لا فاحِشٌ عند بَيْتِهِ ولا وَرَعٌ عند اللقاء هَيُوبُ
حليم إذا ما سَوْرة الجهلِ أطلقَتْ حُبَى الشيب للنفس اللَّجُوج غلوبُ
حبيبٌ إلى الزوّار غِشْيَانُ بَيْتِه جميل المحيّا شبّ وهْو أرِيبُ
إذا ما تراآه الرجالُ تحفَّظُوا فلم تُنطَق العَوْراءُ وهْوَ قريبُ

فانصرف الناس يعجبون من علم سليمان ، وحسن جوابه ، وصحّة تمثله .

والأبيات التى أنشدها الأصمعى للحطيئة (٣) ، واسمه جَرْوَل بن أَوْس بن جُؤَيَّة ابن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيفة بن عَبْس بن بَغيض ، يقولها فى علقمة بن علاثة وفيها يقول :

فما كان بينى لو لقيتك سالما وبين الغِنَى إلا ليالٍ قلائلُ

---

(١) فى ا : حالفته . (٢) الأمالى : ٢ — ١٥٠ . (٣) الأغانى ٢ — ١٥٧ .

من كلامه

قال سليمان بن وهب : لما جار علينا بالنكبة السلطان، وجفانا من أجلها سائر الإخوان ، أنصفنا ابن أبى دواد بتطوّله ، وكفانا الحاجةَ إليهم بتفضّله ، فكنا وإياه كما قال الحطيئة [١] :

جاورتُ آل مقلّدٍ [٢] فحَمِدتُهم ... إذ لا يكادُ أخو جوار يُحْمَدُ

أيام مَن يُرِدِ الصنيعَة يصطَنِع ... فينا ومَنْ يُرد الزهادةَ يَزْهَدُ

وله فصل إلى بعض إخوانه :

لك أن تعتب، وشبيهك أنْ يعذر ؛ فهَبْ أَقل الأمرين لأكثرهما ، وقدّم فضلك على حقّك ، ويقينَك على شكّك .

ووصف رجلا بليغاً فقال : كان واللهِ واسعَ المنطق، جَزْلَ الألفاظ ، ليس بالهذِر فى لفظه، [ولا المظلم فى مقصده ؛ معناه إلى القلم أسرَع من لَفظِه إلى السَّمع] [٣] . وهـذا ضدّ قول محمد بن عبد الملك الزيات فى عبيد الله بن يحيى بن خاقان : هو مهزول الألفاظ ، غليظ المعانى ، سخيفُ العقل ، ضعيف العقدة ، واهِى العَزْم ، مأفونُ الرأْى .

ألفاظ لأهل العصر فى ذمّ الكِتَاب والكتّاب والنثر والشعر

الخرس أَحسنُ من كلامه، والعِىّ أبلغُ من بيانه . خاطره يَنْبُو، وقلمه يَكْبُو، ويسهو ويغلط ، ويخطىء ويُسقِط . هو قصير باعِ الكتابة ، قاصِر سَعْى الخطابة ، وكُتبه مضطربة الألفاظ ، متفاوتة الأبعاض ، منتشرة الأوضاع ، متباينة الأغراض. الجلم أَولى بكفّه من القَلم ، والطَّاس أَليقُ بها من القرطاس . كلامٌ تنبو عن قبوله الطباع ، وتتجافَى عن استماعه الأسماع . ألفاظٌ تَنْبُو عنها الآذان فتمجّها ، وتنكرها الطباع فتزَجُّها . كلام لا يرْفَعُ الطبعُ له حِجابا ، ولا يفتحُ السمعُ له بابا . كلام

(١) الأغانى : ٢ـ١٧٩ . (٢) فى ط : محمد . (٣) من ا .

يُصْدِى الريّان ، ويصدئ الأفهام والأذهان . كلام قد تعمّل فيه حتى تبذل (١) ، وتكلّف حتى تعسّف . طبع جاسٍ ، ولفظ (٢) قاسٍ ، لا مساغَ له فى سَمْع ، ولا وصول له مع خلو ذَرْع . كلام لا الروِيّة ضربَتْ فيه بسَهْم ، ولا الفكرة جالت فيه بقِدْح . كلام تتعثَّرُ الأسماعُ فى حزونته ، وتتحيَّر الأفهامُ من وعُورته . كلمات ضعيفةُ الإتقان، قليلة الأعيان، مضمحلّة على الامتحان . ألفاظ تُسْتَعَارُ من الدياجى، ومعانٍ تقدّر من الأثافى . كلام بمثله يتسلّى الأخرس عن كلمه ، ويفرح الأصم بصممه . أثقل من الجندل ، وأمرّ من الحنظل . هو هذيان المحموم ، وسوداء الهموم (٣) . كلام رثّ، ومعنى غَثّ ، لاطائل فيهما ، ولا طلاوة عليهما . أبيات ليست من محكم الشعر وحكمه ، ولا من أحجال الكلام وغُرَره . شعر ضعيف الصنعة ردىء الصيغة بغيض الصفة [وقد جمع بين إقواء وإيطاء وإبطاء وإخطاء . ما قطع فى شعره شَعْرة] (٤) ولا سقى قطرة . لوشعر بالنقص ماشعُر . لايميز بين خبيثِ القول وطيّبه ، ولا يَفرِق بين بِكْرِه وثيّبه . هو باردُ العبارة ثقيل الاستعارة . هومن بين الشعراء منبوذ بالعَرَاء . لم يلبَسْ شعرُه حلَّة الطلاوة (٥) . له شعرٌ لا يطيب دَرْسه ، ولا يخف سَرْده ، وخطٌّ مضطرب الحروف ، متضاعف التضعيف والتحريف ، خطّ يقذى العين ويشجى الصَّدْر . خط منحطّ ، كأنه (٦) أرجل البطّ ، وأنامل السرطان ، على الحيطان . قلمه لا يستجيب بَرْيه ، ومداده لا يساعد جَرْيه . قلمه كالولد العاقّ ، والأخ المشاق ، إذا أدَرْتَه استطال ، وإذا قوّمته مال ، وإذا بعثْتَه وقف ، وإذا وقفته انحرف . قلم مائل الشق ، مضطرب المشق، متفاوت [البَرْى ، معدوم الجَرْى، محرّف القطّ . قلم لم يقلم ظفره فهو] (٤) يخدش القِرطاس ، وينقش الأنقاس ، ويأْخُذ بالأنفاس. قلم لا يُبْعث إذا بعثته ، ولا يقف إذا وقفته . قد وقف اضطرابُ [بَرْيِه دون استمرار] (٤) جَرْيه ، واقتطع تفاوت قَطّه عن تجويد خطه .

---

(١) العبارة مضطربة فى ط ، وهذا من ا . (٢) فى ا : قلب . (٣) فى ط : وسورة .
(٤) من ا . (٥) فى ا : الحلاوة . (٦) فى ا : منحط كأرجل البط .

[وصف الكلام]

كلام العرب

ذكر عُتبة بن أبى سفيان كلامَ العرب فقال : إن للعرب كلاما هو أرقّ من الهواء وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مُروقَ السهام من قِسيِّها ، بكلمات مؤتلفات، إنْ فُسِّرت بغيرها عطِلتْ ، وإن بدّلت بسواهَا من الكلام استصعبَتْ ؛ فسهولةُ ألفاظِهم تُوهِمُكَ أنها ممكنة إذا سُمِعَتْ ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبتْ . هم اللطيف فهمهم ، النافعُ علمهم . بِلُغَتِهِمْ نزل القرآن ، وبها يدرَكُ البيان ، وكلُّ نوع من معناه مُبَاينٌ لما سواه . والناسُ إلى قولهم يصيرون ، وبهداهم يأتمّون ، أكثر الناسِ أحلاماً وأكرمُهم أخلاقا .

الكلام الممتنع

وكان يقال : خير الكلام المطمع الممتنع . وأنشد إبراهيم بن العباس الصولى لخاله العباس بن الأحنف (١) :

إليك أَشكو ربّ ما حَلّ بى ... مِنْ صدِّ هـذا العاتِب المُذْنبِ
إنْ قال لَمْ يفعل وإن سِيلَ لم ... يبذلْ وإنْ عُوتب لم يُعْتِبِ
صبٌّ بعصيانى ولو قال لى ... لا تشرب الباردَ لم أشربِ

ثم قال : هذا والله الشعر الحسن المعنى ، السهل اللفظ، العَذْب المستمع ، الصعب الممتنع ، العزيز النظير ، القليل الشبيه ، البعيد مع قُرْبه ، الحَزْن مع سهولته ، فجعل الناس يقولون : هذا الكلام أحسن من الشعر . وقال أبو العباس الناشىء يصف شعره :

الشعر للناشىء

يتحيّر الشعراءُ إن سَمِعوا بهِ ... فى حُسْنِ صنعته وفى تأليفهِ
فكأنه فى قُرْبه من فَهْمِهم ... ونُكولهم فى العَجْزِ عن ترصيفهِ
شجرٌ بدَا للعَيْنِ حسنُ نباتهِ ... ونَأَى عن الأيدى جَنَى مقطوفهِ
فإذا قرنت أبيّه بعُطِيمهِ ... وقرنته بغَرِيبه وطريفه

---

(١) ديوانه ١٤ .

ألفيت معناه يطابق لَفْظَه والنظم منه جليّه بلطيفه
فأتاه متّسقا على إحسانه قد نيط منه رَزينه بخفيفه
هذّبته فجُملته لك باقيا ومنعت صرفَ الدهر عن تَصريفه

وقال الناشئ في فَصْلٍ من كتابه في الشعر : الشعرُ قَيْدُ الكلام ، وعقل الآداب، وسُورُ البلاغة ، ومَعْدن البَراعة ، ومجال الجنان ، ومَسْرَحُ البيانِ، وذريعة المتوسّل ، ووسيلةُ المتوصّل ، وذِمام الغريب ، وحُرْمَة الأديب ، وعِصْمَة الهارب ، وعدّة الراهب ، ورحلة الدّانى[1] ، ودَوْحَة المتمثل ، وروحة[2] المتحمّل ، وحاكم الإعراب ، وشاهدُ الصواب .

وقال في هذا الكتاب : الشعرُ ما كان سَهْلَ المطالع ، فصل المقاطع ، فَحْل المديح ، جَزْل الافتخار ، شجيَّ النسيب ، فكِه الغزل ، سائر المَثَل ، سليم الزلل ، عديم الخلل[3] ، رائع الهجاء ، موجب المعذرة ، مُحَبّ المعتبة ، مُطْمِع المسالك ، فائت المدارك ، قريب البيانِ ، بعيدَ المعانى ، نائى الأغوار ، ضاحى القرار ، نقى المستشف ، قد هريق فيه ماء الفصاحة ، وأضاء له نورُ الزجاجة ، فانهلّ في صَادِى الفهم ، وأضاء في بهيم الرأى . لمتأمله ترقرق ، ولمستشفّه تألّق ، يروق المتوسم، ويسر المترسّم[4] ؛ قد أبدت صدوره مُتونه ، وزَهَتْ في وجوهه عيونه ، وانقادت كواهله لهواديه ، وطابقت [ألفاظه معانيه، وخالفت أجناسه مبانيه، فاطّرد لمتصفحه، وأنار][5] لمستوضحه، وأَشْبَه الروضَ في وَشْى ألوانِه ، وتعمّم أفنانه، وإشراق نوّاره ، وابتهاج أنجاده بأغواره ؛ وأشبه الوشى فى اتفاق رُقومه ، واتّساقِ رُسومه، وتسطير كفوفه ، وتحبير فُوفه ؛ وحكى العِقْد في التئام فُصولِه ، وانتظام وُصوله، وازديان ياقوته بدُره، وفريده بشَــذْرِه ، فلو اكتنف[6] الإيجاز موارده ، وصقلت مَدَاوِس

(١) في ا : الوانى . (٢) في ا : ومنحة . (٣) في ا : الخطأ .
(٤) في ط : المتبرم . (٥) من ا (٦) في ط : قد كشف .

الدربة مَناصله ، وشحذت مدارس الأدب فيَاصِله[1] ، جاء سليما من المعايب ، مهذّبا من الأدناس ، تتحاشاه الأبَن ، وتتحَاماه الهُجن ، مُهْدِيا إلى الأسماع بَهْجَته ، وإلى العقول حِكْمته .

وقد قلت فى الشعر قولاً جعلته مثلا لقائليه ، وأسلوبا لسالكيه ، وهو :

الشعرُ ما قومت زَيْغ صدُورِه ... وشددْتَ بالتهذيب أَسْرَ مُتُونِه
ورأَبْتَ بالإطناب شَعْبَ صدُوعِه ... وفتحْتَ بالإيجاز[2] غور عُيُونِه
وجمَعْتَ بين قريبه وبعيدِهِ ... ووصَلْتَ بين مجمّه ومَعِينه
وعقدت منه لكلّ أمر يقتضى ... شبهاً به فقرَنْته بقرِينهِ
فإذا بكيت به الديارَ وأهلَها ... أَجْرَيْتَ للمحزون ماءَ شئُونهِ
ووكلته بهمومه وغمومه ... دهراً فلم يَسْر الكرَى بجفونهِ
وإذا مدَحْتَ به جواداً ماجداً ... وقَضَيْته بالشُّكر حقّ دُيونه
أصفيته بنفيسه ورَصينه ... ومنحتَه بخطيره وثمينه
فيكون جَزْلا فى اتّفاقِ صنُوفهِ ... ويكون سَهْلا فى اتِّسَاق فُنُونهِ
وإذا أردتَ كناية عن رِيبةٍ ... باينْتَ بين ظهورِه وبُطونهِ
فجعلت سامعَه يشوب شكوكَهُ ... ببيانِه وظنونَه بيقينِه
وإذا عتبتَ على أخ فى زَلَّةٍ ... أدمَجْتَ شدّته له فى لِينه
فتركته مستأنِسا لدماثةٍ ... مستيئسا لوُعُوثه وحُزُونهِ
وإذا نبذت إلى التى عُلّقتها ... إن صارَمَتْك بفاتنات شئونه
تيّمتَها بلطيفه ورقيقه ... وشغفْتَها بخفّيه وكمينه
وإذا اعتذرتَ إلى أخ فى زلّةٍ ... واشكْتَ بين مُحيله ومُبينه
فَيَحُورُ ذَنبُك عند من يعتدّهُ ... عَتْبا عليك مُطَالِبا بيمينه

---

(١) فى ط : فواصله .   (٢) فى ا : بالإنجاز عور .

والقـولُ يَحْسُنُ منه فى مَنْثُوره ما ليس يحسن منه فى مَوْزُونه

ما يباح للشعراء

وقال الخليل بن أحمد : الشعراءُ أمراءُ الـكلام ، يصرّفونه أنّى شاءوا ؛ وجائزٌ لهم ما لا يجوزُ لغيرهم : من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تصريف اللّفظ وتعقيده ، ومدّ مقصوره ، وقَصْرِ ممدوده ، والجمع بين لغاته ، والتفريق بين صفاته . وقال : الشعرُ حِلْية اللسان ، ومدرجة البيان، ونظامُ الـكلام، مقسوم غَيْرُ محظور، ومشترك غير محصور ، إلا أَنه فى العرب جَوْهرىّ ، وفى العجم صناعى . قال أعرابى لشاعر من أبناء الفرس : الشعرُ للعرب ، فـكلُّ مَنْ يقول الشعر منكم فإنما نزَا على أُمّه رجلٌ منا ! فقال الفارسى : وكذلك من لا يقولُ الشعرَ منكم فإنما نزَا على أُمّه رجل منا !

أجود الشعر

وقال عمارة بنُ عقيل : أجودُ الشعر ما كان أَمْلَس المتون ، كثيرَ العيون ، لا يمجُّه السمع ، ولا يستأذِنُ على القلب . وأُنشد الجاحظ شعرَ أبى العتاهية فلم يَرْضَه ، وقال : هو أَملَسُ المتون ، ليس له عيونٌ ، كأنه وعُمارة تجاذبا كلاماً [(١)] واحداً . وقال ابن عقيل : الشعرُ بضاعةٌ من بضائع العرب ، ودليل مِنْ أدلّةِ الأدب ، وأثارة من أثارات [(٢)] الحسب . ولن يهزّ الشعر إلا الـكريم المَحْتِد ، الـكثير السؤدد ، الـكلِف بذِكْرِ اليومِ والْغَد .

ومدح بشار المهدىّ فلم يُعطِه شيئا ، فقيل له : لم تُجِدْ فى مَدْحه . فقال : لا والله، لقد مدَحْته بشعرٍ لو قلت مثلَه فى الدهر لما خيف صَرْفُه على حُرّ ، ولـكنى أَكذب فى العمل ، فأَكذب فى الأمل . نظمه الناجم فقال :

ولى فى أحمدٍ أملٌ بَعِيد ومَدْحٌ حين أنشده طريفُ

مدائح لو مدَحْتُ بها الليالى لما دارتْ علىَّ لها صروف

---

(١) فى ط : كأنه وحماره تجاريا كلاً واحدا .

(٢) فى ط : وأثارة من سالف ذوى الحسب .

وصف جرير والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : صِفْ لى جريراً والفرزدق والأخطل فقال : يا أمير المؤمنين ، أَما أعظمهم فَخْراً ، وأبعدُهم ذكرا ، وأحسنهم عُذْرا ، وأَسيرُهم مَثَلاً ، وأقلّهم غزلا ، وأحلاهم عِللا ، البحر الطامى إذا زخر [(١)] ، والحامى إذا ذعِر ، والسامى إذاخطر ، [الذى إذا هدر جال ، وإذا خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق. وأما] [(٢)] أحسنهم نَعْتا ، وأمدَحُهم بيتا ، وأقلهم فَوْتا ، الذى إن هجا وضع ، وإن مدح رَفع ، فالأخطل . وأما أَغْزَرُهم بحرا ، وأَرقُّهم شعراً ، وأكثرهم ذِكرا ، الأغرّ الأبلق ، الذى إن طَلب لم يسبق ، وإن طُلب لم يلحق فجرير. وكلُّهم ذكىُّ الفؤادِ ، رفيع العماد ، وَارِى الزناد . قال مسلمة بن عبد الملك ، وكان حاضرا : ما سمعنا بمثلك يابن صفوان فى الأولين ولا فى الآخرين ، أَشهدُ أنك أحسنُهم وصفا ، وألْيَنُهم عِطفا ، وأخفُّهم مقالا ، وأكرمهم فعالا . فقال خالد : أتم الله عليك نِعَمه ، وأجزل لك قِسَمه . أنتَ والله أيها الأمير ــ ماعلمت ــ كريمُ الغِراس ، عالمٌ بالناس ، جوادٌ فى المَحْلِ ، بسّام عند البَذْلِ ، حليم عند الطَّيْشِ ، فى الذِّرْوَة من قريش ، من أشراف عبد شمس ، ويومك خيرٌ من الأمس . فضحِك هشام وقال : ما رأيت مثلك يابن صفوان لتخلصك فى مَدْح هؤلاء ، ووصفهم ، حتى أرضيتَهم جميعاً وسَلِمْتَ منهم .

العجاج والهجاء

ودخل العجّاجُ على عبدِ الملك بن مروان فقال له . بلغنى أنك لاتُحْسِن الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قَدر على تشييد الأبنية ، أمكنه خَرابُ الأخبية ، قال : ما يمنعُك من ذلك ؟ قال : إنّ لنا عِزًّا يمنعُنَا من أن نُظْلَم ، وحِلْماً يمنعنا من أَنْ نَظلم ، قال : لَكَلِماتُك أحسنُ من شعرك ! فما العزُّ الذى يمنعك أن تُظْلم ؟ قال: الأدب [البارع ، والفَهْم الناصع . قال : فما الحِلْمُ الذى يمنعُك من أن تظلم ؟ قال : الأدب] [(٣)] المستطرف ، والطبع التَّالد ، قال : لقد أصبحت حكيما . قال : وما يمنعنى

---

(١) فى ا : زجر . (٢) ليس فى ا . (٣) من ا .

من ذلك وأنا نَجِيُّ أميرِ المؤمنين ؟ قال أبو إسحاق : وليس كما قال العجاج ، بل لكثير من الشعراء طباع تَنْبُو عن الهجاء كالطائى وأضرابه ، وأصحابُ المطبوع أقدرُ عليه من أهل المصنوع ، إذ كان الهجو كالنادرة التى إذا جَرَتْ على سجيَّةِ قائلها ، وقَربتْ من يَدِ متناولها ، وكانَ واسِع المطن ، كثير الفطن ، قريب القلب من اللسان ، التهبَت بنارِ الإحسان .

المقامة القريضية للبديع

ومما يَنْحُو هذا النحو من مقامات أبى الفتح الإسكندرى إنشاء بديع الزمان قال[(١)] : حدثنا عيسى بن هشام قال : طرحَتْنِى النوَى مطارِحَها ، حتى إذا وطِئْتُ جُرْجان الأَقْصَى ، فاستظهرْتُ على الأيام بضِياعٍ أَجَلْتُ فيها يَدَ العِمَارة ، وأموالٍ وقفتُها على التجارة ، وحانُوتٍ جعلتُه مَثابةً ، ورُفقة اتخذتهم صَحَابة ، وجعلتُ للدار حاشِيَتى النّهار ، والحانوتِ ما بينهما ؛ فجلسنا يوما نتذاكرُ الشعر والشعراء ، وتلقّانا شاب قد جلس غيرَ بعيد ، يُنْصِت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم[(٢)] ، حتى إذا مال الكلامُ بنا مَيْلَه ، وجر الجَدل فينا ذَيْلَه قال: أصبتم عُذَيْقَه[(٣)] ، ووافيتم جُذَيْلَه[(٤)] ، ولو شئْتُ للفظت [فأفَضْت][(٥)] ، ولو أردت لسردت ، ولجلوت الحقّ فى معرض بيانٍ يُسْمِعُ الصم ، ويُنْزِل العُصم . فقلت : يا فاضل ، أُدْنُ فقد منَّيْتَ ، وهاتِ فقد أثنيت ، فدنا وقال : سَلُونى أُجِبْكم ، واستمعوا أُعجِبكم . قلنا : فماتقول فى امرىء القيس ؟ قال : هو أول مَنْ وَقف بالديار وعَرصَاتِها ، واغْتَدى والطيرُ فى وُكُنَاتِها ، ووصف الخيلَ بصفاتها ، ولم يقل الشعرَ كاسِبا ، ولم يُجِدِ القولَ راغبا ، ففَضَل مَنْ تفتَّقَ لِلْحِيلة لسانُه ، وانتجَعَ للرغبة بنانُه .

قلنا : وما تقول فى النابغة ؟ قال : ينسب إذا عَشِق ، ويَثْلُبُ إذا حَنِق ، ويمدح إذا رَغِب ، ويعتذر إذا رَهِب ، فلا يرمى إلا صائبا .

---

(١) المقامات ٨ . (٢) فى ا : يندم (٣) عذيق : تصغيرعذق : النخلة بحملها.

(٤) الجذيل : تصغير الجذل : عود ينصب للجربى لتحتك به . (٥) من ا .

قلنا : فما تقول فى طَرَفة ؟ قال : هو ماءُ الأشعار وطينتها ، وكَنْز القوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرارُ دفائنه ، ولم تطلق عِتَاق (١) خزائنه .

قلنا : فما تقول [فى زهير! قال : يُذيب الشعرَ والشعرُ يذيبه ، ويدعو القَوْل والسِّحْرُ يُجِيبه . قلنا : فما تقول] (٢) فى جرير والفرزدق ؟ قال : جرير أرقّ شعرا ، وأغْزَر غزرا ، والفرزدق أمتن (٣) صخرا ، وأكثر فخرا ، وجرير أَوْجَع هَجْوا ، وأشرف يوما ، والفرزدق أكثر روما (٤) ، وأكرم قوما ، وجرير إذا نَسب أشْجَى ، وإذا ثَلَب أَرْدَى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا افتخر أَجْزى ، وإذا وصف أوفى ، وإذا احتقر أزرى . قلنا : فما تقول فى المحدَثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرفُ لفظا ، وأكثرُ فى المعانى حظّا ، والمتأخِّرون ألطفُ صُنْعا ، وأرقُّ نَسْجا . قلنا : فلو أريتَ من أشعارك ، وروَيْتَ من أخبارك ، قال : خُذْهما فى معرض واحد ، وأنشد :

أمَا تَرَوْنِى أتغشّى طِمْرا	مُلْتَحِفا فى الضُّرِّ أمْراً إِمْرَا (٥)
منطويا عَلَى الليالى غِمْرا	ملاقِياً منها صروفا حُمْرا
أقصى أمَانِىَّ طلوعُ الشِّعْرَى	فقد عُنِينا بالأمانى دَهْرَا
وكان هذا الحُرُّ أعلى قَدْرا	وماءُ هذا الوجهِ أغْلَى سِعْرَا
ضربت للسّرْوِ قِبَاباً خُضْرا	فى دَارِ دَارًا وإوان كِسْرَى
فانقلبَ الدهرُ لبَطْنٍ ظَهرا	وعادعُرْفُ العَيْش عِندى نُكْرَا
لم يَبْقَ مِنْ وَفْرِىَ إلا ذِكْرَا	ثُمَّ إلى اليوم هلمَّ جَرّا
لولا عجُوزٌ لى بسُرَّ مَنْ را	وأفْرخٌ دُونَ جبالِ بُصْرَى
قد جلَبَ الدَّهرُ إليهم شرًّا	قَتَلْتُ ياسادةُ نَفْسِى صَبْرا !

(١) فى ا : تفتح أغلاق . (٢) من ا (٣) فى ا : أمكن صخرا وأكثر فخرا .
(٤) فى ا : رويا . (٥) فى ط ، والمقامات : أمرا مرا .

قال عيسى بن هشام: فنلته ماتاحَ، وأعرض عنّا فراحَ، وجعلتُ أُنفيه وأُثبته، وأُنكِره وكأنى أعرفُه، ثم دلَّتنى عليه ثناياه، فقلت: الإسكندرى واللهِ؛ فقد كان فارقَنا خِشْفا، ووافانا جِلْفا[1]، ونهضتُ على أثره، ثم قبضتُ على خَصْرِه، وقلت: ألستَ أبا الفتح؟ ألم تكُنْ فينا وَليدا، ولبثتَ فينا من عُمرك سنين، فأىَّ عجوزٍ لكَ بسرَّ مَنْ رأى؟ فضحك وقال:

ويحك[2] هذا الزمان زُورُ ... فلا يغرّنّكَ الغُرورُ
غرِّق وبَرِّق وكل وطرِّق ... وأسرف وطَلِّق لمن تزُورُ[3]
لا تلتزم حالةً ولكن ... دُرْ لليالى كما تدُورُ

المقامة الغيلانية

ومن إنشائه مقامة ولّدها على لسان عِصْمة وذى الرمة قال[4]: حدثنا عيسى ابن هشام قال: بينا نحن فى مجتمع لنا ومعنا يومئذ رجلُ العرب حِفْظا ورِوَاية عِصْمَة ابن بَدْر الفزَارى، فأفْضَى الكلامُ إلى ذِكْرِ من أعرضَ عن خَصْمِه حِلْما، أو أعرض عنه خَصْمِه احتقارا، حتى ذكر الصَّلَتان العَبْدى واللَّعِين[5] المنقرى، وما كان من احتقارِ جرير والفرزدق لهما. فقال عصمة: سأحدِّثكم بما شاهدتَه عينى، ولا أحدّثكم عن غيرى: بينا أنا أسيرُ فى بلاد تميم مرتحلا نجيبة، وقائدا جَنيبة، عنّ لى راكبٌ على أوْرَقَ جَعْد اللُّغَامِ[6]، فاجتاز بى رافعا صَوْتَه بالسلام، فقلت: مَنِ الراكبُ الجهيرُ الكلامِ، المحيِّى بتحيَّةِ الإسلام؟ فقال: أنا غَيْلَان بن عُقْبَة. فقلت: مرحبا بالكريم حَسَبُه، الشهير نَسَبُه، السائر منطِقُه. فقال: رَحُبَ وَادِيك، وعزَّ نادِيك، فمن أنت؟ قلت: عِصْمَة بنُ بَدر الفزارى. فقال: حياكَ الله، نعم الصديقُ، والصاحبُ

(١) الخشف: ولد الظبية، والجلف: الجافى الغليظ. (٢) فى ا: ويلك.
(٣) هذا البيت ليس فى المقامات، وقد روى فى ا:
غرق وبرق وكل وأطرق ... واسرق وطلبق لمن تزور
(٤) المقامات: ٤٤. (٥) فى ط، والمقامات: والبعيث، وهذا من ا.
(٦) الأورق: الجمل فيه بياض وسواد، وجعد اللغام: كثير الزبد.

والرفيقُ . وسِرْنا فلما هجَّرنا قال : ألا نغوِّرُ[١] يا عِصْمَة فقــد صهرَتْنا الشمسُ ؟ فقلت: أنْتَ وذاكَ ، فملنا إلى شجرات ألاء[٢] كأنهن عذارَى متبرّجات ، قد نشَرْنَ الغدائر ، وسرحن الضفائر ، لأثَلاتٍ متناوحات ؛ فحطَطْنا رِحالَنا ، ونِلْنا من الطعام. وكان ذو الرمة زهيدَ الأكل ، وزال كلٌّ منا إلى ظل أثلة يريدُ القائِلَة ، واضطجع ذو الرُّمة ، وأَردتُ أن أصنَعَ صنيعَه ، فولَّيتُ ظَهْرى الأرض ، وعيناىَ لا يملِكُهما غُمض . فنظرتُ غيرَ بعيدٍ إلى ناقةٍ كَوْماء ، قد ضَحِيَتْ وغُبيطُها مُلْقًى[٣] ، وإذا رجل قائم يكلؤها كأنه عَسِيفٌ أو أَسيف.[٤] فلَهِيتُ عنهُما ، وما أنا والسّؤال عما لا يَعْنِينِى ! ونام ذوالرُّمة غِرَارا ، ثم انتبهَ ، وكان ذلك فى أيام مُهاجَاته لذلك المرّىّ[٥] ، فرفع عقيرتَه ينشد فيه :

أمِنْ مَيَّةَ الطّلَلُ الدارسُ ... ألظَّ به العاصِفُ الرَّامِسُ[٦]
فلم يبْقَ إلا شجِيجُ القَذَال[٧] ... ومُسْتَوْقَدٌ مالَه قَابِسُ
وحَوْضٌ تَثَلَّمَ من جانبَيْهِ ... ومحتَفَلٌ دَاثِرٌ طامِسُ
وعَهْدِى بهِ وبِهِ سَكْنُهُ ... ومَيَّــةُ والإنْس والآنس
ستأتى امرأَ القيس مأثورةٌ ... يغنِّى بهــا العابرَ الجالِسُ
ألم تر أنّ امرأ القَيْس قد ... ألظّ به داؤه النــاجسُ[٨]
همُ القومُ لا يَأْلَمُون الهِجاءَ ... وهل يَأْلَمُ الحَجَرُ اليابِسُ
فمــا لهُمُ فى الفَلا رَاكِبٌ ... ولا لهمُ فى الوغَى فَارِسُ
إذا طمَحَ الناسُ للمكرمات ... فطرْفُهمُ المطرِقُ النــاعِسُ
تَعَافُ الأكارِمُ إصهارَهم ... فــكلٌّ نسائهمُ عانِسُ

---

(١) نغور : نقيل، وفى ط : نقيل. (٢) ليس فى ا ، والألاء : شجر وريف الظل .
(٣) كوماء : عظيمة السنام ، وضحيت: أصابتها الشمس . (٤) العسيف : الأجير ، والأسيف: العبد، وفى ا : يكلؤه . (٥) فى ط : المرء. (٦) ألظ به: لازمة، والعاصف : الشديد ، والرامس : الذى يجلب عليه التراب ليخفيه . (٧) شجيج القذال : مكسور الرأس ، ويريد به الوتد .
(٨) الناجس : الذى يلازم صاحبه ولا ينفع فيه الطب، وفى ا : بها داؤها الناجس.

فلما بلغ هذا البيت جعل ذلك النائمُ يمسحُ عينيه ويقول: أَذو الرُّمَيْمَة يمنعنى النومَ بشعرٍ غيرِ مثقّف ولا سائر . فقلت : يا غيلان ، مَنْ هـذا ؟ فقال : الفريزد[1] ، يعنى الفرزدق ، وحَمِى ذو الرمة فقال :

وأمّا مُجَاشِعُ الأَرْذَلُون فلم يسْقِ ميتَهم[2] رَاجِسُ

سَيَعْقِلُهم عن مَساعِى الكِرَام عِقَالٌ ويَحْبِسُهم حَابِسُ

فقلت: الآن [يَشْرقفيثُور، و][3] يعمُّ الفرزدق هذا وقبيلَه بالهجاء . فوالله مازاد على أَنْ قال: قبحاً لك ياذا الرُّمَيْمَة ! أتعرِضُ لمثلى بِعَقَال[4] مُنْتَحل ! ثم عاد فى نَوْمِه كأن لم يسمَعْ شيئا ، وسار ذُو الرّمة وسِرْت وإنى لأرى فيه انكساراً حتى افترقنا.

* * *

استطراد فى النقد

قوله فيما ولد على الفرزدق[5] بعقال مُنْتَحل ، يريد أن البيتَ الأخير منقول من قول جرير :

ألم تر أَنّ الله أَخزَى مجاشِعاً إذا ما أَفاضَتْ فى الحديث المجالسُ

ومازال معقولاً عِقالٌ عن الندى ومازال محبوساً عن المجد حَابِسُ

عقال بن محمد بن [سعيد بن][6] مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وهو جد الفرزدق . وحابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع ابن دارم وهو أبو الأقرع[7] بن حابس أحدُ المؤلّفة قلوبهم .

قِصَر فى الشعر

قصر الأشعار

قيل لابن الزّبَعْرى : لم تقصّر أَشعارك ؟ فقال : لأَنها أَعْلَق بالمسامع ، وأَجْوَل

---

(١) فى ط : فقال الفرزدق . (٢) فى ط : منبتهم ، والراجس : السحاب .

(٣) ليس فى ا . (٤) فى ا : بفعال. (٥) فى ا : قلت قوله فيما ولد على الفرزدق.

(٦) من ا . (٧) فى ا : جد الأقرع .

فى المحافِل . وقيل ذلك لعقيل بن عُلَّفة فى أهاجيه فقال : يكفيك من القِلادَة ماأحاط بالعُنُق .

كذب الشعر

غيره — لسانُ الشاعر أَرض لا تُخْرِج الزهو حتى تستسلفَ المطر ، وما ظنّك بقوم الاقتصارُ محمود إلا فيهم، والكذب مذموم إلّا منهم . إياكم والشاعر فإنه يطلب على الكذب مَثُوبة ، ويقرع[1] جليسه بأدنى زَلّة .

أبو القاسم الصاحب بن عباد — النثر يتطايَرُ كتَطايُرُ الشرر ، والنظم يبقى بقاء النَّقْش فى الحَجَر .

الزحاف فى الشعر

أبو عبيدة : الزّحاف فى الشعر كالرُّخْصَة فى الدين لا يُقدِم عليها إلا فقيه .

وقال أبو فراس الحمدانى :

تناهَضَ النـاسُ للمعانى ... لَمَّا رأَوْا نحوَها نُهوضى
تكلفوا المكرمات كَدّا ... تكلّف الشعر بالعَرُوض[2]

وقد مدح الجاحظ العروض وذمّها ، فقال فىمدحها : العروض ميزان، ومعراض بها[3] يعرَفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السليم ، وعليها[4] مَدار الشعر، وبها[4] يسلم من الأوَدِ والكَسْر . وقال فى ذمّه : هو علم مُوَلّد ، وأَدب مستَبْرد ، ومذهب مرفوض ، وكلام مجهول ، يستنكر[5] العقل بمستفعلن وفعول ، من غير فائدة ولا محصول .

من مفردات الأبيات فى هذا المعنى

ومن مفردات الأبيات فى هذا المعنى قول دعبل :

يموتُ ردِىءُ الشعرِ من قبل أَهْلِهِ ... وجَيّدُه يَبْقَى وإن ماتَ قَائِلُهْ

البحترى :

أَعْيَا علىَّ فلا هَيَّابَةٌ فَرِقٌ ... يَخْشَى الهِجاءَ ولا هَشٌّ فيُمتدحُ

---

(١) فى ا : ويفزع . (٢) فى ط : للعروض . (٣) فى ط : وبمعياره .
(٤) فى ط : وعليه ، وبه . (٥) فى ط : يستكد .

آخر :

مما يَقْتُل الشعراء غَمّا عداوةمن يُغَلّ[1] عن الهجاءِ

أحمد بن أبى فَنَن :

وإنّ أحقّ الناس باللؤم[2] شاعرٌ يَلُوم على البخلِ اللئام ويَبْخَلُ

وهذا كقول على بن العباس الرومى فى أبى الفياض سَوّار بن أبى شراعة وكان سوّار شاعراً مجيداً :

يا مَنْ صناعتُه الدعاءُ إلى العُلَا ناقضْتَ فى فِعليك أىّ نِقَاضِ

عجباً لحضّاض الكرام على الذى هو فيه محتاجٌ إلى حَضّاض

وَصَفَ المكارِم وهْو فيها زاهِدٌ ورأى الجميلَ وفيه عنه تغاضِ

لم ألْقَ كالشعراء أكثر حارضا[3] وأشدّ معتَبةً على الحَرّاضِ

كم فيهمُ من آمرٍ برشيدةٍ لم يأتِها ومرغبٍ رفّاضِ[4]

يا حسرتى لمودّةٍ أدبيةٍ لم نفترق عنها افتراقَ تراضِ

ليس العتابُ بنافعٍ فى قاطِع أعْيَا المشيبُ تتابعَ المِقْرَاضِ

ثم قال بعد هذا التبكيت والعِتَاب ما منعه أن يَتَوَهَّمُ أنه هجاه[5] :

وَلِمَا هجوتك بل وعظتُك إنّنى لاأجعلُ الأَعراض كالأغراضِ[6]

فاكفُفْ سِهامَك عَن أخيك فإنما آسَفْتَه فرمَاك بالمعرَاضِ[7]

فمتى حلمتَ وجدت أحْنفَ دَهْرِهِ ومتى جهلت مُنيت بالبرّاض

فاعذِر أخاك على الوعيد فإنما أنذرت قبل الرَّمْىِ بالإنباضِ[8]

(١) فى ط : يقل . (٢) فى ا : باللوم. (٣) حرض : طال همه، وفى ط : صارخا .

(٤) فى ط : عن قاض . (٥) ديوانه ٣٢ . (٦) فى ا : كالأعراض .

(٧) آسفه : أغضبه ، وفى ط : أثبته . والمعراض : سهم يصيب بعرضه دون حده .

(٨) نبض فى قوسه حرك وترها لترن كأنبض .

[واعلم وقيت الجهلَ أن خساسةً بطرُ الغنى ومذلّةُ الإبعاض] (١)

ثم هجاه بقوله :

وما تكلمتَ إلاّ قلت فاحشةً كأن فكّيْك للأعراض مِقرَاضُ

مهما تقل فسِهَامٌ منكَ مُرْسَلةٌ وفوكَ قَوْسُك والأعراض أغْرَاض

وابن الرومى هذا كما قال مسلم بنُ الوليد الأنصارى فى الحكم بن قنبر المازنى :

عابنى من معايبٍ هُنّ فيه حكم فاشتفى بها من هَجَانى

وكما قال الآخر :

ويأخذ عيبَ الناس من عَيْبِ نفسه مرَادٌ لعمرى ما أرادَ قريبُ

[الأحنف بن قيس]

وفوده على عمر

وروى عيسى بن دَأب قال : أوّل ما عرف الأحنف بن قيس وقدّم أنه وفد على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان أحدث القوم سنا ، وأقبحهم منظراً ، فتكلم كلُّ رجل من الوَفْدِ بحاجته فى خاصته ، والأحنف ساكتٌ ، فقال له عمر : قل يا فَتى ! فقام فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنّ العرب نزلتْ بمساكن طيبة، ذات ثمار وأنهارعِذاب، وأكنَّة ظليلة ، ومواضِع فسيحة ، وإنا نزلنا بسبخةٍ نشاشة ، ماؤُها مِلْح ، وأفنيتها ضيقة، وإنما يأتينا الماء فى مثل حلق النعامة فإلاّ تدركنا ياأمير المؤمنين بحفر نهر يغزر ماؤه ، حتى تأتىَ الأمَة فتغرف بجرّتها وإنائها أوشك أن نهلك ، قال : ثم ماذا ؟ قال : تزيد فى صَاعِنا ومُدّنا ، وتثبت من تَلَاحق فى العطاء من ذريتنا . قال : ثم ماذا؟ قال : تخفّف عن ضعيفنا ، وتنصف قوينا ، وتتعاهد ثغورنا ، وتجهّز بعثنا ، قال : ثم ماذا ؟ قال : إلى هاهنا انتهت المطالب ، ووقف الكلام . قال : أنت رئيس وَفْدِك ، وخطيب مِصرك ، قم عَنْ موضعك الذى أنت فيه . فأدناه حتى أقعده إلى جانبه ، ثم سأله عن نسبه ، فانتسب له ، فقال : أنت سيدُ تميم ، فبقيت له السيادة إلى

(١) من: ا .

أن مات . وهو الأحنف ، واسمُه الضحّاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن حصن ابن عبادة بن النزال بن مرّة بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن [سعد بن][1] زيد مناة بن تميم .

من كلام الأحنف

وقال بعض بنى تميم [2] : حضرتُ مجلس الأَحنف وعنده قومٌ مجتمعون له فى أمرٍ لهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّ الكرمَ مَنْعُ الحرمِ ، ما أَقربَ النقمةَ من أهل البَغْىِ ، لا خيرَ فى لذّةٍ تُعقِب ندماً ، لم يهلك من اقتصد ، ولم يفتقر من زهد [3] ، رب هزْل قد عاد جِداً ، من أَمِنَ الزمان خانه ، ومن تَعَظّم عليه أهانه ، دَعُوا المِزَاحَ فإنه يُوَرِّثُ الضغائن ، وخَيرُ القول ما صَدَّقه الفِعْل ، احتملوا لِمَنْ أَدلّ عليكم ، واقبلوا عُذْرَ من اعتذر إليكم ، أطِعْ أخاك وإن عَصَاك ، وصِلْهُ وإن جَفَاك ، أنصِفْ مِنْ نفسك قبل أن يُنْتَصفَ منك ، إيّاكم ومشاوَرَة النساء ، واعلم أنّ كُفْر النِّعَمِ لؤم وصُحْبَةَ الجاهل شُؤم ، ومن الكرم الوفاء بالذّمم ، ما أَقْبَحَ القطيعةَ بعد الصلةِ ، والجفاءَ بعد اللّطَف ، والعداوة بعد الوُدّ ، لا تكونَنَّ على الإساءةِ أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البُخْل أسرعَ منك إلى البَذْل ، واعلَمْ أنّ لك من دُنياك ما أصلحت به مَثْواك ، فأنفق فى حَقّ ، ولا تكن خازِناً لغيرك ، وإذا كان الغَدْرُ موجوداً فى الناس فالثِّقَةُ بكل أحدٍ عَجْز؛ اعْرِف الحقّ لمن عَرَفَه لك ، واعلم أنَّ قطيعةَ الجاهلِ تَعْدِل صلةَ العاقل . قال : فما سمعتُ كلاماً أبلغَ منه . فقمت وقد حفظته .

وصفه للبنين فى مجلس معاوية

ودخل الأحنف على معاوية ويزيدُ بين يديه وهو ينظرُ إليه إعجاباً فقال : يا أبا بَحْر ، ما تقولُ فى الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ، وثمرُ قلوبنا ، وقرّة أعيننا ، بهم نَصولُ على أَعدائنا ، وهم الخلف منا بَعْدَنا ، فكن لهم أرضاً ذليلة ، وسماءً ظليلة ، إن سألوك فأَعْطِهم ، وإن استعتبوك فأَعْتِبهم . ولا

---

(١) من ا . (٢) الأمالى ٢ — ٢٠ ، ذيل اللآلئ : ٥٦ .

(٣) فى ا : [لم يفتقر من قصد ولم يهلك من زهد] .

تمنعهم رِفْدَك فيملّوا قُرْبك، ويستثقلوا حياتك، ويتمنَّوا وَفاتك. فقال: لله درُّك يا أَبا بَحْر، هُمْ كما قلت!

من شعر الأحنف

وزعمت الرواة أنها لم تسمع للأَحنف إلّا هذين البيتين:

فلو مدّ سَرْوِى بمالٍ كثير ... لجدتُ وكنتُ له بَاذِلا

فإنّ المروءةَ لا تستطاع ... إذا لم يَكُنْ مالُها فاضِلا

وكان يُبَخَّل. وقال لبنى تميم: أتزعمون أنى بخيل! والله إنى لأُشير بالرَّأْى قيمته عشرةُ آلاف درهم! فقالوا: تقويمك لرَأْيك بُخْل. وكان الأَحنفُ من الفضلاء الخطباء النّسّاك، وبه يُضْرَب المثل فى الحِلْم.

استغفار النبى له

وقد ذُكر للنبى صلى الله عليه وسلم فاستغفَر له؛ فقد بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم رجلا[1] إلى قومِه بنى سَعْد يَعْرِض عليهم الإسلام، فقال الأحنف: إنه يدعوكم إلى خَيْر، ولاأسمعُ إلا حسناً. فذُكِر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال: اللهم اغْفِر للأَحنف. وكان الأحنفُ يقول: ماشىء أَرْجَى عندى مِنْ ذلك.

وصف الأحنف

قال عبدُ الملك بن عمير: قدم إلينا الأحنفُ، فما رأينا خصلةً تُذَمّ فى رجل إلّا رأيناها فيه، كان أصلع[2] الرّأْسِ، متراكب الأَسنان، أشْدَق، مائل الذّقن، ناتئ الوجنتين، باخق[3] العينين، خفيفَ العارضين، أحنف الرّجلين، وكانت العينُ تقتحمُه دمامةً وقِلّة رُواء، ولكنه إذا تكلَّم جَلَّى عن نفسِه. وهو الذى خطب بالبصرة حين اختلفت الأحياء، وتنازعت القبائل؛ فقال بعد أن حمدالله وأثنى عليه: يا معشرَ الأزد [وربيعة][4]، أنتم إخوانُنا فى الدين، وشركاؤنا فى الصّهْرِ، وأكفاؤنا فى النسب، وجيرانُنا فى الدار، ويَدُنا على العدُوّ، والله لأَزْدُ البَصرة أَحبُّ إلينا من تميم الكوفة، [ولأزد الكوفة أحبّ إلينا من تميم الشام][5]، وفى أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم.

---

(١) فى ط: رجلا من بنى ليث. (٢) فى ا: صعل. (٣) البخق: أقبح العور، أو ألا يلتقى شفر عينيه. وفى ط: ماحق. (٤) ليس فى ا. (٥) من ا.

من كلامه

وقد قام خطباء البصرة فى هذا اليوم وتكلّموا وأسهبوا ، فلما قام الأحنف أَصْغَت القبائلُ إليه ، وانثالَتْ عليه ، وقال النــاس : هذا أَبو بَحْرٍ ، هذا خطيب بنى تميم ، وحضر ذلك الجمع جاريةٌ لآلِ المهلب فذهبتْ ترومُ النظر إليه ، فاعتاص ذلك عليها ، فأشرفَتْ عليه من دارِها ، فلما رأته والأبصارُ خاشعةٌ لـكلامه ، ورأت دمامةَ خَلْقِهِ ، وكثرةَ آفاتِ جوارِحه ، قالت : فُقِدَتْ هذه الخِلْقة ولو افترّتْ عن فَصْلِ الخطاب .

وذكر المدائنى أنّ الأحنفَ بن قيس وفد على معاوية رضى الله عنه مع أهل العراق ، فخرج الآذِنُ ، فقال : إنّ أميرَ المؤمنين يعزم عليكم أَلاَّ يتكلمَ أحدٌ إلّا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف : لولا عَزْمَةُ أمير المؤمنين لأخبرته أن دافَّة دفت ، ونازلةً نزلَتْ ، ونابتة نبتَتْ ، كلهم بهم حاجة إلى معروفِ أمير المؤمنين وبرّه . قال : حسبك يا أَبا بحر ، فقد كفيت الشاهِدَ والغائب .

ولما عزم معاوية على البيعة ليزيد كتب إلى زياد أن يوجِّه إليــه بوَفْد أهلِ العراق ، فبعث إليه بوَفْدِ البصرة والـكوفة ، فتكلَّمت الخطباء فى يزيد ، والأحنف ساكتٌ ، فلما فرغوا قال : قل يا أَبا بَحْر ، فإنَّ العيونَ إليك أَسْرَع منها إلى غيرك . فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليــه ، وصلّى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنك أعلَمُنا بيزيدَ فى ليله ونهاره ، وإعلانه وإسراره ، فإنْ كنتَ تعْلَمُه لله رضا فلا تشاوِرْ فيــه أحداً ، ولا تُقِمْ له الخطباءَ والشعراء ، وإن كنتَ تعلم بُعْدَه من الله فلا تزوّده من الدنيا وتَرْحَل أنْت إلى الآخرة ؛ فإنك تَصير إلى يومٍ يفرُّ المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . قال: فـكأنه أفرغ على معاوية ذَنوب ماء بارد. فقال له : اقعُدْ يا أبا بَحْر ؛ فإن خِيرَة الله تَجْرِى ، وقضاءَ الله يمضِى، وأحكام الله تنفذ، لا مُعَقِّب لحـكمه ، ولا رادّ لقضائه ؛ وإن يزَيدَ فتًى قد بلَوْناه ، ولم نجِدْ فى قريش فتى هو أَجْدَر بأن يُجتمَع عليه منه . فقال : يا أمير المؤمنين ، أنت تَحْكِى عن شاهد ، ونحن نتكلّمُ على غائب ، وإذا أراد الله شيئاً كان .

* * *

استطراد

قال ابن الرومى :

إن امرأً رَفَضَ المكاسب واغتدَى ... يتعلَّمُ الآدابَ حتى أحكما

فكساً وحَلَّى كلَّ أروَعَ ماجد ... من حُرِّ ما حاكَ القريضَ ونَظَّما

ثقة برعْى الأكرمين حقوقَه ... لأحقّ ملتمسٍ بألّا يُحرِما

إلحاح الشعراء

قال أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمّار : ومن نادرِ شعر أبى الحسن فى هذا المعنى قوله ، ووصف إتعاب الشعراء أَنْفُسَهم بدءوبهم فى صناعتِهم ، وما يتصرّم من أعمارهم ، وأن إلحاحَهم فى طلَبِ مافى أيدى من أَسلفُوه مديحَهم لو كان رغبةً منهم إلى ربّهم كان أَجْدَى عليهم ، وأقرب من دَركِ بُغيتِهم ، ونجح طلبتهم ، ثم انحرف إلى توبيخ من مَدَحه فحرمه بأحسن عبارة ، وأرضى استعارة ، فقال[1] :

للناس فيما يكلفون مَغَارِم ... عند الكرام لها قَضَاءُ ذمامِ

ومغارم الشعراء فى أشعارهم ... إنفاق أعمارٍ وهَجْر مَنَامِ

وجفاء لذاتٍ ورفضُ مكاسبِ ... لو خُولفت حرستْ من الإعدام

وتشاغَل عن ذكر ربّ لم يزَلْ ... حسن الصنائع سابغ الإنعام

من لو بخدمتِه تشاغل معشرٌ ... خدموكم أجْدَى على الخدّام

أفَما لذلك حُرْمة مرعيّةٌ ... إنَّ الكرامَ إذاً لغيرُ كِرامِ

لم أحتَسِبْ فيك الثوابَ بمِدْحتى ... إياكَ يابنَ أكارِم الأقوامِ

لو كان شعرِى حِسبة[2] لم أكسُهُ ... أحداً أحقّ به من الأيتام

لا تقبلنّ المدْحَ ثم تعافهُ[3] ... فتنام والشعراءُ غيرُ نيامِ

واحذَرْ مَعرّتهم إذا دَنَّستهم[4] ... فلهم أشدُّ[5] معَرة العُرّام

واعلَمْ بأنهمُ إذا لم يُنْصَفوا ... حكموا لأنفسهم على الحكّامِ

وجناية[6] العادِى عليهم تنقضِى ... وعقابُهم يَبْقَى مع الأيامِ

---

(١) من هنا إلى آخر قول المتنبى فى الصفحة التالية مقحم هنا وحقه أن يكون فى الكلام على الشعر فى صفحة ٦٤٢ مثلا ، ولكن هكذا الأصول . (٢) ديوانه: ١٧ . (٣) فى الديوان: مدحى حسبة. (٤) فى ا : تعفه . (٥) فى ا : داينتهم . (٦) فى ط :أشد لعرة . (٧) فى الديوان: وظلامة.

أبو الطيب المتنبي :

ومكايد السفهاء واقِعةٌ بهم　　　وعداوةُ الشعراء بئس المُقْتَنَى

* * *

امرأة على قبر الأحنف

مات الأحنف(١) بن قيس بالكوفة ، فمشى مصعب بنُ الزبير فى جنازته بغير رداء ، وقال : اليوم مات سرُّ العرب ؛ فلما دُفن قامت امرأةٌ على قَبْره فقالت : لله درُّك من مُجَنٍّ فى جَنَنٍ ، ومُدْرَجٍ فى كَفَن ، نسألُ الذى فجعنا بموتك ، وابتلانا بفَقْدِك أن يجعلَ سبيلَ الخيرِ سبيلَك ، ودليلَ الرّشد دَليلك ، وأن يوسّع لك فى قبرك ، ويغفر لك يوم حَشْرِك ؛ فوالله لقد كنتَ فى المحافل شريفاً ، وعلى الأرامل عَطُوفاً ، ولقد كنت فى الحىّ مسوَّداً ، وإلى الخليفة موفَداً ، ولقد كانوا لقولك مستَمِعين ، ولرأيك متّبِعين ؛ ثم أقبلت على الناس فقالت : ألَا إن أولياءَ الله فى بلادِه شهود على عبادِه ، وإنى لقائلةٌ حقّا ، ومثنيةٌ صِدْقا ، وهو أهلٌ لحُسْنِ الثناء ، وطيب النّثَا(٢) ، أما والذى كنتَ من أَجله فى عِدة ، ومن الحياةِ إلى مدّة ، ومن المقدار إلى غاية ، ومن الإياب إلى نهاية ، الذى رفع عملَك ، لمّا قضى أجلُك ، لقد عِشت حميداً مودُوداً ، ومُتَّ سعيداً مفقوداً ، ثم انصرفت وهى تقول :

لله درُّك يا أبا بَحْرِ　　　ماذا تغيَّبَ منكَ فى القَبْرِ

لله درُّك أىّ حَشْوِ ثرًى　　　أصبحتَ من عُرْف ومِن نُكْرِ

إنْ كان دهرٌ فيك جرَّ لنا　　　حدَثاً به وهَنَتْ قوَى الصَّبْرِ

فلكم يد أسديتها ويدٍ　　　كانَتْ ترُدُّ جرائرَ الدهرِ

ثم انصرَفت فسُئِل عنها ، فإذا هى امرأتُه وابنةُ عمه . فقال الناس : ما سمعنا كلامَ امرأةٍ قطّ أبلغ ولا أصدق منه .

بم بلغ الأحنف هذه المنزلة

قال : وكان الأحنفُ قدم الكوفة فى أيام مصعب بن الزبير ، فرآه رجلٌ أعورَ

---

(١) الأمالى: ٣ — ٢٧ ، ذيل اللآلئ ١٥ .　　(٢) فى الأمالى : الدعاء .

دميما قصيراً أحْنَفَ الرجلين ، فقال له : يا أبا بحر ؛ بأى شىء بلغتَ فى الناس ما أرى، فوالله ما أنتَ بأشرف قومِك ، ولا أجودِهم ! فقال : يابن أخى، بخلاف ما أنت فيه! قال : وما هو ؟ قال : ترْكِى من أمرك مالا يعنينى ، كما عَنَاكَ من أمرى مالا تتركه .

[منصور النمرى]

الشعراء بباب المعتصم

اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم : مَنْ كان منكم يُحْسِنُ أنْ يقول مثل قول منصور النَّمرى فى أمير المؤمنين الرشيد[١] :

إنّ المكارمَ والمعروف أوديةٌ ... أحلّك اللهُ منها حيث تجتمِعُ

إذا رفعت امرأً فاللهُ رافِعُه ... ومن وضعْتَ من الأقوام متّضِعُ

من لم يكن بأمين اللهِ معتصماً ... فليس بالصلواتِ الخمس ينتفِعُ

إنْ أخلف الغيثُ لم تُخْلِفْ أناملُه[٢] ... أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتّسع

فليدخل، فقال محمد بن وهيب: فينا من يقولُ خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثةٌ تشرِقُ الدنيا ببهجتهم ... شمس الضحى وأبو إسحق والقمرُ

يحكى أفاعيله[٣] فى كل نائبةٍ ... الغيث والليث والصمْصَامة الذّكر

فأمر بإدخاله وأحسن صلتَه .

أخذ معنى البيت الأول من بيتى محمد بن وهيب أبو القاسم محمد بن هانئ الأندلسى[٤] فقال:

المدْنفان من البرّية كلها ... قلْبى وطَرْف بابلىّ أحْوَرُ

والمشرقات النيراتُ ثلاثة ... الشمسُ والقمرُ المنير وجَعْفَر

وبيت أبى القاسم [الأول][٥] مأخوذ من قول ابن الرومى[٦] :

يا عليلا جعل العِلْـ ... ـلَة مِفتاحاً لسقمى[٧]

ليس فى الأرضِ عليلٌ ... غير جَفْنَيك وجِسْمِى

(١) الأمالى ١ — ١١٢ ، اللآلئ ٣٣٦ ، ديوان المعانى ١ — ٥٩ ، ٢ — ١٥٣ ، تاريخ بغداد ١٣ — ٦٨ . (٢) فى ديوان المعانى : مخايله ، وفى ط : إن أخلف المزن .
(٣) فى ا : تحكى أفاعله . (٤) فى ا : الأزدى . (٥) من ا .
(٦) ديوانه ١٩ . (٧) فى الديوان : لظلمى .

ومر النمرى بالعتّابى مغموماً فقال : مالك ، أعزّك الله ؟ فقال : امرأتى بطَلْقٍ منذ ثلاث ونحنُ على يَأْسٍ منها . فقال له العتّابى : وإنّ دواءَها منك أقربُ من وجهها. قل: هارون الرشيد، فإنّ الولدَ يخرج ! فقال: شكوت إليكَ مابى ، فأجبتنى بهذا ؟ فقال : ما أخذت هذا إلا من قولك :

إن أَخلف الغيث لم تخلف أناملُه ... أَو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتسعُ

وأبياتُ منصور بن سَلمة بن الزبرقان النمرى التى ذكرها المعتصم من قصيدةٍ له وهى أَحسنُ ما قيل فى الشيب أولها (1) :

ما تنقضى حَسْرةٌ منى ولا جَزَع ... إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرتَجعُ
بانَ الشباب وفاتَتْنى بغرَّته (2) ... خطوبُ (3) دَهْرٍ وأيامٌ لها خُدَعُ
ما كنتُ أوفِى شبابى كُنْه غِرَّتِهِ ... حتى انقضَى فإذا الدنيا له تَبعُ
تعجبَتْ أن رأتْ أسرابَ دمعتِه ... فى حلبة (4) الخدِّ أَجْراها حشًى وَجِعُ
أصبحتِ لم تطعمى ثكل الشباب ولم ... تشجَىْ بغُصَّته فالعذْر لا يقعُ
لا ألحينّ فتاتى (5) غير كاذبةٍ ... عين الكذوب فما فى ودِّكم طمَع
ماواجه الشيبَ من عَيب وإن وَمِقَتْ ... إلا لها نَبْوَةٌ عنهُ ومُرْتدعُ
إنى لمعترف مافىَّ من أَرَبٍ ... عنـد الحسان فما للنفْسِ تَنْخَدِع
قد كدت تقضى على فَوْت الشباب أسًى ... لولا تعزّيك أنّ الأمرَ منقطِعُ

وذُكِر أن الرشيد لما سمع هذا بكى ، وقال : ماخير دنيا لا نخطر فيها ببرد الشباب! وأنشد متمثلا (6) :

أتأمُل رَجْعَة الدنيا سَفَاهًا ... وقد صار الشبابُ إلى ذهَابِ
فليت الباكياتِ بكلّ أرض ... جُمِعْنَ لنا فنُحْنَ على الشبابِ

(1) ديوان المعانى ٢ — ١٥٣ ، اللآلئ ٣٣٦ ، أخبار أبى تمام ٢٧ .
(2) فى ديوان المعانى وأخبار أبى تمام : بشرته . (3) فى ديوان المعـانى : صروف ، وفى ا : خطوف . (4) فى ا : حلية . (5) فى ا : فإنى . (6) اللآلئ : ٣٣٧ .

تقديم الرشيد للنمرى

وكان الرشيد يقدم منصورا النمرى بجَوْدَة شعره ، ولِمَا يمتّ إليه من النسب من العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وكانت نتيلة أم العباس من النمر بن قاسط ؛ ولِمَا كان يُظهِرُ من الميل إلى إمامَةِ العباس وأهله ، والمنافرة لآل على رضى الله عنه ويقول[1] :

بنى حسن وقل لبنى حُسينٍ ... عليكم بالسدادِ من الأمورِ
أميطُوا عنكُم كذِب الأماني ... وأحْلاما يعدن عِداة زُور
تسمّون النبي أباً ويأبى ... من الأحزاب سَطرٌ فى سطور

يريدُ قولَ الله تعالى : ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم . وهذا إنما نزل فى شأن زيد بن حارثة ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تبنّاه ، فقال له الرشيد : ماعدوتَ مافى نفسى ، وأمره أن يدخلَ بيتَ المال فيأخذ ما أحبّ .

كان يعتقد الرفض

وكان يضمر غير ما يظهر ، ويعتقد الرّفض ، وله فى ذلك شعر كثير لم يَظْهَرْ إلّا بعد موته ، وبلغ الرشيد قوله[2] :

آلُ النبي ومن يُحِبُّهم ... يتطامَنُون مَخافَةَ القَتْلِ
أمِنَ[3] النصارى واليهود ومَن ... من أُمَّةِ التوحيد فى أزْلِ[4]
إلا مَصَالت ينصرُونهمُ ... بظُبَا الصّوارم والقنَا الذُّبلِ[5]

فأمر الرشيد بقتله [وكان حينئذ برأس العين][6] ، فمضى الرسول فوجده قد مات ، فقال الرشيد : لقـد هممت أن أنبش عظامَه فأحرقها . وكان يُلْغِز فى مدحه لهرون ، وإنما يريد قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلىّ رضوان الله عليه : أنت منى بمنزلة هرون من موسى . وقال الجاحظ : وكان يذهب أولا مذهب الشُّراة ، فدخل الكوفة وجلس إلى هشام بن الحكم الرافضى وسمع كلامَه ، فانتقل إلى الرفض ، وأخبرنى

(١) الشعراء ٨٣٦ . (٢) الشعراء ٨٣٧ . (٣) فى الشعراء : أمنوا .
(٤) الأزل : الضيق والشدة . (٥) المصالت: جمع مصلت ، وهو المقدام .
(٦) من ا .

مَنْ رآه على قبر الحسين بن على رضى الله عنهما ينشد قصيدتَه التى يقول فيها :

فما وُجدت على الأكتاف منهم ولا الأقفاء آثارُ النُّصـولِ
ولـكنّ الوجوهَ بهـا كُلومٌ وفوق حُجورهم مَجْرَى السيولِ
أُرِيق دمُ الحسينِ ولم يراعوا وفى الأحياءِ أمواتُ العُقولِ
فدتْ نفسى جبينَك مِنْ جَبِينٍ جرَى دمُه على خـدٍّ أَسِيلِ
أَيخلو قلبُ ذى وَرَعٍ ودِينٍ مِنَ الأحزانِ والألمِ الطويلِ
وقد شَرِقت رماحُ[(١)] بنى زيادٍ برِىّ من دماءِ بنى الرسـول
بتُربة كَرْبَلاءَ لهم دِيارٌ نيامُ الأهل[(٢)] دارِسَةُ الطُّلُولِ
فأوصال الحسـين ببَطْنِ قاعٍ ملاعبُ للدَّبور وللقَبـول
تحيـاتٌ ومغفرة وروحٌ على تلك المحلة والحـلولِ
برئنا يا رسـولَ الله ممن أصابك بالأذِيّةِ والذُّحُولِ

[ابنا المعذل]

وقال أحمد بن المعذل :

أخو دَنَفٍ رَمَتْه فأقصدتْهُ سِهَامٌ من جفونك لا تَطِيشُ
كئيب[(٣)] إن تَرحّل عنه جيشٌ من البَلْوى ألمّ به جُيُوش

أدب أحمد ابن المعذل

وكان أحمد بن المعذَّل[(٤)] بن غَيْلان العبدى فى اللغة والبيان والأدب والحلاوة غاية . قال : دخلتُ المدينة فتحملت على عبد الملك بن الماجشون برجل ليخصّنى ويعنى بى ، فلما فاتحنى قال : ما تحتاجُ أنت إلى شفيع ، معك من الحذاء والسقاء ما تأكلُ به لبّ الشجر ، وتشرب صَفْوَ المـاء ، وكان أخوه عبد الصمد يؤذيه ويهجُوه ،

---

(١) فى ا : دماء . (٢) فى ا : كهام الأصل . (٣) فى ا : كئيبا .
(٤) اللآلئ ٣٢٥ .

بين أحمد وأخيه

فكتب إليه أحمد : أما بعدُ فإنَّ أعظم المكروه ما جاء من حيث يرجَى المحبوب ، وقد كنتَ مؤمَّلا مَرْجوا ، حتى شمل شرك ، وعمّ أذاك ، فصرت فيك كأبى العاقّ إن عاش نغَّصه ، وإن مات نقصه ، واعلم لقد خشنت صَدْرَ أخٍ جَيْبُه لك ناصحٌ ، والسلام .

وكان يقول له : أنت كالأصبع الزائدة إن تُرِكَتْ شانَتْ ، وإن قطعت آلمت !

ومثل هذا قول النعمان بن شمر الغسانى[1] :

وصالُ أبى بردٍ عَنَاءٌ وتركُهُ	بلاءٌ فما أدرِى به كيف أصنعُ
إذا زُرْته يومين ملَّ زِيارتى	وإن غبت عنه ظلّت العينُ تَدْمَع

وقول الضحاك بن همام الرقاشى :

وأنتَ امرؤٌ منا خلقت لغيرنا	حياتُك لا ترجَى وموتك فاجِعُ
وأنت على ما كان منك ابن حرةٍ	وإنى لما يرضى به الخصم مانِعُ[2]
وفيك خصالٌ صالحاتٌ يشينها	لديك جفاءٌ عندهُ الودُّ ضائعُ

وقال بعضُ المحدثين :

إذا ساءنى فى القولِ والفعل جاهداً	وفى كلّ حالٍ من أحب وأمحضُ
فياليتَ شعرِى ما يعاملنى بهِ	على كلّ ذنب مَن أُعادِى وأبغِضُ

أخذ أحمد الصلة

وقال أبو العباس المبرّد : وكان أحمد بن المعذّل من الأُبّهة ، والتمسك[3] بالمنهاج ، والتجنُّب للعبَث ، والتعرّض للإشفاق لِما فى أيدى الناس ، وإظهار الزُّهْدِ فيه ، والتباعد عنه ، على غاية ، حتى حُمِل فى فقهاء وأدباء من أهل البصرة ؛ فأَخذَ الصلة غيرَ مُمتَنِع ولا مُنْكِر . ووصله إسحق بن إبراهيم فقبل ، واستدعى اجتباءه إياه ، وتحلّى له جهده ، فقال عبد الصمد :

---

(١) فى ا : الضبابى . (٢) فى ط : طائع . (٣) فى ا : والنسك .

عذيرى من أخٍ قد كان يُبْدِى ... على من لَابس السلطانَ عَتْبَهْ
وكان يذمهم فى كلّ يوم ... له بالجهل والهذيان خُطْبَهْ
فلما أن أتتـه دُرَيهماتٌ ... من السلطان باعَ بهن رَبَّهْ

وقال فيه :

لِى أخٌ لا تَرَى لهُ ... سائلا غـيرَ عاتِبِ
أجْمَعُ الناسِ كلّهمْ ... للئيمِ المَذاهِبِ
دون معروفِ كفّهِ ... لَمْسُ بعضِ الكواكبِ
ليت لى منك يا أخى ... جارةً مِنْ مُحارِبِ
نارها كلّ شَتْوَةٍ ... مِثْلُ نارِ الحُباحِبِ

* * *

القطامى يهجو

ذهب إلى قول القُطامى ، وقول القطامى من خبيث الهجاء ، وكان نزل بامرأةٍ من محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر فذمّ مثواه عندها فقال[(١)] :

وإنى وإنْ كان المسافرُ نازلاً ... وإن كان ذا حقّ على الناسِ واجبِ
فلابدّ أن الضيفَ يُخـبرُ مارأى ... مُخَـبِّرُ أهْلٍ أو مُخَـبِّرُ صاحبِ
لَمخبرك[(٢)] الأنباءَ عنْ أمِّ منزل ... تضيّفْتُها بين العُذيب فراسِبِ[(٣)]
تلفّعت[(٤)] فى طَلّ وريح تَلُفُّنى ... إلى طِرْمِساء[(٥)] غَيْرِ ذاتِ كواكبِ
إلى حَيْزَبُون تُوقِد النارَ بعدما ... تَلَفَّعَتِ الظلماءُ من كل جانب
تصَلَّى بها بَرْدَ العِشاء ولم تـكُنْ ... تَخَالُ وميض[(٦)] النار يَبْدُو لراكب
[فمـا راعها إلابغام مطيتى ... تريح بمحسود من الصوت لاغب][(٧)]
فجُنَّتْ فنونا من دِلَاث[(٨)] مُناخةٍ ... ومن رَجُلٍ عارِى الأشاجع شاحبِ
سَرَى فى حليك[(٩)] الليل حتى كأنما ... تخزّم بالأطراف شوكُ العقارِب

(١) اللآلئ ١٣١ ، الشعراء ٣٠٧ ، الخزانة ٣ ـ ١٨٨ معاهد التنصيص ١ ـ ١٨١ .
(٢) فى ا : مخبرك الأنباء من . (٣) العذيب وراسب : موضعان .
(٤) فى الشعراء : تقنعت . (٥) الطرمساء : الظلمة الشديدة. (٦) فى الشعراء : وبيص.
(٧) من ا . (٨) الدلاث : السريع والسريعة من النوق ، وغيرها . (٩) فى ط : جليد.

تقول وقد قرّبتُ كُورِى وناقتى	إليك ، فلا تذْعَرْ علىَّ ركائبى
فسلّمت والتسليمُ ليسَ يسرُّها	ولـكنه حَقٌّ على كل جَانب
فردّت سلاماً كارهاً ثم أعرضتْ	كما انحاشَت الأَفعى مخافةَ ضَارِبِ
فلما تنازعْنَا الحديثَ سألتُها	مَن ِ الحىُّ؟ قالت: معشرٌ من مُحَارِب
من المشتَوِين القِدّ ممـا ترَاهُمُ	جِياعاً وريفُ الناس ليس بنَاضِبِ
فلما بَدا حرمانُها الضيفَ لم يكن	علىّ مبيتُ السوءِ ضَرْبةَ لَازب
وقُمْتُ إلى مَهْرية قد تعوَّدَتْ	يَداهاَ ورِجْلَاهاحثيثَ المراكِبِ (١)
ألا إنما نيران قيسٍ إذا شتَوْا	لطارقِ ليل مِثْلُ نارِ الحُبَاحب

ومحارب قبيلة منسوبة إلى الضعف وقد ضَربت العربُ بها المثل . قال الفرزدق لجرير :

وما استعهد الأقوام منزوج حُرةٍ	من الناس إلا منك أو من مُحَاربِ

أى يأخذون العَهْدَ عليـه أنه ليس من كليبٍ ولا من محارب .

وقال أبو نواس فى قصيدته التى نخر فيها باليمانية وهجا قبائل معدّ :

وقيس عيلان لا أريدُ لها	من المخازى سوى محارِبها (٢)

* * *

أم ابن المعذل

وكانت أم(٣) عبدالصمد بن المعذل طباخةً ، فـكان أحمد يقول إذا بلغه هجاؤه : ماعسيت أن أقول فيمن ألْقِـحَ(٤) بين قِدْر وتَنُّور ، ونشأ بين زق(٥) وطُنبـور ؟ وعبد الصمد شاعر أهل البصرة فى وقته ، وهو القائل :

تكلفُنى إذلالَ نفسى لعِزِّها	وهان عليها أَنْ أُهانَ لتُـكرما
تقول سَل المعروف يحيى بنأ كثم	فقلت سَلِيه رَبَّ يحيى بن أ كثما

---

(١) فى الشعراء : حبيب المواكب .	(٢) فى ط : مخازيها .
(٣) اللآلئ ٣٢٦ ، وفى ط : امرأة ، وهـذا من ا .	(٤) فى اللآلئ : لقح .
(٥) فى ا : رق .

شعر عبد الصمد فى الرقيق

قال أبو شُراعة القَيْسى : كنتُ فى مجلس العتْبى مع عبدالصمد بن المعذل فتذاكرنا أشعارَ المولدين فى الرقيق ، فقال عبد الصمد : أنا أشعرُ الناسِ فيه وفى غيره فقلت: أحذق منك والله بالرقيق الذى يقول ، وهو راشد بن إسحق أبو حُكيمة الكوفى:

وشعر راشد بن إسحاق

ومستوحشٍ لم يُمْسِ فى دارِ غُرْبَةٍ ... ولكنَّهُ ممن يحبّ غَرِيبُ

طَوَاه الهوى واستشعر الوَصْل غيرهُ ... فشطَّتْ نَواهُ والمَزارُ قَريب

سلامٌ على الدارِ التى لا أزورُها ... وإن حَلّها شخصٌ إلَىَّ حبيبُ

وإن حَجبتْ عن ناظرىَّ ستُورُها ... هوًى تَحْسُن الدُّنيا به وتَطِيبُ

هوى تَضْحَكُ اللذاتُ عند حضورِه ... ويسخُن طَرْف اللهو حين يَغِيب

تثنَّى به الأعطافُ حتى كأنهُ ... إذا اهتزّ من تحتِ الثياب قَضِيبُ

ألم ترَ صَمْتِى حين يَجْرِى حديثهُ ... وقد كنت أُدْعَى باسْمِه فأجِيبُ

رضيت بسَعْى الدهر بينى وبينهُ ... وإن لم يَكُن للمين فيه نصيبُ

أحاذِر إنْ واصلته أن ينالَنى ... وإياه سَهْمٌ لِلفراقِ مُصِيبُ

أرى دون من أهوى عيوناً تريبنى[٢] ... ولاشك أنى عندهنّ مريبُ

أُدارِى جليسى بالتجلّد فى الهوى ... ولى حين أخلو زَفْرَةٌ وَنحِيبُ

وأُخْبِرُ عنه بالذى لا أُحبّهُ ... فيضحك سِنِّى والفؤادُ كئيب

مخافةَ أن تغرَى بنا ألسنُ العِدَا ... فيطمع فينا كاشحٌ فيعيب

كأنّ مجالَ الطَّرْف فى كل ناظر ... على حَرَكات العاشقين رقيبُ

أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى ... ويصبِينَ عقْلَ المرء وهْو لبيبُ

وكم قد أذلّ الحبُّ من متمنّعٍ ... فأضحى وثَوْبُ العزِّ منه سَلِيبُ

وإن خُضُوعَ النفسِ فى طلب الهوى ... لأمرٌ إذا فكرتُ فيه عَجيب

فلم ينطق بحرف .

---

(١) فى ا : بعزها . (٢) فى ط : تريبنى .

من مديح أبى شراعة

ولأبى شُرَاعة يمدح بنى رياح[(١)] :

بنى رياح أعادَ اللهُ نعمَتَكم خيرَ المَعادِ وأسْقَى رَبْعَكم دِيَما
فكم بِهِ من فتى حُلْو شمائلُهُ يكادُ ينهلُّ من أعطافِه كَرَما
لم يلبسوا نعمةً للهِ مُذْ خلقوا إلا تلبّسها إخوانُهم نِعَما

وفى إبراهيم بن رياح يقول عبد الصمد بن المعذل :

قد تركت الرياح يابن رياح وهى حَسْرَى إنْ هبَّ منها نسيم
نهكتْ مالَكَ الحقوقُ فأضْحَى لكَ مَالٌ نِضوٌ وفعلٌ جَسيمُ

وكان عبدالصمد [بن المعذل][(٢)] متصلا بإبراهيم وبنيه، وأفاد منهم أموالا جليلة، واعتقد عقدا نفيسة ، فما شكر ذلك ولا أصحبه بما يجب عليه من الثناء عند نَكْبَته ، وكان الواثق عزَلَه عن ديوان الضياع ، ودفعه إلى عمر بن فرج[(٣)] الرخجى ، فحبسه فهجاه عبد الصمد .

من أخلاق عبدالصمد

قال أبو العباس محمد بن يزيد : وكان عبد الصمد شديدَ الإقدام على الأعراض، ردىء السريرة فيما بينه وبين الناس ، خبيث النيَّة ، يرصُد صديقَه بالمكروه ، تقديرا أن يماديَه فيسوءه بأَمْرٍ يعرفُه ؛ ولا يكاد يَسْلَمَ لأحد ، وكان مشهورا فى ذلك الأمر ، يلبس عليه ، ويُحمل على معرفةٍ به ، عجباً بظَرْفِ لسانِه ، وطيبِ مجلسه ، وأيضا لقُبْح مسَبَّته ، وشائن معرّته .

حبس الواثق ابن رياح

قال أبو العيناء : ولما حبس الواثق إبراهيم بن رياح ، وكان لى صديقا ، صنعتُ له هذا الخبر رجاءً أنْ ينتهىَ إلى أمير المؤمنين فينتفع به ، فأخبرنى زيدُ بن علىّ ابن الحسين أنه كان عند الواثق حين قُرِئ عليه فضَحِك واستظرفه ، وقال : ماصنعَ هذا كلَّه أبو العيناء إلا فى سبب إبراهيم بن رياح وأمر بتخليته والخبر : قال

خبر أبى العيناء فى ذلك

لقيتُ أعرابيا من بنى كلاب فقلت له : ما عندك من خَبَر هذا المسكر ؟ فقال :

---

(١) فى ط : بنى رباح . (٢) من ا (٣) فى ط : فرح .

قتل أرضاً عالمها ، قال : فقلت : فما عندك من خبر الخليفة ، قال : يخبخ بعزّه ، وضرب بجرانه ، وأخذ الدرهم من مصره ، وأرهف قَلَمَ كلّ كاتبٍ بجبايته . قلت : فما عندك فى أحمد بن أبى دُواد ؟ قال : عُضلة لا تُطاقُ [١] ، وجَنْدَلة لا تُرَام ، يُنتحى بالمدَى لتحزّه فيحور [٢] ، وتُنْصَب له الحبائل حتى تقول : الآن ، ثم يضبر ضَبْرَة [٣] الذئب ، ويخرج خروجَ الضَّب ، والخليفة يَحْنُو عليه ، والقرآن آخذ بضبعيه . قلت : فما عندك فى عمر بن فرج ؟ قال : ضَخْم ، حِضجَر [٤] ، غضوب ، هِزَبْر ، قد أهدفه القومُ لبَغْيِهم ، وانتضلوا له عن قسيّهم ، وأخر [٥] له بمثل مصرع من يصرع . قلت : فما عندك فى خبر ابن الزيّات ؟ قال : ذلك رجل وسع الوَرى شرّه ، وبطن بالأمور خيره ، فله فى كلّ يوم صَريع ، لا يظهر فيه أثرُ ناب ولا مِخلب ، إلا بتسديد الرأى . قلت : فما عندك فى خبر إبراهيم بن رياح ! قال : ذاك رجل أوْبَقه كرمُه ، وإن يَفُزْ للكرامِ قدح ، فأحر بمنجاته [٦] ، ومعه دعاء لا يخذُله ، وربٌّ لا يُسْلِمه ، وفوقه خليفة لا يظلِمه . قلت : فما عندك فى خبر نجاحِ بن سَلمة ؟ قال : لله دره من نافض أوتار ، يتوقّد كأنه شعلةُ نار ، له فى الفَيْنَة بعد الفينة ، عند الخليفة خلسة كخلسة السارق ، أوْ كحسْوَةِ الطائر ، يقومُ عنها وقد أفاد نعما ، وأوقع نقما . قلت : فما عندك فى خبر ابن الوزير ؟ قال : إخاله كبْش الزنادِقة ، ألا ترى أنّ الخليفة إذا أهمله خَضِم ورتع ، وإذا أمر بتقصّيه أمطر فأمْرَع . قلت : فما عندك من خبر الخصيب [أحمد] [٧] ؟ قال : ذاك أحمق ، أَكل أَكْلَةَ نَهِم ، فاختلف اختلافَ بشم . قلت : فما عندك فى خبر المعلى بن أيوب ؟ قال : ذاك رجل قُدّ من صَخْرة ، فصبرْه صبرُها ، ومسّه مسُّها ، وكلٌّ ما فيه بعد فمنها ولها . قلت : فما عندك من خبر أحمد بن إسرائيل ؟ قال : كتوم

---

(١) فى ط : عضلة من العضل ، والعضلة : الداهية .
(٢) فى ط : لتنحره فيجوز .   (٣) فى ط : يطفر طفرة ، والضبر : الوثوب .
(٤) الحضجر : العظيم البطن ، وفى ط : ضجر .   (٥) فى ط : وأهل له .
(٦) فى ط : فلا عز بهجائه .   (٧) من ا .

غرور (١) ، وجَلْد صبور ، رجل جلده جلد نمر ، كلما خرقوا له إهابا ، أنشأ الله له (٢) إهابا . قلت : فما عندك من خبر الحسن بن وهب ؟ قال : ذاك رجل اتخذ السلطانَ أَخا ، فاتخـذه السلطانُ عبدا . قال : قلت : فما عندك من خبر أخيه سليمان بن وهب ؟ قال : شدَّ ما استوفيت مسألتك أيها الرجـل ! ذاك حرمة حبست مع صواحباتها فى جريرة محرمة ، ليس من القوم فى ورد ولا صَدَر ، هيهات :

كُتِب القَتْلُ والقتالُ علينا … وعلى الغانيات جَرُّ الذيول

قال : قلت : فما عندك من خبر عبد الله بن يعقوب ! قال : أمواتٌ غيرُ أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون .

قلت : فأين نزلت فأؤمك ؟ قال : مالى منزل تؤمّه ، أنا أستـتِر فى الليل إذا عَسْعَس وأنتشِرُ فى الصبح إذا تنفَّس .

* * *

من شعر راشد بن إسحق

ومن مليح شعر راشد بن إسحق بن راشد وهـو أبو حُـكيمة وكان قَوِىَّ أَسْرِ الشعر :

تحيرتُ فى أمرى وإنى لواقف … أُجيلُ وجوهَ الرأىِ فيك وما أَدْرِى
أأعزم عَزم الياس فالموتُ راحةٌ … أم اقْنَعُ بالإعْراض ِوالنَّظَرِ الشَّزْرِ
وإنى وإن أعرضت عنك لمُنْطَوٍ … على حُرقٍ بين الجوانح والصدرِ
إذا هاج شوقى مثّلتكَ لىَ المنى … فألقاك ما بينى وبينك فى سِتْرِ (٣)
فديتك (٤) لم أصبِر ولى فيك حيلةٌ … ولـكن دعانى اليأسُ فيك إلى الصبر
تصبَّرت مغلوباً وإنى لموجَعٌ … كما صبَرَ الظمآنُ فى البلد القَفْر

وقال :

عتبتُ عليك فى قَطْعِ العتاب … فما عطفتك ألسنةُ العتابِ

---

(١) فى ط : غدور . (٢) فى ط : حرق لهم بابا . (٣) فى ط : فى الستر .
(٤) فى ط : فمن تيك .

وفيما صرت تظهر لى دليل | على عَتْب الضميرِ المستَرابِ
وماخطرتْ دواعى الشوقِ إلاَّ | هززتُ إليك أجنحة التصابى

وقال أيضاً .

ضحِكْتِ ولو تَدْرِينَ ما بى من الهوى | بَكَيْتِ لمحزونِ الفؤاد كئيبِ
لمن لم تُرَحْ عيناه من فيضِ عَبْرَةٍ | ولا قَلْبه مِنْ زَفْرَةٍ ونحيب
لمستأنس بالهمِّ فى دارِ وَحْشَةٍ | غريب الهوَى باكٍ لكلِّ غريبِ
ألا بأبى العيش الذى بانَ فانقضى | وما كان من حُسْنٍ هناك وطِيبِ
ليالىَ يدعونا الصِّبا فنجيبهُ | ونأخذُ مِنْ لذَّاته بنصيبِ
نردِّدُ مستور الأحاديث بيننا | على غَفْلَةٍ من كاشح ورقيب
إلى أن جرى صرفُ الحوادث فى الهوى | فبُدل منها مَشْهَدٌ بمَغِيبِ

وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره صُنْت الكتاب عن ذكره .

[عبد الملك بن صالح]

بين يدى الرشيد

دعا الرشيد بعبد الملك بن صالح [1] وكان معتقلا فى حَبْسه ؛ فلما مَثَل بين يديه التفت إليه ، وكان يحدّث يحيى بن خالد بن برمك وزيره ، فقال متمثلا :

أريد حياتَه ويريدُ قَتْلى | عذيرك من خليلك من مُرادِ

ثم قال : ياعبد الملك ، كأنى أنظر إلى شُؤْبُوبها قد هَمَع ، وإلى عارِضِها قد لَمَع ، وكأنى بالوعيد قد أوْرَى [2] ؛ بل أدْمى ، فأبرز عن بَراجمَ بلا مَعَاصِم ، ورءوس بلا غَلَاصم ، فمهلاً بنى هاشم ، فبى والله سهل لكم الوَعْر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أثناءَ أزمتها ، فنذار لكم نذرا قبل [3] حلول داهية ، خَبوط باليد والرجْل [4] ، فقال عبد الملك : أفذّا [5] تكلم أم تَوْأما ؟ قال : بل فذّا . قال : اتّقِ

(١) العقد الفريد : ٢-١٥٢ . (٢) فى ا : أربى . (٣) فى ط : فتداركتكم ، وفى العقد : فالتدارك التدارك قبل. (٤) فى ا : لبوط بالرجل . (٥) الفذ : الفرد .

اللهَ يا أمير المؤمنين فيما ولاّك ، واحفظه فى رعاياك الذى[١] استرعاك ، ولا تجعل الكفر بموضع الشكر ، والعقاب بمَوْضِع الثواب ، فقد والله سهلت لك الوعور ، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور ، وشددتُ أوَاخِي ملكك بأوثق من رُكْني يَلَمْلَم ، وكنت لك كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب ـ يعنى لبيدا :

ومقامٍ ضيّق فرّجتهُ ... بلسانٍ وبيَان وجَدَلْ
لو يقومُ الفيلُ أو فيّالُه ... زَلَّ عن مثل مقامى وزحل[٢]

فأعاده إلى مجلسه وقال : لقد نظرتُ إلى موضع السيف من عاتقه مراراً ، فيمنعنى عن قتله إبقائى على مثله .

[مدح الحقد وذمه]

لعبد الملك ابن صالح

وأراد يحيى بن خالد أن يضَعَ من عبد الملك ليُرْضِيَ الرشيد ، فقال له : يا عبد الملك ، بلغنى أنك حَقود ! فقال عبد الملك : أيها الوزير ، إنْ كان الحقد هو بقاء الشر والخير ، إنهما لباقيان فى قلبي ! فقال الرشيد : تالله ما رأيت أحداً احتجَّ للحقد بأحسن مما احتجَّ به عبد الملك .

لابن الرومى

وقد مدح ابن الرومى الحقد ، وأخذ هذا المعنى من قول عبد الملك وزاد فيه ؛ فقال لعائب عابَه بذلك[٣] :

لئن كنت فى حفظى لما أنا مودَعٌ ... من الخير والشر انتحيت على عرضِي
لما عِبْتَنى إلاّ بفضل إبانة[٤] ... وربَّ امرئٍ يزرى على خُلُقٍ مَحْضِ
ولا عيبَ أنْ تجزى القروضُ بمثلها ... بل العيبُ أنْ تدّان دَينا ولا تقضى
وخيرُ سجيّاتِ الرجال سجيةٌ ... توفيك ما تسدى من القَرْض[٥] بالقرض

---

(١) فى ط : الشيء ، وفى العقد : وفى رعيتك التى استرعاك .
(٢) زحل : زال ، وفى ا : ورحل . (٣) ديوانه : ١٦٣ .
(٤) فى الديوان : إلا بما ليس عائبى ، وكم جاهل ... (٥) فى الديوان : من القرض والفرض.

إذا الأرض أدّت رَيْع ما أنت زارعٌ … من البَذْر فيها فهى ناهيك من أرضِ
ولولا الحُقُودُ المستكنات لم يكنْ … لينقض وتراً آخرَ الدهر ذو نقضِ
وما الحِقد إلا توأم الشكر فى الفتى … وبعض السجايا ينتمين (١) إلى بعض
فحيث ترى حِقداً على ذى إساءة … فثمّ ترى شكراً على حَسَن القَرْض

وقال يردّ على نفسه ويذم ما مدح توسّعاً واقتداراً (٢) :

يامادحَ الحقدِ محتالا له شبهاً … لقد سلكت إليه مسلكا وَعِثَا
إنّ القبيح وإنْ صنّعت (٣) ظاهِرَهُ … يعودُ مالمّ منه مرةً شَعِثَا
كم زخرف القول ذو زُور ولبَّسهُ … على القلوب ولكن قل ما لبثا
قد أبرم اللهُ أسباب الأمور معاً … فلن ترى سبباً منهن منتكثا
يادافنَ الحِقْدِ فى ضعفى جوانبهِ … ساء الدفينُ الذى أضحت (٤) له جَدَثا
الحقد داءٌ دَوِىٌّ لا دواءَ لهُ … يَرِى الصدور إذا ماجمره (٥) حُرِثا
فاستشفِ منه بصفْحٍ أو معاتبةٍ … فإنما يبرئُ الصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمتْ … ولا تكن بصغير القول مكْترثا
فالعفوُ أقربُ للتقوى وإن جُرمٌ … من مجرم جرح الأكبادَ أو فرثا
يكفيك فى العفو أن الله قرّظهُ … وَحْياً إلى خير من صلّى ومن بُعِثا
شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن … تلقى أخاك حقوداً صدْره شرثا
إذا وسّرك أن تلقى (٦) الذنوب معاً … وأن تصادف منه جانباً دَمِثاً
إنى إذا خلط الأقوام صالحهَم … بسيئ الفعل جدّا كان أو عَبثاَ
جعلت قلبى كظرف السبك حينئذ (٧) … يستخلص الفضة البيضاء لا الخَبثا

---

(١) فى ط : ينتهين ، وفى الديوان : ينتسبن .

(٢) ديوانه : ١٣٧ . (٣) صنعت الجارية : أحسن إليها حتى سمنت، وفى ا : ضيعت .

(٤) فى الديوان : أمست . (٥) فى ا : جهره حدثا .

(٦) فى الديوان : وسرك أن ينسى الذنوب .(٧) فى ط : جعلت قلبى كطرق السبك من حسد .

ولستُ أجعله كالحوض أمدحُه	بحِفْظِ ما طاب من ماء وما خُبثا

* * *

من النقد

والبيتُ الذى تمثل به الرشيد[1] هو لعمرو بن معديكرب يقوله لقَيس بن المكشوح المرادى، وقد تمثّل به على بن أبى طالب رضى الله عنه لَمَّا رأى عبد الرحمن بن مُلْجَم المرادى فقال له : أنت تخضب هذه من هذه[2] ، وأشار إلى لحيته ونقرته[3] . فقيل له : ياأميرَ المؤمنين ، ألا تقتله ! فقال : كيف يقتلُ المرءُ قاتلَه ؟

وكان بين مَسْلَمة بن عبد الملك وبين العباس بن الوليد تباعُد فبلغ العباس أن مسلمة ينتقصه ، فكتب إليه يقول[4] :

ألا تَقْنَى الحياءَ أبا سعيدٍ	وتُقْصِر عن مُلاحاتى وعَذْلِى
فلولا أنّ فرعكَ حين تُنْمَى	وأصلك منتهى[5] فرعى وأصلى
وأنى إن رَمَيْتك هِضْتُ عَظمى	ونالتنى إذا نالْتك نَبْلِى
لقد أنكرتَنى إنكارَ خوفٍ	يَضُمُّ حشاكَ عن شتْمى وأكْلِى
فكم من سَوْرَةٍ أبطأتَ عنها	بنى لك مجدها طلبى وحَفْلِى[6]
ومبْهمة عييت بها فأبدى	عَويلى[7] عن مخارجها وفَضْلى
كقول المرء عَمْرٍو فى القوافى	لِقَيْسٍ حين خالف كلَّ عَدْل
عذيرى من خليلى من مرادٍ	أُريدُ حياتَه ويريدُ قَتْلى

لم يتفق له فى القافية كما قال عمرو ، فغيّره .

[رجع إلى عبد الملك بن صالح]

وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن على وكان بليغاً جهيراً فاضلا عاقلا .

كلامه لمؤدبه

وقال الجاحظ : قال لى عبد الرحمن مؤدّب عبد الملك بن صالح قال لى عبد الملك بعد أن خصَّنى وصيَّرَنِى وزيراً بدلا من قُمامة : يا عبدَ الرحمن ، انظر فى وجهى ؛ فأنا

---

(١) صفحة ٦٥٩ (٢) فى ا : من هذا . (٣) فى ط : وثغرته . والثغرة : فقرة النحر بين الترقوتين . (٤) الأمالى : ١ ـ ١٤ ، اللآلئ ٦٢ . (٥) فى الأمالى : منتمى .
(٦) فى ط : وحملى . (٧) فى ا : حويلى .

أعرفُ منك بنفسك ولا تُسْعِدنى على ما يقبح ؛ دع [عنك كيف الأمير ؟] [1] ، وكيف أصبح الأمير؟ وكيف أمسى؟ واجعل مكانَ التقريظ حُسْنَ الاستماع منى، واعلم أن صوابَ الاستماع أحسنُ من صواب القول ، وإذا حدّثتك حديثاً فلا يفوتنّك شىء منه ؛ وأرنى فهمَك فى طرفك ؛ إنى اتخذتك وزيرا بعد أن كنت معلما ، وجعلتُك جليسا مقرّبا بعد أن كنتَ مع الصبيان مُبْعَداً ، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رُجْحَان ما صرتَ إليه .

مسايرته للرشيد

وساير الرشيدُ عبدَ الملك ، فقال له قائل: طأطئ من إشرافه، واشددْ من شكائمه، وإلاّ فسدَ عليك . فقال له الرشيد : ما يقولُ هذا ؟ قال : حاسدُ نِعمة ، ونافس رُتبة ، أغضبه رِضَاكَ عنى ، وباعدَه قُرْبُك منى ، وأساءه إحسانُك إلىّ . فقال له الرشيدُ: انخفض القومُ وعلوتَهم؛ فتوقّدت فى قلوبهم جَمْرة التأسّف . فقال عبد الملك: أضْرمَها اللهُ بالتزّيد عندك ! فقال الرشيدُ : هذا لك وذاك لهم .

اعتذاره حين أرتج عليه

وصعد المنبر، فأُرْتج عليه فقال : أيّها الناس، إن اللسان بضْعَة من الإنسان تكلّ بكَلاله إذا كلّ، وتنفسح [بانفساحه] إذا ارتجل ، إن الكلامَ بعد الإفحام كالإشراقِ بعد الإظلام ، وإنا لا نسكتُ حَصَرا ، ولا ننطقُ هَذَرا ؛ بل نسكتُ مفيدين ، وننطق مُرْشِدِين ، وبعد مقامنا مقام، ووراء أيامِنا أيّام ، بها فَصْل الخِطاب ، ومواقع الصواب ، وسأعودُ فأقول إن شاء الله تعالى .

أمام الرشيد بعد حبسه

وقال الأصمعى : كنتُ عند الرشيد فدعا بعبد الملك بن صالح من حَبْسه فقال : يا عبد الملك ، أكُفراً بالنِّعْمةِ ، وغَدْراً بالسلطان ، ووثوبا على الإمام ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بُؤْتُ بأَعباء الندم ، واستحلال النِّقَم ، وما ذاك إلاّ من قولِ حاسدٍ ، ناشدتك الله والولاية [2] ، ومودّة القرابة . فقال الرشيد : يا عبدَ الملك ، تَضَعُ لى لسانك ، وترفَعُ لى جنانك ، بحيث يحفظُ اللهُ لى عليك ، ويأخذ لى منك ، هذا كاتبُك قُمامة ينبىء عن غِلّك [3] . فالتفت عبدُ الملك إلى قُمامة وكان قائما ، فقال :

---

(١) من ا . (٢) فى ط : والولاء. (٣) فى ا : عن عملك .

أحقّا يا قمامة ؟ قال : حقا ، لقد رُمْت ختْر أمير المؤمنين ! فقال عبد الملك : وكيف لا يكذِب علىّ يا أمير المؤمنين فى غَيْبتى من يَبْهَتنى فى حضرتى ؟

فقال الرشيد : دَعْ قمامة ، هذا ابنُك عبد الرحمن ينبئ عنك بمثل خبر قمامة . فقال عبد الملك : إنّ عبد الرحمن مأمور أو عاقّ ؛ فإن كان مأموراً فهو معذور ، وإن كان عاقّا فما أتوقّع من عقوقه أكثر .

[فى مقام الخوف]

الحسن بن عمران أمام الرشيد

وقال الرشيد للحسن بن عمران وقد أُدْخِل عليه يرسف فى قُيُودِه : ولّيتك دمشق وهى جنّة مونِقة ، تحيط بها غُدُر كاللّجين ، فتكِف على رياضٍ كالزّرابى ، وكانتْ بيوتَ أموال فما برح بها (١) التعدّى ، حتى تركتَها أجردَ من الصَّخْرِ ، وأوحش من القَفْر ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ما قصدت لغير التوفيق من جهتِه ، ولكنى ولّيت أقواماً ثَقُلَ على أعناقهم الحقُّ ، فتفرّغوا فى ميدان التعدى ، ورأوْا أنّ المراغمة بتَرْك العِمارة أوقع بإضرار السلطانِ ، وأنوه بالشنعة ؛ فلا جَرَم أنّ موجدَة أمير المؤمنين قد أخذتْ لهم بالحظّ الأوفر من مساءتى ! فقال عبد الله بن مالك : هذا أجزلُ كلامٍ سُمِع لخائف ، وهذا ما كنا نسمعه عن الحكماء « أفضل الأشياء بديهةُ أمْنٍ وردَتْ فى مقامِ خَوْف » .

ويزيد بن مزيد

ولما رَضِىَ (٢) الرشيدُ عن يزيد بن مَزْيد دَخل عليه فقال : الحمد لله الذى سهّل لى سُبُلَ الكرامةِ بلقائك ، وردَّ علىّ النعمةَ بوَجْهِ الرضا منك ، وجزاكَ الله فى حال سُخْطِك حقّ المتثبتين (٣) المراقبين ، وفى حَال رضاكَ حقّ المنعمين المتطوّلين ؛ فقدجعلك اللهُ ، وله الحمد ، تتثبّت [تحرّجا] (٤) عند الغضب ، وتتطول [ممتنًّا] (٤) بالنعم ، وتستَبْقِى المعروفَ عند الصنائع تفضُّلا بالعَفْو .

---

(١) فى ط : بك . (٢) العقد: ٢ ــ ١٤٨ . (٣) فى ط : المتبين . (٤) من ا .

[من الرثاء]

وفى يزيد بن مزيد يقول مسلم بن الوليد مرثيّته وقد رُويت له فى يزيد بن أحمد السلمى (١) :

قَبْرٌ بِبَرْذَعَةَ استسرَّ (٢) ضريحهُ ... خَطراً تقاصَرُ دونهُ الأخطَارُ
نُفضت بك الأحلاسُ نَفْضَ إقامةٍ (٣) ... واسترْجَعتْ نُزّاعَها الأمصارُ
فاذهبْ كما ذهبتْ غوادِى مُزْنَةٍ ... أثنى عليها السهلُ والأوْعَارُ
سلكَتْ بكَ العربُ السبيلَ إلى العُلاَ ... حتى إذا سبق الرَّدَى بك حارُوا

ابن أبى عطية يرثى أخاه

وقال أبو عبد (٤) الرحمن محمد بن أبى عطية يرثى أخاه :

حنَّطْتَه يا نصرُ بالكافور ... وزَفَفْتَه للمنزلِ المهجورِ
هلاّ ببعض خصالِه حَنطتهُ ... فيضوع أُفْق منازلٍ وقُبور
والله لو بنسيم أخلاقٍ لهُ ... تُعْزَى إلى التقديسِ والتطهير
حنّطت من وطئ الحصى وعَلَا الربى ... لتزوّد بل (٥) عدة لنشور
فاذهب كما ذهب الشبابُ فإنهُ ... [قد كان خير مُجَاوِر ومُجير (٦)]
[واذهب كما ذهب الوفاء فإنه] (٦) ... عصفت به ريحا صَباً ودَبُور
واللهِ ما أبّنْتُه لأزيدهُ ... شرَفاً ولكن نَفْثَة المصدُورِ

رثاء رجل من العرب

ومات رجلٌ من العرب كان يعولُ اثنى عشر ألفاً ، فلما حُمل على سريره صرّ فقال بعضُ من حضر (٧) :

وليس صَرِيرُ النعشِ ماتسمعونهُ ... ولكنه أصلابُ قومٍ تقصّفُ
وليس فتيق المسك ما تجدونهُ ... ولكنه ذاك الثناء المخلَّفُ

---

(١) الأمالى : ١ـ٢٧٦ . (٢) فى ا : استمر، وفى الأمالى : قبر بحلوان .
(٣) فى ا : نفضت بك الآمال أحلاس المنى . (٤) فى ا : أبو عبيد الرحمن .
(٥) هكذا فى ط ، وفى ا: بياض مكان الكلمتين . (٦) من ا .
(٧) الأمالى : ١ـ١١٣ ، اللآلئ: ٣٣٩ .

وقال عبد الله بن المعتز فى عبيد الله بن سليمان بن وَهْب يرثيه :

يابن وَهْبٍ بالـكُرْهِ منى بقيتُ عجبى يوم متَّ كيف حَيِيتُ
إنما طيّب الثناء الذى خلف ت لا مِسْك نَعْشِك المفتوتُ
واختصرت الطريق بعدك للمو ت فلاقيتُه ولستُ أفوتُ
كيف يَبْقَى على الحوادث حَيٌّ بيدِ الدَّهْرِ عُودُه منحوتُ

وقال أيضاً(١) :

ذكرت ابنَ وَهْبٍ فللّهما ذكرتُ وماغيّبوا فى الـكَفَنْ
تقطّر أقلامه من دم ويعلمُ بالظنّ مالم يَـكُنْ
وظاهر أطرافه سَاكنٌ وما (٢) تحته حركاتُ الفَطِنْ

وقال (٣) :

ذكرت عبيد الله والتربُ دُونَه فلم تحبس العينانِ منّى بكاهُما (٤)
وحَاشاهُ من قولِ «سَقَى الغيثُ قبرَهُ» يداهُ تروِّى (٥) قبرَه مِنْ نداهُما

وهـذا مأخوذ من قول الطائى (٦) :

سقى الغيثُ غيثاوارَتِ الأرضُ شخْصَهُ وإن لم يكُنْ فيه سحابٌ ولا قَطْرُ
وكيف احْتِمالِى للسحابِ صنيعةً بإسقائها قَبْرا وفى لَحْدِه البَحْرُ

وقال ابن المعتز (٧) :

لم تَمُتْ أنتَ إنما مات مَنْ لم يُبْقِ فى المجدِ والمـكارم ذِكْرَا
لست مستسقيا لقبرك غيثاً كيف يظما وقد تضمَّن بَحْرا

والبيت الثانى من هذين (٨) من بيت الطائى .

---

(١) ديوانه: ٢ـ١٣٤ . (٢) فى الديوان : ومن تحته . (٣) ديوانه : ٢ـ١٣٢ .
(٤) فى الديوان : فلم تملك العينان إلا بكاهما . (٥) فى الديوان : تسق .
(٦) ديوانه: ٣٧٠ . (٧) ديوانه: ٢ـ١٣١ . (٨) فى ا : وبيته الأول .

وقال (١) :

مُحمدُ بنُ حميد أُخلِقت رِممُهْ ... أُرِيق ماءُ المعالى إذْ أُرِيقَ دَمُهْ
رأيتُه بنِجادِ السيفِ مُحْتَبِياً ... كالبدر حين انْجَلَتْ عن وجهه ظُلَمُهْ
فى روضةٍ حفَّها من حولها (٢) زَهَرٌ ... أيقنت عند انتباهى أنها نِعَمُهْ
فقلتُ والدمعُ من وَجْدٍ ومن حُرَقٍ ... يَجْرِى وقد خدَّدَ الخدين منسجمُهْ
ألم تمت ياسليلَ المجد (٣) من زمنٍ ... فقال لى : لم يَمُتْ من لم يمت كَرَمُه

وقال بعض أهلِ العصر :

عُمْرُ الفتى ذِكرُه لا طولُ مدَّته ... وموتُه موتُه لا موته الدَّانِى
فأَحْيِ ذكرَكَ بالإحسان تزرعهُ ... تُجْمَع به لك فى الدنيا حَياتانِ

وقال عبد السلام بن رَغبان (٤) الحِمصى :

سقى الغيثُ أرضاً ضُمِّنَتك وسَاحَة ... لقبرِك فيه الغيث والليثُ والبَدْرُ
وما هى أهلٌ إذْ أصابتك بالبِلَى ... لسُقيا ولـكن من حَوَى ذلك القبرُ

أخذهذاالبيت [الأول] (٥) الراضى فقال يرثى أباه المقتدر :

بنفسى ثرًى (٦) ضُمِّنْت فى سَاحة البِلى ... لقدضَمَّ منك الغيثَ والليثَ والبَدْرا
فلو أنَّ عمرى كان طوعَ مشيئتى ... وأسعدنى المقدورُ قاسمتُكَ العمرا
ولو أنَّ حيًّا كان قبْراً لميت ... لصيَّرْتُ أحشائى لأَعْظُمِه قَبْرا

هذا البيت ينظر إلى قول المتنبى (٧) :

حتى أتَوْا جَدَثاً كأن ضريحَهُ ... فى قَلْبِ كلِّ موحِّدٍ محفورُ

* * *

قطر الندى عند المعتضد

لما حُملت قَطْرُ الندى بنت خمارويه بن [أحمدبن] (٥) طولون إلى المعتضد كتب معها

(١) أبو تمام : ٣٨٧ . (٢) فى الديوان : قد علا حافاتها ، علمت بعد.
(٣) فى الديوان : ياشقيق الجود . (٤) فى ا : زغبان ــ بضم الزاى . (٥) من ا .
(٦) فى ط : أليث الشرى . (٧) ديوانه : ٢ــ ١٣٠ .

كتاب أبيها

أبوها إليه يذكره بحُرْمَة [1] سلفها [بسلفه] [2] ، ويذكرُ ما تَرِدُ عليه من أبّهة الخلافة، وجلالة الخليفة ، ويسأل إيناسها وبَسْطها . فبلغَتْ من قَلْبِ المعتضد لما زُفَّت إليه مبلغا عظيما ، وسُرَّ بها غاية السرور ، وأمر الوزير أبا القاسم عبيد الله بن سليمان ابن وهب بالجواب عن الكتابِ ، فأراد أن يكتبه بخطّه ، فسأله أبو الحسين بن ثوابَة أن يُؤْثره بذلك ففعل ؛ وغاب أياما وأتى بنسخة يقول فى فصل منها : وأمّا الوَدِيعةُ فهى بمنزلةِ شىء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عنايةً بها ، وحِيَاطة عليها ، ورعايةً لمودتك فيها . ثم أقبل عبيد الله يُعجب من حُسْنِ ماوقع له من هذا ، وقال : تسميتى لها بالوديعة نصفُ البلاغة . فقال عبيد الله : ما أقبحَ هذا ! تفاءلت لامرأةٍ زُفَّت إلى صاحبها بالوديعة ، والوديعةُ مستردة . وقولك : من يمينك إلى شمالك أقبح ؛ لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال ، ولو قلت: « وأما الهديةُ فقد حسُن موقعها منّا، وجلّ خطرُها عندنا ؛ وهى وإنْ بعدَتْ عنك ، بمنزلة من قربَتْ منك ؛ لتفقُّدِنا لها ، وأُنْسِنا بها ، ولسرورها بما وردَتْ عليه ، واغتباطها بما صارت إليه » لكان أحسن . فنفذ الكتاب .

رد الحسن ابن ثوابة

نقده

عقلها

وكانَتْ قَطْرُ الندى مع جمالها موصوفةً بفضل العقل [3] ، خلا بها المعتضد يوما للأُنس بها فى مجلسٍ أفرده لم يَحضره غيرها ، فأخذَتْ منه الكأس ، فنام على فخذها، فلما استثقلَ وضعَتْ رأسَه على وسادة ، وخرجت فجلست فى ساحةِ القصر على باب المجلس ، فاستيقظ فلم يجِدْها، فاستشاط غضبا ، ونادى بها فأجابته على قرب ، فقال : ما هذا ؟ أَخليتك إكراماً لكِ ، ودفعتُ إليك مهجتى دون سائر حظاياى ، فتضَعين رأسى على وسادة ! فقالت: ياأمير المؤمنين ، ماجهلتُ قدرَ ماأنعمتَ به علىّ وأحسنتَ فيه إلىّ ، ولكن فيما أَدَّبنى به أبى أن قال لى : لا تنامى مع الجلوس ، ولا تجلسى بين النيام .

* * *

---

(١) فى ط : بخدمة . (٢) من ا . (٣) فى ا : بفضل الفعل .

رثاء ابن المعتز لابن ثوابة

[رجع إلى الرثاء]

وفى أبى الحسين بن ثوابة يقول ابن المعتز يرثيه (١) :

ليس شىءٌ لصحّةٍ ودَوامِ غلبَ الدهرُ حِيلَةَ الأقوامِ
وتولّى أبو الحُسين حميداً فعلى رُوحه سَلام السلامِ
حين عاقدته على الحِفْظ للعَهْـ ـد وصافحتُه بكفِّ الذِّمام
واصطفته على الأخلاَّءِ نَفْسى كاصطفاء الأرواح للأجسامِ
كانَ رَيْحانة النّدامى وميزا ن القَوافِى شعراً وبَحْر كَلامِ
ومكان السهم (٢) الذى لا يرَى الشـ ـكّ ولا يستغِيث بالأوهام
ساحر (٣) الوحى فى القراطيس لاتحـ ـبس عنه أعنّة الأقلام
فإذا ما رأيته خِلْت فى خـ ـدَّيْه (٤) صُبْحًا منقّبا بظلام
نفسُ صبْرًا لا تجزَعِى إن هذا خُلق من خلائق الأيام

[أيام الشباب]

وأنشد أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب لرجل من بنى كلاب (٥) :

سقى اللهُ دهراً قدتولّت غَياطِلُه (٦) وفارقَنا إلا الحُشَاشةَ باطِلُهْ
ليالىَ خِدْنى كلُّ أبيضَ ماجدٍ يُطيع هَوَى الصابى وتُعْصَى عواذِلُهْ
وفى دَهْرِنا والعيشُ فى ذاك غِرّة ألا ليتَ ذاكَ الدهر تُثْنى أوائلُهْ
بما قد غَنينا والصِّبا جُلُّ همِّنا يُعايلنا رَيْعانُه ونُعايلُهْ
وجرَّ لنا أذيالَه الدهرُ حِقْبَةً يطاوِلُنَا فى غيِّهِ ونُطَاوِلُهْ
فسقياً له من صاحبٍ خذَلَتْ بنا مطيّتُنا فيه ووَلّت رَواحلُهْ
أَصُدُّ عن البيتِ الذى فيه قاتلى وأهجرُه حتى كأنّىَ قاتلُهْ

(١) ليس فى ديوانه المطبوع بأيدينا . (٢) فى ط : الوهم .
(٣) فى ط : سامر . (٤) فى ا : كفيه .
(٥) الأمالى : ١-٧٧ ، اللآلىء : ٢٥٨ . (٦) الغياطل : جمع غيطلة : الظلمة .

هـذا البيت يناسب قول ذى الرمة وإن لم يَـكُنْ فى هذا المعنى يصِفُ ظبية وولَدَها :

إذا استودَعتْه صفصفا أو صريمة تنحّت ونصّتْ جِيدَها بالمناظِر[1]

حِذاراً على وسْنَانَ يَصْرعُه الـكَرى بكل مقيل عن ضِعافٍ فواتِر

وتهجرُه إلا اختلاساً نَهارها وكم من محبّ رهبةَ العين هاجِر

وقال أبو حية النميرى :

أما وأبى الشباب لقـد أراهُ جميلا ما يرادُ به بديلُ

إذِ الأيامُ مقبلةٌ علينا وظِلٌّ أرا كَةِ الدنيا ظليلُ

وقال على بن بسام[2] :

بشاطئ نهر قبرك فالمصلَّى فما والاَهُمَا فالقرْيتَينِ

معاهِد لَهْوِنا والعيشُ غضٌّ وصرفُ الدهرِ مقبوضُ اليَدين

* * *

ابن بسام وشيء من أدبه

وكان ابنُ بسام هذا ، وهو على بن [محمد بن][3] منصور بن بسّام ، مليح المقطعات، كثير الهجاء خبيثه ، و[ليس][3] له حظّ التطويل وهو القائل :

كم قد قطعْت إليك من دَيْمومَةٍ نُطَف[4] المياهِ بها سَوادُ الناظِرِ

فى ليلةٍ فيها السماء مرِذّةٌ[5] سوداء مظلمةٌ كقَلْبِ الـكافر

والبرقُ يخفِقُ من خلال سحابهِ خَفْقَ الفؤاد لموعِدٍ من زائر

والقطر منهمِلٌ يسُحّ كأنهُ دمع المودّع إثْر إلْفٍ سائر

وقال فى العباس [بن الحسين][3] لما وزر للمكتفى :

وزارة العباسِ من نحْسِها ستقلع الدولةَ من أسِّها

---

(١) الصفصف : المستوى من الأرض. والصريمة : الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر . ونصت جيدها . رفعته . (٢) المختار ٣٣٢ . (٣) من ا .

(٤) النطفة : الماء الصافى، وجمعه نطف . (٥) فى ط : مزادة .

شبَّهْتُه لَمَّا بَدَا مُقْبِلا   فى خلع يخجل من لبْسِهاَ
جارية رَعْنَاء (١) قد قدَّرَتْ   ثياب مولاها على نفسِها

وقال فى على بن يحيى المنجم يرْثيه :

قد زرتُ قبرك يا علىّ مسلماً   ولكَ الزيارة من أقلّ الواجبِ
ولواستطعت حملتُ عنك ترابَهُ   فلطالما عنى حملتَ نوائبى

وكان مولعاً بهجاء أبيه ، وفيه يقول وقد ابتنى داراً :

شِدْتَ داراً خلتها مكرمةً   سلَّط اللهُ عليها الغرَقَا
وأرانيك صريعاً(٢) وسطها   وأرانيها صعيداً زَلَقا

وقال أبو العباس بن المعتز يهجوه (٣) :

من شاء يَهْجُو عليًّا   فشِعرُه قد كَفاهُ (٤)
لو أنّه لأَبيــهِ   ما كان يَهْجُو أباهُ

[مع الخلفاء]

المأمون وأحمد بن أبى خالد

وقال المأمون لأحمد بن أبى خالد ، وهو يخلف الحسنَ بن سَهل ، وقد أشار إليه برأى استرجحَه : قد اعتلّ الحسنُ ولزم بيته ، ووكَل الأمرَ إليك ، فأنا إلى راحته وبقائه ، أحوجُ إلى إتعابه وفنائه ، وقد رأيتُ أن أستوزرك ؛ فإن الأمر له ما دمت أنت تقوم به ، وقد طالعتُ رأيه فى هذا الأمر ، فما عَداكَ (٥) . فقال: ياأمير المؤمنين، أَعْفِنىمن التسمّى بالوزارة، وطالبنىبالواجبِ فيها، واجعلْ بينى وبين الغاية(٦) مايرجونى له وَليِّى ، ويخافنى له عدُوِّى ، فمابعد الغايات إلا الآفات . فاستحسن كلامه ، وقال: لابد من ذلك واستوزره .

---

(١) فى ا : خازنة الكسرة .   (٢) فى ا : سريعا .   (٣) ديوانه: ٢ــ٣ .
(٤) رواية الديوان : من رام هجو على   فشعره قد هجاه .   (٥) فى ط : فأعداك .
(٦) فى ا : وبين العامة .

المأمون وحسن الخط

ورأى المأمونُ خطَّ محمد بن دَاود[١] فقال: يامحمد؛ إن شاركتنا فى اللفظ ، فقد فارقناك فى الخطّ . فقال: يا أمير المؤمنين ، إنّ من أعظم آياتِ النبى صلى الله عليه وسلم أنّه أدّى عَنِ الله سبحانه وتعالى رسالاته ، وحفظ عنه وَحْيَه ، وهو أمّى لا يعرف من فنون الخط فنّا ، ولا يقرأ من سائره حَرْفا، فبقى عمود ذلك فى أهله ، فهم يشرفون بالشَّبَه الكريم فى نَقْص الخط ، كما يشرفُ غيرُهم بزيادته؛ وإنّ أمير المؤمنين أخصُّ الناسِ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوارثُ لموضعه ، والمتقلّد لأَمره ونهيه ؛ فعلقت به المشابهة الجليلة ، وتناهَتْ إليه الفضيلة . فقال المأمون : يا محمد ، لقد تركتنى لا آسَى على الكتابة ، ولو كنتُ أمّيا .

وهذا شبيهٌ بقول سعيد بن المسيب ، وقد قيل له : ما بال قريش أَضعفُ العرب شعرا ، وهى أشرفُ العرب بيتا ؟ قال : لأنّ كَوْن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها قطع مَتْن الشعر عنها .

رفق المأمون

وقال إبراهيم بن الحسن بن سَهل : كنّا فى مجلس المأمون وعَمْرو بن مسعدة يقرأُ عليه الرقَاع ، فجاءته عطسَةٌ ، فلوَى عنقه فردّها ، فرآه المأمون فقال: يا عمرو ، لاتفعَل فإن ردّ العَطْسة وتحويل الوجه بها يُورِثان انقطاعا فى العنق . فقال بعض ولد المهدى: ما أحسنَها من مولًى لعبده ، وإمام لرعيته ! فقال المأمون : وما فى ذلك ؟ هذا هشامٌ اضطربت عِمامته فأهوى الأبرش الكلبى إلى إصلاحها ، فقال هشام : إنّا لا نتَّخِذُ الإخوان خَوَلا[٢] ! فالذى قال هشام أحسنُ مما قلته[٣] . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، انَّ هشاما يتكلّفُ ما طبعت عليه ، [ويظلم][٤] فيما تعدل فيه ، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولاقيامك بحقّ الله ، وإنك والملوك لكما قال النابغة الذبيانى[٥] :

---

(١) فى ا : محمد بن أبى داود . (٢) الخول : العبيد .
(٣) فى ا : مما فعلته . (٤) من ا . (٥) ديوانه : ١٧ .

أَلم تَرَ أنّ الله أعطاك سَوْرةً ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذبُ
لأنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ

أخذ النابغة هذا من قول شاعرٍ قديم من كندة :

تكادُ تميد الأرض بالناس إنْ رَأوا لعمرو بن هنـد غَضْبَة وهو عاتِبُ
هوالشمسوافتْيوم دجن[1] فأفضلَتْ على كل ضوء والملوك كواكب

يزيدوجميل ابن أوس

قال يزيد بن معاوية لجميل بن أوس وكان أكرمه واجتباه : لم كرِهْت الإفراط فى تقديمى ، وتطامَنْتَ عن الدرجة التى سمابك إليها مكانك منى ؟ فقال : [أيدَ الله سلطانك وأعلى مكانك][2] ، إن الذين كانوا قبلنا من أهـل العلوم[3] والآداب ، والعقول والألباب كانوا أطول أعمارا منا ، وأكثر للزمان صُحْبة ، وأكثر للأيام تجربة . وقد قال الحكيم : بقدر الثواب عندالرّضا يكون العقابُ عند السخط ، وبقَدْر السموّ فى الرفعة تكون وَجْبَة[4] الرفعة ، ولا خير فيمن لا يسمع الموعظة ، ولايقبل النصيحة ؛ وأنايأمير المؤمنين وإن كنت آمناً من التعرض لسُخْطِك والدنوِّ مما يقرِّب منه ، فلستُ بآمن من طَعْنِ المُساوِى فى الدرجة عندك ، وحقر المشارك لى فى المنزلة منك ، وليس من تقديمك قليل ، ولا من تَعْظِيمك يسير ، فإن أقل ذلك فيه المباهة ، والفخر ، [والثناء][2] والذكر ، وحسبى مما بذلته من أموالك استحقاقى عندك لإكرامك ، وحسبى من تقديمك خالص رضاك ، وصفاء ضميرك .

مختار من أقوال الحكماء عند وفاة الإسكندر

لما جُعِل الإسكندرُ فى تابوت من ذهبٍ تقدّم إليه أحدُهم فقال : كان الملكُ يخبأُ الذهبَ ، وقدصار الآن الذهبُ يخبؤه . وتقدم إليه آخر ، والناسُ يبكون ويجزعون ، فقال : حرّكنا بسكونه ، أخذه أبو العتاهية فقال :

---

(١) فى ا : يوم سعد . (٢) من ا . (٣) فى ا : الحلوم .
(٤) فى ط : تكون الضعة .

يا علىّ بن ثابت بانَ منّى صاحبٌ جَلَّ فقدُه يوم بِنْتَا
قد لعمرى حكيتَ لى غُصصَ المو تِ وحرّكْتَنى لها وسكَنْتَا

وتقدم إليه آخر فقال : كان الملِكُ يَعِظُنا فى حياته ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمسِ .
أخذه أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حياتك لى عِظَاتٌ وأنتَ اليومَ أوعظُ منك حيّا

وتقدّم إليه آخر فقال : قد طاف الأرضين وتملـكها، ثم جعل (١) منها فى أربعة أذرع . ووقف عليه آخر فقال : مالك لاتُقلّ عضواً من أعضائك ، وقد كنت تستقلّ ملكَ العباد . ووقف عليه آخر فقال : انظُرْ إلى حلم النائم كيف انقضى ، وإلى ظلّ الغمام كيف انْجَلَى. وقال آخر : مالك لا ترغَبُ بنفسك عن ضيق المـكان ، وقد كنت ترغبُ بها عن رحب البلاد. وقال آخر : [كان الملك غالبا فصار مغلوبا ، وآكلا فصار مأكولا. وقال آخر](٢): أمات هذا الميت كثيراً من الناس لئلاّ يموت ، وقدماتَ الآن. وقال آخر : ما كان أقبح إفراطك فى التجبّر أمس ، مع شدّةِ خضوعك اليوم . وقالت بنت دارا : ماعلمت أنّ غالب أبى يُغلَب . وقال رئيس الطباخين : قد نضدت النضائدُ، وأُلقيت الوسائد ، ونُصِبت الموائد ، ولستُ أَرى عميدَ المجلس !

جملة من كلام ابن المعتز فى الفصول القصار فى ذكر السلطان

أَشقَى الناس بالسلطان صاحبُه ، كما أنّ أقربَ الأشياءِ إلى النارِ أسرعُها احتراقاً. لا يُدْرِكُ الغنى بالسلطان إلّا نفس خائفة ، وجِسْمٌ تعِب، ودينٌ متثلم . إن كان البحرُ كثير الماء فإنه بعيدُ المَهْوى ، ومَنْ شارك السلطانَ فى عزّ الدنيا شاركه فى ذُلّ الآخِرة . فسادُ الرعية بلا ملك كفسادِ الجسم بلا رُوح . إذا زادك السلطانُ تأنيسا فزِدْهُ إجلالا . مَنْ صحب السلطانَ صبر على قَسْوته كصَبْرِ الغوّاص على ملوحة بَحْرِه .

(١) فى ا : حصل . (٢) من ا .

الملك بالدين يبقى والدين بالمُلْكِ يَقْوى . من نصح الخدمة نصحَتْه المجازاة . لا تلتبس بالسلطان فى وقت اضطرابِ الأمور عليه ؛ فإنّ البحر لا يكادُ يسلم صاحبُه فى حالِ سكونه ، فكيف عند اختلاف رِياحِه ، واضطراب أَمواجِه ؟

ومن كلام أهل العصر وغيرهم فى هذا النحو

الأوطانُ حيثُ يعدل السلطان . إذانطق لسان العدل فىدار الإمارة فلها البُشْرى بالعزّ والإمارة . أَحْرِ بالملك العادل أن يستقلّ سريرَه فى سرّة الأرض . ريحُ السلطان على قومٍ سموم ، وعلى قوم نسيم . أخلق بدم المستخف (١) بالجبابرة أن يكون جُبَارا (٢) . من غمس يده فى مال السلطان فقد مشى بقدمه على دَمه . الملك خليفةُ الله فىعبادِه وبلادِه ، ولن يستقيم أَمرُ خلافته مع مخالفته . الملك مَنْ ينشرُ (٣) أثواب الفضل ، ويبسطُ أنواعَ العدل . السلطانُ كالنارِ إنْ باعدتَها بطل نَفْعُها ، وإن قاربتَها عَظُم ضررها . إقبالُ السلطان تَعَب وفِتْنَة ، وإعراضُه حسرة ومذلة. صاحبُ السلطان كراكبِ الأسد يهابُه الناسُ وهو لمركبه أهيبُ . السلطانُ إذا قال لعمّاله: هاتوا ، فقد قال لهم : خذوا . ثلاثة لا أمان لهم : السلطان ، والبحر ، والزمان . ليكن السلطان عندك كالنار ، لا تدنُو منها إلا عند الحاجةِ إليها ، وإن اقتبست منها فعلى حذر . مثل أصحاب السلطان كقومٍ رقوا جبلا ثم وقعوا منه، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى المرقى . مثل السلطان كالجبل الصَّعْب الذى فيه كلُّ ثمرة طيبة ، وكل سَبْع حَطُوم ، فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشدّ . لئن عزَّ الملوك فى الدنيا بالجور ليذلُّن فى الآخرة [بالعدل] (٤) .

لابن عباد الصاحب :

إذا ولاّك سلطانٌ فزده (٥) ... من التعظيم واحْذره ورَاقِبْ

---

(١) فى ط : بالمستخف . (٢) الجبار : الهدر والباطل .
(٣) فى ط : الملك مع من ينشر . (٤) من ا . (٥) فى ط : إذا ماودك السلطان زده .

فما السلطانُ إلا البحرُ عظماً ... وقربُ البحرِ مَحْذُورُ العواقِب

[وصف كاتبة وكاتب]

ووصف أحمد بن صالح بن شيران [١] جاريةً كاتبة فقال : كأنَّ خطَّها أشكال صورتها ، وكأنَّ مِدادَها سوادُ شعرها ، وكأن قرطاسها أديمُ وَجْهِها ، [وكأنَّ قلمَها بعضُ أناملها ، وكأن بنانَها سِحْرُ مُقْلتها ، وكأن سِكّينها غُنج لحظها] [٢] وكأن مِقطها قلبُ عاشقها .

وقال بعضُ الكتّاب يصفُ غلاماً كاتباً :

انظر إلى أثرِ المداد بخدّهِ ... كبنفسج الرَّوْضِ المَشُوبِ بوَرْدِهِ

ما أخطأتْ نوناته من صُدْغِه ... شيئاً ولا أَلِفاتُه مِنْ قدّهِ

ألقَتْ أناملُه على أقلامهِ ... شَبهاً أراكَ فِرِنْدَها كفِرِنْدِهِ

وكأنما أنقاسُه من شَعره ... وكأنما قِرطاسه من خدِّه

وقال أحمد بن أبى سمرة الدارمى فيما ينظر إلى هذا من طَرْف خَفِى :

[سرابُ الفيافى صادقٌ عند وعدها ... وسمُّ الأفاعى مبرِئٌ عندصدّها] [٣]

رمتنى ولمْ أَسْعَدْ بأيام وَصْلِها ... بعينَىْ مهاةٍ أَنْحَسَتْنى [٤] ببُعْدِها

فعلقها قلبى كما قد تعلقت ... صوالج صدغيها بتفّاح خَدها

فقلبى لما أضعفته كخصرها ... ودمعى لما نظمته كعقدها

ونيل الثريا ممكنٌ عند وصْلِها ... وأسرع من برق تناقضُ وعدها

(١) فى ط : أحمد بن أبى صالح بن بشير .
(٢) ساقط من ا .
(٣) من ا .
(٤) فى ط : أحبستنى .

[من أدب بديع الزمان وابن العميد]

من البديع إلى ابن العميد

رقعة كتبها بديع الزمان إلى ابن العميد يستنجزه : أين تكرّم الشيخ العميد أيّده اللهُ على مولاه ، وكيف معدله إلى سِوَاه ، أيقصر فى النعمة ، لأنى قصّرت فى الخدمة ؟ إذن فقد أساء المعاملةَ ، ولم يحسن المقابلة ، وعثر فى أذيال السهْوِ ، ولم ينعش بيدِ العفو ، أم يقول : إن الدهر بيننا خدع ، وفيما بعد متسع ، فقد أزف رَحِيلى ، ولا ماء بعد الشطّ ، ولا سَطح وراء الخط ؛ أم ينتظر سؤالى؟ وإنما سألته ، يوم أمّلته ، واستمحتُه ، يوم مدحته ، واقتضيته ، يوم أتيته ، وانتجعت سحابه ، لما قرعت بابَه ، وليس كل السؤال أَعْطِنى ، ولا كل الردّ أعْفِنى ؛ أم يظن أيّده الله تعالى أنى أردّ صِلَته ، ولا ألبَس خلعته ؟ وهذه فراسة المؤمن إلا أنها باطلة ، ومَخِيلة العارف إلا أنها فاسدة . أم ليس يجد فىَّ مكاناً للنعمة يضعُها ، وأرضاً للمنّة يزرعها ؟ فلا أقل من تجربةٍ دفعة ، والمخاطرة بإنفاذ خلعة ، ليخرج من ظلمة التخمين إلى نور اليقين ، وينظر الشكر أم أكفر ؛ أم يتوقع أيّده الله صاعقة تملكنى ، أو بائقة تهلكنى ، فلهذا أمَل موفَّر ، لأن شيخ السوء باق معمَّر ؛ أم يقدر أيده الله أنى أشكره إذا اصطنع ، وأعذره إذا منع ، وتاللهِ لو كنت ينبوع المعاذِر ما حظى [1] منها بجرعة ، فليُرحنى بسُرعة .

وكتب أبو القاسم [2] الهمذانى إلى البديع : قد كتبت [3] لسيدى حاجة إن قضاها وأمضاها ، ذاق حلاوة [4] العطاء ، وإن أباها وفَلّ شَباها لَقِى مرارةَ الاستبطاء ، فأى الجودين أَخفّ عليه ؟ أجود بالعِلق ، أم جودٌ بالعرض ؟ ونزول عن الطريف ، أم عن الخلق الشريف ؟

فأجابه : جعلت فداك هذا طبيخ [5] ، كلّه توبيخ ، وثريد ، كله وعيد ، ولُقَم ،

---

(١) فى ا : ماحظنى . (٢) هكذا بالأصول. (٣) فى ط : طبخت . (٤) فى ا : حرارة .
(٥) فى ا : طبخ .

إلا أنّها نِقَم ، ولم أر قِدراً أكثرَ منها عظما ، ولا آكلا أكثر منى كظما ، ولم أرَ شربة أمرّ منها طعما ، ولا شارباً أتمّ منى حلماً ، ما هذه الحاجة ؟ ولتكن حاجتك من بعدُ ألينَ جوانب ، وألطفَ مطالب ، توافق قضاءها وترافق ارتضاءها ، إن شاء الله تعالى .

وفى مقامات أبى الفتح الإسكندرى من إنشائه قال [١] :

حدثنا عيسى بن هشام قال : أحلّنى جامعَ بخارى يوم [٢] ، وقدانتظمتُ مع رُفْقةٍ فى سِمْطِ الثريّا ، وحين احتفل الجامعُ بأهله طلع علينا ذو طِمْرَيْن [٣] ، قد أرسل صِوانًا ، واستتلى [طِفْلا] عُرْيانا [٤] ، يضيق بالضرّ وُسْعه [٥] ، ويأخذه القرُّ ويَدَعُه ، لا يملك غيْرَ القِشرة بُرْدَة ، ولا يلتقى لَحْياه رِعْدَة ، ووقف الرجل وقال: لا ينظرُ لهذا الطفل إلاّ مَنْ رحم طفله ، ولا يرقّ لهذا الضُّر إلا مَنْ لا يأمنُ مِثْلَه؛ ياأصحاب الجدُود [٦] المفروزة ، والأَرْدِية المطروزة، والدور المنجَّدة ، والقصور المشيّدة، إنكم لن تأمنوا حادثاً ، ولن تعدموا وارثاً ، فبادِرُوا الخيرَ ما أمكن، وأحْسِنوا مع الدهر ماأحسنَ ، فقد والله طعِمْنا السِّكْبَاج [٧] ، وركِبنا الهِملاج [٨] ، ولبسْنَا الديباج، وافترشنا الحشايا بالعشايا ، فما راعَنا إلا هبوبُ الدهر بغَدْرِه ، وانقلاب المِجَنّ لظهره ، فعاد الهِمْلاج قَطوفا [٩] ، وانقلب الديباج صُوفا ، وهلمّ جرا ، إلى ما تشاهدون من حَالى [١٠] وزِيّى ؛ فها نحن نرضع من الدهر ثَدْىَ عقيم، ونركب من الفقر ظهر بَهيم ، ولا نرنُو إلا بعين اليتيم ، ولانمد إلا يد العديم، فهل من كريم يَجْلُو عنّا غياهب [١١] هـــذه البؤوس ، ويفُلُّ شَبا هذه النّحُوس . ثم قعد مرتفقاً ، وقال للطفل : أنت

---

(١) مقامات البديع: ٨٩ وليس لأبى الفتح مقامات .
(٢) فى ا : نؤمه .
(٣) الطمر : الثوب البالى .
(٤) استتلى : جعله تابعا .
(٥) فى ا : بالضر ويسعه .
(٦) فى ا : الخزوز .
(٧) السكباج : لحم يطبخ بالخل .
(٨) الهملاج : الدابة السريعة فى سيرها .
(٩) القطوف: الدابة البطيئة السير .
(١٠) فى ا : حلى وزى .
(١١) فى ا : غيابة .

وشأنك . فقال : وما عسى أن أقول ، وهـذا الـكلامُ لو لقى الشَّمر لحلقه ، أو الصخر لفلقَه ، وإنّ قلباً لم يُنْضِجْه ما قلت لنيء [١] ! قد سمعتُم يا قوم ، مالم تسمعوا قبل اليوم ، فليشغل كلّ منكم بالجود يده، وليذكر غده، واقيا بى ولدَه ، واذكرونى أذكركم ، وأعطونى أشكركم !

قال عيسى بن هشام: فما آنَسنى فى وَحْدتى [٢] إلا خاتم ختّمت به خنصره ، فلما تناوله أنشأ يقول :

وَمُمَنْطَقٍ من نفسهِ بقلادَةِ الجوزاء حُسْنا
كمتيّم لَقِىَ الحبيـ ب فضمّـه شغفاً وحزناً
متألّفٍ من غير أُسْـ رَتِهِ على الأيام خِدْنَا
عِلْق سَنِىٌّ قَدْرُهُ لـكنَّ مَنْ أَهداهُ أَسْنَى
أقسمت لو كان الورَى فى المَجْدِ [٣] لفظا كنتَ مَعْنَى

قال عيسى بن هشام : فتبعته حتى سَفَرَت الخَلْوَة عن وجهه ، فإذا والله شيخنا الإسكندرى ، وإذا الصبىّ غلامٌ له ، فقلت :

أبا الفتح شبْتَ وشبَّ [٤] الغلام فأين الـكلامُ ، وأين السلام ؟

فقال :

غريبا إذا جمعتنا الطريق أَليفا إذا نظمتنا الخيام

فعلمت أنه كره لقائى [٥] فتركته وانصرفتُ .

[وصف فص وخاتم]

وقال أبو الفتح كشاجم يصف فصا :

ساجلْ بفصّك مَنْ أرَدْتَ وباهِهِ فـكفى به كمداً لقلب الحاسِدِ

(١) فى ط : لغبى . (٢) فى ا : فما ألسنى عن وحدتى . (٣) فى ا : الفضل .
(٤) فى ا : وشاب . (٥) فى ا : مؤالفتى .

متألّق فيـــه الفِرِنْد كأنهُ ... وجهى غداة ندًى وضيف قاصِدِ
لو أنَّ ظمأى منــه عُلّت لارْتَوَتْ ... من ماء جوهرِهِ المَعينِ البارِدِ
بَهَرَ العيـونَ إضاءةً فى رِقّةٍ ... فـكأننى متختّم بعُطارِدِ

وصف خاتم

وقال بعضُ المحدَثين يصف خاتما :

ووحيدُ الـكِيان صِيغَ بديعاً ... فإذا تمَّ صِيغَ من جوهَرَيْنِ
خلعتْ خَجْلَةَ الخدودِ عليـهِ ... خلعاً قد لبسن[1] فوق اللّجين
فإذا ما رأيتَـه فى بنـــانٍ ... قد كساها من حُسْنِه حُلّتيْن
قلت نجْمٌ هَوَى من الجوِّ حتى ... صار مَجرى بُروجه[2] فى اليَدَيْنِ

البحـترى يستهدى فصا

وقال البحترى يستَهْدى المعتز فصّا[3] :

فهل أَنت يا بنَ الراشدين مختّمى ... بياقوتةٍ تبهَى علىَّ وتُشْرِق
يغار احمرارُ الوَرْدِ من حُسْنِ صبغها ... ويحكيه جادِىُّ الرحيقِ المعتّقُ
إذا برزَتْ والشمس قلت تجارَيَا ... إلى أَمَدٍ[4] أو كادت الشمسُ تسبقُ
إذا التهبتْ فى اللّحْظِ ضاهَى ضياؤها ... جبينَك عنـد الجودِ إِذْ يتألّقُ
أُسَرْبَلُ منهـا ثوبَ فخرٍ معجّلٍ ... فيبقى بها ذِكرٌ على الدهرِ مخلقُ

وعلى ذكر الخاتم قال أبو الفتح كشاجم :

عرَضْنَ فعرَّضْنَ القلوبَ مِنَ الهَوى ... لأسرع من كَىّ القلوب على الجمْرِ
كأنَّ الشفاهَ اللُّعْسَ منهـا خواتِمٌ ... من التِّبْرِ مختومٌ بهنَّ على الدُّرِّ[5]

وقال الناظم[6] :

يَروعُ مُناَجيه بهارُوتِ لحظِهِ ... ويُؤْنِسُه منه بصُـورةِ آدمِ
ترى فيــه لاماً فردةً فوق وَرْدَةٍ ... وفصًّا من الياقوت من فوق[7] خاتمِ

---

(١) فى ا : تستبين . (٢) فى ط : بحرا مروجه . (٣) ديوانه : ١–٩٦ .
(٤) فى ط : إلى مدد . (٥) فى ا : على در . (٦) فى ا : الظام .
(٧) فى ا : من فص .

[الكلام والصمت]

وقال أبو تمام الطائى : تذاكرْنا فى مجلس سعيد بن عبد العزيز الكلامَ وفضلَه ، والصمتَ ونبْله ، فقال : ليس النَّجْمُ كالقمر ؛ إنك إنما تمدحُ السكوتَ بالكلام ، ولا تمدحُ الكلامَ بالسكوت ، وما أنبأ عن شىء فهو أكبرُ منه .

قال الجاحظ : كيف يكونُ الصمتُ أنفعَ من الكلام ، ونفعُه لا يكادُ يجاوِزُ صاحبَه ، ونَفْعُ الكلام يعمّ ويخصّ ، والرواةُ لم تَرْوِ سكوتَ الصامتين ، كما روت كلام الناطقين ؛ فبالكلام أَرسل اللهُ تعالى أنبياءَه لا بالصَّمْتِ ، ومواضعُ الصمْتِ المحمودةُ قليلة ، ومواطنُ الكلامِ المحمودةُ كثيرةٌ ، وبطُولِ الصَّمْتِ يَفْسد البيان . وكان يقال : محادثةُ الرجال تلقيحٌ لألبابها .

وذُكِر الصمتُ فى مجلسِ سليمان بن عبد الملك فقال : إنَّ مَنْ تكلَّم فأَحسن قدر أَنْ يسكتَ فيُحْسِن ، وليس مَنْ سكت فأَحسن يتكلّمُ فيُحْسِن . قال بعضُ النساك: أَسكتتنى كلمةُ ابن مسعود عشرين سنةً ؛ وهى : من كان كلامُه لا يوافِق فِعْلَه فإنما يوبّخ نَفْسَه .

[الحنين إلى الوطن]

قال أبو عَمْرو بن العلاء : مما يدلُّ على حرية الرجل وكرم غريزته حنينُه إلى أوطانه، وتشوّقه إلى متقدم إخوانِه ، وبكاؤه على ما مضى من زَمانِه . وقالوا : الكريم يحنُّ إلى جنابه ، كما يحنُّ الأسدُ إلى غابِه . وقالوا : يشتاق اللبيبُ إلى وطنه كما يشتاق النجيب إلى عَطَنه .

لأهل العصر فى ذكر الوطن

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر الوطن : بلد لا تؤْثِر عليه بلداً ، ولا تَصْبِر عنه أبداً . هو عشُّه الذى فيه دَرجَ ، ومنه خرجَ . مجمع أُسرته ، ومقطع سُرَّتِه . بلد أنشأته تربتُه ، وغذّاه هواؤه ، وربّاه نسيمُه ، وحُلَّتْ عنه التمائمُ فيه .

قالوا : وكان الناسُ يتشوّقون إلى أوطانِهم ، ولا يفهمون العلّةَ فى ذلك ، حتى أَوضحها على بن العباس الرّومى فى قصيدةٍ لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستَعْدِيه على رجل من التُّجّار ، يعرف بابن أبى كامل ، أَجْبَرَه على بَيْع داره واغتصبه بعض جُدرها ، بقوله[1] :

وَلِى وطنٌ آليتُ ألّا أبيعهُ … وألّا أرى غيرى لهُ الدهر مالِكا
عهِدتُ به شَرْخَ الشبابِ ونعمةً … كنِعْمَةِ قومٍ أَصبحُوا فى ظِلالِكا
وحبّب أوطانَ الرجالِ إليهمُ … مآرِبُ قضّاها الشبابُ هُنالِكا
إذا ذَكَروا أوطانَهم ذكّرتهُمُ … عهودَ الصِّبَا فيها فحَنُّوا لذالكا
فقد أَلِفَته النفسُ حتى كأنهُ … لها جَسَدٌ إن بانَ غُودِرَ هالِكا

يقول له فيها :

وقد عزّنى فيها[2] لئيمٌ وسامَنِى … فقال لىَ اجهَد فىَّ جَهْدَ احْتِيالِكا
وما هُو إلا نسجُك الشِّعر ضلّة … وما الشعرُ إلّا ضلة من ضلالِكا
بصيرٌ بتسآل[3] الملوك ولم يكنْ … بعار على الأحرار مِثل سُؤَالِكا
وإنى وإنْ أضْحَى مُدِلاًّ بمالهِ … لآملُ أن أُضْحِى مُدِلّا بمالِكا
فإن لم تصِبْنى من يمينك نِعْمَةٌ … فلا تخطِئنْه نقمةٌ من شِمالِكا
فكم لقِى العافون بَدْءًا وعودَةً … نوالَك والعادون مر[4] نكالِكا

وقال على بن عبد الكريم النصيبى[5] : أتانى أبو الحسن بن الرومى بقصيدتِه هذه وقال : أَنصِفْنى ، وقل الحق : أيهما أحسن قولِى فى الوطن أو قول الأعرابى[6] :

أحبُّ بلادِ الله ما بين مَنْعِجٍ … إلىّ وسلمى أن يَصُوبَ سحابُها[7]
بلادٌ بها نيطَتْ عَلَىَّ تمائمى … وأوّل أرضٍ مَسَّ جِلْدِى تُرابُها

---

(١) ديوانه : ١٣، ديوان المعانى: ٢–١٨٩، وفى ا : وذلك قوله . (٢) عزنى فيها : غلبنى عليها . (٣) فى ا : يعير سؤال . (٤) فى ط : غمر .
(٥) فى ا : عبد الصمد المنصبى. (٦) اللآلئ : ٢٧٢، الأمالى : ١–٨٣ .
(٧) منعج : واد ، وسلمى : أحد جبلى طيء .

فقلت : بل قولك ؛ لأنه ذكر الوطنَ ومحبّته ، وأنت ذكرتَ العلة التى أوجبتْ ذلك .

وقال ابنُ الرومى أيضاً يتشوّق إلى بغداد ، وقد طال مقامه بسُرّ من رأى[١] :

بلدٌ صحِبْتُ به الشبيبة والصبا ولبستُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ

فإذا تمثّل فى الضمير رأيتُه وعليه أغصانُ الشبابِ تميدُ

وقال أبو العباس[٢] : ولما احتفل القائل[٣] فى هذا المعنى السابق إليه قال :

* بلادٌ بها حَلّ الشبابُ تمائمى *

وقد تقدّم . وإذا كانت تمائمه قطعت بأبرق العزّاف[٤] ، وكان الترابُ الذى مَسَّ جلدَه ترابَ جزيرةِ سِيراف[٥] وجب أن يحنّ إليه حنينَ المتأسّفين على غُوطَةِ دمشق[٦] ، وقصور مدينة السلام[٧] ، ونجف الجزيرة[٨] ، ومستشرف الخورْنَق[٩] ، وجَوْسَق سرَّ مَنْ رأى[١٠] لمَّا بعد عنها ، وطال مقامه بغيرها ، كلّا ، ولكن هذا الرجل علم أن الحنينَ إلى الأوطان لِما تُذكِّر من معاهد اللّهو فيها ، بجدّة الشباب الذى ذكر أنّ غول سَكْرَته يغطى على مقدار فضيلته فى قوله[١١] :

لا تلحَ مَنْ يبْكى شبيبتَه إلاَّ إذا لم يَبْكِها بدَمِ

عَيْبُ الشبيبة غولُ سَكْرَتها ومِقْدَار ما فيها من النِّعَم

لَسْنَا نَراها حقَّ رُؤْيتها إلاَّ أوان الشيبِ والهرَمِ

كالشمس لا تبدو فضيلتُها حتى تغشّى الأرضُ بالظُّلَم

ولَرُبَّ شىء لا يبينه[١٢] وجدانه إلاَّ مع العَدَمِ

(١) ديوانه: ٧٥ . (٢) فى ط : أبو العباس بن عماد . (٣) فى ط : القائد .
(٤) العزاف : ماء لبنى أسد (٥) سيراف : مدينة بفارس أعظم فرضة لهم
(٦) غوطة دمشق : هى إحدى الجنان الأربع . فى عرف المتقدمين . (٧) مدينة السلام : بغداد . (٨) النجف كما قال ياقوت ، عينان يقال لإحداهما الربض ، وللأخرى النجف .
(٩) الخورنق : قصر كان بظهر الحيرة ، أمر ببنائه فيما يقال النعمان بن امرىء القيس .
(١٠) الجوسق : القصر ، وسر من رأى : مدينة بناها المعتصم بين تكريت وبغداد على شرقى دجلة . (١١) ديوانه: ٤١٣ . (١٢) فى ط : لايسربه .

أخذ هذا من قول الطائى[1] :

راحَتْ وفودُ الأرضِ عَنْ قبره فارغةَ الأيدى مِلاءَ القلوبْ
قد علمت ما رزئتْ إنمـا يعرفُ فَقْدُ الشمسِ بعد الغروبْ

وأخذ ابنُ الرومى قولَه فى صفة الوطن من قول بشّار :

متى تعرف الدارَ التى بَانَ أهلها بسعدى فإن العهدَ منك قريبُ
تذكّرك الأهواء إذْ أنتَ يافعٌ لديها فمَغْنَاهَا لديك حَبِيبُ

أو من قول بعض الأعراب :

ذكرتُ بلادى فاستهلّت مَدَامِعى بشوقى إلى عَهْدِ الصّبا المتقادِمِ
حننتُ إلى أرضٍ بها اخضرّ شاربى وقُطِّع عنى قَبْـل عقد التمائم

وأنشد ثعلب لرجاء بن هرون العَـكى[2] :

أَحِنُّ إلى وادِى الأراكِ صبابةً لعَهْدِ الصّبا فيه وتذكار أول[3]
كأَنَّ نسيمَ الريحِ فى جَنَباتِهِ نسيمُ حبيب أو لقـاء مؤَمّل

قال أبو بكر الصولى : ولست أشكُّ أنه من قولِ رجاء أَخذ ، وبه ألمّ ، وعليه عَوَّل ؛ لأنه فى تناولِهِ المعنى غريبُ الأَخذ ، عائِر السَّهْم[4] ، لا يعارض معنى معروفا إذا أُنشد علِم الناسُ أنه مَعْدِنُه الذى انتحته منه .

وقد اختُلس معنى قول ابن الرومى :

فقد ألفته النفسُ حتى كأنّه لها جسدٌ إن بانَ غُودِرَ هَالِـكا

أخذه على بن محمد الإيادى وقال فأَحسن الأَخْذَ ولطف فى السرقة :

بالجزع فالخَبْتَيْنِ أَشْلَاءدارٍ[5] ذات ليال قد تولتْ قِصارْ
بانوا فهاجت أسفا[6] بعدهم وإنما النـاسُ نفوسُ الديارْ

---

(١) ديوانه: ٣٥٤ . (٢) فى ط : العسلى . (٣) وادى الأراك : قريب من مكة .
(٤) العائر من السهام : مالا يدرى راميه . (٥) فى ط : كانت لنا .
(٦) فى ط : فما بنت أسى .

وقال أعرابي :

أيا حبذا نجدٌ وطيب ترابه ... تصافحه أيدي الرياح الغرائب
وعهد صباً فيه[1] ينازعك الهوى ... بذلك أترابٌ عذابُ المشارب
تنالُ المنى منهنّ في كل مطلب ... عِذاب الثنايا واردات الذوائب[2]

وقال ابن ميّادة يخاطب الوليد بن يزيد[3] :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً ... بحرّة ليلى حيث ربّتني أهلي[4]
بلادٌ بها نيطت عليّ تمائمي ... وقُطّعن عني حين أدركني عقلي
فإن كنتَ عن تلك المواطن مانعي ... فأفشِ[5] عليّ الرزق واجمعْ إذاً شملي

وقال سوار بن الضرير[6] ، ورويت لمالك بن الريب :

سقى اللهُ اليمامة من بلادٍ ... نوافحها[7] كأرواحِ الغواني
وجوًّا زاهراً للريح فيه ... نسيمٌ لا يَروعُ الترب وانِي
به سُقْتُ الشباب إلى زمانٍ[8] ... يقبح عندنا حسنَ الزمانِ

وقال أعرابي[9] :

أقول لصاحبي والعيسُ تَخْدِي ... بنا بين المُنيفة فالضمار[10]
تمتّعْ مِنْ شَميم عَرارِ نَجْدٍ ... فما بَعْدَ العشيَّةِ من عرارِ[11]
ألا يا حبّذا نفحات نَجْد ... وريّا رَوْضِه غِبّ القِطار
[وأهلك إذ يحلّ القوم نجدا ... وأنت على زمانك غيرُ زارِ][12]
شهور يَنْقَضِين وما شعرنا ... بأنصافٍ لهن ولا سِرَارِ[13]

---

(١) في ط : عهود لنا فيه. (٢) الوارد من الشعر : المسترسل، وفي ط : باردات النوائب .
(٣) المختار ١١٧ ، الأمالي ٢-٣١ ، اللآلئ ٢٧٣ ، الأغاني ٢-٣١٠ ، الشعراء ٧٤٨ .
(٤) حرة ليلى : في بلاد بني كلب ، وربت الصبي : رباه . (٥) في ط : فأقتر ، وفي بعض الأصول : فأيسر . (٦) في ا : بن المضرب . (٧) في ط : نواфحها .
(٨) في ط : إلى مشيب . (٩) اللآلئ ١٤٠ ، المختار ٣٢٨ .
(١٠) المنيفه : ماء لتميم . (١١) العرار : ورد أصفر طيب الرائحة .
(١٢) من ا . (١٣) السرار : مستهل الشهر أو آخره .

وهذا البيت كقول الآخر [١] :

سقَى اللهُ أياماً لنا قد تتابعتْ وسَقْياً لعَصْرِ العامريَّة من عَصْرِ

ليالىَ أُعطَيتُ البَطالَة مِقْوَدِى تمرُّ الليالى والشهورُ ولاَ أَدْرِى

هجاء ابن الرومى لسليمان

وتخلَّفَ سليمان عن نصرة ابن الرومى فذاكَ الذى هاجه على هجائه ، فمن ذلك قولُه ، وقد خرج فى بعضِ الوجوه فرجع مهزوماً [٢] :

جاء سليمان بنى طاهرٍ فاجتاح [٣] معتزّ بنى المعتَصِمْ

كأن بغداد وقد أبصرتْ طلعته نائحة تلتَدِمْ [٤]

مستقبِل منه وَمستدبِر وجه بخيلٍ وقفاً منهزِمْ

وقال :

قِرْن سليمان قد أضرَّ بِه شوقٌ إلى وجْهِه سيتلفهُ

كم يَعِدُ القِرْنَ باللقاء وكَمْ يكذبُ فى وَعْدِه ويخلفهُ

لا يعرف القرنُ وجْهَه ويرى قَفاه من فَرْسَخٍ فيعرِفهُ

وقد أخذ هذا المعنى من قول بعضِ الخوارج ، وقد قال له أبو جعفر المنصور : أَخْبِرْنى أىّ أَصحابى كان أشدّ إقداماً فى مُبارزتك ، فقال : ما أعرفُ وجوههم ، ولـكننى أعرفُ أقفاءهم ، فقل لهم يدبروا أُعرِّفك .

وفى هذه المنازعة يقول ابن الرّومى لمواليه بنى هاشم وكان ولاؤه لعبيد الله [٥] بن عيسى بن جعفر بن المنصور [٦] :

تخِذْتُـكم دِرْعا علىّ لتدْفَعُوا نبال [٧] العِدى عنى فـكنتم نِصَالَها

وقد كنتُ أرجو منكم خَيْرَ ناصِرٍ على حين خِذْلَانِ اليمين شِمالَها

---

(١) اللآلى ٧٦٣ ، الأمالى ٢ـ١٣٩ . (٢) ديوانه ٢٨ . (٣) فى ط : فاهتاج .

(٤) تلتدم : تضرب وجهها . (٥) فى ا : لعبد الله بن عيسى .

(٦) ديوانه ٨٨ . (٧) فى ا : سهام .

فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودّتى ذِماماً فـكونوا لا عليها وَلاَ لهَا
قِفُوا موقفَ المعذور عنى بمعزل وخَلُّوا نِبالى والعِدَا ونبالها [1]

ألفاظ لأهل العصر فى وصف الأمكنة والأزمنة

بلدةٌ كأنها صورةُ جنَّة الخلد ، منقوشة فى عَرْضِ الأرض . بلدةٌ كأنَّ محاسنَ الدنيا مجموعةٌ فيها ، ومحصورة فى نواحيها . بلدةٌ كأن ترابَها عنبرٌ ، وحَصْباءها عقيق ، وهواءها نسيم ، وماءها رَحِيق . بلدةٌ معشوقة السُّكْنَى ، رَحْبَةُ المَثْوَى ، كوكبُها يقظان ، وجَوّها عُريان ، وحَصَاها جوهر ، ونسيمُها معطّر ، وترابها مِسْك أذفر [2] ، ويومها غداةٌ ، وليلها سَحر ، وطعامها هنىّ ، وشرابها مِرى . بلدة واسعةُ الرقعة ، طيبة البقعة ، كأنّ محاسن الدنيا عليها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة ، واسطة البلاد وسرّتها ، ووجهها وغرتها .

ولهم فى ضد ذلك

بلد مُتَضايِقُ الحدود والأفنية ، متراكب المنازلِ والأبنية . بلد حرُّها مؤذٍ ، وماؤها غيرمغذ [3] . بلدة وسخة السماء ، رَمِدة الهواء ، جوّها غبار ، [وأرضها خَبَارٌ] [4] ، وماؤُها طِين ، وترابُها سِرْجِين . وحيطانها نَزُوز [5] ، وتشرينها تموز [6] ، فكم فى شمسها من محترق ، وفى ظلها من غَرق . بلدة ضيقة الديار ، سيئة الجوار ، حيطانها أخصاص ، وبيوتها أقفاص ، وحُشُوشها مسايل ، وطرقها مَزَابل .

---

(١) فى ا : ونصالها . (٢) أذفر : جيد إلى الغاية . (٣) فى ا : غير مغد .
(٤) من ا ، والخبار : مالان من الأرض واسترخى . (٥) نزت الأرض : تحلب منها النز ـــ الماء . (٦) تشرين وتموز : من أسماء الشهور .

ولهم فى صفات الحصون والقلاع

حصن كأنه على مَرْقَب النجم، يحسر دونه الناظر، ويقصر عنه العُقابُ الكاسِرُ، يكادُ من عُلَاه يغرق فى حوض الغمام . حصن انتطق بالجوزاء، وناجَتْ أبراجُه بُرُوجَ السماء . قلعة حلَّقت بالجو تُنَاجِى السماءَ بأسرارها . قلعة بَعُدَ فى السماء مُرْتقاها ، حتى تساوى ثراها مع ثريّاها . قلعة تتوشّح بالغيوم ، وتَتَحلَّى بالنجوم . قلعة عالية على المرتقى ، صمّاء عن الراقى، قد جاوزت الجوزاء سَمْتا، وعزلتِ السماكَ الأَعْزلَ سَمْكا. هى متناهية فى الحصانة ، موثوقة بالوثاقة ، ممتنعة على الطلب والطالب ، منصوبةٌ على أَضيق المسالك وأَوعرِ المناصب، لم تزدْها الأيامُ إلا نبُوّ أعطاف،واستصعاب جوانب وأطراف، قد ملّ الوُلَاةُ حِصارَها ، ففارقوها عن طموح منها وشماسٍ ، وسيمت[1] الجيوشُ ظلَّها ، فغادرَتْها بعد قنوطٍ ويأسٍ ، فهى حِمًى لا يُرَاغ[2] ، ومَعْقِل لا يُستطاع ، كأنَّ الأيام صالحَتْها على الإعفاء من الحوادث ، والليالى عاهدَتْها على التسليم من القوارع. قلعة تحوى من الرِّفْعَة قَدْرًا لا تُستهان مواقعه ، وتلوى فى المنعة جِيداً لا تستلان أخادِعه[3]، ليس للوَهْم قبل القدم إليها مسرى ، ولا للفِكْرِ قبل الخَطْو نحوها مَجْرى .

ولهم فى صفات القصور والدور

قصر كأن شرفاته بين النَّسْر والعَيُّوق[4] ، كأنه يُسَامِى الفرْقَد ، وقد اكتسَتْ له الشِّعرى العَبور[5] ثوب الغيور . قصر طال مَبْناه ، وطاب مَغْناه ، كأنه فى الحصانة جبلٌ مَنِيع ، وفى الحسن رَبيع مريع[6] . شرفات كالعذارى شَددْن مناطقها[7] ،

---

(١) فى ط : وسئمت . (٢) فى ط : لايراع ، وأراغ : طلب .

(٣) الأخادع : جمع أخدع وهو شعبة من الوريد ، وفى ا : لانستطاع أخادعه .

(٤) النسر: كوكبان، والعيوق: نجم يضىء فى طرف المجرة . (٥) الشعرى العبور : نجم .

(٦) المريع : الخصيب . (٧) المناطق: جمع منطقة وهى ماينتطق به .

وتوّجن بالأكاليل مَفارِقها . قَصْرٌ أقرّت له القصورُ بالقُصور ، كأنه سَحاب فى بحر السماء[1] . دار قَوْرَاء توسِع العين قُرة ، والنفس مسرّة . كأنَّ بانيها استسلف الجنة فعجِّلت له . دار تخجل منها الدور ، وتتقاصَرُ عنها القصور ؛ إن مات صاحبُها مغفوراً له فقد انتقل مِنْ جنة إلى جنة . دار قد اقترن اليُمْن بيمناها ، واليُسْر بيُسْراها . الجسومُ منها فى حَضَر ، والعيون على سَفَر . دار هى [دائرة الميامن ، و][2] دَارَة المحاسن . دارٌ دارَ بالسعد نجمُها ، وفاز بالحسن سَهْمُها . دار يخدمها الدهر ، ويأويها البَدْرُ ، ويكنفها النَّصر ؛ هى مَرْتَع النواظر ، ومتنفَّس الخواطر . دارٌ قد أخذت أدواتِ الجنَان ، وضحكت عن العَبْقَرِىّ الحِسَان .

[من رسائل الميكالى وشعره]

إلى بعض إخوانه

فصل لأبى فضل الميكالى إلى بعض إخوانه :

ما ابتدأتُ بمخاطبة سيّدى حتى سرَتِ المسرّةُ فى نفسى، وقويَتْ أركانُ بَهْجَتى وأُنسِى ، وحتى أَقبلَتْ وجوهُ الميامن تتهلَّل إلىّ ، وبدَرُ المساعِد تنثالُ علىّ ، وكيف [لا يملكنى الجذَل والفرح ، وكيف][3] لا يهزُّنى النشاطُ والمرَح ، وقد زففتُ وُدِّى إلى كُفْء كريم ، وعرضته لحظٍّ من الجمال جسيم، وأرجو أن يرِدَ منه على حُسْنِ قبولٍ وإقبال، ويَحْظَى من ارتياحه له ببرْدِ اشتمال ، ويُصادف[4] من اهتزازه وإنشائه وعمارته وإنمائه ، وتحصين أطرافه من شوائب الخلل وشوائن الوَهن والميل، ماتستحكم به مرائرُ الوِصَال ، وتؤمن على قُواها عَوَادى الانتقاض والانحلال .

وله أيضا

وله : إذا لم يُؤتَ المرء فى شكر المنعم إلا من عِظَم قَدْرِ الإنعام والاصطناع واستغراقه منه قُوَى الاستقلال والاضطلاع[5] فليس عليه فى القصور عن كُنْهِ واجبه عَتْب ، ولا يلحقه فيه نقيصةٌ ولا عَيْبٌ . ولئن ظهر عَجْزِى عن حق هذه النعمة فإنى

(١) فى ط : فى بحر السحاب . (٢) من ا ، والدارة : هالة القمر .
(٣) من ا . (٤) فى ط : ويصان . (٥) فى ط : والاضطباع .

أُحِيل بحسن[1] الثناء على من لا يُعْجزه حمله ، ولا يؤُوده ثقله ، ولا يزكو الشكرُ إلا لديْه ، ولا تُصْرَفُ الرغبَةُ إلا إليه ، والله يُبْقِيه لمجدٍ يقيم أعلامَه ، وفَضْلٍ يَقْضِى ذِمامَه ، وعُرْفٍ يَبثّ[2] أقسامه ، وولىّ يوالى إكرامه ، وعدوٍّ يديمُ قَمْعَه وإرْغامَه .

وله أيضاً

وله : ولو وفيت هـذه النعمة الجسيمة حقَّها لمشيت إلى حضرته ـ آنسها اللهُ تعالى ـ حَبْوًا على القَدم ، ولآثَرْت فيـه خدمة اللسان على خِدْمة القلم ، ولما رضيتُ له بباعِى القصير ، وعبارتى الموسومة بالعجز والقصور ، حتى أستعير فيـه ألسِنةً تحملُ شكرا وثناءً ، وتوسِع نشراً ودعاء ، ثم لا أَكونُ بلغتُ مبلغاً كافيا ، ولا أبليت عُذْراً شافيا؛ إلاَّ أنّ عدم الإذن ثبطّنى عن مقصودِ الغرض ، وعاقَنِى عن الواجب المفترض؛ فأقمتُ عاكفاً على دعاءٍ أَرفعُه إلى اللهِ عزّ وجل مبتَهلا ، وأواصله مجتهداً فى ليلى ونهارى محتفلا .

وله : أحقّ النعمة[3] بالزيادة نعمة لم تزل العيون إليها مستشرفة ، والقلوب إليها متشوّفة ، والأيام بها وَاعِدة ، والأقدار فيها مساعدة ، حتى استقرّت فى نِصَابها ، وألقتْ عِصِىَّ اغترابها ، فهى للنماء والزيادة مترشحة ، وبالعزّ والسعادة متوشّحة ، وبالأدعية الصالحة مستدامة مرتَهنَة ، وباتّفاق الـكلمةِ والأهواء عليها مرتبطة محصّنة.

وله فى التعزية

وله فصل من كتاب تعزية بالأمير ناصر الدين :

أقدارُ اللهِ تعالى فى خلقهِ لم تَزَلْ تختلفُ بين مكروه ومحبوب ، وتتصرَّفُ بين مَوْهوب ومسلوب، غادية أحكامُها مَرَّةً بالمصائب والنوائب ، رائحة أقسامها تارةً بالعطايا والرغائب؛ ولـكن أحسنَها فى العيونِ أثراً ، وأطيبَها فى الأسماع خبَرا، وأحْراها بأن تـكسب القلوب عزاءً وتصبُّرا ، ما إذا انطوى نشر ، وإذا انـكسر جبر ، وإذا أخذ بيد ردّ بأخرى ، وإذا وهب بيمنى سلبَ بيُسرى ، كالمصيبة بفلان التى قرَّحَتِ

---

(١) فى ط : أحمل حسن . (٢) فى ط : يثبت .

(٣) العبارة فى ط : وأوصله مجتهدا فى إقامته آناء ليلى ونهارى محتفلا . ولولا النعمة .

الأكباد ، وأوهنتِ الأعضاد ، وسوّدت وجوهَ المكارم والمعالى ، وصورت الأيامَ فى صُور الليالى ، وغادرت المجدَ وهو يلبَس حِدَادَه ، والعَدْلَ وهو يبكى عِمَادَه ، والدين وهو يندب جهاده[1] ، حتى إذا كاد اليأسُ يغلبُ الرّجاءَ ، ويردُّ الظنون مُظْلِمة النواحى والأرجاء ، قبض الله تعالى من الأمير الجليل مَن اجتمعتْ عليه الأهواء ، ورضِيَتْ به الدهماء ، فأسَى به حادِثَ الكَلْم[2] ، وسدّ بمكانه عَظِيمَ الثَّلْم ، وردَّ الآمال والنفوسَ قد استبدلتْ بالحيرة قوة وانتصارا ، وصارتْ للدولة المباركة أعواناً وأنصاراً .

من شعره فى تجنيس القوافى

ومن شعره فى تجنيس القوافى فى معانٍ مختلفة :

إذا لم تكُنْ لمقالِ النصيح ... سميعاً ولا عامِلا أنت بهْ
سينَبِّهك الدهرُ من رَقْدَة الْـ ... ـملاهى وإنْ قُلْتَ لا أنتَبِهْ

وقال :

تفرَّق الناسُ فى أرزاقهم فِرَقاً ... فَلَابِسٌ من ثراء المالِ أَوْ عَارِى
كذا المعايش فى الدنيا وساكنها ... مقسومة بين أوعاث وأَوْعَارِ[3]

وقال :

حوى القِدّ[4] عمراً فقلت اعتقِد ... رضاً بالقضاء ولا تحتقِد
فإمّا احتقدت قضاءَ الإلَه ... فأقبحْ بمحتقد تحت قِد

وقال[5] :

تمّت محاسنه فما يزرى بها ... معَ فضله وغنائه وكمالِه
إلا قصورُ وجودِه عن جُودِه ... لاَ عَوْنَ للرجل الكريم كَمَالِه
انصُرْ أخاك إذا اجتداك فوَاسِهِ ... وإن استغاثك واثقاً بك مَالِه[6]

---

(١) فى ط : وهو يعزى عباده. (٢) فى ط : فأنسى ، والكلم : الجرح .

(٣) الأوعاث : جمع وعث وهو المكان السهل تغيب فيه الأقدام ، والأوعار : جمع وعر ، وهو ضد السهل . وفى ا : أدمات . (٤) القد : السير يقد من جلد غير مدبوغ ، والمراد ما يربط به الأسير والسجين . (٥) اليتيمة : ٤ـ٣٤٦ .

(٦) ماله : مالئه وانصره .

وقال أيضا :

إذا تغدّيت صَدْرَ يومى ثم تأذّيتُ بالغـداء
فقلت إذْ مسَّنى أذاهُ أرى غدائى أراغ دائى[١]

وله فى هذا [الصوغ][٢] :

لنـا صديقٌ يجيد لقما راحتُنا فى أَذَى قفاهُ
ماذاق من كسبه وَلـكنْ أذى قَفَاه أذاقَ فَاه

وقال يهجو رجلا[٣] :

يريد يوسّع فى بَيْتِـهِ وَيَأْبَى له الضيقُ فى صَدْرِهِ
فتىً سَخِطَ النَّصْبَ فى قِدْرِهِ كما رَضِيَ الخَفْضَ فى قَدرِهِ
يخدّر أوصالَ أضيافِهِ ولا يُبْرِزُ الخُبْزَ من خِدْرِهِ

وله فى وصف كتاب

وقال فى غير هذا المذهب يصفُ كتابا وَرَد عليه[٣] :

قد أتانا من صديقٍ كلامٌ كلآلٍ زانهنّ نِظام
فسرى فى القلب منى سرورٌ مطربٌ يعجز عنـه المُدام
مثـل ما يرتاح ربّ بنات حوله من جمعهن زِحَام
فرعى الله طويلا يُرَجى[٤] خلفا من نَسْلِه لا يُذامُ
وأتاه بعـد يأسٍ بشير قال يا بشراى هـذا غلامُ

وله يصف الشمع

وقال يصف الشمع :

وليل كلَوْنِ الهَجْر أو ظُلْمةِ الحِبْرِ نَصَبْنَا لراجيـهِ[٥] عموداً من التّبْرْ
يشقّ جلابيبَ الدُّجى فـكأنما ترى بين أيدينا عموداً من الفَجْر
يُحاكِى رُواءَ العـاشِقينَ بلَوْنهِ وذَوْب حشَاه والدّموع التى تجرى

---

(١) أراغ : حرك وهاج . (٢) اليتيمة : ٤ـ٣٤٦ ، ما بين القوسين من ا .
(٣) اليتيمة : ٤ـ٣٤٥ . (٤) فى ط : طويل حياة . (٥) فى ط : لراعيه .

خلَا أنَّ جارِى الدمع ينحله قوى ... وعَهْدِى بدَمْعِ العين ينحلّ إذْ يجرى
تبدّى لنا كالغصن قدًّا وفوقهُ ... شعاعٌ كأنّا منه فى ليلة البَدْرِ[1]
تحمّل نورا حَتْفُه فيــــه كامِنٌ ... وفيه حياةُ الأُنسِ واللّهْوِ لو يَدْرِى
إذا ما علته عِلّةٌ جُزّ[2] رأسه ... فيختالُ فى ثوبٍ جديدٍ من العمر

وقال :

يا ربّ غُصْنٍ نورهُ ... يزرِى بنـور الشفقِ
يظلُّ طولَ عمرِهِ ... يَبْـكِى بجفْنٍ أَرِقِ
نارُ المحب فى الحشا ... ونارُه فى المفرقِ
لاح لنـا فى مغربٍ ... فردًّا فى مشرِق

وقال :

وقضيبٍ من بنات النحـ ... ـل فى قَدِّ الـكعابِ
يُشْبِه العاشِقَ فى لو ... نٍ ودمعٍ ذى انسكاب
قد كسى الباطن منهُ ... وهْو عريانُ الإهَابِ[3]
فإذا ما أنعم الأبـ ... ـدان ملبوس الثّيَابِ
فهو للشقوة منهـــا ... فى بلاءٍ وعـذابِ

* * *

ولـكشاجم يصف الشمع

وقال كشاجم يصف شمعا أهداها [إلى بعض الملوك][4] :

صفر من بنـاتِ النَّحل تُـكْسَى ... بواطنُها وأَظْهُرُها عَوارِى
عذارى يُفتضَضْن مِنَ الأعالى ... إذا افتضت من السّفل العَذَارى
وأمست تنتج الأضواء حتّى ... تلقح فى ذوائبهـا بِنَارِ
كواكب[5] لسْنَ عنك بآفِلَات ... إذا ما أشرقتْ شمسُ العُقارِ

---

(١) فى ط : ليلة القدر .　(٢) فى ط : خر .　(٣) الإهاب : الجلد .
(٤) ساقط من ا .　(٥) فى ا : كواعب .

بعثت بهـا إلى مَلِكٍ كريم ... شريف الأصل محمود النِّجـار
فأهديت الضياء بها إلى مَنْ ... محاسنُه تُضِئُ لـكل سارِى

وقال :

يشقى الفتى بخلافِ كلّ معاندٍ ... يُؤْذِيه حتّى بالقَذَى فى مائهِ
يهوى إذا أصغى الإناء لشُرْبهِ ... ويروغ عنه عِنْدَ سَكْبِ إنائهِ(١)

وقال :

أُطالبُ أَيامى بإنجازِ مَوْعِدى ... وها هِىَ تلوى بالوفاء وَتجمحُ
أَقولُ عساها أَن تلِينَ لمطلبى ... قليلا فبعض الشوك بالمنّ يَسمحُ

وقال :

أرى وصالَك لا يَصْفو لآمِلهِ ... والهجرُ يتبعُه رَكْضاً على الأثرِ
كالقوس أقرب سهميها إذا عطفت ... عليـه أبعدها من منزع الوتَرِ

أخذ هذا من قول ابن الرومى وذكر رجلا متلوناً(٢) :

رأيتك بيننا أنتَ خِـلٌّ وصاحِب ... إذا بك قد ولَّيتنا ثانيا عِطْفَا
وأنك إذْ أَحْنى حنوّك مُوجِبٌ ... بعاداً لمن بادلتـه الودَّ واللطفَا
لـكالقوس أحنى ما تـكونُ إذا انحنَتْ ... على السهم أَنـأَى ما تـكونُ له قَذْفَا

وله فى نحو ذلك :

تودَّدْت حتى لم أَجِـدْ متودِّدًا ... وأَتعبت أقلامى عتابا(٣) مردَدا
كأنىَ أَستدعى لك ابن حنيّةٍ(٤) ... إذا النزع أَدْناه من الصدر أبْعَدَا

* * *

أبو الفضل الميكالى

وذكر عمر بن على بن محمد المطوعى أبا الفضل الميكالى فى كتاب ألَّفه فى منظومه ومنثوره فقال : قد أصبحتْ حضرتُه ـ لَازالتْ أَرِجَةَ الأَرجاءِ بطيبِ شمائِلِه ،

---

(١) أصغى الإناء : أماله . (٢) ليس فى الديوان المطبوع بأيدينا .
(٣) فى ط : عناء . (٤) الحنية : القوس .

راضية الرضا[١] عن صَوْبِ أنامله ـ موسمَ الآمالِ ، ومحطّ الرحال ؛ وعبدَه[٢] أحرار الـكلام ، كما خدمَتْه أحرارُ الأيام ، وأطاعته المعانى والمعالى ، كما أطاعه صَرْفُ الأيام والليالى ، فهو ـ أدامَ اللهُ تمـكينَه ـ شهابُ المجدِ الذى لا يخبُو واقِده ، ورَوْض الـكرم الذى لايجدب رَائِدُه ؛ إن أردْتَ البلاغةَ فهو مَالكُ عنانِها ، وفارسُ ميدانِها، وناظم دُرِّها ومرجانِها ، وصائغ لُجَيْنِها وعقيانِها ؛ وإن أردت السماحةَ فهو محلُّها ومكانُها ، وتاريخُها وعنوانُها ، ويدُها ولسانُها ، وحَدَقتُها وإنسانُها ، وحديقتها وبُسْتانُها ؛ وإن أردْتَ شرفَ الأصْل والنسب ، والجمع بين الموروث [من المجـــد][٣] والمـكتَسب ، فناهِيك بأوائله شرَفاً سابقاً ، وفضلاً باسقاً ، ومجداً فى فلك الفخر سامقاً[٤] ؛ فهم الجحاجِحَةُ الغُرُّ[٥] ، والـكواكب الزُّهر ، ومن بهم يفتخِرُ الفخر، ويتشرّف الدهر، زحموا مناكبَ الـكواكب من بُعْدِ أقدارهم، وصكّوا فَرْقَ الفرقد وصَدْرَ البَدْرِ بشرَفِ أخطارهم ، فما فيهم إلا قمر فَضْلٍ دارَ فى فَلَكِ عِلم ، وهلال مجْدٍ لاحَ فى سماء فَهْم، توارثُوا المجدَ كابراً عن كابر، وباقياً عن غابر، وسافرَتْ أخبارُهم فى البُعْد والقُرْب ، وطارت فى أقاصى الشرقِ والغَرْبِ ، وسارَتْ مَسيرَ الشمس فى كلِّ بلد ، وهبَّتْ هبوبَ الريح فى البر والبحر ، فهم كما قال أبو عبادة البحترى فى الشاه بن ميكال وأهله فأحسن وأجاد وأبلغ ما أراد[٦] :

بنى أَحْوَذِىّ[٧] يغمر الطرف مُوفِياً ... ببَسْطَتِه والسيفُ وَافِى الحَمائِلِ
تضيقُ الدروع التُّبعِيَّات منهم ... على كل رَحْبِ الباع سَبْطِ الأنامِل
عُراعر[٨] قومٍ يسكنُ الثغرَ إن مَشَوْا ... على أَرضِه والثغرُ جمّ الزلازل

---

(١) فى ط : أريضة الرياض . (٢) فى ط : وتعداه . (٣) ساقط من ا .
(٤) سامق : عال ، وفى ط : ملك الفخر. (٥) الجحاجحة : جمع جحجاج وجحجح ، وهو السيد . (٦) ديوانه : ٢ـ١٥٩ . (٧) الأحوذى : الخفيف الحاذق والمشمر للأمور القاهر لها . (٨) عراعر : بالضم: شريف ، وجمعه بالفتح .

فكم فيهم من مُنْعِمٍ متطوِّلٍ ... بآلائه أو مُشْرِفٍ مُتطاوِلِ

إذا سُئِلوا جادَتْ سيوفُ أكفِّهم ... [نظائر جماتِ التلاعِ السوائل

خليقون سروا[1] أن تلين أكفّهم] [2] ... عرائك أحداث الزمان الجلائل

وما زال لحظُ[3] الراغبين معلّقا ... إلى قمرٍ فيهم رفيع المَنازِلِ

وفيه ، أو فى أبيه ، يقولُ أبو سعيد أحمد بن شبيب :

وإلى الأمير ابن الأمير تواهَقَتْ ... رَزْحى الركاب برَازِحى الركاب[4]

شِيَمٌ أَرَقُّ من الهواء بل الهوَى ... وألذُّ من ظَفَرٍ بعُقْب ضِرَابِ[5]

وعزائم لو كُنَّ يوماً أَسْهُماً ... لنَفَذْنَ فى الأيام غَيْرَ نَوابِ

مائيـة الجِرْيَانِ إلاّ أنها ... نارِيَّةُ الإقْدامِ والإلهـاب

يخطرن بين سياسَةٍ ورِيَاسَةٍ ... ويَتِهْنَ بين مَثُوبةٍ وعِقَابِ

[ابن أبى دواد]

ابن أبى دواد والواثق

قال أبو عبدالله بن حمدون النديم: لقد رأيت الملوك فى مقاصيرها ، ومجامع حفلها[6] فما رأيت أغزرَ أَدبا من الواثق ؛ خرج علينا ذات يوم وهو يقول : لقد عرض عرضة من عرضه لقول الخزاعى ، يريد دعبلا :

خليلىَّ ماذَا أرتجى من غد[7] امرئٍ ... طَوَى الكَشْحَ عنى اليومَ وهو مَكِينُ

وإنَّ امرأً قد ضَنَّ عنى بمنطق ... يَسُدّ به مِنْ خَلّتى لَضنِينُ

فانبرى أحمد بن أبى دُوَاد يسأله كأنما نشط من عِقَال فى رجل من أهل اليمامة فأَطْنب وأَسهب ، وذهب فى القول كل مَذْهَب ؛ فقال الواثق : يا أبا عبد الله ؛ لقـد

---

(١) فى ا : شرا . (٢) من ا . (٣) فى ا : حظ .

(٤) تواهقت الإبل : مدت أعناقها فى السير وتبارت . ورزحت الناقة : سقطت تعبا أو هزالا ، وإبل رزحى . (٥) الضراب : القتال . (٦) فى ط : خلقها .

(٧) فى ط : من غنى .

أكثرتَ فى غير كبير ، ولا طَيِّب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه صديقى :

وأَهونُ ما يُعْطِى الصديقُ صديقَهُ من الهيِّن الموجودِ أَن يتكلّما

فقال : وما قَدر اليمامى[1] أن يكون صديقك ، وإنما أحسبه أن يكون من عرض معارفك . قال: ياأمير المؤمنين، إنه شهرنى بالاستشفاع إليك، وجعلنى بمرأًى ومسمعٍ من الردّ والإسعاف ، فإذا لم أَقم له هذا المقام أكون كما قال أميرُ المؤمنين آنِفا :

خليلىَّ ماذا أَرتجى من غِـنَى امْرِئٍ طوى الـكَشْحَ عنى اليوم وهوَ مَكِينُ

فقال الواثق : بالله يا محمد بن عبد الملك إلّا عجَّلْتَ لأبى عبد الله حاجتَه ، ليسلم من هُجْنَة المَطْل ، كما سَلم من هُجْنَةِ الردّ .

تلطف ابن أبى دواد

وكان ابن أبى دُواد من أَحسن الناس تأتّيا ، وكان يقول : ربما أَردت أَن أسأَلَ أميرَ المؤمنين الحاجةَ بحَضْرَةِ ابن الزيات فأؤخِّر ذلك إلى وقت مغيبه لئلا يتعلَّم حُسْنَ التلطُّف منى ! وكان بينه وبين محمد بن عبد الملك عداوةٌ عظيمة ، وأمر الواثقُ أصحابَه أَن ينهضُوا قياما لأبى جعفر إذا دَخل ، ولم يرخِّص فى ذلك لأحد ، فاشتدَّ الأمرُ على ابن أبى دُواد ، ولم يَجدْ لخلاف الواثق سبيلا . فوكل بعض غلمانه بمراقبة موافاته ، فإذا أقبل أخبره فنهض يركع ، فقال ابن الزيات :

صلَّى الضُّحَى لما استفادَ عَداوَتِى وأَراه يَنْسُك بعدَها ويَصُومُ

لا تعـدمنّ عداوةً موسومةً تركتْك تَقْعُـدُ بعدها وتقُومُ

كثرة حوائجه

وقال الواثق يوما لابن أبى دُواد تضجُّرًا بكثرة حوائجه : قد أَخْلَيْتَ بيوتَ الأموال بطلباتك لِلّائذين بك ، والمتوسّلين إليك . فقال : يا أمير المؤمنين، نتائج شكرها متَّصلة بك، وذخائرُها موصولةٌ لك ، ومالِى من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلودِ المدح . فقال : والله لا مَنَعْنَاكَ ما يزيدُ فى عشقك، ويقوِّى فى همتك فينا ولنا؛ وأمر فأُخرج له خمسة وثلاثون ألف درهم .

---

(١) فى ا : اليمانى .

بديهته

قال أبو العيناء : [قلت] لابن أبى دُواد : إنَّ قوما من أهل البصرة قدموا إلى سُرَّ من رأى يداً علىَّ ، فقال : يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم . فقلت : إنَّ لهم مَكْراً . فقال : ولا يحيقُ المكرُ السَّيىءُ إلاَّ بأهله . فقلت : إنَّهم كثير . قال : كم من فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ الله والله مع الصابرين . فقلت : لله درُّ القاضى فهو كما قالت الصموت الكلابية :

لِلّٰه درك أى جُنَّةِ خائفٍ ومتاعِ دُنْيَا أَنت للحدثانِ
متخمِّط يَطَأُ الرجالَ شهامةً وَطْءَ الفنيق مدارج[1] القِرْدَان[2]
ويكبّهم حتى تظلّ رُءوسُهم مأمومةً[3] تنحطُّ للغربان
ويفرجُ البابَ الشديدَ رِتاجُهُ حتى يَصِيرَ كأنه بابَان

وكانت هذه المجاوبة بين أبى العيناء وبين أبى العلاء المنقرى ، وكان قد استجاش عليه قوماً من أهل البصرة .

قطعة من شعر الأعراب فى الغزل

ابن ميادة[4] :

ألا ليت شِعْرى هل يَحُلَّنَّ أهلُنا وأهلكِ روضاتٍ ببطن اللِّوَى خُضْرا
وهل تأتينّ الريحُ تدرج موهنا برياكِ تعرورى بنا بلداً قَفْرًا
بريح خُزامى الرمل بات معانقا فروع الأقاحى تنضب الطلّ والقَطْرا
ألا لَيْتَنى ألقاكِ يا أمّ جَحْدَرٍ قريبا فأمَّا الصبرُ عنك فلا صَبْرا

وقال :

وما رَوْضَةٌ باتَ الربيعُ يَجودُها على ما بها من حَنْوةٍ وعَرارِ[5]

---

(١) فى ا : دوارج . (٢) المتمخط : المتكبر الغاضب والقهار الغلاب ، والفنيق : الفحل المكرم عند أهله ، والقردان : جمع القراد . (٣) أى بلغت الشجة أم الرأس .
(٤) الأغانى : ٢ـ ٢٧٦ ، ٢٨٧ . (٥) الحنوة : الريحانة ، والعرار : ورد أصفر طيب الرائحة .

بأطيبَ من ريح القرنفل مَوهناً ... بمـا الْتفَّ من دِرْعٍ لها وخِمارِ

وقال آخر[1] :

تجالِسُنَا بنتُ الدَّلَالِ تملّقت ... عراه بحبَّاتِ القلوبِ الهوائمِ

وبيّن ماتخفى من الوَجْد ردّها ... غريق الأَناسى فى الدّموع السَّواجم

جرَى الدمعُ مَجْرَى مائه فـكففْنَهُ ... بعُنَّابِ أطرافِ الأكفّ النواعم

وردّ التحيات الهوَى من عيونها ... بيَقْظَان طَرْفٍ فى مَخِيلة نائمِ

وقال العلاء بن موسى الجهنى :

ولمـا رأتنى مخطراً شَوْكةَ العِدَى ... رَدى النفْسِ مُجْتَابا إلَى غير مَوْعدِ

جلَتْ داجِىَ الظلماء منها بسُنَّـةٍ[2] ... ونحرٍ مَشُوبٍ لونُهُ بالزبرجدِ

وبالشَّذر[3] مَسْبُوكا كأنَّ التهابَهُ ... تلهُّبُ جَمْرِ الفرقد المتوقّدِ

وجاءت كسَلّ السيفِ لو مرَّ مشيُها ... على البيض أمسَى سالما لم يُخَضّد

فبتْنَا ولم نـكذبْك لو أنَّ ليلنا ... إلى الحَوْلِ لم نملل وقلنا له ازدَدِ

نَذُودُ النفوسَ الصاديات عن الهوى ... ذِيَاداً ونسقيهنّ سقى المصرَّدِ

فلما بدا ضوء الصبـاحِ وراعَنا ... مع الصبح صَوت الهاتفِ المتشهّدِ

نهضْنَا بشَخْصٍ واحدٍ فى عيونهم ... نَطاً فى حواشِى الأتحمىّ المعضَّد[4]

إلى جنَّـةٍ منهم وسلّمت غاديا ... عليهـــا سلامَ الباكِرِ المتزوّد

وولّت وأغباش الدُّجى مرجَحِنّةٌ ... تأطّر غُصْنِ البانةِ المتأوّدِ[5]

وقال أعرابى من طيىء :

وأحور يصطادُ القلوبَ وما لهُ ... من الريش إلّا زَعْفَرَانٌ وإثمِدُ[6]

وما كنتُ أخشَى الفَتْكَ ممَّن سِلَاحُهُ ... سِوارٌ وخَلْخَال وطَوْق منضَّدُ

---

(١) فى ط : وقال . (٢) السنة : الجبين . (٣) الشذر : قطع من الذهب ، أو اللؤلؤ الصغار . (٤) الأتحمى : البرد . والمعضد : ثوب له علم فى موضع العضد .

(٥) التأطر : التمايل ، ومثله التأود ، وليس هذا البيت فى ا . (٦) الإثمد : الـكحل .

وأشنب برّاق الثنايا غُروبُهُ ... من البَرَد الوَسْمِىّ أصفى وأبرَدُ (١)
خليلىّ بالله اقعدا فتبيَّنا ... وميضاً نرى الظلماءَ منه تقدّدُ
يكشف أعراضَ السحابِ كأنهُ ... صفيحةُ هِنْدىٍّ تسَلّ وتُغْمَدُ
فبتّ على الأجبال (٢) ليلاً أشيمُهُ ... أقومُ له حتى الصباحِ وأقعدُ

هذا فى البرق كقول الطرماح فى النور :

يَبْدُو وتضمره البلادِ كأنهُ ... سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسَلّ ويُغْمَد

[طيف الخيال]

وقال بشار :

أعددْت لى عَتْبا بحيِّكمُ ... يا عبد طالَ بحيّكم عَتْبى
ولقد تعرض لِى خيالكمُ ... فى القُرْطِ والخلخال والقُلْبِ (٣)
فشربت غيرَ مباشِرٍ حَرجاً ... برضاب أشنبَ باردٍ عَذْبِ

وقال المتنبى (٤) :

بِتْنَا يُناوِلُنَا المُدَامَ بكَفِّهِ ... مَنْ ليس يَخْطُرُ أَن نَراه بِبَالِهِ
نجنى الكواكبَ من قلائد جيدهِ ... وننالُ عَيْنَ الشمسِ من خلخالهِ

وأول شعر أبى الطيب :

لا الحلم جادَ بهِ ولا بمثالهِ ... لولا ادِّكارُ وَدَاعِه وزِيَالِهِ (٥)
إن المعيدَ لنا المنامُ خَيَالَهُ ... كانت إعادَتُه خيالَ خَيالهِ
إنى لأُبْغِضُ طيفَ من أحببتُهُ ... إذ كان يَهْجُرنَا زمانَ وصالِهِ

يقول : التمثيل والتخيل له فى اليقظة أعاد خياله فى المنام ، فكأن الخيالَ الذى فى النوم تصوّر فى اليقظة . وأظهر من هذا قول الطائى (٦) :

زار الخيالُ لها لا بل أزاركهُ ... فِكرٌ إذا نام فكرُ الخَلْقِ لم يَنَمِ

---

(١) الشنب : برد ورقة وعذوبة فى الأسنان . والغروب: جمع غرب وهو الريق، والوسمى : مطر الربيع الأول . (٢) فى ط : الأحياء . (٣ القلب : السوار .
(٤) ديوانه: ٣ــ ٥٤ . (٥) الزيال : الفراق . (٦) ديوانه: ٢٦٨ .

ظَبيٌ تقنَّصْتَه لما نصبت لهُ … فى آخر الليل أشراكاً من الحلُمِ

أما بيته الأول فمن قول جميل :

حييتُ[1] طيفك من طَيْفٍ ألمّ بهِ … حدّثت نفسك عنه وهْوَ مشغولُ

وقال ذو الرمة[2] :

نأت دار مىٍّ أن تُزَار وزَوْرُها … إذا مادَجا الإظلامُ منا وساوسُ[3]

إذا نحن عَرَّسنا بأرضٍ سَرَى لنا … هوًى لبَّستَه بالقلوبِ اللوابِسُ

وبيته الثانى ألمَّ فيه بقول قيس بن الملوَّح :

وإنى لأَسْتَغْشِى وما بىَ نَعسة … لعلّ خيالًا منكِ يَلْقَى خياليَا

وأخرج من بين الجلوس لعلَّنى … أُحدِّثُ عنك النفسَ فى السرِّ خاليا

تقطع أنفاسى لذكرك أَنفساً … يَرِدْنَ فما يَرْجِعْنَ إلّا صَوادِيا

وقد قال فيه قيس بن ذريح :

وإنى لأَهْوَى النومَ فى غير نَعْسةٍ … لعلَّ لقاءً فى المنامِ يكونُ

تخبِّرنى الأحلامُ أنى أراكمُ … فياليتَ أحلامَ المنامِ يقينُ

وكان البحترى أكثرَ الناس إبداعا فى الخيال ، حتى صار لاشتهارِه مثلا يقال له خيال البحترى ، وفى بعض ذلك يقول[4] :

أَلمَّتْ بنا بعد الهدوّ فسامحتْ … بوَصْلٍ متى تطلبْه فى الجِدّ تمنعِ

فما برحت حتى مضى الليلُ وانقضَى … وأَعْجَلها دَاعِى الصباحِ الملمّع

فولّت كأنَّ البينَ يَخْلِج[5] شَخْصها … أوانَ تولّتْ من حشاىَ وأَضْلُعِى

وقال[6] :

سقى الغيث أجزاعا عهدت بجوّها[7] … غزالاً تراعيه الجآذِر أَغْيَدا

---

(١) فى ط : أحفيت ، وليس هذا البيت فى ديوانه المطبوع . (٢) ديوانه : ٤٦ .

(٣) رواية الشطر الثانى فى الديوان : إلى صحبتى بالليل هاد مواعس .

(٤) فى ا : قوله ، والأبيات فى ديوانه : ١ـ٥٦ . (٥) يخلج : يجذب ينزع .

(٦) ديوانه : ١ـ٨٥ . (٧) فى ط : أجراعا عهدت بنجدها . وهذا من ا والديوان ، والجزع : محلة القوم .

إذا ما الكرى أهدى إلىَّ خيالَهُ ... شَفَى قُربه التبريحَ أو نقع الصدى

فلم نر مثلَيْنا ولا مثل شأننا ... نُعذَّبُ أيقاظاً وننعَمُ هُجَّدا

وقال (١) :

بلى وخيال من أُثَيْلة (٢) كلما ... تأوَّهْتُ من وَجْدى تعرّض يُطْمِعُ

يُرِى مقلتى مالاَ ترى من لقائه ... وتسمع أذنى رَجْعَ ما ليس تسمع

[ويكفيك من حق تخيّل باطل ... تردّ به نفس اللهيف فترجعُ] (٣)

قوله فى البيت الأخير من قول الحسين بن الضحاك :

وماذا يفيدك (٤) طيفُ الخيا ... ل والهجرُ حظّك ممن تُحِبْ

غَناءٌ قليلٌ ولكننى ... تمليتُه (٥) بقنوعِ المحِبْ

وللحسين فى هذا المعنى وإن لم يكن فى ذِكْرِ الخيال :

وصفَ البَدْرُ حُسْنَ وجهك حتّى ... خِلْت أنّى ، وما أراكَ ، أراكا

وإذا ما تنفّس النرجسُ الغضْ ... ضُ توهّمْته نسيمَ جناكا

خدعٌ لِلْمُنَى تُعلِّلُنِى فيـ ... ـك بإشراقِ ذَا ونكهة ذاكا

وأول من طرد الخيالَ طَرفة بن العبد، فقال :

فقل لخال الحنظلية ينقلبْ ... إليها فإنى واصلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ

فتبعه جرير فى قوله فقال :

طرقَتْك صائدةُ القلوبِ وليس ذا ... حِين الزيارةِ فارْجعى بسَلامِ

قال البحترى ، ونفى هذا المعنى بقوله (٦) :

قد كان منى الوَجْدُ غِبّ تذكّر ... إذ كان منك الصدُّ غبّ تناسى

---

(١) ديوانه : ١ـ١٩٧ . (٢) فى الديوان : قتيلة .

(٣) من ا . (٤) فى ا : تعرض . (٥) فى ط : تمنيته .

(٦) ديوانه: ١ـ٢٤٨ .

تجرى دموعى حين دَمعك جامدٌ ... ويَلين قلبى حين قلبك قاسى
ما قلت للطيف المسلّم لا تَعُدْ ... تغشى ولا نَهنهتُ حَامِلَ كاسِى

وقال ابن هانئ الأندلسى (١) :

ألا طرقتنا والنجومُ ركودُ ... وفى الحىِّ أيقاظٌ ونحن هُجُودُ
وقد أَعجل الفجر الملمّع خطوها ... وفى أُخريات الليل منه عَمُودُ
سَرتْ عاطِلا غَضْبىَ على الدرّ وحدهُ ... فلم يدرِ نَحْرٌ (٢) ما دَهاهُ وجِيدُ
فما برحت إلا ومن سِلْكِ أَدْمُعِى ... قلائدُ فى لبّاتِها وعُقودُ
ألم يأتِها أنّا كبرنا عن الصِّبا ... وأنا بلينا والزمانُ جَدِيدُ

وقال علىّ بن محمد الإيادى :

أما إنه لولا الخيالُ المراجعُ ... وعاصٍ يُرَى فى النوم وهْوَ مطاوعُ
لأَشْفق وَاستحْياَ من النوم وَالِهٌ ... يُرى بمدرَوْعَاتِ الهوى وهو هاجع

وقال أيضاً :

طيفٌ يزورُك من حبيبٍ هاجر ... أَهْلاً به وبطيفِه مِنْ زائرِ
شقّ الدجى وسَرى فأَمْعنَ فى السّرى ... حتى ألمّ فبات بين مَحَاجِرى
يَحْدُو به هيَف القوام المنثنى ... نَحْوِى وسالفةُ الغزال النافر
لله درُّك من خيالٍ واصلٍ ... أسرى فأنصف من حبيب هاجرِ
عَلّلت علة قلب صبّ هائم ... وقضيت ذِمَّةَ (٣) فيض دَمْعٍ قاطرِ

وقال عبد الكريم بن إبراهيم :

لم أدْرِ مَغْنَاكَ لولا المسكُ والقُطرْ (٤) ... وزَوْرَة لِمُلِمٍّ عهــدُه عفرُ
سرى يعارضُ أنفاسَ الرياح بما ... تحمّرَ الوردُ مِنْهُ وانتشى الزّهرُ

---

(١) فى ا : أبو القاسم بن هانئ .   (٢) فى ط : ثغر .   (٣) فى ا : همة .
(٤) القطر ـ بالضم : العود الذى يتبخر به .

يخفى بثوبِ الدُّجى مَسْرَاهُ مستتِراً ... ومن تقنّع صُبْحًا كيف يستتِرُ
كأنَّ أعينَ واشيه تُرَاقِبهُ ... فيه فيدمج أخبارِى فيَخْتَصِرُ

وقال :

أهلا به من زائرٍ معتادِ ... والليلُ يرفُل فى ثياب حدَادِ
يتجاوزُ الراياتِ يخفقُ ظلُّها ... ويشقُّ ملتفّ القَنَا المنآدِ (١)
أنَّى اهتدَى فى ظل أخضر مُغْدِفٍ ... حتى تيمَّمَ بالعَرَاءِ وِسَادى
بِأرَقَّ من كبد المتيّم مقدماً ... فى حيث ينبو الحارث بن عُبَادِ
معتادَةٌ أمِنتْ نمائمِ حَلْيِها ... والحَلْىُ نمَّامٌ على العُوَّادِ
وكأنما ياقوتُها فى نَحْرِها ... متوقّد مما يجُنّ فُؤَادِى

[حسن تخلص]

خطب صالح بن أبى جعفر المنصور فى بعض الأمر فأحسن ، فأراد المنصورُ أن يقرظَه ويثنى عليه، فلم يجسُر أحدٌ على ذلك لمكان المهدى ، وكان مرشّحا للخلافة ، وخافُوا ألاّ يقَع الثناء على أخيه بموافقته ، فقام عقال بن شبّة (٢) ، فقال : ما رأيتُ أَبين بيانا ، ولاأفصحَ لسانا ، ولاأَحسن طريقا ، ولا أغمض (٣) عروقا ، من خطيب قام بحضْرَتِك يا أَمير المؤمنين ، وحُقَّ لمن كان أميرُ المؤمنين أباه ، والمهدىّ أخاه ، أن يكون كما قال زهير (٤) :

يطلبُ شأْوَامْرَأَيْنِ قدَّما حَسناً ... بزّا (٥) الملوكَ وبزّا هذه السُّوَقَا
هوالجوادُ فإن يَلْحَقْ بشأْوِهِمَا ... على تكاليفه فمِثْله لحِقا
أو يسبقاهُ على ما كان من مَهَلٍ ... فبالذى قَدَّمَا من صالحٍ سَبَقا

فعجب الناسُ من حُسْن تخلصه. فقال أبو جعفر: لاينصرف التميمى إلا بثلاثين ألفا.

---

(١) فى ط : المياد . (٢) فى ط : شيبة . (٣) فى ط : أعيص . (٤) ديوانه: ٥١ .
(٥) فى الديوان : نالا الملوك.

قال أبو عبد الله كاتبُ المهدى : مارأيت مثل عقال قط فى بلاغته ؛ [مدح الغلام، و] (١) أَرْضَى المنصور ، وسَلِم من المهدى .

[زهير وهرم]

استطراد فى شعر زهير

وفى قصيدة زهير هذه يمدح هرم بن سنان بن أبى حارثة المرى (٢) :

قد جعلَ المُبْتَغُون الخيرَ فى هَرِمٍ ... والسائلون إلى أبوابه طُرُقا

من يَلْقَ يوماً على عِلاَّتِه هرماً ... يَلْقَ السماحةَ منه والندَى خُلُقَا

وليس مانعَ ذى قُرْبَى وذى رَحِمٍ ... يوماً ولامُعْدِماً من خَابطٍ وَرَقا (٣)

ليثٌ بعَثَّرَ (٤) يصطادُ الرجالَ إذَا ... ما الليثُ كذَّبَ عن أقرانه صَدَقا

يطعَنُهم ما ارتموا حتى إذا اطَّعَنُوا ... ضارب حتى إذا ما ضَارَبُوا اعتنقا

فَضْلُ الجوادِ على الخيلِ البِطَاء فلا ... يُعْطِى بذلك ممنونا ولا نَزِقَا

هذا وليس كمن يعيا بحُجَّتِه ... وسْط الندىّ إذا ما ناطقٌ نطقا

لو نال حىٌّ من الدنيا بمكرمةٍ ... أفقَ السماءِ لنالَتْ كفّه الأفقا

وكان زهيرٌ كثيرَ المدح لهرم ، ويروى أن بنتا لسنان بن أبى حارثة رأت بنتا لزهير بن أبى سلمى فى بعض المحافل، وإذا لها شارةٌ (٥) وحالٌ حسنة ، فقالت: قدسرنى ما أرى من هذه الشارة والنعمة عليك [فقالت : إنها منكم] (٦) . فقالت : بلى والله لك الفضل ، أعطينا كم ما يَفْنَى ، وأعطيتمونا ما يبقى !

وقد قيل : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لابنة هرم بن سنان : ما وهَب أبوك لزهير ؟ قالت : أعطيناه مالا وأثاثا أفناه الدهر . قال : لكن ما أعطا كموه لا تُفْنِيه الدهور . وقد صدق عمر رضى الله عنه، لقد أبقى زهير لهم مالا تفنيه الدهور ، ولاتُخْلِقه العصور، ولا يزال به ذكر الممدوح ساميا ، وشرفه باقيا ، فقد صار ذكرهم علما منصوبا ، ومثلاً مضروبا ، قال الطائى ، وذكره فى شعره :

مالى ومالك شِبْهٌ حين أذكرهُ ... إلا زهير وقد أَصْغَى له هرم

---

(١) من ا . (٢) ديوانه: ١٩ . (٣) كناية عن الجود. (٤) عثر: باليمن .
(٥) فى ط : شأن . (٦) ساقط من ا .

وقال يوسف الجوهرى يمدح الحسن بن سَهْل :

لو أَنَّ عينى زهيرٍ أبصرتْ حَسَنا وكيف يصنعُ فى أموالهِ الكرمُ

إذن لقال زهيرٌ حين يُبْصِرهُ هذا الجوادُ على العلاتِ لا هَرِمُ

وقال آخر ، ويدخل فى باب تفضيل الشعر :

الشعرُ يحفظُ ما أَوْدَى الزمان به والشعرُ أَفضل ما يجنى من الكرَم

لولا مقالُ زهـير فى قصائدهِ ما كان يعرف جُودٌ كان من هَرِم

وقيل : أعطى هرم [العطاء الجزيل] [١] عوض قول زهير فيه [٢] :

تالله قد علمت سَرَاةُ بنى ذُبْيَان عامَ الحَبْسِ والأصْرِ

أنْ نِعْمَ حشوُ الدِّرْعِ أنت إذا دعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذُّعْرِ

حامى الذِّمارِ على مُحَافظة الْـ جُلَّى أمينُ مغيَّبِ الصدْرِ

حَدِبٌ على المَوْلَى الضَّرِيكِ [٣] إذا ضاقت عليه نوائبُ الدَّهْرِ

ومرَهَّقُ النيران يُحْمَدُ فى الـ لأْوَاءِ غيرُ ملعَّنِ القِدْرِ [٤]

والستر دونَ الفاحشاتِ وما يلقاكَ دونَ الخيرِ من سِتْرْ

وقال [٥] :

إن البخيلَ ملومٌ حيثُ كان ولـ كنّ الجوادَ على عِلاَّتِه هَرِمُ

هوالكريمُ الذى يُعطِيك نائلهُ عَفْواً ويُظْلَم أحياناً فيظَّلِمُ

وإن أَتاه خليلٌ يوم مسألة يقولُ لا غائبٌ مالِى ولا حَرِمُ

الخليل: الذى أخلّ به الفقر ؛ إلى غير ذلك من مُختارِ مدحه فيه .

[فضل الشعر]

ولما امتدح نُصيب عبد الله بن جعفر رضى الله عنه أمر له بإبل وخيل ، وثياب ودنانير ودراهم ، قال له رجل : أتُعْطِى لمثل هذا العبد الأسود هذا العطاء [٦] ؟ فقال:

---

(١) ساقط من ا . (٢) ديوانه: ٨٨ . (٣) الضريك : المحتاج .

(٤) مرهق النيران : تغشى نيرانه ، واللأْواء : الشدة ، وملعن القدر : لا تسب قدره لأنه يطعم. (٥) ديوانه: ١٥٢ (٦) فى ط : فقيل له : تعطى هذا القدرالأسود ؟ وماأثبتناه من ا .

إن كان أَسود فإنّ شِعْرَه أبيض ، وإن كان عبدا فإنّ ثناءَه لحر[1] ، ولقد استحق بما قال أكثرَ مما أعطى ، وهل أَعطيناه إلا ثياباً تبلى ، ومالا يَفْنَى ، ومطايا تنضى ، وأَعطانا مديحاً يُرْوَى وثناء يَبْقى .

وقال الأخطل يمتدُّ على بنى أمية يمدحه لهم :

أبنى أمية إن أخذت نوالكم فلما أخذتُم من مديحى أَكْثَرُ
أبنى أمية لِى مدائحُ فيكمُ تُنسَوْن إنْ طَال الزمانُ وتُذكَرُ

ولما مدح أبو تمام الطائى محمد بن حسان الضبى بقصيدته التى أولها[2] :

أسقى طلولَهم أَجَشُّ هَزِيمُ[3] وغدَتْ عليهم نضْرَةٌ ونَعِيمُ

وصَلَه بمال كثير ، وخلع عليه خلعة نفيسة ، فقال يصفها[4] :

قد كَسانَا من كُسْوَةِ الصيف خِرْقٌ[5] مُكْتَسٍ من مكارمٍ ومَسَاعِ
حُلَّةً سابِرِيَّةً وكِسَاءً[6] كسَحَا القَيْضِ أو رداءِ الشجاع[7]
كالسرابِ الرقراقِ فى الحُسْنِ إلاَّ أنه ليس مثله فى الخِدَاعِ
قصبيًا تسترجفُ الريح مَتْنَيه بأمرٍ من الهبوب مطاعِ[8]
رجَفانا كأنه الدهرُ منهُ كَبِدُ الصبِّ[9] أَوْ حَشَى المُرْتَاع
لازما ما يليهِ تحسبُه جزءًا من المتنين والأضلاع[10]
كسوة مِنْ أغرّ أروعَ رَحْب الصَّدرِ رَحبِ الفؤادِ رَحْبِ الذّراعِ
سوف أكسوكَ ما يعفِّى عليها من ثناء كالبرد بردِ الصّنَاعِ
حسنُ هاتيك فى العيون وهـذا حسنهُ فى القلوب والأسماعِ

---

(١) فى ا : لعربى . (٢) ديوانه : ٢٩٩ . (٣) الأجش : الخشن الصوت . الهزيم : صوت الرعد . (٤) ديوانه : ١٩٥ . (٥) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخليقة . (٦) فى الديوان ، ا : ورداء . (٧) السحا : ما انقشر عن الشىء ، والقيض : القشرة العليا اليابسة على البيضة ، وفى ط : كسحا البيض ، والشجاع : الحية . (٨) رواية البيت فى ط :

ترجف الريح متنه حين يلقا ك بأمر من الأمـور مطاع

(٩) فى ط ، والديوان : كبد الضب . (١٠) فى ط : من المتن أو من الأضلاع .

فقال : لعنةُ الله عليّ إن بقى عندى ثوب أو يَصل إلى أبى تمام ؛ وأمَر بحَمْل مافى خزائنه إليه .

من أخبار أبى تمام

قال إبراهيم بن العبّاس الصولى لأبى تمام : [أمراء] (١) الكلام ياأبا تمام رعيّةٌ لإحسانك ، قال: [ذاك] (١) لأنى أَستضىء بنورك ، وأرِدُ شريعتك . وكان الطائى مع جَوْدَةِ شعره بليغَ الخطاب، حاضرَ الجواب، وكان يقال : ثنتان قَلَّمَا يجتمعان(٢): اللسان البليغ ، والشعر الجيد .

وقال الحسن بن جُنَادة الوشّاء : انصرف أبو تمام من عند بعض أصحاب السلطان فوقف عليَّ ، فقلت : من أين ؟ فقال : كنت عند بعض الملوك فأكلنا طعاما طيّبا ، وفاكهة فاضلة ، وبُخِّرنا وغُلّفْنا؛ فخرجْتُ هارباً من المجلس، نافراً إلى التسلى ، ومافى منزلى نبيذ [فإن كان عندك منه شيء فامنحنى . فقلت : ماعندى نبيذ] (١)، ولكن عندى خَمْرٌ أريده لبعض الأدوية ، فقال : دع اسمه ، وأَعْطِنَا جِسْمَه ، فليس يثنينا عن المدام ما هجنته به من اسم الحرام .

[استنجاز أعرابى]

قال عبيد الله بن محمد بن صدقة : كنَّا عند أبى عبيد الله ، فدخل عليه أعرابى قد كان له عليه وَعْد ، فقال له: أيها الشيخ السيد ، إنى والله أتسحَّبُ على كرمك ، وأَستوطِئُ فراشَ مجدك، وأَستمين على نعمك بقدرك ؛ وقد مضى لى موعدان ، فاجعل النجْحَ ثالثا ، أَقد لك الشُّكْر فى العرب شادِخَ الغُرَّة ، بادىَ الأوضاح. فقال أبو عبيد الله: ماوعدتك تغريراً ، ولا أخَّرتُك تقصيراً ، ولكن الأشغال تقطعنى ، وتأخذ بأَوْفَر الحظّ منى ، وأنا أبلغ لك جهد الكفاية، ومنتهى الوُسْع بأوفر مأمول، وأحمد عاقبة، وأقرب أَمد ، إن شاء الله تعالى .

فقال الأعرابى : ياجلساءَ الصّدْق ، قد أحصرنى التطول ، فهل من معين مُنْجِد ،

---

(١) من ا . (٢) فى ط : زين المرء اثنان .

ومساعدٍ منشد ؟ فقال بعضُ أحداث الكتاب لأبى عبيد الله: والله ـ أصلحك الله ـ لقد قصدك ، وما قصدك حتى أملك، وما أملك إلا بعد أن أجال النظر ، فأمن الخطر ، وأيقن بالظَّفَر ، فحقق له أمله بتهيئة القليل ، وتهنئة التعجيل [1]. قال الشاعر :

إذا ما اجتلاه المجد عن وَعْدِ آملٍ　　تبلّج عن بشر ليستكمل النشرا [2]

ولم يثنه مطل العداة عَنِ التى　　تصونُ له الحمدَ الموفّر والأجْرا

فأحضر أبو عبيد الله للأعرابى عشرةَ آلافِ درهم ، وقال الأعرابى للفتى : خُذْها فأنت سببها . فقال : شكرُك أحبُّ إلىَّ منها. فقال له أبو عبيدالله: خُذْها فقد أمَرْنا له بمثلها . فقال الأعرابى : الآنَ كمُلَت النعمة ، وتمّت المنة .

معاوية بن يسار

وكان أبوعبيد الله واسعَ الذّرع سابغَ الدرع فى الكرم والبلاغة، واسمُه معاوية ابن يَسَار ، وكان يقول : إنّ نخوةَ الشرف تُناسِبُ بطر الغِنَى، والصبرُ على حقوق الثَّرْوَةِ أشدُّ من الصَّبْر على أَلَمِ الحاجة ، وذلُّ الفقر يسمى على عزِّ الصبر ، وجور الولاية مانع من عَدْل الإنصاف ، إلامن ناسب بعد الهمة، وكان لسلطان عزمه قوة على شهوته . وكان يقول : لا يكسر رأسُ صناعة إلا فى أخسِّ رُتّان [4]، وأرذلِ سلطان، ولايعيبُ العلمَ إلا من انسلخ عنه، وخرج منه . وكان يقول : حُسْنُ البِشر عَلم من أعلام [النجاح] [5]، ورائد من [روّاد الفلاح] [5]، وما أحسن ما قال زهير :

تراه إذا ما جئته متهلّلاً　　كأنك تُعْطيه الذى أنتَ سائله

وقال له المهدىُّ بعد أن قتل ابنَه على الزندقة: لا يمنعك ما سبقَ القضاء فى ولدك ، من [ثلج صَدْرِكَ] [5] وتقديم نُصْحِك ، فإنى لاأعرض لك رأيا على تُهمة ، ولا أؤخر لك قدماعن رتبة ، فقال : ياأمير المؤمنين، إنما كان [ولدى حسنة] [5] من نَبْت إحسانك أرضه ، ومن تفقُّدك سماؤه ، وأنا طاعة أمرك، وعَبْد نهيك ، وبقية رأيك لى أحسن الخلف عندى . وكان يقول : العالم يمشى البراز آمنا ، والجاهل يهبط الغيطان كامناً ، ولله درّ زهير حيث يقول :

---

(١) فى ا : بتهنية التعجيل . (٢) فى ط : يسوف عن بشر ليستكمل الشكرا .
(٣) فى ط : ابن عبدالله بن بشار، وهذا من ا . (٤) الرت : الرئيس، وجمعه رتان. (٥) من ا .

الستر دون الفاحشات وما يَلْقاك دونَ الخيرِ من سِتْرِ

وقال أبو عبيد الله : ذاكرنى المنصورُ فى أمرِ الحسَين[1] بن قَحْطبَة، فقال : كان أوثقَ الناسِ عندى ، وأقربهم من قلبى ، فلما لقى أبا حنيفة انتكث . فقلت : إن فسدت[2] نيتُه فسيضَعُه الباطلُ كما رفعه الحقُّ ، وتشهد مخايِلُه عليه كما شهِدَتْ له ، فتعدل فى أمره من شَكٍّ إلى يقين . ثم قال لى : اكتُمْ علىَّ ما أَلْقَيْتُ عليك .

قال عمران بن شهاب : استعنت على أبى عبيد الله فى أمرٍ ببعضِ إخوانه وكان قد تقدَّم سؤالى إياه فيه ، فقال لى : لولا أن حقّك لا يُجْحَد ولا يضاع ، لحجبت عنك حُسْنَ نظرى ؛ أظننتنى أجهل الإحسانَ حتى أعلَّمه، ولا أعرف موضعَ المعروف حتى أعرَّفه ؟ لو كان لا يُنالُ ما عندى إلا بغيرى لكنت مثل البعير الذّلول ؛ يحمل عليه الحمل الثقيل[3] ، إن قِيدَ انقاد ، وإن أنيخ برك، مايملك من نفسه شيئا . فقلت : معرِفتُك بموضع الصنائع أثبت معرفة، ولم أجعل فلانا شفيعا إنما جعلته مذكّراً. قال : وأى إذكار أبلغ عندى فى رَعى حقّك من مسيرك إليه وتسليمك عليه[4] ، إنه متى لم يتصفّح المأمول أسماءَ مؤمّليه غدوة ورواحا لم يكن للأمل محلاّ ، وجرى عليه المقدارُ لمؤمّليه على يديه بما قدر[5] ، وهو غيرُ محمود على ذلك ولا مشكور ، ومالى إمامٌ بعد وردى من القرآن إلا أسماء رجال أهْل التأميل ، حتى أعرضهم على قلبى ، فلا تستعِنْ على شريفٍ إلا بشرَفِهِ ؛ فإنّه يرى ذلك عيبا لعُرفه ؛ وأنشد :

وذاك امرؤٌ إن تَأْتِه فى عظيمة إلى بابه لا تَأْتِه بشفيعِ

ومن توقيعاته : الحق يعقب فَلْجا أو ظفرا ، والباطل يُورث كذبا ونَدَما .

وكتب إليه رجل : والنفس مولعة بحبِّ العاجل . فكتب إليه : لكن العقل الذى جعله الله للشهوة زماما وللهوى رباطا موكّل بحبِّ الآجل ، ومستصغِرٌ لكل كثير زائل .

---

(١) فى ط : الحسن . (٢) فى ط : بدت . (٣) فى ط : يحمل عليه ولا يمل الثقل.

(٤) فى ط : إلى وتسليمك علىّ . (٥) فى ط : وجرى عليه القدر لمؤمليه بما غدر .

قال مصعب بن عبد الله الزبيرى : وفد زياد الحارثى على المهدى وهو بالرّىّ ولىّ عهد ، فأقام سنتين لا يَصِلُ إليه شىء من برّه [(١)] ، وهو ملازم كاتبه أبا عبيد الله [(٢)] ، فلما طال أمره دخل إلى كاتبه فأنشده :

ما بعد حولين مرّا من مطالبةٍ ولا مقامَ لذى دِين وذِى حَسبِ

لئن رحلتُ ولم أظفر بفائدةٍ من الأمير لقد أعذرت فى الطَّلَبِ

فوقَّع أبو عبيد الله [(٢)] : يصنعُ الله لك ! فكتب إليه :

ما أردت الدعاءَ منك لأنى قد تيقَّنْتُ أنه لا يُجَابُ

أيجاب الدعاءُ من مستطيل جُلُّ تسبيحِه الخَنَا والسِّبابُ

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر الاستطالة والكبر

مع ما يشاكلُ ذلك من معانيها ويطرق نواحيها من المساوى والمقابح

فلان لسانُه مقراضٌ للأعراض ، لا يأكل خبْزَه إلا بلحوم الناس . هو غرضٌ يرشَق بسهام الغيبة، وعلم يقصد بالوقيعة ، قدتناولته الألسن العاذلةُ ، وتناقلت حديثَه الأنديةُ الحافلة . قد لزمه عار لا يُمْحَى رَسْمُهُ ، ولزمه شَنَار لا يزولُ وَسْمُه ، فأصبح [نقل كلّ لسان، وضحكة كل إنسان ، وصار دولة الألسن، ومثلة الأعين . قد عرّض عرضه] [(٣)] غرضا لسهام الغائبين ، وألسنة القاذفين ، وقلّد نفسه عظيم العار والشّنار، وألبسها السّبّة الخالدة على الليل والنهار . قدأسكرته خَمْرَة الكبر ، واستغرقَتْه غُرَّة التِّيه [(٤)] ، كأن كسرى حامل غاشيته، وقارون وكيل نفقته، وبلْقِيس إحْدَى داياته [(٥)] ، وكأنَّ يوسف لم ينظُرْ إلا بطلعته [(٦)] ، [وداود لم ينطق إلا بنغمته] [(٧)] ، ولقمان لم يتكلم

(١) فى ط : من رفده . (٢) فى ط : أبا عبد الله . (٣) من ا .
(٤) فى ط : لذة التيه. (٥) فى ا : دايته، والداية : الظئر . (٦) فى ا : إلا بفعلته .
(٧) ساقط من ا .

إلا بحكمته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والغمام لم يَنْدَ إلا من يمينه ، وكأنه امتطى السِّما كين، وانتعل الفرقدين، وتناول النيِّرين بيدين، وملك الخافقين، واستعبد الثقلين ، وكأن الخضراء له عرشت ، والغبراء باسمه فرشت .

فلان له من الطاوُس رِجْلُه ، ومن الوَرْدِ شَوْكه ، ومن الماء زَبَدُه ، ومن النار دخانها ، ومن الخمر خُمارها ، قد هبّت[1] سمائمُ نمائمه ، ودبَّت مكايد عقارِبه ، والنمام يضرب بسَيْفٍ كَلِيل إلا أنه يقطع، ويضرب بعضد واهِن إلا أنه يوجع . هو تمثالُ الجبن ، وصورة الخوف، ومقرّ الرعب، فلو سمّيت له الشجاعة لخافَ لَفْظَها قبل معناها، وذكرها قبل فحواها ، وفزع من اسمها دون مسماها ، فهو يهلك من تخوفه أضغاث أحلام، فكيف بمسموع الكلام؟ إذا ذكرت السيوف لمس رأسَه هل ذهبَ ، ومسّ جبينَه هل ثُقب؟ كأنه أسلِم فى كتّاب الجُبْنِ صبيًّا ، ولُقِن كتاب الفشل أعجميا. وَعْدُه بَرْقٌ خلّب ، وروغان ثعلب . غيم وعده جَهام ، وحدُّ سَيْفِه كَهام . حصلتُ منه على مواعيد عرقوبية ، وأحزان يعقوبية ، قد حرمنى ثمرَ الوعد ، وجرَّنى على شَوْكِ المطْلِ . فتى له وعدٌ أخدع من البرْقِ الخلَّبِ خلقا ، وقد تناول من العارض الجهام طبعا ، وتركنى أَرْعَى رِياضَ رجاء لا يُنبت ، وأَجْنِى ثمار أمل لا يُورِق ؛ فأنا فى ضمان الانتظار ، وإسار عدة ضمار . هو يرسل بَرْقَه ، ولا يسيل ودقه ، ويقدم رَعْده ، فلا يمطر بعده . وعْدُه الرقْمُ على بساط الهواء ، والخطّ فى بسيط الماء .

حلَّ هذا من قول أبى الفضل بن العميد :

لا أَستفيقُ من الغرام ولا أَرى	خِلْوًا من الأشجان والبرحاَء
وصروفُ أيامٍ أقمن قيامتى	بِنَوى الخليطِ وفُرْقَةِ القُرَنَاء
وجَفاءِ خِلٍّ كنتُ أحسبُ أنّهُ	عَوْنِى على السراء والضرّاء
ثَبْت العزيمة فى العقوق ووِدُّهُ	متنقلٌ كتنقّل الأحياء[2]

---

(١) فى ا : ذهبت .   (٢) فى ط : الأفياء .

ذى خلة يأتيك أثبتُ عهدهِ كالخطّ يرسم فى بسيطِ الماء

أردت هذا البيت .

هو صخرة خَلْقاء[1] ، لايستجيبُ للمرتقى ، وحيّة صمّاء لاتسمع للرُّقى ، كأنى أستنفر بالجوّ رعودا[2] وأهزّ منه بالدعاء طودا ، هو ثابت العِطف [نابى العطف][3] ، عاجز القوة ، قاصر المُنّة ، يتعلّق بأذناب المعاذير ، ويحيل على ذنوبِ المقادير . هو كالنعامة تـكونُ جملا إذا قيل لها طِيرى ، وطائرا إذا قيل لها سِيرى ، يفاض له بذل ، ولا يفوّض إليه شغل ، ويملأ له وَطْب ، ولا يُدْفَع به خَطْب ، قد وفر همّه على مطعم يجوّدُه ، وملْبَس يجدّده ، ومَرْقَد يمهّده ، وبنيان يشيّده ، هذا كقول الحطيئة :

دَع المـكارِمَ لا ترحَلْ لبُغيَتِها واقعُدْ فإنك أنتَ الطاعمُ الـكاسِى

قَلْب نَغِل ، وصَدْرٌ دَغِل ، وطويّـةٌ معلولة ، وعقيدة مَدْخُولَة ، صَفْوُه رنق ، وبرّه مَلَق ، قد مُلِىء قلبُه رَيْنا [4] ، وشُحِنَ صدرُه مَيْنا ، يدَّعِى الفضلَ وهو فيه دعىّ ، دَأْبه بثُّ الخدائع ، والنَّفْثُ فى عُقَد المـكايد . ضميرُه خُبث ، ويمينُه حِنْث ، وعهده نـكْث. هو سحابة[5] صَيْف ، وطارِقُ ضَيْف ، قوته غنيمة ، والظفر به هزيمة. هو العوْد المركوب ، والوَتَرُ[6] المضروب ، يطؤه الخفُّ والحافِرُ ، ويستضيمُه الواردُ والصادر . [يغمض عن الذكر][7] ، ويصْغُر عن الفِـكْر . ذاتُه لايوسَم أغفالها[8] ، وصفتُه لاتنفرج أقفالها . هو أقلُّ من تبنة فى لبنة ، ومن قُلامة فى قمامة . هو بيذق [9] الشِّطْرَنْج فى القيمة والقامَة ، جَهْلُه كثيف ، وعَقْلُه سخيف ، لايستترُ من العقل بسجف ، ولايشتمل إلّا على سخف . يمدُّ يدَ الجنون فيحرك بها أُذُنَ الحَزْم ، ويفتح جِراب السخف ، فيصفَع به قفَا العقل . لا تزالُ الأخبارُ تورد سفائح جَهْلِه

---

(١) صخرة خلقاء : ملساء . (٢) فى ا : بالجود عودا (٣) من ا .

(٤) الرين : الدنس . (٥) فى ا : ريح . (٦) فى ا : والزير ، والزير : الدقيق من الأوتار . (٧) من ا . (٨) فى ا : ذلته لا ترسم . (٩) فى ط : مدب . والتصحيح من ا ، والبياذق : الرجالة ، ومنه بيذق الشطرنج (لسان ــ بذق) .

وخُرْقه ، والأنباء تنقلُ نتائجَ سُخْفِه وحُمْقِه . قد ظلّ يتعثَّرُ فى فضولِ جَهْلِه ، ويتساقطُ فى ذيولِ عقله. هو سمينُ المالِ مهزول النَّوال . ثَرْوَةٌ فى الثريا وهمَّـةٌ فى الثَّرَى. وجْهُه كَهَوْلِ المطلع ، وزوال النّعمة ، وقضاء السّوء ، وموتِ الفُجَاءة . هو قذَى العَيْنِ ، وشَجَى الصدْرِ ، وأذَى القلب ، وحمَّى الروح . وَجْهُه كآخر الصكّ ، وظلم الشكّ ، كأنَّ النحسَ يطلع من جَبينه ، والخلّ يقطر من وجنته . وجْهُه طَلْعَة الهَجْر ، ولفظُه قِطَـع الصَّخر. وجهُه كحضور الغَريم ، ووصول الرقيب ، وكتاب العَزْل ، وفِراق الحبيبِ . له من الدينار نضرته ، ومن الوَرْدِ صُفْرَتُه ، ومن السحاب ظُلْمَتُه ، ومن الأسد نكهته . هو عصارةُ لؤمٍ فى قرارة خُبْث . الأم مهجة فى أسقط جثّة . حديث النِّعْمَـة ، خبيثُ الطعمة . خبيث المركب ، لئيم المنتسب ، يكادُ من لُؤمِه يُعْدِى من جلس إلى جَنْبِه ، أو تسمَّى باسْمِه . قد أُرْضِع بلبان اللُّؤْم ، ورُبِّى فى حِجْر الشؤم، وفُطِم عن ثدى الخَيْرِ ، ونشأ فى عَرْصَة الخُبْثِ ، وطلَّقَ الـكرم ثلاثا ، لم ينطق فيه استثناءً ، وأَعْتَق المجدَ بتاتاً ، لم يستَوْجبْ عليه ولاء . هو حمار مبطَّن بثور مفروز [1] بتَيْس ، مطرّز بطرر ، [أتى من اللؤم بنادر] [2]، لم تَهْتَدِ له قصةُ مادر . هو قصيرُ الشبر ، صغيرُ القِدْرِ ، قاصر القدر، ضيِّق الصَّدْرِ ، ردّ إلى قيمة مثله فى خبث أَصْلِه ، وفَرْط جهله ، لا أمسَ ليومه ، ولا قديم لقوله ، سائله محروم ، وماله مَـكْتُوم ؛ لا يَحِـينُ إنفاقه ، ولا يحلّ خناقه . خَيْرُه كالعنقاء تَسْمَعُ بها ولا ترى . خُبْزُه فى حالق ، وإدامه فى شَاهِق . غِنَاه فَقْر ، ومَطْبَخُه قَفْر ، يملأ بطنَه والجار جائع ، ويحفظُ مالَه والعِرْضُ ضائع ، قد أطاع سُلْطَان البُخْل وانخرط كيف شاء فى سِلْـكِهِ . هو ممن لا يبضّ حجَره ، ولا يثمر شجره، سُـكّيت الحَلْبَةُ ، وساقة الـكتيبة ، وآخرُ الجريدة . لعنة العائب، وعرضة الشاهد والغائب . هو عَيْبَةُ العيوب ، وذَنوب الذُّنوب . وقال أبو الفضل الميكالى :

---

(١) ثوب مفروز : له تطاريف. وفى ط : مقرون .   (٢) من ا.

وطلمةٍ بقبحها قد شهرتْ ... تحكي زوالَ نعمة ما شكرتْ
كأنّها عن لحمها قد قشرتْ ... أَقْبِحْ بها صحيفةً قد نُشرتْ
عنوانها إذا الوحوش حُشِرتْ ... يلعنها ما قدَّمتْ وأخّرتْ
صَاحِبُها ذو عورة لو سترت ... إن سار يوماً فالجبال سيِّرتْ
أو رَامَ أَكْلا فالجحيم سُعِّرَتْ

رسالة للبديع فى ذلك

ويختص بهذه الأنواع رسالة بديع الزمان إلى القاضى (١) على بن أحمد يشكو أبا بكر الحيرى القاضى ويذمّه — وقد أطلتُ عِنان الاختيارِ فيها لصحَّة مبانيها، وارتباط ألفاظِها بمعانيها :

الظُّلامة — أطال اللهُ بقاءَ القاضى — إذا أتَتْ من مجلِسِ القضاءِ ، لم ترق إلّا إلى سيِّدِ القضاة . وما كنت لأقصر سيادتَه على الحكام ، دون سائر الأنام ، لولا اتصالُهم بسببِه ، واتّسامُهم بلقبه ، وهبهم مطفلّين على قسمه ، مغيرين على اسمه (٢) ، ألهم فى الصحة أديم كأديمه ، أو قديمٌ فى الشرفِ كقديمه ، أو حديث فى الكرم كطريفه ؛ فهنيئاً لهم الأسماء ، وله المعانى ، ولازالتْ لهم الظواهرُ ، وله الجواهر؛ ولا غَروَ أن يسمَّوْا قضاة، فما كلُّ مائع ماء ، ولا كلّ سَقْفٍ سماء ، ولا كلّ سيرة عدل العمرين ، ولا كلّ قاض قاضى الحرمَيْن ، ويالثارات القضاء! ماأَرخص ما يبيع ، وأسرع ما أضيع ! والسنة الإنذار ، قبل خلوّ الدّيار ، وموت الخيار، ألاّ يغاروا للحلى الحسناء، على السوداء ؛ ومركب أولِى السياسة ، تحت السَّاسة ، ومجلس الأنبياء من تصدّر الأغبياء ، وحمى البزاة من صَيْد البغاثِ ، ومرتع الذكور من تسلّط الإناثِ؟ ويا للرجال، وأين الرجالُ ! ولى القضاءَ من لايملكُ من آلاتهِ غير السِّبَالِ ، ولا يعرف من أدواته غير الاعتزال (٣) ، ولايتوجّه فى أحكامه إلا إلى الاستحلال ، [ولا يرى التفرقة إلا فى العيال] (٤) ولا يُحْسِنُ من الفقه غير جمع المال، [ولايتقن من الفرائض إلاقلّة الاحتفال،

(١) الرسائل: ١٠٣ . (٢) طفل وتطفل بمعنى، وفى ط : وهم مطفلون ... مغيرون .
(٣) فى الرسائل : الاختزال . (٤) من ا .

وكثرة الافتعال][1] ، ولا يدرس من أبواب الجدال إلاّ قبيح الفعال ، وزُورَ المقالِ ، ذاك أبو بكر القاضى ، أضاعَه اللهُ كما أضاع أمانتَه ، وخانَ خزانته ، ولا حاطَه من قاضٍ فى صَوْلةِ جندى ، وسبلة كردى[2] ... إلى أن قال : أيكفِى أن يُصْبِحَ المرءُ بين الزقّ والعودِ ، ويمسى بين موجبات الحدود ، حتى يكمل شبابه ، وتشيب أترابُه . ثم يلبس دنيّته ، ليخلع دينيّته ، ويسوى طيلسانه ، ليحرف[3] يده ولسانه ، ويقصر سِبَالَه ، ليطيل حباله ، ويظهر شقاشقه ، ليستر[4] مخارقه ، ويبيّض لحيته ، ليسوّدَ صحيفته ، ويبدى ورَعه ، ليخفى طمعه ، ويغشى مِحْرَابه ، ليملأ جِرَابه ، ويكثر دُعَاءه ، ليحشوَ وعاءه ، ثم يخدم بالنهار أمعاءَه ، ويعالج بالليل وجعَاءَه ، ويرجو أن يخرج من بين[5] هـذه الأحوال عالما ، ويقعد حاكماً ؟ هذا إذا المجد كَالُوه بقفزان ، وباعوه فى سوق الخسران ! هيهات حتى يَنْسَى الشهواتِ ، ويَجُوب الفَلوَات ، ويعتضد[6] المحابرَ ، ويحتَضِن الدفاتر ، وينتج الخواطر ، ويُحالف الأسفار ، ويعتاد[7] القِفَار ، ويصل الليلةَ باليوم ، ويعتاض السهرَ من النوم ، ويحمل على الروح ، ويجنى على العين ، وينفق من العيش ، ويخزن فى القلب ، ولا يستريح من النظر إلّا إلى التحديق[8] ، ولا من التحقيق إلّا إلى التعليق ؛ وحاملُ هذه الكلف إنْ أخطأه رائدُ التوفيق ، فقد ضلَّ سواءَ الطريق ، وهذا الحيرى رجل قد شغله طلبُ الرياسة عن تحصيل آلاتها ، وأعجله حصولُ الأمنية عن تمحل[9] أدواتها :

والكَلْبُ أَحسن حالةً ... وهو النهاية فى الخَسَاسَهْ

ممَّنْ تَصَدَّى للريا ... سةِ قبل إبّانِ الرياسه[10]

فولِّى المظالم وهو لا يَعرفُ أسرارَها ، وحَمَل الأمانةَ وهو لاَ يَدْرى مقدارَها ؛ والأمانةُ عند الفاسق خفيفةُ المحمل على العاتِق ، تشفق منها الجبال ، ويحملها الجهّال ،

---

(١) ليس فى ا .   (٢) فى ا : تركى .
(٣) فى ا : ليخرب .   (٤) فى ا : ليغطى .   (٥) فى ا : ثنى .
(٦) فى الرسائل : ويعتض .   (٧) فى ا : ويقتات .   (٨) فى ا : إلى التحقيق ، ولا من التحليق .   (٩) فى ا : تنخل .   (١٠) فى ا : السياسة .

وقعد مَقْعَد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بين حديثه يروى، وكتاب الله يُتلى ، وبين البينة والدعْوَى ، فقبّحه اللهُ تعالى من حاكم لا شاهِد عنده أعدل من السلة والجام ، يُدْلَى (١) بهما إلى الحكّام ، ولا مزكى أصدق لديه من الصُّفر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحبُّ إليه من غمزات الخصوم على الكيس المختوم، ولا كفيل أوقع بوفاقِه من خبيئة الذّيل ، وحمال الليل ، ولا وكيل أعزّ عليه من المنديل والطبق ، فى وقت الغَسَق والفَلَق ، ولا حكومة أبغض إليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المُفْلِس، ثم الويل للفقير إذا ظُلِم ، فما يغنيه موقف الحكم إلا بالقتْل من الظلم ، ولا يجيره مجلس القضاء إلا بالنار من الرَّمْضَاء . وأقسم لو أنّ اليتيم وقف بين أَنياب الأسود ، بل الحيات السُّود ، لكانت سلامتُه منهما أَرجى من سلامته إذا وقع من هذا القاضى بين عَقَاربه وأَقَاربه ؛ وما ظنُّ القاضى بقومٍ يحمِلونَ الأمانةَ على مُتُونهم ، ويأكلون النارَ فى بطونهم، حتى تغلظ قصَراتهم (٢) من مالِ اليتامى، وتسمن أكفالُهم من مال الأيامى ، وما رأيه فى دار عمارتُها خرابُ الدور ، وعُطْلَة القدور ، وخَلاَء البيوت ، من الكسوة (٣) والقوت ، وماقولُه فى رجل يُعَادِى الله فى الفَلْس ، ويبيعُ الدّين بالثمن البخْس، وفى حاكم يبرُز فى ظاهرِ أَهل السَّمْتِ ، وباطن أصحاب السبتِ ، فِعْلُه الظلمُ البَحْت ، وأَكلُه الحرام السُّحْت ، ومَا قولُه فى سوس لا يقع إلا على صوف الأيتام ، وجرادٍ لا يقع إلا على الزرع الحرام (٤) ، ولصّ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يُغِيرُ إلا على الضعاف، وليث لا يفترِسُ عبادَ الله إلا بين الركوع والسجود ، وخارب (٥) لا ينهب مالَ الله إلا بين العهودِ والشهود .

وله فى وصف العلم

وذكر فى هذه الرسالة فصلاً فى ذِكْر العلم وهو مستطرف البلاغة ، مستعذب البراعة ، قال (٦) :

---

(١) فى ا : يولى . (٢) القصرة : أصل العنق. (٣) فى ا : الكسرة .

(٤) فى ا : زرع الغرام . (٥) فى ط : ومحارب . (٦) الرسائل: ١٠٥ .

والعلم - أطال اللهُ بقاءَ القاضى - شىء كما تعرفه ، بعيدالمرام ، لا يُصَادُ بالسّهام ، ولا يُقْسَمُ بالأزلام ؛ ولا يُرَى فى المنام [ولا يُضْبَط باللجام ، ولا يُورَثُ عن الأعمام، ولا يكتسب للئام][1] ، وزَرْع لا يَزْكُو ، حتى يصادِفَ من الحَزْم ثرًى طيباً ، ومن التوفيق مطرا صَيِّبا ؛ ومن الطبْعِ جوّا صَافيا ، ومن الجهد روحاً دائما ، ومن الصبر سقيا نافعا ، والعلم علق لايباع ممن زاد ، وصَيْدٌ لا يألف الأوغاد، وشىءٌ لا يُدْرَكُ إلاّ بنَزْع الروح ، وعَوْن الملائكةِ والرّوح، وغَرضٌ لايصابُ إلا بافتراش المدَر، واتّساد[2] الحجَر، وردّالضجَر، وركوب الخطَرِ ، وإدْمَان السهر ، واصطحاب السفر ، وكَثْرة النظَرِ ، وإعمال الفِكر ، ثم هو معتاص إلا على من زكا زَرْعه ، وخلا ذرعه[3] ، [وكرم أَصْله وفَرْعه ، ووَعى بصرهوسمعه[1]] ، وصفا ذهنه وطبعُه، فكيف يناله من أنفق صِباه على الفَحْشاء ؛ وشبابَه على الأحشاء ، وشغل نهاره بالجمع ، وليلَه بالجماعِ ، وقطع سَلْوته بالغنى ، وخَلْوتَه بالغناء ، وأفرغ جـده على الكيس، وهزله فى الكأس؛ والعلم ثمرٌ لايصلح إلا للغرْس ، ولايغرس إلا فى النفس، وصيد لا يقع إلا فى الندر ، ولا ينشب إلّا فى الصدر ، وطائر لا يخدعه إلاّ قَنَص اللفظ ، ولا يعلقه إلّا شَرَكُ الحفظ [ولا ينشب إلّا فى الصدر ،][4] وبَحْر لا يخوضُـه الملّاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبَلٌ لا يتسنّم إلا بخُطا الفِكْرِ، وسماء لا يُصعد إلا بمِعْرَاج الفهْم ، ونَجْمٌ لا يلمس إلا بيَدِ المجد .

ومن مفردات الأبيات فى المعايب والمقابح

قول أبى تمام[5] :

مَسَاوٍلوقُسِمْنَ علىالغَوَانِى لما أمهرن إلاَّ بالطلاقِ

---

(١) ساقط من ا . (٢) فى ط : واستناد . (٣) فى ا : درعه .

(٤) من ا . (٥) ديوانه ١ ٥٠١ .

آخر :

قومٌ إذا جرَّجانٍ منهمو أَمِنُوا ... من لُؤْمِ أحسابِهم أنْ يُقتلوا قَوَدا

البحترى :

نبا في يدى وابن اللئيمةِ وَاجِدٌ[1] ... ويَنْبُو الخبيثُ الطَّبْعِ وهو صَقِيلُ

ابن الرومى ، فى رجل يعرف بابن رمضان :

رأيتك تدَّعِي رمضان دعوى ... وأنتَ نظِيرُ يومِ الشَّكِّ فيهِ

وله فى أعمى :

كيف يَرْجُو الحياءَ منه صديقٌ ... ومكانُ الحياءِ منه خَرابُ

غيره :

هو الكَلْبُ إلاَّ أنَّ فيه ملالةً ... وسُوءَ مُرَاعاةٍ وماذاكَ فى الكَلْبِ

آخر :

أبا دُلَف يا أكْذَبَ الناسِ كلّهم ... سِوايَ فإنى فى مديحك أكذبُ

أبو الفضل الميكالى :

هو الشَّوْكُ لا يعطِيك وافرَ منّة ... يدَ الدَّهْرِ إلّا حين تَضْرِبُه جَلْدا

[اللحن وتعلم العربية]

قال المأمون لبعض وَلدِه وسمع منه لَحْنا : ماعلى أحدِكم أن يتعلَّمَ العربية ، فيقيم بها أوَدَهُ ، ويزيِّن بهاَ مشْهَدَه ، ويفلَّ حُجَجَ خَصْمه بمسِّ كتاب حكمه ، ويملك مَجْلِس سُلْطانه ، بظاهرِ بيانه ؛ ليس لأحدِكم أن يكونَ لسانُه كلسان عبدٍه أوأَمته ، فلا يزالُ الدهر أسِيرَ كلمته .

وقال رجلٌ للحسن البصرى ياأبو سعيد ، قال : كَسْبُ الدراهم شغَلكَ أن تقولَ ياأبا سعيد . ثم قال : تعلَّموا العلم للأديان ، والنحوَ للسان ، والطبَّ للأبدان .

---

(١) فى ا : واحد .

وكان الحسن كما قال الأعرابي وسمع كلامه : والله إنه لفصيحٌ إذا لفظ ، نصيحٌ إذا وَعظ . وقيل له : يا آبا سعيد ، ما نراكَ تلحن ، قال : سبَقْت اللحن . أخذه أبو العتاهية، وقيل له: إنك تخرج فى شعرك عن العروض ، فقال: سبقت العروض . وقال إسحق بن خلف البهرانى :

النحو يصلح[1] من لسانِ الألْكَنِ ... والمرءُ تُعْظِمُه[2] إذا لم يلحنِ
فإذا طلبت من العلوم أجلَّها ... فأجلُّها منها مقيمُ الألْسُنِ

وقال على بن بسام :

رأيتُ لسانَ المَرْءِ رائدَ عِلْمهِ ... وعنوانه فانْظُرْ بماذا تُعَنْوِنُ
ولا تَعْدُ إصلاحَ اللسانِ فإنهُ ... يخبِّر عما عنده ويبين
على أَن للإعراب حَدًّا وربما ... سمعت من الإعراب ماليس يحسُنُ
ولاخيرَ فىاللفْظِ الكريهِ استماعُه ... ولافىقبيحِ اللَّحْنِ والقصد أزْيَن

وقال بعضُ أهل العصر ، وهو أبو سعيد الرستمى :

أَفِى الحقِّ أن يُعْطَى ثلاثون شاعراً ... ويحرَم ما دونَ الرّضا شَاعِرٌ مثلى
كما سامحوا عمْرًا بواوٍ زيادةٍ ... وضُويِقَ بسم الله فى أَلِفِ الوَصْلِ

أبو الفتح البستى :

حُذِفْتُ وغيرى مثبَتٌ فى مكانِه ... كأنىَ نونُ الجمعِ حين يُضَاف

وقال :

أَفْدِى الغزالَ الذى فىالنّحْوِ كلّمنِى ... مُنَاظِراً فاجتنيت الشّهدَ من شفَتِهْ
فأورِد الحجج المقبول شاهِدها ... محققا ليرينى فَضْلَ معرفَتِهْ
ثم اتفقتُ على رَأْيٍ رضيتُ بهِ ... والرفع من صِفتى والنصب من صفته[3]

الحسن اللحام :

أنا من وجوهِ النحوِ فيكم ... ومن اللغاتِ إذا تُعَدُّ المهمَل

---

(١) فى ا : يبسط . (٢) فى ا : تكرمه.
(٣) فى ط : * النصب من صفتى والرفع من صفته *

[الشوق والتفدية ، ووصف الحسان]

وقال أحمد بن يوسف :

لغلام من ولد أنو شروان

كتب غلامٌ من ولد أنوشروان ممن كان أحد غلمان الديوان ، إلى آخر منهم وكان قد علق به ، وكان شديدَ الكَلَف به والمحبّة له : ليس من قَدْرِى – أدام الله سعادَتك – أَن أقولَ لمثلك جُعِلْتُ فِداكَ ؛ لأنى أراكَ فوقَ كلِّ قيمة خطيرة ، وثمن مُعجِز ، ولأنّ نفسى لا تُساوِى نفسك ، فتُقْبَل فى فِدْيتك ، وعلى كل حال ؛ فجعلنى اللهُ فِداءَ ساعة من أيامك ؛ اعلم أيها السيد العلىُّ المنزلة ، أنه لو كان لعَبْدِك من شدة الخطب أمرٌ يقِفُ على حدّه النعت ، لاجتهدنا أن يضعِفَ من ذلك ما عسى أن يعطف به زِمَام قَلْبك ، وتحنو على الرّقة والتحفّى أثناء جوانحك ، ولكن الذى أمسيت وأصبحت ممتحَنا به فيك شسع على[1] كل بيان ، ونزح عَنْ كلّ لسان ؛ والحب أيها المالك لم يَشُبْه قَذَى ريبة ، ولم يختلط به قلب معَاب ، فلا ينبغى لمن كرمت أخلاقُه أن يعاف مقارَبة صاحبه المدل بحرمة نيته ، والذى أتمناه أيها المولى اللطيف مجلس أقف فيه أمامك ، ثم أبوح بما أضنى جسدى ، وفتّ كبدى ، فإن خفّ ذلك عليك ورأيت نشاطا من نفسك إليه كنتَ كمن فكّ أسيراً وأبرَأَ عليلا ، ومن الخير سلك سبيلا ، يتوعَّرُ سلوكُها على مَنْ كان قبله ، ومَنْ يكون بعده ؛ ثم أضاف إلى ذلك منّةً لا يُطيقها جَبلٌ رَاسٍ ، ولا فلك دائر ، فرأيك أيها السيد والمعتمد فى الإسعاف ، قبل أن يبْدرَنى[2] الموتُ ؛ فيحول بينى وبين مانزعت إليه النفس مواصلا برّا إن شاء الله تعالى .

الجواب عليه

فأجابه تولّى اللهُ تعالى ما جرى به لسانك بالمزيد ، ولا أَوْحش ما بيننا بطائر فُرْقَة ، ولا صافر[3] تشتّت ، وضمنّا وإياكَ فى أَوْثق حبالِ الأُنس ، وأوكد أَسبابِ الأُلْفَة ؛ وقفت على ما لخصته من العجز عن بلوغ ماخامرَ قلبك ، وانطوى فى ضميرك ، من الشَّغف المقلق ، والهوى المضرع ، ولعمرى لو كشفْتُ لك عن مِعْشار مااشْتَمَل عليه مضمر صدرى لأيقنت أَنّ الذى عندك إذا قسْته إلى ما عندى كالمتلاشى البائد ،

---

(١) فى ط : منع من . (٢) فى ط : ينذرنى . (٣) فى ط : حافر .

ولـكنك بفَضْل الإنعام سبقْتَنا إلى كَشْف ما فى الضمير . وأما طاعتى لك ، وذمامى إليك فطاعةُ العبد المقْتَنَى ، الطائع لما يَحْـكمُ له وعليه مولاه ومالـكه، وأنا صائرٌ إليك وَقْتَ كذا ؛ فتأهَّبْ لذلك بأحمد عافية ، وأتمّ عُقْدَة (١) ، وأَسْعَد نجم جرى بالأُلفة إن شاء الله تعالى .

لبعض الـكتاب

وكتب بعض الـكتّاب : إنى لأَكْرَهُ أَنْ أفديك بنفسى استحياءً من التقصير فى المعاوضة، ومن التخلّف فى الموازنة، وعلى الأَحوال كلّها، فقدَّم اللهُ رُوحِى عنك، وصانني عن رُؤْيَة المـكروه فيك .

للمتنبي

وقال المتنبي (٢) :

فدًى لك من يُقصِّر عن مَدَاكا (٣) فلا مَلِكٌ إِذَنْ إلاَّ فِدَاكا

ولو قلنا فِدًى لك من يُسَاوِى دَعَوْنَا بالبقاء لمَنْ قَلاَكا

وآمَنا فِدَاءَك كلَّ نَفْسٍ وإنْ كانت لمملـكةٍ مِلاَكا

[وقال عبيد الله بن شبيب : كتب إلىّ بعض إخوانى من أهل البصرة كتابا ملح فيه وأوجز وهو: أطال الله بقاءك كما أطال حباءك ، وجعلنى فداك إن كان فىّ فداؤك.

كتبتُ ولو قدرتُ هوًى وشوقا إليك لـكنت سطراً فى كتابى] (٤) .

وكتب آخر إلى إبراهيم وأحمد ابنى المدبّر ، وقد أصابتهما مِحْنَة ثم أردفتها نعمة: لو قُبلت فيكما ، ودانيتُ قدريكما ، لقلت : جعلنى الله فداكما ، ولـكنى لا أجزى عنكما ، فلاأقبل بكما، وقد بلغتنى المحنة التى لو مات إنسان غمًّا بها لـكنته [ثم اتصلت النعمة التى لو طار امرؤ برحابها لـكنته] (٤) وكتب تحته :

وليس بتزويقِ اللسانِ وصَوْغِهِ ولـكنَّه قد خالط اللَّحْمَ والدَّمَا

لابن ثوابة

وكتب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتـذِرُ فى تَرْك مكاتبته بالتفدية (٥)

---

(١) فى ط : عاقبة . (٢) ديوانه: ٢ــ٣٨٥ . (٣) فى ا : نداكا .

(٤) من ا . (٥) فى ط : فى التعزية ، والصحيح من ا .

[الله يعلم ، وكفى به عليما ، لقد وددت مكاتبتك بالتفدية] [1] فرأيت عيبا أن ؛ أفديك بنفسٍ لابدَّ لها من فَنَاء ، ولاسبيلَ لها إلى بَقَاء ، ومَنْ أظهرلك شيئاً وأضمرلك خِلافَه فقد غشّ ؛ والأمر إذا كانت الضرورةُ توجبُ أنه مَلكٌ [2] لايحقق ، وإعطاء لايتحصّل ، لم يجب أن يخاطبَ به مِثْلك ، وإن كان عند قومٍ نهايةً من نهايات التعظيم ؛ ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقاً من طرق التقرّب .

قال الزبير بن أبي بكر : قال لى مسلمة عبد الله [3] بن جندب الهذلى : خرجت أريدُ العقيق [4] ومعى زَيّان [5] السوّاق ؛ فلقينا نسوة فيهن امرأةٌ لم أرَ أجملَ منها فأنشدت بيتين لزَيّان :

ألاَ ياعبادَ الله هــذا أخوكمُ قتيلٌ فهل فيكم له اليوم ثائرُ [6]
خُذُوا بدمى ، إن متُّ ، كلَّ خريدةٍ مريضةِ جَفْنِ العينِ والطَّرْف ساحِرُ

ثم قال : شأنك بها يابنَ الـكرام فالطلاقُ له لازمٌ إن لم يكن دَمُ أبيك فى نقابها . فأقبلت علىَّ وقالت : أنت ابن جندب؟ فقلت : نعم . قالت : إن قتيلنا لا يُودَى ، وأسيرنا لا يفدى ، فاغْتنِمْ لنفسك ، واحتسب أباكـ .

الرجل من فزارة

قال أبو عبيدة : قال رجل من فزارة لرجل من بنى [7] عذرة : تمدُّونَ موتكم من الحبّ مزية ، وإنما ذاكـ من ضَعْف المنّة ، وعَجْز الروية . فقال العذرى :

أما إنـكم لورأيتم المحاجرَ البُلْج [8] ، ترشق بالأعين الدُّعْج [9] ، فوقها الحواجبُ الزُّج [10] ، [وتحتها المباسم الفُلْج [11]] ، والشِّفاهُ السُّمْر ، تفترّ عن الثنايا الغرّ ، كأنها

---

(١) من ا . (٢) فى ا : ملق .

(٣) فى ط : مسلم بن عبيد الله . (٤) العقيق : موضع بالقرب من المدينة .

(٥) فى ا : ريان . (٦) ثائر : مطالب بدم القتيل . (٧) فى ا : من عذرة .

(٨) البلج : جمع أبلج ، وهو المشرق . (٩) الدعج : جمع دعجاء ، وهى العين يشتدفيها البياض مع السواد . (١٠) الزج : جمع أزج ، وهو الحاجب الدقيق . (١١) الفلج : جمع أفلج ، وهو ما بين أسنانه تباعد ، وما بين القوسين ساقط من ا .

بَرَد [1] الدُّر ، لجعلتموها اللّات والعُزَّى ، ورفضتم الإسلام وراء ظهوركم .

الأعرابى فى وصف الحسان

وقال أعرابى : دخلتُ بغداد فرأيتُ فيها عيونا دُعْجاً، وحواجبَ زُجّا ، يسحَبْنَ الثياب، ويَسْلبْنَ الألباب

وذكر أعرابى نساءً فقال : ظعائن فى سوالفهن طول ؛ غير قبيحات العُطول [2] ، إذا مشين انتعلن [3] الذيول ، وإن رَكبْنَ أثقلْنَ الحمول .

ووصف آخر نساء فقال : يتلثّمن على السبائك ، ويتَّشِحْنَ على النيازك [4] ، ويتَّزِرْن على العوَاتِك [5] ، ويرتفقن على الأرائك ، ويتهادَيْن على الدَّرَانك [6] . ابتسامُهن ومَيض ، عن ثَغْرِ كالإغريض [7] ، وهن إلى الصِّبَا صُور [8] وعن الخنا حُور [9] .

سئل بعضُ الحكماء عن الهوى ، فقال : هو جليسٌ مُمْتِع ، وأليف مُؤْنِس ، أحكامه جائزة [10] ، ملكَ الأبدانَ وأرواحها، والقلوبَ وخواطرها، والعيونَ ونواظرَها، والنفوسَ وآراءها ، وأعطىَ زمام طاعتها ، وقيادَ مملكتها ، تَوارَى عن الأبصار مَدْخَله [11] ، وغمض عن القلوب مَسْلَكه .

وسئِلت أعرابيةٌ عن الهوى فقالت : لا مُتع الهوَى بملكه ، ولا مُلِّي بسلطانه ، وقبض الله يدَه ، وأَوْهَن عَضُده . فإنه جائر لاينصف فى حكم ، أعمى ما ينطقُ بعدل، ولا يقصر فى ظلم ؛ ولا يَرْعَوِى لِلَوم ، ولاينقادُ لحقّ ، ولا يبقى على عقل ولا فهم ، لو ملك الهوى وأطيع لردّ الأمورَ على أدبارها ، والدنيا على أعقابها .

---

(١) فى ا : سرد . (٢) العطول : التجرد من الحلى . (٣) فى ط : أسبلن .

(٤) النيازك : جمع نيزك ، وهو الرمح القصير ، يصف النساء بدقة الخصور .

(٥) قال فى القاموس : يقال : ائتزر به وتأزر به ، ولا تقل : اتزر ، وقد جاء فى بعض الأحاديث، ولعله من تحريف الرواة. (٦) الدرنوك والدرنك : ضرب من الثياب أو البسط، وفى ط : الدوانك . (٧) الإغريض : ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات البيض .

(٨) صور : مائلات ، وفى ا : عن الصبا . (٩) حور : مائلات ، وفى ا : وعن الحيا .

(١٠) فى ط : جائرة . (١١) فى ط : مدركه .

ووصف أعرابى الهوى فقال : هودَاءٌ تدوَى به النفوسُ الصِّحَاح ، وتسيل منه الأرواح ، وهو سقم مكتتم ، وجَمْر مُضْطَرِم ؛ فالقلوبُ له منضجة ، والعيون ساكنة (١) .

قال أبو عبيد الله (٢) بن محمد بن عمران المرزبانى : أخبرنى المظفر بن يحيى قال : أحبّ رجلٌ امرأةً دونه فى القَدْر، فعذَله عمّه فقال : يا عمّ، لا تَلُمْ مُجْبَرًا على سقمه؛ فإن المقر على نفسه مستَغْنٍ عن منازعة خَصْمِه ، وإنما يُلام من اقترف ما يقدر على تركه ، وليس أمرُ الهوى إلى الرأى فيملكه ، ولا إلى العقل فيدبره ؛ بل قُدْرَتُه أغلبُ ، وجانِبُه أعزّ من أن تنفذ فيه حيلةُ حازِم ، أو لطف محتال .

وقال بعضهم : رأيت امرأتين من أهل المدينة تُعاتِب إحداهما الأخرى على هوًى لها ، فقالت : إنه يقال فى الحكمة الغابرة (٣) ، والأمثال السائرة : لا تلومنّ من أساءَ بك الظنّ إذا جعلتَ نفسَك هدَفا للتهمة ، ومن لم يكن عَوْناً على نفسه مع خصْمه لم يكن معه شىء من عقدة الرأى ، ومن أَقْدَم على هَوًى وهو يَعلمُ ما فيه من سوء المغبّة سلط على نفسه لسانَ العَذْلِ، وضيع الحَزْم . فقالت المعذولة : ليس أَمرُ الهوى إلى الرأى فيملكه ولا إلى العقل فيدبره ، وهو أغلب قدرةً ، وأمنع جانباً من أن تنفذ فيه حيلة (٤) الحازم ؟ أو ما سمعت قول الشاعر (٥) :

ليس خطبُ الهوَى بخطْبٍ يسير	لا ينبّيك عنه مثلُ خَبير
ليس أمرُ الهَوى يدبر بالرَّأْ	ىِ ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمرُ فى الهوى خطراتٌ	محدثاتُ الأمورِ بَعْدَ الأمورِ

قال المرزبانى : أخبرنى الصولى أنّ هـــذه الأبيات لعُلية بنت المهدى ولها فيها لَحْنٌ .

---

(١) فى ط : ساكبة . (٢) فى ط : قال عبيد الله . (٣) فى ا : العابرة .
(٤) فى ط : رأى الحازم . (٥) شاعرات العرب : ٢٣١ — لعلية بنت المهدى .

وقيل لعبد الله بن المقفع : ما بالُ العاقل المميِّز الذهن ، واللبيب الفطِن ، يتعرض للحب وقد رأى منه مواضِعَ الهلَكة ، ومصارِعَ التَّلَف ، وعلم ما يؤول إليه عُقْبَاه ، وترجع به أُخراه على أولاه ؟ فقال : زُخْرِفَ ظاهرُ العشق بجمال زينة يستدعى القلوب إلى ملامسةٍ ، ومُلّى بعاجل حلاوة يطّبى النفوسَ إلى ملابسة[1] ، كظاهر زخرف الدنيا ، وبهاء رونقها ، ولذيذ جنى ثمرها ، وقد سكرت[2] أبصارُ قلوب أبنائها عن النظر[3] إلى قبيح عيوب أفعالها ، فهم فى بلائها منغمسون ، وفى هلكة فتنتها متورّطون ، مع علمهم بسوء عواقب خَطْبها ، وتجرُّع مرارةِ شربها ، وسرعة استرجاعها ما وهبت ، وإخراجها مِمّا ملكت ، فليس يَنْجُو منها إلا مَنْ حَذِرها ، ولا يهلك فيها إلا من امِنها ، وكذلك صورةُ الهوى ؛ هما فى الفتنة سواء .

[العفاف]

وقال ابن دُريد : قال بعضُ الحكماء : أَغْلِق أبواب الشبهات بأقفال الزهادة ، [وافتح أبوابَ البر بمفاتيح العبادة] [4] فإنّ ذلك يُدْنِيك من السعادة ، وتستوجب من اللهِ الزيادة . وقال غيرُه : إنّ اللذةَ مشوبةٌ بالقُبْح ، ففكِّروا فى انقطاع اللذةِ وبقاءِ ذكْرِ القُبْحِ .

قال أبو عبد الله بن إبراهيم بن عرفة [نفطَوَيْه] :

ليس الظريفُ بكاملٍ فى ظَرْفِهِ ... حتى يكونَ عن الحرامِ عفيفا
فإذا تعفَّفَ عن محارِم رَبِّهِ ... فهناك يُدْعَى فى الأنامِ ظَرِيفا

وقال :

كم قد ظفرتُ بمن أَهْوَى فيمنَعُنى ... منه الحياءُ وخَوْفُ اللهِ والحَذَرُ
وكم خَلَوْتُ بمن أَهْوَى فيُقْنِعُنى ... منه الفكاهَةُ والتقبيلُ والنَّظَرُ

---

(١) العبارة فى ط : يستدعى القلوب إلى ملابسته ، وحلى عاجل حلاوته بطلب النفوس إلى ملابسته . (٢) فى ط : ذكرت . (٣) فى ط : بالنظر . (٤) ساقط من ا .

أَهْوَى المِلاحَ وأَهْوَى أَنْ أُجالِسَهم ... وليس لى فى حَرَامٍ مِنهم وَطَرُ (١)
كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصِيَةٍ ... لا خيرَ فى لذةٍ من بعدها سَقَر

وقال العباس بن الأحنف :

أتأذنونَ لِصَبٍّ فى زيارتكم (٢) ... فعندكم شهواتُ السمعِ والبصرِ
[لا يبصر السوءَ إن طالَتْ إقامتُه ... عفّ الضمير ولكن فاسق النظر] (٣)

وقال بعضُ الطالبيين :

رمَوْنى وإياهم بشَنْعاء هُم بها ... أَحقُّ ، أَدالَ (٤) اللهُ مِنهم وعجَّلاَ
بأمرٍ تركناه وربِّ محمدٍ ... جميعا فإما عفّةً أو تجمّلا

وقال سعيد بن حميد :

زَائرٌ زَارَنَا على غَيْرِ وَعْد ... مُخْطَفَ الكَشْحِ مُثْقَل الأرادفِ (٥)
غالَبَ الخوفَ حين غالبه الشوْ ... قُ وأَخْفَى الهوَى وليس بخافِى
غضَّ طَرْفِى عنه تُقَى اللهِ فاختَرْ ... تُ على بَذْلِه بقاءَ التَّصافى
ثم ولّى والخوفُ قد هَزَّ (٦) عِطْفَيْــــه ولم يَخْلُ مِنْ لِباسِ العَفَافِ

وفى الحديث الشريف : « مَنْ أَحبَّ فعفَّ فمات فهو شهيدٌ » . والعفافُ مع البَذْل ، كالاستطاعة مع الفعل (٧) ، كما قال صريع الغوانى :

وما ذمّىَ الأيام أنْ لَسْتُ مادحاً ... لعَهْدِ لياليها التى سلَفَتْ قبلُ
ألاَ رُبَّ يومٍ صادقِ العَيْشِ نِلْتهُ ... بها ونَداماى العفافةُ والبَذْلُ

وأنشد الصولى لأبى حاتم السجستانى فى المبرّد ، وكان يلزم حَلْقَته ، وكان من المِلاَح وهو غلام :

---

(١) الوطر : الحاجة . (٢) فى ا : فى عيادتكم . (٣) من ا .
(٤) فى ط : أزال . (٥) مخطف الكشح : ضامره . (٦) فى ط : عم.
(٧) فى ط : العقل .

ماذا لقيتُ اليومَ من ... مُتَمجِّنٍ خَنِثِ الكلامْ (١)
وقفَ الجمالُ بوَجْهِهِ ... فسمَتْ له حدَقُ الأَنَام
حرَكاتُه وسُكُونُهُ ... يُجْنَى بها ثَمَرُ الأثام (٢)
فإذا خَلَوْتُ بمثلِهِ ... وعَزَمْتُ فيه على اعترام (٣)
لم أعْدُ أخلاقَ العفَا ... فِ وذاك أَوْكدُ للغَرَام
نَفْسِى فِداؤكَ يا أبا الْـ ... ـعباس جَلَّ (٤) بكَ اعتصام
فارْحَمْ أخاكَ فإنهُ ... نزْرُ الكَرَى بادِى السقام
وأَنِلْهُ ما دُونَ الحرا ... مِ فليس يرْغَبُ فى الحرام

وكان أبو حاتم يتصدَّق كلَّ يومٍ بدرهم (٥) ، ويختم القرآن فى كل أسبوع .

وذكر أنه اجتمع أبو العباس بن سُرَيج الشافعى وأبو بكر بن داود العباسى فى مجلس على بن عيسى بن الجراح الوزير ، فتناظَرا فى الإيلاء ، فقال : يابن سريج (٦) : أنت بقولك : « من كثرت لحظَاته دامَتْ حسَراته » أَبْصَرُ منك بالكلام فى الإيلاء .
فقال أبو بكر : لئن قلت ذلك فإنى أقول :

أُنزِّه فى رَوْضِ المحاسنِ مُقْلَتِى ... وأَمْنَعُ نفسى أن تنالَ مُحرَّمَا
وأحمِلُ من ثِقل الهوَى مالو انّه ... يُصَبُّ على الصَّخْرِ الأَصَمِّ تهدَّمَا
وينطق طَرْفِى عن مترجم خاطِرِى (٧) ... فلولا اختلاسِى رَدَّهُ لتكلَّما
رأيتُ الهوَى دَعْوَى من الناس كلِّهم ... فلستُ أَرى حبًّا صحيحا مسلَّما

فقال أبو العباس : بِمَ تفتخرُ علىّ ؟ وأنا لو شئت لقلت :

ومطاعِم للشّهْدِ مِنْ نَغَماتِهِ ... قد بِتُّ أَمْنَعُه لذيذَ سِنَاتِه
صبًّا بحُسْنِ حديثِه وكلامِهِ ... وأُكرِّر اللحظاتِ فى وجَناتِه

---

(١) متمجن : كثير المجون ، وخنث الكلام : لينه . (٢) فى ط : الأنام .
(٣) فى ط : اغترام . (٤) فى ط : حل . (٥) فى ا : بدينار .
(٦) فى ط : فقال ابن سريج . (٧) فى ا : مقلتى .

حتى إذا ما الصبحُ لاح عمودُهُ ولّى بخاتم ربّه وبرَانِه

فقال أبو بكر : أَصلح الله الوزير ، تحفظ عليه ما قال حتى يقيمَ شاهدَين عَدْلين أنه ولّى بخاتم ربه ! فقال أبو العباس : يلزمنى فى هذا ما يلزمك فى قولك : أنزّه فى رَوْض المحاسن مُقْلَتِى . . . البيت. فضحك الوزيرُ ، وقال : لقد اجتمعتُما ظرفا ولُطفا وفَهْما وعلما .

ألفاظ لأهل العصر فى محاسن النساء

هى روضةُ الحسْنِ ، وضرةُ الشمْسِ ، وبَدْرُ الأرض . هى من وجهها فى صباحٍ شَامِس (١) ، ومن شَعْرِها فى ليل دَامِس (٢) ، كأنها فلقة قَمَر على بُرْج فضة . بَدْر التم يضىء تحت نِقابها ، وغُصْن البانِ يهتزّ تحت ثيابها . ثَغْرُها يجمعُ الضَّرِيب والضرَب (٣)، كأنهُ نثر الدرّ ، كما قال البحترى :

إذا نَضَوْنَ شفُوفَ الرَّيْطِ آونةً قَشَرْنَ عَنْ لؤلؤِ البَحْرَيْن أَصْدَافا

قدأَنبَتَ صدرُها ثمرَ الشباب . خرطَتْ لها يدُ الشبابِ حُقَّيْنِ من عاَج . كأنها البدرُ قُرِّط بالثريّا (٤) ، ونِيطَ بها عِقْدٌ من الجوزاء . أعلاها كالغُصْنِ ميّال ، وأسفلُها كالدِّعص مُنْهَال (٥) ، لها عنُق كإبريق اللُّجَيْنِ ، وسُرَّة كمُدْهُن العاَجِ . نِطَاقُها مُجْدِب ، وإِزَارُها مُخْصِب . مَطْلَعُ الشمسِ من وَجْهِها ، ونَبْت الدرِّ من فيها، وملقط الوَرْدِ من خدّها، ومنبع السِّحْرِ من طَرْفِها، ومبادى الليل من شَعْرِها، ومغرس الغصن (٦) من قدِّها ، ومهيل الرَّمْلِ من رِدْفِها .

---

(١) شامس : مشمس . (٢) دامس : مظلم . (٣) الضريب : اللبن يحلب من عدة لقاح فى إناء ، والضرب : العسل الأبيض . (٤) قرط : لبس القرط . (٥) الدعص : الكثيب من الرمل . (٦) فى ا : ومغرس الحسن .

ولهم فى محاسن الغلمان والمعذّرين (١)

زاد جمالُه ، وأقمر هلالُه . ترقرقَ فى وجهِه ماءُ الحُسْنِ ، شادِنٌ فاتِرٌ طَرْفه ، ساحرٌ لَفْظُه . غلامٌ تأخذُه العَيْن ، ويَقْبَلُه القَلْبُ ، ويأخذه الطَّرْفُ ، وترتاح إليه الرّوح . تكادُ القلوبُ تأكلُه ، والعيون تَشْرَبُه . جرى ماءُ الشبابِ فى عُودِه فمَايلَ كالغُصْنِ واستوفى أقسامَ الحُسْنِ ، ولبس ديباجةَ المَلاحة . كأنَّ البَدْرَ قد ركب على أزراره . لا يشبَع منه الناظرُ ، ولا يروَى منه الخاطِر . كاد البدرُ يحكيه ، والشمسُ تُشبِهه وتُضاهِيه . . صورة تَجْلُو الأبصار ، وتُخْجِل الأقمار . شادنٌ مُنْتقبٌ بالبَدْر ، ومكتَحِلٌ بالسحر . ماهو إلّا نُزْهة الأبصار ، ومُخْجِل الأقمار ، وبِدْعَة الأمصار . غمزات طَرْفه تُخْبِر عن ظَرْفه ، ومنطِقُه ينطقُ عن وَصْفِه . تخالُ الشمسَ تبرقعَتْ غرَّته ، والليل ناسب أصداغَه وطُرَّتَه . الحُسْنُ ما فوق أزراره ، والطِّيبُ ما تحت إزاره . شادن يَضْحَكُ عن الأقحوان ، ويتنفَّسُ عن الريحان . كأنّ خدَّه سكران من خَمْر طرفه (٢) ، وبغداد مسروقةٌ من حُسْنِه وظَرْفه ، أعجمت يدُ الجمالِ نونَ صُدْغِه بخَال . هذا محلول من قول ابن المعتز :

غِلالة خَدِّه صُبغت بوَرْدٍ ونونُ الصُّدْغ مُعْجَمةٌ بخَالِ

لهعينان حَشْوُ أجفانِهما السِّحْرُ ، كأنه قد أعار الظَّبْىَ جِيدَه ، والغُصْنَ قدَّه ، والراح رِيحَه ، والوَرْدَ خدَّه . الشّكل من حرَكاته (٣) ، وجميعُ الحُسْنِ بعض صفاته . قد ملكَ أزِمَّةَ القلوب ، وأظهر حجَّةَ الذنوب (٤) ، كأنما وَسَمَه الجمالُ بنهايته ، ولحظَه الفلكُ بعنايته ، فصاغَه من لَيْلِه ونهاره ، وحَلاَّه بنجومه وأقماره ، ونقبه ببدائع آثاره ، ورَمَقَه بنواظر سعُودِه ، وجعله بالجمال أحدَ حدوده (٥) . قد

---

(١) عذر الغلام : نبت شعر عذاره . وفى ط : فقر فى محاسن الغلمان .

(٢) فى ط : من خمرة فه . (٣) الشكل . الدلال .

(٤) أظهر حجة الذنوب : يريد أن جماله حجة على أن المفتون به معذور لا إثم عليه .

(٥) فى ط : بالكمال أحد جنوده .

صَبغَ الحياءُ غلالَةَ وَجْهِه، ونُشِر لؤلؤُ العرق عن وَرْدِ خدّه. تكادُ الألحاظُ تسفك من خَدِّه دمَ الخجلِ . له طُرّة كالغَسَقِ ، على غُرَّةٍ كالفَلَقِ . جاءنا فى غلالة تنمُّ على مايستره ، وتجفو مع رِقّتها عما يظهره[(١)] . وجهٌ بماءِ الحُسْنِ مغسول، وطَرْف بمِرْود السّحْرِ مكحول . ثغر حُمِىَ حمايةَ الثغور ، وجُعِل ضرّة[(٢)] لقلائد النحور. السحْرُ فى ألحاظه ، والشهدُ فى ألفاظه . اختلس قامةَ الغُصْنِ ، وتوشّح بمطارفِ الحسن ، وحكى الروض غبَّ المُزْنِ . الأرضُ مشرِقةٌ بنورِ وجهه ، وليل السّرَارِ فى مثل شعْره . الجنةُ مجتناةٌ من قُرْبه ، وماءُ الجمالِ يترقرقُ فى خدّه ، ومحاسنُ الربيع بين سَحْرِه ونَحْرِه، والقمرُ فَضْلَةٌ من حُسْنِه. ماهو إلاّ خالٌ فى خدِّ الظّرف، وطِرَازٌ على علم الحُسْنِ ، ووَرْدَةٌ فى غُصْنِ الدهر ، ونَقْشٌ على خاتم الملك ، وشمسٌ فى فَلَكِ اللطف . هو قمرٌ فى التصوير ، شمسٌ فى التأثير . منظر يملأُ العيونَ ، ويملكُ النفوس، زَرافين أصداغه معاليق القلوبِ[(٣)] . كأنّ صُدْغَه قرط من المسك على عارِض البَدْرِ . وجهُه عرس، وصدغه مأْتم ، ووصله جنة ، وهجره جهنم. أصداغُه قد اتخذت شَكْلَ العقاربِ ، وظلمت ظُلْمَ الأقارب . إن كان عقرب صُدْغه تلسع ، فترياق رِيقه يَنْفَع . كأن شاربَه زِئْبِرُ الخزّ الأَخضرِ[(٤)] ، وعِذَارُه طراز المِسْك والعَنْبر [الأذفر][(٥)] ، على الوَرْدِ الأحمر . إذا تكلّم تكشَّفَ حِجَابُ الزمرّد والعقيق ، عن سِمْطِ الدرِّ الأنيق . قد هَمَّ أرقمُ الشَّعْر على شارِبه ، وكاد فم[(٦)] الحُسْن يقبّله. كأنَّ العِذَار ينقش فصَّ وَجْهِه ، ويحرق فِضَّة خدّه . طرَّزَ الجمالُ ديباجَ وجْهِه ، وأبانَ عِذَارُه العذرَ فى حُبّه . [لعب الربيعُ بخدّه فأنبت البنفسج فى وَرْده . لما احترقتْ فضةُ خدّه احترق سوادُ القلب من حبِّه][(٥)] .

كيف لا يخضرُّ شاربُه ومياهُ الحُسْنِ تسقيه

---

(١) فى ط : وتحنو مع رقتها على ما يظهره . (٢) فى ط : درة

(٣) الزرفين : حلقة للباب ، أوعام ، وقد زرفن صدغيه جعلهما كالزرفين .

(٤) الزئبر : ما يظهر من درز الثوب . (٥) من ا (٦) فى ا : وكادت يد الحسن .

ولهم فى نقيض ذلك فى ذمّ خروج اللحية

قد انتقب بالدَّيْجُورِ، بعدالنور[1] ، فدَوْلةُ حسْنِه قد أعرضَتْ أيامه، وانقرضَتْ دَوْلَتُه وأحكامُه . استحال خدُّه دُجا ، وزمرّد خَطّه سُبَجا[2]، وأخمدت نارُ حُسْنِه بعد الإيقاد، ولَبِس عارضُه ثوبَ الحِدَاد . ذَبُل وَرْدُ خدِّه، وتشوَّك زعفرانُ خطّه . فارقنا خَشْفا ، ووافانا جِلْفا[3]، وفارَقنا هلالا وغَزَالا ، وعاد وبالا ونَكالا . مالى أرى الآباطَ جائِشة[4]، والآنافَ مُعْشِبة، والعيون منوّرة، والأزرار مرعى،والأظفارَ حَمَى[5] ، واللحى لبودا ، والأسنان خُضْرًا وَسُودا .

من رسائل البديع ومقاماته

رسالة إلى بعض من عزل

وكتب إلى بديع الزمان بعضُ من عُزل عن ولاية حسنة يستمدُّ ودادَه، ويستميلُ فؤاده ، فأجابه بما نسخته[6] : وردَتْ رقعَتُك أطالَ اللهُ بقاءَك ، فأَعَرْتُها طرف التعزّز ، ومددت إليها يدَ التقزز ، وجمعت عليها ذَيلَ التحرُّز ، فلم تند على كَبدى ، ولم تحظَ بناظرِى ويَدِى ، ولقد خطبت من مَودّتى ما لم أجِدْك لها كفيًّا ، وطلبت من عِشْرتى مالم أرك لها رضيًّا ، وقلت : هذا الذى رفع عنَّا أجفانَ طَرْفِه ، وشال بشمرات أنفه ، وتاه بحُسْنِ قدِّه ، وزهاَ بوَرْد خَدِّه ، ولم يسْقِنا من نَوْئِه ، ولم نَسِرْ بضوئه؛ فالآنَ إذْ نسخ الدهرُ آيةَ حُسْنِه، وأقام مائل غُصْنِه، وفَلَّ[7] غَرْبَ عُجْبِه وكفَّ شأو زهْوه ، وانتصر لنا منه بشعرات قد كسفت هِلاله ، وأكسفَتْ بالَه ، ومسخَتْ جمالَه ، وغيّرتْ حالَه ، وكدّرَتْ شِرْعتَه ، ونكّرت طَلْعته ، جاء يستقى من جرفنا جَرفا ، ويغرف من طينتنا غَرْفا ، فمهلا يا أبا الفضل مهلا :

---

(١) الديجور : الظلمة . (٢) السبجةوالسبيجة : كساء أسود. وفى ط : وزمرذخده . وهذامن ا، وخط الغلام : نبت عذاره . (٣) الخشف ــ مثلثة : ولد الظبى . والجلف:الرجل الجافى (٤) فى ط : حاشية (٥) فىط : حما . (٦) الرسائل : ٤٧ . (٧) فى ط : وفثأ .

أَرغبْتَ فينا إذْ عَلَا ... كَ الشَّعْرُ فى خَدّ قَحِلْ

وخرجْتَ من حدِّ الظبا ... ءِ وصِرْتَ فى حدّ الإِبل

أنشأت تطلبُ[1] عِشْرتى ... عُدْ للمداوةِ يا خجل

أنسيت أيامك ؛ إذ تكلِّمُنا نَزْرا ، وتنظرنا شَزْرا ، وتجالسُ مَنْ حضر ، ونسرق إليك النظر ، ونهتزّ لكلامك ، ونهش لسلامك :

فَمَنْ لكَ بالعينِ التى كنتُ مرة ... إليك بها فى سالفِ الدَّهْرِ أَنْظُرُ

أيام كنت تمايل والأعضاء تتزايَل ، وتتغانج والأجسادُ تتفاَلج ، وتتفلّت والأكباد تتفتّت ، وتخطر وترفل ، والوَجْدُ بنا يَعْلُو ويسفل ، وتُدْبِر وتُقْبِل ، فتمنى وتخبل[2] ، [وتصد][3] وتُعْرِض ، فتضنى وتمرض :

وتبسم عن ألمى كأنَّ منورا ... تخلل حرّ الرمل دعص له ند

فأَقْصِرْ الآنَ فإنه سوقٌ كَسَد ، ومتاعٌ فَسد ، ودولة أعرضت ، وأيام انقضت :

وعهد نِفَاق مَضَى ... وسوق كسادٍ نزلْ

وخدّ[4] كأنْ لم يكُنْ ... وخَط كأن لم يزَلْ

ويوم صار أَمس ، وحسرة بقِيَتْ فى النفس ، وثغر غاضَ ماؤُه فلا يرشف ، وريق خدع فلا ينشف ، و تمَايُل لايعجب ، وتثنّ لايطرب ، [ووجه زال بهاؤه][5] ، ومُقْلة لا تجرح ألحاظها ، وشفَة لا تفتن ألفاظها ، فحتّام تدِلّ ، وإلامَ نحتملُ وعَلَام؟ وآن أن تَذْعِن الآن ، وقد بلغنى ماأنتَ مُتَعاطيه من تمويهٍ يجوز بعد العِشاء فى الغَسَق ، وتشبيه يفتضحُ عند ذوِى البصر والصدق ، من إفنائك لتلك الشعرات حفّا وحَصّا ، وإنحائك عليها نقصا وقصّا . وسيكفينا الدهرُ مؤونة الإنكار عليك ، بما يزفّ من بنات الشعر وأمهاته

---

(١) فى ط : الآن تطلب. (٢) فى ط : فتسبي وتخجل . (٣) من الرسائل ، ا .

(٤) فى ط : ووجد . (٥) من ا .

إليك ؛ فأما ما استأذنت فيه رأيى من الاختلافِ إلى مجلسى فما أقلَّ إليك نشاطى ، وأضيق عنك بساطى ، وأشنع قلقى منك ، وأشد استغنائى عن حضورك ، فإن حضرت فأنت داءٌ نرُوضُ عليه الحلم ، ونتعلم به الصبر ، ونتكلف فيه الاحتمال ، ونغضى منه الجفْنَ على قَذى ، ونَطْوِى منه الصدر على أذى ، ونجعله للقلوب تأنيبا ، وللعيون تأديبا . ومالك إلا أن تمتاض من الرغبة عنّا رغبةً فينا ، ومن ذلك التدلّل علينا تذلّلا لنا ، ومن ذلك التمالى تبَصْبصا ، ومن ذلك التغالى ترخّصا ، ومابالُ الدهر أعقبك من التزايد تنقّصا ، ومن التسحُّب على الإخوان تقمُّصا ، ولئن اعتَضْتَ من الذهاب رُجوعا ، لقد اعتضنا من النزاع نزُوعا ، فأنأ برَحْلك وجانبك ، ملقًى حَبْلك على غارِبك ، لا أُوثِر قُرْبك ، ولا أندَه سِرْبك ، والسلام .

من مقاماته المقامة الأسدية

ومن إنشاء بديع الزمان فى مقامات الإسكندرى ولعلّ ما فيها من الطول غير مملول . قال [(١)] : حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغُنِى من مقامات الإسكندرى ما يُصْغِى له النّفور ، ويَنْتَفِضُ له العصفور ، ويُرْوَى لى من شِعْرِه ما يَمْتَزِج بأجزاء الهواء رِقّةً ، ويَغْمُضُ عن أوهام الكَهَنَةِ دِقّة ، وأنا أسألُ اللهَ بقاءَه ، حتى أُرْزَقَ لقاءَه ، وأتعجّب من قعودِ هِمَّته بحالَتِه ، مع حُسْنِ آلتِه ، وقد ضربَ الدّهر شؤونه أَسدادا [(٢)] وهلمّ جرا . إلى أنِ اتفقَتْ لى حاجةٌ بحِمْص ، فشحَذْتُ إليها الحِرْصَ ، فى صُحْبَة أفرادٍ كنجوم اللّيلِ ، أَحْلاسٍ لظهورِ الخيلِ [(٣)] ، فأخذنا الطريقَ نَنْتَهِبُ مسافتَه ، ونستأصِلُ شأفتَه ، ولم نزَلْ نفرِى أسنمةَ النّجادِ [(٤)] بتلك الجيادِ ، حتى صِرْن كالعِصِىِّ ، ورَجَعْنَ كالقِسِىِّ ، وتاحَ لنا وادٍ فى سفْحِ جبلٍ ذى ألاءٍ وأثْلٍ [(٥)] ، كالعذارى يُسَرِّحْن الضفائرَ ، وينْشُرْن الغدائر ، فمالتِ الهاجرةُ بنا إليها ، فنزلنا نُغوِّر

(١) المقامات : ٣٢ . (٢) فى المقامات : ضرب الدهر شؤونه بأسداد دونه .

(٣) يقال : هم أحلاس الخيل أى ملازمو ركوبها . (٤) نفرى : نقطع ، والنجاد : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض . (٥) تاح : ظهر ، والألاء : شجر دائم الخضرة .

ونَفُور ، وربَطْنا الأفراسَ بالأَمْراس(١) ، ومِلْنا مع النُّعاس ، فما راعَنا إلّا صهيلُ الخيول ، ونظرتُ إلى فرَسى وقد أرْهَفَ أُذنيه ، وطمَحَ بعينيه ، يجُذُّ قُوَى الحَبْل بمشافرِه ، ويخُدُّ خَدَّ الأرضِ بحوافرِه ، ثم اضطربت الخيـلُ ، فأرسلت الأَبوال ، وقطَّعَتِ الحبالَ ، وصار كلٌّ منا إلى سلاحِه ، فإذا الأسدُ فى فَرْوَة الموتِ ، قد طلَع من غابِه ، منتفجا(٢) فى إهابه ، كاشِرًا عن أنيابه ، بطَرْفٍ قد مُلِئَ صلَفا ، وأنفٍ قد حُشِى أنَفا ، وصَدْرٍ لا يبرحُه القلب ، ولا يسكُنُه الرُّعْب ؛ فقلنا خَطْبٌ والله ملِمّ ، وحادِثٌ مهِمّ ، وتبادَرَنا إليه من سَرَعان(٣) الرُّفْقَة فتى :

أخضر الجِلْدَة من بَيْتِ العَرَبْ يَملأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ

بِقَلْبٍ ساقه قَدَر ، وسَيْفٍ كُلُّهُ أثْر(٤) ، فملَكَته سَوْرَةُ الأَسد ، فخانَتْه أرضُ قدمِه ، حتى سقط لِيَدِه وفمِه ، وتجاوزَ الأسَدُ مَصْرَعَه ، إلى مَنْ كان معه ، ودَعا الحَيْنُ أخاه ، إلى مثـل ما دَعاه ، فسار إليه ، وعَقل الرُّعْبُ يديه ، فأَخذ أَرْضَه(٥) ، وافترس الليْثُ صدرَه ، ولـكن شغلتُ بعمامتى فمه ، حتى حَقَنْتُ دَمه ، وقام الفتى فوَجَأَ بَطْنَه(٦) حتى هَلَك من خَوْفِه ، والأسد بالوَجْأَةِ فى جَوْفه(٧) ، ونهضْنا على أثْر الخَيْلِ ، فتألَّفنا منها ما ثبَت ، وتركْنا ما أفْلَتَ ، وعُدْنا إلى الرفيق لنجهّزَه :

فلما حثَوْنَا التربَ فوقَ رفيقِنا جَزِعْنَا ولـكِنْ أىُّ ساعةِ مَجْزَعِ

وعُدْنَا إلى الفَلاة ، فهبَطْنَا أرضَها ، وسِرْنا حتى إذا ضَمُرت المزادُ(٨) ، ونفِدَ الزادُ، أو كادَ يُدْرِكه النَّفَاد ، ولم نَمْلِك الذهابَ ولا الرّجوعَ ، وخِفْنَا القاتلَيْنِ الظمأَ والجوعَ ، عنَّ لنا فارسٌ فصَمَدْنَا صَمْدَه ، وقصَدْنا قَصْدَه ، ولما بلغْنَا نزَلَ عن

---

(١) الأمراس : الحبال . (٢) المنتفج : المتـكبر وفى ط : منتفخا .

(٣) سرعان الناس ــ محركة. أوائلهم المستبقون إلى الأمر ــ ويسكن .

(٤) الأثر بفتح فسكون : جوهر السيف . (٥) أخذ أرضه : كناية عن السقوط .

(٦) وجأ بطنه : شقه . (٧) يريد أن الأسد هلك من شق جوفه كما هلك الفتى من خوفه ، وفى ا : للوجأة . (٨) المزاد: جمع مزادة وهى القربة ، وفى ا : أضمرت .

حاذفرسِه[1] ينقُشُ[2] الأرضَ بشفتَيْه ، ويلقى الترابَ بيَدَيْه ، وعَمَدنِى من بين الجماعة ، فقبَّلَ رِكابى ، وتحرَّم بثيابى[3] ، ونظَرْتُ فإذا وَجْهٌ يبرُق بَرْقَ العارض المتهلِّل ، وفرس متى ترق العينُ فيه تسهَّل ، وعارِضٌ قد اخضَرّ ، وشاربٌ قد طرّ[4] ، وساعِدٌ ملآن ، وقضيب ريّان ، ونجار تركىّ ، وزىّ مَلَكِىّ ، فقلت : ما جاء بك؟ لا أبا لك ! فقال : أنا عبدُ بعضِ الملوك ، همَّ مِنْ قَتْلِى بهَمّ[5] ، فهِمْتُ على وجْهِى إلى حيثُ ترانى ؛ وشهِدَت شواهدُ حالِه ، على صِدْقِ مقالِه ، ثمّ قال: أنا اليوم عبدُك ، ومالى مالُك . فقلت : بُشْرَى لك وبك ، أدَّاك سيرُك إلى فِناء رَحْب ، وعيش رَطْب ، وهنأتنى الجماعة ، بحسب الاستطاعة ، وجعل ينظرُ فتقتلُنا ألحاظُه ، وينطِقُ فتفتِنُنا ألفاظُه ، والنفس تُنَاجينى فيه بالمحظور ، والشيطان من وراء الغرور ، فقال : ياسادة ، إنَّ فى سَفْح هذا الجبل عَيْناً ، وقد ركبتُم فلاةً عَوْراء[6] ، فخذُوا من هنالكَ الماءَ ، فلوَيْنا الأعِنَّة إلى حيث أشار ، وبلغناه وقد صَهرَت الهاجرةُ الأبدانَ[7] ، وركبت الجنادبُ العِيدانَ[8] ، فقال : ألا تَقِيلُون فى هذا الظّل الرَّحْبِ ، على هذا الماء العذب ؟ فقلنا : أنتَ وذاك . فنزل عن فرسِه ، ونحّى مِنطقته ، وحَلَّ قُرْطُقَته[9] ، فما استتَرَ عنّا إلا بغِلَالةٍ [تَنِمُّ] على بدَنِه ، فما شكَكْنا أنّه خاصَمَ الوِلْدَان ، ففارقَ الجِنَان ، وهرَب من رضْوَان ، وعمَد إلى السروج فحطَّها ، وإلى الأفراس فحشَها[10] ، وإلى الأمكنة ففرشَها ، وقد حارتِ البصائر فيه ، ووقعت الأبصارُ عليه ، وَوَدّ كل منا شبقاً ، وخنث اللفظ ملَقا . وقلت : يا فتى ، ما ألطفَك فى الخِدْمَة ! وأحسنَك فى الجملة ! فالويلُ لمن فارَقْتَه ، وطُوبَى لمن رافقْتَه ، فكيفَ نَشْكُرُ الله على النعمةِ بك! فقال : ما ستَرَوْنَه أكْثَر ، أتُعْجبكم خِفَّتى فى الخِدْمة ، فكيف لو رأيتُمُونى

---

(١) حاذ الفرس : ظهره، وفى المقامات : حر ، وفى ا : خال . (٢) فى ط: يفتش .
(٣) فى ط : بجنابى . (٤) طر الشارب : نبت . (٥) الهم : العزم .
(٦) يقال للبادية إذا فقدت ماءها : عوراء . (٧) الهاجرة : حر الشمس .
(٨) إنما تركب الجنادب العيدان إذا اشتد الحر . (٩) القرطق : نوع من الكساء .
(١٠) حش الفرس : ألقى له حشيشا ، وفى ط : فخلها .

فى الرُّفْقَة أُرِيكم من حِذْقى طُرَفا ، لتزدادُوا بِى شَغَفاً ، فقلنا : هاتِ ، فعمد إلَى قَوْس [أحدِ نا] (١) فأَوْتَرَه ، وفوَّق سَهْماً فرماه فى السماء ، وأتْبعَه بآخر فشقَّه فى الهواء ، وقال : سأُرِيكم نوعاً آخر ، ثم عمد إلى كِنَانَتى فأَخذَها ، وإلى فَرَسى فعَلَاه ، ورمى أَحدَنا بسَهْمٍ أثبته فى صَدْرِه ؛ وآخر طيّره من ظَهْرِه ، فقلت : ويحك ما تَصْنعُ ؟ قال : اسكت يالُكَع ، والله ليشُدَّنَّ كلّ منكم يَدَ رفيقِه ، أو لأُغِصّنّه بريقِه ، فلم نَدْرِ ما نصنَعُ ، وأَفراسُنا مربوطة ، وسُرُوجُنا محطوطةٌ ، وأسلِحتُنا بعيدة ، وهو راكبٌ ونحن رَجَّالة ، والقوسُ فى يده يرشُقُ بها الظهورَ ، ويمشُق (٢) بها البطونَ والصدورَ ، وحين رأينا منه الجِدّ ، أخَذْنا القِدَّ (٣) ، فشدّ بعضُنا بعضا ، وبقيت وَحْدى لا أجِدُ من يشدّنى ، فقال : اخرُجْ بإهابكِ ، عن ثيابك ، ثم نزل عن فرسه ، وجعل يصفَعُ الواحِدَ منّا بعد الآخر ، ويقول : أقمت قضيبك ، نخذ نصيبك ، [ونزع ثيابه] (١) وصار إلىَّ وعلىّ خفّان جديدان ، فقال : اخلعهما لا أُمَّ لك ، فقلت . هذا خفّ لبِسْتُه رَطْباً ، فليس يمكننى خلعه ، فقال : علىَّ نزعه ، ثم دنا لينزِعَ الخُفّ ، ومدَدْتُ يَدِى إلى سكّين فيه وهو مشغول ، فأثبتّه فى بطنه ، وأبنتُه من مَتْنِه . فما زاد على فَم فَغَرَه ، وأَلقَمَه حجَره ، وقُمْتُ إلى أصحابى فحللْتُ أيدِيَهم ، وتوزَّعنا سلَبَ المقتولَيْن ، وأدركنا الرفيق ، وقد جاد بنفسه ، وصار إلى رَمْسِه ، وصِرْنَا إلى الطريق فوردنا حِمْص بعد ليال ، فلما انتهينا إلى فُرْضَةٍ من سُوقِها رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبُنَيّة ، بِجراب وعُصَيَّة ، وهو يقول :

رَحِم اللهُ من حَشَا ... فى جِرَابى مَكَارِمَهْ
رَحِمَ اللهُ من رَنَى (٤) ... لسعيدٍ وفَاطِمَهْ
إنّهُ خادِمٌ لكُمْ ... وهْىَ لاشكَّ خَادِمَهْ

---

(١) من ا . (٢) المشق : سرعة فى الطعن والضرب ، وفى ط : يشق .

(٣) القد : السير من جلد غير مدبوغ يوثق به الأسرى . (٤) فى ط ، والمقامات : رنا .

قال عيسَى : فقلت : إنَّ هذا الرجل هو الإسْكَندرى الذى سَمِعْتُ به وسأَلْتُ عنه ، فإذا هو هو ، فدَلفتُ إليه ، فقلت له : أحكمك حكمك ، فقال : درهم ، فقلت :

لَكَ دِرهمٌ فى مِثْلِهِ ... مَادامَ يُسْعِدُنى النَّفَس

فاحْسبْ حِسَابكَ والتمسْ ... كيما تنال الملتمَسْ

لك درهم فى اثنين ، فى ثلاثة ، فى أربعة ، فى خَمْسة حتى بلغتُ العشرين ، ثم قلت : كم معك ؟ قال : عشرون رغيفاً ، فأمرتُ له بها ، وقلت : لا نصرة مع الخِذْلان ، ولا حِيلَة مع الحِرْمَانِ .

* * *

من غزل أبى فراس

وقال أبو فراس الحمدانى

سكرتُ من لَحْظِه لا مِنْ مُدَامتِهِ ... ومال بالنومِ عن عينى تَمَايُلُه

وما السُّلافُ دَهَتْنِى بل سَوالِفُهُ ... ولَا الشَّمولُ دهَتْنِى بل شَمائِلُه

أَلْوَى بصبرىَ أَصْداغٌ لُوِينَ لَهُ ... وغَالَ عَقْلِى[1] بما تَحْوِى غَلَائِلُه

من غزل ابن المعتز

وقال ابنُ المعتزّ ، وقد تقدَّم عنه فى هذه الألفاظ[2] :

ويوم فاختِىِّ[3] الدَّجن مُرْخٍ ... عَزَاليه[4] بهَطْلٍ وانهمال

أبَحْتُ[5] سروره وظللت فيه ... برَغْمِ العاذلات رَخِىَّ بَالِ

وساقٍ يجعلُ المنديل منهُ ... مكان حمائلِ السيفِ الطوالِ

غلالة خَدّه صبغَتْ بوَرْدٍ ... ونون الصُّدْغ مُعْجَمة بخَالِ

بدا والصبحُ تحت الليل بادٍ ... كطِرْفٍ أبلقٍ مرخى الجلال[6]

بكأس من زجاج فيه أسْدٌ ... فرائسهن ألبابُ الرجالِ

أقولُ وقد أخذت الكاس منهُ ... وقَتْكَ السوءَ ربَّاتُ الحجالِ

* * *

(١) فى ا : وغل صدرى . (٢) ديوانه : ٢ — ٧٥ . (٣) فى ط : فاحمى .

(٤) العزالى : جمع عزلاء وهى مصب الماء من الراوية ، وفى الديوان : تهانيه بطل وانهمال .

(٥) فى ط : اتحت ، وفى الديوان : ربحت . (٦) الطرف : الكريم من الخيل ، والجلال : جمع جل ، وهو مايلبسه الفرس .

من النقد

وقد أَحسنَ ما شاء فى قوله : * فرائسهن أَلْبابُ الرجالِ * وإن كان أصل المعنى لأبى نواس فى ذكر تصاوير الكاس :

قال الصولى : مَرَّ أبو نواس بالمدائن فعدل إلى سَابَاط[1] ، فقال بعضُ أصحابه : ندخل إيوان كسرى ؛ فرأينا آثاراً فى مكانٍ حسَن تدلُّ على اجتماع كان لقومٍ قبلنا ، فأقمنا خمسةَ أيام نشربُ هناك ، وسألنا أبا نواس صِفةَ الحالِ ، فقال[2] :

ودارِ نَدامَى عَطَّلُوها وأَدْلجُوا ... بها أثرٌ منهم جَدِيدٌ ودارِسُ

مَساحِبُ من جَرِّ الزِّقاق على الثَّرَى ... وأَضغاثُ رَيْحانٍ جنيٌّ ويَابِسُ

ولم أرَ منهم غيرَ ما شهِدَتْ بهِ ... بشرقى سَابَاطَ الديارُ البَسَابِسُ[3]

حبَسْتُ بها صَحْبِى فجمَّعتُ شَمْلَهم ... وإنى على أمثال تلك لَحابِسُ

أقمْنَا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويومٌ له يوم الترحُّلِ خَامِسُ

تُدَارُ علينا الراحُ فى عَسْجديّةٍ ... حَبَتْها بأنواع التصاويرِ فارسُ

قرارَتُها كِسْرَى وفى جنبَاتها ... مَهًى تَدَّريها بالقِسِىِّ الفوارسُ

فللرَّاحِ ما زُرَّتْ عليها جيوبُها ... وللماءِ ما دارت عليه القَلَانِسُ[4]

وقال على بن العباس النوبختى : قال لى البحترى : أتدرى من أين أخذ الحسن قوله : * ولم أرَ منهم غير ما شَهِدَتْ به * ... البيت . فقلت : لا . قال : من قول أبى خراش :

ولم أدر مَنْ ألقَى عليه رِداءهُ ... سوى أنه قد سُلَّ عن ماجِدٍ محْض

فقلت : المعنى مختلف . فقال : أما ترى حَذْوَ الكلامِ واحداً ، وإن اختلف المعنى !

قال الجاحظ : نظَرْنَا فى الشعر القديم والمحدَث فوجَدْنَا المعانى تُقْلَب ويؤخذ بعضُها من بعض ، غير قول عنْتَرة فى الأوائل[5] :

(١) ساباط : موضع بالمدائن (٢) ديوانه : ٢٣٢ . (٣) البسابس : القفار .
(٤) فى ط : القوانس . (٥) ديوانه: ١٢٣ .

وخلا الذبابُ بها يغنّى وحْدَه غَرِدًا كفِعْلِ الشاربِ المترنّمِ
هَزِجا يَحُكُّ ذراعَه بذراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ على الزنادِ الأَجْذَمِ

وقول أبى نواس فى المحدثين :

قرارتُها كِسرى وفى جنَباتها مَهًى تَدَّريها بالقسىّ الفوارسُ
فللرَّاح ما زُرَّتْ عليه جيوبُها وللماء ما دارَتْ عليه القلانِسُ[1]

أخذه أبو العباس الناشئ فقال وولَّد معنًى زائداً :

ومُدامَةٍ لا يبتغى مِنْ رَبِّهِ أحدٌ حَباه بها لَدَيْهِ مَزِيدا
فى كأسها صُوَر تُظَنّ لحُسْنِها عُربا برزْنَ من الخيام وغِيدَا
وإذا المزاج أثارها فتقسَّمت ذهباً ودُرّا تَوْأَماً وفريدا
فكأنهن لبسْنَ ذاكَ مَجَاسِدا وجعلْنَ ذا لِنُحُورِهنّ عقُودا

وأبياتُ أبى خراش[2] ، وكان خراش وعروة[3] غزَوَا ثمالة فأسَروهُما ، وأخذوها[4] ، وهمّوا بقتلهما ، فنهاهم بنورزام وأَبى بنو هلال[5] إلا قَتْلَهما ، وأقبل رجل من بنى رزام فألْقَى على خراش رداءَه ، وشُغِل القومُ بقَتْل عُرْوة ، وقال الرجل لخراش : انجه ، فنجا إلى أبيه[6] ، فأَخبره الخبر ، ولا تعرفُ العرب رجلا مدح مَنْ لا يعرفه غيرُه :

حمِدْتُ إلهى بعد عُرْوة إذ نَجا خِرَاشٌ وبعضُ الشرِ أهونُ من بعض
فوالله لا أَنْسَى قتيلاً رُزِئْتُه بجانب قُوسَى مامشيتُ على الأرض[7]
بلى إنّها تَعْفُو الكُلومُ وإنما نُوكَّل بالأدنى وإنْ جَلَّ ما يَمضِى
ولم أدْرِ مَنْ أَلْقَى عليه رِدَاءَهُ سوى أنه قد سُلَّ عن ماجِدٍ مَحْضِ

---

(١) فى ط: القوانس. (٢) اللآلئ ٦٠١ ، شعراء الهذليين ٢ـ١٥٧ ، خزانة الأدب ٢ـ٤٥٨
(٣) فى ا : وعمه . (٤) فى ا : فنذر بهما فأخذوهما . (٥) فى اللآلئ : بنو بلال .
(٦) فى ط : وقال الرجل لأبى خراش : انجه فنجا إلى ابنه . (٧) قوسى بفتح القاف وضمها : موضع ببلاد السراة من الحجاز .

ولم يك مثلوجَ الفؤادِ مهبّجاً أضاع الشبابَ في الرَّبيلةِ والخَفْضِ (١)
ولـكنه قد لوَّحَتْه مَخَامِص (٢) على أنه ذو مِرّة صادِقُ النَّهْضِ
كأنهمُ يشَّبَّثون بطائر خفيفِ المُشَاس عَظْمُهُ غيرُ ذى نَحْضِ (٣)
يُبادِر فَوْتَ الليلِ فهو مُهَابِذٌ (٤) يَحُثُّ الجناحَ بالتبسّطِ والقَبْضِ

الربيلة: الخَفْض والدعة ، والمهابذ : المجتهد فى العَدْو والطيران .

وقال أبو خراش يرثى أخاه عروة (٥) :

تقولُ أَراه بعد عُرْوَةَ لاهياً وذلك رُزْءٌ لو علمْتِ جليلُ
فلا تحسَبى أَنى تناسيتُ عَهْدَهُ ولـكنَّ صَبْرِى يا أميمَ جَمِيلُ
ألم تَعْلَمى أَنْ قد تَفَرَّقَ قَبْلَنا خليلاَ صفاء مالكٌ وعَقِيلُ
وأَنى إذا ما الصبحُ أنسيتُ (٦) ضوءه يعاوِدُنى قِطْعٌ (٧) علىَّ ثقيلُ
[أَبى الصبرَ أَنى لا أَزالُ يهيجنى مبيتٌ لنا فيما مَضَى ومَقِيلُ] (٨)

مالك وعقيل اللذان ذكرهما نديما جذيمة الأَبرش، وكانا أَتياه بابْنِ أخته عمرو، وكان قد استهوَتْه الجنّ ، فمنّاهما فتمنّيا مُنادمتَه ، وهما اللذان عنى متمّم بن نويرة فى مرثية أخيه مالك :

وكنّا كنَدْمَانَى جذيمةَ حِقبةً من الدهرِ حتى قيل لن يتصدَّعا
فلما تفرّقْنَا كأنى ومالـكا لطولِ اجتماع لم نَبِتْ ليلةً معا

وقول عَنْتَرَة فى وَصْفِ الذباب أَوْحَدفرد، ويتيم فَذّ ، وقد تعلّق ابن الرومى بذيله وزاد معنى آخر فى قوله (٩) :

(١) المهبج : المثقل . الربيلة : كثرة اللحم وتمامه . أى أضاعه فى الخفض والدعة .
(٢) فى أشعار الهذليين : نازعته مخامص . أى جاذبه جوع . (٣) النحض : اللحم وأخذ اللحم عن العظم . (٤) فى ا : قرب الليل. وفى اللسان مادة هبذ : يبادر جنح الليل
(٥) أشعار الهذليين ٢ — ١١٦ . (٦) فى أشعار الهذليين : آنست .
(٧) قطع من الليل : بقية . (٨) ليس فى ا . (٩) ديوان المعانى : ١ — ٣٦١ ، اللآلئ : ٤٨٦ ، ديوانه : ٢٩٩ .

إذا رنقت شمسُ الأَصيلِ ونفَّضَتْ ... على الأفق الغربىّ وَرْساً مُزَعْزَعا[1]

ولاحظتِ النُّوارَ وهى مريضةٌ ... وقد وضعَتْ خَداًّ على الأرضِ أَضْرَعا

كما لاحظت عُوَّادَها عَيْنُ مُدْنَفٍ ... توجَّع من أَوصابِه ما توجَّعَا

وبين إغضاء[2] الفِرَاق عليهما ... كأنهما خِلاَّ صَفاء تودّعا

وقد ضربَتْ فى خُضْرَةِ الرَّوْضِ صُفْرةٌ ... من الشمس فاخضرَّ اخضراراً مُشَعْشَعَا

وظلَّتْ عيونُ النَّورِ تخضلُ بالندى ... كما اغرورَقتْ عَيْنُ الشجِىِّ لتَدْمَعَا

وأَذْكى نسيمَ الرَّوْضِ ريعانُ ظلِّه ... وغَنَّى مُغنِّى الطيرِ فيه مُرَجِّعَا

وغرد ربعى الذبابِ خِلالَهُ ... كما حَثْحَثَ النَّشْوانُ صَنْجاً مشرَّعاً[3]

فكانت أرانين الذبابِ هنا كمُ ... على شدَواتِ الطيرِ ضَرْباً موقّعا

وذكر أبو نُواس معنَى قولهِ فى تصاوير الكئوس فى مواضع من شعره فمن ذلك[4] :

بنَيْنَا على كِسْرَى سماءَ مُدَامَةٍ ... مكلَّلةً حافاتُها بنجُومِ

فلو رُدَّ فى كِسْرَى بن ساسانَ رُوحُهُ ... إذاً لاَ صْطَفانى دونَ كلِّ نَديمِ

[الدمن والأطلال]

وأول هذا الشعر[3] :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسيم ... على طولِ ما أقْوَت وحُسْنِ رسُوم[4]

تجافَى البِلَى عنهنَّ حتى كأنما ... لَبِسْنَ على الإقْوَاء ثوبَ نَعيمِ

وهذا معنًى مليح وإن أخذه من قول أعرابى :

شطَّتْ بهم عنك نيةٌ قذف[5] ... غادرت الشعْبَ غيرَ مُلْتَئِمِ

واستودَعَتْ سِرَّهَا الديارَ فما ... تزدادُ طِيباً إلاّ على القِدَمِ

---

(١) الورس : نبت أصفر يصبغ به . (٢) فى ا : أعضاء . (٣) فى ط : كما حثت النشوان صهباء مترعا، وهذامن ا . (٤) ديوانه : ٢٩٨ .

(٥) أقوت : أقفرت . (٦) فى ط : عنك دمنة قدمت .

وهذا ضِدّ قول محمد بن وهيب :

طَلَلاَنِ طالَ عليهما الأَمد (١) دَرَسا فلا عَلَمٌ ولا قَصَدُ (٢)
لبِسا البِلَى فكأنما وَجَدَا بعد الأَحِبّة مثلَ ما وجَدُوا (٣)

وقال الأَخطل :

لأسماءَ مُحتَلٌّ بناظرةِ البِشر قَديمٌ ولمَّا يعفُه سالِفُ الدَّهْرِ
يكادُ من العِرْفَانِ يَضْحَك رَسْمُهُ وكم من ليالٍ للديار ومن شَهْرِ

هذا أيضاً كقول أبى صخر الهذلى :

للَيْلَى بذاتِ الجَيْش دارٌ عرَفْتُها وأخرى بذاتِ البِين آياتُها سَطْرُ
كأنهما مالآن لم يتغيّرا وقد مرَّ للدارينِ من بَعْدِنا عَصْرُ

وقد قال مزاحم العقيلى (٤) :

تراها على طولِ القوَاء جَدِيدةً وعَهْدُ المغانِى بالحلولِ قَدِيمُ

وقرأ الزبير بن بكار أَخبار أَبى السائب [المخزومى] فلما بلغ إلى قول مالك بن أسماء الفزارى :

بكتِ الديارُ لفقْدِ ساكنها أفعِند قلبى أَبْتَغِى الصَّبْرَا

هذا البيت نظير قول ابن وهيب :

بيناهُمُ سكنٌ بجيرَتِهِمْ ذكروا الفِراقَ فأصبحوا سَفْرا
فظللت ذا ولَهٍ يعاتِبُنى مَنْ لا يرَى أَمْرِى له أَمْرَا

وإن أبا السائب قال عند سماع البيت الأوسط : ما أسرع هذا ! أَما اهتدَوْا ! أما قدّموا ركابا ! أما ودَّعُوا صديقا ! فقال الزبير : رحم الله أبا السائب ! فكيف لو

(١) فى ا : الأبد (٢) القصد : العوسج ، وفى ا : ولانقد . (٣) فى ط : مثل ماأجد .
(٤) فى ط : وقال ابن أحمر العقيلى .

سمع قولَ العباس بن الأحنف [1] :

سألونا عن حالِنا كيف أنتم فقَرنَّا وَدَاعَنا بالسؤالِ
ما أَنَخْنَا حتى ارتَحَلْنَا فما فرّ قْنَ بين النزول والإرتحال

هكذا رواها الزبير بن بكار لمالك بن أسماء، ورواها غيره لأيوب بن شبيب [2] الباهلى.

ومن ألفاظ أهل العصر فى صفة الديار الخالية

دارٌ لبِسَت البِلى وتعطَّلت من الحُلَى . دار قد صارت من أهلها خالية ، بعد ما كانَتْ بِهِمْ حالِية . دار قد أَنفَد البينُ سكَّانَها ، وأقعد حيطانَها، شاهدُ اليأسِ منها ينطِقُ ، وحَبْلُ الرجاءِ فيها يقصر ؛ كأنَّ عُمْرانها يُطْوى وخرابَها يُنْشر ، أركانُها قيام وقعود ، وحيطانها ركَّعٌ وسجود .

من النقد

يشبه الأول من قول مالك بن أسماء قول مزاحم العقيلى :

بكَتْ دارُهم مِنْ فَقْدِهم فتهلَّلَت دموعى فأىُّ الجازِعَيْنِ أَلُومُ
أَمستعبرٌ يَبْكِى على الهون [3] والبِلَى أَمَ اخر يَبْكِى شَجْوَه فيَهِيمُ

أبو الطيب المتنبى [4] :

لَكِ يا منازِلُ فى القلوبِ منازِلُ أَقْفَرْتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أَواهِلُ
يَعْلَمْنَ ذاكِ وما علمتِ وإنما أولاَكُما يبكى [5] عليه العاقِلُ

وقال على بن جَبَلة ، فى معنى قول العباس بن الأحنف :

زائرٌ نَمَّ عليه حسنهُ كيف يُخْفِى الليلُ بَدْراً طلَعا
بأبى مَنْ زارَنى مكتتما خائفاً مِنْ كلِّ أَمرٍ جَزِعا
رَصَد الغَفْلَةَ حتى أَمْكَنَتْ ورَعى الحارسَ [6] حتى هجَعا

---

(١) ليس فى ديوانه المطبوع بأيدينا . (٢) فى ط : شعيب .
(٣) فى ط : اللهو . (٤) ديوانه : ٣ـ ٢٤٩ . (٥) فى الديوان : يبكى .
(٦) فى ط : الساهر .

رَكِبَ الأهوالَ فى زَوْرَتِه ثمَّ ما سلَّم حتى ودَّعا

وقال الحسين بن الضحاك :

[بأَبى زورٌ تلفت له فتنفّستُ عليه الصعَدا
بينما أضحكُ مسرورا به إذ تقطّعتُ عليه كمدَا

أبو الطيب المتنبى [(١)] :

بأَبِى مَنْ وددْتُه فافترَقْنَا وقضَى اللهُ بعد ذاك اجتماعا
فافترَقْنَا حَوْلا فلما اجتمَعْنا كانَ تسليمُه علىَّ الوداعا

وقال أبو الحسن جحظة : قال لى خالد الكاتب : دخلتُ يوماً بعض الدِّيارات فإذا أَنا بشابٍّ موثَق فى صِفَاد [(٢)] حسنِ الوجه ؛ فسلّمتُ عليه فردَّ علىّ وقال : مَنْ أَنت ؟ قلت: خالد بن يزيد. فقال : صاحب المقطعات الرقيقة ؟ قلت : نعم ! فقال : إنْ رأيت أَنْ تفرِّجَ عنى ببعض ما تنشدنى من شعرك فافعَل ، فأَنشدته :

ترشَّفْت من شفَتَيْها عقاراً وقبَّلْتُ من خَدِّها جُلنّارا
وعانَقْتُ منهـا كثيباً مهيلا وغُصْناً رَطِيباً وبدراً أَنارا
وأَبصرْتُ من نُورها فى الظلام لـكلِّ مكانٍ بليـلٍ نهارا

فقال : أحسنت ! لا يفضُض اللهُ فَاكَ ، ثم قال : أَجِزْ لى هذين البيتين [(٣)] :

ربَّ ليـلٍ أمدَّ من نَفَسِ العَا شِق طُولًا قطعْتُه بانتحابِ
وحديثٍ ألذّ من نَظَرِ الو امق بدَّلْتُه بسُوء العتابِ

فوالله لقد أَعملت فـكرى فما قدرت أنأجيزهما . [ويمكن أن يجازا بهذا البيت :

ووصال أقلّ مِنْ لَمْحة البَا رِق عُوِّضْتُ عنه طولَ اجتنابِ] [(٤)]

---

(١) منا . (٢) الصفاد : حبل يوثق به أوغل، وفى ط:أصفاد .
(٣) اللآلئ : ٩٣٨ . (٤) ليس فى ا .

[طول الليل]

وقال ابنُ الرومى فى طول الليل[(١)] :

رُبَّ ليلٍ كأنه الدهرُ طولاً ... قد تناهَى فليس فيه مَزِيدُ
ذى نجومٍ كأنهنّ نجوم الـ ... شَّيْبِ ليسَتْ تغيبُ لكن تَزِيدُ

وهذا من أجود ما جاء فى هذا المعنى . وقد قال بشّار :

لخدَّيْك مِن كفَّيْكِ فى كلّ ليلةٍ ... إلى أن ترى وَجْهَ الصباح وِسَادُ
تبيتُ تُراعى الليلَ ترجو نَفَادَهُ ... وليس لليلِ العاشقين نفادُ

وقال[(٢)] :

خليلىّ مابالُ الدُّجَى لا تزحزحُ ... وما بالُ ضوءِ الصبح لا يتوضَّحُ
أضلَّ النهارُ المستنيرُ سبيلَهُ ... أم الدهر ليلٌ كلّه ليس يَبْرَح
كأنَّ الدجى زادَتْ ومازادت الدُّجَى ... ولكِنْ أطالَ الليلَ همٌّ مبرِّحُ

وقال [أيضا][(٣)] :

طال هذا الليلُ بل طال السّهر ... ولقد أعرفُ لَيْلِى بالقِصَرْ
لم يطُلْ حتى جفانى شادِنٌ ... نَاعِمُ الأطراف فَتَّانُ النظَرْ
لىَ فى ليلى[(٤)] منه لوعةٌ ... ملكَتْ قلبى وسَمْعِى والبصَرْ
فكأن الهمّ[(٥)] شخصٌ ماثِلٌ ... كلما أبصره النومُ نَفَرْ

وقال أيضاً :

كأنَّ فؤاده كرةٌ تنزّى[(٦)] ... حذارَ البَيْن إن نفع الحذارُ
يروّعه السِّرارُ بكلِّ شىءٍ ... مخافةَ أن يكونَ به السِّرارُ

---

(١) ليس فى ديوانه المطبوع.   (٢) ديوان المعانى ١ــ ٣٥٠، اللآلىء: ٣٠٩ .
(٣) ديوان المعانى ١ــ ٣٥٠ والزيادة من ا . (٤) فى ط : قلبي .   (٥) فى ا : البحر .
(٦) تنزى : تثب ، وفى ط : ترامى .

[كأن جفونه سُمِلَتْ بشوكٍ فليس لنومه فيها قَرارُ][١]
أقول وليلتى تزدادُ طولًا أما لِلَّيـــلِ بعدهمُ نهارُ
جفَتْ عينى عن التغميض حتى كأنَّ جفونَها فيهـا قِصارُ

من النقد

قيل لبشار : من أين سرقت قولك : * يروِّعه السرارُ بكلِّ شىء *
فقال : من قول أشعب الطمع ، وقد قيل له : ما بلغ من طَمَعِك ؟ قال : ما رأيتُ اثنين يتسارّان إلا ظننتهما يُرِيدَان أن يأمرا لى بشىء . وأخذه أبو نواس فقال[٢] :

لا تبيحنّ حُرمة الـكتمانِ رَاحةُ المستهامِ فى الإعلانِ[٣]
قد تستَّرْتُ بالسكوتِ وبالإط راق جهدى فنمَّتِ العينانِ
تركَتْنى الوُشَاة نصْبَ المشيريـ ـن وأُحدوثةً بكلِّ مكانِ
ما نرى خالِيَيْنِ فى الناسِ إلّا قُلْتُ ما يَخْلُوان إلّا لِشانى

ومثل قول بشار : * جفَتْ عَيْنى عن التغميض * ... البيت ، قول الآخر[٤] :

كأنَّ المحبَّ بطول السُّهادِ قصيرُ الجفونِ ولم تَقْصُرِ

وقد تناول هذا المعنى العتابى [فأفسده وقال][٥] :

فى مآقىَّ انقباضٌ عن جفونهما وفى الجفونِ عن الآماقِ تقْصيرُ

وقال المتنبى[٦] :

رجع إلى طول الليل

أعيدوا صَباحى فهو عندالـكواكبِ وردُّوا رُقادى فهو لَحْظُ الحبائبِ
كأنَّ[٧] نهارى ليـلةٌ مدلهمَّـةٌ على مُقْلَةٍ من فَقْدِكم فى غياهبِ
بعيـدةُ ما بَيْنَ الجفونِ كأنمـا عقدتُم أعالِى كلّ هُدْبٍ بحاجبِ

وقال الشعبى : تشاجر الوليدُ بن عبـد الملك ومسلمة أخوه فى شعر امرئ القيس والنابغة فى طول الليـل أيهما أشعر ؟ فقال الوليد : النابغةُ أشعر ، وقال مسلمة :

---

(١) من ا . (٢) المختار من شعر بشار : ٩ . (٣) فى ا : الـكتمان .
(٤) فى المختار ـ ٢٣ : أن البيت لجميل . (٥) المختار من شعر بشار : ٢٣ ، والزيادة من ا . (٦) ديوانه : ١ ـ ٩٥ . (٧) فى ا : فإن.

بل امرؤ القيس ، فرضيا بالشعبى فأحضراه فأنشده الوليد[١] :

كِلينى لهمٍّ يا أُميمة ناصِبِ وليلٍ أُقاسِيه بطىء الـكواكبِ
تطاول حتى قلتُ ليس بمنْقَضٍ وليس الذى يَرْعَى النجومَ بآيبِ
وصَدْرٍ أراحَ الليل عازِبَ همِّهِ تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانب

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس[٢] :

وليلٍ كموْجِ البَحْرِ أرْخَى سدُولَهُ علىَّ بأنواع الهمومِ ليَبْتَلى
فقلت له لمّا تمطّى بجَوْزه وأردفَ أعجازاً وناء بكَلْـكَلِ
ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلى بصُبحٍ وما الإصباح منك بأَمْثل
فيالك من ليـلٍ كأن نجومهُ بكل مُغار الفتل شُدَّتْ بيَذْبُلِ

فطرب الوليد طرباً . فقال الشعبى : بانت القضيّة . معنى قول النابغة * وصدر أراح الليل عازِب همّه * أنه جعل صَدْرَه مأوى للهموم ، وجعـل الهموم كالنّعم السارحة[٣] الغادية ، تسرحُ نهاراً ثم تأْتى إلى مكانها ليلا . وهو أول من استثار هذا المعنى، ووصف أنَّالهمومَ مترادفةٌ بالليل لتقييد الألحاظ عما هى مطلقة فيه بالنهار، واشتغالها بتصرُّف اللحظ عن استعمال الفكر ، وامرؤ القيس كرِه أن يقول : إنالهمَّ يخفُّ عليه فى وقت من الأوقات فقال : وما الإصباح منك بأمثل .

وقال الطرماح بن حكيم الطائى[٤] :

ألا أيها الليل الذى طال أصبِح بيومٍ وما الإصباح فيك بأرْوَحِ
على أن للعينين فى الصُّبح رَاحةً لطرحهما طَرْفَيهما كلَّ مَطرَح

فنقل لفظ امرئ القيس ومعناه ، وزاد فيه زيادةً اغتفر له معها فُحْش السرقَةِ ؛ وإنما تنبّه عليه من قول النابغة إلا أَنّ النابغة لوَّح وهذا صرّح .

---

(١) ديوان المعانى: ١ــ٣٤٦ . (٢) ديوان المعانى: ١ــ٣٤٥ .
(٣) فى ا : الشاردة . (٤) اللآلىء : ٢٢٠ ، ديوان المعانى: ١ــ٢٤٦ .

وقال ابن بسام[1] :

لا أظلمُ الليلَ ولا أدّعِى أنّ نجومَ الليلِ ليسَتْ تَغُورْ
لَيْلِى كما شاءَتْ فإنْ لم تَزُر طالَ وإن زارت فَلَيْلِى قصيرْ

وإنما أغار ابنُ بسام على قولِ على بن الخليل فلم يغير إلا القافية[2] :

لا أَظلمُ الليلَ ولا أَدّعى أنّ نجومَ الليل ليست تزولْ
ليلى كما شاءَت قصيرٌ إذا جادَتْ وإن ضنَّتْ فلَيْلِى طَويلْ

وهذه السرقةُ كما قال البديعُ فى التنبيه على أبى بكر الخوارزمى فى بيت أخذ روّيه وبعض لفظه : «وإن كانت قضية القَطْعِ تجب فى الربع ، فما أشد شفقتى على جوارِحه [أَجمع][3] ؛ ولعمرى إنّ هذه ليسَتْ سرقة ، وإنما هى مكابرة محضة ، وأحسب أنّ قائله لو سمع هذا لقال : هذه بضاعَتُنا رُدَّت إلينا ، فحسبت أن ربيعة بن مكدم وعُتَيبة[4] بن الحرث بن شهاب كانا لا يستحلاَّن من البيت مااستحلّه ، فإنهما كانا يأخذان جُلّه ، وهذا الفاضل قد أخذ كله . وقد أخذ على بن الخليل من قول الوليد بن يزيد ابن عبد الملك بن مروان[5] :

لا أَسأَلُ اللهَ تغييراً لما صنعَتْ نامَتْ وأن أسهرَتْ عينىّ عيناها
فالليلُ أطولُ شىء حين أفقدُها والليلُ أقصرُ شىء حين ألقاها

وابن بسام فى هذا [الشعر][3] كما قال الشاعر :

وفتى يقول الشعر إلا أنهُ فى كل حال يَسْرِقُ المسروقا

ألفاظ لأهل العصر فى طول الليل والسهر

وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة من غصص الصَّدْرِ ، ونِقَمِ الدَّهْرِ . ليلةُ هُمومٍ وغموم ، كما شاء الحَسُود ،

(١) ديوان المعانى ١ـ٣٤٨ ، المختار : ٢٠ ، اللآلىء ٣١١ .
(٢) المختار من شعر بشار : ٢١ . (٣) من ا . (٤) فى ط : عيينة .
(٥) المختار : ٢١ ، اللآلىء ٣١٢ .

وساءَ الوَدُود . ليلة قُصَّ جناحُها ، وضَلَّ صباحُها . ليل ثابتُ الأَطْناب ، طامى الغوارب ، طَامح الأمواج [1] ، وافى الذّوائب . ليال ليست لها أَسْحَار ، وظلمات لا تتخللها أنوار . بات بليلة نابغيّة ، يُرَاد قولُه :

فبت كأنى ساوَرَتـنِى ضئيلةٌ   من الرُّقْش ِ فى أَنيابها السُّمُّ نَاقِعُ
[يسَهّدُ من ليل التمام سليمُها   لِحَلْى النساءِ فى يديه قعاقعُ [2]]

بات فى الصيف بليلة شتوية . سامَرَتْه الهموم ، وعانَقَتْه الغموم ، واكتحَلَ السهاد ، وافترش القتَاد ، فاكتحل بطول السهَرِ ، وتململ على فراش الفِكَر . قد أقِضَّ مِهادُه ، وقلق وسادُه . هموم تفرِّقُ بين الجَنْبِ والمهاد ، وتجْمَعُ بين العين والسُّهاد . طَرْف برَعْىِ النجوم مطروف ، وفراش بشعار الهمِّ محفوف . كأنه على النجوم رقيب ، وللظلام نَقِيب .

ولهم فيما يتصل بضدّ ذلك من ذكر [إقبال] [2] الليل وانتشار الظلمة وطلوع الكواكب

أَقبلَتْ عساكِرُ الليل ، وخفقَتْ راياتُ الظلام . وقد أرخى الليلُ علينا سُدولَه ، وسحب الظلامُ فينا ذيولَه . توقَّد الشفقُ فى ثوب الغسَقِ . أقبلت وفودُ النجوم [وجاءتْ مواكب الكواكب . تفتّحت أزاهير النجوم] [2] ، وتوردّت حدائقُ الجو ، وأَذْكَى الفلكُ مصابيحَه . قد طفت النجوم فى بَحْرِ الدُّجَى ، ولبس الظلامُ جلبابا من القار . ليلة كغراب الشباب ، وحَدَقِ الحِسَان ، وذوائب العذارى . ليلة كأنها فى لباسِ بنى العباس [3] . ليلة كأنها فى لباس الثكالى ، وكأنها من الغبش فى مواكب الحبش . ليلة قد حلك إِهابها فكأنّ البحر يهابُها .

---

(١) فى ط : بطىء الغوارب طاغى ...   (٢) من ا .
(٣) كان السواد شعار بنى العباس .

ولهم فى ذكر النوم والنعاس

شرِبَ كَأسَ النعاس ، وانتشى من خَمْر الكَرى ، قد عَسْكر النُّعَاس بطَرْفه، وخيّم بين عينيه وجَفْنِه . غرق فى أُجَّةِ الكَرى ، وتمايل فى سَكْرَةَ النوم . قد كحل الليلُ الورَى بالرقاد ، وشامت الأعين أجفانها فى الأغماد .

وفى انتصاف الليل وتناهيه وانتشار النور وأُفول النجوم

قد اكْتمَل الظلامُ . قد انتصفنا عُمْرَ الليلِ ، واستغرقْنا شبابَه . قد شاب رأسُ الليل ، كاد يتمّ النسيمُ بالسَّحَرِ . قد انكشف غطاءُ الليلِ . ستَر الدّجى هرم الليل، وشَمِطَتْ ذَوَائِبُه ، وتقوّسَ ظهرُه ، وتهدَّم عُمْره . قُوّضت خيامُ الليل ، وخلع الأُفُق ثوبَ الدُّجى. أَعرض الظلامُ وتولَّى، [وتَدلَّى][(١)] عنقودُ الثريا . طُرِّز قميصُ الليل بغرَّة الصبح، وباح الصبح بِسرِّهِ . خلع الليلُ ثيابَه، وحدر الصبحُ نِقَابَه. لاحت تباشيرُ الصبحِ ، وافترَّ الفَجْرُ عن نواجذه، وضرب النورُ فى الدُّجى بعموده. بَثَّ الصبح طَلائِعه . تبرقَعَ الليلُ بغُرَّةِ الصبح . أَطار بَازِى الصبح غرابَ الليلِ ، وعزلت نوافج الليل بجاماتِ الكافور ، وانهزم جُنْدُ الظلام عن عَسْكَر النور . خلعْنا خلعة الظّلامِ ، ولبسنا رداءَ الصباح ، وملأ الآذان بَرْقُ الصباح ، وسطع الضوءُ ، وطلع النور ، وأشرقت الدنيا ، وأضاءت الآفاق . مالت الجَوْزاءُ للغروب ، وولّتْ مواكبُ الكواكب ، وتناثرت عقودُ النجوم ، وفرّت أسرابُ النجوم من حدَقِ الأنام ، وَهَى نِطاقُ الجوزاء ، وانطفأ قنديلُ الثريا . قال بعضُ الأعراب : خرجنا فى ليلة حِنْدِس قد أَلقَتْ على الأرض أَكارِعَها ، فمحَتْ صورة الأبدان ، فما كنّا نتعارف إلا بالآذان .

قال ابن محكان السعدى :

وليلٍ يقول الناسُ فى ظلماته سواءٌ صحِيحات العيونِ وعُورُها

---

(١) من ا .

كأن لنا منه بيوتاً حصينةً … مُسوحا أعاليها وساجاً ستورها [١]

وهذا بارع جدّا . أراد أنَّ أعلاه أشدُّ ظلاما من جوانبه .

وقال أعرابى فى صفته : خرجتُ حين انحدرَت النجومُ ، وشالَتْ أرْجُلُها ، فما زِلْتُ أَصْدَع الليلَ حتى انصدعَ الفجر .

بديع الشعر فى صفة الليل

ومن بديع الشعر فى صفةِ الليل قول الأعرابى :

والليلُ يَطْرُدُه النهارُ ولا ترى … كالليلِ يطردُهُ النهارُ طَرِيدا

فتراه مثلَ البيتِ مَالَ رِوَاقُهُ … هتك المقوّضُ سِتْرَهُ الممدودَا

ومن البديع :

على حين أثنى القومُ خيراً عَلَى السُّرَى … وطارَتْ بأُخرى الليلِ أجنحةُ الفَجْرِ

آخر :

وليل ذى غَيَاطِلَ مُدْلَهِمٍّ … رميتُ بنَجْمِه غرضَ الأُفولِ

يردُّ الطرف منقبضاً كَلِيلا … ويعلأُ هَوْلُه صَدْرَ الدَّلِيلِ

ابن المعتز [٢] :

هامَتْ ركائِبُنا إليك بنا … بظليل أَهْلِ النارِ والمنح [٣]

فكأنّ أيديهن دائبةً … يفحَصْنَ [٤] ليلتهنّ عن صُبحِ

وقال كشاجم :

سَقْياً لليلٍ قصرتُ مُدّتهُ … بِبدرِ مَرَّان مَرَّ مشكورا

وبات بَدْرُ الدجَى يشمشمها … نُورِيّة تملأُ الدُّجَى نُورَا

غارَتْ على نفسها وقد سَفرتْ … فماد جيبُ الحباب مزرُورَا

حتى رأيتُ الظلاَم يدرجُه الـ … غرب ودَرج الصباحِ منشُورا

فاختلط الليلُ والنهارُ كما … تخلط كفٌّ مسكا وكافوراً

(١) فى ط : كسورها . (٢) ديوانه : ٢-٧٤ . (٣) رواية الديوان : … فما يخبطن أهل النار والنبح . (٤) فى الديوان : لازمة يفضحن .

وقال على بن محمد الكوفى (١) :

مَتَى أَرْتَجى يوماً شِفاءً من الضّنا ... إذا كان جانبه علىَّ طبيبى
ولِى عائدات ضِفْتَهن فجئْنَ فى ... لباس سوادٍ فى الظلام قشيب
نجومٌ أُرَاعِى طولَ ليلى بُرُوجَهَا ... وهنَّ لبُعْدِ السيرِ ذاتُ لغُوب
خوافقُ فى جُنْحِ الظلام كأنها ... قلوبٌ معنّاةٌ بطُولِ وَجيب
تَرَى حُوتَهَا فى الشرقِ ذاتَ سباحةٍ ... وعَقْرَبَها فى الغربِ ذاتَ دَبيب
إذا ما هوَى الإكْليلُ منها حسِبْتَه ... تهدُّلَ غُصْنٍ فى الرياضِ رطيب
كأنَّ التى حولَ المجرّةِ أوردَتْ ... لتَكْرَع فى ماء هناك صَبيب
كأنّ رسولَ الصُّبْح يخلطُ فى الدُّجى ... شجاعةَ مِقْدامٍ بجُبْنِ هَيُوب
كأنَّ اخضرارَ البَحْرِ صَرْحٌ ممرَّدٌ ... وفيه لآلٍ لم تُشَنْ بثقُوب
كأنَّ سوادَ الليلِ فى ضوءِ صُبْحِهِ ... سوادُ شبابٍ فى بياضِ مَشيب
كأنَّ نذيرَ الشمسِ يحكى بِبِشْرِه ... علىّ بن داود أَخِى ونسيبى
ولولا اتِّقَائى عَتْبَه قلت سيدى ... ولكن يرَاهاَ من أَجلِّ ذنوبى
جوادٌ بما تَحْوِى يدَاهُ مهذّب ... أَديبٌ غَدا خِلاًّ لكلّ أَدِيبِ
نسيب إخاء وهو غيرُ مناسبٍ ... قريبُ صفاء وهو غيرُ قريبِ
ونِسبةٌ ما بينَ الأقارِب وحشةٌ ... إذا لم يؤنّسها انتسابُ قلوب

[أخو القرابة وأخو الصفاء]

وهذا البيت كقول الطائى (٢) :

وقلتُ أخى قالوا أَخٌ من قرابةٍ ... فقلت لهم إنَّ الشكولَ (٣) أَقارِبُ
[نسيبى فى رأيى وعزمى ومذهبى ... وإنْ باعَدَتْنَا فى الأصولِ المناسبُ] (٤)

وقال عبد السلام بن رغبان ، وسلك طريق الطائى [فما ضلَّ عنها] (٥) :

---

(١) المختار: ٢٥١ . (٢) ديوانه: ٣٥٢ . (٣) الشكول : المشاكلون .
(٤) من ا . (٥) ليست فى ا .

أخ كنتُ أُبكِيه دماً وهو حاضرٌ حذاراً وتعمى مُقْلَتِى وهو غائبُ
بكاءَ أخ لم تَحْوِهِ بقرابةٍ بَلَى إنّ إخوانَ الصفاء أقاربُ
فمات فما شَوْقِى إلى الأجْرِ واقف ولا أنا فى عُمْرِى إلى اللهِ راغِبُ
وأَظلمتِ الدنيا التى أنتَ نورُها كأنك للدنيا أَخٌ ومناسِب
يُبرِّدُ نيرانَ المصائبِ أننى أرى زمناً لم تبق فيه مصائبُ

وفى هذه القصيدة :

ترشَّفْتُ أيامى وهُنَّ كوالحٌ إليك وغالَبْتُ الرَّدَى وهْو غالبُ
ودافعتُ فى كَيد الزمان ونَحْرِهِ وأَى يدٍ لِى والزّمان المُحَاربُ
وقلتُ له خَلِّ ابْنَ أُمّى لمُصْبَةٍ وهأنَا [1] أو فازْدَدْ فإنّا عَصَائِبُ
فواللهِ إخلاصاً من القولِ صادقاً وإلاَّ فحُبِّى آلَ أحمدَ كاذِبُ
لو أن يَدِى كانَتْ شِفَاءَك أودَمِى دم القلب حتى يَقْضِبَ الحبلَ قاضِبُ [2]
لسلّمتُ تَسْلِيمَ الرِّضَا واتخذتها يداً للرَّدَى ما حَجَّ للهِ راكِبُ
فتًى كان مثلَ السيفِ من حيثُ جِئْتَهُ لنائبةٍ نابَتْكَ فهو مُضَارِبُ
فتى هَمُّه حَمْدٌ على الدهر رائحٌ وإِنْ ناب عنه مَالُهُ وهْو عَازِبُ
شمائل إن تَشْهَدْ فهنَّ مشاهد عظامٌ وإن ترحل فهنَّ رَكَائِبُ

وقال الطائى لعلىّ بن الجهم [3] :

إِن يُكْدِ [4] مطرفُ الإخاء فإنّنَا نَغْدُو ونَسْرِى فى إخاء تَالدِ
أو يفترق نَسَبٌ يؤلِّفُ بيننا أَدَبٌ أقمناهُ مقامَ الوالدِ
أو يختلف ماءُ الوصال فماؤُنا عَذْبٌ تحدَّرَ من غمامٍ وَاحِدِ

وقال محمدُ بن موسى بن حماد : سمعتُ علىّ بن الجهم وذكر دِعبلا فلمنه وكفره ،

---

(١) فى ا : وهانا . (٢) قضبه : قطعه . (٣) ديوانه : ٨٦
(٤) يكد : يقل خيره، وفى ط : يكف .

وقال : وكان يطعَنُ على أبى تمام ، وهو خيرٌ منه ديناً وشعراً ، فقال رجـلٌ : لو كان أبو تمام أَخاكَ ما زدت على مَدْحِك له . فقال : إلاّ يكن أَخا نَسَب فهو أخو أدَب ، أمَا سمِعتَ ما خاطبنى به ؟ وأنشد الأبيات .

وقال رجل لابن المقفع: إذا لم يكن أخى صديقى لم أحببه[1]. قال : نعم صدقت، الأخ نسيبُ الجسم والصديق نسيبُ الروح. وقال أبو تمام يخاطب ابنَ عبدالملك الزيات[2]:

أبا جعفر إنَّ الجهالةَ أُمُّها ... ولودٌ وأُمّ العلمِ جدّاء[3] حائِل

أَرى الحشوَ والدهماءَ أضحوا كأنهم ... شعوبٌ تلاقَتْ دوننا وقبائل

غدَوْا وكأنّ الجهلَ يجمعهم أباً ... وحظ ذوى الآداب فيهم نوافِل

فكن هضبةً تأوِى إليها وحرةً ... يعرّد[4] عنها الأعوجىُّ المناقل

فإن الفتى فى كل حال مناسب ... مناسبُ روحانية مَنْ يشاكل

وقال البحترى لأبى القاسم بن خرداذبة[5]:

إن كنتَ من فارسٍ فى بيتِ سؤددها ... وكنت من بحترى البيت[6] والنسب

فلم يضرنا تنَائى المنصبين وقدْ ... رُحنا نسيبين فى عِلْمٍ[7] وفى أَدَب

إذا تقـــاربت الآدابُ والتأَمتْ ... دَنت مسافة بين العُجْمِ والعُربِ

[وصف النجوم]

وقد احْتَذى طريقه أبو القاسم محمـد بن هانىء ، فقال يمدحُ جعفر بن على ، وذكر النجوم فقال :

جعَلْنَا حشايانا ثِيابَ مُدامِنا ... وقدّت لنا الظلماء من جِلْدِها لحفا

فمن كبدٍ تُدْنى[8] إلى كبد هوى ... ومن شفَةٍ تُوحى إلى شفَةٍ رَشْفا

---

(١) فى ط : لم أواخه . (٢) ديوانه: ٢٥٦ . (٣) الجداء : الصغيرة الثدى والقليلة اللبن . وفى ط : الجيداء (٤) يعرد : يهرب ، وفى ط : تفرد .
(٥) ديوانه : ٢ـ١١ . (٦) هكذا فى ا ، وفى الديوان : وكنت من طيئ فى البيت .
(٧) فى الديوان : فى خلق . (٨) فى ط : تبدى .

بعيشك نبِّه كاسَه وجفونَهُ فقد نبّه الإبريقُ من بعد ما أغفى

وقد فكّت الظلماءُ بعضَ قيودِها وقد قام جيشُ الليلِ للفجْرِ فاصطفّا

وولَّتْ نجومٌ للثريا كأنهـا خواتم تَبْدُو فى بنَانِ يدٍ تخفى

ومرّ على آثارِها دَبرانُها كصاحب رِدْءٍ أُكمنت خيله خَلْفا

وأَقبلت الشّعرى العَبُور ملبة بمرزمها اليعبوبِ تجنبه طرفا

وقد بادَرتها أُخْتُها من وَرائها لتخرق من ثِنْيَىْ مَجرّتها سِجْفا

تخافُ زَئيرَ الليث يقدم[1] نثرة وبربر فى الظلماء ينسفها نَسْفاَ

كأنّ السماكَيْن اللّذين تظاهرا على لِبْدَتَيْهِ ضامِنان له الحَتْفاَ

فذا رامح يَهْوى إليه سِنَانُه وذا أَعزل قد عض أنمله لَهْفا

كأن رقيبَ النجمِ أجدل مرقبٍ يقلّب تحتَ الليلِ فى رِيشِه طرفا

كأن سهيلا فى مَطالِع أفقهِ مفارقُ إلْف لم يَجدْ بعده إلفا

كأنّ بنى نَعْشٍ ونَعْش مطافلٌ بوَجْرَة قد أَضللن فى مَهْمَهٍ خِشْفاَ

كأن سُهاها عاشقٌ بين عُوّدٍ فآونةً يَبْدُو وآونةً يَخْفَى

كأن معلّى قُطْبِها فارسٌ لهُ لواءان مَرْكُوزان قد كَرِهَ الزّحْفاَ

كأن قُدامى النّسْر والنّسْرُ واقعٌ قصِصن[2] فلم تسمُ الخوافى به ضَعْفا

كأنّ أخاهُ حين دوّم طائراً أتى دون نصف البَدْرِ فاختطف النّصْفاَ

كأنّ الهزيعَ الآبنوسىّ مَوْهِنا سرى بالنسيج الخسروانىّ مُلْتَفّا

كأنّ ظلامَ الليـلِ إذْ مال مَيْلةً صريعُ مُدامٍ بات يشربُها صِرْفاَ

كأنّ عمودَ الفجرِ[3] خاقان عَسكَرٍ من الترك نادَى بالنجاشىّ فاستَخْفَى

كأنّ لواءَ الشمسِ غُرّةُ جعفر رأى القِرْن فازدادتْ طلاقته ضِعْفاَ

وقال ابن طباطبا [العلوى][4] :

كأن اكتتامَ المشترى فى سَحَابه وديعةُ سِرّ فى ضَمِيرِ مُذيعِ

---

(١) فى ا : زئير الليل قدم. (٢) فى ط : ضعفن . (٣) فى ط : الصبح .

(٤) من ا .

كأنَّ سُهَيْلا والنجـوم أمامَهُ ... يعارِضُها راعٍ وراءَ قَطِيع
وقد لاحَتِ الشِّعرى العَبُور كأنها ... تَقَلُّب طَرْفٍ بالدموعِ همو ع
وأضجعت الجوزاء فى أفق غَرْبها ... فباتَتْ كنَشْوانٍ هناك صريعِ
إلى أن أجاب الليلُ دَاعِيَ صُبْحهِ ... وكان يُنادِى منه غيرَ سميعِ

وقال :

وكأنَّ الهلالَ لما تبدّى ... شطر طوقِ المرآةِ ذى التذهيبِ
أو كقَوْسٍ قد انحنَتْ طرفاه (١) ... أو كنُونٍ فى مُهْرَقٍ مكتوب

وقال على بن محمد العلوى يصف القمرَ ، وقد طرح جرمه على دِجلة :

لم أَنْسَ دِجْلَةَ والدُّجى متَصرِّمٌ ... والبَدْرُ فى أفق السماء مغرّبُ
فكأنها فيـه رِداءٌ أزرقٌ ... وكأنه فيها طرازٌ مُذْهب

وقال [الأمير] (٢) تميم بن المعز، وكان يحتذى مثال ابن المعتز، ويقف فى التشبيهات بجانبه ، ويفرغ فيها على قالبه ، ويتبعه [فى] (٢) سلوك ألفاظ الملوك :

اسقِيانِى فلستُ أُصْغِى لعَذْلٍ ... ليس إلّا تعلَّةَ النفس شُغْلِى
أأطيع العذول فى تركِ ما أهـوَى كأنى اتهمت رَأْيِى وعَقْلِى
علِّلانى بهـا فقد أقبل الليـلُ كلَوْن الصدود من بعد وَصْلِ
وانْجلَى الغَيْمُ بعد ماأضحكَ الرَّوْ ... ض بكاء السحابِ جادَ بوَبْلِ
عن هلال كصَوْلجان نضار ... فى سماء كأنّها جَامُ ذَبْل

وقال (٣) :

ربّ صفراء علّلَتْنِى بصفرا ... ء وجُنْحِ الظّلاَم مُرْخى الإزَارِ
بين ماء وروضةٍ (٤) وكروم ... ورَوَابٍ منيفةٍ وصحَارِ
تتثنّى به الغصونُ علينا ... وتجيب القِيانُ فيها القَمارِى

---

(١) فى ط : بانجذاب . (٢) من ا . (٣) المختار : ٢٥٧، وفيه نسبت الأبيات إلى ابن المعتز . (٤) فى ا : وبركة .

وكأن الدُّجى غدائرُ شَعْرٍ ... وكأنَّ النجومَ فيها مدارى
وانْجَلَى الغيمُ عن هِلَالٍ تبدَّى ... فى يَدِ الأفْقِ مثل نِصْفِ سِوَارِ

وقال :

عتبتْ فانثنى عليها العِتَابُ ... ودَعا دَمْعَ مقلتيْها انسكَابُ
وضعت[1] نحو خَدِّها بيديها ... فالْتَقَى الياسمينُ والعُنَابُ
رُبَّ مُبْدِى تَعَتُّبٍ جمل العَتْـــبَ رِياءً وهمّه الإعتَابُ
فاسقنيها مُدَامةً تَصْبُغُ الْـكَا ... سَ كما يصبُغ الخدودَ الشبابُ
ماترى الليل ! كيف رَقّ دُجَاهُ ... وبَدَا طَيْلَسانُه يَنْجَابُ
وكأنَّ الصباحَ فى الأفق بازٍ ... والدُّجى بين مِخْلَبيْهِ غُرابُ
وكأنَّ السماءَ لُجَّةُ بَحْرٍ ... وكأنَّ النجومَ فيهـا حَبَابُ
وكأنَّ الجوزاءَ سَيْفٌ صَقِيل ... وكأنَّ الدُّجَى عليها قِرَابُ

الشراب والكئوس فى الليل

وقال :

وزِنْجيَّة الآباءِ كَرْخِيَّة الجلب ... عنابية[2] الأَنفاسِ كَرْمِيَّة النَّسَبْ
كُمَيْت بزَلْنَا دَنَّها فتفجَّرَتْ ... بأَحْمَر قَانٍ مثل ما قَطَر الذَّهبْ
فلما شرِبْناها صَبَوْنَا كأننا ... شرِبْنَا السرورَ الْمَحْضَ واللهوَ والطربْ
ولم نأتِ شيئًا يسخط المجدَ فِعْلُه ... سوى أننا بِعْنَا الوقارَ من اللَّعِبْ
كأن كؤوس الشرب وهى دوائر ... قطائعُ ماء جامدٍ تحمل اللَّهَبْ
يمدّ بها كفًّا خضيبا مُدِيرها ... وليس بشىء غيرها هو مختضِبْ
فبتْنَا نُسْقَّى الشمسَ والليل راكدٌ ... ونقرب من بَدْرِ السماء وما قربْ

---

(٣) فى ط : وسعت . (٤) فى ط : عبيرية .

وقد حجب الغيمُ الهلالَ كأنهُ ستارة شَرْبٍ خلفها وَجْهُ من أحبّ
[كأنّ الثريّا تحت حُلكة لَوْنِها مداهن بلّور على الأرض تَضْطَرِبْ](١)

وقال :

كأنّ السحابَ الغرّ أصْبحن أكْؤُسا لنا وكأنّ الراحَ فيها سَنَا البَرْقِ
إلى أنْ رأيتُ النجمَ وهْو مغرِّب وأقبل راياتُ الصباحِ من الشرق
كأن سوادَ الليلِ والصبحُ طالعٌ بقايا مجال الكحْلِ في الأعينِ الزُّرْقِ

وقال :

وكأس يُعيدُ العُسْرَ يُسراً ويجتنى ثمارَ الغِنى للشرب من شجر الفقْرِ
يولِّد فيها المزْجُ دُرًّا منضَّداً كما فتّتَتْ فوق الثرى نقط القطرِ
صغاراً وكبرى في الكؤوس كأنها على الرّاحِ واواتٌ تجمّعن في سَطْرِ
إذا حثّهَا الساقِي الأغرّ حسبْتَها نجومَ الثريا لُحْنَ في راحةِ البدْرِ
صبحت بها صَحْبِي وقد رنْدَجَ(٢) الدُّجَى بفضّة لألاءِ الصباحِ سَنَا الفَجْرِ
وقد أزْهرَتْ بيضُ النجومِ كأنَّها على الأُفق الأَعْلَى قلائدُ من دُرِّ

وقال :

ألاَ فاسقيانى قَهْوَةً ذهبيةً فقد ألبسَ الآفاق جنح الدجى دعجْ
كأنَّ الثريا والظلامُ يحفُّها فصوصُ لُجَيْنٍ قد أحاط بِهَا سبَجْ
كأنَّ نجومَ الليلِ تحتَ سوادِهِ إذا جنّ زنجيٌّ تَبَسَّمَ عن فلجْ

وقال :

أيا دَيْرَ مرحنا سقَتْك رعودُ من الغَيْمِ يهمى مزنُها ويجودُ
فكم واصلتنا في رُبَاكَ أَوَانِسُ يَطُفْنَ علينا بالمُدامَةِ غِيدُ
[وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم ونابَتْ عن الوردِ الجنيِّ خُدُودُ](٣)

---

(١) ليس في ا . (٢) هكذا بالأصول . (٣) من ا .

وماسَتْ على الـكُثبانِ قضبان فِضَّة … فأثقلها من حَمْلِهنّ نُهودُ
وإذْ لِمَّتِى لم يوقظ الشيبُ ليلَها … وإذ أثَرِى فى الغانيـاتِ حَميـدُ
ليالىَ أغدُو بين ثوبَىْ صبابةٍ … ولَهْوٍ ، وأيامُ الزمانِ هُجُودُ

وقال :

سألْتُه قُبْلَةً منه على عَجَلِ … فاحمرّ من خَجَل واصْفَرّ من وَجَلِ
وَاعْتَلّ ما بينَ إسعافٍ يرققه (١) … وبين مَنْعٍ تمادَى فيه بالعِلَلِ

وقال :

وجهِىَ بَدْرٌ لا خفاءَ بهِ … ومُبْصِرُ البَدْرِ لا يَدْعُوهُ للقُبَلِ

وهذا ينظرُ إلى قوله :

أباحَ لمُقلتِى السهرَا … وجارَ علىَّ واقتَدَرا
غزالٌ لوجَرَى نفسى … عليه لذابَ وانْفَطَرا
ولـكِنْ عينهُ حَشَدَتْ … عَلىَّ الغُنْجَ والحَوَرا
ومَنْ أوْدَى به قمرٌ … فـكيفَ يعاتِبُ القمرَا

كأنه ذهب إلى قول أبى نواس (٢) :

كأنّ ثيابه أطلعـ … ـن مِنْ أزراره قَمَرَا
يزيدكَ وَجْهُه حُسْنا … إذا ما زِدْتَه نظَرا
بعيْنٍ خالط التفتيـ … ـرُ مِنْ أجفانِها الحَورا
وَوَجْهٍ سابِرِىٍّ (٣) لو … تَصَوَّبَ ماؤه قطَرا

قيل للجاحظ : مَنْ أنْشَدُ الناس وأشعرهم ؟ قال : الذى يقـول : وأنشد هذه الأبيات ، ونظير قوله :

كأنَّ ثيابَه أَطْلَعْـ … ـنَ من أزرارِه قمرا

(١) فى ط : يرقرقه . (٢) ديوانه : ١٩٣ .
(٣) أصل السابرى : ثوب رقيق جيد .

قول الحكم بن قَنْبَر المازنى :

وَيْلِى على مَنْ أطارَ النومَ فامتنعا ... وزاد قلبى إلى أوجاعِه وَجَعا

وقال تميم :

نقّبَتْ وجهها بخَزٍّ وجاءتْ ... بِمُدامٍ منقَّبٍ بزُجَاجِ

فتأمّلت فى النقابَيْنِ منها ... قمراً طالعاً وضوءَ سِراجِ

فاسقِيَانِى بلا مِزَاجٍ (١) فإنى ... فى المعالِى صِرْفٌ بغير مِزاجِ

وانظر الأُفْقَ كيف بدّله الإصـ ... ـباحُ من بَعْدِ آبنوسٍ بعاجِ

وقال :

إذا حَذِرْتَ زَماناً لا تُسَرُّ بهِ ... كم قد أَتى سَهْلُ دهرٍ بعد أَصْعَبِه

فاقبَلْ من الدهرِ ما أتاك مختلطاً ... لعل مُرَّك يَحْلُو فى تقلّبِهِ

خُذْها إليك، ودَعْ لومِى، مشَعْشَعةً ... من كفِّ أقنى (٢) أسيل الخدِّ مُذْهَبِه

فى كل معقد حسن فيه معترضٌ ... عليه يَحْمِيه من أن تَستبدّ به

فكُحْلُ عينيه ممنوعٌ بخَنْجَرِه ... ووَرْدُ خدَّيهِ مَحْمِىٌّ بِعَقْرَبِه

لا تترك القدحَ الملآن فى يدِهِ ... إنى أخافُ عليه (٣) من تلهُّبِه

فصُنْه عن سقينا إنى أغارُ بِهِ ... وسقّه واسْقِنى من فَضْلِ مَشْرَبِه

وانظرْ إلَى الليلِ كالزّنْجِىِّ منهزِما ... والصبحُ فى إثره يَعدُو بأشْهَبِه

والبدرُ منتَصِبٌ ما بين أنجُمِه ... كأنه مَلِكٌ ما بَيْنَ مَوْكِبه

من مختار شعر تميم بن المعز

وإذ أفضيت إلى ذكره، فهاك من مختار شعره، [قال] :

مستقبل بالذى يهوى وإن كَثُرَتْ ... منه الذنوبُ ومقبولٌ بما صَنَعا

---

(١) مزاج الشراب : ما يمزج به . (٢) فى ط : ظبى . (٣) فى ا : عليها .

في وجهه شافعٌ يمحُو إساءتَهُ ... من القلوب وَجيهٌ حيثما شفعا
كأنما الشمسُ مِنْ أثوابه برزَتْ ... حسناً أو البدرُ من أزرارِه طلَعا

استعارة [مأخوذة] [1] من قولِ الآخر ، وهو ابن زُريق :

أستودعُ الله في بغداد لِي قمرا ... بالكَرْخ من فَلَكِ الأزرارمَطْلَعهُ [2]

ومن قول أحمد بن يحيي الفران [3] :

بَدَ فكأنما قمرٌ ... على أَزراره طَلَعَا
يحثّ المسكَ من عرَقِ الـ ... جبين بنانُه وَلَعا

وقال أبو ذر أستاذ [4] سيف الدولة :

نفسي الفِدَاء لمن عصيتُ عَواذِلي ... في حبِّه لم أَخْشَ مِنْ رُقبائه
الشمسُ تظهرُ في أَسِرّة وَجْهِهِ ... والبدرُ يَطْلَعُ من خِلَالِ نقائه [5]

وقال تميم :

أأعذل قَلْبِي وهو لِي غيرُ عاذِل ... وأَعصِي غرامي وهو ما بين أَضْلعي
ومَنْ لي بِصَبْرٍ أَستزيلُ به الجَوى ... ولا جلدي طوعي ولا كَبدي مَعِي
فأَوّلُ شوقِي كانَ آخرَ سَلْوَتي ... وآخرُ صَبْرِي كان أَوّل أَدْمُعِي

وقال :

وَرْدُ الخدودِ أَرَقُّ من ... وَرْدِ الرياضِ وأَنْعَمُ
هذا تنشّقُه الأنو ... فُ وذَا يقبِّلُه الفَمُ
وإذا عَدَلْت فأَفْضَلُ الْـ ... وَرْدَيْن وَرْدٌ يُلْثَمُ
لا وَرْدَ إلاَّ ما تولَّى ... صبْغَ حُمْرَتِه الدَّمُ
هذا يُشَمُّ ولا يُضـ ... ـمّ وذَا يُضَمُّ ويُشْمَمُ

---

(١) من ا . (٢) الكرخ : محلة ببغداد . (٣) في ا : الفراق .
(٤) في ط : أبو دارسان . (٥) في ط : من خلال قبائه .

سُبْحانَ من خلق الخدو — دَ شقائقاً تتنسَّمُ
وأَعارَها الأصداغ فهْـ — ـى بها شقيقٌ يُعْلَمُ
واستنطقَ الأجفانَ فهْـ — ـىَ بلَحْظِها تتكلَّمُ
وتُبينُ للمحبوبِ عَنْ — سرِّ الحبيبِ فيفهَمُ
وتشير إنْ رأتِ الرقيـ — ـبَ بلَحْظِها فيُسلِّم
وأَعارَها مَرضاً تَصِحُّ — بِه القلوبُ وتَسْقَمُ
فِتَنُ العيونِ أَجلُّ من — فِتَن الخدودِ وأَعظمُ

وقال :

إنْ كانتِ الأَلحاظُ رُسْلَ القلوب — فينا فما أَهونَ كَيْد الرقيبْ
قبَّلْتُ مَنْ أَهوى بعيني ولم — يعلَمْ بتقبيلِيَ خَدُّ الحبيبْ
لكِنّه قد فَطِنَتْ عَيْنُهُ — بلَحْظِ عيني فِطْنَةَ المستريبْ
إن كان علمُ الغيبِ مستخفياً — عَنّا فعِنْد اللَّحْظِ علمُ الغيوبْ

وقال :

قالوا الرحيل لخمسةٍ — تأْتِي سَريعاً من جمادى
فأَجبْتُهم إنّى اتخذْ — ت له الأَسى والحُزْنَ زَادا
سبحانَ مَنْ قسَم الأَسَى — بين الأَحِبَّةِ والبِعَادا
وأَعارَ للأَجفانِ حُسْـ — ـناً تسترِقُّ بهِ العَبادا

وقال :

عَقْرَبُ الصُّدْغِ فوق تفّاحةِ الخـ — ـدّ نعيمٌ مطرَّز بعذَابِ
وسيوفُ اللحاظ فى كلّ حِينٍ — مانعاتٌ جَنى الثنايا العِذَابِ
وعيونُ الوشاةِ يُفسِدْنَ بالرِّقْـ — ـبَةِ والمَنْعِ رؤيةَ الأحبابِ
فمتى يَشْتَفِى المحِبُّ وتُطفَى — بالتدانِى حرارةُ الإكتئاب

وقال :

ترى عِذارَيْه قد قاما بمعذرتى | عند العَذول فيَغدُو وهو يعذرُنى
رِيمٌ كأنَّ له فى كل جارِحَةٍ | عقداً من الحُسْنِ أو نوْعاً من الفِتَنِ
كأنَّ جوهرَهُ من لُطْفه عَرَضٌ | فليس تَحْوِيهِ إلّا أعينُ الفطن
أَخْفَى من السرِّ لكن حُسْنُ صورَتِه | إذا تأمّلته أبْدَى مِنَ العلَنِ
واللهِ ما فتَنَتْ عينى محاسنُهُ | إلّا وقد سحَرَتْ ألفاظُه أذنِى
ما تصْدرُ العينُ عنه لحظَها مَلَلا | لِأَنه كلّ شَخْصٍ مرتضًى حَسَنِ
يا منتهى أَمَلِى لا تُدْنِ لى أَجَلى | ولا تمذّبْ ظنونِى فيك بالظِّنَنِ
إنْ كان وجهُك وجهاً صِيغَ من قمرٍ | فإنّ قدَّكَ قَدٌّ قُدَّ مِنْ غُصُنِ

وقال :

أَلا يا نسيمَ الريح عرِّجْ مسلِّما | على ذلك الشخصِ البعيدِ المودّع
وهُبَّ على من شَفَّ جِسْمِى بِعادُهُ | سَمُوما[1] بما استملَيْتَ من نارِ أَضْلعِى
فإنْ قال ما هذا الحَرورُ[2] فقل لهُ : | تَنَفُّسُ مُشْتَاقٍ بحبّك مُوجَعِ

ومختارُ شعره كثير ، وقد تفرَّق منه قطعةٌ كافية فى أعراض الكتاب .

رجع ما انقطع

قال الصاحب أبو القاسم إسمعيل بن عبّاد :

لقد رحلَتْ سُعْدَى فهل لك مُسْعِد[3] | وقد أَنجدَتْ داراً فهل أَنت مُنْجِدُ
رعيتُ بطرفى النجْم لمّا رأيتها | تَباعدُ بُعْدَ النَّجْمِ بل هى أَبْعَدُ
تُنيرُ الثريّا وهى[4] قُرْط مسلسلٌ | ويشغل منها الطرفَ دُرٌّ مبدّد[5]
وتعترِضُ الجَوْزَاءُ وهى كَكاعب | تَمَيَّلُ من سُكْرٍ بها وتَميَّدُ

---

(١) السموم : الريح الحارة تكون غالبا بالنهار . (٢) الحرور : الريح الحارة بالليل ، وقد تكون بالنهار . (٣) أسعده : أعانه . (٤) فى ا : وهو .
(٥) فى ط : ويطرد منها الطرف در منضد .

وتحسبها طَوْراً أسيرَ جِنَايةٍ ... ترشَّحُ بعدَ المشْى وهو مُقَيَّد (١)
ولاحَ سُهيلٌ وهو للصُّبح رَاقِبٌ ... كما سُلَّ مِنْ غمدٍ جُرَازٌ (٢) مهنَّدُ
أُردِّدُ طَرْفِى فى النجوم كأنها ... دنانيرُ لكِنَّ السماءَ زَبَرْجَدُ
رأيتُ بها ، والصبحُ ماحانَ وِرْدُهُ، ... قناديلَ والخضراءُ صَرْحٌ ممرَّدٌ (٣)
وفيه لنا من مربط الشمسِ أشقرٌ ... إذا ما جرى فالريحُ تكبُو وتركدُ

وقال أبو على الحاتمى :

وليلٍ أقمنا فيه نُعْمِل كأسَنا ... إلى أن بَدَا للصُّبح فى الليلِ عَسْكَرُ
ونَجْمُ الثريا فى السماءِ كأنهُ ... على حلَّةٍ زَرْقاءَ جَيْبٌ مُدَنَّرُ

البحترى (٤) :

ولقد سَرَيْتُ (٥) مع الكواكبِ راكباً ... أَعجازَها بعزيمةٍ كالكوكبِ
والليلُ فى لونِ الغُرَابِ كأنهُ ... هو فى حُلُوكَتِه وإن لم يَنْعَبِ
والعِيسُ تنصل من دُجاه كما انجلَى ... صبغُ الخِضَابِ عن القَذَالِ الأَشْيَبِ
حتى تبدَّى الفَجْرُ (٦) من جنَبَاتِه ... كالماءِ يَلْمَعُ من خِلَالِ الطُّحلبِ

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

أهلاً بفَجْرٍ قد نَضَى ثوبَ الدُّجَى ... كالسيف جُرِّد من سَوادِ قِرَابِ (٧)
أو غادةٍ شقَّتْ صِدَاراً أزرقا (٨) ... مابين ثُغْرَتِها إلى الأتراب

وقال رجلٌ من بنى الحرث بن كعب يصف الشمس :

مخبأَةٌ أمّا إذا الليلُ جَنَّها ... فتخفَى وأمّا بالنهار فتظهرُ
إذا انشقَّ عنها ساطِعُ الفَجْرِ وانْجَلَى ... دُجَى الليلِ وانجابَ الحِجَابُ المستَّرُ

---

(١) ليس فى ا ، وترشح الفصيل : قوى على المشى . (٢) الجراز : السيف القاطع .
(٣) الخضراء : السماء . (٤) ديوانه : ٢-١٣٤ .
(٥) فى الديوان : ولقد أبيت ، وفى ا : شربت . (٦) فى الديوان : الصبح .
(٧) قراب السيف : غمده . (٨) فى ط : أورقا .

وألبس عرض الأرضِ لوناً كأنهُ على الأفق الشرقيِّ ثوبٌ مُعصفَرُ
تجلَّتْ وفيها حين يَبْدُو شعاعُها ولم يعلُ (١) للعين القصيرةِ مَنْظَرُ
عليها كرَدْع الزعفرانِ يشبّهُ شعَاعٌ تلألا فهو أبيضُ أصفرُ
فلما علَتْ وابيضَّ منها اصفِرارُها وجالَتْ كما جالَ المَنيحُ (٢) المشهَّرُ
وجلَّتِ الآفاقَ ضوءاً ينيرها بحرٌ لها وَجْهُ الضُّحَى تتسعَّر
تَرَى الظلَّ يُطْوَى حين تَبْدُو ، وتارةً تراه إذا زالتْ عن الأرضِ يُنْشَر
كما بدأَتْ إذْ أشرقَتْ فى مَغيبِها تعود كما عادَ الكبيرُ المعمَّر
وتدْنَفُ (٣) حتى ما يكادُ شعاعُها يَبِين إذا ولَّتْ لمن يتبصَّرُ
فأفْنَت قروناً وهْىَ فى ذاك لم تزَلْ تموتُ وتَحْيَا كلَّ يومٍ وتُنْشَر

[من أحسن ما قال العرب]

وقال عبد الملك بن مروان لبعض جُلسائه يوما : ما أحكم أربعة أبياتٍ قالتها العرب فى الجاهلية ؟ فأنشده :

منع البقاءَ تقلُّبُ الشمسِ وطلوعُها من حيث لا تمسِى
وطلوعُها بيضاءَ صافيةً وغروبُها صفراءَ كالوَرْسِ
تجرى على كَبِدِ السماءِ كما يَجْرِى حِمامُ الموتِ فى النَّفَسِ
اليوم تَعْلَم ما يجىءُ بهِ ومضَى بفَصْلِ قضائِه أَمْسِ

قال : أحسنت ، فأخبرنى بأمدح بيتٍ قالَته العرب فى الشجاعة . قال : قول كعب ابن مالك الأنصارى :

نَصِلُ السيوفَ إذا قصُرْنَ بخَطْوِنا قدما ونلحقها إذا لم تلحقِ

قال : فأخبرنى بأفضل بيتٍ قيل فى الجود . فأنشده لحاتم طيئ (٤) :

---

(١) فى ط : ولم يحل . (٢) المنيح : قدح بلا نصيب وقدح يستعار تيمنا بفوزه » وفى ط : المهيج المسير، وماأثبتناه من ا . (٣) دنفت الشمس: مالت للغروب ، وفى ط : وقد شف .
(٤) ديوانه : ١١ ، المختار: ١٠٨ ، اللآلئ: ٩٢٨ .

أماويّ ما يُغْنِى الثراءُ عن الفَتَى | إذا حشرَجَتْ يوماًوضاق بهاالصدرُ
ترىْ أن ما أبقيتُ لم أكُ رَبهُ (١) | وأن يدى مما بَخِلْتُ به صِفْرُ
ألم ترَ أنَّ المالَ(٢) غادٍ ورائحٌ | ويبقَى من المالِ الأحاديثُ والذكْرُ
غَنِينا زمانا بالتصعْلك والغِنَى | فكلاًّ سقاناهُ بكأسيهما الدّهْرُ(٣)
فما زادَنا بَغْياً على ذِى قرابةٍ | غِنَانا ولا أزرى بأحسابِنا الفقْرُ

قال : فأخبرنى عن أحسن الناس وصفا ؟ قال: الذى يقول :

كأنّ قلوبَ الطيرِ رَطباً ويابساً | لدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشفُ البَالِى

والذى يقولُ :

كأنَّ عيونَ الوَحْشِ حول خِبَائنا | وأرحُلنا الجَزْعُ الذِى لم يُثقَّبِ

والذى يقول :

وتعرِفُ فيه من أبيه شَمائلاً | ومن خَالِه ومن يزيد ومن حُجر
سماحة ذَا مع بِر ذَا ووفاء ذَا | ونائل ذَا إذا صَحَا وإذا سَكِر

يريد امرأ القيس .

ومن ألفاظ أهل العصر فى طلوع الشمس وغروبها

ومتوع النهار وانتصافه وابتدائه وانتهائه

بدا حاجِبُ الشمسِ ، ولمعَتْ فى أجنحَةِ الطيرِ ، وكشفَتْ قِناعَها ، ونشرتْ شعاعَها ، وارتفع سُرادِقُها ، وأَضاءتْ مشارِقُها ، وانتشر جناحُ الضوءِ فى أفق الجو. طنّب (٤) شعاعُ الشمسِ فىالآفاق ، وذهّبَت أطرافَ الجدران . أينع النهارُ وارتفع . استوى شبابُ النهار ، وعلا رَوْنَقُ الضحى ، وبلغت الشمسُ كبِدَ السماء . انتعل

---

(١) فى الديوان : أن ما أهلكت لم يك ضرنى . (٢) فى الديوان : أماوى إن المال .

(٣) رواية الديوان :

لبسنا صروف الدهر لينا وغلظة | كما الدهر فى أيامه العسر واليسر

(٤) طنبه تطنيبا : مده بأطنابه وشده .

كلُّ شيء ظلَّه، وقام قائمُ الهاجِرَة، ورمَت الشمس بجَمَرَاتِ الظهر . اصفرَّتْ غِلَالةُ الشمسِ ، وصارت كأنها الدينارُ يلمع فى قرارِ الماء ، ونفضَتْ تِبْرًا على الأصيل . وشدَّتْ رَحْلَها للرحيل . وتصوَّبَت الشمسُ للمغيب ، وتضيَّفَتْ[١] للغروب، فأذِن جَنْبها للوُجوبِ . شاب النهارُ ، وأَقبل شبابُ الليلِ ، ووقفت الشمسُ للعيان ، وشافَهَ الليلُ لسانَ النهارِ . الشمسُ قد أشرقَتْ بروجُها ، وجنحت للغروب ، وشافَهتْ دَرج الوجوب . الجوُّ فى أطهار منهجة[٢] من أصائله ، وشفوف مورَّسَة من غَلَائله . استتر وَجْهُ الشمسِ بالنِّقَاب ، وتوارَتْ بالحجابِ . كان هذا الأمرُ من مطلع الفلق ، إلى مجتمع الغَسَق . فلان يركبُ فى مقدمة الصُّبح ، ويرجع فى ساقة الشفق[٣] ، ومن حين تفتحُ الشمسُ جَفْنَها إلى أن تغمض طَرْفها ، ومن حين تسكنُ الطيرُ أوكارَها ، إلى حين ينزلُ السَّرَاة مِنْ أَكوارِها[٤] .

***

المقامة الكوفية

مقامة[٥] لأبى الفتح الإسكندرى من إنشاء البديع، اتَصلَتْ بذكرِ الليلِ والنهار: قال عيسى بن هشام : كنت وأنا فَتِيُّ السنّ أشدُّ رَحْلِى لكلّ عَمَايَة[٦] ، وأركضُ طِرْفِى لكل غَوَايَة ، حتى شرِبْتُ من العُمْرِ سائغَه ، ولبسْت من الدهرِ سابِغَه ، فلمّا صاح النهارُ بجانب ليلى ، وجمعتُ للمعادِ ذَيْلِى ، وطِئْتُ ظَهْرَ المَرُوضَةِ[٧] ؛ لأَداء المفروضة ، وصَحِبنى فى الطريق رَجلٌ لم أُنكِره من سوء ، فلما تخالينا ، وحين تَجالينا[٨] ، سفَرَتِ القصَّة عن أصلٍ كوفىّ ، ومَذْهَب صُوفِىّ ، وسِرْنَا فلما حللنا الكوفةَ مِلْنَا إلى داره ، [ودخلناها][٩] وقد بَقَل[١٠] وجْهُ النهار ، واخضرَّ

---

(١) تضيفت : مالت. (٢) فى ط : الجو فى أطيار بهجة . (٣) فى ط : الغسق.
(٤) فى ط : تنزل المرأة. (٥) المقامات : ٢٨ . (٦) العماية : عدم إدراك الصالح. وأرادبه الملاذ .
(٧) وطئ ظهر المروضة : ركب المركب الذلول . (٨) تجالى الرجلان : كشف كل منهما عن حاله . (٩) من ا . (١٠) بقل وجه الغلام : خرج شعره .

جانبُه ، ولما اغتمض جَفْنُ الليل وطَرَّ شارِبه [١] قُرِع علينا البابُ ، فقلنا : من القارعُ المُنْتاب [٢] ؟ فقال : وَفْدُ الليلِ وبريدُه ، وفَلُّ الجوعِ وطَرِيدُه ، وأسيرُ الضّر ، والزمَن المُرّ ، وضيفٌ وطْؤُه خفيف ، وضالّتُه رغِيف ، وجارٌ يستَعْدِى على الجوع،والجَيْبِ المَرقوع؛ وغريب أُوقدت النارُ على سفره، ونبحَ العَوّاء فى أثره [٣] ، ونُبِذت خَلْفَه الحُصَيّاتُ [٤] ، وكُنِسَتْ بعده العَرَصَات ، فنِضْوُه طَلِيح ، وعَيْشُه تبريح ، ومن دون فرخه مَهَامِه فِيح [٥] . قال عيسى بن هشام : فقبَضْتُ من كِيسى قَبْضَةَ الليثِ وبعثتُها إليه ، وقلتُ : زِدْنَا سُؤَالا نزِدْكَ نوَالا ، فقال : ما عُرِض عَرْفُ العودِ على أحرَّ من نار الجُودِ ، ولا لُقِىَ وَفْدُ البرِّ ، بأحسن من بريد الشّكر ، ومن ملك الفَضْل فليواس ، فلا يَذْهبُ العُرْفُ بين اللهِ والناس ، وأما أنتَ فحقّق اللهُ أملَك ، وجعل اليدَ العُلْيَا لك .

قال عيسى بن هشام : ففتحنا البابَ ، فإذا شيخُنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلنا: يا أبا الفتح ، شدَّ ما بلغَتْ بك الخَصَاصَةُ ، وهذا الزىُّ خاصة ! فتبسّم وأنشأ يقول :

لا يَغُرنَّك الذى ... أنا فيه من الطلَبْ
أنا فى بُرْدَة تُشَقُّ ... لها بُرْدَةُ الطرَبْ
أنا لو شِئْتُ لاتّخَذْ ... تُ شِقَاقا من الذهَبْ

[من رسائل البديع]

من البديع إلى بعض إخوانه

وكتب البديعُ إلى بعض إخوانه : غضَبُ العاشقِ أقصرُ عمراً من أن ينتظِرَ عُذراً ، وإن كان فى الظاهر مَهابَة سَيْف ، إنه فى الباطن سحابةُ صَيْف ، وقد رَابنى إعراضُه صَفْحا ، أَجِدًّا قصدَ أَم مَزْحاً ، ولو التبس القَلْبَان حقَّ التباسهما ماوجد الشيطانُ بينهما مساغا ، ولا والله لأُريكَ ردًّا ، أَجِدُ منه بدًّا، إن كان قصد أن محبة

---

(١) طر شاربه : طلع . (٢) المنتاب : هو الطارق بليل .
(٣) العواء : الكلب يعوى كثيرا . (٤) فى ا : الحصبات . (٥) المهامه الفيح : القفار الواسعة الأرجاء .

تحتمل شكالاً لا أجدرُ محبة ، ألا تُشْتَرى بحبَّةٍ ، وإن كان قصدَ مَزْحا فما أغنانا عن مَزْح يحلُّ عُقَد الفؤاد [حتى نقف على المراد ، لا تسمنا إلا العافية] (١) والسلام .

وله إليه : المودّة ـ أعزَّك الله ـ غَيْب ، وهو فى مكان من الصَّدْر، لاينفذه بصر، ولا يُدْرِكُه نظَر ، ولكنها تُعْرَف ضرورة، وإن لم تظهر صُورَة، ويدرِكها الناس وإن لم تدركها الحوَاسّ ، ويستَمْلِى المرء صحيفتَها من صدره ، ويعلم حالَ غيرِه من نفسه ، ويعلم أنها حبٌّ وراء القلب، وقلب وراء الخِلْبِ ، وخلْب (٢) وراءَ العَظم ، وعَظْمٌ وراء اللحم ، ولحم ورَاء الجلد ، وجلدٌ وراءَ البُرْد، وبُرد [وراء البعد] (١) . ولو كانت هذه الحجُب قوارير لم ينفذها نظر ، فيستَدِلّ عليها بغيرِ هذه الحاسّة بدليل إلاَّ أنأزوره ، والله لو التبست به التباساً يجعل رأسينا رأساً ، مازِدْته ودًّا ، ولو حال بينى وبينه سُورُ الأعرافِ ، ورمْل الأحقافِ، ما نقصته حقا .

* * *

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

وغزَالٍ مَنَحْتُه ظاهرَ الو دِّ فجازَى بالصدِّ والإنتحاب (٣)
لم أَلُمهُ إن ردَّنى لحجابٍ ردّنى والِهَ الفؤاد (٤) لِمَا بى
هو روحٌ وليس يُنْكَر للرُّو حِ توَارٍ عن الوَرَى بحِجَابِ

* * *

من البديع إلى أخيه

وللبديع إلى أخيه :

كتابى أطال اللهُ بقاءَك ، ونحن وإن بَعُدَتِ الدارُ فَرْعَا نَبْعَة ، فلا يَجْنِيَنَّ بُعْدِى على قُرْبك ، ولا تمحوَنّ ذِكْرِى من قلبك ، فالأَخَوان ، وإن كان أحدُهما بخراسان والآخر بالحجاز ، مجتمعان على الحقيقةِ مفترقان على المجاز ، والاثنان فى المعنى واحد وفى اللفظ اثنَانِ ، وما بينى وبينك إلا ستر طولُهُ فِتْرُ ، وإن صاحبنى رَفيق ، اسمه توفيق ، لنلتقينَّ سريعاً ، ولنسعدَنّ جميعاً ، واللهُ ولىُّ المأمول .

---

(١) من ا . (٢) الخلب بالكسر : لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع أو الكبد .
(٣) فى ط : والاجتناب (٤) فى ط : واله الحشاذا التهاب .

كتاب لابن العميد

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه :

قد قَرُبَ ـ أيدك الله ـ محلّك على تراخِيه ، وتصاقب مستقرُّكَ على تنائيه ؛ لأنّ الشوقَ يمثّلك ، والذكر يخيّلك؛ فنحنُ في الظاهر على افتراق ، وفى الباطن على تلاق، وفى التسميةِ مُتباينون ؛ وفى المعنى متواصِلُون ؛ ولئن تفارقت الأشباحُ ، لقد تعانقت الأرواح .

جملة من كلام ابن المعتز فى الفصول القصار

الدهرُ سريعُ الوثبة ، شنيع العَثْرَة . أهلُ الدنيا كَرَكبٍ يُسَارُ بهم وهم نِيام. والناسُ وَفْدُ البِلى، وسكّان الثَّرَى ، وأَقْران الرَّدَى . المرء نصْبُ الحوادثِ وأسيرُ الاغترار . الآمالُ مصارِع الرجالِ . الحِرْصُ يُنْقِص المرءَ من قَدْرِه ، ولا يزيدُ فى رِزْقه . الكذب والحسدُ والنفاق أثافِيّ الذلّ . النّمام جِسْرُ الشر . الحاسدُ اسمُه صديق ومعناه عدوّ . الحاسدُ ساخِطٌ على القَدَر ، مغتاظٌ على من لاذَنْبَ له ، بخيل بما لا يملِكُه ، يشفيك [منه][1] أنه يغتمُّ فى وقت سرورِك. الفُرْصَةُ سريعةُ الفَوْتِ بطيئةُ العَوْد . الصبرُ من ذى المصيبة مصيبةٌ على ذوِى الشَّمات . التواضعُ سُلّمُ الشرف ، والجُود صِوَانُ العِرْضِ من الذم . الغَدْر قاطع . [الأسرار][1] إذا كثر خُزَّانها ازدادت ضياعا . السوء كشجرة النار يَحْرِق بعضُها بعضا . عَبْدُ الشهوة أذلُّ من عبد الرقّ . وعاء الخطأ بالصَّمْتِ يختم ، والخرق بالرفْقِ يلحم . الوَعْدُ مرضُ المعروف ، والإيجازُ برْؤه ، والمَطْل تلفه . إذا حضَرَ الأجل ، افتضح الأمل . لاتشن وَجْهَ العفوِ بالتقريع . لا تنكحْ خاطبَ سِرّك . ومن زَاد أَدُبه على عقله كان كالراعى الضعيف مع شاء كثيرة .

قال أبو العباس الناشىء لأبى سهل بن نوبخت :

زعمْتَ أبا سهل بأنك جامعٌ ضُروباً من الآداب يجمعهُا الكَهْلُ

(١) من ا .

وهَبْك تقولُ الحقَّ أىَّ فضيلةٍ ... تكونُ لذى عِلْمٍ وليس له عَقْلُ

الهمُّ حَبْسُ الروح . قلوبُ العقلاءِ حصونُ الأسرار. مَن كَرُمَتْ عليه نفسُه هان عليه مالُه. من جرى فى عنان أَمله ، عثر بأَجَلِه. ما كلُّ من [يُحْسِنُ](١) وعدَه يحسنُ إنجازه . ربما أوردَ الطمعُ ولم يُصْدِر ، وضمن ولم يُوفِ . وربما شرق شارِبُ الماءِ قبل ريّه . من تجاوزَ الكفافَ لم يُقْنِعْه إكثارٌ . كلماعظُم قَدْرُ المنافس فيه عظمت الفجيعةُ بفَقْدِه ، ومن أَرْحَله الحِرْص أنْضَاه الطلب . الأمانىّ تُعْمِى أعيُنَ البصائر ، والحظُّ يأتى من لم يؤمه . وربما كان الطمعُ وعاءً حَشْوُهُ المتالف ، وسائقاً يَدْعُو إلى الندامة . ما أحْلَى تلقّى البغية ، وأمرَّ عاقبة الفراق. من لم يتأمَّل الأَمرَ بعَيْنِ عقله، لم تَقَعْ حيلته إلاّ على مَقَاتِله .

[رثاء المعتضد وتعزيته]

رثاؤه

وقال أبو العباس يَرْثى المعتضد :

قضَوْا ماقضَوْا من أَمرِهم ثم قدَّموا ... إماما إمام الخَلْق بين يَدَيْه

وصلوا عليـــه خاشعين كأنهم ... صفوفٌ قيامٌ للسلامِ عليهِ

وقال يرْثيه :

قالت شريرة(٢) ما لجَفْنِك ساهراً ... قَلِقاً وقد هدأَتْ عيونُ النُّوَّمِ

ما قد رأيت من الزمانِ أَحلَّ بى ... هـذا وتحت الصَّدْرِ ما لم تَعْلَمِى

يا نفس صبراً للزمانِ ورَيْبِهِ ... فهو الملِىء بمـا كرهْتِ فسلّمى

إنّ الذى حازَ الفضائلَ كلَّها ... هو ذاك فى قَعْرِ الضريحِ المُظْلِم

أما السيوفُ فمن صنائعِ بَأْسِهِ ... لولاه لم يُرْوَيْن من سَفْكِ الدَّم

وكأنَّ أَحْـداثَ الزمانِ عبيدهُ ... فمتى يؤخِّرهن لا تستقدم(٣)

يَقظَان من سِنَةِ المضيّع قَلْبهُ ... ومعوّل للمُعْـولِ المتظلِّم

---

(١) من ا . (٢) هكذا فى ا ، وفى ط : سريرة . (٣) فى ط : لا تتقدم .

يَرْعَى الضغائن قبل ساعةِ فرصةٍ ... فإذا رآها أمكَنَتْ لم يُحجم

كم فرصةٍ تُرِكَتْ فصارَتْ غصَّةً ... تَشْجَى بطولِ تلهُّفٍ وتَنَـدُّمِ

ولرب كَيْـدٍ ظلَّ يَسْجُد بعدها[(١)] ... فى بِشْرِ وَجْهٍ مطلَقٍ متجهِّمِ

وهى المنـايا إن رمين بنَبْلِها ... يرمين فى نفس الأجلّ الأَعْظمِ

للهِ دَرُّك أى ليث كتيبةٍ ... والخيلُ تعثر بالقَنَا المتحطّم

ولقد عمرت ولا حريم معاند ... حرمٌ ولا الإســلام بالمستسلم

وقال للمعتضد يعزّيه بابنه هرون :

يا ناصرَ الدينِ إذ هُدَّتْ قواعِدُهُ ... وأَصْدَقَ الناسِ فى بُؤْسَى وإنعامِ

وقائدَ الخيـلِ مذ شُدَّتْ مآزِرُهُ ... مذلَّلاتٍ بإسْرَاج وإلجـامِ

كأنهن قناً ليسَتْ لهـا عُقَدٌ ... يهزُّهَا الزَّجْرُ فى كرٍّ وإقدامِ

قُبٌّ كطىِّ ثيابِ العَصْبِ[(٢)] مضمرة ... تقرِّبُ النـارَ بين البيض والهامِ

وسائسَ الملك يرْعاه ويكلؤُهُ ... إذا حَلَا الغُمْضُ فى أجفانِ نُوَّامِ

تَمْرِى أَنامِلُه الدنيـا لصاحبها ... ونَصْلُه مِنْ عِدَاهُ قاطرٌ دامِى

كالسَّهْمِ يبعثُه الرَّامِى فصفحتُه ... تَلْقَى الرَّدَى دونَه ، والفوْقُ للرامِى

لايَشْتَـكِى الدَّهرَ إنْ خَطْبٌ ألمَّ بهِ ... إلّا إلى صَعْدَةٍ أو حَدِّ صَمصامِ[(٣)]

صبراً ، فدَيْنَاكَ إنّ الصبرَ عادَتُنَا ... وإن طُوِينَا على حُزْنٍ وتهيامِ

فبادِرِ الأَجْرَ نحو الصَّبْرِ محتَسِباً ... إنَّ الجزوعَ صَبُورٌ بعد أيامِ

تعزيته بجاريته

ولما ماتت دُرَيدة[(٤)] ، وهى جارِيةٌ [المعتضد و] [(٥)] كانت مَكِينةً عنده ، جزِع عليها جزعاشديدا، فقال له عبيدالله بن سليمان : مثلُك ياأميرَ المؤمنين تَهُونُ عليه المصائبُ؛ لأنك تجدُ من كل فقيدٍ خَلَفا ، وتنالُ جميعَ ماتريد من العِوَض ، والعِوَض لايُوجَد منك ، فلا ابْتَلَى اللهُ الإسلام بفَقْدِك، وعمره بطولِ بقاءِ عُمْرِك ، وكأن الشاعر عَنَى أمير المؤمنين بقوله :

---

(١) فى ا : ولرب كيد ضل يسجد معدما . (٢) فى ط : القصر .

(٣) الصمصام : السيف لا ينثنى . (٤) فى ط : دويرة (٥) من ا .

يُبْكَى علينا ولا نَبْكِى على أَحَدٍ　　لنَحْنُ أغْلَظُ أكباداً من الإبلِ

فضحك المعتضد وتسلّى وعاد إلى عادته .

قال محمد بن داود الجراح : فلقيني عبيدُ الله فأخبرنى بذلك ، وقال : أردت شعرا فى معنى البيت الذى أنشدته فما وجدته ؛ فقلت له قد قال البطين البجلىّ :

طوى الموتُ ما بينى وبين أحبَّةٍ　　بهم كُنتُ أُعْطِى مَنْ أشاء وأمنعُ

فلا يحسب الوَاشُون أنَّ قناتنا　　تَلِينُ ولا أنَّا من الموتِ نَجْزَعُ

ولكنّ للألاّفِ ـ لابدَّ ـ لَوْعَةً　　إذا جملت أقرانها تتطلَّعُ (١)

فكتبه ، وقال : لو حفظته لما عدلتُ عنه .

[من شعر ابن المعتز]

فى ذكر الموتى

وقال ابن المعتز ، وذكر الموتى(٢) :

وسُكّانِ دارٍ لا تزَاوُرَ بينهم　　على قُرْبِ بعضٍ فى المحلَّة من بَعْضِ

كأنَّ خواتِما من الطينِ فوقَهم　　فليس لها حتى القيامة من فَضّ

فى المدح

وقال يمدح عبيد الله بن سليمان :

أيا مُوصِلَ النُّعْمَى على كلّ حالةٍ　　إلىَّ قريباً كنتُ أو نازحَ الدّارِ

كما يلحق الغيثُ البلادَ بسَيْله　　وإن جادَ فى أرضٍ سِواها بإمطار

ويا مقبلاً والدَّهْرُ عنىَ مُعْرِضٌ　　يقسّمُ لَحْمِى بين نابٍ وأظفارِ

ويامَنْ يرَانِى حيث كنتُ بِقلبِهِ　　وكم من أناسٍ لا يرَوْنَ بأَبْصَارِ

لقد رَمَتْ بى آمالُ نفسىَ كلها　　فيالَهْفَ نفسِى لو أعنت بمقدار

ذكرتَ مُنى سَمْع الإمام وعينه　　ورفّعت نارى كى يرى ضوءها السارى

وكم نعمةٍ للهِ فى صَرْفِ نِقْمَةٍ　　ترجّى ومكروهٍ حَلَا بعد إمرار

وما كلُّ ما تَهْوَى النفوسُ بنافعٍ　　ولا كلّ ماتخشى النفوسُ بضرّار

---

(١) فى ط : تتقطع .　　(٢) ديوانه : ١ـ١١٦

من النقد

قوله : * كما يلحق الغيثُ البلادَ بسَيْله * مأخوذ من قول نهشل بن حرى وقد بعث إليه كثير بن الصَّلْتِ كُسوةً ومالا من المدينة :

جزَى اللهُ خيرا والجزاءُ بكفّهِ بنى الصلت إخوان السماحةِ والمجدِ

أتانى وأهْلِى بالعراقِ نداهُمُ كما انقضَّ سيلٌ من تهامة أو نجدِ

وقال ابن المَوْلَى :

سُرِرْتُ بجعفرٍ إذْحَلَّ أَرْضِى كما سُرَّ المسافِرُ بالإيَابِ

كممطورٍ ببلدتِه فأضْحَى غَنِيًّا عن مطالَعة السَّحابِ

* * *

لعبدالله بن طاهر

وبعث عبدُالله[1] بن طاهر إلى أبى الجنوب بن أبى حفصة وهو ببغداد عشرين ألفَ دِرْهم فقال :

لعمرى لنعم الغَيْثُ غيثٌ أصابنا ببغداد من أرض الجزيرةِ وَابِلُه

ونِعْمَ الفتى والبِيدُ بينى وبينهُ بعشرين ألفاً صبَّحَتْنِى رسائِلُه

فكنَّا كحىٍّ صبَّحَ الغَيْثُ أهلهُ ولم تنتجِعْ أظعانُه وحَمَائِله

أتى جودُ عبدِ الله حتى كفت بهِ رواحلَنا سيرَ الفَلاَةِ رَوَاحِلُه

للمتنبي

وكانت بنو كلاب ومن والَاها من العرب بنواحى الكوفه تجمَّعوا وعزَمُوا على أَخْذِ الكوفةِ سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ، فبعث أبو شجاع عضد الدولة دِنير[2] ابن لشكروز فأصلحهما ، وكان أبو الطيب المتنبّى بها فوصله وبعث إليه خلعاً وقاد إليه فرساً بسَرْجٍ ثقيل ، فقال فى قصيدة[3] :

فلو لم يَسِر سِرْنَا إليه بأنفُسٍ غرائِبَ يُؤْثِرْنَ الجيادَ على الأَهْلِ

وما أنا ممن يدَّعِى الشَّوْقَ قلبُه ويعتلّ فى تَرْكِ الزيارةِ بالشُّغْلِ

(١) فى ا : عبيدالله . (٢) فى التبيان : دلير ، وهذا من ا . (٣) ديوانه : ٣-٢٩٤ .

ولكن رأيت الفضلَ فى القصْدِ شِرْكةً   فكان لكَ الفضْلانِ فى القصْدِ والفضْلِ
وليسَ الذى يتتبَّع الوبْلَ رائداً   كمَنْ جاءه فى دارِه رائِدُ الوبْلِ

لابن المعتز فى المعتضد

وكان ابنُ المعتزّ يمدحُ أبا أحمد بن المتوكل ، ويلقّب بالناصر والموفّق ، وكانت حالُه ترامَتْ فى أيام المعتضد إلى غايةٍ لم يبلغها الخليفة ، وقد ذكرها الصولى فى قصيدة [لصاحب المغرب][1] ، فقال وقد اقتصَّ خلفاء بنى العباس من أوّلهم :

ومعتضد مِنْ بعده وموفَّق   يُرَدِّدُ من إرث الخلافةِ ما ذَهبْ
مُوَازٍ لهُـم فى كل فَضْلٍ وسؤدد   وإنْ لم يكن فى العدّ منهم لِمَنْ حَسَبْ

وقال المعتضد ، أو قِيلَ على لسانه لما غلب الموفَّق على أمره :

أليس من العجائبِ أنّ مثلى   يرى ما هانَ ممتنِعاً عليهِ
وتؤخذ باسْمِه الدنيا جميعا   وما مِنْ ذاك شىء فى يديهِ

وشعر ابن المعتز فيه[2] :

إليك امتطينا العِيسَ تنفخ فى البُرى   وللصُّبْحِ طَرْفٌ بالظلام كَحِيل
صدِينَ من التَّهْجِير حتى كأنها   سيوفٌ جلَاها الصَّقْل فهى تحُولُ
فبتْنَا ضيوفاً للفَلَاةِ قِرَاهم   عَنِيق[3] ونَصٌّ دائمٌ وذَمِيلُ
يهزّ برودَ العَصْبِ فَوْقَ متونِها   نسيمٌ كنَفْثِ الراقياتِ عَلِيلُ
ولما طغى أَمْرُ الدَّعىّ رميتَهُ   بعَزْمٍ يردُّ العَضْب وهو فَلِيل
وجرّد من أغماده كل مُرْهَف   إذا ما انتضَتْه الـكفُّ كادَ يَسيلُ
جرَى فوق مَتْنَيه الفِرنْدُ كأنما   تنفّس فيه القَيْنُ وهو صقيلُ
وأعلمته كيف التصافُح بالقنَا   وكيف تُروى البيض وهى مُحُولُ
سريعٌ إلى الأعداء أَما جنابُه   فماضٍ وأمّا وَجْهُه فجميل
ويقرى السؤال العُذْر من بَعد ماله   ويستصغرُ المعروفَ حينَ يُنِيلُ

---

(١) من ا .   (٢) ديوانه : ١ـ١٢٤ .   (٣) العنيق : نوع من السير كالعنق .

من النقد

أخذ معنى قوله : « نسيم كنفث الراقيات عليل » عبد الكريم بن إبراهيم ، فقال :

سلامٌ على طِيب رَوْحاتنا ··· إلى القَصْرِ والنهرِ الخِضْرِمِ[1]

إلى مزبدِ المَوْج طامِى العُبَا ··· ب يقذِفُ بالْبَانِ والساسم[2]

تخالُ به قَطماً مُقْرَما ··· يكرّ على قَطمٍ مُقرمِ[3]

ويَسجُو فيسحب فى ذائل[4] ··· يَمَانٍ تَسهَّم بالأَنجُم

كأن الشمال على وَجْهِهِ ··· بها سقم وهى لَمْ تسقم

ضعيفة رَشّ كنَفْثِ الرّقى ··· على كبد المُذْنف المُغْرَمِ

إذا دَرجَتْ فوقه دَرجَتْ ··· ه فى حَبَك الزَّردِ المحْكِم

وقد جللته بأوراقها ··· فروعٌ غذتْها نِطَافُ السَّمِ

علتْها الحمامُ بتغريدها ··· كما سجَعَ النّوْحُ فى مَأْتَمِ

كأنَّ شعاعَ الضُّحَى بينها ··· على السوسن الغضّ والخُرَّمِ[5]

وشائع من ذَهَبٍ سائل ··· على خُسروانيَّة نُعَّم

رُبًا تتفقأ من فوقها ··· عزَالِى الربيع لهَا المرهم

على كل محبية خلة ··· تسَدَّى على جَدْوَلٍ مفعَم

كما فتل الوَقْف صَوَّاغُه ··· وكالأرقم انْسَابَ للأَرقم

صاحب الزنج

وقول ابن المعتز : ولمـا طغا أمرُ الدعىّ ، يريد صاحب الزنج بالبصرة ، وكانت شوكته قداشتدّت وظُفر به بعد مواقعة كثيرة ، وفى ذلك يقول ابنُ الرومى فى قصيدة طويلة جدا يمدح فيها أباأحمد [الموفق بن المتوكل ، وصاعد بن خالد، والعلاء بن صاعد

لابن الرومى فى المدح

---

(١) الخضرم : العظيم . (٢) الساسم : شجر أسود ، وقيل : هو الآبنوس .

(٣) فحل قطم : صئول ، وأقرم الفحل : أكرمه عن المهنة ، فهو مقرم .

(٤) ذائل : طويل الذيل . (٥) الخرم : نبات الشجر .

ابنه ، وهى من أجود شعره فقال] : (١)

أَبا أحمد أَبليتَ أمّة أحمدٍ ... بلاءً سيرضاهُ ابنُ عمِّك أحمد

حصرتَ عميدَ الزنج حتى تخاذلَتْ ... قُواه وأَودَى زادُه المتزوَّدُ

فظلَّ ، ولم تقتله، يافظُ نفسهُ ... وظلَّ ، ولم تأسِرْه، وهْوَ مقيّدُ

وكانَتْ نواحِيه كِثَافاً فلم تزَلْ ... تحيّفها شَحْذاً كأنك مِبْرَدُ

تفرّق عنه بالمكايد جُنْدَهُ ... ويزدادهم جندا وجندك محصَدُ

ولابسِ سَيْفِ القِرْنِ بعد استلابه ... أَضرُّ له من كاسديه وأكْيَدُ

فما رُمْته حتى استقلَّ برأْسِه ... مكان قناةِ الظهر أسمرُ أَجرَدُ

[هذا مأخوذ من قول مسلم بن الوليد :

ورأس مهراق قد ركبت قلّته ... لدنا يقوم مقام اللِّيتِ والجيد (١)]

ولم تأل إنذاراً له غيرَ أنهُ ... رأى أنّ مَتْنَ البحرِ صَرحٌ ممرَّدُ

سكَنْتَ سكونا كان رَهْناً بوَثْبَةٍ ... عَماسٍ (٢) كذاك الليث للوثْب يلبدُ

هذا مأخوذ من قول النابغة :

وقلت يا قوم إن الليثَ منقبضٌ ... على براثِنِهِ للوَثْبَةِ الضارِى

ويقول فى مدح صاعد :

يقرَّظ إلا أنَّ ما قيلَ دونهُ ... ويوصَف إلا أنه لا يحدَّدُ (٣)

أرقّ من الماءِ الذى فى حُسامِهِ ... طِباعاً وأَمْضَى من شَباهُ وأَنْجَدُ

له سَوْرَة مكتنَّةٌ فى سَكِينةٍ ... كما اكتنَّ فى الغِمْدِ الجُرازُ المهنَّد

كأَنّ أَباه حين سمّاه صاعدا ... رأَى كيف يَرْقَى فى المعالى ويَصْعَدُ

[لما سمع البحترى هـــذا البيت قال : منى أخذه . فى قوله فى العلاء بن صاعد (٤)] :

---

(١) من ا . (٢) العماس : الحرب الشديدة . (٣) فى ط : يتجدد .

(٤) من ا ، وفى ط : وله فى العلاء ، وصاعد . والبيت فى ديوان البحترى ١–١٩٢ .

سمّاه أسرته العلاء وإنما قصدوا بذلك أن يتمّ عُلَاهُ

وهـذا فى قوله ، كما قال [ابن] [(١)] المرزبان وقد أنشد لابن المعتز فى مناقضة الطالبيين [(٢)] :

دَعُوا الأُسْدَ تسكنُ فى غابها ولا تدخلوا بين أَنْيَابها

فنحن ورثْنَا ثيابَ النبى فلِم تجذِبُونَ بهدابها

[قال :] [(١)] قد أخذه من [قول] [(١)] بعض العباسيين :

دَعُوا الأُسْدَ تسكن أَغيالها ولا تقربوها وأَشْبالَها

ولـكنه سرق سَاجاً، وردّ عاجاً ، وغلّ قطيفة، وردّ دِيباجا .

ومن قصيدة ابن الرومى :

تراه على الحَرْبِ العَوَانِ بمنزل وآثارُه فيها ، وإنْ غابَ ، شُهَّدُ

كما احتجب المقدارُ والحـكم حكمهُ على الخلق طرًّا ليس عنه معرَّدُ [(٣)]

البحترى [(٤)] :

ولى الأمور بنفسه ومحلّها متقاربٌ ومرامُها متباعِدُ

يتـكفل الأَدنَى ويُدْرِكُ رأيه الْ أَقصى ويتبعُه الأبىّ العانِدُ

إن غار فهو من النباهة منجد أو غاب فهو من المهابة شاهد

وقال أعرابى يصف رجلا : كان إذا ولّى لم يطابق بين جفونه ، ويرسل العيونَ على عيونه ؛ فهو غائبٌ عنهم ، شاهدٌ معهم ، ، والمحسِنُ آمن والمسىء خائف .

فتى رُوحه روحٌ بسيطٌ كيانه ومسكن ذاك الرُّوحِ نورٌ مجسّدُ

صَفَا ونَفَى عنه القَذَى فـكأنهُ إذا ما استشفَّتْه العقولُ مصعّد

كرمتم فجاش المفحمون بمدحِكم إذا رجزوا فيكم أثبتم فقصَّدوا

أَرَى مَنْ تعاطى ما بلغتم كرائمٍ مَنالَ الثريَّا وهو أَكْمَه مُقْعَد

(١) من ا . (٢) ديوانه : ١ـ٦
(٣) عرد : هرب ، وفى ط : مصرد .
(٤) ديوانه : ٢ـ١٢٠ .

كما أزهرتْ جناتُ عَدْنٍ وأَثمرَتْ ... فأضْحَتْ وعُجْمُ الطيرِ فيها تغرّدُ

وفى هذه القصيدة يقول : (١)

لِمَا تؤْذِنُ الدنيا به من صروفها ... يكون بكاءُ الطفلِ ساعةَ يُولدُ

وإلاّ فما يُبكيه منها وإنها ... لأفسَحُ مما كان فيه وأَرْغَدُ

إذا أَبصر الدنيا استهلّ كأنهُ ... بما سوفَ يَلْقَى من رداها يُهَدَّدُ

قال الصولى : افتتح ابنُ الرومى هذه القصيدة على ما يلزمه (٢) من فتح ما قبل حَرْفِ الروى اقتدارا فحمله ذلك على أن قال :

متاحٌ له مقداره فكأنما ... تقوّض ثَهْلاَن عليه وصندَدُ

ثهلان : اسم جبل ، وهذا لا يصحّ ، إنما هو صندِد بكسر الدال ؛ لأن فعللا لم يجىء إلا فى أربعة أحرف : درهم ، وهِجْرَع [للأحمق] (٣) ، وهِبْلَع للذى يبلعُ كثيرا ، وقلعم للذى يقلعُ الأشياء .

لابن المعتز وغيره فى السيف

وقول ابن المعتز فى وصف السيف (٤) : * كأنما تنفّس فيه القَيْنُ وهو صقيل * معنى بديع فى وصف الفرند ، وقد قال (٥) :

ولى صارمٌ فيه المنايا كوامنٌ ... فما يُنْتَضَى إلاّ لسَفْكِ دماءِ

ترى فوق مَتْنَيْهِ الفِرِنْدَ كأنهُ ... بقية غَيْمٍ رقّ دون سماء

وقال أيضاً إسحق بن خلف :

ألقى بجانب خصرهِ ... أَمضى من الأجل المتاحْ

وكأنما ذَرَّ الهبا ... ء عليه أَنفاسُ الرياحْ

ولما صار سيفُ عمرو بن معديكرب الذى كان يسمّى الصمصامة إلى الهادى ، وكان عمرٌو وهبه لسعيد بن العاص ، فتوارثه ولدُه إلى أن مات المهدى ، فاشتراه

---

(١) الأمالى ٢–٢٨٥ ، اللآلىء : ٩٢٦ ، ديوانه: ٣٩٣ . (٢) فى ط : مالايلزمه .
(٣) من ا. (٤) فى صفحة ٧٧٦ (٥) ديوانه: ٢–١٠٥ .

موسى الهادى منهم بمال جليل ، وكان أوسعَ بنى العباس كفًّا ، وأكثرهم عطاء ، ودعا بالشعراء ، وبين يديه مِكْتَل فيه بدْرَة ، فقال : قولوا فى هذا السيف ؛ فبدر ابن يامين البصرى فقال (١) :

لابن يامين

حاز صمصامةَ الزُّبيدِى من بيـ ... ن جميع الأنام موسى الأمينُ
سيف عَمْرو وكان فيما سمِعْنا ... خيرَ ما أُغمِدتْ عليه الجفونُ
أخضر اللون بين خديه بردٌ ... من ذعاف يميسُ فيه المنون
أوقدت فوقَه الصواعِقُ ناراً ... ثم شابَتْ فيه الذعافَ القُيونُ
فإذا ما سللته بهر الشمـ ... س ضياءً فلم تـكد تستبِينُ
ما يُبالِى مَن انْتضاهُ لحرب (٢) ... أشمالٌ سطَتْ بهِ أو يَمِينُ
يستطيرُ الأبصارَ كالقَبس المشـ ... عَل ما تستقرُّ فيه العيونُ
وكأنّ الفِرِنْد والجوهر الجا ... رى على صفحتَيْه ماءٌ معِين
نِعْمَ مخراق ذى الحفيظة فى الهيـ ... جاء يَعْصَى به ونِعْمَ القرِينُ

قال موسى : أصبت ما فى نفسى ، واستخفَّه [الفرح] (١) فأمر له بالمِكْتَل والسيف ؛ فلما خرج قال للشعراء : إنما حُرِمتم من أَجلى ، فشأنكم المكتل ، وفى السيف غناى [فقام موسى] (٣) فاشترى منه السيف بمالٍ جليل .

البحترى (٤) :

للبحترى

قد جُدْتَ بالطِّرْفِ الجوادِ فثنّه ... لأخيك من جَدْوَى يديك بمُنْصَل
يتناول الرّوحُ البعيدَ مناله ... عفواً ويفتح فى الفضاء المُقْفَل
بإنارة فى كل حَتْفٍ مظلِم ... وهدايةٍ فى كل نفسٍ مجهل
يَغْشَى الوغى فالترس ليس بجُنّةٍ ... مِنْ حدّه والدِّرْعُ ليس بمَعْقِل

---

(١) اللآلئ : ٦٠٤ ، ديوان المعانى ٢ـ٥٢ ، مع الخبر . (٢) فى اللآلئ : ما يبالى إذا الضريبة حانت . (٣) من ا ، وديوان المعانى . (٤) اللآلئ : ٦٠٤ ، ديوانه : ٢ـ٢١٩ ديوان المعانى : ٢ـ٥٣ .

ماضٍ وإن لم تُمْضِه يدُ فارس بطلٍ ومصقولٌ وإن لم يُصْقَل
مُصْغٍ إلى حُكْم الردَى فإذا مَضَى لم يلتفتْ ، وإذا قضَى لم يَعْدِل
متوقّد يَبْرِى بأوّل ضَرْبةٍ ما أدركَتْ ولو أنّها فى يَذْبُل
فكأن فارسه[1] إذااستعصى به الزّ حفان يمصى بالسِّماكِ الأعزلِ
فإذا أَصاب فكل شيء مَقْتَلٌ وإذا أُصيبَ فما له من مَقْتَل
حملت حمائله القديمة بقلة من عَهْدِ عادٍ غضَّةٍ لم تَذْبل

لابن هانئ

وقال أبو القاسم بن هانئ للمعز :

عجباً لمُنْصُلِك المقلد كيفَ لم تَسِلِ النفوسُ عليك مِنْه مَسيلا
لم يخل جبّارُ الملوك بذكرهِ إلا تشحَّطَ فى الدماءِ قتيلا
فإذا رأيناهُ رأينا عِلّةً للنيرات ونيّرا معْلولا
بك حسنه متقلّدا وبَهاؤهُ متنكّبا ومَضاؤُه مسلولا
فإذا غضبتَ علته دونك رُبْدةٌ يَغْدُو بها طَرْفُ الزمانِ كحيلا
وإذا طربت إلى الرِّضا أهدَى إلى شمسِ الظهيرة عارِضاً مصقولا
كتب الفِرِنْد عليه بعضَ صفاتِكم فعرفتُ فيه التاجَ والإكليلا

وقال :

هل يدنينّى من فنائِك سابحٌ مَرِح وجائلة النّسوعِ أَمونُ
ومهنّد فيه الفِرِنْدُ كأنهُ درّ له خَلْفَ الفراتِ كمينُ
غضب المضارب مقفرا من أَعين لكنّه من أَنفس مسكون

للكندى

وأهدَى الكندى إلى بعض إخوانِه سيفا فكتب إليه : «الحمدُ لله الذى خصَّكَ بمنافع كمنافع ما أهديتَ ، وجعلكَ تهتزُّ للمكارم اهتزازَ الصارم ، وتَمضِى فى الأمورِ مضاء حَدِّه المأثور ، وتصونُ عرضك بالإرفادِ ، كما تُصانُ السيوفُ بالأغمادِ ، ويطرد

---

(١) فى الديوان : شاهره .

ماء الحياءِ فى صفحات خدّك المشوف ، كما يشفّ الرونقُ فى صفائح السيوف ، وتصقلُ شرَفك بالعطياتِ ، كما تصقلُ متونُ المشرفيّات .

[وفد الشام إلى المنصور]

قدم على أبى جعفر المنصور وَفْدٌ من الشام بعد انهزام عبد الله بن على ، وفيهم الحارثُ بن عبد الرحمن الغفارى ، فتكلَّم جماعةٌ منهم ، ثم قام الحارث فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنا لَسْنا وَفْدَ مباهاة ، ولكنا وفدُ توبة استخفَّت حليمَنا؛ فنحن بما قدمنا معترِفون ، وبما سلَف منّا مُعتذِرون ، فإنْ تعاقِبْنا فبما أجرَمْنا ، وإن تعفُ عنا فطالما أحسنْتَ إلى من أساء. فقال المنصور : أنتَ خطيب القوم ؛ وردّ عليه ضياعَه بالغُوطة.

وقال رجلٌ من أهل الشام للمنصور : يا أمير المؤمنين ، من انتقم فقد شَفَى غيظَه وانتصف ، ومن عفا تفضّل ، ومن أخذ حقَّه لم يجبْ شكره ، ولم يذكر فَضْله ؛ وكَظْمُ الغيظِ حلم ، والتشفّى طَرَف من الجزَع . ولم يمدح أهلَ التقى والنهى من كان حليما بشدَّةِ العقاب، ولكن بحُسْنِ الصفْحِ والاغتفار، وشدة التغافل. وبعدُ فالمعاقِب مستدعٍ لعداوةِ أولياء المذْنِب ، والعافى مسترعٍ لشكرهم آمِنٌ من مكافأتهم ، ولأن يُثنَى عليك باتِّساع الصدْرِ خيرٌ من أن توصَف بضِيقِه، على أنَّ إقالتك عثراتِ عبادِ الله موجبٌ لإقالةِ عَثْرَتك من ربهم، وموصول بعفوه، وعقابُك إياهم موصولٌ بعقابه، قال الله عز وجل : «خُذِ العَفْوَ وأْمُر بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عن الجاهلين».

وقال بعض الكتاب لرئيسه وقد عتب عليه : «إذا كنتَ لم تَرْضَ منى بالإساءةِ فلم رضيت من نفسك بالمكافأة» .

وأذنب رجلٌ من بنى هاشم فقبضه المأمون فقال : يا أميرَ المؤمنين ، مَنْ حمل مثلَ دالَّتى (١) ، ولَبِس ثَوْبَ حرمتى ، غُفِرَ له مثلُ زلَّتى ، قال : صدَقْت وعفا عنه .

---

(١) فى ط : حمالتى .

ولما دخل بعضُ الكتاب على أميرٍ بعد نكبة نالَتْه فرأى من الأمير بعضَ الازْدِرَاء. فقال له: لا يَضَعُنى عندك خمولُ النَّبْوة، وزوال الثروة؛ فإنّ السيفَ العتيق إذا مسَّهُ كثيرُ الصدَإ استغنى بقليلِ الجَلاءِ حتى يعودَ حدّه، ويظهر فِرِنْدُه؛ ولم أَصِفْ نفسى عجباً، لكن شُكراً. وقال صلى الله عليه وسلم: «أنا أشرفُ وَلد آدم ولا فخر»؛ فجهر بالشكر، وترك الاستِطَالَةَ بالكِبْرِ.

[المعتصم]

تميم بن جميل عنده

وكان تميم بن جميل السدوسى [قد أقام][1] بشاطئ الفرات، واجتمع إليه كثيرٌ من الأعراب، فعَظُم أمرُه، وبَعُد ذكره؛ فكتب المعتصمُ إلى مالك بن طوق فى النهوض إليه، فتبدَّد جَمْعُه، وظفِر به، فحَمَله موثقا إلى بابِ المعتصم، فقال أحمد ابن أبى دواد: مارأيتُ رجلا عاينَ الموتَ، فما هالَه ولا شغله عما كان يجِبُ عليه أن يفعلَه إلا تميم بن جميل؛ فإنه لما مثَلَ بين يدى المعتصم وأُحضر السيفَ والنّطْعَ، ووقف بينهما تأمله المعتصم، وكان جميلا وَسيما، فأَحبّ أن يعلمَ أين لسانُه من منظره، فقال: تكلم يا تميم. فقال: أمَّا إذ أذِنْتَ يا أمير المؤمنين فأنا أقولُ: الحمدُ لله الذى أحسنَ كلَّ شىء خلقه، وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طين، ثم جعل نَسْلَه من سُلَالةٍ من ماءٍ مَهِين، [ياأمير المؤمنين:][1] جبر [اللهُ][1] بك صَدْعَ الدِّين، ولمَّ بك شَعثَ المسلمين، وأَوضحَ بك سُبُل الحقّ، وأَخمدَ بك شِهابَ الباطل؛ إن الذنوبَ تخرس الأَلسُن الفصيحة، وتُعْيِي الأفئدةَ الصحيحة، ولقد عظُمَت الجريرةُ، وانقطعَت الحجّة، وساءَ الظنّ، فلم يبق إلا عفوُك أوانتقامُك، وأرجو أن يكونَ أقربهما منى وأسرعهما إلىّ أشبههما بك، وأولاهما بكرمك، ثم قال:

أَرى الموتَ بين السيفِ والنّطْعِ كامنا ... يُلاحظنى من حيثما أتلفَّت
وأَكبرُ ظنّى أنكَ اليومَ قاتِلى ... وأىُّ امرئٍ مما قضَى اللهُ يفلت

(١) من ا.

وأى امرئٍ يأتى بعُذْرٍ وحُجَّةٍ   وسيفُ المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
وما جزَعِى مِنْ أَن أموتَ وإننى   لأَعلمُ أَنَّ الموتَ شىءٌ مؤقَّتُ
ولكنّ خَلْفِى صِبْيةً قد تركتهم   وأَكبادُهم من حَسْرةٍ (١) تتفتَّتُ
فإنْ عشتُ عاشُوا سالمين بغِبْطةٍ   أَذُودُ الرَّدَى عنهم وإن متّ موتوا
وكم قائلٍ لا يبعد اللهُ دارَهُ   وآخر جَذْلانٌ يسرُّ ويشمتُ

فتبسَّم المعتصم ، وقال : يا جميل ، قدوهبتُك للصِّبية ، وغفرتُ لك الصَّبْوَة ، ثم أمر بفكّ قيودِه ، وخلع عليه ، وعقد له على شاطئ الفُرات .

كتابه إلى عبد الله بن طاهر

وكتب المعتصمُ حين صارت إليه الخلافةُ إلى عبد الله بن طاهر : عافانا اللهُ وإياك ، قد كانت فى قلبى منك هَنَاتٌ (٢) غفرها الاقتِدار ، وبقيَتْ حزازات أَخَافُ منها عليك عند نظرى إليك ؛ فإذا أَتاك أَلْفُ كتابٍ أستقدمك فيه فلا تقدم ، وحَسْبُكَ معرفةً بما أنا منطوٍ لكَ عليه إطّلاعِى إياك على مافى ضميرى منك ، والسلام .

العباس بن المأمون والمعتصم

قال العباسُ بن المأمون : ولما أفضَتْ الخلافةُ إلى المعتصم دخلتُ فقال : هذا مجلسٌ كنت أَكْرَهُ الناسِ لجلوسى فيه ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أنتَ تعفُو عما تيقَّنته ، فكيف تعاقب على ما توهّمته ؟ فقال : لو أردت عقابَك لتركت عتابك .

بعض صفاته

وكان المعتصم شَهْماً شجاعاً ، عاقلا مفوَّها ، ولم يكن فى [خلفاء] (٣) بنى العباس أمىّ غيره؛ وقيل [بل كان يكتبُ خطّا ضعيفا . و] (٣) كان سبب ذلك أنه رأى جنازة

سبب كونه أميا

لبعضِ الخدَم ، فقال : ليتنى مثله لأتخلّص من الكُتّاب ! فقال الرشيد: واللهلاعذّبتك بشىء تختارُ عليه الموتَ . قال أبو القاسم : الزجاجى : وهذا شىء يُحْكَى من غير رِواية صحيحة إلا أنَّ جملته أنه كان ضعيفَ البَصر بالعربية .

وقرأ أحمد بن عمار المذرى (٤) ، وكان يتقلّد العَرْضَ عليه فى الحضرة كتاباً فيه:

---

(١) فى ا : من حسرتى . (٢) فى ط : هنوات . (٣) من ا .
(٤) فى ط : الشيذرى .

« ومطرنا مطراً كثُرعنه الـكَلَأ ». فقال له المعتصم : ما الـكَلأ ؟ فقال : لا أدرى . فقال : إنا لله وإنّا إليه راجعون ! خليفة أُمىّ وكاتبٌ أُمى ! ثم قال : من يقرب منا من كتّاب الدار ؟ فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يتولّى قهرمَة الدار ، ويُشْرِفُ على المطبخ فأحضره ، فقال : ماالـكَلأ ؟ فقال : النبات كله رطبه ويابسه؛ فالرطب منه خاصة يقال له خَلا ، ومنه سمّيت المخلاَة ، واليابس يقال له حشيش ؛ ثم اندفع فى صفاتِ النباتِ من ابتدائه إلى اكتماله [1] إلى هَيْجِه ، فاستحسنَ ذلك المعتصم ، وولّاه العَرْض من ذلك اليوم ، فلم يزَلْ وزيراً مدةَ خلافتِهِ [وخلافةِ الواثق] [2] ، حتى نـكبه المتوكل بحقودٍ حقدها عليه أيام أخيه الواثق .

وقال الرياشى : كتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدّده فيه فأَمر بجوابه ، فلما قُرِئَ عليه لم يَرْضَ ما فيه ، وقال لبعض الـكتاب : اكْتب « أمّا بعدُ فقد قرأت كتابك ، وفهمت خطابَك ؛ والجوابُ ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلمُ الـكافرُ لمن عُقْبَى الدار » .

وهذا نظيرُ قول قَطَرِى للحجّاج، وقدكتب إليه كتاباً يتهدّده ، فأجابه قطرى: أما بعد، فالحمدُ للهِ الذى لو شاء لجمع شخصَيْنا؛ فعلمت أَنّ مُثاقَفة الرجال [أَقوم] [3] منْ تَسْطِير المَقال والقلم [4] .

[كعب بن معدان عند الحجاج]

ولما افتتح المهلبُ خراسان ، ونَفَى الخوارج عنها ، وتفرّقت الأزارقة كتب الحجاجُ إليه أن اكتب لى بخبر الوقيعة ، واشرح لى القصةَ حتى كأنى شاهِدُها ؛ فبعث إليه [5] المهلبُ كعب بن معدان الأشعرى ، فأنشده قصيدة فيها ستون بيتا تقتصُّ خبرهم ، لا يخرم منه شيئاً ؛ فقال له الحجاج : أخطِيب أم شاعر ؟ قال له :

---

(١) فى ا : اكتهاله . (٢) ليست فى ا (٣) ليس فى ا .
(٤) فى ا : والسلم . (٥) الأمالى : ١ـ٢٦٥، اللآلئ: ٥٨٨.

كلاهما ، أعزّ الله الأمير ! قال : أخبرنى عن بنى المهلب فقال له : المغيرةُ سيدهم ، وكفاك بيزيد فارسا ، وما لقى الأبطال مثل حبيب ، ومايستحيي شجاع أن يفرّ من مُدْرِك ، وعبد الملك موتٌ [ذُعَاف وسمّ] (١) ناقع ، وحسبك بالمفضّل فى النّجْدَة ، واسْتَجْهِزْ (٢) قبيصة ، ومحمد ليث غاب . فقال الحجاج : ما أراك فضلت عليهم واحدا منهم ؛ فأخبرْنى عن جملتهم ومن أفضلهم ؟ فقال : هم ـ أعزَّ اللهُ الأميرَ ـ كالحَلْقَة المفرَغَة لا يُدْرَى أين طرفها . قال : إنّ خبرَ حَرْبِكم كان يبلغنى عظيما ، أفكذلك كان ؟ قال : نعم أيها الأمير ، السماع دون العِيان . قال : أخبرنى كيف رِضَا المهلّبِ عن جنده ورِضَا جنده عنه ؟ قال : أعزّ الله الأمير ، له عليهم شفقةُ الوالد ، ولهم به برّ الولد . قال : أخبرنى كيف فاتكم قَطَرى ؟ قال : كدناه فى منزله فتحوّل عنه ، وتوهّم أنه كان كادنا بذلك. قال: فهلا اتبعتموه ، قال: الكلب إذا أُجحر عقر . قال: المهلبُ كان أعلمَ بك حيث أرسلك .

[بشر بن مالك عند الحجاج]

وقد رُوِى أنّ المهلبَ لما فرغ من قتل عبد ربه الحرورى دعا بشر بن مالك فأنفذه بالبشارة إلى الحجّاج ، فلما دخل على الحجاج قال : ما اسْمُك ؟ قال : بِشر ابن مالك . فقال الحجاجّ: بشارة وملك! كيف خلّفتَ المهلب ؟ قال : خلفته وقد أَمِن ما خاف ، وأَدرك ما طَلبَ . قال : كيف كانت حالُكم مع عدوكم ؟ قال : كانت البداءة لهم ، والعاقِبَةُ لنا . قال الحجاجُ : العاقبة للمتقين . ثم قال : فما حالُ الجند ؟ قال : وسعَهم الحقُّ ، وأغناهم النَّفَل ؛ وإنهم لمع رجلٍ يسوسُهم سياسة الملوك ، ويقاتِلُ بهم قتالَ الصعلوك، فلهم منه برُّ الوالد ، وله منهم طاعة الولد. قال: فما حال ولد المهلب ؟ قال: رعاةُ البياتِ حتى يؤمنوه ، وحُماةُ السَّرْحِ حتى يردوه . قال : فأيهم أفضل ؟ قال : ذلك إلى أبيهم، قال: وأَنت أيضا ، فإنى أَرى لك لسانا وعبارة،

---

(١) من ا . (٢) فى ط : وأسمحهم .

قال : هم كالحَلْقة المفرغة لا يُدرى أين طرفها . قال : ويحك : أ كنت أعددت لهذا المقام ِ هذا المقال ؟ قال : لا يعلم الغيبَ إلا اللهُ .

[أبو الصقر]

ودخل أبو الصقر قَبْلَ وزارته على صاعِد بن مخلد وهو الوَزير حينئذ ، وفى المجلس أبو العباس بن ثوابة ، فسأل الوزيرُ عن رجل ، فقال: أُنفى[١] ، يريد نفى، فقال ابن ثوابة : فى الخَرْء . فتضاحك به أهل المجلس فقام أبو الصقر مغضبا[١] .

وكان أبو العيناء[٢] يُعَادِى بنَ ثوابة لمُعَاداته لأبى صقر ؛ فاجتمعا فى مجلس صاعد فى غدِ ذلك اليوم فتلاحَيا ، فقال ابنُ ثوابة : أما تعرفنى ؟ فقال : بلى أعرفك ضَيِّقَ العطن ، كثيرَ الوَسَن ، خارًّا على الذَّقن ؛ وقد بلغنى تعدّيك على أبى الصقر ، وإنما حلم عنك ؛ لأنه لم يَجِدْ لك عزًّا فيذلّه ، ولا عُلوًّا فيضَعه ، ولا مَجْداً فيهدمه ؛ فعافَ لحمَك أنْ يأ كلَه، ودمَك أن يسفِكَه . فقال ابنُ ثوابة: ما تسابّ إنسانان إلاّ غلب أَلْأَمها . فقال أبو العيناء : فلهذا غلبتَ بالأمس أبا الصقر !

ومما يُعَدُّ من مكارم أبى الصقر أن ابنَ ثوابة دخل عليه فى وزارتِه ، فقال : تالله لقد آثَرَكَ اللهَ علينا وإن كنّا لخاطئين . فقال أبو الصقر : لا تثريبَ عليك يغفر الله لك [وهو أرحم الراحمين][٣] . فما قصر فى الإحسانِ إليه ، والإنعام عليه ، مدة وزارته .

ولما ولى أبو الصقر الوِزارة خيّر أبا العيناء فيما يحبّه حتى يفعلَه به ، فقال : أُريد أن يكتبَ [لى الوزير][٣] إلى أحمد بن محمد الطائى يعرِّفُه مكانى ، ويلزمُه قضاءَ حق مثلى :

فكتب إليه كتابا بخطّه فوصّله إلى الطائى ، فسبب له فى مدة شهر مقدار ألف

---

(١) مكان هذه العبارة فى ط عبارة مضطربة، وهذه من ا .

(٢) ذيل اللآلئ : ٤٥ . (٣) من ا .

دِينار وعاشره أجمل عشرة ، فانصرف بجميع ما يحبّه .

وكتب إلى أبي الصقر كتابا مضمنه: أنا ـ أعزّك الله ـ طليقُك من الفقر ، ونقيذك من البؤس ، أخذْتَ بيدى عند عَثْرةِ الدهر، وكَبْوَةِ الكِبر، وعلى أية حالٍ حين فقدت الأولياءَ والأشكال والإخوان والأمثال ، الذين يفهمون فى غيرِ تعَب ، وهم الناسُ الذين كانوا غياثاً للناس، فحللت عقدة الخلة، ورَدَدْتَ إلىّ بعد النفور النعمة ، وكتبت لى كتابا إلى الطائى، فكأنما كان منه إليك، أتيته وقد استصعبَتْ علىَّ الأمور، وأحاطَتْ بى النوائب؛ فكثّر من بِشْره وبذَل من يُسْرِه ، وأعطى من ماله أكرمَه ، ومن برّه أحكَمه ، مُكْرِماً لى مدةَ ما أقمْت ، ومُثْقِلا لى من فوائده لما ودّعت ، حكمنى فى ماله فتحكّمتُ ، وأنتَ تعرفُ جَوْرِى إذا تمكّنتُ، وزادنى من طَوْله فشكَرْتُ ؛ فأحسن اللهُ جزاءك ، وأعظم حباءك ، وقدَّمنى أمامك ، وأعاذنى من فَقْدِك وحمامِك ؛ فقد أنفقتَ علىّ مما ملكك الله ، وأنفقتُ من الشكر ما يسَّره اللهُ لى ، واللهُ عزّ وجل يقول : لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ من سَعَتِه . فالحمدُ لله الذى جعل لكَ اليدَ الغالبةَ(١)، والرتبة الشريفة . لا أَزال اللهُ عن هذه الأمة ما بسط فيها من عَدْلِك ، وبثَّ فيها من رِفْدِكَ .

[أبو العيناء يذم ابن الخصيب]

قطعة مختارة من نسخة الكتاب الذى عمله أبو العيناء فى ذمّ أحمد بن الخصيب لَمّا نُكِب على ألسنةِ الكتّاب والقوّاد وأَرباب الدولة [فى ذلك الوقت](٢) . قال : ذكره محمد بن عبد الله بن طاهر فقال : مازال يَخرق ولا يرقَع ، وما زِلْتُ أتوقّع له الذى وَقَع فيه . [وذكره أنامش ، فقال : غدر بمن آثره ، وتخطّى إلى مالا يقدرهُ ، فحل به ما يحذره . وذكره بُغاء فقال : أبطرَتْه النعمة ففجأته النقمة](٢) . وذكره

(١) فى ط : العالية . (٢) من ا .

وصيف فقال : تَرَكَ العقلاء على يَأْسٍ مرتبته والحمْقَى على رجاء درجته ! وذكره موسى بنُ بغاء ، فقال : لولا أنَّ القَدَر يعشي البَصَر لما نَهَى فينا ولا أَمر . وذكره فارسُ بن بغاء فقال : لم تتمّ له نِعْمَة ؛ لأنه لم تكُنْ له فى الخير هِمَّة . وذكره الفضل ابن العباس فقال : إن لم يكنْ تاريخ البلاء فما أعظم البلوى . وذكره هرون بن عيسى فقال: كانت دولةً من دُوَلِ المجانين، خرجَتْ من الدنيا والدّين. وذكره المعلى بن أيوب، فقيل له : ما أعجَب ما نكبَ ، فقال : نعمتُه أَعجبُ من نَكْبته ! وذكره ميمون ابن ابراهيم ، فقال : لو تأمّل فعاله فاجتنَبها لاستغنى عن الآداب أن يطلبها ! وذكره محمد بن نجاح فقال : لئن كانت النعمةُ عظمَتْ على قوم خرجَ عنهم لقد عَظُمَت المصيبةُ على قومٍ نزل فيهم ! وذكره على بن [يحيى بن][1] المنجم ، فقال : لم يكن له أوّل يَرْجِعُ إليه ، ولا آخر يعودُ عليه ، ولا عقل فيزكو لديه[2] ! وذكره محمد بن موسى ابن شاكر المنجم فقال : [قبّحه الله][1] إن ذكرتَ ذَا فَضْلٍ تنقّصه لما فيه من ضِدّه ، أو ذكرت ذا نَقْصٍ تولاّه لما فيه من شكله . وذكره ابنُ ثوابة فقال : امرؤ أساه عِشْرَة الأحرار، فأصبح مُقْفِر الديار . وذكره حجاج بن هرون فقال : ما كان له فى الشرف أسبابٌ مِتَان ، ولا فى الخير عاداتٌ حِسان . وذكره [أحمد بن حمدون فقال : إن منحته القدرة لقد حملته النكبة. وذكره[1]] محمد بن الفضل فقال : ما زال يستوحِشُ بالنعمة حتى أَنِس بالنقمة . وذكره عبدالله بن فراس فقال: كنت إذانصحته زنّانى، وإذاغششته منّانى. وذكره أبوصالح بن عمار فقال: لئن علا بحظ لقد انحط بحق. وذكره سعيد بن حميد فقال : إذا أصاب أحجم ، وإذا أخطأ صمم .

[أبو بكر سيبويه وأهل مصر]

وكان فى هذا العصر بمصر أبو بكر المعروف بسيبويه ناقلة البصرة يُشْبِهه فى حضورِ جوابِه وخطابِه ، وحُسْنِ عبارته ، وكَثْرَة رِوَايته ، وكان قد تناول البلاذُر ؛

---

(١) من ا . (٢) فى ط : فيدركه عاقل لديه .

فعرضت له منه لُوثة ، وكان أكثرُ الناس يتبعونه ويكتبون عنه ما يقول ، قال يوما للمصريين : يأهل مصر ، أصحابنا البغداديون أحزَمُ منكم ، لا يقولون بالولد ، حتى يتّخِذوا له العُقَد والعدد ؛ فهم أبدا يعتزلون . ولا يقولون باتخاذ العَقَار خوفا أن يملِكهم سوءُ الجوار ، فهم أبدا يكنزون . ولا يقولون باتخاذ الحرائر خوفاً أن تتوقَ أنفسُهم إلى السَّرَارِى فهم أبدا يتسرَّرُون . ولا يقولون أبدا بإظهار الغنى [فى مكان] (١) عُرِفوا فيه بالفقر ، فهم أبداً يسافرون . ووقف يوماً بالجامع وقد أخذت الخلق مأخذَها ، فقال: يأهل مصر ؛ حيطانُ المقابر أنفعُ منكم ، يُسْتَتَرُ بها من التعب ، ويستَدْفأُ بها من الريح ، ويستظَلُّ بها من الشمس . والبهائم خيرٌ منكم تُمتطى ظهورُها ، وتُحتذَى جلودها ، وتؤكل لحومُها .

سيبويه وابن خنزابة

وكان أبو الفضل بن خنزابَه الوزير ، ربّما رفع أنفَه تِيهاً ، فقال له سيبويه ، وقد رآه فعل ذلك : أشمَّ منى الوزيرُ رائحةً كريهة فشمرّ أنفه ، فأطرق واستعمل النهوض ، فخرج سيبويه ، فقال له رجل : من أينَ أقبلت ؟ فقال : من عند الزَّاهِى بنفسه ، المدلّ بفرسه ، المستطيل على أبناء جِنْسه .

واستأذن على مسلم بن عبيد الله العلوى ، ومسلم من أهل الحجاز نزل مصر ، فحجب عنه ، فقال : قولوا له : يرجع إلى لبس العَبَاء (٢) ، ومَصّ النوى ، وسُكْنى الفَلا ، فهو أشبَهُ به من نعيم الدنيا .

وكان على شرطِ كافور الإخشيدى أحدُ الخاصَّةِ ، فوجَد عليه سيبويه فى بعض الأمرِ ، فعزل عن الشرطة ، فوليها زَكى (٣) صاحب الراضى ، فلم يحمده أيضاً ، فوقف لكافور وهو مارٌّ إلى الصلاة يوم الجمعة ، فقال : أيها الأستاذ ، ولَّيت ظالماً ، وعزلْتَ ظالماً ، قليل الوفاء ، كثير الجفاء ، غليظ القفا . فتبسّم ابن بُركٍ البغدادى ،

---

(١) ليس فى ا . (٢) كالعباءة . (٣) فى ط : زكى .

وكان يسايرُ كافوراً ، فقـال : وهذا ابن بركٍ ممن يغرّك[1] ، لن ينفعك ولن يضرّك .

حديثه مع الأمير مفلح

وأخلى الحمام لمفلح الحسينى ، فأتى سيبويه ليدخلَ فمُنِـع ، وقيل : الأمير مفلحٌ به . فقال : لا أنقى الله مغسولَه ، ولا بلّغه سُولَه ، ولا وقّاه من العذاب مهُولهُ . وجلس حتى خرج فقال : إنّ الحمام [لا يُخلى إلاّ] لأحدٍ ثلاثة : مبتـلًى فى قُبله ، أو مبتلى فى دُبره ، أو سلطان يخافُ من شره ، فأى الثلاثة أنت ؟ قال : أنا المقـدَّم .

حديثه مع الخازن

وأحضره أبو بكر بن عبد الله الخازن فقال : قد بلغنى بذاء لسانِك وقبيحُ معامَلتاك للأشراف ؛ فاحذَرْ أن تعودَ فينالَكَ منى أشدُّ العقوبة ؛ فخرج [متحزنا . فـكان][2] الولدان يتولّعون به ويذكرون له الخازنَ ، فيشتدّ عليه ذلك ، فينصرف ولا يكلّمهم ؛ فمرَّ به رجل يكنى أبا بكر من ولد عقبة بن أبى معيط ، وغلامٌ قد ألحّ[3] عليه بذلك ، فضحك المعيطى ، فقال للغلام : ضرب الله عنق الخازن كما ضرب النبىّ صلى الله عليه وسلم عنق عقبة بن أبى معيط على الـكُفْر ، وضرب ظَهْرَ أبيك بالسوط كما ضربَ علىّ بن أبى طالب بأمر عثمان رضى الله عنهما ظهر الوَليد بن عقبة على شُرْب الخمر ، وألحقك يا صبىّ بالصبيَة ، يريد قولَ النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال له عقبة لَما أمر النبي صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه بقَتْـله : « فمَنْ للصِّبية يا رسول الله » . قال : النارُ لك ولهم . فانصرف المعيطى وبَطْنُ الأَرضِ أَحبُّ إليه من ظَهْرِها .

[رجع إلى أبى العيناء]

أبو العيناء أول عاق

وقال أبو العيناء : أنا أوّلُ من أَظهر العقوقَ لوالديه بالبَصرة ، قال لى أبى : إنَّ اللهَ قد قرَنَ طاعتَه بطاعتى ، فقال تعالى : أَنِ اشْـكُرْ لى ولوالديك . فقلتُ :

---

(١) فى ا : خرك مفرك. (٢) ليس فى ا . (٣) فى ط : لج .

يا أبت ، إنّ اللهَ تعالى قد أمِننى عليك ولم يأمنك على . فقال تعالى : ولا تقتلوا أولادكم خَشْيَةَ إملاقٍ نحن نرزقهم وإيا كم .

وقال أعرابى لأبيـه : يا أبت ، إنّ كبيرَ حقك لا يبطل صغير حـقّى عليك ، والذى تمتّ به إلىّ أمتّ بمثله إليك ، ولست أزعُمُ أنَّا سواء ، ولـكن لا يحل لك الاعتـداء .

ودخل على عبيد الله بن سليمان فضمّه إليه ، فقال : أنا إلى ضمّ الـكفاية أَحوجُ منى إلى ضَمّ اليدَيْن ، وقال له مرة : أنا معك مقبوض الظاهر مرحوم الباطنِ (١) .

قال أبو الطيب المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا وأَعْجَبها   أنى بما أنا باكٍ منه محسودُ

وقال له رجل : يا مخنَّثُ . فقال : وضربَ لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَه !

وذكر أبو العيناء محمد بن يحيى بن خالد بن برمك ، فقال : بأبى وأمى دام الوَجْهُ الطَّلْق ، والقول الحقّ ، والوعد الصّدق ، نيته أفضلُ من علانيته ، وفعلُه أفضل من قوله . وقال له المتوكل : ما أشدّ مامرّ عليك من فَقْدِ بصرك ؟ فقال : ما حُرِمْتُ منه من النظر إليك أيها الأمير ! وقال لعبيد الله بن يحيى : مسَّنا وأهلنا الضرّ ، وبضاعتُنا الحمدُ والشكر ، وأنت الذى لا يخيب عنده حرّ . وقال له يوما : قد اشتدّ الحجاب ، وفحش الحرمان ، فقال : ارفق يا أبا عبد الله ، فقال: لو رفق بى فعلُك لرفق بك قولى! وقال له : أيها الوزير ، إذا تغافل أهلُ التفضل هلك أهل التجمّل . وذم رجلا فقال : لا يعرفُ الحقَّ فينصره ، ولا الباطلَ فيُنْكِره . وقيل له : ما أَبلغ الـكلام ؟ فقال : ما أسكَتَ المُبْطِل ، وحَيّر المحق . وقيل له : مات الحسن بن سهل . فقال : والله لئن أتعب المادِحينَ لقد أطال بكاء الباكين ، والله لقد أُصيب بموتِهِ الأنام ، وخرست بفقده الأقلام .

---

(١) فى ط : مغبوط الظاهر موجودالباطن .

[من الرثاء]

لأشجع السلمى

قال أشجع بن عمرو السُّلمى[(١)] :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يَبْقَ مَشْرِق ... ولا مغربٌ إلّا له فيه مادِحُ
وما كنتُ أدْرِى ما فواضلُ كفِّهِ ... على النـاس حتى غيّبَتْه الصفائحُ
فأَصبح فى لَحْدٍ من الأرض ميّتا ... وكانت له حيّا تضيق الصحاصِحُ[(٢)]
كأن لم يمت ميتٌ سواكَ[(٣)] ولم تقُمْ ... على أحدٍ إلّا عليك النوائحُ
فما أنا من رُزْءٍ وإنْ جَلَّ جازعٌ ... ولا بسرورٍ بعدَ موتِك فارح
لئن حسُنَتْ فيك المراثى وذكرُها ... لقد حسُنَتْ من قبلُ فيك المدائحُ
سأَبكيكَ ما فاضَتْ دموعى فإن تَغِضْ ... فحسُبك منى ما تُكِنُّ الجوانحُ

للحسين بن مطير

قوله : * وكانت به حيًّا تَضيقُ الصحاصِحُ * يتعلّق بقول الحسين بن مطير فى مَعْن بن زائدة[(٤)] :

أَلِمَّا على مَعْنٍ وقُولا لقبرهِ ... سقَتْكَ الغوادِى مَرْبعاً ثم مَرْبعاَ
فيا قبرَ معنٍ أنت أولُ حفرةٍ ... من الأرض خُطَّتْ للسماحة مَضْجعا
ويا قبرَ مَعْنٍ كيف واريتَ جودَهُ ... وقد كان منه البَرّ والبحر مُتْرَعاَ
بلَى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ ميّتٌ ... ولو كان حيا ضِقْتَ حتى تصدَّعا
فتًى عِيشَ فى معروفه بعد موتِهِ ... كما كان بعد السيل مَجْرَاه مَرْتَعا
ولما مضَى معنٌ مضى الجودُ وانقضَى ... وأصبح عِرْنِينُ المكارم أجدعاَ

وهذا كقول عبد الصَّمد بن المعذل فى عمرو بن سعيد بن سَلْم الباهلى[(٥)] :

أقبر أبى أميـة لو عُلاهُ ... حملتَ إذاً لضِقْتَ به ذِراعا
حويتَ الجودَ والتقوى وعمراً ... فكيف أطَقْتَ يا قبرُ اضطلاعا

---

(١) اللآلىء : ٧٤٥ ، الأمالى : ٢ـ١٢٠ ، الوفيات ١ـ٤٢٩ . (٢) الصحاصح: جمع صحصح : ماالستوى من الأرض . (٣) فى الأمالى: حى سواك. (٤) اللآلىء : ٦٠٩، الأمالى : ١ـ٢٧٥ ، الفوات : ١ـ١٨٥ ، الوفيات : ٢ـ١١٢ . (٥) فى ط : مسلم .

لموتهمُ أطَقْتَ لهم ضمانا ولولا ذاكَ لم تُطِقِ اتّساعا

وقول أشجع : * لئن حسنت فيك المراثى وذكرها * من قول الخنساء : للخنساء

ياصَخْرُ بعدَكَ هاجَنى استعبارى شانيكَ باتَ بذلّتى وصَغارى

كنا نعـدّ لك المدائحَ مدّةً فاليوم صرتَ تُنَاحُ بالأشعار

وقالت جنُوبُ أُخت عمرو [ذى الـكلب][1] : لجنوب

سألتُ بعمروٍ أخى صَحْبَهُ فأفظعنى حين ردُّوا السؤالا

فقـالوا أُتيحَ له نائمـا أعزُّ السلاح عليـه أجَالا[2]

أُتيحَ له نَمِرَا أجْبـلٍ[3] فنالا لعمركَ منـه ونالا

فأقسمُ ياعمـرُو لو نبَّهاكَ إذًا نبَّها منك داءً عُضَالا

[إذًا نبَّها لَيْثَ عِرِّيسةٍ مُبيدا مُفيتا نفوسا ومالا][4]

إذًا نبَّها غـيرَ رِعديدةٍ ولا طائشا دهشاً حين صَالا

هما معْ تصرف ريْبِ المنون من الدهر ركْنا شديداً أمالا

وقالوا قتلنـاهُ فى غارةٍ بآيةِ أَنْ قد ورثنا النِّبالا

فهلّا إذًا قبـلَ ريب المنون فقد كانَ فذًّا وكنتم رجَالا

وقد علِمَتْ فَهْمٌ عنـد اللقاء بأنهمُ لك كانُوا نِفَالا

كأنهمُ لم يحسُّوا بهِ فيخلوا نساءهمُ والحِجَالا

ولم ينزلوا بمحـولِ السنين به فيكونوا عليـه عِيالا[5]

وقد عـلِم الضيفُ والمُرْملونَ إذا اغبرَّ أُفقٌ وهبَّت شمَالا

وخلَّتْ عن أولادِها المرضعات ولم ترَ عينٌ لمزنٍ بلالا

بأنك كنتَ الربيعَ المغيثَ لمن يَعْتَفِيك وكنت الثّمَالا

---

(١) شاعرات العرب : ١٠٠ .

(٢) فى الشاعرات : أعزالسباع عليه أحالا .

(٣) فى ا: جيئل ، والجيأل : الضبع .

(٤) من ا.

(٥) ليس فى ا .

وخَرقٍ[1] تجاوزتَ مجهولَهُ ... بوَجْناءَ حَرْفٍ تشكّى الكَلالا
[فكنتَ النهار به شمسَه ... وكنتَ دُجى الليل فيه هلالا
وحىّ صبحت وحىّ أبحْتَ ... غداة اللقاء منايا عِجالا][2]
وكم من قبيلٍ وإن لم تكن ... أردتَهُمُ منك باتوا وِجالا

قال عمرو بن شبة: وكان عمرو بن عاصم هذا يَغزُو فهْما فيصيب منهم فوضعوا له رصَدا على الماء، فأخذوه فقتلوه، ثم مرُّوا بأخته جنوب، فقالوا: أخاكِ! فقالت: لئن طلبتموه لتجِدُنّه [منيعا، ولئن ضفتموه لتجدنه مريعا، ولئن وعدتموه لتجدنه][2] سريعا! فقالوا: قد أخذناه فقتلناه، وهذا نبله. فقالت: والله لئن سلبتموه لا تجدون ثُنّتَه وافية، ولا حجرته جافيه[3]، ولرب ثدى منكم قد افترشه، ونهب قد احتوشه؛ ثم قالت الأبيات المتقدمة الذكر.

من إنشاد أبى حاتم

وأنشد أبو حاتم ولم يقل قائله:

لا فى سبيل اللهِ ماذا تضمَّنت ... بطونُ الثرى واستُودِعَ البلَدُ القَفْرُ
بدورٌ إذا الدنيا دَجَتْ أشرقَتْ بهم ... وإن أجدبَتْ يوما فأَيديهم القَطْرُ
فياشامتاً بالموت لا تشمتنْ بهم ... حياتُهمُ فخرٌ وموتهم ذِكْرُ
أقاموا بظَهْرِ الأرض فاخضرَّ عودُها ... وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الظَّهْرُ

العتبى يرثى ابنه

وقال أبو عبد الله العتبى، وتوفى له بنون فُجِع بهم ومات فى آخرهم ابنٌ له يكنى أبا عَمْرو وكان يقول الشعر؛ فقال يرثيه:

لقد شمت الواشون بى وتغيّرتْ ... وجوهٌ أَراها بعد موتِ أبى عَمْرو
تجرّى علىَّ الدهرُ لما فقدته ... ولو كان حيّا لاجترأتُ على الدهر
أسكّان بطن الأرض لو يُقبَلُ الفِدَا ... فدينا وأَعطينا بكم ساكِنى الظَّهْرْ
فياليت مَنْ فيها عليها وليتَ من ... عليها ثوَى فيها مُقِيما إلى الحَشْرِ

---

(١) الخرق: الارض الواسعة والقفر. (٢) من ا.

(٣) هذه عبارة ا، وفى ط: لأنحدرن إلى حجرته حافية.

وقاسمني دهرى بنىّ مشاطرا فلما توفَّى شطره مال فى شَطْرِى
فصاروا كأن لم يعرف الموت غيرهم فثكلٌ على ثكل وقبرٌ على قبرِ

وقال فى ابن توفى صغيرا :

إنْ يكُنْ ماتَ صغيراً فالأسَى غَيْرُ صَغِيرِ
كانَ رَيْحَانى فأمسى وهو رَيْحَانُ القبُورِ
غَرَسْته فِى بساتيـ ـن البلى أيدِى الدهورِ

ومن هنا أخذ أبو الطيب المتنبى قوله :

فإن تَكُ فى قبر فإنك فى الحشا وإنْ تكُ طِفْلاً فالأَسَى ليس بالطِّفْل

لخلف الأقطع

وقال خلف[1] بن خليفة الأقطع :

أُعَاتِبُ نفسى إن تبسَّمْتُ خَالِيا وقد يَضْحَكُ الموتُورُ وهو حَزِينُ
وبالبدّ[2] أشجانى وكم من شَجٍ لهُ دُوَيْنَ المصلّى والبقيعِ ، شجُونُ
رُبًى حولها أمثالُها إنْ أتيتها قَرَيْنَك أشجاناً وهنّ سُكُونُ
كَفَى الهجرُ أنّا لم يَضِحْ[3] لك أمرُنا ولم يأْتنا عمَّا لديك يَقِين

لأبى عطاء السندى

وقال أبو عطاء السِّندى فى ابن هبيرة[4] :

أَلاَ إنّ عينا لم تَجُدْ يوم واسطٍ عليك بباقى[5] دَمعها لجَمُودُ
عشيةَ قام النائحاتُ وشُقِّقَتْ جيوبٌ بأيدى مأتَمٍ وخدودُ
فإن تُمسِ مهجورَ الفِنَاءِ فربما أقام به بعد الوُفُودِ وفُودُ
فإنك لم تَبْعُد عَلى متعهّدٍ . بلى كلّ ما تحت التراب بَعِيدُ

لأعرابى

أعرابى :

ومن عجب أن بتَّ مستودع الثَّرَى وبتُّ بمـا زوّدتنى متمتّعا
فلو أننى أنصفتُك الودَّ لم أَبِتْ خلافك حتى نَنْطَوِى فى الثرى معا

---

(١) فى ط : خليف . (٢) فى ط : وبالغد . (٣) فى ا : يصل .
(٤) اللآلئ : ٦٠٢ ، الأمالى : ١–٢٧١ . (٥) فى الأمالى : بجارى .

سأحمى الكرى عينى وأفترش الثرى ... يمينى إذا صار الثرى لك مضجعا
وبعدك لا آسى لعظم رزيةٍ ... قَضَيْتَ فهوّنْتَ المصائبَ أجمعا

ومعنى هذا البيت الأخير تداوله الناس نظما ونثرا .

لأبى نواس

[قال أبو نواس فى الأمين][1]

طوَى الموتُ ما بينى وبين محمدٍ ... وليس لما تَطْوِى المنيةُ ناشِرُ
لئن عمرتْ دورٌ بمن لا أحبّهُ ... لقد عمرت ممن أُحِبُّ المقابرُ
وكنت عليه أَحذَرُ الموتَ وحدَهُ ... فلم يبقَ لى شىء عليه أُحاذِرِ

لأم الهيثم

وقيل لأمّ الهيثم السدوسية : لأسرع ما سلوت عن ابنك[2] الهيثم ! قالت : أما والله لقد رُزِئته كالبدرِ فى بهائه ، والرمْحِ فى استوائه، والسيفِ فى مَضَائه ؛ ولقد فتّتَتْ مصيبتُه كبدى ، وأفنى فَقْدُهُ جلدى ، وما اعتَضْتَ من بعده إلا أمْنَ المصائب لِفَقْدِه .

تعزية لأبى العيناء

وعزّى أبو العيناء أحمد بن أبى دُواد عن ولدٍ له ، فقال : ما أصيب من أثيب ، والله لقد هان لفقده جليل[3] المصائبِ من بعده .

لأعرابى مات بنوه بالطاعون

ودخل أعرابى من بادية البصرة إلى الشام ومعه بنون ، فلما كان بِقِنّسرين مات بنوه بالطاعون فقال :

أبعد بنىَّ الدهرَ أرجُو غَضارَةً ... من العيش أو آسَى لما فات من عُمْرِى
غطارِفَةٌ زُهرٌ مضَوْا لسبيلهم ... فلهفى على تلك الغطَارِفةِ الزُّهْر
سقى اللهُ أجساداً ورائى تركتُها ... بحاضر قنّسرين من صيِّب[4] القَطْر
يذكّرنيهم كلُّ خير رأيته ... وشرٍ ، فما أنفكُّ منهم على ذكْرِ

هذا البيت كقول الآخر :

رعاكِ ضمانُ اللهِ يا أُمَّ مالك ... ولله أن يرعاكِ أَولَى وأَوسَعُ

---

(١) من ا . (٢) فى ط : ما سلبت ولدك . (٣) فى ا : جسيم . (٤) فى ا : من سبل .

يذكرنيك الخير والشرُّ والذى أخاف وأرجو والذى أتوقّعُ

لمسلم بن الوليد

وقال مسلم بن الوليد :

وإنى وإسمعيل يوم وداعِهِ لكا لغِمْد يوم الرَّوْع فارقه النَّصْلُ
أما والحبالات المرّات بيننا رسائل[1] أدّتها المودةُ و الوصل
لما خنتُ عهداً من إخاء ولا نأى بذكراك نأىٌ عن ضميرى ولا شغلُ
وإنىَ فى مالى وأهلى كأننى لفقدك لا مالٌ لدىَّ ولا أهلُ
يذكّرنيك الخيرُ والشرُّ والحِجا وقيلُ الخنى والحِلمُ والعِلْمُ والجهلُ
فألقاك عن مذمومها متنزهاً وألقاك فى محمودها ولك الفضل
وأَحمَدُ من إخلافِك البخلَ إنهُ بعِرْضِك لا بالمال حاشَى لك البخْلُ
أمنتجعاً مَرْوًا بأثقال همّةٍ دع الثّقلَ واحْمِلْ حاجةً مالها ثِقْلُ
ثناءً كعَرْفِ الطيب يهدى لأهله[2] وليس له إلاّ بنى برمك أهلُ
فإن أَغْشَ قوماً بعدهم أو أزورهم فكالوحش يُدْنيهامِنَ القَنَص[3] المحْلُ

ومن ألفاظ أهلِ العصر فى التعازى وما يتعلق بمعانيها

من ذكر البكاء والجزع وعظم المصائب

خبرٌ عز على النفوس مَسْمَعُه ، وأثّر فى القلوب مَوْقِعُه . خبرٌ تصطكُّ له المسامعُ ، وترتجُّ به الأضالع ، وتسقط له الحبالى ، وتَصْحُو منه السكارى . خبرٌ كادت له القلوبُ تطير ، والعقول تَطيش ، والنفوس تَطيح . خبر يخفض[4] البصر ويقذيه ، ويَقْبِضُ الأملَ ويقدح فيه . الخبر فى أثناء الرجاء قدانقطع ، وأصمَّ به الناعى وقد أَسمع . ناعى الفضائل قائم ، وأنفُ المحاسِن رَاغم . خبرٌ أحرج الصَّدْرَ ، وأحلَّ

---

(١) فى ا : وسائل أدتها المودة والأصل . (٢) فى ط : يهدى لعرفه .
(٣) فى بعض الأصول : الآنس . (٤) فى ا : يقبض .

البكاء، وحرم الصبر ، وأطارَ واقع السكون، وأثار كامِنَ الوجوم ، وثقلت وَطْأته على أجزاء النفس ، وتأدّت معرته إلى سرِّ القلب . كتبتُ والأرضُ واجفةٌ ، والشمسُ كاسفةٌ ، للرزء العظيم ، والمُصَاب الجسيم، فى فلك الملك ، ورُكْنِ المجد، وقريع الشَّرْق والغرب ، وما عسى أن يُقَال فى الفلك الأعلى إذا انْهارَ من جوانبه ، وتهافَتَ على مناكِبه . أتَى الناعى ، فندب المساعى، وقامت بواكى المجد ، وكسفت شمسُ الفَضْل، وعاد النهارُ أسودَ ، والعيش أنْكَد. غربَ لموته نجمُ الفَضْل، وكسدت سوقُ الأدَب، وقامت نوادب السماحة، ووقف فلكُ الكَرَم، ولطمت عليه المحاسن خدودَها، وشقّت له المناقب جيوبَها [وبرودها] (١) ، قد كانت الرزيَّةُ بحيث مارت السماء مَوْرا ، وسارت الجبالُ سيرا ، حتى شوهدت الكواكبُ ظهرا ، ثم تهافتتْ شفعا ووترا ، فارتاعت الأُمَّة وانبسطت الظلمة، وارتفعت الرَّحْمَةُ ،واضطربت المِلّة، وقامت نوادبُ المجد ، وأصبح الناسُ من القيامةِ على وَعْد . إنّ المجدَ بعده لجارى الدمع ، وإنّ الفضلَ لمنزعج النفس ، وإنّ الكرمَ لحَرِجُ الصدر ، وإن المُلْكَ لواهِنُ الظَّهْر . كتابى وأنا من الحياة متذمّم ، وبالعيش مُتَبَرِّم ، بعدما ماد الطَّوْد الشامخ ، وزال الجبل الباذخ، ونطقت نوادِب المجد ، وأقيمت مآتم الفضل . نعى فلان فتنكّر وجهُ الدهر، وقبضت مُهْجَةُ الفَخْرِ ، فلا قَلْبَ إلاَّ قد تباين صَدْعه ، ولا عين إلا وهى ترشحُ بالدَّمِ (٢) بعده. كتبتُ والأحشاء محترقة،والأجفانُ بمائها غَرِقة، والدمعُ وَاكِفٌ، والحزن عاكف (٣). مصابٌ أطلق أسرابَ الدموع وفرّقها ، وأقلق أعشارَ القلوب وأحرقها . مصابٌ فضّ عِقودَ الدموع ، وشبَّ النارَ بين الضلوع . مصاب أذاب دموعَ الأحرار ، فتحلّبت سحائبُ الدموعِ الغِزار ، وانسدَّتْ مسالك السكون والاستقرار . كتبتُ عن عين تَدْمَع ، وقَلْبٍ يجزع ، ونفس تَهْلَع ، وقد أَذْلَتْ مَصُون (٤) العَبرة ، وحجبتُ وافِدَ الحيرة ، ومدّ الهمُّ إلى جسمى يَدَ السقم ، وجرَّ الدمعُ على خدّى ذيولَ الدم . لولا أنّ العينَ بالدمع أنطقُ من كل

---

(١) ساقط من ا .   (٢) فى ط : تبكى بالدمع .   (٣) فى ط : عاصف .
(٤) فى ط : وقد أذبلت غصون .

لسان وقلم ، لأخبرتُ عن بعض ما أَوْهَنَ ظَهْرى ، وأَوْهى أَزْرِى . إنّ الفجيعة إذا لم تحاربْ بجيشٍ من البكاء، ولم يخَفَّفْ من أثقالِها بالاشتكاء، تضاعفَ دَاؤُها ، وازدادَتْ أعباؤها ، وعزَّ دواؤها (١) . قد شفيتُ غليلى بما استَذْرَيْتُه من أسراب الدموع المتحيرة، وخففَّتُ عنى بعض البُرَحاءِ بماامترَيْتُه من أخلافها المتحدرة. إن فى إسْبَال العَبْرة ، وإطلاق الزَّفْرَة، والإجهاش بالبكاء والنشيج ، وإعلانِ الصياح والضجيج، تَنْفِيساً عن برحَاءِ القلوب ، وتخفيفا من أثقالِ الكُروبِ . قد أتى الدهرُ بما هدَّ الأصلاب ، وأَطارَ الألبابَ ، من النازلة الهائلة ، والفجيعة الفظيعة . رُزْءٌ أضعفَ العزائم القويةَ ، وأَبكى العيونَ البكيّة (٢) . مصيبةٌ زَلْزَلتِ الأرضَ ، وهدَّمَت الكرم المحْضَ ، وسلبت الأجفان كَرَاها ، والأبدانَ قُوَاها . فجيعةٌ لا يُدَاوِى كَلْمَها آسٍ ، ولا يسدّ ثَلْمَها تناسٍ . مصيبةٌ تركتِ العقولَ مُدَلَّهة ، والنفوس مُوَلَهة . رُزْءٌ هضَّ وهاضَ (٣) ، وأَطال الانخزال والانخفاض ، ولم يَرْضَ بأن فَضَّ الأعضاء حتى أَفاض الدماءَ . رزءٌ ملأ الصدورَ ارتياعا، وقسم الألبابَ شَعاعا، وترك الجفونَ مَقروحة ، والدموعَ مسفوحة ، والقُوى مهدودة ، وطُرق العزاء مسدودة . رزءٌ نكأَ القلوبَ وجرحَها ، وأحرّ الأكبادَ وقرّحها . مالى يدٌ تخطّ إلّا بكلفة ، ولا نفس تردد إلا فى غصَّة ، ولا عين تنظر إلا من وراء قَذى ، ولا صدر ينطوى إلّا على أذى ؛ فالدموعُ واكفة ، والقلوب وَاجِفة ، والهمّ وارِد ، والأُنسُ شارد :

والناسُ مأتمُهم عليه واحدٌ في كل دارٍ رَنَّةٌ وزفيرُ

كأنى كِنْدَة وهى تَلَهَّفُ على حُجْر (٤) ، والخنساء تبْكى على صخر . أنا بين عَبْرَةٍ وزَفْرَة ، وأَنَّةٍ وحسرة ، وتملْمُل واضطراب ، واشتعال والتهاب . مصيبةٌ

---

(١) فى ا : وأعوز دواؤها . (٢) البكى : الكثير البكاء .

(٣) هضه : كسره ودقه. وهاض العظم : كسره . (٤) حجر : والد امرئ القيس .

أصبحتُ لِغمَّتِها وقيذا، ولِكُرْبَتِها أخيذا. كتبتُ وقد ملك الجزَعُ عَذابى، وحصل ناظرى فى إسار بكائى، فالقلبُ دهش، والبنَان يرتعِش، وأنا من البقاء متوحّش. قد انتهى بى الهلَع إلى حيثُ لا التّأسِّى مُصحِب، ولا التناسى مصاحِب، بى انزعاج يحلّ عُقَدَ الحزْمِ، واكتئابٌ ينقضُ شروط العَزْم. قد بلغ الحزنُ مبلغا لم أبتذِلْه للنوائب، وإن جلّت وَقْعاً، ونالَتْ منى مَنالا. لم يعتمد طرق المصائب، وإن عظُمَت فجما. كتبتُ عن اضطرابِ نفسٍ، واضطرامِ صدر، والتهاب قلب، وانتهابِ صَبر؛ فما أعظمه مفقودا! وما أكرمه ملحودا(1)! إنى لأنوح عليه نَوْحَ المناقب، وأَرْثيه مع النجوم الثواقب، وأُبْكيه مع المعالى والمحاسن، وأثنى [عليه] (2) بثناء المساعِى والمآثر. ليت يمينَ الزمانِ شلّتْ قبل أن فتكَتْ بمُهْجَةِ الفضل، وعين الزمانِ كُفَّت قبل أن رأت مَصْرَع الفخر. لقد رُزئنا من فلان عالمًا فى شخص، وأمّةً فى نفس. مضى والمحاسنُ تَبْكيه، والمناقبُ تعزّى فيه. العيونُ لما قرّت به أسخنها فيه رَيْبُ المنون، ولما شُرِحَتْ به الصدور قبضها بفقْده المقدور. قد ركبَ على الأعناق بعد العِتَاق، وعلى الأجياد بعد الجِيادِ، وفاح فتيتُ المسك من مآثره، كما يَفُوحُ العنبرُ من مجامره. كان منزلُه مَألفَ الأضيافِ، ومَأنس الأشراف، ومنتجَع الرّكْب، ومَقْصد الوَفْد، فاستبدل بالأُنس وَحْشة، وبالغضارة غُبرة، وبالبياض ظُلْمة، واعتاض من تزاحُمِ المراكب تلادم المآتم، ومن ضَجيج النداء والصهيلِ عجيجَ البكاءِ والعويل. هذى المكارمُ تُبْدِى شجْوَها لفقْده، وتَلْبَس حِدادَها من بَعْده، وهذى المحاسنُ قد قامَتْ نوادبُها مع نوادبه، واقترنَتْ مصائبُها بمصائبه. لو قُبِلَت الفِدْية لوقَيْتُه بنفسى وأيامِ عمرى، عِلماً بأنَّ العيشَ بمثله من إخوانِ الصفاء يَصْفو، وبظَعْنه عن الدنيا يكدرُ ويَعْفو. لو وُقِى من الموت عزيزٌ قومٍ لِعزَّته، أو كبيرٌ بأولاده وأسرته، أو ذوسُلطان باستطالته وقُدرته، أو زعيم دولةٍ بحشَده(3) وعُدَّتِه، لكان

---

(1) فى ط موجودا. (2) من ا. (3) الحشد: بالسكون ويحرك الجماعة، وفى ط: بحشمه.

الماضى أَحقَّ من وُقى وأَولى من فُدى، وكنا أقدر على دَفْع ما حدث ، وذَبِّ ما كرث وأَرْهَق؛ لكنه الأمرُ المسوّى فيه بين من عزّ جانبُه وذَلَّ ، وكَثُر ما لُه وقلَّ ، حتى لحق المفضولُ بالفاضل ، والناقصُ بالكامل .

ولهم فيما يطابق هذا النحو من وصف الدهر وذمّ الدنيا [(١)]

من كلام أهل العصر

هو الدهرُ لا يُعْجَب من طوارِقه ، ولا ينكر هجوم بوائقِه . عطاؤه فى ضمانِ الارتجاع ، وحِباؤه فى قِرَان الانتزاع . من عرفَ الزمانَ لم يستشعِرْ منه الأَمان، وتصرّف الحوادثِ بين الموروث والوارث . الدهرُ مشحون بطوارقِ الغِيَر ، مَشُوبٌ صَفْوُ إيامِه بالكَدَر، ممزوج صَابُه بالعسل، موصولة حبالُ الأمنِ فيه بأسباب الأجل. قد جعل اللّهُ الدنيا دارَ قلعة ، ومحلَّ نقلة ، فمن راحلٍ ليومه ، ومن مؤخَّر لغده ، وكلٌّ متشوّفٌ [(٢)] لأجله ، وجارٍ لأَمَدِهِ . ما الدنيا إلا دار النقلة ، ولا المقام فيها إلاّ للرّحلة . إنّ المرءَ حقيق إذا طرقه ما يتحيّف صَبْرَه [ويتطرّق صدره] [(٣)] ، أنْ يعودَ إلى عمله بالدنيا كيف نُصبت على النقْلة ، وجنبَتْ طويل المهلة ، وابتدئت بالنفاد، وشُفع كونُها بالفساد، وإن الثاوِى فيها رَاحِل ، والأيام فيها مراحل . موهُوب الدنيا مسلوب وإنْ أُرْجِئ إلى مهل ، وممنوحها مجذوب وإن أُخّر إلى أَجل . لو خلّد من سَبقَ لما وسِعَت الأرضُ مَنْ لحق ؛ ولذلك جعلتِ الدنيا دار قلعة ، ومحلّ نجعة .

سُبِقْنا إلى الدنيا فلو عاش أهلُها ... منِعْنا بها من جَيْئَةٍ وذُهوب
تملَّكها الآتِى تملُّكَ سالبٍ ... وفارقها الماضِى فراقَ سليب

لعتبة بن هارون

وقال عتبة بن هارون : كنتُ مع فضل [(٤)] الرقاشى ، فمرّ بمقبرة فقال : يأهلَ الديار الموحِشة ، والمحال المُقْفِرة ، التى نطق بالخرابِ فِناؤها ، وشيِّد بالتراب بناؤها،

---

(١) هذا العنوان ساقط من ا . (٢) فى ا : منسوب لأهله . (٣) ساقط من ا .
(٤) فى ط : مع الفضل .

سا كِنُها مُغتَرِب ، ومحلّها مُقْتَرِب ، أهلُ هذهِ المنازلِ متشاغلون ، لا يتواصلون تواصُلَ الإخوان ، ولا يتزاوَرُون تزاورَ الجيران ، قد طحنهم بكَلْكَلِه البِلَى ، وأ كلهم الجَنْدَل والثَّرَى .

لخاقان بن صبيح

وقال خاقان بن صُبَيْح[1] : لِوحْشَة الشكّ التمسنا أُنْسَ اليقين ، ومن ذلّ الجهل هربنا إلى عزّ المعرفة ، ولخَوْفِ الضلالةِ لزمنا الجادّة .

لبعض الحكماء

وقال بعضُ الحكماء : كمونُ المصائب وسكونُ النوائب وبغَتات المنايا مطويّات فى الساعات متحركات فى الأوقات ، وربّ مغتبِطٍ بساعةٍ فيها انقضاءُ أَجلِه ، ومتمتع بوقت صار فيه إلى قَبْرِه ، ومنتظر ورودَ يوم فيه منيَّتُه .

لأعرابى

ووعظ أعرابىٌّ ابنا له أفسدَ مالَه فى الشراب ، فقال : لا الدهر يَعِظك ، ولا الأيامُ تنذرك ، والساعات تعَدُّ عليك ، والأنفاسُ تعد منك ، وأَحَبُّ أمرَيْك إليك أَرَدُّهما للمضرة لديك .

للبديع المقامة الأهوازية

ومن إنشاء بديع الزمان فى المقامات[2] حدَّثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ فى الأهواز[3] فى رُفْقةٍ متى ما ترقَّ العينُ فيهم تسهّل ، ليس منّا إلّا أمرد بكْر الآمال ، بضّ[4] الجمال ، أو مختطٌّ حَسن الإقبال ، مرجوّ الأيام والليال ؛ فأفضْنَا فى العشرة كيف [نضعُ قواعدَها ، والأُخوّة كيف][5] نحكم مَعاقدها ، والسرور فى أى وقت نتعاطاه ، والأُنْس كيف نَتَهاداهُ ، وفائت الحظّ كيف نتلافاه ، والشراب [من أين نخلصه ، والمجلس كيف ترتبه؟ فقال أحدُنا: على البيت والمنزل. وقال آخر: على الشراب والنقل][5]. وقال بعضُنا : إلى السماع والجماع ، وقمنا نجر أذيال الفسوق ، حتى انسلخنا من السوق ، واستقبلنا رجلٌ فى طِمْرين ، فى يُمْناه عُكَّازَة ، وعلى كتفه جِنَازَةٌ ؛[6]

---

(١) فى ط : بن صبيح .　　(٢) المقامات : ٦٢ .　　(٣) الأهواز : بلدة بين البصرة وفارس.　　(٤) فى ط : غض .　　(٥) من ا .

(٦) الجنازة — بكسر أوله : النعش والميت معا ، وبالفتح: السرير وبهما: الميت وحده .

فتطيَّرْنا لما رأينا الجنازة ، وأعرضْنا عنها صَفْحا ، وطوينا دونها كَشْحا ، فصاح بنا صيحةً كادَت الأرضُ لها تنفطِر، والنجومُ تنْكَدِر، وقال: لتروُنّها صُغْرا، ولتركبُنّها قَسرا . مالكم تكرهون مطِيَّةً ركبها أسلافُكم، وسيركبها أخلافُكم، وتتقذّرون سريرا وطِئه آباؤكم ، وسيطؤه أبناؤكم ، أَما والله لتُحْملُنَّ على هذه العِيدان ، إلى تلكم الدّيدان ، ولتنْقَلُنَّ بهذه الجياد، إلى تلكم الوِهاد. ويحْكم تطَّيَّرون كأنكم مخيَّرُونَ ، وتتكرهون كأنكم منزَّهون ، هل تنفع هذه الطِّيَرَة ، يا فَجرة ؟

قال عيسى بن هشام: فقد نقضَ علينا ما كُنّا عقدناه ، وأبطلنا ما كنّا أَرَدْنَاه ؛ فمِلْنا إليه وقلنا : ما أحوجَنا إلى وعْظِك ، وأعشقَنا للَفْظِك ! ولو شئت لزِدْتَ . قال : إنّ وراءكم مواردَ أنتم وارِدُوهَا ، وقد سِرْتُم إليها عشرين حجّة :

وإنّ امرأً قد سار عشرينَ حجةً إلى منهلٍ من وِرْدِه لَقَرِيبُ

وفوقكم مَنْ يعلمُ أسراركم ، ولو شاء لهتك أَستارَكم ، يعاملكم فى الدنيا بحِلْم، ويَقْضِى عليكم فى الآخرة بعِلْم، فليكن الموتُ منكم على ذكر، لئلا تأْتُوا بنُكْر؛ فإنكم متى استشعرتموه لم تجْمَحُوا ، ومتى ذكرتموه لم تمزحوا ، وإن نسيتموه فهو ذاكِرُكم، [وإن نمتم عنه فهو ثائركم ، وإن كرهتموه فهو زائركم][1]. قلنا: فما حاجتُك؟ قال : هى أطولُ من أن تُحَدّ ، وأكثر من أن تُعَدّ . قلنا : فسانحُ الوقت ؟ قال : ردُّ فائت العُمْرِ، ودَفْعُ نازلِ الأمرِ . قلنا : ما إلى ذلك سبيل ، ولكن لكَ ما شئت من متاعِ الدنيا وزخرفها . قال : لا حاجةَ لى فيها .

من النقد

قوله * وإن امرأً قد سار عشرين حجة * محرف عن قول قائله :

وإنّ امرأ قد سار خمسين حجة * والبيت لأبى محمد التيمى[2] أنشده دِعبل[3] :

إذا ما مضى القَرْنُ الذى أنتَ فيهمُ وخُلِّفْتَ فى قَرْنٍ فأَنت غَرِيبُ

والبيت بعده . قال دعبل : وتزعم الرواة أنه لأعرابى من بنى أسد . وقال خلاد

---

(١) ليس فى ا . (٢) فى ط : التميمى . (٣) اللآلئ ــ ذيل: ٣ .

الأرقط : كنّا على باب أبى عمرو بن العلاءِ ومعنا التيمى ، فذكرنا كتابَ الحجاج ابن يوسف إلى قتيبة بن مسلم : إنى وإياكَ لِدَتَان ، وإن امرأ قد سار خمسين حجة لقَمِن أن يرده[1] . فأصلحناه بيتاً، فاجتلَبه التيمى فى شعره .

[من رسائل البديع]

من البديع إلى أبى القاسم الكرخى

وكتب البديع إلى أبى القاسم الكرخى[2] : أنا وإنْ لم أَلق تطاوُلَ الإخوان إلا بالتطوّل ، وتجمل الأحرار إلا بالتجمّل ، أحاسب الشيخَ على أخلاقه ضنًّا بما عقدتُ يدى عليه من الظنّ به ؛ والتقدير فى مَذْهَبه ، ولولا ذاك لقُلْتُ فى الأرضِ مجالٌ إن ضاقَتْ ظلالُه ، وفى الناس واصلٌ إن رثَّتْ حبالُه ، وأؤاخِذُه بأفعاله ؛ فإن أعارنى أذناً واعيةً ، ونفسا مُرَاعية ، وقلبا متّعظا ، ورجوعا عن الذهاب ، ونزوعا عما يقرعُه من هذا الباب ، فرشت لمودَّته صدْرِى، وعقدت عليه جوامع حَصْرِى[3] ، ومجامع عُمْرِى ؛ وإنْ ركب من التعالى غَيْر مركب ، وذهب من التَّغالى فى غيرِ مذهب ، أقطعتُه خطة أَخلاقه ، ووليته جانبَ إعراضه ، فكنت امرءًا :

لا أذِيدُ الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرّ من ثَمَرِه

فإنى ـ أطال اللهُ بقاء الشيخ مولاى ـ وإن كنت فى مقتبل السنّ والعمر ، فقد حلبتُ شَطْرَى الدهر ، وركِبْتُ ظهرى البرِّ والبَحْرِ ، ولقيتُ وَفْدَى الخيرِ والشر ، وصافحتُ يدى النَّفْع والضر ، وضربتُ إبطى العُسْر واليُسْر ، وبلوتُ طعمى الحُلْوِ والمُر ، ورضعْتُ ثديى العُرْف والنُّكْر ؛ فما تكادُ الأيامُ ترينى من أفعالها غريبا ، وتُسْمِعُنى من أقوالها[4] عجيبا ، ولقيت الأفراد ، وطارَحْتُ[5] الآحاد ؛ فما رأيتُ أحدا إلاَّ ملأْت حافتىْ سمعِه وبصره ، وشغلت حيزَى فكره و نَظَره ، وأَثقلت كفّه فى الحُزْن ، وكفَّتَه فى الوَزْن؛ ووَدَّ لوبارزَ القِرْنَ بصفحتى، أو لقِىَ الفَضْل بصحيفتى،

(١) فى ط : أن يزيد . (٢) الرسائل : ٦٥ . (٣) فى ط والرسائل : خنصرى.
(٤) فى ا : أهوالها . (٥) فى ا: وطوقت .

فما لى صغُرْتُ هذا الصغرَ فى عينه ؟ وما الذى أزْرَى بى عنده ؟ حتى احتجبَ وقد قَصَدْتُه، ولزِم أرضَه وقد حضرته ، وأنا أحاشيه أنْ يجهلَ قَدْرَ الفضلِ ، أو يَجْحدَ فضلَ العلم، أو يمتطى ظَهْرَ التّيه ، على أهليه ، وأسأله أن يختصَّنى من بينهم بفضل إنعام إنْ زلت بى مرةً قَدَم رأى فى قَصْده، وكأنى به وقد غضب لهذه المخاطبة المجْحِفة، والرتبة المتحيِّفة، وهو فى جَنْب جفائه يسير ، وإن أقلع عن عادته إلى الوفاء، ونزع عن شيمته فى الجفاء ؛ فأطال الله بقاءَ الأستاذ وأدام عزّه وتأييدَه .

ومن البديع إليه

وله إليه رقعة [١] :

يعزُّ علىَّ ــ أطال اللهُ بقاءَ الشيخ الرئيس ــ أن ينوبَ فى خِدْمته قلمى عن قَدَمى ، ويسعد برؤيته رسولى ، دون وُصولى ، ويَرِدَ شِرْعَة الأُنْسِ به كتابى ، قبل ركابى ، ولكن ما الحيلةُ والعوائق جمة :

وعلىّ أنْ أَسعى وليـ ... س علىَّ إدراكُ النجاح

وقد حضرتُ دارَه ، وقبّلتُ جداره ، ومابى حبُّ الجُدْرَان ، ولكن شغفاً بالقُطّانِ ، ولا عِشْق الحيطان ، ولكن شوقا إلى السكّان ، وحين عَدَتِ العوادِى عنه ، أمْليتُ ضميرَ الشوقِ على لسان القلم ، معتذِراً إلى الشيخ على الحقيقة ، عن تقصيرٍ وقع ، وفُتورٍ فى الخِدْمَةِ عَرَض ، ولكنى أقول :

إنْ يَكُنْ تَرْكِى لقَصْدِكَ ذنباً ... فكفى ألاَّ أراكَ عِقَابا

كتابه إلى عدنان بن محمد

وله جواب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد [٢] : ورد كتابُ الشيخ الرئيس سيدى، فظلت وفودُ النعم تَتْرَى علىّ ، ومثلت لدى وبين يدى ، ووجدتُ سيدى وقد أَخذَ مكارمَ نفسِه : فجعلها قِلاَدة غَرْسِه ، وتتّبع المحاسن من عِنده ، فحلّى بها نَحْرَ عبده [٣] ، وما أُشبِّه رائع حُلِيه ، فى نحر وَلِيّه ، إلّا بالغُرَّةِ اللائحةِ ، على

(١) الرسائل : ٦٧ . (٢) الرسائل : ١١١ . (٣) فى ا : فكساها لعبده .

[الدَّهْمَة][1] الـكالحة[2] ، لا آخذَ الله الشيخ بوصفٍ نَزَعَه عن عرضه ، وزَرَعه فى غير أَرضه ، ونعتٍ سلَخه من خلقه وخلقه ، وأَهداه إلى غير مستحقّه ، وفَضْلٍ استفاده من فَرْعِه وأصله ، وأَوصله إلى غير أهله . ذكر حديث الشوقِ ولو كان الأمرُ بالزيارة حتما ، أو الإذن [جَزْماً][3] أطلق عزما ، لـكان آخر نظرى فى الـكتاب ، أَول نظرى إلى الركاب ، ولاستمنت[4] على كُلَف السير بأجنحة الطير ، لـكنه ـ أدام الله عزّه ـ صرعنى[5] بين يدٍ سريعة النَبْذ، ورِجْل وشـيكة الأخذِ ، وأرانى زهداً فى ابتغاء ، كحسوٍ فى ارتغاء ، ونزاعاً[6] فى نزوع ، كذهاب فى رُجوع ، ورغبة فىَّ كرغبة عنى ، وكلاماً فى الغِلاف ، كالضرب تحت اللّحاف ، فلم أصرِّحْ بالإجابة وقد عرض بالدعاء ، ولم أُعْلِن بالزيارة وقد أسرَّ بالنداء ، ولو لم يَدْعنى بلسان المُحاجاة ، ولم يجاهِرْنى بفمِ المناجاة ، لـكنتُ أسرعَ إليه من الـكرم إلى عطفيه[7] ، وفـكرتُ فى مُرَادِ الشيخ ، فوجدتُه لا يتعدّى الـكرم يشبّ نارُه ، والفضل يُدرك ثاره ، وإذا كان الأمرُ كذلك فما أَولاه بترفيهِ مولاه ، عن زَفْرَةٍ صاعدة ، بسفرة باعدة[8] ، ونكباءجاهدة ... ... وقدزاد سيدى فىأمْرِ المخاطبة ، ومأحسن الاعتدال، وقد كفانا منـه الأستاذ ، وأسأله ألّا يزيد ، وقد بدأ ويجب ألّا يعيد ، فلا تنفع كثرة العدّ ، مع قلة المعدود ، والزيادة فى الحدّ مع نقصان المحدود نقص من الحدود[9] ، وربّ ربح أدّى إلى خُسْرَان ، وزيادة أفْضَتْ إلى نُقْصَان ، ورأى الشيخ فى تشريفه بجوابه موفّق إن شاء الله تعالى .

من النقد

اجتلَب قولَه فى أول هذه الرسالة من قول أبِى إسحق الصابى فى جواب كتاب لبعض إخوانه :

---

(١) من ا . (٢) الـكالحة : العابسة . (٣) ساقط من ا

(٤) فى ا : استعنت على السير أجنحة الطير . (٥) فى ط : وصرفنى

(٦) فى ا : ونزاع . (٧) فى ا : طرفيه . (٨) فى ط : بزفرة قاصدة .

(٩) فى ا : والزيادة فى الحد نقص من المحدود .

من رسالة للصابى

وصل كتابك مشحوناً بلطيف بِرِّك ، موشَّحاً بغامِر فَضْلِك ، ناطقاً بصحَّةِ عهدك ، صادقاً عن خلوص ودِّك ، وفهمتُه وشكرتُ اللّهَ تعالى على سلامتك شُكرَ المخصوص بها ؛ ووقَفْتُ على ما وصفته من الاعتدادِ بى ؛ وتناهيت إليه من التقريظ لى ، فما زدتَ على أن أعَرْتَنِى خِلالَك ، ونحلْتَنِى خِصالَك ؛ لأَنَّكَ بالفضائل أوْلَى ، وهى بكَ أحرى ، ولو كنت فى نفسى ممن يشتملُ على وصفه حَدى إذا حددت ، أو يحيط بكماله وَصْفِى إذا وصَفْت ، لشرعْتُ فى بلوغها والقرب منها ، لكن المادحَ لك مستنْفِد لك وُسْعه وقد بخَسك ، ومستفرق طَوْقَه وقد نقصك ، فأبلغُ ما يأتى به المُثْنِى عليك ، ويتوصَّل إليه المُطْرِى لك ، الوقوفُ فى ذلك دون منتهاه ، والإقرار بالعجز دون غايته ومَدَاه .

ونقل البديعُ ما ذكره من تَرْك السفر والبغية[1] بما حضر من قولِ ابن الرومى[2] :

أما حقُّ حامِى عرضِ مثلك أن ترى ... له الرِّفدَ والتَّرفيه أوجبَ وَاجبِ

أقمت لكى تزدادَ نُعْماكَ نعمةً ... وتغنى بوجهٍ ناضرٍ غير شاحِبِ

وكى لا يقولَ القائلون أثابهُ ... وعاقبه والقول[3] جَمٌّ المساغب

وليس عجيبا أنْ ينوبَ تكرّمُ ... عُدِيت[4] به من آملٍ لك عائب

ذِمامِىَ تَرْعى لا ذِمام سفينةٍ ... وحقى لا حقّ القِلاص النجائب

ودخل على أبى العتاهية ابنهُ[5] ، وقد تصوّف فقال : ألم أكُنْ قد نهيتُك عن هذا ؟ فقال : وما عليك أن أتعوّد الخيرَ ، وأنشأ عليه ! فقال : يا بنى ، يحتاجُ المتصوّف إلى رقّة حال ، وحلاوة شمائل ، ولطافة معنى ، وأنت ثقيلُ الظل ، مظلم الهواء ، راكدُ النسيم ، جامدُ العينين ، فأقبل على سوقك فإنها أعود عليك .

وكان بزّازا .

---

(١) فى ط : والبغثة . (٢) ديوانه : ٧ . (٣) فى ط : والقوم جم المشاغب .

(٤) فى ط : غريب . (٥) فى ط : ودخل أبو العتاهية على ابنه محمد .

فقر من كلام المتصوفة والزهاد والقصاص

نورُ الحقيقهِ أحسنُ من نَور الحديقة . الزهد قطع العلائق ، وهَجْر الخلائق . الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة. التصوّف تَرْكُ التكلّف . قيل لمتصوّف : أتبيع مرقعتك؟ قال : ارأيتم صيادا يبيع شبكَته ! وقيل لبعضهم : لو تزوّجْتَ ! قال : لو قدرت أن أطلق نفسى لطلقتها ، وأنشد :

تجرَّدْ من الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنتَ مجرّدُ

الدنيا نَوْم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن فى أضغاث أحلام . ذو النون : العبد بين نعمة وذنبٍ ، لا يصلحهما إلا الشكر والاستغفار . غيره : ينبغى للعبد أنْ يكون فى الدنيا كالمريض لابد له من قوت ، ولا يوافقه كل طعام . ليس فى الجنة نعيمٌ أعظم من علم أهلها أنها لا تزول . ابن المبارك : الزهدُ إخفاء الزهد . إذا هرب الزاهدُ من الناس فاطلبه ، وإذا طلبهم فاهرب عنه . من أطلق طَرْفه كثر أسفُه . من سُوءِ القدر فَضْل النظر . من طاوعَ طَرْفه تابع حَتْفَه ، ومن نظر بعين الهوى حار ، ومن حَكم على الهوى جار ، ومن أطال النظر لم يدرِك الغاية ، وليس لناظرٍ نهاية : ربما أبصر الأعمى رُشْدَه ، وأَضلّ البصير قَصْدَه . وقيل : ربَّ حربٍ جُنِيت من لفظة ، وربّ حبٍّ غُرِسَ من لحظة ، وأنشد :

نظرت إليها نظرةً لو كسوتها سرابيلَ أبدانِ الحديدِ المسرَّدِ
لرّقت (١) حواشيها وفُضّ حديدُها ولا نَتْ كما لانَتْ لداود فى اليَدِ

وقال سعيد بن حميد :

نظرت فقادَتْنى إلى الحَتْفِ نظرةٌ إلى بمضمون الضميرِ تشيرُ
فلا تصرفنّ الطَّرْف فى كلّ منظر فإنّ معاريضَ البلاءِ كثيرُ
ولم أَر مِثْلَ الحبِّ أسقم ذا هوًى ولا مثل حُكم الحبِّ كيف يجُورُ

---

(١) فى ا : لرق .

لقد صنت ما بى فى الضمير لو انه(١) يُصان لدى الطَّرْف النموم ضمِيرُ

غيره(٢) :

اليوم أيقنت أَن الحبَّ متلفةٌ وأن صاحبَه منه على خَطَرِ
كيف الحياةُ لمن أَمسَى على شَرَفٍ من المنيَّةِ بين الخوفِ والحذَرِ
يلومُ عينيه أحياناً بذنبهما ويحملُ الذنبَ أحياناً على القَدرِ
إذا نأى أو دَنَا فالقلبُ عندكمُ وقلبُه أبداً منه على سَفرِ

ونظر محمد بن أسباط الصوفى إلى أبى المثنى الشيبانى وقد نظر فى وَجْهِ غلام مليح ، فقال [إياك و](٣) إدْمَان النظر [فإنه](٣) يكشف الخبر ، ويفضَحُ البشَر ، ويطول به المـكثُ فى سقَر . وقال المَلى الصوفىّ : شكوتُ إلى بعض الزهاد فَسَاداً أَجدُه فى قلبى ، فقال : هل نظرتَ إلى شىء فتاقَتْ إليه نفسُك ؟ قلت : نعم ، قال : احفَظْ عينيك؛ فإنك إن أطلقتهما أوقعتَاكَ فى مكروه ، وإنْ ملـكْتَهما ملـكْتَ سائرَ جوارِحك . وقال مسلم الخوّاص لمحمد بن على الصوفى : أَوْصِنى . فقال : أُوصيك بتقوى الله فى أمرِكَ كلّه ، وإيثار ما يحبّ على محبتك ، وإياكَ والنظر إلى كل ما دعاكَ إليه طَرْفك ، وشوّقك إليه قلبك ؛ فإنهما إن ملـكاكَ لم تملكْ شيئا من جوارحك ، حتى تبلغ لهما ما يطالعانك به(٤) ، وإن ملـكتهما كنت الداعى إلى ما أردت ، فلم يعصيا لك أمراً ولم يردّا لك قولا .

قال بعض الحـكماء : إنّ الله عزّ وجل جعل القلبَ أميرَ الجسدِ ومَلِك الأعضاء؛ فجميعُ الجوارحِ تَنْقادُ له، وكلّ الحواسّ تطيعُه ، وهو مديرُها ومصرّفها، وقائدُها وسائقها ، وبإرادته تنبعثُ ، وفى طاعته تتقلّب ؛ ووزيره العقل ، وعاضده الفهمُ ، ورائدُه العينان ، وطليعته الأذنان. [وهما فى النقل سواء ، لا يكتمانه أمراً، ولا يطويانِ

---

(١) فى ط : كأنما . (٢) فى ا : وقال . (٣) من ا .

(٤) فى ط : حتى تبلغ بهما ما يطالبانك به .

دونه سرًّا : يريد العين والأذن][(١)] . وقيل لأفلاطون : أيهما أشدّ ضرراً بالقلب السمع أم البصر ؟ قال : هما للقلب كالجناحين للطائر لا يستقلّ إلاّ بهما ولا ينهض إلا بقوتهما [(٢)] ، وربما قُصّ أحدُهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة . قيل : فمابالُ الأعمى يعشق ولا يرى ، والأصم يعشقُ ولا يسمع ؟ قال : لذلك قلت : إن الطائر قد ينهضُ بأحـــد جناحيه ولا يستقلّ بهما طيراناً ، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى ، و[طيرانه] [(٣)] أوْحَى [(٤)] . وقال الأسود بن طالوت الجاوردى : نظر إلىّ أبو الغمر الصوفى وقدأطلتُ النظرَ إلى غلامٍ جميل ، فقال: ويحك ! إنّ طَرْفك لعظيم مااجتنى من البلاءِ قد عرّضَك للمكروه وطول العناءِ ، لقد نظرت إلى حَتْف قاتل للقلوب ، وبلاء مظهر للعيوب ، وعارٍ فاضح للنفوس ، ومكروه مُذْهِل للعقول ، أ كل هـذا الاغترار بالله جرأك عليه حتى أمنت مَكْرَه ، ولم تخَفْ كيدَه ؛ اعلم أنك لم تكن فى وقت من أوقاتك ، ولاحالةٍ من حالاتك [(٥)] ، أقرب إلى عقوبة الله منك فى حالتك هذه ، ولوأخذك لم يتخلّصْك الثقلان ، ولم يَقْبَل ْ فيك شفاعةَ إنس ولاجان . ونظر محمد بن ضوء الصوفى إلى رجل ينظرُ إلى غلام مليح ، فقال : كفى بالعبد نقصا عنـد الله، وضَعة عند ذوى العقول ، أن ينظُرَ إلى كل ماسنَحَ له من البلاء . ونظر [أبو][(٦)] مسلم الخشوعى فأطال النظر ، فقال: إنّ فى خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولى الألباب . ثم قال : سبحان الله ! ما أهجمَ طَرْفِى على مكروه نفسه [(٧)] ، وأدمَنه على تسخّط سيده ، وأغراه بما نهى عنه ، وألْهجَه بما حذّر منه ! لقد نظرت إلى هذانظراً شديدا خشيتُ أنه سيفضحنى عند جميع مَنْ يعرفنى فى عَرْصَة القيامة ؛ ولقد تركنى نظرى هذا وأنا أسْتَحِى من الله تعالى إنْ غفر لى ! ثم صعق .

ونظر غالب [(٨)] المضرور إلى غلام جميل على فرس رائع ، فقال : لا أدرى بم

---

(١) ساقط من ا . (٢) فى ا : بقربهما. (٣) من ا. (٤) أوحى : أسرع .
(٥) فى ا : من حالاته . (٦) فى ا . مسلم . (٧) فى ط : نفسى.
(٨) فى ط : غالية .

أداوى طَرْفِي، ولا بم أُعالج قلبي ؟ ما أتوبُ إلى الله من ذنب إلا رجعت فيه ، ولا أستغفِرُه من أمر إلاّ أتيت أعظم منه ، حتى لقد استحييتُ أن أسألَه المغفرة لما يلحق قلبي من القنوط من عفوه ، لعظيم حالى بالمنكر الذى أُصنعُه . فقال له قائل : وأىّ منكر أتيتَ ؟ فقال : أتريدُ منى أكثرَ من نظرى هذا ! والله لقد خشيت أن يبطل كلُّ عمل قدمته ، وخير أسلفتُه ، ثم بكى حتى ألصق خدَّه بالأرض .

ورأى بعضُ الزهّاد صوفيا يضحَكُ إلى غلام جميل ، فقال له : يا خاربَ القلب ، ويا مفتضح الطرْف ؛ أما تستحى من كِرَام كاتبين ، وملائكة حافظين ، يحفظون الأفعال ، ويكتبون الأعمال ، وينظرون إليك ، ويشهدون عليك ، بالبلاء الظاهر ، والغِلّ الدخيل المخامر ، الذى أقمت نفسَك فيه مقامَ مَنْ لا يُبَالِي من وقف عليه ، ونظر من الخلق إليه. وقال أبو حمزة بن إبراهيم : قلت لمحمد بن العلاء الدمشقي — وكان سيدَ المتصوفة ، وقد رأيتُه يماشى غلاماً وضيئاً مدة ثم فارقه : لِمَ هجرتَ ذلك الفتى بعد أنْ كنتَ له مواصلا ، وإليه مائلا ؟ فقال : والله لقد فارقته من غير قِلى ولا ملل ؛ ولقد رأيتُ قلبي يدعونى إذا خلوت به ، وقربت منه ، إلى أمر لو أتيته لسقطت من عَيْنِ اللهِ عزّ وجل ؛ فهجرتُه تنزيها للهِ ولنفسى عن مصارع الفتن ، وإنى لأرجو أن يعقبنى سيدى من مفارقته ما أعقب الصابرين عن محارمه ، عند صدق الوفاء بأحسنِ الجزاء ؛ ثم بكى حتى رحمتُه .

قال أبو حمزة : ورأيتُ مع أحمد بن على الصّوفى ببيت المقدس غلاما جميلا ، فقلتُ : منذ كم صحبك هذا الغلام ؟ فقال : منذ سنين ، فقلت : لو سرتما إلى بعض المنازل فكنتما فيه كان أَحْمد لكما من الجلوس فى المسجد بحيثُ يراكما الناس ؟ فقال : أخافُ احتيالَ الشيطان علىّ به وقت خَلْوَتى ، وإنى لأَكره أن يرانى اللهُ فيه على معصية فيفرّق بينى وبينه يوم يظفر المحبّون بأحبابهم ، قال أبو الفتح البستى :

تنازع الناسُ فى الصوفىّ واختلفوا ... فيه وظنّوه مشتقّا من الصوفِ
ولست أنحل هذا الاسم غير فتًى ... صافَى فصُوفِىَ حتى لقّب الصوفى

ورأى بقراط(١) رجلاً من تلامذته يتفرّس فى وَجْه أوحَيَا(٢) ، وكانت فائقة الجمال ؛ فقال : ماهذا الشغل الذى منعك الروّية والفكرة؟ فقال : التعجبُ من آثار حكمة الطبيعة فى صورة أوحَيا . فقال : لا تجعلنّ نظرك لشهوتك مركباً ، فيجمع لك فى الوحول الأذية(٣) ؛ ولتَكُنْ نفسُك منه على بال ، إنّ آثار الطبيعةِ فى وَجْه أوحَيا الظاهرة تمحق بصرك ، وإن فكّرت فى صورتها الباطنة تحد نظرَك . وقال بعضُهم : رأيتُ جاريةً حسناء الساعِد ؛ فقلت : يا جارية ، ما أحسن ساعدَك ! فقالت : [أجل ، لكنه](٤) لم تختص به ، فغضّ بصَرَ جسمك عما ليس لك ، لينفتح بصرُ عقلك فترى مالك .

[الرأى والهوى]

وقال بعضُ الفلاسفة اليونانين : فضلُ ما بين الرّأى والهوى أنّ الهوَى يخصّ والرأى يعمّ ، وأنّ الهوى فى حيز(٥) العاجل ، والرأى فى حيز(٥) الآجل ، والرأى يبقى على طول الزمان ، والهوى سريعُ الدثور والاضمحلال ، والهوى فى حيز الحِس ، والرأى فى حيز العقل .

وقال بعضُ الحكماء : من انقاد لهواه عرضته الشهوات . وقال آخر : من جَرَى مع هواه طِلْقا(٦) ، جعل عليه للذل طرقا . وقال ابن دُريد : أَوصى بعضُ الحكماء رجلا فقال : آمرك بمجاهدة هواك ؛ فإنه يقال : إنّ الهوى مفتاحُ السيئات ، وخصيم الحسنات ، وكلّ أهوائك لك عدو ، وأعداها هوًى يكتُمك نفسَه ، وأعدى منه هوى يمثّل لك الإثم فى صورةِ التقوى ؛ ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بحَزْمٍ لا يشوبُه وهَن ، وصِدْقٍ لا يطمع فيه تكذيبٌ ، ومضاءٍ لا يقارُبه

---

(١) فى ط : سقراط . (٢) الضبط من ا . (٣) فى ط : فيجمع لك ذحول الأذية به وهذا من ا .
(٤) من ا . (٥) فى ط : فى خير . (٦) يقال : عدا طلقا ، أى شوطا .

التشبيط ، وصبر لا يغتاله الجزع ، وهمة لا يتقسّمها التضييع ، وقال أبو العتاهية (١) :

لا تأمن الموتَ فى طَرْف وفى نفَس ... ولو تمنّعت بالحجّاب والحرسِ
فما تزالُ سِهامُ الموتِ نافذةً ... فى جنب مدّرع منا ومُتّرسِ
ما بالُ دِينك ترضى أنْ تدنّسَهُ ... وثوبُك الدهر مَغسولٌ من الدّنسِ
ترجو النجاةَ ولم تسلُكْ مسالِكَها ... إنّ السفينةَ لا تجرِى على يَبَس

[بدائه فى مجالس الخلفاء]

شبيب والمهدى

خرج شبيب بن شيبة من دارِ المهدى فقيل له : كيف رأيتَ الناس ؟ قال : رأيتُ الداخل راجيا والخارجَ راضيا . نحا إلى هذا المعنى ربيعةُ الرقى فقال :

قد بسطَ المهدىّ كفَّ الندى ... للناس والعفو عن الظالمِ
فالراحلُ الصادِر عن بابه ... مبشرٌ للواردِ القادم

وقال مسلم بن الوليد فى نحو هذا المعنى :

جزيت ابنَ منصورٍ على نَأْىِ دارهِ ... جزاءَ مقرٍّ بالصنيعة شاكرِ
فتى راغمَ الأموالَ واصطنع العُلا ... وأثبتَ نيرانَ الندى للعشائر (٢)
[ترى الناسَ أرسالا على باب داره] (٣) ... ...

وقال المتنبي (٤) :

وألقى الفمَ الضحّاكَ أعلم أنهُ ... قريبٌ بذى الكفِّ المفدّاةِ عهدُهُ

خالد بن صفوان والسفاح

دخل خالد بن صفوان على أبى العباس السفاح ، وعنده أخواله من بنى الحارث ابن كَعْب فقال : ما تقولُ فى أخوالى ؟ فقال : هم هامَةُ الشرف ، وعِرْنينُ الكرم ، وغَرسُ الجود ، إنّ فيهم لخصالا ما اجتمعَتْ فى غيرهم من قومهم ؛ إنهم لأطولهم أمما ،

---

(١) ذيل اللآلئ : ١٢ . (٢) فى ط : بالعشائر .

(٣) من ا ، ومكان بقية البيت بياض بالأصل . (٤) فى ط : البستى ، والتصحيح من ا ، والبيت فى ديوان المتنبى : ١ — ٢٨ .

وأكرمهم شِيما، وأطيبهم طعما، وأوفاهم ذمما، وأبعدهم هِمما، الجمرة فى الحرب، والرِّفْد فى الجَدْبِ، والرأس فى كل خَطْب، وغيرهم بمنزله العَجْب[1]، فقال: وصفت أبا صفوان فأحسنْتَ، فزادَ أخواله فى الفخر؛ فغضب أبو العباس لأعمامه، فقال: أَفخرٌ ياخالدُ؟ قال: أعلى أخوال أمير المؤمنين! قال: وأنتَ من أعمامه؟ قال: كيف أفاخِرُ قوما هم بين ناسج بُرد، وسائس قِرْد، ودابغ جِلْد، دلّ عليهم هدهُد، وغرّقهم جُرَذ، وملكتهم أمّ ولد! فأشرق وَجْهُ أبى العباس. قال يموت ابن المزرّع: سمعتُ خالى الجاحظ، وذكر كلام خالد هذا، فقال: والله لو فكر فى جَمْعِ معايبهم، واختصار اللفظ فى مثالبهم بعد ذلك المدحِ المهذب سنة لكان قليلا، فكيف على بديهته لم يَرُضْ له فكرا. هكذا أورد هذه الحكاية الصولى وقد جاءت بأطولَ من هذا وليس من شَرْطِنا.

بين معن بن أوس ومعاوية

قال معن بن أَوس الهذلى[2]:

لعمركَ ما أَدْرِى وإنى لأَوْجَلُ	على أَيِّنا تَأْتى المنيةُ أولُ
وإنى أخوكَ الدائمُ الودِّ لم أحِلْ	إذا ناب خطبٌ[3] أو نبَا بك منزِل
كأنك تشفِى منك داءَ مساءتى	وسُخْطِى ومافى رِيبتى ما تَعَجَّلُ
وإن سُؤْتَنى يوما صبرتُ إلى غدٍ	ليعقبَ يوما آخرٌ منك مُقْبلُ
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى	يمينَك فانظرْ أىّ كفٍّ تبدّلُ
وفى النا سِ إن رثّتْ حبالُك واصلٌ	وفى الأرض عن دارِ القلى متحوَّل
إذا أنت لم تنصِفْ أخاكَ وجدتَهُ	على طرف الهجران إنْ كان يعقِلُ
ويركب حدَّ السيف من أن تَضِيمهُ	إذالم يكن عن شَفْرةِ السيفِ مَزْحلُ
وكنتُ إذا ما صاحبٌ رامَ ظنتى[4]	وبَدَّل سوءًا بالذى كان يفعل[5]

---

(١) العجب: مؤخر كل شىء.

(٢) ديوان الحماسة: ٣–١٣٢. (٣) فى الحماسة: إن ابزاك خصم.

(٤) فى ا: هجرتى. (٥) فى الحماسة: بالذى كنت أفعل.

قلبتُ له ظَهْرَ المِجَنّ ولم أدُمْ   على العهد إلا ريثما أتحوّل
إذاانصرفت نفسى عن الشىء لم تكد   عليه بوجهٍ آخرَ الدهر تُقْبِل

ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبى سفيان وأنشد شعر مَعْن فقال : لمن هذا ؟ فقال : لى يا أمير المؤمنين . قال : لقد شعرت بعدى يا أبا بكر ! ثم دخل عليه مَعْن فأنشده الشعر بعينه ، فقال : يا أبا بكر، ألم تقل إنه شعرك ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنه ظئرى فما كان له فهو لى . أراد معاتبة معاوية فعاتبه بشعر معن ؛ ليبلغ مافى نفسه ، وليس ادِّعاؤه له على حقيقة منه .

بين خالد بن صفوان وهشام

وقال خالد بن صفوان : دخلتُ على هشام بن عبد الملك فاستَدْنَانِى حتى كنت أقربَ النا سِ إليه ثم تنفّس الصعداء ، وقال : يا خالد ، ربَّ خالدٍ جلس مجلسك هو أشهى إلىّ حديثا منك ! فعلمت أنه أراد خالداً القسرى[1] . فقلت : أفلا تعيده يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هيهات ! إن خالدا أَدلّ فأملّ ، وأَوجف فأعجف ، ولم يدع لراجع مرجعاً . وتمثل بهذا البيت :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تَكَد   عليه بوجهٍ آخرَ الدهر تُقْبِل

فى مجلس عبد الملك

وروى أبو حاتم عن أبى عبيدة قال[2] : كان عبد الملك بن مروان فى سمره مع أهل بيتِه وولده وخاصّته فقال لهم : ليقل كلُّ واحدٍ منكم أحسن ماقيل من الشعر ، وليفضّل [مَنْ][3] رأى تفضيله ، فأنشدوا وفضّلوا ، فقال بعضهم : [امرؤ القيس ، وقال بعضهم :][3] النابغة ، وقال بعضهم : الأعشى ، فلما فرغوا قال : أشعرُ الناس والله من هؤلاء الذى يقول ، وأنشد بعض هذه الأبيات التى أنشد ، وهى لمعن ابن أوس[4] :

وذى رَحِمٍ قَلَّمتُ أظفارَ ضِغْنِهِ   بحلمىَ عنه وهو ليس له حلم

---

(١) فى ط : القشيرى.   (٢) الأمالى : ٢ — ١٠١ .   (٣) من ا ، والأمالى.
(٤) المختار : ١٩٩ ، اللآلئ : ٧٣٣ ، وذيله: ١٠٤ .

يحاول رغمى لا يحاولُ غيرهُ ... وكالموتِ عندى أن يَحُلّ به الرغْمُ
فإن أعفُ عنه أُغْض عيناً على قذًى ... وليس له بالصَّفح عن ذنبه عِلْمُ
وإن أنتصرْ منه أكُنْ مثل رائشٍ ... سهامَ عدوّ يُستهاض بها العظمُ
صبرتُ على ما كان بينى وبينهُ ... وما يستوى حَرْبُ الأقاربِ والسِّلْمُ
وبادرتُ منه النأىَ والمرء قادرٌ ... على سهمه ما كان فى كفّه السهم(١)
ويشتم عرضى فى المغيَّب جاهداً ... وليس له عندى هَوَانٌ ولا شتم
إذا سُمْتُه وَصْلَ القرابةِ سامنى ... قطيعتَها تلك السفاهةُ والإثمُ
فإن أدْعُه للنّصف يَأْبَ إجابتى ... ويَدْعو لحكم جائر غيرهُ الحُكم
فلولا اتقاء اللهِ والرحم التى ... رعايتُها حقٌّ وتعطيلها ظُلم
إذاً لعَلاه بارقٌ وخَطَمْتُهُ ... بوسْمِ شَنَارٍ لا يشابِهُه(٢) وَسْمُ
ويسعى إذا أبنى ليهدِمَ صالحِى ... وليس الذى يبنى كمن شأْنُه الهَدْمُ
يودُّ لو انّى معدِمٌ ذو خَصَاصةٍ ... وأكرهُ جهدى أن يخالِطَه العُدْمُ
ويعتدُّ غنماً فى الحوادث نكبتى ... وما إنْ له فيها سَنَاءٌ ولا غُنْمُ
فما زلتُ فى لِينى له وتعطُّفى ... عليه كما تحنو على الولدِ الأمُّ
وخَفْضِى له منى الجناحَ تألّفا ... لتُدْنيَه منى القرابةُ والرِّحْمُ
وصَبْرِى على أشياءَ منه تُريبنى ... وكَظْمى على غيظى وقد ينفع الكَظْمُ
لأَسْتَلّ منه الضّغْن حتى استللْتُه ... وقد كان ذا ضِغْنٍ يصوبه الحزم(٣)
رأيتُ انثلاماً بيننا فرقَعْتُه ... برفقى أحيانا وقد يُرْقَع الثّلْمُ
وأبرأتُ غِلَّ الصدرِ منه توسُّعا ... بحلمى كما يُشْفَى بالادوية الكَلْمُ
فأطفأت نار الحرب بينى وبينهُ ... فأصبحَ بعد الحرب وهو لنا سَلْمُ

(١) فى ا : ما كان يمكنه ، وفى الأمالى : مادام فى كفه.

(٢) فى الأمالى : لا يشاكهه ، وهو بمعناه . (٣) فى الأمالى : يضيق به الحزم .

[من رسائل ابن العميد]

رسالة إلى أبى عبد الله الطبرى

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى: وصل كتابُك فصادفنى قريبَ عهد بانطلاق ، من عنَتِ الفراق ، وأوقفنى مستريحَ الأعضاء والجوانح من حر الاشتياق ؛ فإنّ الدهرَ جرى على حكمِهِ المألوف فى تحويل الأحوال ، ومضى على رَسْمه المعروف فى تبديل الأبدال ، وأعتقنى من مخالّتك عِتقا لا تستحقُّ به ولاء ، وأبرأنى من عهدتك براءة لا تستوجِبُ معها دركا ولا استثناء ، ونزع من عُنقى رِبْقَةَ الذّل فى إخائك بيدى جفائك ، ورشّ على ما كان يحتدم فى ضميرى من نيرانِ الشوق ماءَ السلوّ ، وشنَّ على ما كان يلتهبُ فى صَدْرى من الوَجْد ماءَ اليأس ، ومسح أعشار قلبى فلاءَم فُطورَها(١) بجميل الصبر ، وشعبَ أفلاذَ كبدى ، فلاحم صدوعَها بحُسْنِ العزاء ، وتغلغَلَ فى مسالكِ أنفاسى فعوض نفسى من النزاع إليك نزوعا عنك ، ومن الذهاب فيك رجوعا دونك ، وكشفَ عن عينى ضبابات ما ألقاهُ الهوَى على بصرى ، ورفع عنها غيابات ما سَدَله الشك دُون نظرى ، حتى حدَر النقاب عن صفحاتِ شِيَمك ، وسفَر عن وجوه خليقتِك ؛ فلم أَجدْ إلاّ منكراً ، ولم ألق إلا مستكبراً ، فوليتُ منها فراراً ، ومُلِئتُ رعباً ، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك ، ورددت إليك ذمما عهدك .

وفى فصل من هذه الرسالة : وأما عذرُك الذى رُمْت بَسْطَه فانقبض ، وحاولْتُ تمهيدَه وتقريرَه فاستوْفزَ وأعرض ، ورفعتُ بضبعه فانخفض ، فقد ورد ولقيته بوجهٍ يؤثر قبوله على ردِّه ، وتزكيته على جرحه ، فلم يفِ بما بذلته لك من نفسِه ، ولم يقم عند ظنّك به . أنّى وقد غطّى التذمُّمُ وجهَه ، ولفَّ الحياء رأْسَه ، وغضَّ الخجلُ طرْفَه ؛ فلم تتمكن من استكشافه ، وولّى فلم تقدر على إيقافه ، ومضى يعثرُ فى فضولِ ما يغشاه من كرب حتى سقَط ، فقلنا : لليدِ والفم ؛ ثم أمر بمطالعة صاحبه فلم أجده إلّا تأبَّطَ شراً ، أو تحمل وزراً .

---

(١) الفطر : الشق وجمعه فطور ، وفى ط : قطور .

من النقد

وقوله هذا محلول من عقد نظمه إذ يقول :

اقْرَا السلامَ على الأمير وقل لهُ | قَدْكَ اتَّئِبْ[1] أرْبَيتَ فى الغلواء
أنتَ الذى شتّتَّ شَمْلَ مسرّتى | وقدحتَ نارَ الشوقِ فى أحشائى
ورضيتَ بالثمن اليسير معوضةً | منى فهلّا بِعْتَنى بغلاء
وسألتك العُتْبى فلم تَرَنِى لها | أهلًا فجُدْتَ بِعذْرَةٍ شَوْهاء
ورَدَتْ مموّهةً فلم يرفَعْ لها | طَرْف ولم ترزق من الإصغاء
وأعار منطقها التذمّم سكتةً | فتراجعَتْ تمشِى على استِحْيَاء
لم تشف من كمدٍ ولم تبردْ على | كبدٍ ولم تَمْسَحْ جوانبَ داء
داوتْ جوًى بجوًى وليس بحازم | من يستكفّ النارَ بالحَلْفَاء
من يشف مِنْ كمد بآخر مثلِهِ | أثرتْ جوارحُهُ على الأدواء

رسالة إليه أيضا

وله إليه رسالة : أخاطب الشيخ سيدى ــ أطال الله بقاءه ــ مخاطبةَ مُحْرِج يروم الترويحَ عن قَلْبه ، ويريغ[2] التفريجَ من كَرْبه ؛ فأُكاتبه مكاتبةَ مصدور ، يريدُ أن ينفثَ بعضَ مابه ، ويخفّف الشكوى من أوصابه ، ولو بقيَتْ فى التصبّر بقيةٌ لسكتّ ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مَخرجة يتحلّلها تجلّدًا لأمسكت ؛ فقديمًا لبسْتُ الصديقَ على علّاته ، وصفَحْتُ له عن هَناته ، ولكنى مغلوب على العزاء ، مأخوذٌ عن عادتى فى الإغضاء ، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالى جفاءً ، وذهب فى نفسى من ظلمك ما أنزف حلمى[3] فجعله هباء ، وتوالى علىّ من قُبْحِ فعلِك فى هجر يستمر على نسَق ، وصدٍّ مطَّردٍ متَّسِق ، مالو فُضَّ على الوَرى ، وأُفيض على البشَر لامتلأتْ منه صدورُهم ، فهل أقدرُ على ألّا أقول ، وهل نكِلُك إلى مراعاتك ، وهل نشكوك إلى الدهرِ حليفك على الإضرار ، وعقيدك على الإفساد ، وأشكوه إليك ، فإنكما وإن كنتما فى قطيعة الصديق رَضِيعَىْ لِبَان ، وفى استيطاء مركب العقوق شريكَى عنان،

(١) اتأب : خزى واستحيا ، وفى ط : اتئد . (٢) يريغ : يطلب، وفى ط : يريد .
(٣) فى ا : ماانتسف .

فإنه قاصرٌ عنك فى دقائقَ مخترعةٍ ، أنتَ فيها نسيجُ وَحْدِك ، وقاعدٌ عما تقومُ به من لطائفَ مبتدعة، أنْتَ فيها وحيدُ عصرك ، أنتما متفقان فى ظاهرٍ يَسُرُّ الناظرَ ، وباطنٍ يسوءُ الخابر ، وفى تبديل الأبدال ، والتحول من حالٍ إلى حال، وفى بثِّ حبائلِ الزورِ ، ونَصْبِ أشراكِ الغرور ، وفى خلف الموعود ، والرجوع فى الموهوب ، وفى فظاعةِ اهتضام ما يُعير ، وشناعة ارتجاعِ ما يمنح ، وقَصْدِ مشارَّة الأحرار ، والتحامل عند ذوى الأخطار ، وفى تكذيب الظنون ، والميلِ عن النباهة للخمول ، إلى كثير من شِيَمكما التى أسندتما إليها ، وسننكما التى تعاقدتُما عليها ، فأين هو ممن لا يجارى فيه نقض عُرى العهود ، ونكث قُوَى العقود ؟ وأنَّى هو عن النميمة والغيبة ، ومشى الضَّراء فى الغِيلة ، والتنفق بالنفاق فى الحيلة ، وأَين هُو ممن ادَّعى ضروبَ الباطل ، والتحلِّى بما هو منه عاطل ، وتنقّص العلماء والأفاضل ؛ هذا إلى كثير من مساوٍ منثورة أنت ناظمُها، ومخازٍ متفرقة أنت جامعُها . أنت أيّدك الله إنْ سوّيتَه بنفسك ، ووزنته بوزنِك ، أظلمُ منه لذويه ، وأعقُّ منه لبنيه ؛ وهبك على الجملة قد زعمت — مفترياً عليه — أنه أشدُّ منك قدرة ، وأعظمُ بَسْطَة ، وأتمّ نصرة ، وأطلق يدا فى الإساءة ، وأمضى فى كل نكاية شَبَاة ، وأحدّ فى كل عاملة شداة[1] ، وأعظم فى كل مكروه متغلغلا، وآلف إلى كل محذور متوصلا ، إن الدهر ليس بمُعتِب من يجزعُ، وإن العُتْبَى منك مأمولة ، ومن جهتك مرقوبة ، وهيهات ! فهل توهَّم أنه لو كان ذا روح وجثمان، مصوراً فى صورةِ إنسان ، ثم كاتبتُه أستعطفه على الصلة وأستعفيه من الهَجْرِ ، وأذكّره من المودة ، وأستميل[2] به إلى رعايةِ الثقة ، وأستمد على ما أشاعه الفراقُ فى نفسى من اللَّوْعة ، وأَضْرَمه بالبعادِ فى صدرى من الحرقة ، كان يستَحْسِنُ ما اسْتَحْسَنْتَه من الاضطراب عند جوابى ، ويستجيز ما اسْتَجَزْتَه من الاستخفافِ بكتابى .

وله فصل فى هذه الرسالة ، وقد ذكر دعواه فى العلم : وهبْك أفلاطون نفسه

---

(١) الشداة : بقية القوة وطرفها وحد كل شىء . (٢) فى ا : وأشتمل .

فأينَ ماسنَنْتَه من السياسةِ، فقدقرأناه، أتجدُفيه إرشادا إلى قطيعة صديق، وأحسبك أرسطاطاليس بعَيْنِه ، أين ما رَسَمْته من الأخلاق ، فقد رأيناه فلم نر فيه هدايةً إلى شىء من العقوق ، وأما الهندسة فإنها باحثةٌ عن المقادير ، ولن يعرفها إلا مَنْ جهل مقدارَ نفسه ، وقَدرَ الحقّ عليه وله ؛ بل لك فى رؤساء الآداب العربية [مِنَّا ربحٌ ومضطرب ، ولسنا نُشَاحّك . لكن أحب أن تتحقّق بالغريب من القول ، دون الغريب](١) من الفعل ، وقد أغربت فى الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدى للرجوع عنه . وأماالنحوُ فلن ترفع عن حذق فيه، وبَصَرٍ به، وقد اختصرتَه أوْجزَ اختصار، وسهلت سبيلَ تعليمه على من يجعلك قُدْوة ، ويرضى بك أسوةً ، فقلت : الغدرُ والباطلُ وما جرى مجراهما مرفوعٌ ، والصدق والحق وما صاحبهما مخفوض ، وقد نصب الصديقُ عندك، ولكن غرضا يرشق بسهام الغَيْبة ، وعَلَما يقصد بالوقيعة، ولست بالعروضى ذى اللهّجةِ فأعرف قَدْرَ حذقك فيـــه ، إلا أنى لا أراك تتعرّضُ لكاملٍ فيه ، ولا وافرٍ ، وليتك سبحتَ فى بحر المجتثّ حتى تخرج منه إلى شَطّ المتقارب .

وفى فصل منها أيضا :

وهبْنى سكتُّ لدعواك سُكوتَ متعجّب ، ورضيتُ رِضاَ متسخّط ، أَيرْضى الفضلُ اجتذابَك بأهدابه من يدى أهليه وأصحابه ، وأحسبك لم تزاحِمْ خطابَه ، حتى عرفت ذلة نَفَره(٢) وقلة بصره ، فاصدقنى هل أنشدك :

لو بأبانين جاء يخطبها ضرّج ماأنف خَاطبٍ بدَم

وليت شعرى بأى حلى تصدّيت لَهُ ، وأنت لو تتوّجت بالثريّا ، وقلدت قِلادة الفلك ، وتمنْطَقْت بمنطقة الجوزاء، وتوشَّحْتَ بالمجرة لم تكن إلا عُطُلا ، ولو توضَّحْتَ بأنوارِ الربيع الزاهر ، وسرّجت فى جبينك غُرّةَ البدرِ الباهرِ ، ما كنتَ إلا عُطُلا،

---

(١) ساقط من ا . (٢) فى ط : قلة فقره، وهذا من ا .

سيما مع قلّة وفائك، وضَعْفِ إخائك، وظلمة ماتتصرّف فيه من خِصالك، وتراكم الدُّجى على ضلالِك، وقد ندِمْتُ على ماأعرتك من ودّى، ولـكن أى ساعةِ مَنْدَم، بعد إفناء الزمان فى ابتلائك، وتصفُّحى حالاتِ الدهر فى اختيارك، وبعد تضييع ما غرسْته، ونقض ما أسسْتُه، فإن الودادَ غرسٌ إذا لم يوافق ثرى ثريا، وجوّا عَذِيّا[1]، وماء رَوِيّا، لم يُرْجَ زكاؤُه، ولم يجر نماؤُه، ولم تفتّح أزهارُه، ولم تجن ثمارُه؛ وليت شعرى، كيف ملك الضلالُ قيادى حتى أشكل علىّ ما يحتاجُ إليه المزوجان، ولا يستغنى عنه المتآلفان، وهما ممازجة طَبْع، وموافقة شَـكْلٍ وخَلْق، ومطابقة خيم[2] وخُلُق، وما وصلتنا حالٌ تجمعنا على ائتلاف، وحَمَتْنا من اختلاف، ونحن فى طرفى ضدّين، وبين أمرين متباعدين، وإذا حصَّلت الأمرَ وجدتُ أقل ما بيننا من البعاد أكثر مما بين الوِهاد والنِّجادِ، وأبعد مما بين البياض والسوادِ، وأيسَر ما بيننا من النفار أقلّ ما [بيننا من النضار وأكثر ما][3] بين الليـل والنهار، والإعلان والإسرار.

[حسن التأتى]

قال أسد بن عبـد الله لأبى جعفر المنصور : يا أميرَ المؤمنين، فَرْطُ الخُيَلاء، وهيبةُ العزة، وظلُّ الخلافة، يكفُّ عن الطلب من أمير المؤمنين إلّا عن إذْنِه. فقال له : قل، فقد والله أصبتَ مَسْلَكَ الطلب؛ فسأل حوائجَ كثيرةً قُضِيَتْ له.

أسد بن عبد الله والمنصور

وقال عمرو[4] بن نهيك لأبى جعفر المنصور: يا أميرَ المؤمنين، قد حصر خَدَمك الإعظام والهيبة عن ابتدائك بطلباتهم، وما عاقبةُ هذين لهم عنـدك؟ قال : عطاء يزيدهم حياءً، وإكرامٌ يكسوهم هيبـةَ الأبد، قال عيسى بن على : ما زال المنصور

(١) عذا البلد يعذو : طاب هواؤه. (٢) الخيم: الطبع. (٣) ساقط من ا.
(٤) فى ط : عثمان.

يشاورُنا فى أمره حتى قال إبراهيم بن هرمَة فيه(١) :

إذا ما أراد الأمر ناجى ضميرهُ　　　فناجَى ضميراً غير مختلف العَقْلِ

ولم يُشْرِكِ الأدنين فى جُلِّ أمرهِ　　　إذا اختلفت بالأضعفين قُوَى الحَبْلِ

فِقر فى ذكر المشورة

المشورةُ لِقاحُ العقل ، ورائدُ الصواب ، وحَزْمُ التدبير . المشاورة قبل المساوَرة . والمشورةُ عينُ الهداية .

ابن المعتز : من رضى بحالهِ استراح ، والمستشِيرُ على طرف النجاح . وله : مَن أكثرَ المشورة لم يعدم فى الصواب مادحاً ، وفى الخطإ عاذراً . بشار بن برد : المشاور بين إحْدى الحسنيين : صواب يفوزُ بثمرته ، أو خطأ يُشارك فى مكروهه ، وقال :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستَعِنْ　　　بعَزْم نصيحٍ أو مشورةِ حازم

ولا تحسب الشورى عليك غضاضةً　　　فإنّ الخوَافِى قوةٌ للقوادم

وما خير كفٍّ أمسك الغلّ أختها　　　وما خيرُ سيف لم يؤيَّدْ بقائم

وخَلِّ الهوينى للضعيف ولا تكُنْ　　　نؤوما فإن الحرَّ ليس بنائم

وأَدْنِ إلى القرب المقرّب نفسهُ　　　ولا تُشهد النجوى امرأً غير كاتم

فإنك لا تستطرد الغمّ بالمنى(٢)　　　ولا تبلغ العليا بغيرِ المكارم

* * *

رجع إلى حسن التأتى

دخل الهذيل بن زفر على يزيد بن المهلب فى حمالات لزِمَتْه فقال : أيها الأمير ، قد عظُم شأنُك أن يُستعانَ بك أو يستعانَ عليك ، ولستَ تفعل شيئاً من المعروف إلا وأنتَ أكبرُ منه ، وليس العجبُ من أن تفعل ، بل العجب من ألّا تفعل ؛ فقضاها .

---

(١) المختار من شعر بشار: ٢٠٥، ذيل اللآلىء: ٢١ .　(٢) فى ط : بالحجى .

[تأريخ الكتب]

استخلص القاضى أبو خليفة الفضل بن حباب الجمحى رجلا للأُنْس به ، فقال : أُغَيِّر ثيابى وأعود ، قال : ما أفعل ، إيناسك وَعد ، وإيحاشك نقد ، وكان أبو خليفة من جلَّةِ المحدثين ، وله حَلاوةُ معنى وحسن عبارة وبلاغةُ لفظ . قال الصولى : كاتبتُ أبا خليفة فى أمور أرادها فأغفلْتُ التاريخَ منهـا فى كتابين ، فكتب إلىّ بعد نفوذِ الثانى: وصل كتابُك ـ أعزَّك الله ـ مُبهَم الأوان ، مُظْلِم المكان ، فأدَّى خبراً ما القرب فيه بأولى من البُعْد ؛ فإذا كتبت ـ أكرمك الله تعالى ـ فلتكن كتبُك مرسومةً بتاريخ ؛ لأَعرِف أدنى آثارك ، وأقرب أخبارك ، إن شاء الله تعالى . وقال بعض الكتاب : التاريخ عمودُ اليقين ، ونَافى الشك ، به تُعْرَف الحقوق ، وتُحفَظُ العهود . وقال رجل لأبى خليفة سَلم عليه : ما أحسبك تعرف نسبى[1] . فقال : وجهك يدلُّ على نسبك ، والإكرامُ يمنع من مسألتك ، فأَوْجِدْ لى السبيلَ إلى معرفتك .

وسأل أبو جعفر المنصور قبل أن تُفْضِى إليه الخلافة شبيب بن شيبة ، فانتسب له فعرفه أبو جعفر ، فأثنى عليه وعلى قومه ؛ فقال له شبيب : بأبى أنت وأمى ! أنا أحبّ المعرفة وأُجِلّك عن المسألة . فتبسَّم أبو جعفر وقال : لطف أهل العراق ! أنا عبد الله ابن محمد [بن على][2] بن عبد الله بن العباس . فقال : بأبى أنت وأمى ! ما أشبهك بنسبك ؛ وأدلّك على منصبك .

فِقر وأمثال يتداولها العمال

الولاية حلوة الرضاع مرَّة الفطام . غبار العمل خيرٌ من زعفران العطلة . ابن الزيات : الإرجاف مقدّمة السكون[3] . عبد الله بن يحيى : الإرجاف رائد الفتنة. حامد بن العباس : غرسُ البلوى يثمر الشكوى . أبو محمد المهلبى : التصرف أعلى وأَسنى ، والتعطل أَصْفَى وأعفى . أبو القاسم الصاحب : وعْدُ الكريم أَلْزَمُ من

---

(١) فى ا : تثبتنى . (٢) ساقط من ا . (٣) فى ا : السكون.

دَين الغريم . ابن المعتز : ذلُّ العَزْلِ يضحك من تِيه الولاية . وقال :

كم تائهٍ بولايةٍ وبعَزْلِهِ رَكضَ البَرِيدُ
سُكْرُ الوِلايةِ طيبٌ وخُمارها صَعْبٌ شديدُ

وقال : من ولى ولاية فتاه فيها فأخبره أنَّ قدره دونها . العزل طلاقُ الرجال وحيض العمال . وأنشدوا :

وقالوا العَزْلُ للعمال حَيْضٌ لحاهُ الله من حَيْضٍ بَغيضِ
فإنْ يكُ هكذا فأبُو عَلىٍّ من اللاتى يَئِسْنَ من المحِيضِ

منصور الفقيه :

يا مَنْ تولَّى فأبدى لنا الجفا وتَبدَّلْ
أليس منك سمِعْنا من لم يمتْ فسيُعزلْ

وقال أيضاً :

إذا عُزِل المرءُ واصلتُه[1] وعنـد الولايةِ أستكبرُ
لأنَّ المولَّى له نخوةٌ ونفسى على الذلِّ لا تصبرُ

[منصور الفقيه]

ومنصور هـذا هو منصور بن إسماعيل بن عيسى بن عمر التيمى[2] . وكان يتفقّه على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وهو حلو المقطعات ، لاتزالُ تندر له الأبيات مما يُسْتَظْرَف معناه ، ويُستحلَى مغزاه، [ويبقى ثناه][3]، وهو القائل لما كفّ بصره :

من شعره

مَنْ قال ماتَ ولم يستَوْفِ مُدَّتهُ لعظم نازلةٍ نالَتْهُ معذور
وليس فى الحكم أن يحيا فتًى بلغَتْ به نِهايةُ ما يخشى المقــادير
فقل له غـيرَ مُرْتابٍ بغفلتهِ أو سوءِ مذهبه قد عاش منصورُ

---

(١) فى ط : والیته . (٢) فى ط : ابن عمر التميمى، وهذا من ا.

(٣) ليس فى ا .

وعتب على بعض الأشراف ، وكانت أمُّه أمةً قيمتها ثمانية عشر دينارا فقال :

من فاتنى بأبيـه ... ولم يفتنى بأمهْ
ورام شتمىَ ظلماً ... سكتُّ عن نصف شتْمِه

وقال :

لو قيل لى خُذْ أماناً ... من حادث الأزمانِ
لمـا أخَـذْتُ أماناً ... إلّا من الإخْوَانِ

وقال :

رضيت بما قسمَ اللهُ لى ... وفوّضتُ أمرى إلى خالقى
كما أحسن اللهُ فيما مضَى ... كذلك يُحسن فيما بَقِى

وقال :

لو كنت منتفعا بعلْـ ... ـمك مَعْ مواصلة الـكبائرْ
ماضرَّ شُرْب السمّ واء ... لَمْ أن شرب السم ضائرْ

وقال :

إذا القوتُ تأتّى لـ ... ـك والصحةُ والأمنُ
وأصبحتَ أخا حُزْن ... فلا فارقك الحُزْنُ

ورأيت له فى أكثر النسخ ـ على أنَّ أكثر الناس يرويه لإبراهيم بن المهدى وهو الصحيح :

لولا الحياءُ وأننى مشهورُ ... والعيبُ يَعْلَقُ بالـكبيرِ كبيرُ
لحلَلْت منزلنا الذى نحتلّهُ ... ولـكان منزلنا هو المهجور

وهذا كقول الصاحب أبى القاسم :

[دعتنى عيناكَ نحو الصبا ... دعاء يكرر فى كل ساعَهْ
فلولا وحقك عذر المشيب ... لقلتُ لعينيك سمعاً وطاعَهْ

وقال ابن دريد فى معنى البيت الأول فأحسن :][1]

إذا رأيت امرأً فى حال عُسْرَتِه مُصافِياً لك ما فى وُدِّه خَلَلُ

فلا تَمَنَّ له أن يستفيدَ غِنًى فإنه بانتقال الحـال ينتقِلُ

[تغير الحال بكثرة الأموال]

محمد بن الحسن بن سهل

وكان لمحمد بن الحسن بن سَهْل صديقٌ قد نالته عُسرةٌ ، ثم ولِّى عملا ، فأتاه محمد قاضيا حقّا ومسلماً عليه ، فرأى منه [نبوةً و][1] تغيّرا ، فكتب إليه :

لَئن كانتِ الدنيا أَنالَتْكَ ثروةً وأصبحت ذا يُسْرٍ وقد كُنْتَ ذا عُسْرِ

لقد كشف الإثراء منك خلائقاً من اللؤم كانت تحتَ ثَوْبٍ من الفقر

وقال أبو العتاهية فى عمرو بن مسعدة ، وكان له خِلاًّ قبل ارتفاعِ حاله ، فلما علَتْ رُتْبته مع المأمون تغيّر عليه :

غَنِيت عن العهد القديم غنيتا وضيّعت عهداً كان لى ونسيتا

وقد كنت لى أيام ضَعْفٍ من القوى أَبر وأَوْفَى منك حين قَوِيتا

تجاهلت عما كنت تُحسِن وَصْفَهُ ومتّ عن الإحسان حين حَيِيتا

رسالة البديع إلى أبى نصر المرزبان

وكتب بديعُ الزمانِ إلى أبى نصر بن المرزبان فيما ينخرِطُ فى هذا السلك[2]: كنتُ ـ أطال اللهُ بقاءَ الشيخ سيدى وأدام عزّه ـ فى قديم الزمان أتمنّى الخيرَ للإخوان، وأسألُ الله تعالى أن يُدِرَّ عليهم أخلافَ الرزقِ ، ويمدَّ لهم أكنافَ العيش ، ويؤتيهم أصنافَ الفَضْلِ ، ويوطئهم أكنافَ العز ، وينيلهم أعرافَ المجدِ ؛ وقُصارايَ الآن أن أرغبَ إلى الله تعالى ألاّ يُنِيلَهم فوق الكفاية ؛ فشدّ ما يَطْغَونَ عند النعمة ينالونها، والدرجةِ يعلونها ، وسَرُعَ ما ينظرون من عال ، ويجمعون من مال ، وينسون فى ساعة اللدونة أوقاتَ الخشونة، وفى أزمان العذوبة أيام الصعوبة . وللكتّاب مَزِيّةٌ فى هذا الباب ؛ فبيناهم فى الغربة أَعوان كما انفرج المشط ، وفى العُطْلَة إخوان كما

---

(١) من ا . (٢) الرسائل : ٩٣ .

انتظم السِّمْطُ ، حتى إذا لحظهم الجدُّ لحظةً حَمْقَاء بمنشور عمالة ، أَوْ صَكِّ جعالةٍ ؛ عادَ عامرُ مودَّتِهم خرابا ، وانقلب شرابُ عهدهم سرابا ، فما اتّسعت دورُهم إلا ضاقَت صدورُهم، ولا غَلَتْ قدورُهم إلّا خبَتْ بدورهم . ولا عَلَتْ أمورُهم إلا أسبِلَت ستورُهم، ولا أوقِدَتْ نارُهم إلا انطفأ نُورهم، ولا هَمْلَجتْ عِتَاقهم إلاّ فظعت أخلاقهم ، ولا صلحت أحوالُهم ، إلا فسدت أفعالُهم ، ولا كثُرَ مالهم[1] ، إلّا قلَّ جمالُهم ، وعزَّ معروفهم ؛ وورمَتْ أنوفهم ، حتى إنهم ليصيرون على الإخوان مع الخطوب خَطْبا ، وعلى الأحرار مع الزمان أَلْبَا[2] . قُصَارَى أَحدهم من المجد أن ينصبَ تحته تَخْته ، وأن يوطئ استه دستَه ، وحَسْبُه من الشرف دارٌ يصهرجُ أَرْضَها، ويزخرف بعضَها، ويزوِّق سقوفها ، ويعلّق شفوفها[3] ؛ وناهيه من الشرف أَنْ تغدو الحاشيةُ أمامَه ، وتحمل الغاشية قدّامه، وكفاه من الكرم ألفاظٌ فقاعيّة[4] ، وثيابٌ قداعية[5] ، يلبسها ملوما[6] ، ويحشوها لُوما ، وهذه صفةُ أفاضلهم. ومنهم من يمنَحُكَ الودَّ أيام خُشكاره حتى إذا أخصب جعل ميزانَه وكِيلَه ، وأسنانه أَكِيله ، وأنيسه كِيسه ، وأليفه رغيفَه، وأمينَه يمينه ، ودنانيره سَميره ، وصندوقه صديقَه ، ومفتاحه ضجيعَه ، وخاتمه خادِمَه، وجمع الدرَّة إلى الدرَّة[7] ، ووضع البَدْرَة على البدرة ، فلم تقع القَطْرَة من طرْفه ، ولا الدرة[7] من كفِّه ؛ ولا يخرج ماله عن عهدة خاتمه ، إلى يوم مَأْتمه ، وهو يجمعُ لحادثِ حياتِه ، أو وارثِ وفاتِه ، يسلُكُ فى الغَدْرِ كلَّ طريق ، ويبيعُ بالدرهم ألفَ صديق ؛ وقد كان الظنُّ بصديقنا أَبى سعيد ــ أيّده الله تعالى ــ أنه إذا أخصب أوانا كنفا من ظلّه ، وحبانَا من فضله ، فمَنْ لنا الآن بعداله ؟ إنه ــ أَطال الله بقاءه ــ حين طارت إلى أُذنه عُقاب المخاطبة بالوزير ، وجلس من الديوان فى صَدْرِ الإيوان ،

---

(١) فى ا : ولا كثر جمالهم إلا قل اهتبالهم وقل معروفهم .

(٢) هم عليه ألب ــ بفتح الهمزة وكسرها : أى مجتمعون عليه بالظلم والعداوة .

(٣) فى ا : شقوفها . (٤) فى ط : يراعته ، والتفقيع : التشدق فى الكلام .

(٥) فى ط : وثياب شفاعته . وفى الرسائل: ثياب شقاعية . (٦) فى ط : يكسبها .

(٧) فى ط : الذرة .

افتضّ عُذْرة السياسة لدىّ ، بتعرض بعض المختلفة إلى ، وجعل يعرضه للهلاك ، ويتسبب إليه بمال الأتراك ، وجعلت أُكاتبه مرة وأقصِدُه أخرى، وأذكّره أنّ الراكب ربما استنزل ، والوالِى ربما عُزِل ، ثم يجف ريق الخجل على لسان العذر ؛ فتبقى الحزازة فى الصدْرِ ، وما يجمعنى والشيخ إن كان زادَه قولى إلا علوًّا فى تحكمه ، [وغلوًّا فى تهكمه][(١)] ، وجعل يمشى الجَمَزَى فى ظلمه ؛ [ويبرأ إلىَّ من علمه][(٢)] ، فأقولُ : إذا رأيت ذِلّةَ السؤال منى وعزّةَ الرد منه لى :

قل لى متى فرزنتَ سُرْ — عة ما أرى يا بَيْذَق[(٣)]

وما أضيع وقتاً فيه أَضَعْتُه ، وزماناً بذكره قطعْتُه ، هلمَّ إلى الشيخ وشرعته ، فقد نكأ القلب بقَرْحه ، وكيف أصِفُ حالا لايقرع الدهر مَرْوَةَ حالِه ، ولا ينتقض عروة إجلالِه ؛ فما أولانى بأن أذكره مجْملا وأتركه مفصّلا ، والسلام .

رسالة أخرى للبديع

وكتب إلى بعض إخوانه فى أَمر رجل ولى الأشراف[(٤)] :

فهمت ماذكرت ــ أطال الله بقاءك ــ من أمر فلان أنه ولى الأشراف، فإن يصدق الطير[(٥)] يكن إشرافا على الهلاك ، بأيدى الأتراك ، فلا تحزُنْكَ ولايتُه فالحبل لا يبرم إلّا للفتل ، ولا تعجبك خلعته فالثور لا يزيَّنُ إلا للقتل ، ولا يرعك نِفاقُه فأرخص ما يكون النِّفط إذا غلا ، [وأَسفل ما يكون الأرنب إذا علا][(٢)] ، وكأنِّى به وقد شنَّ عليه جران العودِ شنَّ المطر الجودِ ، وقيد له مركبُ الفجار ؛ من مربط النجار ، وإنما جرَّ له الحبل ليُصْفَع كما صُفِع من قبل، وستعودُ تلك الحالة إِحالة ، وينقلبُ ذلك الحبلُ حبالة ، فلا يحسد الذئب على الإلية يُعْطَاها طعمة ، ولا يحسب الحبّ يُنثر للعصفور نعمة ، [وهبه وُلّى إمارة البحرين أليس مرجعه ذلك العقل، ومصيره ذلك الفضل، ومنصبه ذلك الأصل . وعصارته ذلك النسل ، وقعيدته تلك الأهل][(١)] ، وقوله ذلك

---

(١) من ا . (٢) ساقط من ا .

(٣) الفرزان: من لعب الشطرنج أعجمى معرب ،البياذقة : الرجالة ، ومنه بيذق الشطرنج .

(٤) الرسائل : ١١٩ . (٥) فى ط : فإن تصدق الطيرة تكن .

القول ، وفعله ذلك الفعل ، فكان ماذا ؟ أليس قد سلب أكثر مما أعطى ، وماحرم أَفضل مما أُوتى ، وما عدم أوفر مما غنم ! مالك تنظرُ إلى ظاهره، وتعمى عن باطنه؟ أكان يعجبك أن تكونَ قميدتُه فى بيتك ، وبغلتُه من تحتك ، أم كان يسرُّك أن تكونَ أخلاقُه فى إهابك ، وبوّابُه على بابك، أم كنت تودّ أن تكونَ وَجْعَاؤه[1] فى إزارك ، وغلمانه فى دارك ، أم كنتَ تَرْضَى أن تكون فى مربطك أفراسُه ، وعليك لباسُه ، ورأسك رأسُه؟ جعلت فداك ، ماعندك خيرٌ مما عنده ، فاشكر اللهَ وحدَه على ما آتاك ، واحمَدْه على ما أعطاك ، ثم أنشد :

إن الغنى هو الراضى بعيشته ... لا مَنْ يظلُّ على الأَقدارِ مكتئبا

[فى البخل]

ألَّف سهل بن هارون كتاباً يمدح فيه البخلَ ويذمُّ الجودَ ، ليظهر قدرته على البلاغة ، وأهداه للحسن بن سهل فى وزارته للمأمون ، فوقع عليه : لقد مدحتَ ما ذمَّه الله ، وحسَّنْتَ ما قبَّح الله ، وما يقوم صلاحُ لفظك بفساد معناك ، وقد جعلنا نوالك عليه قبول قولك فيه .

شىء عن الحسن بن سهل

وكان الحسنُ من كرماء الناسِ وعقلائهم . سُئل أبو العيناء[2] عنه ، فقال : كأنما خلَفَ آدمَ فى ولده ، فهو ينفع عيلتهم ، ويسدُّ خلتَهم ، ولقد رفع اللهُ للدنيا من شأنها ، إذ جعله من سكَّانِها ، أخذ هذا المعنى أبو العيناء من قول الشاعر :

وكأنّ آدمَ كان قبل وفاتِه ... أَوصاك وهو يجودُ بالحوباءِ[3]

بِبَنيه أن ترعاهم فرعيتَهم ... وكفيت آدمَ عيلةَ الأبْناءِ

وأخذ أبو الطيب المتنبى آخر كلام أبى العيناء فقال[4] :

قد شرف اللهُ دُنيا أنتَ ساكِنُها ... وشرَّفَ الناسَ إذ سوّاكَ[5] إنسانا

(١) الوجعاء : الساقلة وهى الدبر . (٢) فى ط : أبو العتاهية .
(٣) الحوباء : النفس . (٤) ديوانه : ٤ـ٢٣١ . (٥) فى ا :سموك.

وقيل للحسن بن سهل : لم قيل : قال الأول ، وقال الحكيم ؟ قال: لأنه كلام قد مرّ على الأسماع قبلنا ، فلو كان زللاً لما نُقِل إلينا مستحسَنا .

ومن أمثال البخلاء واحتجاجهم وحِكَمهم

أبو الأسود الدؤلى : لا تُجاوِد[1] الله ، فإنه أجودُ وأمجد ، ولو شاء أن يوسِّع على خَلْقِه حتى لا يكون فيهم محتاج فعل . وقال : لو أطْعَمْنَا المساكين فى إعطائنا إياهم كنا أسوأ حالاً منهم . وقال الكندى : قولُ «لا» يدفع البلاء ، وقول «نعم» يزيل النعم. وقال : سماع الغناء بِرْسام[2] حادّ ؛ لأنّ المرءَ يسمع فيطرب ، فيسمح فيفتقر، فيغتم فيمرض فيموت . وقال لابنه : يابنى، كُنْ مع الناس كاللاعب بالقمار، إنما غرضُه أَخْذُ متاعهم، وحِفْظُ متاعه . وقال [غيره :][3] مَنْعُ الجميع أَرْضَى للجميع . إذا قبح السؤال حسن المنع . وقال ابن الجهم : من وَهَب فى عمله فهو مخدوع ، ومن وَهَب بعد العَزْلِ فهو أحمق ، ومن وَهب من جوائز سلطانه أو ميراث لم يتْعَب فيه فهو مخذول ، ومن وهب كِيسه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه ، المختوم على سمعه وبصره .

ومن إنشاداتهم :

لا تجُدْ بالعطاء فى غير حقٍّ ... ليس فى مَنْعِ غير ذى الحقّ بُخْلُ

وقال كثيّر :

إذا المالُ لم يوجِبْ عليك عطاؤُهُ ... حقيقة تقوًى أو صديق تُرَافِقه

منعت وبعضُ المنعِ حَزْمٌ وقوةٌ ... ولم يفتلتك[4] المال إلاَّ حَقَائقُه

ابن المعتز :

---

(١) جاودت فلانا : غلبته بالجود ، وفى ط : لا تجاوزوا جود الله. (٢) البرسام: علة يهذى فيها (٣) فى ط : وقال . (٤) افتلت الشيء : أخذه بسرعة، وفى ط : ولم يعتملك .

يارب جُودٍ جرَّ فَقْرَ[1] امرئ فقام للناس مقامَ الذليل

فاشدُد عُرا مَالِك واستَبْقِه فالبُخْلُ خيرٌ من سؤال البخيل

وكتب بعضُ البخلاء يصفُ بخيلا : حضرت ـ أعزك الله ـ مائدةَ فلان للقدر المجلوب، والحَيْن المُتَاح، والشقاء الغالب، فرأيت أَوانى تروق العيونَ محاسنها، ويونق النفوس ظاهرها وباطنها ، وتزهى اللحظات ببدائع غرائبها ، وتستوفى الشهوات بلطائف عجائبها، مكلّلة بأحسن من حلى الحسَان ووجوهها، وزَهْر الرياض ونَورها؛ كأنّ الشمسَ حلّت بساحتها، والبدر يغرف من جوانبها[2]، فمددت يداً عنتها الشراهة، وغلبها القدر الغالب ، وجرّها الطمع الكاذب ، وإذا له مع كَسْرِ كل رغيف لحظة نكْر ، ومع كل لُقْمَةٍ نَظْرة شزر ، وفيما بين ذلك حُرقٌ قائمة ، يصلى بها مَنْ حضره من الغلمان والحشم، [وقام بين يديه من الولدان][3] والخدم ، ومع ذلك فترة المغشىّ عليه من الموت ؛ فلما وضعت الحربُ أوزارها برفع الخوان ، وتجلت عنه سمادير[4] الغشيان، بسط لسانَ جهْلِه، ونصر ما كان[4] من بخله، ونظر إلى مؤاكله، نظر المسترقّ له بأكلته ، المالك لخَيْطِ رقبته ؛ يظنُّ أنه أولى من وَالديه بنسبته ، وأحقّ بماله ؛ من وَلده وعياله ، يرى ذلك [فضلا ، وحقا لازما ، وأمرا واجبا][5] نزل به الكتابُ والسنة ، واتّفق عليه قُضَاةُ الأمة، فإنْ دفعه رد حكم القضاة عليه، وإن سمح به فغيرُ محمود عليه .

فقر لابن المعتز وغيره فى الصديق والصدق

إنما سُمّى الصديقُ صديقا لصدقه فيما يدّعيه لك، وسُمِّى العدو عدواً لعدوه عليك إذا ظفر بك. علامةُ الصديق إذا أراد القطيعةَ أن يؤخّر الجواب، ولا يبتدئ بالكتاب، لا يفسدنك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقين له . إذا كثرت ذنوبُ الصديقِ

---

(١) فى ا : جر فى فقر . (٢) فى ط : من حافتها . (٣) من ا . (٤) السمادير : ضعف البصر أو شيء يتراءى للإنسان من ضعف بصره عن السكر وغشى الدوار والنعاس .

(٤) فى ط : ونص ما ظهر . (٥) من ا .

تَمَحَّق السرورُ به، وتسلطت التهم عليه . من لم يقدم الامتحانَ قبل الثقة والثقة قبل الأُنس أثمرت مودّتُه ندما . نُصْح الصديق تأديبٌ ، ونصحُ العدو تأنيب . ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد . جُمِش الودّ بمثل العتاب :

تَرْكُ العتاب ، إذا استحقّ أخٌ   منك العتابَ ، ذريعةُ الهَجْرِ

وكتب أبو إسحق الصابى إلى صديق له من الحَبْس : نحن فى الصحبة كالنسرين ، لكنى واقع ، وعلى الطائر أن يغشَى أخاه ويراجع . من قلَّ صدقه قل صديقه . من صدقت لهجته ظهرت حُجَّته . الصادق بين المهابة والمحبة . من عُرِف بالصدق جاز كذبه ، ومن عرف بالكذب لم يَجُزْ صِدْقه ، ومن تمام الصدق الإخبار بما تحتمل العقول .

[كتاب الحسن بن سهل إلى أبى تمام]

وكتب الحسن بن وهب إلى أبى تمام الطائى : أنت حفظك الله تَحْتَذِى من البيان فى النظام مثل ما نقصد نحن فى النثر(١) من الإفهام ، والفضلُ لك — أعزك الله — إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، فى منظوم الأشعار ، فتحل متعقّده ، وتربط متشرده ، وتضم أقطاره (٢) ، وتجلو أنواره ، وتفصله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده ، ثم لا تأتى به مهملا فيستبهم ، ولا مشتركا فيلتبس ، ولا متعقّدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول ؛ فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الأمثال ، وتشرح فيه المقال ؛ فلا أعدمنا الله هَداياك واردة ، وفوائدك وافدة ، وهى طويلة .

وفى هذه الرسالة يقول أبو تمام وقد أَرى أنه قال ذلك فى غيرها(٣) :

[لقد جَلَّى كتابُك كل بَثٍّ   جَوٍ ، وأصاب شاكلةَ الرمِىِّ
فضضت ختامَه فتبلَّجَتْ لى   غرائبُه عن الخبرِ الجلِىِّ
وكان أغضَّ فى عينى وأَنْدى   على كبدى من الزهر الجنِىّ

(١) فى ط : فى الدرر . (٢) فى ط : وتنظم أشطاره . (٣) ديوانه : ١ — ٣٤٤ والقطعة كلها وما بعدها إلى صفحة ٨٣٦ من ا

وأحسَن موقعا منى وعندى | من البُشرى أتت بَعد النعىّ
كتبت به بلا لفظٍ كريهٍ | على أذن ولا لفظٍ قمِىّ
وضُمِّنَ صَدْرُه مالم تضمَّن | صدورُ الغانياتِ من الحلِىّ
فإن تَكُ من هداياك الصفايا | فربَّ هديةٍ لك كالهَدىّ
لئن غرَّبتها فى الأرض بكرا | لقد زفّتْ إلى سمع كَفِىّ

وقال البحترى فى الحسن بن وهب[1] :

وإذا تألق فى الندىّ كلامهُ الْ | مصقول خلت لسانه من عضبه
وإذا دجَتْ أقلامه ثم انتحت | برقَتْ مصابيحُ الدجا فى كتْبه
باللفظ يقرب فهمه فى بعده | منّا ويبعد نيله فى قُرْبه
حكم فسائحها خلال بنانه | متدفّق وقليبها من قلبه
كالروض مؤتلق بحمرة ورده | وأنيق زهرته وخضرة عشبه
أو كالبرود تخيرتْ لمتوّجٍ | من خاله أو وشيه أو عَصْبه
وكأنها والسمع معقودٌ بها | وجْهُ المحب بدا لعين محبّه

أنشد بعضُ الكتاب هذه الأبيات أبا العباس ثعلبا فاستعادها حتى فهمها ، ثم قال : لو سمع الأوائل هذا ما فضّلوا عليه شعرا .

وقال بعض الكتاب :

ورسالة ألفاظها | فى النظم كالدّرّ النثير
جاءتْ إليك كأنها الـ | ـتوفيقُ فى كل الأمورْ
بأرقّ من شكوى وأحْـ | ـسن من حياة فى سُرُورْ
لو واجهت أعمى لأصْـ | ـبَح وهو ذوطَرْفٍ بَصِيرْ
فكأنها أمل سَرَى | من بعد يأسٍ فى السرُورْ

---

(١) ديوانه : ٢ ـ ١٩٨

أو كالفقيد إذا أتتْ لقدومه بُشْرَى البشيرْ
أو كالمنام لساهرٍ أو كالأمان لمستجيرْ
كتبت بحبر كالنّوَى أو كُفْرِ نعمى من كفور
فكأنما هو باطل ما بين حقٍّ مُسْتَنيرْ

وقال أحمد بن أبى العباس بن ثوابة][1]:

فى كل يوم صدورُ الكتب صادِرةً من رأيه وندى كفّيه عن مثلِ
عن خَط أقلامِه يجرى القضاء على كل الخلائق بين البيض والأسَل
كأن أسطره فى بطن مُهْرَقِهِ نور يضاحِكُ دَمْعَ الوا كف الخضِلِ
لعابه علل[2] والصدر ينفثها وربما كان فيه النفع للعلل[3]
كالنار تعطيك من نور ومن حُرق والدهر يعطيك من غَمّ ومن جَذَلِ

وقال آخر :

مدادٌ مثل خافية الغرابِ ورقّ مثل رقراق السرابِ[4]
وأقلام كأرواح الجوارى[5] وألفاظ كأيام الشباب

[بلاغة عمرو بن مسعدة]

قال أحمد بن يوسف: دخلت على المأمون ، وفى يده كتابٌ ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعّد فيه بصرَه ويصوِّبُه ؛ فالتفت إلىّ وقد لحظنى فى أثناء قراءته الكتاب فقال : أراك مُفكِّرا فيما تراه منى ! فقلت : نعم ، وقى اللهُ أمير المؤمنين المخاوف ! قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى قرأتُ كتابا وجدتُه نظيرَ ماسمعت الرشيد يقوله عن البلاغة ، فإنى سمعتُه يقول : البلاغةُ التباعد من الإطالة ، والتقرب من البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى ، وما كنتُ أتوهمُ أن

---

(١) من ا . (٢) فى ا : غلل . (٣) فى ا : للغلل.
(٤) فى ا : الشراب . (٥) فى ط : كأطراف الحراب .

أحداً يقدر على هذه البلاغة[١] حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا فإذا فيه :

كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قِبَلى من الأجناد والقوّاد فى الطاعــة والانقياد على أحسن ما تكونُ عليه طاعةُ جُنْدٍ تأخَّرَتْ أعطياتهم ، واختلَّت أحوالهم ! ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه [المسألة فى الإخبار][٢] ، وإعفائه سلطانَه من الإكثار . ثم أمرَ لهم برزق ثمانية أشهر .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمى[٣] :

أعِنِّى على بارق ناصب … خفىٍّ كوحْيك بالحاجبِ
كأنَّ تألُّقه فى السماء … يدا كاتب أو يَدَا حاسِب
فروّى منازلَ تذكارها … يهيِّج من شوقك الغالب
غريب يحنّ لأوطانه … ويَبْكى على عصره الذاهب
كفاك أبو الفضل عمرو الندى … مطالمة الأَمَلِ الكاذبِ
وصِدْق الرجاء وحُسْن الوفاء … لعمرو بن مسعدة الكاتب
عريض الفِناء طويل البنا … ء فى العزّ والشرف الثاقب
بنى الملك طود له بيتَهُ … وأهل الخلافة من غالب
هو المرتجَى لصروف الزمان … ومعتصَم الراغبِ الراهب
جوادٌ بما ملكت كفُّهُ … على الضيف والجار والصّاحبِ
بأدم الركاب ووشى الثيا … ب والطِّرف والطّفْلَة الكاعِبِ
نؤمِّلهُ لجسام الأمورِ … وندعوه للجلل الكارِبِ
خصيب الجناب مَطِير السحاب … بشيمته[٤] ليّن الجانِب

(١) فى ا : المبالغة .
(٢) العبارة من ا ، وفى ط : إلى إدماجه فى الأجناد .
(٣) اللآلى : ٤٤٤ .
(٤) فى ا : بسامة .

يروّى القنا من نحورِ العدا ... ويعرق[1] فى الجودِ كاللاّعب
إليك تبدت[2] بأكوارها ... حراجيج[3] فى مهمهٍ لاحبِ
كأنّ نعاما تمادى بنـا ... تزايل من برد حاصب[4]
يردْن نَدَى كفّك المرتجى ... ويقضين من حقك الواجبِ
ولله ما أنت من حابر[5] ... بسجْل لقومٍ ومن خارب
يُساق العدا بكئوس الردى ... ويسبق مسألةَ الطالبِ
وكم راغب نلته بالعطا ... وكم نلت بالحَتْفِ من هارب
وتلك الخلائق أعطيتها ... وفضل من المانع الواهب
كسبت الثناء وكَسْبُ الثنا ... ء أفضلُ مكسبة الـكاسب
يقينك يجلو ستور الدجا ... وظنُّـك يُخْـبِر بالغائب

وهذا الشعر يتدفق طبعاً وسلاسة .

[الـكلام الجيد الطبع]

قلت : والـكلامُ الجيد الطبع مقبول فى السمع ، قريبُ المثـال ، بعيد المنال ، أنيق الديباجة ، [رقيق الزجاجة][6] ، يدنو من فَهْم سامعِه ، كدنوّه من وهم[7] صانعه ، والمصنوع مثقّف الـكعوب ، معتدلُ الأنبوب ، يطّرد ماءُ البديع على جنباته ، ويجول رَوْنَق الحسن فى صفحاته ، كما يجول السِّحْر فى الطَّرْف الـكحيل ، والأَثر فى السيف الصقيل ، وحمل الصانع شعره على الإكراه فى التعمل وتنقيح المبانى دون إصلاح المعانى يعفى آثار صنعته ، ويطفىء أنوار صيغته ، ويخرجه إلى فسادِ التعسف ، وقُبْح

---

(١) فى ط : ويغرق . (٢) فى ا : تسدت .
(٣) الحرجوج : الناقة السمينة الطويلة ، أو الشديدة أو الضامرة .
(٤) هذه رواية ا ، وفى ط :
كأن نعاما تبارى بنا ... بوابل من برد عاصب
(٥) فى ط : حابر . (٦) ساقط من ا . (٧) فى ط : فهم .

التكلف ؛ وإلقاء المطبوع بيده إلى قبول ما يمدّه هاجسُه ، وتنفثه وساوسه ، من غير إعمال النظر ، وتدقيق الفِكر، يخرجه إلى حَدّ المشتهر الرث ، وحيِّز الغث ؛ وأحسن ماأجرى إليه وأعوّل عليه التوسط بين الحالين، والمنزلة بين المنزلتين، من الطبع والصنعة.

وقد قال أعرابى للحسن البصرى : علمنى دينا وسيطا ، لا ساقطا سقوطا ، ولا ذاهبا فروطا . قال الحسن : أحسنت ، خيرُ الأمور أوساطها . والبحترى عن هذا القوس ينزع ، وإلى هذا النحو يرجع .

[من الشعر الجيد]

لابن المعتز

ومن الشعر الذى يجرى مع النفس قول ابن المعتز يمدح المكتفى، إذ قدم من الرقة بعد القبض على القرمطى فقال[1] :

لا ورمّان النهـــود   فوق أغصانِ القدودِ
وعناقيد من أصدا   غ ووَرْد من خُدودِ
وبدور من وُجوهٍ   طالعات بالسعود
ورسول جاء بالميـ   ـعاد من بَعْدِ الوعيدِ
ونعيم من وِصال   فى قفَا طولِ الصدودِ
ما رأت عينى كظبى   زارنى فى يوم عيد
فى قباء فاختى الـ   ـلون من لبس الجديد
كلما قاتل جنـدىٌّ   بسيف وعَمُودِ
قاتل النـاسَ بعينيـ   ـن وخدّين وجيد[2]
قد سقانى الخمر[3] من فيـ   ـه على رغم الحَسُودِ
وتعانقنا كأنا   وهْوَ فى عقدٍ شديد

(١) ديوانه : ١-١١٣ (٢) فى ا : بخدين وعينين وجيد . (٣) فى ط والديوان : الراح.

نقرع الثغر بثغر طيّب عنـد الورود
[مثل ما عاجل بردٌ قطْرَ مُزن بجمود
سحرا من قبـل أن ترجع أرواح الوفود
ومضى يخطر فى المشى كجبار عنيد](١)
مرحباً بالملك القـادم بالجـدّ السعيـد
يا مذل البغى يا قاتل حيّـات الحقُودِ
عش ودُمْ فى ظِلِّ عَيْش خالد باق جـديد
فلقد أصبح أعداؤك كالزرْعِ الحصِيدِ
ثم قد صاروا حديثاً مثـل عادٍ وثمود
جاءهم بحـرُ حديد تحت أجبـالِ بُنُودِ
فيـه عقبان خيـول فوقها أُسْـدُ جُنُودِ
وردُوا الحربَ فمدوا كل خطىٍّ مديدِ
وحسام شره الحدّ إلى قَطْعِ الوَرِيد
ما لهـذا الفتح يا خيرَ إمام من نديد(٢)
فاحمد اللهَ فإن الـحَمْدَ مفتـاحُ المزيدِ

لعلى بن الخليل

وقول على بن الخليل مولى يزيد بن مزيد الشيبانى وكان يُرمى بالزندقة : قال الفضل ابن الربيع: جلس الرشيد يوماً للمظالم فجعلت أتصفّحُ الناسَ وأسمعُ كلامهم ، فرميت بطَرْفى ، فرأيتُ فى آخرهم شيخاً حسَنَ الهيئـةِ والوَجْه ما رأيتُ أحسنَ منه ؛ فوقف حتى تَقوض المجلس ثم قال : يا أمير المؤمنين ، رقعتى ! فأمر بأخذها ، فقال : إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى بقراءتها ؛ فأنا أحسنُ تعبيراً لخطّى من غيرى ـ فقال له : اقرأ فقال : شيخ ضعيف ، ومقامٌ صَعب ، ولا آمَنُ الاضطراب ؛ فإن رأى

(١) من ا .   (٢) فى ا : خديد .

أميرُ المؤمنين أن يصلَ عنايتَه بأمرى فى الإذن بالجلوس فعل ، فقال : اجلس ، فجلس وأنشأ يقول :

يا خيرَ من وخدت بأرحلهِ نُجُبُ الركاب بِمَهْمَهٍ جَلْسِ
تطوى السباسبَ فى أزمتها طىَّ التجار عمائمَ البِرْسِ (١)
لما رأتك الشمسُ طالعة سجدتْ لوجهك طلعةُ الشمْسِ
خيرُ البرية أنت كلهم فى يومك الغادِى وفى الأمْس
وكذاك لن تنفك خيرهمُ تمسِى وتصبح فوق ما تُمْسِى
لله ما هرون من ملك عفّ السريرة طاهر النفْسِ
تمّت عليه لربه نِعَمٌ تزداد جدتها مع اللّبسِ
من عترة طابتْ أرومتها أهل العفاف ومنتهى القُدْسِ
متهللين على أسرتهم ولدى الهياج مصاعب شُمْسِ
إنى لجأتُ إليك من فزَعٍ قد كان شرَّدنى ومن لَبْسِ
لما استخرْتُ الله مجتهداً يمَّمتُ نحوك رِحْلَة العنْسِ
واخترت حِلمك لا أجاوزهُ حتى أغيَّبَ فى ثرَى رمْسِى
كم قد سريت إليك مدرعا ليلا يعوجُ كحالك النقْسِ
إن راعنى من هاجسٍ فزَعٌ كان التوكّل عنده تُرْسِى
ما ذاك إلاَّ أننى رجلٌ أصبو إلى نَفَرٍ من الإنْسِ
بيض أوانس لا قرون لها يقتلن بالتطويل والحَبْسِ
وأجاذب الفتيان بينهمُ صفراءَ مثل مُجاجةِ الوَرْسِ
للماء فى حافاتها حبَبٌ نظم كرقم صحائف الفُرْسِ
والله يعلمُ فى بنيته ما إن أضعت إقامة (٢) الخَمْسِ

(١) البرس : القطن أو شبيه به أو قطن البردى . (٢) فى ط : قيامة .

قال : ومن تكون ؟ قال : على بن الخليل ، الذى يقال إنه زنديق ، فقال له : أنت آمن ، وأمر له بخمسة آلاف درهم .

لمحمد بن حازم الباهلى

وأنشد أبو العباس المبرد لرجل يصف دعوة دعَا بها الله عز وجل وقد رأيتها فى شعر محمد بن حازم الباهلى :

وساريةٍ لم تَسْرِ فى الأرض تَبْتغى ... محلاًّ ولم يقطع بها البيد[1] قاطعُ
سرت حيث لم تُحْدَ الركاب ولم تُنَخْ ... لوردٍ ولم يقصر لها القيد مانعُ
تمر وراء[2] الليل والليل ضاربٌ ... بجثمانه فيه سَمِيرٌ وهاجعُ
إذا وردَتْ لم يردُدِ اللهُ وفدها ... على أهلها واللهُ رَاءٍ وسامعُ
تفتّحُ أبوابُ السموات دونها ... إذا قرع الأبوابَ منهنّ قارِعُ
وإنى لأَرجو اللهَ حتى كأننى ... أَرى بجميلِ الظنّ ما اللهُ صانعُ

[أجوبة حسنة]

لرجل من شيبان

ودخل رجل [من شيبان][3] على معن بن زائدة فقال : ما هذه الغيبة ؟ فقال : أَيها الأميرُ، ماغاب عن العَيْنِ مَنْ يذكره القَلْب ، وما زال شوقى إلى الأمير شديدا، وهو دون مايَجِبُ له ، وذِكْرى له كثير، وهو دُون قَدْرِه ، ولـكن جفوة الحجّاب، وقلة بشر الغلمان ، منعانى من الإتيان ! فأمر بتسهيل إِذنه وأَجزل صلته .

لمعن

وقال: أبوجعفر المنصور لمعن بن زائدة : كبرت يا مَعْن ! قال : فى طاعتك يا أميرَ المؤمنين. قال : إنك لجَـلْد ، قال : على أعدائك ، قال: وإنّ فيك لبقيّة ، قال : هى لك يا أَميرَ المؤمنين . قال : فأى الدولتين أَحبُّ إليك ؛ هذه أم دولة بنى أمية ؟ قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين ؛ إن زاد برُّك على برِّهم كانت دولتُك أحبَّ إلى .

معن بن زائدة

ومعن هذا هو معن بن زائدة بن عبد الله [بن زائدة بن مطر بن شريك بن عمرو

---

(١) فى ا : البعد .   (٢) فى ط : بجنح .   (٣) من ا .

أخى الحوفزان بن شريك بن عمرو بن قيس][1] بن شرحبيل بن منبه بن همام بن مرة بن ذُهْل بن شيبان . وبنومطر بيت شيبان وشيبان بيت ربيعة . وكان معن أجودَ الناسِ ، وفيه يقول مروان بن أبى حفصة ويعم بنى مطر :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم أسودٌ لها فى غيل خفَّان أشبُلُ
همُ يمنعون الجارَ حتى كأنما لجارهمُ بين السما كَيْنِ منزلُ
ولا يستطيعُ الفاعلون فعالهمْ وإن أَحسنوا فى النائبات وأَجملُوا
بَهاليلُ فى الإسلام سادُوا ولم يكُنْ كأوَّلهم فى الجاهلية أَولُ
هم القومُ إن قالوا أصابوا وإن دُعُوا أَجابوا وإن أَعْطَوا أَطابوا وأَجْزَلُوا

أخذ البيت الأول ابن الرومى وزاد فيه فقال :

تلقاهمُ ورِماح الخطّ بينهم كالأُسْدِ ألبسها الآجامَ خَفَّانُ

لشيخ من العرب

أتى قوم من العرب شيخا لهم قدأَرْبَى على الثمانين وأَهدف[2] على التسعين ، فقالوا : إنّ عدوَّنا استاق مَرْحَنا ، فأَشِرْ علينا بما نُدرك به الثّأْر ، وننفى به العارَ . فقال : الضعفُ فسخ هِمَّتى ، ونكث إبرام عزيمتى ، ولكن شاوروا الشجعان من ذوى العَزْم ، والجبناء من ذوى الحزم ؛ فإنّ الجبان لا يَأْلو برأيه ما يقى مهجكم ، والشجاع لا يألو برأيه مايشيد ذكركم ، ثم اخلصوا من الرأى بنتيجة تبعد عنكم معرَّة نَقْصِ الجبان ، وتهوّر الشجعان ، فإذا نجمَ الرأىُ على هذا كان أنفذ على عدوكم من السَّهْمِ الصائب ، والحُسَام القاضب .

لأعرابية

قال الأصمعى : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصِمُه : والله لو صُوّر الجهل لأَظلم معه النهار ، ولو صوّر العَقْلُ لأضَاء معه الليل ، وإنك من أفضلهما لمعدم ؛ فخَفِ الله، واعلم أَنَّ من ورائك حَكَما لا يحتاجُ المدَّعِى عنده إلى إحضار البينة .

قال الفرزدق يهجو كليبا :

ولو يُرمى بلؤم بنى كليب نجومُ الليل ماوضَحَتْ لِسارى

---

(١) من ا . (٢) أهدف عليه : أشرف .

ولو لبس النهار بنو كليب لدنس لؤمهم وَضَحَ النهارِ

[من جيد كلام الأعراب]

وقال سفيان بن عيينة : سمعت أعرابيا يقول عشية عَرَفة : اللهم لا تحرمْنِي خيرَ ما عندك لِشرِّ ما عندى ، وإن لم تتقبَّلْ تَعبى ونَصَبى فلا تَحْرِمنى أجرَ المصاب على مصيبته .

وقال آخر منهم لصديق استبطأه فلامه : كانت لى إليك زَلَّة يمنعنى من ذِكرها ما أَمَّلْتُ من تجاوُزك عنها ، ولستُ أعتَذِرُ إليك منها إلا بالإقلاع عنها .

وقال آخر لابن عم له : والله ما أَعْرف تقصيراً فأقلع ، ولا ذنباً فأعتب ، ولست أَقولُ : إنك كذبت ولا إِننى أذنبت . وقال آخر لابن عم له : سأتخطَّى ذنبك إلى عُذْرِك ، وإن كنت من أحدهما على يقين ، ومن الآخر على شكّ ، لتتمَّ النعمةُ منى إليك ، وتقومَ الحجَّةُ لى عليك .

وأصيب أعرابىٌّ بابن له فقال ، وقد قيل له اصبر : أَعلى اللهِ أتجلَّدُ أم فى مصيبتى أتبلّد؟ واللهِ لَلْجَزَع من أَمره أحبُّ إلىّ الآن من الصبر ! لِأَن الجزعَ استكانة والصبر قَساوة ، ولئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد .

ودعا أعرابى فقال : اللهم إنى أعوذُ بك أن افتقرَ فى غِناكَ ، أو أضلّ فى هُدَاك ، أو أذلّ فى عزّك ، أو أضام فى سُلْطَانك ، أو أُضْطهَد والأمر إليك .

قال الأصمعى : سمعتُ أعرابيا يَعِظُ رجلا وهو يقول : وَيْحَك ! إنّ فلانا وإن ضحك إليك ، فإنه يضحكُ منك ، ولئن أظهر الشفقةَ عليك ، إنّ عقارِبه لتسرى إليك؛ فإنْ لم تتخِذه عدوّا فى علانيتك ، فلا تجعله صديقاً فى سريرتك .

سمع أعرابىّ رجلا يقعُ فى السلطان فقال : إنك غُفل لم تَسِمك التجارب ، وفى النصح لَسْعُ العقارب ، كأنى بالضاحك إليك ، وهو باكٍ عليك .

وحذَّر بعضُ الحكماء صديقا له صحبه رجل ، فقال : احذَرْ فلانا فإنه كثيرُ

المسألةِ ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج، يحفظُ أول كلامك على آخره ، ويعتبرُ ما أخَّرت بما قدَّمت ، فلا تظهرنَّ له المخافة فيرى أنْ قد تحرَّزْت ؛ واعلم أَنَّ من يقظة الفِطْنة إظهارُ الغفلة مع شدة الحذر ، فباثه مباثَّةَ الآمِن، وتحفَّظْ منه تحفظَ الخائف ؛ فإنَّ البحث يظهر الخفىّ الباطن ، ويُبْدى المستكنَّ الـكامن .

أتى أَعرابىّ رجلا لم يكن بينه وبينه حرمة فى حاجةٍ له ، فقال : إنى امتطيتُ إليك الرجاء ، وسَرَيْتُ على الأمل ، ورافقت[1] الشكر ، وتوسّلت بحُسْنِ الظن ، فحقق الأمل ، وأَحْسِن المثوبة ، وأكرم الصَّفَد ، وأَقِم الأَوَد ، وعجِّل السّراح .

قال الأَصمعى: وسمعتُ أعرابيا يقول: إذاثبتت الأصول فىالقلوب، نطقتالألسنةُ بالفروع ! والله يعلمُ أَنَّ قلبى لك شاكر ، ولسانى ذاكر ، ومحال أن يظهرَ الودّ المستقيم ، من الفؤاد السقيم. ومدح أعرابى رجلا فقال : إنه ليغسل من العار وجوها مسودّة ، ويفتح من الرأى أبواباً منسدّة وقال أعرابى[2] :

كم قد ولدتُم من رئيسٍ قَسْوَرِ ... دامى الأظافرِ فى الخميس المُمْطِرِ[3]
سَدِكَتْ أناملُه بقائم مرهف ... [وبنشر[4] فائدة وجذوةِ مِنْبرِ
ما إنْ يريد إذا الرماحُ تشاجرتْ ... درعا سوى سربال طيب العنصرِ
يلقى السيوفَ بوجهه وبنحره] [5] ... ويقيم هامته مقام المِغْفَرِ
ويقول للطِّرْفِ اصطبر لِشَبَا القَنَا ... فهدمتُ ركن المجد إن لم تُعْقَرِ
وإذا تأمل شخص ضيفٍ مقبل ... متسَرْبل سربال مَحْلٍ[6] أغبرِ
أَوْمى إلى الـكَوْماء هـذا طارق ... نحرتنىَ الأعداء إن لم تنحرِ

وقال :

قامت تَصدّى له عمداً لغفلته ... فلم يرَ الناسُ وجداً كالذى وجَدَا

---

(١) فى ا : ووقفت . (٢) المختار من شعر بشار ١٧٩ ، اللآلىء : ٢٧٨ ، وانظر اللالى : فى نسبها . (٣) فى ا : القمطر . (٤) فى المختار : ويبث . (٥) من ا .
(٦) فى ا : سربال ليل .

جيداء رَبْدَاء [١] لم تعقد قلائدها ... وناهدٌ مثل قلب الظَّبْى ما خضِدا [٢]

فراح كالحائم الصَّدْيَان ليس له ... صَبْرٌ ولا يأمن الأعداء إن وردَا

وقال آخر :

ومكتتماتٍ بعد وَهْن طرقننى ... بأرديةِ الظلماء ملتحفاتِ

دسَسْنَ رسولا ناصحا وتلونهُ ... على رقبةٍ منهن مستتِرات

فبتُّ أعاطيهنّ صرفَ صبابةٍ [٣] ... وبتْنَ على اللذات معتكفات

فياوَجْدَ قلبى يوم أتبعتُ [٤] ناظرى ... سليمى وجادَتْ بعدها عبرَاتِى

* * *

من حكم الأحنف

وقال الأحنف بن قيس : من لم يستوحش من ذُلّ المسألة لم يأنفْ من الرد .

وقال سفيان الثورى لأخ له : هل بلغك شىء مما تكرهُه عمن لا تعرف ؟ قال: لا .

لابن الرومى

قال : فأقلل ممن تعرف . أخذه ابن الرومى فقال :

عدوُّك من صديقك مُستَفاد ... فأَقلِلْ ما استطعتَ من الصحابِ

فإنّ الداءَ أكثر ما تراهُ ... يكونُ من الطعام أو الشراب

فدَعْ عنك الكثيرَ فكم كثير ... يُعاف وكم قليل مستطابِ

وما اللجج المِلاح مرويات ... ويُلفى الرّىُّ فى النُّطَفِ العِذابِ

[من المدح]

وقال رجل لخالد القسرى : والله إنك لتَبْذُل ما جلّ ، وتجبر ما انفلّ ، وتكثر ما قلّ ؛ ففضلُك بديع ، ورأيك جميع ، تحفظ ما شُذَّ ، وتؤلف ما ندّ .

وسئل أعرابى عن قومه ، فقال : يقتلون الفقْر عند شدّة القرّ ، وأَرواح الشتاء ، وهبوب الجِرْبياء [٥] ، بأسنمة الجزور ، ومُترَعات القدور ، تهشُّ [٦] وجوهُم عند

---

(١) فى ا : ربعاء . (٢) فى ط : ماحصدا . (٣) فى ط : مدامة .

(٤) فى ط : إتلاء. (٥) الجربياء : الشمال أو بردها، أو الريح بين الجنوب والصبا .

(٦) فى ا : تحش .

طلب المعروف ، وتعبس عند لمعانِ السيوف .

ووصف أعرابى قوما فقال : لهم جودُ كرام اتّسعت أحوالها ، وبَأْسُ ليوث تتبعُها أشبالُها ، وهِممُ ملوكٍ انفسحت آمالُها ، وفَخرُ آباء شَرُفَتْ أخوالها .

وقال خالد بن صفوان، وقد دخل على بعض الوُلَاة : قدمت فأَعطيت كلاًّ بِقِسْطِه من نظرك [ومجلسك][1] ، وصوتك ، وعَدْلِك ، حتى كأنك من كلّ أحد ، وحتى كأنك لست من أحد .

وذكر خالد رجلا فقال : كان والله بديعَ المنطِق ، ذلق الجرأة ، جزْل الألفاظ ، عربىّ اللسان ، ثابت العقدة ، رقيقَ الحواشى ، خفيفَ الشفتين ، بليل الريق ، رَحْبَ الشرف ، قليل الحركات ، خفىّ الإشارات ، حُلْو الشمائل ، حسن الطلاوة ، حييًّا جريّا ، قؤولا صموتا ، يفل الحزّ[2] ، ويصيب المفاصل . لم يكن بالهذر فى مَنْطِقه ، ولا بالزمر فى مروءته ، ولا بالخرق فى خليقته ، متبوعا غير تابع ، كأنه علمٌ فى رأسه نار .

وقال بعض البلغاء لرئيسه : إنّ من النعمة على المثنى عليك أنه لا يَأْمَنُ التقصير، ولا يخاف الإفراط ، ولا يحذر أن تَلْحقه نقيصةُ الكذب ، ولا ينتهى به المَدْحُ إلى غاية إلاّ وجد فى فضلك عَوْنا على تجاوزها . ومن سعادةِ جدّك إن الداعى لا يعدم كثرةَ المشايعين ومساعدةَ النيّة على ظاهر القول .

ألفاظ لأهل العصر فى ضروب المادح

قد وضعت كثرة التجارب فى يد مرآة العواقب . قد نجدته صروفُ الدهور ، وحنّكَتْه مصارُ الأمور . قد أرضعَتْه الحنكة بلبانها ، وأدّبَتْه الدرْبة فى إبّانها . فلان نوازلُ التجارب حنّكته ، وفوادِحُ الأيام عرّكَتْه . هو عارف بتصاريف

---

(١) من ا . (٢) فى ا : يقل الحر .

[الأيام ، آخذٌ برهان التجارب ، نافذ فى مجال التحصيل والتمييز . قد صحب الأيام، وتولّى] [(١)] النقض والإبرام . هو ابنُ الدهر حنكةً وتجريبا، وعُوداً على الدهر صليبا، قد أَدّبه الليلُ والنهار ، ودارت على رأسه الأدوار ، واختلفت به الأطوار . له همّةٌ علا جناحُها إلى عنان النجم. وامتدَّ صباحها من شرق إلى غرب ، لايتعاظمه إشراف الأمر إذاأخطره بفكره ، وانتساف الصّخْر إذا ألقاه فى وَهْمه ، هِمّتُه أبعَدُ من مَناطِ الفرقد ، وأعلى من منكب الجوزاء . أوسعُ من الأرض ذات العرض. هوحيّ القلب، منشرحُ الصّدْر، ذكيُّ الذهن، شجاعُ الطبع ، ليس بالنؤوم ولا السؤوم ، فذّ فَرْد، وأَسد وَرْد ، وكأنَّ له فى كل جارحة قلبا . كأنّ قلبه عين ، وكأن جِسْمَه سمع . شهابٌ مقدّم، وقدح مقوّم . [وهو شهمٌ] [(١)] مشدود النطاق . قائم على ساق ، قد جدّ واجتهد، وحشر وحشد، شمَّر عن ساق الجد ماأطاق، قد ركب الصعب والذَّلول، وتجشّم الحَزْنَ والسُّهول ، وقطع البر والبحر ، وأعمل السيفَ والرمْحَ ، وأسرجَ الدُّهم والشهب . هو مولود فى طالع الـكمال ، وهو جملة الجمال . قد أصبح عينَ المكارم ، وزَيْن المحافل . هو فَرْدُ دهره ، وشمسُ عصْره ، وزيْنُ مِصره ، وهو عَلَمُ الفضل ، وواسطة عِقْدِ الدهر ، ونادِرَة الفلك ، ونُـكْتة الدنيا ، وغُرَّة العصر . قد بايعته يَدُ المَجْد ، ومالت به الشورى إلى النصر [(٢)] . فلان يزيدُ عليهم زيادةَ الشمسِ على البدر ، والبحر على القَطْرِ . هو رائش نبلهم ، ونَبْعَة [(٣)] فضلهم ، وجُمَّة وردِهم، وواسطة عِقْدهم . هو صَدْرُهم وبَدرُهم ، ومن عليه يدورُ أَمرُهم ، يُنيف عليهم إنافة صفحة الشمسِ على كُرَةِ الأرض ، كأنهم فلك هو قُطْبُه ، وجَسَدٌ هو قَلْبُه، ومملوكٌ هو ربُّه . هو مشهور بسيادتهم، وواسطةُ قِلادتهم . موضعُه من أهل الفضل موضِع الواسطة من العقد ، وليلة التمّ من الشهر ، بل ليلة القَدْر إلى مطلع الفجر . أَفْضَل وأَنْعَم وأَسـدى فى الإحسان وأَلْحم ، وأَسْرَج فى الإكرام وأَلجم ، قسم من

(١) من ا . (٢) فى ا : شورى إلى النص . (٣) فى ا : وبقية .

إنعامه ما يسَعُ أمما، وتلقى السعادة أمما ، أعطاه عنانَ الاهتمام حتى استولَى على قَصَبِ المرام . رُدّ عنه الدهرُ أحصّ[1] الجناح ، وملّكه مقادة النجاح . أولاه من معهود البرِّ ومألوفه، وقصرت الأعداء عن مِئاته وأُلوفِه . أولاه إسعافا سمْحا، وعطاء سحّا، ومننا صفوا وعفوا. أفاض عليه شِعابَ البرِّ ومسايله، وجمع له شعوبَ الجميل وقبائله، وهطلَتْ عليه سحائبُ عنايته ، ورفرفت حولَه أجنحةُ رعايته ، قد فكه بكرمه من قَيْد السؤال ، ومعرّة الاختلال . رَاشه بعد ما حصَّه الفقر ، وأَرضاه وقد أسخطه الدهر . ملأ العيونَ وسهر دوننا لتحقيق الظنون . قد شِمتُ من كرمه أكرم سحاب ، وحصلت من إنعامه فى أخصبِ جَناب . قد سد ثُلْمَة حالى ، وأَدرَّ حلوبة آمالى . ما أخلو من طَلِّ إحسانه ووابله ، وغابر إنعامه وقابله . قد استمطرتُ منه بنَوْءٍ غزير ، وسريتُ فى ضوء قمر منير . قد كرعتُ من برِّهِ فى مشارع تغزر ولا تنزُر ، ورفَلْتُ من طوله فى ملابس تطول ولا تقصُر . إقامته فى ظلٍّ ظليل، وفضْلٍ جزيل ، وريح بليل ، ونسيم عليل ، وماء رَوِىّ ، ومهاد وطىٍّ ، وكنٍّ كنين ، ومكان مكين . أنا آوى إلى ظلِّه كما يأوى الطير المذعور إلى الحرم، وأُوَاجه منه وَجْهَ المجدوصورة الكرم . أنا من إنعامه بين خيرمستفيض ، وجاهٍ عريض ، ونعم بيض . قد استظهرت على جَوْرِ الأيام بعَدْلِه ، واستترتُ من دهرى بظلِّه . ما أرد فيه طَرْفِى وأعدّه من خالص ملكى منتسبٌ إلى عطائه ، بجميل ريه . مسافة بصرى تبعد إن سافَرْتُ فى مواهبه ، وركائب فكرى تَطْلَح[2] إن أنضيتُها فى استقراء صنائعه . نعمته نعمة عمّت الأمم ، وسبقت النعم ، وكشفت الهموم ورفعت الهمم . نعمه قد سطع صباحُها مستنيراً ، وطنب شعاعها مستطيراً، قدعرفتنى[3] نِعَمُه حتى استنفدت شُكْرَ لسانى ويدى وأتعبت ظهرى ، وملأت صَدْرى . نِعَمُهُ عندى مشرقةُ الجوّ ، مغرقة النوء ، مونقة الضوء . تتابعَتْ نِعمُه تتابعَ القَطْر على القفر ، وترادفت مِنَنُه ترادفَ

---

(١) طائر أحص الجناح : قليل الشعر . (٢) طلح البعير : أعيا .

(٣) فى ط : عركتنى .

الغنى إلى ذوى الفقر . نِعَمُه أشرقَتْ بها أرضِى، ومُطِرَ بها رَوْضى، ووَرى لها زَنْدى، وعلا معها جَدّى ، وأتانى الزمانُ يعتذرُ من إساءته ، وجاءنى الدهرُ ينتظرُ أمرى . نِعمَة أنعمت البالَ ، وسرّت النفس والحال . نعم تعمُّ عمومَ المطر ، وتزيدُ عليه بإفراد النفع عن الضرر . نعمٌ تَضْعف الخواطر عن التماسها ، وتَصْغُر القرائح عن اقتراحها . له أيادٍ قدعمَّت الآفاق ، ووسمت الأعناق ، وأيادٍ قد حبست عليك الشكر، واستعبدت لك الحر . مِنَنٌ توالَتْ تَوَالى القَطْر ، واتسعت سِعةَ البَرِّ والبَحْر، وأثقلت كاهل الحرِّ . عندى قلادة منتظمة من مِنَنه قد جعلتها وَقْفاً على نحور الأيام ، وجلوتها على أبصار الأنام . أيادٍ يقصر عن حقوقها جهدُ القولِ ، وتزهر فيها سواطع الإنعام والطَّوْل . أياديه أطواق فى أَجيادِ الأحرار ، وأفلاك تدورُ على ذوى الأخطار . له مِنَنٌ يضعف عن تحملها عواتق الأطواد ، ويتضاعفُ حملها على السَّبْع الشداد ، لو تحمل الثقـلان ثقلَ هذا الامتنان لأثقل كواهلَهم وأضعف عواتقَهم . أياد يفرض لها الشكر ويحتم ، ومنن يبتَدأ بها الذكر ويُختَم . أياد تثقل الـكاهلَ ومِنَنٌ تُتْعِبُ الأنامل . مِنن تضعف منن الشكر ، وينشر معها قوى النّشر . منن هى أَحسن أثراً من الغيث فى أزاهير الربيع ، وأَحْلى موقعاً من الأمن عند الخائف المروع . إن أتعبت نفسى فى تعداد مننه وحَصْرِها فسأطمع فى إحصاء السحاب وقطرها . أَياد لا تحصى أو تحصى محاسِنُ النجوم ، ومِنَن لا تحصر أو تحصر أَقطارُ الغيوم . أَيادٍ كمدد الرمل والنمل ، أعيت على العدّ ، ولم تقف عند حد . زادَتْ أياديه حتى كادت تجهد الأعداد[1] ، وتسبق الإعداد . أَياديه عندى أَغزر من قَطْرِ المطر ، وعوارفه لدىّ أسرعُ من رَجْع البصر . رفعتنى من قَعْر التراب إلى سَمْك السحاب . استنبطه من الحضيض الأَوْهَد، إلى السناء الأَمجد ، وقد نبّهه عن خمول ، وأَجرى الماءَ فى عوده بعد ذبول ، ورقاه إلى ذرْوَة من المجد بعد نزول . فضائل تزل أقدام النجوم لو وطِئَتْها، وتقصر هِمَمُ الأفلاكِ

(١) فى ا : الاعتداد .

لو طلبتها . ثبتَ قدَمُه فى المحلّ المنيف ، ومكّنَه من جوامع التشريف . جذب بضبعهِ من المسقط المنحطّ إلى المرفع المشتطّ .

ولهم فى أدعية من صدور الكتب تليق بهذه الأثنية والممادح

أطال الله له البقاءَ كطول يدهِ بالعطاء ، ومدَّ له فى العمر كامتداد ظلّه على الحُرّ ، وأدام له المواهب، كما أفاض به الرغائب ، وحرس لديه الفضائل ، كما عوّذ به الشمائل. تولَّى الله عنى مكافأَته ، وأَعان على الخير نيّته وفِعْله ، وأصحب بقاءه عزًّا يبسطُ يديه لأوليائه علىأعدائه، وكلاءةً تذبّ عن ودائع مِنَنه عِنده ، وزاد فى نعمه وإن عظمتْ، وبلغه آمالَه وإن انفسحَتْ ، ولا زال الفضلُ يأوى منه إلى رُكْنٍ منيع ، وجنابٍ مريع. لازالت الألسنُ عليه بالثناء ناطقة ، والقلوبُ على مودّته مطابقة ، والشهاداتُ له بالفضل متناسقة . لا زال يعطِفُ على الصادر والوارد ، عَطْفَ الأمّ والوالد . أبقاه اللهُ للجميل يُعْلِى معالمَه ، ويَحْمِى مكارِمَه ، ويعمر مدَارِجَه ، ويثمِّر نتائجه . أدام اللهُ أيامَه التى هى أيام الفضائل ومواقيتها ، وأزمان المــآثر وتواريخها . أدامه اللهُ للمواهب ، سامية الذوائب ، موفية على مُنْيَة الراجى وبغية الطالب . أبقاه اللهُ للعطاء يفضّه بين خدمه ، والجمال يفيضُه على إنشاء نعمه . والله يتابعُ له أيامَ العلاء والغبطة ، والنماء والبسطة ، ليرتَع أنواع الخدم فى رياض فواضِله ، ويكرع أصنافُ الحشم فى حياضِ مواهبه. واللهُ يبقيه طويلَ الذراع، مديدالباعِ ، مليّابالاتصال(١) والاصطناع. جزاهُ اللهُ عن نعمةٍ هيّأها بعد أن أَسبغها، وعارفة مَلّاها(٢) بعد أن سوّغها . أفضلُ ما جازى به مبتدئُ إحسان ، ومُجير إنسان ، لا زال مكانُه مَصانا(٣) للــكرم ، مَعانا للنعم ، لاتريعه المواهب ، ولاترومُه النوائب، بُسِطَت بالعلا يَدُه، وقُرِن بالسعادة جَدّه، وجُعِل خيرُ يوميه غـــده ، ولا زالت الأيام والليالى مطاياه ، فى أَمانيه وآماله

---

(١) فى ط : بالإفضال . (٢) فى ط : حلاها . (٣) فى ا : مغليا بالنعم لاتريعه .

[وأيامه](١)، وصرف صروف الغِيَر عن إصابة إقباله وكماله .

وقال ابن المعتز فى القاسم ابن عُبيد الله :

أيا حاسداً يكوى التلهف قلبَهُ ... إذا ما رآه غازياً وسْطَ عَسْكرِ
تصفّحْ بنى الدنيا فهل فيهمُ لهُ ... نظيرٌ ترى ثم اجتهد وتفكّرِ
فإن حدَّثتْكَ النفسُ أنك مثلهُ ... بنَجْوى ضلالٍ بين جنبيك مضمَرَ
فجُدْ وأجد رأياً وأقدم على العِدا ... وشدَّ عن الإثْمِ المـآزِرَ واصْبرِ
وعاصِ شياطين الشباب وقارع الـ ... ـنوائب وارفع صرعَةَ الضُّر واجبرِ
فإن لم تطق ذافاعذر الدهر واعْتَرِفْ ... لأحكامه واستغفرِ اللهَ يغفرِ

[صناعة الـكلام]

قال الجاحظ : صِناعةُ الـكلامِ عِلْق نفيس ، وجَوهرٌ ثمين ، هو الـكنزُ الذى لا يَفْـنَى ولا يَبْلَى ، والصاحبُ الذى لا يُمَـلُّ ولا يُقْلَى ، وهو العيارُ على كلِّ صناعة، والزمامُ لـكل(٢) عبارة، والقِسْطاسُ الذى به يَسْتبينُ نَقْصُ كلِّ شىء ورُجْحانه، والراوُوق الذى يعرف به صَفاءُ كلِّ شىء وكَدَره. والذى كلُّ عِلم عليه عِيَال ، وهو لـكلِّ تحصيل آلةٌ ومثال . وقال ابن الرومى :

ما عُذْرُ معتزلىّ مُوسِرٍ منعَتْ ... كَفّاه مُعْتَزِليا مِثْلَه صَفَدا(٣)
أيَزْعُم القدَر المحتوم ثبَّطَه ... إن قالَ ذاك فقَدْ حلَّ الَّذِى عَقَدا

وقال [ابن الرومى](٤) :

لذوى الجدال إذا غدَوْا لجدالهم ... حُجَجٌ تضلُّ عن الهدى وتَجُورُ
وهن(٥) كآنية الزُّجاج تَصادمتْ ... فهوَتْ وكلٌّ كاسرٌ مَكْسورُ
فالقاتِلُ المقتولُ ثَمّ لِضَعْفِهِ ... ولوهْيِه والآسِرُ المأسُورُ

---

(١) من ا (٢) فى م : على كل عبارة . (٣) الصفد : العطاء . (٤) من م .
(٥) فى ا : وهم .

وقال [أبو العباس] (١) الناشئ يفتخر بالكلام :

ونحن أناسٌ يعرفُ الناسُ فَضْلَنا بألسُنِنا زِينتْ صُدورُ المحافلِ
تُنير وُجوهُ الحقِّ عند جَوابِنا إذا أظلمتْ يوما وُجُوهُ المسائلِ
صمَتْنا فلم نَتْرُكْ مقالا لصامتٍ وقُلْنا فلم نترك مَقالا لِقائلِ

وقال يصفُ أصحابه :

فلو شهدت مقاماتى وأنديتى يَوْمَ الخصام وماءُ الموت يَطَّرِدُ
فى فتيةٍ لم يلاق الناسُ مذْ وُجِدوا لهم شبيهاً ولا يُلْفَوْن إنْ فقدوا
مجاوِرو الفضل أَفْلاكُ العُلَا سبل التـ قوى محلّ الهدى عُمدالنّهى الوُطُد (٢)
كأنّهم فى صدورِ الناسِ أفئِدةٌ تحس ما أخطئوا فيها وما عَمَدُوا
يبْدون للناس ما تُخْفِى ضمائرهم كأنّهم وَجدُوا منها الذى وَجدوا
دَلّوا على باطنِ الدنيا بظاهِرها وعِلْم ماغابَ عنهمْ بالذى شَهِدوا
مطالع الحقِّ مامِنْ شُبْهةٍ غَسِقَتْ (٣) إلّا ومِنْهُمْ لديها كوكبٌ يَقِدُ

وقال سعيد بن حميد :

قالت : اكتُمْ هوايَ واكْنِ عنِ اسمى بالعزيز المُهَيْمِنِ الجبَّارِ
قلت : لا أسْتَطيع ذلك ، قالت : صِرْتَ بعدى تقولُ بالإجْبارِ
وتخلّيْتَ عن مقالةِ بشر بـــن غياث لمَذْهب النجّارِ

وقال أبو القاسم بن عباد الصاحب (٤) :

كنتُ دهراً أقولُ بالإستطاعه وأرى الجَبْرَ ضلّةً (٥) وشَناعَه
ففقدت استطاعتى فى هوى ظَـــبْى فسمعاً للمُجبِرين وطاعَه

وقال أيضا (٤) :

ولما تناءَتْ بالحبيبِ دِيَارهُ (٦) وصرنا جميعا من عيان إلى وهْمِ (٧)

---

(١) من ا . (٢) الوطيد : الثابت . (٣) غسقت : أظلمت .
(٤) اليتيمة: ٣ـ٢٤٧ . (٥) الضلة : الضلال . (٦) فى اليتيمة : بالأحبة دارهم .
(٧) فى م : وصودرت منه ،ن عيان على وهم ، وفى ا : وصودر منه عن عيان على وهم .

تمكَّن منِّى الشوقُ غير مُخَالِسٍ كمتزلىّ قد تمكَّنَ من خَصْمِ

[من النسيب]

لابن الطثرية

وأنشد محمد بن سلام بعض هذه الأبيات التى أنشدها ، وزعم أنها لأبى كبير الهذلى ، ورُويت ليزيد بن الطَّثْرِيّة وغيره ، والرواة يُدْخلون بعض الشعر فى بعض وهى[1] :

عُقَيْلِيةٌ أَمَّا مَلَاثُ إزارِها فوعث وأمَّا خَصْرُها فبَتِيل[2]

تقيَّظُ أَكْنَافَ الحِمَى ويُظِلها بنَعْمان من وَادِى الأَراك مَقِيلُ

فيا خُلَّةَ النفس التى ليس دُونَها لنا من أَخلَّاءِ الصفاء خَلِيلُ

ويا من كتمْنَا حُبَّه لم يُطَعْ له عدوٌّ ولم يُؤْمَنْ عليه دَخِيلُ

أَمَامِنْ مقام أشتَكِى غُرْبَةَ النوَى وخَوْفَ العِدا فيه إليك سَبيلُ

أليس قليلاً نظرةٌ إنْ نظرتُها إليكِ ؟ وكلا ليس منك قليلْ

وإنَّ عناءَ النفسِ مادمت هكذا عَنُودَ النوى محجوبة لطويل

أراجعةٌ قلبى علىّ فرائح مع الرَّكْبِ لم يكتب عليك قتيل

فلا تحملى وِزْرِى وأنْت ضعيفةٌ فحَمْلُ دمى يوم الحساب ثَقِيلُ

فيا جنَّةَ الدنيا ويا مُنْتَهَى المنى ويا نُور عينى ، هل إليك سبيلُ

فديتكِ ، أعدائى كثير ، وشُقَّتى بعيدٌ ، وأشياعى[3] لديكِ قَلِيلُ

وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ بعلَّةٍ فأفنيت عِلّاتى ، فكيف أقول ؟

فما كلُّ يومٍ لى بأرْضكِ حاجةٌ ولا كلُّ يوم لى إليك رسولُ[4]

لأبى كبير

وأنشد ابنُ سلّام لأبى كبير الهذلى[5] :

وإنى لمستَسْقٍ لها اللهَ كُلّما لوى الدَّيْنَ مُعْتَلٌّ وشَحَّ غَرِيمُ

---

(١) الحماسة : ٣ـ٢٨٨ الوفيات : ٣ـ٣٢٧ .

(٢) الملاث : الموضع الذى يدار به الشىء . والبتيل ، الهضيم الدقيق .

(٣) فى ا : وأنصارى . (٤) فى م ، سبيل . (٥) فى ط : الكثير.

سحائبُ لا مِنْ صيِّبٍ ذى صَواعِق ولا مُحرِقَاتٍ ماؤهنّ حَمِيم
ولا مخلفات حين هِجْنَ بنَسْمَةٍ[1] إليهن هوجاء المَهَبِّ عَقِيم
إذا ما هَبطْنَ القاعَ قد ماتَ نَبْتُهُ بَكَيْنَ به حتى يَعيش هَشِيمُ

[ابن حطان والحجاج]

ولما ظفر الحجّاج بعمران بن حطان الشارى قال : اضربوا عُنُقَ ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئسما أدّبكَ أهلُك يا حجّاج ! كيف أمنت أن أُجيبك بمثْلِ ما لقيتنى به ؟ أبعدَ الموت منزلةٌ أصانِعك عليها ؟ فأطْرق الحجاج استحياءً ، وقال: خَلّوا عنه؛ فخرج إلى أصحابه فقالوا : والله ما أطْلَقك إلا الله ، فارْجِعْ إلى حَرْبه معنا . فقال : هيهات ! غلَّ يداً مُطْلِقها واسترقَّ رقبةً مُعْتِقُها ! وأنشد :

أأقاتل الحجاج عن سُلْطَانِه بيدٍ تُقِرّ بأنّها مَوْلَاتُهُ
إنى إذاً لأَخُو الدّناءة والذى عَفَتْ على عرفانه جَهلاتُهُ
ماذا أَقُولُ إذا وقفت مُوَازيا فى الصفِّ واحتجّتْ لهُ فعلاته
وتحدَّثَ الأَكْفاء أنَّ صنائعا غرست لدَىّ فحَنْظَلَت نخَلاته
أأقول جار علىّ ؟ إنى فيكمُ لأَحقّ مَنْ جارَتْ عليه وُلَاته
تالله ما كدت[2] الأمير بآلةٍ وجوارحى وسِلاحها آلاتُهُ

أخذ أبو تمام[3] هذا فقال معتذراً إلى أبى المغيث موسى بن ابراهيم الرافعى :

أألبس[4] هُجْرَ القولِ مَنْ لو هَجَوْتُهُ إذاً لهجَانى عنه معروفُه عِنْدِى
كريم متى امْدَحْه أمدحه والورَى مَعِى وإذا[5] ما لمته لمتُه وَحْدِى

---

(١) فى م : تنسمت ، وفى ا : تبسمت . (٢) فى ا : لاكدت .
(٣) ديوانه: ١٣٩ . (٤) فى الديوان : أسربل . (٥) فى الديوان : ومتى.

من شعر عمران

وعمران بن حطان هو القائل :

لم[1] يعجز الموتَ شيءٌ دون خالقه والموتُ فَانٍ إذا ما غَاله الأَجَلُ
وكلّ كرب أمامَ الموتِ مُنْقَطِعٌ بالموت ، والموتُ فيما بعدُه جَلَل[2]

بين جرير والفرزدق

وكان الفرزدقُ عمل بيتا، وحلف بالطلاق أَنَّ جَريراً لاينقضه، وهو:

فإنى أنا الموتُ الذى هو نازلٌ بنفسك فانظُرْ كيف أنتَ مُحَاوِله

فاتصل ذلك بجرير فقال : أنا أبو حَزْرَة ، طلقت امرأةَ الخبيث ، وقال[3] :

أنا الدَّهْرُ يُفْنِى الموتَ والدهرُخالدٌ فجئْنِى بمثلِ الدهرِ شيئاً يُطاوِلُهْ

وإنما أشار جرير إلى قول عمران . وهو عِمْران بن حِطَّان بن ظبيان بن[4] سهل ابن معاوية بن الحرث بن سدوس بن سنان[5] بن ذهل بن ثعلبة ، ويكنى أبا شهاب، وكان من الشُّراة[6] ، وكان من أَخطبِ الناس وأَفْصَحهم ، وكان إذا خطب ثارت الخوارجُ إلى سلاحها، وكان من أَقبح الناسِ وَجْها ، قالت له امرأته وكانت فى الجمال مثله فى القبح : إنى لأرجو أن أكون وإياك فى الجنة ؛ لأن الله رزقك مِثْلِى فشكرت، وابتلانى بمثلك فصبرت !

[أعرابى وبعض الولاة]

ودخل أعرابى على بعض الوُلاة فقال : أصلَح الله الأمير ، اجعلنى زِماماً من أزِمَّتك ، فإنى مِسْعَر حربٍ ، ورَكَّاب نُجُب[7] ، شديدٌ على الأعداء ، لَيِّنٌ على الأصدِقاء ، منطوى الحصيلة ، قليل التّمِيلة[8] ، غرار النوم ، قد غذَتْنى الحروبُ أفَاوِيقَها ، وحلَبْتُ الدهرَ أشْطُره ، فلا يَمْنَعْكَ منى الدَّمامة ، فإنّ تحتَها لشَهامَة .

---

(١) فى ا : إن . (٢) جلل هنا : يسير . (٣) ديوانه : ٤٨٣ .
(٤) فى ا : بن سعل . (٥) فى ط : بن شيبان . (٦) الشراة : الخوارج وفى م ، ا : من القعد . (٧) مسعر حرب: موقد نارالحرب. وفى ط : ركاب لجب ، وفى م : نجد .
(٨) الثميلة : البقية من الطعام والشراب فى البطن ، وفى ا : منطوى الحضيلة .

[الدنيا]

قال المسيح عليه السلام : الدُّنيا لإبليس مزرعة ، وأهلها له حُرّاث . وقال إبليس لعنه الله : العجب لبنى آدم يحبّونَ الله ويَعْصونَه ، ويُبغضونني ويُطيعونني .

[أربع كلمات]

خرج الزهرى يوما من عند هشام بن عبد الملك فقال : ما رأيتُ كاليوم ، ولا سمعت كأربع كلمات تكلّم بهن رجلٌ عند هشام؛ دخل عليه فقال : ياأميرَ المؤمنين؛ احفظ عنى أرْبَع كلمات ، فيهن صلاحُ مُلْكك، واستقامةُ رعيّتك . قال : هاتِهنَّ ؟ قال : لا تَعِدن عِدةً لا تَثِقُ من نفسك بإنجازها ، ولا يغرّنَّكَ المُرْتقَى وإن كان سَهْلًا إذا كان المُنْحدَر وَعْرا ، واعلم أن للأعمال جزاءً فاتّقِ العواقبَ ، وأن للأمورِ بَغتَات فكُنْ على حَذَر .

قال عيسى بن دَأْب : فحدّثت بهذا الحديث الهادى[1] وفى يده لُقْمة ، قد رفعها إلى فيه فأمسكها ، وقال : ويحك ! أَعِدْ علىّ ! فقلت : ياأمير المؤمنين ، أَسِغْ لُقْمتك، فقال : حديثك أحبُّ[2] إلىّ .

[معاوية وعمرو بن سعيد]

ولما عقد معاويةُ البيْعَةَ ليزيد قام الناسُ يخطبون ؛ فقال لعمرو بن سعيد : قُمْ يا أبا أمية ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد فإنّ يزيد بن معاوية أجلٌ تؤمونه ، وأمل تؤملونه ، إن استضفتم إلى حِلْمه[3] وسِعَكم ، وإن احتجْتُم إلى رَأْيه أرشدكم، وإن افتقرتُم إلى ذاتِ يده أغناكم ، جَذَع قَارح[4] ، سُوبِقَ فسَبَق ،

---

(١) فى ط : المهدى . (٢) فى ا : أعجب . (٣) فى ط : إن استطلعتم إلى حكمه .

(٤) الجذع : الشاب الحدث . والقارح : الشديد المجرب .

ومُوجِدَ فجدَ، وقُورِع فقَرَع ، وهو خَلفُ أمير المؤمنين ، ولا خلف عنه . فقال له معاوية : اجلس ، فقد أَبْلَغْتَ .

وعَمْرُو بنُ سعيد هذا هو الأَشْدَق؛ [وإنما سُمى الأشدق](١) لتشادقه (٢) فى الكلام ، وقيل : بل كان أفْقَم (٣) مَائِل الشدق ، وهذا قول عوانة بن الحكم الكلبى ، وهو خِلَافُ قول الشاعر :

تشادق حتى مال فى القول شدقهُ ... وكلُّ خَطيب لا أَبالَكَ أشدقُ

وكان أبو سعيد بن العاص أحدَ(٤) خطباء بنى أمية وبلغائهم .

ولما مات سعيد دخل عمرو على معاوية فاستَنْطَقَه فقال : إنّ أولَ كل مركب صَعْب ، وإن مع اليوم غدا . فقال معاوية : وفى هذه العلة إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : أوصى إلىّ ولم يُوصِ بى . فقال معاوية : إن ابن سعيد هذا لَأَشْدَق !

[تواضع الرشيد]

قال ابن السماك للرشيد : يا أميرَ المؤمنين ، تواضُعُك فى شرفك أفضلُ من شرفك ؛ إنَّ رجلا أتاه الله مالاً وجَمَالا وحَسَبا ، فواسَى(٥) فى مَالِه ، وعفّ فى جماله، وتَواضعَ فى شرفِه ، كُتب فى ديوان اللهِ عزّ وجلّ .

[للمتنبى فى الحمى]

نالت أبا الطيب المتنبي علَّة بمصر، فكان بعض إخوانه من المصريين يُكثر الإلمامَ به ، فلما أَبلَّ قطعه ، فكتب إليه : وصلْتَنى أعزّك اللهُ مُعتلاّ ، وقطعتنى مُبِلاّ ، فإن رأيت ألاّ تكدر الصحة علىّ ، وتحبّب العلةَ إلىّ ، فعلت .

وفى هذه العلة يقول(٦) :

(١) من م . (٢) فى ا . لتشدقه . (٣) الفقم : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى.
(٤) فى م : آخر . (٥) فى ا : فأسنى . (٦) ديوانه : ٤ — ١٤٥ .

أقمْتُ بأرضِ مِصْرَ فلا ورائِى ... تَخُبُّ بِىَ الركاب[1] ولا أمامى
عَليلُ الجِسْمِ مُمْتَنِعُ القيامِ ... شديدُ السُّكْرِ من غيرِ المُدَامِ
وزائِرَتِى كأنّ بها حياءً ... فلَيْسَ تَزُورُ إلاَّ فِى الظّلامِ
بَذَلْتُ لها المَطارِفَ والحَشايَا ... فعافَتْهَا ، وباتَتْ فى عِظامِى
يَضِيقُ الجِلْدُ عن نَفسِى وعنها ... فتُوسِعُهُ بأنواعِ السقامِ
إذا ما فارقَتْنِى غسّلَتْنِى ... كأنا عاكِفانِ على حَرَامِ
كأن الصّبح يَطْرُدها فتجْرِى ... مدامِعُها بأربعةٍ سِجَامِ
أُراقِبُ وقتها مِنْ غيرِ شوقٍ ... مُراقبةَ المَشُوقِ المُسْتَهامِ
ويصدُقُ وعدُها والصدقُ شرٌّ ... إذا ألقاكَ فى الكُرَبِ العِظامِ

ألفاظ لأهل العصر فى العيادة وما جانسها من ذكر التشكى والمرض

وتلونه وسوء أثره والانزعاج لِعوارضه

عرض لى مرضٌ أساء بالنجاة ظنى ، وكاد يصرف وجه الإفاقة عنى . هو شُورى بين أمراض أربعة : صُدَاع لا يخفّ ، وحُمَّى لا تُغبّ[2] ، وزُكَام لا يجف ، وسُعال لا يَكُفّ . عِلّة هو فى أسْرِها مُعْتَقل ، وبقَيْدِها مُكَبَّل . أمراض تلوَّنت علىَّ ، وأساءت بى وإلىّ ، فأنا أشكرُ الله تعالى إذ جعلها عِظَة وتذكيرا ، ولم يُبْقِ منها الآن إلا يسيرا ، أحسب أن الأمراض قد أقسمت على أن تجعل أعضائى مَرَاتعها ، [وآلت على أن تُصيّر جوارحى مرابَعها] [3] . عِلَل لا يصدر منها [آت إلا لتكدير ورد] [3] ولا يعزل منها والٍ إلا بولىّ عهد . قد كرَّت تلك العلة فعادت عِللا ، [وسقتنى بعد نَهَل عَللا] [3] . علل بَرَتْه بَرْى الأخلّة ، ونقصته نَقْصَ الأهلّة ، وتركته حَرَضاً ، وأوسعْتُه مَرَضا ، وغادرته والخيالُ أكثفُ منه جُثّة ، والطيفُ

(١) فى الديوان : تخب بى المطى.

(٢) أغبته الحمى ، وأغبت عليه : أخذته يوما وتركته يوما .

(٣) من م ، ا.

أَوفر منه قُوّة . عرض له من المرض ما صار معه القنوطُ يُغَادِيه ويُراوِحه ، واليأس يُخاطبه ويُصافحه . قد ورَدَ من سوء الظن أَوْخمَ المناهل، وبات من حسن[1] الرجاء على مراحل . طالعتُ الكرم يترجَّح نجمه بين الإضاءة والأفول ، وتمثل شمسه بين الإشراق والغروب . أصبح فلانٌ لا يُقِلّ[2] رأسَه، ولا يحور ظله، ويدُ المنية تَقْرَع بابه . ماهو للعلة إلا عَرض ، ولسهام المنية إلا غَرَض . شاهدت نفسى وهى تَخَرج ، ولقيت رُوحى وهى تَعْرُج[3]، وعَرفت كيف تكون السَّكْرة ، وكيف تقع الغَمْرة ، وكيف طَعْمُ البعد والفراق ، وكيف تلتفُّ الساق بالساق . مرض لحقتنى رَوْعته ، وملكتنى لوعته. وجدت فى نفسى ألماً أوحشه[4] آنَسُه، وآنسه أوحشه. بلغنى من شكايته ما أَوحش جناب الأُنْس ، وأَرانى الظُّلمة فى مَطْلع الشمس . قد بلغنى ماعَرضَ لك من المرض ، وألمّ بك من الألم ؛ فتحاملَ على سوداء صدرى ، وأقْذَى سوادَ طَرْفى، وقداستنفد القَلَق لِعلَّتك ماأعدّه الصبرُ من ذخيرة ، وأضعف ما قوّاه العزم من بصيرة. قَلْبى يتقلَّب على حدِّ السيف إلى أن أعْرف انكشافَ العارض وزِيَاله ، وأتحقّق انحساره وانتقاله . أنهى إلى من الخبر العارض ، حسمَ الله مادَّته ، وقصَّر مُدَّته ، ما أرانى الأفق مظلما ، وطريق العيش مُبْهَما .

فِقَر فى تهوين العلة بحسن الرجاء وذكر المشاركة والاهتمام بحلولها والاستبشار بزوالها

إن الذى بلغنى من ضَعْفِه قد أضعف المنّة ، وإنْ لم يُضعف الظنَّ بالله والثِّقة ، قد استشفَّ العافية من ثوب رقيق . ما أكثر ما رأينا هذه العلل حَلّت ثم تَجلَّتْ ، وتوالت ثم تولَّتْ . خبَّرنى فلان بعلّتك فأشركنى فيها ألما وقَلَقا ، فلا أَعلَّ اللهُ لك جسما ولا حالا ، فليست نِكَاية الشغل فى قلبى بأقلّ من نِكَايةِ الشكاية فى جِسْمك،

---

(١) فى م : حسى، وفى ط : وحشى .   (٢) لايقل : لا يحمل .

(٣) عرج : صعد .   (٤) فى ا : أمسه آنسه .

ولا استيلاء القَلَقِ على نفسي بأيسر من اعتراضِ السّقم لبدنك ، ومن ذَا الذي يصحُّ جسمه إذا تألمت إحدى يديه، ومن يحل محلّها في القرب إليه ؟ أنا منزعج لشَكَاتك، مبتهج بمُعَافاتك ، إن كانت علّتُك قد قَرَحَت[1] وجرَحتْ ، فإنّ صحتك قد آسَت وآنست[2]. بلغتني شَكَاتك فارْتعت ، ثم عرفت خِفّتها فارْتَحْت . الحمد لله على قُرْبِ المدة بين المِحْنَة والمِنْحة ، والنقمة والنعمة ، وعلى أنّا لم نتهالك بأيدى المخافة حتى تدارك بحُسْنِ الرأفة ، ولم نستسلم لخطّة الحذر حتى سَلم من وَرْطَة القدر .

ولهم في شكاة أهل الفضل والسؤود

شكاتُه التي تتألّم منها المروءةُ والفضل، ويسقم منها الكرم المَحْضُ . شكاته التي غَصَّت بها حلوقُ المَجْدِ ، وحَرِجَت[3] لها صدورُ أهل الأدب والعلم ، وبدا الشحوبُ معها على وَجْه الحرية ، وحرم معها البِشْرُ على غُرَّة المروءة . قد اعتلّ بعلّته الكَرَم ، وشكا بشكايته السيفُ والقلم . شكاة عرضت منه لشَخْص الكرم الغضّ ، والشرف المَحْض . لو قبلت مهجتى فديةً ، دون وعكه ، لجُدْتُ بها ، وساعة أنس بفقدها لبذلتها عالما بأنى أَفْدى الكرم ولا غير ، والفضل ولا ضَيْر .

ولهم في تنسم الإقبال وذكر الإبلال

قد شِمْت بارِقَة العافية ، وشَمِمْتُ رائحةَ الصحة . أَقبل صُنْعُ اللهِ من حيث لم أَحتسب ، وجاءنى لُطْفه من حيث لا أرْتقب ، وتدرَّجْت إلى الإبلال وقد حسبته حُلْما ، ورضيت به دون الاستقلال غُنْمًا . وقد تخلَّصتُ إلى شَطِّ العافية لما تداركنى الله تعالى بلطيفة من لطائفه ، وجعل هبة الروح عارِفَة من عَوَارفه ، وتنسمتُ رَوْحَ الحياة ، بعد أن أَشْفَيتُ على الوفاة ، وثَنَيْتُ وجهى إلى الدنيا بعد مواجهتى للدار

---

(١) قرحت : جرحت . (٢) آست : داوت . (٣) حرجت : ضاقت .

الأخرى . قد صافحَ الإقبال[1] والإبلال، وقارب النهوضَ والاستقلال[2] . سيُرِيك اللهُ من العافية التى أذاقك ويسبغ ثوبها ، ولا يعيد عليك مكروهَها . قد استقلَّ استقلالَ السيف حُودث عهده وأُعيد فِرِنْدُه[3] ، والقمر انكشف سِرَارُه[4] ، وذاعت أسراره . حين استقلَّت يدى بالقلم ، بشَّرتك بانحسار الألم . قد أتاك اللهُ بالسلامة الفائضة ، وأزال من الشكاة العارضة . أبَلَّ فانشَرحَت الصدور ، وشمل السرور . الحمد لله الذى حرس جِسْمَك وعافاه ، ومَحا عنه أثَرَ السقم وعَفَّاه . الحمد لله الذى جعل العافيةَ عُقْبى ماتشكيت، والسلامة عِوَضاً عما عانيْت . الحمد لله الذى أعفاك من مُعَاناة الألم ، وعافاك للفضْلِ والكرم، ونظمنى معك فى سِلْكِ النعمة ، وضمَّنى إليك فى مُنْبلِج الصحَّة . الحمد لله الذى جعل السلامةَ ثوْبك الذى لا تنضوه ، وسيفك فيما تأمُله وترْجوه . الله يَجْعَل السلامةَ أطول بُرْدَيْك ، وأشدّهما سُبوغا عليك ، ويدفع فى صدور المكارم دون رفعك ، وفى نحور المحاذِر قبل الانتهاء إلى ظلك ، لازالت العافية شِعارَك ، ما واصل ليلك نهارك .

فِقر فى أدعية العيادة والاستشفاء بكتبها

أغناك اللهُ عن الطبِّ والأَطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعله عليك تَمْحِيصاً لاتنغيصاً ، وتذكيراً لانكيرا ، وأدبا لاغضباً . الله يدرُّ لك صَوْبَ العافية، ويُضْفِى عليك ثوبَ الكفاية الوافية . أوْصَل اللهُ تعالى إليك من برد الشفاء ما يكفيك حَرَّ الأَدواء . كتابك قد أدَّى روحَ السلامة فى أعضائى، وأوْصَل برد العافية إلى أحشائى. تركنى كتابُك والنعم تَثِبُ إلىصحّتى ، والخطوب تتجافى عن مُهْجتى ، بعد أمراضٍ اكتنفت ، وأسقام اختلفت . قد استبق كتابُك والعافية إلى جسمى كأنهما فرَسَا

(١) فى ا : الإقلال . (٢) فى ا : وقارن النهوض والاستقبال ، وفى م : والاستبلال.
(٣) الفرند : جوهر السيف ووشيه . (٤) السرار : الليلة التى يستسر فيها القمر — أى يختفى .

رِهَان تباريا ، ورَسيلا[١] مِضْمَار تجاريا . أبدلنى كتابُك من حُزون الشكاية سهولَ المعافاة ، ومن شدَّة التألّم ، رجاءَ التنعّم .

قطعة من كلام الأطباء والفلاسفة

العاقل يتركُ ما يحبُّ ليستغنىَ عن العلاج بما يكره .

جالينوس : المرض هَرَم عارِض ، والهَرَم مرضٌ طبيعى . وله : مجالسة الثقيل حُمَّى الروح .

بختيشوع : أَكلُ القليل مما يضرّ أَصلح من أكل الكثير مما ينفع .

يوحنا[٢] ابن ماسويه : عليك من الطعام بما حَدُث ، ومن الشراب بما قَدُم ، وقال له المأمون : ماأحسن ما يُتنقّل به على النبيذ ؟ قال : قول أبى نواس ، يريد قوله :

الحمد لله ليس لى مثلٌ   خمرى شرابى وَنُقلىَ القُبَلُ

ثابت بن قُرة : ليس شىء أضر بالشيخ من أن تكونَ له جارية حسناء ، وطبّاخ حاذق ؛ لأنه يُكثر من الطعام فيسقم ، ومن الجماع فيَهْرَم .

غيره : ليس لثلاث حيلة : فقرٌ يخالِطهُ كسَل ، وخصومة يخامرها حَسَد ، ومرض يمازِجه هرم .

ثلاث يجب مداراتهم : السلطان ، والمريض ، والمرأة . ثلاث يُعْذَرون على سوء الخلق : المريض ، والمسافر ، والصائم .

فقر فى ذكر المرض والصحة والموت والحياة لغير واحد

شيئان لا يُعرفان إلاَّ بعد ذهابهما : الصحة والشباب . بمرارة السقم توجد حلاوةُ الصحة . هذا كقول أبى تمام[٣] :

إساءةُ دَهْرٍ أذكرت حسْنَ فِعْلِه   إلىَّ ولولا الشَّرْى[٤] لم يُعْرَف الشّهدُ

(١) الرسيل . الرسول ، وفى ا : رسلا . (٢) فى ط : حنة. (٣) ديوانه : ١٢١ .

(٤) الشرى : الحنظل.

وقوله أيضا[1] :

والحادثاتُ وإنْ أصابك بُؤْسُها فهو الذى أدْراك[2] كيفَ نعيمُها

ما سلامةُ بدن معرّض للآفات ، وبقاء عمر معرض للساعات ؟ قال أبو النجم :

إنَّ الفتى يصبح للسقام كالغَرض المنصوب للسّهام

أخطأ رامٍ وأصابَ رَام

وقيل لبعض الأطباء وقدنهكته العلّة : ألاَ تتعالج ؟ فقال: إذا كان السماء[3] بطل الدواء ، وإذا قدّر الرب بطل حَذَرُ المربوب ، ونِعْمَ الدواء الأمل ، وبئس الداء الأجل .

بزرجمهر : إنْ كان شيء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثل الحياة فالغِنَى ، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر .

غيره : خيرٌ من الحياة مالا تَطِيبُ الحياةُ إلا به ، وشرٌّ من الموت ما يُتمنَّى الموت له . قال المتنبى فى مرثية أم سيف الدولة[4] :

أطَابَ النفسَ أنكِ مُتِّ مَوْتاً تَمنَّتْهُ البَواقِى والخوالِى

وزُلْتِ ولم تَرَىْ يوماً كريهاً تُسَرُّ النفسُ[5] فِيهِ بالزوالِ

رِوَاقُ العِزِّ فوقك[6] مُسْبَطِرٌّ ومُلْك علىّ ابنِك فى كمَالِ

الموت باب الآخرة . الحسن : ما رأيتُ يقيناً لاشكّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقين فيه من الموت . ابن المعتز : الموت سَهْمٌ مرسل إليك ، وعمرك بقدر سفره نحوك ، أخذه بعض أهل العصر فقال :

لا تَأْمَن الدهرَ الخؤو ن وخَفْ بوادرَ آفتِهْ

فالموت سَهْمٌ مرسلٌ والعمرُ قَدْر مسافَتِهْ

---

(١) ديوانه : ٣١٠ . (٢) فى ديوانه : أنباك .

(٣) فى هامش ا : أى القضاء . وفى ط : إذا كان الداء من السماء .

(٤) ديوانه: ٣–١٣ . (٥) فى الديوان : يسر الروح . (٦) فى الديوان: حولك.

البستى[١] :

لا يغرنّك أننى ليّنُ المسّ فعزمى[٢] إذا انتضيتُ حُسامُ
أنا كالورد فيه راحةُ قَوْمٍ ثم فيه لآخرين زُكَام

وقال آخر[٣] :

إن الجهولَ تضرُّنى أخلاقُهُ ضرر السُّعالِ لمن به استسقاء

ولآخر ، وهو البستى[١] :

فلا تكن عَجِلاً فى الأمر تطلبهُ فليس يحمد قبل النّضج بُحْرَانُ

وقال آخر[١] :

لا تعتمِدْ إلا رئيساً فاضلاً إنْ الكيان[٤] أطبُّ للأوجاع

وقال آخر :

وإنى لأختص بعض الرجال وإن كان فَدْماً ثقيلا عَبَاما[٥]
فإنَّ الجُبُنَّ[٦] على أنهُ ثقيل وخيمٌ يُشهِّى الطَّعاما

وقال المتنبى[٧] :

لعلَّ عَتْبَك محمودٌ عواقبهُ وربما صحّتِ الأجسامُ بالعلل

وقال أيضاً[٨] :

أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صادِقةً أنْ تَحْسِبَ الشحمَ فيمَنْ شَحْمُه وَرَمُ

[إفحام فى الجواب]

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى : كان بلالُ بن أبى بردة جَلْداً حين ابتُلى ، أَحضره يوسف بن عمر فى قيودِه لبعض الأمر ، وهُم بالحِيرة ؛ فقام خالدُ بن

(١) اليتيمة : ٤ــ٢٩٤ . (٢) فى اليتيمة : فغربى . (٣) فى ا : وقال
(٤) فى ط : إن الكبار . (٥) الفدم : العي عن الكلام فى ثقل، والعبام : العي الثقيل، وفى ط : عيام ــ بالياء . (٦) الجبن بتشديدالنون، هوالجبن . (٧) ديوانه: ٣ــ٨٦ .
(٨) ديوانه: ٣ــ٣٦٦ .

صفوان فقال ليوسف : أَيها الأميرُ ! إنّ عدوّ اللهِ بلالا ضربنى وحَبَسنى ولم أُفارِقْ جماعة ، ولا خَلَعْتُ يداً من طاعة ، ثم التفت إلى بلال فقال : الحمدُ لله الذى أَزال سلطانَك ، وهدّ أركانك ، وأَزال جمالك ، وغيّر حالك ، فوالله لقد كنتَ شديدَ الحجاب ، مستخفًّا بالشريف ، مظهِراً للعصبية ! فقال بلال : ياخالد؛ إنما استطلت علىّ بثلاث معك هنّ علىّ : الأمير مُقْبِل عليك ، وهو عنى مُعْرِض . وأنت مُطْلَق ، وأنا مأسور . وأنت فى طينتك ، وأنا غريب ! فأَفحمه . [ويقال : إن آل الأهتم زعنفة دخلت فى بنى منقر فانتسبت إليهم][1] .

وكان سبب ضرب بلال خالداً فى ولايته أن بلالا مرّ بخالد فى موكب عظيم فقال خالد : * سحابةُ صيفٍ عن قليل تَقَشَّعُ * فسمعه بلال فقال : والله لا تقشع أو يصيبك منها شُؤبوب برد[2] ، وأمر بضَرْبه وحَبْسه .

[رثاء قدح]

وقال أبو الفتح كشاجم يرثى قدحا له انكسر[3] :

عَرَانِى الزمانُ بأَحْدَاثه فبعضاً أطَقْت وبعضاً فدَحْ
وعندى فَجائعُ للحادثات وليس كفَجْعَتِنا بالقَدَحْ
وِعاء المُدَام وتاجُ البنان[4] ومُدْنِى السرور ومُقْصِى التَّرَحْ
ومعرض رَاحٍ متى تكسه ومستودع السرِّ منها يبحْ
وجسم هواء وإن لم يكن يُرَى للهواء بكفّ شَبَحْ[5]
يردُّ على الشخصِ تمثالَهُ وإنْ تَتَّخِذْه مراةً صَلَح
ويَعْبَقُ من نكهاتِ المُدَام فتحسب منه عَبِيراً نَفَحْ

---

(١) من م ، ا . (٢) الشؤبوب — بضم الشين : الدفعة من المطر .
(٣) ديوانه : ٣٧ . (٤) فى الديوان : وتاج الندام ، وفى ط : وتاج الكرام .
(٥) فى الديوان : يرى كالهواء بكف سنح .

ورَقَّ ؛ فلو حلَّ فى كِفّةٍ ... ولا شىء فى أُخْتِها ما رَجَحْ
يكادُ مع الماء إن مسّهُ ... لما فيه من شكله ينفسح
هوَى من أَنامل مجدولةٍ ... فيا عجبا مِنْ لطيفٍ رَزَحْ
فأفقدنيه على ضِنَّةٍ ... به للزمان غَرِيمٌ مَاح
كأنّ له ناظرا يبتغى ... فتى يَتَعَمَّدُ غَيْرَ المُلَح
أقلب ما أبقت الحادثا ... ت منه وفى العين دَمْعٌ يسُح
وقد قدح الوجد منى بهِ ... على القَلْبِ من ناره ما قدح
وأعجب من زمن مانح ... وآخرَ يسلب تلك المِنَحْ
فلا تبعدنّ فكم من حَشًى ... عليك كليم وقَلْب قَرِحْ(١)
سيُقْفِرُ بعدك رَسْم الغَبُوقِ ... وتُوحِش منك مغانِى الصَّبح

[من طرائف الوصف]

ومن أحسن ما قيل فى وصف قدح ، قول ابن الرومى يصف قدحا أهداه إلى على ابن يحيى المنجم(٢) :

وصف قدح لابن الرومى

وبديع من البدائع يَسْبِى ... كلَّ عقل ويَطَّبى كلَّ طَرْفِ(٣)
رَقّ فى(٤) الحسنِ والملاحةِ حتى ... ما يوفّيه واصفٌ حقَّ وَصْفِ
كفم الحِبّ فى الملاحة بل أشـ ... هى وإن كان لا يناجى(٥) بحَرْف
تنفذ(٦) العينُ فيه حتى تراها ... أخطأَتْه من رِقّةِ المستَشَفِّ
كهواء بلا هباء مشوب ... بضياء ، أَرِقْ بذاك وأصْفِ
صِيغ من جوهر مصفًّى طباعا ... لا علاجاً بكيمياء ، مُصَفّى
وسط القَدْرِ لم يكبَّر لجَرْعٍ ... مُتَوانٍ ولم يصغَّر لرَشْفِ

(١) قرح : جرح . (٢) ديوانه : ٣٣ . (٣) يطبى : يستميل .
(٤) فى الديوان : وفى . (٥) فى الديوان ، ا : بل أحلى ، وإن كان لا يناغى .
(٦) فى ا : تبعد .

لا عجولٌ على العقول جَهولٌ ‏ ‏ بل حليم عنهنَّ فى غير ضعفِ
فيه نون معقرب عطَّفَتْه ‏ ‏ حكماءُ القيون أَحكم عَطْفِ
مثل عطف الأصداغ فى وجَنَاتٍ ‏ ‏ من حبيب يُزْهى بحُسْنٍ وظَرْفِ
ما رأى الناظرون قدًّا وشكلاً ‏ ‏ مثله فارِساً على بطن كَفِّ

وللتنوخى

وقال أبو القاسم التنوخى :

وراحٍ من الشمس مخلوقةٍ ‏ ‏ بَدَتْ لك فى قَدَح من نهارْ
هواءٌ ولكنه جامدٌ ‏ ‏ وماءٌ ولكنه غيرُ جَار
إذا ما تأملتها وهى فيـــه ‏ ‏ تأمَّلت نوراً محيطاً بِنارْ
فهذا النهاية فى الابيضاضِ ‏ ‏ وهذا النهايةُ فى الاحمرارْ(١)
وما كان فى الحق أن يُقرَنا ‏ ‏ لفَرْطِ التَّنافِى وبعد النِّفَارْ
ولكن تجاور شكلاهما الـ ‏ ‏ بسيطانِ فاتفَّقا فى الجِوارْ
كأنَّ المديرَ لها باليمين ‏ ‏ إذا قام للسَّقْى أو باليَسار
تدرجَ ثوبا من الياسِمين ‏ ‏ له فردُ كمٍّ من الجلّنار

رثاء منديل لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم يرثى منديل كُم(٢) :

من يَبْكِ من وجد على هالك ‏ ‏ فإنما أَبْكِى عَلَى دَسْتجَه(٣)
جاذبنيها رَشَأٌ أغيَدٌ ‏ ‏ فجادت النفسُ بها مُحْرَجَه
بديعةٌ فى نَسْجها مثلها ‏ ‏ يفقد من يُحْسِن أَنْ يَنسِجَه
كأنما رِقَّةُ أشكالِها ‏ ‏ من رقَّةِ العشّاق مُسْتَخْرَجه
كأنما مفتولُ أَهدابِها ‏ ‏ أيدى دَبا(٤) فى نَسَقٍ مُزْوَجه
كأنما تفريقُ أعلامِها ‏ ‏ طَاوُسة تختَال أو دُرّجه(٥)

(١) ليس فى م ، ا . (٢) ديوانه : ٣٠ .
(٣) الدستجة : الحزمة ، وفى ط : مسبجة ، وفى م : سبجة .
(٤) الدبا : أصغر الجراد والنمل ، وفى ط : ربا . (٥) فى م ، ا : تدرجه .

لَبِيسَةٌ (١) جدَّدَها حُسنها ... لا رَثَّةَ السِّلْكِ ولا مُنْهَجِه
كم رقعةٍ من عند مَعْشُوقةٍ ... تُرْسَلُ فى أثنائها مُدْرَجَه
أو مسحة من شفةٍ عَذْبَة ... تُبْرِدُ حرّ الـكَبِدِ المُنْضَجَه
إلى تحياتٍ لِطافٍ بهـا ... تسكِّنُ منى مُهْجَةً مُزْعَجه
كانت لمَسْحِ الـكاس حتى ترى ... منها لآثارِ القَذَى مخرِجَه
وخاتم يُعْقَدُ فيهـا إذا ... آثرتُ مِنْ كفى أن أُخْرِجَه
وأتَّقِى (٢) الجامَ بها كلَّما ... كلَّله المازِجُ أو توَّجَه
فاستأثَرَ الدَّهْرُ بهـا إنهُ ... ذو هِمَّـة مُجْلِيَة مُرْهِجَه
فأَصْبَحَتْ فى كمّ مُخْتَالَةٍ ... مُلجمَة فى هَجْرِنا مُسْرِجَة

وصف سقوط الثلج

وقال أيضا يصف سقوط الثلج (٣) :

الثلجُ يَسْقُطُ أم لُجَيْنٌ يُسْبَكُ ... أمّ ذا حَصَى الـكافورِ ظَلّ يفرّكُ
راحتْ به الأرضُ الفضاء كأنها ... فى كل ناحية بثَغْرٍ تَضْحَكُ
شابت مَفارِقُها فبيّن ضِحْـكِها ... طوراً وعهدى بالمشيب يُنَسِّكُ
أَرْبى (٤) على خُضرِ الغُصونِ فأصبحَتْ ... كالدرّ فى قُضُبِ الزبرجِدِ يُسلك
وتردّتِ الأشجارُ منه ملاءَةً ... عمَّا قليل بالرياح تهتَّـكُ
كانت كعودِ الهند طَرِّىَ فانكفى ... فى لَوْن أبيضَ وهو أسود أحلكُ
والجوُّ من دَاجِى الهواء (٥) كأنهُ ... خِلَعٌ تُعَنْبَرُ تارَةَ وتُمَسَّكُ
نخِذِى من الأَوتار حظَّك إنمـا ... يتحرّكُ الإطرابُ حين تحرَّكُ
فاليوم يوزَنُ بالملاحةِ إنهُ ... سيُطَـلُّ فيه دَمُ الدِّنان ويُسْفَك

وقال أيضاً (٦) :

---

(١) اللبيس : الثوب قد أكثر لبسه فأخلق ، وفى ط : لينة . (٢) فى ا : وألق .
(٣) ديوانه : ١٤٠ . (٤) فى ا : أوفى . (٥) فى الديوان : من أرج الهواء .
(٦) ديوانه : ٧٩ .

باكر فهذى صَبيحة قَرَّه[1] ... واليومُ يومٌ سماؤه ثَرَّه
ثَلْج وشمسٌ وصَوْبُ غَادِيَة ... والأرضُ من كل جانب غَرَّه
باتَتْ وقِيعانُها زَبَرْجَدَةٌ ... فأصبحَت قد تحوَّلت دُرَّه
كأَنها والثلوجُ تضحكها ... تُعَارُ[2] ممن أُحِبّه ثَغْرَه
كأنَّ فى الجو أَيدياً نثرتْ ... دُرًّا علينا فأسرعت نَثْرَه
شابَتْ فسُرَّتْ بذاك وابتهجَتْ ... وكان عهدى بالشيب يَسْتَكْرِه
قد جلّيت بالبياض[3] بلدتنا ... فاجْل علينا الكؤوسَ بالحُمْرَه

وللصنوبرى فيه

وقال الصنوبرى :

ذَهِّب كؤوسك يا غلا ... م فإنَّ ذَا يومٌ مفضَّضْ
الجوُّ يُجلى فى البيا ... ض وفى حُلَى الكافور يُعرَضْ
أزعمت ! ذا ثَلْجٌ وذا ... وردٌ على الأغصان يُنْفَضْ
وردُ الربيع مورّدٌ ... والوَردُ فى تشرين أَبيَضْ

وللبستى

وقال البستى :

كم نَظَمْنَا عقودَ لهو وأُنْس ... وجعَلْنَا الزمانَ لِلَّهْوِ سِلْكَا
وَفتقْنا الدّنان فى يوم ثلجٍ ... عُزِل الكأسُ فيه رُشْداً ونُسْكَا
فكأنّ السماءَ تنحلّ كافو ... راً علينا ونحنُ نَفْتقُ مِسْكَا

وصف الجمد

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى يصف الجَمْد :

ربَّ جنينٍ من حَيَا النمير ... مهتّك الأَستارِ والضمير
سللتهُ من رحم الغدير ... كأنها صحائف البلُّور
أو أُكَرٌ تجسَّمتْ من نُور ... أو قِطَعٌ من خالِص الكافور
لو بقيت سِلْكا على الدهور ... لعطّلتْ قلائد النُّحُور

---

(١) قرة . باردة ، والصبيحة : الصبح .
(٢) فى الديوان: تغار .
(٣) فى م : قد جليت فى البياض بلدتها .

وأَخجلت جواهرَ البحور [وسميت ضرائر الثغور][1]
يا حُسْنَهُ فى زَمنِ الحرور إذ قَيْظُه مثل حَشَى المَهْجُور
يُهْدِى إلى الأكبادِ والصدُورِ رَوحاً يُجلّى نَفْثَةَ المصدور
ويَجْلِبُ السرورَ للمَقْرُورِ

ألفاظ لأهل العصر فى وصف الثلج والبرد والأيام الشتوية

ألقى الشتاء كَلْكَلَه، وأحلّ بنا أثقاله. مدّ الشتاء رِواقه، وألقى أوراقه، وحلّ نِطَاقه. ضرب الشتاء بجِرَانه، واستقلّ بأركانه، وأناخ بنوازله، وأرْسَى بكلاكله، وكلَح بوجهه، وكشّر عن أنيابه. قد عادت [هامات][2] الجبال شيبا، ولبست من الثلج بُردا قشِيباً. شابت مفارق البروج، لتراكُم الثلوج، ألمّ الشيب بها وابيضَّت لممها. قدصار البردُ حجابا، والثلجُ حجازا، بَرْدٌ يغيّر الألوان، وينشف الأبدان. برد يقَضْقِض الأعضاء، وينقض الأحشاء. برد يُجْمد الريقَ فى الأشداق، والدمعَ فى الآماق. بَرْدٌ حال بين الكلب وهَرِيره، والأسد وزَئيره، والطيرِ وصفيره، والماء وخرِيره. نحن بين لثق، ورثق، وزلق[3]. يوم كأنَّ الأرضَ شابَتْ لهَوْله. يوم فضّى الجِلْبَاب، مِسْكِىّ النقاب، عبوس قَمْطَرِير، كشّر عن ناب الزمهرير، وفرش الأرض بالقَوارير. يوم أخذت الشمال زِمامه، وكسا الصِّر[4] ثيابه. يوم كأن الدنيا فيه كافُورة، والأرض قارورة، والسماء بلّورة. يوم أرضه كالقوارير اللامعة، وهواؤه كالزنابير اللاسعة. يوم أَرضُه كالزجاج، وسماؤه كأطراف الزِّجَاج[5]. يوم يثقل فيه الخفيف إذا هجم، ويخف الثقيل إذا هجَر، نحن فيه بين أطباق البرد فما نستغيث إلا بحرِّ الراح، وسَوْرَة الأقداح. ليس للبرد كالبُرْد، والخمْرِ، والجَمْرِ. إذا كلِب الشتاء فترياق سمومه الصلاء، ودَرَقُ سيوفه الطِّلاء[6].

(١) من م، ا. (٢) من ا. (٣) لثق يومنا: ركدت ريحه وكثر نداه.
(٤) الصر: البرد، أو شدته. (٥) جمع زج.
(٦) الصلاء: النار، والدرق جمع درقة، وهى ترس من جلود. والطلاء: الخمر.

نقيض ذلك من كلامهم فى وصف القيظ وشدة الحر

قوِى سلطان الحَرّ، وبُسِطَ بساطُ الجَمْر. حَرُّ الصيف؛ كحدِّ السيف. أوقدت الشمسُ نارَها، وأذكت أُوارها. حرٌّ يلفح حُرّ الوجه. حَرٌّ يشبه قَلْبَ الصبِّ، ويُذِيب دماغ الضّبِّ. هاجرة كأنها من قلوب العشاق، إذا اشتعلت فيها نارُ الفراق. هاجرة تحكى نارَ الهَجْر، وتُذيب قَلْبَ الصخر. كأن البسيطة من وَقْدة الحر، بساطٌ من الجمر. حَرٌّ تهرب له الحِرْباء من الشمس، قد صَهَرَت[١] الهاجرةُ الأبدان، وركبت الجنادبُ العِيدان. حر يُنْضِج الجلود، ويُذيب الجلمود. أيام كأيام الفُرْقة امتدادا، وحرٌّ كحر الوَجْد اشتدادا. حرٌّ لا يطيبُ معه عيش، ولا ينفع معه ثَلْج ولا خيش. حمارّة القيظِ تَغْلى كدم ذى الغيظ. آبَ آب بجيش مِرْجَله، وتنُّور قَسْطَله[٢]. هاجرة كقلب المهجور، أو التنّور المَسْجُور[٣]. هاجرة كالجحيم الجاحم، تجر أذيالَ السمائم.

[فى العجلة الندامة]

قال بعض الحكماء: إياك والعجَلة فإنّ العرب كانت تَكْنيها أُمّ الندامة؛ لأنّ صاحبها يقول قبل أَن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أَنْ يفكّر، ويقطع قبل أَن يقدّر، ويَحْمَدُ قبل أَن يجرّب، ويذمّ قبل أن يَخْبُرُ، ولن يصحب هذه الصفة أحد إلاّ صحب الندامة، واعتزل السلامة.

[استمناح]

رجل يستمنح سليمان بن وهب

ولما وَلّى المهتدى[٤] سليمانَ بن وهب وزارته قام إليه رجلٌ من ذوى حُرْمَته، فقال: أعزَّ اللهُ الوزير! أنا خادمك المؤمِّل لدولتك السعيدُ بأيامك، المنطوى القلب على وُدّك، المنشورُ اللسان بمدحك، المرتهن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر:

---

(١) فى ا: ضمرت. (٢) القسطل: الغبار. (٣) المسجور: المحمى.
(٤) هكذا فى ا، م، والصناعتين: ٤٨، وفى ط: المهدى محمد بن الواثق بن المعتصم.

وفيت كل صديق ودَّنى ثمناً   إلا المؤمل دولاتى وأيّامى
فإننى ضامنٌ ألاَّ أُكافِئَهُ   إلا بتسويغه فَضْلِى وإنعامى

وإنى لـكما قال القيسى : مازلتُ أَمْتَطِى النهارَ إليك ، وأستدلُّ بفضلك عليك ، حتى إذا جنَّنى الليلُ فغضَّ البصرَ ، ومحا الأثر ، أقام بدنى ، وسافر أملى ، والاجتهاد عُذْر ، فإذا بلغتك فَقَدْ[1] . قال سليمان : لا عليك ؛ فإنى عارفٌ بوسيلتك ، محتاج إلى كفايتك واصطناعك ، ولست أؤخر عن يومى هذا توليتك ما يَحْسُنُ عليك أثره ، ويطيب لك خَبَرُهُ إن شاء الله .

محمد بن عباد يستمنح وزير المعتز

وكتب محمد بن عباد إلى أبى الفضل جعفر بن محمود الإسكافى وزير المعتز بالله وكان المعتز يختصّ به ، ويتقرّب إليه قبل الوزارة : ما زلت ــ أيدك الله تعالى ــ أذم الدهر بذمِّك إياه ، وأَنتظر لنفسى ولك عُقْباه ، وأتمنى بزوال حال من لا ذَنْبَ له إلا عاقبة محمودة تـكون لك بزوال حاله ، وأترك الاعتذار فى الطلب على الاختلال الشديد ؛ ضنًّا بالمعروف عندى إلاَّ عن أهله ، وحَبْساً لشِعْرى إلا عن مستحقه .

فوقّع فى كتابه: لم أُؤَخر ذكرك ناسياً لحقِّك، ولا مُهْمِلًا لواجبك، ولا مرجياً[2] لُـهِمِّ أَمْرِكَ ، ولـكنى ترَقَّبت اتساعَ الحال ، وانفساحَ الآمال ؛ لأَخصَّك بأَسْناها خَطَرا ، وبأجلِّها قَدْرا ، وأَعْوَدها بنَفْعٍ عليك، وأوفرها رِزْقًا لك، وأقربها مسافةً منك؛ إذا كنتَ ممن يَحْفِزه[3] الإعجال ، ولا يتَّسِع له الإمهال ، فسأَختار لك خيرَ مايشير إليك الوقت . وأنعم النظر فيه ، وأجعله أول ما أمضيه إن شاء الله .

ولما ولى سليمان بن وهب الوزارة كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أَبى دهرُنا إسعافَنا فى نفوسنا   وأَسْعَفَنَا فيمن نحبُّ ونـكرمُ
فقلت له نُعْماك فيهم أَتِمَّها   ودَعْ أمرَنا إنَّ المهمَّ المقدم

فعجب من لطيف شكواه فى تهنئته ، وقضى حوائجه .

---

(١) فى الصناعتين : فقط .   (٢) فى ط : موهنا .   (٣) يدفعه .

[ووقّع عبيد الله فى كتاب رجل اعتدَّ عنده بأثر جميل : وقفت على ماذكرته من شكايتك، فوقع ذلك عندنا الموقع الذى أرَدْته، وصدر جوابنا إليك بما شكرتهُ، ولم تعد ظننا ، وما قدرنا فيك ، ثم اعتددت الاعتداد حتى كأنك لم تكاتبنا؛ فلاتفسدنّ تالد إحسانك بطارف امتنانك ، واقتصر من وصف سالفك على ذكر مستأنفك][1] .

[حسن تقسيم]

ووقّع عبيد الله فى أَمر رجل خرج عن الطاعة : أنا قادرٌ على إِخراج هـذه النعَرة[2] من رَأْسه ، والوحرة من نفسه .

ونحو هذا التقسيم قول قتيبة بن مسلم بخراسان : من كان فى يده شىء من مال عبد الله فلينبذه ، أو فى فمه فَلْيَلْفِظْه، أو فى صدره فلينفثه .

وقال عبد الله بن على ، بعد قَتْلِه مَنْ قتل من بنى أمية ، لإسماعيل بن عمرو : أساءك مافعلتُ بأصحابك؟ قال: كانوا يداً فقطعتها، [وعضدا ففتتها،ومرة فنقضتها][3]، ورُكْناً فهدَمته، [وجبلا فهضته][3]، وجناحاً فقصَصته ، قال: إنى لخليق بأن أُلحقك بهم ، قال : إنى إذاً لسعيد .

وقال المنصورُ لجرير بن عبد الله : إنى لأُعِدُّك لأمر كبير ! قال: ياأمير المؤمنين؛ قد أَعدَّ الله لك منى قلباً معقوداً بنصيحتك، ويدا مبسوطةً بطاعتك ، وسيفاً مسلولاً على أعدائك .

وكتب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل يعزّيه : مَدَّ الله فى عمرك موفوراً غير منتقَص ، وممنوحاً غير ممتحَن ، ومعطى غير مُسْتَلَب .

ومن جيد التقسيم مع المطابقة قولُ بعض الكتاب : إنَّ أهل النصح والرَّأْيِ لايساويهم أَهْلُ الأَفْنِ[4] والغِشّ ، وليس مَنْ جمع إلى الكفاية الأمانة كمن أَضافَ إلى العَجْزِ الخيانة .

---

(١) من م ، ا . (٢) النعرة : الخيلاء والكبر . (٣) من ا .
(٤) الأفن : ضعف الرأى والعقل .

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر لرجل دَعَتْ له وقد أَولاها يداً : شكَرتْكَ يدٌ نالتها خصاصة[١] بعد ثروة ، وأغناك الله عن يد نالتها ثروة بعد فاقة .

ومن بديع التقسيم فى هذا النوع قول البحترى[٢] :

كأنك السيف حدّاهُ ورَوْنَقهُ   والغيث وَابِلُه الدّانى وريّقهُ

هل المكارم إلا ما تُجمّعهُ   أو المواهب إلا ما تفرّقهْ

وقال الحسنُ بن سهل يوما للمأمون : الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ؛ وسنىٍّ ما أَعطاك ؛ إذ قسَم لك الخلافة ، ووهب لك معها الحجَّة ، ومكَّنك بالسلطان ، وحلاَّه لك بالعَدْل ، وأَيّدك بالظفَر ، وشفَعَه لك بالعفو ، وأَوجب لك السعادة ، وقرنها بالسياسة ، فمن فُسِحَ[٣] له فى مثل عطيّةِ الله لك ؟ أم مَنْ ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما أَلبسك ؟ أم من ترادفَتْ نِعَمُ الله تعالى عليه ترادُفَها عليك . أم من حاولها وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أى حاجة بقِيَتْ لرعيّتك لم يجدوها عندك ؟ أم أى قيِّم للإسلام انتهى إلى غايتك ودَرَجتك ؟ تعالَى الله ! ما أعظم ماخَصّ القرنَ الذى أنت ناصره ! وسبحان الله ! أية نعمة طبَّقت[٤] الأرض بك إن أدّىَ شكرها إلى بارئها ، والمنعمِ على العباد بها ؟ إن الله تعالى خلق الشمس فى فَلَكها ضياءً يستنيرُ بها جميعُ الخلائق ؛ فكلٌّ جوهر زَها حسنُه ونوره فهى ألبسته زينَتَه لما اتصل به من نورِها ؟ وكذلك كل وَلِىٍّ من أوليائك سَعِد بأفعاله فى دولتك ، وحَسُنَتْ صنائعه عندرعيّتك ، فإنما نالها بما أيَّدتَه من رأيك وتدبيرك ، وأَسْعَدْتَه من حسنك وتقويمك .

[قينة وأربعة من عشاقها]

قال بعضُ الظرفاء : اجتمع لقَيْنَةٍ أربعةٌ من عشّاقها ، وكلُّهم يُوَرِّى[٥] عن

---

(١) الخصاصة: الفقر.   (٢) ديوانه : ٢—١٣٥ .   (٣) فى ط : فتح ، وفى ا : فسح الله له .   (٤) عمت .   (٥) يخفى ، وفى ط : يدارى.

صاحبه أمرَه ، ويُخفِى عنه خبرَه ، ويُومِىء إليها بحاجبه ، ويناجيها بلَحْظِه ؛ وكان أحدُهم غائبا فقدم ، والآخر مقيما قد عَزَم على الشخوص ، والثالث قد سلَفَتْ أيامُه ، والرابع مستأنفة مودَّته ؛ فضحكَتْ إلى واحد ، وبكَتْ إلى آخر ، وأقصت آخر ، وأطمعَتْ آخر ؛ واقترح كلٌّ واحد منهم ما يشاكِلُ بثَّه وشأنه ؛ فأجابته ، فقال القادم : جُعلت فِدَاكِ ، أتحسنين :

ومن يَنْأَ عن دار الهوى يُكْثِرِ البُكَا وقولَ لَعلِّى أو عَسى سَيكونُ[1]

وما اخترتُ نَأْىَ الدار عنك لسلْوةٍ ولكن مَقاديرٌ لهنَّ شُؤونُ

فقالت : أُحْسِنُه ، ولاأُقِيمُ لَحْنه ، ولكن مطارحه لتستغنى به عنه ، لقُرْبه منه ، وأنا به أحْذق ، ثم غنّت :

وما زلت مُذ شَطّتْ بك الدارُ باكيا أُؤَمِّلُ منك العَطْفَ حين تؤُوب

فأضعفتَ مابى حين أُبْتَ وزِدْتَنِى عذابا وإعراضا وأنتَ قَرِيبُ

وقال الظاعن : جُعلت فِدَاكِ ، أتحسنين :

أَزِفَ الفِراقُ فأعلنى جَزَعاَ ودَعِى العتابَ فإننا سَفْرُ

إنّ المحبَّ يصدُّ مقتربا فإذا تباعد شَفَّه الذِّكْر

قالت ، نعم ، وأحسن منه ومن إيقاعه ، ثم غنت :

لأقيمنَّ مأتمـا عن قريب ليس بعد الفراق غَيْرُ النَّحيبِ

ربما أَوْجَع النّوى للقلوب[2] ثم لاسيّما فراقُ الحبيبِ

ثم قال السالف : جعلت فداك ، أتحسنين :

كنّا نُعاتبكم ليالىَ عُودُكم حُلْوُ المَذَاقِ وفيكمُ مستَعْتَبُ

فالآن حين بَدَا التنكُّر منكمُ ذهبَ العِتَابُ فليس عنكم مذهب[3]

---

(١) فى ا : ويكون . (٢) فى ط : أوجع النوى القلب حزنا ، وفى م : أوجع الهوى للقلوب . (٣) فى ط : فليس فيكم معتب .

قالت : لا ، ولـكن أحسن منه فى معناه ، ثم غنت :

وصلتك لمـا كان ودُّك خالصاً　　وأعرضتُ لما صار نَهْباً مقسّما
ولن يلبث الحوض الجديدُ بناؤه　　إذا كثر الورّادُ أن يتهدّما

فقال المستأنف : أتحسنين ، جعلت فداك :

إنى لأعظم أن أبوح بحاجتى　　وإذا قرأْتِ صحيفتى فتفهَّمى
وعليك عَهْدُ الله إنْ أبثثته　　أحداً ولا آذنته بتـكلُّم

فقالت : نعم، ومن غناء صاحبه ؛ ثم غنّت :

لعمرك ما استودعت سِرِّى وسرها　　سوانا حِذاراً أن تَذِيعَ السرائر
ولا خالطتها[1] مُقْلَتاىَ بنَظْرَةٍ　　فتعلم نَجْوَانَا العيونُ النواظرُ
ولـكن جعلت الوَهْمَ بينى وبينها　　رسولا فأدّى ما تُجِنّ الضمائر
أُكاتم مافى النفس خوفاً من[2] الهوى　　مخافةَ أن يُغْرى بذِكرك ذَاكِرُ

فتفرقوا وكلّهم قد أومأ بحاجته ، وأجابته بجوابه .

[من أدب ابن المعتز]

بينه وبين جارية

قال أبو العباس بن المعتز: كان لنا مجلس حظّ أرسلت بسببه خادمة إلى قينة فأجابت، فلما مرّت فى الطريق وجدت فيه حارسا فرجعت ، فأرسلتُ أُعاتبها فـكتبت إلى : لم أتخلّف عن المسير إلى سيّدى فى عشيتى أمس لأَرى[3] وَجْهَهُ المبارك وأُجيب دعاءه ، إلا لعلةّ قد عرَفَتْها فلانة، ثم خِفْتُ أن يسبقَ إلى قلبه الطاهر أَنّى قد تخلَّفْتُ بغير عذر؛ فأحبَبْتُ أن تقرأَ عذرى بخطّى ، ووالله ما أقدر على الحركة ، ولا شىء أسرّ إلى من رؤيتك ، والجلوس بين يدَيْك ، وأنت يا مولاى جاهى وسَنَدى ، لافقَدْت قربك ، ولك رأيك فى بسط العُذْر موفقاً .

وكتبت فى أسفل الـكتاب :

أليس من الحرمان حظّ سُلبتهُ　　وأحوجنى فيه البلاء إلى العُذْرِ

(١) فى ط : خاطبتها .　(٢) فى ا : على .　(٣) فى ا ، م : كان لنا مجلس وعدت فيه خزامى جاريتنا . وكتبت إلى: لم أتخلف عن المسير إلى سيدى فى عشية أمس...

فصبراً فما هذا بأوّل حادثٍ رَمَتْنِي به الأقدار مِنْ حيثُ لا أَدْرِي

فأجبتها : كيف أَردّ عُذْر من لا تتسلَّط التهمة عليه ، ولا تهتدِى المَوْجِدة إليه! وكيف أعلمه قبولَ المعاذِر ، ولستُ آمَن بعضَ خواطره أن تشير إلى انتهاز فرصة فيما دعا إلى الفرقة ؛ وإن سَلِمْتُ من ذلك فمن يُجيرني من توكّله على تقديم العُذْر ووقوعه مواقع التصديق فى كل وقت ، فتتَّصل أيامُ الشغل والعِلّة ، وتنقضى أيامُ الفراغ والصحة ، فتطولُ مدةُ الغيبة ، وتَدرُس آثار المودّة . وكتبتُ فى آخر الرقعة:

إذا غِبْت لم تعرف مكانىَ لذةٌ ولم يلق نفسى لَهْوها وسُرورها

وحدّثتُ سمعاً واهناً غـير مُمْسِك لقولى ، وعيناً لا يرانى ضَمِيرُها

كتاب له إلى بعض الوزراء

وكتب إلى بعض الوزراء : مازال الحاسدُ لنا عليك أيها الوزير يَنْصِبُ الحبائلَ ، ويطلب الغوائل ، حتى انتهز فرصته ، وأَبلغك تشنيعا زَخْرَفه ، وكذبا زَوَّره ، وكيف الاحتراس ممن يحضر وأغيب ، ويقول وأُمسك ، مرتصدا لا يَغْفل ، وماكِراً لا يَفْتر؛ وربما استنصح الغاش ، وصدق الـكاذب ؛ والحظوة لا تُدْرَكُ بالحيلة ، ولا يجرى أكثرها على حسب السَّبَب والوسيلة .

فأجابه : حصول الثقة بك ـ أعزّك الله ـ تُغْنِى عن حضورك ، وصدق حالتك يحتجُّ عنك ، وما تقرَّر عندنا من نيّتك وطويّتك يُغْنِى عن اعتذارِك .

من شعره

وقد قال ابن المعتز :

أَخْنَى عليك الدهر مقتدراً والدهرُ ألأم غالب ظَفرا

ما زلت تَلْقَى كلَّ حادثةٍ حتى حَناك وبيَّض الشعرَا

فالآن هل لك فى مُقَاربةٍ فلقد بلغت الشَّيْب والـكِبَرا

لله إخوان فقدتُهم[1] سكنوا بطونَ الأرض والحُفَرا

أين السبيلُ إلى لقائهمُ أم من يحدِّث عنهم خَبرا

---

(١) فى ا : بلغتهم .

كم مورق بالبِشْر مُبْتَسم لا أَجْتَنِي من غُصْنِه ثمَرَا
ما زال يُوليني[1] خلائقه وصبرت أَرْقُبه وما صَبرا
وعدو غيْب طَالَب لدمي لو يستطيعُ لجاوز القَدَرا
يُورِي زنادي كي يُخادِعَني ويُطير في أثوابيَ الشَّرَرا

وقال أيضا :

وإني على إشفاق عيني من القذى لتجمح مني نَظْرَةٌ ثم أُطْرِقُ
كما حُلِّئَتْ[2] من بَرْدِ ماءٍ طَرِيدةٌ تمدّ إليه جِيدها وَهْيَ تفرق[3]

وقال :

ومازالتُ مذشدَّت يدي عقدمِئْزَري غنايَ لغيري وافتقاري على نفسي
ودلَّ عليّ الحمدَ مَجْدِي وعِفَّتي كما دلّ إشراقُ الصباح على الشمس

وقال[4] :

سَعَى إلى الدَّن بالمِبْزَالِ يَنْقُرُهُ ساقٍ توشَّحَ بالمنديل حين وَثَبْ
لمَّا وَجاهَا بَدَتْ صفراءَ صافيةً كأنما قَدَّ سيراً من أديمٍ ذَهَبْ

وقال :

لبستْ صفرةً فكم فتنت من أعْينٍ قد رأيتها وعُقُول
مثل شَمْس الغروب تَسْحَبُ ذيلا صَبَغَتْه بِزَعْفَرانِ الأصيل

والشمس عند طلوعها ، وعند غروبها ، تمكّنُ الناظر إليها فيمكن التشبيه بها ؛ قال قيس بن الخطيم :

فرأيت مثلَ الشمس عند طلوعها في الحسن أو كدنوِّها لغروب

---

(١) في ا : مازلت محتملا . (٢) حلئت : منعت . (٣) رواية البيتين في ط :

وإني على إشفاق نفسي من العدا لتسنح مني نظرة ثم أطرف
كما حلئت ... ... وهي تعزف

وهذه رواية ا ، م . (٤) المختار من شعر بشار ٢٥٩ .

[جرير فى المدينة]

ولما قدم جرير بن الخَطَفَى المدينة اجتمع إليه أهلها، وقالوا : ياأبا حَزْرَة ! أنشدنا من شعرك ، قال : ما تصنعون به؟ وفيكم من يقول[1] :

إنى سربت وكنت غير سروب ... وتقرِّبُ الأحلامَ غير قريبِ
ما تمنعى يقظا فقد نوّلته ... فى النوم غير مُسرّد[2] محسوب
كان المنى يُلقِى بهـا فلقيتُها ... فَلهوْت عن لَهْوِ امرئٍ مكذوب
فرأيتُ مثل الشمسِ عند طلوعها ... فى الحُسْنِ أو كدُنوِّها لغروب
تخطو على برد تبين عدتهما ... غدق مخافةَ حائر يَعْبُوب[3]

[يعقوب بن داود]

يعقوب ويزيد بن خالد

وقّع يزيد بن خالد الكوفى رقعة إلى يعقوب بن داود ضمنها :

قل لابن داود والأنباء سائرةٌ ... لا يُحْرِزُ الأَجْرَ إلاّ مَنْ له عَملُ
ياذا الذى لَمْ تزل يُمْناه مُذْ خلِقَتْ ... فيها لباغى نَدَاه العَلُّ والنهَلُ
إن كنت مسدىَ معروفٍ إلى رجلٍ ... لفضل شكرٍ فإنى ذلك الرجلُ
فامْنُنْ علىّ ببرٍّ منك يَنْعَشُنى ... فإنى شاكرُ المعروف محتمل

قال يعقوب : قد جرّبنا شكرك فوجدناه قد سبق برّنا ، وقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم [تصلح حالك][4] ، وليست آخر ما عندنا لك ، فاستوفاها حتى مات .

ولما سخط المهدىّ على يعقوب أحضره ، فقال : يايعقوب ! قال : لبّيْك يا أمير المؤمنين تلبية مكروب لِمَوْجِدَتك ، شَرِق بغُصّتك ، قال : ألم أرفع قَدْرَك وأنتَ خامل ، وأسيّر ذكرك وأنت هامل[5] ، وألْبسْك من نِعَمِ الله تعالى ونِعَمِى مالم

(١) اللآلئ : ٥٢٤ ، ٩١٣ ، الأمالى : ٢—٢٧٣ (٢) المسرد : المقطع .
(٣) هكذا بالأصول ، فى ط : يخطو على برد يبين خطاها عذق مخافة طائر لغيوب
وهذه رواية ا ، م . (٤) من ا . (٥) هامل : متروك ، وفى ا ، م: غافل .

أَجِدْ عندك طاقةً لحمله، ولاقياماً بشكْرِه ؛ فكيف رأيت الله تعالى أظهر[1] عليك، وردَّ كَيْدَكَ إليك .

قال: ياأميرَ المؤمنين ؛ إن كنت قلت هذا بتيقّن وعلم فإنى معترف، وإن كان بسعاية الباغين ، ونَمائم المعاندين ، فأنت أعلمُ بأكثرها؛ وأنا عائذ بكرمك ، وعميم شرفك .

فقال: لولا الحنث[2] فى دَمك لألبستك قميصاً لا تَشد عليه زرًّا؛ ثم أمر به إلى الحبس، فتولّى وهو يقول : الوفاء يا أمير المؤمنين كَرَم ، والمودة رَحِم ، وما على العفو نَدَم ، وأَنت بالعفو جَدير ، وبالمحاسن خَلِيق . فأقام فى السجن إلى أن أَخرجه الرشيد .

* * *

من النقد

أخذ معنى قول المهدى : « لألبسنك قميصاً لا تشدّ عليه زرا » أبو تمام فقال :

طوّقته بالحسام طَوْق ردًى   أَغناه عن مَسّ طَوْقِه بيدِهْ

وقال ابن عمر فى معنى قول الطائى :

طوّقته بحسام طوق داهيةٍ   لا يستطيعُ عليه شَدَّ أزرارِ

* * *

رجع إلى يعقوب والمهدى

ولما قبض المهدى على يعقوب ورأى أبو الحسن[3] النميرى مَيْلَ الناس عليه وكان مختلطاً به قال :

يعقوب لا تبعد وجُنِّبتَ الردى   فلأَبكينَّ كما[4] بكى الغُصْن الندى

لو أَنّ خيرك كان شرًّا كلهُ   عند الذين عدَوْا عليك لما عَدَا

أخذ هذا المعنى بعض المحدثين [فى الغزل][5] فقال :

لو أن هجرك كان وَصْلا كلهُ   مما أقاسى منك كان قليلا

---

(١) أظهر : أعان .   (٢) فى ط : الحسب .   (٣) فى ا : أبو الحسين .
(٤) فى ط : فلأبكينك ما بكى .   (٥) من ا .

[أحمد بن دواد والواثق]

قال أبو العيناء : قال لى أحمد بن أبى دواد : دخلت على الواثق فقال لى : مازال اليوم قومٌ فى ثَلْبك و نَقْصك! فقال: ياأَميرَ المؤمنين ، لـكل امرئٍ منهم مااكتسب من الإثم ، والذى تولَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم ، واللهُ ولىُّ جزائه ؛ وعقابُ أَمير المؤمنين من ورائه ، وما ذَلَّ ـ يا أمير المؤمنين ـ مَنْ كنت نَاصِره ، وما ضاق مَنْ كنتَ جاراً له ، فما قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وسعى إلىّ بصرم[1] عَزَّة معشرٌ جعل الإلهُ خدودَهنَّ نِعَالَهَا[2]

ظرف بن أبى دواد

قال الفتح بن خاقان : ما رأيت أظرف من ابن أبى دواد ؛ كنت يوما أُلاعب المتوكل بالنَّرْد ، فاستُؤْذن له عليه ، فلماقَرُب منا هممت برفعها ، فمنعنى المتوكل وقال: أُجاهرُ اللهَ بشىء وأَسْتُره منعباده ؟ فقال له المتوكل : لما دخَلْتَ أراد الفتح أن يرفع النَّرد ! قال: خاف يا أمير المؤمنين أَن أعلم عليه ! فاستحليناه ، وقد كنا تجهَّمناه .

[من خطباء العرب]

شبيب ابن شيبة

قيل لبعض الأمراء : إن شبيب بن شيبة يتعمَّل الـكلام ويستدعيه، فلوأمرته أن يصعدَ المنبر فجأة لافتضح؛ فأَمر رسولا فأخذ بيده فصعد به المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : إنّ لأمير المؤمنين أشباها أربعة : الأسد الخادِر ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر ، فأما الأسد الخادر فأَشبه صولته ومَضَاءَه ، وأما البحرُ الزاخر فأَشبهَ جودَه وعطاءه ، وأما القمرُ الباهر فأَشبه نورَه وضياءه ، وأما الربيعُ الناضر فأَشبه حُسْنَه وبهاءه ، ثم نزل .

وهذا الـكلام يُنْسَبُ إلى ابن عباس يقوله فى على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وكان شبيب بن شيبة من أفصح الناس وأخطبهم ، ويشبَّه بخالد بن صفوان ؛ غير أَنَّ

---

(١) فى ط : بعيب . (٢) فى ا : نعالا .

خالدا كان أعلى منه قدراً فى الخاصة والعامة . وذكر خالد شبيباً فقال : ليس له صديقٌ فى السرِّ ولا عدوٌّ فى العلانية . وكانت بينهما معارضة للنسب والجوار والصناعة ولما قال الشاعر[١]:

فنحِّ شبيباً عن قراع كتيبةٍ ... وأدْنِ شبيباً من كلام مُلَفّقِ[٢]

وكان لا ينظر إليه أحد وهو يخطب إلا تبين فيه الخجل .

خالد بن صفوان

وقال أبو تمام لعلى بن الجهم[٣] :

لو كنت يوماً بالنجوم مُصَدِّقاً ... لزعمتُ أنّك نلتَ شكلَ عُطَارِدِ[٤]

أو قدَّمَتْكَ السِّنُّ خِلتُ[٥] بأنّه ... من لَفْظِك اشتقّت[٦] بلاغةُ خَالِدِ

وقالت له امرأة : إنكَ لَجميل يا أبا صفوان . قال : كيف تقولين هذا وما فىّ عمودُ الجمال ولا رِدَاؤه ، ولا بُرْنسه . عمودُه الطول ، ولست بطويل ، ورِداؤه البياض ، ولست بأبيض ، وبُرْنسه[٧] سواد الشعر ، وأنا أشمط ! ولكن قولى: إنك لمليح .

وكان خالد حافظا لأخبار الإسلام ، وأيام الفتن ، وأحاديث الخلفاء ، ونوادر الرواة ، وكل ما تصرف فيه أهل الأدب ، وله يقول مكى بن سوادة :

عليم بتنزيل الكتاب[٨] ملقَّنٌ ... ذَكُورٌ لما سدَّاه أولَ أولا

يَبُذّ قَرِيعَ[٩] القوم[١٠] فى كل مَحْفل ... ولو كان سحبانَ الخطيبُ ودَغفلا

ترى خطباء الناس يومَ ارتجاله ... كأنهم الكَرَوَان صادفَ أَجْدَلا[١١]

---

(١) فى ط : وكان شبيب كما قال الشاعر . (٢) فى ا : يلزق . (٣) ديوانه: ٨٦

(٤) فى الديوان : لزعمت أنك أنت بكر عطارد . (٥) فى الديوان : قلت بأنه .

(٦) فى الديوان : انشعبت . (٧) البرنس : كل ثوب رأسه منه .

(٨) فى ا : الكلام . (٩) يبذ : يغلب . قريع : غالب . (١٠) فى ا : القول .

(١١) فى ا : أبصرن ، وفى م : صادفن ، والأجدل : الصقر .

سحبان

أما سَحْبَان الذى ذكره فهو خطيبُ العربِ بأَسْرِها غير منازع ولا مدافع ، وكان إذا خطب لم يُعِدْ حرفاً ، ولم يتوقّف ، ولم يتحبَّس ، ولم يفكر فى استنباط ، وكان يسيل غَرْباً[١] ، كأنه آذِىُّ بَحْرٍ .

ويقال : إنّ معاوية قدم عليه وَفْد من خراسان وجَّههم سعيد بن عثمان ، وطلب سَحْبان فلم يوجد عامّة النهار ، ثم اقْتُضِب[٢] من ناحية كان فيها اقتضاباً ، فدخل عليه فقال : تَكلَّم ، فقال: انظروا لى عصاً تُقِيم من أَودى ، فقال له معاوية : ما تصنعُ بها ؟ فقال : ما كان يَصْنَعُ موسى عليه الصلاة والسلام وهو يخاطبُ ربَّه وعصاه بيده، فجاءوه بعصا فلم يَرْضَها . فقال : جيئونى بعصاى ، فأخذها ، ثم قام فتكلم منذ صلاة الظهر إلى [أن فاتت][٣] صلاةُ العصر ، ما تَنَحْنَحَ ، ولا سعل ، ولا توقّف ، ولا تحبّس ، ولا ابتدأ فى معنى فخرج منه إلى غيره حتى أَتمّه ولم يبق منه شىء ، ولا سأل عن أى جنس من الكلام يخطب فيه ، فما زالت تلك حالُه وكلّ عين فى السِّماطين[٤] شاخصةٌ إلى أن أشار له معاويةُ بيده أن اسكت ، فأشار سحبان بيده أن دَعْنى لا تَقْطَعْ علىَّ كلامى ، فقال له معاوية: [الصلاة . فقال : هى أمامك ونحن فى صلاة يتبعها تحميد وتمجيد، وعظة وتنبيه وتذكير ووعد ووعيد . فقال معاوية:][٥] أنت أَخطبُ العرب ، فقال سحبان : والعجم ، والجنّ والإنس .

عجلان

وكان ابنه عجلان حُلْوَ اللسان ، جيِّدَ الكلام ، مليح الإشارة ، يجمعُ مع خطابته شعراً جيداً ، ويضرب الأمثال إذا خطب، وينتزع[٦] النادرَ من الشعر ، والسائرَ من المثل ، فتَحْلُو خُطْبته ، وكان يَزِن كلامَه وَزْنا .

---

(١) فى ط : عرقا . (٢) انتزع . (٣) من ا ، م .

(٤) سماط القوم : صفهم . (٥) زيادة من م ، ا .

(٦) فى ط : ويجمع، وفى م : ويبتدع .

[دغفل النسابة]

وأما دَغفَل الذى ذكره مكى بن سَوادة فهو دَغْفَل بن حَنْظَلَة بن يزيد أحد بنى ذهل بن ثعلبة النسّابة ، وكان أعلمَ الناس بأنساب العرب ، والآباء ، والأمهات ، وأحفظهم لمثالبها ، وأشدّهم تنقيراً وبَحْثاً عن معايب العرب ، ومثالب النسب . قال له معاوية يوماً : والله لئن قلت فى هذا البيت[1] من قريش ما تجد فى آل حَرْبٍ مقالا ؛ فتبسّم دَغفل ؛ فقال له معاوية : والله لتخبرنّى بتبسمك ، وماانضمَّتْ عليه جوانحُك ، أو لأَضربنَّ عنقك ، وما آمَنُ[2] أن تكذبَ أو تزيد .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أنتم من بنى عبد مناف كسَنَام كَوْماء فتيَّة[3] ، ذاتِ مرعًى خصيب ، وماء عَذْب ، وأَكَمَةٍ بارزة ، فهل يوجد فى سَنام هذه مَدَبّ قُرَاد[4] من عاهة ؟ فقال له معاوية : أَوْلى لك ! لو قلتَ غير هذا ؛ أما على ذلك لو رأيت هنداً وأباها ، وزوجها ، وأخاها وعمّها ، وخالها ، لرأيت رجالا تَحَارُ أبصارُ مَنْ رآهم فيهم[5] ، فلا تجاوزهم إلى غيرهم ، جلالةً وبهاءً .

[وصف العصا لأعرابى]

وعلى ذكر العصا لقى الحجَّاج أعرابيا فقال : من أَين أقبلت ؟ قال : من البادية . قال : مابيدك ؟ قال : عصا أركزُها لصلاتى ، وأُعِدُّها لِعُدَاتى ، وأَسوقُ بها دابَّتى ، وأَقْوَى بها على سَفرى ، وأَعْتَمِدُ بها فى مشيتى ؛ ليَتَّسِع بها خَطْوِى ، وأَعْبُرُ بها[6] النهر فتؤمننى ؛ وأُلقى عليها كسائى فتسترُنى من الحرّ ، وتقينى من القُرّ ، وتُدْنِى مابعدمنى ، وهى مِحْمَل سُفْرتى ، وعَلَاقة إداوتى[7] ، ومِشجَب ثيابى[8] ، أعتمدُ[9]

---

(١) فى ط : النسب ... لما . (٢) فى ا : وما أذم أن تكذب ولا تبرئة .

(٣) الكوماء : الناقة العظيمة السنام . (٤) مدب قراد : موضع الدبيب .

(٥) فى م : من تأملهم . (٦) فى ط : أبث ، وفى م : وأثب .

(٧) الإداوة : إناء صغير من جلد يتخذ للماء . (٨) المشجب : ما توضع عليه الثياب .

(٨) فى ا : وأعتصى ، وفسرها : بأتوكأ .

بهـا عند الضِّراب ، وأَقْرَع بها الأبواب ، وأتقّى بها عَقُور الـكِلاَب ، تنوبُ عن الرُّمح فى الطّعان ، وعن الحِـرْز[1] عنـــد منازلة الأَقْرَان ، ورِثْتُها عن أَبى ، وأورثها بعدى ابنى ، وأَهُشّ[2] بها على غَنَمِى ، ولى فيها مآرِبُ أخرى ، كثيرة لا تُحْصَى .

[عِـــزَّة]

قال النضر بن شميل : كتب سليمان بن[3] على إلى الخليل بن أحمـد يستدعيه الخروج إليه ، وبعث إليه بمال كثير فردّه وكتب إليه[4] :

أبلغْ سليمانَ أَنى عنه فى سَعَةٍ — وفى غنًى غير أنى لَسْتُ ذا مَالِ

يسخُو بنفسىَ أنى لا[5] أَرى أحداً — يموت هُزلا ولا يَبْقَى على حَال

والفَقْرُ فى النفس لا فى المال نَعْرِفهُ — ومِثْلُ ذاك الغنى فى النفس لا المالِ

والمالُ يَغْشَى أناساً لاخَلاقَ[6] لهم — كالسَّيْلِ يَغْشَى أُصول الدّندِنِ[7] البالى

كلُّ امرئٍ بسبيلِ الموت مرتهِنٌ — فاعمَـلْ لنفسك ، إنى شاغلٌ بالى

أخذ هذا الطائى فقال[8] :

لا تُنْـكِرى عطلَ الـكريم من الغِنَى — فالسيلُ حربٌ للمكانِ العالِى

وقال أيضاً يصف قوماً خُصوا بابن أبى دوادٍ[9] :

نزلوا[10] مركز النَّدَى وذُرَاهُ — وعَدَتْنَا من دون[11] ذاك العَوادِى

غير أَنَّ الرُّبا إلى سُبُل الأَنـــواء أَدْنَى والحظُّ حظ[12] الوِهَادِ

---

(١) الحرز: الموضع الحصين، وفى ط : الحرب .(٢) هش الشجر : خبطه ليتساقط ورقه فترعاه الدواب. (٣) فى ا : بن خبيب . (٤) الأدباء: ١١ــ٧٦ . (٥) فى ط : شحا .
(٦) فى ا : لاطباخ . والطباخ كسحاب: القوة (٧) الدندن : ما اسود من نبات أو شجر.
(٨) ديوانه : ٢٤٦ . (٩) ديوانه : ٧٦ . (١٠) فى الديوان : لزموا .
(١١) فى الديوان : عن مثل ذاك . (١٢) فى ط : عند .

وهذا الشعر من أصلح شعر الخليل ، وكان شعره قليلا ضعيفاً ، بالإضافة إليه ، وهو أستاذ النحو والغريب . وقد اخترع علم العروض من غير مثال تقدمه ، وعنه أخذ سيبويه ، وسعيد بن مسعدة ، وأئمة البصريين ، وكان أوسع الناس فِطْنةً ، وألطفهم ذهنا . قال الطائى[1] :

فلو نُشر الخليل إذاً لعفَّت رَزاياه[2] على فِطَنِ الخليلِ

[من رسائل الصابى]

تعزية له

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى محمد بن عباس يعزيه عن طفل[3] :

الدنيا ، أطال الله بقاء الرئيس ، أقدارٌ تَرِدُ فى أوقاتها ، وقضايا تجْرِى إلى غاياتها ، ولا يُرَدُّ منها شىءٌ عن مَدَاه ، ولا يصدُّ عن مطلبه ومَنْحَاه ؛ فهى كالسهام التى تثبت فى الأغراض ، ولا ترجعُ بالاعتراض ؛ ومن عرف ذلك معرفةَ الرئيس لم يغضّ عن الزيادة ، ولم يَقْنَط من النقيصة ، وأَمِنَ أن يستخفّ أحدُ الطرفين حلمه ، ويستنزل أحدُ الأمرين حزْمَه ، ولم يَدَعْ أن يوطِّن نفسه على النازلة قبلَ نزولها ، ويأخذ الأُهْبَة للحادثة قبل حلولها ، وأن يجاور الخيرَ بالشكر ، ويساور المِحْنَة بالصبر ؛ فيتخيّر فائدةَ الأولى عاجلا ، ويستمرئ عائدةَ الأخرى آجلا .

وقد نفَذَ من قضاء الله تعالى فى المولى الجليل قَدْراً ، الحديث سنًّا ، ماأَرْمَضَ[4] ، وأَوْمَض ، وأَقْلَق وأقضّ ؛ ومسنى من التأَلُّم له ما يحقّ على مثلى ممن توافت أيادى الرئيس إليه ، ووجبت مشاركتُه فى الملمّ عليه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وعند الله نحتسبه غُصْناً ذَوى ، وشهاباً خَبَا ، وفرعا دَلّ على أَصله ، وخَطِّيا أَنبته وَشِيجُه[5] ؛

---

(١) ديوانه : ٥٠٣ . (٢) فى م : إذا لعفت بلادته . (٣) اليتيمة : ٢—٢٢٨ .
(٤) أرمض : أوجع . (٥) الوشيج : اشتباك القرابة .

وإياه أسألُ أن يجعلَه للرئيس فَرَطا صالحا، وذُخْراً عتيدا ، وأَن ينفعه يوم الدين حيث لاينفعُ إلا مثلُه بين البنين ، بجوده ومَجْدِه .

ولئن كان المصابُ عظيما، والحادثُ فيه جسيما ، لقد أحسن اللهُ إليه ، وإلى الرئيس فيه ؛ أَمّا إليه فإن الله نزّهه بالاخترام ، عن اقترافِ الآثام ، وصانه بالاحتضار عن ملابسة الأوزار ، فورد دنْياه رشيدا ، وصدَر عنها سعيداً ، نقى الصحيفة من سوادِ الذنوب ، برىّ الساحة من دَرَن العيوب ، لم تدنسه الجرائرُ ، ولم تعلَقْ به الصغائر والكبائر ، قد رفع اللهُ عنه دقيقَ الحساب ، وأَسْهَم له الثواب مع أهل الصواب، وأَلحقه بالصدّيقين الفاضلين فى المَعَاد ، وبَوَّأَه حيث أفضلهم من غير سَعْىٍ ولا اجتهاد .

وأما الرئيس فإن الله عزوجل لما اختار ذلك له قبضَه قبل رؤيته إياه على الحالة التى تكون معها الرقة، ومعاينته التى تتضاعفُ معها الحُرْقة ، وحَمَاه من فِتْنَة المرافقة ، ليرفعَه عن جزع المفارقة ، [وكان هو المبقّى](1) فى دنياه ، وهو الواحدُ الماضى الذخيرة لأخراه ، وقد قيل : إن تسلم الجِلَّةُ فالسّخل(2) هدر ؛ وعزيز علىّ أن أقول قولَ المهوّن للأمر من بعده ، وألاّ أوفى التوجّع عليه واجبَ فَقْدِه ، فهو له سلالة ، ومنه بَضعة(3) ، ولكن ذلك طريقُ التسلية ، وسبيلُ التعزية ، والمَنهَجُ المسلوك فى مخاطبة مثله ، ممن يقبل منفعة الذكرى وإن أَغناه الاستبصار ، وألا يأبى ورودَ الموعظة وإنْ كَفَاه الاعتبار ، والله تعالى يقى الرئيسَ المصائب، ويعيذُه من النوائب، ويرعاه بعينه التى لاتنامُ ، ويجعله فى حِمَاهُ الذى لايُرام ، ويُبْقيه موفورا غيرمنتقص، ويقدّمنا إلى السوء أمامه ، وإلى المحذور قدّامه ، ويبدأ بى من بينهم فى هذه الدعوة ، إذْ كنت أراها من أَسعد أَحوالى ، وأَعُدُّها من أبلغ أمانىّ وآمالى .

---

(1) ليس فى ا . (2) الجلة — بالكسر : المسان من الإبل ، والسخلة بفتح السين : ولد الشاة . وجمعه سخل . (3) البضعة : القطعة من اللحم .

وله إلى بعض الرؤساء

وكتب إلى بعض الرؤساء :

قدجرت العادةُ ـ أطال الله بقاءَ الأمير ـ بالتمهيد للحاجة قبل موردها ، وإسلاف الظنون الداعية إلى نجاحها ، وسالكُ هذه السبيل يسىء الظن بالمسئول ؛ فهو لا يلتمسُ فضلَه إلا جزاء ، ولا يستدعى طَوْله[1] إلاَّ قضاء ؛ والأميرُ بكرمه الغريب ، ومذهبه البديع ، يؤثر أن يكون السلفُ له ، والابتداء منه ، ويوجب للمهاجم برغبته عليه حقَّ الثقة به منه ، والحمدُ لله الذى أفرده بالطرائق الشريفة ، وتوحّده بالخلائق المُنيفة ، وجعله عينَ زمانه البصيرة ، ولمْعَته الثاقبة المنيرة .

[من رسائل البديع]

للبديع إلى بعض أصحابه

وكتب البديع فى بابه إلى بعض أصحابه[2] : لك أعزَّك الله عادةُ فضل ، فى كل فصل ، ولنا شِبْهُ مَقْت فى كل وقت ؛ ولعمرى إن ذا الحاجة مقيت الطَّلْعة ، ثقيل الوطأة ، ولكن ليسوا سواء [3] ؛ أولو حاجة تحتاج إليهم الأموال ، وأولو حاجة تحوجهم الآمال .

والأمير أبو تمام عبد السلام بن الفضل[4] المطيع لله أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ إن أحوجه الزمانُ فطالما خدمه ، وإن أهانه فكثيراً ما أكرمه ونعّمه . وقديماً أقلّه السرير ، وعرَفه الخَوَرْنَقُ والسدير . وإن نقصه المال فالعرض وافر ، وإن جفاه الملك فالفَضلُ ظاهر ، وإن ابتلاه الله فليَبْتَليكم به فينظر كيف تفعلون . وأنت تقابلُ مورده عليك من الإعظام بما يستحقّ من الإكرام ، فلا تنظرن إلى ثوبٍ بال فَتَحْتَهُ شرفٌ عال ، ولا تقس على البُرْدِ ما وراءه من المجد ، ولكن إن نظرت ففى شامخ أصلِه ، وراسخ عقله ، وشهادة الفراسة له . ثم ليأت بعد هذه الآيات ما هو قضيةُ المروءة معه ، والأخوة معى بالِغاً فى ذلك غاية جهده ، والسَّيْفُ لا يرى فى غمده ، والحمد لله حق حَمْده .

---

(١) الطول : النعمة والفضل ، وفى ا : ظنه . (٢) الرسائل : ١٦٠ .

(٣) من هنا إلى صفحة ٨٩٢ من م ، ا . (٤) فى الرسائل : بن جعفر .

وله إلى أبى إسحاق إبراهيم بن أحمد بن حمزة : لو كانت الدنيا ـ أطال الله بقاء الشيخ ـ على مرادى تجرى ، لاخترت أن أضرب بهذه الحضرة أطناب عمرى ، وأنفق على هذه الخدمة أيام دهرى ، ولكن فى أولاد الزنا كثرة، ولعين الزمان نظرة ، وقد كنتُ حظيت من خدمة الشيخ المحسن بشرعة أُنْس نغّصها بعضُ الوشاة علىّ ، وذكر أنى أقت بطوس بعد استئذانى إلى مَرْوَ ، وفى هذا ما يعلمه الشيخ ، فإن رأى أن يحسن جبرى بكتاب يطرز به مقدمى فعل إن شاء الله تعالى .

وله فى هذا الباب إلى أبى نصر الميكالى :

الشيخ ـ أعزه الله ـ ملك من قلبى مكانا فارغا ، فنزله غير منزل قُلْعَة ، ومن مودتى ثوبا سابغا، فلبسه غير لبسة خلعة ، ومن نصب تلك الشمائل شبكا ، وأرسل تلك الأخلاق شركا ، قنص الأحرار فاستخدمهم ، وصاد الإخوان واسترقهم .

وتالله ما يغبن إلا من اشترى عبداً وهو يجدُ حرًّا بأرخص من العبد ثمنا وأقلّ فى البيع غبنا ، ثم لا يهتبل غرّةَ وجوده ، وينتهز فرصة امتلاكه بجوده ، وأنا أنم للشيخ على مكرمة يتيمة ونعمة وسيمة ، فليعتزل من الرأى ما كان بهيما ، وليطلق من النشاط ما كان عقيما ، وليحلل حبوة التقصير ، وليتجنبْ جانب التأخير ، وليفتض عُذْرَتها وينقض حجّتها وعُمْرتها برأى يجذبُ المجد باعه ، ويعمر النشاط رباعَه ؛ وتلك حاجةُ سيدى أبى فلان . وقد ورد من الشيخ بحرا وعقد به جسراً ، وما عَسُر وَعْدٌ هو مستنجزُه ، ولا بَعُدَ أمرٌ هو منتهزه ، ولا ضاعت نعمة أنا بريد شكرها ، وعزيم نشرها ، وولىّ أمرها ؛ وهـذا الفاضل قرارة مائها؟ وعماد بنائها ؛ وقد شاهدت من ظرفه ما أعجز عن وصفه ، وعرفت من باطنه ما لم يُدْرَ بظاهره ، ورأيتُ من أوله ما نَمَّ على آخره ، ثم له البيت المرموق ، والنسب الموموق ، والأولية القديمة ، والشيمة الـكريمة ؛ وقد جَمَعَتْنَا فى الود حلْقة ، ونظَمَتْنَا فى السفر رفقة ، وعرفنى بما أنهض له وفيه ، فضمنت له عن الشيخ كرماً لايغلَق بابه، وغَدَقًا لا يخلف سحابُه ؛ فليخرجنى الشيخ من عهدة هذه الثقة ، زادها إليه تأكدا . وإن رأى أن

أسأل الشيخ فى معناه عرفنى كيف المأتى له ، وإنما أطلتُ ليعلم صِدْقَ اهتمامى ، وفَرْطَ تقليدى للمنّة والتزامى .

وله جواب عن صنيعة بصاحب هذه العناية : ورد فلان سيدى وهو عينُ بلدتنا وإنسانُها ، ومقلتها ولسانها ؛ فأظهر آيات فضله ، لا جرم أنه وصل إلى الصميم من الإيجاب الكريم ؛ وهو الآن مقيمٌ بين رَوْح ورَيْحان وجنة نعيم ، تحيّتُه فيها سلام، وآخر دعواه ذكرك وحسنُ الثناء عليك بما أنت أهله ، وأنا أصدقُ دعواه، وأفتخر به افتخار الخصىّ بمتاع مولاه ، وقد عرفته ولسَنه ، وكيف يجرى فى البلاغة رسنه، فما ظنك به ؟ وقد ملكتها المجالس ولحظتها العيون ، وسلّ صارماً من فيه يعيد شكرك ويبديه ، وينشر ذكرك ويطويه ؛ والجماعة تمدحُ لمدحه ، وتجرح بجرحه . فرأيك فى تحفظ أخلاقك التى أثمرت هذا الشكر ، وأنتجت هذه المآثر الغر موفقا إن شاء الله تعالى .

ومن إنشائه[١] فى مقامات الإسكندرى ، قال : حدثنا عيسى بن هشام ، قال : لما نَطّقَنى الغِنى بفاضل ذَيْلِهِ ، اتُّهمت بمال سلبتُه ، أو كنز أصبتُه ، نخفرنى الليلُ ، وسرَتْ بِى الخيلُ . وسلكْتُ فى هربى مسالِكَ لم يَرُضْها السيرُ ، ولا اهتدَتْ إليها الطيرُ ، حتى طويتُ أرضَ الرُّعْبِ وتجاوزْتُ حدّه ، وصِرتُ إلى حِمَى الأمنِ ووجدتُ بَرْدَه ، وبلغتُ أذربيجان وقد حفِيَت الرواحلُ ، وأكلَّتْها المراحل ، ولما بلغتها

نزلنا على أن المقام ثلاثةٌ فطابَتْ لنا حتى أقمنا بها شهرا

فبينا أنا يوماً فى بعض أسواقِها إذ طلع رجل برُكْوَةٍ[٢] قد اعتضدها ، وعصا قد اعتمدها ، ودنّية[٣] قد تقلّسها ، وفوطةٍ قد تطيْلسَها ؛ فرفع عقيرتهِ وقال : اللهم يا مبدئَ الأشياء ومعيدَها ، ومحيي العظام ومبيدَها ، وخالقَ المصباح ومديره ،

---

(١) المقامات : ٤٩ ، وهى المقامة الأذربيجانية .

(٢) الركوة : وعاء يجمع فيه ما يحصله . (٣) الدنية : القلنسوة .

وفالقَ الإصباح ومنيره ، وموصِلَ الآلاءِ سابغة إلينا ، ومُمْسِك السماء أن تقعَ علينا ، وبارئَ النَّسَم أزواجا ، وجاعلَ الشمس سراجا ، والسماءِ سَقْفا ، والأرض فراشا ، وجاعلَ الليـل سكَنا والنهار معاشا ، ومنشئَ السحاب ثِقالا ، ومرسل الصواعق نَـكالا ، وعالِمَ مافوق النجوم ، وما تحت التخوم . أسألُك الصلاة على سيد المرسلين محمد وآلِه الطاهرين ، وأن تعيننى على الغُربة أثنِى حَبْلَها ، وعلى المُسْرَةِ أعدو ظلَّها ، وأن تُسهِّـل لى على يدَىْ مَنْ فطرَتْهُ الفِطْرة ، وأطلعَتْه الطُّهْرَة ، وسعِد بالدِّين المتين، ولم يَعْمَ عن الحق المُبين ، راحلةً تَطْوى هـذا الطريق ، وزاداً يسعنى والرفيق .

قال عيسى بن هشام : فناجيتُ نفسى بأن هذا الرجلَ أفصحُ من إسكندرينّا أبى الفتح. والتفتُّ لفتةً ، فإذا هو أبو الفتح . فقلتُ : يا أبا الفَتْح ؛ بَلَغ هذه الأرض كيدُك ، وانتهى إلى هذا الشِّعْبِ صيدك ، فأنشأ يقول :

أنا جوَّالةُ البلا ... دِ وجَوَّابةُ الأُفُقْ
أنا خُذْروفةُ الزما ... نِ وعَمَّارةُ الطُّرُقْ
لا تَلُمْـنِى لك الرشا ... دُ على كُدْيَتى وذُقْ

وقال الطرماح بن حكيم :

وما أنس مِ الأشياء لا أنس بيعةً ... من الدهر إذ أهل الصفاء جميعُ
وإذ دهرنا فيـه اعتزاز وطَيْرُنَا ... سَوا كِنُ فى أوكارهنّ وقُوعُ
فهل لليالينــــا بنعف مليحة ... وأيامهن الصالحات رُجوعُ
كأن لم يرعك الظاعنون إلى بـلًى ... ومثـل فراق الظاعنين يرُوعُ][1]

[الشباب والمشيب]

لعلى بن محمد العلوى

وقال على بن محمد [بن الحسن][2] العلوى :

واهاً لأيام الشبا ... ب وما لَبِسْنَ من الزخارفْ

(١) من صفحة ٨٨٩ إلى هنا من ا، م .   (٢) ليس فى ا .

وذهابهن بما(1) عرفـ ـــنَ من المناكر والمعَارِف
أيام ذكرك فى دوا وين الصِّبا صَدْرَ الصحائف
واهاً لأيَّامى وأَ يّا م الشهيات المَرَاشِفْ
الغارسات البَان قُضْـ باناً على كُثُبِ الرَّوَادِفْ
والجاعلاتِ البَدْرَ ما بين الحواجبِ والسوالِف
أيام يُظهِرْنَ الخلا ف بغير نِيَّاتِ المخالفْ
وقف النعيم على الصِّبا وزلت من تِلْكَ المواقِف

لابن المعتز

وقال ابن المعتز :

دَعَتْنِى إلى عهد الصِّبا رَبَّةُ الخدرِ وألقت قناعَ الخزِّ عن وَاضح الثَّغْرْ
وقالت وماءُ العينِ يخلطُ كُحْلَها بصُفْرَة ماءِ الزعفران على النَّحْرِ
لمن تطابُ الدنيا إذا كنت قابضاً عنانك عن ذات الوِشاحين والشَّذْرِ
أراكَ جعلتَ الشيب للهجْرِ عِلّةً كأنَّ هلالَ الشهرِ ليس من الشهرِ

لأحمد بن أبى طاهر

وقال [أحمد بن أبى طاهر](2) :

يامن كَلِفت بحبِّهِ كلفِى بكاسات العُقار
وحياة ما فى وجنتيـ ـك من الشقائق والبَهار
وولوع رِدْفك بالترَجْـ رج تَحْتَ خَصْرِك فى الإزار
ما أن رأيت لحسن وجـ ـهك فى البريَّة من نِجار
لما رأيت الشيب من وجهى بما يحكى الخمار(3)
[قالت غبار قد علا ك فقلت ذا غير الغبار
هذا الذى نقل الملو ك إلى القبور من الديار](4)

---

(1) فى ا : وركابهن لما . (2) زيادة من م ، ا . (3) رواية البيت فى م :
ولقد رأيت خفية مسحت مشيبى بالخمار
(4) من م .

قالت ذهبت بحجَّتى ‏ ‏ عنى بحسن الإعتذار
يا هـذه أرايت ليـ ‏ ‏ لاً مذ خلقتِ بلا نَهارِ

لخالد الـكاتب

وقال خالد الـكاتب[١] :

نظرتْ إلىَّ بعين من لم يَعْدلِ ‏ ‏ لـما تمـكّن طرْفُها من مقْتَلِى
لـما رأتْ شيباً ألمّ بمفرَقى ‏ ‏ صَدّتْ صدودَ مفارقٍ متحَمِّلِ[٢]
وظللتُ أطلُب وصْلَها بتملُّق ‏ ‏ والشيبُ يغمزها بألاَّ تفْعَلِى

لابن الرومى

وقال ابن الرومى[٣] :

كفى حزَنا أن الشباب معجّلٌ ‏ ‏ قصيرُ الليالى والمشيبُ مخلّدُ
وعزّاك عن ليل الشباب مَعاشرٌ ‏ ‏ فقالوا نَهار الشيب أهْدَى وأرشدُ
فقلت : نهارُ المرءِ أهْدَى لسعيِه ‏ ‏ ولـكنّ ظلَّ الليلِ أنْدى وأبْرَد
مَحار الفتى شيخوخة أو منيّة ‏ ‏ ومرجوعُ وهَّاج المصابيحِ رِمْدِد[٤]

وقال :

كان الشبابُ وقلبى فيه منغمِسٌ ‏ ‏ فى لذةٍ لستُ أدرِى ما دواعيها
رَوْح على النفس منه كادَ يُبرِدُها ‏ ‏ برْدَ النسيم ولا ينفكُّ يُحْييها
كأن نفسىَ كانت منه سارحةً ‏ ‏ فى جنَّـةٍ بات ساقى المُزْنِ يسقيها
يمضى الشبابُ ويبقى من لُبَانته ‏ ‏ شَجْوٌ على النفس لا ينفكُّ يُشجيها
ما كان أَعظم عندى قَدْرَ نعمتهِ ‏ ‏ لنفسه لا لحلم كان يُصبيها[٥]
ما كان يُوزَن[٦] إعجاب النساء به ‏ ‏ والنفسُ أوجب إِعجابا بمـا فيها

---

(١) النويرى : ٢ـ٢٧ ، اللآلىء : ٣٣١. ‏ ‏ (٢) رواية البيت فى النويرى :

لما رأت وضح المشيب بعارضى ‏ ‏ صدت صدود مجانب متحمل

وفى ا : متجمل . ‏ ‏ (٣) ديوانه : ٣٩٢ . ‏ ‏ (٤) فى هامش م : المحار : المرجع .
وفى ا : مرمد . ‏ ‏ (٥) رواية البيت فى م :

ما أعظم عندى قدر نعمته ‏ ‏ لنفسه ولا لحلم كان يصبيها

(٦) فى ا : يؤذن .

وقال[١] :

إذا ما رأتك البيض صدَّت وربما … غدوتَ وطَرْفُ البيضِ نحوك أَصْوَرُ[٢]

وما ظَلَمَتْك الغانياتُ بصدِّها … وإن كان فى أحكامها مايجوَّر

أعِرْ طَرْفك المرآة وانظر فإن نَبا … بعينيك عنك الشيبُ فالبيضُ أعذر

إذا شَنِئت عينُ الفتى شَيْب[٣] نفسهِ … فمِنْ سِوَاه بالشناءة أجْدَر

لكشاجم

وقال كشاجم :

وَقَفَتْنِى ما بين حُزْنٍ وبُوس … وثَنَتْ بَعْدَ ضحْكَةٍ بعُبوسِ

إِذْ رأتنى مشَطْتُ عاجًا بعاج … وهى الآبنوس بالآبنوس

لأبى نواس

وقال[٤] أبو نواس :

بكرت تبصِّرنى الرَّشاد كأننى … لا أهتدى لمذاهب الأبرارِ

وتقول: وَيْحكَ قد كبرت عن الصِّبا … ورمَى الزمانُ إليك بالأَعْذَار

فإلى متى تَصْبُو وأنت متيَّمٌ … متقلّبٌ فى راحةِ الاقتار

فأَجَبْتُها إنى قد عرَفْتُ مذاهبى … فصرَفْتُ معرفتى إلى الإنكارِ

لأحمد الكاتب

وقال أحمد بن زياد الكاتب[٥] :

ولما رأيتُ الشيبَ حلّ بياضهُ … بمَفْرَق رأسى قلت : أهلا ومرحبا

ولو خِلت أنى إن تركت تحيتى … تنَكَّبَ عنى رُمْتُ أَنْ يتنكبا

ولكن إذا ماحلّ كرهٌ فسامحت … به النفسُ يوما كان للكُرْه أَذْهَبَا

كأن هذا البيت ينظر إلى قول الأول :

وجاشت إلىّ النفسُ أول مرةٍ … فردَّتْ إلى معروفها فاستقرَّتِ

(١) البيتان : الثالث والرابع فى ديوانه : ٤٤٠ . (٢) أصور : مائل .

(٣) فى الديوان : وجه نفسه . (٤) فى ط : وقال أيضا . (٥) المختار من شعر بشار : ٣٣٩ ، الحماسة : ٤٩٨ ، ديوان المعانى : ٢-١٥٧ .

للمتنبي

أبو الطيب[١] :

أنْكَرْتُ طارقَة الحوادثِ مرةً ... ثم اعترفْتُ بها فصارتْ دَيْدَنَا

لابن الرومى

ابن الرومى[٢] :

لاح شَيْبِى فصرتُ أمرَحُ فيهِ ... مَرَح الطِّرْف فى العِذَارِ المحلَّى

وتولَّى الشباب فازددت غَيّا ... فى ميادين بَاطِلِى إذ تولَّى

إنّ من ساءه الزمانُ بشيء ... لأحقّ الورى بأن يتسلّى

للمتنبي

[المتنبي :

أترانى أسوء نفسى لمّا ... ساءنى الدهر؟ لا، لعمرىَ، كلاّ][٣]

المتنبى[٤] :

تَصْفُو الحياةُ لجاهِلٍ أو غافلٍ ... عمّا مضَى فيها وما يُتوقّعُ

ولمنْ يُغالطُ فى الحقائق نفسَه ... ويَسومها طلبَ المُحال فَيطمعُ

للبحترى

[البحترى[٥]] :

ويكفيك من حَقٍّ تخيل باطل ... تردى به نفسُ اللَّهيف فترجعُ

وقلما تصحُّ مغالطات أهـــل العقول عند أهل التحصيل ، وما أحسن ما قال

لأبى تمام

الطائى[٦] :

لعِبَ الشيبُ بالمَفَارِقِ بل جـ ـدّ فَأَبْكَى تُماضِرًا ولعوبا[٧]

يا نسيبَ الثَّغام[٨] ذنبُك أبقى ... حسناتى عند الحسان[٩] ذُنُوبَا

---

(١) ديوانه : ٤ــ١٩٧ . (٢) ديوانه : ٢٦ . (٣) ليس فى ديوانه المطبوع بأيدينا وهو ليس فى م ، ولا ا . (٤) هكذا فى ا ، م ، وفى ط : البحترى ، وهما فى ديوان المتنبي: ٢ــ٢٦٩ . (٥) زيادة من ا ليست فى ط ، والبيت فى ديوان البحترى : ٨٧ .

(٦) ديوانه : ٢٥ . (٧) تماضر ولعوب: من أسماء النساء كما فى الديوان .

(٨) الثغام : نبت أبيض الثمر والزهر، يشبه به الشيب.

(٩) فى الديوان : عند الغوانى .

لو رأى الله أنَّ فى الشيب فَضْلا ... جاوَرَتْهُ الأبرار فى الُخلْدِ شِيباَ

وقد جاءَ فى التشاغل عن الدهر وأحداثه ، ونـكباته ، ومصائبه ، وفجماته ، والتسلى عن الهموم ، بماء الـكروم شعرٌ كثير ؛ فمما يتعلّق منه بذكر الشيب قول ابن الرومى :

لابن الرومى

سأُعْرِضُ عمّن أعرض الدهر دونهُ ... وأشربها صِرْفًا وإن لامَ لُوَّمُ

فإنى رأيت الـكأس أَكرَمَ خُلّةً ... وفَتْ لى ورأسى بالمشيب معمَّمُ

وصَلْت فلم تبخَلْ علىَّ بوصْلِها ... وقد بخِلَتْ بالوصل عنىَ تَـكْتُمُ (١)

ومَنْ صارمَ اللذات إنْ خان بعضها ... لِيُرْغِمَ دهرا ساءهُ فهو أرغم

أمِنْ بعد مثوى المرءِ فى بَطْن أمهِ ... إلى ضيق مَثْواه من القبر يسْلَمَ

ولم يَبْقَ بين الضيق والضيق فُرجة ... أَبى الله ! إنّ اللهَ بالعبد أَرحم !

للعطوى

وقال العَطوى :

أَعجَبْتُنَّ إنْ أناخ بىَ الدهـــــر فحا كمْته إلى الأقداحِ

لا تُرَدّ الهمُوم يُنْشِبْنَ أَظفا ... راً حِدَادا بشُرْبِ ماء قراح

أحمدالله،صارت الـكأس تأْسُو ... دون إخوانى الثقاتِ جراحى

وقال ابن الرومى [ونحله بشارا](٢) :

وقد كنت ذاحال أُطِيلُ ادِّكارها ... وإرعاءها قلبى لأهتز معجبا

فبُدِّلْتُ حالا غير هاتيك ، غايتى ... تناسىّ ذِكراها لتَغْرُبَ مَغْرِبا

وكنتُ أُديرالـكأس مِلْأى رَوِيّةً ... لِأجذلَ مسرورا بها ولأَطْربا

وكانت مزيداً فى سرورى ومُتْعَـتِى ... فأَضْحَتْ مَفَرًّا من همومى ومَهْرباَ

وهذا كما قال فى قَيْنَة وإن لم يكن من هذا الباب(٣) :

شاهدت فى بعضِ ماشاهدت مُسْمِعَةً ... كأنّما يَوْمُها يومان فى يومِ

(١) فى ا : وقد جعلت بالوصل تـكنى وتـكتم .

(٢) من م ، ا .

(٣) ديوانه : ٤٢٧ .

ظللتُ أشربُ بالأرطال لاَ طَرباً ... بذاك بل طلبا للسُّكْرِ والنومِ

ومن مليح شعره فى الشيب(١) :

ومِنْ نكد الدنيا إذا ما تنكرتْ(٢) ... أمور ـ وإن عدّت صِغاراً ـ عظائم

إذا رمت بالمنقاش نَتْفَ أشاهبى ... أُتِيح له من بينهن(٣) الأَداهِمُ

يروِّعُ منقاشى(٤) نجوم مسائحى ... وهنَّ لعَيْنى طالعاتٌ نَواجِمُ

لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

أخى قُمْ فعاوِنّى على نَتْفِ شَيْبَةٍ ... فإنىَ منها فى عذاب وفى حَرْبِ

إذا مامضى المنقاش يأتى بها أَتتْ ... وقد أخذت من دونها جارة الجَنْب

كجانٍ على السلطان يُجْزَى بذَنْبِهِ ... تَعلَّق بالجيرانِ من شدَّةِ الرعبِ

وقدوشَّحت هذا الكتاب بقطع مختارة فىالشيب والشباب وجئتُ ههنا بجُمْلة، وهذا النوع أعظم من أَن نحيط به اختيارا ، أو نبلغه اختبارا .

شذور لأهل العصر فى وصف الشيب ومدحه وذمه

ذَوَى غُصْنُ شبابه . بدَت فى رأسه طلائِع المشيب . [أخذ الشيب بِعَنان شبابه](٥). غزاه الشَّيْب بجيوشه . طَرَّز الشيبُ شبابَه ، أَقْمر ليلُ شبابه . أَلجمه بلجامه ، وقاده بزِمامه ، علاه غبارُ وقائع الدهرِ . وزنُ هذا لابن المعتز * هذا غبارُ وقائع الدهر * بينا هو راقـد فى ليل الشباب أَيقظه صبحُ المشيب . طوى مراحلَ الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب . جاوز من الشباب مراحل ، ووردَ من الشَّيْبِ مناهل . فَلَّ الدهرُ شباَشبابه، ومَحا محاسنَ رُوَائه . قضى باكورة الشباب ، وأنْفَق نَضارَةَ الزمان . أَخْلَق بُرْدةَ الصِّبا ، ونهاه النهى عن الهوى . طار غرابُ شبابه .

---

(١) ديوانه : ٢٠١ . (٢) فى ا : تكدرت . (٣) فى الديوان: من دونهن

(٤) فى الديوان ، م : يراوغ منقاشى . (٥) منم ، ا .

انتهى شبابه ، وشاب أترابه . استبدل بالأدهم الأبلق ، وبالغراب العقعق[١] . انتهى إلى أشُدّ الكهل[٢] ، واستعاض من حَلَك الغراب بقادمة النسر . افترّ عن ناب القارح ، وقرع ناجذ الحلم ، وارتاضَ بلجام الدّهرِ ، وأدرك عصر الحُنْكَة وأوان المسكة[٣] . جمع قوّة الشباب إلى وَقارِ المشيب . أسفر صبح المشيب ، وعَلَتْه أُبهة الكِبَرِ . خرج عن حدّ الحداثة ، وارتفع عن غِرّة الغرارة . نفض حبرة الصبا ، وولّى داعية الحجا . لما قام له الشيب مقامَ النصيح ، عدل عن علائق الحداثة بتوْبة نَصُوح . الشيب حِلية العقل وشيمة الوقار . الشيب زبدة مخضتها الأيام ، وفضة سبكتها التجارب . سرى في طريق الرُّشد بمصباح الشَّيب . عصى شياطين الشباب ، وأطاع ملائكة الشَّيْب . الشيخ يقول عن عِيان ، والشاب عن سماع . في الشيب استحكام الوقار وتناهي الجلال ، وميْسم التجربة ، وشاهد الحُنْكة . الشيب مُقدّمة الموت والهرم ، والمؤذن بالخَرَف ، والقائد للموت . الشيبُ رسول المنية . الشيب عُنْوان الفسادِ . والموتُ ساحل ، والشيبُ سفينة تقرب من الساحل . صفافلان على طول العمر ، صفاء التِّبْر على شغب[٤] الجمر . لقد تناهت به الأيامُ تهذيبا وتحليما ، وتناهت به السّنُّ تجريباً وتحنيكا . قد وعظه الشَّيْبُ بوَخْطِه . وخبطه[٥] السن بابنه وسِبْطِه ، قد تضاعفت عقودُ عمره ، وأخذت الأيام من جسمه . وجد مسّ الكبر ، ولحقه ضَعْفُ الشيخوخة ، وأساء إليه أثر السنّ ، واعتراض الوَهن . هو من ذوي الأسنان العالية ، والصحبَة للأيام الخالية . هو همٌّ هَرِم ، قد أخذ الزمانُ من عَقْله كما أخذ من عمره . ثَلَمه الدهر ثَلْمَ الإناء ، وتركه كذي الغارب المنكوب ، والسَّنام المجبوب . رماه من قوسه الكِبَرَ . أُريق ماء شبابه ، واستشنّ أديمه . كسر الزمانُ جناحَه ، ونقض مِرّته . طوى الدهر منه ما نشر ، وقيّده الكبر ، يرسف رسفَان المقيّد ، هو شيخ مجتثّ الجثّة ، واهِي المُنّة ، مفلول القوة

(١) العقعق : طائر أبلق بسواد وبياض يشبه صوته العين والقاف . (٢) في م : الكمال .
(٣) المسكة : ما يمسك الأبدان ، والعقل الوافر . (٤) في ط : مقت ، وفي م : مقب .
(٥) في م ، ا : وخطبه .

ومفلول الفتوة[1] ، ثقُلَتْ عليه الحركة ، واختلفت إليه رُسل المنيّة. ما هو إلا شمسُ العصر على القصر . أَركانه قد وهَتْ ، ومُدَّتُه قد تناهَتْ . هل بعد الغاية منزلة ، أو بَعْدَ الشيب سوى الموت مرحلة؟ ماالذى يُرْجَى ممن كان مثله فى تعاجز الخُطا، وتخاذُل القُوَى ، وتدَانى المدى ، والتوجّه إلى الدار الأُخرى، أَبعد دِقّة العظم ، ورِقَّة الجلد، وضَعْف الحسّ، وتخاذل الأعضاء ، وتفاوت الاعتدال ، والقُرْب من الزوال . والذى بقى منه ذَماء يَرقُبه المَنُون بمَرْصَد، وحُشاشة هى هَامَةَ اليوم أوغد . قد خَلق عمره ، وانْطوَى عيشُه ، وبلغ ساحلَ الحياة ، ووقف على ثَنِيَّـةِ الوداع ، وأَشرف على دار المقام ، فلم يبق إلا أنفاسٌ معدودة ، وحركات محصورة . نَضب غديرُ شَبابه .

فقر لغير واحد فى ذكر المشيب

قيس بن عاصم : الشيبُ خطام المنية . أكثم بن صيفى : المَشِيب عنوان الموت . الحجاج بن يوسف : الشيبُ نذير الآخرة. غيره: الشيبُ نومُ الموت . العتبى: الشيبُ مجمع الأمراض . العتابى : الشيبُ نذير المنيّة . محمود الوراق : الشيبُ أحد الميتتين . ابن المعتز : الشيبُ أَول مَواعد الفَناء . وقال : عظِّم الكبير فإنه عرَف اللهَ قبلَك ، وارْحَم الصغير فإنه أغرُّ بالدنيا منك. غيره : الشيب قِنَاعُ الموتِ. الشيب غَمامٌ قَطْرُه الغموم . الشيبُ قذَى عينِ الشباب . نظر سليمان بن وهب فى المرآة فرأى الشيب ، فقال : عَيْبٌ لاعدمناه ! وقيل لأبى العيناء : كيف أصبحت ؟ فقال : فى داء يتمناه الناس !

ابن المعتز :

أنكرَتْ شرّ مشيبى ووَلَّتْ	بدموع فى الرداء سجُوم
اعذرى ياشرّ شيبى بهمّ	إنّ شيبَ الرأسِ نورُ الهموم

مسلم بن الوليد[2] :

---

(١) فى ا و هامش م : معلول (٢) المختار من شعر بشار : ٣٣٧ ، اللآلئ : ٣٣٤ ، النويرى : ٢–٢٢ .

الشَّيْبُ كرهٌ وكُرهٌ أن أفارقهُ   أعْجِبْ لشىء على البغضاء مودودِ
يَمْضِى الشبابُ فيأتى بعده[1] بدلٌ   والشيبُ يذهبُ مفقوداً بمفقود

وقال آخر :

لو أَنَّ عُمْرَ الفتى حِسَابٌ   كان له شَـــيْبُه فَذَلِكْ[2]

وقال بعضهم[3] :

ولى صاحبٌ ما كنتُ أَهوى اقترابَهُ   فلمَّا التقينا كان أَكْرَمَ صاحبِ
عزيزٌ علينــا أنْ يفارقَ بعد ما   تمنَّيتُ دهراً أن يكونَ مُجَانبى

يعنى الشيب ، يقول : لم أكن أَشتهى اقترابه ، فلمّا حل كان أَكرم صاحب ، عزيز علىَّ مجانبته ؛ لأنه لا يجانَبُ إلا بالموت .

أبو إسحق الصابى :

والعمرُ مثـلُ الـكاس يرسب فى أَوَاخرها القَذَى

أبو الفضل الميكالى[4] :

أَمْتِـعْ شبابَكَ من لَهْوٍ ومن طرَبٍ   ولا تُصِـخْ للملامِ سَمْعَ مُكْتَرِثِ
نخيرُ عُمْرٍ[5] الفتى ريعانُ جِدَّتِهِ   والعمرُ من فضة والشيبُ من[6] خَبَثِ

في ذكر الخضاب

وفى ذكر الخضاب — الخضاب أحدُ الشبابين — عبدان الأصبهانى[7] :

فى مشيبى شَمَاتَةٌ لِعُـدَاتى   وهو ناعٍ منغِّصٌ لى[8] حياتى
ويعيب الخِضَابَ قَوْمٌ وفيهِ   لىَ أنسٌ إلى حضور وَفاتى
لا ومن يعلم السرائرَ أنى   ما تطلّبت خُلَّةَ الغانيات[9]
إنما رُمْتُ أن يغيب عنى   ما تُرِينِيه كلَّ يوم مِرَاتى

---

(١) فى المختار : وقد يأتى له خلف .   (٢) فى ط : عذابا .
(٣) المختار من شعر بشار : ٣٣٧ .   (٤) اليتيمة : ٤ـ٣٥٠ .
(٥) فى اليتيمة : فخير عيش .   (٦) فى اليتيمة : كالخبث .
(٧) النويرى : ٢ـ٢٩ ، وفى ط : الأصفهانى .   (٨) فى النويرى : لحياتى .
(٩) فى النويرى : ما به رمت خلة الغانيات ، وفى ط : حلية .

وهو ناعٍ إليَّ نفسى ومَنْ ذا سرَّهُ أن يرى وجوهَ النُّعاة

ابن المعتز[١] :

رأت شيبة قد كنتُ أغفلت قصَّها ولم تتعهَّدْها[٢] أكُفُّ الخَواضبِ

فقالت أشَيْبٌ ما أرى ؟ قلت : شامةٌ فقالت لقد شانَتْكَ عند الحبائب

الأمير أبو الفضل الميكالى[٣] :

قد أبَى لى خِضَابَ شَيْبِى فؤاد فيه وجد[٤] بكَتْمِ سِرِّى وَلوع

خافَ أن يحدث[٥] الخضابُ نُصُولاً ونصولُ الخِضاب شىءٌ[٦] بَدِيع

وقالوا : الخضاب من شهود الزور ، والخضاب حدادُ المشيب ، [إن خضب الشعرُ][٧] فكيف يخضب الكِبَرَ . الخضاب كَفَنُ الشيب .

ابن الرومى :

ليس تُغنِى شهادةُ الشَّعَرِ الأسـ ـود شيئاً إذا استشنَّ الأديمُ

أفيرجو مسوِّدٌ أن يزكى شاهد الخضب ؟ أين[٨] ضلَّ الحليمُ !

لا لعمرى ما لِلْخضاب لدَى الأبْـ ـصار إلا التكذيبُ والتأثيم

يدَّعى للكبير شَرْخَ شبابٍ قد تولّى به الشبابُ القديمُ

والسوادُ الدَّعِىُّ أوْجَب تكذيباً إذا كذَّب السواد الصميمُ

وله أيضا فى هذا المعنى :

كما لو أردنا أنْ نحيل شبابنا مَشيبا ولم يَأْتِ المشيبُ تعذَّرا

كذلك يُعْنِينا إحالةُ شيبنا شباباً إذا ثوبُ الشباب تحسَّرا

أَبَى الله تدبير ابن آدم نفسه وأنَّى يكون العبد إلاَّ مُدَبَّرا

---

(١) ديوانه : ١٣٦ . (٢) رواية الديوان :

رأت طالعا للشيب أغفلت أمره ولم تتعهده ... ...

(٣) اليتيمة : ٤ — ٣٥٠ . (٤) فى ط : مراد حدثتنى . (٥) فى اليتيمة : يعقب .

(٦) فى اليتيمة : سير بديع . (٧) زيادة من م ، ا . (٨) فى ا : إن ضل .

وقال [1] :

قل للمسوِّد حين شيَّب : هكذا ... غِشُّ الغَوَانِى فى الهوَى إيّاكا

كذب الغوانِى فى سوادِ عذارِه ... فكذبنه فى ودهنّ كذاكا

هيهات غرَّك أن يُقال غرائرٌ ... أىّ الدواهى غيرهنّ دهاكا

لا تحسبن خدعتهنّ بحيلةٍ ... بل أنتَ ويحك خادَعَتْك مُناكا

وقال أبو الطيب المتنبى [2] :

ومِنْ هَوَى كلّ منْ ليستْ مُموهة ... تركْتُ لونَ مَشِيبِى غيرَ مخضوبِ

ومن هوى الصدقِ فى قولِى وعادتهِ ... رغِبتُ عن شعَرٍ فى الوجهِ مكذوب

ليتَ الحوادثَ باعَتْنِى الذى أخذَتْ ... مِنى بحِلْمِى الذى أعطتْ وتجريبى

فما الحداثةُ مِنْ حِلْمٍ بمانعةٍ ... قد يوجد الحلْم فى الشبانِ والشيبِ

غيره :

يا خاضبَ الشيب بالحنَّاءِ يَسْتُرُهُ ... سَلِ الإله [3] له سِتْراً من النارِ

وقد سلك أبو القاسم مسلكا طريفاً فى قوله :

أَفْدِى المغاضِبَة التى أَتبعْتُها ... نَفْسا يشيّع عيسها إذْ آبا [4]

والله لولا أنْ يسفهنى الصِّبا [5] ... ويقولَ بعضُ القائلين تصابَى

لكسرت دُمْلجها لضِيق عِناقهِ ... ولثَمْتُ من فِيهاَ البرود رُضَابا

بِنْتُم فلولا أن أُغيِّر لمتى ... عتباً [6] وألقاكم علىَّ غضابا

لخضبت شَيْباً فى عِذارى كامنا ... ومحوتُ مَحْوَ النِّقْس منه شَبابا [7]

وخلعته خَلْعَ النجاد مذمما ... واعتضت من جِلْبابه جِلْبابا

(١) ديوانه : ١٣٢ ، النويرى : ٢ـ٣١ (٢) ديوانه : ١ـ١٦٩ ، النويرى : ٢ـ٣١ .
(٣) فى ا : المليك . (٤) فى ا : ما آبا . (٥) فى ا : الهوى .
(٦) فى ا : عبثا . (٧) رواية هذا البيت فى م ، ا :

لخطت شيبا فى عذارى كاذبا ... ومحوت محو النقس عنه شبابا

ولبست مبيض الحِدَاد عليكمُ لو أنني أَجدُ البياض خِضَابا
وإذا أردتَ إلى المشيب وفادةً فاجعل إليه مطيَّك الأَحْقَابا
فلتأخذنَّ من الزمان حمامة ولتدفعنَّ إلى الزمانِ غُرَابا
ماذا أقول لريب دَهْرٍ خائن جَمَع العِدَاةَ وفرَّق الأَحْبَابا

[الوليد غلبت عليه لذاته]

وقيل للوليد بن يزيد بن عبد الملك لَمَّا غلبت عليه لذَّاته ، وملكته شهواته : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن الرعية ضاعت بتضييعك أمْرَها ، وتركك مايجب عليك من مصلحتها . فقال : ماالذى أغفلناه من واجب حقّها ! وأسقطناه من مفروض ذمامها؟ أَمَا كَرَمُنا دائم ، ومعروفُنا شامل ، وسلطانُنا قائم ؛ وإنما لنا ما نحن فيه ، بُسط لنا فى النعمة ، ومُكِّن لنا فى المكرمة ، وأذلت لنا الأمة ، ومُدَّ لنا فى الحُرمة ، فإن تركتُ ما به وسع ، وامتنعت عما به أنعم ، كنت أنا المزيل لنعمتى بمالا ينال الرعيةَ ضرّه ، ولا يؤودُهم ثِقْله . ياحاجب ، لا تأْذَنْ لأحد فى الكلام .

قتل الوليد

وقال عمرو بن عتبة للوليد بن يزيد وكان خاصا به : يا أمير المؤمنين ؛ أنطقتنى بالأُنْس وأنا أَسكت بالهَيْبة، وأراك تأمرنا بأَشياء أنا أَخافُها عليك ، أفأَسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً ؟ قال : كلٌّ مقبولٌ منك ، معلوم فيه ثقتك ؛ ولله فينا عِلْمُ غيب نحن صائرون إليه ! وتعود فتقول . فقتل الوليد بعد ذلك بشهر .

[مع الحجاج]

عبد الملك والحجاج

وقال عبدالملك بن مَرْوان للحجاج : إنى استعملتك على العراق[1] ، فاخْرُج إليها كَمِيش الإزار[2] ، شديد الغِرَار ، قَلِيل العثار، مُنْطَوِى الخصيلة ، قَلِيلَ الثميلة[3] ، غرار النوم ، طويل اليوم ، واضغط الكوفة ضَغْطة تَحْبِق منها البصرة .

(١) فى ا : على الخراج . (٢) رجل كميش الإزار : مشمره .
(٣) الخصيلة : لحم الفخذين والعضدين والذراعين ، الثميلة : البقية من الطعام والشراب فى البطن

الحجاج وجامع المحاربى

وشكا الحجاجُ يوما سوءَ طاعةِ أهل العراق[١] ، وسقم مذهبهم ، وسخط طريقتهم، فقال له جامع المحاربى : أما إنهم لو أحبّوك لأطاعوك، على أنهم ماشنِئُوك[٢] لبلدك ، ولا لذاتِ يدِك ، إلا لِمَا نَقَمُوه من أفعالك ؛ فدَعْ ما يُبْعِدهم عنك إلى ما يدنيهم منك ، والتمس العافيةَ ممن دونك تُعْطَها ممن فوقك ، وليكن إيقاعُك بعد وعيدك ، ووعيدُك بعد وَعْدك ثلاثاً .

فقال له الحجاجُ : والله ماأَرى أن أردّ بنى اللَّخناء[٣] إلى طاعتى إلا بالسيف . فقال جامع : أيها الأمير ؛ إنّ السيف إذا لاقى السيف ذهب الخِيار . قال الحجاج : الخيارُ يومئذ لله . قال جامع : أجل، ولـكن لاندرى لمن يجعله الله . فغضب الحجاج وقال : يا هناه؛ إنك من محارب ، فقال جامع :

وللحرب سمِّينا وكنا محارباً إذا ما القَنَا أَمْسَى من الطعن أحمرا

فقال له الحجاج : والله لقد هممتُ أن أَخْلع لسانك ، فأضربَ به وجهك . فقال جامع : إن صدقناك أغضبناك ، وإن كذَبناك أَغضبْنَا الله . فقال الحجاج : أجل ، وسكن سلطانه[٤]، وشغل ببعض الأمر ، وخرج جامع وانسلّ من صفوف الناس[٥] ، وانحاز إلى جبل العراق .

وكان جامع لسِنا مُفوَّها ، وهو الذى يقولُ للحجاج حين بنى واسطا : بَنَيْتَها فى غير بَلدك ، وأورثتها غَيْرَ ولدك . وكان الحجاجُ من الفصحاء البلغاء ، ويقال : ما رُئى حضَرِى أَفْصح من الحجاج ومن الحسن البصرى . وكان يحبُّ أهل الجهارة والبلاغة ، ويؤثرهم ويقربهم .

الحجاج وابن القرية

ولما دخل أيوب[٦] بن القِرِّية على الحجاج، وكان فيمن أُسر من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس الـكندى قال له : ما أعددتَ لهذا الموقف ؟ قال: ثلاثة

---

(١) عيون الأخبار : ٢ــ٢١٢ . (٢) فى ا : ما سئموك . (٣) فى ا : اللـكعاء .

(٤) فى ا : ما به . (٥) فى ا : الشام .

(٦) وفيات الأعيان ١ــ٨٣ ، البيان والتبيين ١ــ١٨٩ ، الطبرى : ٨ــ٣٧ .

حروف[1]، كأنها ركب وُقوف: دُنْيا، وآخرة، ومعروف.

فقال له الحجاج: بئسما مَنَّيْتَ به نفسك يا بْنَ القِرِّية، أتراني ممن تخدعُه بكلامك وخُطبك؟ والله لأَنت أقربُ إلى الآخرة من موضع نَعْلي هذه. قال: أَقِلْني عَثْرتي، وأَسِغْني رِيقي، فإنه لابدّ للجواد من كَبْوة، والسيف من نَبْوَة، والحليم من صَبْوَة.

قال: أنت إلى القبر أقربُ منك إلى العفو، ألستَ القائل وأنت تحرّض حِزْبَ الشيطان، وعدوّ الرحمن: تغدّوا بالحجاج قبل أن يتعشّى بكم! وقد رُويت هذه اللفظة للغضبان بن القبعثرى. ثم قدمه فضرب عنقه.

قال الخُرَيْمي لأبي دلف وأخذه من قول ابن القِرِّية:

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ ... إزاءَ القلوب كرَكْبٍ وقوفْ

الحجاج وكثير

وبعث الحجاجُ إلى عامله بالبصرة: اخْتَرْ لي عشرة من عندك. فاختار رجالا فيهم كثير بن أَبي كثير، وكان عربيًّا فصيحا، فقال كثير: ما أراني أُفْلِت من يد الحجاج إلا باللَّحْن، فلما دخلنا عليه دعاني فقال: ما اسمُك؟ فقلت: كثير. قال: ابن مَنْ! فقلت في نفسي: إن قلت ابن أبي كثير لم آمن أن يتجاوَزَها، قلت: ابن أبا كثير: فقال: اعزب لعنك الله ولعن مَنْ بعث معك!!

[من المديح]

للنابغة الذبياني

وقال النابغة الذبياني يمدحُ آل جَفْنَة[2]:

ولله عيناً من رأى أَهْلَ قُبةٍ	أَضرَّ بمن عادى وأَكثر نافعا
وأَعْظَم أحلاماً وأَكثر سيّدا	وأفضل مشفوعاً إليه وشافِعا
متى تَلْقَهُم لا تَلْقَ للبيت عورة	فلا الضيف ممنوعا ولا الجارُ ضائِعا

(١) في ط، م: صفوف. (٢) ديوانه: ٧٤، ماعدا الثالث.

للنابغة الجعدى

وأنشد محمد بن سلام الجحمى للنابغة الجعدى(١) :

فتى كَمُلَتْ أخلاقُه(٢) غيرَ أنهُ جوادٌ فما يُبْقِى من المال باقيا
فتى تمّ فيه ما يَسُرُّ صديقَهُ على أنَّ فيه ما يسوءُ الأعاديا
[أشم طويل الساعدين شَمَرْدَلٌ إذا لم يَرُحْ للمجد أصبح غاديا](٣)

للحطيئة

ومن حُرِّ المدح وجيّد الشعر قول الحطيئة(٤) :

تزور امْرَأً يُعْطِى على الحمدِ مالهُ ومَن يُعْطَ أثمانَ المحامدِ يُحمدِ
يَرى البخلَ لا يُبْقِى على المرءِ ماله ويعلم أنّ المرءَ غيرُ مخلَّدِ
كسوبٌ ومِتلافٌ إذا ما سألتهُ تهلَّلَ واهتزَّ اهتزازَ المهنَّدِ
متى تأتِه تَعْشُو إلى ضوء نارهِ تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خَيْرُ مُوقدِ

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه هذا البيت فقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله(٥) :

يسوسون أحلاماً بعيداً أَناتُها وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ
أقِلُّوا عليهم لا أَبا لأبيكُم من اللومِ أوسُدوا المكانَ الذى سَدُّوا
أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شَدُّوا
وإن كانت النعماءُ فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدَّرُوها ولا كَدُّوا
مَطَاعِين فى الهيجا مَكَاشِيفُ للدجَى بَنَى لهمُ آباؤهم وبَنَى الجدُّ
وتعذلنى أبناءُ(٦) سَعْدٍ عليهمُ وما قلت إلا بالذى عَلِمَتْ سَعْدُ

وقال منصور النمرى :

ترى الخيل يوم الحرب يَظْمأْن تحتهُ ويَرْوَى القنا فى كفِّه والمَناصِلُ
حلالٌ لأَطْرافِ الأَسِنة نَحْرُهُ حرامٌ عليها منه مَتْنٌ وكَاهِلُ

---

(١) الشعراء : ٢٥٢ ، ديوان المعانى : ٣٦ . (٢) فى الشعراء : خيراته .
(٣) من م ، ا . (٤) ديوان المعانى : ٤٣ ، مهذب الأغانى : ٢–٣٧ .
(٥) ديوان المعانى : ٣٨ ، مهذب الأغانى : ٢–٣٣ . (٦) فى ا : أفناء .

وقال آخر :

فـتًى دهره شَطْرَانِ فيما يَنُوبهُ ... فنى بَأْسِه شطرٌ وفى جُودِه شَطْرُ

فلا مِنْ بُغَاة الخير فى عينه قذًى ... ولا مِنْ زئير الحرب فى أُذْنه وَقْرُ

[الشراب أول الخراب]

وقال بعضُ الظرفاء : الشرابُ أَولُ الخراب ، ومِفْتاح كلّ باب ، يَمْحَق الأموال ، ويُذْهِبُ الجمال ، ويَهْدِم المروءة ، ويُوهِنُ القوة ، ويَضع الشريف ، ويُهين الظريف ، ويُذِلُّ العزيز ، ويفلس التجار ، ويَهْتِك الأستار ، ويورث الشّنَار .

وقال يزيد بن محمد المهلبي :

لعمرُكَ مايحْصَى على الكأس شَرُّها ... وإن كان فيها لَذَّةٌ ورَخاءُ

مراراً تُريك الغىَّ رشدا وتارةً ... تخيّل أن المحسنين أساءوا

وأن الصديق الماحض الودّ مبغِضٌ ... وأنّ مديحَ المادحين هِجَاء

وجرَّبْت إخوانَ النبيذ فقلّما ... يدومُ لإخوان النبيذ إخاء

[فى التطفيل]

عُوتب طفيلى على التطفيل فقال : واللهِ ما بُنِيت المنازلُ إلا لِتُدْخَل ، ولا نُصبت الموائد إلا لتُؤْكل ، وإنى لأجمع فيها خلالا ؛ أدخل مُجالسا ؛ وأَقعد مؤانسا ، وأَنبسط وإن كان ربُّ الدار عابسا ؛ ولا أَتكلّف مَغْرَما ؛ ولا أُنْفِق درهما ؛ ولا أتعب خادما .

وقال ابن الدراج الطفيلى لأَصحابه : لا يهولنَّكم إغلاقُ الباب ، ولا شدّة الحجاب وسوء الجواب وعبوس البواب ، ولا تحذير الغراب [(١)] ، ولا منابذة الأَلقاب ؛ فإنَّ ذلك صائر بكم إلى محمود النوال ، ومُغنٍ لكم عن ذُلِّ السؤال ،

(١) فى ا ، م : ولا غب الثواب ولا تحذير العقاب .

واحتملوا اللَّكْزَةَ المُوهِنة . واللَّطْمَةَ المزمنة ، فى جنب الظفر بالبُغْيَة ، والدرَك للأُمنية، والزَموا الطَّوْزَجَة[1] للمعاشرين، والخِفَّة للواردين والصادرين، والتملّق للمُلْهين والمطربين، والبشاشة للخادمين والموكلين ؛ فإذا وصلتم إلى مُرادكم فكلُوا محتكرين، وادّخروا لغدكم مجتهدين ؛ فإنكم أحقّ بالطعام ممن دُعِى إليه ، وأوْلَى به ممن وُضع له ، فكونوا لوقته حافظين ، وفى طَلبه مشمّرين ، واذكروا قول أبى نواس :

لِتَخْمُس[2] مالَ الله من كلِّ فاجر وذِى بِطْنَةٍ للطيِّبَاتِ أَكُولِ

***

استطراد لأبى نواس

هذا يقوله أبو نواس فى أبيات تستندر كلُّها ، ويستظرف جلُّها ، وهى[3] :

وخَيْمة نَاطُورٍ برَأْسٍ مُنيفةٍ تَهُمُّ يدًا مَنْ رَامَها بِزَليل[4]

إذا عارضتها الشمسُ فاءت ظِلالُها وإن وَاجهتْها آذنَتْ بدُخولِ

حطَطْنَا بها الأثقالَ فلّ هجيرة عَبُورِيَّةٍ[5] تُذْكَى بغيرِ فَتيل

تأنَّت[6] قليلاً ثم فاءَتْ بمَذْقَةٍ من الظلِّ فى رثِّ الإناء[7] ضَئيلِ

كأنَّا[8] لدَيْها بين عِطْفَىْ نَعَامةٍ جَفَا زَوْرُها عن مبرك ومَقِيل

حلَبْتُ لأَصحابى بها دِرَّةَ الصِّبا بصفراء من ماءِ الكروم شَمُولِ

إذا ما أَتَتْ دون اللَّهَاةِ من الفتى دعا همَّهُ من صَدْرِه برَحِيلِ

فلما توافَى الليلُ جِنْحاً من الدجى[9] تصابَيْتُ واستجملتُ غيرَ جميلٍ

وأعطيت من أهوى الحديث كمابَدَا وذلّت صَعْباً كان غير ذلول

---

(١) فى ط : المطارحة . (٢) خمستهم : أخذت خمس أموالهم.

(٣) ديوانه : ٣١٠ ، الشعراء : ٧٧٤ . (٤) الزليل مصدر كالزلل : الانزلاق .

(٥) العبورية : نسبة إلى الشعرى العبور لأنها إذا طلعت بالغداة فهو أشد الحر .

(٦) فى الديوان ، ا : تأيت : تلبثت .

(٧) فى الديوان : الأباء : وهو جمع أباءة وهى القصبة، والمراد برث الأباء الخيمة .

(٨) فى ط : كأن . (٩) فى الديوان : فلما توفى الشمس جنح من الدجى .

فغنّى وقد وسَّدْت يُسراى خدّه[1] ... ألا ربما طالبتُ غيرَ مُنيلِ
فأنزلت حاجاتى بحقوَىْ مُساعدى ... وإنْ كان أدنى صاحبٍ وخليل[2]
فأصبحت ألْحَى السكر والسكرُ محسنٌ ... ألاَ ربَّ إحسان عليك[3] ثقيلِ
كفى حَزَناً أنّ الجواد مقتَّرٌ ... عليه ولا معروفَ عند بخيل
سأبغى الغِنى إما وزيرَ[4] خليفة ... يقومُ سواءً أو مخيفَ سبيلِ
بكل فتى لا يُستطَار فؤادُه[5] ... إذا نوّه الزحْفَانِ باسمِ قتيل
لتَخْمِس مالَ اللهِ من كل فاجرٍ ... وذى[6] بِطنَة للطيبات أكُول
ألم تر أنّ المال عَوْنٌ على التقى ... ولَيْسَ جَوَادٌ مُعْدِمٌ كبَخِيلِ

ألفاظ لأهل العصر فى صفة الطفيليين والأكَلة وغيرهم

شيطانُ مَعدته رَجيم، وسلطانها ظلوم. هو آكَلُ من النار، وأشْرَبُ من الرمل. لو أكل الفيلَ ما كَفَاه، ولو شرب النيلَ ما أرْوَاه، يجوبُ البلاد، حتى يقع على جَفْنَة جواد، يرى ركوبَ البريد، فى حضور الثَّريد. أصابعه ألزم للشِّواء، من سَفُّود الشَّوّاء، وأنامله كالشبكة فى صيد السمكة. هو أجُوع من ذئب مُعْتَس بين أعاريب. العيون قد تقلّبت، والأكباد قد تلهبت، والأفواه قد تحلبت. امتدت إلى الخوان الأعناق، [واحتدت نحوه الأحداق][7]، وتحلّبت له الأشداق.

[رجع إلى طرائف الوصف]

وصف طائر

سأل المهدى صباح بن خاقان عن طائر له جاء من آفاق الغابة فقال: يا أمير المؤمنين، لو لم يَبِنْ بحسن الصفة لبَانَ بحسن الصورة. قال: صِفْه لى. قال: نعم، يا أمير

---

(١) فى ط: يغطى إذا وسدت. (٢) فى الديوان، ا: ودخيل.
(٣) فى الديوان: علىّ. (٤) فى الديوان، ا: إما جليس خليفة.
(٥) فى الديوان: جنانه. (٦) فى الديوان: أخى بطنة. (٧) من ا.

المؤمنين ، قُدَّ قَدّ الجَلَم[١] ، وقوِّم تقويم القلَم، ينظر من جَمْرَتين ، ويلفظ بدرّتين، ويمشى على عقيقتين ، تكفيه الحبّة ، وترويه الغبّة[٢] ، إن كان فى قفص فلقه ، أو تحت ثوب خرقه ، إذا أقبل فدَيناه ؛ وإذا أدبر حميناه .

[أحظى النساء عند المهدى]

ودخل عبدُ الله بن مصعب الزبيرى على المهدى ، فقال : ويحك يازبيرى ؛ دخلت على الخيزران، فلما قامت لِتُصْلِح من شأنها نظرتَ[٣] إلى حُسنة! فقلت: ياأمير المؤمنين؛ أدركك فى ذلك ما أدرك المخزومى حيث قال[٤] :

بينما نحن بالبَلاكثِ[٥] بالقَا ع سِرَاعا والعِيسُ تَهْوى هُوِيّا
خطرت خَطْرَةٌ على القلب من ذكـراك وَهْناً فما استطعت مُضِيّا
قلت : لبيك إذ دعانى لك الشَّوْ ق وللحادَيَيْن كُرّا المَطِيّا

فأمر فرفعت الستور عن حُسْنة .

ثم قال لى : يا زبيرى ، واسوأتاه من الخيزران ! ثم انثنى راجعاً إليها . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أدركك فى هذا ما أدرك جميلا حيث يقول[٦] :

وأنتِ التى حبّبت شَغْباً إلى بَدًا إلىّ وأوطانى بلادٌ سواهما
حللتِ بهـذا حَلَّة ثم حَلَّة بهذا فطاب الوادِيَانِ كِلَاهُمَا

فدخل على الخيزران ، فما لبث أنْ خرج ؛ قال الزبيرى : فدخلت فقال : أنشدنى فأنشدته لصخر بن الجعد :

هنيئاً لـكأس جذها[٧] الحبلَ بعدما عقدنا لـكأس موثقاً لا نخونها
وإشماتها الأعداء لما تألَّبُوا حوالىّ واشتدَّتْ عَلَىّ ضغونها

---

(١) المقص . (٢) فى م ، ا : العبة . (٣) فى م ، ا : تطربت .
(٤) لسان العرب ــ مادة بلــكث. (٥) فى ا ، م : من، بلاكث، والبلاكث: موضع .
(٦) معجم ماستعجم: ١ــ٢٣٠، واللسان ــ مادة بدا. وقد نسب البيت الأول إلى كثير ، شغب وبدا : موضعان، وبدا ينون ولا ينون . (٧) فى م ، ا : جذبها .

فإن تصبحى وكَّلت عينىّ بالبكا واشمتّ أعدائى فقرَّت عيونها
فإنّ حراما أن أخونك ما دعا ببلبل[1] قُمْرى الحمام وجُونها
وما طرد الليلُ النهار وما دعَت على فَنَنٍ وَرْقَاء شاكٍ رَنينها[2]

فأمر لى على كل بيت بألف دينار . وكانت الخيزران وحسنة أحظى النساء عند المهدى .

[رجع إلى طرائف الوصف]

وصف غلام

ووصف اليوسفى غلاما فقال : كان يعرفُ المراد باللَّحْظ ، كما يعرفه باللَّفظ ، ويُعَايِنُ فى الناظر ، ما يجرى فى الخاطر[3] ، أقرب إلى داعيه ، من يد مُعَاطِيهِ ؛ حديدُ الذهن، ثاقبُ الفهم ، خفيفُ الجسم ، يُغنيك عن الملامة ، ولا يحوجك إلى الاستزادة . وقال أبو نواس :

ومنتظرٍ رَجْع الحديث بطَرْفِه إذا ما انثنى من لينه فَضَح الغُصْنَا
إذا جعل اللَّحظَ الخفىّ كلامَهُ جعلت له عينى لتفهمه أُذْنَا

وقال[4] :

وإنى لطَرْفِ العين بالعين زَاجرٌ فقد كدت لا يَخْفَى علىّ ضميرُ

وقد طرق هذا المعنى وإن لم يكن منه [من قال][5] :

بَلَوْتُ أخِلَّاءَ هذا الزمان فأَقْلَلْتُ بالهَجْر منهم نَصِيبى
وكلُّهمُ إن تصفحته[6] صديقُ العِيان عدوُّ المغيبِ
تفقّدْ مساقِطَ لَحْظِ المريب فإن العيونَ وجوهُ القلوبِ

وهو كقول المهدى :

ومطّلع من نفسه ما يَسُرُّهُ عليه من اللحظ الخفىّ دليلُ

---

(١) فى ا : بيليل ، وهو واد ، كما فى معجم ما استعجم . (٢) فى ا : زنينها .
(٣) فى ط : ما يحوى الخاطر . (٤) فى ط : غيره . (٥) ليس فى ا .
(٦) فى ط : تصفحتهم .

إذا القلبُ لم يُبْدِ الذى فى ضميرهِ ... ففى اللَّحظ والألفاظِ منه رَسولُ

ركوب الحمار

ودخل خالد بن صَفْوان على علىّ بن الجهم[١] بن أبى حذيفة فألفاه يريدُ الركوب، فقُرِّب إليه حمار ليركبه، فقال خالد: أما علمت أن العَيْرَ[٢] عار، والحِمَار شَنار، مُنْكَر الصوت، قبيح الفَوْت، مُتَزَلِّج[٣] فى الضَّحل، مرتطم فى الوحل، ليس بركوبة فحل، ولا بمطية رَحْل، راكبهُ مقرف[٤]، ومسايره مشرف.

فاستوحش ابن أبى حذيفة[٥] من ركوب الحمار ونزل عنه، وركب فرساً ودفع الحمار إلى خالد فركبه، فقال له: ويحك يا خالد! أتَنْهى عن شىء وتأتى مثله؟ فقال: أصلحك الله! عَيْر من بنات الكِرْبال[٦]، واضح السربال، مختلج[٧] القوائم، يحمل الرَّجْلَة، ويبلغ العقبة، ويمنعنى أن أكونَ جباراً عنيداً، إن لم أعترف بمكانى فقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين.

[تغير الحال]

قال ابن دأب: خرجت مع بعض الأمراء فى سفر، إلى الشام، فمرَّ بى رجل كنت أعرفه حَسَنَ الحالِ من أصحاب الأموال الظاهرة فى حال رثَّة، فسلَّم علىّ فقلت: ما الذى غيَّر حالَك؟ فقال: تنقُّلُ الزمان، وكَرُّ الحدثان؛ فآثرت الضَّرْبَ فى البُلْدان، والبُعْدَ عن المعارف والخُلَّانِ، وقد كان الأمير الذى أنت معه صديقاً لى، فاخترت البُعْد من الاشكال، حين حَصَّنى الإقلال، واستعملت قول الشاعر[٨]:

سأُعْمِل نص[٩] العِيسِ حتى يكفَّنِى ... غنى المال يوماً أو غِنَى الحدثانِ

فَلَلْمَوْتُ خيرٌ من حياة يُرى لها ... على المرءِ ذى العلياء مَسُّ هَوَان

---

(١) فى م، ا: بن أبى الجهم بن حذيفة. (٢) العير: الحمار.

(٣) فى ط: مرتج. (٤) أقرف فلانا: وقع فيه وذكره بسوء، وبه: عرضه للتهمة.

(٥) فى م، ا: العدوى. (٦) الكربال: كورة بفارس، وفى ا: عير الكرا، واضح السربال، وفى م: من بنات الكداد. (٧) فى ط: محكم، وفى ا: محلج.

(٨) اللآلىء: ٣٥٣. (٩) نص ناقته: استخرج أقصى ماعندها من السير.

متى يتكلم يُلغَ حُكْمُ كلامه　　وإنْ لم يَقُلْ قالوا عَديمُ بيانِ
كأن الفتى فى أهله بورك الفتى　　بغير لسانٍ ناطق بلسان

قال ابن دَأْب : فلما اجتمعتُ مع الأمير فى المنزل وصفت له الرجل ، فقال لى : ويحك ! اطلبه حتى أُصلح من حاله ، فطلبته فأَعْوَزنى .

[من الرثاء]

أبو الشيص يرثى قتيلا

وقال(١) أبو الشيص يرثى [قتيلا(٢)] :

خَتَلته المنونُ بَعْدَ اختيالٍ　　بلا صَفَّيْن مِنْ قناً ونِصَالِ
فى رداء من الصفيح صقيل　　وقميصٍ من الحديد مُذَالِ(٣)

حارثة بن بدر يرثى زيادا

وقال حارثة بن بدر الغُدانى(٤) يرثى زيادا :

صلى الإلهُ على قَبْر وطهّره(٥)　　عند الثويَّة يسفى فَوْقَه المُورُ(٦)
تهدى إليه قريشٌ نَعْشَ سيِّدها　　فثَمَّ حَلّ الندى والعزُّ والخِيرُ(٧)
أبا المغيرة والدنيا مفجّعة　　وإنَّ مَنْ غرّت الدنيا لمَغْرُور
قد كان عندك للمعروف عَارِفةٌ　　وكان عندك للنُّكْرَاء تَنْكِيرُ
وكنت تُغْشَى فتُعْطِى المالَ من سَعَةٍ　　فالآنَ بابُك أمسى وهو مهجور
ولا تلين إذا عوشِرت معتسراً　　وكان أَمْرُك ما يوسرت ميسورُ
لم يَعْرِف الناسُ مذ غيّبتَ فتنَتَهم　　ولم يُجَلِّ ظلاما عَنْهمُ نور
فالناس بعدك قد خفَّت حلومهمُ　　كأنما نفَخَتْ فيها الأعاصير

أخذ هذا البيت من قول مهلهل بن ربيعة فى أخيه كليب ، وكان إذا انتدى لم تحلّ حَبْوَته ، ولم ينطق أحد إلاّ مجيبا له ، إجلالا ومهابة :

---

(١) الشعراء : ٨٢٥ .　(٢) ليس فى ا .　(٣) المذال : الطويل الذيل .
(٤) فى ط : الفزارى .　(٥) فى ط : وشهره .　(٦) المور : الغبار المتردد ، والتراب تثيره الريح .　(٧) الخير : الكرم والشرف .

أنبئت أن النار بعدك أُوقدت ... واستبَّ بعدك يا كُليبُ المجلس
وتحدثوا فى أمرِ كلِّ عظيمة ... لوكنت حاضر أمْرِهم لم يَنْبِسوا

حارثة بن بدر

وكان حارثة ذَا بيان وجَهارة [وأدب](١) ، وكان شاعرا عالما بالأخبار [والأنساب](١) ، وكان قدغلب على زِياد ، وكان حارثة منهوما فى الشراب ، فعُوتب زيادٌ فى الاستئثار به، فقال : كيف أطَّرِح رجلا يُسايرنى مذ دخلت العراق ، ولم يصكُكْ ركابُه ركابى ، ولا تقدَّمنى فنظرت إلى قَفَاه ، ولا تأخّر عنى فلويت عنق إليه، ولا أَخذ علىَّ الشمس فىشتاء قط ، ولا الرَّوْح فى صيف ، ولا سألته عن باب فى العلم إلاّ قدّرت أنه لا يُحسن غيره .

وقال له زياد : من أخطب؟ أنا أم أنت ؟ فقال : الأمير أَخطب إذا توعّد أووعد، وبرَق ورَعد ، وأناأخطبُ فىالوفادة ، والثناء(٢) ، والتحبير(٣) ، وأنا أ كْذِب إذا خطبت ، وأحشو كلامى بزيادات [مليحة](١) شهيّة ، والأمير يَقْصد إلى الحق ، وميزانِ العدل ، ولا يزيدُ فى كلامه ، ولا ينقص منه .

فقال له زياد : [قاتلك الله !](١) لقد أَجدتَ تخليص صفتى وصفتك.

ولما مات زياد جفاه عبيدُالله [ابنه](١)، فقال [له حارثة : أيها الأمير ، ماهذا الجفاء مع معرفتك بالحال عند أبى المغيرة ؟ فقال له عبيد الله :](١) إن أبا المغيرة بلغ مبلغا لا يلحقه فيه عيب ، وإنما أُنْسَب إلى من يغلبُ علىّ ، وأَنت تُديم الشراب ، وأنا حديثُ السن ؛ فمتى قرَّبتك فظهرت منك رائحةُ الشراب لم آمَنْ أن يُظَنّ بى [ذلك](١)،فدَع الشراب وكن أَول داخل وآخر خارج .

فقال له حارثة : أنا لا أدعه لمن يملك ضرى ونَفْعى ، أَأَدَعهُ للحال عندك ، ولـكن صَرّفنى فى بعض أعمالك. فولاَّه سُرّق(٤) من بلادالأهواز .

قال أبوالأسود(٥) الدؤلى وكان صديقا لحارثة :

---

(١) من ا ، م . (٢) فى م ، ا : والبناء . (٣) التحبير : التحسين ، وفى ا : التخبير .
(٤) فى ط : شرق بلاد . (٥) فى الشعراء ٧١٥ : هذا الشعرمنسوب بن إلى أنس أبى أناس ، وهو من كنانة من الدؤل رهط أبى الأسودالدؤلى .

أحار بن بدر قد وُليت ولايةً فـكن جُرَذاً فيها تَخُونُ وتَسْرِقُ
ولا تدعنْ للناس شيئاً تصيبه فحظُّك من ملك العراقين سُرَّق(١)
فما الناسُ إلا قائل فـمكذبُ يقول بمـا يَهْوَى وإمَّا مُصدّق
يقولون أقوالا بظنٍّ وتهمة فإن قيل هاتوا حقّقوا لم يحقّقوا

فقال له حارثة :

جزاكَ إله العرش خَيْرَ جزائِهِ فقد قلت معروفاً وأَوْصيت كافيا
أمرتَ بشيءٍ لو أَمَرْت بغيرِهِ لألفيتنى فيه لِأمرك عَاصِيا

[وصف امرأة]

قال الأصمعى : سمعت امرأة من العرب تصفُ امرأةً وهى تقول : سَطعاء بضَّة ، بيضاء غضَّة ، دَرْماء(٢) رَخْصَة ، قَبّاء طَفْلة ، تنظر بعينى شادنٍ ظمآن ، وتبسم عن منور الأقحوان، فى غبّ التّهتَان، وتشير بأساريع الـكثبان ، خلقها عميم ، وكَلاَمُها رخيم ، فهى كما قال الشاعر :

كأنها فى القُمُصِ الرقاق مُخَّة(٣) ساق بين كفى ساقِ
أَعْجَلَها الشاوى عن الإحراقِ

ووصف أعرابى امرأة يحبّها فقال : هى زينة [فى](٤) الحضُور ، وباب من أبواب السُّرور ولَذكرها فى المغيب ، والبعد من الرقيب ، أشهى إلينا من كل ولد ونسيب؛ وبها عرفت فضل الحور المين ، واشتقت بها إليهنَّ يوم الدين .

[من كلام الأعراب]

وسئل أعرابى عن سفر أَكْدى فيه، فقال : ما غنمنا إلا ما قَصَّرْنا من صلاتنا،

---

(١) فى ط : مشرف . (٢) امرأة درماء : لاتستبين كعوبها ومرافقها .
(٣) فى ا : مخذ . (٤) من م ، ا .

فأمّا ما أكلته منا الهواجر ، ولقِيَتْه منا الأباعر ، فأمرٌ استخففناه ، لما أمّلناه .

وقال عبدقيس[1] بن خُفَاف البُرْجمى لحاتم الطائى ، وقد وفد عليه فى دماء حملها قام ببعضها ، وعجز عن بعض : إنى حملت دماء عوَّلْتُ فيها على مالى وآمالى ، فأمّا مالى فقدَّمته ، وكنتَ أكبرَ آمالى ، فإن تَحمِلْها فكم من حقٍّ قضيت ، وهمٍّ كفيت ، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمم يومك ، ولم آيس من غَدِك .

وقيل لأعرابى : لم لا تَضْرِبُ فى البلاد ؟ فقال : يمنعنى من ذلك طفل بارك ، واصٌّ سافك ، ثم إنى لستُ مع ذلك واثقا بنُجْحِ طَلِبتى ، ولامعتقدا بقضاء حاجتى ، ولا راجيا عطفَ قرابتى ؛ لأنى أُقدم على قوم أَطْغَاهم الشيطان ، واستمالَهم السلطان ، وساعدهم الزّمان ، وأسكرتْهُم حداثةُ الأسنان .

أعرابية تتكلم

وخرج المهدى بعد هَدْأَة من الليل يطوفُ بالبيت ، فسمع أعرابية من جانب المسجد تقول : قوم متظلّمون ، نَبَتْ عنهم العيون ، وفدَحَتْهم الدُّيون ؛ وعضّتْهم السنون ، بادَ رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عِيالهم ؛ أبناء سبيل ، وأَنْضَاء طريق ، وصيةالله ، ووصية رسول الله ، فهل آمِرٌ بخير ، كلأه الله فى سَفَره ، وخلفه فى أهله . فأمر نصراً الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

[من أدب البديع]

المقامة الأزاذية

ومن إنشاء البديع فى مقامات أبى الفتح الإسكندرى[2] : حدثنى عيسى بن هشام قال : كنت ببغداد ، فى وقت الأزاذ[3] ؛ فخرجتُ إلى السوق أَعتامُ من أنواعه[4] لابتياعه ، فسرتُ غير بعيد إلى رجل قد أخذ أنواعَ الفواكه وصفّفها ، وجمع أنواع الرُّطَب وصنّفها ؛ فقبضتُ من كل شىء أَحسنه ، وقرضتُ من كل نوع أَجوده ؛ وحين جمعتُ حواشىَ الإزَار ، على تلك الأوزار[5] ، أخذَتْ عيناى رجلا قد لفَّ رأسه

(١) فى م : قيس بن خفاف ، وانظر فى الأمالى : ٣ــ ٢١ . (٢) المقامات : ١٥ .
(٣) الأزاذ: نوع من التمر . (٤) أعتام : أختار . (٥) فى م ، ا : الأزرار .

[ببرقع][1] حياء ، ونصب جسده ، وبسط يدَه ، واحتضن عِيالَه ، وتأبَّط أطفاله ، وهو يقول بصوت يَدْفَع الضعف فى صدره ، والحرَضَ فى ظهره :

ويلى على كَفَّين من سَويقِ ... أَو شَحْمَة تُضْرَبُ بالدقيقِ

أو قصعة تُملأ من خِرْدِيق[2] ... تَفْثَأ عنَّا سَطَواتِ الرِّيقِ[3]

تُقيمنا عَنْ نهج الطريق ... يارازِقَ الثروةِ بعد الضيق

سَهِّلْ على كفّ فتًى لبيقِ ... ذى حَسبٍ فى مجده عريق

يَهدى إلينا قدم التوفيق ... يُنْقِذ عَيْشى من يد الترنيق[4]

قال عيسى بن هشام: فأخذتُ من فاضل الكيس أخذةً وأنلْتُه إياها فقال :

يا من حَبانى بجميل برّه ... أفضَى إلى الله بحسن سره

واستحفظ اللهَ جميل ستره ... إن كان لاطاقةَ لى بشُكْرِه

فاللهُ ربى من وراءِ أمره

قال عيسى بن هشام : فقلت : إن فى الكيس فَضْلا ، فابْرُزْ لى عن باطنك أخرُج لك عن آخره . فأماط لِثامه ، فإذا شيخنا أبو الفتح السكندرى ، فقلت : ويحك ! أى داهية أنت ؟ فقال :

تقضّى العمر تشبيها ... على الناس وتَمْويهَا

أَرى الأيامَ لا تَبْقَى ... على حال فأَحكِيها

فيوما شرُّها فىّ ... ويوما شرِّى فِيهَا

رسالة إلى أبى نصر

وسأل البديع أبانصر بن المرزبان ـ عاريّة ـ بعضَ مايتجمَّل به ، فأمسك عن إجابته ؛ فأعاد الكتاب إليه بما نسخته[5] :

لا أزالُ ـ أَطال الله تعالى بقاء مولانا الشيخ ـ بسوء الانتقاد، وحسن الاعتقاد،

---

(١) من ا ، والمقامات . (٢) الخرديق: المرق ، وفى ا : الجرديق . (٣) يفثأ : يسكن .
(٤) الترنيق : التكدير (٥) الرسائل : ٨٧ .

أَمْسَحُ جبينَ الخجل ، وأمدُّ يمين العَجَل ، ولضعف الحاسّة ، فى الفِراسة ، أحسِب الوَرَمَ شَحْما ، والسرابَ شرابا ، حتى إذا تجشمت موارده ، لأَشرب بارِدَه ، لم أَجِدْ شيئا .

وما حسبت الشيخَ سيدى ممن تعنيه هذه الجملة حتى عرضت على النار عودَه ، ونشرت بالسؤال جُودَه ، وكاتَبْتُه أستعيره حلية جمال ، سحابةَ يوم أو شَطْرَه ، بل مسافةَ ميل أو قَدْره ، فغاص فى الفِطْنَة غوصاً عميقاً ، ونظر فى الكَيْس[1] نظراً دقيقاً ، وقال: هذارجل مشحوذ المُدْية ، فى أبواب الكُدْية[2] ، قد جعل استعارةَ الأعلاق طريقَ افتراسها، وسببَ احتباسها ، وقد منَّى ضِرسه ، وحدَّثَ بالمحال نفسه، ولا لطيفة فى هذا الباب، أحسن من التغافل عن الجواب، فَضْلا عن الإيجاب، وكلا فما فى أبواب الردِّ أقبح مما قرع ، ولا فى شرائع البخل أوحش مما شَرع ؛ ثم العُذر له من جهتى مبسوط إن بسطه الفَضْل ، ومقبول إن قَبله المجد ، وإنما كاتبتُه لأُعيد الحال القديمة ، وأشرط له على نفسى أن أُريحه من سَوْم الحاجات، من بعد ، فمن لم يَستحى منْ أعطنى ، لم يَسْتَحْى من « أعفنى » ؛ وعلى حسب جوابه أجرى المودة فيما بعد ، فإن رأى أن يجيبَ فعل إن شاء الله .

رسالته الى سهل بن محمد

وله إلى سهل بن محمد بن سليمان[3] : أنا إذا طويت عن خِدْمَة مولاى ــ أطال الله بقاءه ــ يوماً لم أرفع له بَصرى ، ولم أعدّه من عمرى ، وكأنى بالشيخ ــ أعزه الله ــ إذا أغفلت مفروض خِدْمته ، من قَصْدِ حضرته ، والمثولِ فى حاشيته ، وجملة غاشيته، يقول : إن هذا الجائع لمَّا شَبِع تضلّع ، واكتسى وتلفَّع[4] ، وتجلّل وتبرْقَع ، تربَّع وترفَّع ، فما يطوفُ بهذا الجَناب ، ولا يَظْهَرُ بهذا الباب ؛ وأنا الرجل الذى آواه من قَفْرٍ ، وأغناه من فقْرٍ ، وآمنه من خَوْف ، إذ لا حُرَّ بوادِى عَوْف ؛ حتى

(١) الكيس : خلاف الحمق . (٢) الكدية بضم الكاف : السؤال .
(٣) الرسائل: ٨٨ (٤) فى م ، ا : فتمشفع .

إذا وردت عليه رُقعتي هذه، وأعارها طَرْف كرمه، وظَرْف شِيَمه، ونظر في عنوانها اسْمِي قال: بُعداً وسحقاً، [وسبّا وتبّا][1]، وحتّا ونحتاً، وطَعْنا ولَعْنا، فما أكذبَ سَرَابَ أخلاقه، وأكثر أسْرَاب نفاقه، فالآن انحلّ من عقدته، وانتبه من رَقْدَته. وكاتبني يستعيدني، كلا لا أزوجه[2] الرّضَا ولا قُلامة، ولاأمنحه الحُسنى ولا كرامة، بل أدعُه يركب رَاسه، ويُقاسي أنفاسه، فستأتيني به الليالي، والكيس الخالي، ثم أُريه ميزانَ قَدْره، وأُذيقُه وبالَ أمره، حتى إذا بلغ موضع الحاجة من الرقعة قال: مَأْرُبة لا حَفَاوة، ووَطر سَاقَهُ، لا نِزَاعٌ شاقَه، فهَذا بِذَا. ولا أبعد من تلك الهمم العالية، والأخلاق السامية أن يقول: مرحبا بالرّقعة وكاتبها، وأهلا بالمخاطبة وصاحبها. [وقضاء الحاجة بإنْجَاحها، وإبرازها، وهي الرقعة التي سالت إلى من التمسته كما اقترحته بما طالبته، فرأْيُه فيه موفق إن شاء الله تعالى[3]].

رسالة إلى بعض الرؤساء

وله أيضا[4] إلى بعض الرؤساء يسأله إطلاق محبوس [بسببه[5]]: الشيخ — أطال الله بقاءه — إذا وصل يدي بيده لم ألمس الجوْزَاء إلا قاعداً، وقد نَاطَها مِنّةً في عُنُق الدهر، وصاغها إكليلا لجبين الشّكر. وما أقْصَر يَدِي عن الجزاء، ولساني عن الثناء؛ وهذا الجاهلُ قد عرف نفسَه، وقلع ضرسه، ورأى ميزان قَدْرِه، وذاق وبالَ أمره، وجهز إليّ كتيبة عجائز عاجزات؛ فأطْلَقْن العويل والأليل[6]، وبعثنني شفيعاً إلي، واستعنَّ بي عليّ، وتوسَّلْن بكلمة الاستسلام؛ ولحمة الإسلام، في معنى[7] هذا الغلام؛ فإن أَحبَّ الشيخُ أن يجمعَ في الطَّوْلِ إزاء الحوض إلى العفر، وينظم في الفَضْل ما بين الروض والمطر، شفّع في إطلاقه مَكَارِمَه، وشرّف بذلك خادمه، وأنجزنا بالإفراج عنه، مُوَفَّقاً إن شاء الله تعالى.

---

(١) من م، ا. (٢) في ا، م: يستفيد مني كلالا لأأريحه الرضا.
(٣) ليس في ا. (٤) الرسائل: ٨٩. (٥) من ا.
(٦) الأنين، ورفع الصوت بالدعاء، والصراخ عند المصيبة. (٧) في ط: في فك.

[عفـــو]

المأمون يعفو

وقال رجل لإبراهيم بن المهدى : اشفعْ لى إلى أمير المؤمنين فى فَكّ أَخى من حَبْسه، وكان محبوسا فى عِدَاد العُصاة ، فقال للمأمون : ليس للعاصى بعد القُدْرة عليه ذَنب ، وليس للمصاب بعد الملك عذر . فقال : صدقت ؛ فما طَلِبَتك ؟ قال : فلان هَبْه لى . قال : هو لك .

وأحمد بن أبى خالد

وسأل أبو عبادة أَحمد بن أبى خالد[1] أَن يطلق له أَسارى، ففعل ، فقال له : قد فككنا أَسراك . فقال : لا فَكَّ الله رِقابَ الأَحرارِ من أَياديك !

ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بالإطلاقِ من الأسر

الحمدُ لله حَمْدَ الإخلاص ، على حسن الخَلَاصِ ، الذى أَفْضَى بك من ذِلَّةِ رِقّ، إلى عزَّة عِتْق، ومن تَصْلِيَةِ جحيم، إلى جنَّةِ نعيم . خرج من العِقَال، خروج السيفِ من الصِّقال. خرج من إساره، خروج البَدْرِ من سِرارِه . الحمدُ لله الذى فكَّ أسراً، وجعل من بعد العُسْرِ يُسراً . خرج من البلاء ، خروج السيف من الجلاء . قد جعل الله لك من مضايق الأمور مخرجا نَجِيحاً ، ومن مغالق الأهوال مسرحاً فسيحاً .

[أبو نواس يمدح الأمين]

مدح أبو نواس الأمين محمداً فى [أول] خلافته بقصيدته التى يقول فيها[2] :

أقول والعِيسُ تعرَوْرى الفَلاةَ بنا ... صُعْرٌ[3] الأزمة من مثنى ووُحْدانِ

يا ناق لا تسأمى أو تبْلُغى ملكا ... تقبيلُ راحته والرُّكْن سِيّانِ

مقابلا بين أملاك تفضلهُ ... ولادتان من المنصور ثِنْتان

---

(١) فى م ، ا : أحمد بن خالد . (٢) ديوانه : ٦٥ . (٣) اعرورى : سار فى الأرض وحده. والصعر : جمع أصعر أو صعراء، من الصعر وهو الميل .

متى تحطِّى إليه الرَّحْل سالمـةً تَسْتَجْمِعِى الخَلْقَ فى تمثال إنسان

قال [الحسن][١] : هذا لأن محمـدا ولده المنصور مرتين من قِبَل أن أباه هرون الرشيد بن المهدى بن أبى جعفر المنصور ، ومن قِبل أن أمه أَمة العزيز بنت جعفر بن [أبى جعفر][١] المنصور، وكان المنصور دخل عليها وهى طفلة تلعب ، فقال : ما أنت إلا زبيدة، فغلب عليها هذا اللقب ، ولم يَلِ الخلافة مَنْ أبواه هاشميان غير على بن أبى طالب وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم وابنه الحسن ، وأمه فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم والأمين محمد بن الرشيد .

رجع القول ـ فلما أَنشده القصيدة قال: ما ينبغى أن يُسْمَع مدحُك بعد قولك فى الخصيب بن عبد الحميد[٢] :

إذا لم تَزُرْ أَرضَ الخصيب ركابُنا فأىّ فتى بعـد الخصيب تزورُ

فتى يشترى حسنَ الثناء بماله ويعلم أنّ الدائراتِ تدورُ

فما فاته[٣] جودٌ ولا حلَّ دونه ولـكن يسيرُ الجودُ حيث يَسِير[٤]

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ كلُّ مدح فى الخصيب وغيره فَمدْحٌ فيك ؛ لأنى أقول ثم ارتجل :

ملـكتَ على طير السعادة واليُمْن وجاءت لك العلياءُ[٥] مقتبلَ السنِّ

بحيا وجود الدّين تحيا مهنأً بحسن وإحسان مع اليُمْن والأَمْن

لقد طابت الدنيا بطيب ثنائِه[٦] وزادت به الأيامُ حسنا إلى حُسْن

لقد فك أَرقاب العُفَاة[٧] محمـدٌ وأسكن أهل الخوف فى كنف الأمن

إذا نحن أثنيا عليك بصالحٍ فأنت كما نثْـنِى وفوق الذى نثنى

---

(١) من ا . (٢) ديوانه: ٩٩ . (٣) فى الديوان : فما جازه .

(٤) فى الديوان : ولـكن يصير ... يصير . (٥) فى ا ، م : وحزت عليك الملك .

(٦) فى ا ، م: بطيب محمد . (٧) فى ا : أغلال العناة .

وإن جرت الألفاظُ يوما بمدحةٍ   لغيرك إنسانًا فأنتَ الذى نَعْنِى
قال : صدقت ، مَدْحُ عبدى مَدْحٌ لى ؛ ووَصَله وقرَّبه .

* * *

من النقد

وأما قول أبى نواس[١] :

* إذا نحن أثنيا عليك بصالح *   فمن قول الخنساء[٢] :

فما بلغ المُهْدُون للناس مِدْحَةً   وإن أطنبوا إلاَّ الذى فيك أفْضَلُ
وما بلغت كفُّ امرئ متناوَلاً   من المجد إلاّ والذى نِلْتَ أَطْوَل

وفد الأخطل على معاوية فقال : إنى قد امتدحتُك بأبياتٍ فاسمعها ، فقال : إنْ كنت شَبَّهْتَنى بالحية ، والأسد أو الصقر ، فلا حاجةَ لى بها ، وإن كنت [قلت][٣] كما قالت الخنساء ، وأنشد البيتين، فقل . فقال الأخطل : والله لقد أحسنتَ ، وقدقلت فيك بيتين ماهما بدونهما ، ثم أنشد[٤] :

إذامتّ ماتَ العُرْفُ وانقطع النَّدَى   فلم يبق إلا من قليلٍ مصرَّدِ
ورُدّت أكفّ السائلين وأمسكوا   عن الدين والدنيا بخزن[٥] مجدَّدِ

وقول أبى نواس : * وإنْ جَرَتِ الألفاظُ يوما[٦] بمِدْحَةٍ * من قول كُثيّر فى عبد العزيز بن مروان :

متى ما أَقل فى سالف الدهر مِدْحَةً   فما هى إلاَّ لابن ليلى المعظَّمِ

وقال الفرزدق[٧] :

وما أَمرتنى النفس فى رِحْلَةٍ لها   إلى أَحدٍ إلا إليك ضَمِيرُها

ولما أنشد أبو تمام أحمد بن أبى دُوَاد قصيدته[٨] :

* سقى عهدَ الحمى صوبُ[٩] العِهاد *

---

(١) ديوانه : ٦٦ .   (٢) ديوان المعانى : ٢٧ ، أخبار أبى تمام : ١٤٣ .
(٣) من م .   (٤) ديوان المعانى : ٢٧ .   (٥) فى م : بخلق ، وفى ا : بخلف.
(٦) فى ا : منا .   (٧) أخبار أبى تمام : ١٤٣ ، وفيه وفى ا : وما وامرتنى .
(٨) ديوانه : ٧٨، وتمامه : وروض حاضرمنه وباد .   (٩) فى ا ، م : سبل .

وانتهى إلى قوله[(١)] :

وما سافرتُ فى الآفاق إلاّ ومِنْ جَدْواكَ راحلَتِى وزادى

مُقيمُ الظنِّ عندكَ والأمانى وإنْ قَلِقَتْ رِكَابِى فى البلادِ

قال له ابن أبى دُوَاد : هذا المعنى لك أو أخذته ؟ قال : هو لى ، وقد ألممت فيه بقول أبى نواس[(٢)] :

وإنْ جَرتِ الألفاظُ يوما بِمِدْحَةٍ لغيْرِكَ إنسانا فأنتَ الذى نَعْنِى

وأخذه المتنبى فقال[(٣)] :

أَشَرْتَ أبا الحُسينِ بمدحِ قومٍ نزلتُ بهم فرحت[(٤)] بغيرِ زادِ

وظنّونى مدحتُهمُ قديمًا وأنتَ بما مدحتُهمُ مُرادِى

وأما قول أبى تمام : «وما سافرت فى الآفاق ـ البيت » فمن قول المثقب العبدى [وذكر ناقته][(٥)] :

إلى عَمْرِو بن حمدانٍ أبينى[(٦)] أخى النجدات والمجد الرصين

وأما قول أبى نواس[(٧)] : * فما فاته جود ولا حَلّ دونهُ * البيت ، فمن قول الشمردل بن شريك [اليربوعى][(٥)] :

ما قصّرَ المجد عنكم يابنى حكم[(٨)] ولا تجاوزكم يا آل مسعودِ

يحل حيث حللتم لا يريمكُم ماعاقبَ الدهرُ بَيْنَ البيضِ والسُّودِ

إن يشهدوا يوجد المعروف عندهم خِدْنًا وليس إذا غابوا بمَوْجُودِ

وقد قال الكميت بن زيد الأسدى :

يسير أبانُ قريعُ السما ح والمكرماتُ معاً حيث سَارَا[(٩)]

---

(١) ديوانه : ٧٩ ، التبيان : ١ــ٣٦٥ . (٢) التبيان : ١ــ٣٦٥ ، أخبار أبى تمام : ١٤٢ : ١٤٢

(٣) ديوانه : ١ــ٣٦٤ . (٤) فى الديوان ، م : فسرت . (٥) من ا .

(٦) فى ا : إلى عمرو ومن عمر أتتنى . (٧) ديوانه : ٩٩ .

(٨) فى ط : يابنى حسن (٩) فى ا : يصير ... قرين ... حيث صارا

وقول أبى نواس أيضاً :

* فتًى يَشْتَرِى حُسْنَ الثناء بماله *

مأخوذ من قول الراعى :

فتى يشترى حُسْنَ الثناء بمالِهِ ... إذا ما اشترى المَخْزَاةَ بالمَجْدِ بَيْهَسُ

* * *

رجع إلى المدح

دخل أبو نُخَيْلة على أبى العباس السفاح ، فاستأذنه فى الإنشاد ، فقال : لعنك الله ؛ أَلَسْتَ القائل لمسلمة بن عبد الملك :

أمسلمةُ يا نَجْلَ خير[1] خليفةٍ ... ويا فارس الهَيْجَا ويا جبلَ الأرضِ

شكرتك إنّ الشكرَ حَبْلٌ من التقى ... وما كلُّ من أوليته نعمةً يقضِى

وألقيتَ لما أن أتيتك زائراً ... علىّ لحافاً سابغَ الطولِ والعرضِ

ونبهتَ من ذكرى وما كان خاملاً ... ولكنّ بعض الذكر أنْبَهُ من بعضِ

ثم أمره بأن ينشد ، فأنشده أرجوزة يقول فيها :

كنّا أناساً نرهب الهلاكا ... ونركب الأعجازَ والأوراكا

وكلّ ما قد مرّ فى سواكا ... زُورٌ وقد كفَّر هذا ذاكا

واسم أبى نخيلة[2] الجنيد بن الجون، [وهو مولى لبنى حماد[3]]، كان مقصّداً راجزاً.

قيل للخنساء : لقد مدحت أخاك حتى هجوت أباك ! فقالت :

جارَى أباهُ فأقبلا وهُمَا ... يتعاوَران ملاءة الحُضْر[4]

حتى إذا جدَّ الجِراء[5] وقدْ ... ساوَى هناك القدر بالقدر[6]

وعلاَ صِياحُ الناسِ أَيهما ؟ ... قال المجيبُ هناك لا أَدْرى

برقت صحيفةُ وَجْهِ والدهِ ... ومضى على غُلَوائه يَجْرِى

(١) فى ا : يا نجل كل . (٢) فى الخزانة : ١–١٥٦ ، أبو نخيلة : اسم لشاعر لا كنيته وقال ابن قتيبة : اسمه يعمر ، وكنى أبا نخيلة ، لأن أمه ولدته إلى جنب نخلة ، ويكنى أبا الجنيد .

(٣) فى ا : حمان . (٤) الحضر : ارتفاع الفرس فى عدوه .

(٥) الجراء : جرى الفرس . (٦) فى ا ، م : العذر بالعذر .

أَولى فأَولى أن يُسَاوِيهُ لولا جلالُ السنِّ والـكِبْرْ
وهما كأَنهما وقد برزا صَقْرَان قد حَطَّا إلى وَكْرِ

وقيل لأبى عبيدة : ليس هذا فى مجموع شعر الخنساء . فقال : العامّةُ أسقط من أن يجاد عليها بمثل هذا .

وقد أَحسن البحترى فى نحو هذا ؛ إذ يقول فى يوسف بن أبى سعيد، [ومحمد[1]] ابن يوسف الطائى[2] :

جدٌّ كجد أبى سـعيد إنهُ تَرَكَ السماكَ كأنه لم يَشرُفِ
قاسمته أَخلاقَه وهى الردى للمعتدى وهى الندى للمُعْتَفِى
وإذا جرى فى غايةٍ وجريتَ فى أخرى التقى شأْوا كما فى المَنْصف[3]

***

من النقد

قول الخنساء : * يتعاوران ملاءة الحُضْر *

أبرع استعارة ، وأنصع عبارة ، وقد قال عدى بن الرقاع[4] :

يتعاوران من الغُبَار مُلاءةً غبْراء محكمةً[5] هما نسجاها
تُطوَى إذا وَرَدا مكاناً جاسياً فإذا السنابِكُ أسهلت نَشرَاها

وإلى هذا أشار الطائى فى قوله[6] :

تُثِير عَجَاجةً فى كل ثَغْرٍ يهيمُ بهـا عدىٌّ بنُ الرِّقَاعِ

وأول من نظر إلى هذا المعنى شاعر جاهلى من بنى عقيل[7] فقال :

ألاَ يا ديارَ الحىِّ بالسَّبُعَانِ عفَت حِجَجاً بعدى وهنّ ثمانِ
فلم يبق منها غيرُ نُؤىٍ مُهدَّمٍ وغَيْرُ أثافٍ كالرَّكِىِّ رِعَانِ

---

(١) من م ، ا . (٢) ديوانه : ١٢٢ . (٣) المنصف : النصف . (٤) المختار من شعر بشار ، ٢٦٣ ، معاهد التنصيص : ١–١٩٢ ، الطرائف الأدبية : ٩٦ .
(٥) فى المختار : بيضاء محدثة (٦) ديوانه : ١٩٣ (٧) فى معجم ما استعجم واللسان ، واللآلئ : ٥٣٣ : الشعر لابن مقبل ، وفى ياقوت : قيل إنه لابن أحمر ، أو لابن مقبل .

وآيات هابٍ أورق اللون سافِ ت ... به الريحُ والأمطارُ كل مكان
قِفارٌ مَرَوْرَاة تحارُ بها القَطَا ... وتمسى بها الجابان تقتربان[1]
يثيران من نَسْجِ الغبارِ عليهما ... قميصين أسمـالاً ويرْتديان

ومن مستحسن رثاء الخنساء وليلى وغيرهما من النساء

قال أبو العباس أحمـــد بن يحيى النحوى : أنشد أبو السائب المخزومى قول الخنساء[2] :

الخنساء

وإنّ صخْراً لمَـوْلانا وسيِّدُنا ... وإنّ صخراً إذا نَشْتُو لنحَّارُ
وإنّ صخْراً لتأْتمُّ الهداةُ به ... كأنه علمٌ فى رأسِه نارُ

فقال : الطلاق لى لازم إن لم تكن قالت هـذا وهى تتبختر فى مشيها ، وتنظر فى عِطفها .

ومن مستحسن رثاء الخنساء قولها ترثى أخاها صخراً :

اذهب فلا يبعدنْك اللهُ من رجل ... منّاعِ ضَيْم وطَلاَّب لأوتارِ
قد كنت فينا صريحا غير مؤتشب ... مركباً فى نصابٍ غـير خوّار
فسوف أبكيك ما ناحَتْ مطوّقَةٌ ... وما أضاءت نجومُ الليلِ للسارى
أبكى فتى الحىّ نالته منيّتهُ ... وكلُّ نفسٍ إلى وقتٍ بمقدار

وقولها [تَعْنيه][3]:

شهّاد أنجيةٍ شدّاد أَوهيةٍ ... قطّاع أَودية للوِتْرِ طلابا
سمٌّ العُداة وفـكّاك العُناةِ إذا ... لاقى الوغى لم يكن للموت هَيَّابَا
يهدى الرعيلَ إذاجار السبيلُ بهم ... نَهْدالتليل[4] لزُرْقِ السُّمْرِ رَكّابا

والخنساء اسمها تماضر بنت عمرو [بن الحارث][3] بن الشريد بن رياح بن [يقظة

---

(١) هكذا فى ا ، م ، وفى ط : الجامان تعتركان . (٢) خزانة الأدب : ١ـ٣٩١ .

(٣) من ا . (٤) التليل : العنق ، وبعدالبيت فى م : فى ديوانها : لزور الموت ركابا .

ابن عُصَيّة بن خُفاف[1]] بن امرئ القيس وتكنى أم عمرو ، ومصداق ذلك قول أخيها [صخر][2] :

أَرى أَمَّ عمرو لا تملُّ عيادتى ... وملَّت سليمى مَضْجَعِى ومكانى[3]

سليمى امرأته ، وإنما لقبت الخنساء كناية عن الظبية ، وكذلك [تسميتهم][4] الذِّلفاء. والذَّلَف : قصر فى الأنف ؛ وإنما يريدون به أيضاً أنَّ ذلك من صفات الظباء، وهى أَشعر نساء العرب عند كثير من الرُّوَاة ؛ وكان الأصمعى يقدِّم ليلى الأخيلية ، وهى ليلى بنت عبد الله بن كعب بن ذى الرحَالة بن معاوية بن عُبَادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وقيل لها الأخيلية لقول جدها كعب :

نحن الأَخايل مايزَالُ غلامُنا ... حتى يَدِبَّ على العصا مذكورا

الخنساء وليلى الأخيلية

قال أبو زيد[5] : [هذا البيت لها فسُمّيت به ، وليلى أغزر بحرا][4]، وأَكثر تصرفا ، وأقوى لفظاً ؛ والخنساء أذهب فى عمود الرثاء . قال المبرد : كانت الخنساء وليلى الأخيلية فى أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول ، وقلما رأيت امرأةً تتقدّم فى صناعة ، وإن قل ذلك ، فالجملة ما قال الله تعالى : « أو من يُنشَّأُ فى الحِلْيَـةِ وهو فى الخصام غير مبين » .

أحسن المراثى

ومن أحسن المراثى ما خلط فيه مدحٌ بتفجعٍ على المرثى ، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح ، ولَهْجَة معربة ، ونظام غير متفاوت ، فهو الغاية من كلام المخلوقين .

واعلم أن من أجل الكلام قول الخنساء :

يا صَخْرُ ورّاد ماء قد تناذَرَه ... أَهْلُ المياهِ فما فى وِرْدِه عَارُ

مَشْىَ السَّبَنْتَى[6] إلى هَيْجَاء معضلةٍ ... لهـا سِلَاحَان أنيابٌ وأظفارُ

وما عجول على بَوٍّ تُطِيفُ بِهِ ... لهـا حنينان إعلانٌ وإسرارُ

---

(١) من م . (٢) منا . (٣) لهذا البيت قصة فى الخزانة : ١ـ٣٩٤ .

(٤) من م ، ا . (٥) فى ا : ابن دريد . (٦) السبنتى : الجرىء .

ترتع[1] فى غفلة حتى إذا ادَّكرتْ ... فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ

يوماً بأوْجَع منى حين فارقنى ... صَخْرٌ وللعيش إحْلاءٌ وإمْرارُ

لم تَرَهُ جارةٌ يَمْشِى بساحتها ... لرِيبةٍ حين يُخْلِى بيتَه الجارُ

قال : ومن كامل قولها[2] :

فلولا كثرةُ الباكين حولى ... على إخوانهم لقتَلْتُ نَفْسِى

وما يبكون مثلَ أَخى ولَكِنْ ... أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأَسِّى

يذكِّرُنى طلوعُ الشمسِ صخراً ... وأَذْكُره لكلِّ غروبِ شمس

يعنى أنَّها تذكره أول النهار للغارة ، ووقت المغيب للأضياف .

* * *

وقد قال ابن الرومى فيما يتعلق بطرَف من هذا المعنى[3] :

رأيتُ الدهرَ يَجْرَحُ ثم يَأْسُو ... يُوَسِّى أو يعوض أو يُنَسِّى

أبَتْ نفسى الهُلاَعَ لرُزْء شيء ... كفى شجواً لنفسى رُزء نفسى

أتجزعُ وحشةً لفراق إلْف ... وقد وطنتها لحلول رَمْسِ

وقد أنكر على من تعلَّل بالتأسى بما قال غيرُه[4] ، فقال فى ذلك :

خليلىَّ قد علّلتمانىَ بالأسى ... فأنتما لو أننى أتعَلَّلُ

أللناس آثارى وإلاَّ فما الأسى ... وعيشكما إلاَّ ضلالٌ مضَلّلُ

وما راحةُ المرزوء فى رُزْء غيره ... أيَحْملُ عنه بعضَ ما يتحمَّلُ

كِلا حامِلَىْ عِبْء الرزية مثقلٌ ... وليس معيناً مثقلَ الظَّهرِ مُثْقَلُ

وضربٌ من الظلم الخفىِّ مكانُه ... تَعَزّيك بالمرزوء حين تَأَمَّلُ

لأنك يأسوك الذى هو كلمُه ... بلا بَصَر لو أن جورَك يَعْدِلُ

---

(١) فى ا : ترتاع ماغفلت، وفى ط : ترتاح. (٢) خزانة الأدب : ١ ـ ٣٩١، اللآلىء : ٧٨٣

(٣) ديوانه : ١٠٣ . (٤) فى ط : عنترة.

عاد إلى الخنساء

وقالت الخنساء :

وقائلة والنعش[1] قد فات خطوها ... لتدركه يا لَهْفَ نفسى على صَخْرِ

ألا ثكلت أمُّ الذين غدَوْا به ... إلى القبر! ماذا يَحْمِلُونَ إلى القبر !

وماذا يُوَارِى القبرُ تحت ترابهِ ... من الجود يابُؤْس الحوادثِ والدهر

فشأنُ المنايا إذ أصابك رَيْبُها ... لتغدُ عَلَى الفتيان بعدك أو تَسْرِ

وهذا المعنى كثير قد مرّت منه قطعة جيدة . ولم تزل الخنساء تبكى على أخويها صخرٍ ومعاوية ، حتى أدركت الإسلام ؛ فأقبل بها بنو عمّها وهى عجوز كبيرة إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقالوا : يا أمير المؤمنين ! هذه الخنساء ، وقد قرّحت آماقَها من البكاء فى الجاهلية والإسلام ، فلو نهيتَها لرجونا أن تنتهى . فقال لها عمر رضى الله عنه : اتقى اللهَ وأيقنى بالموت، قالت : أبكى أبى وخير بنى مضر صخرا ومعاوية ، وإنّى لموقِنَة بالموت ، قال : أتبكين عليهم وقد صاروا جَمْرَةً فى النار ؟ قالت : ذلك أشدّ لبكائى عليهم ! فرقَّ لها عمر وقال : خلّوا عن عجوزكم لا أبا لكم ! فكل امرئ يبكى شجوهُ ، ونام الخلى عن بكاء الشجى .

أخواها

وكان عمرو بن الشريد يَأْخُذ بيد ابنيه معاوية وصخر فى الموسم ، ويقول : أنا أبو خَيْرَى مضر ، فمن أنكر فليغيّر ، فلا يغيّر ذلك عليه أحد . وكان يقول : من أتى بمثلهما أخوين من قبل فله حكمه ، فتُقِرّ له العرب بذلك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : أنا ابنُ الفواطم من قريش ، والعواتك من سُليم ، وفى سُليم شرف كثير .

وكان يقال لمعاوية فارس الجَوْن ، والجَوْن من الأضداد ، يقال للأسود والأبيض . وقتلته بنو مرّة ، قتله هاشم بن حَرْمَلة فطلبه دُرَيد بن الصمة حتى قتله ، وأما صخر فغزا أسد بن خزيمة فأصاب فيهم ، وطعنه ثور بن ربيعة الأسدى ، فأدخل فى جوفه حلقا

---

(١) فى ط : والنفس .

من الدرع فانْدَمَل عليه ، فنتأت قطعة من جنبه مثل اليد، فمرض لها حولا ، ثم أُشير عليه بقطعها فأحموا له شفرة ثم قطعوها ، فما عاش إلاّ قليلا .

من شعر ليلى الأخيلية

ومن جيد شعر الأخيلية ترثى توبة ابن الحميّر الخفاجى ، وكان لها محبًّا ، وله فيها شعرٌ كثير ، وقتله بنو عوف بن عُقيل قتله عبد الله بن سالم [1] :

نظرتُ وركنٌ من عمايَة دوننا ... وأركان جسمى أىّ نظرة ناظرِ [2]

فآنست خيلا بالرقىّ [3] مغيرةً ... سَوابقُها مثل القَطا المتواتر

فإنْ تَكُنِ القتْلَى بَواءً فإنكم ... فَتًى ما قتلتم آل عَوْفِ بن عامرِ

فلا يُبْعِدَنْك الله يا تَوْبَ إنما ... لقاءُ المنايا دَارِعا مثل حاسِرِ

أَتته المنايا بين دِرْعٍ [4] حصينةٍ ... وأسمرَ خطىٍّ وجرداء [5] ضَامِرِ

كأنّ فَتى الفتيان تَوْبَة لم يُنِخْ ... قلائص يَفْحَصْنَ الحصَى بالكَراكِرِ [6]

ولم يُدْعَ يوماً للحِفَاظ وللنُّهى [7] ... وللحرب تَرْمِى نارَها بالشَّرائر [8]

وللبازل الكَوْمَاء يَرْغُو حُوارُها ... وللخيل تَعْدُو بالكُماةِ المَسَاعِرِ [9]

فتى لا تَخَطَّاه الرِّفَاق ولا يرى ... لِقِدْرٍ عِيَالا دون جارٍ مُجَاوِرِ

فتى كان أَحْيا [10] من فتاة حييَّةٍ ... وأَشجع من لَيْثٍ بخفَّانَ [11] خَادِرِ

فتى لا تراهُ النَّاب إِلْفاً لسَقْبِها ... إذا اختلجَتْ بالناس إِحْدَى الكبائر

وكنتَ إذا مولاه خاف ظُلامَةً ... أَتاك فلم يقنع [12] سِوَاك بِناصِرِ

---

(١) الأغانى : ١١ــ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، شاعرات العرب : ١٣٩ .

(٢) فى هذا البيت خلاف كثير فى روايته ، وارجع إلى الأغانى: ٢٢٤ .

(٣) الرقى : موضع . (٤) فى الأغانى : دون زغف. والزغف :الدروع المحكمة.

(٥) فى الأغانى : وخوصاء ضامر . والخوصاء الضامر:الفرس .

(٦) الكراكر : جمع كركرة : رحى زور البعير أو صدره .

(٧) فى الأغانى : وللندا . (٨) فى م : بالشراشر . (٩) جمع مسعر ، وهو الذى يوقد نار الحرب . (١٠) فى الأغانى : وتوبة أحيا . (١١) خفان : موضع قرب الكوفة وهو مأسدة ، وخادر : مقيم . (١٢) فى الأغانى: ولم يهتف .

وقد كنتَ مَرْهُوبَ السّنان وبَيِّنَ الْـ ـلسان ومدلاج[1] السُّرى غيرَ فاتر

ولا تأخذ الـكومُ الجِلادُ سلاحَها لتوبةَ فى حدّ الشتاء الصَّنابر[2]

وفودها على معاوية

وقال بعضُ الرواة[3] : بينا معاوية يسير إذ رأى راكبا . فقال لبعض شُرَطه : ائتنى به وإياكَ أن ترُوعه . فأتاه فقال : أجب أمير المؤمنين. فقال : إياه أردت . فلما دنا الراكب حدَر لثامه فإذا ليلى الأخيلية فأنشأت تقول :

معاوِىَ لم أكَدْ آتيك تَهْوى برَحْلى نحو ساحتك الركابُ

تجوبُ الأرضَ نحوكَ ما تأنّى إذا ما الأكْمُ قنّعها السرابُ

وكنتَ المرتجى وَبك استغاثت لِتنْعشها إذا بخل السحابُ

قال : فقال : ما حاجتُك ؟ قالت : ليس مثلى يَطْلُب إلى مثلك حاجة ؛ فتخيّر أنت ! فأعطاها خمسين من الإبل ؛ ثم قال: أخبرينى عن مُضَر . قالت : فاخِرْ بمضر[4]، وحارِب بقيس ، وكاثِر بتميم ، وناظر بأسد. فقال: ويحك ياليلى ! أكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت : ياأمير المؤمنين ، ليس كل الناس يقول حقا، الناسُ شجرةُ بَغْىٍ ، يحسدون النّعم حيث كانَتْ ، وعلى مَنْ كانت ؛ كان ياأَميرَ المؤمنين سَبطْ البنان ، حديدَ اللسان ، شَجَى الأقران ، كريم المَخْبَر ، عفيف المِئزر ، جميل المنظر ، وكان كما قلت ، ولم أتعدّ الحق فيه :

بعيدُ الثّرى لايبلغ القرْم[5] قَعْرهُ ألدّ مُلِدٌّ[6] يَغْلِبُ الحقَّ باطِلُهْ

فقال معاوية: ويحك ياليلى ! يزعم الناس أنه كان عاهرا خاربا ، فقالت من ساعتها مرتجلة[7] :

مَعاذَ إلهى قد كان والله توبةٌ جواداً على العِلاَّت جَمًّا[8] نوافله

---

(١) فى ا ، م : ومجذام ، وفى الأغانى : وقد كان طلاع النجاد وبين ...

(٢) فى الأغانى : نحس الشتاء . وصنابر الشتاء : شدة برده. (٣) شاعرات العرب : ١٤٤.

(٤) فى ا : فاخر بقريش . (٥) فى ا : القوم . (٦) الالدد : شدة الخصومة .

(٧) الأغانى : ١١-٢٣٧ ، شاعرات العرب : ١٤٥ (٨) فى ا : عما .

أغرَّ خَفاجِيًّا(١) يرى البخل سبةً ... تُحالِف(٢) كفّاه الندَى وأنامله

عفيفا بعِيدَ الهمّ صُلْباً قَناتهُ ... جميلا محيّاهُ قليلا غوائِله

وكان إذا ما الضيفُ أرْغَى بعيرهُ ... لديه أتاه نَيْلُه وفَواضِله

وقد علم الجوع الذى كان ساريا ... على الضيف والجيران أنّك قاتله

وأنك رَحْبُ الباع ياتَوْبُ بالقِرَى ... إذا ما لئيمُ القوم ضاقتْ مَنازِله

يَبيت قريرَ العين مَنْ كان جارُه ... ويُضحِى بخير ضَيْفه ومُنازِله

فقال لها معاوية : ويحك ياليلى ! لقد جُزْتِ بتوبة قَدْرَه، فقالت : ياأمير المؤمنين، والله لو رأيتَه وخبَرته لعلمت أنّى مقصرة فى نَعْته ، لا أبلغ كُنْهَ ما هو له أهل . فقال لها معاوية : فى أى سنٍّ كان ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

أَتَتْه المنايا حين تمّ تَمامُهُ ... وأقْصَرَ عنه كلُّ قِرْن يُناضِله

وصار كليثِ الغابِ يَحْمِى عَرينَه ... فترضَى به أشبالُه وحلائِله

عطوفٌ حليمٌ حين يُطْلَب حلمهُ ... وسُمٌّ ذُعَاف لا تُصابُ مَقاتله(٣)

فأمر لها بجائزة . وقال : أى ما قلت فيه أشعر ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، ماقلت شيئا إلاّ والذى فيه من خِصَال الخير أكثر ، ولقد أجدت حيث أقول(٤) :

جزى اللهُ خيرا والجزاءُ بكَفّهِ ... فـتًى من عُقيل سادَ غيرَ مكلَّفِ

فتى كانت الدنيا تَهُون بأسْرها ... عليه فـلم ينفكّ جَمَّ التصرُّفِ

ينالُ علياتِ الأمور بهَوْنةٍ(٥) ... إذا هى أعْيَت كلّ خِرْقٍ مُسوَّف(٦)

هو المِسك بالأَرْى الضحا كى شِبْتهُ ... بِدرْ ياقةٍ من خمْر بَيْسان قَرْقَفِ(٧)

---

(١) منسوب إلى خفاجة من آباء توبة . (٢) فى ا : تحلب .

(٣) فى الأغانى : غضوب حليم . وسم زعاف وذعاف : قاتل لساعته .

(٤) الأغانى : ١١ــ٢٣٨ . (٥) الهونة : الرفق والسهولة .

(٦) فى الأغانى : خرق مشرف . (٧) فى ا : هو الأرى بالمسك الضحاحى ، وفى الأغانى :

هو الذوب بل أرى الخلايا شبيهه ... بدر ياقة من خمر بيسان قرقف

وبيسان : بلد مشهورة بالخمر فى الشام . القرقف : الخمر يرعد عنها صاحبها، وارجع إلى الأغانى فى رواية الشطر الأول .

ويقال : إنها دخلت على مروان بن الحكم فقال : ويحك يا ليلى ! أكما نعت توبة كان ؟ قالت : أصلح اللهُ الأمير ! والله ما قلتُ إلا حقا ، ولقد قصّرت ، وما رأيت رجلا قطّ كان أربط على الموت جَأْشا ، ولا أَقَلَّ انحياشاً حين تحتدم بُرَاكاء الحرب ، ويحمى الوطيس بالطّعن والضرب ، كان والله كما قلت[1] :

فتى لم يَزَلْ يزداد خَيْراً لَدُن نشا ... إلى أن عَلاه الشَّيْبُ فوق المسايح

تراه إذا ما الموتُ حلَّ بورده ... ضَرُوباً على أقرانه بالصفائح

شجاعٌ لدى الهيجاء ثَبْت مُشَايحٌ ... إذا انحازَ عن أَقْرانِه كلُّ سَابح

فعاش حميداً لا ذميما فماله ... وَصُولاً لقُرْباه يُرى غيرَ كالح

فقال لها مروان : كيف يكون تَوبة على ما تقولين وكان خارباً ؟ « والخارب سارق الإبل خاصة » . فقالت : واللهِ ما كان خارباً ، ولا للموت هائبا ، ولكنه كان فتًى له جاهلية ، ولو طال عمره ، وأنساه الموتُ لارْعَوى قلبه ، ولقضى فى حب الله نَحْبه ، وأقصر عن لهوه ، ولكنه كما قال ابن عمه مسلمة بن زيد :

فلله قوم غادروا ابن حمير ... قتيلا صريماً للسيوف البواتر

لقد غادَرُوا حَزْماً وعزماً ونائلاً ... وصَبْراً على اليوم العبوس القماطرِ

إذا هاب وِرْد الموت كل غَضَنْفَر ... عظيم الحوايا لُبُّه غَيْرُ حاضرِ

مضى قُدُماً حتى يلاقى وِرْدَهُ ... وجاد بسَيْبٍ فى السنين الكواشر[2]

فقال لها مروان : يا ليلى ، أعوذُ بالله من درك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، فوالله لقد مات تَوْبة ، وإن كان من فتيان العرب وأشدائهم ، ولكنه أدركه الشقاء ، فهلك على أحوالِ الجاهلية ، وترك لقومه عَداوة .

ثم بعث إلى ناس من عقيل فقال : والله لئن بلغنى عنكم أمرٌ أكرهُه من جهةِ توبة لأصلبنكم على جُذوع النخل ، إياكم ودَعْوَى الجاهلية ، فإن الله قد جاء بالإسلام ، وهدم ذلك كله .

---

(١) شاعرات العرب : ١٣٨ . (٢) فى م : الفواشر ، وفى ا : البواسر .

قدومها على الحجاج

وروى[١] أبو عبيدة عن محمد بن عمران المرزبانى قال : قال أبو عمرو بن العلاء الشيبانى : قدمت ليلى الأخيلية على الحجاج بن يوسف وعنده وجوهُ أصحابه وأشرافهم ، فبينا هو جالسٌ معهم إذ أقبلت جارية فأشار إليها وأشارت إليه ، فلم تلبث أن جاءت جاريةٌ من أجمل النساء وأكملهن ، وأتمهن خَلْقاً ، وأحسنهن محاورة ؛ فلما دنت منه سلّمت ثم قالت : أتأذنُ أيها الأمير قال : نعم ، فأنشدت[٢] :

أحجَّاجُ إنّ الله أعطاك غايةً ... يُقَصِّرُ عنها مَنْ أراد مَداهَا
أحَجَّاجُ لا يُفْلَلْ سِلاحُك إنما الـ ... ـمنايَا بكفِّ الله حيثُ تراها
إذا ورد الحجاجُ أرضا مريضةً ... تَتَبَّع أقصى دائها فشفاهَا
شفاها من الداء العَياء[٣] الذى بها ... غُلامٌ إذا هزَّ[٤] القناةَ ثناهَا
إذا سَمِع الحجاجُ صَوْت كتيبةٍ ... أعدَّ لها قَبْلَ النزولِ قِراهَا
أعدّ لها مصقولة فَارِسيةً ... بأيدى رجالٍ يَحْلُبون صَراها[٥]

حتى أتت على آخرها . فقال الحجاج لمَنْ عنده : أتَعرفون مَنْ هذه ؟ قالوا : ما نعرفها ؛ ولكن ما رأينا امرأة أطلق لساناً منها ، ولا أجمل وَجْها ، ولا أحسن لَفْظا ، فمَنْ هِيَ أصلح اللهُ الأمير ؟ قال : هى ليلى الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير التى يقول فيها[٦] :

ولو أنّ ليلى الأَخْيَلِيّة سلّمتْ ... علىّ ودونى جَنْدَلٌ[٧] وصفائحُ
لسلَّمْتُ تسليمَ البَشاشة أوْزَقَا[٨] ... إليها صدًى من جانب القبر صائحُ

ثم قال لها : يا ليلى ، أنشدينا بعض ما قاله فيك توبة فأنشدته[٩] :

---

(١) فى ا : أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى . (٢) الأغانى : ١١ــ٢٤٧ ، اللآلئ : ٢٨٠ شاعرات العرب : ١٤٨ . (٣) فى الأغانى : العضال. (٤) فى الأغانى : رز . والرز : الصوت.
(٥) الصرى : بقية اللبن . (٦) الأغانى : ١١ــ٢٤٤ . (٧) فى م ، ا : وفوق تربة.
(٨) زقا : صاح . (٩) الأغانى : ١١ــ٢٠٨ .

نَأَتْك بليلى دارها لا تَزُورها ... وشطَّت نواها واستمرَّ مَرِيرُها
وكنتُ إذا ما زُرْتُ ليلى تبرقعَتْ ... وقد رابنى منها الغَداةَ سفورُها
علىَّ دِماءُ البُدْن إن كان زَوْجُها ... يَرَى لىَ ذنباً غيرَ أنى أزُورُها
وأنى إذا ما زرتُها قلت : يا اسْلَمى ... فهل كان قولى اسْلَمِى ما يَضِيرُها
حمامةَ بَطْن الوادِيَيْن تَرَنَّمى ... سقَاك من الغُرِّ الغوادى مَطيرُها
أبينى لنا لازال رِيشُك ناعماً ... ولازِلْتِ فى خضراء دانٍ بَرِيرُها[1]
وقد تذهبُ الحاجات يطلبها الفتى ... شَعاعاً وتَخْشَى النفس مالا يَضِيرُها
أيذهب رَيْعَان الشباب ولم أزُرْ ... غرائر من هَمدان بيضاً نُحُورُها
ولو أن ليلى فى ذُرَى مُتَمَنّع ... بنَجْرَان لالتفّت علىَّ قصورها
يقرّ بعينى أنْ أرى العِيسَ تَرْتَمى ... بنا نحو ليلى وهى تجرى صقورها
وأشرِف بالغور[2] اليَفَاع لعلَّنى ... أرى نَار ليلى أو يرَانى بَصِيرُها
أرتنا حِمَام المَوْتِ ليلى ورَاقَنا ... عيونٌ نَقِيّاتُ الحواشى تُدِيرها

حتى أتت على آخرها. فقال: ياليلى ، ما رَابه من سفورك ؟ فقالت : أيها الأمير، ما رآنى قط إلا متبرقعة ، فأرسل إلىّ رسولا إنه ملمٌّ بنا ، فنظر أهلُ الحىّ رسوله فأعدُّوا له وكمنوا ؛ ففطنت لذلك من أمرهم ، فلما جاء ألقيت بُرقعى وسَفَرْت ، فأنكر ذلك ، فما زاد على التسليم وانصرف راجعاً . فقال لها الحجاج : لله درك ! فهل كانت بينكما ريبة قط ؟ قالت : لا والذى أسأله صلاحك ، إلا أنى رأيت أنه قال قولا فظننت أنه خضع لبعض الأمر فقلت[3] :

وذِى حاجة قلنا له لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ماحَيِيتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغى أَن نَخُونهُ ... وأنت لأُخْرى صاحبٌ وخليل[4]

---

(١) البرير : ثمر الأراك . (٢) فى م : بالقور . (٣) الأغانى : ١١ـ٢٠٧ ، الأمالى : ١ـ٩٨ . (٤) فى الأغانى : فارغ وحليل .

فما كلمني بشيء بعدذلك حتى فرّق الموت بيني وبينه. فقال لها : حاجتك ! قالت : أَن تحملني إلىقتيبة بن مسلم على البريد إلى خراسان، فحملها فاستظرفها قتيبة ووَصلها، ثم رجعت فماتت بساوة[1]، وقَبْرُها هناك .

وروى المبرد أنها لما أنشدته الأبيات : أَحجاج إن الله أَعطاك...إلى قولها : غلام إذا هزّ القناة ثنَاها . قال لها : لا تقولى غلام ، ولـكن قولى : همام ، ثم قال لها : أى نسائى أحب إليك أن أُنزلك عندها ؟ قالت : ومن نساؤك أيها الأمير ؟ قال : أم الجلاس بنتُ سعيد بن العاص الأموية، وهندبنت أسماء بن خارجة الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العَتَـكيّة[2] . قالت : هذه أَحب إلى . فلما كان الغد دخلت إليهفقال : ياغلام أعطها خمسمائة . قالت : أيها الأمير ، اجعلها أُدْما . قيل لها: إنما أمر لك بشاء ، فقالت : الأميرُ أَكرم من ذلك؛ فجعلها إبلا أُدْما استحياء ؛ وإنما كان أمر لها بشاء [أولا ، والأدم أكرمها][3] .

وأَول هذا[4] الحديث عن رجل من بنى عامر بن صعصعة يقال له وَرْقاء قال : كنت عند الحجاج فدخل الآذِن فقال : أَصلح اللهُ الأمير ! بالباب امرأة تَهْدِرُ كما يَهْدِرُ البعير النادّ[5] . قال : أَدْخِلْها، فلما دخلت نَسبها فانتسبَتْ له . فقال : ما أَتى بك ياليلى ؟ قالت: إخلافُ النجوم ، وقلّةُ الغيوم ، وكَلَب البَرْد[6] ، وشدة الجَهْد ، وكنت لنا بعد الله الرّفد[7] .

قال لها : أخبرينى عن الأرض . قالت : الأرض مغبَرَّة ، والفِجَاج مقشعِرّة ، وأصابتنا سنون مُجْحِفة مُظْلِمة ، لم تَدَعْ لنا هبَعاً ولا ربعاً، ولا عافِطة ولانافطة[8] ، أهلـكت الرجال، ومزّقت العِيَال ، وأفسدت الأموال. وأنشدت الأبيات التى مضت

---

(١) فى الأغانى : فماتت بالرى . (٢) فى ط : القيسية . (٣) من م ، ا .

(٤) الأغانى : ١١ــ ٢٤٠ . (٥) الناد : الشارد . (٦) كلب البرد : شدته .

(٧) فى الأغانى : الرد ،والرد : الـكهل والمعقل . (٨) العافطة : الضائنة والنافطة : الماعزة .

آنفاً؛ فالتفت الحجاجُ [إلى أصحابه[1]] . وقال : هل تعرفون هذه ؟ قالوا : لا . قال : هذه ليلى الأخيلية التى تقول :

نحن الأَخايلُ لا يزال غلامُنا ... حتى يَدِبَّ على العَصَا مذكورا[2]

تبْكِى الرماحُ إذا فقَدْنَ أكفَّنَا ... حزناً وتلقانا[3] الرِّفاق بُحورا

وفى آخر حديثها قال لها : أنشدينا بعض شعرك فأنشدته[4] :

لعَمْرك مابالموتِ عارٌ على الفتى ... إذا لم تُصِبْه فى الحياة المَعَايرُ

ومن كان مما يحدث الدهر جازعا ... فلابدَّ يوماً أن يُرَى وهو صَابِر

فلا يبعِدنْك الله ياتَوْب هالكا ... لدى الحرب إنْ دارَتْ عليك المقادرُ

فكل جديد أو شباب إلى بلًى ... وكلُّ امرئ يوما إلى اللهِ صائِرُ

وكلُّ قرينَىْ أُلْفَة لتفرُّق ... شَتَاتٍ وإن ضنّا وطال التَّعَاشُر

فأقسمت أَبكى بعد توبةَ هالكا ... وأحفل من دارت عليه الدوائر

فقال الحجاج لصاحب له : اذهب بها فاقْطَع عنى لسانها، فدعا لها بالحجّام ليقطَع لسانها . فقالت له : ويحك ! إنما قال لك الأمير : اقطع لسانى بالعطاء ، فارجع إليه فاسْأَله ، فسأله فاستشاط غيظاً، وهمّ بقطع لسانه، [ثم أمر بها فأدخلت][1] فقالت : أيها الأمير ، كاد يقطع مِقْولى ، وأنشدته[5] :

حجّاجُ أنت الذى ما فوقَه أَحَدٌ ... إلا الخليفة والمستغفَر الصَّمَد

حجاج أَنْتَ شهابُ الحَرْب إن لقحت ... وأَنْتَ للناس نورٌ فى الدُّجَا[6] يَقِدُ

* * *

من النقد

احتذى الحجاجُ فى قوله : اقطع «لسانها» قول النبى صلى الله عليه وسلم لما أعطى المؤلفة قلوبهم يوم حُنَين مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين فسخطها وقال :

---

(١) من م ، ا . (٢) فى الأغانى : مشهورا . (٣) فى الأغانى : جزعا وتعرفنا .

(٤) الأغانى : ١١ـ٢٣٤ ، ٢٤١ . (٥) الأغانى: ١١ـ٢٤٢

(٦) فى ا : نورضوءه .

أتجعل نَهْبِي ونهبَ العُبَيْـــد بين عُيَيْنَة والأقرعِ
وما كان حِصْنٌ ولا حَابسٌ يفوقان مِرْداسَ فى مَجْمَعِ
وما كنت إلا امرأً منهمُ ومن تضع اليوم لا يرفع

العُبيد اسم فرسه ، وحصن [الذى ذكره][1] هو أبو عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة بن بَدْر سيد فزارة ، وحابس أبو الأقرع بن حابس ، وقد تقدم نسبه . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بإحضاره فقال : أنت القائل :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة

وكان النبى عليه الصلاة والسلام كما قال الله عز وجل : « وما علَّمْناه الشِّعْرَ وما ينبغى له ». فقال : قم ياعلى فاقطع لسانه . قال العباس : فقلت : ياعلىّ؛ وإنك لقاطع لسانى ؟ قال : إنى مُمْضٍ فيك ما أمرت ، فمضى بى حتى أدخلنى الحظائر ، فقال : اعتدّ مابين الأربعين إلى مائة، قلت: بأبى أنت وأمى! ماأحلمكم وأعلمكم وأعدلكم وأكرمكم ! فقال : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أعطاك أربعين ، وجعلك من المهاجرين [فإن شئت][1] فخُذْها، وإن شئت فخُذْ مائة ، وكن من المؤلَّفة قلوبهم . فقال : أشر علىّ . فقال : إنى آمرك أن تأخذ ما أعطاك . فأخذتها .

* * *

قدومها على عبد الملك

وكانت ليلى الأخيلية قد حاجّت النابغة الجَعْدى فأفحمته ، ودخلت على عبد الملك ابن مروان وقد أسنّت فقال : ما رأى تَوْبَةُ فيك حتى أحبك ؟ قالت : رأى فىّ ما رأى الناسُ فيك حين ولّوك ! فضحك عبدُ الملك حتى بدَتْ له سن سوداء كان يُخفِيها .

* * *

هند الضبابية

وقالت هند بنت أسد الضبابية[2] :

لقد مات بالبيضاء من جانب الحِمَى فتى كان زَيْناً للمواكب والشَّرْبِ

(٤) من م ، ا . (٢) شاعرات العرب : ٦٦ ترثى أخاها .

يلوذُ به الجانِى مخافةَ ما جَنَى ... كما لاذَتِ العَصْماء بالشاهقِ الصعبِ
تظلُّ بناتُ العمِّ والخالِ حَولهُ ... صوادِىَ لاَ يرْوَيْن بالباردِ العَذْبِ

أم خالد النميرية

وقالت أم خالد النميرية [تشبب بأثال الكلابى] (١) :

إذا ما أتتنا الريحُ من نحو أرضهِ ... أتتنا بريَّاه فطاب هبوبُها
أتتنا بِمسك خالط المسكَ عَنْبَر ... وريح خزامى باكرتها جَنُوبها
أحِنُّ لذِكْرَاه إِذا ما ذَكَرْتهُ ... وتنهلّ عبراتٌ تَفِيضُ غُروبها
حنينَ أسيرٍ نازحٍ شُدّ قيدهُ ... وإعوالَ نَفْس غاب عنها حَبِيبُها

أم الضحاك الضبابية

وأنشد أبو العباس أحمد بن يحيى [ثعلب] (٢) لأم الضحاك المحاربية وكانت تحب رجلا من الضباب حباً شديداً (٣) :

يأيها الراكب الغادِى لِطيَّتهِ ... عرِّج أبثّك عن بعض الذى أجِدُ
ما عالَج الناسُ من وَجْد تضمّنهم ... إلا وجدت به فوق الذى وجَدوا
حسبى رِضاه وأنّى فى مسرَّتهِ ... ووده آخرَ الأيام أجتهدُ

وقالت (٤) :

هل القلبُ إن لاَقَى الضِّبابِىَّ خالياً ... لدى الرُّكْنِ أو عند الصَّفَا يتحرَّجُ
وأَزْعَجنا قُربُ الفراقِ وبيننا ... حديثٌ كتنفيس (٥) المريضين مُزْعج
حديثٌ لو انّ اللحمَ يُشْوَى بحره ... غَرِيضا أَتى أصحابَه وهو مُنْضَجُ

حليمة الخضرية

وأنشد الزبير بن بكار لحليمة الخُضْرية (٦) ، وقد أنشدها المبرد لنبهان العَبْشمِى وهو أشبه :

---

(١) من ا ، م ، وفى شاعرات العرب : ١٨٢ ترثى ولدها ، اللآلىء : ٦٤١ .

(٢) ليس فى ا ، م. (٣) شاعرات العرب : ٦٤ : طلقها الرجل فقالت ، وفى الأمالى : وقرأت لزينب بنت فروة المرية فى ابن عم لها يقال له المغيرة : ٢ـ٨٧ .

(٤) شاعرات العرب : ٦٥ ، الأمالى : ٢ـ٨٧ . (٥) فى شاعرات العرب والأمالى: كتنشيج . (٦) شاعرات العرب: ٥٠ ، اللآلىء ٢٢٦ ، الأمالى: ١ـ٦٣

يقرُّ بعينى أن أرى مَنْ مكانه ذُرَى عَقِداتِ الأجرعِ المُتَقَاوِدِ
وأَنْ أَرِدَ الماءَ الذى شربتْ بهِ سُلَيْمَى وإن ملَّ السُّرى كلُّ واخِدِ
وأُلْصِقُ أحشائى ببَرْدِ تُرَابِهِ وإِنْ كان مخلوطاً بسمِّ الأَساوِدِ

الفارعة بنت شداد

وقالت الفارعة بنت شداد ترثى أخاها مسعودا(١) :

يا عين بَكِّى لمسعود بن شدَّادِ بكاءَ ذِى عبرات شَجْوُه بادِى
من لا يذابُ له شَحْمُ السَّديفِ ولا يَجْفُو العِيالَ إذ ما ضُنَّ بالزادِ
ولا يحلُّ إذا ما حلّ مُنْتَبِذاً يخشى الرزِية بين المالِ(٢) والنادِى
قوّالُ مُحْكَمة نَقّاضُ مُبْرَمَةٍ فتاحُ مُبْهَمَةٍ حبَّاس أَوْرَادِ
قَتّالُ مَسْغَبَةٍ وَثّاب مَرْقَبةٍ مَنّاعُ مَغْلَبَة فكَّاكُ أَقيادِ
حَلّالُ مُمْرِعَة فَرّاج مُفْظِعة حمّالُ مُضْلِعَةٍ طَلاّعُ أَنجاد
حَمّالُ أَلوِيةٍ شهّادَ أَنْدِية شدّاد أَوْهِيَة فرّاج أَسْدَاد(٣)
جمّاع كلِّ خصالِ الخير قد علموا زينُ القرين ونَكْل الظالمِ العادِى
أَبا زُرَارة لا تبعد فكلُّ فتًى يَوْماً رهينُ صفِيحاتٍ وأَعْوَادِ
هلا سقيْتُم بنى جُرْمٍ أسيرَكُم نَفْسِى فداؤُك من ذى كُرْبةٍ صادِى
نعم الفتى ، ويمينِ اللهِ ، قد علموا يَخْلُو به الحىُّ أو يَغْدو به الغَادِى
هو الفتى يحمدُ(٤) الجيرانُ مشهدَهُ عند الشتاءِ وقد هَمُّوا بإخمادِ
الطاعن الطعنةَ النّجلاءَ يَتْبَعُها مُثْعَنْجِرًا بعد ما تَغْلى بإِزْبادِ
والسابئُ الزّقّ للأَضيافِ إن نزلُوا إلى ذَراهُ وغيثُ المُحْوِجِ الغَادِى

والمحسنات من النساء كثير ، وقد تفرّق لهن فى أضعاف هذا الكتاب مااختير.

(١) شاعرات العرب : ٦٩ ، الأمالى : ٢ـ٣٢٤ . (٢) فى ا ، والأمالى : الماءوالبادى.
(٣) فى ا ،م : أشداد . (٤) فى ا : تحمد النيران ، وفى م : تمدح الجيران .

[فى البكاء ووصف الدموع]

وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب[١] :

ومستنجد[٢] بالحُزْنِ دمعا كأنهُ ... على الخد مما ليس يرْقأ حائرُ

إذا ديمةٌ منه استقلّت تهلّلتْ ... أوائلُ أخرى مالهنّ أواخرُ

مَلاَ مُقلتيه الدمعُ حتى كأنهُ ... لِمَا انهلَّ من عينيه فى الماءِ ناظر

وينظر من بين الدموعِ بمُقْلةٍ ... رمَى الشوقُ فى إنسانِها فهو ساهِرُ

وقال آخر ـ ورُوِيت لقيس بن الملوّح[٣] :

نظرتُ كأنى من وراءِ زجاجةٍ ... إلى الدار من ماء الصبابة أنظرُ

فعيناى طوْرا يَغْرقان من البُكا ... فأَعشى وطورا تحسِران فأُبصر

وقال غيلان[٤] :

وما شَنّتا خَرْقاءَ وَاهية الكُلَى ... سقى بهما ساقٍ ولما تَبَلَّلا

بأَضيع من عينيك للدّمع كلّما ... توهمْتَ ربعا أو توسمْتَ منزلا

وقال آخر[٥] :

ومما شجانى أنها يوم ودّعتْ ... تولّتْ وماءُ الجفْن فى العين حَائِرُ

فلما أَعادت من بَعيد بنَظْرَةٍ ... إلىّ التفاتاً اسْلَمَتْه المحَاجِرُ

أبو عبادة البحترى[٦] :

وقَفْنَا والعيونُ مشغَّلاتٌ ... يُغالب طرفَها نَظَرٌ كَليلُ

نَهَتْـه رِقبة الواشِين حتى ... تعلَّق لا يَغيض ولا يَسيلُ

---

(١) اللآلئ: ٤٩٦ ، الأمالى: ١ـ٢٠٨ . (٢) فى ا ، م : ومستنجز .
(٣) المختار من شعر بشار: ٣٢٤ ، المعاهد : ٢ـ٨٩ ، الأمالى : ١ـ٢٠٨
(٤) اللآلئ: ٢٦٥ ، الأمالى : ١ـ٢٠٨ (٥) المختار من شعر بشار: ٢٤٧ ، العقد: ٢ـ٢٣١ . (٦) المختار من شعر بشار: ٢٤٧ ، ديوانه : ١ـ١٩٤ ، اللآلئ : ٤٩٦

وأنشد أبو الحسن [جحظة[1]] :

ومن طاعتى إياه أمطر ناظرى ... إذا هو أبدى[2] من ثناياه لى برقا
كأنّ دموعى تُبْصِرُ الوَصْلَ هاربا ... فمن أَجله تَجْرِى لتدركه سَبْقا

أخذ البيت الأول المتنبى فقال[3] :

يبتلُّ خَدّى[4] كلما ابتسمتْ ... مِنْ مَطَرٍ برقُه ثَنَايَاهَا

وقال أبو الشيص ، واسمه محمد بن عبيد الله وهو ابن عم دعبل[5] :

وقائلةٍ وقد بَصُرَتْ بِدَمْعٍ ... على الخدين مُنْحَدِرٍ سَكوبِ
[فقلت لها فداكِ أبى وأمى ... رجمت بسوء ظنك فى الغيوبِ[6]]
أتكذبُ فى البكاء وأَنْتَ جَلْدٌ[7] ... قديماً ما جَسَرْتَ على الذنوبِ
قميصُكَ والدموعُ تجول فيهِ ... وقلبك ليس بالقلب الكئيبِ
كمثل قميص[8] يوسف حين جاءوا ... عليه[9] عشيةً بِدَمٍ كَذُوب
أما واللهِ لو فتّشت قلبى ... لسرّكِ بالعويلِ وبالنحيب
دموعُ العاشقين إذا تلاقَوْا ... بظَهْرِ الغيب أَلسِنةُ القلوبِ

[العباس بن الأحنف]

وقال بشار بن برد : ما زال فتى من بنى حنيفة يُدْخِلُ نفسَه فينا ويُخْرِجُها منا حتى قال[10] :

نزف البكاءُ دموعَ عينك فاسْتَعِرْ ... عينا لغيرك دَمْعُها مِدْرَارُ
مَنْ ذَا يعيرك عينَه تَبْكى بها ... أرأيت عَيْناً للبكاء تُعَارُ !

---

(١) من ا ، اللآلىء : ٤٩٧ ، الأمالى : ١ــ٢٠٩ . (٢) فى الأمالى : لهحين يبدى .
(٣) ديوانه : ٤ــ٢٧١ . (٤) فى الديوان ، وفى م : تبل خدى .
(٥) المعاهد : ٤ــ٩٣ ، وفى ا : وهو ابن دعبل ، وفى ا من هذه الأبيات ١ ، ٤ ، ٦ فقط
(٦) من ا . (٧) فى م : خلق . (٨) فى المعاهد ، م : نظير قميص يوسف .
(٩) فى م : على لباته . (١٠) ديوانه : ٦٨ ، الأمالى : ١ــ٢٠٩ ، اللآلىء : ٣١٤ .

قال : وهذا الذى عناه بشار هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن طلحة بن هرون[١] بن كلدة بن خزيم بن شهاب [بن سالم[٢]] بن حبة بن كليب بن عدى بن عبد الله بن حنيفة — وكان كما قال بعض مَنْ وصفه : كان أحسن خَلْقِ الله — إذا حَدّث — حديثاً ، وأحسنهم — إذا حُدث — استماعا ، وأمسكهم عن مُلاحاةِ إذا خُولِف ، وكان ملوكى المذهب ، ظاهر النّعمة ، حسنَ الهيئة ، وكانت فيه آلاتُ الظَّرْفِ ، كان جميلَ الوجه ، فَارِه المركب ، نظيفَ الثَّوب ، حسن الألفاظ ، كثير النوادر ، رطيب الحديث ، باقيا على الشراب ، كثيرَ المساعدة ، شديد الاحتمال ، ولم يكن هجّاءً ، ولا مدّاحاً ، كان يتنزّهُ عن ذلك ، ويُشَبَّه من المتقدمين بعمر بن أبى ربيعة .

وسُئِل أبو نواس عن العباس وقد ضمّهما مجلس فقال : هو أَرَق من الوَهْم ، وأحسن من الفهم ، وكان أَبو الهُـذيل العلاف المعتزلى إذا ذكره لعَنَه وزَنّاه لأجل قوله[٣] :

وضعت خدِّى لأَدنى من يُطِيف بكم ... حتى احتُقِرْت وما مِثْلى بمحتَقَرِ
إذا أردت انتصارا كان ناصرَكم ... قلبى وما أنا من قلبى بمُنْتَصِر
فأكثروا أو أقـلوا من ملامكم ... فـكلٌّ ذلك محمول على القـدَرِ

وقوله فى البيت الأوسط كقوله[٤] :

قلبى إلى ما ضرَّنى داعِى ... يُـكثرُ أَسْقامى وأَوْجاعِى
لَقلما أبْـقَى على ما أرى ... يوشك أن ينعانىَ الناعى[٥]
كيف احتراسى من عدوى إذا ... كان عدوى بين أضلاعى

وقيل [لعنان[٦]] جارية الناطفى : من أشعرُ الناس ؟ قالت : الذى يقول[٧] :

---

(١) فى م : جون ، وفى ا : حوار . (٢) من م ، ا . (٣) ديوانه : ٦٩ .
(٤) ديوانه : ١٠١ . (٥) فى الديوان : أن ينعى بى الناعى .
(٦) من ا . (٧) ديوانه : ٧٨ .

وأهجركم[١] حتى يقولوا لقد سَلَا ... ولستُ بسالٍ عن هواكِ إلى الحَشْرِ
ولـكن إذا كان المحب على الذى ... يحب شفيقاً نازع[٢] الناس بالهَجْرِ

وقال[٣] [العباس] :

جرى السيلُ فاستبكانىَ السيلُ إذْجرى ... وفاضَتْ له من مقلتىَّ غروب
وما ذاك إلا أن تيقَّنتُ أنهُ ... يمرّ بوادٍ أنتَ منـه قريب
يكون أُجاجاً دونـكم فإذا انتهى ... إليـكم تلقَّى طِيبَـكم فَيطِيب
فياساكنى شَرْقِىّ دجلةَ كلـكُم ... إلى القلب من أَجل الحبيبِ حبيبُ

ابن الأحنف والعتابى

وقال الصولى : ناظرَ أبو أحمد على بن يحيى المنجم رجلا يُعْرَف بالمتفقه الموصلى فى العباس بن الأَحنف والعتّابى ، فعمل علىٌّ فى ذلك رسالة أنفذها لعلى بن عيسى ؛ لأَن الـكلامَ فى مجلسه جرَى . وكان مما خاطبه به أن قال : ما أَهّل نفسَه قطّ العتَّابى لتقديمها على العباس فى الشعر ، ولو خاطبه مخاطبٌ لدَفعه وأنـكَره ؛ لأنه كان عالما لا يُؤْتَى من قلة معرفة بالشعر ، ولم أَرَ أحداً من العلماء بالشعر مثل العتَّابى والعباس، فضلا عن تقديم العتَّابى عليه لتباينهما [فى ذلك][٤] ، وإن العتابى متكلف، والعباس يتدّفق طبعا ؛ وكلامُ هذا سهلٌ عَذْب ، وكلام ذاك متعقّد كزّ ، وفى شعر هذا رقّةٌ وحلاوة، وفى شعر ذاك غِلَظ وجَسَاوة، وشِعْرُ هذا فى فنٍّ واحد وهو الغزل؛ وأكثر فيه وأَحسن ، وقد افتنّ العتَّابى فلم يخرج فى شىء منه عمّا وصفناه .

من أحسن شعر العتابى

وإن من أحسن شعر العتابى قصيدته التى مدح بها الرشيد وأولها :

يا ليلةً لىَ فى حوران[٥] ساهرةً ... حتى تَـكلَّمَ فى الصبح العصافيرُ

وقال فيها[٦] :

فى مآقىّ انقباضٌ عن جُفُونِهما ... وفى الجفون عَنِ الآماقِ تَقْصِيرُ

---

(١) فى الديوان : وأهجر عهدا كى ... (٢) فى الديوان : عامل ، وفى ا : قارع .
(٣) ديوانه : ١٨. (٤) من م ، وفى ا : فى المذهب، وذلك أن العتابى .
(٥) فى ا ، م : جوان . (٦) المختار من شعر بشار : ٢٣ .

وهذا البيت أخذه من قول بشار الذى أَحسن فيه كل الإحسان وهو قوله[١] :

جَفَتْ عَيْنِى عن التغميضِ حتّى ... كأَنَّ جفونَها عنها قِصارُ

فمسخه العتابى ، على أن بشاراً أخذه من قول جميل[٢] :

كأنّ المحبّ لِطول السهاد ... قصيرُ الجفون ولم تَقْصُرِ[٣]

إلا أَنّ بشارا أحسن فيه فنازعهما إياه فأساء ، وإن حقَّ من أخذ معنى قد سُبق إليه أن يصنَعه أَجود من صَنْعَة السابق إليه ، أو يزيد عليه ، حتى يستحقّه ، وأما إذا قصّر عنه فهو مسىءٌ مَعِيب بالسرقة ، مذموم على التقصير .

ولقد هاجى أبا قابوس النصرانى فغُلب عليه فى كثيرٍ مما جرى بينهما على ضَعْف مُنّـة أبى قابوس فى الشعر، ثم قال فى هذه القصيدة[٤] :

ماذا عسى مادِحٌ يُثْنِى عليك وقد ... نادَاكَ بالوَحْىِ تقديسٌ وتطهيرُ

فُتَّ المادحَ إلاَّ أنَّ ألسننا ... مستنطقات بما تُخْفِى الضمائير[٥]

فختم البيت فيها بأثقل لفظة لو وقعت فى البَحر لكدَّرته، وهى صحيحة ، وماشىء أملك بالشعر بعد صحَّة المعنى من حُسْنِ صِحَّة اللفظ ، وهذا عمل التكلف ، وسوء الطبع .

للعباس بن الأحنف إحسان كثير

وللعباس بن الأحنف إحسان كثير ، ولو لم يكن إلا قوله[٦] :

أنكرَ الناسُ[٧] ساطعَ المِسْكِ من دجْـلة ... قد أَوْسَع المشارِعَ طِيبا

فهمُ يعجَبُون منه وما يدْ ... رُون أَنْ قد حَلَلْت منه قريبا

قاسمينى هـذا البلاءَ وإلاّ ... فاجعلى لى من التعزِّى نصيبا

إنّ بعضَ العتابِ يدعو إلى العَتْ ... ب ويؤْذِى به المحبُّ الحبيبا

---

(١) المختار من شعر بشار : ٢٣ (٢) المختار: ٢٣، ديوانه : ٣٦ . (٣) فى المختار:
كأن المحب قصير الجفون ... لطول السهاد ولم تقصر
(٤) الشعراء : ٨٣٩ . (٥) فى ط : التضامير . (٦) ديوانه : ٢٩ .
(٧) فى الديوان : وجد الناس .

وإذا ما القلوبُ لم تُضمِر العَطْـــف فلن يَعْطِفَ العِتَابُ القلوبا

وقوله[١] :

قالت مرضتُ فعُدْتُها فتبرَّمَتْ وهي الصحيحةُ والمريضُ العائدُ

تاللهِ لو أنَّ القلوبَ كقَلْبها ما رَقَّ للولد الصغيرِ الوالدُ

إنْ كان ذنبي في الزيارة فاعْلَمِي أني على كَسْبِ الذنوب لجاهِدُ

ألقيت بين جفون عيني فُرْقَةً فإلى متى أنا ساهِرٌ يا رَاقِدُ

يقعُ البلاءُ ويَنْقَضِي عن أهله وبلاءُ حُبِّك كلَّ يوم زائِد

سمَّاك لى ناسٌ وقالوا إنها لهى التى تَشْقَى بها وتُكابدُ

فجحدتهم ليكونَ غيركِ ظَنهم إنى ليعجبنى المحبُّ الجاحِدُ

وقوله[٢] :

إنى وإن كنتِ قد أسأت بىَ الـ يَوْمَ لراجٍ للعَطْفِ منك غدا

أستمتع الله بالرجاء وإن لم أر منكم ما أرتجى أبدا

وله[٣] :

أَهْدَى له أحبابه أترجَّةً فبكى وأشفق من عِيافة زاجرِ

متطيرا منها أتَتْه وجِسْمُها[٤] لونان بَاطنها خِلَافُ الظَّاهِرِ

ولئن وفَّى أبو أحمد العباسَ حقَّه ، لقد ظلم العتّابى ما كان مستحقه من أسر الـكلام ، وجَوْدَةِ رصف النظام . قال الصولى فى نسب العباس : وكان من خؤولته : هو العباس بن الأحنف بن الأسود بن قُدامة بن هيمان من بنى [هفّان بن الحارث بن][٥] ذهل بن [الديل بن][٥] حنيفة . وله يقول الصريع يهجوه[٦] :

---

(١) ديوانه : ٤٨ . (٢) ديوانه : ٥٧ . (٣) ديوانه : ٧٤ .

(٤) فى الديوان : لأنها ، وفى م ، ا : وطعمها . (٥) من م ، ا .

(٦) الشعراء : ٨٠٣ .

بنو حنيفةَ لا يَرْضَى الدعيُّ بهم[(١)] فاتْرُكْ حنيفةَ واطْلُب غيرها نَسَبَا
اذهب إلى عربٍ تَرْضى بنسبتِهم إنى أرى لك لونا يُشبه العربا

وقال [أبو أحمد][(٢)] العباس :

حُرٌّ دعاهُ الهوَى سِرًّا فَلَبّاهُ طَوْعا فأَضْحَك مَوْلَاهُ وأبكاهُ
فشاهدت بالذى يُخْفى لَوَاحِظه وعذَّلَتْهَا بفيضِ الدمع عَيْناه
جازيتنى إذ رعيت الودَّ بعدك أن وكَّلْتِ طَرْفى بنجم الليل يرعاه
اللهُ يشهدُ أنى لم أخُنْك هوًى كفاك بيّنة أنْ يَشْهَدَ اللهُ

وقال[(٣)] :

يا من يُكاتمنى تغيُّرَ قَلْبِهِ سأكُفُّ نفسى قبل أن تتبرما[(٤)]
وأصُدّ عنك وفى يدىَّ بقيّةٌ من حَبْلِ ودِّك قبل أن يتصرَّمَا
يا للرجال لعاشقَين تَوَاقفَا وتخاطَبا من غَيْرِ أنْ يتكلَّما
حتى إذا خافَا العيونَ وأشفقا جعلا الإشارةَ بالأَنامل سُلَّمَا

وقال[(٥)] :

الله يعـلمُ ما أردت بهجركم إلاَّ مسارَةَ العدوِّ الـكاشحِ
وعلمت أن تسترِّى وتباعدى أبْقَى لوَصْلِك من ذُنوٍّ فَاضحِ

وقال[(٦)] :

يَهيمُ بحرّان[(٧)] الجزيرة قَلْبُهُ وفيها غزَالٌ فاترُ الطَّرْفِ ساَحِرُهْ
يُؤَازِرُه[(٨)] قَلْبى علىّ وليس لى يدَانِ بمَنْ قلبى علىَّ يُؤَازره

(١) فى م : بكم . (٢) ليست فى م ، ا . (٣) ديوانه : ١٣٦ .
(٤) فى الديوان : تتحرما . (٥) ديوانه : ٤٤ . (٦) ديوانه : ٨٨ .
(٧) فى ط : بحيران . (٨) فى ا : يؤازرها .

[الطرف والقلب]

وقد قال سهل بن هرون :

أعان طَرْفِى على قلبى وأعضائى ... بنَظْرَة وقفتْ جسْمِى على دَائى

وكنتُ غِرًّا بما يجنى على بدَنِى ... لا عِلْمَ لى أنّ بعضِى بعضُ أعدائى

وقال النظام[1] :

إنَّ العيونَ على القلوبِ إذا جَنَتْ ... كانت بَلِيَّتُها على الأجسادِ

البحترى[2] :

ولستُ أَعْجَبُ من عِصْيَان قلبكَ لِى ... حقًّا[3] إذا كان قلبى فيك يَعْصِينى

وقال الأصمعى : سمعتُ الرشيد يقول : قَلْبُ العاشق عليه مع مَعْشُوقِه . فقلت : هـــذا والله يا أميرَ المؤمنين أَحْسن من قول عُروة بن حزام لعَفْراء فى أبياته التى أنشدها[4] :

وإنّى لتعْرُونى لذِكْراكِ روعةٌ ... لها بين جِلْدِى والعظامِ دبيبُ

وما هو إلّا أن أراها فُجاءَةً ... فأُبْهَتَ حتى لا أكاد أُجيبُ

وأُصْرَف عن دائى الذى كُنْتُ أَرتئى ... ويقرب منّى ذِكْرُه ويَغِيبُ

ويضمر قَلْبِى غدرها ويُعِينها ... علىَّ ، ومالى فى الفؤاد نَصِيبُ

فقال الرشيد : من قال ذلك وهماً فقد قلته علماً .

[شذور من الحكم]

قال على بن عبيدة الريحانى : احْمِ ودَّكَ فإنه عِرْضُك ، وصن الأنس بك فإنه يد حظك ، ولا تستكثر من الطمأنينة إلا بعد استحكام الثّقة ؛ فإن الأُنس سريرةُ

---

(١) هكذا فى ا ، م . وفى ط : الناظم . (٢) ديوانه : ٢ـ٢٩٥ .

(٣) فى الديوان : عمدا . (٤) الشعراء : ٦٠٥، اللآلئ : ٤٠٠ .

العقل ، والطمأنينه بذلة المتحابين، وليس لك بعدها تُحْفَة تَمْنحها صاحِبَك ، ولاحباء تُوجب به الشكر على من اصطفيت .

وقال : ماأنصف من عاتب أخاه بالإعراض على ذَنْبٍ كان منه ، أو هجرِه لخلافٍ بما يكْرَه عنده ، إذا كان لايعتدُّ فى سالف أيام العشرة[1] إلا بالرضا عنه ، ومشاكلته فيما يُؤْنسه منه . فإن كان العاتب شكى جميع ما ستَره من أخيه أولا ، فلقد تُتَمّمُ الموافقة حظَّ الاغتفار ، وإن لم يكن وفَى له بكلّ ما استحقّ منه فليقتصّ مِمّا وجَب منه عليه لأخيه بقدر ذنبه ، ثم العودة إلى الأُلفة أولى من تشتّتِ الشَّمْلِ ، وأَشبَهُ بأهل التصافى ، وأَكْرَمُ فى الأحدوثة عند الناس .

وقال : الحياءُ لِبَاسٌ سابغ، وحِجَاب وَاق، وسِتْر من المساوى ، وأَخُو العفاف ، وحَلِيف الدّين، ومُصَاحبٌ بالصّنع . ورَقيب من العِصْمَة ، وعين كَالِئَةٌ تذودُ عن الفساد ، وتَنْهى عن الفحشاء والإدناس .

وقال : لا يخلو أَحد من صَبْوَةٍ إلاَّ أن يَكونَ جَاسِيَ الخِلْقَةِ منقوص البِنْية ، أو على خلاف تركيب الاعتدال .

[الهـــوى]

ورأى سعيد بن سلم بن قتيبة[2] ابناً له قد شرع فى رقيقِ الشعر وروايتــه ، فأنكر عليه ، فقيل له : إنه قدعشق ، فقال : دَعُوه فإنه يلطُف ، وينظُف، ويَظْرُف .

وقال الفضل[3] بن أحمد بن أبى طاهر ، واسم أبى طاهر طيفور : وصف الهوى قومٌ وقالوا : إنه فضيلة ، وإنه ينتج الحيلة ، ويشجّع قَلْبَ الجبان ، ويسخّى قَلْبَ البخيل ، ويصفّى ذِهن الغبى ، ويطلق بالشّعْر لسانَ المُفْحَم ، ويبعث حَزْم العاجز

---

(١) فى ا : الهجرة . (٢) فى ط : بن مسلم .

(٣) فى ط : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور .

الضعيف ؛ وإنه عزيز تذل له عزَّةُ الملوك ، وتَضْرَع فيه صَوْلَةُ الشجاع ، وتَنْقَاد له طاعةُ كل ممتنِع ، ويذلّل كلّ مستصعَب ، ويُبرز كلّ محتجب ؛ وهو داعية الأَدب ، وأولُ باب تُفتَقُ به الأذهان والفِطَن ، وتستخرج به دقائقُ المكايد والحِيَل ، وإليه تستريح الهِمَم ، وتسكن نوافِرُ الأخلاق والشِّيَم ، يُمتّع جايسه ، ويُؤْنس أليفَه ، وله سرورٌ يجول فى النفس ، وفرَحٌ مستكِن فى القلب ، وبه يتعاطف أهلُ المودَّة ، ويتّصل أهل الأُلفة ، وعليه تتألَّف الأشكال ، وله صَوْلاَت على القدر ، ومكايد تُبْطِلُ لطائف الحيل ، وظَرْفٌ يَظْهرُ فى الأخلاق والخلق ، وأرواح تَسْطَع من أهلها ، وتَعْبق من ذويها .

وقال اليمانى بن عمرو مولى ذى الرياستين : كان ذو الرياستين يَبْعَثُ بى وبأحداث من أهله إلى شيخ بخراسان ويقول : تعلَّمُوا منه الحكمة ؛ فكنَّا نَأْتيه ، وإذا انصرفنا من عنده اعترضَنَا ذُو الرياستين يسأَلُنا عما أفادنا فنخبره ؛ فسِرْنا إلى الشيخ يوماً فقال لنا : أنتم أُدباء ، وقد سمِعْتُم الحكمة ، وفيكم أحداث ، ولكم نِعَم ، فهل فيكم عاشق ؟ قلنا : لا ، قال : اعشقوا ، فإنّ العشق يُطلِق الغبىّ ، ويَفْتَح جِبِلَّة البليد ، ويسخِّى كفَّ البخيل ، ويَبْعَثُ على النظافة وحُسنِ الهيئة ، ويَدْعُو إلى الحركة والذكاء ، وشرف الهمة ، وإياكم والحرام .

قال : فانصرفنا ، فسألنا عما أفادنا فى يومنا ؛ فهِبْناه أَن نخبره ، فعزَم علينا . فقلنا له : أمرنا بكذا وكذا ، قال : صدق ، أتعلمون من أين أَخذَ هذا الأدب ؟ قلنا : لا . قال : إن بهرام جور كان له ابنٌ رشَّحَه للملك من بعده ، فنشأ ساقطَ الهِمّة ، خامل المروءة ، دَنِىء النفس ، سَيِّىء الأدب ، كليل القريحة ، كَهام الفِكْرِ ؛ فغمَّه ذلك ، ووكَّل به من المؤدبين والمنجّمين والحكماء من يلازِمُه ويُعَلّمه ، وكان يسألهم فيحكُون له مايسوءه إلى أن قال له بعض مؤدبيه : قد كنا نخافُ سوءَ أدبه فحدَث

من أَمره ما صِرْنَا إلى اليأس منه ، قال : وما ذلك ؟ قال : رأى ابنةَ فلان المرزُبان فعَشِقها فغلبَتْ عليه ، فهو لا يهذِى إلاَّ بأمرها، ولا يتشاغلُ إلاَّ بذِكْرِها . فقال بهرام جُور : الآن رَجَوْتُ صلاحَه .

ثم دعا بأبى الجارية فقال: إنى مُسِرٌّ لك سرًّا فلايعدوَنّك . فضَمِن له سَتْره ، فأعلمه أن ابنَه قد عشقَ ابنته ، وأنه يريد أن يُنْكِحها إياه ، وأَمره أن يأخذها بإطماعه بنفسها ، ومراسلته من غير أَنْ يراها ، أو تَقَع عَيْنُه عليها ؛ فإذا استحكم طَمَعُه فيها تجنَّتْ عليه ، وهجَرَتْه ، فإذا استعتبها أَعلمته أنها لا تَصْلُح إلاَّ لملك ، أو مَنْ هِمَّتُه همةُ ملك ؛ وأن ذلك يمنعها من مُوَاصلته ، ثم ليعلمه خَبَرَها وخَبَره ، ولا يُطْلِعها على ما أَسَرَّ إليه؛ فقبل ذلك أبوها منه .

ثم قال للمؤدِّب: خوِّفْه بى ، وشجِّعْه على مراسلة الجارية . ففعل ذلك ، وفعلت الجاريةُ ما أمرها به أبوها ؛ فلما انتهت إلى التجنّى عليه ، وعلم الفتى السببَ الذى كرِهَتْه من أجله أخذَ فى الأدب ، وطلب الحكمة ، والعلم ، والفروسية ، ولعب الصَّوَالجة ، والرِّماية ، حتى مَهَر فى ذلك ، ورُفع إلى أبيه أنه يحتاجُ من المطاعم والآلات والدوابّ والملابس والوزراء فوق الذى كان له ؛ فسُرَّ الملكُ بذلك ، وأمر له بما أراد ، ودعا بمؤدِّبه ، فقال : إنَّ الموضع الذى وَضع ابنى نفسَه فيه بحبِّ هذه المرأة لايزرى به ؛ فتقدّم إليه أن يرفع أمرَها إلىَّ ويسألنى أن أزوِّجَه إياها، ففعل، فزوَّجها منه ، وأمر بتعجيل نَقْلِها إليه ، وقال له : إذا اجتمعت أَنت وهى فلا تحْدِثْ شيئا حتى أَصير إليك . فلما اجتمعا صار إليه فقال : يابنى ، لا يضعنَّ منها عندك مراسَلتُها إياكَ ، وليست فى حِبالِك ، فأَناأمرتُها بذلك ، وهى من أَعظم الناس مِنّةً عليك، بمادَعَتك إليه من طلب الحكمة ، والتخلُّق بأخلاق الملوك ، حتى بلَغتَ الحدَّ الذى تصلحُ معه للملك بعدى؛ فزِدْهَا فى التشريف والإكرام بقَدْرِ ما تستحقّ منك . ففعل الفتى ذلك ، وعاش مسروراً بالجارية، وأبوه مسروراً به ، وزاد فى إكرام المرزبان ، ورفع مرتبته وشرفه بصيانته لسره وطاعته ، وأحسن جائزته وجائزة المؤدب بامتثاله

أمره، وعقد لابنه الملك من بعده. قال اليمانى وكان الشيخ الحسن بن مصعب . ثم قال ذو الرياستين قال على بن بلال[١] :

سيهلك فى الدنيا شَفِيقٌ عليكُم ... إذا غاله مِنْ حادِثِ الدَّهْرِ غائلُهْ
ويُخفِى لكم حبًّا شديداً ورَهْبَةً ... وللناس أشغالٌ وحبُّك شَاغِلُهْ
كريمٌ يُميت السرَّ حتى كأنه ، ... إذا استخبروه عن حديثك ، جَاهِلُه
يودُّ بأن يُمْسِى عليلا لعلَّها ... إذا سمعت عنه بشكوى تُرَاسِلُه
ويَرْتَاحُ للمعروف فى طَلَب العُلَا ... لتُحْمَدَ يوماً عند لَيْلَى شَمائِلُه

وذكر أعرابى الهوى فقال : هو أعظمُ مَسْلَكاً فى القَلْبِ من الرُّوح فى الجسم، وأملك بالنفس من النّفس ، يَظْهَرَ ويبطن ، ويَكْثُف ويلْطُف ، فامتنعَ عن وَصْفِه اللسانُ ، وعَيِي عنه البيانُ ! فهو بين السحر والجفون ، لطيفُ المسلك والكُمُون .
وأنشد :

يقولون لو دبّرتَ بالعَقْلِ حبّها ... ولا خَيْرَ فى حُبٍّ يدبَّر بالعقل

[من أدب الميكالى]

فصل له

فصل للأمير أبى الفضل الميكالى :

لا زالت الأيام تَزِيدُ رُتبتَه ارتفاعا ، وباعَه اتّساعا ، وعزّتَه غلبةً وامتناعا ، فلا يبقى مجدٌ إلا شيَّدَتْه معاليه ومكارِمُه ، ولا ملك إلاَّ افْترَعَتْه صرائِمُه وصَوَارِمُه .

وله

وله فصل : لا زالت حياة الأحرار بفضله متّسِمة ، ووجوهُ المكارم بغُرَرِ أيامه مبتسمة ، وأهواء الصدور بخِدْمة وُدِّه مرتسمة ، [وغنائم الشكر بين محاسن قوله وفعله مقتسمة[٢]] .

(١) العبارة فى ط : قال اليمانى : وقال الشيخ أبو الحسن بن مصعب : قال كثير عزة .
(٢) من ا .

وله : الله يُديم رايةَ الأمير الجليل محفوفةً بالفَلْج والنصر ، مكنوفة بالغلبة والقَهْر ، حتى لا يزاول خَطْباً إلا تذلّلت به صِعَابُه ، ولا يُمَارِس أمراً إلا تيسَّرتْ أسبابُه ، ولا يَرُوم حالا إلا أذْعَن لهيبته وسُلْطانه ، وخَضَع لسيفه وسِنَانِه ، وذلَّ لمعْقِد لوائه ، ومنثنى عنانه ، إلى أن ينالَ من آماله أقاصِيهَا ، ويَمْلِك من مَبَاغِيه أَزِمَّتها ونواصِيَها ، [ويُسَامِى الثريا بعلوِّ همته ويناصيها][1] .

وله فصل : إنما أشكو إليك زماناً سَلَب ضِعْفَ ما وَهب ، وفَجع بأكْثر مما أَمْتَع ، وأوحش فوق ما آنس ، وعنف فى نَزْعِ ما ألبس ؛ فإنه لم يُذِقْنَا حلاوةَ الاجتماع ، حتى جَرَّعَنا مرارةَ الفراق ، ولم يمتعنا بأُنْسِ الالتقاء ، حتى غادَرَنا رَهْنَ التلهُّفْ والاشتياق ، والحمدُ لله تعالى على كل حال يُسىء ويسر ، ويَحْلو ويُمر ، ولا أيأس من رَوْح الله فى إباحة صُنْع يجمل رَبْعَه مَنَاخى ، ويُقصِّر مدةَ البعاد والتراخى ، فألاحظ الزمانَ بعين راض ، ويقبلُ إلىّ حظّى بعد إعراض ، وأستأنف بعزَّته عيشاً سابغَ الذيول والأعطاف ، رقيقَ المعانى والأوصاف ، عَذْب الموارِدِ والمناهل ، مأمونَ الآفاتِ والغوائل .

وله فصل : أنا أسأل الله تعالى أن يردّ على برد العيش الذى فَقَدْتُه ، وفسحة السرور الذى عَهِدته؛ فيَقْصر من الفراق أمدُه ، ويعلو للالتقاء حكمه ويَدُه ، ويرجع ذلك العهدُ الذى رَقَّت غلائله ، وصفتْ من الأَقْذاء مناهله ، فلم أتهنّأ بعده بأُنس مقيم ، ولا تعلّقت يوما إلا بعيش بَهِيم .

فلو ترجع الأيام بينى وبينهُ ... بذى الأثل صيفا مثل صيفى ومَرْبعى
أَشُدُّ بأعناق النوى بعد هـذهِ ... مرائر إن جاذَبْتُهَا لم تقطّعِ

وماعلى الله بعزيز أن يقرِّبَ بعيداً ، ويَهَبَ طالعا سعيداً ، ويسهّل عسيرا، ويفكّ من رقّ الاشتياق أسيرا .

---

(١) ليس فى ا .

وله فصل من كتاب

وله فصل من كتاب إلى أبى منصور عبد الملك الثعالبى[1] :

قرأتُ خبرَ سلامته، فسرى السرورُ فى الجوانح ، واهتزّت النفسُ له اهتزازَ الغُصْن تحت البارح :

أَليس لِأخبار الأحبّةِ فرحةٌ ... ولا فرحة العطشان فَاجَأَهُ القَطْرُ

يقولون قد أَوْفَى لوقت كتابهِ ... فتَنْتَشِر البشرى وينشرِحُ الصدرُ

ثم سألت الله تعالى أن يحرسَ علينا سلامتَه سابغَةَ الملابس والمطَارِف ، موصولة التالِدِ بالطَّارِف .

ولهفصل من كتاب تعزية

وله فصل من كتاب تعزية عن أبى العباس بن الإمام أبى الطيب :

لئن كانت الرزيّة مُمِضّة مؤلمة ، وطرقُ العَزاء والسلوة مُبْهمة ، لقد حلّت بساحةِ من لا تَنْتقِضُ بأمثالها مَرَائِرُه ، ولا تَضْعُفُ عن احتمالها بَصَائِرُه ، قد يتلقَّاها بصَدْرٍ فسيح يحمى أن يبيح الحُزْن جنابَه ، وصَبْرٍ مشيح ، يحمى أن يُحْبِطَ الجزَعُ أجرَه وثوابَه ؛ كيف لا وآدابُ الدين من عنده تُلْتَمس ، وأحكامُ الشرع من لسانه ويده تُستفاد وتُقْتَبس ، والعيون ترْمُقه فى هذه الحال لتَجْرِى على سَنَنه وتأخذَ بآدابه وسُنَنه ؛ فإن تعزّت القلوب فبحَسب تماسكه عزاؤُها ، وإنْ حسنت الأفعال فإلى حميد أفعاله ومذاهبه اعتزاؤُها .

من شعره

جملة من شعره فى تحسين القوافى والغزل قال :

عذيرى من جفونٍ راميات[2] ... بسَهْمِ السِّحْرِ من عيـنَىْ غزالِ

غزانى طَرْفُه حتى سَبَانِى ... لأنتصرنَّ منه بمَنْ غَزَا لى

وله أيضاً[3] :

أَمَا حان أَنْ يشفى المُسْتَهامُ ... بزَوْرَةِ وَصْلٍ وتأوى لهُ

---

(١) فى م ، ا : عبد الملك بن محمد، وليس فى ا : الثعالبى .

(٢) فى ا : داميات . (٣) الفوات : ٣٣ .

يجمجم عن سُؤْلِه هَيْبَةً ويعلم عِلْمُك تأويلَهُ

وقال أيضا[١] :

شكوتُ إليه ما أُلاقى فقال لى رويداً ففى حكم الهوى أَنْتَ مُوئِلى
فلو كان حقًّا ما ادَّعيتَ من الجوى لقلَّ بما ألقى إذاً أَن تموتَ لى

وقال أيضاً[٢] :

تفرّق قلبى فى هواه فعنده فريقٌ وعندى شُعبة وفرِيقُ
إذا ظَمِئَتْ نفسى أقول لها اسْقِنى فإن لم يكن راحٌ لديك فَرِيقُ

وقال أيضاً :

شَافَهَ كَفِّى رَشأٌ بقُبْلَةٍ ما شَفَتِ
فقلت إذْ قبَّلَها يا ليت كَفِّى شَفَتِى

وقال :

يا شادناً غاب نَجْمُ الحسن لولاهُ قد كان يوسفُ لمّا مات وَلاَّهُ
ولاَّه رقّى ظَرْف فى شمائلهِ فاشتطَّ فى الحكم لولا أن تولاَّهُ
ارحم فتًى مُدْنَفاً ما إنْ يُخلِّصُهُ من غَمْرَةِ الوَجْدِ إلا أنت وَاللهُ

[سائل للكرم]

قال أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ : حدثنى أبوالهيثم[٣] بن السندى بن شاهك قال : قلت فى أيام ولايتى الكوفة لرجلٍ من أهلها لايجفُّ قلمه ولا تستريح يدُه ، ولا تسكُن حركتُه فى طلب حوائج الناس ، وإدخال المنافع على الضعفاء ، وكان رجلا مفوّها : أخبرنى عن الشىء الذى هوّن عليك النصَب ، وقوّاك على التَّعبِ ، ماهو ؟ قال : قد ، واللهِ ، سمعتُ تغريدَ الأطيار بالأَسْحَارِ على أفنان الأشجار ، وسمعتُ

(١) الفوات : ٣٣ . (٢) الفوات : ٣٤ . (٣) فى ا : إبراهيم بن السندى .

[خَفْق][1] أَوتارَ العيدان ، وترجيعَ أَصوات القِيَان ، فما طربت من صوتٍ قطُّ طَرَبِى من ثناء حسن ، على رجلٍ قد أَحسن ، ومن شاكر مُنْعِم ، ومن شفاعةِ شفيع محتسب لطالب ذاكر .

فقال أبو الهيثم[2] : فقلت له : لله أبوك ! لقد حُشِيت كرما ! فبأىّ شىء سَهُلَتْ عليك المُاَوَدةُ والطلب ؟ قال : لا أبلُغ المجهود ، ولا أسأل إلا ما يجوز ، وليس صدقُ العذْرِ بأَكره إلىَّ من إنجاز الوعد . ولست لإكراه السائل بأَكرهَ منى لإجحاف المسئول ، ولا أرى الراغب أوجب حقا على للذى قدم[3] من حُسْنِ ظنه من المرغوب إليه ، للذى احتمل من كله . قال إبراهيم : ما سمعتُ كلاما قطّ أشدّ مؤالفة لموضعه ، ولا أَليق بمكانه ، من هذا الكلام .

[عزيز قوم]

وروى أبوبكر بن شُقَير النحوى عن أحمد بن عبيد[4] قال : كان أُسيد بن عنقاء الفزارى مِنْ أكبر أهل زمانه ، وأشدّهم عارضةً ولسانا ، وطال عمرُه ، ونكبه دهرُه ؛ فاختلّت حاله ، فخرج يتبقل[5] لأَهله ؛ فمرَّ عليه عُمَيلة الفزارى فسلَّم عليه ، وقال : يا عم ؛ ما أصارَكَ إلى ما أرى ؟ قال : بُخْلُ مثلك بماله ، وصَوْنُ وجهى عن مسألة الناس . قال : أما والله لئن بقيتُ إلى غد لأغيرنَّ من حالك ما أرى . فرجع ابن عَنْقاء إلى أهله فأخبرهم بما قال عُميلة ، فقالوا له : غرّكَ كلامُ غلام جُنْحَ ظلام ! فكأنما ألقموا فاهُ حجراً ؛ فبات متَمَلْمِلاً بين رجاء ويأس ، فلما كان السَّحَر سَمِع رُغاء الإبل ، وثُغَاء الشاء ، وصهيل الخيلِ ، ولَجَبَ الأَموال ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : عُمَيلة قد ساق إليك مالَه ، فخرج ابنُ عنقاء له ، فقسم مالَه شَطْرَين ، وساهمَ

(١) من م ، ا .　　(٢) فى م ، ا : قال إبراهيم .
(٣) فى م : أوجه حظا على للذى قدم .　　(٤) الأمالى : ١ـ٢٣٧ ، اللآلئ : ٥٤٣ .
(٥) فى ط : يتنفل .

عليه ، فأنشأ ابن عنقاء يقول[١] :

رآنى على مابى عُمَيلةُ فاشتكى ... إلى ماله حالى أسرّ كما جَهَر
دعانى فواسانى ولو ضَنّ لم يُلم ... على حينَ لا بَدْوٌ يرجَّى ولا حَضَر
فقلت له خيراً وأثنيت فِعْلَهُ ... وأوفاك ما أوليت مَنْ ذَمّ أو شكر
ولما رأى المجدَ استُعيرت ثيابُهُ ... تردّى بثوبٍ سابغِ الذيل واتّزَرْ
غلامٌ رماه اللهُ بالحسن يافعاً[٢] ... له سِيمِياءُ لا تَشُقّ على البصر
كأنَّ الثريا عُلِّقَتْ فى جبينه[٣] ... وفى أنفه الشِّعرى وفى خدّه القمر
إذا قيلت العوراءُ أغضى كأنهُ ... ذليلٌ بلا ذُلٍّ ولو شاء لانتصر

[من غرر المدح]

وأنشد أبو حاتم[٤] عن أبى عبيدة لِلْعَرَنْدَس أحد بنى بكر[٥] بن كلاب يمدح بنى عمرو[٦] الغنويين ، وكان الأصمعى يقول : هذا من المحال : كلابىٌّ يمدح غَنَويا !

هَيْنُون لَيْنُون أيسارٌ ذوو كرم ... سُوّاسُ مكرمةٍ أبناء أيسارِ
إن يسألوا العُرفَ يُعْطوه وإن خُبروا ... فى الجهد أُدرك منهم طِيبُ أخبار
لا ينطقون عن الأهواء إنْ نطقوا ... ولا يُمارون إن ماروْا بإكثار
من تلْقَ منهم تقلْ لاقيتُ سيدَهم ... مثلَ النجوم التى يسرى بها السارِى
منهم وفيهم يعدّ الخير متلِّدا ... ولا يعدُّ نثا خِزْيٍ ولا عارِ

[حِكَم الدنيا]

فصل لبعض الكتاب ــ ما تعجُّبك مما لقيت من الحَيْفِ ! هل ضمن الدهرُ أن

---

(١) اللآلئ : ٥٤٣ ، الأمالى : ١ــ٢٣٧ . (٢) فى الأمالى : بالخير مقبلا .
(٣) فى الأمالى : فوق نحره (٤) الأمالى : ١ــ٢٣٩ ، المختار من شعر بشار : ١٨٨
(٥) فى ا : بنى أبى . (٦) فى م ، ا : بنى أبى عمرو ، وفى ط : أباعمرو الغنوى.

يُنْصِف ولا يحيف ، أو يُبْرِم فلا يَنْقُض ، أو يُعَافِى فلا يُمْرِض ، أو يصفو فلا يكدّر ، أو يَفِى فلا يَغْدر ؟ قدّر أن تَعْذُب لى مَشَارِبُه ، وتَلين لى جوانبُه ، فحُـكْم الدنيا لاتترك حامداً لها إلاّ أسكتته ، ولا ضاحكا إلاّ أبكته ، أقوى ما كان بها ثقة ، وأشد ما كان لها مِقَة ، وأوكد ما كان رُكونا إليها ، وأعظم ما كان حرصا عليها .

[لا يعرف قدر النعمة]

وقال بعض الـكتّاب يصف رجلا بالذم :

ما ظنّك بمن يعنف بالنعم عنف من ساءته مجاوَرَتُها ، ويستخفّ بحقها استخفافَ من ثَقُلَ عليه حَمْلُها ، ويطّرح الشكر عليها اطِّراح مَنْ لا يعلُم أنّ الشـكرَ يرْتَبِطها .

* * *

رجع إلى غرر المدائح

وقال أبو الشيص :

يامن تمـنّى على الدنيا مَبالغَها ... هلا سألْتَ أبا بِشْر فتُعْطاها
ما هبّت الريحُ إلاّ هبَّ نائلهُ ... ولا ارْتَقى غاية إلاَّ تخطَّاها

غيره :

طِلَابُ العُلَا إلاَّ عليك يسير ... وباعُ الأعادِى عن مَداكَ قصير
إذا عُدّاً هلُ الفضل كنت الذى له ... وللفضْلِ فيـــه أولٌ وأخِير

وقال أبو الحجناء الأصغر نُصيب يصف إسحاق بن صباح :

كأنّ ابن صبّاح وكندةُ حَوْلهُ ... إذا ما بدا بَدْرٌ توسّطَ أنجما
على أنّ فى البدر المحاقَ وإن ذا ... تمامٌ فمـا يزدادُ إلا تتمما
ترى المنبر الغربىّ يهتزُّ تحتهُ ... إذا ما علا أعوادَه وتـكلّما
فأنت ابنُ خيرِ الناس إلا نبوّةً ... ومن قبلها كنت السنام المقدّما

ونُصيب هو القائل فى البرامكة ، وكان منقطعاً إليهم :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافع　　　وأرى البرامك لا تَضرُّ وتنفعُ
إن العروق إذا استسرَّ بها الثَّرَى　　　أثَّ النبات بها وطابَ المَزْرَعُ
فإذا جهلت من امرئٍ أعراقَهُ　　　وقديمَه فانظر إلى ما يَصْنَعُ

أخذ هذا من قول سَلم الخاسر :

لا تسأل[1] المرءَ عن خَلائقه　　　فى وَجْهِه شاهدٌ من الخبر[2]

وقال نُصَيب فى بنى سليمان بن على :

بنى سليمان حزتم كلَّ مَكْرُمةٍ　　　وليس فوقكمُ فَخْرٌ لمفتخرِ
لا تسأل المرءَ يوماً عن خلائقه　　　فى وجهه شاهدٌ يُنْبيك عن خبَرِ
حَسْبُ امرىءٍ شرفاً أن ساد أسرته　　　وأنت سُدْتَ جميعَ الجنِّ والبَشَر

سأل سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت رجلا حاجة فلم يقضها، وسأل آخر فقضاها فقال للأول :

ذُممت ولم تُحمد وأُبْتُ بحاجةٍ　　　تولَّى سواكم شكرها واصطناعها
أَبى لك فعلَ الخير رأىٌ مقصّرٌ　　　ونفسٌ أضاق الله بالبخل باعها
إذا ما أرادته على الخير مرةً　　　عصاها وإن همَّتْ بشرٍّ أطاعها

[استمناح]

قال رجلٌ لهشام بن عبد الملك : قد افتقرتُ يا أميرَ المؤمنين إلى ظهور حُسْن رأيك ، فإن رأيتَ إظهارهُ بسرور الصديق ، ورَغْم العدو ، فعلت . قال هشام : أَوجزتَ وملحتَ فيما سألت ؛ فلا تردّ لك طَلِبَة ، فما سأله شيئا إلا أعطاه أكثر منه .

قال حميد بن بلال : ولى عَمْرُو بن مَسْعَدة فارس وكرمان فقال له بعض أَصحابه : أَيها الأَمير ، لو كان الحياء يُظهر سؤالاً لدعاك حيائى من كرمك فى جميع أهليك إلى الإقبالِ علىَّ بما يكثُرُ به حَسَدُ عدوّى ، دون أَن أسألك . فقال عمرو : لا تَبْغِ ذلك

(١) فى ط : لا تسل .　　　(٢) فى ط : العجب .

بابتذالك ماءَ وجهك ، ونحن نُغْنِيك عن إراقته فى خوض السؤال ، فارفَعْ ما تريدُه فى رُقْعة يصل إليك سرًّا . ففعل .

وقال رجل من أهل فارس قدم على محمد بن طيفور وهو عامل على بلاد أصبهان لبعض أهلها : كم تقدّرون صلات محمد فى كلّ سنةٍ للشعراء والمتوسلين ؟ قالوا : مائة ألف دينار ، سوى الخلع والحملان[1] .

وورد عليه يوماً كتابٌ من بعض إخوانه فى شأن رجل استماحه له فى درْجه : أنتَ أعزّكَ الله تعالى أجلّ من أن يُتوسَّلَ بغيرك إليك ، وأن يُستَماح جودُك إلاَّ بك ، غير أنى أذكرك بكتابى فى أمر حامله ، ما شَرَع كرمُك [من الشكر][2] ، وزَرَع إحسانُك من الأجر قِبَل الصادرين والوارِدِين ؛ فهنّاكَ اللهُ تعالى ذلك ، ولا زالَتْ يدُ الله بجميل إحسانه ونعمته متواترةً عليك .

فقال محمد للرجل : احتكم لك وله ؛ فأخذ منه ألفَ دينار ، ولمن كتب له مثلها .

وقال رجل لإبراهيم بن المهدى : قد أوحشنى منك تردُّدُ غليلٍ فى صدرى أهابُك عن إظهاره ، وأُجِلّك عن كَشْفه . فقال له إبراهيم : لكنى أكشف لك معروفى ، وأُظهِر إحسانى ؛ فإن يكن غير هذين فى خَلَدِك فاكتُبْ رقعة يخرج توقيعى سرًّا لتقِفَ على ما تحبّ . فبلغ كلامُه المهدى فقال : هذا والله غايةُ الكرم .

وكتب محمد بن طيفور لبعض خاصته بمالٍ كثير وصَلَه به ، فكتب الرجلُ إليه : قد استغرقَتْ نعمتُك وجوهَ الشكر لك ، وغُرَرَ الحمدِ فيما سلف منك ، ولولا فَرْطُ عجزى عن تلقّى ما يجبُ لك من الحمد لقبلتُ ما أَنفذتَه .

فكتب إليه محمد : قد صغّر شكرُك لنا ما أَسلفناه إليك ؛ فخُذْ ماأنفذناه ثوابا عن معرفتك بشُكْرِ التافه[3] عندى ، وإلاَّ سمح شكرُك بما رأيناك له أهلا إلى أَنْ

---

(١) فى ط : والهدايا. (٢) من م ، ا .

(٣) فى ط : بشكر ما أسديناه ، وفى ا : بشكر التافه عندك .

يتسع قبول مثلك ما يستحقّ به جميلَ الدعاء، وجزيلَ الثناء، إن شاءَ الله تعالى.

[من نوادر الرثاء]

تعزية فى قرد

ولما مات قِرْدُ زُبيدة بنت جعفر ساءها ذلك. ونالها من الغمّ ما عرَفه الصغير والكبير من خاصّتها، فكتب إليها أبو هرون العبدى:

أيتها السيدة الخطيرة؛ إنّ موقعَ الخَطْب بذهاب الصغير المعجب كموقع السرور بنَيْل الكثير المُفْرِح، ومَنْ جهل قدْرَ التعزية عن التافه الخفىّ عمِىَ عن التهنئة بالجليل السَّنِىّ، فلا نَقَصكِ اللهُ الزائدَ فى سرورك، ولا حَرَمَكِ أجرَ الذاهب من صغيرك.

فأمرَتْ له بجائزة.

تعزية فى ثور

وكتب أبو إسحاق الصابى عن ابن بقية[1] فى أيام وزارته إلى أبى بكر بن قريعة يعزّيه عن ثور أبيض بقوله، وجلس للعزاء عنه تراقعاً وتحامُقا:

التعزيةُ على المفقود أطال الله بقاءَ القاضى إنما تكونُ بحسب محلِّه من فاقِده، من غير أن تُراعَى قيمتُه ولا قَدْرُه، ولا ذاتُه ولا عينُه؛ إذ كان الغرض فيها تبريدُ الغُلَّة، وإخمادُ اللَّوْعَة، وتسكين الزَّفْرة، وتنفيس الكُرْبة، فربَّ ولدٍ عاق، وشقيق مشاق، وذى رحم أصبح لها قاطعا، [ولأهله فاجعا][2]، وقريب قوم قد قلّدَهم عارا، وناطَ بهم شَنَارا، فلا لَوْمَ على تَرْك التعزية عنه، وأحْرِ بها أن تستحيل تهنئة بالراحة منه؛ وربَّ مالٍ صامت غير ناطق، قد كان صاحبُه به مستظهرا، وله مستَثْمِرا، فالفجيعةُ به إذا فُقِد موضوعةٌ موضعها، والتعزيةُ عنه واقعةٌ منه موقعها. وقد بلغنى أن القاضى أُصيب بثور كان له، فجلس للعزاء عنه شاكيا، وأجْهَش عليه باكيا، والتدَم عليه وَلِها، وحُكيت عنه حكاياتٌ فى التأبين له، وإقامة النّدبة عليه، وتعديد ما كان فيه

(١) فى م: ابن تقية، وفى ط: ابن لعبة! (٢) من م، ا.

من فضائل البقر التي تفرقت في غيره ، اجتمعَتْ فيه وَحْدَه ؛ فصار كما قال أبو نواس في مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكَرٍ أَن يجمع العالَم في وَاحدِ

لأنه يَكْرُب الأرض مغمورة[١] ، ويُثيرها مزروعة ، ويرقص في الدواليب ساقيا ، وفي الأرحاء طاحنا ، ويحملُ الغلاَّتِ مستقلا ، والأثقالَ مستخفّا ؛ فلا يَؤُوده عظيم ، ولا يُعْجِزه جسيم ، ولا يجرى في الحائط[٢] مع شقيقه ، ولا في الطريق مع رفيقه ، إلا كان جَلْدا لايُسْبَق ، ومبرِّزاً[٣] لا يُلحق ، وفائتا لا يُنال شأْوه وغايتُه ، ولايبلغ مداه ونهايتُه . ويشهدُ اللهُ أنّ ما ساءه ساءنى ، وما آلمه آلمنى ، ولم يَجُزْ عندى في حق ودّه استصغارُ خَطْبٍ جلّ عنده ، فأرقه وأمضه وأقلقه ، ولا تهوين صعب بلغ منه وأرمضه وشفه وأمرضه ؛ فكتبت هذه الرقعة ، قاضياً بها من الحق في مصابه هذا بقَدْرِ ما أظهر من إكباره إياه ، وأبانَ من إعظامه له ؛ وأسألُ الله تعالى أن يخصَّه من المعوضة بأفضل ماخص به البشر ، عن البقر ، وأن يُفرِدَ هذه البهيمة العجماء بأثرة من الثواب ، يضيفها إلى المكلَّفين من أهل الألباب ؛ فإنها وإن لم تكن منهم ، فقد استحقَّت ألاَّ تُفرد عنهم ، بأن مسّ القاضى سببُها ، وصار إليه مَنْتَسبُها ، حتى إذا أنجز اللهُ ما وعد به [عباده المؤمنين][٤] ، من تمحيص سيئاتهم ، وتضعيف حسناتهم ، والإفضاء بهم إلى الجنة التي رَضِيَها لهم دارا ، وجعلها لجماعتهم قراراً ؛ وأورد القاضى ـ أيده الله تعالى ـ مواردَ أهلِ النعيم ، مع أَهْل الصراط المستقيم ، جاء وثَوْرُه هذا مجنوبٌ معه ، مسموح له به ؛ وكما أنّ الجنةَ لا يدخلها الخبث ، ولا يكون من أهلها الحدث ، ولكنه عرق يجرى من أعراضهم ، كذلك يجعلُ الله ثور القاضى مركبا من العَنْبَرِ الشحْرى ، وماء الوَرْد الجُورى[٥] ؛ [فيصير ثورا له طورا ، وجُونة[٦] عطر له طورا][٧]

(١) الكرب : إثارة الأرض للزرع ، وفي م : معمورة . (٢) الحائط : البستان .
(٣) في م : ومبرا . (٤) من م ، ا . (٥) جور : مدينة ينسب إليها الورد .
(٦) الجونة : سليلة مغشاة أدما تكون مع العطارين .
(٧) هكذا في م ، وفي ط : فيكون له جونة عطر ونورا .

وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر ، ولا مستصعَب ولا متعذّر ؛ إذ كانت قدرةُ اللهِ بذلك محيطةً ، ومواعيدُه لأَمثاله ضامنة بما أعدّه الله فى الجنة لعبادِه الصادقين، وأوليائه الصالحين ؛ من شهوات أَنفسهم وملاذّ أعينهم ، وما هو سبحانه مع غامر فضله وفائض كرمه، بمانعه ذلك مع صالح مساعيه، ومحمود شِيَمه ؛ وقلْبى متعلّق بمعرفة خبره ، أَدام اللهُ عزّه فيما ادّرعه من شعار الصبر ، واحتفظ به من إيثار الأجْرِ ، ورفع إليه من السكون لأَمْرِ الله تعالى فى الذى طرقه ، والشكر له فيما أَزعجه وأَقلقه ، فليعرفنى القاضى من ذلك ما أَكُونُ ضاربا معه بسَهْمِ المساعدة عليه ، وآخـذا بِقِسْطِ المشاركة فيه .

رد على التعزية فى الثور

فصل من جواب أبى بكر : وصل توقيعُ سيدنا الوزير أطال اللهُ بقاه ، وأدام تأييده ونماه ، وأكمل رفعته وعُلاه ، وحَرس مُهْجته ووَقاه ، بالتعزية عن الثور الأبيض ، الذى كان للحَرْثِ مثيراً ، وللدواليب مُدِيرا ، وبالسبْقِ إلى سائر المنافع شهيراً ، وعلى شدائد الزمان مُساعدا وظَهيرا . لعمرُك لقدكان بِعَمِلِه ناهضا ، ولحماقات البقر رافضاً ، وأنّى لنا بمثله وشَرْواه[1] ، ولا شروى له؛ فإنه كان من أعيان البقر ، وأنفع أَجناسه للبشر ، مضاف ذلك إلى خَلاَّتٍ لولا خَوْفى من تجدُّد الحزن عليه، وتهييج الجزَع وانصرافه إليه لعدَدْتُها؛ ليعلمَ ــ أدام اللهعزه ــ أن الحزنَ عليه غيرُ ملوم . وكيف يُلام امرؤ فقَد من ماله قطعةً يجب فى مثلها الزكاة ، ومن خَدم معيشته بهيمة تُعين على الصوم والصلاة، وقداحتذيتُ مامثّله الوزير من جميل الاحتساب، والصبر على المُصَاب ؛ فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قولَ من علم أنه أملك لنفسه وماله وأهله وأنه لا يملك شيئا دونه ؛ وإذكان جلّ ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ، هو الملك الوهّاب ، المرتجع ما ارتجَع مما يعوض عليه نفيس الثواب . وقد وجدت ــ أَيد الله الوزير ــ للبقر خاصة فضيلة على سائر بهيمة الأَنعام، تشهد بها العقولُ والأفهام وذكر جملة من فضائلها[2] .

---

(١) الشروى : المثل . (٢) فى م : فضائل البقر .

من النقد

وكأنّ أبا نواس فى قوله :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

نظر فى هذا المعنى إلى قول جرير :

إذا غضبَتْ عليك بنو تميم حسبتَ الناسَ كلّهم غِضابا

***

امرأة ترثى بنيها

وقالت امرأةٌ من العرب ، يقال أنها امرأةُ العباسِ عمّ النبي صلى الله عليه وسلم ترثى بنيها(١) :

رَعَوا من المجد أكنافا إلى أجل حتى إذا كملت أظماؤهم وردُوا
مَيْتٌ بمصرٍ ومَيْتٌ بالعراق ومَيْـ ـتٌ بالحجاز مَنايَا بينهم بَدَدُ
كانت لهم هِمَمٌ فرّقن بينهمُ إذا القعاديدُ(٢) عن أمثالهم قعدوا
بَثّ الجميل وتفريج الجليل وإعـ ـطاء الجزيل الذى لم يُعطِه أحدُ

رثاء قيس ابن عاصم

وقال عبدة بن الطبيب فى قيس بن عاصم(٣) :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمتَه ما شاءَ أَن يترحَّما
تحية من ألبسته منك نعمة(٤) إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سلّما
فما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْك واحدٍ ولـكنه بُنْيانُ قومٍ تهدّما

وقيس بن عاصم هو القائل(٥) :

إنى امرُؤٌ لا يَعْتَرِى حسَبِي دنَسٌ يُغيِّره ولا أَفْنُ
من مِنْقَر فى بيتِ مكرُمةٍ والأصل(٦) يَنْبتُ حوله الغصْنُ
خُطباء حين يقول قائلهمْ بِيضُ الوجوهِ أعفّةٌ لُسْنُ

---

(١) شاعرات العرب : ١٦٤ ، نسب الشعر هناك إلى فاطمة بنت الأحجم الخزاعية ، ثم قال : وينسب إلى أم الفضل الهلالية امرأة العباس . (٢) فى م : الرعاديد .
(٣) الشعراء : ٧٠٧ . (٤) فى ط : تحية من غادرته غرض الردى . (٥) المختار من شعر بشار : ١٩٢ ، الأمالى : ١–٢٣٩ ، العقد : ١–٢١٨ (٦) فى الأمالى : والفرع .

لا يَفْطنون لعيبِ جارِهمُ وهُمْ لحُسْن جوارِه فُطْنُ

رثاء الوليد ابن طريف

وقالت أختُ الوليد بن طريف الشيباني ترثيه[1] :

أيا شجَر الخابورِ مالك مُورِقا كأنك لم تَجْزَعْ على ابن طَريف

فتًى لا يَعُدّ[2] الزادَ إلاّ من التقى ولا المال إلاّ من قناً وسيوفِ

عليك سلامُ الله وقفا[3] لأننى أرى الموت وَقّاعاً بكل شريف

فقدناك[4] فِقْدان الربيع وليتنا فَدَيْنَاك من فتياننا بألوف

وخرج الوليد فى أيام الرشيد ، فقتله يزيد بن مَزْيد ، وفى ذلك يقول بكر ابن النطاح الحنفى :

يا بنى تغلب لقد فَجَعَتْكُمْ من يزيدٍ سيوفُهُ بالوليد

لَوْ سيوفٌ سوى سيوفِ يزيدٍ قارَعَتْهُ لاقَتْ خِلافَ السعودِ

واترٌ بعضها يقتّل بعضاً لا يفلُّ الحديدَ غيرُ الحديدِ

***

تعصب بكر ابن النطاح

وكان بكر كثيرَ التعصب لربيعة والمدحِ فيهم وهو القائل :

ومن يفتقر منّا يعِشْ بحسامِهِ ومن يفتقر من سائر الناس يَسْأَلِ

ونحن وُصِفْنَا دون كل قبيلةٍ بشدةَ بأس فى الكتاب المنزَّلِ

وإنا لنَلْهُو بالسيوف كما لَهَتْ فتاةٌ بعِقْد أو سِخَابٍ[5] قَرَنْفُلِ

يريد قول الله عز وجل : «ستُدْعَوْنَ إلى قوم أُولى بَأْس شديد» . جاءَ فى بعض التفاسير إنهم بنو حنيفة قوم مُسيلمة الكذاب .

مدحه لأبى دلف

وبكر القائل أيضا فى أبى دلف :

يا عصمة العرب الذى لو لم تكن حيًّا لقد كانت بغير عِمَادِ

---

(١) المختار من شعر بشار : ٢٩ ، الأغانى : ١١ـ٩ ، المعاهد : ٣ـ٥٠ ، الصناعتين : ١٢٣ ، القالى : ٢ـ٢٧٤ . (٢) فى الأمالى : لا يحب . (٣) فى الأمالى : حتما فإننى .
(٤) فى م : فقدناه . (٥) السخاب ككتاب : قلادة بلا جوهر .

إنّ العيون إذا رأتْـك حِدادُها رجعت من الإجلال غير حِدَادِ
وإذا رميت الثغر منك بعَزْمةٍ فتّحتَ منه مواضعَ الأسداد
فـكأن رمحك مُنْقعٌ فى عُصْفُرٍ وكأنَّ سيفك سُلَّ من فِرْصَاد
لو صال من غَضَبٍ أبو دلف على بِيض السيوف لَذُبْن فى الأغماد
أذكى وأوقد للعداوة والقِرَى نارَيْن نار وغًى[1] ونار زناد

وأبو دلف[2] هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شنج[3] ابن معاوية بن خُزَاعى بن عبد العزّى بن دلف بن جشم بن قيس بن سعد بن عجل ابن لجيم .

* * *

من النقد

وقد رُوِيت الأبيات التى مرت لأخت الوليد بن طريف لعبـد[4] الملك بن بجرة النميرى .

وقال أبو هِفّان واسمه منصور بن بجرة ، قال أنشدنى دعبل لنفسه :

وَدَاعُك مثل وَدَاع الربيع[5] وفقدُك مثل افتقاد الدِّيَم[6]
عليك السلام فـكم من وفاء أفارق منك وكمْ من كَرَمْ

فقلت : أحسنت ، ولـكن سرقت البيتين من ربيعيين[7] : الأول من قول القطامى :

ما للـكواكب ودّعن الحياة كما ودّعننى واتخذن الشيب ميعادى

والثانى من قول ابن بجرة :

* فقدناك فقدان الربيع وليتنا *

(١) فى م : غنى . (٢) اللآلىء : ٣٣١ . (٣) فى م : سمح .
(٤) انظر اللآلىء : ٣٣٥، ففيه أن اسمه عبدالله ، وقال : وأغرب الحصرى فى تسميته منصور ابن بجرة . (٥) فى م : الحياة . (٦) فى م : وفقدك فينا كفقد النعم .
(٧) فى ظ : من معنيين.

وأنشد البيت . فقال : بلى ، والله سرق الطائى من ابن بجرة بيتا كاملا فقال :

عليك سلامُ الله وقفا فإننى رأيت الكريم الحر ليس له عُمْر

كذا وردت الحكاية من غير وجه ، وكان يجب إذا كان من ربيعيين أن يكون « فَقَدْناك فقدان الربيع » لأخت الوليد .

وقد قال السموءل فى قصر العمر :

يقرب حبّ الموتِ آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطولُ

وقال ابن قتيبة : أخذ النميرى قوله : « أيا شجر الخابور » من قول الجن[1] فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

أبعد قتيلٍ بالمدينة أظلمتْ له الأرض تهتزّ العِضَاه[2] بأَسْوُقِ

وقد أنشده أبو تمام الطائى للشماخ فى أبيات أولها :

جزى الله خيراً من أميرٍ وباركتْ يدُ الله فى ذاك الأديمِ الممزّق

[من يسع أو يركب جناحى نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق][3]

قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها نوافج[4] فى أكمامها لم تفتّق

وما كنتُ أخشى أن تكونَ وفاتهُ بكفّىْ سَبَنْتَى أزرق العين مُطرِق

تظل الحصانُ البكر تلقى جنينها نثا خبر فوق المطىّ معلّق

وقد قال بشار قريباً من قوله : [ولا المال إلا من قنا وسيوف][5] :

على جَنَبات الملك منه مَهَابةٌ وفى الدرع عَبْلُ الساعدَين قَرُوعُ

إذا اختزل المالَ البخيلُ فإنما خزائنُهُم خَطِّيّةٌ ودُروعُ

وهذا كقول أبى الطيب المتنبى فى فاتك الإخشيدى[6] :

---

(١) فى الأغانى : ناحت الجن على عمر قبل أن يقتل بثلاث، فقالت هذه الأبيات . وفيه وفى الشعراء : القائل جزء بن ضرار ، الأغانى: ٩ـ١٥٩ ، الشعراء: ٢٧٨.

(٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك . والأسوق : جمع ساق . (٣) من ا .

(٤) فى الأغانى ، م : بوائق، والبوائق : الشرور ، وفى ا : بوائج.

(٥) من ا . (٦) ديوانه : ٢ـ٢٧٠ ، المختار من شعر بشار : ٣٢ .

كنـا نظن دِيارَه مملوءَةً ذَهَبا فمات وكلُّ دارٍ بَلْقَعُ
وإذا المـكارمُ والصَّوارمُ والقنا وبناتُ أَعْوَجَ كُلّ شىء يجْمَعُ

ومن بارع هذا النحو قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى[1] :

وإنى لأَرباب القبور لغَابطٌ لسُكْنى سعيدٍ بين أهل المقابرِ
وإنى لمفجوعٌ به إذْ تكاثَرَتْ عداتى ولم أهتف سِواهُ بناصِر
وكنت كمغلوبٍ على نَصْلِ سيفه وقد حزّ فيه نَصْلُ حَرَّان[2] باتِرِ
أتيناه زُوَّاراً فأمجـدنا قِرًى من البَثّ والداء الدخيل المخامِر
وأُبنا بزرع قد نمـا فى صدورنا من الوجد يُسْـقَى بالدمُوع البَوادِرِ
ولمـا حضَرْنَا لاقتسام تُراثه أصبنا عظيمات اللُّهى والمـآثِرِ

أى لم نصب مالا ولـكنا أصبنا فعالا .

[من كلام الأعراب]

أعرابية تستمنح

دخلت أعرابية على عبد الله بن أبى بكرة بالبصرة ، فوقفت بين السِّماطين[3] ، فقالت : أصلح الله الأمير ، وأَمتَعَ به ؛ حَدَرَتْنا إليك سَنَةٌ أشتدّ بلاؤها ، وانكشف غِطاؤها ، أَقودُ صبية صغاراً ، وآخرين كباراً ، فى بلد شاسعة ، تَخْفِضُنا خافضة ، وترفعُنا رافعة ، لِمُلمّاتٍ من الدهر بَرَيْن عَظْمى ، وأذهبن لحمى ، وتركْنَنى والهة أدورُ بالحضيض ، وقد ضاق بى البلدُ العريض ، فسألت فى أحياءِ العرب : مَن الـكاملةُ فضائله ، المُعْطَى سائلَه، المـكفىُّ[4] نائله ؛ فدُلِلْت عليك ـ أصلحك الله تعالى ـ وأنا امرأة من هَوازن ؛ وقد مات الوالد ، وغاب الرَّافد ، وأنتَ بعـد الله غياثى ، ومنتهى أَمَلى ، فافعلْ بى إحدى ثلاث : إما أن تردّنى إلى بلدى ، أو تحسن صفَدى[5] ، أو تقيم أَوَدى ! فقال : بل أجمعها لك ، فلم يزَلْ يُجْرى عليها كما يُجْرِى على عياله ، حتى ماتت .

---

(١) المختار من شعر بشار : ٣١ ، الحماسة : ١ـ ٣٤٥ . (٢) فى ط : خوان .
(٣) السماط : انصف . (٤) فى م : الـكافى . (٥) الصفد : العطاء .

وأعرابى قال العتبى : وقف أعرابى بباب عبيد الله بن زياد فقال : يأَهل الغضَارة[1] ، حَقِب[2] السحابُ ، وانقشعَ الرَّبَاب[3] ، واستأسدت الذِّئَاب ، وردم الثَّمَد ، وقلّ الحَفَد[4] ، ومات الولد ، وكنت كثيرَ العُفاةِ ، صخِب السقاة ، عظيم الدَّلاة[5] ، لا أتضاءل للزمان ، ولا أحفل بالحِدْثَان ، حَىٌّ حِلَال ، وعَددٌ ومَالٌ ، فتفرقنا أيْدِى سَبَا ، بعد فقد الأبناء والآباء ؛ وكنت حسنَ الشارة ، خصيب الدَّارَة ، سليم الجارةِ ، وكان محلى حِمى ، وقومى أُسًى ، وعَزْمى جَداً ؛ قضى الله ولا رُجْعان لما قضى ، بسَوَافِ[6] المال ، وشتات الرجال ، وتغيُّر الحال ، فأَغيثوا مَنْ شَخْصُه شاهدُه ، ولسانهُ وَافدهُ ، وفقْرُه سائقُه وقائدُه .

[من مقامات الإسكندرى]

المقامة البصرية

ومن مقامات الإسكندرى[7] من إنشاء بديع الزمان قال حدثنا عيسى بن هشام ، قال : دخلت البَصرة وأنا من سنىٍّ فى فَتاء[8] ، ومن الزِّىِّ فى حِبَرٍ ووِشَاء[9] ، ومن الغنى فى بَقَرٍ وشَاء ؛ فأتيت المِرْبَد مع رُفْقَـة تأخذهم العيون ، ودخلنا غيرَ بعيد فى بعض تلك المتنزهات ، ومشَينا فى تلك المتَوَجَّهات ، وملـكتنا أرضٌ فحللناها ، وعَمَدنا لِقِدَاح اللَّهو فأجَلْنَاها ، مُطَّرِحين للحِشْمة ، إذْ لم يكن فينا إلا منّا ، فما كان إلاَّ بأَسرع من ارتداد الطَّرْف حتى عنَّ لنا سَوادٌ ، تخفضُه وهاد ، وترفعه نِجَاد ، وعلمنا أنه يهمّ بنا ، فأَتلعْنا[10] له ، حتى انتهى[11] إلينا سيرهُ ، ولقينا بتحية الإسلام ، ورددنا عليه مقتضى السلام ؛ ثم أجال فينا طَرْفه وقال : يا قوم ؛ ما منكم إلاَّ من يلحظنى شَزْرا ، ويوسعنى زَجْرا[12] ، ولا ينبئكم عنى بأصدق منى ؛ أَنا رجل من

(١) الغضارة : النعمة . وفى ط : الغضاضة . (٢) حقب : احتبس .
(٣) الرباب : السحاب الأبيض . (٤) الحفد : الأعوان . (٥) جمع دال كقاض وهو النازع فى الدلو المستقى به الماء من البئر ، وفى ط : الزلات . (٦) ساف المال : هلك .
(٧) المقامات : ٧٠ . (٨) فتاء السن : ميعته وشبابه . (٩) الوشاء : نوع من اللباس مطرز . (١٠) أتلعنا : مددنا له أعناقنا . (١١) فى م : فأداه إلينا .
(١٢) فى م : حزرا ، وفى ا : حردا .

أهل الإسكندرية ، من الثغور الأُموية ، قد وطّأ لى الفضل كَنَفَه ، ورحبت بى عبس ، ونمانى بيت . ثم جمجع بى الدهر عن ثُمِّه ورُمِّه(١) ، وأتلانى زغاليلَ حُمْر(٢) الحواصل :

كأنهمْ حيّاتُ أرض مَحْلَةٍ   فلو يَعَضُّون لذَكَّى سمُّهمْ
إذا نزَلْنَا أرسلونى كاسباً   وإن رحلنا رَكِبُونى كلهمْ

ونشرتْ علينا البِيض(٣) ، وشمَسَتْ منا الصُّفْر ، وأكلتنا(٤) السُّودُ ، وحطمتنا الحمر ، وانتابنا أبو مَالك ، فما تلقّانا أبو جابرٍ إلاّ عن عُفْر(٥) . وهذه البصرة ماؤها هَضُوم ، وفقيرها مهضوم ، والمرء من ضِرْسِه فى شُغْل ، ومن نفسه فى كلّ ، فكيف بمن :

يطوِّف ما يطوِّف ثم يأوى   إلى زُغْب(٦) محدَّدة العيونِ
كساهنَّ البِلَى شُعْثا فتُمْسى   جياع الناب ضامِرةَ البطونِ

ولقد أصبحْنَ اليومَ وقد سرّحْن الطرْف فى حىٍّ كَمَيْتٍ ، وفى بيت كلاَ بيت ، وقلبن الأكفّ على لَيْت ، فَقَضَضْنَ عقد الضلوع ، وأفضْنَ ماء الدموع ، وتداعَين باسم الجوع :

والفقرُ فى زمنِ اللئا   م لكل ذى كرمٍ علامَهْ

وقد اخترتُكم ياسادة ، ودلّتنى عليكم السعادة ، وقلتُ(٧) : قسما ، إن فيهم شِيمًا(٨) ، فهل من فتى يعشّيهن ، أو يغشّيهنّ؟ وهل من حرٍّ يغدّيهن ، أو يردّيهن(٩)؟

قال عيسى بن هشام : فوالله ما استأذن على سَمْعِى كلامٌ رائع أبرع مما سمعت ،

---

(١) قليله وكثيره .   (٢) أتلانى : أتبعنى، وعنى بالزغاليل : أطفاله .

(٣) فى ا : الغبر .   (٤) فى ا : وأنحلتنا .   (٥) البيض : الدراهم . والصفر : الدنانير . والسود : الليالى المهلكة . والحمر : السنون المجدبة . وأبو مالك : الفقر والكبر والهرم. وأبو جابر : الخبز . ولم يلقنا إلا عن عفر : لا يزورنا إلا كل حين مرة .

(٦) فى م : إلى بيت .   (٧) فى ط : وقالت .   (٨) فى المقامات وم ، ا : لدسما.

(٩) يلبسهن الرداء .

لا جرمَ أنا استمْحَنا الأَوساط، ونفَضْنَا الأكمام ، ونحتنا[1] الجيوب؛ وأنلته مُطْرَفى، وأَخذت الجماعةُ إخْذى ، وقلنا له : الحق بأطفالك ، فأعرض عنا بعد شكر وفاه ، ونشرٍ مَلأَ به فَاهُ .

[من رسائل البديع]

من رسائله إلى بعض الرؤساء

ومن رسائله إلى بعض الرؤساء : خُلقت ـ أَطال الله بقاء السيد وأدام تأييده ـ مشروحَ جَنَانِ الصدر، جموحَ عِنَانِ الحلم ، فسيح رُقعة الصدر :

حَمولاً صبوراً لو تعمَّدَنى الردى ... لسرت إليه مُشْرِقَ الوجه راضيا

ألوفاً وفيًّا لو رُدِدْتُ إلى الصِّبا ... لفارقت شَيْبى مُوجَعَ القلب باكيا

والله لأحيلنَّ السيد على الأيام، ولأكلنَّ استحالة رأيه فىّ على الليالى ، ولا أزال أُصفيه الولاء ، وأُسنيه الثناء ، وأفرش له من صدرى الدَّهْنَاء ، وأُعيره أذنا صمّاء ، حتى يعلم أىّ عِلْقٍ باع ، وأى فتى أَضاع ، وليقفن موقف اعتذار ، وليعلمنّ بنُصْح أَتَى الواشون أم بحُبُول[2] .ولاأقول : ياحالف اذكر حِلا ، ولكن ياعاقد[3] اذكر حَلا، ولست كمن يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَذَى رَهْطِه ، ويشتاقُ إلى رمى يزيد لسِبْطه[4]، ولكنى أقول :

هنيئاً مريئاً غيرَ داء مُخَامرٍ ... لعزَّةَ من أَعراضنا ما استحلَّتِ

وأنا أعلم أَن السيدَ لايخرج عن تلك الحلية ، بهذه الرُّقْية، وأن جوابه أخشنُ من لقائه ، فإن نشط للإجابة فلتكن المخاطبةُ قرأت رقعتك ، فهو أخفّ مؤنة وأقل تَبِعة .

من رسائله إلى العميد

وله[5] إلى العميد : أنا ـ أطال الله بقاءالشيخ العميد ـ [مع إخوان نيسابور[6]]

---

(١) فى م : وبحثنا . (٢) الحبل : الداهية ، وجمعها حبول ، وهو شطر بيت لكثير كما فى اللسان ـ مادة حبل ، وصدره : فلا تعجلى ياعز أن تتفهمى.

(٣) فى ا : باعها قد حلا ، وفى م : ياعاقر . (٤) فى ا : ويستاف إلى من رمى من يدى سبطه. وفى م : طعن من سمطه . (٥) الرسائل: ١٠٢ . (٦) من ا ، م .

فى ضيعة لا فيها أعان ، ولا عنها أصان، وشيمة ليست بى تناط، ولا عنى تماط، وحرفة لا عنى تزال ، ولا فيها أدال ، وهى الكدية التى علىّ تبعتها ، وليس لى منفعتها ، فهل للشيخ العميد أن يلطف بصنيعته لطفا يحطّ عنه درن العار ، وشيمة التكسّب بالأشعار ، ليخفّ على القلوب ظلّه ، ويرتفع عن الأحرار كلّه ، ولا يثقل على الأجفان شخصُه ، بإتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله[1] ، ليعلق بأذياله ، ويستفيد من خلاله ؛ فيكون قد صان العلم عن ابتذاله ، والفضل عن إذلاله ، واشترى حسن الثناء بجاهه ، كما يشتريه بماله ، والشيخ العميد فيما يوجبه من وعدٍ يعتمده ، ووفاء يتلو ما بعده عالٍ رأيه إن شاء الله .

[من المديح]

وقال بعضُ أهل العصر وهو أبو العباس الناشىء يمدحُ[2] سعد الدولة أبا المعالى شريف بن سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان :

كأن مرآة فهم الدهر فى يدهِ ··· يرى بها غائبَ الأشياء لم يَغِب

ما يرفع الفلك العالى سماء[3] عُلاً ··· إلا علاها شريف كوكب العرب[4]

يا من بعَيْنِ الرضا يلقَى مُؤمِّلهُ ··· والبُخلُ يُطبِقُ أجفانا على الغَضب

لو يكتب الملك أسماء[5] الملوك إذاً ··· أعطاك موضع بسم الله فى الكُتُب

غرّبت فى كل يوم منك مكرمةً ··· فليس ذِكرُكَ فى أرض بمغترِبٍ

بيته الأول كقول القائل :

أطلّ على الأشياء حتى كأنما ··· له من وراء الغَيْب مُقْلَةُ شاهدِ

أبو تمام الطائى[6] :

---

(١) فى م : علىّ من استعماله . (٢) فى ا : فى أبى العلاء شريف سعد الدولة .

(٣) فى ا : الفلك السامى السماء علا ، وفى م : الكواكب . (٤) فى م : الذهب.

(٥) فى م ، ا : المجد أحساب . (٦) ديوانه : ١٤١ .

أطلَّ على كِلَا الأفقين حتى ... كأنَّ الأرضَ فى عينيه دارُ

وأفرط ابن الرومى فقال :

أحاط علما بكل خافيةٍ ... كأنما الأرضُ فى يديه كُرَه

وقال محمد بن وهيب :

عليمٌ بأعقاب الأمور كأنما ... يخاطبه من كلّ أمرٍ عواقبُهُ

وقال بعض شعراء بنى عبد الله بن طاهر :

وقوفك تحت ظلال السيوف ... أقرّ الخلافةَ فى دارها

كأنك مطَّلع فى القلوب ... إذا ما تناجَتْ بأسرارها

وقال البحترى للفتح بن خاقان :

كأنك عينٌ فى القلوب بصيرةٌ ... ترى ما عليه مستقيمٌ ومائلُ

وقال فى سليمان بن عبد الله بن طاهر :

ينال بالظنّ ما فات اليقين بهِ ... إذا تلَبّس دون الظن إيقانُ

كأَن آراءَه والظن يجمعها(١) ... تُريه كلَّ خفىّ وهو إعلانُ

ما غاب عن عينه فالقلبُ يذكرهُ ... وإن تنمْ عينُه فالقلب يَقْظَانُ

وقال أبو الحسن أحمد بن محمد الكاتب يمدح عبيد الله بن سليمان [بن وهب الوزير](٢) :

إذا أبو قاسم جادَتْ لنا يدُهُ ... لم يُحْمَدِ الأجودان البحر والمطر

وإن أضاءت لنا أنوارُ غُرّته ... تضاءَل الأنوران الشمس والقمر

وإن مضى رأيه أَوحدّ عزمته ... تأخَّر الماضيان السيفُ والقدرُ

من لم يبت(٣) حَذرامن خوف سَطْوته ... لم يدر ما المُزْعِجَان الخوفُ والحذر

ينال بالظن ما يَعْيَا العِيان بهِ ... والشاهدان عليه العَيْنُ والأثر

---

(١) فى ا م : والحزم يتبعها .   (٢) من ا .   (٣) فى م : يمت حذرا .

كأنه الدهر فى نُعمى وفى نعمٍ إذا تَعاقب منه النفع والضرر[١]
كأنه وزِمامُ الدهر فى يدهِ يرى عواقبَ ما يأتى وما يذر

وأصل هذا قول أوس بن حجر[٢] :

الألمعىّ الذى يظن بك الظنـــــن كأنْ قد رأى وقد سَمِعاَ

وهذا المعنى قد مرّ فى أثناء الـكتاب .

قال أبو الحسن جحظة البرمكى : قلت لخالد الـكاتب : كيف أَصبحت ؟ قال : أَصبحت أَرقَّ الناس شعراً ، قلت : أتعرف قولَ الأعرابى :

فما وَجْد أعرابيةٍ قذفت بهــا صُروفُ الليالى حيث لم تك ظَنَّتِ
تمنَّتْ أحاليبَ الرعاء وخَيْمَةً بنَجْدٍ فلم يُقْدَرْ لهــا ما تمنّتِ
إذا ذكرَتْ ماءَ العِضَاهِ وطِيبَهُ وريح الصبا من نحو نجدٍ أَرنَّتِ[٣]
بأَعظم من وجدٍ بليلى وَجَدْتهُ غداة غَدَوْنَا غدوة واطْمَأَنَّتِ
وكانت رياح تحمِلُ الحاجَ بيننا فقد بَخِلَتْ تلك الرياحُ وضَنّتِ

فصاح خالد وقال : ويحك ! ويلك ! يا جحظة ! هذا واللهِ أَرَقّ من شعرى .

فصل لأبى العباس بن المعتز

لن تـكسب ـ أعزك اللهُ ـ المحامد، وتستوجب الشرفَ ، إلابالْحَمْلِ على النفس والجال[٤] ، والنهوض بحمل الأَثقال، وبَذْل الجاهِ والمالِ ، ولو كانت المـكارمُ تُنَال بغير مئونة لاشترك فيها السفل والأَحْرَار وتساهَمَها الوُضَعَاء مع ذوى الأخطار ؛ ولـكنَّ اللهَ تعالى خصَّ الـكُرماء الذينَ جعلهم أَهْلَها، فخفّف عليهم حملها، وسوَّغهم فَضْلَها ، وحظرها على السفلة لصِغَر أَقدارهم عنها ، وبُعْد طباعهم منها، ونفورِها عنهم، واقشعرارها منهم .

---

(١) ليس هذا البيت فى م ، ولا ، ا (٢) الأمالى : ٣ــ٣٤ .

(٣) فى ط : وماء الصبا من نحو نجران أنت. (٤) الجال : العقل والعزم، وفى ط : الحال.

[وقال أبو الطيب المتنبى[1] :

لولا المشقّةُ ساد الناسُ كلُّهمُ ... الجودُ يُفقِرُ والإقدام قتّالُ]

وقال الطائى[2] :

والحمد شَهْدٌ[3] لا يُرى مُشتارُهُ ... يَجْنيه إلاّ من نقيع الحَنْظَلِ

شرٌّ لحامله[4] ويحسبهُ الّذى ... لم يؤذِ[5] عاتقَه خفيفَ المحملِ

أخذه الطائى من قول مسلم بن الوليد، وقيل غيره[6] :

الجودُ أخشنُ مَسًّا يا بَنى مَطرٍ ... من أنْ تبزَّكموه كَفُّ مُستَلِبِ

ما أعْلَم الناسَ أنّ الجودَ مدفعةٌ[7] ... للذَّمِّ لكنّه يأتِى على النّشبِ

وقال بعض الأجواد : إنا لنَجِدُ كما يجدالبخلاء ، ولكنَّا نصبر ولا يصبرون .

[الغضب]

وقال الجاحظ : قيل لأبى عباد وزير المأمون ، وكان أسرعَ الناس غضباً : إنّ لقمان الحكيم قال لابنه : ماالحمل الثقيل ؟ قال : الغَضب . قالأبو عباد : لكنّه واللهِ أَخفُّ علىّ من الريش ! قيل له : إنما عنى لقمان أنّاحتمالَ الغَضَب ثقيل ، فقال : لاوالله لا يَقْوَى على احتمال الغضب من الناس إلا الجمل !

وغضب يوماً على بعضِ كتّابه ، فرماه بدَوَاةٍ كانت بين يديه فشجَّه، فقال أبوعبّاد: صدق اللهُ تعالى فى قوله : والذين إذا ما غضبوا هم يَغْفِرون . فبلغ ذلك المأمون فأَحضره ، وقال له : ويحك ! ما تُحْسِن تقرأ آيةً من كتاب الله تعالى ! قال : بلى يا أَمير المؤمنين ، إنى لأحفظ من سورة واحدة ألْفَ آية ؛ فضحك المأمون وأَمر بإخراجه .

---

(١) ديوانه : ٣—٢٨٧ ، وليس فى م ، ا . (٢) ديوانه : ٢٣٥ .

(٣) الشهد — بالفتح والضم : العسل . (٤) فى الديوان : غل لحامله .

(٥) فى الديوان : لم يوه . (٦) التبيان : ٣—٢٨٧ ، ونسبهما فيه إلى النمرى .

(٧) فى التبيان : مكسبة للمجد.

نبذة من لطائف ابن المعتز وفضل تحققه بالبديع
والاستعارات مما تتعين العناية بمطالعتها[١]

قال أبو بكر الصولى : اجتمعت مع جماعةٍ من الشعراء عند أبى العباس عبد الله بن المعتز ، وكان يتحقق[٢] بعلم البَديعِ تحققا يَنْصُرُ دعواه فيه لسان مذاكرته ، فلم يَبْقَ مَسْلَكٌ من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شِعْبا من شِعَابه، وأوردنا أَحسن ماقيلَ فى بابه ، إلى أن قال أبو العباس : ما أَحسن استعارة اشتمل عليها بيت واحد من الشعر ؟ قال الأَسدى : قولُ لبيد[٣] :

وغداةَ ريحٍ قد كشفْتُ وقِرَّةٍ ... إذْ أصبحَتْ بيدِ الشِّمالِ زِمامُها[٤]

قال أبو العباس : هذا حسن ، وغيره أَحمد منه ، وقد أخذه من قول ثعلبة بن صعَير المازنى[٥] :

فتذَاكرَا ثَقَلًا رَثيداً بعدما ... أَلْقَتْ ذُكَاءُ يمينَها فى كَافِرِ

وقول ذى الرمة أعجب إلىّ منه[٦] :

ألا طرقت مىٌّ هَيُوماً بِذِكْرِهَا ... وأيدِى الثّريا جُنَّحٌ فى المغاربِ

وقال بعضُنا : بل قول لبيد أيضا[٣] :

ولقد حمَيْتُ الخيلَ تحمل شِكَّتِى ... فُرُطٌ، وِشاحِى إن غدوتُ لِجامُها

قال أبوالعباس : هذا حسن، ولكن نَعدل عن لبيد .

وقال آخر: [قول الهذلى][٧] :

ولو أننى استودعْتُه الشمسَ لاهتدَتْ ... إليه المنايا عَيْنُها ورَسُولُها

---

(١) ليس هذا العنوان فى ا ، م . (٢) هكذا فى م ، ا . (٣) المعلقات : ١٦٣.

(٤) البيت الذى يقال إن لبيدا سرق معناه من ثعلبة هو :

حتى إذا ألقت يدا فى كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها

اللسان ــ مادة كفر ، الشعراء : ٢٤٣ ، المعلقات: ١٦٥ . (٥) اللسان ــ مادة كفر .

(٦) ديوانه : ١٦ . (٧) من م ، ا .

قال أبو العباس : هذا حسن ، وأَحسن[1] منه ـ فى استعارة لفظِ الاستيداع ـ قول الحصين بن الحمام ؛ لأنه جمع الاستعارة والمقابلة فى قوله[2] :

نُطَارِدُهم نستودعُ البيضَ هامَهُمْ ... ويستودِعُونا السَّمْهَرِى المُقوَّما

وقال آخر : بل قولُ ذى الرُّمة :

أقامَتْ به حتى ذَوى العودُ فى الثَّرى ... وساق الثريا فى مُلاَءَتِهِ الفَجْرُ

قال أبو العباس : هذا لعمرى نهايةُ الخبرة ؛ وذو الرمة أَبدعُ الناسِ استعارة ، وأبرعهم عبارة ، إلا أنَّ الصواب حتى ذوى العود والثرى ؛ لأن العود لا يَذْوى مادام فى الثرى ، وقد أنـكره على ذى الرمة غير ابنُ المعتز . قال أبو عمرو بن العلاء : كانت يدى فى يد الفرزدق فأَنشدته هذا البيت ، فقال : أُرشِدك أم أَدَعُك ؟ قال فقلت : بل أرشدنى ، فقال : إنَّ العود لا يَذْوى فى الثَّرى ، والصوابُ حتى ذوى العود والثرى .

قال الصولى : وكأنه نبه على ذى الرمة[3] . فقلت : بل قوله:

ولما رأيت الليل والشمس حيّةٌ ... حياةَ الذى يقضى حشاشة نَازِعِ

قال أبو العباس : اقتدحت زَندك ياأبا بكر فأَوْرَى ، هذا بارعٌ جدا ، وقد سبقه إلى هذه الاستعارة جرير حيث يقول :

تحيِي الروامس ربعها وتُجِدّهُ ... بعد البِلَى فتُميته الأَمْطارُ

وهـذا بيتٌ جمع الاستعارةَ والمطابقة ؛ لأنه جاء بالإحياء والإماتة ، والبلى والجدة ، ولـكِنْ ذوالرمة قداستوفى ذِكْرَ الإحياء والإماتة فى موضعٍ آخرفأَحْسن ، وهو قوله[4] :

ونشوانَ من طولِ النعاس كأنهُ ... بحَبْلَين ِ فى مَشْطونةٍ يترَجَّحُ

إذا مات فوق الرَّحْلِ أُحييت روحهُ ... بذكرك والعِيسُ المراسِلُ جُنَّحُ

---

(١) فى ا : بديع ، وأبدع منه . (٢) الشعراء : ٦٣٠ .

(٣) فى م : فـكأنما نبه على ذى الرمة . (٤) ديوانه : ٢٢ .

فما أحد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس إلا وقد غمره من بَحْرِ أبى العباس ما غاض معه مَعِينُه ، ولم ينهض حتى زوّدنا من برّه ولطفه نهاية ما اتسمت له حالُه.

[كتمان الحب]

وقال ابن المعتز[١] :

لمـا رأيت الحبّ[٢] يفْضَحُـنِى ونمت[٣] علىَّ شواهد الصبّ
ألقيت غيرَكَ فى ظنونهمُ وسترْت وَجْهَ الحبِّ بالحُبِّ

وقال العباس أحمد بن الأحنف فى هذا المعنى[٤] :

قدجرَّر[٥] الناسُ أذيالَ الظنونِ بنا وفرَّق الناسُ فينا قولَهم فِرَقا
فـكاذبٌ قد رمى بالظَّنِّ غيرَكمُ وصادقٌ ليس يَدْرى أنه صدَقا

[وقريب من هذا المعنى قول الفارضى رضى الله عنه ، وإن لم يكن منه :

تخالفت الأقوال فينا تباينا برَجْم أُصولِ بيننا ما لها أصْلُ
فشنّع قـومٌ بالوِصالِ ولم أصل وأرْجفَ بالسلوان قومٌ ولم أسْلُ
وما صدق التشنيعُ عنهـا لشقْوَتِى وقد كَذَبَتْ عنىالأَراجيفوالنقل][٦]

وقال ابن المعتز[٧] :

لنا عَزْمَةٌ صمَّاء لا تسمعُ الرّقى تُبيت أُنوفَ الحاسدين[٨] على رَغْمِ
وإنا لنعطى الحقَّ من غير حاكم علينا ولو شِئْنَا لِملنا مع الظلم[٩]

وقد أخذه أبو العباس من قول أعرابى :

ألا يا شفاءَ النفسِ[١٠] ليس بعالم بك الناسُ حتى يعلموا ليلةَ القدْرِ
سوى رجمهم بالظنِّ والظنُّ كاذِبٌ مراراً وفيهم مَنْ يُصيب ولا يَدْرِى

---

(١) ديوانه : ٦٦ . (٢) فى الديوان : الدمع . (٣) فى الديوان : وقضت .
(٤) ديوانه : ١١٣ . (٥) فى الديوان : قد سحب .
(٦) ليس ما بين القوسين فى ا ، ولا فى م . (٧) ديوانه : ١ـ٤٩ .
(٨) فى الديوان : تبيت قلوب العاذلين . (٩) فى الديوان : كتمنا على ظلم . (١٠) فى ا : القلب.

وقال الحسين بن مطير[١] :

لقد كنت جَلداً قبل أن تُوقِدَ النوى ... على كبدى ناراً بَطيئاً خمودُها
ولو تُرِكتْ نارُ الهوى لتضرَّمَتْ[٢] ... ولكنَّ شوقاً كلَّ يوم يَزيدُها[٣]
وقد كنتُ أرجو أن تموتَ صبابتى ... إذا قَدِمت أيامُها وعهودُها
فقد جعلت فى حبَّةِ القلب والحشاَ ... عِهادُ الهوَى تولّى[٤] بشوقٍ يُعيدُها
بمرتجة الأرداف هِيف خُصُورها ... عِذابٌ ثناياها عجاف نُهودُها[٥]
وصُفْر تَراقِيها وحُمْرٌ أكفُّها ... وسودٌ نواصيها وبيضٌ خدودُها
مخصَّرة الأوساط زانتْ عقودَها ... بأَحسن ممــا زيّنتْها عقودُها
يمنِّيننَا حتى تَرِفَّ[٦] قلوبُنا ... رفيفَ الخُزامَى بات طَلٌّ يجُودُها
وفيهن مِقْلاق الوِشاح كأنهـا ... مَهاةٌ بتُرْبَانٍ[٧] طَويلٌ عمودُها

وقال :

قضى اللهُ يا أسماءُ أنْ لستُ بارحا ... أُحبك حتى يُغمِض العينَ مُغمِضُ
فحبك بَلوَى غير أَن لا يسوءنى ... وإن كان بَلوَى أننى لك مُبْغِضُ
فوا كبدا من لَوْعَةِ البَيْن كلّما ... ذكرتُ ومن رفض الهوى حين يرفض
ومن عـبرة تَذْرى الدموع وزفرة ... تقضقض أطرافَ الحشاَ ثم تنهض
فياليتنى أقْرَضْت جَلْدًا صبابتى ... وأقرضَنى صبْراً على الشوق مقرِضُ
إذا أنا رُضْتُ القلب فى حُبّ غيرها ... بَدَا حبُّهــا من دونه يتعرّض

وكان الحسين قوىّ أسر الكلام ، جَزْلَ الألفاظ ، شديدَ العارِضة ، وهو القائل فى المهدى :

له يوم بؤس فيــه للناس أَبْؤُسٌ ... ويوم نعيم فيـــهِ للناس أنعُم

---

(١) الأمالى: ١-١٦٥ ، اللآلىء : ٤٢٥ ، الأدباء : ١٠-١٧٦، الفوات : ١-١٨٥ .
(٢) فى م : لتصرمت (٣) فى الأدباء : وقودها . (٤) فى الأدباء : عهاد تولاها
(٥) فى الأدباء، والأمالى: عجاف قيودها. (٦) ترف: تختلج. (٧) موضع، وفى ط ، ا : بترثار.

فيُمطر يوم الجودِ مِنْ كَفِّه النَّدَى ... ويَقْطرُ يومَ البؤس من كفِّه الدمُ
فلو أن يومَ البُؤْس خلّى عقابهُ ... على الناس لم يصبح على الأرض مُجْرِمُ
ولو أن يوم الجود خَلَّى نَوالهُ ... على الأرض لم يصبح على الأرض مُعْدِمِ

وأنشد أبو هفّان له :

أين أهلُ العتاب بالدَّهْناء ... أين جيرانُنـا على الأحساء
جاورونا والأرض ملبَسة نَوْ ... رَ الأقاحى تُجادُ بالأَنْواء
كل يوم بأقحوان جَـديد ... تَضْحَكُ الأرضُ من بكاء السماء

أخذ هذا المعنى دعبل ونقله إلى معنى آخر فقال[1] :

أين الشبابُ وأيَّةً سلـكا ... أم أين يُطلَب ضَلَّ بل هلـكا
لا تعجبي يا سَلْم من رجلٍ ... ضَحِك المشيبُ برأْسِهِ فبَـكَى

وقال مسلم بن الوليد فى هذا المعنى :

مَستعبر يبكى على دمنةٍ ... ورأسُه يَضْحَك فيه المشيب

[معالى الأخلاق]

وأنشد الزبير بن بكّار :

أُحبّ معالىَ الأخلاق جُهدى ... وأكره[2] أن أعيب وأن أُعابا
وأصفح عن سباب الناس حِلماً ... وشرُّ الناسِ من حَبَّ السبابا
وأترك قائلَ العوراء عَمْداً ... لِأُهلـكه وما أَعْـيَى الجوابا
ومَنْ هابَ الرجال تهيَّبُوهُ ... ومن حقر الرجالَ فلن يُهَابا

[رياضة النفس على الفراق]

وعلى ذكر قوله[3] : * إذا أنا رُضْتُ القلبَ فى حُبِّ غيرها * أنشد الأصمعى لغلام من بنى فزارة[4] :

---

(١) المختار من شعر بشار : ٣٣٣ ، الأدباء: ٤ـ١٩٧ .
(٢) فى م : وأخشى (٣) الحسين بن مطير فيما تقدم. (٤) اللآلى : ٥٠٩ .

وأعرِضُ حتى يحسَبَ النـاسُ أنما ... بـَ الهجْرُ، لا واللهِ[1] مابى لها هَجْرُ

[ولـكنْ أروضُ النفسَ أنظرهل لها ... إذا فارقت، يوماً أحبّتها صبر][2]

قال إسحق الموصلى : قال لى الرشيد : ما أحسن ما قيـل فى رياضة النفس على الفراق ؟ قلت قول أعرابى :

وإنى لأَسْتَحْيِي عيوناً وأتَّقى ... كثيرا وأسْتبقى المودّةَ بالهجْرِ

فأُنْذِرُ بالهجران نفسى أرُوضُها ... لأَعلم عندالهجْرِ هل لىَ من صَبْرْ

[فقال الرشيد : هذا مليح ، ولـكنى أستملح قول أعرابى آخر[3] :

خشيت عليها العَيْنَ من طول وَصْلِها ... فهاجَرتها يومين خوفاً من الهجرِ

وما كان هِجْرانى لها عن مَلالةٍ ... ولـكننى جرَّبْتُ نفسىَ بالصبر][4]

قال الصولى : قال لى المبرد : عمك إبراهيم بن العباس أحزمُ رأياً من خاله العباس ابن الأحنف فى قوله[5] :

كان خُروجى من عندكم قدَرًا ... وحادثاً من حوادثِ الزمنِ

من قبل أن أعرض الفراق على ... قَلْبى وأن أستعدَّ للحزَنَ

وقال عمك إبراهيم[6] :

وناجيتُ نفسى بالفراق أرُوضُها ... فقالت رُوَيْدًا لا أغرّكَ من صَبْرِى

فقلت لها فالهَجْرُ والبَيْنُ وَاحِدٌ ... فقالت أأُمْنَى بالفراقِ وبالهَجْرِ

فقلت له : إنه نقل كلام خاله[7] :

عرضت على قلبى الفِراق فقال لى ... من الآن فايْئَسْ لاأغرّكَ من صَبْرِى

إذا صدَّ من أهْوَى رجوتُ وِصالهُ ... وفرقةُ مَنْ أهوى أحرُّ من الجمْرِ

---

(١) فى م ، ا : لاها الله . (٢) من م ، ا . (٣) اللآلئ : ٥٠٧ .

(٤) ليس ما بين القوسين فى ا . (٥) ديوانه : ١٥٢ .

(٦) ديوان إبراهيم بن العباس : ١٤٤ (٧) ديوانه : ٧٩ ، اللآلئ : ٥٠٨ .

وقال العباس بن الأحنف[١] :

أرُوض على الهِجران[٢] نفسى لعلَّها تَماسَكُ[٣] لى أسبابُها حين أهجرُ

وأعلم أنّ النفسَ تكذِبُ وَعْدَها إذا صدق الهجرانُ يوما وتغدرُ

وما عرضَتْ لى نظرةٌ مُذْ عرفتها فأنظر إلا مُثّلت حين أنظرُ

[وقال المتنبى من المعنى[٤] :

حببْتُكَ قلْبى قبل حبِّكَ[٥] مَنْ نَأَى وقد كان غدّاراً فكنْ أنتَ[٦] وافيا

وأعْلم أنّ البيْنَ يُشكِيكَ بعدها[٧] فلستَ فؤادى إن وجدتكَ[٨] شاكيا]

قال الحاتمى : والذى أراه وأذهب إليه أن أحسن من هـذا المعنى قول أبى صخر الهذلى[٩] :

ويمنعنى من بعضِ إنكارِ ظُلْمِها إذا ظلمت يوما وإن كان لى عذرُ

مخافةُ أنّى قد علمت لئن بَدَا لىَ الهَجْرُ منها ما على هَجْرِها صَبْرُ

وأنى لا أدرى إذا النفسُ أشرفت على هَجْرِها ما يبلغنَّ بىَ الهجر

فياحبَّها زِدْنِى جوًى كلَّ ليلةٍ ويا سَلْوَةَ الأحزانِ مَوْعِدُكَ الحَشْرُ

شذور من كلام أهل العصر فى مكارم الأخلاق

ابن المعتز — العقلُ غريزة تزينها التجارب . وله : العاقلُ من عَقَل لسانه ، والجاهلُ من جَهِل قَدْره . غيره : إذا تمّ العقلُ نقص الكلام . حُسْنُ الصورة الجمالُ الظاهر ، وحسن الخلق الجمالُ الباطن . ما أبينَ وجوه الخيرِ والشرِّ فى مِرْآةِ

(١) ديوانه : ٧٢ . (٢) فى الديوان : أجرب بالهجران .
(٣) فى الديوان : تفيق فيزداد الهوى . (٤) ديوانه : ٤ـ٢٨٣ ، وليس هذا البيت والذى بعده فى ا ، م . (٥) فى الديوان : قبل حبك . (٦) فى الديوان : فكن لى.
(٧) فى الديوان : بعده . (٨) فى الديوان : إن رأيتك . (٩) الأمالى: ١ـ١٤٩

العقل إذا لم يصدئها الهوى . العاقلُ لا يدعه ما ستر اللهُ من عيوبه أن يَفْرَحَ بما أظهر من محاسنه . بأيدى العقولِ تُمسك أعنَّةُ النفوس عن الهوى . أحْرِ بمن كان عاقلا أن يكونَ عما لا يَعْنيه غافلا . التواضعُ من مصايد الشرف . من لم يتَّضِعْ عند نفسه لم يرتفع عند غيره .

يحيى بن معاذ — التكبُّر على المتكبر تواضع . الحلم حجابُ الآفات . أحيوا الحياءَ بمجاورة من يستَحْيَا منه . مَنْ كساه الحياءُ ثوبَه ستر عن الناس عَيْبَه . الصبرُ تجرّع الغُصص ، وانتظارُ الفُرَص . قلوبُ العقلاء حصون الأسرار . انفرِدْ بسرِّك ولا تودعه حازما فيزلّ ، ولا جاهلا فيخون . الأناة حُسْنُ السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة . من حَسُنَ خُلقه وجَب حقُّه . إنما يستحق اسم الإنسانية مَنْ حَسُنَ خُلقه . يكاد سيىء الخلق يُعَدُّ من البهائم والسباع .

أرسطاطاليس — المروءة استحياءُ المرء نفسه . المعروف حِصْنُ النعم من صروف الزمن . للحازم كنزٌ فى الآخرة من عمله ، وفى الدنيا من معروفه . لا تستحى من القليل فإنّ الحرمان أقلُّ منه .

أبو بكر الخوارزمى — الظَّرف يجرى وبه هزال، [والسيف يمضى وبه انفلال][1]، والحرُّ يُعْطِى وبه إقلال . بَذْلُ الجاه أحدُ المالين . شفاعةُ اللسانِ أفضلُ زكاة الإنسان . بَذْلُ الجاهِ رفد المستمين . الشفيعُ جناحُ الطالب . التقوى هى العُدّة الباقية ، والجُنَّة الواقية . ظاهرُ التقوى شرفُ الدنيا ، وباطنها شرف الآخرة . من عفّت أطرافه ، حسنت أوصافه . قال أبو الطيب المتنبى[2] :

ولا عِفَّةٌ فى سيفِهِ وسِنانهِ ولكنها فى الكف والفرجِ والفمِ

لقمان — الصَّمْتُ حُكْمٌ وقليل فاعِلُه . أربعُ كلمات صدرت عن أربعة ملوك كأنما رُمِيَت عن قَوْسٍ واحدة . قال كسرى — لم أندم على ما لم أقل ، وندِمْتُ

---

(١) زيادة من م ، ا . (٢) ديوانه : ٤ـ١٣٧ .

على ما قلت مرارا . قيصر ـ أنا على ردّ ما لم أقل أقدرُ منى على ردِّ ما قلت .
ملك الصين ـ إذا تكلّمت بالكلمة ملكتنى ، وإذا لم أتكلّم بها ملكتها .
ملك الهند ـ عَجِبْتُ ممن يتكلَّمُ بالكلمة إن رُفِعَتْ ضرَّته ، وإن لم تُرْفَع لم تنفعه .
ما الدّخانُ على النار ، ولا العجاج على الريح ، بأَدلَّ من ظاهرِ الرجل على باطنه ، وأنشد :

قد يُستدلُّ بظاهرٍ عن باطنٍ ... حيث الدخان فثَمَّ مَوْقِدُ نارِ

مَنْ أَصلح مالَه فقد صان الأكرمَيْن المال والعرض . من لم يجمد فى التقدير ولم يَذُبْ فى التدبير فهو سديد التدبير . عليك بالقَصْدِ بين الطرفين، لامَنْعَ ولا إسراف، ولابخل ولا إتراف . لاتكن رطبا فتُعْصَر ، ولا يابساً فتكسر ، ولا حلوا فتُسْتَرَط ، ولا مرًّا فتُلْفَظ .

المأمون بن الرشيد ـ الثناء أكثر من الاستحقاق مَلَقٌ وهَذَر ، والتقصير عِيٌّ وحَصَر[1] .

إكرامُ الأَضياف ، منعادة الأشراف . وفى الخبر : لاتتكلَّفوا للضيف فتبغضوه؛ فمن أبغض الضيفَ أبغضه الله . ينبغى لصاحب الكريم أن يصبر عليه إذا جمعتهما نبوة الزمان ، فليس ينتفع بالجوهرة الكريمة من لم ينتظر نفَاقها[2] .

مواعظ عقلها بعض أهل العصر تتعلق بهذا الفصل

أَغْضِ على القَذَى وإلا لم ترْضَ أبدا . أَجْمِل الطلبَ فسيأتيك [ما قُدِر لك ، صُنْ عرضك][3] وإلاَّ أخْلَقْت وجهك . جاور الناسَ بالكفّ عن مساويهم . انسَ رِفْدَك، ولاتنْسَ وعدَك . كذب أسواءالظنون بأحسنها . أغْنِ من ولَّيته عن السرقة، فليس يكفيك من لم تكفه . لا تتكلَّفْ ما كفيت فيضيع ما أوليت .

---

(١) فى ا : وحسد . (٢) النفاق ، بالفتح : الرواج . (٣) من م ، ا .

ابن المعتز ـ لا تسرعْ إلى أرفع موضع فى المجلس ، فالموضع الذى تُرفع إليه خيرٌ من الموضع الذى تحطّ منه . لاتذكر الميتَ بسوءفتكونَ الأرض أكتم عليك منك. ينبغى للعاقل أن يُدَارى زمانه مداراةَ السابحِ للماء الجارى .

العتابى ـ المـــداراةُ سياسة رفيعة تَجْلِبُ المنفعة ، وتدفع المضرّة ، ولا يستغنى عنهـا ملك ولا سُوقَة ، ولا يدع أحـدٌ منها حظَّه إلا غمرته صروف المـكاره .

[من رسائل العتابى وأدبه]

لبعض إخوانه

وكتب العتابى إلى بعض إخوانه :

لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوِّك عنى لم أبذل وَجْهَ الرغبة إليك ، ولم أتجشم مرارةَ تماديك، ولـكن استخفَّتْنَا صبابتنا ، فاحتملنا قَسْوَتك ، لعظيم قَدْرِ مودتك، وأنت أحقُّ من اقتصَّ لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من إبطائه .

وله

وله : كتبتُ إليك ونفسى رهينة بشكرك ، ولسانى علق بالثناء عليك، والغالبُ على ضميرى لائمة لنفسى ، واستقلالٌ لجهدى فى مكافأتك ، وأنت ـ أصلحك اللهُ ـ فى عزِّ الغنى عنى ، وأنا تحت ذُلِّ الفاقةِ إلى عطفك ، وليس من أخلاقك أن تُولى جانب النَّبْوَة منك من هو عَانٍ فى الضَّراعة إليك .

دخوله على الرشيد

ودخل العتابى على الرشيد[١] فقال : تـكلَّم يا عتابى ! فقال : الإيناسُ قبـل الإبساس[٢]، لا يُحْمَدُ المرء بأول صوابه ، ولا يذَمُّ بأول خطئه ؛ لأنه بين كلام زوَّره، أو عىٍّ حَصَره .

العتابى وأبو نواس

ومرّ العتابى بأبى نواس وهو ينشد الناس[٣] :

---

(١) المختار من شعر بشار : ٤٦ . (٢) الإبساس : صوت يستعمله الحالب عند الحلب يسكن به الناقة . (٣) ديوانه : ٩٧ .

ذكر الكرخ نازحُ الأَوطانِ فبكى صَبْوَةً ولاَت أَوانِ

فلما رآه قام إليه ، وسأله الجلوس ، فأَبى وقال : أين أنا منك وأنت القائل ، وقد أَنصفك الزمان[1] :

قد علقنا من الخصيب حِبَالاً أَمَّنَتْنا طوارقَ الحدثَانِ

وأنا القائل وقد جار علىّ ، وأساء إلىّ :

لفظتنى البلادُ وانطوت الأكفاء دونى ومَلَّنى جِيرَانى

والْتَقَتْ حَلْقةٌ علىّ من الدَّهْرِ فجاءَتْ بكَلْكَلٍ وجِرانِ

نازعتنى أحداثها مُنْيَةَ[2] النفس وهدَّت خطوبُها أركانى

خاشعٌ للهموم معترف[3] القلْب كَئِيبٌ لنائباتِ الزمانِ

[شعر الأعراب]

قال عبد الرحمن بن أخى الأصمعى : سمعت عمِّى يحدث قال[4] : أَرِقْتُ ليلةً من الليالى بالبادية ، وكنت نازلا عند رجل من بنى الصَّيْدَاء ، وكان واسعَ الرَّحْل ، كريم المحل ، فأصبحتُ وقد عزَمْتُ على الرجوع إلى العراق ، فأتيت أبا مَثْوَاىَ ، فقلت : إنى قد هَلِعت من الغُرْبَة ، واشتقْتُ إلى أهلى ، ولم أُفِدْ فى قَدْمتى هذه كبيرَ علم . وإنما كنت أغتفِرُ وحشة الغربة وجفاءَ البادية للفائدة ؛ فأظهر الجفاوة حتى أبرز غداء له فتغدّيت ، وأمر بناقة مَهْرِيَة[5] كأنها سبيكة لُجَيْن [فارتحلها][6] واكتفلها ، ثم ركبَ وأَرْدَفنى ، وأقبلها مطلعَ الشمس ؛ فما سِرْنَا كبير مسير حتى لَقِينا شيخٌ على حمارٍ ، له جُمَّة قد ثمغها بالوَرْسِ ، كأنها قنبيطة ، وهو يترنَّم ، فسلَّم عليه صاحبى ، وسأله عن نسبه فاعْتَزَى أسديا من بنى ثَعْلبة. قال: أتروى أم تقول؟ قال : كلاًّ . قال : أين تؤُم ؟ فأشار إلى موضعٍ قريبٍ من الموضع الذى نحنُ فيه .

---

(١) ديوانه : ٩٨ . (٢) فى ا : مهجة . (٣) فى ا : معترق . (٤) الأمالى : ١-١٦٩ .
(٥) منسوبة إلى مهرة بن حيدان : حى . (٦) من م ، ا .

فأَناخ الشيخ ، وقال لى : خُذْ بيد عمك فأنزله عن حماره . ففعلت ، وأَلقى له كساءً قد اكتفل به ، ثم قال : أنشدنا يرحمك الله وتصدّق على هذا الغريب بأَبيات يبتّهن عنك ، ويذكرك بهن ، فأنشدنى له[1] :

لقد طال ياسوداء مِنْك المَواعدُ ودون الجَدَا المأمولِ منك الفَرَاقدُ

تمَنِّينَنا بالوصل وَعْداً وغَيْمُكم ضَبابٌ فلا صَحْوٌ ولا الغَيمُ جَائد

إذاأنْتَ أعطِيتَ الغِنَى[2] ثم لم تجُدْ بفَضْلِ الغنى أُلفِيتَ مالَكَ حامدُ

وقلّ غناءً عنك مالٌ جمعتَهُ إذا صار ميراثاً ووَاراكَ لاحِدُ

إذا أنت لم تعرُكْ بجنبيك بَعْضَ ما يَرِيبُ من الأَدنى رماك الأَباعدُ

إذا الحِلْمُ لم يَغْلِب لك الجهل لم تزل عليك بُروقٌ جَمّةٌ ورواعِدُ

إذاالعزمُ لم يفرُج لكَالشكّ لم تزلْ جنيبا كما استَتْلَى الجنيبةَ قَائِدُ

إذا أنت لم تترك طعاما تحبّهُ ولا مقعداً تَدْعُو إليه الولائد

تجلّلتَ عارا لا يزالُ يَشبُّهُ عليك الرجال نَثْرُهم[3] والقَصَائِدُ

وأنشدنى لنفسه[4] :

تعزَّ فإنَّ الصبرَ بالحُرِّ أجمل وليس على رَيْبِ الزمان معوّل

فلو كان يُغنى أن يُرى المرء جازعاً لنازلةٍ أو كان يُغنِى التذلُّلُ

لكان التعزِّى عند كل مصيبةٍ ونازلةٍ بالحرِّ أولى وأَجْمَلُ

فكيف وكلٌّ ليس يَعْدُو حمامهُ وما لامْرِئٍ مما قضى اللهُ مَزحَلُ

فإن تكن الأيامُ فينا تبدّلَتْ بنعمى وبؤسَى والحوادثُ تَفْعلُ

فما ليّنَتْ منا قناةً صَليبةً ولا ذلّلَتْنَا للذى ليس يَجْمُلُ

ولكن رحلْناها نفوسا كريمةً تُحمَّلُ مالا يستطاعُ فتَحْمِل

---

(١) اللآلى : ٤٢٩ ، الأمالى : ١ـ ١٧٠ ، المختار من شعر بشار : ١٣١ .

(٢) فى م : المنى . (٣) فى الأمالى : سباب الرجال نقرهم .

(٤) الأمالى : ١ـ ١٧٠ ، اللآلى : ٤٣٠ ، وفى م ، ا : له أيضا .

وقَيْنَا بجدِّ العَزْمِ[1] منا نفوسَنا فصحّت لنا الأعراضُ والناس هُزَّل

قال : فقمت إليه ، وقد نسيت أَهلى ، وهانَ علىّ طولُ الغربة ، وضَنْكُ العيش ، سروراً بما سمعت ، ثم قال : يا بنى ؛ من لم يكن الأدب والعلمُ أَحبّ إليه من الأهل والولد لم يَنْجُب .

[خصومة]

خاصم بعضُ القرشيين عُمر بن عثمان بن موسى بن عبيد الله بن معمَر فأسرع إليه القرشى فقال : على رِسْلك ، فإنك لسريعُ الإيقاد وَشِيكُ الصريمة ، وإنى والله ما أَنا مكافئك دون أن تبلغَ غايةَ التعدّى ، فأبلغ غايةَ الإعذار .

[ادّعاء]

قال عبد الله بن عبد العزيز وكان من أفاضل أهل زمانه : قال لى موسى بن عيسى : أينتهى إلى أميرِ المؤمنين ، يعنى الرشيد ، أنك تشتمه ، وتَدْعُو عليه ، فبأىّ شيء استجزت ذلك ؟ قال : أما شَتْمُه فهو والله إذاً أَكرمُ علىّ من نفسى ، وأما الدعاء عليه فوالله ماقلتُ « اللهم إنه أصبح عبئا ثقيلا على أكتافنا لاتطيقه أبدانُنا ، وقذًى فى عيوننا ، لاتنطبق عليه أجفانُنا ، وشجًى فى حلوقنا ، لا تسيغه أفواهُنا ؛ فاكْفِنا مؤنته ، وفرّق بيننا وبينه » ! ولكنى قلت : « اللهم إن كان تَسمَّى الرشيد ليَرشد فأَرْشده ، أو أتى غير ذلك فراجع به ، اللهم إنَّ له فى الإسلام بالعباس حقّا على كلِّ مسلم ، وله بنبيّك قرابة ورَحِما ، فقرِّبْه من كل خير ، وباعِدْهُ من كلِّ شر ، وأَسْعِدنا به ، وأَصْلِحْه لنفسه ولنا » . فقال له : يغفر الله لك ياعبد العزيز[2] ، كذلك بلغنا .

---

(١) فى الأمالى ، ا : بعزم الصبر . (٢) فى ا : ياعبد الرحمن ، وفى م : ياعبد الكريم .

[عزل وال]

ولما حجّ الرشيد سنة ست وثمانين ومائة دخل مكة وعديله يحيى بن خالد؛ فانبرى إليه العُمَرى فقال : ياأمير المؤمنين ، قف حتى أ كلّمك ! فقال : أرسلوا زِمَام الناقة، فأرسلوه ، فوقفت فكأنما أُوتِدَتْ[1] ، فقال [أقول ؟ قال][2] قل ، فقال : اعزل عنا إسماعيل بن القاسم[3]. [قال : ولم ؟ قال :][4] لأنه يقبل الرشوة ، ويُطِيل النَّشوة، ويضرب بالمشوة ، قال : قدعزلناه [عنك ،][4] ثم التفت إلى يحيى فقال : أعندك مثل هذه البديهة ؟ فقال : إنه ليجب أن يحسن إليه . قال: إذا عزلنا عنه من يريد عَزْلَه فقد كافأناه .

[يوصى الحجاج بالكعبة]

ولما وجَّه عبدُ الملك بن مروان الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير وأَوْصاه بما أراد أن يُوصِيَه قال الأسود بن الهيثم النخعى : يا أمير المؤمنين ، أَوْصِ هذا الغلام [الثقفى][5] بالكعبة ألاَّ يَهدِم أحجارَها ، ولا يَهْتِكَ أستارَها ، ولا يُنفِّر أطيارها، وليأخذ على ابنِ الزبير شِعابها ، وعقابها، وأنقابها ، حتى يموتَ فيها جوعاً ، و يخرج مخلوعا .

[كتاب ينصر محاربا]

وكتبَ عبدُ الله بن طاهر إلى نَصْر بن شبيب وقد نزل به ليحارِبَه فى جُدَّة متحصناً منه[6] ، فكتب إليه: اعتصامُك بالقِلَال قيَّد عزمَك عن القِتَال ، والتجاؤك إلى الحصونِ ليس ينجيك من المَنُون ، ولستَ بمُفْلتٍ من أمير المؤمنين ، فإما فارس مُطَاعِن ، أو راجل مستأْمن . فلما قرأه حصره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن خرج مستأْمنا .

---

(١) أوتد الوتد : ثبته . (٢) من ا . (٣) فى ا : إسماعيل بن العباس بن محمد .
(٤) من م ، ا . (٥) من ا ، م . (٦) فى ط : فى جنده فى جدة ...

[من الحكم]

قال بزرجمهر بن البختكان لبعض الملوك : أَنعم تُشكر ، وأَرهب تُحْذَر ، ولا تهازل فتُحْقَر . فجعلهن الملك نَقْشَ خاتمه بدلا من اسمه واسم أبيه .

ولما قتل أنوشروان بزرجمهر وجد فى منطقته رقعةً فيها مكتوبٌ : إذا كانت الحظوظ بالجدُود فما الحِرْص ؟ وإذا كانت الأمور ليست بدائمة فما السرور ؟ وإذا كانت الدنيا غرّارة فما الطمأنينة ؟

[قال سقراط][1] : من كثر احتماله وظهر حِلْمُه قلّ ظلمُه وكثر أَعوانه . ومن قلّ همُّه على ما فاته استراحت نفسُه وصفا ذِهْنُه وطال عمره . وقال : من تعاهد نفسَه بالمحاسبة أمن عليها المُداهنة . وقال : الأَمانى حِبَالُ الجهل ، والعِشْرَةُ الحسنة وقايةٌ من الأَسواء .

وشتمه بعضُ الملوك وكان على فرس وعليه حُلَل وبِزّة فقال له سقراط : إنما تفخر علىّ بغير جِنْسك ، ولكن رد كلّ جنس إلى جنسه وتعال الآن فلنتكلم . وقال سقراط : من أُعطى الحِكْمة فلا يجزع لِفَقْدِ الذهب والفضّة ؛ لأن من أُعطى السلامة والدّعة لايجزع لفقْدِ الألم والتعب ، لأن ثمارَ الحكمة السلامة والدّعة، وثمار الذهب والفضة الأَلم والتعب . وقال : القُنية ينبوع الأحزان ؛ فأَقلّوا القنية تقلّ همومكم وقال : القُنْية مخدومة ، ومن خدم غير نفسه فليس بحر . وقال أبو الطيب[2] :

أبداً تَسْتَرِدُّ ما تَهَبُ الدنـ ... ـيا فياليتَ جودها كان بخلاَ

وكفتْ كَوْنَ فَرْحَةٍ تُورِثُ الْهَمّ[3] ... وخِلٍّ يُغادِرُ الوَجْدَ خِلاّ

وفى كتاب الهند : العاقلُ حقيقٌ أنْ تسخو نفسه عن الدنيا ، عِلْماً بأنهُ لاينالُ أحدٌ منها شيئاً إلا قلّ إمتاعه به وكَثُر عناؤه فيه ، ووباله عليه ، واشتدّت مؤنته عند فِراقه، وعلى العاقل أن يدوم ذِكْرُه لمابعد هذه الدار، ويتنزّه عما تسيّره إليه نفسه[4]

---

(١) من م ، ا . (٢) ديوانه : ٣ ـ ١٣٠ . (٣) فى الديوان : تورث الغم .
(٤) فى ا : تصير إليه .

من هذه العاجلة ، ويتنحَّى عن مشاركة الكَفَرةِ والجهال فى حبِّ هذه الفانية التى لا يألفها ولا ينخدع بها إلا المغترون .

وفيه : لايجدَّنَّ العاقلُ فى صحبة الأحباب والأخلاء ، ولا يحرصنَّ على ذلك كل الحِرْص. فإن صُحْبَتهم على مافيها من السرور كثيرةُ الأذى ، والمؤنات ، والأحزان، ثم لا يفى ذلك بعاقبة الفراق .

وفيه : ليس من شهواتِ الدنيا ولذاتِها شىء إلاَّ وهو مولِّدٌ أذًى وحُزْنا ، كالماء المالح الذى كلما ازداد له صاحبُه شربا ازداد عطشاً، وكالقِطْعة من العسَل فى أسْفَلها سم للذائق ؛ فيه حلاوة عاجلة ، وله فى أسفلها سمّ ذعاف ، وكأحلام النائم التى تسرُّه فى منامه ، فإذا استيقظ انقَطَع السرور ؛ وكالبرق الذى يُضِىءُ قليلا ، ويذهب وشيكا ، ويبقى صاحبُه فى الظلام مُقِيما ، وكدودة الإبريسم ما ازدادَتْ عليه لفّا إلا ازدادَتْ من الخروج بعداً .

وفيه : صاحبُ الدين قدفكر ؛ فعَلَتْه السكينة ، وسكَن فتواضع ، وقَنع فاستَغْنَى، ورَضى فلم يهتمّ ، وخلع الدنيا فنَجَا من الشرور ، ورفض الشهوات فصار حرّا ، وطرح الحسد فظهرت له المحبَّة ، وسخَتْ نفسه عن كل فَانٍ ، فاستَكمَل العقل ، وأَبْصَر العاقبة ، فأمِنَ الندامة ، ولم يُؤْذِ الناسَ فيخافهم ، ولم يُذْنِب إليهم فيسألهم العفو .

وقال سعد القصر مولى عُتبة بن أبى سفيان : وَلاَّنى عُتْبَة أمواله بالحجاز ، فلما ودَّعته قال : يا سعد ، تعاهَدْ صغيرَ مالى فيكبر ، ولا تجف كبيره فيصغر ؛ فإنه ليس يمْنَعنى كثير ما عندى ، من إصلاح قليل مافى يدى ، ولا يمنعنى قليلُ ما عندى من كثير ما ينوبنى . قال : فقدمت الحجازَ ، فحدثت به رجالا من قريش ففرّقوا به الكتبَ إلى الوكلاء .

وقال يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد(١) : إنّ أباك كفَى أخاه عظيما ، وقد

(١) البيان والتبيين : ٢–٧٦ .

استكفيتُك صغيراً ، فلا تتّكِلنّ منى على عُذْر ، فقد اتكلت منك على كِفاية ، ولأَنْ أقولَ لك : إياك ، أحبُّ إلىّ من أن أقول : إياى ؛ فإنَّ الظنّ إذا أخلف فيك أخلف منك ، فلا تُرِحْ نفسَك وأَنت فى أَدنى حظّك ، حتى تَبْلُغ أَقصاه ؛ واذكر فى يومك أَخبارَ غَدِك ، واستزِدْنِى بإحسانك إلى أهل الطاعة ، وإساءتك إلى أهل المعصية ، أَزِدْك إن شاء الله تعالى .

[العمامة]

ذكرت العمامة عند أبى الأسود الدؤلى فقال : جُنَّةٌ فى الحرب ، ودِثَارٌ فى البرد ، وكِنَّةٌ[1] فى الحرّ ، ووقار فى الندىّ ، وشرفٌ فى الأحدوثة ، وزيادةٌ فى القامة ، وهى [بعد][2] عادةٌ من عاداتِ العرب .

[من رسائل ابن العميد]

كتاب إلى أبى عبدالله الطبرى

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى : وقَفت على ما وصفت من برِّ مولانا الأمير لك ، وتوَفُّره بالفَضْل عليك ، وإظهار جميل رَأْيه فيك ، وما أنزله من عارفةٍ لديك ؛ وليس العجب أن يتناهى مِثْلُه فى الكرم إلى أبْعدِ غاية ، وإنما العجبُ أَنْ يَقْصُرَ شىء من مساعِيه عن نَيْلِ المجد كلّه ، وحيازة الفضلِ بأَجمعه ؛ وقد رجوتُ أن يكونَ ما يغرسه من صنيعةٍ عندك أجدر غرس بالزَّكاء ، وأضْمَنه للرَّيع والنَّماء ؛ فارْعَ ذلك ، واركب فى الخِدْمَة طريقة تُبْعدك من المَلاَل ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار والإقلال ، ولا تَسْتَرْسِلْ إلى حسن القبول كلَّ الاسترسال ؛ فلأَن تُدعَى من بعيد خيرٌ من أَنْ تُقْصَى من قريب ، وليكن كلامُك جوابا تتحرَّز فيه من الخطَلِ ومن الإسهاب ، ولا يعجبنّك تَأَتّى كلمة محمودة فيلجّ بك الإطنابُ توقّعاً لمثلها ؛ فربما هدمت ما بنته الأولى ، وبضاعتك فى الشرف مُزْجاة ، وبالعقل يزمّ

---

(١) الكنة : الوقار والستر. وفى ا ، م : مكنة . (٢) من م ، ا .

اللسان ، ويرام السداد[1] ، فلا يستفزّنك طَرَبُ الكلام[2] على ما يفسد تمييزك ؛ والشفاعة لاتعرضْ لها فإنها مُخْلِقَةٌ للجاه ؛ فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرفَ موقعها ، وتحصِّلَ وزنها ، وتطالعَ موضعها ؛ فإن وجَدْتَ النفس بالإجابة سَمْحَة ، وإلى الإسعاف هَشّة ، فأظْهِر ما فى نفسك غير محقّق ، ولا توهم أنّ عليك فى الرد ما يُوحشك ، ولا فى المَنْع ما يغيظك ، وليكن انطلاقُ وجهك إذا دُفِعْتَ عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يَدك ، ليخفّ كلامك ، ولا يثقل على سامعه[3] منك . أقول ماأقولُ غيْرَ واعظ ولا مُرْشِدٍ ، فقد جمّل اللهُ خصالَك ، وحسَّن خلالك ، وفضَّلك فى ذلك كله ؛ لكنى أُنبه تنبيه المشارِك لك ، وأعلم أنّ للذكرى موضعا منك لطيفاً .

وله أيضاً : سأَلْقَىِ عمن شفّنى وَجْدِى به ، وشغفنى حُبّى له ، وزَعمت أنى لوشئت لذهلت عنه ، ولوأردت لاعتَضْتمنه ، زعماً ، لعَمْرُ أبيك ، ليس بمزعَم . كيف أَسْلُو عنه ، وأَنا أَراه ، وأَنساء وهو لى تُجاه ؛ هو أغلب علىّ ، وأَقربُ إلىّ ، من أَنْ يُرْخى لى عنانى ، أَو يُخْلِينى واختيارى ، بعد اختلاطى بملكه ، وانْخِراطى فى سِلْكِه ، وبعد أَن ناط حبه بقلبى نَائِط ، وسَاطَه[4] بدمى سَائط . وهو جارٍ مَجْرَى الرُّوح فى الأَعضاء ، متنسم تنَسُّم رَوْح الهواء ؛ إن ذهبت عنه رجعت إليه ؛ وإن هرَبَتْ منه وقعَتْ عليه ، وما أحِبّ السلوّ عنه مع هنَاتِه ، وما أُوثر الخلوّ منه مع مَلّاته ؛ هذا على أنه إنْ أَقبل علىّ بهتَنى إقبالُه ، وإن أَعْرض عنى لم يطرُقْنى خياله ، يبعد عنى مثاله ، ويقرب من غيرى نوَالُه ، وردُّ عينى خاسئة[5] ، ويَثْنى يدى خالية ، وقد بسط آفات العيون المقاربة ، وصدّق مرامى الظنون الكاذبة ، وصْله يُنْذِرُ[6] بصدِّه ، وقُرْبه يُؤْذِن ببعده ، يُدْنِى عندما ينزح ، ويَأْسُو مثل ما يجرح ،

---

(١) فى ط : يرأم ، وفى م ، ا : يبرم . (٢) فى م ، ا: الكرم .

(٣) فى م : مستمعه ، وفى ا : مستمعيه . (٤) خاطه .

(٥) كالة . (٦) فى م ، ا : يدنو .

محالته أحوال ، وخلّته خِلال ، وحكمه سِجَال ، الحُسْنُ فى عَوَارِفه ، والجَمَالُ من منائحه ، والبهاء من أُصوله[1] وصِفَاته ، والسَّناء من نعوته وسِماتِه ، اسمُه مطابقٌ لمعناه ، وفَحْواه موافقٌ لنَجْواه ، يتشابه حالاه ، ويتضارَع قُطْراه ، من حيث تلقاه يستنير ، ومن حيث تَنْسَاهُ يستدير .

[هرب من الوباء]

وقع بالكوفة وباء ، فخرج الناسُ وتفرّقوا بالنجف ، فكتب شريح إلى صديق له خرج بخروج الناس : أما بعد ، فإنك بالمكان الذى أَنت فيه بعَيْنِ من لا يُعْجِزه هرَب ، ولا يَفُوتُه طلب ؛ وإنّ المكانَ الذى خلَّفْتَ لا يعجِّل لأحد حِمامَه ، ولا يظلمه أَيّامه ، وإنا وإياك لعلى بِسَاطٍ واحد ، وإن النجف من ذى قدرة لقريب .

وهرب أعرابى ليلا على حمار حِذَارا من الطاعون ، فبينما هو سائر إذ سمع قائلا يقول :

لن يُسبق اللهُ على حمارِ ولا على ذِى مَيْعَةٍ طيَّار
أَوْ يأْتىَ الحَتْفُ على مقدار قد يصبح اللهُ أَمام السارى

فكرّ راجعا وقال : إذا كان الله أمام السارى فلاتَ حينَ مَهْرب .

[قتيل الحب]

قال الأصمعى : أخبرنى يونس بن حبيب قال : أَتى قومٌ إلى ابن عباس بفتى محمول ضعفا، فقالوا : استشفِ لهذا الغلام ، فنظر إلى فتًى حُلْو الوجه؛ عارى العظام؛ فقال له : ما بك ؟ فقال :

بنا من جوى الشوق المبرِّح لَوْعَةٌ تكادُ لها نفسُ الشفيق تَذُوبُ
ولكنما أَبْقَى حُشاشة[2] مانَرَى على مابه عُودٌ هناك صَلِيب

---

(١) فى ا ، م : من فصوله .

(٢) الحشاشة : بقية الروح فى المريض .

فقال ابنُ عبّاس : أرأيتم وجها أعتق ، ولسانا أذْلَق ، وعُودا أصلب ، وهوًى أغلب ، مما رأيتم اليوم ؟ هذا قتيل الحبّ ، لا قوَد ولا دِيَة !

وكان ابنُ عباس رضى الله عنهما حَبْرَ قريش وبَحْرَها ، وله يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فقّهه فى الدين وعَلِّمْه التأويل . وفيه يقول حسان بن ثابت[1] :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ … بملتقطات لا ترَى بينها فَصْلا
شفَى وكفَى مافى النفوس فلم يَدَعْ … لذى لَسَنٍ[2] فى القول جِدًّا ولا هَزْلاً
سموتَ إلى العَلْيا بغير مَشقَّةٍ … فنلْتَ ذُرَاها لا دَنِيًّا ولا وَغْلاَ

[صريع الغوانى]

وقال مسلم بن الوليد[3] :

أُعَاوِدُ ما قدمته مِنْ رَجائها … إذا عاودَتْ باليأس فيها المطامعُ
رأَتْنِى غَنِىَّ[4] الطَّرْفِ عنها فأعْرضتْ … وهل خفت إلا أن تشير الأصابع
وما زَيَّنَتْها النفسُ لى عن لُجاجةٍ … ولكن جَرى فيها الهوى وهو طائِع
فأقسمتُ أَنْسَى الداعيات إلى الصبا … وقد فاجأتْها العينُ والستر واقِع
فغطّت بأيديها ثِمارَ نحورِها … كأيدى الأسارى أثقلَتْهَا الجوامِعُ

وكان مسلم أنصاريا صريحا ، وشاعرا فصيحا ، ولقب صريعا أيضا لقوله :

سأنقاد للَّذاتِ متبع الهوى … لأمضى همّا أو أُصيب فتًى مثلى
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا … صريعَ حُمَيّا الكأس والأعين النُّجْلِ

واجتلب[5] له هذا الاسم لأجل هذا البيت؛ وقد قال القطامى:

صريع غوانٍ راقهنَّ ورُقْنهُ … لَدُنْ شبَّ حتى شاب سودُ الذّوائب

(١) ديوان حسان : ٣٥٩ . (٢) فى الديوان : لذى إربة .
(٣) الشعراء : ٨١٦ . (٤) فى الشعراء : غبي . (٥) فى ط هنا خلط أصلحناه من ا ، م.

ومسلم أول من لطّف البديع ، وكسا المعانى حُلل اللفظ الرفيع ، وعليه يعوّل الطائى ، وعلى أبى نواس ، ومن بديع شعره الذى امتثله الطائى قوله[١] :

تساقط يُمْنَاه الندى وشِماله الرْ ... رَدى وعيون القول منطقهُ الفصلُ
كأنّ نَعَمْ فى فِيه تجرى مكانَها ... سلاَفة ما مجَّتْ لأفراخها النَّحْلُ
له هضبة تأوِى إلى ظلِّ بَرْمَك ... منوطٌ بها الآمال ، أطنابُها السُّبْل
عَجول إلى أن يُودعَ الحمدُ مالهُ ... يَعُدُّ الندى غنْما إذا اغتُنِم البخْل[٢]
وقد أحرم الأعْراض بالبيض والندى ... فأموالُهم نَهب وأعراضهم بَسْل
جبالا يطير الجهلُ فى عرَصاَتها ... إذا هى حُلَّت لم يفت حَلّها ذَحْلُ
بكفّ أبى العباس يُستمطر الغِنَى ... وتستنزلُ النّعمى ويُستَرْعَفُ النَّصْلُ
متى شئت رفَّعت الستورَ عن الغنى ... إذا أنت زُرْتَ الفضلَ أو أَذِن الفَضْلُ

وقوله أيضاً :

إذا كنت ذا نَفْس جواد ضميرُها ... فليس يضر الجودَ أن كُنْت مُعْدِما
رآنى بعَيْنِ الجود فانتهز الذى ... أردت فلم أفغَر إليه به فَمَا
ظلمتك إنْ لم أُجزل الشكرَ بعدما ... جعلتَ إِلى شكرى نوالَك سُلما
فإنك لم يترك نداك ذخيرةً ... لغيرك من شكرى ولا متلوّما

وقال ليزيد بن مَزْيد[٣] :

مُوفٍ على مُهَج فى يوم ذى رَهَج ... كأنه أَجلٌ يسعى إلى أملِ
ينال بالرِّفْق ما يَعْيَا الرجالُ بهِ ... كالموت مستَعْجِلاً يأْتِى على مَهَلِ
لا يَرْحَل الناسُ إلا نحو حجرتهِ ... كالبيت يُضْحى إليه مُلْتقَى السُّبُلِ
يَقْرِى المنيَّة أرواحَ الكُماةِ كما ... يقْرِى الضيوفَ شحومَ الكُومِ والبُزُلِ[٤]

---

(١) الشعراء : ٨١٢ ، يمدح الفضل بن يحيى .
(٢) هذا البيت ساقط من م ، ا .
(٣) الشعراء : ٨١٠ .
(٤) الكوم : جمع كوماء : العظيمة السنام . والبزل : جمع بازل ، وهو ما له تسعة أعوام .

يكسو السيوفَ رءوس الناكثين به ويجعل الهامَ تيجانَ القنَا الذُّبُلِ
قد عوّد الطيرَ عاداتٍ وثقن بها فهنّ يَتْبَعْنه فى كل مُرْتحَلِ

وهذا المعنى كثير .

* * *

من النقد

قال عمرو الوراق سمعت أبا نواس ينشد قصيدته[1] :

أيُّهَا المنتابُ عن عُفُرِهْ لستَ مِنْ لَيْلِى ولا سَمرهْ
لا أَذودُ الطيرَ عن شجَرٍ قد بلوتُ المرَّ من ثمَرِهْ

فحسدته عليها، فلما بلغ إلى قوله[2] :

وإذا مجّ القنا علَقاً وتراءى الموتُ فى صُوَرِهْ
راحَ فى ثِنْيى مُفاضته أسدٌ يَدْمَى شبَا ظُفرِهْ
تتأيَّى الطير غَزوته[3] ثقةً بالشبْع من جَزَره
تحت ظل الرمحِ تتبعهُ فهى تتلوه على أثره[4]

فقلت : ما تركت للنابغة شيئا حيث يقول[5] :

إذا ما غزَوْا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طَيْرٍ تهتدِى بعصائبِ
جَوَانِح قد أيقنّ أنّ قبيلَهُ إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالب

فقال : اسكت ، فلئن أحسن الاختراع ، لما أسأت الاتباع .

أخذه الطائى فقال[6]:

وقد ظُلِّلت عِقْبانُ راياته[7] ضحًى بعقبانِ طيرٍ فى الدماء نواهِلِ
أقامتْ[8] على الراياتِ حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتِلِ

وقال المتنبى يصف جيشاً[9] :

---

(١) ديوانه : ٦٦،الوفيات : ٣ـ٣٠٢ . (٢) ديوانه: ٦٩ .
(٣) فى الديوان : غدوته، وليس هذا البيت فى ا . (٤) هذا البيت ليس فى م .
(٥) ديوانه : ١٠ . (٦) ديوانه : ٢٤٨ . (٧) فى الديوان : أعلامه .
(٨) فى الديوان : مع . (٩) ديوانه : ٤ـ١١٣

وذى لجب لاذو الجناحِ أمامهُ ... بناجٍ ولا الوحشُ المُثارُ بسالِم
تمرُّ عليه الشمس وهْىَ ضعيفةٌ ... تُطالعه من بين ريش القَشاعمِ
إذا ضَوْءها لاقَى من الطيرِ فرجةً ... تدَوّر فوق البيضِ مثل الدراهمِ

* * *

استطراد فى شعب بوان

ونظير قول أبى الطيب فى هـذا البيت وإن لم يكن فى معناه قوله يصف شِعب بَوّان، وسيأتى، وفى هذا الشِّعب يقول أبو العباس المبرد(١): كنت مع الحسن بن رجاء بفارس؛ فخرجتُ إلى شِعب بوّان، فنظرت إلى تُرْبة كأنها الكافور، ورياض كأنها الثوب الموشى، وماء ينحدر كأنه سلاسل الفضة، على حصباء كأنها حَصَى الدر؛ فجعلت أطوف فى جَنباتها، وأدور فى عَرَصاتها، فإذا فى بعض جدرانها مكتوب:

إذا أشرف المكروبُ من رَأْسِ تَلْعةٍ ... على شِعب بوّانٍ أفاق من الكَرْبِ
وألهاه بَطْنٌ كالحرير لَطَافَةً(٢) ... ومطَّرِدٍ يَجْرِى من البارد العَذْبِ
وطيبُ رياض فى بلادٍ مَريعَةٍ(٣) ... وأغصان أشجارٍ جَناها على قُرْبِ
يُدِير علينا الكاسَ من لو لحَظْتَه ... بعينيك مالُمْتَ المحبين فى الحبّ
فبالله ياريحَ الشمال(٤) تحمَّلِى ... إلى شِعب بوّان سلامَ فتًى صَبِّ

قال أبو العباس: فأخبرت سليمان بن وهب بما رأيت، فقال: وقد رأيت تحت هذه الأبيات(١):

ليت شعرى عن الذين تركْنا ... خلْفَنا بالعراق هل ذَكَرُونا
أم يكون(٥) المدَى تطاوَلَ حتى ... قَدُمَ العَهْدُ بيننا فنَسُونَا
إن جفَوْا حرمة الصَّفاء فإنا ... لهمُ فى الهوى كما عهدونا

---

(١) الأمالى: ٣ـ١٢٨، ذيل اللآلئ: ٥٩.
(٢) فى الأمالى: كالحريرة مسه.
(٣) فى الأمالى: وطيب ثمار فى رياض أريضة.
(٤) فى الأمالى: ياريح الجنوب.
(٥) فى الأمالى: أم لعل.

وشعر المتنبي[١] :

مَغانى الشِّعب طِيباً فى المَغانِى ... بمنزلة[٢] الربيع من الزمانِ
ولكنّ الفتى العَربىّ فيها ... غريبُ الوجه واليدِ واللسانِ
مَلاعِبُ جِنّةٍ لو سار فيها ... سليمانٌ لسار بترجمانِ
طَبَتْ فُرْسانَنا والخيلَ حتى ... خشيتُ وإن كَرُمْنَ من الحِرانِ
غدونا تَنْفُضُ الأغصانُ فيه ... على أعرافِها مِثْل الجُمانِ
فجئتُ[٣] وقد حَجَبْنَ الشمسَ عنّى ... وجِئْن من الضياءِ بما كفانِى
وألْقَى الشرقُ منها فى بَنانِى ... دَنانيراً تَفِرُّ مِن البَنانِ

[ومنها[٤] :

يقول بِشِعْبِ بَوّانٍ حصانى ... أعَنْ هذا يُسارُ إلى الطِعانِ
أبوكُمْ آدم سَنَّ المعاصى ... وعلّمكم مُفارقة الجِنانِ]

إنما أردت هذا البيت . ومنها :

لها ثَمرٌ تشيرُ إليك منه[٥] ... بأشْربة وقفْنَ بلا أوانِى
وأمْواهٌ يَصِلُّ بها حصاها ... صَليلَ الحَلْىِ فى أيْدِى الغوانِى

* * *

رجع إلى النقد

وأول من ابتكر هذا المعنى الأول الأفوه الأودى فى قوله[٦] :

وأرى[٧] الطير على آثارنا ... رأْىَ عَيْنٍ ثقةً أنْ ستُمارُ

وقال حميد بن ثور وذكر ذئباً[٨] :

إذا ما غدا يَوْماً رأيتُ غيابة[٩] ... من الطير يَنْظُرْنَ الذى هو صانعُ

(١) ديوانه : ٤–٢٥١ ، ذيل اللآلئ : ٥٩ . (٢) فى الديوان : كأيام .
(٣) فى الديوان : فسرن (٤) ليس هذان البيتان فى ا ، م . (٥) فى الديوان : منها
(٦) ديوانه : ١٣ . (٧) فى الديوان ، م : وترى .
(٨) الشعراء : ٣٥٢ . (٩) فى م : غزوا ، وفى الشعراء : إذا ما عدا ... ظلاله .

فهمّ بأمرٍ ثم أزمع غَيْره ... وإن ضاق أمرٌ مرةً فهو واسِعُ

وقال مسلم بن الوليد :

وإنى لأستحيي القُنوع ومَذْهبى ... فَسيح وأَقْلى الشُّحَّ إلا على عِرْضِى

وما كان مثلى يمتريك رَجَاؤُهُ ... ولكن أساءت نعمة مِنْ فتى مَحْضِ

وإنى وإشرافى عليك بهمّتى ... لكالمبتغى زُبْدًا من الماءِ بالمَخْضِ

أخذه أبو عثمان الناجم فقال:

لم تَحَصّلْ بمخضك الماء إلا ... زَبَدًا حين رمت بالجهل زُبْدًا

وقال مسلم أيضاً يصف السفينة(١) :

كشفت أهاويل الدّجَى عن مَهُولِهِ ... بجاريةٍ محمولةٍ حاملٍ بِكْرِ

إذا أقبلَتْ راعَتْ بقُنَّةِ قَرْهَبٍ(٢) ... وإن أُدبرت راقت بقادمَتَىْ نَسْرِ

أَطلَّتْ بمِجْدَافين يَعْتَورانها ... وقوّمها كَبْحُ اللِّجام من الدّبْرِ

كأنَّ الصبا تحكى بها حين واجَهتْ ... نسيمَ الصَّبا مَشْىَ العروسِ إلى الخِدْرِ

[وصف الأساطيل]

وصف أسطول المعز

وقال أبو القاسم بن هانىء يصف أسطول المعز بالله :

أمَا والجوارِى المنشئات التى سَرَتْ ... لقد ظاهرتها عُدَّةٌ وَعَدِيدُ

قِبابٌ كما تُرْخَى القِبابُ على المَهَا ... ولكنَّ من ضُمَّتْ عليه أُسُودُ

[وما راع ملك الروم إلاّ اطلاعُها ... تنشر أعلام لها وبنود](٣)

ولله ممـا لا يرون كتائبٌ ... مسوَّمةٌ يجرى بها وجنودُ(٤)

أطال لها أنّ الملائكَ خلفَها ... فمن وقفت خلف الصفوفِ رُدُودُ(٥)

وأن الرياح الذارياتِ كتائبٌ ... وأن النجوم الطالعاتِ سعودُ(٦)

---

(١) الشعراء : ٨١٤ . (٢) القرهب : الثور ، وفى ط : قرهد . والقرهد : ولد الأسد وولد الوعل . (٣) من ا . (٤) ليس هذا البيت فى ا .

(٥) الردود : جمع رد بالكسر ، وهو ما يعتمد عليه ويرجع إليه .

(٦) هذا البيت والذى قبله ليسا فى م .

عليها غَمام مكفهِرٌ صَبِيرُه(١) ... له بارقاتٌ جمّةٌ ورُعُودُ
مواخرُ فى طامى العُبَاب كأنها ... لِعزمك بأسٌ أو لِكفّك جودُ
أنافَتْ بها آطامُها وسَما بها ... بناءٌ على غير العَرَاء مَشِيد
[من الطير إلا أنهن جوارحٌ ... وليس لها إلا النفوس مصيدُ](٢)
وليس بأعلى كبكب وهو شاهقٌ ... وليس من الصُّفّاح وهو صَلُود
من الراسيات الشُّم لولا انتقالُها ... فمنها قِنَانٌ شُمّخٌ ورُبُودُ(٣)
من القادحاتِ النار تُضْرَم للصِّلَى ... فليس لها يومَ اللقاء خمودُ(٤)
إذا زفرَتْ غيظاً ترامَتْ بمارجٍ ... كما شُبَّ من نارِ الجحيم وقُودُ
تُعانِقُ مَوْج البحرِ حتى كأنه ... سليطٌ له فيه الذُّبَالُ عَتِيدُ
ترى الماء فيها وهو قانٍ خِضَابهُ ... كما باشرت رَدْعَ(٥) الخَلُوقِ جلودُ
فأنفاسُهن الحامياتُ صواعِقٌ ... وأفواههنّ الزافرات حديدُ
يُشَبُّ لآلِ الجاثَلِيق سَعِيرُها ... وما هى من آل الطريدِ بَعِيد(٦)
لها شُعَلٌ فوق الغِمار كأنها ... دِماءٌ تلقيها مَلاحِفُ سُودُ
وغير المذاكى نجرها غير أنها ... مسوّمةٌ تحت الفوارس قُودُ
فليس لها إلا الرياحَ أعنّةٌ ... وليس لها إلا العُبَاب كَدِيد(٧)
ترى كلّ قوداء التليل(٨) كما انثنت ... سوالفُ غِيدٍ أعرضت وخُدود
رحيبة مدِّ الباعِ وهى نضيجة ... بغير شوًى عذراء وهى وَلُود
تكَبَّرْنَ عن نَقْعٍ يُثار كأنها ... مَوالٍ وجُرْدُ الصافنات عَبِيدُ

---

(١) الصبير : السحابة فوق أخرى ، أو السحاب المتراكم .
(٢) من م ، ا .   (٣) الربود : جمع ريد ، وهو القطعة من الجبل.
(٤) هذا البيت والبيتان قبله ساقطة من ا ، م .   (٥) الردع : الزعفران وأثر الخلوق.
والخلوق : ضرب من الطيب .   (٦) الجاثليق : رئيس للنصارى ، وليس البيت فى م ، ا .
(٧) الكديد : الأرض الصلبة ، وفى م ، ا : إلا الحباب .
(٨) قوداء التليل : طويلة العنق .

لها من شُفوف العَبْقَرِىّ مَلابسٌ ... مفوَّفَةٌ فيها النُّضار جَسِيدُ
كما اشتملت فوق الأرائك خُرَّدٌ ... أو التفعت فوق المنابر صِيدُ
لَبوسٌ تكفُّ المَوْجَ وهو غُطَامِطٌ ... وتدرأُ بَأْسَ اليمِّ وهو شديد
فمنه دروع فوقها وجَواشنٌ ... ومنها خَفَاتِينٌ لها وبرود

وصف أسطول القائم

وقال على بن محمد الإيادى يصف أسطول القائم فأجاد ما أراد :

أعجب لأسطول الإمامِ محمدٍ ... بحسنه وزمانه المُستغرب[١]
لبِسَت به الأمواجُ أحسنَ منظر ... يبدو لعين النــاظرِ المتعجّب
من كل مُشرِفَة على ما قابلت ... إشراف صَدْرِ الأجدل المتنصِّب
دَهْماء قد لبِسَت ثيابَ تَصَنّع ... تَسْبِى العقولَ على ثياب تَرَهُّب
من كل أبيض فى الهواء منشَّر ... منها وأَسحمَ فى الخليج مُغَيَّب
كملاءة[٢] فى البر يقطع شدّها ... فى البحر أنفاس الرياح الشُذَّب[٣]
محفوفة بمجــاذِف مصفوفة ... فى جانبين دُوَيْنَ صُلْبٍ صُلَّبِ
كقوادم النَّسر المرفرِفِ عُرِّيت ... من كاسيات رِياشه المتهدِّبِ
تَحتثُّها أيدى الرجال إذا وَنَتْ ... بمصعَّد منه بُعَيْد مُصوَّبِ
خرقاء تذهبُ إن يدٌ لم تهدها ... فى كل أوْبٍ للرياح ومَذْهَبِ
جَوفاء تحمل موكبا فى جوْفِها ... يومَ الرهان وتستقلّ بموْكب
ولهـا جناحٌ يستعار يُطيرُها ... طوعَ الرياح وراحةِ المتطرِّبِ
يعلو بها حدَبُ العُبَاب مُطارةً ... فى كل لج زاخر مُغلَوْلب
تسمو بأَجردَ فى الهواء متوَّجٍ ... عريان منسوج الذؤابة شَوْذَبِ[٤]
يتنزّل المَلّاحُ منــه ذؤابة ... لو رام يركبها القطَا لم يَرْكَبِ
فكأنّما رام استراقة مَقْعدٍ ... للسمع إلا أنه لم يُشْهَبِ

---

(١) فى م : المستعذب . (٢) فى م ، ا : كباءة . (٣) الشذب : الذى تطرد وتبعد .
(٤) فى م ، ا : منشرح الذؤابة . والشوذب من الرجال : الطويل الحسن الخلق .

وكأنما جِنُّ ابنِ داودٍ هُمُ ... ركبوا جوانبها بأعنفِ مَرْكَبِ
سجَروا جواحِمَ[١] نارِها فتقاذفوا ... منها بألْسُنِ مارِجٍ متلهِّبِ
من كل مسجورٍ[٢] الحريق إذا انبرى ... من سجنه انْصَلَتَ انصلاتَ[٣] الكوكب
عُريان يقدمه الدخانُ كأنهُ ... صبحٌ يكرُّ على الظلام الغيْهَبِ
ولواحق مثل الأهِلّة جُنَّحٌ ... لحق المَطَالب فائتات المَهْرَبِ
يَذْهَبْن فيما بينهن لَطافةً ... ويجئن فعل الطائر المتغلِّبِ
كنضائض الحياتِ رُحن لواعباً ... حتى يَقِفْنَ ببركِ ماء المِزْرَبِ[٤]
شرعوا جوانبها مجادف أتعبتْ ... شأْوَ الرياحِ لها ولما تَتْعَبِ
تنصاع من كَثَبٍ كما نفر القطَا ... طوراً وتجتمع اجتماعَ الرَبرب
والبحرُ يجمع بينها فكأنه ... ليلٌ يقرِّب عقربا من عَقْرَب
وعلى كواكبها أُسود خِلَافةٍ ... تختالُ فى عُدَد السلاح المُذْهَب[٥]
فكأنما البحرُ استعار بزيِّهم ... ثوبَ الجمال من الربيع المعجب

[كتب فى الإهداء]

كتب العباس[٦] بن جرير إلى الفضل بن يحيي :

لا أعلم منزلةً توحشنى من الأمير ولا توحشه منى ؛ لأننى فى المودة له كنفسه ، وفى الطاعة كَيَدِه ، وإنما أُلْطِفُه من فضله ، وقد بعثت ببعض ما ظننت أنه يحتاج إليه فى سفره . وذكر ما بعث .

وكتب غيره فى هذا المعنى : إذا كان اللَّطَف دليل محبَّةٍ ، ومِيسَم قُربة ، كفى قليلُه عن كثيره ، وناب يسيرُه عن خطيره ، لاسيما إذا كان المقصودُ به ذا همَّةٍ

---

(١) سجر : ملأ ، والجاحم : الجمر الشديد الاشتعال . (٢) فى م ، ا : مسجون
(٣) انصلت : مضى . (٤) فى م ، ا : ببترك ماء المشرب . (٥) فى ط : المرهب .
(٦) فى ط : أبو العباس .

لا يستعظم نفيسا ، ولا يستصغر خسيسا ؛ وقد حُزْت من هذه الصفة أجلَّ فضائلها، وأرفعَ منازلها .

وفى هذا المعنى : إن يَد الأنس طويلة بكل ما بلغت ، منبسطة بكل ما أدركت ، من حيث يدُ الحشمة قصيرة عن كل ما حوت ، مقبوضة دون ما أمَّلَتْ ؛ لأن بابَ القول مطلقٌ لذوى الخصوص[١]، محظور عند ذوى الهموم ، ولتمكّن ما بيننا عاطيتك من لَطفى مالا دونه قِلّة ، ثقةً منك بأنه يَرِد على ما لا فوقَه كَثْرة .

ومن ألفاظ أَهلِ العصر فى إقامة رسم الهدية فى المهرجان والنيروز

لمثل هــــذا اليوم الجديد والأوانِ السعيد سنّةٌ ، على مثلى فيها أن يتحف ويُلطف[٢] ، وعلى مثل سيدنا ، ولا مثل له ، أن يَقْبَل ويشرف . لليوم رسمٌ إن أخلّ به الأولياءُ عُدّ هفوة ؛ وإن منع منه الرؤساء حُسب جَفْوة ، ومولاى يسوّغنى الدّالة فيما اقترن بالرقعة ، ويكسبنى بذلك الشرف والرفعة . الهدايا تـكونُ من الرؤساء مكاثرةً بالفضل ، ومن النظراء مقارضة بالمثل ، ومن الأولياء ملاطفة بالقُلّ ، وقد سلـكت فى هذا اليوم مع مولاى سبيلَ أَهل طبقته من الأرباب ، وقد حملت إلى مولاى هدية [الملاطف ، لا هدية][٣] المُحْتَفِل ، والنفس له ، والمال منه .

ولهم فى التهنئة بالنيروز والمهرجان وفصل الربيع

هذا اليوم غُرّةٌ فى أيام الدهر، وتاجٌ على مفرق العَصْر . أَسعد اللهُ مولانا بنَوْرُوزِه الوارِدعليه ، وأَعاده ماشاء وكيف شاء إليه. أسعدالله تعالى سيدنا بالنوروز الطالع عليه ببركاته ، وأَيْمنَ طائرَه فى جميعِ أيامه ومتصرفاته ؛ ولا يزالُ يلبس الأيامَ ويُبليها وهوجديد، ويقطعُ مسافة نحسها وسعدها وهو سعيد . أقبل النيروزُ إلى سيدنا ناشراً

---

(١) فى ط : لذوى الحظوظ . (٢) فى ا : ويهدى. (٣) من ا ، م .

حُلَله التي استعارها من شيمَتِه ، ومُبْديا حالته[1] التي اتخذها من سَجِيته ، ومستصحبا من أنواره ما اكتساه من محاسن فضله وإكرامه ، ومن أنظاره ما اقتبسه من جوده وإنعامه . ويؤكد الوعد بطُولِ بقائه حتى يملّ العمر ، ويستغرق الدهر . سيدُنا هو الربيع الذي لا يَذْبل شجرُه ، [ولا يزول سَحَرُه][2] ولا ينقطعُ ثمرُه ، ولا يُقْلِعُ غَمامه ، ولا تتبدّلُ أيامُه؛ فأسعده الله تعالى بهذا الربيع المتشبّه بأخلاقه، وإن لم ينَلْ قدرها ، ولم يحمل فَضْلَها ، ولم يجد بدا من الإقرار بها . سيدُنا هو الربيع الذي يتّصِل مطرُه ، من حيث يُؤْمَن ضررُه ، ويدوم زهرُه ، من حيث يتعجل ثمرُه ؛ فلا زال آمراً ناهياً، قاهراً عالياً ، تتهيَّأُ الأعيادُ بمصادفة سلطانه، وتستفيدُ المحاسنُ من رياض إحسانِه . أسعد الله سيدنا بهذا النَّوْرُوز الحاضر ، الجديد الناضر ، سعادةً تستمرُّ له في جميع أيامه على العموم دون الخصوص ، لتكونَ متشابهات [في اكتناف] المواهب لها ، واتصالِ المسارّ فيها ، لا يفرق إلا بمقدار يزيد التالى على الخالى ، ويدرج الآتى على الماضى . عرّف الله سيدَنا بركة هذا المهرجان ، وأسعدَه فيه، وفي كل زمان وأوان ، وأبقاه ماشاء في ظلالِ الأمانى والأمان . هذا اليومُ من محاسن الدهر المشهورة ، وفضائلِ الأزمنة المذكورة ، فلقّى اللهُ تعالى سيدنا بركةَ وُرودِه ، وأجزل حظّه من أقسام سعوده ، هذا اليومُ من غُرَر الدهور ، ومواسم السرور ، معظّم في الملك الفارسى ، مستظرَف في الملك العربى ؛ فوفر الله تعالى فيه على مولاى السعادات ، وعرّفه في أيامه البركات ، على الساعات واللحظات .

[رجل الشرطة]

الحجاج يصف رجل الشرطة

وقال الحجاج بن يوسف : دلُّونى على رجل للشرطة ، فقيل : أى رجل تريد ؟ فقال : أُريد رجلاً دائمَ العُبوس ، طويلَ الجلوس ، سمينَ الأمانة ، أَعْجفَ الخيانة، يهونُ عليه سِبَالُ الشريف[3] فى الشفاعة ! فقالوا: عليك بعبدالرحمن [بن عبد الله][4]

(١) فى ط : حليته . (٢) ليس فى ا ، م .
(٣) فى ط : سباب الشريف ، وفى ا : سبال الأشراف . (٤) من ا ، م .

التميمى . فأرسل إليه يستعمله ، فقال : لست أعمل لك عملا إلا أن تكفينى ولدك ، وأهل بيتك ، وعيالك ، وحاشيتك . فقال : ياغلام ، ناد : مَنْ طلب إليه حاجةً منهم فقد برئتْ منه الذمة .

وأشجع السلمى

وقال أشجع بن عمرو السُّلمى يمدحُ فى هذا المعنى إبراهيم بن عثمان بن نهيك صاحب شرطة الرشيد وكان جباراً عنيداً[1] :

فى سيف إبراهيمَ خوفٌ واقعٌ	بذوى النفاق وفيه أَمْنُ المسلم
ويبيت يكلأُ والعيونُ هواجعٌ	مالَ المضيع ومُهْجَةَ المستسلمِ
شَدَّ الخطامَ بأنف كلِّ مخالفٍ	حتى استقام له الذى لم يُخْطَم
لا يُصْلِحُ السلطانَ إلا شِدةٌ	تغشى البرىّ بفضْلِ ذَنْبِ المجرمِ
ومِنَ الولاة[2] مفخَّمٌ لا يتقِى	والسيفُ تَقْطُرُ شَفْرَتَاهُ من الدم
منعَتْ مهابتُك النفوسَ حديثَها	بالأمر تكرهه وإن لم تَعْلَمِ

[من كلاب الأعراب]

عذلَتْ أعرابية أباها فى الجود وإتلاف ماله فقالت : حَبْس المالِ ، أنفعُ للعِيَال ، مِنْ بَذْل الوَجْه فى السؤال ؛ فقد قلَّ النوالُ ، وكثر البُخّال ، وقد أتلفت الطارِفَ والتِّلاد ؛ وبقيت تطلبُ مافى أيدِى العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضرّه .

قال الأصمعى : سمعت أعرابية تقول[3] : اللهم ارزُقنى عمــــلَ الخائفين ، وخوفَ العاملين ، حتى أتنعم بترك التنعم ، رجاءً لما وعَدْتَ ، وخوفا مما أوعدت .

وقال آخر : اللهم من أراد بنا سوءاً فأَحِطْه به كإحاطةِ القلائد، بأعناق الولائد، وأرسِخه على هامَتِه ، كرسوخ السِّجيل ، على هامِ أصحاب الفيل .

---

(١) الشعراء: ٨٦٠ . (٢) فى الشعراء : مقحم ، والمقحم : الذى يقحم نفسه فى الأمر من غير روية . (٣) فى ا : أعرابيا يقول .

وقال بعضُ الأَعراب : نالنا وَسْمِىٌّ ، وخَلَفه وَلِىٌّ ؛ فالأَرضُ كأنها وَشْىٌ [عبقرىٌّ[1]] ؛ ثم أتتنا غُيُوم جَرَاد ، بمناجل حِدَاد ؛ فخرَّبت البلادَ ، وأهلكت العبادَ ؛ فسبحان من يُهلك القوىّ الأَكول ، بالضعيف المأكول .

[مع بعض الولاة والخلفاء]

عمارة بن حمزة يشكر السفاح

وقال عمارة بن حمزة لأَبى العباس السفاح وقد أمر له بجوائز نفيسه ، وكُسْوَة وصِلة ، وأَدْنَى مجلسه : وصلك اللهُ يا أمير المؤمنين وبَرَّك ، فوالله لئن أَردنا شُكْرَك على كُنْهِ صلتك ، فإنَّ الشكرَ ليَقْصُرُ عن نعمتك ، كما قَصُرْنَا عن منزلتك ، غير أنّ الله تعالى جعل لك فضلا علينا بالتقصير منا ، ولم تَحْرِمْنَا الزيادةَ منك لِنَقْص شكرنا .

السفاح وخالد بن صفوان

وقال أبو العباس السفاح لخالد بن صفوان : كيف عِلْمُك بأَخْوَالِى بنى الحرث ابن كعب ؟ قال : يا أميرَ المؤمنين ، هم هامَةُ الشرف ، وعِرْنِينُ الكَرَم ، وفيهم خصالٌ ليست فى غيرهم من قومهم ، هم أحسنهم أَمما ، وأَكرمهم شِيَماً ، وأَهْنَاهم طعما ، وأَوْفاهم ذِمما ، وأَبعدهم هِمما ، هم الجَمْرَة فى الحَرْب ، والرأْسُ فى كلِّ خطب ، وغيرهم بمنزلة العَجْب[2] .

خالد بن صفوان يهنئ عمر بن عبد العزيز

وعزَّى خالدُ بن صَفْوَان عمر بن عبد العزيز وهنَّأَه بالخلافة فقال : الحمد لله الذى مَنَّ على الخَلْقِ بك ، والحمدُ لله الذى جعل نبوتكم رَحمة ، وخلافتكم عِصْمَة ، ومصائبكم أُسوة ، وجعلكم قُدْوَة .

خالد بن صفوان وبعض الولاة

وقال خالدُ بن صَفْوان لبعض الولاة : قدمت وأعطيت كلاًّ بِقسْطِه من نظرك ومَجْلسك ، فى صوتك وعَدْلك ، حتى كأنك من كلّ أحد ، وحتى كأنك لست من أَحد .

وقال رجل لخالد : إن أباك كان ذميا ، ولكنه كان حليما ، وإنّ أمك كانت

---

(١) ليست فى م ولا ا . (٢) العجب : أصل الذنب ومؤخر كل شىء .

حسناء ، ولكنها كانت رَعْناء ، فيا جامع شَرَّ أبويه !

شذور فى المقابح ومساوى الأخلاق

على بن عبيدة الريحانى — أدْنس شعار المرء جهله .

ابن المعتز — نعم الجاهلُ كالرياض فى المزابل . كلما حسُنَتْ نعمةُ الجاهل ازداد فيهـا قُبْحاً . لسانُ الجاهل مفتاحُ حَتْفه . لا ترى الجاهلَ إلا مُفْرِطاً أو مفرِّطاً .

الجاحظ — البخلُ والجُبْنُ غريزةٌ واحدة ، يجمعهما سوء الظن بالله . البخلُ يَهْدِمُ مبانىَ الشرف .

وقال ابن المعتز : لمـا عرف أهلُ النَّقْصِ حالَهم عند ذوى الـكمال ، استعانوا بالـكِبْر ليعظِّمَ صغيراً ، ويرفَـعَ حقيراً ، وليس ينفعُ الطمع فى وثاق الذلّ . الغضب يصدئُ العقلَ حتى لا يرى صاحبُه صورةَ حسنٍ فيرتكبه ، ولا صورة قبيح فيجتنبه . الغضبُ ينبىء عن كامن الحقد . من أطاع غضبَه أضاع أدبه . حدَّةُ الغضب تمتر[1] المنطق ، وتقطع مادَّة الحجَّة ، وتفرِّق الفَهْم . غضب الجاهل فى قوله ، وغضبُ العاقل فى فِعْله . عقوبةُ الغضبِ تبدأُ بالغضبان ؛ تقبِّح صورَته ، وتثلِّم دِينَه ، وتعجِّل ندَمه . ما أَقبح الاستطالة عند الغِنى ، والخضوع عند الفَقْر . من يهتك سِتْر غيره . تكشَّفَتْ عورات بيته . نفاق المرء من ذلة . الشرير لا يظنُّ بالناس خيراً لأنه يراهم بعين طبعه . من عدّد نعمه محق كرمه . خُلْفُ الوعد خُلُق الوَغْد . من أسرع كَثُر عثاره .

[من المفاخرات]

فاخر كاتبٌ نديما فقال الـكاتب : أَنا مَعُونة ، وأنت مؤنة ؛ وأنا للجِدّ ، وأنت للهَزْل ؛ وأنا للشدّة وأنت للّذة ؛ وأنا للحرب ، وأنت للسلم . فقال النديم : أنا

(١) فى م : تغير.

للنعمة ، وأنت للخِدْمة ؛ وأنا للحضرة ، وأنت للمهنة ؛ تقوم وأنا جالس ، وتحتشم وأنا مُؤانس ؛ تدْأَب لراحتي ، وتَشْقَى لسعادتى ؛ فأنا شريك ، وأنتَ معِين ، كما أنك تابع ، وأنا قَرِين .

صاحب سيف وصاحب قلم

وفاخر[١] صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلم ، فقال صاحبُ القلم : أَنا أقتل بلاغَرَر ، وأنت تقتل على خَطر . فقال صاحب السيف : القلمُ خادمُ السيف ، إن تمّ مراده ، وإلاّ فإلَى السيفِ مَعاده . قال أبو تمام[٢] :

السيفُ أصْدَقُ أنباءً من الكتُب … في حَدِّهِ الحدُّ بين الجِد واللعبِ

إبراهيم بن المهدى :

فقد تلينُ ببعض القولِ تَبْذُلُهُ … والوصل فى جبَل صَعْبٍ مراقيهِ

كالخيزران مَنيعٌ حين تكسِرهُ … وقد يُرى ليّنا فى كفّ لاَوِيه

أبو الهَيْدام[٣] عامر بن عمارة المرّى يرثى :

سأبكيك بالبيض الرِّقاق وبالقَنَا … فإنّ بها ما أَدرك الواترُ الوِتْرَا

ولسنا كمن يَبْكِى أخاه بعَبْرَةٍ … يعصِّرها من ماء مُقْلَتِه عَصْرا

ولكننى أشْفِى فؤادى بغَمْرةٍ … وأُلهب فى قُطْرَىْ جوانبه[٤] جَمْراً

وإنا أُناس ما تفيض دموعنا … على هالكٍ منّا وإن قصم الظَّهْرا

[من كلام الحكماء]

لقى رجل حكيما فقال : كيف تَرَى الدهر ؟ قال : يُخلِقُ الأبدان، ويجدِّدُ الآمال، ويقرِّبُ المنية ، ويباعِدُ الأمْنِية . قال: فما حالُ أهله ؟ قال : من ظفر به منهم تعب ، ومن فاته نَصِب . قال : فما الغنى عنه ؟ قال : قَطْعُ الرجاء منه . قال: فأيّ الأصحاب

(١) ارجع إلى صفحة ٤٣١ من هذا الكتاب.

(٢) ديوانه : ٧ .

(٣) هكذا فى م ، وفى ا : أبو الهيذام ، وفى ط : أبوالهندام.

(٤) فى ا : كتائبها .

أَبرّ وأَوْفى ؟ قال : العمل الصالح والتقوى . قال : أيهم أضر وأرْدَى ؟ قال : النفس والهوى ، قال : فأين المخرج ؟ قال : سلوكُ المَنْهَج . قال: وما هو ؟ قال : بَذْل المجهود ، وترْك الراحة ، ومداومة الفكرة . قال: أَوْصنى . قال: قد فعلت .

وقال بعضُ الملوك لحكيم من حكمائه : عِظْنى بِعظَة تنفى عنى الخيلاء ، وتزهّدنى فى الدنيا . قال : فكِّر فى خَلْقك ، واذْكُر مبدأك ومصيرك ، فإذا فعلت ذلك صَغُرَتْ عندك نفسُك ، وعَظُم بصغرها عندك عَقْلُك ؛ فإنّ العقلَ أنفعهُما لك عِظَما ، والنفس أَزْيَنهُما لك صِغَراً ؛ قال الملك : فإن كان شىء يُعِينُ على الأخلاق المحمودة فصفتك هذه . قال : صفتى دليل ، وفهمك محجَّة ، والعلم علّية[1] ، والعمل مَطيّة ، والإخلاص زمامها ، فخُذْ لعقلك بما يزينه من العلم ، وللعلم بما يَصُونُه من العمل ، وللعمل بما يحقّقه من الإخلاص ، وأنت أنت ! قال : صدقت .

[من المدح]

لابن الرومى

وقال ابن الرومى[2] :

تغْنَوْن عن كل تقريظ بمجدكمُ[3]	غِنَى الظباء عن التكحيل بالكَحَلِ
تلوح فى دُول الأيام دولتكم	كأنها مِلّةُ الإسلامِ فى المللِ

وقال أيضاً :

كلُّ الخِصالِ التى فيكم محاسِنُكم	تشابهَتْ منكم الأخلاقُ والخلقُ
كأنكم شجرُ الأتْرُجِّ طابَ معا	حَملا ونَوْراً وطاب العودُ والورقُ

البستى

وقال البستى [فى نحو هذا][4] :

فتى جمع العلياءَ عِلْماً وعِفَّةً	وبأساً وجوداً لا يفيق فُواقا
كما جمع التفاحُ حسناً ونضرةً	ورائحةً محبوبةً ومَذَاقَا

(١) فى ا : حيلة ، وفى م: حلية. (٢) ديوانه : ٤٧٢. (٣) فى الديوان : بفضلكم ، وفى ا : بمدحكم . (٤) اليتيمة : ٤ـــ٢٩٨ ، وما بين القوسين من ا .

مادح أبى دلف

قال أبو العباس المبرد : حدثنى عجل بن أبى دلف قال : امتدح رجل أبى بكلمةٍ، فوصله بخمسمائة دينار ولم يره ، وهى :

مَالِى ومالك قد كلفتنى شططاً ... حمل السلاح وقول الدَّارعين قف
أَمِن رجالِ المنايا خِلْتَنى رجلاً ... أُمْسِى وأُصْبِحُ مشتاقاً إلى التَّلَفِ
أرى المنايا على غيرى فأكرهها ... فكيف أَمْشِى إليها بارزَ الكَتِفِ
أخِلْتَ أنّ سواد الليل غيَّرنى ... وأن قلبىَ فى جنبَىْ أبى دُلَفِ

مادح أبى البخترى

قلت : هذا كحديث الذى دخل فى قومٍ على شراب فسقوه غير الشراب الذى يشربون فقال :

نبيذان فى مجلس واحد ... لإيثار مُثْرٍ على مُقْتِرِ
فلو كنتَ تفعل فِعْلَ الكرام ... فعلت كفعل أبى البَخْترى[(١)]
تتّبع إخوانه فى البلاد ... فأغنى المقلّ عن المكثر

فاتصل شعره بأبى البخترى[(١)] فأعطاه ألف دينار ولم يره .

[أحمد بن أبى فنن]

من شعر أحمد ابن أبى فنن

والأبيات التى مُدِح بها أبو دلف هى لأحمد بن أبى فنن[(٢)] . وكان شاعرا مجيداً، وهو القائل[(٣)] :

ولما أَبَتْ عيناىَ أن تملكَ البُكا ... وأن تحبسا سَحَّ الدموعِ السواكبِ
تثاءبت كى لا يُنْكِرَ الدمعَ منكرٌ ... ولكن قليلاً ما بقاء[(٤)] التثاؤب
أعَرّضتمانى للهوى ونمتما ... علىّ لبئس الصاحبانِ لصاحبِ

وقال[(٥)] :

وحياة هجرك غير معتَمِدٍ ... إلا لقَصْدِ الحِنث فى الحلفِ

---

(١) فى ط ، ا : أبى البحترى . (٢) فى ط بن أبى العيناء ، وهذا من م ، ا .
(٣) اللآلى : ١٩٨ . (٤) فى ط : ما يفيد . (٥) اللآلى : ٢٤٥ .

ما أنت أَمْلَحُ مَنْ رأيت ولا كلفى بحبِّك مُنْتَهى كَلَفِى

قال الصولى : كنا بحضرة أبى العباس المبرد فأنشد هـذين البيتين فاستظرفهما وأنشدنا فى ذلك :

وحياة غيرك[١] غير معتمد به حِنْثاً ولـكن مُعْظِما لحياتـكا

ما ينقضى طمَعِى وإن أَطمعتنى فى الوعد منك إلى اقتضاء عِدَاتِكا

وقال الخثعمى :

ولم أَر مثلَ الصدِّ أَدعى إلى الهوى إذا كان ممن لا يخافُ على وَصْلِ

وآلتْ يميناً كالزجاج رقيقةً وما حَلَفتْ إلاَّ لتَحْنَثَ من أَجْلِى

وكان أحمد بن أبى فنن[٢] أسود ولذلك قال :

* أخلت أن سَوَادَ الليل غيّرنى *

ولما أُدخل على المعتزّ وامتدحه قال : هذا الشاعرُ الآدَم . قال بعض من حضر : لا يَضِرْه سوادُه مع بياض أَياديك عنده ، قال : أَجَلْ ، ووصله .

* * *

من النقد

أخذ قوله[٣] :

* أَرى المنايا على غيرى فأَكرهها *

من قول أعرابى قيل له : أَلا تَغْزُو ؟ قال : أنا واللهِ أَكره الموت على فراشى ، فـكيف أمشى إليه ركْضاً ؟

[الاستطراد]

وهذا المذهب الذى سلكه أحمـد ضربٌ من البديع يسمَّى الاستطراد ، وذلك

(١) فى ط : عزك . (٢) فى ط : بن أبى العيناء ، وهذا منم ، ا .
(٣) فى الأبيات السابقة صفحة ١٠١٢ .

أن الفارس يظهر أنه يستطرد لشىء ويُبْطِنُ غيره ، فيكرُّ عليه[1] ، وكذلك هذا الشاعر يظهِرُ أنه يذهبُ لمعنى فيمن له آخَرَ فيأتى به ، كأنه على غير قصد ، وعليه بناه ، وإليه كان مَعْزَاه ، وقد أكثر المحدَثون منه فأحسنوا فى ذلك .

قال الأصمعى : كنت عند الرشيد فدخل عليه إسحق بن إبراهيم الموصلى فقال : أنشدنى من شعرك فأنشده[2] :

وآمرةٍ بالبُخْل قلت لها اقْصِرِى ... فليس إلى ما تأمرِينَ سبيلُ[3]
أَرى الناسَ خُلاَّنَ الجوادِ ولا أَرى ... بخيلاً له فى العالَمين خَلِيلُ
ومِنْ خير حالاتِ[4] الفتى لو علمتِه ... إذا نال شيئاً أَن يكونَ منيل
فَعالى فعالُ المُكْثِرِين تجمُّلا ... ومالى كما قد تعلمين قَليــــلُ
وكيف أخافُ الفقرَ أو أُحرم الغنى ... ورَأْىُ أميرِ المؤمنــــين جميلُ

فقال الرشيد : يا فضل ؛ أَعطه عشرين ألف درهم . ثم قال : لله أبيات تأتينا بها يا إسحق ما أَتْقن أصولها ، وأَبين فصولها ، وأقل فضولها ! فقال : والله يا أمير المؤمنين ؛ لا قبلتُ منها درهما واحدا . قال : ولم ؟ قال : لأَن كلامك ، والله ، خيرٌ من شعرى . فقال : يا فضل ؛ ادفع إليه أربعين ألفاً . قال الأصمعى : فعلمت أنه أَصيد لدراهم الملوك منى .

ومن ذلك قول أبى تمام يصف فرسا[5] :

وسابحٍ هَطِلِ التَّعْدَاء هَتَّانِ ... على الجِرَاءِ أمينٍ غير خوَّانِ
أَظمى الفُصوص ولم تَظمأْ قوائمُهُ ... فَخَلِّ عَيْنَيك فى رَيَّانَ ظمآن
فلو تراه مُشيحاً والحصى زِيَمٌ ... بين السنابك من مَثْنى ووُحْدَانِ

---

(١) فى ا : ينظرك لينثنى فيكر ، وفى م : ينطارد لينثنى فيكر . (٢) الأدباء : ٦ــ١٨ .
(٣) فى م : فذلك شىء ما إليه سبيل . (٤) فى الأدباء : ومن خير أخلاق .
(٥) أخبار أبى تمام : ٦٨ ، الصناعتين : ٣٩٩ ، معجم الأدباء : ٧ــ٢٢٧ ، ويريد أن ذلك من الاستطراد .

أيقنت ـ إن لم تثبَّت ـ أنَّ حافِرَهُ   من صَخْرِ تَدْمُرَ أو من وَجْهِ عثمانِ

وقد احتذى البحترى هذا الحَذْوَ فى حمدَويْه الأحول ، وكان حمدويه هذا عدوا للممدوح ، فقال[1] :

وأغرَّ فى الزمن البهيم محجَّل   قد رُحْتُ منه على أغرَّ مُحجَّلِ

كالهيكَلِ المبنىّ إلاّ أنهُ   فى الحُسْنِ جاء كصورةٍ فى هَيْكَلِ

مَلَكَ العيونَ فإن بَدا أَعطينهُ   نظر المحبّ إلى الحبيب المقبلِ

ما إنْ يعافُ قذًى ولو أوردْتَهُ   يوماً خلائقَ حَمْدَوَيْه الأَحْوَلِ

وفى قصيدته هذه يحكى أن البحترى قال له أصحابه : إنك ستُعاب بهذا البيت ؛ لأنك سرقته من أبى تمام ، قال : أعاب من أخذى من أبى تمام[2] ! والله ما قلتُ شعراً قط إلا بعد أن أحضرت شعره فى فكرى ، قال : وأسقط البيت بعد ، فلا يوجد فى أكثر النسخ .

وهذا معنى قد أعجَبَ المُحْدَثين ، وتخيَّلوا أنهم لم يُسْبَقُوا إليه ، وقد تقدّم لمن قبلهم ، قال الفرزدق :

كأن فِقَاحَ الأزد حولَ ابن مِسْمَع   إذا جلسوا أَفْواهُ بَكْرِ بن وائلِ

قال الحاتمى : وأتى جرير بهذا النوع فجّى فى وَجْهِ السابق إلى هذا المعنى فضلا عمن تلاه ؛ فإنه استطرد فى بيتٍ واحد ، فهجا فيه ثلاثة فقال :

لما وضعت على الفرزدق مِيسَمِى   وعلى البعيث جدعت أَنْفَ الأَخطلِ

وقيل هذا البيت مما يُرد على الحاتمى ، وهو قوله :

أعددت للشعراء كأساً مرّة   فسقيت آخرهم بكأس الأولِ

قال أبو إسحق : وأوّل من ابتكره السموءل بن عادياَء اليهودى ، وكل أحد تابع له فقال[3] :

---

(١) أخبار أبى تمام : ٦٩ ، ديوان البحترى : ٢ــ٢٦٧ .

(٢) فى ط : أعاب أحد على أحد .   (٣) الحماسة : ١ــ١١١ .

وإنّا أُناسٌ[1] لا نرى القَتْلَ سُبّةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ

يقرِّب حبُّ الموتِ آجالنَا لنا ... وتكرهُه آجالُهم فتطولُ

وقد قال طرفة فى هذا المعنى :

فلو شاء ربى كنت قيسَ بن خالد ... ولو شاء ربى كنت عَمْرَو بن مَرْثَدِ

فأصبحتُ ذا مالٍ كثير وعادنى ... بنون كِرَامٌ سادةٌ لمسَوَّدِ

قيس بن خالد ذو الجدَّين الشيبانى . وعمرو بن مَرْثد سيد بنى قيس بن ثعلبة ، فدعا [عمرو[2]] طرفة لما بلغه ذلك ، فقال : أما البنون فإنّ الله يعطيك ، ولكن لا تريم حتى تكون من أوسطنا حالا ؛ وأمر بنيه وكانوا عشرة ، فدفع إليه كلُّ واحد منهم عشراً من الإبل ؛ فانصرف بمائة ناقة .

وكان ابن عَبْدَلٍ منقطعاً إلى عبد الملك بن بشر بن مروان ، فتأخر عنه بِرُّه ، وغاب أياما ، ثم أتاه فسأله عن غَيْبَته ، فقال[3] : خطبتُ ابنةَ عم لى بالسواد ، فزعمَتْ أنَّ لها ديوناً وأَسْلافا[4] هناك ، وأنى إذا جمعتها لها صارت إلى محبتى ، ففعلت ذلك ، فلما استنجزتُها كتبت إلىّ :

سَيُخْطِئُك الذى أمَّلْتَ منِّى ... إذا انتقضت عليك قُوَى حِبَالى

كما أخطاك معروفُ ابنِ بشر ... وكنت تَعُدُّه[5] ذلك رأسَ مالِ

فقال : ما أحسن ما ألطفت بالسؤال ! وأجْزل صِلَتَه .

ومن بديع هذا الباب قول بشار بن برد[6] :

خليلىّ من كَعْبٍ أَعِينَا أخاكما ... على دَهْرِهِ إن الكريمَ مُعِين

ولاَ تبخَلا بُخْلَ ابن قَزْعَة إنهُ ... مخافةَ أنْ يُرجى نَدَاه حزينُ

إذا جئتَه فى حاجةٍ سدَّ[7] بابَهُ ... فلم تَلْقَه إلاَّ وأنْتَ كمين

---

(١) فى الحماسة : وإنا لقوم . (٢) من م . (٣) ذيل اللآلىء : ٢٤ ، الأمالى : ٣ـ ٤٦ ، وفيه : إن هذه القصة مع معروف بن بشر . (٤) فى الأمالى : أشاوى ، وهى جمع شىء . (٥) فى الأمالى : وكنت تعده لك . (٦) الصناعتين : ٤٠٠ ، إعجاز القرآن ٩٢ ، اللآلىء : ٢٢٥ ، ويريد أن ذلك من الاستطراد . (٧) فى الصناعتين : إذا جئته فى الحلق أغلق بابه .

فقل لأبى يحيى متى تبلغ العُلَا ... وفى كل معروفٍ عليك يمين

وقال بكر بن النطاح يمدح مالك بن طَوْق[1] :

عَرَضْتُ عليها ما أرادَتْ من المُنَى ... لترضَى فقالت قم فَجِئْنِى بكوكبِ

فقلت لهـا : هذا التعنّتُ كلّهُ ... كمن يشتهى لحمَ عنقاءَ مُغْرِبِ

سَلِى كلَّ أمرٍ يستقيمُ طلابهُ ... ولا تذهبى يا درّ[2] فى كلِّ مَذْهَبِ

فأقسمُ لو أصبحت فى عزّ مالك ... وقُدْرَتِه ما رام ذَلك مطلبى

فتًى شـقِيَتْ أموالُه بسماحهِ ... كما شقِيَتْ قيسٌ بأرماح تغلبِ

واعتذر رجلٌ إلى رجل بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله فلم يُقْبَلْ عذره ، فقال عبد الأعلى : أمَا والله لئن كان احتمل إثمَ الكذب ودناءته ، وخضوعَ الاعتذارِ وذِلَّته ، فعاقبته على الذَّنب الذاهب ، ولم تشكر له إنابة التائب ، إنك لمن يُسىء ولا يُحسن .

وقال الحطيئة[3] :

يَسُوسُونَ أحلاماً بعيداً أناتُهـا ... وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجِـدُّ

أَقلُّوا عليهم لا أَبا لأَبيكم ... من اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سَدُّوا

أُولئك قوم إنْ بنوا أَحسنوا البنَا ... وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدُّوا

وإنْ كانت النَّعْماءُ[4] فيهم جَزَوْا بها ... وإن أنعموا لَا كدّروها ولا كدُّوا

وإن قال مولاهم على جُلّ[5] حادث ... من الدهر رُدوا فضل أحلامكم رَدّوا

ويعذلنى أبناءُ سَـعْدٍ عليهمُ[6] ... وما قُلْتُ إلا بالذى علِمتْ سَـعْدُ

---

(١) اللآلئ : ٥٩٦ . (٢) فى ط : يابدر .

(٣) ديوان مختارات شعراء العرب : ١٢٤ . (٤) فى ديوان المختارات : النعما عليهم .

(٥) فى الأصل : كل . (٦) فى ديوان المختارات ، م : وقد لامنى إفناء سعد عليهم .

[شاعر باهلى فى حضرة الرشيد]

وَوَصَّل سعيدُ بن سَلْمٍ إلى الرشيد شاعراً باهليا ، فأنشده قصيدةً حسنة، فاستراب[ه] الرشيد وقال : أسمعك مستحسِناً، وأنكرك[1] متّهِما ؛ فإن كنتَ صاحب هذا الشعر فقُلْ فى هذين ، وأشار إلى الأمين والمأمون وكانا جالسين .

فقال : يا أمير المؤمنين ، حملتَنى على غير الجَدَد : هَيْبَة الخلافة ، ووَحْشَة الغُرْبة ، ورَوْعَة المفاجأة ، وجلالة المقام ، وصعوبة البديهة ، وشرود القوافى ، على غيرِ الروِيَّة ، فليُمْهِلْنى أميرُ المؤمنين حتى يتألَّفَ نافرُ القول .

فقال الرشيد : لا عليك ألاَّ تقول ؛ قد جعلت اعتذارك عِوَض امتحانك .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ نفَّسْت الخناق ، وسهَّلْتَ ميدان السباق ، ثم قال :

بنيتَ بعبد الله بعد محمد ذُرَى قُبَّةِ الإسلام فاخْضَرَّ عودُها
هما طُنُبَاها[2] بارَكَ الله فيهما وأنت — أمير المؤمنين — عمودُها

فقال الرشيد : وأنت بارك الله فيك ، سَلْ ولا تكن مسألتك دون إحسانك ، فقال : الهنيدة[3] يا أميرَ المؤمنين ! فأمر له بها ، وبخلعٍ نفيسة ، وصِلَةٍ جزيلة .

[كاتب الحجاج عند سليمان بن عبد الملك]

دخل يزيدُ بن أبى مُسْلم[4] كاتب الحجاج على سليمانَ بن عبد الملك ، فازْدَرَاه وَنَبتْ عينُه عنه ، فقال : ما رأَتْ عينى كاليوم قطّ ، لعن الله امرأ أَجرَّكَ رَسَنَه ، وحكّمك فى أَمره . فقال : يا أميرَ المؤمنين ، لا تَقُلْ ذلك ؛ فإنك رأيتَنى والأمرُ عنى مُدْبِر ، وعليك مُقْبِل ؛ فلو رأيتنى والأمرُ علىّ مقبل ، وعنك مُدْبِر ، لاستعظمتَ منى ما استصغرتَ ، واستكبرتَ ما استقللْتَ .

قال : عزمت عليك يا بْنَ أبى مُسلم لتخبرنّى عن الحجاج ، أتراه يَهْوِى فى جهنم أم قد قرَّ بها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تَقُلْ هذا فى الحجاج ، وقد بذل لكم

(١) فى ط : وأكرمك . (٢) الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت .
(٣) اسم المائة من الإبل . (٤) البيان والتبيين : ١ــ٢١٠ .

النصيحةَ ، وأمَّن دولتكم ، وأخاف عدوَّكم ، وكأنى به يوم القيامة وهو عن يمين أَبيك ، ويَسار أَخيك ، فاجعله حيثُ شئت .

فقال له سليمان : اعزُبْ إلى لعنة الله ! فخرج ، فالتفت سليمانُ إلى جلسائه فقال : قاتله الله ! ما أَحسن بديهته ، وترفيعه لنفسه ولصاحبه ! وقد أَحسن المكافأَةَ فى الصنيعة ، خَلُّوا عنه .

[إبراهيم بن العباس وأدبه]

من نثره

قال إبراهيم بن العباس الموصلى[1] : والله ما اتَّكَلْتُ فى مكاتبةٍ قط إلاّ على ما يجلبه خاطرى ، ويَجيشُ به صَدْرِى ، إلاّ قولى فى فصل : «وصار ما كان يُحْرِزهم يُبْرِزهم ، وما كان يعقلهم يعتقلهم» . وقولى فى رسالة أخرى : «فأنزلوه من معقل إلى عقال ، وبدّلوه آجالا بآمال» ، فإنى ألممت فى هذا بقول الصريع[2] :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ ... كأنه أجَلٌ يَسْعَى إلى أمَلِ

وفى المعنى الأول يقول أبو تمام[3] :

فإن يَبْنِ حيطاناً عليه فإنما ... أُولئك عُقّالاته لا مَعَاقلُه

وكان يقول : ما تمنّيت كلامَ أحد أن يكون لى إلاّ قولَ عبد الحميد بن يحيى : الناس أصنافٌ متباينون ، وأطوار متفاوتون ، منهم عِلْق مضنَّة لا يُبَاع ، وغل مظنّة لا يُبْتَاع .

ورد كتاب بعض الكتاب إلى إبراهيم بن العباس بذم رجل ومدح آخر؛ فوقّع فى كتابه : إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنِعه ، وللمسيء من النَّكال ما يَقْمَعه ، بَذَل المحسن الواجبَ عليه رغبة ، وانقاد المسىء للحق رهبةً . فوثب الناس يقبّلون يده .

ووقع لرجل مَتَّ إليه بحُرْمة : تقدمت بحرمة مألوفة ، ووسيلة معروفة ،

---

(١) مقدمة ديوانه : ١٢٤ . (٢) مسلم . (٣) ديوانه : ٢٣١ .

أَقوم بواجبها ، وأرْعاها من جميع جوانبها .

من شعره

وإبراهيم بن العباس هو القائل[١] :

لنا إبلٌ كُومٌ يَضيق بها الفَضا ... وتغبرُّ[٢] منها أرْضُها وسماؤُها

فمن دونها أن تستباح دماؤُنا ... ومن دوننا أن يُستذمَّ[٣] دماؤُها

حمًى وقِرًى فالموتُ دون مرامها[٤] ... وأيْسَرُ خَطْب يوم حُقَّ فَناؤُها

وقال الصولى : وجدت بخط عبد الله بن أبى سعيد إبراهيم بن العباس أنشده لنفسه[٥] :

وعلّمتنى كيف الهوى وجهلتهُ ... وعلمكُمْ صَبْرِى على ظلمكم ظلمى

وأعلم مالى عنـــدكم فيردّنى[٦] ... هَوَاىَ إلى جَهْلِى فأرجع[٧] عن عِلْمى

فقلت : أسبقك إلى هذا أحد ؟ فقال : العباس بن الأحنف بقوله[٨] :

تجنّبَ يرْتَادُ السلوَّ فلم يَجِدْ ... له عنك فى الأرض العريضة مَذْهَبا

فعاد إلى أنْ راجع الوَصْلَ صاغراً ... وعاد إلى ما تشتهين وأعْتَبا

قال الصولى : وأظن أنّ ابن أبى سعيد غلط فى هذه الرواية؛ لأن الأشبه بقول ابن العباس: « فعاد إلى أن راجع الوصل صاغرا » قوله[٩] :

كم قد تجرعت من غَيْظ ومن حَزَنٍ ... إذا تجدّد حُزْنٌ هوّنَ الماضى

وكم سخِطت وما بالَيْتُم سَخَطى ... حتى رجعت بقلبٍ ساخطٍ راضى

وأنشد له[١٠] :

لمن لا أرى أعرضتُ عن كلّ من أرى ... وصِرْت على قلبى رقيباً لقاتله

أُدافِعهُ عن سَلْوَةٍ وأردّهُ ... حيـاءً[١١] إلى أوصابه وبَلابِلهْ

---

(١) ديوانه : ١٥٣ . (٢) فى الديوان : وتقفر عنها . (٣) فى ط : تستدام .
(٤) فى الديوان : مراحها . (٥) ديوانه : ١٥٠ . (٦) فى الديوان : فيميل بى .
(٧) فى الديوان : فأقصر . (٨) ديوانه : ١٩ . (٩) ديوانه: ١٤٦ .
(١٠) ديوانه : ١٤٩ . (١١) فى ط : حنينا .

وقال فى هذا النحو(١) :

وأنتِ هوى النفسِ من بينهم وأنتِ الحبيبُ وأنت المطاعْ
وما بك إنْ بَعدوا وَحْدَةٌ ولا معهم إنْ بعدتِ اجتماعْ

وقال الطائى :

إذا جئتَ لم أحْزَنْ لبُعْدِ مفارقٍ وإن غِبْتَ لم أفرح بقُرْبِ مقيم
فياليتنى أفديك من غُرْبَةِ النوى بكلّ أخٍ لى واصلٍ وحميم

وأصل هذا من قول مالك بن مِسْمَع للأحنف بن قيس : « ما أشتاق للغائب إذا حضرت ، ولا أنتفع بالحاضر إذا غبت » .

وقال إبراهيم بن العباس(٢) :

تدانَتْ بقومٍ(٣) عن تَنَاء زيارةٌ وشطّ بليلى عن دنوٍّ مَزَارها
وإن مقيماتٍ بمنعرج(٤) اللّوى لأقربُ من ليلى وهاتيك دَارُها
وليلَى كمثل النارِ ينفعُ ضوءها بعيداً نأَى عنها ويحرق جَارُها

كأنه نظر إلى قول النَّظار الفَقْعَسى :

يقولون هذى أُمُّ عمرٍو قريبةٌ دنَتْ بك أرْضٌ نحوها وسماءُ
ألا إنما بُعْدُ الخليل وقُرْبهُ إذا هو لم يُوصَلْ إليه سواءُ

وقوله : « وليلى كمثل النار » كقول العباس بن الأحنف(٥) :

أحْرَم منكم بمـا أقول وقد نال بهِ العاشقون مَنْ عَشِقُوا
صِرْتُ كأنّى ذُبَالَةٌ نُصبت تُضِئُ لِلنّاسِ وهىَ تَحْتَرِق

وقال إبراهيم بن العباس(٦) :

أميل مع الصديق(٧) على ابن عمى وآخذُ للصديق من(٨) الشقيق

---

(١) ديوانه: ١٤٦ . (٢) ديوانه: ١٤٥ . (٣) فى الديوان: دنت بأناس . (٤) فى م: بمنتهى
(٥) ديوانه: ١١١ . (٦) ديوانه : ١٥٤ . (٧) فى الديوان : مع الندمام، وفى ط : على ابن أمى . (٨) فى الديوان : وأقضى للصديق على ....

وإن ألفيتنى حُرّا مُطَاعاً ... فإنك وَاجدى عَبْدَ الصَّدِيق
أفرّق بين معروفى ومَـنّى ... وأجْمَعُ بين مالى والحقوق

[رثاء مصلوب]

قال العقيلى يرْثِى صديقا له أُخذ فى خربة[1] فقتل وصلب :

لعمرى لئن أصبحتَ فوق مشذَّب ... طويلٍ تُصفِّيكَ الرياحُ مع القَطْرِ
لقد عشتَ مبسوطَ اليدين مرزّأً[2] ... وعُوفيت عندالموت من ضَغْطَةِ القبرِ
وأفْلَتَّ من ضيقِ التراب وغَمِّهِ ... ولم تفقد الدنيا ؛ فهل لكَ من شُكْرِ
فما تشتَفِى عيناى من دائِم البُـكَا ... عليكَ ، ولو أَنى بكيتُ إلى الحشر
فطُوبَى لمن يبكى أَخاه مُجاهِراً ... ولـكننى أَبْـكى لفقدكَ فى سِتْرِ

[كلام لا يحتمل الجواب]

وكتب محمد بن كثير إلى هارون الرشيد : يا أمير المؤمنين ؛ لولا حظ كرم[3] الفعل فى مطالع السؤال ، لألهى المطل قلوبَ الشاكرين ، ولصرف عيونَ الناظرين إلى حسن المحبة ، فأىّ الحالين يُبعِدُ قولَك عن مجازِ فعلك[4]؟ فقال هارون الرشيد : هذا الـكلامُ لا يحتمل الجواب ؛ إذكان الإقرار به يمنعُ من الاحتجاج عليه .

[تعجيل الإحسان]

وقال يحيى بن أكثم للمأمون يذكر حاجةً لهقد وعده بقضائها ، وأغفل ذلك : أَنْتَ يا أمير المؤمنين أَكرمُ من أن نعرِّضَ لك بالاستنجاز ، ونقابلك بالادِّكار ، وأنت شاهدى على وَعْدِك ، وأن تأمر[5] بشىء لم تتقدَّمْ أيامه ، ولا يقدر زمانه ، ونحن أضعفُ من أن يستولىَ علينا صبرُ انتظارِ نعمتك ، وأنت الذى لا يؤوده

(١) الزلة، وفى ط : خزية . (٢) فى ط : مبرزا . (٣) فى م : كريم .
(٤) فى م : فعلك عن مجاز قولك . (٥) فى ط : لاتأمر .

إحسان ، ولا يُعْجِزُه كَرَم ؛ فعجِّل لنا يا أميرَ المؤمنين ما يَزيدك كرماً ، وتزدادُ به نعما ، ونتلقَّاه بالشكر الدائم . فاستحسن المأمون هذا الكلام ، وأمر بقضاء حاجته .

قدم على المأمون رجلٌ من أبناء الدهاقين وعظمائهم ، من أهل الشام[1] ، على عِدَة سلفَتْ له من المأمون ، من تَوْلِيته بلدَه ، وأن يضمّ إليه مملكته ، فطال على الرجل انتظارُ خروجِ أمْرِ أميرِ المؤمنين بذلك ، فقصد عَمْرَو بن مسعدة وسأله إيصالَ رقعةٍ إلى المأمون من ناحيته ، فقال : اكتُبْ بما شئت فإنى موصله ، قال : فتولَّ ذلك عنى ، حتى تكون لك نعمتان . فكتب عمرو : إن رأى أميرُ المؤمنين أنْ يفكّ أسْرَ عِدَته من رِبْقَة المطْلِ ، بقضاء حاجة عَبْدِه ، والإذْنِ له بالانصراف إلى بلده ، فعل مُوفقاً .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عَمْراً وجعل يعجب من حُسن لفظها ، وإيجازِ المرادِ فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتُها يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : الكتابةُ له فى هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخَّر فَضْلُ استحساننا كلامه ، وبجائزة تنفى دناءة المطل .

ومن كلام عمرو بن مسعدة : أعظمُ الناسِ أجراً ، وأنبهُهُم ذِكراً ، من لم يرضَ بحياة[2] العَدْلِ فى دولته، وظهور الحجَّةِ فى سلطانه ، وإيصال المنافع إلى رعيَّته فى حياته ، حتى احتالَ فى تخليدِ ذلك فى الغابرين بعده ، عنايةً بالدين ، ورحمةً بالرَّعية ، وكفايةً لهم من ذلك مالو عنوا باستنباطه لكان يمرض أحد الأمرين ، إما الإكداء[3] عن إصابة الحق فيه لكثرة مايعرض من الالتباس ، وإما إصابةُ الرأى بعد طول الفكر ، ومقاساةِ التجارب ، واستغلاق كثير من الطرق إلى دَرَكه ؛ وأسعد الرُّعَاةُ من دامت سعادةُ الحق فى أيامه ، وبعْدَ وفاته وانقراضه .

[فضل الإيجاز]

وقال رجل لسويد بن منجُوف ، وقد أطال الخطبة بكلام افتتحه للصلح بين قوم

---

(١) فى م : الشماس . (٢) فى ط : بموت . (٣) فى ط : الكد .

من العرب : « يا هذا، أتيت مرعًى غَيْرَ مَرْعَاكَ(١)، أفلا أدلُّك عليه ؟ قال : نعم. قال قل : « أما بعد ، فإنّ فى الصلح بقاءَ الآجال ، وحفظ الأموال، والسلام ». فلما سمع القوم هذا الكلام تعانَقُوا وتواهبوا التّرات .

[أبو مسلم]

قال عبدالله بن مسعود(٢): لما أُمِرَ أبومسلم بمحاربة عبد الله بن على دَخَلْتُ عليه فقلت : «أيها الأمير ، تريد عظيما من الأمر »؟ قال : وماهو ؟ قلت : عم أميرالمؤمنين وهو شيخُ قومه، مع نَجْدَةٍ، وبأس، وحَزْم ، وحسن سياسة . فقال لى: يابن شبرمة، أنت بحديثٍ تعلم معانيه ، وشِعْرٍ توضّح قوافيه ، أَعْلَمُ منك بالحرب ؛ إن هذه دولة قد اطردَتْ أعلامها ، وامتدت أيامها ، فليس لمناوئها والطامع فيها يدٌ تنيله شيئا من الوثوب عليها ، فإذا ولَّت أيامها فدع الوزَغ بذَنبه فيها .

قال بعض حكماء خراسان : لما بلغنى خروج أبى مسلم أتيتُ عَسْكَره لأنظر إلى تدبيره وهيبته ، فأقمت فيه أياماً ، فبلغنى عنه شدةُ عُجْب ، وكِبْرٌ ظاهر ، فظننت أنه تحلّى بذلك لعىّ فيه أراد أن يَسْتُرَه بالصَّمْتِ ، فتوصَّلْت إليه بحيث أسمع كلامه ، وأغيب عن بصره ، فسلمت فردَّ رداً جميلا ، وأمر بإدخال قوم يريد تنفيذَهم فى وجه من الوجوه ، وقد عقدوا لرجلٍ منهم لواءً ، فنظر إليهم ساعة متأمِّلا لهم ، وقال: افهموا عنى وصيَّتى إياكم؛ فإنها أجْدَى عليكم من أكثر تدبيركم ، وبالله توفيقكم. قالوا : نعم أيها السالاَر، ومعناه السيد بالفارسية ، فسمعتُه يقول، ومترجم يحكى كلامه بالفارسية لمن عبَّر له منهم بالعربية: «أشعروا قلوبكم الجراة فإنها سببُ الظَّفَر ، وأكثروا ذِكْرَ الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حِصْنُ المحارب ، وعليكم بعصبيَّةِ الأشراف ، ودعُوا عصبية الدناءة ، فإن الأشرافَ تظهر بأفعالها ، والدناءة بأَفْوَالها » .

---

(١) فى م : أنت ترعى غير مرعاك . (٢) فى ط : بن شبرمة .

وذكر إدريس بن معقل أبا مسلم فقال: بمثل أبى مسلم يُدْرَكُ ثار، ويُنفَى عار، ويُؤَكد عَهْد، ويُبرم عقد، ويسهّل وَعْر، ويُخَاض غمْر، ويُقلع ناب، ويُفتح باب.

[حساب]

وقال رجلٌ لأبى جعفر المنصور: أيْنَ ما تُحُدِّثَ به فى أيام بنى أمية؟ إنَّ الخلافة إذا لم تقابل بإنصاف المظلومين، ولم تعامل بالعدل فى الرعية، وقسمة الفيء بالسويَّة، صار عاقبةُ أمرها بَواراً، وحاقَ بولاتها سوء العذاب.

قال: فتنفس ثم قال: قد كان ماتقولُ، ولكنا ياأخى استعجَلْنا الفانية على الباقية، وكأن قد انقضَتْ هذه الدار. فقال له الرجل: فانظر على أى حالة تنقضى.

وقال أبو الدوانيق وكان فصيحاً بليغاً: «عجباً لمن أصار عِلْمَه غَرَضاً لسِهَامِ الخطايا، وهو عارفٌ بسُرْعَةِ المنايا، اللهم إنْ تقض للسيئين صَفْحاً فاجعلنى منهم، وإن تهب للظالمين فسحاً فلا تحْرِمنى ما يتطوّل به المولى على أخَسّ عبيده».

[من كلام الأحنف]

وسُئِل الأحنف بن قيس عن العقل؟ فقال: رأس الأشياء؛ فيه قوامُها، وبه تمامُها؛ لأنه سراجُ ما بطن، وملاكُ ما علن، وسائس الجسد، وزينة كل أحد، لا تستقيم الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه.

ولما خطب زياد خطبته المشهورة قام الأحنف بن قيس، فقال: الفرس بشَدِّه، والسيف بحدِّه، والمرء بجدِّه، وقد بلغ بك جدك ما أرى، وإنما الثناء بعد البلاء، فإنا لا نُثْنِى حتى نَبْلو.

[من عهد الواثق على مكة]

وكتب ابنُ الزيات عَهْدَ الواثق على مكة بحضرة المعتصم : أما بعد ، فإنّ أمير المؤمنين قد قلَّدك مكة وزمزم ، تراث أبيك الأقْدم ، وجدِّك الأكرم ، وركضة جبريل ، وسُقْيَا إسمعيل ، وحَفر عبد المطلب ، وسِقَايةَ العباس ؛ فعليك بتقوى الله تعالى ، والتوسعة على أهل بيته .

وكتب : لو لم يَكُنْ من فضل الشكر إلا أنك لا تراه إلا بين نعمة مقصورة عليه، وزيادة منتظرة له، ثم قال لمحمد بن رَباح : كيف ترى ؟ قال : كأنهما قرطان بينهما وَجْه حسن ، ومع ذلك ذكر ابن الزيات أمرَ الحرَم بتعظيمٍ وتفخيم .

ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بالحج وتفخيم [أمر] الحرم و[تعظيم] أمر المناسك والمشاعر ومايتصل بها من الأدعية

قصدَ البيتَ العتيق ، والمَطَاف الكريم، والملتزم النبيه ، والمستلَم النزيه . [وقف بالمعرف العظيم، وورد زمزم والحَطِيم](١) . حَرَمُ الله الذى أوسعه للناس كرامة، وجعله لهم مَثَابة ، وللخليل خُطّة ، وللذبيح خُلّة ، ولمحمد صلّى الله عليه وسلم قِبْلَة ، ولأُمّته كَعْبة ، ودعى إليه حتى لبّى من كل مكان سحيق، وأسرع نحوه من كل فجّ عميق ، يعودُ عنه مَنْ وفّق وقد قُبلت توبتُه ، وغُفِرت حَوْبَته ، وسَعِدت سفرته ، وأنجحت أَوْبتُه ، وحُمِد سَعْيه ، وزكا حجُّه ، وتقبل عَجّه وثَجّه . انصرف مولاى عن الحجّ الذى انتضى له عزائمه ، وأنضى فيه رواحله ، وأتعب نفسه بطلب راحتها ، وأنفق ذخائره بشراء سَعَة الجنة وساحتها؛ فقد زكَتْ إن شاء الله تعالى أفعاله وتقبّلت أعماله، وشكر سعيه ، وبلغ هديه . قد أسقطتَ عن ظَهْرِك الثقل العظيم ، وشهدت المَوْقِف الكريم ، ومحصت عن نفسك بالسّعْى من الفجّ العميق ، إلى البيت العتيق . حمداً لمن

(١) ما بين القوسين ساقط من م .

سهل عليك قضاء فريضة الحج ، ورُؤْية المَشْعَر والمَقَام ، وبركةَ الأدعية والموسم ، وسعادةَ أفنية الحطيم وزمزم . قصد أَكْرَمَ المقاصد ، وشَهِدَ أشرفَ المشاهد ؛ فورد مشارع الجنة ، وخيَّم بمنازل الرحمة . وقد جُمعت مواهب الله لديك : فالحجّ أديت فرضه ، وحَرَمُ اللهِ وَطِئْتَ أرضه ، والمقام الكريم قمْتَه ، والحجر الأسود استَلَمْتَه ، وزُرْتَ قبرَ النبي صلى الله عليه وسلم مشافهاً لمشهده ، ومشاهدا لمسجده . ومباشرا باديه ومَحْضره ، وماشياً بين قبره ومنبره ، ومصليا عليه حيث صلّى ، ومتقرباً إليه بالقرابة العظمى ، وعدت وسعيُك مشكور ، وذَنْبُك مغفور ، وتجارتك رابحة ، والبركات عليك غادية ورائحة . تَلَقَّى اللهُ دعاءك بالإجابة ، واستغفارك بالرضا ، وأملك بالنُّجْح ، وجعل سَعْيَك مشكوراً ، وحجّك مبروراً . عرف الله تعالى مولاي مناهج ما نواه ، وقصده وتوخّاه ، ما يسعده فى دنياه ، ويحمد عُقْبَاه .

[شعر قطرى بن الفجاءة]

قال أبو حاتم(١) : أتيت أبا عبيدة ومعى شعر عُرْوة بن الورد . فقال لى : ما معك؟ قلت : شعر عروة . قال : شعر فقير ، يحمله فقير ، ليقرأه على فقير ! قلت : ما معى [شعرُ](٢) غيره ؛ فأنشدنى أنت ما شئت فأنشدنى :

يارُب ظِلٍّ عُقابٍ(٣) قد وقَيْتُ بهِ ... مُهْرِى من الشمس والأَبطالُ تَجْتَلِد

وربَّ يوم حمًى أرْعَيْتُ عقْوته ... خَيْلِى اقتسارا وأطرافُ القَنا قِصَدُ

ويوم لَهْو لأهل الخَفْضِ ظلّ بهِ ... لَهْوِى اصطلاءَ الوغى ونارُه تقِدُ

مشهرّاً مَوْقِفِى والحربُ كاشِفَةٌ ... عنها القناعَ وبَحْرُ الموت يطَّرِدُ

ورب هَاجرة تَغْلِى مراجلُها ... مخرتها بمَطايا غَارَةٍ تَخِدُ

تَجْتَابُ أَوديةَ الأفزاع آمنةً ... كأنها أُسُد يصطادُها(٤) أَسد

---

(١) الأمالى : ١ — ٢٦٥ ، اللآلى : ٥٩٠ . (٢) من م . (٣) العقاب : الراية .

(٤) فى الأمالى : تقتادها ، وليس البيت فى م .

فإن أَمُتْ حَتْفَ أَنفى لا أَمُتْ كمداً على الطعان وقَصْرُ العاجزِ الكَمَدُ
ولم أقل لم أُساقِ الموت شارِبَهُ فى كأسه والمنايا شُرَّعٌ وُرُد

ثم قال: هذا والله هو الشعر لامايتملّلون به من أشعار المخانيث .

والشعر لقَطَرِى بن الفجاءة المازنى ، وكانُ يكْنَى فى السلم أبا محمد ، وفى الحرب أبا نعامةٍ ، وكان أطولَ الخوارج أياماً ، وأحدَّهم شوكة ، وكان شاعراً جواداً ، وهو القائل أيضاً[1] :

لا يركنن أحد إلى الإحجامِ يوم الوغى متهيّباً[2] لِحمامِ
فلقد أرانى للرماح دريئةً من عن يمينى تارةً وأمامى
حتى خضَبْتُ بما تحدّر من دمى أكنافَ سَرْجى أو عِنَانَ لجامى
ثم انصرفتُ وقد أصبت ولم أُصَب جَذَعَ البصيرة قارِح الإقدام[3]

[من المديح]

مدح شيبان

وقال المسيب بن علس[4] :

تبيت الملوك على عَتْبِها وشيبان إن غضبت تعتب
وكالشهد بالراح ألفاظُهمْ وأخلاقُهم[5] منهما أعذب
وكالمِسْك تُرْبُ مقاماتهم وتُرب أُصولهم[6] أطيبُ

بنو أسد

وقال آخر :

اذكر مجالس من بنى أسد بَعُدُوا فحَنَّ إليهم القَلْبُ
الشرق منزلهم ومَنْزِلُنا غَرْبٌ وأين الشرقُ والغرب
من كل أبيضَ جُلُّ زينتهِ مسكٌ أحمُّ وصارم عَضْبُ[7]

---

(١) الحماسة: ١ـ١٣١ ، اللآلئ: ٨٠٦ . (٢) فى الحماسة: متخوفا .

(٣) جذع البصيرة : أى استبصارى ويقينى لا يحتاجان إلى تهذيب ولاتأديب ، كما لا يحتاج الجذع (الذى بلغ حولين من الخيل) إلى الرياضة ، وإقدامى قارح : قد بلغ النهاية فىالإقدام كماأن القروح نهاية سن الفرس . (٤) الشعراء : ١٢٦ .

(٥) فى الشعراء : وأحلامهم . (٦) فى م : قبورهم . (٧) فى ط : وعارض هضب .

ومدجَّج يَسْعَى لغــارتهِ وعقـيرة بفنـائه تَخبُ

آل حرب

آخر :

رأيتُـكُم بقيـة آل حَرْب وهَضْبَتها التى فَوْقَ الهِضَابِ
تُبارون الرياحَ ندًى وجوداً وتمتثلون أفعالَ السحاب
يذكرنى مقامى اليومَ فيكم مقامى أمْسِ فى ظلِّ الشباب

[سعيد بن حميد]

بينه وبين سعيد بن عبد الملك

كتب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حميد :

أكره ـ أطال اللهُ بقاءك ـ أن أضعَك ونفسى موضع العُذْر والقبول ، فيكون أحدُنا معتذِراً مقصّراً ، والآخر قابِلا متفضِّلا(١) ، ولكن أذكر ما فى التلاقى من جديد البرّ ، وفى التخلُّف من قلة الصبر ؛ وأسألُ الله تعالى أن يوفِّقك وإيانا لما يكونُ منه عقبى الشكر .

فأجابه : وصل كتابُكَ ـ أكرمك الله تعالى ـ الحاضرُ سرورُه ، اللطيف موقِعُـه ، الجميل صدوره ومَوْرِدُه ، الشاهدُ ظاهره على صِدْقِ باطنه ، ونحن ـ أعزَّكَ الله ـ نجعل جزاءك حسن الاعتراف بفضلك ، ومجازاتك التقصير دونك ؛ ونرى أن لا عُذْرَ فى التخلف عنك ، وإنْ حالت الأشغال بيننا وبينك . وإن كنتَ سامحت فى العذر قبل الاعتذار ، وسبَقْتَ إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلت على كلّ خير دليلا ، وإليه داعياً ، وبه آمراً ؛ ولقد التقينا قبل وصـولِ كتابك لقاءً أحدث وطراً(٢) ، وهاج شَوْقاً ، وأرجو أن تتّسع لنا الجمعة بما ضاقت به الأيام ؛ فننال حظًّا من محادثتك والأنس بك .

منظومه ومنثوره

ولسعيد بن حميد حلاوةٌ فى منظومه ومنثوره ، لكنه قليلُ الاختراع ، كثير الإغارة على مَنْ سبقه ؛ وكان يقال : لو رجع كلامُ كل أحد إلى صاحبه لبقى سعيد ابن حميد ساكتاً . وفيه يقول أبو على البصير :

(١) فى م : معتذرا. (٢) فى ط : قطرا .

رَأسُ من يدعى البلاغة منى ومن الناس ، كلهم فى حِزَامه
وأخونا ولست أكنى سعيد بـ ـن حميد تُؤَرخ الكُتْب باسمه

هذا المعنى ينظرُ إلى قول منصور الفقيه وإن لم يكن منه :

تَضِيق به الدنيـا فينهضُ هاربا إذا نحن قلنا : خيرُنا الباذلُ السمْحُ
فإن قيل : من هذا الشقى ؟ أقُلْ لهم على شَرْطِ كتمان الحديث : هو الفَتْحُ

عشقه

وكان سعيدٌ يَهْوَى فضل الشاعرة . فعزم مرة على سفر فقالت له[1] :

كذَبْتَنِي الوُدَّ أن صافحتَ مرتحلا كفّ الفراقِ بكفّ الصبرِ والجلَدِ
لاتذكرنَّ الهوى والشوقَ لو فُجِعَتْ بالشوق نفسُك لم تصبر على البُعُدِ

من شعره

وكان سعيد عند بعض إخوانه ، فنهض منصرفا وأخذ بعضادتى الباب ، وأنشأ يقول :

سلامٌ عليكم حالَتِ الكأس بيننا وولّتْ بنا عن كل مرأًى ومَسْمَعِ
فلم يبقَ إلاَّ أَنْ يصافِحَنى الكَرَى فيجمع سكراً بين جسمى ومَضْجَعى

وقال [سعيد][2] :

أَرَى أَلْسُنَ الشكوى إليك كليلةً وفيهنَّ عن غير[3] الثناء فُتُورُ
تقيمُ على العَتْبِ الذى ليس نافعاً وليس لها إلا إليك مَصِيرُ
وما أنتَ إلاَّ كالزمان تلوَّنَتْ نوائبُ من أحداثه وأُمور
فإنْ قلَّ إنصافُ الزمانِ وجُودُه فمن ذا على جَوْرِ الزمان يُجيرُ

* * *

من النقد

أما قوله :

* تقيمُ على العَتْبِ الذى ليس نافعاً *

---

(١) شاعرات العرب : ٢٤٤ . (٢) من م . (٣) فى م : عن عين .

فمن قول المؤمّل :

لا تغضبنّ على قوم تحبهمُ فليس منك عليهم ينفعُ الغضبُ
يا جائرين علينا فى حكومتهم والجوْرُ أقبحُ ما يُؤْتَى ويُرتَكَبُ
لسنا إلى غيركم منكم نفرّ إذا جُرتم ولكن إليكم منكمُ الهربُ

وأول من نبّه على هذا المعنى النابغة الذبيانى فى قوله للنعمان بن المنذر(١) :

فإنكَ كالليلِ الذى هو مُدْرِكى وإن خِلْتُ أنّ المنتأَى عنك واسعُ
خطاطيف حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ تمدُّ بها أيدٍ إليك نوازِعُ

سرقه أشجع السُّلمى فقال لإدريس بن عبد الله بن الحسين بن على ، وقد بعث إليه الرشيد مَن اغتاله فى المغرب :

أتظنُّ يا إدريس أنك مُفْلِتٌ كَيْدَ الخلافة أو يقيك حِذَار(٢)
إنّ السيوفَ إذا انتضاها عَزْمُه طالتْ وتقصر دونها الأعمارُ
هيهات إلاّ أن تحُلّ ببلدةٍ لا يهتدى فيها إليك نهارُ

وقال سَلْم الخاسر يعتذر إلى المهدى(٣) :

إنى أعوذ بخير الناسِ كلهمُ وأنت ذاك لما يأتى ويجتنبُ
وأنتَ كالدهرِ مبثوثا حبائلُهُ والدهرُ لا ملجأٌ منه ولا هربُ
ولو ملكتُ عِنانَ الريحِ أصرفهُ فى كل ناحيةٍ ما فاتكَ الطّلبُ
فليس إلا انتظارى منك عارفةً فيها من الخوفِ مَنْجاةٌ ومنقلَب

وقول سلم :

* ولو ملكت عِنَان الريح أصرفه *

(١) ديوانه : ٧١ . (٢) فى م: جدار . (٣) فى م : مسلم الجاحد .

كأنه من قول الفرزدق للحجاج[١] :

ولو حملتنى الريح[٢] ثم طلبتنى … لكنت كشىء[٣] أدركته مقادره

وقول على بن جبلة لحميد الطوسى :

وما لامرىء حاولته منك مهرب … ولو رفعته فى السماء المطالع

أخذه البحترى فقال[٤] :

سلبوا وأشرقت الدماء عليهم … محمرة فكأنهم لم يسلبوا
فلو انهم ركبوا الكواكب لم يكن … ليجيرهم من حد[٥] بأسك مهرب

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى نحو قول النابغة :

وإنى وإن حدثت نفسى بأننى … أفوتك إن الرأى منى لعازب
لأنك لى مثل المكان المحيط بى … من الأرض لولا استنهضتنى المذاهب

وأما قول سعيد : * وما أنت إلا كالزمان * والبيت الذى يليه، فكأنه ألم فيه بقول شمعل الثعلبى وإن لم يكن المعنى بنفسه :

أمن جذبة بالرجل منى تباشرت … عداتى، ولا عتب على ولا هجر[٦]
فإن أمير المؤمنين وفعله … لكا الدهر لا عار بما صنع الدهر

وقال رجل من طيء وكان رجل منهم يقال له زيد من ولد عروة بن زيد الخيل قتل رجلا اسمه زيد فأقاد منه السلطان ، فقال الطائى يفتخر على الأسديين[٧] :

علا زيدنا يوم الحمى رأس زيدكم … بأبيض مشحوذ الغرار يمانى
فإن تقتلوا زيدا بزيد فإنما … أقادكم السلطان بعد زمان

وقول الثعلبى مأخوذ من قول النابغة ، وهو أول من ابتكره[٨] :

---

(١) فى الديوان : يمدح الوليد بن عبد الملك . (٢) فى الديوان : وأن لو ركبت الريح .
(٣) فى الديوان : كشىء . (٤) ديوانه : ٦٣ . (٥) فى الديوان : لجدهم من أخذ .
(٦) فى م : ولا عيب على ولا سخر . (٧) تحرير العبارة من م .
(٨) ديوانه : ٥٨ .

وعيرتنى بنو ذبيان خشيته … وما(١) علىَّ بأن أخشاك مِنْ عارِ

ومن جيد شعر سعيد بن حميد :

أهابُ وأستحيِي وأرقُب وعدهُ … فلا هو يَبْدانى ولا أنا أسألُ

هو الشمسُ مَجْراها بعيدٌ وضوءها … قريبٌ ، وقلبى بالبعيد موكَّلُ

وهذا المعنى وإن كان كثيراً مشهوراً فما يكادُ يدانَى فى الإحسان فيه .

وقد قال أبو عيينة(٢) :

غزَتْنِي جيوشُ الحبِّ من كل جانب … إذا حان من جُنْدٍ قفولٌ غزا جُنْدُ

أقول لأصحابى هِىَ الشمسُ ضوءها … قريبٌ ولكنْ فى تناولِها بُعْدُ

وقال العباس بن الأحنف(٣) :

هى الشمسُ مسْكَنُها فى السماء … فعزِّ الفؤاد عَزاءً جَميلاَ

فلَنْ تستطيع إليها الصعودَ … ولنْ تستطيعَ إليكَ النزُولاَ

وقال البحترى(٤) :

دنوتَ تواضعاً وعلوتَ(٥) قَدْراً … فشأناكَ انحدارٌ وارتفاعُ

كذاك الشمس تبعد أن تدانى(٦) … ويَدْنُو الضوء منها والشعاع

وقال ابن الرومى(٧) :

وذَخَرْتُه للدهر أعْلمُ أنهُ … كالدهر فيه لمن يؤول مآلُ

ورأيتُه كالشمس إن هى لم تُنَلْ … فالنُّور منها والضياء يُنال

وقال المتنبى(٨) :

بيضاء تُطْمِعُ فيما تحت حُلَّتها … وعَزَّ ذلك مطلوباً لمن طلبا

كأنها الشمسُ يُعْيِى كفَّ قابِضِها(٩) … شُعاعها وتَرَاه العينُ مقتربا

---

(١) فى م : وهل على . (٢) التبيان : ١–١١٢ .

(٣) التبيان : ١–١١٢ ، ديوانه : ١٢٦ . (٤) ديوانه : ١–٨٢ .

(٥) فى الديوان : وبعدت . (٦) فى الديوان : أن تسامى . (٧) اللآلئ : ١٦٠ .

(٨) ديوانه : ١–١١١ . (٩) فى الديوان : كأنها الشمس يعيى كف قابضه .

وقال سعيد بن حميد ، ويروى لفضل الشاعرة :

ما كنتُ أيام كنتِ راضيةً عنّى بذاك الرضا بمغتبطِ
علماً بأنّ الرضا سيَتْبَعهُ منك التجنّى وكثرةُ السَّخَطِ
فكلُّ ما ساءنى فعَنْ خُلُقٍ منك وما سرَّنى فعَنْ غَلَطِ

وفى هذا المعنى يقول أبو العباس الهاشمى من وَلد عبد الصمد بن على ويُعْرَف بأبى العبر[1] :

أَبكِي إذا غَضِبَتْ حتى إذا رضِيَتْ بكيتُ عند الرضا خوفاً من الغضبِ
فالموت إن غَضِبَتْ والموت إن رضِيَتْ إن لم يُرِحْنى سلوٌّ عِشْتُ فى تعبِ

وقال العباس بن الأحنف[2] :

إذا رضيت لم يهننى ذلكَ الرِّضا لصحة عِلْمى أن سيتبعه عَتْبُ
وأبكى إذا ما أذنبت خوف عَتْبِها فأسألها مرضاتها ولها الذّنْبُ
وصالكم هجرٌ وقربكم[3] قِلًى وعطفكم صدٌّ وسلمكم حَرْبُ
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظةٌ وكلّ ذلول من أموركم صَعْبُ[4]

وقال[5] :

قد كنتُ أَبكى وأَنتِ راضيةٌ جذارَ هذا الصدود والغضبِ
إن تمّ[6] ذا الهجرُ يا ظَلوم ولا تمّ فمالى فى العيش من أَرَبِ

وما أحسن قول القائل :

وما فى الأرض أشقى من محبّ وإن وجد الهوى حُلْوَ المذاقِ
تراهُ باكياً فى كل حينٍ مخافةَ فُرْقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكى إن نَأَوْا حذراً عليهم ويبكى إن دَنَوْا خوفَ الفِراقِ

---

(١) ذيل اللآلئ : ٤٣ . (٢) ديوانه : ١٢ . (٣) فى م : وحبكم.
(٤) ليس هذا البيت فى م . (٥) ديوانه : ٢١ . (٦) فى الديوان : إن دام .

وتسخن عينه عند التنائى وتسخن عينه عند التلاقِ[١]

* * *

من نثر سعيد ابن حميد

وقال سعيد بن حميد : إذا نزعتُ فى كتابى[٢] بآية من كتاب الله تعالى أنرت إظلامه ، وزينْتُ أحكامه ، وأعذبتُ كلامَه .

أمثال للعرب والعجم والعامة وما يماثلها من كتاب الله تعالى

[مما هو أجل منها وأعلى][٣] أخرجها أبو منصور عبد الملك الثعالبى

قال علىّ رضى الله تعالى عنه : « القَتْل أَنفى للقتل » . وفى القرآن: « ولكم فى القصاص حياةٌ يا أُولِى الألباب » .

والعربُ تقول لمن يعيّر غيره بما هو فيه : « عَيّر بُجَيْرٌ بُجرَه ونَسِى بُجَيْرٌ خَبَرَه »[٤] . وفى القرآن : « وضربَ لنا مثلاً ونَسِى خَلْقَه » .

وفى معاودة العقوبة عند معاودَة الذنب : « إنْ عَادت العَقْرَبُ عُدْنا لها » . وفى القرآن : « وإن عُدْتُم عُدْنا . وإنْ تَعُودوا نَعُدْ » .

وفى ذَوْق الجانى وبالَ أمره: « يَدَاكَ أَوْكَتَا ، وَفُوكَ نفَخ » . وفى القرآن : « ذلك بما قدّمت يدَاكَ » .

وفى قُرْب الغد من اليوم قول الشاعر * وإن غداً لِناظِرِه قَرِيب * وفى القرآن : « أليس الصُّبْحُ بقريبٍ » .

وفى ظهور الأمر : « قد وضح الأمر[٥] لذى عَيْنَين » . وفى القرآن : « الآن حَصْحَص الحقّ » .

وفى الإساءة إلى من لا يقبل الإحسان : « أعط أخاكَ تمرة فإن أبَى فجَمْرَة » . وفى القرآن : « ومن يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمن نقيّض له شيطانا فهو له قرين » .

---

(١) ليس هذا البيت فى م . (٢) فى ط : برعت فى كتابك . (٣) زيادة من م .

(٤) اللسان – مادة بجر . والمعنى أن ذا بجرة فى سرته – والأبجر : الناتئ السرة – عير غيره بما فيه .

(٥) فى م : بين الصبح .

وفى فَوْت الأمر : « سبقَ السيفُ العَذَل » . وفى القرآن العظيم : « قُضِى الأَمْرُ الذى فيه تستَفْتِيَان» .

وفى الوصول إلى المراد ببَذْلِ الرغائب : « من ينكح الحسناء يُعْطِ مَهْرها[(١)] » . وفى القرآن : « لن تنالوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا مما تحبُّون » .

وفى منع الرجل مُرَاده : * وقَدْ حِيل بين العَيْرِ والنَّزَوَانِ[(٢)] * وفى القرآن : « وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون » .

وفى تَلَافِى الإساءة : « عاد غيث على ما أفسد »[(٣)] . وفى القرآن . « ثم بدَّلْنا مكانَ السيئةِ الحسنة حتى عَفوا » .

وفى الاختصاص : « كل مقام بمقال »[(٤)] . وفى القرآن . « لكل نبأ مستقرّ » .

العجم: «من احترق كُدسه[(٥)] تمنى إحراق أكداس الناس » . وفى القرآن : «ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » .

العامة: « مَنْ حفر لأخيه بئرا وَقع فيها » . وفى القرآن: [ولا يحيق المكر السيىءُ إلا بأهله . شعر :

كل امرىءٍ يشبهه فعله ما يفعل المرء فهو أهله[(٦)]

وفى القرآن :] « قل كل يعمل على شاكلته » .

العامة : « كل البقل ولا تسأل عن المَبْقَلَة » .

وفى القرآن : «لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم » .

شعر :

كم مرةً حفَّت بك المكارهْ خارَ لكَ اللهُ وأنتَ كارِهْ

وفى القرآن : «وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . العامة : « المأمول خيرٌ من المأكول » . وفى القرآن : « وللآخِرَةُ خيرٌ لك من الأُولى » .

---

(١) فى م : مهرا . (٢) أول من قاله : صخر بن عمرو السلمى : وصدر البيت : أهم بأمر الحزم لو أستطيعه . (٣) فى م : ماأفسدْ برده. (٤) فى م : وفى اختصاص كل مقام بمقال : لكل مقام مقال. (٥) الكدس ـ بضم الكاف وفتحها : العرمة من الطعام والتمر والدراهم. (٦) من م.

العامة : « لو كان فى اليوم خيرٌ ما سلّم على الصياد » . وفى القرآن : « ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيرا لأسمعهم» . المتنبى : * مصائبُ قوم عند قوم فوائد* وفى القرآن : «وإنْ تُصبكم سيئةٌ يفرحوا بها » . * عند الخنازير تنفُق العذرة * وفى القرآن : «الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات . العجم: «لم يردِ الله بالنملة صلاحا إذ أنبتَ لها جناحا»، وفى القرآن: «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة». العامة: الكلب لا يُصِيد كارها. وفى القرآن: «لا إكراه فى الدين» . العجم : « كل شاة تُناط برجلها» . وفى القرآن : « كل نفس بما كسبت رهينة » .

جملة من مكاتبات [بعض[1]] أهل العصر

شكر على سيرة محمودة

[وهو][1] أبو القاسم محمد بن على الإسكافى عن الأمير نوح بن نصر وعن ابنه[2] عبد الملك لأبى طاهر وشمكير بن زياد يَشكُرُه على حَميد سيرته : مَنْ حمدناه أعزّكَ اللهُ تعالى — من أعيان المِلّةِ الذين بهم افتِخارُها ، وأعوانِ الدولة الذين بهم استظهارُها، بخلّة ينزع فيها من خلالِ الفضْل ، وخصْلَة يكمل بها من خصال العَدْل. وإنك — أعزك الله — من نحمده بالارتقاء فى درَج الفضائل ، والاستواء فى كلّ الشواكل ؛ فإنه ليس من مَحْمَدة إلا وسهمُك فيها فائز، [ولا من شدة إلا ومَهلُك فيها بارز][1] ، وذلك — أعزك الله تعالى — أمرٌ قد أغنى صِدْقُ خبره عن العيان ، وكفى بيان أثره تكلّف الامتحان ، ولو أعطينا النفوسَ مُناها ، وسوّغناها هواها، لأوردنا عليك فى ذرور كلِّ شارقٍ جديدَ شُكر ، وجدّدنا لك مع اعتراض كلّ خاطر جميلَ ذِكر ، لكنا للعادة فى تركِ الهوى ، والثقة بأنك مع صالح آدابك تحلّ الأدنى من الإحماد محلّ الأوفى ، فيُقضى لك بأنه ، وإن عظم قدرُه ، يسير المدد ، وعلى ما هو، وإن تناهى لفظُه، باقى الفخر مدى الأبد ، وكان مما اقتضانا الآن تناولك

(١) من م (٢) فى ط : وعن أبيه .

به أخبارٌ تواترت ، وأقوال تظاهرت ، بإطباق سكان الحضْرة ونيسابور من أهل عملك على شُكْرِ ما يتزيّد لهم وفيهم من موادّ عدلك وحسن فَضْلك ، حتى لقد ظلّوا ولهم فى شكر ذلك محافل تُعْقَد، ومشاهد تُشْهَد يعجب بها السامعُ والرائى . ويقترنُ بها المؤمنُ والداعى ؛ فإن هذا ـ أعزّك الله ـ حال يطيب مَسْمَعه ، ويلذّ موقعه ، حتى لقد ملأَ القلوبَ بَهجاً ، والصدور ثلجاً ، حتى استفزّها فرطُ الارتياح ، وصِدْقُ الانشراح، إلى هذا الكتاب ان أعجلناه ، وهذا الشكر إن أجزلناه ، بعد ذكرٍ لك اتصل كل الاتصال ، وأجمل كل الإجمال ، وتضاعف به حظّك من الرأى أضعافا ، وأشرف محلك على كل المحال إشرافا ، ونحن نهنيك ـ أعزك الله ـ على التوفيق الذى قسمه اللهُ لك، والتيسير الذى وكَلَه بك، ونبعثُك على استدامتها بصالح النية، وبصادق البغية[1] ، لتدنوَ من العدل على ما ترعى، وتحسن الهَدْى فيما تتولّى . فرأيك أبقاك الله تعالى فى إحلال ذلك محله من استبشار به تستكمله ، واستثمار له تعجّله [إن شاء الله تعالى][2] .

تعزية

وكتب إليه يعزيه: «إن أَحقَّ من سلّم لأمر الله تعالى ورضى بقَدَره، حتى يُمَحّصَ[3] مصطنعا ، ويَخلصَ مُصْطَبِرا ، وحتى يكون بحيث أمر الله من الشكر إذا وَهب ، والرضا إذا سَلب ، أنت أعزك الله تعالى لمحلّك من الشكر والحِجَا ، وحظك من الصبر والنُّهى ، ثم لِمَا ترجعُ إليه من ثبات الجَنان عند النَّازِلة ، وقوة الأركان لعزّ الدولة الفاضلة ، فإنَّ لك فيها وفى سَهْمِك الفائز ، ومَهَلِك البارز ، عِوَضا عن كل مرزوء ، ودَرَكًا لكل مَرْجُوّ ، ونسأل الله تعالى أَنْ يجعلَك من الشاكرين لِفَضْله إذا أبلى ، والصابرين لحكمه إذا ابتَلى ، وأن يجعل لك لا بِكَ التعزية ، ويقيك فى نفسك وفى ذَويك الرزيّة ، بمنّه وقدرته .

كتاب آخر فى التعزية

وله إليه : ترامى إلينا خَبَرُ مُصابك بفلان ، فخلص إلينا من الاغتمام به ما يحصل فى مثله

---

(١) فى م ، ا : التقية . (٢) من ا . (٣) فى ط : يعضى .

ممّن أطاع ووَفى ، وخدم ووالى ، وعلمنا أن لفقدك مثله لَوْعةً ، وللمصاب به لَذْعة ؛ فآثرنا كتابنا هذا إليك فى تعزيتك على يقيننا بأنّ عقلك يُغنِى عن عظتك ، ويهدِى إلى الأَوْلَى بشيمته ، والأزيد فى رُتْبتك ، فليحسن ـ أعزك الله ـ صبرك على ما أخذه منك ، وشكرك على ما أبقى لك ، وليتمكّن فى نفسك ما وفّر لك من ثوابِ الصابرين ، وأجزل من ذُخْر المحسنين ، وليَرِدْ كتابك بما ألهمك الله تعالى من عزاء، وأبلاك من جميل بَلاء إن شاء الله تعالى .

جواب إليه

وله إليه جواب : وصل كتابُك ـ أعزك الله تعالى ـ مفتتَحا بالتعزية عن فلان وبوَصْفِ توجّعك للمصيبة، ونحن نحمدُ الله تعالى الذى يُنْعِم فضلا، ويَحْكُم عَدْلا، ويَهَبُ إحسانا . ويسلب امتحانا ، على مجارِى قضيّته كيف جرَتْ آخذة ومعطية ، ومَواقع مشيئته كيف مضت سارّة ومسيئة ، حَمْدَ عالِين أنْ لا حكم إلا له ، ولا حولَ إلاّ به ، ومستمسكين بما أمر به عند المساءة من الصبر ، والمسرّة من الشكر ، راجين ما أعدّه الله من الثواب للصابرِين ، والمزيدِ للشاكرين . وما توفيقنا إلا بالله عليه نُتوكّل وإليه ننيب، وأما وَحْشَتُك ـ أعزك الله ـ للحادث على الماضى، عفا الله عنه، فمِثلك من ذَوِى الصفاء والوفاء اختصّ بذلك واهتمّ له، وعرف مثلَه فاغتمّ به؛ فإنّ الطاعةَ نسبٌ بين أوليائها ، والنعمة سببٌ بين أبنائها ، فلا عجَب أنْ يمسك فى هذا العارض ما يمسّ أولى المشاركة ، ويخصّك من الاهتمام ما خص ذوى المشابكة .

كتابه فى أمر غزاة

وله إليه أيضاً فى أمر غزاة: ورد خبرُكَ أكرمَك الله تعالى بنفوذك لوجهك فيمن جمعهم اللهُ تعالى للسّعْيِ فى سبيله إلى جملتك؛ فأمَلْنا أن يكون ذلك موصولا بأعظم الخيرة مؤدّيا إلى أحسن المغبّة . إلا أنّا أحسسنا من الغزاة الذين بهم تَعْتضد ، وإياهم تستنجد ، فُتورَ نيّات ، وفساد طويّات ؛ وهذا كما علمت بابٌ عظيم يجبُ الاطلاع بالفكر والرأى عليه ، والاحتراس بالجدّ والجهد من الخَطَل فيه. [فسبيلُك أن تتأمّل أمرك بعين استقصاء العَوْرَةِ ، واستدراك الآخرة[1]] ، فإن أنْتَ وجدت فى عدتك

(١) ليس ما بين القوسين فى م .

تمامَ القدرة ، وفى عدّتك مقدار الكفاية ، ولم تَجِدْ نيّات أولئك الغُزاة مدخولة ، ولا عُرَاهم محلولة ، استخرت الله تعالى فى السير بكلّ ما تقدرُ عليه من الحَزْم فى أمرك ، ثم إن تكن الأخرى ، وكان القوم على ما ذكرتَ من كَلال البصائر ، وضَعف المرائر ، عملت على التلوّم لحديثٍ يحدّثك به كِتابُنا هذا إن اجتليت ما ذكرته ، وإن لم تبلغ بلاغة ما اخترته ، فاعتلق بذَيْله[1] .

[من المقامات]

المقامة القزوينية

وهذه المقامة من إنشاء البديع[2] ، قال عيسى بن هشام : غزَوْت الثغر بقَزْوِين سنة خمس وسبعين ، فما اجتزنا حزْناً ، إلاّ هبطنا بَطْناً ، حتى وقف بنا المسيرُ على بعض قُرَاها ، فمالت الهاجرة بنا إلى ظِل أثَلاتٍ فى حِجْرها[3] عين كلسان الشّمْعة أصفى من الدمعة ، تسيح فى الرَّضْرَاض ، سيح النَّضْنَاض[4] ؛ فنِلنا من الماْ كلٍ ما نلنا ، ثم ملنا إلى الظل فقِلْنا[5] ؛ فما ملَكنا النومُ حتى سمِعْنا صوتاً أنكرَ من صوتِ الحمار ، ورَجْعاً أضعفَ من رَجْع الحُوَار[6] ، يَشْفَعُهما صَوْتُ طَبْل كأنه خارج من ماضِغى أسد ؛ فذادَ عن القوم رائد النوم ، وفتحت العيون[7] إليه وقد حالت الأشجار دونه ، وأصغيتُ فإذا هو يقول على إيقاع صوت الطّبل :

أَدعو إلى الله فهل من مُجيبْ | إلى ذَرًى رَحْبٍ وعَيْشٍ[8] خصيبْ

وجنّةٍ عاليةٍ ما تَنى | قطوفُها دانيةً ما تَغيبْ

ياقومُ إنى رجلٌ تائبٌ | من بَلدِ الكُفْر وأمرى عَجيبْ

إنْ أكُ آمَنْتُ فكم ليلةٍ | جَحَدْتُ فيها وعَبَدْتُ الصَّليبْ

(١) فى م : لأعلق بذيله هذه إن شاء الله . (٢) المقامات : ٩٤ .

(٣) الأثل : نوع من الشجر يشبه الطرفاء . وفى المقامات : فى حجرتها .

(٤) الرضراض : الحصى ، والنضناض : الحية التى تتلوى دائما . (٥) قلنا : من القيلولة وهى النوم فى الظهيرة . (٦) الحوار : ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمه .

(٧) فى المقامات : النومتين ، أى العينين . (٨) فى المقامات : ومرعى .

يارُبَّ خِنزيرٍ تمششته ومُشكرٍ أحرزتُ منه النَّصيب (١)
ثم هداني اللهُ وانتاشني من زَلَّةِ الكفر اجتهاد المُصيب
فظلت أُخفي الدِّين في أُسرتي وأعبدُ الله بقلبٍ مُنيب
أسجُدُ للاَّتِ حِذار العِدَى ولاأجي (٢) الكعبة خوفَ الرقيب
وأسألُ اللهَ إذا جَنَّني ليلي وأضناني يومٌ عصيب
ربِّ كما أنك أنقذتني فنجِّني إنيَ فيهم غريب
ثم اتَّخذتُ الليلَ لي مركباً وما سِوَى العزم أمامي نجيب (٣)
وَقَدْكَ مِنْ سيرىَ في ليلةٍ يكادُ رأسُ الطفل فيها يشيبْ
حتى إذا ما جُزْت بحر العمى (٤) إلى حمى الدين نفضت الوَجيبْ
وقلت إذ لاح شِعارُ الهدى نصرٌ من الله وفتحٌ قريب

ولما بلغ هذا البيت قال : ياقوم ؛ وطِئْت والله بلادكم بقلب لا العِشْق شاقه ، ولا الفقرُ ساقه ، وقد تركت وراء ظَهرِى حدائقَ وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وخيلا مُسَوَّمَة ، وقناطير مُقَنْطَرة ، وعُدَّةً وعديدا ، ومراكبَ وعَبيدا ، وخرجتُ خروجَ الحيَّة من جُحْره ، وبرزتُ بروزَ الطائر من وَكْره ، مُؤْثِراً ديني على دُنْياي ، وجامعاً يُمْنَاى إلى يُسراى ، وواصلا سَيْرى بسُراى ، فلو رفعتم النار بشررها ، ورميتم الروم بحَجَرها ، وأعنتموني على غَزْوِها مساعدة وإسعاداً ، ومرافدة وإرفاداً ، ولا شطَطَ ، فكلٌّ قادر على قُدْرَته ، وحَسَب ثرْوَته . ولا أستكثرُ البَدْرَة ، ولا أردّ التمرة ، وأقبل الذّرة ، ولكل مني سهمان، سَهمٌ أُذلِّقه لِلِّقاء ، وسهمٌ أفوّقه بالدّعاء ، وأرشُق به أبوابَ السماء ، عن قَوْس الظلماء .

قال عيسى بن هشام : فاستفزّني رائعُ ألفاظه، وسرَوْتُ جِلْباب النوم، وعدوت إلى القوم ، وإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، بسيفٍ قد شَهره ، وزِيٍّ قد

---

(١) تمششته : أكلت مشاشه، وهي رءوس عظامه اللينة . (٢) في المقامات : ولا برأى .
(٣) في المقامات : جنيب . (٤) في المقامات : حتى إذا جزت بلاد العدا .

نكره ؛ فلما رآني غمزني بعينه وقال : رحم الله امرأً أحسن حَدْسه ؛ وملك نَفْسه ، وأغنانا بفاضل قَوْله ، وقسم لنا من نَيله ! ثم أخذ ما أخذ ، فقمتُ إليه فقلت : أنت من أولاد بنات الروم[1] ؟ فقال :

أنا حالي مع الزما ... ن كحالي مع النسبْ
نسبي في يد الزما ... ن إذا سامه[2] انقلبْ
أنا أمسي من النبيـ ... ـط وأضحي من العربْ

[السؤال بلفظ حسن]

قال سليمانُ بن عبد الملك : ما سألني أحدٌ قط مسألة يثقلُ عليّ قضاؤها ، ولا يخفّ عليّ أداؤها ، بلفظٍ حسنٍ يجمعُ له القلب فهمَه إلا قضيتُها ، وإن كانت العزيمة نفذت في منعه ، وكان الصواب مستقرًّا في دفعه ؛ ضنًّا بالصواب أن يردّ سائله ، أو يحرم نائله .

[ابن رفاعة يتحدث عن النعمان والحارث الغساني]

وقال أبو عبيدة[3] : كان أبو قيس بن رفاعة[4] يَفِد سنةً إلى النعمان بن المنذر اللخمي وسنةً إلى الحارث بن أبي شَمِر الغسّاني ، فقال له الحارث يوما وهو عنده : يابن رفاعة ، بلغني أنك تفضّل النعمان عليّ ! قال : كيف أفضّله عليك أبيتَ اللعنَ ؟ فوالله لقفاك أحسنُ من وَجْهه ، ولأمّك أشرفُ من أبيه ، [ولآباؤك أشرف من جميع قومه][4] ، ولأمسُك أفضل من يومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من بذله ، ولقليلك أكثر من كثيره ، [ولِثمادُك أغزرُ من غديره ، ولكرسيّك أرفع من سريره ، ولجدولك أغمر من بحوره ، وليومُك أفضل من شهوره ، ولشهرُك أشرف من حوله ، ولحولك خير من حقبه ، ولزندك أورى من زَنْدِه ، ولجندك أعزّ من جنده ،

---

(١) في المقامات : أأنت من أولاد النبيط . (٢) في م : ساسه .
(٣) الأمالي : ١ - ٢٥٧ . (٤) في الأمالي : ٣ - ٢٢ : هو قيس بن أبي رفاعة .

ولهزلُك أصوب من جدّه، وإنك لمن غسّان أرباب الملوك، وإنه لمن لخم كثيرى النوكِ .
فعلام أفضِّلُه عليك ؟ وقد روى مثل هـــذا الكلام للنابغة الذبيانى مع النعمان بن المنذر[1]] .

[أربعة أبيات]

[وقال المفضل الضبي[2] : دخلت على المهدى فقال قبل أن أجلس : أنشدنى أربعة أبيات لا تزد عليهنّ ، وعنده عبد الله بن مالك الخزاعى . فأنشدته :

وأشعث قد قدّ السّفارُ قميصَه ... يجرّ شواءً بالعصا غير مُنْضَجِ
دعوتُ إلى ما نابنى وأجابنى ... كريمٌ من الفتيان غير مزَلَّجِ
فتى يملأ الشّيزَى ويُروى سنانَه ... ويضرب فى رأس الكمى المدجّج
فتى ليس بالراضى بأدنى معيشة ... ولا فى بيوتِ الحىّ بالمتولج

فقال المهدى : هذا هو ، وأشار إلى عبد الله بن مالك . فلما انصرفتُ بعثَ إلىّ بألف دينار وبعثَ إلىّ عبد الله بأربعة آلاف .

[أبو الأسود الدؤلى وامرأته]

تنازع[3] أبو الأسود الدؤلى وامرأته إلى زياد فى ابنهما، وأراد أبو الأسود أخذه منها فأبَتْ . وقالت المرأة : أصلح الله الأمير ، هذا ابنى ، كان بطنى وعاءه ، وحجرى فناءه ، وثديى سقاءه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام ؛ فلم أزل بذلك سبعة أعوام. فلما استوفى فصاله ، وكملت خصاله ، واستوكعت[4] أوصاله ، وأمّلتُ نفعَه ، ورجوت عَطفَه ، أراد أن يأخذه منى كَرها ، فآدِنى أيها الأمير؛ فقد أراد قهرى وحاول قَسْرى.
فقال أبو الأسود : هذا ابنى حملتُه قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا

---

(١) من م . (٢) الأمالى : ١ـ٢٦٦ .
(٣) الأمالى : ٢ـ١٢ . (٤) استوكعت : اشتدت .

أقوم عليه فى أدبه ، وأنظر فى تقويم أَوَدِه، وأمنحه علمى وألهمه حلمى ، حتى يكمل عقلُه ، ويستكمل فتاه . فقالت المرأة : صدق أصلحك الله؛ حمله خِفًّا ، وحملته ثِقْلا ، ووضَعه شهوة ، ووضعتُه كرها . فقال زياد : ارْدُدْ على المرأة ولدَها ؛ فهى أحقّ به منك، ودعنى من سجعك .

[عظات ووصايا]

قال الأصمعى : بلغنى أن بعض الحكماء كان يقولُ : إنى لأعظكم، وإنى لكثيرُ الذنوب مسرفٌ على نفسى غير حامد لها ولا حاملها على المكروه فى طاعة الله تعالى . وقد بلوتها فلم أجد لها شكرا فى الرضاء ولا صبرا على البلوى . ولو أن أحداً لا يعظ أخاه حتى يُحكم أمرُه لَتُرِكَ الأمر . . . . (١) ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس ، وتذكيرٌ من النسيان ، واعلموا أن الدنيا سرورُها أحزان، وإقبالها إدبار ، وآخرحياتها الموت . فكم من مستقبِل يوما لايستكمله، ومنتظر غدا لايبلغه، ولو تنظرون الأجل ومسيره لأَبغضتُم الأمل وغرورَه .

جمع عبدالملك أهله وولده فقال: يابنى أميّة، ابذُلوا نداكم، وكفُّوا أذاكم، وأَجملوا إذا طلبتم ، واغفروا إذا قدرتم ، ولا تلحفوا إذا سألتم، ولا تبخلوا إذا سُئلتم ؛ فإن العفو بعد القدرة ، والثناء بعد الخبرة ؛ وخير المال ما أفاد حمدا ونفى ذما .

[وصف هشام بن عبد الملك بصفته]

ودخل سعيد الجمفرى على هشام بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى أريد أن أصفك بصفتك ، فإن انحرف كلامى فلهيبة الإمام ، واجتماعِ الأقوام ، وتصرف الأعوام ، ولربّ جوادٍ عثر فى أرسانه وكبا فى ميدانه ، ورحم الله امرأ قصَّر من لفظه ، وألصق الأرض بلحظه ، ووعى قولى بحفظه . فخاف هشام أن يتكلّم فيقصّر عن جائزة مثله فعزم عليه فسكت .

(١) بياض بالأصل .

[حاتم يتحمل الديات]

قال(١) عبد قيس بن خُفاف البرجمى لحاتم الطائى وقد وفد عليه فى دماء تحملها وعجز عن البعض : (إنه وقعت بيني وبين قومى دماء فتوا كلوها ، وإنى حملتها فى مالى وأملى فقدّمت مالى وكنت أملى ، فإن تحملها فرُبَّ حقّ قضيته وهمٍّ قد كفيتَه)(٢)، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمُم يومك ولم أيأس من غدك](٣) .

[ثقيـــل]

قال أبو على العتابى : حدثنى الحمدونى قال : بعث إلىّ أحمد بن حَرْب المهلبى فى غداةٍ ، السماء فيها مُغيمَة ، فأتيته والمائدةُ موضوعةٌ مغطّاة ؛ وقد وافَتْ عجاب المغنّية ، فأَكَلْنَا جميعاً ، وجلسنا على شرابنا ، فما راعنا إلا داقٌّ يدقّ الباب ، فأتاه الغلام فقال : بالباب فلان ؛ فقال لى : هو فتًى من آل المهلب ، ظريف ، نظيف ، فقلت : مانريد غير مانحن فيه ، فأذِن له ، فجاء يتبختر وقدّامى قَدَحُ شراب فكسره ، فإذا رجلٌ آدَمُ(٤) ضَخْم ، قال : وتكلم فإذا هو أعيا(٥) الناس . فجلس بينى وبين عُجاب ، قال : فدعوت بدَواة وكتبت إلى أحمد بن حرب :

كدّر الله عيشَ من كدّر العَيْـــشَ فقد كان صافيا مُستطَابَا
جاءنا والسماءُ تهطل بالغَيْـــث وقد طابقَ السماعُ الشرابا
كسر الكاسَ وهْى كالكوكب الدُّ رِّىّ ضمَّت من المُدام رُضَابا(٦)
قلت لما رُميتُ منه بما أكـــره والدهرُ ما أفَادَ أصابا
عجَّل الله نقمةً لابن حربٍ تدعُ الدارَ بعد شهرٍ خرابا

ودفعتُ الرقعة إلى أحمد . فقال: [ويحك](٧)! الانفسْتَ فقلتَ بعدحول ؟ فقلت :

---

(١) الأمالى: ٣–٢١ . (٢) مكان مابين القوسين الصغيرين بياض بالأصل ، فنقلنا هذه العبارة من الأمالى . (٣) من صفحة ١٠٤٣ إلى هنا زيادة من م .
(٤) آدم : أسمر . (٥) فى م : أغثر . (٦) فى م : لعابا . (٧) من م .

أردت أقول بعد يوم ، فخفت أن تصيبني مضرّة ذلك . وفطن الثقيل فنهض ، فقال : آذيتَه ! فقلت : هو آذاني .

[طيلسان ابن حرب]

وقال الحمدونى فى طيلسان ابن حرب :

ولى طيلسانٌ إن تأمّلت شخصَهُ تيقنت أنّ الدهر يَفْنَى وينقرضْ
تصدَّعَ حتى قد أَمِنْت انصداعَهُ وأَظهرتِ الأَيامُ من عمره الغَرَضْ
كأنى لإشفاقى عليـــه ممرِّضٌ أخا سَقَم مما تَمادَى به المرَضْ[١]
فلو أنَّ أصحابَ الـكلام يرونهُ لَمَارَوْكَ فيه وادَّعَوْا أنه عَرَضْ

[وقال فيه :

لطيلسان ابن حرب نعمةٌ سبقَتْ بها تبيّنَ فضلى فهو متّصِلُ
قد كنتُ دهرا جهولاً ثم حنّكَنِى عليه خوفى من الأقوام إن جهلُوا
أظل أجتنب الإخوانَ من حذر كأنما بىَ جرحٌ ليس يندملُ
يا طيلساناً إذا الألحاظ جُلْنَ به فعلْنَ فعلَ سهام فيه تنتضِلُ
لئن بليتَ فـكم أبليتَ من أمم تَتْرَى أبادتهم أيامُك الأولُ
وكم رآك أخ لى ثم أنشدنى ودّع هريرة إن الركب مرتحل][٢]

وقال فيه[٣] :

يابْنَ حرب كسوتَنِى طيلساناً أَمْرضَتْه الأوجاعُ[٤] فهو سقيم
فإذا ما لبسته[٥] قلتُ سُبْحَا نَكَ مُحْيِي العظام وهى رميم
طيلسانٌ له إذا هبت الريـــحُ عليه بمنكبيَّ هميم

---

(١) فى م: إذا سقم تمادى . (٢) من م . (٣) وفيات الأعيان: ٣ــ٣٧٤ .
(٤) فى الوفيات : أنحلته الأزمان وهو . (٥) فى الوفيات : فإذا مارفوته .

أذكرتنى بيتاً لحسّان فيـهِ حُرَقٌ للفؤاد حين أقوم
لو يَدِبُّ الحولىُّ من ولد الذّ رِّ عليها لأَندَبَتْها الـكُلومُ[١]

وقال أيضاً :

ياقاتلَ اللهَ ابنَ حرب لقد أَطال إتعابى على عَمْدِ
بطيلسانٍ خِلْتُ أنّ البلى تطلبه بالوِتْر والحِقْدِ
أجدُّ فى رَفْوِى له والبلَى يلهو به فى الهَزْلِ والجد
ذكّرنى الجثة[٢] لما غدَا أصحابُها منها على حَرْدِ
أن أتْهَمَ الرّفّاء فى رفوه مضَى به التمزيقُ فى نَجْدِ
غنيته لما مضى رَاحلاً ياواحِدِى تتركنى وحدى !

وقال أيضا فيه :

إنَّ ابنَ حرب كسانى ثوبا يُطيل الخرافَهْ
أظلّ أدفع عنه وأَتّقى كلَّ آفَه
فقـد تعلمت من خَشْـيتى عليه الثقافه[٣]

وقال أيضاً :

طيلسانٌ مازال أقدم فى الدهـ ـر من الدهر مالِرَفْوِيهِ حيله
وترى ضُعفه كضعف عجوز رَثّةِ الحال ذات فقر مُميله
غمرته الرقاع فهو كمِصْير سكنته نُزّاعُ[٤] كلِّ قبيله
إن أزَيّنه يابن حرب بذمى فجرير قد زانَ قبلى بجيلَه

جرير بن عبد الله البجلى وله صحبة [رضى الله عنه، وقد][٥] قال غسان فى هجائه
جريرا :

---

(١) البيت لحسان فى ديوانه : ٣٧٧ . (٢) فى م : الجنة .
(٣) فى ط : التفافه . (٤) النزيع الغريب كالنازع وجمعه نزاع. (٥) من م .

لعمرى لئن كانت بجيلة زانَها جريرٌ لقد أخزى كليبا جريرها[1]

وقال الحمدونى فى معناه الأول[2]:

يابْنَ حرب إنى أرى فى زوايا بيتنا مثل ما كسوتَ جماعَهْ

طيلسانٌ رَفَوْته ورفوت الر فو منه حتى رَفَوْت رِقاعه

فأطاع البِلى وصار خليعا[3] ليس يعطى الرفّاء فى الرفو طاعه

فإذا سائلٌ رآنى فيـهِ ظنّ أنى فتى من أهل الضّياعه[4]

وقال فيه :

طَيْلَسانٌ لابْنِ حربٍ يتداعى لا مِساسا

قد طوَى قَرْناً فقرناً وأناسا فأُناسا

لَبِس الأيام حتّى لم تدع فيـــه لِباسَا

غاب تحت الحسّ حتّى لا يُرى إلا قياسَا

[من الرسائل]

لابن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى : كتابى وأنا بحالٍ لو لم ينغّص[5] منها الشوقُ إليك ، ولم يُرَنِّق صفوها النِّزَاعُ نحوك، لعدَدْتُها من الأحوال الجميلة ، واعتددت حظّى منها فى النعم الجليلة ؛ فقد جمعتُ فيها بين سلامةٍ عامّة ، ونعمةٍ تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصَلَاح، وفى سعْيِى بنجاح ، لـكن ما بقى أن يَصْفُوَ لى عيش مع بُعْدِى عنك، ويخلو ذَرْعى مع خلوّى منك، ويَسُوغ لى مطعم ومشرب، مع انفرادى دونَك ، وكيف أطمعُ فى ذلك وأنتَ جزءٌ من نفسى ، وناظمٌ لشَمْلِ أُنْسِى ، وقد حُرِمْت رؤيتَك، وعَدِمْت مشاهدتَك ، وهل تسكنُ نفس متشعّبة ذاتُ انقسام ، وينفع أُنس مُتَشتّت بلا نِظام ، وقد قرأت كتابك جعلنى اللهُ تعالى فداءك ؛ فامتلأتُ سرورا بملاحظة خطِّك ، وتأمُّل تصرفك فى لفظك ، وما أقرِّظُهما فكلُّ خصالك مقرّظٌ عندى ، وما أمدحُهما فكلُّ أمرِك ممدوح فى ضميرى وعَقْدِى ،

(١) فى ط : أخزى جريراً كليبها . (٢) وفيات الأعيان : ٣-٤٣٥ . (٣) فى ط : خليقا .
(٤) فى م : الصناعة . (٥) فى م : والحال لولم يغضض منها الشوق إليك .

وأرجو أن تكونَ حقيقةُ أمرك موافقةً لتقديرى فيك ، فإن كان كذلك وإلا فقد غطّى هواكِ وما ألْقَى على بَصَرِى .

رسالة لعضد الدولة يهنئه بولدين

وله إلى عضد الدولة يهنئه بولدين : أطال اللهُ بقاءَ الأمير الأجلّ عضد الدولة ، دام عزّه وتأييده ، وعلوُّه وتمهيده ، وبَسْطَتُه وتَوْطِيده ، وظاهرَ له من كل خير مزيده ، وهنّأه ما اختصّه به على قُرْبِ الميلاد ، من توافر الأعداد ، وتكثّر الأمداد ، وتثمّر الأولاد ، وأراه من النجابة فى البنين والأسباط ، ما أراه من الكرم فى الآباء والأجداد ، ولا أَخْلَى عينَه من قرّة ، ونفسه من مَسرّة ، ومتجدّد نعمة ، ومستأنف مكرمة ، وزيادةٍ فى عدده ، وفَسّح فى أمده ، حتى يبلغ غايةَ مَهلِه[1] ، ويستغرق نهاية أَمَله ، ويستوفى ما بعد حُسْنِ ظنّه ؛ وعرفه اللهُ السعادةَ فيما بشّرَ عَبْده من طلوع بدرين هما انبعثا من نورِه ، واستنارا من دُوره ، وحفَّا بسريره ، وجعل وفودَهما متلائمين ، وورودهما تَوْأَمين ، بشيرين بتظاهُر النعم ، وتواتر القِسم ، ومؤذِنَيْن بترادفِ بنين [يغصُّ][1] بجمعهم مُنْخَرق الفضَاء ، ويشرق بنورهم أُفق العلَاء ، وينتهى بهم أَمَدُ النماء ، إلى غاية تفوتُ غايةَ الإحصاء ، ولا زالت السبلُ عامرة ، والمناهلُ غامرة ، يصافِحُ صادِرهم بالبشر [الوارد][2] ، وآملهم بالنيل القاصد .

***

للمتنبي يذكر ابنى عضد الدولة

وقال أبو الطيب وذكر أبا دلف وأبا الفوارس ابنى عضد الدولة[3] :

فلم أر قبله شِبْلَىْ هِزَبْر ... كشِبْلَيْهِ ولا فرسَىْ رِهانِ

فعاشا عيشةَ القمرينِ يُحيَا ... بضَوئِهما ولا يتحاسدانِ

ولاملَكا سِوى مُلْكِ الأعادى ... ولا وَرِثا سِوَى مَنْ يَقْتُلانِ

[وكانا ابنا عدو كاثراه ... له ياءَىْ حروفِ أُنَيْسِيانِ][3]

دُعاءٌ كالثَّناءِ بلا رِياءٍ ... يُؤَدِّيه الجَنانُ إلى الجِنانِ

***

(١) المهل : السكينة والرفق ، والمهل ــ محركة : التقدم فى الخير . (٢) من م .
(٣) ديوانه : ٤ ــ ٢٦٠ .

رسالة الإسكافى فى استبطاء وتهنئته

وكتب أبو القاسم الإسكافى عن نوح بن نصر إلى وَشْمَكِير بن زياد فى استبطاء وتهنئة : وصل كتابُك ناطقاً مفتتَحه بجميل العُذْر ، فيما نقَلَ من المكاتبة ، وبعث من المطالعة ، ومُعْرِباً مختتَمُه عن جُملة خبرِ السلامة ، التى طبّقت أعمالك ، والاستقامة التى عمّت أحوالَك ، وفهمناه ، ولولا أنَّ مواتاتك ـ أيدك الله تعالى ـ فيما تأْتى وتَذَر ، وترتئى وتدبّر عادةٌ لنا أورثتناها قرابةُ مابين وفاقنا ووِفاقك ، ومَلاءمة حال أَلجأتنا لحالِ استحقاقك ؛ لكنا ربما ضايقْنَاكَ فى العُذْر الذى اعتذرتَ به ، وإن كان واضحاً طريقُه ، وناقَشْنَاكَ فيه ، وإنْ كان واجباً تَصْدِيقه ، لفرْطِ الأُنْس [يخلُص إلينا](١) بكتابك ، والارتياح بخطابك ، اللّذين لا يؤدِّيَان إلا خبرَ سلامةٍ توجبُ الإحماد ، فنحن نأبى إلاَّ إجراءَ تلك العادة ، كما عودْتَنا ، وإلاَّ التجافى عمّا تريد فيه من الزيادة التى أردْتَها(٢) ، ولاندع مع ذلك أن يصل تَسويفُك إلى الإقلال الذى اخترته بإحمادك على الكتاب إذا كتبته توخّياً لأن تكون مؤهلا فى الحالين لخالصة التنويل ، مقدماً فى درج التفضيل ، موفىً حقائق الإيثار ، موقىً لواحِقَ الاستقصار ، ونستعين بالله على قضاء حقوقك ، وعلى جميل النية فى أُمورك ؛ فإن ذلك لا يُبلَغ إلا بقوّته ، ولا يُدرَك إلا بحَوْله ، وأمابعد فقد عفّى ـ أعزّكَ الله تعالى ـ ماأفاد كتابك بخبَر السلامة من أنسه ، على آثارِ مَنْ سبقه بخبر العلة من وحْشَة ، فأَوجبتنا مقابلة موهبة الله تعالى فى المحبوب صنع ، والمكروه دفع ، بالشكر نستقبلُ به إخلاصَ المواهبِ لنا ، ونستديمُ به أخصَّ المراتبِ بنا ، فرأْيك ـ أعزّكَ الله تعالى ـ فى المطالعة بذكر تستمدّه فى القوة والصحة من مزِيد ، والطاعة والكفاية من توفيق وتسديد ، موفقاً إن شاء الله تعالى.

---

(١) من م . (٢) فى م : عما تريد فيه للتى .

ألفاظ لأهل العصر فى ضروب التهانى وما ينخرط فى سلكها

من ذلك فى التهنئة بالمولود وما يجرى مجراها من الأدعية ، وما يختصّ منها بالملوك أو الرؤساء

مرحبا بالفارس المصدِّق للظنون، المقرِّ للعيون ، المقبل بالطالع السعيد ، والخير العَتيد ، أنجب الأبناء لأكرم الآباء . أنا مستَبْشِر بطلوع النجم الذى كنّا منه على أَمَل ، ومن تطاولِ استِسْرَارِه [الذى كنا منه][١] على وَجَل ، إن يشأ الله يجعله مقدمة إخوة فى نَسق كالفريد المتَّسق. قدطلع فى أُفق الحرية[٢] أسعدُ نجْم، [ونجم][١] فى حدائق المروءة ، أذكى نبت . يا بُشْرَاى بطلوع الفارس الميمون جدّه ، المضمون سَعْده ، عليه خاتَمُ الفضل وطابَعُه ، وله مَيْسَمُ الخير وطالِعُه . الحمد لله على طلوع هذا الهلال الذى نَراه إن شاء الله بدرا لا يضمرُ السِّرَارُ بهاه ، ولا يبلغ المحَاقُ سَناءه وسناه ، قد بَشَّرت قوابله بالإقبال وعُلو الجدّ ، واقترن قدومُه بالطالع السَّعْد . هنَّأك الله تعالى بقوّة الظَّهْر واشتدَاد الأَزْر . الفارس المكثِر لسواد الفضل ، الموفر لحالِ الأَهل ، المستوفى شرفَ الأرومة ، بكرم الأُبوة والأُمومة ، وأَبقاه حتى نَراه ، كما رأينا جدّه وأباه . عرفت آنفاً ما كثّر الله به عددَه ، وشدَّ عَضُدَه ، من طلوع الفارس الذى أَضاء له الأُفق، وطال به باعُ السعادة ، فعظمت النُّعْمَى لدىَّ وأَوردتِ البُشرى غاية المُنَى علىّ . مرحبا بالفارس القادم ، بأَعظم المغانم ، سَوِىِّ الخلق [سامِى العِرق][١] ، يلوحُ عليه سيماء المجد، وتتجاذبه أطراف الملك والحمد. وردت البُشرى بالفارس الذى أَوْسَع رباع المجدِ تأهيلا، ومَنَاكب الشرفِ ارتفاعاً، وأَعْضَاد العزّ اشتداداً . وأتتنى بُشرى البشائر ، والنعم المحروسة على النظائر فى سُلَالَة العز وسليله ، وابن منبر الملك وسريرِه ، والأمير القادم بغُرَّةِ المكارم ، الناهض إلى ذرْوَة العلياء ، بآباء أُمراء ، وملوك عظماء . مرحبا بالفارس المَأْمول لشدِّ الظهور ،

---

(١) من م ، ا . (٢) فى ط : الحجرة .

المرجوّ لسدّ الثُّغور . الحمد لله الذى شدَّ أَزْرَ الدولةِ ، ونظم قلادة الإمرة ، ودعم سَرِيرِ العزَّة ، ووطّد منابرَ المملكة ، بالقمر السعد ، وشِبل الأسد الوَرْد . قد تنسَّمَت المكارمُ والمعالى ، وتباشرت الخطوب والقوافى ، بالفارس المأمولِ لشدّ أَزْرِ الملك ، وسدِّ ثَغْرِ المجد ، وتَطاولَ السريرُ شَوْقاً إليه ، واهتزَّت المنابرُ حرصاً عليه . قد افتَرَّ جَفْنُ العالَم عن العينِ البصيرة ، واستغْرِب مضحَكُه عن اللّمعة المُنيرة؛ أما الأمير فالتاج لجبينه يبهى، والركاب بقدمه تزهى، اللهم أرِنى هذا الهلالَ بَدْراً قد عَلَا الأقدار قدراً، وبلّغه الله فيه من مُنَاه، حتى نراه وأخاه ، مُنِيفين على ذرْوَة المجد، آخذين من أوفر الحظْوَةِ من أعلى الجدّ .

ولهم : والله يمتّع به ، ويرزُقُ الخيرَ منه ، ويحقّقُ الأملَ فيه ، عرف الله تعالى آثار بَركة المولود المسعود ، وعضد الفضل بالزيادة فى عددِه ، وأقرّ عَيْنَ المجد بالسّادة من ولده . عرفه الله تعالى من سيادة مقدمه مايجمعُ الأعـــداء تحت قدمه . عمرك اللهُ تعالى حتى تَرى هذا الهلال قمراً باهراً ، وبَدرا زاهراً ، يَكثُر به عـدد حفَدتك ، ويعظم معه غُصّة حَسَدَتِك ، من حيث لاتَهْتَدِى النوائبُ إلى أغراضكم، ولا تطمع الحوادثُ إلى انتقاصكم ، متّعك الله بالولد ، وجعله من أقوى المدد ، ووصله بإخوة متوافرى العدَد، شادّى الأَزْر والعَضُد . هناك الله تعالى مَولده، وقرن باليُمْن مَوْرِدَه ، وأراك من بنيه أولادا برَرَة [وأسباطا وحفدة وعرفك برَكة قدُومه ونجح مقدمه وسعد طالعه ، ويمن طائره ، وعمَّرك الله][1] حتى نرى زيادة الله منه كما رأيتها منه به ، واللهُ يبلّغك أفضل ما تقسمه السعود ، ويَعلو به الجدُود، حتى يستغرق مع إخوته مساعى الفضل ، ويَشيدُوا قواعِدَ الفخر ، ويزحموا صُدور الدَّهر ، ويضبطوا أَطراف الأرض ؛ والله يَحْرُسه من نواظر الأيام أَنْ تَرْنُو إليه ، وأطماع الليالى أنْ تتوجه عليه ، حتى يستقلّ بأعباء الخدمة ، وينهض بأثقالِ الدعوة، ويخفّ فى الدفع عن البَيْضَة[2] ، ويُسْرِعَ فى حماية الحَوْزَة ، واللهُ يديمُ لمولانا من

---

(١) من م . (٢) البيضة : حوزة كل شىء ، وساحة القوم .

العُمْر أكلاه ، ومن العزّ أهناه ، ليُطبّقَ العالَم بفضله وعدْله ، ويدبّرَ الأرض بالنجباء من نَسْله .

ولهم فى ذكر المولود العلوى

غُصْن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شجرُه أهل أنْ يَحْلوَ ثمرُه ، وفرْعٌ بين الرسالةِ والإمامةِ مُنْتَمَاه ، خليق أن يُحْمَد بَدْؤُه وعُقْبَاه . مرحباً بالطالع بأيمن طالع ، ومن هو من أشْرَفِ المناصب والمنابع ، حيث الرسالة والخلافة ، والإمامة والزّعامة ، أبقاه اللهُ تعالى حتى يتهنّأ فيه صوانع المنن ، ويعدّ حُسْنُه من بنى الحسن .

ولهم فى التهنئة بالإملاك والنفاس وما يقترن به من الأدعية

من اتّصلَ بمولاى سببُه ، وشرف به مَنْصبه ، كان حقيقا بالرغبة إلى الله تعالى فى توفيره وتكثيره ، وزيادته وتَثْمِيره ، لتزكُوَ منابتُ الفضل ، وتَنْمى مغارِسُ النبل والفخر ، وتطيب معادِنُ المجد . بارك الله لمولاى فى الأمْر الذى عقده ، وأحمده أباه وأسعده ، وجعله موصولا بنَمَاءِ العَدد ، وزكاءِ الولدِ ، واتصال الحَبْل ، وتكثير النسل . واللهُ تعالى يخير له فى الوُصْلة الكريمة ، ويقرنها بالمِنْحَةِ الجسيمة . قد عظّم الله بَهْجَتِى وضاعف غِبْطَتِى ، بما أتاحه من سرور ممهّد بجمع شمل مجدّد ، فلا زالت النعم به محفوفة ، والمَسَارُّ إليه مصروفة جعل الله هذه الوصلة أكيدة العُقْدة ، طويلة المدّة ، سابغة البركة والفَضْل ، طيبة الذّرية والنّسْل . وصلَ الله هذا الاتصال السعيد ، والعقد الحميد ، بأكمل المواهب ، وأحمد العواقب ، وجمع شَمْل مَسرّتك ملتئما ، وسببَ أُنسك منتظما . عرّفك الله تعجيلَ البركات ، وتوالِى الخيرات ، ولا أخلاك اللهُ من هذه الوُصْلة [من التهانى بنجباء الأولاد ، وكَبَتَ بكثرة عددك الحساد . هناك الله مولاى الوُصلةَ][1] . بكثرة العدد ، ووفور الوَلد ، وانبساط الباع واليد ، عالِىَ القدر والجد .

---

(١) من م .

ولهم فى التهنئة بالولاية والأعمال ومايتّصلُ بها من الأدعية

للوزراء والقضاة والعمال

عرفت أَخبارَ البلدِ الذى أَحسنَ اللهُ إلى أهله ، وعطف عليهم بفضله ، إذ أُضيف إلى ما يُلاحِظه مولاى بعين إيالته ، ويشفى خَلَله بفَضْلِ أصالته. أنا من سرّ بالولايةَ يلبسُ مولاى ظِلا لَها ، ويسحَبُ أَذيالها ، بنعم مستفادَة . ورُتب مستزادة ، سرورى بما أعلمه يكسبه الثناء فى كل عملٍ يدبّره ، من أحدوثة جميلة ، ومثوبة جزيلة، ويُؤثِرُه من إحياء عدل ، وإماتة جَوْر ، وعمارةٍ لسُبُلِ الخيرات ، وإيضاحٍ لطرق المكرمات. سيدى يُوفِى على الرتب التى يُدْعَى لها بحلوله ؛ فهنيئا لها بتجمّلِها بولايته، وتحلّيها بكفايته. الأعمال إن بلغت أقصى الآمال، فكفايةُ مولاى تتجاوزُها وتتخطاها، والرتبُ وإن جلّت قدراً ، وكبرت ذِكْراً ، فصناعته تَسْبِقها وتَنْسؤُها ، غير أنّ للتهانى رسما لابدَّ من إقامته ، وشرطا لا سبيلَ إلى نَقْض عادته . الأعمال وإن بلغت أقصى الآمال فكفايةُ سيدى توفى عليها إيفاء الشمسِ على النجوم ، وترتفع عنها ارتفاع السماء على التخوم . سيدى أرفع قَدْراً وأَنْبَه ذِكراً ، من أَنْ نهنِّئَه بولاية وإن جلَّ أمرُها وعظم قَدْرُها . قد أُعطِيتْ قوس الوزارة باريها ، وأضيفت إلى كُفْئِها وكافيها ، وفُسِخَ فيها شَرْط الدنيا الفاسد فى إهداء حظوظها إلى أَوْغادها ، ونُقِض بها حكمها الجائر فى العدول بها عن نُجَباءِ أولادها . الدنيا أعزَّ اللهُ الوزير مهنّأة بانحيازها إلى رَأْيه وتنفيذه ، والممالكُ مغبوطةٌ باتصالها إلى أمره وتدبيره . قد كانت الدّنيا مستشرفةً لوزارته ، إلى أَنْ سعِدَت بما كانت الأيامُ عنه مُخْبِرة ، وحَظِيَتْ لما كانت الظنون به مبشّرة . أَنا أهنّئ الوِزارة بإلقائها إلى فَضْلِه مقادَتها ، وبلوغها فى ظلّه إِرادتها ، وانحيازها من إيالته إلى واضحة الفخر ، وتوشّحها من كفايته بغرّة سائلةً على وَجْه الدهر . الحمدُ لله الذى أَقرَّ عينَ الفضل ، ووطَّأَ مِهادَ المجد ، وترك الحسّاد يتعثّرون فى ذيول الخَيْبَة ، ويتساقطون فى فضول الحَسْرَة ، وأَرانى الوزارة

وقد استكمل الشيخُ إجلالها ، ووفّى لها جمالها :

فلم تكُ تصلحُ إلاّ لهُ ولم يَكُ يَصْلُح إلاّ لهَا

والقاضى عَلَم العلم شرقاً وغرباً ، ونَجْم الفضل غوْراً ونَجداً ، وشَمْسُ الأدبِ برًّا وبحراً ، فسبيلُ الأعمالِ أن تهنَّأَ إذا رُدَّتْ إلى نظرِه الميمون ، وعُصِبت برأيه المأمون . [أسعدالله القاضى بما جدّ][1] له من رأى مولانا وارتضاه ، واعتمده لأجل أمر بالشريعة وأمْضَاه ، وأسعد المسلمين والدين بما أصاره إليه ، وجمع زمامه فى يديه. عرّف الله سيدى من سعادة عمله أفضلَ ما ترقّاه بأمله ، ولقّاه من مناجح أمْرِه أفضل ما انتَحَاهُ بفكره . خار الله له فيما تولاّه وتطوّقه ، وبلَّغه فى كل حال أملَه وحققه ، وعرفه من يُمْنِ ما باشره تدبيره الخير [والخِيرَة][1] والبركات الحاضرة والمنتظرة، وجعل المناجح إليه أرسالا ، لا تملّ تَوَاليا واتّصالا . أسعده اللهُ أفضلَ سعادة قُسِمَتْ لوالِى عمل ، وأسهم له أخصَّ بركة أُسْهِمَت لمُسَامِى أمل ، أحضر اللهُ السداد عَزْمَه ، والرشادَ همّه ، وكنفه العِصْمَة وأيّده ، وقَرَنه بالتوفيق ولا أفرده . هنأه الله تعالى الموهبة التى ساقَها إليه، ومدّ رُوَاقَها عليه؛ إذ كانت من عقائل المواهب مُسْفِرةعن خصائص المراتب ، وحلّت فيه محلّ الاستحباب لاالإيجاب ، والاستحقاق دون الاتفاق . هنأ اللهُ نعمته الفضل الذى الولاية أصغر آلاتها ، والرياسة بعض صفاتها .

ولهم فى التهنئة بذكر الخِلَع والأجبية

أهنّئُ سيدى مزيد الرِّفْعَة ، وجديد الخِلْعَة ، التى تَخْلَعُ قلوبَ المنازعين ، واللواء الذى يلوى أَيْدِى المنابذين ، والحظّ الذى لو امتطاه إلى الأفلاك لحازَها ، أو سَامَى به الجَوْزاء لجازَها . بلغنى خبرُ ما تطوّعت به سماءُ المجد ، وجادت به أَنواءُ الملك ، فصن من الخلع أَسناها ، ومن المراكب أبهاها ، [ومن السيوف أمضاها ،

---
(١) من م ، ا .

ومن الأفراس أجْرَاها ، ومن الإقطاعات أنْماها][١] . لبس خلعته متجلّلا منها ملابسَ العِز ، وامتطى فرسَه فارعا به ذِرْوَة المجد ، وتقلّد سيفه حاصدا بحده طُلَى[٢] أعدائه وغَامِطِي نعمائه، واعتنق طوقه متطوّقاً عزّ الأبد ، واعتضد بالسوارين المودِيَيْنِ بقوة الساعد والعَضُد، وسَاسَ أولياءَه ولواءُ العزِّ عليه خافق ، وهو بلسان الظَّفَر والنَّصْرِ ناطق . قد لبس خلعته التى تمد بها [رفعته][٣] ، وامتطى حُمْلَانه التى[٤] واصل بها إحْسَانه ، وتمنطق بحُسامه الذى ظاهر أبواب إنعامه ، وتختّم بخاتميه اللذين بسطا مِنْ يديه ؛ ووقّع من دَوَاته التى أعْلَتْ من درجاته . قد زرَّرت عليه سماءُ الشرف عُرَى الخلعة، التى تتراءى صفحاتُ العزّ على أعطافها، وتُمترَى مزايا المجدِ من أطرافها، وركب الحملان الذى تتناول قاصيتي المنى من ناصيته ، والمركب الذى تُستَخْذى حُلَى الثريا لحليته ، والسيف والمنطقة الناطقان عن نهاية الإكرام الناظمان قلائد الإعظام . خلع تخلع قلوب الأعداء عن مَقَارِّها ، وتعمر نفوس الأولياء بمسارّها ، وسيف كالقضاء مَضاءً وحدًّا، ولواء يَخْفق قلوب المنازعين إذا خفق، وحملات تصدع منكب الدّهْرِ إذا انطلق .

ولهم فى التهنئة بالقدوم من سفر

أُهنِّئُ سيدى و نَفْسِى بما يسرَّه اللهُ من قدومه سالما ، وأشكره على ذلك شكراً قائما ؛ غَيْبَةُ المكارم مقرونةٌ بغيبتك ، وأَوْبَةُ النعم موصولةٌ بأَوْبتك ؛ فوصل الله تعالى قدومك[٥] من الكرامة ، بأضعاف ما قرن به مسيرَك من السلامة . وهناك أيامَك ، وبلّغك محابّك ؛ ما زِلْتَ بالنيَّة مسافراً ، وباتّصال الذكر والفكر لك ملاقيا ، إلى أن جمع الله شَمْلَ سرورى بأَوْبَتك، وسكّن نافِرَ قلبى بعودتك ، فأسأل

---

(١) ليست فى م . (٢) الطلى : الأعناق أو أصولها . (٣) من م ، ا .
(٤) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة ، وفى م : الذى .
(٥) فى م ، ا : وصولك .

الله أن يسعدك بمقدمك سعادةً تكون فيها [بالإقبال][1] مُقَابلا، وبالأمانى ظافرا، ولا أوحش منك أوطانَ الفضل ، ورِبَاعَ المجد ، بمنّه وكرمه .

[من أحسن الشعر]

قال الهَيْثَم بن عدى[2] : أنشدنى مجالد بن سعيد شعراً أعجبنى فقلت : من أنشدكه؟ قال : كنا يوما عند الشعبى فتناشدنا الشعرَ فلما فرغنا قال : أَيكم يحسن أن يقولَ مثلَ هذا . وأنشدنا :

خليلىَّ[3] مهلاً طالما لم أقلْ مَهْلَا ... وما سرفا مِ الآن قلت ولا جهلا
وإنَّ صِباَ ابن الأربعين سَفَاهةٌ ... فكيف مع اللات مُثِلْتُ بها مَثْلا
يقول لىَ المُفتِى وهنَّ عشيةً ... بمكّة يَسْحَبْن المُهَدَّبة السُّحْلَا
تق الله لا تنظرْ إليهنَّ يا فتى ... وما خلتُنى بالحج ملتمِساً وَصْلا
فوالله لا أنسى وإن شَطَّتِ النوى ... عرانينَهن الشمَّ والأَعينَ النُّجْلاَ
ولا المسكَ فى أعرافهن ولا البُرىٰ ... جَواعلَ فى أوساطها قَصَباً خدْلا
خليلىَّ لا والله ما قلت مَرْحباً ... لأوّل شَيْبَاتٍ طَلَعْنَ ولا أهلا
خليلىّ إن الشيب داء كرهتُهُ ... فما أَحسن المَرْعَى وما أقبح المحلا

قال مجالد : فكتبت الشعر ثم قلنا للشعبى: من يقوله ؟ فسكت فحسبنا أنه قائله[4] .

[المراثى التى قيلت على قبر عمرو بن حممة الدوسى]

قال الشرقى[5] بن القطَامى : لما مات عَمْرو بن حُمَمة الدَّوْسى، وكان أحد من تتحاكمُ العربُ إليه ، مرَّ بقبره ثلاثة نفر من أهل المدينة قادمين من الشام: الهِدْم بن امرىْ القيس بن الحرث بن زيد ، وهو أبو كُلْثوم بن الهِدْم الذى نزل عليه النبى صلى الله

---

(١) من م ، ا . (٢) الأمالى : ٢-١٢٤، التنبيه : ١٠٥ . (٣) فى الأمالى : أعينىّ .
(٤) فى التنبيه : صفحة ١٠٥ هذا الشعر أشهر بالنسبة إلى القحيف العقيلى من أن يرتاب به مرتاب .
(٥) الأمالى : ٢ - ١٤٣ ، اللآلىء : ٧٦٧ .

عليه وسلم، وعتيك بن قيس بن هَيْشَةَ بن أمية بن معاوية، وحاطب بن قيس بن هيشة ابن معاوية. وحاطب بن هيشة الذى كانت بسببه حرب حاطب ، فعقروا رواحلهم على قبره ، وقام الهِدْم فقال :

لقد ضمَّتِ الأثراء منك مُرَزَّأً — عظيم رَمادِ النارِ مشترك القدْرِ
إذا قلت لم تترك مقالا لقائل — وإن صُلْتَ كنتَ الليث تحمى حِمَى الأجر
حليما إذا ما الحلمُ كان حزامةً — وقوفاً إذا كان الوقوف على الجمر
ليبكِكَ من كانت حياتُك عِزَّهُ — وأصبح لما مُتَّ يغضى على الصُّغْر
سقى الأرضَ ذات الطُّول والعرض مُثْجِمٌ — أحمّ الذُّرى واهى العُرَى دائمُ القَطْر
ومابى سقيا الأرضِ لكنَّ تربةً — أضلّك فى أحشائها ملْحَد القبْر

وقام عتيك بن قيس فقال(١) :

برَغْم العلا والجودِ والمجد والندى — طواكَ الرَّدَى ياخيرَ حافٍ وناعلِ
لقد غال صَرْفُ الدهر منك مرزَّأ — نهوضاً بأعباء الأُمور الأثاقل
يضُمُّ العُفاة الطارقين فِناؤُهُ — كما ضمّ أُمّ الرأس شعبَ القبائل
ويَسْرُو دجا الهيجا مضاء عزيمةٍ — كما كشف الصبح اطِّراقَ الغياطل
ويُسْتَهزَم الجيشُ العرمرم باسمه — وإن كان جرّاراً كثيرَ الصواهل
فإما تُصِبْنا الحادثاتُ بنكبةٍ — رمَتْك بها إحدى الدواهى الضآبل(٢)
فلا تَبْعَدَنْ إن الحتوفَ مواردٌ — وكلُّ فتى من صرفها غيرُ وائل

وقام حاطب بن قيس فقال(١) :

سلامٌ على القبر الذى ضمّ أعظماً — تحومُ المعالى نحوه فتسلّم
سلام عليه كلما ذرَّ شارقٌ — وما امتدّ قِطع من دُجَى الليل مُظْلِمُ
[فيا قبرَ عمرو جاد أرضا تعطّفت — عليك مُلِثٌّ دائمُ القَطْرِ مُرزِمُ

---

(١) الأمالى : ٢ ـ ١٤٤ .

(٢) الضآبل : الدواهى .

تضمّنتَ جسماً طاب حيًّا وميتاً ... فأنت بما ضمّنْتَ فى الأرض مُنْعِم
فلو نطقَتْ أرضٌ لقال ترابُها ... إلى قبر عَمْرِو الأزدِ حلَّ التكرم
إلى مَرْمَسٍ قد حَلّ بين تُرابه ... وأحجارِه بدْرٌ وأضبط ضَيْغَم
فلا يبعدنْك اللهُ حيًّا وميّتاً ... فقد كنتَ نور الخطب والخطبُ مُظْلِمُ
[لعمرُ الذى خُطّتْ إليه على الوَنَا ... حدابيرُ عوجٌ نَيُّهَا مُتَهَمِّمُ](١)
لقد هدم العلياءَ موتُك جانبا ... وكان قديمًا رُكْنُها لا يُهدَّمُ

[بلاغة الأعراب]

قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يذكر قومه فقال : كانوا إذا اصطفُّوا تحت القَتام، مطرت(٢) بينهم السّهام بشؤبوب الحِمَام ، وإذا تصافحوا بالسيوف ، فغرت أفواهها الحتُوف ، فرب قِرْن عارمٍ قد أحسنوا أدبه ، وحَرْبٍ عبوسٍ قد أضحكتها أسنتهم ، وخَطْب مُشْمَئِز ذَلّلوا مناكبه ، ويوم عَمَاس قد كشفوا ظُلْمَته بالصبر حتى تتجلّى . كانوا البحر لا يُنكَش غُماره ، ولا يُنْهَنَه تيّاره .

قال العتبى: سئل أعرابى عن حاله [عند موته](١) فقال: أجدنى مأخوذا بالنّقلة ، محجوجا بالمهلة، أُفارق ما جمعت ، وأقدم على ما ضيّعْت ، فيا حياتى من كريم قدَّم المعذرة، وأطال النظِرَة إن لم يتداركنى بالمغفرة ، ثم قضى .

وقال بعضُ الرواة : كان يقال الإخـوان ثلاثة : أخ يخلصُ لك وُدّه، ويبلغ لك فى مهمّك جُهْده ، وأخ ذُو نيّةٍ يقتصرُ بك على حسن نيته ، دون رِفْدِه ومعونته ، وأخ يجاملك بلسانه ، ويشتغل عنك بشانه ، ويوسِعك من كذبه بأيمانه .

قال إسحق بن إبراهيم الموصلى: وقفت علينا أعرابية فقالت : ياقوم، تعثر بنا الدهر، إذ قلّ منا الشكر ، وفارقنا الغِنى، وحالفنا الفقر ، فرحم الله امرأ فهم بعقل ، وأعطى من فَضْل ، وواسَى مِنْ كَفَاف ، وأعان على عَفَاف .

---

(١) من م ، ا . (٢) فى م : وخطرت .

[ذل السؤال]

قال أبو بكر الحنفي : حضرتُ مسجد الجماعة بالكوفة ، وقد قام سائلٌ يتكلّم عند صلاةِ الظهر ثم عند العصر والمغرب ، فلم يُعْطَ شيئاً ، فقال : اللهم إنك بحاجتي عالم غير معلَّم ، واسعٌ غير مكلَّف ، وأنت الذي لا يرزؤك نائل ، ولا يخفيك سائل ، ولا يبلغ مِدْحَتَك قائل ، أنت كما قال المُثْنُون ، وفوق ما يقولون ، أسألك صبراً جميلا ، وفرجاً قريباً ، ونَصْراً بالهدى ، وقرّة عين فيما تحب وترضى ، ثم ولّى لينصرف ، فابتدره الناسُ يعطونه ، فلم يأخذ شيئاً ، ثم مضى وهو يقول :

ما اعتاض باذلُ وجهه بسؤالِهِ ... عِوَضًا ولو نال الغِنَى بسُؤَالِ
وإذا السؤالُ مع النوال وَزَنْتَهُ ... رجَح السؤَال وخَفَّ كلُّ نَوَالِ

[من المقامات]

المقامة المكفوفية

ومن مقامات الإسكندري إنشاء البديع : حدَّثنا عيسى بن هشام قال[١] : كنت في بلاد الأهواز ، وقُصارايَ لفظة شرود أصيدها ، أو كلمة بليغة أستفيدها[٢] ؛ فأدَّانِي السيرُ إلى رُقْعَةٍ [من البلاد][٣] فسيحة ، وإذا هناك قومٌ مجتمعون على رجل يستمعون إليه وهو يخبط الأرض بعصاً على إيقاع لا يختلفُ ، وعلمت أنَّ مع الإيقاع لَحْناً ، ولم أَبْعد لأَنال من السماع حظّاً ، أو أَسمع من البليغ لَفْظاً ، فما زلت بالنظّارة ، أُزاحِم هذا وأَدفعُ ذلك ، حتى وصَلْتُ إلى الرجل ، وصرفت الطرف منه إلى حزقّة كالقِرْنبي ، مكفوف في شَمْلة من صوف ، يدُور كالخُذْروف[٤] ، مُتبَرْنِساً بأطْوَلَ منه ، معتمِداً على عصاً فيها جلاجل ، يَضْرِبُ الأرض بها على إيقاعٍ غَنِج ، ولفظٍ هَزِج ، من صدرٍ حَرِج ، وهو يقول :

يا قومُ قد أثقل دَيْني ظَهْرِى ... وطالبتني طَلَّتِي[٥] بالمَهْرِ

---

(١) المقامات : ٨٥ . (٢) في المقامات ، م : أستزيدها . (٣) من م .

(٤) الخذروف : لعبة للصبيان . (٥) الطلة : الزوجة .

أَصْبَحتُ من بعد غنًى ووفرِ ساكنَ قَفْرٍ وحليفَ فَقْرِ
يا قومُ هل بينكمُ من حُرِّ يُعينني على صُروفِ الدهرِ
ياقومُ قد عِيل بفقْري صَبْرِي وانكشفَتْ عنى ذيولُ السِّترِ
وفَضَّ ذا الدهرُ بأيدى البَتْرِ ما كانَ لى من فضّة وتِبْرِ
آوِى إلى بيت كقِيدِ الشّبْرِ خاملَ قَدرٍ وصغيرَ قِدْرِ
لو ختم اللهُ بخيرٍ أمرى أعقبنى من عُسْرَةٍ بيُسْرِ
هل من فتى فيكم كريم النَّجْرِ محتسبٍ فِيَّ عظيم الأجر

إن لم يكن مغتنما للشكر

قال عيسى بن هشام: فرقَّ له والله قلبي، واغرورقت عيني، ومالبثت أن أعطيته دينارا كان معى، فأنشأ يقول:

يا حُسْنَها فاقِعَةً صفراء ممشوقة منقوشةً قَوْراء
يكاد أنْ يَقْطرُ منها الماء قد أثمرَتْها هِمَّةٌ عَلْيَاء
نَفْسُ فتًى يملكهُ السَّخَاء يصرفه فيه كما يَشاء
ياذا الذى يعنيه ذَا الثناء ما يتقصّى قَدْرَكَ الإطْرَاء

فامْضِ على الله لكَ الجزاء

ورحم الله من شدّها فى قَرَن بمثلها، وآنسها بأُختها. فناله الناس مانالوه؛ ثم فارقهم وتبعتهُ، وعلمتُ أنه متمامٍ لسرعة ما عرَف الدينار، فلما نظمَتْنا خَلْوة مددتُ يُمْناى إلى يسرى عضدَيه، وقلت: والله لتريَنّى سِرَّكَ، أو لأكشفنّ سِتْرك؛ فكشف عن توْأَمتى لوْز(١)، وحَدَرتُ لثامه، فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الإسكندى فقلت: أنت أبو الفتح؟ فقال: لا:

أنا أبو قَلَمُونِ فى كلِّ لوْنٍ أكُونُ

---

(١) كناية عن صحة عينيه وتناسبهما.

اخْتَرْ من الكسب دُوناً ... فإنّ دَهْرَكَ دُونُ
زَجِّ الزمان بحُمْقٍ ... إنّ الزمان زَبونُ
لا تُخدَعَنّ بعقْلٍ ... ما العقلُ إلا الجنونُ

[من شعر كشاجم]

وقال أبو الفتح كشاجم :

ما زال حرُّ الشوقِ يَغْلِبُ صَبْرَها ... حتّى تحدَّرَ دَمْعُها المتعلّقُ
وجرى من الكُحْلِ السحيقِ بخدِّها ... خَطٌّ تُؤَثِّرُهُ الدموعُ السُّبَّقُ
فكأنَّ مَجْرَى الدمع حِلْيةُ فِضّةٍ ... فى بعضه ذَهَبٌ وبعضٌ مُحْرَقُ

وقال :

ما لذةٌ أكملُ فى طيبها ... من قُبلةٍ فى إثرها عَضّهْ
كأنما تأثيرها لَمْعَةٌ ... من ذَهَبٍ أُجرِيَ فى فضّهْ
خَلَسْتُها بالكُرْهِ من شادنٍ ... يَمْشَق بَعضِي بالمُنَى بَعْضَه(١)

وقال :

ومستهجنٍ مَدْحِي له إن تأكّدَتْ ... له عقدُ الإخلاصِ ، والحرُّ يُمْدَحُ
ويَأْبَى الذى فى القلب إلاّ تبيّناً ... وكلّ إناء بالذى فيه يَرْشَحُ

وقال :

وإذا افتخرتَ بأعظُمٍ مقبورة ... فالناس بين مكذِّب ومُصَدّقِ
فأَقِمْ لنفسك فى انتسابك شاهداً ... بحديثِ مَجْدٍ للقديم محقِّق

وقال :

يا مُسْدِى العُرْفِ إسراراً وإعلانا ... ومُتْبع البرِّ والإحسانِ إحسانا
أَقْلِـع سحابَك قد غرّقْتَنى نِعَماً ... ما أَدْمَنَ الغَيْثُ إلاّ كانَ طوفانا

---

(١) فى ا ، م : يعشق منه بعضه بعضه .

من النقد

هذا مولد من قول أبى نواس :

لا تُسدِيَنَّ إلىّ عارفةً حتى أقوم بشُكرٍ ما سَلفا

البحترى(١) :

ألحَّ جُوداً ولم تَضْرُرْ سحائبهُ وربما ضرَّ فى إلْحَاحِه المطرُ
مواهبٌ ما تجشَّمنا السؤالَ لها إن الغمام قَليبٌ ليس يحتفرَ

وقد أخذ على ذى الرمة قوله(٢) :

ألا يا اسلمى يا دارمَىَّ على البِلَى ولا زال مُنْهلاً بجرْعائِك القَطْرُ

قالوا : وأحسن منه قول طرفة(٣) :

فسقى ديارك غيْرَ مفسدِها صوبُ الربيع وديمةٌ تَهْمِى

وقد تحرز ذو الرمة مما تؤول عليه(٤) بالسلامة فى أول البيت .

***

وقال كشاجم :

أَيا نَشْوان من خمرٍ بفِيهِ متى تَصْحُو وريقُك خَنْدَرِيسُ(٥)
أَرى بك ما أراه بِذى انتشاء ألحَّ عليه بالكاس الجليسُ
توردُ وَجْنَةٍ وفتورُ لَحْظٍ تُمرّضه وأعطافٌ تميسُ

وقال :

وما زالَ يَبْرِى جملةَ الجسم حُبُّها وينقصه حتى نَقَصْتِ عن النقصِ(٦)
وقد ذُبْتُ حتى صرت إنْ أنا زرتها أمِنتُ عليها أن يَرَى أهلُها شَخْصِى

(١) ديوانه : ٢ــ٤٣ . (٢) ديوانه : ٣٤ . (٣) الصناعتين : ٤٠٨ ، ديوانه : ٦٢ .
(٤) فى ط : مما يؤل بدعائه لها . (٥) الخندريس : الخمر .
(٦) فى ا : وينقصها حتى لطفت عن النقص .

[الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره]

كتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء : نَبَتْ بى غِرَّةُ الحداثة ، فردَّتنى إليك التجربة ، وقادَتْنِى الضرورة ، ثِقةً بإسراعك إلىّ وإن أبطأْتُ عنك ، وقبولِك العذرَ وإن قصرتُ عن واجبك، وإن كانت ذنوبى سدَّتْ علىّ مسالكَ الصفح عنى ، فراجِعْ فىَّ مجدك وسؤددك ، وإنى لا أعرف موقفاً أذل من موقفى ، لولا أنّ المخاطبة فيه لك، ولا خُطَّةً أَدْنى من خُطَّتى ، لولا أنها فى طلب رِضاك .

وهذا المعنى الذى ذهب إليه من الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره قد أكثر الناسُ منه قديماً وحديثاً وسأفيض فى طرفٍ ذلك :

وأنشد أبوعبيدة لزياد بن مُنْقِذ[1] الحنظلى، وهو [أخو المرار العَدَوى ، نسب إلى أمه العدوية ، وهى فُكَيهة بنت تميم بن الدّوَل بن جَبَلَة بن عدى بن] [2] عبد مناة ابن أُد[3] بن طابخة. فولدت لمالك بن حنظلة عديًّا ويربوعاً ، فهؤلاء من ولده يقال لهم [بنو][2] العَدَوِيّة، وكان زيادٌ نزل بصَنْعاء فاجتواها ومنزله بنجد ، فقال فى ذلك قصيدة يقول فيها وذكر قومه :

مخدَّمون ثِقَالٌ فى مجالسهم ... وفى الرحال إذا صاحبتهم خَدَمُ
لم أَلْقَ بعدهمُ حيًّا فأُخبِرَهم ... إلاّ يزيدهمُ حبّا إلىّ هُمُ

[وأراه أول من استثار هذا المعنى . وكان ابن أبى عَرَادة السعدى مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرِما فتركه وصحب غيره فلم يحمَد أمره ، فرجع إليه فقال :

عتبتُ على سلم فلما فقدتُه ... وجرّبْتُ أقواما بكيتُ على سَلْمِ
رجعتُ إليه بعد تجريبِ غيره ... فكان كبُرْءٍ بعد طولٍ من السقْمِ][2]

وقال مسلم بن الوليد :

حياتك يا بْنَ سعدان بن يَحْيَى ... حيـاةٌ للمكارِم والمعَالى

(١) الشعراء : ٦٧٨ ، الحماسة : ٣—٣٢٤ اللآلئ : ٧٠ ، وانظر هناك الخلاف فى نسبتهما . (٢) من م، ا . (٣) فى م : ود . (٤) فى ا : غراره .

جلبت لك الثناء فجاء عَفْواً ونَفْسُ الشكرِ مطلقةُ العِقَالِ
وترجمني إليكَ وإن نَأَتْ بِي دِيارى عنك ـ تجربةُ الرجالِ

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد للبحترى :

أخٌ لك عاداه الزمانُ فأصبحت مذممة فيما لديه المطالِبُ
متى ما تذوِّقه التجاربُ صاحباً من الناسِ تردُدْهُ إليك التجاربُ

وأنشد :

حيـاةُ أبي العباس زَيْنٌ لقومهِ لـكلّ امرىء قاسَى الأُمور وجرَّبا
ونعتِبُ أحيانا عليه ولو مَضَى لَـكُنَّا على الباقِي من الناس أَعْتَبا

قال الصولى : جرى ذِكْرُ المـكتفى بحضرة الراضى فأطريته وأكثرتُ الثنـاء عليه ، فقال لى : يا صولى ؛ كنتَ أنشدتنى لجرير :

أسلّيك عن زيد لتسلى وقد أرى[1] بعينيك من زيد قذًى ليس يَبْرحُ

فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، مَنْ شكر القليل كان للـكثير أشدّ شكرا ، وأعظم ذكرا ، قال : فأين أنا لك من المـكتفى ؟ فأنشدته للطائى[2] :

كم من وسَاعٍ[3] الجودِ عندى والنَّدَى لَمَّا جرى وجريت كان قَطوفا[4]
أَحسنتُما صَفَدِى[5] ولـكن كنتَ لى مثلَ الربيع حَياً وكان خريفا
وكِلاكُما اقْتَعدَ العُلَا فركبتها فى الذّروة العليا وجاءَ رَدِيفا
إن غاض ماءُ المزنِ فِضْتَ وإن قسَتْ كَبِدُ الزمان علىّ كنتَ رَءوفا

وكان المـكتفى أول من نادمه الصولى ، واختلط به .

ولم يلِ الخلافة أحد اسمه علىّ إلا علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وعلىّ بن المعتضد المـكتفى بالله ، وكان[6] سبب اتصاله به وانقطاعه إليه أنَّ رجلا

---

(١) فى ط : لتسلو وقد جرى . (٢) ديوانه : ٢٠٧ . (٣) الوساع : المتسع .
(٤) فى ط : لما جرت جدوى وكان عطوفا . والقطوف : الدابة ضاق مشيها .
(٥) الصفد : العطاء . (٦) الوفيات : ٣ـ٣٣١ .

يعرف بمحمد بن أحمد الماوردى نزع إلى المكتفى بالرّقة ، وكان ألعبَ الناس بالشطرنج ، فلما قدم عليه ببغداد وهو خليفة قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أعلم الناس بهذه الصناعة ، فأقطعنى ما كان للرازى الشطرنجى ؛ فغاظ ذلك المكتفى ، وندب له الصولى فلم يُرَ معه الماوردى شيئاً[١] . فقال له المكتفى : صار ماء وردك بوْلا ، قال الصولى : فأقبل المكتفى علىّ ورتّبنى فى الجلساء ، فحجبت يوما عنه ، واتصل بى أن خصمى شمّت بى ، فكتبت قصيدة للمكتفى أقول فيها :

قد ساء ظنُّ الناس بى وتنكّروا ... لمّا رأوْنى دون غيرىَ أُحْجَبُ

إنْ كان غلِبيه يُقرِّبُ أمرهُ ... دونى فإنى عن قريب أُغْلَبُ

فضحك وأمر لى بمائتى دينار ، واندرجْتُ فى خدمته .

[فى بيعة يزيد]

اجتمعت وفودُ العرب عند معاوية رحمه الله تعالى ، وكان إذا أراد أن يفعل شيئا ألقى منه ذرءًا[٢] إلى الناس ، فإذا امتنعوا كفّ ، وإن رضوا أمضى ، فعرض ببيعة يزيد ، فقامت خطباء معدّ فشقّقوا الكلام ، وأطنبوا فى الخطاب ، فوثب شاب من غَسّان قابضاً على قائم سيفه ، فقال : ياأمير المؤمنين؛ إنَّ الحَيْفَ فى حكم السيف[٣] ، وبعد النسيم الهَيْف[٤] ؛ فإنَّ هؤلاء عجزوا عن الصّيال[٥] ، فعوّلوا على المَقَال ، ونحن القاتلون إذا صُلْنَا ، والمجيبون إذا قلنا ، فمن مال عن القَصْدِ أقمناه ، ومن قال بغير الحق وقَمْنَاه[٦] ، فلينظر ناظرٌ إلى موطىء قَدَمه ، قبل أن تَدْحَض[٧] فيهْوِى هوِىّ الحجر من رأس النيق[٨] ؛ فتفرّق الناس عن قوله ، ونسوا ما كانوا فيه من الخطب .

---

(١) فى م : فدل على الصولى فأحضره ولاعب الماوردى فغلبه الصولى .

(٢) ذرء من خبر : شىء منه ، وفى ط : طرفا . (٣) فى ط : إن الحكم للسيف .

(٤) فى ط : الحيف . والهيف : ريح حارة بخفف كل شىء .

(٥) صال على قرنه صيالا : سطا واستطال . (٦) وقمه : قهره وأذله ، أو رده أقبح الرد ، وفى ط : قومناه . (٧) دحضت رجله : زلقت .

(٨) النيق : أرفع موضع فى الجبل .

[الإقدام فى الحروب]

وقال المهلب يوما لجلسائه : أرا كم تعنّفوننى فى الإقدام ، قالوا له : إى والله ، إنك لسقوط بنفسك فى المهالك ، قال : إليكم عنى ! فوالله لولا أن آتى الموت مسترسلا لأتانى مستعجلا؛ إنى لستُ آتى الموتَ من حُبّه ، إنما آتيه من بُغضه، ثم تمثّل بقول الحصين بن الحمام المرى :

[تأخرت أستبقى الحياة فلم أجدْ ... لنفسى حياة مثلَ أن أتقدما

ومن هذا أخذ أبو الطيب المتنبى قوله][1] :

أرى كلّنا يَهْوى الحياةَ لنفسهِ ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبَّا

فحبُّ الجبان النفس أورده التُّقَى ... وحبُّ الشجاع النفسَ أورده الحَرْبَا

وقال أبو دلف:

الحربُ تَضْحكُ عن كَرِّى وإقدامى ... والخيلُ تعرفُ آثارِى وأيّامِى

سَيْفِى مُدامِى ورَيْحَانِى مثقفتى ... وهمّتى مِقَةُ التفصيل لِلْهَامِ

وقد تجرَّد لى بالحسن منفردا[2] ... أَمْضَى وأَشْجَع منى يوم إقدامى

سلَّت لواحظُه[3] سيفَ السقام على ... جسمى فأصبح جسمى رَبْعَ أسقامِ

[أبو دلف]

وكان أبو دلف شاعراً مجيدا ، وجوادا كريما ، جامعا لآلات الأدبِ والظرف ، وله شعرٌ جيد فى كل فن ، وهو القائل : شعره وأدبه

أحبك يا جَنَان فأنتِ منى ... محلّ الروحِ من جسد الجَبَانِ

ولو أنى أقول : مكان[4] روحى ... لخِفْتُ عليكِ بادِرَةَ الزمانِ

---

(١) من م ، ا . (٢) فى م : ذو بدع . (٣) فى ا : صوارمه .
(٤) فى م ا : مكان .

لإقدامى إذ ما الخيلُ جالَتْ   وهاب كُماتُها حَرَّ الطِّعَان

عشقه لجارية ببغداد

وكان يتعشَّق جارية ببغداد فإذا شخَصَ إلى الحضرة زارها ، فركب فى بعض قَدَماته إليها ، فلما صار بالجسر مشَى على طرف طيلسان بعض المارّين ، فخرقه ، فأخذ بعِنانه، وقال : ياأبا دلف ؛ ليست هذه كرخك(١)، هذه مدينة السلام ؛ الذئب والشاة بها فى مَرْبَع واحد ! فثنى عنانه متوجّهاً إلى الكرخ(٢) ، وكتب إلى الجارية :

قَطعَتْ عن لقائك الأشغال   وهمومٌ أتتْ(٣) علىَّ ثِقَالُ

فى بلاد يُهَانُ فيها عزيزُ الـ   ـقوم حتى تنالَه الأنذالُ

حيث لا مدفعٌ بسيفٍ عن الضيـ   ـم ولا للكُماةِ(٤) فيها مجالُ

ومقام العزيز فى بَلد الهو   ن إذا أمكن الرحيلُ محالُ

فعليك السلام يا ظَبْيَةَ الكَرْ   خ أقمتِ وحان منَّا ارتحالُ

أبو دلف يصف عبد الله ابن طاهر

ودخل أبو دلف على المأمون بعد الرِّضا عنه فسأله عن عبد الله بن طاهر فقال : خلَّفتُه يا أميرَ المؤمنين أَمين غَيْب ، نصيح جَيْب ، أسداً عاتياً ، قائماً على براثنه ، يسعد به وليُّك ، ويَشقَى به عدوُّك ، رَحْبَ الفِناء(٥) لأهل طاعتك ، ذا بأس شديد لمن زاغ عن قَصْدِ محجَّتِك ، قد فقّهه الحَزْم ، وأيقظَه العَزْم ، فقام فى نحر الأمور على ساق التشمير ، يُبْرِمها بأَيْدِه وكَيْدِه ، ويفلّها بحدِّه وجدِّه ؛ وما أشبهه فى الحرب إلا بقول العباس بن مرداس :

أكرُّ على الكتيبة لا أُبَالى   أَحَتْفِى كان فيها أَم سِوَاها

[فقال قائل : ما أفصحه على جبليِّته ! فقال المأمون : وإن بالجبل قوما أمجادا ، كراماً أنجاداً ، وإنهم ليوفون السيف حظّه يوم النِّزال ، والكلام حقّه يوم المقال ، وإن أبا دلف منهم] (٦) .

---

(١) فى م ، ا : ليس هذا كرخك . (٢) فى م ، ا : الكرج . (٣) فى م : تترى .
(٤) فى م : للجياد . (٥) فى م : رحيب . (٦) ما بين القوسين ساقط من ا .

[من رسائل الميكالى]

من كتاب تعزية

فصل لأبى الفضل الميكالى من كتاب تعزية عن[1] أبى العباس بن الإمام أبى الطيب.

لئن كانت الرزيَّة بمصيبةٍ مُؤلمة ، وطرقُ العزاء والسَّلْوَة مبهمة ، لقد حلَّت بساحةِ من لا تُنْتَقَضُ بأمثالها مَرَائِرُه ، ولا تَضْعفُ عن احتمالها بصائِرُه ، بل يتلقّاها بِصَدْرٍ فسيح يَحْمِى أن يفتح الحزنُ بابه ، وصبرٍ مشيح يحمى أن يَحْبَطَ الجزعُ أَجره وثوابَه ، ولمَ لا وآدابُ الدين من عنده تلتمس ، وأحكامُ الشرع من بَنَانِه ولسانه تُستفاد وتُقْتَبَس، والعيونُ تَرمُقُه فى هذه الحال لتجرىَ على سَنَنِه، وتأخذَ بآدابه وسُنَنه ؛ فإن تَعزَّت القلوب فبحُسْنِ تماسكه عزاؤها ، وإن حسُنَت الأفعال فإلى حميدِ أفعاله ومذاهبه اعتزاؤُها .

وله من تعزية أخرى

وله من تعزية إلى أبى عمرو البحترى : قَدَّس الله رُوحَه . وسقى ضريحه ؛ فلقد عاش نبيه الذِّكْر ، جليلَ القَدْرِ ، عَبِقَ الثناء والنَّشْر ، يتجمَّل به أهلُ بلده ، ويتباهى بمكانه ذوو مودَّتِه ، ويفتخر الأَثَرُ وحاملوه بتراخى بقائه ومُدَّتِه ، حتى إذا تسنَّم ذِرْوَةَ الفضائل والمناقب ، وظهرت محاسنُه كالنجوم الثواقب ، اختطفته يدُ المِقْدَار ، ومُحِىَ أثره بين الآثار ، فالفضلُ خاشعُ الطَّرْفِ لفَقْدِه ، والكَرَمُ خالى الرَّبْع من بعـــده ، والحديثُ يندبُ حافِظَه ودَارِسَه ، وحُسْنُ العهد يبكى كافلَه وحارسه .

وله أيضا

وله : فأما الشكرُ الذى أعارنى رداءَه ، وقلَّدنى طَوْقَه وسناءَه ؛ فهيهات أن ينتسب[2] إلا إلى عادات فَضْله وإفضاله ، ولا يسيرُ إلاَّ تحت رايات عُرْفه ونَوَاله ، وهو ثوب لايحلَّى إلا بذكره طِرَازه، واسمٌ له حقيقته ولسواه مجازُه ، ولو أنه حين ملك رِقِّى بأياديه ، وأعجز وُسْعِى عن حقوق مكارمه ومساعيه ، خلَّى لى مذهبَ الشكر ومَيْدَانه، ولم يجاذبنى زِمامَه وعِنَانه ، لتعلقَّت عن بلوغ بعض الواجب بعُرْوَة

(١) فى ا : إلى . (٢) فى م ، ا : أن ليس ينسب .

طَمَع ، ونهضت فيه ولو على وَهن وظَلَع ، ولكنه يَأْبى إلا أن يستولى على أمدِ الفضائل ، ويتسنم ذُرَا الغوارب منها والكواهل ؛ فلا يَدَعُ فى المجد غايةً إلاّ يسبق إليها فارطا ، ويُخلِف من سوَاهُ عنها حسيرا ساقطا ؛ لتكون المعالى بأَسْرِها مجموعة فى مِلْكِه منظومةً فى سِلْكه ، خالصةً له من دعوى القسيم وشِرْكه .

وله فصل من كتاب إلى أبى سعيد بن خلف الهمدانى : فأما التُّحْفةُ التى شفعها بكتابه فقد وصلَتْ ، فكانت ضَرة لزَهْرِ الربيع ، موفية بحُسْنِ الخطِّ على الوَشْىِ الصنيع ، وليس يَهْتَدِى لمثل هذه اللطائف فى مَبَرّة الإخوان ، إلاّ من يُعَدُّ من أفراد الأقران ، ولا يَرْضَى من نفسه فى إقامةِ شعائر البرّ[1] دون القران ، والله يمتعه بما منحَهُ من خصائص هى فى آذان الزمان شُنُوف ، وفى جِيدِه عقد مرصوف .

[عتـــاب]

وقال أبو يعقوب الخريمى[2] يعاتب الوليد بن أَبان :

أتَعجَب منى إن صبرتُ على الأذى	وكنتُ امرَأً ذا إربةٍ متجمِّلا
فإنِّى بحمد الله لا رَأْىَ عاجزٍ	رأيت ولا أخطَأْت للحقِّ مفصلا
ولكن تدبَّرْتُ الأُمورَ فلم أَجدْ	سوى الحلم والإغضاء خيراً وأفْضلا
وأُقسِم لولا سالفُ الودِّ بيننا	وعهدٌ أَبَتْ أركانُه أن تزَيّلا
وأيامُك الغرُّ اللواتى تقدَّمَتْ	وأوليتنيها مُنْعِماً مُتَطوِّلا
رحلتَ قَلوصَ الهجْرِ ثم اقتعدتها	إلى البعد ما ألفيت فى الأرض مَعْمَلا
وأكْرَمْتُ نفسى والكرامةُ حظُّها	ولم ترنى لولا الهوَى متذلِّلا
وعارضت أطراف الصِّبَا أَبْتَغِى أخاً	يُعِينُ إذا ما الهمُّ بالمرء أَعْضَلا

---

(١) فى ط : بالإفراد دون القران .   (٢) المعاهد : ١ — ٢٠٢ .

أخاً كأبى عمرو وأَنَّى بمثلهِ ... إذا الحرُّ بالمجدِ ارتدى وتَسَرْبَلاَ

جزى الله عثمان الخريمىّ خيرَ ما ... جزى صاحباً جَزْلَ المواهب مُفْضِلا

أخاً كان إن أقبلتُ بالودِّ زادنى ... صفاءً وإن أَدبرتُ حَنّ وأقبلا

أخاً لم يخنى فى الحياة ولم أَبِتْ ... يخوّفنى الأعداءُ منه التنقّلا

إذا حاولوهُ بالسعاية حاولوا ... به هَضْبةً تَأْبَى بأنْ تتَخَلْخَلا

يحكّمنى فى ماله ولسانهِ ... ويركبُ دونى الزاعبىّ[1] المؤَللا

كفى جفوةَ الإخوانِ طولَ حياتهِ ... وأَورث مما كان أعطى وأَجزلا

وبات حميداً لم يكدّر صنيعَهُ ... ولم أقْلِه طولَ الحياة وما قَلَا

وكنتَ أخاً لو دام عهدُك واصلاً ... نَصوراً إذا ما الشرُّ خَبَّ وهَرْوَلاَ

فغيَّرك الواشون حتى كأنما ... ترانِى شُجَاعا بين عينيك مُقْبِلا[2]

[أبو يعقوب الخريمى]

وأبو يعقوب هذا إسحق بن حسان . قال المبرد : كان أبو يعقوب جميل الشعر ، مقبولا عند الكتاب ، وله كلامٌ قوى ، وَمَذْهَبٌ متوسط ، وكان يرجعُ إلى نسب كريمٍ فى الصغد ، وكان له وَلاَءٌ فى غطفان ، وكان اتصالُه بمولاه أبى عثمان بن خريم المرى الذى يقال له خُريم الناعم ، وكان أبو عثمان هذا قائدا جليلا ، وسيدا كريما . وسُئل [خُرَيم][3] عن لذَّة الدنيا فقال : الأَمْنُ فإنه لا عيشَ لخائف ، والعافيةُ فإنه ، لا عيشَ لسقيم ، والغِنَى ؛ فإنه لا عيشَ لفقير . وقيل له : ما بلغ من نعمتك ؟ قال : لم ألبس جديداً فى صيف ، ولا خَلَقًا فى شتاء . وفى نسبه فى الصغْد يقول[4] :

أبالصغد باس أن تعيرنى[5] جمل ... سَفاها ومن أخلاق جارتنا البخلُ

---

(١) أصل الزاعبي من الرماح : الذى إذا هز تدافع كله كأن آخره يجرى فى مقدمه .

(٢) الشجاع هنا : الثعبان . (٣) من م ، ا . (٤) الشعراء : ٨٣٣ .

(٥) فى ا : تغيرنى .

وما ضرَّنِي أَنْ لم تَلِدْنى يُحابِر(١) ... ولم تَشْتَمِلْ جُرْمٍ عَلَىَّ ولا عُكْلُ

يقول فيها :

[ودون الندى فى كل قلب ثنية ... لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومنحدَرٌ سهل](٢)

ووَدَّ الفَتى فى كل نَيْل يُنيلهُ ... إذا ما انقضى لو أن نائلَه جَزْل

وأعلم علما ليس بالظن أنه ... لكل أناس من ضرائبهم شَكْلُ

وأن أخِلاَّء الزمانِ غَناؤهم ... قليلٌ إذا ما المرء زَلَّت به النعْلُ

تَزَوَّدْ من الدنيا متاعاً لغيرها ... فقد شَمَّرَتْ حَذَّاء(٣) وانصرم الحَبْلُ

وهل أنت إلا هامةُ اليوم أو غدٍ ... لأمِّك من إحدى طوارقها الثُّكْلُ

وقال يتشوق الحسن بن التَّخْتاخ(٤) :

أَلاَ مُبلغٌ عنى خليلى ودونهُ ... مطا سَفَرٍ لا يَطْعَمُ النومَ طالِبُهْ

رسالةَ ثاوٍ بالعراق ورُوحهُ ... بفُسطاط مصر حيث جمَّت(٥) عجائبُه

له كلَّ يوم حَنَّةٌ بعد رَنَّة ... يجيش بها فى الصدر شوق يغالبه

إلى صاحب لا يُخلِقُ النأىُ عَهْدَهُ ... لناءٍ ولا يَشْقَى به من يُصاقِبُه

تخيّره حرًّا نقيًا ضميرهُ ... جميلا محيّاه كريما ضرائِبُه

هو الشهد سِلْماً والذُّعاف عَداوةً ... وبَحْرٌ على الورّاد تجرى غَوارِبُه

فياحَسَن الحُسْنِ الذى عَمَّ فضلهُ ... وتمّت أياديه وجَمَّتْ مناقِبُه

إليك على بُعْدِ المزار تطلَّعَتْ(٦) ... نوازع(٧) شَوْقٍ ما تُردّ عوازِبُه

أرَى بعدك الإخوانَ أبناء عَلةٍ ... لهم نَسبٌ فى ودِّهم لا أناسبه

فهل يرجعنْ عيشى وعيشك مرّة ... ببغداد دَهرٌ مُنْصِفٌ لا نُعاتِبُه

لَيالِيَ أرْعَى فى جَنابك رَوْضَةً ... وآوِى إلى حِصْنٍ مَنيع مراتبُه(٨)

---

(١) فى ط : محابر . (٢) من م . (٣) حذاء : سريعة الإدبار ، وفى ط : حدباء .

(٤) هكذا فى م : وفى ا : المحتاج ، وفى ط : البحناج . (٥) فى م : وحمت .

(٦) فى ظ : على بعد المزار وصعبه . (٧) فى م ، ا : نزائع . (٨) فى ط : ترائبه .

وإذ أنت لى كالشهد بالرَّاح صفِّقَا   بماء رُصاف صفّقته جَنَائِبُه
عسى ولعلّ اللهَ يجمعُ بيننا   كما لاءمت صَدْع الإناء مَشَاعِبُه

فقر وفصول فى معان شتى

قال العتابى(1) : حظّ الطالبين من الدَّرْك بحسب ما استصحبوا من الصَّبْر .

بعض الحكماء : الحلم عُدّة للسفيه ، وجُنّة من كَيْدِ العدو ، وإنك لن تقابل سفيها بالإعراض عن قوله إلاّ أذللتَ نفسه ، وفللْتَ حدَّه ، وسَلَلْتَ عليه سيوفا من شواهد حِلْمِك عنه ، فتولّوا لك الانتقامَ منه .

وقال آخر : العجلة مكسبة للمذمّة ، مجلبة للندامة ، منفّرة لأهل الثقة ، مانعة من سدَادِ الرغبة .

وأتى العتابىَّ وهو بالرَّى رجلٌ يودّعه فقال : أين تريد ؟ قال : بغداد . قال : إنك تريد بلدا اصطلح أهلُه على صحّة العلانية ، وسقْم السريرة ، كلُّهم يعطيك كله ، ويمنعك قُله .

وقال يحيى بن خالد لرجل دخل عليه : ما كان خَبَرُكَ مع فلان ؟ قال: قد افتديت مكاشفته واشتريت مكاشرته بألف درهم ، فقال يحيى : لا تبرح حتى يكتبَ الفضلُ وجعفر عنك هذا القول .

قال الأصمعى : سمعتُ أعرابيا يدعو، ويقول: اللهم ارزقنى عملَ الخائفين، وخَوْفَ العاملين ، حتى أتنعم بتَرْكِ التنعم ، رجاءً لما وعدت ، وخوفا مما أوعدت .

وللعتابى : أما بعد فإنه ليس بمستخلص غَضَارَةَ عيشٍ إلا من خلال مكروهه ، ومن انتظر بمعاجلة الدرك مُؤَاجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصته .

كتب بعض الكتاب إلى أخ له : إن رأيتَ أنْ تحدِّدَ لى ميعاداً لزيارتك، أتقوّته

---

(1) فى ا : العباس .

إلى وقت رؤيتك ، ويؤنسنى إلى حين لقائك ، فعلت إن شاء الله . فأجابه : أخاف أن أعدك وعداً يعترضُ دون الوفاء به مالا أقدر على دفعه ، فتكون الحسرةُ أعظمَ من الفرقة .

فأجاب المبتدئ : أنا أسر بوعدك ، وأكون جذلا بانتظارك ، فإن عاق عن الإنجاز عائق ، كنتُ قد ربحتُ السرورَ بالتوقع لما أحبه ، وأصبتُ أجرى على الحسرة بما حرمته .

وكتب أخٌ إلى أخ له يستدعيه : أما بعد فإنه من عانى الظَّمأ بفُرْقَتِك استوجب الريّ من رؤيتك، والسلام.

وكتب آخر فى بابه : يومُنا يومٌ طاب أوّله ، وحَسُنَ مستقبَله ، وأتت السماء بقِطَارها ، فحلّت الأرضَ بأنوارِها ، وبك تطيب الشّمول ، ويُشفَى الغليل ، فإن تأخَّرت عنا فرّقت شَمْلَنا ، وإن تعجلت إلينا نظمت أمرنا .

قال إسحق الموصلى : قال لى ثُمامة بن أشرس ، وقد أصِبت بمصيبة : لمصيبةٌ فى غيرك لكَ ثوابُها ، خير من مصيبة فيكَ لغيرك أجرُها .

ومرَّ عُمَر[1] بن ذَر بابنِ عياش المنتوف وكان سَفِه عليه فأعرض عنه ، وتعلّق بثوبه ، وقال : ياهناه ؛ إنا لم نجد لك جزاءً إذ عصيت اللهَ فينا ، خيراً من أن نُطيعه فيك . أخذه من قول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما عاقبتَ من عصى اللهَ فيك بمثل أن تُطيع الله فيه .

وكتب بعضُ الكتاب إلى رئيسه : ما رجائى عدلك بزائدٍ على تأميلى فَضْلَك ، كما أنه ليس خوفى صِيالك ، بأكثر من خشيتى نكالك ؛ لأنك لا ترْضَى المحسن بصغيرِ المَثُوبَة ، كما لا تقنعُ للمسىء إلاَّ بموجع العقوبة .

---

(١) فى ط : عمرو ، وهذا من ا ، م .

وقال آخر : ما عسيت أن أشكرك عليه من مواعد لم تُشَبْ بمَطْلٍ ، ومرافِدَ لم تشن بمنّ ، وعهد لم يمازجه مَلَق ، ووُدّ لم يشبه مذق .

وقال آخر : علقت به أسباب الجلالة غير مستشعر فيها بنَخْوة ، وترامت له أحوالُ الصرامة غير مستعمل معها السطوة ، هـذا مع دماثة فى غير حَصَرٍ ، ولينِ جانب من غير خَوَر .

فصل لابن الرومى : إنى لَوَليُّك الذى لم تزل تنقادُ لك مودتُه من غير طمع ولا جَزَع ، وإن كنتَ لذى رغبة مَطْمعاً ، ولذى رَهْبة مهربا .

أبو فراس الحمدانى :

كذاكَ الوِدَادُ المَحْضُ لا يرتجى لهُ ثوابٌ ولا يُخْشى عليه عقابُ

[بين حنيفة ونمير]

غزَتْ حنيفة[1] نميراً فانتصفوا منهم ، فقيل لرجل منهم : كيف صنعَ قومُك ؟ قال : اتبعوهم وقد أحقبوا[2] كل جُمَالية خيفانة[3] ، فمازالوا يَخْصِفُونَ[4] [أخفاف][5] المطىّ بحوافر الخيل ، حتى لحقوهم ؛ فجعلوا المُرّانَ[6] أرْشِيةَ الموتِ ، فاستقوا بها أرْوَاحَهم .

[دعـــاء]

ودعا أعرابى فقال : اللهم إن كان رزقى نائياً فقرّبه ، أوقريباً فيسّره ، أو ميسّراً فعجله ، أو قليلا فكثّره ، أو كثيراً فثمّره .

---

(١) فى ا : بنو حنيفة . (٢) أحقبت البعير : شددت الحقب عليه ، وهو حبل يشد به الرجل فى بطن البعير . (٣) ناقة جمالية : وثيقة تشبه الجمل فى خلقتها وشدتها وعظمها ، والخيفانة : السريعة . (٤) فى ا : يخصفون آثار المطى . (٥) من لسان العرب .

(٦) رمح مارن : صلب لدن .

[من الرسائل]

كتاب عنبسة إلى المأمون

وكتب عَنْبَسة بن إسحق إلى المأمون وهو عامله على الرّقّة ، يصف خروجَ الأعراب بناحية سِنْجار(١) وعَيْثَهم بها : يا أميرَ المؤمنين ، قد قطع سُبُلَ(٢) المجتازِين من المسلمين والمعاهدين نفَر من شذّاذ الأعراب الذين لا يرقبون فى مؤمنٍ إلاًّ ولا ذِمّة(٣) ، ولا يخافون من الله حدًّا(٤) ولا عقوبة ، ولولا ثقتى بسيفِ أمير المؤمنين وحصده هذه الطائفة ، وبلوغه فى أعداء الله ما يَرْدَع(٥) قاصيَهم ودانِيَهم ، لأذنت بالاستنجاد عليهم ، ولا بتعثت الخيلَ إليهم ، وأميرُ المؤمنين مُعَانٌ فى أموره بالتأييد والنصر إن شاء الله . فكتب إليه المأمون :

أَسْمَعْتَ غيرَ كَهَام(٦) السمعِ والبصرِ ... لا يَقْطَع السيفُ إلا فى يدِ الحذرِ(٧)
سيصبح القومُ من سيفى وضاربِهِ ... مثل الهشيم ذرَته الريحُ بالمطرِ

فوجّه عنبسة بالبيتين إلى الأعراب ، فما بقى منهم اثنان .

كتاب المطلب إلى الحسن بن سهل

وكتب المطلب بنُ عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل فى رجل توسّل به :

طَلَبُ العافين الوسائل إلى الأمير ـ أعزّه الله ـ يُنْبِىء عن شروع مواردِ إحسانه ، ويَدْعُو إلى معرفة فَضْله ، وما أنصفه ـ أعزه الله تعالى ـ مَن توسّل إلى معروفه بغيره ؛ فرأىُ الأمير ـ أعزه الله ـ فى التطوّل على من قَصُرَتْ معرِفتُه عن ذلك بما يريد الله تعالى فيه موفقاً إن شاء الله تعالى .

فكتب إليه الحسن : وصلك الله بما وصلتنى فى صاحبك من الأَجْرِ والشكر ، وأراك الإحسانَ فى قَصْدِك إلىّ بأمثاله فرضا يُفيدك شُكْرُه ، ويعقبك أجره ، فرأيك فى إتمام ما ابتدأتَ به وإعلامى ذلك مشكوراً .

---

(١) فى ا ، م : سيحان . (٢) فى ا ، م : سبيل (٣) الإل : العهد .
(٤) فى م : أخذا . (٥) فى م ، ا : مايزع . (٦) كهام : كليل عيي بطىء .
(٧) فى م ، ا : الهدر .

وكان المطلب ممدَّحاً كريماً وقد حسد دعبل شرَفه وإنعامه، وغبط إحسانه وإكرامه، إذ يقول : من النقد

اضرب ندَى طلحة الطلحات مُعْتَرِفا بلُؤْمِ مطَّلب فينا وكُنْ حكما
تَخْلُصْ خزاعةُ من لُؤْم ومن كرم فلا تعدّ لها لؤماً ولا كرما

وأمر طلحة أعْرَف من أن يُوصف .

وما أبعد قول دعبل من قول البحترى لصاعد بن مخلد وأهل بيته[1] :

بنى مَخْلدٍ كفوا تدفُّق جودكم[2] ولا تبخسونا حظَّنا فى المكارمِ
ولا تَنْصُروا مَجْدَى قنان ومخلد[3] بأَنْ تذهبوا عنا بسُمْعَة حاتم
وكان لنا اسمُ الجود حتى جعلتمُ تغُضّون منا بالخلالِ الكرائم

[رثاء يزيد بن مزيد]

قال الزبير بن بكار : لما مات يزيدُ بن مَزيد بأرمينية قام حبيب بن البَرَاء خطيباً : فقال : أيها الناس ، لا تَقْنَطوا من مثله وإن كان قليلَ النظير ، وهبوه من صالح دعائكم مثل الذى أخلص فيكم من نواله ، والله ما تفعل الديمة الهَطْلَة فى البقعة الجَدْبة ما علمت فينا يدَاه من عدله ونداه .

* * *

فسرق هذا أبو لُبانة [الشاعر][4] فقال : من النقد

ما بقعةٌ جادَها غَيْثٌ وقرَّ بها فأزهرت بأقاحى النَّبْتِ ألوانا
أبهى وأحسنَ مما آثرَتْ يدهُ فى الشرق والغربِ معروفاً وإحسانا

---

(١) ديوانه : ٢—٩٩ . (٢) فى ط : جورکم .
(٣) فى الديوان : قنان وخالد . (٤) من م ، ا .

[وقال ابن المبارك[١] يمدح يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة :

وإذا تُباع كريمةٌ أو تُشْتَرى ... فسواكَ بائعُها وأنت المشترى

وإذا توعَّرت المسالكُ لم يكن ... فيها السبيلُ إلى نداك بأَوْعَر

وإذا صنعت صنيعةً أتممتها ... بيدَيْن ليس نداهما بمُكدَّر

وإذا هممت لمُعْتَفيك بنائل ... قال الندى ـ فأطعتَه ـ لك : أَكْثِرِ

يا واحدَ العرب الذى ما إنْ لهم ... من معدَل[٢] عنه ولا من مقصَر]

[من رسائل البديع]

كتب البديع أبو عبد الله[٣] أحمد بن الحسين بن يحيى ؛ أما أبو فلان فلا شكّ أنّ كتابى يَرِدُ منه على صَدْرٍ مَحَا اسْمِى من صحيفته، وقطع حَظِّى من وظيفته، ونَسِى اجتماعنا على الحديث والغزل ، وتصرفنا فى الجِدّ والهَزْل ، وتقلّبنا فى أعطاف العيش بين الوقار والطَيْش ، وارتضاعنا ثَدْىَ المشرة ؛ إذ الزمان رقيقُ القشرة ، وتواعُدنا أن يلحق أحدُنا بصاحبه ، وتصافحنا من قبل ألاّ نصرم الحبل ، وتعاهدنا من بعد ألاّ ننقض العهد ، وكأنى به وقد اتّخذ إخوانا فلا بأس ، فإن كان للجديد لذة فللقديم حُرْمة ، والأخوَّة بُرْدَة لا تضيق بين اثنين ، ولو شاء لعاشرنا فى البَيْن ، وكان سألنى أن أرتاد له منزلا ماؤه رَوِىّ ، ومرعاه غَذِى ، وأكاتبه ليُنْهِض إليه راحلته ؛ فهاك نيسابور ضالّته التى نشدتها وقد وجَدْتُها ، وخراسان أُمنيته التى طلبتُها وقد أصبْتُها، وهذه الدولة بغيته التى أرادها وقد وردتُها ، فإن صدّقنى رائداً فليأْتِنى قاصداً .

وله إلى بعض إخوانه يعزيه عن أبيه : وصلَتْ رقعتك ياسيدى والمصاب لعمر الله كبير ، وأنتَ بالجزَع جدير ، ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبرُ عن الأحبّة رشد كأنه الغىّ ، وقد مات الميت فليَحْىَ الحىّ ، والآن فاشدُدْ على مالك بالخمس ، فأنتَ اليوم

---

(١) فى ا : قال المولى، وليس هذا كله فى م . (٢) فى ا : من مذهب .

(٣) فى ا : إلى أبى عبد الله الحسين بن يحيى .

غيرُكَ بالأمس ، وكان الشيخُ رحمه الله وكيلك، تَضْحَك(١) ويبكى لك ، وقد موّلك ماألِّف فى مسراه وسيره(٢)، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجُم الشيطان عودَك، فإن استلانك رماك بقوم يقولون: خيرُ المال ما أُتلف بين الشراب والشباب، وأُنفق بين الحَبَاب والأحباب ، والعيشُ بين القِدَاح والأقداح ، ولولا الاستمال ، ماأُريد المال ! فإن أطعتهم فاليومَ فى الشراب ، وغداً فى الخراب ، واليوم وَاطَرباَ للكَاس ، وغداً واحَرَباَ من الإفلاس، يامولاى ذلك الخارجُ من العود يسمِّيه الجاهل نَقْراً ، ويُسمِّيه العاقل فقْرا . وكذلك المسموع فى الناى ، هو فى الآذان زَمْرٌ ، وفى الأبواب سَمْرٌ ، فإن لم يجد الشيطان مغمزاً فى عودِك من هذا الوجه ، رَماك بقوم يمثّلون الفقرَ حِذَاء عينيك ، فتجاهد قَلْبَك ، وتحاسب بَطْنَك ، وتناقش عِرْسك ، وتمْنَع نفسَك ، وتتوقّى دنياك بوزرك(٣) ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غَيْرِك ، لا ، ولكن قَصْداً بين الطريقين، وميلا عن الفريقين ، لا مَنْع ولا إسراف، والبخل فقْرٌ حاضر ، وضرٌّ عاجل ، وإنما يبخلُ المرء خيفة ما هو فيه .

ومن ينفق الساعاتِ فى جمع ماله مخافةَ فقْرٍ فالذى صنع الفقْرُ

وليكن لِلّه فى مالك قسم ، وللمروءة قسم ؛ فصِل الرَّحم ما استطعت ، وقدّر إذا قطعت ، فلأَنْ تكون فى جانب التقدير ، خيرٌ من أن تكونَ فى جانب التبذير .

وله إلى رئيس عناية برجل(٤) : كتابى أطال الله بقاء الرئيس ، والكاتب مجهول ، والكتاب فضول ، وبحسب الرأى مَوْقعه ، فإنْ كان جميلا فهو تَطَوُّل ، وإن كان شَيْناً فهو تقوُّل ، وأيةً سلك الظنّ فله — أيّده الله تعالى — المنّ، من نيسابور

وله إلى رئيس

(١) فى م : يضحكك . (٢) فى م : ماألف من سراه .
(٣) فى م : وتتوخى دنياك بوزرك . (٤) الرسائل : ١٤٥ .

عن سلامةٍ شاملة نسألُ الله تعالى ألاَّ يُلهينا بسكرها عن شُكرِها ، والحمد لله رب العالمين . يقول الشيخ ـ أيّده الله تعالى : مَنْ هذا الرجل ؟ وما هذا الكتاب ؟ فأمّا الرجلُ فخاطِبُ وُدٍّ أولاً ، وموصل شكرٍ ثانيا ؛ وأما الكتابُ فلِحام أرحام الكرام ؛ فإن يُعِن اللهُ الكِرامَ تتَّصِل الأرحام. هذا الشريفُ قد حاربَه زمانُ السوء ؛ فأخرجه من البيت الذى بلغ السماءَ مفخَرا ، ثم طلب فوقه مَظْهَرا ؛ وله بعدُ جلالةُ النسب ، وطهارةُ الأخلاق ، وكرمُ العَهْد ، وحضرنى فسألته عما وراءه ، فأشار إلى ضَالَّةِ الأحرار ، وهو الكرم مع اليسار ، ونَبَّه على قَيد الكرام ، وهو البِشْر مع الإنعام ، وحدَّث عن بَرْدِ الأكباد ، وهو مساعدة الزمان للجَوَادِ ، ودلَّ على نزهة الأبصار ، وهو الثَّرَاء ، ومُتْعَة الأسماع ، وهو الثناء ، وقلّما اجتمعا ، وعَزَّ ما وُجِدَا معا . وذكر أنّ الشيخَ الرئيس ـ أيده الله ـ جِماعُ هذه الخيرات ، وسألنى الشهادةَ له وَبَذْلَ الخط بها ، ففعلت ، وسألتُ الله إعانته على هِمَّته ؛ فرأىُ الشيخ ـ أيده الله تعالى فى الوقوف على ما كتبت ، وفى الإجابة إن نشط ـ الموفَّق إن شاء الله .

ولە إلى ابن أخيه

وله إلى ابن أخيه[1] : وصل كِتابُك بما ضمّنته من تَظَاهُرِ نعم الله عليك ، وعلى أبويك ، فسكنت إلى ذلك من حالك ، وسألتُ اللهَ بقاءك ، وأن يرزقنى لقاءك ، وذكرت مصابك بأخيك، رحمه الله تعالى، فكأنما فتتَّ عَضُدى، وطعَنْتَ فى كبدى، فقد كنت معتضداً بمكانه ، والقدرُ جارٍ لشانه ، وكذلك المرءُ يدبّر ، والقضاء يدمّر ، والآمال تنقسم ، والآجال تبْتسم ، فاللهُ يجعله لك فَرطاً ، ولا يُرِينى فيك سُوءًا أبداً ، وأنت إن شاء الله تعالى وارثُ عمره ، وسداد ثَغْرِه ، ونِعْمَ العِوَضُ بقاؤك .

إنَّ الأشاءَ إذا أصاب مُشَذِّبا ⁂ منه اتمهل ذُرًا وأَثَّ أسافِلا

وأبوك سيدى أيده الله تعالى وألهمه الجميل ، وهو الصبر ، وأناله الجزيل ، وهو الأجر ، وأَمْتَعه بك طويلا ، فما سُؤْتَ بديلا ، وأنت ولدى ما دمت والعلمُ شانك ، والمدرسةُ مكانك ، والدفتر نديمك ، وإن قصَّرت ، ولا إخالك ، فغيرى خالُك .

---

(١) الرسائل : ١٥١

ومنه إلى أبى القاسم الداودى

وله من كتاب إلى أبى القاسم الداودى بسجستان :

كتابى ــ أطال اللهُ بقاء الفقيه ــ كتابُ مَنْ ينسى الأيام وتذكره ، ويطويها وتنشُره ، ويبيد أبناء دهره وراء ظهره ، ويخرج أهل زمانه ، من ضمانه ، فإذا تناولهم بيُمناه ، وتسلَّمهم بيسراه أقسم أن صَفْقَتَه هى الرابحة ، وكفّته هى الراجحة ، وأنا ــ أيد الله الفقيه ــ على قُرْب العهد بالمَهْد ، قد قطعت عَرْضَ الأرض ، وعاشرت أجناس الناس ، فما أحدٌ إلا بالجهل اتبعته ، وبالخبرة بِعْتُه ، وبالظن أخذته ، وباليقين نَبَذْتُه ، وما حَمْدٌ وضعتُه فى أحد إلّا ضيَّعته ، ولا مَدْحٌ صرَفْتُه إلى أحد إلّا غربته ، ومن احتاج إلى الناس ، وزَنَهم بالقِسْطَاسِ ، ومن طاف نصف الشرق ، فقد لقى رُبعَ الخلق ، ومن لم يجد فى النِّصْف لَمْحَةً دالّة ، لم يجد فى الكل غرّةً لائحة ، وكان لنا صديقٌ يقول : إن عشت تسعين عاماً مت ولم أَملك دينارا ، لأنى قد عشت ثلاثين ولم أَملك ثلثها ، وهذا لعمرى ياس ، يُوجبه قياس ، وقنوط ، بالحجة مَنُوط ، ودُعَابة ستكون جدًّا ، ووراء هذه الجملة مَوْجدَة على قوم ، وعَرْبَدَةٌ إلى يوم ، والأمير السيد واسعُ مجال الهمم ، ثابتُ مكان القَدَم ، وأنا فى كَنَفه صائبُ سَهْمِ الأمل ، وَافِرُ جناح الجذل ، والحمد لله على ما يُوليه ، ويُولِينا مَعْشَر مواليه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وذرِّيته .

ومنه إلى إبراهيم بن حمزة

وله إلى إبراهيم بن حمزة خادم الأستاذ الجليل : قد أتبع قدمَه إلى الخِدْمَة قلَمه ، وأتلى لسانَه فى الحاجة بنَانَه ، وقد كان استأذنه فى توقير هــذا اليوم فى مجلس السيد الجليل فأَذِنَ له على عادته السليمة ، وشيمَتِه القويمة ، ومن وَجد كَلَأً رَتَع ، ومن صادف غيثاً انتَجَع ، ومن احتاج للحاجات سَأَل ، وبَقِى أن يشفع الأستاذ الجليــل بإزاء الحوض عُقْرَهُ ، وينظم إلى رَوْضِ الإحسان مطره ، ويطرّز أُنْسَنَا بأبى فلان ؛ فقد وُصِفَ لى حتى حننت شوقاً إليه ، ووَجْداً به ، وشَغَفاً له ، وغُلُوًّا فيــه ، ورأيه فى الإصغاء إلى الـكرم عال ، إن شاء الله تعالى .

[من المقامات]

المقـامة السجستانية

ومن إنشائه فى مقامات أبى الفتح السكندرى[١] : حدّثنا عيسى بن هشام قال : حدانى إلى سجستان أَرَب ، فاقتعدت طِيَّتَه ، وامتطيتُ مَطِيَّتَه، واستخرْتُ اللّٰه تعالى فى العَزْمِ حدوته[٢] أمامى ، والحزم جعلته قدامى[٣] ، حتى هدانى إليها ، ووافيت دُروبَها ، وقد وافت الشمس غُروبَها، واتفق المبيتُ حيثُ انتهيت ؛ ولما انتِضى نَصْلُ الصباح ، وبرز جَبِينُ المصباح[٤] ، مضيتُ إلى السوق أَتّخذ منزلا ، فحيث انتهيتُ من دائرة البلد إلى نُقْطتها ، ومن قلادةِ السوقِ إلى واسِطتها ، خَرقَ سَمْعِى صوتٌ له من كلِّ عِرقٍ معنى ، فانتحيتُ وَفْدَه ، حتى وقفتُ عنده ؛ فإذا رجلٌ على فرسه مختنق بنَفَسِه ، قد ولّانى قَذالَه وهو يقول : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرِّفُه بنفسى ، أنَا باكورةُ اليمن ، أنا أُحدوثة الزمن ، أنا أُدْعِيَّة الرجال ، وأُحجِيَّة رباتِ الحِجَال ، سلُوا عنى الجبـال وحُزونَها ، والبحار وعيونَها ، والخيلَ ومتونَها ، مَنِ الذى ملك أسوارها ، وعرف أسرارها ، ونهج سَمْتَها ، وولج حَرَّتَها ؟ وسلوا الملوكَ وخزائنها ، والأغلاق ومعادِنَها ، والعلوم وبواطنَها[٥] ، والخطوبَ ومَغَالِقها ، والحروبَ ومضايِقها ، مَن الذى أخذ مختزَنها ، ولم يؤدّ ثمنَها ؟ ومن الذى ملك مفاتِحها ، وعرف مصالحها ؟ أنا والله فعلتُ ذلك ، وسفَرتُ بين الملوكِ الصِّيد ، وكشفت أستارَ الخطوب السُّود . أنا والله شهدت حتى مصارِعَ العُشّاق ، ومرِضتُ حتى لِمرَضِ الأحداق ، وهصَرْتُ الغصونَ الناعمات ، وجنَيْت جنى[٦] الخدود الموَرَّدَات ، ونفَرْتُ عن الدنيات نفورَ طَبْع الـكريم عن وجوه اللئام ، ونبوْتُ عن المحرمات[٧] نبوَّ سمع الشريفِ عن قبيح الـكلام ، والآن لما أسفرَ صُبْحُ المشيب ،

---

(١) المقامات : ٢٢ . (٢) فى المقامات : جعلته . (٣) فى المقامات : إمامى .
(٤) الشمس . (٥) فى المقامات : ومواطنها . (٦) فى المقامات : ورد .
(٧) فى المقامات : المخزيات.

وعَلَتْنى أُبَّهَة الكِبَر عَمدْتُ لإصلاح أمْرِ المعادِ ، بإعداد الزَّاد ، فلم أرَ طريقاً أهدى إلى الرشاد مما أنا سالِكُه ؛ يَرانى أحدُكم راكب فرس وهَوَس[(١)] ، فيقول : هذا أبو العجَب ، لا ، ولكنى أبو العجائب ، عايَنْتُها وعانَيْتُها ، وأمُّ الكبائر قايَسْتُها وقاسَيْتُها ، وأخو الأغلاق ، صَعْبًا أخذتُها ، وهوناً أضعتُها ، وغالياً اشتريتُها ، ورخيصاً بِعتُها ؛ فقد والله صحِبْتُ لها المواكب ، وزاحَمْتُ المناكِبَ ، ورعَيت الكواكبَ ، وأنضَيْتُ الركائب[(٢)] ، ولا منّ عليكم ، فما حصلتها إلا لأمرى ، ولا أعددتها إلّا لنفسى ، لكنى دُفِعْتُ إلى مكاره نَذَرْتُ معها ألّا أدخِرَ عن المسلمين نَفْعَها ، ولابدّ لى أن أخلع رِبْقَة هذه الأمانة من عُنقى إلى أعناقكم ، وأعرِضَ دوائى هذا فى أسواقكم ، فليشْتَرِه منى من لايتقزّزُ من موقف العبيد ، ولا يأنفُ من كلمةِ التوحيد ، وليَصُنْه من أنجبَتْ جدودُه ، وسُقِى بالماء الطاهر عودُه .

قال عيسى بن هشام : فدُرت إلى وجهه لأعلم عِلْمَه ، فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، وانتظرت إجفالَ النعامة[(٣)] بين يديه ، ثم تعرّضت فقلت : كم يُحِلّ دواءك هذا ؟ قال : يُحِلُّ الكيسُ ما مست الحاجةُ[(٤)] ؛ فانصرفت وتركته .

المقامة القرديه

ومن إنشائه فى هذا الباب[(٥)] : حدّثنا عيسى بن هشام قال: بينا أنا بمدينة السلام قافلا من البيت الحرام ، أَمِيس مَيْس الرِّجْلَة[(٦)] ، على شاطىء الدّجلة ، أتأمّل تلك الطرائف، وأتقصَّى تلك الزخارف ، إذ انتهيت إلى حَلْقة رجال مزدحمين ، يَلْوِى الطَّرَبُ أعناقهم ، ويشقّ الضحِك أشداقهم ، فساقنى الحِرْصُ إلى ما ساقهم ، حتّى وقفْتُ بمَسْمَعِ صوتِ رجل دون مَرْأًى وجهه ، لشدّة الهَجْمَة ، وفَرْطِ الزّحمة ، وإذا هو قرّاد يُرْقِص قردَه ، ويُضْحِك مَنْ عنده ، فرقصت رَقْص المحرج ، وسرت سيرَ

---

(١) فى المقامات : راكب فرس ناثر هوس ، وفى ط : راكب شرس .
(٢) فى المقامات : المراكب . (٣) فى ط : العامة .
(٤) فى المقامات : ما شئت ، أى أن المال يجعل كل شىء حلالا . (٥) المقامات : ١٠٤ .
(٦) أميس : أتبختر ، والرجلة: نوع من البقل .

الأعْرج ، فوق أعناق الناس ، يلفِظنى عا تِقٌ هـذا لِسُرَّة ذاك ، حتى افترشت لِحْية رجلين ، وقعدت بين اثنين[١] ، وقد أشرقَنى الخجل برِيقه ، وأَرهقنى المـكانُ لضيقه، فلما فرغَ القرَّادُ من شُغْله ، وانتفض المجلس عن أهله ، قمت وقد كسانى الرِّيب[٢] حُلَّته ، ووقفت لأرى صورتَه ، فإذا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلت : ما هذه الدناءة ؟ ويحك ! فقال :

الذنبُ للأيام لَا لِى فاعْتَبْ على صَرْفِ اللَّيالِى
بالحُمْقِ أدركْتُ المُنَى ورفَلْتُ فى ثَوْبِ الجمالِ

المقـامة الأصفهانية

ومن إنشائه فى هذا الباب أيضاً[٣] : حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بأصفهان أعتزِم المسيرَ إلى الرَّىّ ، فحللتها حلولَ الفَىّ، أتوقَّع النُّقْلَة[٤] كل لَمْحة ، وأترقّب الرِّحْلة كلّ صَبْحَة ؛ فلما حُمَّ ما توقَّعته ، وأزِف ما ترقَّبته ، نُودِى للصلاة نداءً سمعتُه ، وتعيّن فَرضُ الإجابة ؛ فانسللْتُ من بين الصحابة ، أغتنم الجماعة أُدْرِكها ، وأخشى فواتَ القافلة أتركها ، لـكنى استعنتُ ببركة الصـلاة على وَعْثاء الفَلاة ؛ فصِرْتُ إلى أول الصفوف ، ومَثَلْتُ للوقوف ، وتقدّم الإمام للمِحْرَاب ، وقرأ فاتحةَ الـكتاب، [وثَنّى بالأحزاب][٥] ، بقراءة حمزة ، مَدّةً وهمزة ، وأتبع الفاتحة بالواقعة ، وأنا أتصلَّى بنار الصبر وأتصلَّب ، وأتقلَّى على جمر الغيظ وأتقلَّب ، وليس إلا السكوت والصبر ، أو الـكلامُ والقبر ، لِماَ عرفت من خشونة القوم فى ذلك المقام ، أنْ لو قطعتُ الصلاة دون السلام ، فوقفتُ بقَدَمِ الضرورة على تلك الصورة ، إلى انتهاء السورة ، وقد قَنِطْت من القافلة ، ويَئِسْتُ من الراحلة ، ثم حنى قَوْسَه للركوع ، بنوعٍ من الخشوع ، وضربٍ من الخضوع ، لم أَعْهَدْه

---

(١) فى المقامات : بعد الأين . (٢) فى المقامات : الدهش . (٣) المقامات : ٥٧
(٤) فى المقامات : القافلة ، أى الراحلة . (٥) زيادة ليست فى المقامات .

قبل ذلك ، ثم رفع رأسه ويدَه ، وقال : سَمِعَ اللهُ لمن حمده، وقام ، حتى ماشككْتُ أنه نام ، ثم أكَبَّ لوجهه ، فرفعت رأسي أنْتهز فُرْصة ، فلم أَرَ بين الصفوف فُرْجة، فعُدْت للسجود ، حتى كبَّر للقعود ، وقام للركعة الثانية ، وقرأ الفاتحة والقارعةَ ، قراءةً استوْفَى فيها عُمْرَ الساعة ، واستغرق[1] أرواح الجماعة ، فلما فرَغ من ركعتيه ، مال للتحية بأَخْدَعَيْه ، فقلت : قد قَرُب الفرج ، وآن المخرج ، فقام رجل فقال : مَنْ كان منكم يحبُّ الصحابة والجماعة، فليُعِرْني سَمْعَه ساعة . قال عيسى بن هشام : فلزِمْتُ أَرضى ، صيانةً لعرضى ، فقال : حقيق علىّ ألاّ أقولَ على اللهِ إلا الحق ، قد جئتكم ببشارة من نبيّكم ، لكنى لا أُؤَدِّيها حتى يطهِّرَ اللهُ هذا المسجد من نَذْلٍ جحد نبُوّته ، وعادَى أُمَّته .

قال عيسى بن هشام : فربَطنى بالقيود ، وشدَّنى بالحبال السُّود ، ثم قال : رأيتُه صلى الله عليه وسلم [فى المنام][2] كالشمس تحت الغمام ، والبدر ليلة التّمام، يسيرُ والنجمُ يَتْبَعه ، ويسحبُ الذَّيْل والملائكة ترْفَعُه ، ثم علَّمنى دعاءً ، وأوصانى أن أُعلِّم ذلك أمَّتَه ، وقد كتبتُه فى هذه الأوراق بخَلوق ومسك ، وزعفران وسُكّ[3]؛ فمن استوهَبَه منى وهبْتُه ، ومن أعطَى ثمنَ القِرْطَاس أخذته .

قال عيسى بن هشام : فانثَالَتْ عليه الدراهم ، حتى حيَّرَتْه ؛ ونظرت فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلت : كيف اهتديت إلى هذه الحيلة ؟ ومتى اندرجت فى هذه القبيلة ؟ فأنشأ يقول :

الناسُ حُمر فجَوِّز وابرزْ عليهم وبرِّز
حتى إذا نِلْتَ منهُمْ ما تشتهيه ففَرْوِزْ[4]

---

(١) فى المقامات : واستنزف . (٢) من المقامات . (٣) السك : ضرب من الطيب .
(٤) فروز : مات ، أى فارق ولو بالموت .

[جارية ذات أدب وجمال]

وصفت لعبد الملك بن مروان جاريةٌ لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومه فى ابتياعها، فامتنع وامتنعت ، وقالت : لا أحتاجُ للخلافة ولا أرغبُ فى الخليفة، والذى أنا فى ملكه أحبُّ إلىَّ من الأرض ومن فيها . فبلغ ذلك عبد الملك فأغراه بها ؛ فأضعف الثمن لصاحبها وأخذها قسْرا، فما أعجب بشىء إعجابه بها، فلما وصلت إليه وصارت فى يديه أمرها بلزوم مَجْلِسه ، والقيامِ على رأسه ؛ فبينما هى عنده ، ومعه ابناهُ الوليد وسليمان ، قد أخلاهما للمذاكرة ، فأقبل عليهما فقال : أىُّ بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال الوليد : قول جرير فيك(١) :

أَلستُم خَيْرَ من رَكِبَ المَطايا ... وأَندَى العالمينَ بُطُونَ راحِ

وقال سليمان : بل قول الأخطل(٢) :

شُمْسُ العداوة حتى يُستقادَ لهم ... وأَعظمُ الناسِ أحلاماً إِذَا قَدَرُوا

فقالت الجارية : بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت(٣) :

يُغشَوْن حتى ما تَهِرّ كلابُهُمْ ... لا يُسْأَلون عن السَّوادِ المُقْبِلِ

فأطرق ، ثم قال : أى بيت قالته العرب أرَقّ ؟ فقال الوليد : قولُ جرير(٤) :

إنّ العيونَ التى فى طرْفِها حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِين قَتْلَانا

فقال سليمان : بل قولُ عمر بن أبى ربيعة :

حبَّذا رَجْعُها يديها إليها ... من يدىْ دِرْعِها تحلُّ الإزَارا

فقالت الجارية : بل بيت يقوله حسان :

لو يَدبّ الحولىّ من ولد الذرّ عليها ... لَأَنْدَبَتْهَا الكُلومُ

---

(١) الشعراء : ٤٣٩ . (٢) الشعراء : ٤٧٠ . (٣) الشعراء : ٢٦٥ .

(٤) الشعراء : ١٢ .

فأطرق ثم قال : أى بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد : قول عنترة :

إذْ يتَّقون بىَ الأسنَّةَ لم أخِم عنها ولو أنى تَضايَق مقدمى

فقال سليمان : بل قوله[1] :

وأنا المنيةُ فى المواطن كلِّها فالموتُ منى سابق الآجالِ

فقالت الجارية : بل بيت يقوله كعب بن مالك[2] :

نَصِلُ السيوف إذا قَصُرنَ بخطونا قُدُماً ونلحقها إذا لم تلحقِ

فقال عبد الملك : أحسنْتِ ، وما نرى شيئاً فى الإحسان إليك أبلغ من رَدِّكِ إلى أهلك . فأجمل كسوتها ، وأحسن صلتها ، وردَّها إلى أهلها .

***

من النقد

ومثل قول كعب بن مالك قول نَهْشَل بن حَرِّىّ[3] :

إنا بنى نَهْشَل لا ندَّعى لأبٍ عنهُ ولا هو بالأبناء يَشْرينا

إن تُبْتَدر غايةٌ يوما لمكرمةٍ تَلْقَ السوابقَ منَّا والمُصَلِّينَا

إنَّا لَمِنْ معشر أفْنَى أوائِلهم قولُ الكماةِ ألا أيْنَ المحامونا

لو كان فى الألف منا واحدٌ فدَعَوا مَنْ فارسٌ خالَهم إياه يَعْنُونا

إذا الكُماة تأبّوا[4] أن ينالهمُ حدُّ السيوفِ وصلناها بأيدينا

إنما أردت هذا البيت .

وقوله : * لو كان فى الألف منا واحد * أخذه من قول طرفة بن العبد[5] :

إذا القوم قالوا مَن فتًى خِلْتُ أننى عُنِيتُ فلم أكْسَلْ ولم أتبلَّدِ

نهشل بن حرى

وكان نهشل شاعرا ظريفا ، وهو نَهْشَل بن حَرِّىّ بن ضَمْرَة بن جابر بن قَطَن ابن نَهْشَل بن دارم ، وكان اسم جده ضمرة هـذا : شِقّةَ ، ورد على النعمان بن المنذر

---

(١) الشعراء : ٢٠٩ . (٢) الشعراء : ٢٧٩ ، ونسبه إلى ربيعة بن مقروم وهو فى الخزانة : ٣ — ٢٢ ، والحماسة ١ — ١٠٦ منسوب إلى كعب بن مالك .

(٣) الشعراء : ٦٢٠ ، والحماسة ١ — ٩٧ ، اللآلىء : ٢٣٥ وفى ط : بن جرى .

(٤) فى الحماسة : تنحوا أن يصيبهم حد الظباة . (٥) الحماسة : ١ — ١٠٥ ، اللسان — كمى .

فقال : من أنت ؟ فقال : أنا شِقّة ، وكان قضيفاً[١] نحيفاً دميماً ، فقال له النعمان : تَسْمَعُ بالمعيدىّ لا أن تراه ، والمُعَيْدِى تصغير المعدى ، فذهبت مثلا ، فقال : أبيتَ اللعنَ ! إن الرجال لا تُكال بالقُفزان ، وليست بمُسُوك يُستَقَى بها من الغُدْرَان ، وإنما المرءُ بأصغرَيْه قلبه ولسانه ، إذا نطق نطق ببيان ، وإذا قاتل قاتل بجَنَانٍ ، فقال : أنت ضَمْرة ! ونهشل هو القائل[٢] :

ويومٍ كأنَّ المُصْطَلِين بِحَرِّهِ ... وإن لم يكن جمرٌ قيام على الجمر

أقمنا به حتى تجلَّى وإنما ... تُفرَّج أيامُ الكريهة بالصَّبْرِ

[أثر الشعر]

وكان عبدُ الملك يقول : يا بنى أمية ، أحسابُكم أعراضُكم ، لا تعرضوها على الجهال ، فإنّ الذمَّ باقٍ ما بقِىَ الدهر ؛ والله ما سرَّنى أنى هُجِيت ببيت الأعشى ، وإن لى طلاعَ الأرض ذَهَباً[٣] ، وهو قوله فى عَلْقمة بن علاثة :

يبيتون فى المشْتَى مِلاءً بطونهم ... وجاراتُهم غَرْثَى يَبِتْنَ خمائصا

والله ما يُبَالى من مُدح بهذين البيتين ألّا يُمدح بغيرها وهما قول زهير[٤] :

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا[٥] المالَ يخبلوا ... وإن يُسْأَلُوا يعطوا وإن يَيْسَروا يُغْلُوا

على مُكْثِريهم حَقٌّ من يَعْتَريهمُ ... وعند المقلِّينَ السماحةُ والبَذْلُ

وقال ابنُ الأعرابى : أمدحُ بيتٍ قاله المحدثون قول أبى نواس[٦] :

أخذتُ بحَبْلٍ من حبال محمدٍ ... أَمِنْتُ به من طارقِ الحَدَثانِ

[٧][تغطيت من دهرى بظل جناحه ... فعينى ترى دهرى وليس يرانى

فلو تسأل الأيامُ عنى ما دَرَتْ ... وأين مكانى ما عرفْنَ مكانى

(١) قضيفا : نحيفا . (٢) الشعراء : ٦١٩ . (٣) طلاع الأرض : ملؤها .

(٤) ديوانه : ١١٢ . (٥) الاستخبال : أن يستعير الرجل من الرجل إبلا فيشرب ألبانها وينتفع بأوبارها . (٦) الشعراء : ٨٠١ .

(٧) من هذا البيت إلى آخر الكتاب من ا ، م .

وهذا كقول أعرابى ذكر بعضُ الرواة أن مالك بن طوق كان جالساً فى بهو مطلّ على رحبته ومعه جلساؤه إذ أقبل أعرابى تخُبّ به ناقتُه فقال : إياى أراد ونحوى قصد ولعل عنده أدباً يُنتفع به . فأمر حاجبه بإدخاله فلما مثل بين يديه قال : ما أقدمك يا أعرابى ؟ قال : الأمل فى سَيْب الأمير والرجاء لنائله . قال: فهل قدّمت أمام رغبتك وسيلة ! قال : نعم . أربعة أبيات قلتها بظهر البرية ؛ فلما رأيت ما بباب الأمير من الأبّهة والجلالة استصغرتها. قال : فهل لك أن تنشدنا أبياتك ! ولك أربعةُ آلاف درهم؛ فإن كانت أبياتُك أحسن فقد ربحنا عليك، وإلا قد نلتَ مرادك وربحتَ علينا . قال: قد رضيت . فأنشده :

وما زلتُ أخشى الدهر حتى تعلقت ... يداى بمن لا يتقى الدهر صاحبه

فلما رآنى الدهر تحت جناحه ... رأى مرتقًى صعبا منيعا مطالبُهْ

وأنى بحيث النجمُ فى رأس باذخٍ ... تظل الورى أكنافُه وجوانبُهْ

فتى كسماء الغيث والناسُ حولَه ... إذا أجدبوا جادتْ عليهم سحائبُهْ

قال : قد ظفرنا بك يا أعرابى ، والله ما قيمتُها إلا عشرة آلاف درهم . قال : فإن لى صاحبا شاركته فيها ما أراه يرضى ببيعى . قال: أتُراك حدّثت نفسك بالنكث؟ قال : نعم . وجدتُ النكث فى البيع أيسرَ من خيانة الشريك . فأمر له بها .

[أنصف بيت وأصدق بيت]

وأنصفُ بيتٍ قالته العربُ قول حسان بن ثابت لأبى سفيان بن الحارث فى جوابه عما هجا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى محمد بن عمار عن أبيه قال : أنشد النبىّ حسانُ بن ثابت قوله :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

فقال النبىّ عليه السلام : جزاؤك الجنة يا حسّان .

فلما انتهى إلى قوله :

فإن أبى ووالده وعرضى ... لعِرْض محمد منكمْ وقاء

قال النبىّ عليه السلام : وقاك الله حرَّ النار .

فلما قال :

أتهجوه ولستَ له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

قال من حضر : هذا أنصفُ بيت قالته العرب .

وأصدق بيت قالته العرب وأمدحُه قول كعب بن زهير فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

تحمله الناقة الأدماء معتجرا ... بالبُرْدِ كالبدر جلَّى ليلة الظلّم

وفى عطافيه أو أثناء بردته ... ما يعلم الله من دين ومن كرم

قال الأصمعى : والجهال يروون هذا البيت لأبى دهبل واسمه وهبُ بن ربيعة فى عبد الله بن عبد الرحمن الأزرق والى اليمامة(١) . والصواب ما ذكرناه وهو بصفات النبىّ صلى الله عليه وسلم أعلق وبمدحه أليق .

ألفاظ لأهلِ العصر فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم

سليل أكرم نَبْعَة ، وقريع أشرف بقعة . جاب بأمته الظلمات إلى النور ، وأفاء عليهم بالظلّ بعد الحَرور . وهو خيرَة الله من خلقه ، وحجّته فى أرضه . الهادى إلى حقّه والمُنبه على حكمه . والداعى إلى رُشدِه ، والآخذُ بفرضه . مباركٌ مولده ، سعيد غرّتُه ، قاطعةٌ حجّتُه ، ساميةٌ درجتُه ، ساطع صباحُه ، متوقّد مصباحُه ، مظفَرَةٌ حروبُه ، ميسَّرةٌ خطوبُه ، قد أفردَ بالزعامة وحده ، وختِمَ بأن لا نبىّ بعده . يُفصَح بشِعاره على المنابر ، وبالصلاة عليه فى المحاضر ، وتعمر بذكره صدورُ المساجد، وتستوى فى الانقياد له حالة المقرّ والجاحد . آخر الأنبياء فى الدنيا عمرا ، وأولهم يوم القيامة ذكرا ، وأرجحهم عند الله ميزانا ، وأوضحهم حجّة وبرهانا . صدعَ بالرسالة ، وبلغ بالدلالة ، ونقل النـاس عن طاعة الشيطان الرجيم . أرسله الله قمراً للإسلام منيرا ،

---

(٢) فى ا : اليمن .

وقدراً على أهل الضلال مبيرا . صلى الله عليه وسلم ، خير من افتتحت بذكره الدعوات ، واستنجحت بالصلاة عليه الطلبات . خير مبعوث، وأفضل وارث وموروث . وخير مولود دعا إلى خير معبود . صلى الله على كاشف الغمّة عن الأمة. الناطق فيهم بالحكمة ، الصادع بالحق ، الداعي إلى الصدق ، الذى ملك هوادى الهدى ، ودلّ على ما هو خيرٌ وأبقى . صلى الله عليه بشير الرحمة والثواب ، ونذير السطوة والعِقاب . صلى الله على أتمّ بريته خيراً وفضلا، وأطيبهم فرعا وأصلا ، وأكرمهم عودا ونجارا ، وأعلاهم منصبا ونخارا ، وعلى أهله الذين عظّمهم توقيرا وطهّرهم تطهيرا . هم مقاليد السعادة ومفاتيحها ، ومعارجُ البركةِ ومصابيحُها . أعلام الإسلام وأيمان الإيمان . الطيبون الأخيار، الطاهرون الأبرار. الذين أذهب عنهم الأرجاس ، وجعل مودّتهم واجبةً على الناسِ . هم حَبْل الهدى وشجرة الإيمان ، أصلها نبوّة وفرعها مروّة ، وأغصانها تنزيل ، وورقاتُها تأويل ، وخدمها ميكال وجبريل .

ولبديع الزمان

ولبديع الزمان إلى بعض الأشراف فى درج كلام تقدّم :

إن جعلنا نَعُدّ نخاركم ونَحُدّ آثاركم نفِد الحصا قبل نفودِها ، وفنِيت الخواطرُ قبل أن تفنى المآثر ، ولم لا ، وإن ذُكِر الشرف فأنتم بنو نجدته ، أو العلم فأنتم عاقدو إزرته. أوالدين فأنتم ساكنو بلدته ، أوالجود فأنتم لابسو جلدته ، أوالتواضع صبرتم لشدّته ، أوالرأى صلتم بحدته ، وإنّ بيتاً تولى الله عز وجل بناءه، ومهّدَ الرسولُ عليه السلام فناءه ، وأقام الوصىّ رضوان الله عليه عمادَه ، وخدم جبريلُ عليه السلام أهله، لحقيق أن يُصانَ عن مدح لسانٍ قصير .

ولأعرابى

وذكر النبىّ صلى الله عليه وسلم أعرابىّ فقال : بأبى وأمى رسول رب العالمين، ختمت به الدنيا وفتحت به الآخرة صلى الله عليه وسلم ، به يبدأُ الذكرُ الجميلُ ويختم.

خاتمة الكتاب

إلى هذا المكان أمسكت العنان . والإطناب فى هذا الكتاب يعظم ويتّسع ، بل يتصل ولا ينقطع ، إذ كان غرضى فيه أن ألمح المعنى من معانيه ، ثم أنجرّ معه حيث انجرّ ، وأمرّ فيه كيف مرّ ، وآخذ فى معنى آخر غير موصول بشكله ، ولا

مقرون بمثله ، وقد أخل نظاما ، وأفرد تؤاما ، نشرًا لبساط الانبساط ، ورغبة فى استدعاء النشاط . وهـذا التصنيف لا تُدركُ غايتُه ، ولا تُبلغ نهايتُه ، إذ المعانى غير محصورة بعدد ، ولا مقصورة إلى أمد . وقد أبرزْتُ فى الصدر صفحةَ العُذْر ، يجولُ فِرندُها ، ويثقبُ زندها ، وذلك أنى ما ادّعيتُ فيما أتيتُ إلا ما يكون ما تركته أفضل مما أدركتُه ، وأنى لم أسلك مذهبا مخترعا لم أُسبَق إليه ، ولا قصدت غرضاً مبتدَعا لم أغلَبْ عليه ، ومن ركب مطيّة الاعتذار، واجتنب خطيّة الإصرار فقد خرج من تَبِعة التقصير ، وبرئ من عهدة المعاذير .

وأما بعد فإن أحقّ من احتُكِم إليه واقتصر عليه الاعترافُ بفضل الإنصاف ، وليعلم من يُنصِف أن الاختيارَ ليس يعلم ضرورة ، ولا يوقَف له على صورة ، فيكثر الإغماض ويقل الاعتراض ، ويعلم أنّ ما لا يقع بهواه قد يختاره سواه ، وكلٌّ يُعمل اقتدارَه ، ويحسن اختياره ، فلو وقع الاجتماع على ما يُرضِى ويُسخِط ويثبِتُ ويسقِط لارتفع حجاجُ المختلفين فى أمر الدنيا والدين .

وقال المتنبى[1] :

تخالف الناسُ حتى لا اتّفاق لهم ... إلا على شَجَب والخلف فى الشجَبِ

فقيـل تخلص نفسُ المرء سالمةً ... وقيل تشركُ جسم المرء فى العطب

الشجب : الموت ، وهى لفظة معروفة وإن كانت غير مألوفة عنـد أهل النقد . وقد أنكرها البحترى على عبيد الله بن عبدالله بن طاهر فى مجاذبته إيّاه حيث يقول[2] :

لو أنّ ذا الحكيم وازن فى الْ ... لَفظِ واختـار لم يقل شجبُه

وكان أبو الطيب نظر إلى ما رواه أبو طبيان[3] . قال : اجتمع نفرٌ من أهل الكلام على رجل من الملحدين ، فجعلوا لا يأتون بمسألة إلا سألهم الدليل عليها ، وناقضهم فيها ، فأعياهم كثرةُ ما يقول ويقولون . فقال بعضهم : أما بعد فإن الموت لا شكّ فيـه . فقال الملحد : ما رأيتُ خاطبا وواعظا وشاهدا لا يُردّ أوجز منه . وقلما ترى معنًى

(١) ديوانه : ١–٩٥ . (٢) ديوانه : ١–١٣٣ . (٣) فى م : ظبيان .

إلا وهو يدافَع أو يناقَض ويُحَارُ به عن سواءِ المحجّة . وقيل : من طلب عيباً وجده قال أبو عمرو بن سعيد القطْربلى : ليس من بيتٍ إلا وفيـه لطاعنٍ مطعن ، إلا قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهبُ العُرف بين الله والناس

وقول طرفة بن العبد :

ستُبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

وقول على بن زيد :

عن المرء لا تسَلْ وسَلْ عن قرينه فكل قرينٍ بالمقارنِ مقتد

وللعلم بذلك قال قتيبة بن مسلم لأبى عيّاشٍ المنتوق ، وقد دخل عليه وبين يديه سلّة زعفران : أنشدنى بيتاً لا يصارف ولا يكذَّب وهى لك ، فأنشده ما ليس لطاعن فيه مطعن :

فما حملت من ناقةٍ فوق كورها أبرَّ وأوفى ذمّةً من محمدِ

صلى الله عليه وسلم ورحم وكرّم وشرّف وعظّم ، وعلى آله الطيبين وسلم تسليما][1] .

---

(١) من صفحة ١٠٨٨ إلى هنا لم يكن فى النسخة المطبوعة (ط) وهو من م ، ا .

فى آخر : م

« تمّ السفر الرابع من كتاب « زهر الآداب » وبتمامه كمل الديوان . والحمد لله وحده وهو حسبي ونعم الوكيل. وكان تمامه فى شهر صفر سنة أربع وعشرين وخمسمائة » .

وفى آخر : ا

« كمل كتاب « زهر الآداب، وثمر الألباب » صنعة أبى إسحاق إبراهيم بن على الأنصارى ثم القيروانى ، وذلك فى غرة شعبان المكرم عام ثمانية وعشرين وستمائة » .

فهارس الكتاب

فهرس الموضوعات*

* ما وضع قبله هذه العلامة * من العناوين فهو من وضع المؤلف، وما عدا ذلك فهو من وضعنا .

الموضوع	الصفحة
* ومن كلام أهل العصر وغيرهم في هذا النحو	٦٧٥
وصف كاتبة وكاتب	٦٧٦
من أدب البديع وابن العميد	٦٧٧
من البديع إلى ابن العميد	٦٧٧
من مقامات البديع	٦٧٨
وصف فص وخاتم	٦٧٩
وصف خاتم	٦٨٠
البحترى يستهدى فصا	٦٨٠
الكلام والصمت	٦٨١
الحنين إلى الوطن	٦٨١
لأهل العصر فى ذكر الوطن	٦٨١
هجاء ابن الرومى لسليمان	٦٨٦
* ألفاظ لأهل العصر فى وصف الأمكنة والأزمنة	٦٨٧
* ولهم فى ضد ذلك	٦٨٧
* ولهم فى صفات الحصون والقلاع	٦٨٨
* ولهم فى صفات القصور والدور	٦٨٨
من رسائل الميكالى وشعره :	٦٨٩
منه إلى بعض اخوانه	٦٨٩
وله أيضا	٦٨٩
« »	٦٩٠
« فى التعزية	٦٩٠
من شعره فى تجنيس القوافى	٦٩١
وله فى وصف كتاب	٦٩٢
« يصف الشمع	٦٩٢
ولكشاجم يصف الشمع	٦٩٣
أبو الفضل الميكالى	٦٩٤
ابن أبى دواد :	٦٩٦
ابن أبى دواد والواثق	٦٩٦
تلطف ابن أبى دواد	٦٩٧
كثرة حوائجه	٦٩٧
بديهته	٦٩٨
* قطعة من شعر الأعراب في الغزل	٦٩٨
طيف الخيال	٧٠٠
حسن تخلص	٧٠٤
زهير وهرم	٧٠٥
شعر زهير	٧٠٥
فضل الشعر	٧٠٦
من أخبار أبى تمام	٧٠٨
استنجاد أعرابى	٧٠٨
معاوية بن يسار	٧٠٩
* ألفاظ لأهل العصر فى ذكر الاستطالة والكبر	٧١١
رسالة للبديع فى ذلك	٧١٥
وله فى وصف العلم	٧١٧
* ومن مفردات الأبيات فىالمعايب والمقابح	٧١٨
اللحن وتعلم العربية	٧١٩
الشوق والتفدية ووصف الحسان :	٧٢١
كتاب لغلام من ولد أنو شروان	٧٢١
الجواب عليه	٧٢١
لبعض الكتاب	٧٢٢
المتنبي	٧٢٢
لابن ثوابة	٧٢٢
لرجل من فزارة	٧٢٣
لأعرابى فى وصف الحسان	٧٢٤
العفاف	٧٢٦
* ألفاظ لأهل العصر فى محاسن النساء	٧٢٩

٢ ـ فهرس الأعلام والقبائل والأمكنة

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(خ)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

٣ ـ فهرس القوافى والشعراء

(بِ)

(رَ)

(رِ)

(لَ)

٤ — فهرس الكتب

الصناعتين لأبى هلال العسكرى
(الحلبى ١٣٧٢ هـ)
الطرائف الأدبية (التأليف ١٩٣٧ م)
العقد الفريد لابن عبد ربه
(لجنة التأليف ١٣٧٠ هـ)
العمدة لابن رشيق (السعادة ١٣٧٠هـ)
عيون الأخبار لابن قتيبة
(دار الكتب ١٩٢٥م)
فوات الوفيات (الطبعة الأميرية ١٢٨٣هـ)
القاموس المحيط للفيروزابادى
(الحسينية ١٣٣٠هـ)
الكامل للمبرد
(مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٥هـ)
اللآلئ لأبى عبيد البكرى
(التأليف ١٣٥٤هـ)
لسان العرب لابن منظور (بولاق ١٣٠٠هـ)
مجمع الأمثال للميدانى (البهية ١٣٤٢هـ)
المحاسن والمساوئ (طبع ليبزج)
المختار من شعر بشار
(مطبعة الاعتماد ١٣٥٣هـ)
مختارات البارودى
مختارات ابن الشجرى (الاعتماد ١٩٢٥م)
معاهد التنصيص (السعادة ١٣٦٧هـ)
معجم الأدباء لياقوت
(دار المأمون ١٣٢٣هـ)
معجم ما استعجم للبكرى (التأليف ١٣٧١هـ)
المفضليات للضبى (المعارف ١٣٦١هـ)
مقامات البديع
(المكتبة الأزهرية ١٩٢٣م)
مهذب الأغانى
الموشح للمرزبانى (السلفية ١٣٤٣هـ)
النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير
(العثمانية ١٣١١هـ)
نهاية الأرب للنويرى (دار الكتب ١٣٤٢ هـ)
وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٩٩ هـ
الوساطة بين المتنبى وخصومه
(الحلبى ١٩٤٥م)
يتيمة الدهر للثعالبى (الصاوى ١٣٥٢هـ)

تصحيح الأغلاط

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٤	١٦	عند المقفع	عند ابن المقفع
١٥٤	٥	أبا عُمَر	أبا عَمْرو
١٥٦	٥	أزد شير	أرد شير
١٦٣	١٣	أبو شَراعة	أبو شُراعة
١٧٨	١٥	أبو الفرج الببغا	أبو الفرج الببغاء
١٨٩	٢٣	والمهو	والبهو
٢١٦	١٣	ارتياح المتنبى (فى الجانبى)	ارتياح البحترى
٢٤٠	١٤	لأحبابيا	لأحبابنا
٢٤٠	١٦	دائر	داثر
٢٤٠	٢١	أبو نوَّاس	أبو نُوَاس
٢٧٠	٥	الناشى	الناشىء
٣٦١	١٧	الاقتراح	الإقتراح
٣٩٥	٣	تصطادَ	تصطادُ
٤٢١	٥	حجرٌ	حجرُ
٤٣٣	٨	بن جرار	بن جدار
٤٤٠	٩	صديق	صديقا
٤٤٨	١٧	لحائ	لحاء
٤٦٥	١٧	صفَّ	صفٍّ
٤٧٦	١٣	الحسين	الحسن
٥١٣	١٥	يعقوب	أبو يعقوب
٥١٩	٤	مُسَدٍّ من السدى	مسَدٌّ (من السداد)
٥٥٨	١٣	والعرحى	والعرجى
٧٢٣	٦	مسلمة عبد الله	مسلمة بن عبد الله
٧٢٣	١٤	الرجل (فى الجانبى)	لرجل
٧٥٢	١٤	يفحصْنَّ	يفحصنَ
٧٦٠	٦	يرفقه	يرققه
٧٦٢	٦	بَدَ	بَدَا
٧٩١	١٠	وابنه	وابن
٧٩٨	١٤	بقنْسرين	بقنّسرين
٨١٩	١٦	الرسمالة	الرسالة
٨٤٩	١٦	ريه	رأيه
٨٥٢	٢	ابن	بن
٩٤٠	٨	الضبابية (فى الجانبى)	المحاربية
٩٤٦	٩	قانوس	قابوس
٩٧٠	٩	من مقامات الإسكندرى	من مقامات البديع
٩٧٩	٧	العباس أحمد بن الأحنف	العباس بن الأحنف
٩٩٨	٤	عمرو	عمر
١٠٠١	٧	زبداً	زبدَا
١٠١٠	١٠	أبو الهيدام	أبو الهيذام